حِصْنُ السَّعادَةِ الحَصِين

فِي

صُحْبَةِ ورِفادَةِ الصَّالِحِين

الجُزْءُ الأَوَّل

د. سَعِيد أبو الأَسْعَاد

وَكُلُّ سَاعَةٍ لَهَا مِنْهُمْ فَتَىٰ

عَلَى مَقَامَاتِ الطَّرِيقِ قَدْ أَتَىٰ

تَفَرَّقُوا فِي الْكَوْنِ لِلْإِمْدَادِ

فَيُسْعِفُونَ طَالِبَ الْإِسْعَادِ



بطاقة فهرسة أثناء النشر
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أبو الأسعاد / سعيد

حصن السعادة الحصين في صحبة ورفادة الصالحين
سعيد أبو الأسعاد .
الجيزة : شركة الفتح للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠١٨ .
تدمك ٤٢٩ ٥٨٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الصلاة على النبي
٢ - الأدعية والأوراد
أ - العنوان ٢١٢

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر ولا يسمح بإعادة نشر هذا العمل كاملاً أو أي قسم من أقسامه بأي شكل من أشكال النشر إلا بإذن كتابي من الناشر



بسم الله الرحمن الرحيم

أُهْدِي هَذا الكِتاب

إِلَى كُلِّ مَنْ جاءَ ذِكْرُهُ فِيهِ مِنَ الأَوْلِياءِ والأَقْطاب

وإِلَى مَحْرُوسِ عَيْنِ عِنايَةِ السَّادَةِ الأَنْجاب

والسَّالِكِينَ دَرْبَهُمْ وإِلَى جُمْلَةِ الأَحْباب

وأَخُصُّ بِالذِّكْرِ أُسْتاذِي خالِدَ الذِّكْرِ مُؤَدِّبَ ومُهَذِّبَ الفِكْرِ

سَيِّدِي مُصْطَفَى بنَ كَمالِ الدِّينِ البَكْرِي

حَفِيدَ الصِّدِّيقِ الأَكْبَر سَيِّدِنا أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه

عِصْمَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ الأَذْخَر

سائِلًا المَوْلَى أَنْ يُمَتِّعَنِي بِمَعِيَّتِهِمْ بِجَمِيلِ المُسامَرَةِ والنَّظَر

تَحْتَ لِواءِ سَيِّدِ البَشَر صلى الله عليه وسلم

الرَّاجِي مَعِيَّةَ السَّعادَةِ والحُسْنَى وزِيادة

سَعِيدٌ أبو الأسْعَاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

وآلـــــه



والسَّالِكِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ مُهِمَّة

فِي التَّعَرُّفِ عَلَى الهُداةِ الأَئِمَّة

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ ﴾ (١)، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ (٢)، ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣).

الحَمْدُ للهِ الَّذِي اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَلَّا يُوصِلَ أَحَدًا إِلَى أَوْلِيائِهِ إِلَّا مَنْ أَرادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ .

والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى بَهْجَةِ الأَنْبِياءِ ومُهْجَةِ الأَوْلِياءِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ المَبْعُوثِ رَحْمَةً لِكافَّةِ الأَحْياءِ ، وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ الأَوْفِياءِ ، ثُمَّ أَمَّا بَعْدُ :

فالفَوْزُ كُلُّ الفَوْزِ لِمَنِ اجْتَازَ مَفَازَةَ نَفْسِهِ فَزَكَّاها بِصُحْبَةِ شَيْخٍ عارِفٍ مِنْ نَفْسٍ أَمَّارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَى لَوَّامَةٍ إِلَى مُلْهَمَةٍ إِلَى مُطْمَئِنَّةٍ إِلَى راضِيَةٍ إِلَى مَرْضِيَّةٍ إِلَى كامِلَةٍ بِسابِقَةِ الحُسْنَى مِنْ مَوْلاها ؛ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ .

فَصُحْبَةُ الأَوْلِياءِ العارِفِينَ هِيَ سَعادَةُ الدَّارَيْنِ وجَنَّةُ المَعارِفِ ، مَنْ أَظَلَّتْهُ فَقَدْ حازَ الفَضْلَ المُبِينَ .

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٩٧ . (٢) سُورَةُ الكَهْف : مِنَ الآيَة ١٧ . (٣) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ٦٩ .

ولَمَّا كانَ ما قَدَّرَهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ أَزَلًا كائِنًا فِي الأَكْوان ، وقَدْ أَظَلَّتْنا فِتَنُ آخِرِ الزَّمان ، لَزِمَ بيَانُ صِفَةِ أَوْلِياءِ العِرْفان ، فَمِمَّا لا يَخْفَى عَلَى عاقِل ، ولا يَعْزُبُ عَنْ لَبِيبٍ كامِل ، أَنَّ أَجَلَّ العِبادِ قَدْرًا ، وأَعْظَمَهُمْ فَضْلًا ، وأَرفَعَهُمْ ذِكْراً ، أَنْفَعُ عِبادِ اللّٰهِ لِعِبادِهِ ، وأَدْعاهُمْ إِلَى طَرِيقِ رَشادِهِ ، وأَجَلُّ هَؤُلاءِ نَفْعًا ، وأَحْسَنُهُمْ صُنْعًا ، دُعاةُ الخَلْقِ ومُرْشِدُوهُمْ إِلَى اللّٰه ، وهُداتُهُمْ إِلَى سَبِيلِهِ والعَمَلِ بِما فِيهِ رِضاه ، كَيْفَ لا وذَلِكَ دَأْبُ أَشْرَفِ الأَنام ﷺ ، والسَّادَةِ المُرْسَلِينَ الكِرام - عَلَيْهِمُ السَّلام ، فَقَدْ بَعَثَهُمُ اللّٰهُ تَعالَى بِذَلِكَ وبِهِ أَمَرَهُمْ ، وعَلَيْهِ حَرَّضَهُمْ وحَثَّهُمْ ، وعَلَيْهِ تَبِعَهُمْ مَنْ تَبِعَهُمْ ، واقْتَدَى بِهِمْ مَنْ وَرِثَهُمْ مِنَ العُلَماءِ العامِلِين ، والأَوْلِياءِ والصَّالِحِين .

ومِنَ المَعْلُومِ أَنَّ المُحَقَّقِينَ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ قَدِ انْقَرَضَ أَكْثَرُهُمْ ولَمْ يَبْقَ فِي زَمانِنا مِنْهُمْ إِلاَّ أَثَرُهُمْ ، كَما قِيلَ :

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ ❁ وَأَرَىٰ نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

ورَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الشَّيْخِ أَحْمَد الطَّاهِرِ الحامِدِي (١٣٣١هـ) فِي كَشْفِهِ الرَّبَّانِي عَنِ المَوْرِدِ الرَّحْمانِي حَيْثُ يَقُولُ : «إِنَّ الطَّرِيقَ الآنَ المُوصِلَةَ إِلَى الحَقِّ - سُبْحانَهُ وتَعالَى - صَعْبَةٌ عَزِيزَةٌ ؛ أَيْ : صَعْبَةٌ

الوُصُولِ عَزِيزَةُ الحُصُولِ ، لا يَهْتَدِي إِلَيْها إِلَّا مَنْ خَصَّهُ اللّٰهُ بِأَلْطافِهِ وأَمَدَّهُ بِإِسْعادِهِ وإِسْعافِهِ ، وذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ اللّٰهِ الصَّادِقِينَ لَمَّا نَظَرُوا إِلَى كَثْرَةِ أَهْلِ الكَذِبِ والبُهْتانِ ، وانْتِشارِهِمْ فِي جَمِيعِ البُلْدانِ ، وتَصَدِّيهِمْ للإِرْشادِ - عَلَى ما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ضُرُوبِ الفَسادِ - أَغْلَقُوا زَوَايا السُّلُوكِ ، وفَوَّضُوا الأَمْرَ إِلَى مَلِكِ المُلُوكِ ، فَصارَتْ خَفِيَّةَ الأَعْلامِ ؛ فَعَسُرَ العُثُورُ عَلَى أَهْلِها الكِرامِ ، فَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ العَلِيِّ العَظِيمِ (١) .

وقَدْ غَلَبَ الجَهْلُ واسْتَوْلَى عَلَى أَهْلِ هَذا الزَّمانِ ، وذَهَبَ بِهِمْ كُلَّ مَذْهَبٍ حَتَّى صارَ الكَثِيرُ مِنْهُمْ لا يَعْلَمُ ولا يَدْرِي بِالحَقِّ والدِّينِ ما هُوَ ، تَساهُلاً وتَشاغُلاً بِأُمُورِ الدُّنْيا واسْتِغْراقًا فِي جَمْعِها والتَّمَتُّعِ بِشَهَواتِها ؛ وفِي مِثْلِ هَؤُلاءِ يَقُولُ اللّٰهُ تَعالَى : ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ (١) ، فَصارَتْ تِلْكَ بَلِيَّةً عَظِيمَةً عَمَّ ضَرَرُها الجاهِلَ والعالِمَ ، والعامَّ والخاصّ .

بَلِ الأَدْهَى مِنْ ذَلِكَ والأَمَرُّ أَنْ تَرَى المُسْلِمِينَ يَنْصَرِفُونَ عَنْ تُراثِهِمْ ومَصْدَرِ عِزَّتِهِمْ ويُهَرْوِلُونَ وَراءَ نُظُمٍ تَرْبَوِيَّةٍ يَتَداعَى أَهْلُها للتَّخَلِّي

---

(١) سُورَةُ الرُّوم : الآيَة ٧ .

عَنْها، غافِلِينَ عَنْ ثِمارِ هَذا الاسْتِيرادِ والهَرْوَلَةِ ومُضاعَفاتِهِ فِي إِضْعافِ الأُمَّةِ ومَسْخِ هُوِيَّتِها ، وحِينَ يَتَلَقَّوْنَ نَتائِجَ هَذا الضَّلال ، فَإِنَّهُمْ يَتَلَقَّوْنَها كَما يَتَلَقَّى الكَلْبُ الَّذِي يَضْرِبُهُ الصَّبِيُّ بِالحَجَر ، فَيَهْجِمُ عَلَى الحَجَرِ بِالنِّباحِ والعَضِّ ، ظانًّا أَنَّ الحَجَرَ هُوَ الضَّارِبُ المَسْؤُولُ عَمَّا أَصابَهُ مِنْ أَلَمٍ وما حَلَّ بِهِ مِنْ أَذًى .

إِنَّ الاسْتِعْمارَ وقُوَى العُدْوانِ كُلَّها حِجارَةٌ يَضْرِبُ بِها اللّهُ سُبْحانَهُ الأَجْيالَ المُسْلِمَةَ اللّاهِيَةَ عَنْ دِينِهِ ، فَتُقابِلُ هَذِهِ الحِجارَةَ الإِلَهِيَّةَ بِالعَضِّ والصُّراخِ ، وتَنْسَى مُرادَ ضارِبِ الحَجَرِ سُبْحانَهُ وتَعالَى .

لَقَدْ آنَ لِلمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَدَبَّرُوا الكَوارِثَ الَّتِي حَلَّتْ - وما زالَتْ تَحِلُّ - بِهِمْ نَتِيجَةَ الغَفْلَةِ والإِدْبارِ عَنِ اللّهِ سُبْحانَهُ وأَنْ لا يَبْقَوْا كالصَّخْرَةِ فِي بابِ النَّبْعِ فَلا هِيَ تَشْرَبُ ولا تَدَعُ الماءَ يَخْرُجُ ويَسْقِي الآخَرِينَ ، فَلا هُمْ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ تُراثِ الإِسْلامِ ولا يُبَلِّغُونَهُ إِلَى النّاسِ لِيَهْتَدَوْا بِهِ ، تَماماً كَخَزائِنِ اللّهِ مِنَ البَتْرُولِ الَّذِي بَقِيَ آلافَ السِّنِينَ مَخْزُونًا تَحْتَ الأَرْضِ حَتَّى قَدِمَ الآخِرُونَ واسْتَخْرَجُوهُ غَيْرُ حامِدِينَ ولا شاكِرِينَ !! فَذاقُوا وما زالُوا يَذُوقُونَ وَبالَ أَمْرِهِمْ وانْقَلَبَ عَلَى الجَمِيعِ نِقْمَةً لا نِعْمَةً وعامِلَ شَقاءٍ لا عامِلَ هَناءٍ !!

ولَيْتَ المُسْلِمينَ المُعاصِرينَ يَسْتفيدُونَ مِنْ تَجْرِبَةِ الإِسْلام مَعَ المَغُولِ الَّذِينَ اجْتاحُوا العالَمَ الإِسْلامِيَّ ودَمَّرُوا كُلَّ ما وَجَدُوهُ فِي العِراقِ والشَّام ، ولَكِنَّ أَوْلِياءَ اللّٰهِ العارِفِينَ رَوَّضُوهُمْ ونَقَلُوهُمْ إِلَى الإِسْلام ثُمَّ وَجَّهُوهُمْ لِيُقِيمُوا دَوْلَةً إِسْلامِيَّةً فِي الهِنْدِ امْتَدَّتْ أَرْبَعَةَ قُرُونٍ حَتَّى قَضَى عَلَيْها الاسْتِعْمارُ البِرِيطانِي وقَسَّمَها إِلَى الهِنْدِ وباكِسْتان وبَنْغَلادِش وأَفَغانِسْتان الحالِيَّة .

وما أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالبارِحَة ... ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰه .

فَقَلَّمَا تَجِدُ مَنْ يُذَكِّرُ بِاللّٰه ، أَوْ يَنْهَى عَمَّا يُنْكِرُهُ الشَّرْعُ ويَأْباهُ ؛ لِضَعْفِ الهِمَّةِ عَنْ سُلُوكِ طَرِيقِ الهِدايَة ، وعُكُوفِ الأَفْئِدَةِ عَلَى عُبُورِ سَبِيلِ الغَوايَة ، ولِذا تَرَى ما تَرَى مِنْ تَفْتِيشِ أَكْثَرِ الوَرَىٰ عَلَى ما نَقَصَ مِنْ أَمْرِ دُنْياهُمْ ، لا عَلَى ما نَقَصَ مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ وأُخْراهُمْ ، ورُكُونِهِمْ إِلَى اتِّباعِ الشَّهَوات ، وقِلَّةِ المُبالاةِ بِتَعاطِي المَحْظُورات ، وبِالجُمْلَةِ فَقَدْ طُوِيَ بِساطُ التَّقْوَىٰ ، وارْتَحَلَ عَنِ القُلُوبِ احْتِرامُ الشَّرْعِ الأَقْوَىٰ ، وقَدْ عَمَّ البَلاء ، وغَلَبَ الشَّقاء ، حَتَّى صارَ الكَثِيرُ لا يَعْرِفُ ما هُوَ الحَقُّ ؟ وما هُوَ الإِيمانُ ؟ وما هِيَ الآخِرَةُ ؟ وما هُوَ المَصِيرُ إِلَى المَلِكِ الدَّيَّان ؟ ومَنْ عَرَفَ ذَلِكَ طَرَحَهُ فِي زَوايا الإِهْمال ، واشْتَغَلَ بِالحُظُوظِ الفانِيَةِ

وتَحْصِيلِ الشَّهَواتِ وجَمْعِ الأَمْوال ، وإِنْ دَعوا وعَمِلُوا فَلِغاياتٍ دُنْيَوِيَّة ، وأَغْراضٍ زائِلَةٍ وأَغْراضٍ نَفْسِيَّة ، والمَوْلَى عَزَّ وجَلَّ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ونَجْواهُمْ ، وهُوَ مَعَهُمْ أَيْنَما كانُوا يَسْمَعُهُمْ ويَراهُمْ ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمِ الغَضَبِ الشَّدِيد ، الَّذِي يَشِيبُ مِنْ هَوْلِهِ الوَلِيد ، وإِنَّهُمْ إِذْ ذاكَ مَسْؤُولُون ، وعَلَى ما قَدَّمُوا مِنْ أَعْمالِهِمْ مُحاسَبُون : ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (١).

ولَمَّا طالَ الابْتِلاءُ فِيما نَحْنُ فِيهِ مِنَ الأَيَّام ، بِما ذَكَّرْنا بِبَعْضِهِ مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى ضَعْفِ شَوْكَةِ الإِسْلام ، وَجَبَ التَّذْكِيرُ بِمَنْ يَكُونُ فِي مَعِيَّتِهِمْ نَجاةُ الأَنام .

فَصَحِيحُ الشَّرِيعَةِ وصَحِيحُ الطَّبِيعَةِ وصَحِيحُ التَّجْرِبَةِ وصَحِيحُ المُمارَسَةِ والواقِعُ يَقْتَضِي اتِّخاذَ الشَّيْخِ المُرْشِدِ المُرَبِّي .

أَمَّا الشَّرِيعَةُ ، فاللهُ تَعالَى يَقُولُ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ (٢).

ويَقُولُ : ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (٣) ، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٤).

ويَقُولُ : ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ (٥) ، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ

---

(١) سُورَةُ الشُّعَراء : مِنَ الآيَة ٢٢٧ .
(٢) سُورَةُ الأَنْبياء : مِنَ الآيَة ٧ .
(٣) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ١٤ .
(٤) سُورَةُ الرَّعْد : مِنَ الآيَة ٧ .
(٥) سُورَةُ الفُرْقان : مِنَ الآيَة ٥٩ .

إِلَيَّ﴾ (١)، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (٢)، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ (٣).

ويَقُولُ عَزَّ مِنْ قائِلٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤).

ونَسْتَأْنِسُ بِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (٥): أَيْ لَوْ بَحَثْتَ عَنْ سَبَبِ ضَلالَتِهِ: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مُرْشِدٌ.

والعارِفُونَ بِاللهِ هُمُ الوَسائِلُ، فالشَّيْخُ الواصِلُ وَسِيلَةُ مُرِيدِهِ إِلَى اللهِ، وبابُهُ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ عَلَى اللهِ؛ فَهُمْ أَبْوابُ الحَقِّ فِي الخَلْقِ.

قالَ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَّاق: (الشَّجَرَةُ الَّتي تَنْبُتُ بِنَفْسِها مِنْ غَيْرِ صاحِبٍ لا تَعِيشُ ولا تُثْمِرُ وإِنْ عاشَتْ وأَثْمَرَتْ كانَ ثَمَرُها مِنْ غَيْرِ لَذَّةٍ، وسُنَّةُ اللهِ جارِيَةٌ عَلَى أَنْواعٍ مِنَ النَّسَبِ والسَّبَبِ، وكَما أَنَّ التَّناسُلَ والتَّوالُدَ الحَقِيقِيَّ لا يَحْصُلُ إِلَّا بِواسِطَةِ الوالِدِ والوالِدَةِ، فَكَذَلِكَ التَّوالُدُ والنَّسْلُ المَعْنَوِيُّ حُصُولُهُ بِغَيْرِ مُرْشِدٍ مُتَعَذِّرٌ لِحِكْمَةِ ما جَرَتْ عادَةُ اللهِ بِهِ).

وفِي الحَدِيثِ الثَّابِتِ: (هَلَّا سَأَلُوا، فَإِنَّ دَواءَ العَيِّ السُّؤالُ) (٦).

---

(١) سُورَةُ لُقْمان: مِنَ الآيَة ١٥.
(٢) سُورَةُ الأَنْعام: مِنَ الآيَة ٩٠.
(٣) سُورَةُ المُمْتَحَنَة: مِنَ الآيَة ٤.
(٤) سُورَةُ المائِدَة: الآيَة ٣٥.
(٥) سُورَةُ الكَهْف: مِنَ الآيَة ١٧.
(٦) أَخْرَجَهُ الإِمامُ أَحْمَدُ، وأَبُو داود، وابنُ ماجَه، والدَّارَقُطْنِي، والدَّارِمِي.

وإذَنْ ، فَلا بُدَّ مِنْ هادٍ قُدْوَةٍ مَسْؤُولٍ ، خَبِيرٍ بِوَسائِلِ الفِرارِ إِلَى اللهِ والهِجْرَةِ إِلَيْهِ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى سَيِّدِنا مُوسَىٰ عليه السلام كَيْفَ طَلَبَ المُرْشِدَ لِيَتْبَعَهُ كَما فِي سُورَةِ ﴿الكَهْفِ﴾ ، وكَيْفَ كانَ أَدَبُ سَيِّدِنا مُوسَىٰ عليه السلام مَعَ مُرْشِدِهِ ؟!

ولِذا كانَ لا بُدَّ لِطالِبِ حِفْظِ القُرْآنِ مِنَ المُقْرِئِ المُوَقِّفِ الخَبِيرِ بِأَحْكامِ التِّلاوَةِ وصِحَّةِ الأَداءِ ، ولَوْ تُرِكَ القارِئُ العادِيُّ لِنَفْسِهِ لاسْتَحالَ عَلَيْهِ أَنْ يُحَصِّلَ حَقَّ التِّلاوَةِ وصِحَّةَ الأَداءِ ، وبِالتَّالِي رُبَّما اضْطَرَبَتْ مَعَهُ مَفاهِيمُ الآياتِ ، وغابَتِ الأَحْكامُ ، وقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي كُلِّ عُلُومِ الدِّينِ واللُّغَةِ ، وكُلِّ عُلُومِ الدُّنْيا نَظَرِيَّةً كانَتْ أَمْ عَمَلِيَّةً ، حَتَّى الحِرَفِ والمِهَنِ والصِّناعاتِ مَهْما عَلَتْ أَوْ دَنَتْ لا بُدَّ لَها مِنَ اخْتِصاصِيٍّ يُلَقِّنُها ويَكْشِفُ أَسْرارَها ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلمَرْءِ شَيْخٌ فِي العِلْمِ ضَلَّ وافْتَرَسَهُ الشَّيْطانُ واسْتَهْواهُ ، وجَعَلَ إِلَيْهِ هَواهُ فَهَلَكَ .

وما لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ مُعَلِّمٌ فِي بَقِيَّةِ الصِّناعاتِ لَمَا أَصابَ ولا أَجادَ ، ورُبَّما هَلَكَ وهُوَ يَطْلُبُ الحَياةَ ، ومِنْ هُنا كانَ لا بُدَّ لِلسَّالِكِ إِلَى اللهِ مِنْ إِمامٍ يُرْشِدُهُ ويُوَجِّهُهُ ويُسَدِّدُهُ ، ويَكْشِفُ لَهُ أَحابِيلَ الشَّيْطانِ ، فِي العِباداتِ والمُعامَلاتِ ، والخَطَراتِ النَّفْسِيَّةِ والإِراداتِ القَلْبِيَّةِ ،

والواردات الَّتي قَدْ تَكُونُ أَخْطَرَ عَلَى صاحِبِها مِنَ الكُفْرِ الصَّرِيح .

ولِهَذا سَجَّلَ كِبارُ أَئِمَّةِ الأُمَّةِ أَخْذَهُمْ وتَلَقِّيَهُمْ عَنْ كِبارِ شُيُوخِهِمْ (كابِراً عَنْ كابِرٍ) بِالإِجازَةِ الشَّرِيفَةِ والثَّبْتِ المُحْكَمِ سَواءٌ فِي العُلُومِ أَوْ فِي تَلَقِّي البَيْعَةِ الصُّوفِيَّةِ واتِّصالِ السَّنَد .

ولا يَزالُ فِي عَصْرِنا هَذا يَسْتَعِدُّ الطَّالِبُ لأَعْلَى دَرَجاتِ الثَّقافَةِ (الدُّكْتُوراة مَثَلاً) ولا بُدَّ لَهُ مِنْ مُشْرِفٍ يُشارِكُهُ رِحْلَةَ العِلْمِ والجُهْدِ : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾[1] .

وقَدْ تَلَقَّيْنا مِنْ قَواعِدِ أَهْلِ العِلْمِ قَوْلَهُمْ : (لا تَأْخُذِ العِلْمَ مِنْ صُحُفِيٍّ ولا القُرْآنَ مِنْ مُصْحَفِيٍّ) .

والصُّحُفِيُّ : هُوَ الَّذِي جَمَعَ مَحْصُولَهُ مِنَ الصُّحُفِ وَحْدَها دُونَ مُرْشِدٍ .

والمُصْحَفِيُّ : مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ مُوَقِّفٍ ، وهَذا مُجَرَّحٌ عِنْدَ أَهْلِ العِلْم .

وفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّيْخُ (مُحَمَّد زَكِي إِبْراهِيم) مُجِيبًا عَلَى سائِلٍ مُسْتَفْسِرٍ :

يَقُولُ : هَلِ اتِّخاذُ الشَّيْـ ❁ ـخِ مَحْتُومٌ عَلَى الْقَاصِدْ ؟

---

(١) سُورَةُ الرَّعْد : مِنَ الآيَة ١٦ .

فَقُلْتُ : وَهَلْ تَرَبَّىٰ قَطُّ ❁ مَوْلُودٌ بِلا وَالِدْ ؟

وَهَلْ يُتْمُ الْيَتِيمِ كَفَا ❁ هُ فَاسْتَغْنَىٰ عَنِ الرَّافِدْ ؟

وَهَلْ أَبْصَرْتَ مَكْفُوفًا ❁ وَلا يَحْتَاجُ لِلْقَائِدْ ؟

وَهَلْ عِلْمٌ ، وَهَلْ فَنٌّ ❁ بِغَيْرِ الْمُرْشِدِ الرَّاشِدْ ؟

وَكَيْفَ يَسِيرُ فِي الصَّحْرَا ❁ غَرِيبٌ ؟ أَعْزَلٌ وَافِدْ ؟

تَأَمَّلْ مَا أَتَى (مُوسَىٰ) ❁ وَقِصَّتَهُ مَعَ الْعَابِدْ

تَأَمَّلْ بِعْثَةَ الْهَادِي ❁ فَفِيهَا الشَّاهِدُ الْخَالِدْ

وَبَابُ اللهِ مَفْتُوحٌ ❁ وَلَكِنْ مَنْ هُوَ الرَّائِدْ ؟

وقَدْ وَرَدَ فِي الخَبَرِ عَنِ الحَبِيبِ الأَعْظَمِ ﷺ : (والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ شِئْتُمْ لأُقْسِمَنَّ لَكُمْ ، إِنَّ أَحَبَّ عِبادِ اللهِ تَعالَى إِلَى اللهِ الَّذِينَ يُحَبِّبُونَ اللهَ إِلَى عِبادِهِ ، ويُحَبِّبُون عِبادَ اللهِ إِلَى اللهِ ، ويَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ بالنَّصِيحَة)[1] .

ومَنْ أَصْدَقُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ هَذِهِ المَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ مِنَ المَشايِخِ والدُّعاةِ إِلَى اللهِ تَعالَى ، ورُتْبَةُ المَشْيَخَةِ مِنْ أَعْلَى الرُّتَبِ فِي طَرِيقِ الصُّوفِيَّةِ ؛ لأَنَّ فِيها مَعْنَى نِيابَةِ النُّبُوَّةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ .

---

(١) انْظُرْ : (جامِع العُلُوم والحِكَم) لابْنِ رَجَب الحَنْبَلِي ج ١ / ٨١ ، و(مُصَنَّف ابن أَبِي شَيْبَة) ٧/٧٣ .

فَأَمَّا وَجْهُ كَوْنِ الشَّيْخِ يُحَبِّبُ اللهَ إِلَى عِبادِهِ : فَلأَنَّ الشَّيْخَ يَسْلُكُ بِالمُرِيدِ طَرِيقَ الاقْتِداءِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، ومَنْ صَحَّ اقْتِداؤُهُ واتِّباعُهُ أَحَبَّهُ اللهُ تَعالَى ؛ قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (١).

ووَجْهُ كَوْنِهِ يُحَبِّبُ عِبادَ اللهِ تَعالَى إِلَيْهِ : أَنَّهُ يَسْلُكُ بِالمُرِيدِ طَرِيقَ التَّزْكِيَةِ وإِذا تَزَكَّتِ النَّفْسُ انْجَلَتْ مِرْآةُ القَلْبِ ، وانْعَكَسَتْ فِيهِ أَنْوارُ العَظَمَةِ الإِلَهِيَّةِ ، ولاحَ فِيهِ جَمالُ التَّوْحِيدِ ، وانْجَذَبَتْ أَحْداقُ البَصِيرَةِ إِلَى مُطالَعَةِ أَنْوارِ جَلالِ القِدَمِ ورُؤْيَةِ الكَمالِ الأَزَلِيِّ ، فَأَحَبَّ العَبْدُ رَبَّهُ لا مَحالَةَ ؛ وذَلِكَ مِيراثُ التَّزْكِيَةِ ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ (٢).

وفَلاحُها بِالظَّفَرِ بِمَعْرِفَةِ اللهِ تَعالَى ؛ ويَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مِرْآةَ القَلْبِ إِذا انْجَلَتْ لاحَتْ فِيها الدُّنْيا بِخِفَّتِها وحَقِيقَتِها وماهِيَّتِها ، ولاحَتِ الآخِرَةُ ونَفائِسُها بِكُنْهِها وغايَتِها ، فَتَنْكَشِفُ لِلْبَصِيرَةِ حَقِيقَةُ الدَّارَيْنِ وحاصِلُ المَنْزِلَيْنِ ؛ فَيُحِبُّ العَبْدُ الباقِيَ ويَزْهَدُ فِي الفانِي ، فَتَظْهَرُ فائِدَةُ التَّزْكِيَةِ وجَدْوَى المَشْيَخَةِ والتَّرْبِيَةِ ؛ فالشَّيْخُ مِنْ جُنُودِ اللهِ تَعالَى يُرْشِدُ بِهِ المُرِيدِينَ ويَهْدِي بِهِ الطَّالِبِينَ .

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ٣١ . (٢) سُورَةُ الشَّمْس : الآيَة ٩ .

ولِبَيانِ جَمْعِ الهِمَّةِ لِلْجَمْعِ عَلَى الهُداةِ الأَئِمَّةِ ، نَقُولُ :

❁ حِينَ يَشْعُرُ الطَّالِبُ بِحاجَتِهِ إِلَيْهِ كَشُعُورِ المَرِيضِ بِحاجَتِهِ إِلَى الطَّبِيبِ ، عَلَيْهِ أَنْ يَصْدُقَ العَزْمَ ، ويُصَحِّحَ النِّيَّةَ ، ويَتَّجِهَ إِلَى اللهِ تَعالَى بِقَلْبٍ ضارِعٍ مُنْكَسِرٍ ، يُنادِيهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، ويَدْعُوهُ فِي سُجُودِهِ وأَعْقابِ صَلاتِهِ : (اللَّهُمَّ دُلَّنِي عَلَى مَنْ يَدُلُّنِي عَلَيْكَ ، وأَوْصِلْنِي إِلَى مَنْ يُوصِلُنِي إِلَيْكَ) .

واشْتُهِرَ عَنْ أَئِمَّةِ الصُّوفِيَّةِ قَوْلُهُمْ : (جِدَّ صِدْقًا تَجِدْ شَيْخًا) .

❁ عَلَيْهِ أَنْ يَبْحَثَ فِي بَلَدِهِ ، ويُفَتِّشَ ويَسْأَلَ عَنِ المُرْشِدِ بِدِقَّةٍ وانْتِباهٍ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ لِما يُشِيعُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ فَقْدِ المُرْشِدِ المُرَبِّي فِي هَذا الزَّمَن .

وفِي هَذا يَقُولُ سَيِّدِي أَحْمَدُ بنُ عَجِيبَة : (والنَّاسُ فِي إِثْباتِ الخُصُوصِيَّةِ ونَفْيِها عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام :

أ) قِسْمٌ أَثْبَتُوها للمُتَقَدِّمِينَ ، ونَفَوْها عَنِ المُتَأَخِّرِينَ ؛ وهُمْ أَقْبَحُ العَوام .

ب) وقِسْمٌ أَقَرُّوها قَدِيمًا وحَدِيثًا ، وقالُوا : إِنَّهُمْ أَخْفِياءٌ فِي زَمانِهِمْ فَحَرَمَهُمُ اللهُ بَرَكَتَهُمْ .

ج) وقَوْمٌ أَقَرُّوا الخُصُوصِيَّةَ فِي أَهْلِ زَمانِهِمْ ، مَعَ إِقْرارِهِمْ بِخُصُوصِيَّةِ السَّلَف ، وعَرَفُوهُمْ ، وظَفِرُوا بِهِمْ ، وعَظَّمُوهُمْ ؛ وهُمُ السُّعَداءُ الَّذِينَ

أَرادَ اللّهُ أَنْ يُرَحِّلَهُمْ إِلَيْهِ ، ويُقَرِّبَهُمْ إلى حَضْرَتِهِ ، وفِي الحِكَمِ : (سُبْحانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيائِهِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ ، ولَمْ يُوصِلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ) .

وبِهَذا يُرَدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ شَيْخَ التَّرْبِيَةِ انْقَطَعَ ، فَإِنَّ قُدْرَةَ اللّهِ تَعالَى عامَّةٌ ، وإِنَّ مُلْكَ اللّهِ قائِمٌ ، والأَرْضَ لا تَخْلُو مِمَّنْ يَقُومُ بِالحُجَّةِ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللّه)[1].

فَإِذا لَمْ يَجِدْ أَحَداً فِي مَدِينَتِهِ فَلْيَبْحَثْ عَنْهُ فِي مُدُنٍ أُخْرَى ، أَلا تَرَى المَرِيضَ يُسافِرُ إِلَى بَلْدَةٍ ثانِيَةٍ لِلتَّداوِي إِذا لَمْ يَجِدِ الطَّبِيبَ المُخْتَصَّ ، أَوْ حِينَ يَعْجَزُ أَطِبَّاءُ مَدِينَتِهِ عَنْ تَشْخِيصِ دائِهِ ومَعْرِفَةِ دَوائِهِ ؛ ومُداوَاةُ الأَرْواحِ تَحْتاجُ إِلَى أَطِبَّاءَ أَمْهَرَ مِنْ أَطِبَّاءِ الأَجْسامِ .

وللشَّيْخِ شُرُوطٌ لا بُدَّ مِنْها حَتَّى يَتَأَهَّلَ لإِرْشادِ النَّاسِ وهِيَ أَرْبَعَةٌ :

١) أَنْ يَكُونَ عالِماً بِالفَرائِضِ العَيْنِيَّة .

٢) أَنْ يَكُونَ عارِفاً بِاللّهِ تَعالَى .

٣) أَنْ يَكُونَ خَبِيراً بِطَرائِقِ تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ ووَسائِلِ تَرْبِيَتِها .

٤) أَنْ يَكُونَ مَأْذُونًا بِالإِرْشادِ مِنْ شَيْخِهِ .

---

(١) البَحْرُ المَدِيد فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ المَجِيد (ابْنِ عَجِيبَة) ج ١ / ص ٧٧ .

أَمَّا الشَّرْطُ الأَوَّلُ : فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ المُرَبِّي عالِمًا بِالفَرائِضِ العَيْنِيَّةِ كَأَحْكامِ الصَّلاةِ والصَّوْمِ والزَّكاةِ والحَجِّ وأَحْكامِ المُعامَلاتِ والبُيُوعِ ..... إلخ ، وأَنْ يَكُونَ عالِمًا بِعَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ فِي التَّوْحِيد ؛ فَيَعْرِفُ ما يَجِبُ للهِ تَعالَى ، وما يَجُوزُ وما يَسْتَحِيلُ إِجْمالاً وتَفْصِيلاً ، وكَذا فِي حَقِّ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وهَكَذا سائِرُ أَرْكانِ الإيمان .

وأَمَّا الشَّرْطُ الثَّانِي : فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَحَقَّقَ الشَّيْخُ المُرَبِّي بِعَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَمَلًا وذَوْقًا بَعْدَ أَنْ عَرَفَها عِلْمًا ودِرايَةً ، فَيَشْهَدَ فِي قَلْبِهِ ورُوحِهِ صِحَّتَها ، ويَشْهَدَ أَنَّ اللهَ تَعالَى واحِدٌ لا شَرِيكَ لَهُ ولا نِدَّ لَهُ فِي الذَّاتِ والصِّفاتِ والأَفْعالِ ، وعَلَيْهِ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى حَضَراتِ أَسْماءِ اللهِ تَعالَى ذَوْقًا وشُهُودًا ، ويُرْجِعَها إِلَى الحَضْرَةِ الجامِعَة ، ولا يَشْتَبِهْ عَلَيْهِ تَعَدُّدُ الحَضَرات ؛ إِذْ تَعَدُّدُ الحَضَراتِ لا يَدُلُّ عَلَى تَعَدُّدِ الذَّات .

وأَمَّا الشَّرْطُ الثَّالِثُ : فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ زَكَّى نَفْسَهُ عَلَى يَدِ مُرَبٍّ ومُرْشِدٍ خَبِير ، فَخَبَرَ مَراتِبَ النَّفْسِ وأَمْراضَها ووَساوِسَها ، وعَرَفَ أَساليبَ الشَّيْطانِ ومَداخِلَهُ ، وآفاتِ كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَراحِلِ السَّيْرِ ، وطَرائِقَ مُعالَجَةِ كُلِّ ذَلِكَ بِما يُلائِمُ حالَةَ كُلِّ شَخْصٍ وأَوْضاعَهُ .

وأَمَّا الشَّرْطُ الرَّابِعُ : فَلا بُدَّ للشَّيْخِ المَقْصُودِ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ أُجيزَ مِنْ شَيْخِهِ بِهَذِهِ التَّرْبِيَةِ وهَذا السَّيْرِ ، فَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ لَهُ الاخْتِصاصِيُّونَ بِعِلْمٍ يَدَّعِيهِ لا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَتَصَدَّرَ فِيهِ ؛ فالإِجازَةُ : هِيَ شَهادَةُ أَهْلِيَّةِ الإِرْشادِ وحِيازَةِ صِفاتِهِ ، وعَلَيْها أُسِّسَتْ فِكْرَةُ المَدارِسِ والجامِعات ، فَكَما لا يَجُوزُ لِمَنْ لا يَحْمِلُ شَهادَةَ الطِّبِّ أَنْ يَفْتَحَ عِيادَةً لِمُداواةِ المَرْضَى ، ولا يَصِحُّ لِغَيْرِ المُجازِ فِي الهَنْدَسَةِ أَنْ يَرْسُمَ مُخَطَّطًا لِلْبِناءِ ، وكَما لا يَجُوزُ لِمَنْ لا يَحْمِلُ شَهادَةَ أَهْلِيَّةِ التَّعْلِيمِ أَنْ يُدَرِّسَ فِي المَدارِسِ والجامِعاتِ ، فَكَذَلِكَ لا يَجُوزُ أَنْ يَدَّعِيَ الإِرْشادَ غَيْرُ مَأْذُونٍ لَهُ بِهِ مِنْ قِبَلِ مَشايِخَ مَأْذُونِينَ مُؤَهَّلِينَ ، يَتَّصِلُ سَنَدُهُمْ بِالتَّسَلْسُلِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وذَلِكَ عَلَى غِرارِ عُلَماءِ الحَدِيثِ الَّذِينَ تَناقَلُوا أَحادِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالسَّنَدِ رَجُلاً عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، واعْتَبَرُوا السَّنَدَ أَساساً لِحِفْظِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ مِنَ الضَّياعِ والتَّحْرِيفِ ولِهَذا قالَ ابنُ المُبارَك : (الإِسْنادُ مِنَ الدِّينِ ، ولَوْلا الإِسْنادُ لَقالَ مَنْ شاءَ ما شاءَ) .

وكَما أَنَّهُ لا يَصِحُّ مِنَ العاقِلِ أَنْ يَتَداوَى عِنْدَ جاهِلٍ بِالطِّبِّ ، كَذَلِكَ لا يَجُوزُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَرْكَنَ إِلَى غَيْرِ الشَّيْخِ المُرَبِّي المَأْذُونِ المُخْتَصِّ بِالتَّوْجِيهِ والإِرْشادِ ، وكُلُّ مَنْ دَرَسَ الوَضْعَ العِلْمِيَّ فِي الماضِي يَعْرِفُ

قِيمَةَ الإجازَةِ مِنَ الأَشْياخِ وأَهَمِّيَّةَ التَّلَقِّي عِنْدَهُمْ ، حَتَّى إنَّهُمْ أَطْلَقُوا عَلَى مَنْ لَمْ يَأْخُذْ عِلْمَهُ مِنَ العُلَماءِ اسْمَ (الصُّحُفِي) ؛ لأَنَّهُ أَخَذَ عِلْمَهُ مِنَ الصُّحُفِ والمُطالَعَةِ الخاصَّة .

قالَ ابْنُ سِيرِين : (إنَّ هَذا العِلْمَ دِينٌ فانْظُروا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُم)[1].

وقَدْ أَوْصَى رَسُولُ اللهِ ﷺ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنه بِذَلِكَ فَقالَ ﷺ :

(يا ابْنَ عُمَرَ ، دِينَكَ دِينَكَ ، إنَّما هُوَ لَحْمُكَ ودَمُكَ فانْظُرْ عَمَّنْ تَأْخُذُ ، خُذِ الدِّينَ عَنِ الَّذِينَ اسْتَقامُوا ، ولا تَأْخُذْ عَنِ الَّذِينَ مالُوا)[2].

وقالَ بَعْضُ العارِفِينَ : (العِلْمُ رُوحٌ تُنْفَخُ لا مَسائِلَ تُنْسَخُ ، فَلْيَنْتَبِهِ المُتَعَلِّمُونَ عَمَّنْ يَأْخُذُونَ ، ولْيَنْتَبِهِ العالِمُونَ لِمَنْ يُعْطُونَ) .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ مِنْ عَلاماتِ الشَّيْخِ المُرَبِّي أُمُوراً يُمْكِنُ مُلاحَظَتُها :

❁ مِنْها : أَنَّ مَنْ يُجالِسُهُ يَشْعُرُ بِنَفْحَةٍ إيمانِيَّةٍ ، ونَشْوَةٍ رُوحِيَّةٍ ، فَهُوَ لا يَتَكَلَّمُ إلَّا للهِ ، ولا يَنْطِقُ إلَّا بِخَيْرٍ ، ولا يَتَحَدَّثُ إلَّا بِمَوْعِظَةٍ أَوْ نَصِيحَةٍ ، يُسْتَفادُ مِنْ كَلامِهِ ، يُنْتَفَعُ مِنْ قُرْبِهِ كَما يُنْتَفَعُ مِنْ بُعْدِهِ ، يُسْتَفادُ مِنْ لَحْظِهِ كَما يُسْتَفادُ مِنْ لَفْظِهِ .

❁ ومِنْها : أَنْ يُلاحِظَ فِي أَحْبابِهِ ومُرِيدِيهِ صُوَرَ الإيمانِ والإخْلاصِ

---

(١) ذَكَرَهُ مُسْلِمٌ فِي مُقَدِّمَةِ صَحِيحِهِ عَنْ مُحَمَّد بن سِيرِينَ . ونَسَبَهُ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي التَّمْهِيد لأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

(٢) أَخْرَجَهُ الحافِظُ ابنُ عَدِيٍّ عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه كَذا فِي (كَنْز العُمَّال) ج٣ / ص ١٥٢ .

والتَّقْوَى والتَّواضُعِ ، وأَنْ يَتَذَكَّرَ وهُوَ يُخالِطُهُم المُثُلَ العُلْيا فِي مَيادِينِ الحُبِّ ، والصِّدْقِ والإيثارِ والأُخُوَّةِ الخالِصَةِ ، وهَكَذا يُعْرَفُ الطَّبِيبُ الماهِرُ بِآثارِهِ ونَتائِجِ جُهُودِهِ حَيْثُ تَرَى المَرْضَىٰ الَّذِينَ شُفُوا عَلَى يَدَيْهِ ، وتَخَرَّجُوا مِنْ مَصَحَّتِهِ بِأَوْفَرِ قُوَّةٍ وأَتَمِّ عافِيَةٍ .

عِلْمًا أَنَّ كَثْرَةَ المُرِيدِينَ والتَّلامِيذِ وقِلَّتَهُمْ لَيْسَتْ مِقْياسًا وَحِيداً ، وإِنَّما العِبْرَةُ بِصَلاحِ هَؤُلاءِ المُرِيدِينَ وتَقْواهُمْ ، وتَخَلُّصِهِمْ مِنَ العُيُوبِ والأَمْراضِ واسْتِقامَتِهِمْ عَلَى شَرْعِ اللّهِ تَعالَى .

والحِكْمَةُ الصُّوفِيَّةُ تَقُولُ : (اسْلُكْ طَرِيقَ الهُدَىٰ ولا يَضُرُّكَ قِلَّةُ السَّالِكِينَ ، واحْذَرْ طَرِيقَ الرَّدَىٰ ولا يَغُرُّكَ كَثْرَةُ الهالِكِينَ) .

۞ ومِنْها : أَنَّكَ تَرَى تَلامِذَتَهُ يُمَثِّلُونَ مُخْتَلِفَ طَبَقاتِ الأُمَّةِ ، وهَكَذا كانَ أَصْحابُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ .

فالظَّفَرُ بِهِ يَدْفَعُ الطَّالِبَ لِلأَخْذِ بِيَدِهِ ، والْتِزامِ مَجالِسِهِ ، والتَّأَدُّبِ مَعَهُ ، والعَمَلِ بِنُصْحِهِ وإِرْشادِهِ ؛ فِي سَبِيلِ الفَوْزِ بِسَعادَةِ الدَّارَيْنِ .

ولِلّهِ دَرُّ العارِفِ المُحَقِّقِ الرَّبَّانِي أَحْمَد بنِ شَرْقاوِي رضي الله عنه (١٣١٦هـ) بِإِشارَتِهِ فِي أُرْجُوزَةِ المَوْرِدِ الرَّحْمانِي :

فَإِنْ ظَفِرْتَ يا أَخِي بِوَاحِدِ ۞ مِنَ الْكِرَامِ الْكُمَّلِ الْأَمَاجِدِ

فَاعْلَقْ بِهِ وَانْظُرْ سَنَا إِمْدَادِهِ ۞ وَاجْزِمْ بِأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِرْشَادِهِ

ولله دَرُّ مَوْلانا الشَّيْخ سَلامَة العَزَّامِي (١٣٧٦هـ) فِي وَصْفِهِ هَذا الطِّرْزَ مِنَ الأَوْلِياءِ فِي شَخْصِ شَيْخِهِ سَيِّدِي مُحَمَّد أَمِين الكُرْدِي ﷺ (١٣٣٢هـ /١٩١٤م)قائِلًا :

(فَلِلّهِ هُوَ مِنْ عارِفٍ قَرَّتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ عَيْنًا وطابَتْ بِهِ الحَقِيقَةُ نَفْسًا ، لا يَرْتابُ مَنْ عَرَفَهُ ﷺ فِي أَنَّهُ أَحَدُ المُجَدِّدِينَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ بَلْ يُوقِنُ بِأَنَّهُ لا يَلِدُ مِثْلَهُ إلاَّ القُرُونُ المُتَطاوِلَة ، كَمْ أَحْيَتِ النَّظْرَةُ الأُولَى مِنْ نَظَراتِهِ مَيْتًا فَأَصْبَحَ ولَهُ بِإِذْنِ اللّهِ نُورٌ يَمْشِي بِهِ فِي النَّاس ، وكَمْ أَدْنَتْ هِمَّتُهُ الرَّفِيعَةُ بَعِيداً مِنْ هاتِيكَ الحَضَراتِ المُقَدَّسَةِ فَعادَ سَرِيعًا وهُوَ مِنْ خَيْرِ الجُلَّاس ، وكَمْ قَلَبَ إِكْسِيرُ نَفْسِهِ القُدْسِيُّ مَعادِنَ فِي أَحَطِّ الدَّرَكاتِ فَصارَتْ بِبَرَكَةِ هَذا السِّرِّ المَصُونِ فِي أَعْلَى الدَّرَجاتِ ، وإِنَّنا لا نُحْصِي ما شاهَدْناهُ فِي سَفَرِهِ و حَضَرِهِ ﷺ مِنْ عَجائِبِ إِرْشادِهِ وغَرائِبِ إِمْدادِهِ ، وما أَيَّدَهُ اللّهُ بِهِ مِنْ خَوارِقِ العاداتِ سِوَى ما حَدَّثَنا بِهِ الثِّقاتُ عَمَّا شاهَدُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ بَدائِعِ الكَرامات ، ولَئِنْ كانَ للفَضائِلِ شَخْصٌ تَراهُ العُيُونُ المادِّيَّةُ فَإِنَّهُ ﷺ شَخْصُها الحَيُّ الأَكْمَلُ ، وإِنِ اجْتَمَعَتْ أَشْتاتُ المَحاسِنِ فِي وَلِيٍّ مِنَ الأَوْلِياءِ فَإِنَّهُ جامِعُها الأَفْضَلُ ، تَتَشَرَّفُ المَكارِمُ بِالانْتِسابِ إِلَيْهِ ، وتَفْتَخِرُ الأَكارِمُ بِأَنَّهُ لا تَعْوِيلَ لَهُمْ بَعْدَ اللّهِ ورَسُولِهِ إِلَّا عَلَيْهِ ، كُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ الطَّيِّبَةِ

المُبارَكَةِ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ غُرَّةً فِي جَبِينِ الدَّهْرِ أَوْ دُرَّةً يَتَحَلَّى بِها كُلُّ عَصْرٍ ، ولا بِدْعَ فَقَدْ كانَ بَرَكَةً مِنْ بَرَكاتِ اللّٰهِ العُظْمَى وحَسَنَةً مِنْ حَسَناتِ رَسُولِهِ الكُبْرَى ، يَدْعُوكَ إِلَى اللّٰهِ حالُهُ قَبْلَ مَقالِهِ ، ويَمْنَعُكَ الانْبِساطَ المُخْرِجَ عَنِ الأَدَبِ ما سَتَرَهُ اللّٰهُ بِهِ مِنْ لِباسِ جَلالِهِ ، وماذا عَسَى أَنْ يَقُولَ القائِلُ وإِنْ كانَ عَلَى مُنْتَهَى البَلاغَةِ فِي أُسْتاذٍ كانَ نُسْخَةً كامِلَةً لِسَيِّدِ الوُجُودِ ﷺ ، مِثالاً تامًّا لِهذَا النُّورِ الأَكْبَرِ ، ومِرْآةً صافِيَةً تَجَلَّتْ فِيها صُورَةُ الكَمالِ المُحَمَّدِيِّ فِي أَبْهَى زِينَتِها وأَبْهَجِ حُلَلِها وأَوْضَحِ مَظاهِرِها ؛ مَنْ رَآهُ تَجَدَّدَ إِيمانُهُ بِقُدْرَةِ اللّٰهِ تَعالَى لِعِظَمِ ما يُبْهِرُهُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ الكُبْرَى ، ومَنْ خالَطَهُ عادَتْ إِلَى ذاكِرَتِهِ سِيرَةُ القُرُونِ الأُولَى مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ المَشْهُودِ لَها بِالفَضْلِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ ﷺ : (خَيْرُ القُرونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِين يَلُونَهُمْ) الحَدِيث ، وتَمَثَّلَتْ لِعَيْنِهِ جَلالَةُ كُبَراءِ الأَقْطابِ السَّابِقِينَ مِنْ عُظَماءِ الأَوْلِياءِ الَّذِينَ يَنْدُرُ تَشَرُّفُ الزَّمانِ بِأَمْثالِهِمْ ، وإِنَّ سِيرَتَهُ العُلْيا ومَناقِبَهُ السَّنِيَّةَ لَجَدِيرَةٌ أَنْ تُفْرَدَ بِالتَّصانِيفِ الكِبارِ الواسِعَةِ ، ولَكِنْ نَكْتَفِي بِقَطْرَةٍ مِنْ هَذا البَحْرِ الزَّاخِرِ ، ولَمْعَةٍ مِنْ هَذا النُّورِ العامِّ السَّافِرِ ، اسْتِدْراراً لِرَحْمَةِ اللّٰهِ تَنْزِلُ عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ ، وقِيامًا بِبَعْضِ ما وَجَبَ لَهُ رضي الله عنه عَلَيْنا مِنَ الحَقِّ ؛ فَفِي الثَّابِتِ عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ عَنِ

اللهِ عَزَّ وجَلَّ : (لَمْ يَشْكُرْنِي مَنْ لَمْ يَشْكُرْ مَنْ أَجْرَيْتُ النِّعْمَةَ عَلَى يَدَيْهِ ، أَوْ كَما وَرَدَ)[1].

ومِمَّا يَجِبُ عَلَيَّ تَسْطِيرُهُ ما أَعْتَقِدُهُ وهُوَ :

۞ أَنَّ اللهَ تَعالَى أَرْسَلَ نَبِيَّنا وسَيِّدَنا مُحَمَّداً ﷺ رَحْمَةً لِلعالَمِينَ ؛ بِرَفْعِ العَذابِ عَنِ الكُفَّارِ فِي الدُّنْيا ، وعَنِ المُؤْمِنينَ فِي الدَّارَيْنِ ، وبِرَفْعِ التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ الَّتي كانَتْ للأُمَمِ السَّابِقَةِ كَتَعْيِينِ القِصاصِ فِي العَمْدِ والخَطَأِ ، وقَطْعِ الأَعْضاءِ الخاطِئَةِ وقَطْعِ مَوْضِعِ النَّجاسَةِ ، والتَّوْبَةِ بِقَتْلِ النَّفْسِ ، وقَدْ كانَ الرَّجُلُ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ يُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُصْبِحُ وقَدْ كُتِبَ عَلَى بابِ بَيْتِهِ إِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ تَنْزِعَ عَيْنَيْكَ فَيَنْزَعُهُما ، فَرَفَعَ اللهُ ببَرَكَتِهِ ﷺ هَذِهِ المَشَقَّاتِ ونَحْوَها ؛ قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [2] ، وقالَ سُبْحانَهُ : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [3] ، وقالَ عَظُمَتْ رَأْفَتُهُ : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [4].

۞ ومِمَّا أَعْتَقِدُهُ أَنَّ نَبِيَّنا ﷺ أَفْضَلُ الخَلْقِ أَجْمَعِينَ إِنْسًا وجِنًّا

---

(١) تَنْوِيرُ القُلُوب فِي مُعامَلَةِ عَلَّام الغُيُوب : للعَلَّامَة الشَّيْخ مُحَمَّد أَمِين الكُرْدِي النَّقْشَبَنْدِي ، تَقْدِيمُ الشَّيْخ سَلامَة العَزَّامِي (أَحَد أَكابِر عُلَماءِ الأَزْهَر) .

(٢) سُورَةُ الأَنْبياء : الآيَة ١٠٧ . (٣) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ١٥٧ .

(٤) سُورَةُ الحَجِّ : مِنَ الآيَة ٧٨ .

ومَلَكًا ، وهَذا مِمَّا أَجْمَعَ عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ ، والدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ أُمَّتَهُ أَفْضَلُ الأُمَمِ ، ولا شَكَّ أَنَّ خَيْرِيَّةَ الأُمَمِ إِنَّما هِيَ بِحَسَبِ كَمالِها فِي الدِّينِ ، وذَلِكَ تابِعٌ لِكَمالِ نَبِيِّها الَّذي اتَّبَعَتْهُ فَتَفْضِيلُها تَفْضِيلٌ لَهُ ، وقَوْلُهُ ﷺ : (أَنا أَكْرَمُ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ عَلَى اللهِ ولا فَخْرَ)[1] ، وكَوْنُ الشَّفاعَةِ العُظْمَى والكَلامِ لَهُ فِي المَوْقِفِ الأَعْظَمِ دُونَ جَمِيعِ ما سِوَى اللهِ ، وكَذا ما اشْتُهِرَ فِي سَبْقِ نُبُوَّتِهِ عَلَى الكُلِّ وأَخْذِ المِيثاقِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ إِنْ أَدْرَكُوهُ ، وقَدْ أَجْرَى اللهُ جَمِيعَ المَنافِعِ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ عَلَى يَدَيْهِ ﷺ ، فَهُوَ إِنْسانُ عَيْنِ الوُجُودِ والسَّبَبُ فِي كُلِّ مَوْجُود ، وكُلُّ الأَنْبِياءِ نُوَّابُهُ وخُلَفاؤُهُ ؛ كَما قالَ النَّابُلُسِي :

كُلُّ النَّبِيِّينَ وَالرُّسْلِ الْكِرَامِ أَتَوْا ❁ نِيابَةً عَنْهُ فِي تَبْلِيغِ دَعْوَاهُ

فَهُوَ الرَّسُولُ إِلَى كُلِّ الْخَلائِقِ فِي ❁ كُلِّ الدُّهُورِ وَنَابَتْ عَنْهُ أَفْوَاهُ

رَقِيقَة : يُحْكَى أَنَّ الخَلِيفَةَ العَبَّاسِي بَعَثَ إِلَى ابنِ سَيِّدِ النَّاسِ[2] ، فَحَضَرَ إِلَى مَجْلِسِهِ وقَدْ جَلَسَ مَعَ خَواصِّهِ ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّ بِهِ المَجْلِسُ ، قالَ لَهُ : إِنَّ حَدِيثًا قَدْ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وقَدْ تَحَيَّرْتُ فِي كَشْفِ مَعْناهُ ولَمْ أَجِدْ مَنْ يُبَيِّنُ لِي ذَلِكَ ، فَقالَ لَهُ : وما هُوَ ؟

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِي .

(٢) صاحِبُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّة : (عُيُونُ الأَثَر فِي فُنُونِ المَغازِي والشَّمائِلِ والسِّيَر) .

قالَ الخَلِيفَةُ : هُوَ قَوْلُهُ ﷺ : (لا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بنِ مَتَّى) ، وقَدِ انْعَقَدَ الإِجْماعُ وصَرَّحَ الكِتابُ والسُّنَّةُ بِأَنَّهُ ﷺ أَفْضَلُ العالَمِينَ عَلَى الإِطْلاقِ ، فَما وَجْهُ النَّهْيِ عَنْ تَفْضِيلِهِ ﷺ عَلَى يُونُسَ بنِ مَتَّى عليه السلام ؟ فَقالَ لَهُ ابنُ سَيِّدِ النَّاسِ : أَيُّها الخَلِيفَةُ ! إِنَّ النَّبِيَّ لَمْ يَنْهَ عَنِ الفَضْلِ ولا التَّفْضِيلِ وإِنَّما هُوَ لِنَفْيِ الجِهَةِ والمَكانِ عَنِ اللهِ تَعالَى ، فَقالَ لَهُ الخَلِيفَةُ : كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ ونَفْيُ الجِهَةِ والمَكانِ أَجْنَبِيٌّ مِنْ هَذا الحَدِيثِ ؟ فَقالَ لَهُ : لا أُجِيبُكَ عَنْهُ حَتَّى يَجْتَمِعَ عُلَماءُ البَلَدِ فَتَسْأَلَهُمْ عَنْ مَعْنَى الحَدِيثِ ، فَإِنْ أَجابُوكَ بِمِثْلِ ما أَجَبْتُكَ بِهِ فَقَدْ أَصابُوا ، وإِلَّا فَقَدْ أَخْطَؤُوا ، وقَدْ أَجَّلْتُهُمْ ثَلاثًا يَنْظُرُونَ ويَتَأَمَّلُونَ فِي مَعْنَى الحَدِيثِ ، فَأَحْضَرَ الخَلِيفَةُ عُلَماءَ البَلَدِ (أَيْ بَغْدادَ) فَقالَ لَهُمْ : إِنِّي سَأَلْتُ ابنَ سَيِّدِ النَّاسِ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : (لا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بنِ مَتَّى) ، فَزَعَمَ أَنَّ مَعْنَى الحَدِيثِ نَفْيُ الجِهَةِ والمَكانِ عَنِ اللهِ تَعالَى ، وقَدْ أَجَّلْتُكُمْ ثَلاثًا حَتَّى تُمْعِنُوا النَّظَرَ فِيما قالَ ، فَإِنْ وافَقْتُمُوهُ عَلَى ذَلِكَ فَبَيِّنُوا وَجْهَهُ ، وإِنْ عَجَزْتُمْ عَنِ البَيانِ بَعَثْتُ إِلَيْهِ بِحَضْرَتِكُمْ حَتَّى يُفْصِحَ عَنْ وَجْهِ ذَلِكَ ، فَيُبَيِّنَهُ أَوْ يَعْجَز .

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ الثَّالِثِ فَقالُوا : إِنَّ الحَدِيثَ أَجْنَبِيٌّ مِنْ نَفْيِ الجِهَةِ والمَكانِ عَنِ اللهِ تَعالَى ، فَقالَ لَهُمْ : أَكَذَلِكَ قُلْتُمْ بِأَجْمَعِكُمْ ؟ قالُوا :

نَعَمْ ، فَأَمَرَ بِإِحْضارِ ابنِ سَيِّدِ النَّاسِ ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّ بِهِ المَجْلِسُ ، قالَ لَهُ : إِنَّ هَؤُلاءِ قَدِ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الحَدِيثَ أَجْنَبِيٌّ مِنْ نَفْيِ الجِهَةِ والمَكانِ عَنِ اللّهِ تَعالَى ، فَقالَ لَهُمْ : أَكَذَلِكَ قُلْتُمْ بِأَجْمَعِكُمْ ؟ قالُوا : نَعَمْ ، فَقالَ ابنُ سَيِّدِ النَّاسِ : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَفْضَلُ العالَمِينَ عَلَى الإِطْلاقِ ؟ قالُوا : بَلَى ، قالَ : أَوَ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ قالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ ، ولا يُقالُ لِلرَّجُلِ لا تَكُنْ كَفُلانٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ مِنْهُ ، قالُوا : بَلَى ، فَقالَ لَهُمْ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِلحَدِيثِ وَجْهٌ يَكْشِفُ عَنْهُ اللَّبْسَ ويُوَضِّحُهُ إِلَّا وَجْهٌ واحِدٌ وذَلِكَ أَنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ لَمَّا أَسْرَى بِنَبِيِّهِ ﷺ حَتَّى ظَهَرَ بِمُسْتَوًى يَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلامِ ، وأَهْبَطَ يُونُسَ عليه السلام فِي بَطْنِ الحُوتِ إِلَى تُخُومِ الأَرْضِ ، لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ بِالنِّسْبَةِ إِلَى ذَلِكَ المَكانِ بِأَقْرَبَ إِلَى اللّهِ سُبْحانَهُ مِنْ يُونُسَ بنِ مَتَّى قُرْبَ مَكانٍ ، ولَمْ يَكُنْ سَيِّدُنا يُونُسُ عليه السلام مَعَ هُبُوطِهِ إِلَى تُخُومِ الأَرْضِ بِأَبْعَدَ مِنَ اللّهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَكانِهِ الَّذِي هُوَ بِهِ مِنَ السُّفُولِ ؛ لأَنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ لا يَقْرُبُ مِنْهُ مَكانٌ ولا يَبْعُدُ مِنْهُ مَكانٌ آخَرُ ، لأَنَّ الأَمْكِنَةَ جَمِيعَها بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَواءٌ ، لأَنَّهُ تَعالَى فِي كُلِّ مَكانٍ بِعِلْمِهِ ، فَبَقِيَ الفَضْلُ والتَّفْضِيلُ عَلَى ما كانا عَلَيْهِ وانْتَفَتِ الجِهَةُ عَنِ اللّهِ تَعالَى والمَكانُ والبُعْدُ بِسَبَبِهِما .

فَلَمَّا بَيَّنَها ، قالُوا لَهُ : كَشَفْتَ عَنْها القِناعَ وصَيَّرْتَها أَبْيَنَ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى ، فَلِلّٰهِ دَرُّكَ مِنْ عالِمٍ قَدْ أَمَدَّكَ اللّٰهُ بِالإِمْداداتِ الرَّبَّانِيَّةِ والفُتُوحاتِ الغَيْبِيَّةِ ، وجَعَلُوا يُقَبِّلُونَ رَأْسَهُ ويَدَيْهِ .

ويَلِيهِ ﷺ فِي الفَضْلِ سَيِّدُنا إِبْراهِيمُ عليه السلام ثُمَّ سَيِّدُنا مُوسَى عليه السلام ثُمَّ سَيِّدُنا عِيسَى عليه السلام ثُمَّ سَيِّدُنا نُوحٌ عليه السلام ثُمَّ بَقِيَّةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلام ، ثُمَّ الأَنْبِياءُ غَيْرُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلام ، ثُمَّ رُؤَساءُ المَلائِكَةِ وهُمْ : جِبْرِيلُ عليه السلام ، ثُمَّ مِيكائِيلُ عليه السلام ، ثُمَّ إِسْرافِيلُ عليه السلام ، ثُمَّ مَلَكُ المَوْتِ عليه السلام ، ثُمَّ الخُلَفاءُ الأَرْبَعَةُ الرَّاشِدُون رضي الله عنهم ، ثُمَّ سائِرُ المَلائِكَةِ ثُمَّ سائِرُ البَشَر .

وأَفْضَلُ الخُلَفاءِ سَيِّدُنا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه ومَكَثَ فِي الخِلافَةِ سَنَتَيْنِ وثَلاثَةَ أَشْهُرٍ وعَشَرَةَ أَيَّام ، ويَلِيهِ فِي الفَضْلِ سَيِّدُنا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه مَكَثَ فِي الخِلافَةِ عَشْرَ سِنِينَ وسِتَّةَ أَشْهُرٍ وثَمانِيَةَ أَيَّام ، ويَلِيهِ سَيِّدُنا عُثْمانُ بنُ عَفَّانَ رضي الله عنه ومَكَثَ فِي الخِلافَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً وأَحَدَ عَشَرَ شَهْراً وتِسْعَةَ أَيَّام ، ويَلِيهِ سَيِّدُنا عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِب - كَرَّمَ اللّٰهُ وَجْهَهُ - ومَكَثَ فِي الخِلافَةِ أَرْبَعَ سِنِينَ وتِسْعَةَ أَشْهُرٍ وسَبْعَةَ أَيَّام ؛ ثُمَّ بَقِيَّةُ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ وهُمْ : سَيِّدُنا طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللّٰه ؛

وسَيِّدُنا الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّام ؛ وسَيِّدُنا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْف ؛ وسَيِّدُنا سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاص ؛ وسَيِّدُنا سَعِيدُ بنُ زَيْد ؛ وسَيِّدُنا أَبُو عُبَيْدَةَ عامِرُ ابنُ الجَرَّاح ؛ ثُمَّ أَهْلُ غَزْوَةِ بَدْرٍ ﷺ وكانُوا ثَلاثَمِئَةٍ وثَلاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا ؛ ثُمَّ أَهْلُ غَزْوَةِ أُحُدٍ وكانوا أَلْفًا تَقْرِيبًا ؛ ثُمَّ أَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوانِ وكانُوا أَلْفًا وأَرْبَعَمِئَةٍ ؛ وقِيلَ لَها بَيْعَةُ الرِّضْوانِ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (١)، ثُمَّ سائِرُ الصَّحابَةِ ﷺ وكُلُّهُمْ عُدُول ؛ ويَجِبُ الكَفُّ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ أَوْ حَمْلُهُ عَلَى التَّأْوِيلِ الحَسَن ؛ لأَنَّ ما وَقَعَ مِنْهُمْ كانَ بِاجْتِهادٍ ؛ وقَدْ وَقَعَ تَشاجُرٌ بَيْنَ الإِمام عَلِيٍّ ومُعاوِيَةَ ﷺ وقَدِ افْتَرَقَتِ الصَّحابَةُ حِينَئِذٍ ثَلاثَ فِرَقٍ : فِرْقَةٌ اجْتَهَدَتْ فَظَهَرَ لَها أَنَّ الحَقَّ مَعَ (عَلِيٍّ) فَقاتَلَتْ مَعَهُ ؛ وفِرْقَةٌ اجْتَهَدَتْ فَظَهَرَ لَها أَنَّ الحَقَّ مَعَ (مُعاوِيَةَ) فَقاتَلَتْ مَعَهُ ؛ وفِرْقَةٌ تَوَقَّفَتْ ؛ فالمُصِيبُ لَهُ أَجْرانِ والمُخْطِئُ لَهُ أَجْرُ اجْتِهادِهِ كَسائِرِ المُجْتَهِدِين .

وفِي الحَدِيث : (اللّٰهَ اللّٰهَ فِي أَصْحابِي لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا مِنْ بَعْدِي) (٢).

---

(١) سُورَةُ الفَتْح : مِنَ الآيَة ١٨ .

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِي .

وقالَ ﷺ : (لا تَسُبُّوا أَصْحابِي ؛ فَمَنْ سَبَّ أَصْحابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ والمَلائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ ؛ لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا ولا عَدْلًا)[1] ؛ والصَّرْفُ : النَّفْلُ ؛ والعَدْلُ : الفَرْضُ .

وأَفْضَلُ النِّساءِ السَّيِّدَةُ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْران ؛ ثُمَّ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد ؛ ثُمَّ السَّيِّدَةُ فاطِمَةُ بِنْتُ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ ، ثُمَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْن .

۞ ومِمَّا أَعْتَقِدُهُ أَنَّ أَفْضَلَ القُرُونِ القَرْنُ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ ، وآمَنُوا بِهِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ فِي الصَّحِيحَيْنِ : (خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)؛ والمُرادُ بِالقَرْنِ الجِيلُ ، فالقَرْنُ الأَوَّلُ الصَّحابَةُ حَتَّى يَنْقَرِضُوا ، والقَرْنُ الثَّانِي التَّابِعُونَ حَتَّى يَنْقَرِضُوا ، والقَرْنُ الثَّالِثُ تابِعُو التَّابِعِينَ حَتَّى يَنْقَرِضُوا ، والأَصَحُّ أَنَّ القَرْنَ مِئَةُ سَنَةٍ لِما رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ مَسَحَ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ وقالَ لَهُ : (عِشْ قَرْنًا) فَعاشَ مِئَةَ عام ، ثُمَّ كُلُّ قَرْنٍ أَفْضَلُ مِمَّا بَعْدَهُ لِقَوْلِهِ ﷺ : (ما مِنْ عامٍ أَوْ ما مِنْ يَوْمٍ إِلَّا والَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ)[2].

---

(١) أَخْرَجَهُ الإِمامُ أَحْمَدُ وغَيْرُهُ . (٢) أَخْرَجَهُ البُخارِي والتِّرْمِذِي .

ويَجِبُ اتِّباعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي أَقْوالِهِمْ وأَفْعالِهِمْ ، وفِيما تَأَوَّلُوهُ واسْتَنْبَطُوهُ ، واقْتِفاءُ آثارِهِمْ باطِنًا وظاهِرًا ، فَمَنْ أَطاعَ بِظاهِرِهِ دُونَ باطِنِهِ فَهُوَ عاصٍ ولَيْسَ بِمُطِيعٍ ، قالَ العَلَّامَةُ اللَّقَّانِي :

وَكُنْ كَمَا كَانَ خِيَارُ الْخَلْقِ ❁ حَلِيفَ حِلْمٍ تَابِعًا لِلْحَقِّ

فَكُلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفْ ❁ وَكُلُّ شَرٍّ فِي ابْتِدَاعِ مَنْ خَلَفْ

وقالَ شارِحُهُ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ عَبْدُ السَّلام : (ولا تَكُنْ كَما كانَ عَلَيْهِ شِرارُ الخَلْفِ مِنَ الأَخْلاقِ الرَّدِيئَةِ والأَفْعالِ غَيْرِ المَرْضِيَّة ؛ لأَنَّ كُلَّ شَرٍّ حاصِلٌ فِي ابْتِداعِ مَنْ خَلَفَ ؛ أَي بِسَبَبِ ابْتِداعِ بِدْعَةِ الخَلْفِ السَّيِّئِ الَّذِينَ أَضاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهَوات) .

ويَجِبُ الإيمانُ بِالأَوْلِياءِ ، فَمَنْ أَنْكَرَ وُجُودَهُمْ كَفَرَ لِمُصادَمَةِ القُرْآنِ ، قالَ تَعالَى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١)

وكَذا يَجِبُ اعْتِقادُ كَراماتِهِمْ فِي حَياتِهِمْ وبَعْدَ وَفاتِهِمْ ؛ والكَرامَةُ : أَمْرٌ خارِقٌ للعادَةِ يَظْهَرُ عَلَى يَدِ عَبْدٍ ظاهِرِ الصَّلاحِ غَيْرِ مَقْرُونٍ بِدَعْوَى النُّبُوَّة ، وكُلُّ ذَلِكَ وَرَدَ بِهِ الكِتابُ والسُّنَّة ، وأَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الأُمَّةُ قَبْلَ ظُهُورِ المُخالِفِينَ الجاحِدِينَ المُتَمَسْلِفِينَ ، وكُلُّ ما كانَ كَذَلِكَ فالإيمانُ بِهِ واجِب .

---

(١) سُورَةُ يُونُس : الآيَة ٦٢ .

۞ ومِمَّا أَعْتَقِدُهُ أَنَّ أَئِمَّةَ الدِّينِ كُلَّهُمْ عُدُول ، ومَنْ قَلَّدَ واحِدًا مِنْهُمْ نَجا ، ثُمَّ الأَئِمَّةُ ثَلاثَةُ أَقْسام :

١) قِسْمٌ اعْتَنَوْا بِضَبْطِ الفِقْهِ وتَحْرِيرِهِ عَلَى الكِتابِ والسُّنَّةِ ؛ والمَشْهُورُ مِنْهُمْ سادَتُنا الأَئِمَّةُ أَبُو حَنِيفَةَ ومالِكٌ والشَّافِعِيُّ وأَحْمَدُ رضي الله عنهم ، وكُلُّهُمْ عَلَى هُدًى مِنَ اللهِ ، وتَقْلِيدُ واحِدٍ مِنْهُمْ فَرْضٌ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، ولِقَوْلِهِ ﷺ : (أَلا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا) ، ولا يَجُوزُ تَقْلِيدُ غَيْرِهِمْ بَعْدَ عَقْدِ الإِجْماعِ عَلَيْهِمْ لأَنَّ مَذاهِبَ الغَيْرِ لَمْ تُدَوَّنْ ولَمْ تُضْبَطْ بِخِلافِ هَؤُلاءِ ، ومَنْ لَمْ يُقَلِّدْ واحِداً مِنْهُمْ ، وقالَ : أَنا أَعْمَلُ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ ، مُدَّعِيًا فَهْمَ الأَحْكامِ مِنْهُما فَلا يُسَلَّمُ لَهُ بَلْ هُوَ مُخْطِئٌ ضالٌّ مُضِلٌّ ، سِيَّما فِي هَذا الزَّمانِ الَّذِي عَمَّ فِيهِ الفِسْقُ وكَثُرَتْ فِيهِ الدَّعْوَىٰ الباطِلَة ؛ لأَنَّهُ اسْتَظْهَرَ عَلَى أَئِمَّةِ الدِّينِ وهُوَ دُونَهُمْ فِي العِلْمِ والعَمَلِ والعَدالَةِ والاطِّلاعِ ، إِذْ لا يُسْمَعُ لِغَيْرِهِمْ كَلامٌ حَتَّى يَزِيدَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُماثِلَهُمْ فِي العِلْمِ والعَدالَةِ والإِحاطَةِ بِعِلْمِ العَرَبِيَّةِ وأَقْوالِ الصَّحابَةِ والأُصُولِ والتَّفْسِيرِ والحَدِيثِ وفِي تَحْقِيقِ بَقِيَّةِ شُرُوطِ الاجْتِهادِ ؛ وهَذا مُسْتَحِيلٌ

---

(١) سُورَةُ الأَنْبِياء : مِنَ الآيَة ٧ .

لأَنَّ مِنَ الأَئِمَّةِ أَبا حَنِيفَةَ وهُوَ تابِعِيٌّ وكَذا قِيلَ فِي مالِكٍ ، والشَّافِعِيُّ وأَحْمَدُ مِنْ تابِعِي التَّابِعِينَ ، وفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ : (خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) ، والاخْتِلافُ فِي الفُرُوعِ لا يَضُرُّ بَلْ هُوَ رَحْمَةٌ لِقَوْلِهِ ﷺ : (اخْتِلافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ)[1]، ومُراعاةُ الخِلافِ والأَخْذُ بِالأَحْوَطِ مَنْدُوبٌ عِنْدَ الكُلِّ .

٢) وقِسْمٌ اعْتَنَوْا بِبَيانِ أُصُولِ الدِّينِ ؛ كالإمامِ الأَشْعَرِي والماتُرِيدِي وأَثْبَتُوا أَدِلَّتَها مِنَ العَقْلِ والنَّقْلِ ورَدُّوا شُبَهَ أَهْلِ الضَّلالِ .

٣) وقِسْمٌ اعْتَنَوْا بِتَطْهِيرِ النُّفُوسِ مِنَ الرُّعُوناتِ الخَفِيَّةِ ، ومِنْ أَمْراضِ القُلُوبِ كالكِبْرِ والحَسَدِ والعُجْبِ ، وأَوْجَبُوا عَلَى المُكَلَّفِ حِفْظَ قَلْبِهِ وجَوارِحِهِ مِمَّا يَكْرَهُهُ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، وقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[3].

وهَؤُلاءِ الجَماعَةُ كالإمامِ الجُنَيْدِ البَغْدادِي ، ومَعْرُوفٍ الكَرْخِي ، وأَبِي يَزِيدَ البِسْطامِي ، وحُجَّةِ الإِسْلامِ أَبِي حامِدٍ الغَزالِي ، والسَّهْرَوَرْدِي ، والأَقْطابِ الأَرْبَعَةِ (الرِّفاعِي ، والجَيْلانِي ، والبَدَوِيِّ ، والدُّسُوقِيِّ) ،

---

(١) أَخْرَجَهُ البَيْهَقِي .

(٢) سُورَةُ الشُّعَراء : الآيَتان ٨٨ ، ٨٩ .

(٣) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٣٦ .

والشَّيْخ أَبي الحَسَنِ الشَّاذِلي ، والشَّيْخ مُصْطَفَى البَكْري ، والسَّيِّد مُحَمَّد بَهاءِ الدِّين النَّقْشَبَنْد ، والشَّيْخ أَحْمَد التِّجاني ، وأَضْرابِهِمْ وهُمُ الصُّوفِيَّة ، وأَتْباعِهِمْ فِيما دَعَوْا إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ تَقْوَىٰ اللهِ سِرًّا وجَهْرًا فَرْضٌ ، والكُلُّ عَلَى هُدًى مِنَ اللهِ كَأَئِمَّةِ الفِقْهِ ، وبَنَوْا أَمْرَهُمْ عَلَى اعْتِقادِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ وفِقْهِ العُلَماءِ المُجْتَهِدِينَ ؛ فَكُلُّ صُوفِيٍّ فَقِيهٌ ، وبِدايَةُ طَرِيقِهِمْ الفِرارُ إِلَى اللهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، كَما قالَ تَعالَى : ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (١) ، وغايَةُ أَمْرِهِمُ التَّعَلُّقُ بِاللهِ وَحْدَهُ كَما قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢) .

وغايَةُ التَّصَوُّفِ : أَنْ تَمْلِكَ نَفْسَكَ فَإِذا هِيَ عَلَى مُرادِ رَبِّكَ .

ويَتَدَرَّجُ الأَمْرُ إِلَى أَنْ يَمْلِكَ الشَّيْخُ المُرَبِّي نَفْسَ مُرِيدِهِ المُلَبِّي ، واقْرَأْ إِنْ شِئْتَ إِقْرارَ الحَقِّ جَلَّ فِي عُلاهُ ، قَوْلَ كَلِيمِهِ ومُصْطَفاهُ سَيِّدِنا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾(٣) ؛ فَفِيها التَّأْيِيدُ لِنَهْجِ أَهْلِ الحَقِّ العارِفِينَ بِاللهِ .

۞ ومِمَّا أَعْتَقِدُهُ وُجُوبُ الطَّاعَةِ لأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللهِ تَعالَى لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (٤) .

---

(١) سُورَةُ الذَّارِيات : مِنَ الآيَة ٣٦ .
(٢) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ٩١ .
(٣) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ٢٥ .
(٤) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٥٩ .

قالَ بَعْضُهُم : المُرادُ بِهِمُ العُلَماءُ العامِلُونَ بِعِلْمِهِم الآمِرُونَ بِالمَعْروفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَر ، وقالَ بَعْضُهُم : المُرادُ بِهِمْ أُمَراءُ الحَقِّ العامِلُونَ بِأَمْرِ اللهِ وأَمْرِ السُّنَّةِ ، ولا يُطاعُونَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ لِقَوْلِهِ ﷺ : (لا طاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخالِق) [1].

ومِنْ هَذِهِ المادَّةِ قَوْلُ سَيِّدِنا عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه : (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ فِيَّ اعْوِجاجًا فَلْيُذَكِّرْنِي)[2] ، فَقامَ إِلَيْهِ سَيِّدُنا بِلالٌ أَوْ سَلْمانُ فَقالَ : لَوْ رَأَيْنا فِيكَ اعْوِجاجًا لَقَوَّمْناكَ بِسُيُوفِنا ، فَقالَ : (الحَمْدُ للهِ الَّذي جَعَلَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مَنْ إِذا رَأَى فِيَّ اعْوِجاجًا قَوَّمَنِي بِسَيْفِهِ) .

۞ ومِمَّا أَعْتَقِدُهُ أَنَّ اللهَ تَعالَى قَدْ عَمَّمَ رِسالَتَهُ ﷺ فِي الزَّمانِ والمَكانِ فَأَرْسَلَهُ إِلَى جَمِيعِ المُكَلَّفِينَ مِنَ الإِنْسِ والجِنِّ لِقَوْلِهِ ﷺ : (بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كافَّةً)[3] ، ولِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [4] ، ومَنْ نَفَى رِسالَتَهُ ﷺ إِلَى النَّاسِ كُلًّا أَوْ بَعْضًا كانَ كَمَنْ نَفَى الإِسْلامَ

وَقَدْ حَوَتْ شَهادَةُ الإِسْلام ۞ مَا قَدْ مَضَىٰ فَافْهَمْ تُصِبْ مَرامِي

۞ ومِمَّا أَعْتَقِدُهُ أَنَّ اللهَ تَعالَى خَتَمَ بِهِ ﷺ النُّبُوَّةَ والرِّسالَة ، قالَ اللهُ

---

(١) أَخْرَجَهُ الإِمامُ أَحْمَدُ والحاكِم .
(٢) اعْوِجاجًا : يَعْنِي مَيْلًا عَنِ الحَقِّ .
(٣) أَخْرَجَهُ البُخارِي وغَيْرُهُ .
(٤) سُورَةُ سَبَأ : مِنَ الآيَة ٢٨ .

تعالَى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (١)، فَلا نَبِيَّ بَعْدَهُ ﷺ ، وما جاءَ بِهِ مِنَ الأَحْكامِ قُرْآنِيَّةً كانَتْ أَوْ سُنِّيَّةً لا يُنْسَخُ بِشَرْعِ غَيْرِهِ لا كُلًّا ولا بَعْضًا بَلْ هُوَ ناسِخٌ لِكُلِّ شَرِيعَةٍ جاءَتْ قَبْلَهُ ، وأَمَّا نَسْخُ بَعْضِ شَرِيعَتِهِ بِبَعْضٍ آخَرَ مِنْها فَهُوَ جائِزٌ واقِعٌ ؛ كَعِدَّةِ المُتَوَفَّىٰ عَنْها زَوْجُها فَإِنَّها كانَتْ تَعْتَدُّ بِسَنَةٍ أَوَّلًا لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ (٢)، ثُمَّ نُسِخَ بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (٣).

❁ ومِمَّا أَعْتَقِدُهُ أَنَّ اللهَ تَعالَى أَسْرَى بِهِ ﷺ لَيْلًا مِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ (٤)، وأَنَّ ذَلِكَ كانَ بِالجَسَدِ والرُّوحِ ، كانَ ﷺ عِنْدَ البَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ واليَقْظانِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ عَمِّهِ حَمْزَةَ رضي الله عنه وابْنِ عَمِّهِ جَعْفَرٍ رضي الله عنه فَجاءَتِ المَلائِكَةُ فَأَيْقَظَتْهُ ، وشَقَّ صَدْرَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام واسْتَخْرَجَ قَلْبَهُ وغَسَلَهُ بِماءِ زَمْزَمَ ثُمَّ أَعادَهُ مَكانَهُ بَعْدَ أَنْ مَلَأَهُ إِيمانًا وحِكْمَةً :

---

(١) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٤٠ .
(٢) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٤٠ .
(٣) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٣٤ .
(٤) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ١ .

وَمَا أَخْرَجَ الأَمْلاكُ مِنْ صَدْرِهِ أَذَى ۞ وَلَكِنَّهُمْ زَادُوهُ طُهْرًا عَلَى طُهْرِ

ثُمَّ رَكِبَ ﷺ البُراقَ مُسْرَجًا مُلْجَمًا وسارَ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى فَرَأَى ما رَأَى مِنَ العَجائِبِ فِي مَسْراهُ ، وأُحْضِرَ لَهُ ﷺ الأَنْبِياء - عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ - وصَلَّى بِهِمْ وبِالمَلائِكَةِ إِمامًا ، ونُصِبَ لَهُ ﷺ المِعْراجُ فَصَعِدَ إِلَى سَماءِ الدُّنْيا فَرَأَى سَيِّدَنا آدَمَ عليه السلام فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ صَعِدَ ﷺ إِلَى السَّماءِ الثَّانِيَةِ فَرَأَى سَيِّدَنا يَحْيَىٰ عليه السلام وسَيِّدَنا عِيسَىٰ عليه السلام فَسَلَّمَ عَلَيْهِما ، ثُمَّ صَعِدَ إِلَى الثَّالِثَةِ فَرَأَى سَيِّدَنا يُوسُفَ عليه السلام فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ إِلَى الرَّابِعَةِ فَرَأَى سَيِّدَنا إِدْرِيسَ عليه السلام فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ إِلَى الخامِسَةِ فَرَأَى سَيِّدَنا هارُونَ عليه السلام فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ إِلَى السَّادِسَةِ فَرَأَى سَيِّدَنا مُوسَىٰ عليه السلام فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ إِلَى السَّابِعَةِ فَرَأَى سَيِّدَنا إِبْراهِيمَ الخَلِيلَ عليه السلام فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، ورَأَى ﷺ البَيْتَ المَعْمُورَ وإِذا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يَعُودُونَ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ وهُوَ بِحِذاءِ الكَعْبَةِ ، ثُمَّ إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى وإِلَيْها يَنْتَهِي ما يَعْرُجُ مِنَ الأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْها ، وإِلَيْها يَنْتَهِي ما يَهْبِطُ مِنْ فَوْقٍ فَيُقْبَضُ مِنْها ، وإِذا فِي أَصْلِها أَرْبَعَةُ أَنْهارٍ نَهْرانِ باطِنانِ ونَهْرانِ ظاهِران ، فَأَمَّا الباطِنانِ فَهُما فِي الجَنَّةِ ، وأَمَّا الظاهِرانِ فالنِّيلُ والفُرات ، ورَأَى ﷺ ما رَأَى هُناكَ مِنَ العَجائِبِ ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ ﷺ

لِمُسْتَوًى سَمِعَ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلامِ ثُمَّ غَشِيَتْهُ سَحابَةٌ فِيها مِنْ كُلِّ لَوْنٍ فَتَأَخَّرَ جِبْرِيلُ فارْتَفَعَتْ بِهِ حَيْثُ شاءَ اللّٰهُ ، فَرَآهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى لا فِي جِهَةٍ ولا بِانْحِصارٍ مُنَزَّهًا عَنْ صِفاتِ الحَوادِثِ لا بِقَلْبِهِ فَقَطْ بَلْ وبِعَيْنَيْ رَأْسِهِ : ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ فَخَرَّ ﷺ ساجِدًا وكَلَّمَهُ رَبُّهُ بِما شاءَ ، وافْتَرَضَ عَلَيْهِ وعَلَى أُمَّتِهِ خَمْسِينَ صَلاةً كُلَّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ ، فَنَزَلَ ﷺ إِلَى سَيِّدِنا مُوسَى عليه السلام فَقالَ : ما فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ ؟ قالَ : خَمْسِينَ صَلاةً ، قالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ فَقالَ : يا رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي ، فَحَطَّ عَنْهُ خَمْسًا ، فَلَمْ يَزَلْ ﷺ يَرْجِعُ بَيْنَ مُوسَى ورَبِّهِ ، ويَحُطُّ خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قالَ رَبُّ العِزَّةِ : يا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَواتٍ كُلَّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ ، كُلُّ صَلاةٍ بِعَشْرٍ فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلاةً ما يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ .

واعْلَمْ أَنَّ ذَهابَهُ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ يُقالُ لَهُ إِسْراءٌ ، وصُعُودَهُ ﷺ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلَى مَكانِ الخِطابِ يُقالُ لَهُ المِعْراج .

❁ ومِمَّا أَعْتَقِدُهُ أَنَّ اللّٰهَ تَعالَى كَلَّمَ سَيِّدَنا مُوسَى عليه السلام عَلَى الجَبَلِ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (١) ، وقَوْلِهِ جَلَّ وعَلا :

---

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ١٦٤ .

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [1] ، أَيْ أَزالَ عَنْهُ الحِجابَ وأَسْمَعَهُ الكَلامَ القَدِيمَ ثُمَّ أَعادَ الحِجابَ ولَيْسَ المَعْنَى أَنَّهُ - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - ابْتَدَأَ كَلامًا ثُمَّ سَكَتَ لأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ أَزَلًا أَبَدًا ، ورُوِيَ أَنَّ سَيِّدَنا مُوسَى عليه السلام عِنْدَ قُدُومِهِ مِنَ المُناجاةِ كانَ يَسُدُّ أُذُنَيْهِ لِئَلَّا يَسْمَعَ كَلامَ الخَلْقِ .

۞ ومِمَّا أَعْتَقِدُهُ مَنْعُ اسْتِراقِ السَّمْعِ بِبَعْثِهِ ﷺ قالَ تَعالَى : ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [2] .

وأَنَّهُ لا يَبْلَى جَسَدُهُ الشَّرِيفُ ﷺ وكَذا سائِرُ الأَنْبِياءِ كَما رَواهُ أَبُو داودَ وغَيْرُهُ ، وأَنَّهُ ﷺ حَيٌّ فِي حُجْرَتِهِ الشَّرِيفَةِ وكَذا سائِرُ الأَنْبِياءِ أَيْضًا ، ولِهَذا قِيلَ لا عِدَّةَ عَلَى أَزْواجِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ .

وقَدْ وَقَعَ لِبَعْضِ العارِفِينَ مُخاطَبَتُهُ لَهُ ورَدُّهُ عَلَيْهِ ﷺ ، ومِنْ ذَلِكَ ما تَواتَرَ عَنِ القُطْبِ الرِّفاعِي رضي الله عنه حَتَّى صارَ مَعْلُومًا بِالضَّرُورَةِ فِي حالَةِ زِيارَتِهِ لِحَضْرَتِهِ ﷺ بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ سَنَةَ ٥٥٥ هـ ، قائِلًا فِي المُواجَهَةِ الشَّرِيفَةِ[3] :

فِي حَالَةِ الْبُعْدِ رُوحِي كُنْتُ أُرْسِلُهَا ۞ تُقَبِّلُ الْأَرْضَ عَنِّي وَهْيَ نَائِبَتِي

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ١٤٣ . (٢) سُورَةُ الجِنِّ : مِنَ الآيَة ٩ .

(٣) انْظُرْ تَفاصِيلَ ذَلِكَ فِي كِتابِي (تُحْفَةُ الأَحْبابِ المُرَصَّعَة بِمَعْرِفَةِ الأَقْطابِ الأَرْبَعَة) ج١/ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

وَهَـذِهِ دَوْلَةُ الْأَشْبَاحِ قَدْ حَضَرَتْ ۞ فَامْدُدْ يَمِينَكَ كَيْ تَحْظَى بِهَا شَفَتِي

فَمَدَّ لَهُ ﷺ يَدَهُ الشَّرِيفَةَ فَقَبَّلَها وشاهَدَ ذَلِكَ الحاضِرُونَ مِنَ العارِفِينَ والحُجَّاجِ الزَّائِرِينَ ، ويُؤَيِّدُ ذَلِكَ ما جاءَ فِي رِوايَةٍ للطَّبَرانِي أَنَّهُ ﷺ قالَ : (لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا بَلَغَتْنِي صَلاتُهُ) ، قُلْنا يا رَسُولَ اللّهِ وبَعْدَ وَفاتِكَ ؟ قالَ ﷺ : (وبَعْدَ وَفاتِي ، إِنَّ اللّهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسادَ الأَنْبياء) .

وعَنِ العارِفِ الوَفائِي قالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ فَقالَ لِي عَنْ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ : (لَسْتُ بِمَيِّتٍ وإِنَّما مَوْتِي عِبارَةٌ عَنْ تَسَتُّرِي عَمَّنْ لا يَفْقَهُ عَنِ اللّهِ ، وأَمَّا مَنْ يَفْقَهُ عَنِ اللّهِ فَها أَنا ذا أَراهُ ويَرانِي) .

سَكَنَ الْمَدِينَةَ جِسْمُهُ لَكِنَّهُ ۞ مَلأَ الْعَوالِمَ كُلَّهَا إِشْرَاقُهُ

ومِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّهُ ﷺ وُلِدَ بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ فِي المَكانِ المَعْرُوفِ بِسُوقِ اللَّيْلِ قُبَيْلَ فَجْرِ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ ثانِي عَشَرَ رَبِيعِ الأَوَّلِ (عَلَى المَشْهُورِ) وهَذِهِ اللَّيْلَةُ أَفْضَلُ مِنْ لَيْلَةِ القَدْرِ ، ويُسْتَجابُ الدُّعاءُ فِي السَّاعَةِ الَّتِي وُلِدَ فِيها ﷺ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ، وأَنَّهُ بُعِثَ بِها وهاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ فَقَدِمَ إِلَيْها يَوْمَ الإِثْنَيْنِ ثانِي عَشَرَ رَبِيعِ الأَوَّلِ ، وبِها تُوُفِّيَ ﷺ ودُفِنَ وعُمُرُهُ ثَلاثٌ وسِتُّونَ سَنَةً .

ومِمَّا يَنْبَغِي أَيْضًا مَعْرِفَةُ نَسَبِهِ ﷺ مِنْ جِهَةِ أَبِيهِ ومِنْ جِهَةِ أُمِّهِ .

فَأَمَّا نَسَبُهُ ﷺ مِنْ جِهَةِ أَبِيهِ : فَهُوَ سَيِّدُنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنافِ بنِ قُصَيِّ بنِ كِلابِ بنِ مُرَّةَ بنِ كَعْبِ ابنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرِ بنِ مالِكِ بنِ النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ بنِ خُزَيْمَةَ ابنِ مُدْرِكَةَ بنِ إلْياسَ بنِ مُضَرَ بنِ نِزارِ بنِ مَعَدِّ بنِ عَدْنانَ الَّذِي يَنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَى سَيِّدِنا إِسْماعِيلَ الذَّبِيحِ ابنِ سَيِّدِنا إِبْراهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمٰنِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام .

وأَمَّا نَسَبُهُ ﷺ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ : فَهُوَ سَيِّدُنا مُحَمَّدُ بنُ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبِ ابنِ عَبْدِ مَنافِ بنِ زُهْرَةَ بنِ كِلابٍ المَذْكُورِ سابِقًا فَهِيَ تَجْتَمِعُ مَعَهُ ﷺ فِيهِ .

ومِمَّا يَنْبَغِي أَنْ نَعْرِفَ أَوْلادَهُ الكِرامَ عَلَيْهِ وعَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؛ أَمَّا بَناتُهُ ﷺ فَأَرْبَعٌ : زَيْنَبُ ورُقَيَّةُ وأُمُّ كُلْثُوم وفاطِمَةُ الزَّهْراءُ ، وأَمَّا أَبْناؤُهُ فَثَلاثَةٌ : القاسِمُ وعَبْدُ اللهِ (وهُوَ المُلَقَّبُ بِالطَّيِّبِ والطَّاهِرِ) وإِبْراهِيمُ وكُلُّهُمْ مِنْ سَيِّدَتِنا خَدِيجَةَ رضي الله عنها إِلَّا إِبْراهِيمَ فَإِنَّهُ مِنْ مارِيَةَ القِبْطِيَّة .

فائِدَةٌ : أَخْوالُ النَّبِيِّ ﷺ ثَلاثَةٌ وخالاتُهُ اثْنَتان ، وقَدْ نَظَمَ بَعْضُهُمْ أَسْماءَهُمْ بِقَوْلِهِ :

خَالُ النَّبِيِّ أَسْوَدٌ عُمَيْرُ ۞ عَبْدُ يَغُوثٍ لَيْسَ فِيهِمْ ضَيْرُ

فُرَيْضَةٌ فَاخِتَةٌ خَالاتُ ۞ وَالْكُلُّ قَبْلَ بَعْثِهِ قَدْ مَاتُوا

وزَوْجاتُهُ ﷺ أُمَّهاتُ المُؤْمِنين : إِحْدَى عَشْرَةَ وهُنَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ : ١) السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد ، ٢) السَّيِّدَةُ عائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرِالصِّدِّيق ، ٣) السَّيِّدَةُ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب ، ٤) السَّيِّدَةُ أُمُّ سَلَمَةَ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ (واسْمُها هِنْدُ بِنْتُ حُذَيْفَة) ، ٥) السَّيِّدَةُ أُمُّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيان (واسْمُها رَمْلَة) ، ٦) السَّيِّدَةُ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَة ، ٧) السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْش ، ٨) السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَة (وتُوفِّيَتْ هِيَ والسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رضي الله عنها فِي حَياتِهِ ﷺ ، ٩) السَّيِّدَةُ مَيْمُونَةُ بِنْتُ الحارِث ، ١٠) السَّيِّدَةُ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحارِث ، ١١) السَّيِّدَةُ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيّ .

وأَعْمامُهُ ﷺ بَنُو عَبْدِ المُطَّلِب : اثْنا عَشَرَ عَمًّا وهُمْ : الحارِث ، وأَبُو طالِب ، والزُّبَيْر ، وحَمْزَة ، وأَبُو لَهَب ، والغَيْداق ، والمُقَوِّم ، وضِرار ، والعَبَّاس ، وقُثَم ، وعَبْدُ الكَعْبَة ، وحَجْل .

وعَمَّاتُهُ بَناتُ عَبْدِ المُطَّلِب : سِتٌّ وهُنَّ : عاتِكَة ، وأُمَيَّة ، والبَيْضاء ، وبُرَّة ، وصَفِيَّة ، وأَرْوَىٰ .

۞ ومِمَّا أَعْتَقِدُهُ أَنَّ اللهَ تعالَى شَرَّفَ أُمَّتَهُ ﷺ وفَضَّلَهُمْ عَلَى سائِرِ الأُمَمِ ، وقالَ تعالَى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (١) .

ويَجِبُ إيمانُنا بِالكُتُبِ السَّماوِيَّةِ إجْمالًا وتَفْصِيلًا ، أَمَّا إجْمالًا فَبِأَنْ نَعْتَقِدَ أَنَّ للهِ تعالَى كُتُبًا أَنْزَلَها عَلَى رُسُلِهِ وبَيَّنَ فِيها أَمْرَهُ ونَهْيَهُ ووَعْدَهُ ووَعِيدَهُ ، وأَمَّا تَفْصِيلًا فَبِأَنْ نَعْرِفَ الكُتُبَ الأَرْبَعَةَ وهِيَ التَّوْراةُ لِسَيِّدِنا مُوسَىٰ عليه السلام والزَّبُورُ لِسَيِّدِنا داوُودَ عليه السلام والإنْجِيلُ لِسَيِّدِنا عِيسَىٰ عليه السلام والفُرقانُ لِسَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ .

۞ ومِمَّا أَعْتَقِدُهُ أَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتعالَى حَفِظَ كِتابَهُ العَزِيزَ وهُوَ القُرْآنُ مِنَ التَّبْدِيلِ والتَّحْرِيفِ ؛ قالَ تعالَى : ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٢) ، وقالَ سُبْحانَهُ : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (٣) ، أَيْ مِنَ التَّحْرِيفِ والزِّيادَةِ والنُّقْصان ، فَلَوْ أَرادَ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَهُ بِحَرْفٍ أَوْ نُقْطَةٍ لَقالَ لَهُ أَهْلُ الدُّنْيا : أَنْتَ كَذَّاب ، حَتَّى إنَّ الشَّيْخَ المَهِيبَ لَو اتَّفَقَ لَهُ تَغْيِيرٌ فِي حَرْفٍ مِنْهُ لَقالَ لَهُ الصِّبْيانُ : أَخْطَأْتَ أَيُّها الشَّيْخُ وصَوابُهُ كَذا ، ولَمْ يَتَّفِقْ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ مِنَ الكُتُبِ (لأَنَّهُ لا كِتابٌ إلَّا وقَدْ دَخَلَهُ التَّحْرِيفُ

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١١٠ .
(٢) سُورَةُ فُصِّلَت : مِنَ الآيَة ٤٢ .
(٣) سُورَةُ الحِجْر : مِنَ الآيَة ٩ .

والتَّصْحِيفُ والتَّغْيِيرُ مِنْ عُلَماءِ السُّوءِ) مَعَ أَنَّ دَواعِيَ المُلْحِدَةِ واليَهُودِ والنَّصارَىٰ مُتَوافِرَةٌ عَلَى إِبْطالِهِ وإِفْسادِهِ .

❁ ومِمَّا أَعْتَقِدُهُ أَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَى ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ جَمِيعُ الكُتُبِ ، وأَنَّهُ تَعالَى يَسَّرَ حِفْظَهُ لِمُتَعَلِّمِيهِ ؛ قالَ تَعالَى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ (١) ، فَحِفْظُهُ مُيَسَّرٌ لِلغُلامِ فِي أَقْرَبِ زَمانٍ ، وسائِرُ الأُمَمِ لا يَحْفَظُونَ كُتُبَهُمْ ، وأَنَّهُ آيَةٌ باقِيَةٌ ما بَقِيَتِ الدُّنْيا ، وأَنَّهُ ناسِخٌ لِجَمِيعِ الكُتُبِ الَّتِي قَبْلَهُ ، اللَّهُمَّ وَفِّقْنا لِلعَمَلِ والتَّمَسُّكِ بِهِ يا كَرِيم .

أَسْكَنَنا اللهُ بِمَحْضِ فَضْلِهِ وجُودِهِ مُبَوَّأً فِي سَفِينَةِ الصَّالِحِينَ الرُّوَّاد ، وأَفاضَ عَلَيْنا بِبَرَكَتِهِمْ سابِغَ نِعْمَةِ الإِمْداد ، بِجاهِ مَنْ يَسْقِي مِنْ نَبْعِهِ الصَّافِي الوُرَّاد .

فَعَلَيْكَ الصَّلاةُ مَا سَارَ رَكْبٌ ❁ فِي الدَّيَاجِي وَمَا تَرَنَّمَ حَادِ
وَعَلَى آلِكَ الْكِرَامِ وَأَصْحَا ❁ بِكَ أَهْلِ الْمَنَاقِبِ الْأَمْجَادِ
وَعَلَى التَّابِعِينَ وَالْقُطْبِ وَالْأَبْـ ❁ ـدَالِ وَالْأَنْجَابِ وَالْأَوْتَادِ
الرَّاجِي صُحْبَةَ تِلْكَ الثُّلَّةِ الأَجْوادِ
سَعِيدٌ أَبُو الأَسْعَادِ

---

(١) سُورَةُ القَمَر : مِنَ الآيَة ١٧ .

شَرابُ النَّبْعِ الرَّوِيِّ

فِي صُحْبَةِ الصَّالِحِ الوَلِيِّ

إِنَّ مَحَبَّةَ اللهِ ورَسُولِهِ والصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِ اللهِ المَشايِخِ الدَّالِّينَ عَلَى اللهِ بِاللهِ أَصْلُ جَمِيعِ الخَيْراتِ و بِها يَقْطَعُ المُرِيدُ سائِرَ العَقَباتِ ، بَلْ هِيَ أَصْلٌ فِي الإِيمانِ كَما يَشْهَدُ لَهُ حَدِيثُ : (أَلا لا إِيمانَ لِمَنْ لا مَحَبَّةَ لَهُ) ، وحَدِيثُ : (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ والِدِهِ ووَلَدِهِ والنَّاسِ أَجْمعِينَ) ، وقَوْلُ سَيِّدِنا عُمَرَ رضي الله عنه لَهُ ﷺ ومُراجَعَتُهُ إِيَّاهُ حَتَّى قالَ لَهُ سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه : (والَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكَ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي الَّتي بَيْنَ جَنْبَيَّ) ، فَقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : (الآنَ يا عُمَرُ تَمَّ إِيمانُكَ) .

قالَ بَعْضُ العارِفِينَ : (تَقْدِيرُ كَلامِهِ ﷺ لاتَصْدُقُ فِي حُبِّي حَتَّى تُؤْثِرَ رِضايَ عَلَى هَوَاك ، وإِن كانَ فِيهِ الهَلاك) ، ثُمَّ قالَ بَعْدَ ما أَطالَ فِي تَعْظِيم مَحَبَّةِ المُصْطَفَىٰ وآلِهِ أَهْلِ المَوَدَّةِ والصَّفا : ولا شَكَّ أَنَّ مَشايِخَ الطَّرِيقِ قَدْ ثَبَتَتْ لَهُمُ الخِلافَةُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، فَهُمْ أَصْحابُ الوِراثَةِ ، فَطاعَتُهُمْ طاعَةُ الرَّسُولِ ، وطاعَةُ الرَّسُولِ طاعَةُ اللهِ ؛ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ

إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ .

فَمَحَبَّةُ المَشايِخِ الرَّاشِدِينَ المَأْذُونِينَ سَفِينَةُ المُرِيدِينَ بِها يَعْبُرُونَ بُحُورَ نُفُوسِهِمْ ؛ إِذِ السَّيْرُ بِالمَحَبَّةِ كالسَّيْرِ بِالخُطْوَةِ يَصِلُ صاحِبُها إِلَى مَقاماتٍ فِي الزَّمَنِ اليَسِيرِ ما لَمْ يَصِلْهُ غَيْرُهُ فِي المُدَّةِ الطَّوِيلَةِ .

قالَ مَوْلانا العَرَبِي الدَّرْقاوِي : الشَّوْقُ يُوَصِّلُ إِلَى اللهِ بِالطَّرِيقِ أَوْ بِغَيْرِ طَرِيقٍ لأَنَّ ثَمَراتِ الأَعْمالِ كُلِّها راجِعَةٌ إِلَى المَحَبَّةِ والشَّوْقِ ، ولا فَرْقَ بَيْنَ المَحَبَّةِ والشَّوْقِ إِذْ هُما اسْمانِ لِشَيْءٍ واحِدٍ ، والمُتَمَسِّكُ بِالمَحَبَّةِ لا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنَ الخَيْرِ والسِّرِّ .

وكانَ العارِفُ بِاللهِ سَيِّدِي أَحْمَدُ بنُ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ : إِنَّها المَحَبَّةُ عَلَى طَرِيقِ الإِشارَةِ ، ويُشِيرُ إِلَيْها أَيْضًا بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ .

فاعْمَلْ أَيُّها المَحْسُوبُ عَلَى الخَواصِّ عَلَى الإِخْلاصِ فِي وُدِّكَ صادِقًا فِي مَحَبَّتِكَ، واجْتَهِدْ فِي الأَحْوالِ الَّتي تُوجِبُ لَكَ ذَلِكَ مِنْ بَذْلِكَ لِمالِكَ ورُوحِكَ وتَرْكِ المَأْلُوفاتِ وخَرْقِ العاداتِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الأُمُورَ جُبِلَتِ

النُّفُوسُ عَلَى حُبِّ الأَوَّلَيْنِ مِنْها وبُغْضِ الآخِرَيْنِ ، والشَّيْءُ المَحْبُوبُ لا يُبْذَلُ إلاَّ فِيما هُوَ أَحَبُّ مِنْهُ كَما يَشْهَدُ لِذَلِكَ الحِسُّ والواقِع .

اللَّهُمَّ زَيِّنْ ظَواهِرَنا وبَواطِنَنا بِأَنْوارِ الصَّلاةِ والسَّلام عَلَى خَيْرِ مَنْ طابَ بِهِ الافْتِتاحُ وتَعَطَّرَ بِطِيبِ الثَّناءِ عَلَيْهِ المَجْلِسُ ولَذَّ بِهِ الاخْتِتام ، سَيِّدِنا وسَنَدِنا ومَوْلانا مُحَمَّدٍ أَفْضلِ مَوْجُودٍ وأَكْمَلِ مَوْلُودٍ وتاجِ الرُّسُلِ الكِرام ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ وبارِكْ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ صَلاةً تُغْرِقُنا بِها فِي بَحْرِ مَوَدَّتِهِ وحُبِّهِ ، وتَجْعَلُنا بِها مِنْ كُمَّلِ طائِفَتِهِ النَّاجِيَةِ وحِزْبِهِ ، آمِين .

❁ ومِنْ عَلاماتِ مَحَبَّتِهِ ﷺ : مَحَبَّةُ سادَتِنا مَشايِخِ الطَّرِيقِ الدَّالِّينَ عَلَى اللهِ تَعالَى بِوَصْفَيِ الحَقِّ والتَّحْقِيقِ ، الصُّوفِيَّةِ الَّذِينَ صَفَّى اللهُ قُلُوبَهُمْ مِنَ الأَغْيار ، وطَهَّرَها مِنْ سائِرِ الشَّوائِبِ والأَكْدار ، ومَلأَها بِأَسْرارِ شَرِيعَتِهِ وأَنْوارِ حَقِيقَتِهِ بِكَمالِ مَحَبَّتِهِ تَعالَى ومَحَبَّةِ النَّبِيِّ المُخْتار ﷺ ، وأَتْحَفَهُمْ بِحَمْلِ رايَةِ الوِلايَة ، وتَوَّجَهُمْ بِتاجِ العِزِّ والعِنايَةِ والوَقار ، وجَعَلَهُمْ بَلْسَمًا يُسْتَشْفَى بِهِ مِنْ سائِرِ الأَمْراض ، وحِصْنًا مَنِيعًا وسَبَبًا قَوِيًّا لِقَضاءِ جَمِيعِ الأَغْراض ، وكَذا مَحَبَّةُ كُلِّ مَنِ انْتَهَى إِلَيْهِمْ وحُسِبَ عَلَيْهِمْ ؛ لأَنَّ العَبِيدَ يَشْرُفُونَ بِشَرَفِ ساداتِهِمْ

ويكْرُمُونَ بِكَرامَةِ مَواليهِمْ .

لِي سَادَةٌ مِنْ حُبِّهِمْ ۞ أَقْدَامُهُمْ فَوْقَ الْجِبَاهْ

إِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ فَلِي ۞ فِي حُبِّهِمْ عِزٌّ وَجَاهْ

وإِنَّما خُصُّوا بِالذِّكْرِ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِقْلالِ ، وإِنْ كانُوا داخِلِينَ فِي فَضْلِ العُلَماءِ قَبْلُ بِلا شَكٍّ ولا خَيال ، لِما خُصُّوا بِهِ مِنْ مَزِيدِ المَزايا ، وحُلُّوا بِهِ مِنَ الأَنْوارِ والأَسْرارِ فِي السِّرِّ والإِعْلانِ بِفَضْلِ رَبِّ البَرايا ، وهَذا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ عِنْدَ الخُصُوص ، حَسْبَما بَسَطُوهُ فِي كُتُبِهِمْ واسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِنُصُوص .

اللَّهُمَّ أَكْرِمْنا بِمَحَبَّتِهِمْ وتَعْظِيمِهِمْ وتَوْقِيرِهِمْ وأَمِتْنا عَلَى ذَلِكَ ، واحْشُرْنا فِي زُمْرَتِهِمْ ولا تَحْجُبْهُمْ عَنَّا بِذُنُوبِنا ، ولا تَجْعَلِ الدُّنْيا أَكْبَرَ هَمِّنا ولا مَبْلَغَ عِلْمِنا ، ولا إِلَى النَّارِ مَصِيرَنا ، ولا تُسَلِّطْ عَلَيْنا بِذُنُوبِنا مَنْ لا يَرْحَمُنا ، وافْعَلْ ذَلِكَ بِسائِرِ أَحْبابِنا وكُلِّ مَنْ كانَ مِنَّا وإِلَيْنا ، فَإِنَّ مَحَبَّتَهُمْ عَلامَةُ مَحَبَّتِكَ ومَحَبَّةِ رَسُولِكَ مَوْلانا مُحَمَّدٍ ، والعَكْسُ بِالعَكْسِ عِياذًا بِاللهِ .

أَيُّهَا الْمُعْرِضُ عَنَّا ۞ إِنَّ إِعْرَاضَكَ مِنَّا

لَوْ أَرَدْنَاكَ جَعَلْنَا ۞ كُلَّ مَا فِيكَ يُرِدْنَا

نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ والعافِيَة ، مِنْ أَسْبابِ الخَسارَةِ والرَّزِيَّة ، بِجاهِ خَيْرِ البَرِيَّة ﷺ آمين .

۞ وقَدْ نَصَّ غَيْرُ واحِدٍ مِنَ الأَكابِرِ عَلَى وُجُوبِ تَوْقِيرِ المَشايِخِ وبِرِّهِمْ وتَوْقِيرِ تلامِذَتِهِمْ ومُرِيدِيهِمْ ، وذَكَرُوا أَنَّهُ يُنالُ بِمَحَبَّتِهِمْ وزِيارَتِهِمْ وخِدْمَتِهِمْ والأَدَبِ مَعَهُمْ والإِحْسانِ إِلَيْهِمْ مِنَ الفَضْلِ ما لا يُنالُ بِكَثِيرٍ مِنَ الطَّاعاتِ وأَنْواعِ المُجاهَداتِ كَما هُوَ مُشاهَدٌ فِي سائِرِ الأَقْطارِ فِي جَمِيعِ الأَعْصارِ ، وفِي ذَلِكَ امْتِثالُ أَمْرِ اللهِ وأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ ، قالَ اللهُ العَظِيم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ : ذَكَرَ صاحِبُ (رُوحِ البَيانِ) أَنَّ المُرادَ بِأُولِي الأَمْرِ عَلَى الحَقِيقَةِ المَشايِخُ العارِفُونَ الدَّالُّونَ عَلَى اللهِ تَعالَى الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ النَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ بِاللهِ للهِ فِي اللهِ ، وقَدْ وَرَدَ فِي الأَثَرِ : (بَجِّلُوا المَشايِخَ فَإِنَّ تَبْجِيلَهُمْ مِنْ تَعْظِيمِ جَلالِ اللهِ) ، وقالَ ﷺ : (أَكْرِمُوا العُلَماءَ فَإِنَّهُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ ، فَمَنْ أَكْرَمَهُمْ فَقَدْ أَكْرَمَ اللهَ ورَسُولَهُ) ، وقالَ ﷺ : (مَنْ وَقَّرَ عالِمًا فَقَدْ وَقَّرَ رَبَّهُ) ، وقالَ ﷺ : (النَّظَرُ إِلَى الوَلِيِّ عِبادَة) ، وقالَ ﷺ : (الخَدِيمُ لأَوْلِياءِ اللهِ فِي أَمانِ اللهِ ما دامَ فِي خِدْمَةِ أَخِيهِ المُؤْمِن) ، وقَدْ جاءَ فِي الأَثَرِ : (خِدْمَةُ

الوَلِيِّ سَنَةً خَيْرٌ مِنْ عِبادَةِ سِتِّينَ سَنَةً) ، وقالَ الشَّيْخُ (زَرُّوق) حاكِيًا عَنْ شَيْخِهِ (الحَضْرَمِي) قالَ : رَأَى بَعْضُ الأَكابِرِ النَّبِيَّ ﷺ فِي المَنامِ فَقالَ لَهُ : يا رَسُولَ اللهِ ما أَدْرَكْناكَ حَيًّا نَسْأَلُكَ عَنْ أَفْضَلِ الأَعْمالِ ؟ فَقالَ لَهُ ﷺ : (أَفْضَلُ الأَعْمالِ وُقُوفُكَ - وفِي رِوايَةٍ جُلُوسُكَ - بَيْنَ يَدَي وَلِيٍّ مِنْ أَوْلِياءِ اللهِ قَدْرَ حَلْبِ شاةٍ) ، قالَ السَّائِلُ : يا رَسُولَ اللهِ حَيًّا كانَ أَوْ مَيِّتًا ؟ فَقالَ ﷺ : (حَيًّا أَوْ مَيِّتًا) .

وقالَ الشَّيْخُ العَرَبِي الدَّرْقاوِي : (ما نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيا والجُلُوسِ بَيْنَ يَدَي الأَوْلِياء) .

وقالَ سَيِّدِي مُحَمَّدُ بنُ ناصِر : (مَنْ تَأَدَّبَ مَعَ شَيْخِهِ تَأَدَّبَ مَعَ رَبِّهِ) .

وقالَ سَيِّدِي مُحَمَّدُ بنُ سُلَيْمانَ الجَزُولِي : (ومِنْ فَضائِلِ خِدْمَةِ الأَوْلِياءِ أَي الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ مَحَبَّتِهِمْ وتَعْظِيمِهِمْ وتَوْقِيرِهِم : اكْتِسابُ العُلُومِ والآدابِ ومَعْرِفَةُ رَبِّ الأَرْبابِ والحِفْظُ مِنَ الذُّنُوبِ والتَّباعُدُ مِنَ العُيُوبِ والوُصُولُ إِلَى عَلَّامِ الغُيُوبِ وإِحْياءُ سُنَّةِ النَّبِيِّ المَحْبُوبِ ؛ فَقَدْ كانَ لَهُ ﷺ خادِمٌ يَخْدِمُهُ : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ .

وقالَ بَعْضُ الكِبارِ : (خِدْمَةُ المُرادِ سُلَّمُ المُرادِ) ، وقالَ غَيْرُهُ : (مَنْ

ظَهَرَتْ وِلايَتُهُ وَجَبَتْ خِدْمَتُهُ) ، وقالَ غَيْرُهُ : (مَن اسْتَخْدَمْناهُ قَدَّمْناهُ) .

وذَكَرَ صاحِبُ سَلْوَةِ الأَنْفاس : (اعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْنا وأَكْبَرِ أَيادِيهِ لَدَيْنا وُجُودَ الأَوْلِياءِ وظُهُورَهُمْ وظُهُورَ أَضْرِحَتِهِم ، وفِي ذَلِكَ مِنَ المَنافِعِ والفَوائِدِ ما لا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ ؛ **فَمِنَ الفَوائِدِ فِي ذَلِكَ** : وُجُودُ البَرَكَةِ بالأَرْضِ ، وكَثْرَةُ النَّفْعِ ، وإِدْرارُ الرِّزْقِ ؛ إِذْ لَوْلاهُمُ ما أَرْسَلَتِ السَّماءُ قَطْرَها ، ولا أَبْرَزَتِ الأَرْضُ نَباتَها ، ولَصُبَّ البَلاءُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ صَبًّا ، لِحَدِيثِ الطَّبَرانِي فِي الأَوْسَطِ عَنْ سَيِّدِنا أَنَسٍ رضي الله عنه رَفَعَهُ : ((لَنْ تَخْلُوَ الأَرْضُ مِنْ أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِثْلَ خَلِيلِ الرَّحْمٰنِ ، فَبِهِمْ تُسْقَوْنَ وبِهِمْ تُنْصَرُون)) ، وفِي لَفْظٍ آخَرَ أَخْرَجَهُ ابنُ حِبَّانَ فِي تارِيخِهِ عَنْ سَيِّدِنا أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعًا : ((لَنْ تَخْلُوَ الأَرْضُ مِنْ ثَلاثِينَ مِثْلَ إِبْراهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمٰنِ ، فَبِهِمْ تُغاثُونَ وبِهِمْ تُرْزَقُونَ وبِهِمْ تُمْطَرُونَ)) ، ووَرَدَ مِنْ طُرُقٍ مَرْفُوعًا : ((لَوْلا عِبادٌ للهِ رُكَّعٌ وأَطْفالٌ رُضَّعٌ وبَهائِمُ رُتَّعٌ لَصُبَّ عَلَيْكُمُ العَذابُ صَبًّا)) .

ومِنْها : أَنَّهُمْ أَحِبَّاءُ اللهِ وأَصْفِياؤُهُ مِنْ خَلْقِهِ ومَظاهِرُ أَنْوارِهِ وأَسْرارِهِ ، وهُمْ أَساسُ الدِّينِ والدُّنْيا ووَرَثَةُ الأَنْبِياءِ ، فَإِذا عُرِفُوا وتَعَلَّقَ بِهِمْ أَحَدٌ أَوِ احْتَفَى بِجَنابِهِمْ وَرِثَ مِمَّا وَرِثُوا وظَفِرَ بِشَيْءٍ مِمَّا ظَفِرُوا لِحَدِيثِ

الصَّحِيحَيْنِ وغَيْرِهِما : ((هُمُ القَوْمُ لا يَشْقىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)) .

ومِنْها : أَنَّ مَنْ أَحَبَّهُمْ ووَاصَلَهُمْ ووَالاهُمْ كانَ مِنْهُمْ واسْتَوْجَبَ مَحَبَّةَ اللّٰهِ ودُخُولَ الجَنَّةِ للحَدِيثِ المُتَواتِرِ : ((المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)) ، وحَدِيثِ أَحْمَدَ وغَيْرِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ سَيِّدِنا عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه مَرْفُوعًا : ((قالَ اللّٰهُ تَعالَى : حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحابِّينَ فِيَّ ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَواصِلِينَ فِيَّ ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَناصِحِينَ فِيَّ ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزاوِرِينَ فِيَّ ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَباذِلِينَ فِيَّ ، المُتَحابُّونَ فِيَّ عَلَى مَنابِرَ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ بِمَكانِهِمُ النَّبِيُّونَ والصِّدِّيقُونَ والشُّهَداءُ)) ، وحَدِيثِ البُخارِي فِي الأَدَبِ وابْنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ والبَيْهَقِيِّ فِي الشُّعَبِ وغَيْرِهِمْ عَنْ سَيِّدِنا أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه رَفَعَهُ : ((إِذا عادَ الرَّجُلُ أَخاهُ أَوْ زارَهُ فِي اللّٰهِ ، قالَ اللّٰهُ لَهُ : طِبْتَ وطابَ مَمْشاكَ وتَبَوَّأْتَ مَنْزِلًا فِي الجَنَّةِ)) .

وفِي كِتابِ بَذْلِ المُناصَحَةِ ؛ قالَ الشَّيْخُ زَرُّوق : (اعْلَمْ أَنَّ رُوحَ الإِسْلامِ حُبُّ اللّٰهِ وحُبُّ رَسُولِهِ وحُبُّ الآخِرَةِ وحُبُّ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِهِ) .

وفِي وَصِيَّةٍ للشَّيْخِ أَبِي الحَسَنِ البُوسِي : (وأَكْثِرُوا مِنْ مَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ فَإِنَّها شِفاءٌ ودَواء) .

وفِي الحَدِيثِ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ قالَ : (يُؤْتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيامَةِ فَيَقِفُ بَيْنَ يَدَي اللهِ تَعالَى فَيَقُولُ لَهُ : يا عَبْدِي هَلْ أَحْبَبْتَ لِي وَلِيًّا فَأَهَبَكَ لَهُ) .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو طالِب المَكِّي : (إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ فَتَحَبَّبْ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ اللهَ تَعالَى يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِهِمْ فَلَعَلَّهُ يَراكَ فِيها فَيُلْحِقَكَ بِهِمْ - وفِي رِوايَةٍ - فَلَعَلَّهُ يَنْظُرُ إِلَى اسْمِكَ فِيها فَيَغْفِرَ لَكَ) .

ومِمَّا يُنْسَبُ للإِمامِ الشَّافِعِيِّ رضي الله عنه :

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَ لَسْتُ مِنْهُمْ ❁ وَأَرْجُو أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهْ

وَأَكْرَهُ مَنْ بِضَاعَتُهُ الْمَعَاصِي ❁ وَإِنْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبِضَاعَهْ

ومِنْها : أَنَّ بِرُؤْيَتِهِمْ والجُلُوسِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ تَصْفُو القُلُوبُ وتُمْحَى عَنْها الكُرُوبُ ، وهُمْ سَبَبُ سَعادَةِ ابْنِ آدَمَ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وقَدْ جاءَ فِي المَقْصَدِ الوَرِيفِ ما نَصُّهُ : لا يَقَعُ نَظَرُ إِنْسانٍ عَلَى الوَلِيِّ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ ولِوالِدَيْهِ إِنْ كانا مُؤْمِنَيْنِ ، ولِسَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، هَذا لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ ، فَكَيْفَ بِمَنْ عَرَفَهُ عَلَى وَجْهِ المِيراثِ والاقْتِباسِ ، وذَلِكَ عَلَى قَدْرِ قَسْمِ اللهِ تَعالَى لِعَبْدِهِ .

وفِي جَواهِرِ المَعانِي قُلْتُ للشَّيْخِ أَبِي العَبَّاسِ أَحْمَدَ التِّجانِي رضي الله عنه :

يا سَيِّدِي ما أَفْضَلُ ، هَلِ النَّوافِلُ والأَذْكارُ وغَيْرُ ذَلِكَ أَمْ مُجالَسَةُ الأَشْياخِ ؟ فَقالَ : بَلْ مُجالَسَةُ الأَشْياخِ أَفْضَلُ لا يُعادِلُها شَيْءٌ ، وجِلْسَتُكَ بَيْنَ يَدَي وَلِيٍّ أَفْضَلُ مِنَ الدُّنْيا وما فِيها .

فَجَالِسْهُمْ تُجَانِسْهُمْ وَتُضْحِي ❁ سَعِيدًا فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ

وَصَاحِبْهُمْ عَلَى مَا يَرْتَضُوهُ ❁ وَكُنْ عَبْدًا عَلَى قَدَمِ الثَّبَاتِ

ومِنْها : أَنَّهُمْ مَفْزَعُ الخائِفِينَ ، ومُسْتَراحُ العاصِينَ والمُذْنِبِينَ ، إِلَيْهِمْ يَلْجَأُ كُلُّ مَكْرُوبٍ وبِهِمْ يَسْلُو كُلُّ مَحْزُونٍ ، وكُلُّ مَنْ نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ أَوْ شِدَّةٌ تَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ وتَوَسَّلَ إِلَى اللهِ بِجاهِهِمْ لأَنَّهُمْ أَبْوابُ اللهِ فِي الأَرْضِ .

ومِنْها : أَنَّهُمْ أَمانُ البِلادِ والعِبادِ ، ورَحْمَةٌ مِنَ اللهِ الكَرِيمِ الجَوَّادِ ، وقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ قُدْسِيٍّ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قالَ : (أُولَئِكَ الَّذِينَ إِذا أَرَدْتُ بِأَهْلِ الأَرْضِ عُقُوبَةً أَوْ عَذابًا ذَكَرْتُهُمْ فَصَرَفْتُ ذَلِكَ عَنْهُمْ) .

ومِنْها : أَنَّهُمْ يَشْفَعُونَ فِي الآخِرَةِ كُلٌّ عَلَى قَدْرِ رُتْبَتِهِ مَعَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، وقَدْ جاءَ أَنَّ الأَنْبِياءَ والرُّسُلَ والمَلائِكَةَ والعُلَماءَ والشُّهَداءَ والأَوْلِياءَ وآلَ البَيْتِ يَشْفَعُونَ يَوْمَ القِيامَةِ ، بَلْ وَرَدَ أَنَّهُ ما مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا ولَهُ شَفاعَةٌ ؛ أَخْرَجَ ابنُ النَّجَّارِ فِي تارِيخِهِ عَنْ سَيِّدِنا أَنَسٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا : (اسْتَكْثِرُوا مِنَ الإِخْوانِ فَإِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ شَفاعَةً يَوْمَ القِيامَةِ) .

فَأَدْنَى انْتِسابٍ لَهُمْ وأَقَلُّ قُرْبٍ مِنْهُمْ نافِعٌ غايَةَ النَّفْعِ حَتَّى مُصافَحَتِهِمْ و مُلاقاتِهِمْ ، ولِلّهِ دَرُّ القائِلِ :

شَابَكْتُهُمْ مُتَبَرِّكًا بِأَكُفِّهِمْ ❁ إِذْ شَابَكُوا كَفًّا عَلَيَّ كَرِيمَهْ

وَلَرُبَّمَا يَكْفِي الْمُحِبَّ تَعَلُّلًا ❁ آثَارُهُمْ وَيَعُدُّ ذَاكَ غَنِيمَهْ

وقالَ بَعْضُ أَهْلِ الإِشارَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ ما نَصُّهُ : أَجْمَعَتِ الأُمَّةُ (أَيْ أَكابِرُ عُلَمائِها) عَلَى أَنَّ الدُّنْيا لا تَخْلُو فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقاتِ مِنْ دُعاةٍ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الهِدايَةِ واتِّباعِ طَرِيقِ الحَقِّ والاسْتِقامَةِ : قالَ تَعالَى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ، فَفِي هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ إِذا دَعا النَّاسَ إِلَى اتِّباعِ الحَقِّ وعِبادَةِ اللهِ تَعالَى كانَ أَفْضَلَ مِمَّنِ اعْتَزَلَ عَنِ النَّاسِ واسْتَغْرَقَ أَوْقاتَهُ بِصالِحِ الأَعْمالِ ؛ فالأُولَى صِفَةٌ مِنْ صِفاتِ المَشايِخِ ولا شَكَّ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ النَّاسِ (بَعْدَ النَّبِيِّينَ والصَّحابَةِ المَرْضِيِّينَ والتَّابِعِينَ المَهْدِيِّينَ) بِدَعْوَتِهِمْ لِطَرِيقِ الحَقِّ ونُصْحِهِمْ لِكافَّةِ الخَلْقِ ، وفِي الحَدِيثِ عَنِ العَلاءِ بنِ عَبْدِالرَّحْمٰنِ عَنْ سَيِّدِنا أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : (مَنْ دعا إِلَى هَذا الأَمْرِ كانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا) ، وقالَ ﷺ : (والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ

لَئِنْ شِئْتُمْ لأَقْسَمْتُ لَكُمْ أَنَّ أَحَبَّ عِبادِ اللهِ إِلَى اللهِ الَّذِينَ يُحَبِّبُونَ اللهَ إِلَى عِبادِهِ ، ويُحَبِّبُونَ عِبادَ اللهِ إِلَى اللهِ ، ويَمْشُونَ فِي الأَرْضِ بِالنَّصِيحَةِ) ، وقالَ ﷺ : (أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِالفَقِيهِ كُلَّ الفَقِيهِ) ، قالُوا : بَلَى يا رَسُولَ اللهِ ، قالَ ﷺ : (مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، ولَمْ يُؤَيِّسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، ولَمْ يَدَعِ القُرْآنَ رَغْبَةً إِلَى ما سِواهُ ، أَلا لا خَيْرَ فِي عِبادَةٍ لَيْسَ فِيها تَفَقُّهٌ ، وعِلْمٍ لَيْسَ فِيهِ تَفَهُّمٌ ، وقِراءَةٍ لَيْسَ فِيها تَدَبُّرٌ) .

فَهَذِهِ كُلُّها صِفَةٌ مَوْجُودَةٌ فِي المَشايِخِ (العارِفِينَ بِاللهِ) وفَضِيلَةٌ عامَّةٌ فِي الكامِلِ مِنْهُمْ والشَّارِخِ ، فَمَرْتَبَتُهُمْ بِهَذِهِ الأَدِلَّةِ أَعْلَى المَراتِبِ ومَنْصِبُهُمْ فِي الشَّرِيعَةِ أَعْلَى المَناصِبِ ، فَهُمْ بَعْدَ الأَنْبِياءِ والرُّسُلِ حُجَّةُ اللهِ عَلَى العِبادِ ورَحْمَةٌ مِنْهُ تَعالَى قَدْ تَفَضَّلَ بِها عَلَى جَمِيعِ البِلادِ ، قَدْ خَصَّهُمُ اللهُ بِالاهْتِداءِ وأَخْلَصَهُمْ للاقْتِداءِ ، فَهُمْ أُولُو الوَقارِ ومَعْدِنُ الأَسْرارِ ، قَدْ حُلُّوا بِحِلْيَةِ اليَقِينِ ، وجُعِلُوا أَئِمَّةً للمُتَّقِينَ ، فَإِنْ رَأَوْا أَحَداً عَلَى قَبِيحٍ صَدُّوه ، وإِنْ عايَنُوهُ عَلَى جَمِيلٍ أَمَدُّوه ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْتَمِسُوا عَلَى إِرْشادِهِمْ غَرَضًا ولا يَعْتاضُوا مِنْهُ عِوَضًا سِوَى ثَوابِ مَوْلاهُمْ ، فَما أَجْدَرَهُمْ بِاسْتِحْقاقِهِ وما أَوْلاهُمْ .

فَعَظِّمُوا يا أُمَّةَ سَيِّدِ الأَنام ، جَمِيعَ مَشايِخِ أَهْلِ الإِسْلام ، ووَقِّرُوهُمْ واحْتَرِمُوهُمْ وأَحِبُّوهُمْ ، تَفُوزُوا بِرِضا المَلِكِ العَلاَّم ، واحْذَرُوا إِذايَتَهُمْ والاعْتِراضَ عَلَيْهِمْ وغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْواعِ سُوءِ الأَدَبِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوقِعُ صاحِبَهُ فِي أَوْدِيَةِ الخَسارَةِ ويَجُرُّهُ إِلَى مَعاطِنِ العَطَبِ ؛ فَفِي الحَدِيثِ القُدْسِيِّ : (أَنَّ اللّٰهَ تَبارَكَ وتَعالَى قالَ : مَنْ عَادىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ) ؛ أَي أَعْلَمْتُهُ بِأَنِّي مُحارِبٌ لَهُ ، وقالَ سَيِّدِي عَبْدُ القادِرِ الجَيْلانِي : (مَنْ وَقَعَ فِي عِرْضِ وَلِيٍّ ابْتَلاهُ اللّٰهُ بِمَوْتِ القَلْبِ والعِياذُ بِاللّٰه) ، وكانَ الشَّيْخُ أَبو عَبْدِ اللّٰهِ القُرَشِي يَقُولُ : (مَنْ غَضَّ مِنْ وَلِيٍّ - أَيْ تَنَقَّصَهُ - ضُرِبَ بِسَهْمٍ مَسْمُومٍ ، ولَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيا حَتَّى تَفْسُدَ عَقِيدَتُهُ فَيَمُوتَ عَلَى أَسْوَأِ حال) ، وكانَ سَيِّدِي أبو العَبَّاسِ المُرْسِيُّ يَقُولُ : (تَتَبَّعْنا أَحْوالَ القَوْمِ فَما رَأَيْنا أَحَدًا آذاهُمْ وأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ومات بِخَيْر) .

إِذا عُلِمَ هَذا ، فَلِلْمَحَبَّةِ نَتائِجُ وآثار ، تَظْهَرُ عَلَى مُدَّعِيها فِي السِّرِّ والجِهار ، أَعْلاها الأَدَبُ مَعَ المَظاهِرِ الخارِجِيَّةِ ، إِذْ بِالأَدَبِ مَعَها نَتَأَدَّبُ مَعَهُ ﷺ ، وبِالأَدَبِ مَعَهُ ﷺ نَتَأَدَّبُ مَعَ رَبِّنا ، وبِالأَدَبِ مَعَ رَبِّنا نَبْلُغُ مَطالِبَنا فِي دُنْيانا وأُخْرانا ، والأَدَبُ رُوحُ الطَّرِيقِ وبُغْيَةُ أَهْلِ الحَقِّ

والتَّحْقِيق ، وعَلَيْهِ المَدارُ بِإجْماعِ الكِبار ، وهُوَ جِماعُ وُجُوهُ الخَيْرِ، وأَعْلَى حُصُونِ الأَمْنِ مِنَ الضَّيْرِ ، وبِهِ يَبْلُغُ الإِنْسانُ مَقامَ القُرْبِ بَعْدَ عَناءِ السَّيْرِ ، وما أَرْوَعَ ما عَبَّرَ بِهِ سَيِّدِي عُمَرُ الرَّافِعِي بِقَوْلِهِ :

هِيَ الْمَحَبَّةُ سِرُّ السِّرِّ فِي الْأَزَلِ ❁ بِهَا الْعَوَالِمُ قَدْ قَامَتْ إِلَى أَجَلِ

بِهَا دَعَا اللهُ دَاعِينَا لِحَضْرَتِهِ ❁ بِأَوَّلِ الْأَنْبِيَا بَلْ خَاتَمِ الرُّسُلِ

لَوْلَاهُ لَمْ يَخْلُقِ الْأَكْوَانَ خَالِقُنَا ❁ فَعِلَّةُ الْخَلْقِ خَيْرُ الْخَلْقِ فِي الْأَزَلِ

أَجَلْ هُوَ النِّعْمَةُ الْكُبْرَىٰ حَوَتْ نِعَمًا ❁ تَفْصِيلُ مُجْمَلِهَا يَحْتَاجُ لِلْجُمَلِ

وَالْمَدْحُ لا شَكَّ عُنْوَانُ الْمَحَبَّةِ بَلْ ❁ دَلِيلُ صِحَّةِ إِيمَانٍ بِلا جَدَلِ

فَنَظْرَةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ تُلْحِقُنِي ❁ بِالسَّابِقِينَ وَإِنْ أَمْشِي عَلَى مَهَلِ

هُوَ الْحَبِيبُ وَمِنْهُ الْحُبُّ قَرَّبَنِي ❁ وَهْوَ الشَّفِيعُ الَّذِي أَرْجُوهُ يَشْفَعُ لِي

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ هَلْ مِنْ نَظْرَةٍ كَرَمًا ❁ لِقَلْبٍ مُضْنًى شَجِيٍّ مِنْ سِوَاكَ خَلِي

وَبِانْتِمَائِي إِلَى عَلْيَاكَ بِابْنَتِكَ الـ ❁ زَّهْرَاءِ حَيْثُ نَمَتْنِي لِلْإِمَامِ عَلِي

جُدْ لِي بِنَفْحَةِ قُرْبٍ مِنْكَ تَحْمِلُنِي ❁ إِلَيْكَ فَالْقُرْبُ عِنْدِي غَايَةُ الْأَمَلِ

عَلَيْكَ وَالْآلِ وَالْأَصْحَابِ قَاطِبَةً ❁ صَلَّىٰ الْمُهَيْمِنُ فِي الْأَبْكَارِ وَالْأُصُلِ



التَّحَلِّي بِالآدابِ المَرْضِيَّة

صِفَةُ سالِكِ طَرِيقِ الصُّوفِيَّة

طَرِيقُ القَوْمِ كُلُّهُ آداب ، لِكُلِّ وَقْتٍ آداب ، ولِكُلِّ مَحَلٍّ آداب ؛ فَإِذا كانَ المُرِيدُ مُتَحَلِّيًا بِحِلْيَةِ الآدابِ المَرْضِيَّة ، فَإِنَّهُ يَصْلُحُ لِسُلُوكِ طَرِيقِ الصُّوفِيَّة ، وحَمْلِ أَسْرارِ الخُصُوصِيَّة ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ مُخامِرٌ باطِنُهُ بِسُوءِ الأَدَبِ وضَعْفِ الاعْتِقادِ الَّذِي يُوجِبُ الانْتِقاد ، وجَزاءُ المُرِيدِ إِذا أَساءَ الأَدَبَ أَنْ يَطْرُدَهُ اللّٰهُ عَنْ صُحْبَةِ أَهْلِ الجادَّةِ المَرْضِيَّة ، ويَبْقَى تائِهًا فِي أَوْدِيَةِ الخَسارَةِ والرَّزِيَّة .

وقَدْ قِيلَ : مَنْ أَساءَ الأَدَبَ بالحَضْرَةِ رُدَّ إِلَى الباب ، ومَنْ أَساءَ الأَدَبَ بِالبابِ رُدَّ إِلَى سَرْحِ الدَّواب ، وهَذا الوَصْفُ يا فَقِيرُ (المُنْتَسِبُ لِطَرِيقِ الصُّوفِيَّة) قَدْ رَأَيْناهُ وسَمِعْناه ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰه .

وقَدْ قالَ أَحَدُ أَكابِرِ الطَّرِيق : إِذا رَأَيْتَ الفَقِيرَ يُعَظِّمُ شَرِيعَةَ الطَّرِيق ، ويَأْخُذُ بِآدابِ أَهْلِ التَّحْقِيق ، فاعْلَمْ أَنَّهُ عَبْدٌ هَداهُ مَوْلاهُ بِسَبْقِ قَدَمِ الصِّدْقِ ، وإِذا رَأَيْتَ الفَقِيرَ مُتَخَلِّيًا عَنْ شَرِيعَةِ الأَدَبِ دَفَعَهُ اللّٰهُ عَنَّا وحَرَمَهُ مِنْ حِمانا جَزاءً وِفاقا ؛ لأَنَّ حَضْرَتَنا عالِيَة ، بِقَدْرِ عُلُوِّ صاحِبِ الأَدَبِ فِيها يَنْزِلُ صاحِبُ سُوءِ الأَدَبِ مَعَها .

وقالَ الشَّيْخُ العَرَبي الدَّرْقاوِي : (إذا حَضَرَ الأَدَبُ حَضَرَ الطَّرِيقُ وإذا غابَ الأَدَبُ فَلا أَدَبٌ ولا طَرِيق) .

وقَدْ قالَ الإمامُ الشَّافِعِيُّ رضي الله عنه : (مَنْ تَأَدَّبَ مَعَ الوَقْتِ فَوَقْتُهُ وَقْت ، ومَنْ لَمْ يَتَأَدَّبْ مَعَ الوَقْتِ فَوَقْتُهُ مَقْت) ، وقالَ أَيْضًا : (الوَقْتُ سَيْفٌ إنْ لَمْ تَقْطَعْهُ قَطَعَكَ) ؛ أَيْ إنْ لَمْ تَقُمْ بِشَرِيعَةِ آدابِهِ صَرَمَ عُمْرَكَ وتَرَكَكَ وهُوَ لا يَعُود .

ولِلّهِ دَرُّ السَّرْقَسْطِي إذْ يَقُولُ فِي مَباحِثِهِ :

فَالْقَوْمُ بِالْآدابِ حَقًّا سَادُوا ❁ مِنْهَا اسْتَفَادَ الْقَوْمُ مَا اسْتَفَادُوا

وَقِيلَ مَنْ يُحْرَمُ سُلْطانَ الْأَدَبْ ❁ فَهْوَ بَعِيدٌ مَا تَدَانَى وَاقْتَرَبْ

وَقِيلَ مَنْ تَحْبِسُهُ الْأَنْسَابُ ❁ فَإِنَّمَا تُطْلِقُهُ الْآدَابُ

وقَدْ قالَ ﷺ : (أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي) .

وقَدْ قالَ سَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُود رضي الله عنه فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ : عَلِّمُوهُم الأَدَبَ لِيَقِيَهُمْ نارَ الحِجابِ وغِلْظَةَ العَذابِ .

وقالَ بَعْضُ العارِفِينَ (وهُوَ البُوزِيدِي) فِي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ ؛ المُرادُ بِهِ الأَدَبُ مَعَ الطَّرِيق .

وبالجُمْلَةِ : فَإِنَّ هَذا الطَّرِيقَ مَبْنِيٌّ أَساسُهُ عَلَى الأَدَبِ مَعَ المَشايِخِ والفُقَراءِ والنَّبِيِّ ﷺ والحَقِّ جَلَّ جَلالُهُ وجَمِيعِ المَظاهِرِ بِدايَةً ونِهايَةً ؛ فِي البِدايَةِ شَرِيعَةٌ وفِي النِّهايَةِ حَقِيقَةٌ ، فِي البِدايَةِ مُجاهَدَةٌ وفِي الوَسَطِ مُكابَدَةٌ وفِي النِّهايَةِ مُشاهَدَةٌ ، وإِنْ رَأَيْتَ مُرِيداً تَعَطَّلَ فَتْحُهُ ووُصُولُهُ فاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ أَخَلَّ بِالآداب ، وكَمْ رَأَيْتُ مِنْ مُرِيدٍ فِي هَذا الطَّرِيقِ وافْتَرَسَتْهُ ذِئابُ الشَّهَواتِ وسِباعُ الهَوَىٰ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

جَعَلَنا اللهُ مِمَّنْ عَرَفَ الحَقَّ وعَرَفَ أَهْلَهُ فَآمَنَ وصَدَّقَ ، آمِين .

فَإِنْ أَرَدْتَ أَيُّها المُرِيدُ أَنْ تَحْظَى بِمُنْيَتِكَ وتَظْفَرَ بِغايَةِ رَغْبَتِكَ فاسْتَغْرِقْ جَمِيعَ أَنْفاسِكَ فِي آدابِ صُحْبَةِ الشَّيْخِ حَتَّى يَكُونَ كُلُّ عُضْوٍ مِنْكَ مَشْحُونًا بِطاقَةِ أَنْظارِهِ ، وتَسْتَعِدَّ مِنْكَ النَّفْسُ لِقَبُولِ دُرَرِهِ وتَحْصِيلِ يَواقِيتِهِ ؛ إِذْ بِالأَدَبِ أَفْلَحَ مَنْ أَفْلَحَ وبِضِدِّهِ خَسِرَ مَنْ خَسِرَ ، ولِذَلِكَ قِيلَ : مَنْ حُرِمَ الأَدَبَ فَقَدْ وَقَعَ فِي العَطَب ، ولا شَكَّ أَنَّ الأَدَبَ أَعْظَمُ رُكْنٍ عِنْدَ القَوْمِ ، بَلْ قالُوا : إِنَّهُ نِهايَةُ الطَّرِيق ، بَلْ قالَ بَعْضُهُمْ : امْتِثالٌ وأَدَب ، وُصُولٌ بِلا تَعَب .

قالَ سَيِّدِي عُمَرُ الحَدَّاد رضي الله عنه : التَّصَوُّفُ كُلُّهُ آداب ، لِكُلِّ وَقْتٍ آداب ،

ولِكُلِّ حالٍ آداب ، ولِكُلِّ مَقامٍ آداب ، فَمَنْ لازَمَ الأَدَبَ بَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجال ، ومَنْ حُرِمَ الأَدَبَ فَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ القُرْبَ ومَرْدُودٌ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ الوُصُولَ ، ولِذَلِكَ تَواطَأَتْ عَلَيْهِ أَلْسِنَتُهُمْ وحَثُّوا عَلَى إِتْيانِهِ وجَعْلِهِ مَطِيَّةً للسَّالِكين .

قالَ قائِلُهُمْ : الأَدَبُ عِنْدَ الأَكابِرِ فِي مَجالِسِ السَّاداتِ مِنَ الأَوْلِياءِ يَبْلُغُ بِصاحِبِهِ إِلَى الدَّرَجاتِ العُلَىٰ والخَيْرِ فِي الدُّنْيا والعُقْبَىٰ ؛ أَلا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ .

وقالَ ذُو النُّونِ المِصْرِي : (إِذا خَرَجَ المُرِيدُ عَنِ اسْتِعْمالِ الأَدَبِ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ جاءَ) .

وقالَ سَيِّدِي مُحَمَّد البُوزِيدي : اعْلَمْ يا أَخِي أَرْشَدَنِي اللهُ وإِيَّاكَ أَنَّ بِالأَدَبِ تُطْوَى المَسافَة ، وبِهِ يَذْهَبُ عَنْكَ ما فِي الطَّرِيقِ مِنَ المَخافَة ، والصُّوفِيَّةُ رضي الله عنهم لا يُعْرَفُونَ ولا يَتَمَيَّزُونَ إِلَّا بِالآدابِ ، إِذِ الشَّرائِعُ كُلُّها آدابٌ مَعَ الحَقِيقَة ، ولَوْلا الأَدَبُ ما ظَهَرَتْ أَسْرارُها ولا أَشْرَقَتْ أَنْوارُها ، ولَيْسَ فِي الوُجُودِ سِوَى الحَقِيقَةِ وإِلَيْهِ الإِشارَةُ بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ، وقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ ،

وقَوْلِهِ تعالَى : ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ ، وقَوْلِهِ : ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ ، إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ عَلَى الأَدَبِ مَعَ الجَمِيعِ فَضْلًا عَنْ أَوْلِيائِهِ تعالَى ، فَعَلَى المُرِيدِ أَنْ يُلْزِمَ نَفْسَهُ الأَدَب ، لِيَنالَ مِنْ أَسْرارِ القُرْبِ العَجَب ، وبِالأَدَبِ الظَّاهِرِ يَحْصُلُ الأَدَبُ الباطِنُ ؛ أَعْنِي التَعْظِيمَ ، إذْ سُوءُ الأَدَبِ يَنْشَأُ عَنْ عَدَمِ التَّعْظِيم ، وعَدَمُ التَّعْظِيمِ مِنْ ضَعْفِ المَحَبَّةِ ، وضَعْفُ المَحَبَّةِ مِنَ الْتِفاتِ القَلْبِ إلَى الغَيْرِ ، فَلَوْ حَصَلَتِ المَحَبَّةُ لَحَصَلَ التَّعْظِيمُ ، ولَوْ حَصَلَ التَّعْظِيمُ لَحَصَلَ الأَدَبُ ، ولَوْ حَصَلَ الأَدَبُ لَحَصَلَ التَّحْقِيق .

وقالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : ومَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَدَبٌ مَعَ طُولِ الصُّحْبَةِ فالواجِبُ عَلَى مُعَلِّمِهِ أَنْ يَدْفَعَهُ إلَى حَضْرَةِ المَخْزَنِ حَتَّى يَتَرَبَّى ويَتَأَدَّبَ وحِينَئِذٍ يَرُدُّهُ إلَيْهِ فَيَسْلُكُ بِهِ الطَّرِيق ، ويَكْشِفُ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ التَّحْقِيق ، فالطَّرِيقُ كُلُّها أَدَبٌ ومَنْ لا أَدَبَ لَهُ لا طَرِيقَ لَهُ .

فالأَدَبُ سَفِينَةُ النَّجاةِ فَمَنْ رَكِبَها نَجا وإنْ كانَ مَعَ جَهْلٍ ؛ وقَدْ رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ مَنْ فِيهِ أَوْصافٌ مَحْمُودَةٌ مَعَ عَدَمِ عِلْمِهِ وقِلَّةِ فَهْمِهِ ورَوْنَقَةُ تِلْكَ الأَوْصافِ ظاهِرَةٌ عَلَيْهِ ، ورَأَيْتُ مَنْ لَهُ عِلْمٌ وفَهْمٌ مَعَ أَوْصافٍ مَذْمُومَةٍ وقَدْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ ظُلْمَةُ تِلْكَ الأَوْصافِ ؛ والمُؤْمِنُ لا يَفُوقُ أَخاهُ

إِلَّا بِحُسْنِ خُلُقِهِ لِقَوْلِهِ ﷺ : (إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القائِمِ وهُوَ غَيْرُ عابِدٍ) ، ولَمَّا كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَعْظَمَ النَّاسِ قَدْراً كانَ أَعْظَمَهُمْ خُلُقًا ، قالَ اللهُ العَظِيم : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .

فالحاصِلُ أَنَّ حُسْنَ الأَدَبِ يُثْمِرُ لَكَ سَنِيَّ الأَحْوال ، ويَبْلُغُ بِكَ إِلَى مَقام الرِّجال ، بِقَلِيلٍ مِنَ الأَعْمال ، فَإِذا تَمَنْطَقْتَ بِمِنْطَقَتِهِ وتَحَلَّيْتَ بِحِلْيَتِهِ ، فاعْلَمْ أَنَّ باطِنَكَ قَدْ تَهَيَّأَ لِقَبُولِ ما تُبْدِيهِ فِكْرَتُهُ مِنْ دُرَرِ بِحارِ العُلُومِ الإِلَهِيَّة ، وإِلَّا فَأَنْتَ بانٍ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هارٍ وضارِبٌ فِي حَدِيدٍ بارِد .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الأَدَبَ لا يَتَكامَلُ للإِنْسانِ إِلَّا بِتَكامُلِ مَكارِمِ الأَخْلاقِ ، ومَجْمُوعُها يَرْجِعُ إِلَى تَحْسِينِ الخُلُقِ ؛ فالخَلْقُ صُورَةُ الإِنْسانِ والخُلُقُ مَعْناهُ ، وقَدْ قالَ تَعالَى : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ ، فَتَبْدِيلُ الأَخْلاقِ مُمْكِنٌ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ بِخِلافِ الخَلْقِ ، وقَدْ رَوِينَا عَنْ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (حَسِّنُوا أَخْلاقَكُمْ) ، وذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ الإِنْسانَ وهَيَّأَهُ لِقَبُولِ الصَّلاحِ والفَسادِ وجَعَلَهُ أَهْلًا لِلأَدَبِ ومَكارِمِ الأَخْلاق ، ووُجُودُ الأَهْلِيَّةِ فِيهِ كَوُجُودِ النَّارِ فِي الزِّنادِ ووُجُودِ النَّخْلِ فِي النَّوَىٰ ، ثُمَّ إِنَّ

اللهَ تعالَى بِقُدْرَتِهِ أَلْهَمَ الإِنْسانَ ومَكَّنَهُ مِنْ إِصْلاحِهِ بِالتَّرْبِيَةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ النَّوَى نَخْلًا ، والزِّنادُ بِالعِلاجِ تَخْرُجُ مِنْهُ النَّار .

وكَما جَعَلَ فِي نَفْسِ الآدَمِيِّ صَلاحِيَةَ الخَيْرِ والشَّرِّ ، أَحالَ الإِصْلاحَ والإِفْسادَ عَلَيْهِ ، فَقالَ : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ ؛ فَتَسْوِيَتُها بِصَلاحِيَتِها لِلشَّيْئَيْنِ جَمِيعًا ، ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ ، وإِذا تَزَكَّتِ النَّفْسُ تَدَبَّرَتْ بِالعَقْلِ واسْتَقامَتْ أَحْوالُها الظَّاهِرَةُ والباطِنَةُ وتَهَذَّبَتِ الأَخْلاقُ وأَنْتَجَتِ الأَدَبَ ؛ فالأَدَبُ اسْتِخْراجُ ما فِي القُوَّةِ إِلَى الفِعْلِ ، وهَذا يَكُونُ لِمَنْ رُكِّبَتِ السَّجِيَّةُ الصَّالِحَةُ فِيهِ ؛ والسَّجِيَّةُ فِعْلُ الحَقِّ لا قُدْرَةَ لِلبَشَرِ عَلَى تَكْوِينِها كَتَكَوُّنِ النَّارِ فِي الزِّنادِ إِذْ هُوَ فِعْلُ اللهِ المَحْضُ ، واسْتِخْراجُهُ بِكَسْبِ الآدَمِيِّ ، فَهَكَذا الآدابُ مَنْبَعُها السَّجايا الصَّالِحَةُ والمِنَحُ الإِلَهِيَّة .

ولَمَّا هَيَّأَ اللهُ تعالَى بَواطِنَ الصُّوفِيَّةِ بِتَكْمِيلِ السَّجايا فِيها تَوَصَّلُوا بِحُسْنِ المُمارَسَةِ والرِّياضَةِ إِلَى اسْتِخْراجِ ما هُوَ فِي النُّفُوسِ مَرْكُوزٌ بِخَلْقِ اللهِ تعالَى إِلَى الفِعْلِ ، فَصاروا مُؤَدَّبِينَ مُهَذَّبِينَ ، فَتَأَمَّلْ .

فَظَهَرَ لَكَ أَيُّها الأَخُ العَزِيز ، فِي هَذا المُخْتَصَرِ الوَجِيز : أَنَّ بابَ

السَّعادَةِ هُوَ مَحَبَّةُ اللهِ ورَسُولِهِ والصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِهِ المَشايِخِ الدَّالِّينَ عَلَى اللهِ ، ومِفْتاحُهُ الأَدَبُ ، وللأَدَبِ مَعَ اللهِ ورَسُولِهِ وُجُوهٌ جِماعُها امْتِثالُ الأَوامِرِ واجْتِنابُ النَّواهِي ، كَما أَنَّ الأَدَبَ مَعَ أَهْلِ اللهِ ﷻ وجَعَلَنا مِنْهُمْ لَهُ وُجُوهٌ أَهَمُّها اعْتِقادُ أَنَّهُمْ فِي اللهِ ذاتٌ واحِدَةٌ وأَنَّ أَصْلَ مَدَدِهِمْ واحِدٌ وإِنْ تَعَدَّدَتْ مَظاهِرُهُمْ وفُروعُهُمْ ، وأَنَّ طُرُقَهُمْ كُلَّها وإِنْ تَعَدَّدَتْ وفِي الظَّاهِرِ رُبَّما اخْتَلَفَتْ شَيْءٌ واحِدٌ وأُخُوَّةٌ فِي الدِّينِ ، ولِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ حُرْمَةُ الأُخُوَّةِ لا بُغْضَ الأَباعِدِ ذَوِي الجَفْوَةِ ، ويَرْحَمُ اللهُ مَوْلانا العَرَبِي الدَّرْقاوِي إِذْ يَقُولُ : مَنْ فَرَّقَنا أَوْ عَدَّدَنا فاللهُ حَسِيبُهُ ، وكانَ ﷺ يَقُولُ : مَنِ انْتَقَصَ شَيْئًا حُرِمَ بَرَكَتَهُ ، وأَنا أَقُولُ : مَنِ انْتَقَصَ شَيْئًا حُرِمَ بَرَكَةَ الجَمِيعِ إِذِ البَعْضُ عَيْنُ الكُلِّ .

ويَرْحَمُ اللهُ بَعْضَ الفُضَلاءِ إِذْ يَقُولُ :

مَا أَرَىٰ نَفْسِيَ إِلَّا أَنْتُمُ ❁ وَاعْتِقَادِي أَنَّكُمْ أَنْتُمُ أَنَا

عُنْصُرُ الْأَنْفَاسِ مِنَّا وَاحِدٌ ❁ وَكَذَا الْأَجْسَامُ جِسْمٌ عَمَّنَا

مَزِيدٌ مِنَ الاقْتِرابِ
لأَهْلِ الفَضْلِ الأَنْجابِ

وقَدْ نَصُّوا عَلَى أَنَّ القَرابَةَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ :

إمَّا قَرابَةٌ فِي الصُّورَةِ ، أَوْ فِي المَعْنَى فَقَط ، أَوْ فِي الصُّورَةِ والمَعْنَى ؛ فَأَمَّا القَرابَةُ فِي الصُّورَةِ فَلا يَخْلُو إمَّا أَنْ تَكُونَ بِحَسَبِ طِينَتِهِ كالسَّاداتِ الشُّرَفاءِ أَوْ بِحَسَبِ دِينِهِ وعِلْمِهِ كالعُلَماءِ والصَّالِحِينَ والعُبَّادِ وسائِرِ المُؤْمِنِينَ ، وكُلٌّ مِنْهُما نِسْبَةٌ صُورِيَّةٌ ، وأَمَّا قَرابَتُهُ ﷺ فِي المَعْنَى فَهُمُ الأَوْلِياءُ لأَنَّ الوَلِيَّ هُوَ وَلَدُهُ الرُّوحِيُّ القائِمُ بِما تَهَيَّأَ لِقَبُولِهِ مِنْ مَعْناهُ ، ولِذَلِكَ قالَ ﷺ : (سَلْمانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْت) ، إشارَةً إلَى القَرابَةِ المَعْنَوِيَّة .

وأَمَّا القَرابَةُ فِي الصُّورَةِ والمَعْنَى مَعًا فَهُمُ الخُلَفاءُ والأَئِمَّةُ القائِمُونَ مَقامَهُ سَواءٌ كانُوا قَبْلَهُ كَأَكابِرِ الأَنْبِياءِ الماضِينَ أَوْ بَعْدَهُ ﷺ كالأَوْلِياءِ الكامِلِينَ وهَذِهِ أَعْلَى مَراتِبِ القَرابَة ، وتَلِيها القَرابَةُ الرُّوحِيَّة ، ثُمَّ القَرابَةُ الصُّورِيَّةُ الدِّينِيَّة ، ثُمَّ القَرابَةُ الطِّينِيَّةُ فَإِنْ جَمَعَتْ ما قَبْلَها فَهِيَ الغايَة ، فاتَّضَحَ مِنْ هَذا أَنَّ هَذِهِ القَراباتِ لا يَنْبَغِي التَّفْرِيقُ بَيْنَها ، وإِنَّ نَظَرَ التَّفْرِقَةِ لا يَكُونُ إلَّا مِنَ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ ، وأَمَّا الرُّوحُ فَلا تَنْظُرُ فِي التَّفْرِقَةِ أَصْلًا ، وجُنْدُ العَقْلِ يُحاوِلُ دَفْعَ شَرِّ الأَمَّارَةِ عَنِ الرُّوح ، وأَنَّ المُؤْمِنِينَ كالنَّفْسِ الواحِدَةِ ومَنْ ذا الَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَ نَفْسٍ واحِدَةٍ .

وقَدْ ظَهَرَ جَلِيًّا مِنْ هَذِهِ المُذاكَرَةِ أَنَّ طُرُقَ الأَوْلِياءِ كُلِّهِمْ وإِنْ تَعَدَّدَتْ فَهِيَ تَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ واحِدٍ وهُوَ طَرِيقُهُ ﷺ وَحْدَهُ ، وأَمَّا غَيْرُ طَرِيقِهِ ﷺ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِطَرِيقٍ لِنَسْخِ طَرِيقِهِ لِكُلِّ الطُّرُقِ ، ولا يُفَرَّقُ بَيْنَ الطُّرُقِ لأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ آخِذُونَ لِطَرِيقَتِهِ ﷺ وهِيَ طَرِيقَةٌ واحِدَةٌ كَما يَعْلَمُهُ أَغْبَى الأَغْبِياءِ وأَحْرَى أَعْلَمُ العُلَماءِ .

وقَدْ قالَ الإِمامُ الجُنَيْد (٢٩٧هـ) رضي الله عنه : (طَرِيقُنا هَذا مُشَيَّدٌ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ ، والبابُ مَسْدُودٌ إِلَّا عَلَى المُقْتَفِينَ آثارَ رَسُولِ اللهِ ﷺ) .

ويَرْحَمُ اللهُ القائِلَ :

وَأَنْتَ بَابُ اللهِ مَا تَمَّ ❁ وُصُولٌ إِلَّا مِنْ بَابِكَ

والقائِلَ :

وَأَنْتَ بَابُ اللهِ أَيُّ امْرِئٍ ❁ وَافَاهُ مِنْ غَيْرِكَ لا يَدْخُلُ

ورَضِيَ اللهُ عَنِ القائِلِ :

وَمَكِّنْ بِكَفِّ الشَّرْعِ أَمْرَكَ كُلَّهُ ❁ فَدُونَكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلِ الْبابُ سُدَّتِ

ومِنَ المُقَرَّرِ أَنَّ كُلَّ الأَنْوارِ مِنْ نُورِهِ ﷺ :

أَنْتَ مِصْباحُ كُلِّ فَضْلٍ فَمَا تَصْـ ❁ ـدُرُ إِلَّا عَنْ ضَوْئِكَ الْأَضْواءُ

وكُلَّ الأَسْرارِ مِنْ فَيْضِ بَحْرِ جُودِهِ ﷺ :

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ ❁ غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

قالَ بَعْضُ الكِبار : كُلُّ مَنْ بَدا مِنَ الدَّالِّينَ عَلَى اللهِ تَعالَى قَبْلَ وبَعْدَ وُجُودِ المُصْطَفَىٰ ﷺ فَهُمْ نُوَّابُهُ وخُلَفاؤُهُ مُقَدَّمِينَ كالأَنْبِياءِ والرُّسُلِ أَوْ مُؤَخَّرِينَ كالأَوْلِياءِ الكُمَّلِ ؛ قالَ ﷺ : (أَنا مِنَ اللهِ والمُؤْمِنُونَ مِنِّي) ؛ أَيْ أَنا مِنْ نُورِ اللهِ ، والمُؤْمِنُونَ مِنْ فَيْضِ نُوري ؛ فَهُوَ ﷺ الجِنْسُ العالِي والمُقَدَّمُ وما عَداهُ نائِبٌ عَنْهُ ﷺ ، وإِذا كانَ الأَمْرُ بِهَذِهِ المَنْزِلَةِ فَلا مَعْنَى للتَّفْرِقَةِ بَيْنَ طُرُقِ أَهْلِ اللهِ لأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَتَأَذَّى بِهِ مَوْلانا رَسُولُ اللهِ - والعِياذُ بِاللهِ - ، وتَغْيِيرُ باطِنِهِ ﷺ بِسَبَبِ تَنْقِيصِ وارِثٍ مِنْ وَرَثَتِهِ (نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ والعافِيَةَ) هُوَ سَبَبُ حِرْمانِ المُنَقِّصِ - والعِياذُ بِاللهِ - بِحَيْثُ لا يَنْتَفِعُ بِوَلِيٍّ أَبَداً ولَوْ كانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ القُطْبِ دائِمًا سَرْمَدًا ؛ لأَنَّ المادَّةَ مِنْ عَيْنِ الجُود ، وإِنِ انْقَطَعَتْ والعِياذُ بِاللهِ انْهَدَّ الوُجُود ، وقَبْضُ اليَدِ زِيادَةٌ فِي الحَبْسِ عَنْ حَضْرَةِ أَهْلِ الشُّهُودِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ ويَرْجِعَ مِنْ حَضْرَةِ الفَرْقِ إِلَى حَضْرَةِ الجَمْعِ ويَرُدَّ الفَرْعَ إِلَى أَصْلِهِ ويُعْطِيَهُ ما يَلِيقُ بِرُتْبَتِهِ مِنَ الإِجْلالِ والتَّوْقِيرِ كَغَيْرِهِ مِنْ شَكْلِهِ وأَبْناءِ جِنْسِهِ فَإِنَّهُ يُرْجَى لَهُ حِينَئِذٍ الدُّخُولُ إِلَى حَضْرَةِ الأَحْبابِ بِشَفاعَةِ النَّبِيِّ الأَوَّاب ، وإِصْلاحِ خاطِرِ الوارِثِ بِفَضْلِ الكَرِيمِ الوَهَّاب .

فَتَأَمَّلْ هَذِهِ النَّبْذَةَ واسْتَرْوِحْ سِرَّها مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعالَى : ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ، وقَوْلِ مَنْ قالَ : مَنْ نَقَّصَ شَيْخًا حُرِمَ بَرَكَةَ الجَمِيع ، واعْمَلْ تَفُزْ فَإِنَّ خَيْرَ الدِّينِ النَّصِيحَة ، وشَرَّ الأُمُورِ ما أَعْقَبَ نَدامَةً أَوْ فَضِيحَة .

قالَ الشَّيْخُ الحَسَنُ البُوسِي فِي وَصِيَّةٍ لِبَعْضِ أَصْحابِهِ : (أَحْبابِي أَكْثِرُوا مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ سُبْحانَهُ فَإِنَّها مَدارُ جَمِيعِ الخَيْراتِ ، ومَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وجَمِيعِ إِخْوانِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ لأَنَّها السُّلَّمُ والوَسِيلَةُ العُظْمَى ، ومَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ فَإِنَّها شِفاءٌ ودَواءٌ ، ومَحَبَّةِ الشَّيْخِ فَإِنَّها مِفْتاحٌ لِكُلِّ خَيْرٍ وصَلاح ، ولا تَخُصُّوا أَشْياخَكُمْ بِالمَحَبَّةِ وتُنْكِرُوا عَلَى غَيْرِهِمْ كَما يَفْعَلُ بَعْضُ الجُهَّال ، فَإِنَّ الدِّينَ واحِدٌ والدَّاعِينَ إِلَى اللهِ تَعالَى إِخْوانٌ مُتَعاوِنُونَ عَلَى هِدايَةِ الخَلْقِ إِلَى طَرِيقِ اللهِ ومَحَبَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ مَثَلُ ذَلِكَ كَغَنَمٍ ضَلَّتْ فِي الغابَةِ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ شاتِيَةٍ بارِدَةٍ فَفَزِعَ إِلَيْها رِجالُ الحَيِّ وتَفَرَّقُوا عَلَيْها فِي الغابَةِ ، فَمَنْ ظَفِرَ مِنْها بِشاةٍ أَوْ أَكْثَرَ أَراحَها مِنَ التَّعَبِ ونَجَّاها مِنْ شِدَّةِ البَرْدِ وخَطَرِ البَرِّ كالذِّئْبِ والسَّبُعِ وجَمِيعِ الهَوام ، وأَيُّ شاةٍ لَمْ تَقَعْ بِيَدِ أَحَدٍ مِنَ الرِّجالِ وبَقِيَتْ فِي الغابَةِ فَقَدْ بَقِيَتْ لِلهَلاكِ إِلَّا

أَنْ يَعْصِمَها اللّٰهُ سُبْحانَهُ ، فَكَذَلِكَ عَوامُّ الخَلْقِ لأَنَّهُمْ فِي خَطَرِ الفِتَنِ والذُّنُوبِ والمَعاصِي والشَّهَواتِ ، واسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ والنَّفْسُ والهَوىٰ وغَيْرُ ذَلِكَ ، فَأَيُّ شَخْصٍ وَقَعَ بِيَدِ شَيْخٍ مِنَ المَشايِخِ الصُّوفِيَّةِ المُعْتَبَرِينَ الأَعْيان ، أَراحَهُ مِنَ التَّعَبِ الَّذِي أَصابَهُ مِنْ عِلَّةِ النَّفْسِ والهَوىٰ والشَّيْطان ، ورَدَّهُ إِلَى طَرِيقِ اللّٰهِ سُبْحانَهُ وطاعَةِ الرَّحْمٰن ، فَلْيَحْمَدِ اللّٰهَ تَعالَى ويَشْكُرْهُ عَلَى الهِدايَةِ إِلَى طَرِيقِ اللّٰهِ تَعالَى ويُبْشِرْ بِالنَّجاةِ بِفَضْلِ اللّٰهِ سُبْحانَهُ ، وأَيُّ شَخْصٍ لَمْ يَقَعْ بِيَدِ شَيْخٍ مِنَ المَشايِخِ الصُّوفِيَّةِ السَّابِقِ ذِكْرُهُمْ فَقَدْ بَقِيَ فِي خَطَرٍ إِلَّا أَنْ يَعْصِمَهُ اللّٰهُ سُبْحانَهُ ويَحْرُسَهُ بِفَضْلِهِ ويُنَجِّيَهُ مِنْ عَدُوِّهِ) .

فانْظُرْ - رَحِمَكَ اللّٰهُ - إِلَى كَلامِ هَذا الشَّيْخِ وتَأَمَّلْ نَصِيحَتَهُ لِلْمُسْلِمِينَ ، نَفَعَنا اللّٰهُ بِهِ لأَنَّهُ ضَرَبَ لَهُمُ المَثَلَ بِالغَنَمِ الضَّالَّةِ فِي الغابَةِ وهُمْ عَوامُّ المُسْلِمِينَ ، ورِجالِ الحَيِّ بِمَشايِخِ الصُّوفِيَّةِ ، فَيَنْبَغِي لِمَنْ وَفَّقَهُ اللّٰهُ تَعالَى وهَداهُ وأَلْقاهُ بِشَيْخٍ عارِفٍ صُوفِيٍّ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ مَحَبَّتِهِ ويَتَّبِعَ طَرِيقَتَهُ ولْيَحْمَدِ اللّٰهَ سُبْحانَهُ عَلَى ذَلِكَ .

فَبانَ مِنْ ذَلِكَ أَيُّها المُوَفَّقُ السَّعِيدُ أَنَّ ساداتِنا المَشايِخَ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُمْ دالِّينَ عَلَى اللّٰهِ بِشَرِيعَةِ مَوْلانا رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ شَيْءٌ واحِدٌ

وطَرِيقُهُمْ مُتَّحِدَةٌ بِاعْتِبارِ أَصْلِها وإِنِ اخْتَلَفَتْ فُرُوعُها لاخْتِلافِ القَوابِلِ والاسْتِعْداداتِ بِحَيْثُ ذَكَرُوا أَنَّ الطُّرُقَ إِلَى اللهِ تَعالَى بِعَدَدِ أَنْفاسِ الخَلائِق .

وبِمُلاحَظَةِ سِرِّ هَذِهِ المُذاكَرَةِ نَفْهَمُ ما ذَكَرَهُ الأَكابِرُ الأَعْيان ، مِنْ أَنَّ أَعْظَمَ أَوْصافِ الدَّالِّينَ عَلَى حَضْرَةِ المَلِكِ الدَّيَّان : هُوَ القِيامُ عَلَى ساقِ الجِدِّ فِي العُبُودِيَّةِ ومُعانَقَةُ التَّكالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ إِلَى لِقائِهِ تَعالَى الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مَطْلَبٍ وبُغْيَة ، كَما أَنَّهُمْ نَصُّوا عَلَى أَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى اللهِ تَعالَى لا يَلْزَمُهُ أَنْ يَتَحَدَّى عَلَى صِحَّةِ دَعْواهُ بِكَرامَةٍ لأَنَّهُ لا فائِدَةَ فِيها بِخِلافِ الرَّسُولِ فَإِنَّهُ لا بُدَّ لَهُ مِنْها زِيادَةً عَلَى كَمالِ عُبُودِيَّتِهِ ظاهِراً وباطِنًا ، والسِّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ الوَلِيَّ العارِفَ المُحَقَّقَ إِنَّما يَدْعُو إِلَى اللهِ بِحِكايَةِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ولِسانِهِ لا بِلِسانٍ يُحْدِثُهُ كَما يَحْدُثُ لِرَسُولٍ آخَر ، والشَّرْعُ مُقَرَّرٌ عِنْدَ العُلَماءِ بِهِ ؛ فالرَّسُولُ عَلَى بَصِيرَةٍ فِي الدُّعاءِ إِلَى اللهِ بِما عَلَّمَهُ اللهُ مِنَ الأَحْكامِ المَشْرُوعَةِ ، والوَلِيُّ عَلَى بَصِيرَةٍ فِي الدُّعاءِ إِلَى اللهِ بِحُكْمِ الاتِّباعِ لا بِحُكْمِ التَّشْرِيعِ ، فَلا يَحْتاجُ إِلَى آيَةٍ أَوْ بَيِّنَةٍ فَإِنَّهُ لَوْ قالَ ما يُخالِفُ حُكْمَ الرَّسُولِ لَمْ يَتَّبِعْ فِي ذَلِكَ ولا كانَ عَلَى بَصِيرَةٍ فَلا فائِدَةَ فِي إِظْهارِ الآيَةِ بِخِلافِ

الرَّسُولِ فَإِنَّهُ يُنْشِئُ التَّشْرِيعَ وينْسَخُ بَعْضَ شَرْعِ مُقَرَّرٍ عَلَى يَدِ غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ ، فَلا بُدَّ مِنْ آيَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ وأَنَّهُ مُخْبِرٌ عَنِ اللهِ فِي مُدَّةِ ما قَرَّرَهُ اللهُ شَرْعًا عَلَى لِسانِ رَسُولٍ آخَر ؛ هَكَذا الأَمْرُ مُجْرًى فِي حُكْمِ العِلْمِ فالكَرامَةُ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةٌ بِاسْمِ الكَرامَةِ هِيَ اسْتِقامَةُ الجَوارِحِ الحِسِّيَّةِ والمَعْنَوِيَّةِ عَلَى مِنْهاجِ العُبُودِيَّةِ ولا شَكَّ عِنْدَ كُلِّ عاقِلٍ مُنْصِفٍ أَنَّ مَنْ أُلْبِسَ حُلَّةَ الاسْتِقامَةِ كانَتِ الكَرامَةُ الحِسِّيَّةُ هِيَ تَشْتاقُ إِلَيْهِ بِنَعْتِ الظُّهُورِ عَلَى يَدَيْهِ تَشْرِيفًا لَها بِالبُرُوزِ مِنْهُ ، ومَنْ كانَتِ الكَرامَةُ تَشْتاقُ إِلَيْهِ كَيْفَ يَجِدُ مِنْ نَفْسِهِ مَيْلًا عَنِ الأَعْلَىٰ إِلَى الأَدْنَىٰ ؛ هَذا لا يَكُونُ أَبَداً إِذْ ما رَضِيَ بِسَرْحِ الدَّوابِّ مَنْ كانَتْ رَعِيَّتُهُ كُلَّ ماشٍ ودابٌّ .

ودَلِيلُ اشْتِياقِ المَقاماتِ والأَحْوالِ إِلَى صاحِبِ الاسْتِقامَةِ ما وَرَدَ فِي الخَبَرِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ : (اشْتاقَتِ الجَنَّةُ إِلَى ثَلاثَةٍ .... الحَدِيث) ؛ فَما اشْتاقَتِ الجَنَّةُ إِلَى بِلالٍ ومَنْ مَعَهُ إِلَّا لِكَوْنِهِمْ رَيْحانَ الحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ لِما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كَمالِ المُتابَعَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فالجَنَّةُ والأَكْوانُ كُلُّها تَشْتاقُ إِلَى العارِفِ ، ومِنْ كَمالِ اشْتِياقِها وُجُودُ الطَّاعَةِ مِنْها عِنْدَ أَمْرِكَ امْتِثالًا لأَمْرِ اللهِ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : (يا دُنْيا اخْدُمِي مَنْ خَدَمَنِي) ، ولا خُصُوصِيَّةَ لِلدُّنْيا وكَذا الآخِرَة .

فاعْلَمُوا أَحْبابِي وَفَّقَكُمُ اللّٰهُ أَنَّ اللّٰهَ تبارَكَ وتعالَى قَدْ أَكْمَلَ دِينَنا والحَمْدُ للّٰهِ لَمَّا بَعَثَ فِينا رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ إِذْ بِهِ كَمُلَ دِينُ الهُدَى وخَتَمَ بِشَرِيعَتِهِ الغَرَّاءِ جَمِيعَ الشَّرائِعِ لأَنَّها أُمُّ الشَّرائِعِ وما قَبْلَها فُرُوعٌ مُمْتَدَّةٌ مِنْها فَلِذَلِكَ أَقَرَّتْ ما أَقَرَّتْ ونَسَخَتْ ما نَسَخَتْ وخَصَّصَتْ ما خَصَّصَتْ ، وذَلِكَ أَعْظَمُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّها أُمُّ الشَّرائِعِ وأُسُّها غَيْرُ أَنَّها نَزَلَتْ مُجْمَلَةً عَلَى قَلْبِ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ فِي تَفْصِيلِ المُجْمَلِ فِي كُلِّ نازِلَةٍ بِحَسَبِ الوَقائِعِ ، فَلَمْ يَكُنْ جِبْرِيلُ عليه السلام أَعْلَمَ مِنْ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ فِيما نَزَلَ بِهِ ، وأَمَّا قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ؛ فالكَمالُ هُنا التَّفْصِيلِيُّ الَّذِي كانَ كامِنًا فِي الكَمالِ الإِجْمالِي وذَلِكَ أَنَّ الأُمَّةَ المُحَمَّدِيَّةَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَها اسْتِعْدادٌ لِتَلَقِّي الشَّرِيعَةِ مِنَ المُشَرِّعِ لا إِجْمالًا ولا تَفْصِيلًا ، بَعَثَ اللّٰهُ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مُسْتَعِدًّا لِقَبُولِ الشَّرِيعَةِ مِنَ المُشَرِّعِ ، فَلَمَّا بَشَّرَ وأَنْذَرَ وبَيَّنَ الأَحْكامَ وأَرادَ الحَقُّ أَنْ يَفْتَحَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ بابَ الإِفْهامِ لِتَتَحَقَّقَ لَها مَعْنَى الأَوْسَطِيَّةِ الَّتِي خُصَّتْ بِها بَيْنَ الأَنامِ خاطَبَهُمْ سُبْحانَهُ مِنْ أَعْلَى سَطْحِ دِيرِ الأَزَلِ مِنْ بابِ الفَضْلِ والمِنَّةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ ؛ وكَمالُهُ ظُهُورُ الأَصْلِ فِي عَيْنِ الفَرْعِ والتَّفْصِيلِ فِي عَيْنِ الإِجْمالِ ، إِذْ بِذَلِكَ تَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَيْنا دُونَ مَنْ قَبْلَنا مِنَ الأُمَمِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ مَنْ قَبْلَنا مُفْتَقِرٌ إِلَيْنا ومُتَشَوِّفٌ إِلَى مَرْتَبَتِنا الَّتِي انْدَمَجَتْ فِيها جَمِيعُ المَراتِبِ ، ومَرْتَبَتُنا هِيَ الإِسْلامُ الَّتِي تَسَمَّى الدِّينُ بِها لأَنَّ جَمِيعَ الشَّرائِعِ كُلِّها أَسْلَمَتْ أَمْرَها إِلَيْها وسَجَدَتْ عِنْدَ ظُهُورِها بِنَعْتِ المُتابَعَةِ بِحَيْثُ لَوْ أَدْرَكَتْ وُجُودَ مُشَرِّعٍ جَدِيدٍ أَدْخَلَتْ حُكْمَهُ تَحْتَ حُكْمِها بِدَلِيلِ أَنَّها نَسَخَتْ كِتابَهُ ؛ وشاهِدُ هَذا قَوْلُ صاحِبِ الشَّرْعِ المُحِيطِ ﷺ : (لَوْ كانَ مُوسَىٰ وعِيسَىٰ حَيَّيْنِ ما وَسِعَهُما إِلا اتِّباعَ سُنَّتِي) ، ونُزُولُ سَيِّدِنا عِيسَىٰ عليه السلام رافِعٌ للنِّزاعِ .

ولَيْسَ المُرادُ بِالكَمالِ أَنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ عِنْدَ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ لأَنَّ الواقِعَ لا يُساعِدُ هَذا التَّفْسِيرَ لِنُزُولِ آياتٍ بَعْدَها ، عَلَى أَنَّ الصَّحِيحَ فِي هَذِهِ الآيَةِ أَنَّها مَكِّيَّةٌ .

والمُرادُ مِنْ هَذِهِ المُقَدِّمَةِ كُلِّها أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ مِنْ كَمالِ دِينِنا الَّذِي شَرَّفَنا اللّٰهُ بِهِ أَنْ عَرَّفَنا سُبْحانَهُ أَنَّ بابَ النُّبُوَّةِ والرِّسالَةِ قَدْ سُدَّتْ خَوْخَتُهُ ولَمْ يَبْقَ مَفْتُوحًا إِلَّا بابُ الوِلايَةِ الَّذِي بِهِ يَحْصُلُ لَنا الكَمالُ فِي العُبُودِيَّةِ ، فَمَنْ أَرادَ أَنْ يُحَصِّلَ الكَمالَ فِي العُبُودِيَّةِ حَتَّى يَكُونَ

وَلِيًّا للهِ فَلْيَقْتَدِ بِما شَرَعَهُ خاتَمُ النَّبِيِّينَ وإمامُ المُرْسَلِينَ ﷺ ، فَإِنَّهُ السَّبِيلُ المُوَصِّلُ إِلَى البابِ المَفْتُوح ، وقَدْ شَرَعَ الحَقُّ لِجَمِيعِ المَوْجُوداتِ الاقْتِداءَ بِهِ والاهْتِداءَ بِهَدْيِهِ فَقالَ تَعالَى : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ، وقالَ تَعالَى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ؛ أَيْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الوُصُولَ إِلَى اللهِ مِنْ حَيْثُ العِلْمُ بِهِ ذاتًا وصِفَةً فاتَّبِعُونِي فِي الطَّرِيقِ المَشْرُوعِ فَإِنَّهُ المُوَصِّلُ إِلَى البابِ المَفْتُوحِ الَّذِي هُوَ بابُ الوِلايَةِ ، وهُوَ طَرِيقٌ سَهْلٌ قَرِيبٌ مُخْتَصَرٌ جامِعٌ لِجَمِيعِ الطُّرُقِ المُوَصِّلَةِ إِلَى اللهِ سُبْحانَهُ بِحَيْثُ يَعْتَرِفُ بِذَلِكَ كُلُّ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ سَلِيم ؛ ويَكْفِيكَ فِي هَذا المَعْنَى أَنَّ رُوحَ اللهِ سَيِّدَنا عِيسَى عليه السلام إِذا نَزَلَ آخِرَ الزَّمانِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى السَّيْرِ بِالقانُونِ الَّذِي بُعِثَ بِهِ لِقَوْمِهِ بَلْ لا يَسِيرُ إِلَّا بِسَيْرِ الأَصْلِ الكَبِيرِ الَّذِي هُوَ مادَّةُ الفَرْعِ الَّذِي بُعِثَ بِهِ لِسُهُولَتِهِ وسُرْعَةِ الوُصُولِ بِهِ مَعَ كَمالِ اخْتِصارِهِ وإِفادَتِهِ ما لَمْ يُفِدْهُ فَرْعُهُ .

فَشَرِيعَةُ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ هِيَ النَّجاةُ لِكُلِّ طالِبٍ وراغِبٍ ، وهِيَ مِعْراجُ التَّرَقِّي لِكُلِّ قِسِّيسٍ وحَبْرٍ وعالِمٍ وراهِبٍ ، ولَوْ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ أَنْصَفَتْ كَإِنْصافِ نَبِيِّها وأَصْحابِهِ ما تَرَكُوا الأَصْلَ وتَمَسَّكُوا بِالفَرْعِ ولَكِنَّهُمْ

عَمُوا وصَمُّوا عَنْ إدْراكِ مَراتِبِ التَّفْصِيلِ فِي عَيْنِ الإجْمالِ قِياسًا عَلَى ما هُمْ فِيهِ فَحَكَمُوا بِتَصْحِيحِ الفَرْعِ وإبْطالِ الأَصْلِ ، وهَذا غايَةُ الجَهْلِ باللّهِ وأَحْكامِهِ نَعُوذُ باللّهِ مِنَ الخِذْلان .

فَلْنُحافِظْ أَحْبابِي عَلَى الشَّرِيعَةِ المُحَمَّدِيَّةِ ولْنَعْلَمْ أَنَّ رَسْمَها قَدِ انْدَثَرَ وانْمَحَقَ حَتَّى صارَ الحَقُّ مَنْكُوراً والباطِلُ مَقْرُوراً بِحَيْثُ إذا أَخَذَ الإنْسانُ بِبَعْضِ مَعالِمِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي فَعَلَها المُشَرِّعُ أَوْ أَمَرَ بِها أَوْ أَقَرَّها أَنْكَرَ الجاهِلُونَ ذَلِكَ ونَسَبُوهُ إِلَى الحُمْقِ والبِدْعَةِ وسَفَّهُوا رَأْيَهُ ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللّهِ العَلِيِّ العَظِيم ؛ ومُوجِبُ ذَلِكَ غَلَبَةُ الحِسِّ عَلَى المَعْنَى بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ للمَعْنَى أَثَرٌ ظاهِرٌ إلَّا وقَدِ انْدَثَرَ ولا أَثَرٌ باطِنٌ لِلْحِسِّ إلَّا وقَدِ انْتَشَرَ ، ومُرادُ الحَقِّ مِنْ ذَلِكَ تَصْدِيقُ قَوْلِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ : (بَدَأَ الدِّينُ غَرِيبًا وسَيَعُودُ غَرِيبًا) ، وقَدْ جاءَ فِي الخَبَرِ أَنَّ السَّاعَةَ لا تَقُومُ حَتَّى لا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مَنْ يَقُولُ : اللّه اللّه ، فَإذا لَمْ يُوجَدْ مَنْ يَقُولُ اللّهَ ، تَهَدَّمَ الوُجُودُ لِصِرافَةِ الحِسِّ إذْ ذاكَ لأَنَّ المَعانِيَ القائِمَةَ بِالذَّاكِرِ هِيَ رُوحُ الكائِناتِ ، فَإذا لَمْ يَبْقَ مَنْ يَقُومُ بِهِ سِرُّ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ مَدْلُولُ (الاسْمِ المُفْرَدِ) مِنَ التَّحْقِيقِ اضْمَحَلَّ الكَوْنُ وما فِيهِ وانْتَقَلَ إِلَى صِرافَةِ المَعْنَى وهِيَ الآخِرَةُ لأَنَّ الحِسَّ ما قامَ إلَّا بِالمَعْنَى .

فَشُدُّوا أَيْدِيَكُمْ عَلَى الصِّراطِ المُسْتَقِيم ، واعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِخَيْرٍ ما دُمْتُمْ عَلَى المِنْهاجِ القَوِيم ، وإِلَّا فَلا سَبِيلَ لَنا إِلَّا ما نَطْلُبُهُ مِنْ رَبِّنا ، ولِلّهِ دَرُّ العالِمِ الرَّبَّانِي حامِلِ لِواءِ المَذْهَبَيْنِ سَيِّدِي مُحَمَّد الحَرَّاق إِذْ يَقُولُ فِي تائِيَّتِهِ :

وَمَكِّنْ بِكَفِّ الشَّرْعِ أَمْرَكَ كُلَّهُ ۞ فَدُونَكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلِ الْبَابُ سُدَّتِ

والمُرادُ بِالبابِ فِي كَلامِهِ بابُ الوِلايَةِ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُها ، فَجاهِدُوا فِي اللّهِ حَقَّ جِهادِهِ ، وحَقُّ الجِهادِ أَنْ يَكُونَ الفَقِيرُ آخِذاً بِالعَزائِمِ دُونَ الرُّخَصِ إِلَّا مَعَ الضَّعْفِ ، فَإِنَّ الرُّخْصَةَ تَصِيرُ عَزِيمَةً بِالوَصْفِ العارِضِ ، وقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَنْ لا مُجاهَدَةَ لَهُ لا مُشاهَدَةَ لَهُ إِذِ المُجاهَدَةُ شَرِيعَةٌ والمُشاهَدَةُ حَقِيقَةٌ وهُما مُتَداخِلَتانِ ، فَأَيْنَ هِيَ المُجاهَدَةُ ثَمَّ هِيَ المُشاهَدَةُ ، وأَيْنَ هِيَ المُشاهَدَةُ ثَمَّ هِيَ المُجاهَدَةُ ، لا غَيْر .

وإِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَقُولُ بِأَنَّ القُوَّةَ لا تَكُونُ فِي الجِهَتَيْنِ إِلَّا لِرَجُلٍ واحِدٍ لَكِنْ نَحْنُ مُرادُنا ما يَتَعَلَّقُ بِأَحْوالِ السَّيْرِ والسُّلُوكِ ؛ وقَدْ قالَتِ الحَقِيقَةُ لِلشَّرِيعَةِ : (انْظُرِي كَمالَ سُلْطانِي وعِزَّةَ مَكانَتِي ورِفْعَةَ شانِي أَنَّنِي إِذا ظَهَرْتُ قَتَلْتُ صاحِبَ الظُّهُور) : فَقالَتِ الشَّرِيعَةُ : (نَظَرْتِ إِلَى قُوَّتِكِ وغَفَلْتِ عَنْ سَطْوَتِي ؛ أَمَا تَرَيْنَ فَخامَةَ مُلْكِي ومَنَعَةَ مَمْلَكَتِي أَنَّنِي إِذا

بَطَنْتُ قَتَلْتُ صاحِبَ البُطُون) .

فالشَّرِيعَةُ تَطْلُبُ الظُّهُورَ والحَقِيقَةُ تَطْلُبُ البُطُونَ ، والظَّاهِرُ حاكِمٌ فِي الباطِنِ كَما أَنَّ الباطِنَ حاكِمٌ فِي الظَّاهِرِ ، والصَّوْلَةُ تابِعَةٌ لِحُكْمِ الحَضْرَةِ ، وهَكَذا أَمَرَنا الحَقُّ سُبْحانَهُ بِتَعْلِيمِ الشَّارِعِ لَنا ؛ فالعارِفُ يُبْطِنُ ما حَقُّهُ البُطُونُ ويُظْهِرُ ما حَقُّهُ الظُّهُورُ ، فَلْيَكُنِ الفَرْقُ فِي ظَواهِرِكُمْ شَمْسُهُ طالِعَةٌ ، والجَمْعُ فِي بَواطِنِكُمْ شَمْسُهُ لامِعَةٌ ، ولا تَمِيلُوا إِلَى أَحْوالِ مَنْ لَمْ يَسْلُكْ طَرِيقَ الرِّجالِ بِأَنْ تَرَبَّى تَرْبِيَةً سُوقِيَّةً فَجَعَلَ يُظْهِرُ ما حَقُّهُ البُطُونُ ويُبْطِنُ ما حَقُّهُ الظُّهُورُ ، فَإِنَّما ذَلِكَ مِنْ عَدَمِ صُحْبَةِ الرِّجالِ وحَطِّ الرَّقَبَةِ لأَهْلِ الفَنِّ ؛ ولَوْ حَطَّ رَقَبَتَهُ لأَخَذُوا بِيَدِهِ ، وكُلُّ عِلْمٍ يُمْكِنُ أَنْ يُؤْخَذَ بَعْضُهُ مِنَ الكُتُبِ وبَعْضُهُ مِنْ صُدُورِ الرِّجالِ إِلَّا عِلْمَ هَذا الفَنِّ فَإِنَّهُ لا يُؤْخَذُ إِلَّا مِنْ صُدُورِ المُرْضِعاتِ ، عَصَمَنا اللّٰهُ وإِيَّاكُمْ مِنَ المُضِلَّاتِ ، وسَلَكَ بِنا جَمِيعًا طَرِيقَ النَّجاةِ بِجاهِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ آمِين .

هَذا ، وقَدْ قالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : (أَصْحابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ) ؛ فَكُلٌّ مِنْهُمْ رضي الله عنهم أَخَذَ عَنْهُ ﷺ عَلَى قَدْرِ إِرْثِهِ ، وإِرْثُهُ عَلَى قَدْرِ فَتْحِهِ ، وفَتْحُهُ عَلَى قَدْرِ نُورِهِ ، ونُورُهُ عَلَى قَدْرِ صَفائِهِ ،

وصَفاؤُهُ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ ، ومَعْرِفَتُهُ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ ما أَوْجَدَ لَهُ مِنْ وُجُودِ حُبِّهِ ، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ .

واعْلَمْ أَنَّ أَخَصَّ أَوْصافِ أَهْلِ الإيمانِ الائْتِلافُ والتَّعاوُنُ عَلَى طاعَةِ المَلِكِ الدَّيَّانِ عَمَلًا بِقَوْلِ السَّمِيعِ العَلِيمِ : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ؛ قالَ العارِفُ الأَكْبَرُ الوَلِيُّ الأَشْهَرُ سَيِّدُنا الشَّيْخُ إِسْماعِيل حَقِّي فِي رُوحِ البَيانِ ما نَصُّهُ : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ : هُمْ أَهْلُ الكِتابَيْنِ حِينَ تَفَرَّقَتِ اليَهُودُ فِرَقًا والنَّصارَىٰ فِرَقًا ، ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ بِاسْتِخْراجِ التَّآلِيفِ الزَّائِغَةِ وكَتْمِ الآياتِ النَّاطِقَةِ وتَحْرِيفِها بِما أَخْلَدُوا إِلَيْهِ مِنْ حُطامِ الدُّنْيا الدَّنِيَّةِ ، قالَ الإمامُ : تَفَرَّقُوا بِأَبْدانِهِمْ بِأَنْ صارَ كُلُّ واحِدٍ مِنْ أُولَئِكَ الأَحْبارِ رَئِيسًا فِي بَلَدٍ ثُمَّ اخْتَلَفُوا بِأَنْ صارَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَدَّعِي أَنَّهُ عَلَى الحَقِّ وأَنَّ صاحِبَهُ عَلَى الباطِلِ ، وأَقُولُ إِنَّكَ إِذا أَنْصَفْتَ عَلِمْتَ أَنَّ أَكْثَرَ عُلَماءِ هَذا الزَّمانِ صارُوا مَوْصُوفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، فَنَسْأَلُ اللّٰهَ العَفْوَ والرَّحْمَةَ ، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَي الآياتُ الواضِحَةُ المُبَيِّنَةُ لِلْحَقِّ المُوجِبَةُ لِلاتِّفاقِ عَلَيْهِ واتِّحادِ الكَلِمَةِ ، ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فِي الآخِرَةِ بِسَبَبِ تَفَرُّقِهِمْ

فَإِنَّهُ يَدُومُ ولا يَنْقَطِعُ .

ولَمَّا أَمَرَ اللّٰهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِأَنْ يَكُونوا آمِرِينَ بِالمَعْرُوفِ ناهِينَ عَنِ المُنْكَرِ وذَلِكَ لا يَتِمُّ إِلَّا إِذا كانَ الآمِرُ بِالمَعْرُوفِ قادِراً عَلَى تَنْفِيذِ هَذا التَّكْلِيفِ عَلَى الظَّلَمَةِ والمُتَغَلِّبِينَ ، ولا تَحْصُلُ هَذِهِ القُدْرَةُ إِلَّا إِذا حَصَلَتِ الأُلْفَةُ والمَحَبَّةُ بَيْنَ أَهْلِ الحَقِّ والدِّينِ ، فَلا جَرَمَ أَنْ حَذَّرَهُمُ اللّٰهُ مِنَ التَّفْرِقَةِ والاخْتِلافِ لِكَيْلا يَصِيرَ ذَلِكَ سَبَباً لِعَجْزِهِمْ عَنِ القِيامِ بِهَذا التَّكْلِيفِ ، فَعَلَى المُؤْمِنِينَ أَلَّا يَكُونُوا ناشِئِينَ بِمُقْتَضَى طِباعِهِمْ غَيْرَ مُتابِعِينَ لِإِمامٍ ولا مُتَّفِقِينَ عَلَى كَلِمَةٍ واحِدَةٍ بِاتِّباعِ مُقَدَّمٍ يَجْمَعُهُمْ عَلَى طَرِيقَةٍ واحِدَةٍ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُقْتَدًى وإِمامٌ تَتَّحِدُ عَقائِدُهُمْ وسِيَرُهُمْ وآراؤُهُمْ بِمُتابَعَتِهِ وتَتَّفِقُ كَلِمَتُهُمْ فِي الآخِرَةِ عَلَى مَحْسُوسٍ أَوْضَحَ مِنْ ظُهُورِهِ فِي الدُّنْيا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللّٰهِ عَلَى بَصِيرَةٍ كالرَّسُولِ وأَتْباعِهِ الَّذِينَ أَلْحَقَهُمُ اللّٰهُ بِدَرَجاتِ الدُّنْيا فِي الدُّعاءِ إِلَيْهِ عَلَى بَصِيرَةٍ كَلِماتُهُمْ وعاداتُهُمْ وأَهْواؤُهُمْ لِمَحَبَّتِهِ وطاعَتِهِ ، كانُوا مُهْمَلِينَ مُتَفَرِّقِينَ فَرائِسَ لِلشَّيْطانِ كَشَرِيدَةِ الغَنَمِ تَكُونُ لِلذِّئْبِ ، ولِهَذا قالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ الإِمامُ عَلِيٌّ رضي الله عنه : (لا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ إِمامٍ بَرٍّ أَوْ فاجِرٍ ، ولَمْ يُرْسِلْ نَبِيُّ اللّٰهِ رَجُلَيْنِ فَصاعِداً لِشَأْنٍ إِلَّا وأَمَّرَ أَحَدَهُما

عَلَى الآخَرِ ، وأَمَرَ الآخَرَ بِمُتابَعَتِهِ وطاعَتِهِ لِيَتَّحِدَ الأَمْرُ ويَنْتَظِمَ وإِلَّا وَقَعَ الهَرْجُ والمَرَجُ واضْطَرَبَ أَمْرُ الدِّينِ والدُّنْيا واخْتَلَّ نِظامُ المَعاشِ والمَعاد) .

ولَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ : خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا فَقالَ : (هَذا سَبِيلُ الرُّشْدِ) ، ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وشِمالِهِ خُطُوطًا ، فَقالَ : (هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْها شَيْطانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ) .

فَعَلَى العاقِلِ أَنْ يَسْلُكَ إِلَى صِراطِ التَّوْحِيدِ ولَوازِمِهِ وحُقُوقِهِ ، ويَجْتَنِبَ عَنْ سُبُلِ الشَّيْطانِ وأَسْبابِ الدُّخُولِ فِيها ، فاجْتَهِدْ أَيُّها العَبْدُ الذَّلِيلُ فِي طَرِيقِ المُتابَعَةِ والمُوافَقَةِ للأَنْبِياءِ والكامِلِين ، وتَمَسَّكْ بِذَيْلِ شَيْخٍ واصِلٍ إِلَى اليَقِين ؛ لَعَلَّهُ يَجْمَعُ بِإِذْنِ اللهِ شَمْلَكَ بَعْدَما تَبَدَّدَ وَصْلُكَ وتَفَرَّقَ حالُكَ ، فَإِنَّ الطَّرِيقَ المَجْهُولَ لا بُدَّ لَهُ مِنْ مُرْشِدٍ وإِلَّا فالهَلاك .

عَصَمَنا اللهُ وإِيَّاكُمْ مِنَ الخِلافِ والاخْتِلاف ، وأَسْلَكَنا طَرِيقَ الأَخْيارِ مِنَ الأَسْلاف ، وثَبَّتَنا فِيهِ إِلَى آخِرِ الآجال ، وحَشَرَنا مَعَ أَهْلِ الفَضْلِ والكَمال .

واعْلَمْ أَنَّ شَعائِرَ اللّهِ فِي الحَقِيقَةِ هِيَ مَناسِكُ الوُصولِ إِلَى اللّهِ ، وهِيَ مَعالِمُ الدِّينِ والشَّرِيعَةِ ، ومَراسِمُ آدابِ الطَّرِيقَةِ بِإِشارَةِ أَرْبابِ الحَقِيقَةِ ؛ فَإِنَّ حَقِيقَةَ البِرِّ هِيَ التَّفَرُّدُ لِلْحَقِّ ، وحَقِيقَةَ التَّقْوَى هِيَ الخُرُوجُ عَمَّا سِوَى اللّهِ تَعالَى ، فالوُصُولُ لا يُمْكِنُ إِلَّا بِهِما ، لَكِنَّهُما خُطْوَتانِ لا يُمْكِنُ لِلمُرِيدِ الصَّادِقِ أَنْ يَتَخَطَّى بِهِما إِلَّا بِمُعاوَنَةِ شَيْخٍ كامِلٍ مُكَمِّلٍ واصِلٍ مُوَصِّلٍ ، فَإِنَّهُ دَلِيلُ هَذا الطَّرِيقِ ، وفِي آيَةِ : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ إِشارَةٌ إِلَى تَعْظِيمِ ما عَظَّمَهُ اللّهُ مِنَ الزَّمانِ والمَكانِ والإِخْوانِ ، وقَدْ فَضَّلَ الأَشْهُرَ والأَيَّامَ والأَوْقاتَ بَعْضَها عَلَى بَعْضٍ كَما فَضَّلَ الرُّسُلَ والأُمَمَ بَعْضَها عَلَى بَعْضٍ ، لِتَتَسارَعَ القُلُوبُ إِلَى احْتِرامِها وتَتَشَوَّقَ القُلُوبُ إِلَى إِحْيائِها بِالتَّعَبُّدِ فِيها ، ويُرَغِّبَ الخَلْقَ فِي فَضائِلِها ، وفَضَّلَ الأَمْكِنَةَ بَعْضَها عَلَى بَعْضٍ لِيَعْظُمَ الأَجْرُ بِالإِقامَةِ فِيها ، وخَلَقَ اللّهُ النَّاسَ سَعِيداً وشَقِيًّا والعِبْرَةُ بِالخاتِمَةِ ، وكُلُّ مَخْلُوقٍ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَخْلُوقٌ لِلّهِ حَسَنٌ حَتَّى إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ إِلَى الكافِرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَخْلُوقٌ لِلّهِ لا مِنْ حَيْثُ كُفْرُهُ وإِنْ لَمْ يَرْضَ بِكُفْرِهِ ، فَعَلَى النَّاظِرِ بِنَظَرِ التَّوْحِيدِ أَنْ يُحْسِنَ النَّظَرَ ولا يَحْقِرَ أَحَداً مِنْ خَلْقِ اللّهِ ولا يَشْتَغِلَ بِالعَداوَةِ والبَغْضاءِ .

ومِنْ كَلِماتِ أَسَدِ اللهِ الغالِب الإمام عَلِيِّ بنِ أَبي طالِب كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : (العَداوَةُ شُغْلٌ) ؛ يَعْنِي مَنِ اشْتَغَلَ بِالعَداوَةِ يَنْقَطِعُ عَنْ الاشْتِغالِ بِالأُمُورِ المُفِيدَةِ لأَنَّ القَلْبَ لا يَسَعُ الاشْتِغالَيْنِ المُتضادَّيْن .

وكانَ ﷺ مَوْصُوفًا بِمَكارِمِ الأَخْلاقِ ومَحاسِنِ الأَعْمالِ ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَقْتَدِيَ بِهِ ، ولَمَّا مَدَحَ اللهُ الأَنْبِياءَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ووَصَفَ كُلَّ نَبِيٍّ بِصِفَةٍ قالَ لَهُ تَعالَى : ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ ، ففَعَلَ ﷺ فَصارَ مُسْتَجْمِعًا لِكَمالِ خِصالِ الخَيْرِ ، وكانَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ مَخْصُوصًا بِخَصْلَةٍ مِثْلَ سَيِّدِنا نُوحٍ عليه السلام بِالشُّكْرِ ، وسَيِّدِنا إبْراهِيمَ عليه السلام بِالحِلْمِ ، وسَيِّدِنا مُوسَىٰ عليه السلام بِالإِخْلاصِ ، وسَيِّدِنا إسْماعِيلَ عليه السلام بِصِدْقِ الوَعْدِ ، وسَيِّدِنا يَعْقُوبَ عليه السلام وسَيِّدِنا أَيُّوبَ عليه السلام بِالصَّبْرِ ، وسَيِّدِنا داوُود عليه السلام بِالاعْتِذارِ ، وسَيِّدِنا سُلَيْمانَ عليه السلام بِالتَّواضُعِ ، وسَيِّدِنا عِيسَىٰ عليه السلام بِالزُّهْدِ ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ ﷺ بِهَذِهِ الخِصالِ (والَّذِي هُوَ أَصْلُ فِطْرَتِها ونَشْأَتِها) اجْتَمَعَ لَهُ الكُلُّ .

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ ❁ غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

فَأَنْتَ أَيُّها المُؤْمِنُ مِنْ أُمَّةِ ذَلِكَ الرَّسُولِ ﷺ فاتَّقِ اللهَ واسْتَحْيِ مِنْ رَسُولِ اللهِ كَيْ تَنْجُوَ مِنَ العِقابِ الشَّدِيدِ والعَذابِ المَدِيدِ ، وتَظْفَرَ

بِالخُلْدِ الباقِي والنَّعِيمِ المُقِيم ، وتَنالَ ما نالَهُ ذُو القَلْبِ السَّلِيم .

وقالَ مَنْ نَحْنُ فِي رَحْمَتِهِ طامِعُونَ : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ : قالَ المُفَسِّرُ المَذْكُورُ عَلَيْهِ رَحْمَةُ الكَرِيمِ الشَّكُور : وسُئِلَ الجُنَيْدُ قُدِّسَ سِرُّهُ عَنِ الأَخِ فَقالَ : (هُوَ أَنْتَ فِي الحَقِيقَةِ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُكَ فِي الشَّخْصِ) ، قالَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ : الإِخْوَةُ جَمْعُ الأَخِ مِنَ النَّسَبِ ، والإِخْوانُ جَمْعُ الأَخِ مِنَ الصَّداقَةِ ، ويَقَعُ أَحَدُهُما مَوْقِعَ الآخَر .

وفِي الحَدِيثِ : (وكُونُوا عِبادَ اللهِ إِخْوانًا) ، والمَعْنَى إِنَّما المُؤْمِنُونَ مُنْتَسِبُونَ إِلَى أَصْلٍ واحِدٍ هُوَ الإِيمانُ المُوجِبُ لِلْحَياةِ الأَبَدِيَّة ، كَما أَنَّ الإِخْوَةَ مِنَ النَّسَبِ مُنْتَسِبُونَ إِلَى أَصْلٍ واحِدٍ هُوَ الأَبُ المُوجِبُ لِلحَياةِ الفانِيَة ، فالآيَةُ مِنْ قَبِيلِ التَّشْبِيهِ البَلِيغِ حَيْثُ شَبَّهَ الإِيمانَ بِالأَبِ فِي كَوْنِهِ سَبَبَ الحَياةِ كالأَبِ ، ثُمَّ قالَ : وتَخْصِيصُ الاثْنَيْنِ بِالذِّكْرِ أَيْ فِي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ لإِثْباتِ وُجُوبِ الإِصْلاحِ فِيما فَوْقَ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الأَوْلَوِيَّةِ لِتَضاعُفِ الفِتْنَةِ والفَسادِ فِيهِ ، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فِي إِخْوانِكُمْ فِي الدِّينِ بِحِفْظِ عُهُودِهِمْ ورِعايَةِ حُقُوقِهِمْ فِي المَشْهَدِ والمَغِيبِ والحَياةِ والمَماتِ .

واعْلَمْ أَنَّ أُخُوَّةَ الإِسْلام أَقْوَى مِنْ أُخُوَّةِ النَّسَبِ بِحَيْثُ لا تُعْتَبَرُ أُخُوَّةُ النَّسَبِ إذا خَلَتْ عَنْ أُخُوَّةِ الإِسْلام .

وقالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ اللّٰهَ خَلَقَ الأَرْواحَ مِنْ عالَمِ المَلَكُوتِ والأَشْباحَ مِنْ عالَمِ المُلْكِ ونَفَخَ فِيها تِلْكَ الأَرْواحَ ، وجَعَلَ بَيْنَهُما النُّفُوسَ الأَمَّارَةَ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ قَبِيلِ الأَرْواحِ ولا مِنْ قَبِيلِ الأَشْباحِ وجَعَلَها مُخالِفَةً للأَرْواحِ ومَساكِنِها (أَي الأَشْباح) ، فَأَرْسَلَ عَلَيْها جُنْدَ العُقُولِ لِيَدْفَعَ بِها شَرَّها (وهِيَ العُقُولُ المُجَرَّدَةُ الأُخْرَوِيَّةُ وإِلَّا فالعُقُولُ الغَرِيزِيَّةُ والدُّنْيَوِيَّةُ لا تَقْدِرُ عَلَى الدَّفْعِ بَلْ هِيَ مُعِينَةٌ للنَّفْسِ) ، فَإِذا امْتَحَنَ اللّٰهُ عِبادَهُ المُؤْمِنِينَ هَيَّجَ نُفُوسَهُمُ الأَمَّارَةَ لِيُظْهِرَ حَقائِقَ دَرَجاتِهِمْ مِنَ الإِيمانِ والأُخُوَّةِ وأَمَرَهُمْ أَنْ يُعِينُوا العَقْلَ والرُّوحَ والقَلْبَ عَلَى النَّفْسِ حَتَّى تَنْهَزِمَ ؛ لأَنَّ المُؤْمِنَ للمُؤْمِنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَهُمْ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ لأَنَّ مَصادِرَهُمْ مَصْدَرٌ واحِدٌ وهُوَ آدَمُ عليه السلام ، ومَصْدَرُ رُوحِ آدَمَ نُورُ المَلَكُوت ، ومَصْدَرُ جِسْمِهِ تُرْبَةُ الجَنَّةِ فِي بَعْضِ الأَقْوال ، ولِذَلِكَ يَصْعَدُ الرُّوحُ إِلَى المَلَكُوتِ والجِسْمُ إِلَى الجَنَّةِ كَما قالَ ﷺ : (كُلُّ شَيْءٍ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهِ) .

وفِي التَّأْوِيلاتِ النَّجْمِيَّة : اعْلَمْ أَنَّ أُخُوَّةَ النَّسَبِ إِنَّما تَثْبُتُ إِذا كانَ

مَنْشَأُ النُّطَفِ صُلْبًا واحِداً ، فَكَذلِكَ أُخُوَّةُ الدِّينِ مَنْشَأُ نُطَفِها صُلْبُ النُّبُوَّةِ ، وحَقِيقَةُ نُطَفِها نُورُ اللهِ ، فَإِصْلاحُ ذاتِ بَيْنِهِمْ بِرَفْعِ حُجُبِ أَسْتارِ البَشَرِيَّةِ عَنْ وُجُوهِ القَلْبِ لِيَتَّصِلَ النُّورُ بِالنُّورِ مِنْ رَوْزَنَةِ القَلْبِ لِيَصِيرُوا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ كَما قالَ ﷺ :(المُؤْمِنُونَ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنِ اشْتَكَى عُضْوٌ واحِدٌ تَداعَى سائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّى والسَّهَرِ) .

ومِنْ حَقِّ الأُخُوَّةِ فِي الدِّينِ أَنْ تُحِبَّ لأَخِيكَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، ويَسُرَّكَ ما سَرَّهُ ويَسُوءَكَ ما ساءَهُ ، وأَنْ لا تُحْوِجَهُ إِلَى الاسْتِعانَةِ بِكَ ، وإِنِ اسْتَعانَ تُعِينُهُ ، وأَنْ تَنْصُرَهُ ظالِمًا أَوْ مَظْلُومًا (فَمَنْعُكَ إِيَّاهُ عَنِ الظُّلْمِ فَذلِكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ) ، وفِي الحَدِيثِ : (المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ ، مَنْ كانَ فِي حاجَةِ أَخِيهِ كانَ اللهُ فِي حاجَتِهِ ، ومَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُباتِ يَوْمِ القِيامَةِ ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ) .

ومِنْ حَقِّهِ عَلَيْكَ أَنْ لا تُقَصِّرَ فِي تَفَقُّدِ أَحْوالِهِ بِحَيْثُ يُشْكِلُ عَلَيْكَ مَوْضِعُ حاجَتِهِ فَيَحْتاجُ إِلَى مَسْأَلَتِكَ ، وأَنْ لا تُلْجِئَهُ إِلَى الاعْتِذارِ بَلْ تَبْسُطُ عُذْرَهُ فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ وَجْهُهُ عُدْتَ بِاللَّائِمَةِ عَلَى نَفْسِكَ فِي خَفاءِ عُذْرِهِ ، وتَتُوبُ عَنْهُ إِذا أَذْنَبَ وتَعُودُهُ إِذا مَرِضَ ، وإِذا أَشارَ

عَلَيْكَ بِشَيْءٍ فَلا تُطالِبْهُ بِالدَّلِيلِ وإيرادِ الحُجَّةِ كَما قالُوا :

لا يَسْأَلُونَ أَخاهُمْ حِينَ يَنْدِبُهُمْ ۞ فِي النَّائِباتِ عَلَى مَا قالَ بُرْهَانَا

۞ أَخْرَجَ الإمامُ مُسْلِمٌ بِالرُّواةِ عَنْ سَيِّدِنا أَبِي هُرَيْرَةَ (عَبْدِ الرَّحْمٰنِ ابنِ صَخْرٍ الدَّوْسِي) رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لا تَحاسَدُوا ولا تَناجَشُوا ولا تَباغَضُوا ولا تَدابَرُوا ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وكُونُوا عِبادَ اللهِ إِخْوانًا ، المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَكْذِبُهُ ولا يَحْقِرُهُ ، التَّقْوَىٰ ها هُنا - ويُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّات - بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخاهُ المُسْلِمَ ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرامٌ دَمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ) :

فَقَوْلُهُ ﷺ : (لا تَحاسَدُوا) : خِطابٌ لِكُلِّ مَنْ يَتَأَتَّى تَوْجِيهُ الخِطابِ إِلَيْهِ ؛ أَيْ لا يَحْسِدْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ولا يَتَمَنَّ بَعْضُكُمْ زَوالَ نِعْمَةِ بَعْضٍ ، والإِجْماعُ عَلَى أَنَّ الحَسَدَ حَرامٌ ، ونُصُوصُ الشَّرْعِ الوارِدَةُ بِذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي الكِتابِ والسُّنَّةِ ؛ رَوَى أَبو داودَ والحاكِمُ وغَيْرُهُما عَنْهُ ﷺ قالَ : (إِيَّاكُمْ والحَسَدَ فَإِنَّ الحَسَدَ يَأْكُلُ الحَسَناتِ كَما تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ) .

وفِي بَعْضِ الحِكَمِ : الحَسُود لا يَسُود .

وقالَ بَعْضُهُمْ : الحاسِد جاحِد ، لِأَنَّهُ لا يَرْضَى بِقَضاءِ الواحِدِ .

وفِي مَعْناهُ قالَ مَنْصُورُ الفَقِيه :

أَلا قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِي حَاسِدًا ❁ أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الأَدَبْ

أَسَأْتَ عَلَى اللهِ فِي حُكْمِهِ ❁ لأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبْ

فَكَانَ جَزَاؤُكَ أَنْ خَصَّنِي ❁ وَسَدَّ عَلَيْكَ وُجُوهَ الطَّلَبْ

وقالَ بَعْضُهُمْ فِي مَعْرِضِ التَّسْلِيَةِ لأَهْلِ فَتْحِ اللهِ ومَظاهِرِ أَنْوارِهِ وأَسْرارِهِ ، عَمَّا يُصِيبُهُمْ مِمَّنِ ابْتُلِيَ بِهَذِهِ البَلِيَّةِ والعِياذُ بِاللهِ :

اصْبِرْ عَلَى حَسَدِ الْجَسُو ❁ دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ

فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ❁ إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

قالَ اللهُ العَظِيم : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾

اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ وبارِكْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ صَلاةَ قُوَّةٍ ومَدَد ، صَلاةً تَقْوَى بِها رُوحِي ويَصِحُّ بِها الجَسَد ، صَلاةً تُعِيذُنِي بِها مِنْ عَيْنِ عائِنٍ إِذا حَسَد ، بِحَقِّ : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ .

(ولا تَناجَشُوا) : أَيْ لا يَزِدْ بَعْضُكُمْ فِي السِّلْعَةِ لِيَغُرَّ غَيْرَهُ والحالُ أَنَّهُ لا رَغْبَةَ لَهُ فِيها ، لأَنَّ النَّاجِشَ يُثِيرُ كَثْرَةَ الثَّمَنِ بِنَجْشِهِ وذَلِكَ حَرامٌ لأَنَّهُ غِشٌّ وخِداعٌ ، وقَدْ وَرَدَ : (مَنْ غَشَّنا فَلَيْسَ مِنَّا) ، أَجارَنا اللهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَنِّهِ ، آمِين .

وقالَ بَعْضُ المُحَقِّقِينَ : إنَّ النَّجْشَ يَكُونُ بِمَعْنَى التَّنْفِيرِ والإطْراءِ ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرادَ فِي الحَدِيثِ أَيْ لا تَنافَرُوا أَيْ لا يُنَفِّرْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ولا يُعامِلْهُ بِما يُنَفِّرُهُ فَيَرْجِعُ لِمَعْنَى المُقاطَعَةِ ، أَوْ لا يُطْرِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي الثَّناءِ أَوْ لا يُطْرِ بَعْضُكُمْ سِلْعَةَ بَعْضٍ بِأَنْ يُبالِغَ فِي مَدْحِها عَلَى وَجْهِ الخَدِيعَةِ لِلْمُشْتَرِي ، وذَكَرَ صاحِبُ القامُوسِ أَنَّ مِنْ مَعانِي النَّجْشِ البَحْثَ عَنِ الشَّيْءِ ، والمُنْجِشُ كَثِيرُ الوِقاعِ فِي النَّاسِ الكَشَّافُ عَنْ عُيُوبِهِمْ ، وهَذا مَعْنًى حَسَنٌ ؛ فَيَكُونُ المَعْنَى لا يَبْحَثْ بَعْضُكُمْ عَنْ عُيُوبِ بَعْضٍ ولا يَكْشِفْ بَعْضُكُمْ سِتْرَ بَعْضٍ و لْيَشْتَغِلْ كُلُّ واحِدٍ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ عَنْ عُيُوبِ غَيْرِهِ ، فَهُوَ نَهْيٌ عَنْ تَتَبُّعِ العَوْراتِ المُؤَدِّي إلَى القَطِيعَةِ فِي جَمِيعِ الأَزْمانِ والحالاتِ المُبْعِدُ مِنْ حَضْرَةِ عالِمِ الخَفِيَّاتِ .

ويَرْحَمُ اللّهُ الإمامَ مالِكًا رضي الله عنه إذْ يَقُولُ : (أَدْرَكْنا أُناسًا لا عُيُوبَ لَهُمْ ، بَحَثُوا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ و تَكَلَّمُوا فِيها فَحَدَثَتْ لَهُمْ عُيُوب ، وفَضَحَ عَوْراتِهِمْ عَلاَّمُ الغُيُوب) .

ولِلّهِ دَرُّ القائِلِ :

لا تَلْتَمِسْ مِنْ عُيُوبِ النَّاسِ ما سَتَرُوا ❁ فَيَهْتِكُ اللّهُ سِتْرًا عَنْ مَساوِيكَ

وَاذْكُرْ مَحاسِنَ مَا فِيهِمْ إذَا ذُكِرُوا ❁ وَلا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَ

(ولا تَباغَضُوا) : أَيْ لا تَتَعاطَوْا أَسْبابَ التَّباغُضِ ، إذِ البُغْضُ والحُبُّ

قَهْرِيَّانِ غَيْرُ كَسْبِيَّيْنِ فَلا يَتَعَلَّقُ التَّكْلِيفُ بِهِما إِذْ لا تَكلِيفَ إِلَّا بِفِعْلٍ اخْتِيارِيٍّ ، وإِنَّما يَتَعَلَّقُ التَّكْلِيفُ بِأَسْبابِهِما الكَسْبِيَّةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ﷺ لَمَّا كانَ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسائِهِ ويَعْدِلُ : (اللَّهُمَّ هَذا قَسْمِي فِيما أَمْلِكُ فاغْفِرْ لِي فِيما لا أَمْلِكُ) ، ومِنَ المُقَرَّرِ أَنَّهُ إِذا نَهَى عَنِ التَّباغُضِ فَقَدْ أَمَرَ بِالتَّحابِّ لأَنَّ النَّهْيَ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضِدِّهِ قَطْعًا عَلَى التَّحْقِيقِ عِنْدَ أَرْبابِ الأُصُول .

هَذا ، والحُبُّ فِي اللهِ لا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ أَمَرَ الشَّرْعُ بِحُبِّهِ وكانَ جارِيًا عَلَى المَنْهَجِ القَوِيمِ حَسَبَ الإِمْكانِ ولَوْ بِوَجْهٍ ما مِنَ التَّأْوِيل ، وأَمَّا أَهْلُ البِدَعِ وخُصُوصًا المُحَرَّمَةُ بِالإِجْماعِ ، وأَهْلُ الفُسُوقِ والمَعاصِي الَّذِينَ لَمْ يَتُوبُوا ولَمْ يَرْعَوُوْا ويُجاهِرُونَ بِها ولا يَسْتَقْبِحُونَ حالَهُمْ فِيها ، فَيَجِبُ بُغْضُهُمْ فِي اللهِ أَيْضًا ، كَما يَجِبُ حُبُّ المُطِيعِينَ فِي اللهِ ؛ فَقَوْلُهُ ﷺ : (ولا تَباغَضُوا) عامٌّ مَخْصُوصٌ ؛ لأَنَّهُ يُسْتَثْنَى مِنْهُ البُغْضُ فِي اللهِ المَأْمُورُ بِهِ ؛ فَفِي حَدِيثِ سَيِّدِنا عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُود رضي الله عنه مَرْفُوعًا عِنْدَ الإِمامِ ابنِ شاهِين : (تَقَرَّبُوا إِلَى اللهِ بِبُغْضِ أَهْلِ المَعاصِي ، والْقَوْهُمْ بِوُجُوهٍ مُكْفَهِرَّة ، والْتَمِسُوا رِضا اللهِ بِسُخْطِهِمْ ، وتَقَرَّبُوا إِلَى اللهِ بِالتَّباعُدِ مِنْهُمْ) ، والمُكْفَهِرُّ : المُتَعَبِّسُ .

تَنْبيه : مِمَّا يَجِبُ التَّفَطُّنُ لَهُ حَسْبَما بَيَّنَهُ الأَكابِرُ مِنَ العُلَماءِ الأَتْقِياءِ نَفَعَنا اللّٰهُ بِهِمْ أَنَّ مَنِ ادَّعَى أَنَّهُ يُبْغِضُ للّٰهِ يَجِبُ عَلَيْهِ الاحْتِياطُ فِي ذَلِكَ وأَنْ لايَتَصَرَّفَ بِشَهْوَةِ نَفْسِهِ والمَيْلِ لِما فِيهِ هَواهُ ولَوْ بِمُطْلَقِ وَجْهٍ ، فَإِنَّهُ قَدْ يُعْذَرُ فِي نَفْسِ الأَمْرِ وقَدْ لا يُعْذَرُ لاتِّباعِهِ لِهَواهُ وتَقْصِيرِهِ فِي البَحْثِ عَنْ مَعْرِفَةِ ما يُبْغِضُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ كَثِيراً مِنَ البُغْضِ لِذَلِكَ إِنَّما يَقَعُ مِمَّنْ يَظُنُّ أَنَّهُ لا يَقُولُ إِلَّا الحَقَّ ، وهَذا الظَّنُّ خَطَأٌ قَطْعاً ، فَإِنْ أَرادَ أَنَّهُ لا يَقُولُ إِلَّا الحَقَّ فِيما خُولِفَ فِيهِ ، فَهَذا الظَّنُّ قَدْ يُخْطِئُ وقَدْ يُصِيبُ إِذْ قَدْ يَحْمِلُهُ عَلَى المَيْلِ إِلَيْهِ مُجَرَّدُ هَوًى أَوْ إِلْفٍ أَوْ عادَةٍ ، فالواجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُصَحِّحَ نَفْسَهُ ويَحْتَرِزَ غايَةَ التَّحَرُّزِ ، وما أَشْكَلَ مِنْهُ فَلْيَجْتَنِبْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَقَعَ فِيما نُهِيَ عَنْهُ مِنَ البُغْضِ المُحَرَّمِ .

قالُوا : وها هُنا دَسِيسَةٌ أُخْرَى يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَها وهِيَ أَنَّ المُجْتَهِدَ بِحَقٍّ قَدْ يَرَى رَأْيًا مَرْجُوحًا أَيْ فِي نَفْسِ الأَمْرِ ، والفَرْضُ أَنَّهُ راجِحٌ فِي اعْتِقادِهِ ، فَهُوَ وإِنْ أُثِيبَ عَلَيْهِ قَدْ لا يَكُونُ المُنْتَصِرَ لِقَوْلِهِ كَذَلِكَ أَيْ مُثابًا عَلَيْهِ وهُوَ ما إِذا قَصَدَ بِانْتِصارِهِ لَهُ أَنَّهُ مِنْ أَقْوالِ مَتْبُوعِهِ ، ولَوْ كانَ مِنْ أَقْوالِ غَيْرِهِ لَمْ يَنْتَصِرْ لَهُ لأَنَّ انْتِصارَهُ حِينَئِذٍ مَشُوبٌ بِإِرادَةِ عُلُوِّ مَتْبُوعِهِ وظُهُورِ كَلِمَتِهِ وأَنْ لا يُنْسَبَ إِلَى الخَطَأِ ، وهَذا كُلُّهُ قادِحٌ فِي

قَصْدِ الانْتِصارِ للحَقِّ ، فافْهَمْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مُهِمٌّ ويَخْفَى عَلَى كَثِيرِينَ ، اللَّهُمَّ احْفَظْنا مِنَ التَّلْبِيسِ والتَّدْلِيسِ وأَرِنا الحَقَّ حَقًّا وارْزُقْنا اتِّباعَهُ والباطِلَ باطِلًا وارْزُقْنا اجْتِنابَهُ ، آمِين .

هَذا ، وأَعْظَمُ أَسْبابِ التَّباغُضِ والتَّقاطُعِ مَحَبَّةُ الدُّنْيا الدَّنِيَّة ، ومُتابَعَةُ الأَهْواءِ الشَّيْطانِيَّة ، والتَّخَلُّقُ بِالأَخْلاقِ القَبِيحَةِ المُرْدِيَة ؛ مِثْلَ الحِقْدِ والحَسَدِ والرِّياءِ والكِبْرِ والعُجْبِ و غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نَقائِصِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ الَّتِي لا تُحَدُّ ولا تُسْتَقْصَىٰ ؛ إِذْ للنَّفْسِ مِنَ النَّقائِصِ ما للهِ مِنَ الكَمالات ، ورَأْسُ ذَلِكَ كُلِّهِ مَحَبَّةُ الدُّنْيا ، وبِذَلِكَ يَتَّسِعُ الخَرْقُ عَلَى الرَّاقِع ، ويَجْهَدُ فِي المُدافَعَةِ كُلُّ مُدافِع ، إِلَّا أَنْ تَتَدارَكَ عِنايَةُ اللهِ بِواسِطَةِ أَفْضَلِ شافِعٍ ﷺ .

خُلاصَة .. فِي قُصاصَة

وَرَدَ فِي الخَبَرِ : (مَنْ أَخْلَصَ للهِ أَرْبَعِينَ صَباحًا تَفَجَّرَتْ يَنابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسانِهِ) أَي انْقَلَبَ حَدِيثُ نَفْسِهِ عِلْمًا لَدُنِّيًّا فَيَرْوِيهِ القَلْبُ عَنِ النَّفْسِ بِاعْتِبارِ تَوَجُّهِهِ إِلَى عالَمِ الشَّهادَةِ فَيُتَرْجِمُ بِهِ اللِّسانُ عَنِ القَلْبِ ؛ فَمَنْ أَخْلَصَ للهِ فِي الهِجْرَةِ إِلَيْهِ كانَ جَزاؤُهُ وِجْدانَ الحَقِّ والوُصُولَ إِلَيْهِ .

وقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الوُصُولَ إِلَى اللهِ وُصُولٌ إِلَى العِلْمِ بِهِ ، فالتَّحَقُّقُ بِالعُلُومِ اللَّدُنِّيَّةِ مَوْقُوفٌ عَلَى صَفاءِ النِّيَّةِ ، وهِيَ مَوْقُوفَةٌ عَلَى قَطْعِ البَقِيَّةِ الَّتِي تَتَشَوَّفُ إِلَى العَطِيَّةِ ، فَمَنْ أَسْعَدَهُ اللهُ فِي سابِقِ الأَزَلِ أَجْراهُ فِي لاحِقِ الأَبَدِ عَلَى مِنْهاجِ السِّياسَةِ المُحَمَّدِيَّةِ ، وهَيَّأَهُ لاسْتِعْمالِ الأَجْنِحَةِ المُؤْذِنَةِ بِالطَّيَرانِ مِنَ الحَضَراتِ النَّفْسانِيَّةِ ، ولَيْسَتِ الأَجْنِحَةُ سِوَى ما يَمْنَحُهُ الحَقُّ لِعَبْدِهِ مِنْ عُلُوِّ الهِمَّةِ و صَفاءِ النِّيَّةِ ، فَيَتَوَجَّهُ العَبْدُ إِلَى مَوْلاهُ بِنَعْتِ هِجْرانِ حُظُوظِهِ وقَطْعِ عَلائِقِ أُمْنِيَّتِهِ الحِسِّيَّةِ والمَعْنَوِيَّةِ ، إِذْ بِهَذِهِ النِّيَّةِ والهِمَّةِ يَصِيرُ العَبْدُ مَحَطَّ نَظَرِ الحَقِّ فِي خَلْقِهِ وتَتَوَجَّهُ جَمِيعُ المَوْجُوداتِ إِلَيْهِ بِنَعْتِ الافْتِقارِ إِلَى ما لَدَيْهِ ؛ ومِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَدَّبَ الشَّيْخُ مَوْلانا عَبْدُ السَّلامِ بنُ مَشِيش تِلْمِيذَهُ سَيِّدَنا أَبا الحَسَنِ الشَّاذِلِيَّ بِقَوْلِهِ : (يا وَلَدِي عِوَضَ ما تَقُولُ يا رَبِّ سَخِّرْ لِي خَلْقَكَ ، قُلْ : يا رَبِّ كُنْ لِي ، أَرَأَيْتَ إِذا كانَ لَكَ أَيَفُوتُكَ شَيْءٌ ؟) ، أَيْ عِوَضَ ما تَجْعَلُ هِجْرَتَكَ وانْصِرافَ هِمَّتِكَ إِلَى طَلَبِ ما سِوَى الحَقِّ ، اجْعَلْ هِجْرَتَكَ مَصْرُوفَةً إِلَى الحَقِّ ، فَإِنَّهُ إِذا كانَ لَكَ بِأَنْوارِ الاجْتِباءِ والتَّخْصِيصِ وجَعَلَكَ مَرْساةً لِتَجَلِّي أَنْوارِ صِفاتِهِ الذَّاتِيَّةِ فَإِنَّهُ لا يَفُوتُكَ شَيْءٌ مِنَ المَوْجُوداتِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الكُلَّ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ ومُسْتَنِدٌ إِلَى أَسْرارِ وُجُودِكَ ، وإِذا كانَ

الكُلُّ بِكَ فَهُوَ إِلَيْكَ ؛ لأَنَّ هَذا المَظْهَرَ الإِنْسانِيَّ إذا انقَلَبَتْ صِفاتُهُ النَّفْسانِيَّةُ إِلَى صِفاتِهِ الرُّوحانِيَّةِ بِمَعْنَى أَنَّهُ إذا تَخَلَّصَ مِنْ كَزازَتِهِ الطِّينِيَّةِ وتَحَرَّرَ مِنْ رِقِّ كَدَرِ صِفاتِهِ التُّرابِيَّةِ صارَ مَرْساةً للتَّجَلِّياتِ الرَّبَّانِيَّةِ ومَحَلًّا لِلتَّنَزُّلاتِ الإِلَهِيَّةِ ، وقامَ بِهِ سِرُّ الفِعْلِ وبِما عَداهُ مِنَ المَوْجُوداتِ سِرُّ الانْفِعالِ لِكَونِها صارَتْ جُزْءًا مِنْهُ وهُوَ كُلٌّ والكُلُّ حاكِمٌ فِي الجُزْءِ لِما لَهُ عَلَيْهِ مِنَ الحَيْطَةِ الكُلِّيَّةِ والاسْتِيلاءِ بِصِفَةِ القَهْرِيَّةِ ؛ فالمُهاجِرُ نَهْمَتُهُ إِلَى الحَقِّ جَمِيعُ الصُّوَرِ الكَيانِيَّةِ ، والظِّلالُ الشَّاخِصَةُ كُلُّها ساجِدَةٌ لَهُ مُلْكاً ومَلَكُوتًا عُلْوِيًّا وسُفْلِيًّا ، كُلُّ ذَلِكَ فِي قَبْضَةِ يَمِينِهِ مَطْوِيٌّ وكِلْتا يَدَيْهِ يَمِينٌ إِنْ شاءَ أَوْجَدَ الجَمِيعَ وإِنْ شاءَ أَعْدَمَهُ ؛ ذَلِكُمُ العَبْدُ الرَّبَّانِي الَّذِي جَعَلَ اللّٰهُ (كُن) طَوْعَ إِشارَتِهِ ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

وقَدْ تَحَقَّقَ عِنْدَ كُلِّ مَنْ فَتَحَ اللّٰهُ بَصِيرَتَهُ أَنَّ هَذا الوُجُودَ مَحْفُوفٌ بِالعَدَمِ أَوَّلاً وآخِراً ، فَهُوَ عَدَمٌ والعَدَمُ ظُلْمَةٌ ، وهَذا الإِنْسانُ المَمْنُوحُ سِرَّ الاصْطِفائِيَّةِ صارَ كُلُّهُ نُوراً ، والنُّورُ مُتَصَرِّفٌ فِي الظُّلْمَةِ ، فافْهَمْ . وهَذا القَدْرُ كافٍ فِي البَيانِ ، والزِّيادَةُ فَوْقَ هَذا مُوقِعَةٌ فِي القَوْلِ كَما لا يَخْفَىٰ عَلَى أَهْلِ العِرْفانِ .

وأَنْتَ أَيُّها النَّاظِرُ بِعَيْنِ الحَقِّ إذا تَأَمَّلْتَ هَذِهِ الدَّلالَةَ مِنْ نَبِيِّنا ﷺ عَلِمْتَ أَنَّهُ حَصَلَ لَكَ فِيها جَمِيعُ الخَيْراتِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ دَلَّكَ عَلَى الأَصْلِ الَّذِي تَسْتَوْلِي بِهِ عَلَى جَمِيعِ المَوْجُوداتِ إِذْ مَنْ وَجَدَ الحَقَّ ما فَقَدَ شَيْئًا مِنَ الخَلْقِ بِخِلافِ العَكْسِ فَإِنَّ مَنْ فَقَدَ الحَقَّ لَمْ يَجِدْ لا حَقًّا ولا خَلْقًا ؛ إِذِ الكَوْنُ مِنْ حَيْثُ كَوْنِيَّتُهُ إِنَّما هُوَ مُنْقادٌ لِمَنْ تَوَجَّهَ إِلَى الحَقِّ بِصَفاءِ النِّيَّةِ والقَصْدِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ ، وأَمَّا مَنْ طَلَبَ الكَوْنَ بِالصِّفَةِ الكَوْنِيَّةِ فَذَلِكَ هُوَ المَعْتُوهُ صاحِبُ الرَّزِيَّة (أَنْتَ مَعَ الأَكْوانِ ما لَمْ تَشْهَدِ المُكَوِّنَ ، فَإِذا شاهَدْتَ المُكَوِّنَ كانَتِ الأَكْوانُ مَعَكَ) .

وإِمامُنا وقُدْوَتُنا ﷺ قَدْ نَصَحَ الأُمَّةَ غايَةَ النُّصْحِ ودَلَّهُمْ عَلَى يَنْبُوعِ الرِّبْحِ ، وهَكَذا كُلُّ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُ واقْتَفَى أَثَرَهُ فَإِنَّما إِشارَتُهُ ودَلالَتُهُ مَقْصُورَةٌ عَلَى اللّهِ ؛ وهَذا مَعْنَى التَّيْسِيرِ فِي قَوْلِهِ ﷺ :(يَسِّرُوا ولاتُعَسِّروا) أَيْ دُلُّوهُمْ عَلَى اللّهِ ولا تَدُلُّوهُمْ عَلَى الدُّنْيا لأَنَّ مَنْ دَلَّكَ عَلَى الدُّنْيا فَقَدْ غَشَّكَ ، ومَنْ دَلَّكَ عَلَى العَمَلِ لِمُجَرَّدِ تَحْصِيلِها فَقَدْ أَتْعَبَكَ ، ومَنْ دَلَّكَ عَلَى العَمَلِ وَفْقَ مَرْضاةِ بارِيها فَقَدْ نَصَحَكَ ، كَذا قالَ وَلِيُّ اللّهِ سَيِّدِي أَبو العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنه (كما فِي لَطائِفِ المِنَنِ لِتِلْمِيذِهِ ابنِ عَطاءِ اللّهِ) : ولا شَكَّ أَنَّ التَّيْسِيرَ إِنَّما هُوَ فِي

الدَّلالَةِ عَلَى اللّه ، والتَّعْسِيرَ إنَّما هُوَ فِي الدَّلالَةِ عَلَى النُّفُوسِ لِما فِي الأُولَى مِنْ كَمالِ الرَّاحَةِ بِوِجْدانِ الحَقِّ ، ولِما فِي الثَّانِيَةِ مِنْ كَمالِ المَشَقَّةِ بِوِجْدانِ الخَلْقِ القاطِعِ عَنْ شُهُودِ الحَقِّ ، فالعاقِلُ مَنْ أَلْهَمَهُ اللّهُ رُشْدَهُ ورَحَلَ مِنَ الأَكْوانِ إلَى المُكَوِّنِ فَكانَ مُنْتَهَى هِجْرَتِهِ إلَى اللّهِ ورَسُولِهِ : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ مِنْ حَيْثُ التَّوْحِيدُ ولا مُنْتَهَى مِنْ حَيْثُ المَزِيدُ ، والجاهِلُ الأَحْمَقُ مَنْ تَسَرْبَلَ رِداءَ جَهْلِهِ واسْتَوْطَنَ فِي عُشِّ نَفْسِهِ فَكانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى هَواهُ فَكانَ راحِلًا مِنْ كَوْنٍ إلَى كَوْنٍ وكانَ مَحْجُوبًا بِسُحُبِ الأَثَرِ الَّذِي أَمَرَهُ الحَقُّ بِشُهُودِ ما فِيهِ ولَمْ يَأْمُرْهُ بِشُهُودِهِ مِنْ حَيْثُ ذاتُهُ ؛ إذْ مَنْ قَصُرَ مَشْهَدُهُ عَلَى صُوَرِ المَوْجُوداتِ فاتَهُ شُهُودُ حَقائِقِها ، ومَنْ فاتَهُ شُهُودُ الحَقائِقِ حُرِمَ جَمِيعَ الخَيْراتِ ؛ ولِذَلِكَ حَذَّرَ ﷺ مِنْ هَذا المَشْهَدِ بِقَوْلِهِ : (ومَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى دُنْيا) أَيْ مَنْ كانَتْ نِيَّتُهُ فِي الارْتِحالِ إنَّما هُوَ طَلَبُ الغَرَضِ الفانِي والحَظِّ الشَّهْوانِي كانَتْ هِجْرَتُهُ مُنْتِجَةً لِغايَةِ الخُسْرانِ والوُقُوعِ فِي دارِ البَوارِ والهَوانِ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ ؛ فِي الدُّنْيا بِالتَّعَبِ وفِي الآخِرَةِ بِسُوءِ المُنْقَلَبِ .

وبِهَذا تَبَيَّنَ أَنَّ الدُّنْيا بِهَذا الاعْتِبارِ كُلُّ ما يُوجِبُ التَّعْوِيقَ فِي الوُصُولِ

إِلَى التَّحَقُّقِ بِصَرْفِ العُبُودِيَّةِ وهُوَ شامِلٌ لِضُرُوبِ المَحْسُوساتِ مِنَ الأَعْيانِ الوُجُودِيَّةِ والمَعانِي مِنْ ضُرُوبِ العُلُومِ والأَسْرارِ وكُلِّ شَيْءٍ يُوجِبُ جاهًا أَوْ رِياسَةً ، فَمَنْ طَلَبَ بِهِجْرَتِهِ شَيْئًا مِمَّا ذُكِرَ فَهِجْرَتُهُ لا مَحالَةَ أَنَّها دُنْيَوِيَّةٌ وإِنْ ظَفِرَ بِمَطْلُوبِهِ فَذَلِكَ حَظُّهُ الشَّهْوانِي الَّذِي كانَ يَطْلُبُ بِعِبادَتِهِ وهِجْرَتِهِ ؛ ومِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ ما ظَفِرَ بِهِ مِنَ الأَسْرارِ يُعَدُّ مِنَ الدُّنْيا أَنَّهُ عِنْدَ وِجْدانِهِ لِمَطْلُوبِهِ يَضَعُ آلَةَ السَّيْرِ مِنْ يَدَيْهِ ويُلْقِي عَصا سَفَرِهِ ويُنِيخُ راحِلَتَهُ لِوُقُوفِهِ مَعَ حَظِّهِ وغَرَضِهِ ، ولَوْ كانَ سَفَرُهُ إِلَى اللّٰهِ ما وَقَفَ مَعَ ما كُوشِفَ بِهِ مِنَ الأَسْرارِ لأَنَّ هَواتِفَ الحَقِّ لا تَزالُ تُنادِي مِنْ تَحْتِ سَطْحِ دِيرِ الأَزَلِ وتَقُولُ بِلِسانِ القُدْرَةِ : لا تَقِفْ ، المَقْصُودُ أَمامَكَ ، إِذِ الحَقُّ لا يُحاطُ بِهِ مَعْنًى والوُقُوفُ يَقْتَضِي أَنَّهُ بَلَغَ النِّهايَةَ ووَقَفَ عَلَى ساحِلِ بَحْرِ العِنايَةِ ، وهَذا نَوْعٌ مِنَ الغُرُورِ الَّذِي قالَ فِيهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى : ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ .

ولِلّٰهِ دَرُّ العارِفِ بِاللّٰهِ سَيِّدِي عُمَرَ بنِ الفارِضِ إِذْ يَقُولُ :

إِنْ كانَ مَنْزِلَتِي فِي الْحُبِّ عِنْدَكُمُ ❁ مَا قَدْ رَأَيْتُ فَقَدْ ضَيَّعْتُ أَيَّامِي

أُمْنِيَّةٌ ظَفِرَتْ رُوحِي بِهَا زَمَنًا ❁ وَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْغاثَ أَحْلامِ

وهَكَذا كُلُّ مَنْ فَتَحَ اللّٰهُ بَصِيرَتَهُ ونَوَّرَ سَرِيرَتَهُ لا يَزالُ يَعْلَمُ أَنَّ مُرادَ

الحَقِّ ممَّا يُواجِهُهُ بِهِ مِنَ التَّجَلِّياتِ العِرْفانِيَّةِ والأَسْرارِ اللَّدُنِيَّةِ إِنَّما ذَلِكَ كُلُّهُ بِقَصْدِ الاخْتِبارِ حَتَّى تَتَبَيَّنَ هِجْرَةُ المُحِقِّ مِنَ المُبْطِلِ ، ولا يَعْرِفُ ذَلِكَ السِّرَّ الإِلَهِيَّ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ مَوْلاهُ وحَسَبَهُ حِسبَةً خاصَّةً عَلَى حَبِيبِهِ ومُصْطَفاهُ ﷺ .

الصَّفاءُ زِيُّ الاتِّصاف

فَقَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَ أَهْلِ اللهِ أَنَّ أَعْلَى أَوْصافِ الصُّوفِيَّةِ وأَرْفَعَ أَخْلاقِهِمْ (جَعَلَنا اللهُ مِنْهُمْ) هُوَ التَّخَلُّقُ بِوَصْفِ الصَّفاءِ ، أَعْنِي صَفاءَ الباطِنِ مِنْ نَجاسَةِ القاذُوراتِ المَعْنَوِيَّةِ كالكِبْرِ والحَسَدِ والبَغْيِ والعُجْبِ والرِّياءِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَقْدَحُ فِي مَنْصِبِ أَهْلِ الإِيمانِ عُمُومًا ومَنْصِبِ الصُّوفِيَّةِ خُصُوصًا .

وصَفاءُ الظَّاهِرِ مِنْ نَجاسَةِ مُخالَفَةِ الشَّرِيعَةِ المُحَمَّدِيَّةِ - والعِياذُ بِاللهِ رَبِّ البَرِيَّةِ - هُوَ أَساسُ التَّرْبِيَةِ فِي نَهْجِ سُلُوكِ أَهْلِ الحَقِّ العارِفِينَ بِاللهِ الصُّوفِيَّةِ ، وإِلَى ذَلِكَ أَشارَ الشَّيْخُ الإِمامُ الجِهْبِذُ الهُمامُ حامِلُ لِواءِ المَذْهَبَيْنِ أَبُو عَبْدِ اللهِ سَيِّدِي مُحَمَّد مُصْطَفَىٰ المُلَقَّبُ ماءُ العَيْنَيْنِ فِي صَدْرِ مُنْتَخَبِ التَّصَوُّفِ بِقَوْلِهِ :

اطْلُبْ صَفَاءً إِنْ تَشَأْ تَصَوُّفَا ❁ فَبِالصَّفَاءِ وَصْفُ مَنْ تَصَوَّفَا

اللَّهُمَّ أَكْرِمْنا بِمَا أَكْرَمْتَ بِهِ خاصَّةَ أَوْلِيائِكَ وأَصْفِيائِكَ وارْزُقْنا مَحَبَّتَهُمْ وتَعْظِيمَهُمْ وتَوْقِيرَهُمْ وحُسْنَ الظَّنِّ بِهِمْ وبِكُلِّ مَنِ انْتَمَى إِلَيْهِمْ ، واسْلُكْ بِنا أَحْسَنَ المَسالِك ، وافْعَلْ ذَلِكَ بِسائِرِ الأَحْباب ، إِنَّكَ كَرِيمٌ وَهَّاب ، آمِين .

عَوْدٌ إِلَى مُذاكَرَةِ الآدابِ الَّتِي بِها رابِطَةُ ومُرابَطَةُ الأَحْباب

وهِي آدابُ المُرِيدِينَ مَعَ شَيْخِهِمْ ، وآدابُ المُرِيدِينَ مَعَ بَعْضِهِمْ ؛ فَأَمَّا الآدابُ الَّتِي تَكُونُ مَعَ الشَّيْخِ فَمَرْجِعُها إِلَى ثَمانِيَةِ أُمُورٍ : أَرْبَعَةٌ ظاهِرَةٌ ، وأَرْبَعَةٌ باطِنَةٌ .

فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ ، فَأَوَّلُها : امْتِثالُ أَمْرِهِ (وإِنْ ظَهَرَ لَهُ خِلافُهُ) ، واجْتِنابُ نَهْيِهِ (وإِنْ كانَ فِيهِ خَتْفُهُ) ، فَخَطَأُ الشَّيْخِ أَحْسَنُ مِنْ صَوابِ المُرِيد .

وثانِيها : السَّكِينَةُ والوَقارُ فِي الجُلُوسِ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَلا يَضْحَكُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ولا يَرْفَعُ صَوْتَهُ عَلَيْهِ ، ولا يَتَكَلَّمُ حَتَّى يَسْتَدْعِيَهُ للكَلام ، أَوْ يَفْهَمَ عَنْهُ بِقَرائِنِ الأَحْوالِ ؛ كَحالِ المُذاكَرَةِ بِخَفْضِ صَوْتٍ ورِفْقٍ ولِينٍ ، ولا يَأْكُلُ مَعَهُ ، ولا بَيْنَ يَدَيْهِ ، ولا يَنامُ مَعَهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ .

قالُوا : اجْعَلْ عَمَلَكَ مِلْحًا ، وأَدَبَكَ دَقِيقًا .

وقالَ الشَّاعِر :

أَدَبُ الْعَبِيْدِ تَذَلُّلٌ ❁ وَالْعَبْدُ لا يَدَعُ الْأَدَبْ

فَإِذَا تَكَامَلَ ذُلُّهُ ❁ نَالَ الْمَوَدَّةَ وَاقْتَرَبْ

وثالثُها : المُبادَرَةُ إِلَى خِدْمَتِهِ بِقَدْرِ الإِمْكانِ بِنَفْسِهِ أَوْ بِمالِهِ أَوْ بِقَوْلِهِ ، فَخِدْمَةُ الرِّجالِ سَبَبُ الوِصالِ لِمَوْلَى المَوالِي .

وقَالَ سَيِّدِي عَبْدُ اللهِ الهَبْطِي الزَّجْلِي فِي مَنْظُومَةٍ لَهُ فِي السُّلُوك :

إِنَّ الْخَدِيمَ ظَنُّهُ جَمِيلُ ❁ دَلَّ عَلَى فَلاحِهِ دَلِيلُ

أَهَّلَ نَفْسَهُ لِخِدْمَةِ الرِّجَالْ ❁ لِكَيْ يَنَالَ مِنْ حَبِيبِهِ الْوِصَالْ

ذُلُّ الْمُحِبِّ فِي طِلابِ الْقُرْبِ ❁ عِزٌّ عَزِيزٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحُبِّ

أَتَىٰ بُيُوتَ الْقُرْبِ مِنْ أَبْوابِهَا ❁ فَفُتِحَتْ لَهُ إِذًا بِأَسْرِهَا

طُوبَىٰ لَهُ بُشْرَىٰ لَهُ اسْتَفَادَ ❁ وَنَالَ خَيْرَ قُرْبَةٍ وَسَادَ

ثُمَّ قالَ :

مَقامَكَ اعْرِفْ أَيُّهَا الْخَدِيمُ ❁ فَإِنَّهُ مُفَخَّمٌ عَظِيمُ

أَمْسَيْتَ لِلْمَخْدُومِ فِي جِوَارِهِ ❁ مُشَارِكًا كَذَاكَ فِي أَسْرَارِهِ

ورَابِعُها : دَوامُ حُضُورِ مَجْلِسِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَتَكْرِيرُ الوُصُولِ إِلَيْهِ ؛ إِذْ بِقَدْرِ تَكْرِيرِ الوُصُولِ إِلَيْهِ يَقْرُبُ الوُصُولُ ؛ فَمَدَدُ الشَّيْخِ جارٍ كالسَّاقِيَةِ أَوِ القادُوس ، فَإِذا غَفَلَ عَنِ السَّاقِيَةِ أَوِ القادُوس ، تَخَرَّمَ وانْقَطَعَ

الماءُ إِلَى غَيْرِهِ ، وأَيْضًا تَكْرِيرُ الوُصُولِ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ المَحَبَّةِ ، وبِقَدْرِ شِدَّةِ المَحَبَّةِ تَكُونُ الشَّرْبَةُ ، وفِي هَذا المَعْنَى قِيلَ :

لا مَحَبَّةَ إِلَّا بِأُصُولْ ❁ وَلا وُصُولَ إِلَّا غَالِي

وَلا شَرَابَ إِلَّا مَخْتُومْ ❁ وَلا مَقَامَ إِلَّا عَالِي

قالَ سَيِّدِي عَلِي الجَمَل : ((اعْلَمْ أَنَّهُ لا يُقَرِّبُ طالِبَ الوُصُولِ إِلَى اللهِ تَعالَى شَيْءٌ مِثْلَ جُلُوسِهِ مَعَ عارِفٍ بِاللهِ إِنْ وَجَدَهْ)) ، ثُمَّ قالَ : ((الجُلُوسُ مَعَ العارِفِ بِاللهِ أَفْضَلُ مِنَ العُزْلَة ، والعُزْلَةُ أَفْضَلُ مِنَ الجُلُوسِ مَعَ العَوامِّ الغافِلِين ، والجُلُوسُ مَعَ العامِّيِّ الغافِلِ أَفْضَلُ مِنَ الجُلُوسِ مَعَ الفَقِيرِ الجاهِلِ ، كَما أَنَّ العارِفَ بِاللهِ يَجْمَعُ بَيْنَ المُرِيدِ ومَوْلاهُ بِنَظْرَةٍ أَوْ بِكَلِمَةٍ ، كَذَلِكَ الفَقِيرُ الجاهِلُ بِاللهِ (المُتَصَدِّرُ فِي طَرِيقِ القَوْمِ الكاذِبُ فِي دَعْواهُ) رُبَّما أَتْلَفَ المُرِيدَ عَنْ مَوْلاهُ بِنَظْرَةٍ أَوْ بِكَلِمَةٍ فَما فَوْقَها ، ويَرْحَمُ اللهُ سَيِّدِي المَجْذُوبَ حَيْثُ يَقُولُ : الجِلْسَةُ مَعَ غَيْرِ الأَخْيارِ ، تُرْذِلُ ولَوْ تَكُونُ صافِيًا)) .

وأَمَّا الآدابُ الباطِنِيَّةُ : فَأَوَّلُها : اعْتِقادُ كَمالِهِ وأَنَّهُ أَهْلٌ للمَشْيَخَةِ والتَّرْبِيَةِ ؛ لِجَمْعِهِ بَيْنَ شَرِيعَةٍ وحَقِيقَةٍ ، وبَيْنَ جَذْبٍ وسُلُوكٍ ، وأَنَّهُ عَلَى قَدَمِ النَّبِيِّ ﷺ .

وثانيها : تَعْظِيمُهُ ، وحِفْظُ حُرْمَتِهِ غائِبًا وحاضِرًا ، وتَرْبِيَةُ مَحَبَّتِهِ فِي قَلْبِهِ ، وهُوَ دَلِيلُ صِدْقِهِ ، وبِقَدْرِ التَّصْدِيقِ يَكُونُ التَّحْقِيق ؛ فَمَنْ لا صِدْقَ لَهُ لا سَيْرَ لَهُ ولَوْ بَقِيَ مَعَ الشَّيْخِ أَلْفَ سَنَة .

وثالثُها : انْعِزالُهُ عَنْ عَقْلِهِ ورِياسَتِهِ وعِلْمِهِ وعَمَلِهِ إلَّا ما يَرِدُ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ شَيْخِهِ ؛ كَما فَعَلَ سَيِّدِي أَبو الحَسَنِ الشَّاذِلِيُّ عِنْدَ مُلاقاتِهِ بِشَيْخِهِ سَيِّدِي عَبْدِ السَّلام بنِ مَشِيش (فَهِيَ سُنَّةٌ فِي جمِيعِ الطُّرُقِ) ؛ فَكُلُّ مَنْ أَتَى شَيْخَهُ فَلا بُدَّ أَنْ يَغْتَسِلَ مِنْ عِلْمِهِ وعَمَلِهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى شَيْخِهِ ؛ لِيَنالَ الشَّرابَ الصَّافِي مِنْ بَحْرِ مَدَدِهِ الوافِي .

ورابِعُها : عَدَمُ الانْتِقالِ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ (دُونَ مُبَرِّرٍ يُحَتِّمُهُ الحَقُّ ويَرْضاه) ، وهَذا عِنْدَهُمْ مِنْ أَقْبَحِ كُلِّ قَبِيحٍ وأَشْنَعِ كُلِّ شَنِيع ، وهُوَ سَبَبُ تَسْوِيسِ بَذْرَةِ الإِرادَةِ فَتَفْسُدُ شَجَرَةُ الإِرادَةِ لِفَسادِ أَصْلِها ، وهَذا كُلُّهُ مَعَ شُيُوخِ التَّرْبِيَةِ كَما تَقَدَّمَ ، وأَمَّا شُيُوخُ أَهْلِ الظَّاهِرِ ، فَلا بَأْسَ أَنْ يَنْتَقِلَ عَنْهُمْ إِلَى أَهْلِ الباطِنِ إِنْ وَجَدَهُمْ ولا يَحْتاجُ إِلَى إِذْن .

وأَمَّا آدابُ المُرِيدِينَ مَعَ بَعْضِهِمْ فَأَرْبَعَةٌ :

أَوَّلُها : حِفْظُ حُرْمَتِهِمْ غائِبِينَ أَوْ حاضِرِينَ ، فَلا يَغْتابُ أَحَداً ، ولا يُنَقِّصُ أَحَداً ؛ فَلا يَقُولُ : أَصْحابُ سَيِّدِي فُلانٍ كُمَّل ، وأَصْحابُ

سَيِّدِي فُلانٍ نُقَّص ، أَوْ فُلانٌ عارِفٌ ، أَوْ فُلانٌ لَيْسَ بِعارِفٍ ، أَوْ فُلانٌ ضَعِيفٌ وفُلانٌ قَوِيٌّ ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ ، فَهَذِهِ عَيْنُ الغِيْبَة ، وهِيَ حَرامٌ بِالإِجْماعِ لا سِيَّما فِي حَقِّ الأَوْلِياءِ فَإِنَّ لُحُومَهُمْ سُمُومٌ قاتِلَةٌ كَلُحُومِ العُلَماءِ والصَّالِحِينَ ، فَلْيَحْذَرِ المُرِيدُ جَهْدَهُ مِنْ هَذِهِ الخَصْلَةِ الذَّمِيمَة ، ولْيَفِرَّ مِمَّنْ هَذا طَبْعُهُ فِرارَهُ مِنَ الأَسَد ، فَمَنْ أُولِعَ بِهَذا فَلا يُفْلِحُ أَبَداً ، فالأَوْلِياءُ حُرْمَتُهُمْ كالأَنْبِياء ، فَمَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمْ حُرِمَ خَيْرَهُمْ ، وكَفَرَ نِعْمَتَهُمْ .

وثانِيها : نَصِيحَتُهُمْ بِتَعْلِيمِ جاهِلِهِمْ وإِرْشادِ ضالِّهِمْ وتَقْوِيَةِ ضَعِيفِهِمْ ، ولَوْ بِالسَّفَرِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّ فِيهِمْ أَهْلَ بِداياتٍ ونِهاياتٍ ، والقَوِيَّ والضَّعِيفَ ، فَكُلُّ واحِدٍ يُذَكِّرُهُ بِما يَلِيقُ بِمَقامِهِ ، خاطِبُوا النَّاسَ بِقَدْرِ ما يَفْهَمُونَ ، كَما فِي الحَدِيث .

وثالِثُها : التَّواضُعُ لَهُمْ ، والاسْتِنْصافُ مِنْ نَفْسِكَ مَعَهُمْ ، وخِدْمَتُهُمْ بِقَدْرِ الإِمْكان ، فَخادِمُ القَوْمِ سَيِّدُهُمْ ، فَمَنْ عَرَضَ لَهُ شُغْلٌ لا يَنْفَكُّ عَنْهُ ، فالواجِبُ إِعانَتُهُ لِيَتَفَرَّغَ مِنْهُ إِلَى ذِكْرِ اللهِ إِنْ كانَ خَفِيفًا ، قالَ تَعالَى : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [1] .

---

(١) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ١٧ .

فَكُلُّ ما يَشْغَلُ قَلْبَ المُرِيدِ فَدَفْعُهُ جِهادٌ وبِرٌّ .

ورابِعُها : شُهُودُ الصَّفاءِ فِيهِمْ ، واعْتِقادُ كَمالِهِمْ ، فَلا يُنَقِّصُ أَحَداً ولَوْ رَأَى مِنْهُ ما يُوجِبُ النَّقْصَ فِي الظَّاهِر ، فالمُؤْمِنُ يَلْتَمِسُ المَعاذِير ، فَلْيَلْتَمِسْ لَهُ سَبْعِينَ عُذْراً ، فَإِنْ لَمْ يُزِلْ عَنْهُ مُوجِبَ نَقْصِهِ ، فَلْيَشْهَدْهُ فِي نَفْسِهِ ؛ فـ(المُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ) ، ما كانَ فِي النَّاظِرِ فِيهِ ، فَأَهْلُ الصَّفاءِ لا يَشْهَدُونَ إِلَّا الصَّفاءَ ، وأَهْلُ التَّخْلِيطِ لا يَشْهَدُونَ إِلَّا التَّخْلِيطَ ، وأَهْلُ الكَمالِ لا يَشْهَدُونَ إِلَّا الكَمالَ ، وأَهْلُ النَّقْصِ لا يَشْهَدُونَ إِلَّا النَّقْصَ .

وفِي الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ : (خَصْلَتانِ لَيْسَ فَوْقَهُما شَيْءٌ مِنَ الخَيْرِ : حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ ، وحُسْنُ الظَّنِّ بِعِبادِ اللهِ ، وخَصْلَتانِ لَيْسَ فَوْقَهُما شَيْءٌ مِنَ الشَّرِّ : سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ ، وسُوءُ الظَّنِّ بِعِبادِ اللهِ) ، وبِاللهِ التَّوْفِيق .

فَهَذِهِ مِنْ جُمْلَةِ الآدابِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى مُرِيدِ الحَقِّ مِنَ الخَلْقِ مُراعاتُها والتَّحَفُّظُ عَلَيْها ، سَواءٌ كانَ طالِبًا أَوْ سائِراً أَوْ واصِلًا ؛ فَإِنَّ الطَّرِيقَ كُلَّها آدابٌ حَتَّى قالَ بَعْضُهُمْ : الْزَمِ الأَدَبَ ظاهِراً وباطِنًا ، فَما أَساءَ أَحَدٌ الأَدَبَ ظاهِراً إِلَّا عُوقِبَ فِي الظَّاهِر ، وما أَساءَ أَحَدٌ الأَدَبَ باطِنًا

إِلَّا عُوقِبَ فِي الباطِنِ ، ولِلّهِ دَرُّ القائِل :

وَالْأَدَبُ الـظَّاهِـرُ لِلْعَـيَانِ ❁ دَلالَـةُ الْبَاطِـنِ فِي الْإِنْسَانِ

وَهُـوَ أَيْـضًا لِلْفَقِـيرِ سَـنَدُ ❁ وَلِلْغَـنِـيِّ زِيـنَـةٌ وَسُـؤْدَدُ

وَقِيلَ مَنْ يُحْرَمُ سُلْطَانَ الْأَدَبْ ❁ فَهْوَ بَعِيدٌ مَا تَدَانَىٰ وَاقْتَرَبْ

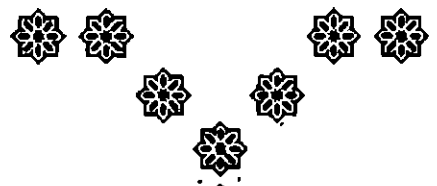
وَقِيلَ مَنْ تَحْبِسُهُ الْأَنْسَابُ ❁ فَـإِنَّـمَـا تُـطْـلِـقُهُ الآدابُ

فَالْقَوْمُ بِالآدَابِ حَقًّا سَادُوا ❁ مِنْهُ اسْتَفَادَ الْقَوْمُ مَا اسْتَفَادُوا

وقالَ أَبو حَفْص السَّرَّاج : ((والنَّاسُ فِي الآدابِ عَلَى ثَلاثِ طَبَقات : أَهْلُ الدُّنْيا ، وأَهْلُ الدِّينِ ، وأَهْلُ الخُصُوصِيَّةِ مَعَ أَهْلِ الدِّين .

فَأَمَّا أَهْلُ الدُّنْيا وأَهْلُ الدِّينِ : فَأَكْثَرُ آدابِهِمْ حِفْظُ العُلُوم ، ورِياضَةُ النُّفُوسِ ، وتَأْدِيبُ الجَوارِحِ ، وتَهْذِيبُ الطِّباعِ ، وحِفْظُ الحُدُودِ ، وتَرْكُ الشَّهَواتِ ، واجْتِنابُ الشُّبُهاتِ ، والمُسارَعَةُ إِلَى الخَيْراتِ .

وأَمَّا أَهْلُ الخُصُوصِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ : فآدابُهُمْ حِفْظُ القُلُوبِ ، ومُراعاةُ الأَسْرارِ ، واسْتِواءُ السِّرِّ والعَلانِيَةِ ؛ فالمُرِيدُونَ يَتَفاضَلُونَ بِالعِلْمِ ، والمُتَوَسِّطُونَ بِالآدابِ ، والعارِفُونَ بِالهِمَمِ)) .



تَجْلِيَةُ الرَّقائِقِ والحَقائِقِ

المُسْتَتِرَةِ خَلْفَ مَظْهَرِيَّةِ اخْتِلافِ الطَّرائِقِ

وجَلَّى تِلْكَ المَسْأَلَةَ شَيْخُ الطَّرِيقِ وقُطْبُ التَّحْقِيقِ سَيِّدِي مُصْطَفَىٰ ابنُ كَمالِ الدِّينِ الصِّدِّيقِي[1] (البَكْرِي) فِي رِسالَةٍ سَمَّاها : (الكَأْس الرَّائِق فِي سَبَبِ اخْتِلافِ الطَّرائِق) ، خُلاصَتُها :

تَنَوُّعُ الطُّرُقِ لِتَنَوُّعِ الاسْتِعْداداتِ والقَوابِل

فَقالَ ﷺ : اعْلَمْ أَيُّها الأَخُ الحَمِيمُ والصَّدِيقُ الكَرِيمُ أَنَّ سَبَبَ اخْتِلافِ الطَّرائِقِ اخْتِلافُ الأَذْواق ، وهُوَ يَنْشَأُ عَنْ تَبايُنِ الأَشْواق ، وتَبايُنُها عَنْ تَنَوُّعِ الاسْتِعْدادِ بِقَبُولِ الفَيْضِ والإِمْدادِ ، وتَنَوُّعُ الاسْتِعْدادِ لِتَنَوُّعِ التَّجَلِّياتِ الواردَةِ مِنْ حَضْرَةِ اللّٰهِ تَعالَى الواسِع .

---

(١) سَيِّدِي مُصْطَفَى البَكْرِي الصِّدِّيقِي (يَنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَى سَيِّدِنا أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق ﷺ)، وهُوَ الأُسْتاذُ الكَبِيرُ والعارِفُ الرَّبّانِيُّ الشَّهِيرُ ، رابِطَةُ عِقْدِ السَّادَةِ الخَلْوَتِيَّةِ ﷺ ، وأَخَذَ عَنْهُ الطَّرِيقَ بِمِصْرَ المَحْمِيَّةِ خَلْقٌ كَثِيرُونَ أَجَلُّهُمْ : النَّجْمُ مُحَمَّدُ بنُ سالِم الحِفْنِي وخَلِيفَتُهُ سَيِّدِي أَحْمَدُ الدَّرْدِير، وشَيْخُ الإِسْلام سَيِّدِي عَبْدُ اللّٰهِ الشَّرْقاوِي عَنْ شَيْخِهِ سَيِّدِي مَحْمُود أَفَنْدِي كُرْدِي .

وتُوفِّي ﷺ سَنَةَ ١١٦٢هـ ، ودُفِنَ فِي تُرْبَةِ المُجاوِرِينَ (شارِع الأَكابِر) وقَبْرُهُ مَشْهُورٌ يُزارُ ويُتَبَرَّكُ بِهِ ، ورَثاهُ وَلَدُهُ السَّيِّدُ كَمالُ الدِّين بِقَوْلِه :

هَذا مَقامُ القُطْبِ مُفْرَدُ وَقْتِهِ ❁ أَصْلُ الحَقِيقَةِ فَرْعُها الحَدَثانِي

هُوَ مُصْطَفَىٰ البَكْرِيُّ سِبْطُ مُحَمَّدٍ ❁ نَجْلُ الصَّدِيقِ الخَلْوَتِي الرَّبّانِي

لا زالَ يُسْقَىٰ تُرْبُهُ مِنْ صَيِّبٍ ❁ هَطِلٍ يُساقُ بِرَحْمَةِ الرِّضْوانِ

فَكُلُّ عَبْدٍ لَهُ سِرٌّ يَخْتَصُّ بِهِ يَكُونُ نَحْوَ المُنَى فِيهِ تَوَجُّهُه ، واسْمٌ بِهِ يَتَلَقَّى كُلَّ مَكْرُمَةٍ لِمَنْزِلِ القُرْبِ فِيهِ تَدَرُّجُه ، ومِنَ السَّعَةِ الإلَهِيَّةِ عَدَمُ تَجَلِّي الحَقِّ لِعَبْدٍ مِنْ وَجْهٍ واحِدٍ مَرَّتَيْنِ أَوْ لِعَبْدَيْنِ بِتَجَلٍّ إلَّا لِحِكْمَةٍ [1].

وقَدْ قالَ العارِفُ البُونِي[2] ذُو الفَضْلِ الهَتُونِي[3]: مَنْ صَدَقَ مَعَ اللهِ تَعالَى فِي النَّفَسِ الأَوَّلِ وَصَلَ إلَيْهِ فِي النَّفَسِ الثَّانِي ، فَصَحَّ بِهَذا قَوْلُ العارِفِ الذَّائِق : الطَّرائِقُ بِعَدَدِ أَنْفاسِ الخَلائِق ، وقَوْلُ مَنْ سَلَكَ أَوْضَحَ مِنْهاج[4]: للعارِفِ مَعَ كُلِّ نَفَسٍ مِعْراج .

فَإذا عَرَفَ العَبْدُ طَرِيقَ التَّلَقِّي مِنَ الحَقِّ عَظِيمَ إمْداداتِهِ الوارِدَةِ مَعَ الأَنْفاسِ كانَ مِنَ الأَكْياسِ ، بَلْ مِنْ خِيارِ النَّاسِ ، فَإنَّ مَدَدَ الحَقِّ مَعَ كُلِّ نَفَسٍ واصِل ، لَكِنْ لا يُدْرِكُهُ إلَّا المُراقِبُ الَّذي هُوَ فِي الحاصِل ، فَمَنْ تَلَقَّاهُ بِأَدَبٍ وأَخَذَهُ بِافْتِقار ، رُبَّما أَوْرَثَهُ جَذْبَةً تُوازِي عَمَلَ الثَّقَلَيْنِ الأَطْهار .

---

(١) د. مُحَمَّد عبد القادِر نَصَّار فِي تَحْقِيقِهِ الماتِع الفائِق لـ (الكَأْس الرائِق) .

(٢) أَحْمَد بْنُ عَلِي بن يُوسُف البُونِي : صاحِبُ المُصَنَّفات فِي عِلْم الحُرُوف ، مُتَصَوِّف مَغْرِبِيُّ الأَصْل ، لَهُ (شَمْسُ المَعارِف الكُبْرى) ، و(اللَّمعَة النُّورانِيَّة) ، تُوفِّيَ بِالقاهِرَة سَنَةَ ٦٢٢هـ .

(٣) هَتَنَتِ السَّماءُ : صَبَّتِ المَطَرَ ، ومَطَرٌ هَتُون : هَطُول .

(٤) هُوَ سَيِّدِي الشَّيْخُ الأَكْبَر مُحْيِي الدِّين بْنُ عَرَبِي فِي الفُتُوحات المَكِّيَّة .

مَعْنَى مُتَجَدِّدُ الإِمْدادِ فِي شَرْحِ قَوْلٍ للإِمامِ الجُنَيْدِ البَغْدادِي

وقَدْ قالَ الجُنَيْدُ البَغْدادِي - قَدَّسَ اللّٰهُ سِرَّهُ - : مَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللّٰهِ ثَلاثِينَ أَوْ سَبْعِينَ عامًا ، وأَدْبَرَ عَنْهُ نَفَسًا كانَ ما فاتَهُ أَكْثَرَ مِمَّا حَصَّلَ ؛ قِيلَ فِي مَعْنَى هَذِهِ العِبارَة : إِنَّ الإِمْداداتِ الإِلَهِيَّةَ وارِدَةٌ مَعَ الأَنْفاسِ ، فَفِي كُلِّ نَفَسٍ مَدَدٌ جَدِيدٌ للخَلْقِ الجَدِيد ، وفِي النَّفَسِ الثَّانِي مَدَدان : المَدَدُ الجَدِيد ، ومَدَدُ النَّفَسِ الأَوَّل ، ويَصْحَبُ الثَّالِثَ ثَلاثَةٌ (أَيْ ثَلاثَةُ أَمْداد : مَدَدُ النَّفَسِ الأَوَّلِ ، ومَدَدُ الثَّانِي ومَدَدُ هَذا الثَّالِث) وهَلُمَّ جَرًّا .

فَإِذا أَدْبَرَ العَبْدُ عَنْ مَوْلاهُ الَّذي بِكُلِّ جَمِيلٍ أَوْلاهُ نَفَسًا كانَ ما فاتَهُ أَكْثَرُ مِمَّا نالَهُ ، لأَنَّهُ فاتَهُ مَدَدُ النَّفَسِ الجَدِيد ، ومَدَدُ سائِرِ الأَنْفاسِ السَّالِفَةِ المُؤْذِنَةِ بِالمَزِيد ، ومِنَ المَعْلُومِ أَنَّ مَدَدَ الحَقِّ الحَيِّ سُبْحانَهُ وارِدٌ عَلَى الدَّوامِ مِنْ دُونِ فَتْرَةٍ[1] فِي نَوالِه ، لَكِنْ لا يُدْرِكُهُ ولا يَحْظَى بِثَمَرَتِهِ إِلَّا المُراقِبُ المُتَعَرِّضُ المُتَعَطِّشُ لِشُرْبِ زُلالِه ، فَإِذا وَرَدَ عَلَى القَلْبِ فَوَجَدَهُ مُتَأَهِّبًا ، دَخَلَ فِيهِ وأَكْسَبَهُ ما أَوْدَعَ الحَقُّ فِي خَوافِيهِ ، وإِذا وَرَدَ ولَمْ يَجِدْ مَحَلًّا قابِلًا رَجَعَ مِنْ حَيْثُ جاء ، وللحَضْرَةِ الَّتي ظَهَرَ مِنْها عادَ والْتَجَأ .

---

(١) أَيْ مِنْ دُونِ تَوَقُّفٍ .

وهَكَذا سائِرُ المَوارِدِ لا تَؤُمُّ إِلَّا الرَّاغِبَ الوارِدَ ، فَإِذا وَرَدَتْ نَتائِجُ الأَعْمالِ والأَنْفاسِ عَلَى الغافِلِ الَّذي شَغَلَهُ الخَنَّاس ، ولَمْ تَرَ نَظَرَهُ طامِحًا لَها صَرَفَتْ وَجْهَها عَنْهُ حَيْثُ لَمْ تَرَهُ مُقْبِلًا عَلَيْها .

وتَحْقِيقُ هَذِهِ العِبارَةِ عِنْدَ أَهْلِ الإِشارَةِ : أَنَّ العَرَضَ لا يَبْقَى زَمانَيْن ، وكَذَلِكَ الجَوْهَرُ عِنْدَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ الأَزْهَر ، فَإِذا فَنِيَتْ هَذِهِ الأَعْراضُ وتَجَدَّدَتْ فِي الآنِ الثَّانِي وكانَ العَبْدُ غافِلًا عَنْ تَلَقِّيها رَجَعَتْ للبُطُونِ بَعْدَ الظُّهُورِ الدَّانِي ، فَحُرِمَ بَرَكَةَ الوَقْتِ وثَمَرَةَ الأَعْمالِ الوارِدَةِ مِنْ حَضْرَةِ المِفْضال .

ولَمَّا تَحَقَّقَ العارِفُونَ أَنَّ العالَمَ لا يَبْقَى زَمانَيْنِ لَمْ يَعْتَمِدُوا عَلَى حالٍ ولا مَقام ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ غَيْبَ الذَّاتِ قَدْ يَصْدُرُ مِنْهُ ما لَمْ يَتَعَيَّنْ فِي العِلْم .

وهَذِهِ الحَضْرَةُ تُسَمَّى : حَضْرَةَ الإِطْلاق ، ومِنْها خافَ الكامِلُونَ ، ووَجِلَ المُرْسَلُونَ ، فَلَزِمَنا التَّعَرُّضُ مَعَ الآناتِ[1] للنَّفَحاتِ .

ومَعْلُومٌ أَنَّ المُتَعَرِّضَ للنَّفَحاتِ الرَّبَّانِيَّةِ لا تَتَخَطَّاهُ الإِمْداداتُ الإِحْسانِيَّة ، فَإِذا راقَبَ المُرِيدُ أَنْفاسَهُ ، وأَحْكَمَ فِيها أَساسَهُ ، رَأَى مَعَ كُلِّ نَفَسٍ هَدِيَّةً نَدِيَّة ، فَيَأْخُذُها بِالقَبُول ، فَتُدْنِيهِ مَنْزِلَةً مِنْ مَنازِلِ

---

(١) الآنات : جَمْعُ آن ؛ وهُوَ اللَّحْظَة .

الوُصُول ، فَيَذُوقُ هُناكَ لَذَّةَ التَّرَقِّي ، وهِزَّةَ التَّلَقِّي ويُدْرِكُ المِعْراجَ السِّرِّي والصِّدْقَ المُعَبَّرَ عَنْهُ بِالجَوْهَرِ الدُّرِّي ، فاتَّضَحَ بِهَذا قَوْلُ السَّابِقِ الشَّائِق : الطَّرائِقُ بِعَدَدِ أَنْفاسِ الخَلائِق .

فَكَمْ مِنْ مُعْتَنًى فِيهِ ❁ لَهُ الزُّلْفَىٰ تُوافِيهِ

وَفِي نَفَسٍ رَقَىٰ الْعَلْيا ❁ وَكَانَ الْحُبُّ كَافِيهِ

وَيَرْقَىٰ دَائِمًا أَبَدًا ❁ بِمَا فِيهِ يُصَافِيهِ

وَيُعْطَىٰ فِي السُّرَىٰ قُرْبًا ❁ لِمَنْ قَدْ كَانَ جَافِيهِ

وَتَمْنَحُهُ بَوَادِيهِ ❁ لِمَا تُخْفِي خَوَافِيهِ

سَبَبُ عُكُوفِ بَعْضِ العارِفِينَ عَلَى التَّأْلِيفِ

ودَأْبُ غَيْرِهِمْ عَلَى العُزُوفِ

وأَمَّا بَثُّ المَعارِفِ وكَتْمُها فَيَصْدُرُ مِنْ رِجالٍ ثَلاثَة : مُبْتَدِئٍ ، ومُتَوَسِّطٍ ، وكامِل ؛ فَيَضُرُّ البَثُّ الأَوَّلَ لِتَلَوُّنِه ، والثَّانِي لِتَفَنُّنِه ، ولا يَضُرُّ الثَّالِثَ لِتَمَكُّنِه ، وهِيَ نُورٌ ، وبَثُّها مِنْ غَيْرِ دُسْتُورٍ قُصُور ، وأَيُّ قُصُور .

ومِنَ الكُمَّلِ مَنْ يُخَيَّرُ فِي البَثِّ .

ومِنْهُمُ المَأْمُورُ وهُوَ لا يَسَعُهُ التَّخَلُّف ، وغَيْرُهُ لا يَنْفَعُهُ التَّكَلُّف .

ولَمَّا تَحَقَّقَ بَعْضُ الأَكابِرِ أَنَّ النَّفْعَ المُتَعَدِّيَ أَبْلَغُ مِنَ القاصِر ، مالُوا

للتَّأْلِيفِ والتَّصْنِيفِ وعَقَدُوا عَلَيْهِ الخَناصِر .

وقالَتِ الفِرْقَةُ الأُخْرَى : الاشْتِغالُ بِالمَطْلُوبِ الأَعْظَمِ هُوَ الأَحْرَى ، فَأَقْبَلُوا عَلَى الشُّهُودِ للوُجُودِ ، وتَجَرَّدُوا عَنِ القُيُودِ لِمُراقَبَةِ الحَقِّ المُطْلَقِ المَعْبُودِ .

فَأَصابَ كُلٌّ مِنَ الفَرِيقَيْنِ وَجْهَ الحَقِّ ، وكُلٌّ مِنْهُما أَجْدَرُ بِالتَّقْرِيبِ وأَحَقُّ ، لَكِنْ يَلْزَمُنا أَنْ نُبَيِّنَ مِنْ أَيِّ طَرِيقٍ أَخَذَ كُلُّ فَرِيقٍ .

فاعْلَمْ أَيُّها المُرادُ بَلَّغَكَ اللّهُ المُرادَ أَنَّ الذَّاتَ العَلِيَّةَ لَها وَصْفُ الغِنَى الأَتَمِّ الأَشْمَلِ الأَعَمِّ ، فَلا تَعَلُّقَ لَها ولا ارْتِباطَ بِعالَمَيِ الرِّفْعَةِ والانْحِطاطِ ، أَيْ : العالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ ، وإِنَّما بِالأَسْماءِ ظَهَرَ سِرُّ القُرْبِ الفَرْضِيِّ والنَّفْلِيِّ ، وبِها وعَنْها اخْتِلافُ المَقاصِدِ مِنْ كُلِّ راصِد ، فَمَنْ كَتَمَ أَسْرارَ مَواجِيدِهِ ، وحَكَمَ عَلَى أَنْوارِ تَوْحِيدِهِ ، ولَمْ يَظْهَرْ عَلَى ظاهِرِهِ مِمَّا فِي باطِنِهِ شَيْءٌ ، وانْطَوَى لَدَيْهِ بِساطُ النَّشْرِ إِلَى يَوْمِ الحَشْرِ طَيّ ، فَهَذا عارِفٌ غَلَبَ عَلَيْهِ حُكْمُ اسْمِهِ الباطِن ، فَأَدَّاهُ حَقَّهُ كَسائِرِ المَواطِن .

ومَنْ أَظْهَرَها وأَبْداها ولِعُشَّاقِها ونُشَّاقِها أَهْداها ، فَهُوَ عارِفٌ غَلَبَ عَلَيْهِ حُكْمُ اسْمِهِ الظَّاهِر ، فَأَدَّاهُ حَقَّهُ لأَنَّهُ صاحِبُ السِّرِّ الطَّاهِر .

ومَنْ كانَ مِنَ الشُّيُوخِ مِنْ أَهْلِ الرُّسُوخِ كانَ حاكِمًا عَلَى مَوارِدِ الاسْمَيْنِ ، آخِذًا نَصِيبَهُ مِنْ كِلا القِسْمَيْنِ ، لَمْ تَرْجُحْ لَدَيْهِ إِحْدَى كَفَّتَي المِيزانِ عَلَى الثَّانِيَةِ ؛ لِوُقُوفِهِ عَلَى المَقامِ الاعْتِدالِي الوَسَطِي الَّذِي قُطُوفُهُ دانِيَةٌ مُتَخَلِّقًا فِي الجَمْعِ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ فِي آنٍ واحِدٍ لا فِي آنَيْنِ ؛ فَيَنْشُرُ ويَكْتُمُ فِي نَشْرِهِ ، ويَكْتُمُ ويُودِعُ لُبَّهُ فِي قِشْرِهِ ، ويَسْكَرُ مَتَّى أَرادَ السُّكْرَ ، ويَصْحُو مَتَّى أَرادَ الصَّحْوَ والشُّكْرَ .

وصاحِبُ هَذا المَقامِ هُوَ المُحَمَّدِيُّ الجامِعُ ذُو السِّرِّ الزَّاهِرِ المُتَمَكِّنُ فِي مَجالَي دَوائِرِ الوِلايَةِ الكُبْرَى فِي الدُّنْيا والبَرْزَخِ والأُخْرَى .

وأَكْبَرُ الظَّاهِرِينَ فِي هَذا المَقامِ الأَفْخَرِ : قُدْوَةُ المُحَقِّقِينَ سُلْطانُ المُدَقِّقِينَ الشَّيْخُ الأَكْبَرُ[1] ، وأَضْرابُهُ وأَحْبابُهُ ومَنْ أَسْكَرَتْهُمْ فِي المَبادِئِ أَكْوابُهُ ؛ فَمِثْلُ هَؤُلاءِ السَّادَةِ الأَئِمَّةِ الجَهابِذَةِ القادَةِ الَّذِينَ صارَ لَهُمْ خَرْقُ العَوائِدِ عادَة ، وعالَمُ الغَيْبِ شَهادَة ، ودَوامُ الشُّهُودِ الذَّاتِي قِلادَة ، لا يَشْغَلُهُمْ عَنْ مَطْلُوبِهِمُ الأَعْظَمِ إِفادَة ؛ سِيَّما إِذا أُمِرُوا بِالنُّصْحِ والإِرْشادِ ، وتَنْهِيضِ هِمَمِ ضُعَفاءِ العُبَّادِ ، وتَشْوِيقِ القاصِرِينَ ، وتَكْمِيلِ الآتِينَ والمُعاصِرِينَ ، وكُتُبُهُمْ تُغْنِي عَنِ المُرْشِدِ إِذا أَخْلَصَ فِي العَمَلِ بِها السَّالِكُ ، وتُرَقِّيهِ إِلَى أَرْفَعِ المَسالِكِ .

---

(١) سَيِّدي مُحْيِي الدِّين بنُ عَرَبِي .

وإلَى هَذا أَشارَ الإمامُ المُحْيَوي الأَكْبَري[1] فِي أَوَّلِ بابِ الطَّهارَةِ مِنْ ((فُتُوحاتِهِ)) فَقالَ : إنَّ هَذا الكِتابَ المَوْسُومَ بـ ((مَواقِعِ النُّجُوم)) يُغْنِي عَنِ الأُسْتاذ ، بَلِ الأُسْتاذُ يَحْتاجُ إلَيْهِ ، فَإنَّ الأُسْتاذِينَ فِيهِمُ العالِي والأَعْلَى ، وهَذا الكِتابُ عَلَى أَعْلَى مَقامٍ يَكُونُ الأُسْتاذُ عَلَيْهِ ، لَيْسَ وَراءَهُ مَقامٌ فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي تَعَبَّدْنا فِيها ، فَمَنْ حَصَلَ لَدَيْهِ فَلْيَعْتَمِدْ بِتَوْفِيقِ اللهِ عَلَيْهِ ، فَإنَّهُ عَظِيمُ المَنْفَعَة ، وما جَعَلَنِي أَنْ أُعَرِّفَكَ بِمَنْزِلَةِ هَذا الكِتابِ إلَّا أَنِّي رَأَيْتُ الحَقَّ فِي النَّوْمِ ، وهُوَ يَقُولُ لِي : انْصَحْ عِبادِي ، وهَذا مِنْ أَكْبَرِ نَصِيحَةٍ نَصَحْتُكَ فِيها ، انْتَهَى .

وقَدْ نُقِلَ عَنْ تِلْمِيذِهِ سَيِّدِي إسْماعِيلَ بنِ سَوْدَكِينَ أَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ أُمِرَ بِالتَّأْلِيفِ وبَثِّ ما يَرِدُ عَلَيْهِ ، فاعْتَذَرَ بِإنْكارِ المُنْكِرِينَ ؛ فَكُرِّرَ عَلَيْهِ الأَمْرُ بِالنَّصِيحَة ، فامْتَثَلَ وأَلَّفَ ولَمْ يَذْكُرِ اسْمَهُ عَلَى كُتُبِهِ ، وقالَ : المُرادُ الإرْشادُ والنَّصِيحَة ، فامْتَثَلَ وأَلَّفَ ، فَعَزَوْا ما أَلَّفَهُ للإمامِ الغَزالي (ت ٥٠٥ هـ) قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ ، وصارَ أَهْلُ الإنْكارِ يَسُبُّونَهُ ويُطْلِقُونَ أَلْسِنَتَهُمْ فِي حَقِّهِ .

قالَ الشَّيْخُ : الآنَ لَزِمَنِي كِتابَةُ اسْمِي عَلَى كُتُبِي ؛ فَكَتَبَهُ .

---

(١) سَيِّدي مُحْيِي الدِّين بنُ عَرَبِي .

ومَنْ كانَ مَأْمُورًا مِنْ رَبِّهِ ، فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ مِنْهُ التَّوَقُّفُ فِي الإِفادَة ؟

وقَدْ تَوَقَّفَ جَماعَةٌ مِنَ الكُمَّلِ عَنِ الإِرْشادِ حَتَّى هُدِّدُوا بِالسَّلْبِ ، مِنْهُمُ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاسِ المُرْسِي (ت ٦٨٦ هـ) قَدَّسَ اللّٰهُ سِرَّهُ ؛ لِعَدَمِ شُهُودِهِمْ الاسْتِحْقاقَ لِذَلِكَ المَقام ، ومَحَبَّةِ الخَفاءِ والاشْتِغالِ فِي اللّٰهِ عَلَى الدَّوام .

وقالَ الإِمامُ مَجْدُ الدِّينِ الفَيْرُوز آبادِي (ت ٨١٧ هـ) فِي آخِرِ فَتاوَىٰ سُئِلَ فِيها عَنِ الشَّيْخِ ومُؤَلَّفاتِهِ : ومِنْ خَواصِّ كُتُبِهِ أَنَّهُ مَنْ واظَبَ عَلَى مُطالَعَتِها والنَّظَرِ فِيها انْشَرَحَ صَدْرُهُ لِفَكِّ المُعْضِلاتِ وحَلِّ المُشْكِلاتِ ، وهَذا لا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ خَصَّهُ اللّٰهُ بِالعُلُومِ اللَّدُنِيَّة .

ولَقَدْ حَكَى الهُمامُ عَبْدُ الكَرِيم الجِيلِي المِقْدام (ت ٨٢٦ هـ) : أَنَّهُ رَأَى كَثِيرًا مِنْ إِخْوانِهِ بَلَغَ بِمُطالَعَةِ كُتُبِهِ الحَقِيقَةَ مَبْلَغَ الرِّجال ، حَتَّى لَحِقَ السَّابِقِينَ فِي المَجال .

فَعُلِمَ بِما تَقَرَّرَ أَنَّ تَأْلِيفَ أَهْلِ الرُّسُوخِ فِي المَقام نَفْعٌ عام ، ومَدَدٌ تام ، وكُلُّ مَنِ انْتَفَعَ بِكَلامِهِمْ ، وارْتَفَعَ بِمَرْفُوعِ أَعْلامِهِمْ كانَ فِي مِيزانِهِمْ يَوْمَ القِيامَة ؛ كَما أَنَّ الجَمِيعَ فِي مِيزانِ صاحِبِ العَلامَةِ والعِمامَةِ والغَمامَةِ ﷺ .

فَإِنِ انْتَقَلُوا عَنْ عالَمِ الكَوْنِ والفَسادِ (عالَمِ الدُّنْيا) نابَتْ عَنْهُمْ كُتُبُهُمْ بِإِبْلاغِ النَّصائِحِ والإِرْشاد ، فَهُمُ الأَحْياءُ فِي الإِفادَة ، وإِنْ دَرَجُوا إِلَى دارِ السِّيادَةِ والسَّعادَة .

ومَتَى سَمِعَ المُرِيدُ بِشَيْءٍ مِنْ عُلُومِ القَوْمِ مِمَّا هُوَ فَوْقَ طَوْرِهِ وصَدَّقَ بِهِ ، واطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ لِذَلِكَ ، كانَ لَهُ ذَلِكَ العِلْمُ حَقِيقَةً كَما هُوَ لِمُفِيدِهِ ، غَيْرَ أَنَّ الآخِذَ تَلَقَّاهُ بِواسِطَةٍ ، والمُفِيدَ بِدُونِها ، إِنْ فُهِمَ المَقْصُودُ عَلَى مُرادِهِ ، وإِلَّا فَلا ، لأَنَّ الأَفْهامَ كالأَنْوارِ لا تَتَزاحَم .

فَإِنْ قُلْتَ : فَهَلْ مِنْ دَلِيلٍ لِكُلٍّ مِنَ الفَرِيقَيْنِ ؟

قُلْنا : نَعَمْ ، حَدِيثُ الذِّكْرِ النَّفْسِي والمَلَئِي يَصْلُحُ لِلطَّرِيقَيْن ؛ فَإِنَّ السَّالِكَ عَلَى طَرِيقِ الذِّكْرِ النَّفْسِي عَلَى الكَتْمِ أَقْدَر ، وصاحِبَ المَلَئِي (الجَهْرِي) بِحالِهِ أَخْبَرَ وأَظْهَر .

فَإِنْ قُلْتَ : أَيُّ المَذْهَبَيْنِ أَعْلَى ؟ وأَيُّ المَشْرَبَيْنِ أَغْلَى ؟

قُلْتُ : قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ ، وكُلُّ حُرَّاسٍ مَسْرَبَهُمْ ، فَلِذا فِي مَيْدانِ القُرْبِ يَسْرَحُون ، كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُون .

سُئِلَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاسِ المُرْسِيُّ - قَدَّسَ اللّٰهُ سِرَّهُ - عَنْ سَبَبِ عَدَمِ تَأْلِيفِهِ الكُتُبَ ، قالَ : كُتُبُنا أَصْحابُنا ؛ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ عُلُومَ الأَذْواقِ عُلُومُ

صُدُورٍ لا سُطُور ، وغَيْرُهُ يَرَى أَنَّها وإِنْ أُلِّفَتْ لا تَبْرَحُ مِنَ الصُّدُور ؛ لأَنَّ فَهْمَها مَقْصُورٌ عَلَى أَهْلِها ؛ فَهِيَ فِي صُدُورِ الصُّدُور ، وإِنْ رُقِمَتْ فِي السُّطُور .

الفَهْمُ الحَصِيف

فِي سَبَبِ إِعْراضِ غالِبِ السَّادَةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ عَنِ التَّأْلِيف

فَإِنْ قُلْتَ : نَرَى أَهْلَ طَرِيقَةِ السَّادَةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ - قَدَّسَ اللهُ أَسْرارَهُمُ العَلِيَّة - لَمْ يُعَرِّجُوا عَلَى تَأْلِيفٍ ولا تَوْصِيفٍ إِلَّا نادِرًا يَسِيرًا بِقَصْدِ التَّنْبِيهِ والتَّعْرِيف ، وأَعْرَضُوا عَنْهُ جُمْلَةً ، وكانُوا يُمْكِنُهُمْ جُمْلَةً لأَنَّهُمُ الحَمَلَةُ ، وأَقْبَلُوا عَلَى حَضْرَةِ الإِطْلاقِ بِوَصْفِ الفَقْرِ والإِمْلاقِ ، فَإِنْ كانَ مَشْهَدُهُمْ أَعْلَىٰ ، فَلِمَ لَمْ يَقْتَدِ بِهِمُ الغَيْر ؟ وإِنْ كانَ ما ذَهَبَ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ أَوْلَىٰ ، فَلِمَ لَمْ يُعَرِّجُوا عَلَيْهِ فِي السَّيْر ؟ ولِمَ لَمْ يُؤْمَرُوا كَما أُمِرَ غَيْرُهُمْ ؟ فَهَلْ هَذا لِكَمالٍ أَوْ نَقْصٍ أَوْجَبَهُ سَيْرُهُمْ ؟

قالَ سَيِّدِي مُصْطَفَى البَكْرِي رضي الله عنه : اعْلَمْ أَنَّ الطَّرائِقَ وإِنْ تَعَدَّدَتْ فالمَطْلُوبُ واحِدٌ ، لِواجِدِهِ فِي جِنانِ القُرْبِ ما اشْتَهَى ، وإِلَيْهِ الإِشارَةُ بِقَوْلِهِ جَلَّ وعَلا : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [1] ، فَصارَتِ الطُّرُقُ

---

(١) سُورَةُ النَّجْم : الآيَة ٤٢ .

بِمَنْزِلَةِ الجَداوِلِ البارِزَةِ مِنَ البَحْرِ المُحِيطِ الَّذي لا يُسْمَعُ لِمَوْجِهِ غَطِيط ، والرَّاجِعَةِ إِلَيْهِ عِنْدَ أَهْلِ الشُّهُود ، مِنْهُ بَدا الأَمْرُ وإِلَيْهِ يَعُود ، فاخْتَلَفَتِ البِدايَة ، وائْتَلَفَتِ النِّهايَة ، فَإِنَّ مَآلَ الجَمِيعِ إِلَى دَوامِ مُشاهَدَةِ البَصِيرِ السَّمِيعِ ، غَيْرَ أَنَّ مَسافَةَ الطَّرِيقِ كُلَّما طالَتْ أَوْرَثَتِ التَّعْوِيق ، فاخْتَصَرَتِ الأَشْياخُ عَلَى المُرِيدِ الطَّرِيقَ اخْتِصارًا ، حَيْثُ أَقامَهُمْ لِطُلَّابِهِ أَعْوانًا ولأَحْبابِهِ أَنْصارًا .

وإِنَّ مِمَّنِ اخْتَصَرَ الطَّرِيقَ غايَةَ الاخْتِصار ، واقْتَصَرَ عَلَى الضَّرُورِيِّ نِهايَةَ الاقْتِصار ؛ لِتَقْرِيبِ الشُّقَّةِ وتَهْوِينِ المَشَقَّةِ جَنابُ العارِفِ الأَمْجَدِ الخَواجَة / بَهاءُ الدِّين نَقْشَبَنْد[1] - قَدَّسَ اللّٰهُ سِرَّهُ وبِقُرْبِهِ سَرَّهُ - ، ولِهَذا نَصَّ عَلَى أَنَّ مَبْدَأَ طَرِيقِهِ نِهايَةُ طَرِيقِ غَيْرِهِ ؛ لأَنَّهُ خَصَّ المُراقَبَةَ بِالمُبْتَدِئِ فِي سَيْرِهِ ، لَكِنْ لا يَبْلُغُ المُرِيدُ دَرَجَةَ التَّحَقُّقِ فِيها والشُّرْبَ مِنْ صافِيها إِلَّا بَعْدَ جُهْدٍ جَهِيد ، وكَدٍّ شَدِيد ، وغَيْرُهُ يُدَرِّجُ المُرِيد ، ويُبَلِّغُهُ مَقامَ المَزِيد ، فَإِذا أَوْقَفَهُ فِي مَقامِ الشُّهُودِ ثَبَتَ قَدَمُهُ بِدُونِ جُحُود ، فَيُشْرِفُ كُلُّ واحِدٍ مِنَ الطُّلَّابِ عَلَى المَقْصُود ، ويَتَحَقَّقُ ثُمَّ

---

(١) سَيِّدِي مُحَمَّد بَهاءُ الدِّين النَّقْشَبَنْدِي الحَسَنِي الحُسَيْنِي البُخارِي رضي الله عنه ، إِمامُ الطَّرِيقَةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ ورُوحُها ، تُوفِّيَ بِقَصْرِ العارِفان (بَلْدَةٌ قُرْبَ بُخارَى) سَنَةَ ٧٩١ هـ .

يَتَخَلَّقُ ويَقِفُ عِنْدَ الحُدُود ، فَكانَتِ النِّهايَةُ إِلَى الواحِدِ مَعَ اخْتِلافٍ فِي المَواجِيدِ والواجِدِ .

ولَمَّا كانَتِ الأَسْماءُ الإِلَهِيَّةُ تُعْطِي الطَّالِبَ ما فِي قُوَّتِها ، وتَمْنَحُهُ عَلَى قَدْرِ تَوَجُّهِهِ واسْتِعْدادِهِ بِسُلْطانِ سَطْوَتِها ، فَمَنْ كانَ إِقْبالُهُ عَلَى حَضْرَةِ الإِطْلاقِ انْجَذَبَ بِالقَهْرِ الإِلَهِي إِلَيْها ، وجَعَلَ تَعْوِيلَهُ عَلَيْها ، ولا تُمَكِّنُهُ أَنْ يُقَلِّدَ الغَيْر ، لاجْتِهادِهِ بِحَسَبِ هَذا السَّيْرِ ، والمُجْتَهِدُ لا يُقَلِّدُ آخَرَ لِقِيامِ الدَّلِيلِ الذَّوْقِي لَدَيْه ، ولِشُهُودِهِ أَخَذَ الخَيْرَ بِكِلْتا يَدَيْه .

ولَمْ يُؤْمَرُوا لأَنَّهُمْ صَرَفُوا هِمَمَهُمْ عَنْ ذَلِك ، وعَوَّلُوا عَلَى ما هُوَ عِنْدَهُمْ أَوْلَى مِمَّا هُنالِك ، وهَذا مِنْ كَمالِ ذَوْقِهِمْ ووِجْدانِهِمْ ، واسْتِقامَةِ قُلُوبِهِمْ وأَبْدانِهِمْ فِي طَلَبِ مَحْبُوبِهِمْ .

فاخْتِلافُ مَشارِبِ أَهْلِ الطَّرِيقِ كَثِيرَةٌ لا تُنْكَر ، وكُلُّها حَقَّةٌ طَيِّبَةٌ كاخْتِلافِ أَلْوانِ المَطاعِمِ المَطْبُوخَةِ بِالسُّكَّر .

وكُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَحْكِي عَلَى قَدْرِ ذَوْقِهِ ، وما أَدْرَكَهُ ما فِي وُسْعِهِ وطَوْقِهِ ، كَما قالَ العارِفُ :[1]

وكُلُّ فَتًى عَلَى مِقْدارِ مَا قَدْ ❁ سَقَاهُ بِكَفِّهِ السَّاقِي يُغَنِّي

---

(١) العارِفُ هُوَ شَيْخُهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الغَنِي النَّابُلُسِي الحَنَفِي الدِّمَشْقِي المُتَوَفَّى سَنَةَ ١١٤٣ هـ .

يُحْكَى أَنَّ الإمامَ الشَّافِعِيَّ رضي الله عنه عُرِضَ عَلَيْهِ مَقامُ الوَتَدِيَّة ، فَقالَ : إِنَّا مَشْغُولُونَ بِما هُوَ أَهَمُّ للأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّة ؛ أَيْ : مِنْ تَدْوِينِ مَذْهَبِهِ الَّذِي بِهِ انْتَفَعَتِ الأُمَّةُ إِلَى يَوْمِ القِيامَة ، وانْتَفَعَ بِهِ ، لأَنَّهُمْ فِي مِيزانِهِ ، بِخِلافِ مَقامِ الوَتَدِيَّة ، فَإِنَّ نَفْعَهُ قاصِرٌ عَلَى أَهْلِ زَمانِه .

فَعُلِمَ بِهَذا أَنَّ مَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الكَمالِ الَّذِينَ هُمْ فِي حَضْرَةِ الشُّهُودِ عَلَى كُلِّ حال ، فاشْتِغالُهُمْ بِنَشْرِ العُلُومِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي هِيَ الرَّحِيقُ المَخْتُومُ مُحَتَّمٌ عَلَيْهِمْ كَكَتْمِهِمُ السِّرَّ المَكْتُوم ، ونَشْرُهُمْ مَعْدُودٌ مِنَ الصَّدَقَةِ الجارِيَةِ بَعْدَ المَوْتِ والانْدِراج ، وحَدِيثُ : (لأَنْ يَهْدِيَ اللّٰهُ بِكَ رَجُلًا واحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَم) ، يُوقِدُ فَتِيلُهُ هَذا السِّراج .

فَإِنْ قُلْتَ : أَلَيْسَ قَدْ نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الأَكابِرِ أَنَّهُ كانَ سَبَبَ وُقُوفِهِ فِي مَعالِمِ الطَّرِيقِ وعَدَمِ قَطْعِها لَذَّةُ التَّأْلِيفِ والتَّنْمِيق ؟

قُلْتُ : نَعَمْ ، والأَمْرُ كَذَلِكَ ، بَلِ الوُقُوفُ مَعَ أَيِّ كَوْنٍ كانَ مِنَ الأَكْوانِ يُهْبِطُ مَقامَ السَّالِكِ ويُوقِفُهُ عَنِ السَّيْرِ فِي مَراتِبِ الإِحْسان .

قالَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعالَى فِي حِكَمِهِ : ((ما أَرادَتْ هِمَّةُ سالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَ ما كُشِفَ لَها إِلَّا ونادَتْهُ هَواتِفُ الحَقِيقَةِ : الَّذِي

تَطْلُبُهُ أَمامَكَ ، ولا تَبَرَّجَتْ ظَواهِرُ المُكَوِّناتِ إِلَّا نادَتْهُ حَقائِقُها : إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ)) .

عُزُوفُ الإمامِ الغَزالِي عَنِ التَّأْلِيف

مِنْ بابِ تَحَيُّزِهِ إِلَى فِئَةٍ أَقَرَّها الشَّرْعُ الشَّرِيف

فَإِنْ قُلْتَ : أَلَمْ يَتْرُكِ الإِمامُ الغَزالِي - قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ - آخِرَ أَمْرِهِ التَّأْلِيفَ والإِفادَة ، وصَيَّرَ التَّبَتُّلَ إِلَى المَوْلَىٰ زادَه ، وأَنْشَدَ :

تَرَكْتُ هُوَىٰ سُعْدَىٰ وَلَيْلَىٰ بِمَنْزِلٍ ❁ وَعُدْتُ إِلَى مَصْحُوبِ أَوَّلِ مَنْزِلِ

وَنَادَيْتُ بِالْأَشْوَاقِ مَهْلًا فَهَذِهِ ❁ مَنَازِلُ مَنْ أَهْوَى رُوَيْدَكَ فَانْزِلِ

قُلْنا : نَعَمْ ، ونِعْمَ ما صَنَعَ الإِمام ، فَإِنَّهُ بَعْدَما بَذَلَ النُّصْحَ التَّام ، وأَجادَ فِي إِرْشادِهِ الخاصَّ والعام ، عَرَّجَ عَلَى مَنازِلِ مَنْ يَهْوَى وهاتِيكَ الخِيام .

وهَكَذا شَأْنُ أَهْلِ التَّمَكُّنِ فِي المَقام ، كُلَّما قَرُبَتْ أَيَّامُ الدَّارِ الآخِرَةِ قَلَّ اشْتِغالُهُمْ بِالأَنام ، وكَثُرَ إِقْبالُهُمْ عَلَى المَلِكِ العَلَّام .

وهَذا لَهُمْ بِطُرُقِ الإِرْشادِ المُحَمَّدِي والمَنْزِلِ الأَحْمَدِي ، فَإِنَّهُ ﷺ فِي مَبْدَأِ الظُّهُورِ بِالإِرْشادِ كانَ الغالِبُ عَلَيْهِ مُجالَسَةَ العِبادِ و مُؤانَسَةَ العُبَّادِ ، ثُمَّ لَمَّا بَلَغَ الظُّهُورُ الدِّينِيُّ مُنْتَهاه ، وحَصَّلَ الفُؤادُ الشَّرِيفُ

مُشْتَهاه ؛ نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ ﴿النَّصْر﴾ وأُمِرَ فِيها ﷺ بِالتَّسْبِيحِ والاسْتِغْفار ، فاقْتَفَى أَثَرَهُ العارِفُونَ الأَطْهار ، إِذْ فَهِمُوا السِّرَّ الَّذي فَهِمَهُ الصَّاحِبُ فِي الغار[1].

فَإِنْ قُلْتَ : فَإِذا كانَ مَقامُ النِّهايَةِ يَقْتَضِي تَفْرِيغَ المَحَلِّ بِالكُلِّيَّة ، سِيَّما عِنْدَ قُرْبِ المَنِيَّة ، فَلِمَ لا نَجْعَلُهُ فِي البِدايَةِ ونَسْتَقِيمُ عَلَيْهِ إِلَى زَمَنِ انْتِهاءِ هَذِهِ المُدَّةِ المَوْصُولِ ابْتِداؤُها بِالنِّهايَة ؟

قُلْنا : إِنَّما اقْتَفَتِ الأَتْباعُ قَدَمَ السَّيِّدِ السَّنَدِ المُطاع ﷺ ، ولَمَّا كانُوا نُوَّابَهُ فِي تَبْلِيغِ أَسْرارِهِ وأَخْبارِهِ ، ولَمْ يَسَعْهُمْ أَنْ يَتَأَخَّرُوا عَمَّا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ مَعَ رِفْعَةِ الإِرْشادِ وعُلُوِّ مَنارِهِ .

تَزْكِيَةُ كُلِّ سالِكٍ لِطَرِيقَتِهِ فِي السُّلُوكِ والمَنْهَجِ الَّذِي وَصَلَ بِهِ طَبِيعَةٌ يَقْتَضِيها الطَّبْعُ الإِنْسانِي غَيْرَ مُؤاخَذٍ بِهِ

واعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مُرِيدٍ سالِكٍ عَلَى مِنْهاج ، فَإِنَّهُ لا يَرَى أَحْسَنَ مِنْها ، لأَنَّهُ لَمْ يَتَلَقَّ المَوارِدَ إِلَّا عَنْها ، فَيَدَّعِي أَنَّها الأَقْرَبُ بِحَسَبِ ذَوْقِهِ ؛ وقَدْ صَدَقَ لأَنَّهُ لَمْ يَرَ أَقْرَبَ مِنْها فِي انْجِذابِهِ وسَوْقِهِ ، ولأَنَّهُ وَقَفَ عِنْدَ

---

(١) يَقْصِدُ سَيِّدَنا أَبا بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه فَإِنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ ﴿النَّصْر﴾ بَكَى ؛ لأَنَّهُ فَهِمَ قُرْبَ انْتِقالِ الحَبِيبِ المُصْطَفَى ﷺ لِلرَّفِيقِ الأَعْلَى .

سَيْرِهِ ، ولَمْ يَرْتَقِ لِمَنْزِلَةِ الإِشْرافِ عَلَى غَيْرِهِ ، ولَمْ يُدْرِكِ العَيْنَ لِرَمَدِ العَيْنِ ، وأَنْكَرَ عَلَى مُثْبِتِ الأَقْرَبِيَّة ، وهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى النَّافِي ، وظَنَّ أَنَّ ما سَلَكَ عَلَيْهِ هُوَ الغايَةُ القُصْوَىٰ ؛ للقُصُورِ الَّذي عَلَيْهِ خافٍ ، بِخِلافِ مَنْ أَشْرَفَ عَلَى يَنْبُوعِ الجَداوِل ، ومَجْمُوعِ الأَسْرارِ عِنْدَ مَنْ يُحاوِل ؛ عَرَفَ مَأْخَذَ كُلِّ واحِد ، ولَمْ يَكُنْ لِوَجْدِ واجِدٍ جاحِد .

ولَقَدْ أَشَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ فِي الأَلْفِيَّة ، فَقُلْتُ بِعَوْنِ رَبِّ البَرِيَّة :

وَقَالَ بَعْضٌ : عَدَدُ الطَّرَائِقِ ❁ كَعَدَدِ الْأَنْفَاسِ لِلْخَلائِقِ
وَكُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى مِنْهَاجِ ❁ وَشِرْعَةٍ فَمَا لَهُ مِنْ هَاجِ
مِنْ أَجْلِ ذَا يَقُولُ أَنْ لا أَقْرَبَا ❁ مِنْهُ وَمَنْ يَعْذِلْهُ لَنْ يُقَرَّبَا
فَإِنَّ ذَا ذَاقَ وَلَمْ يَسْتَشْرِفِ ❁ عَلَى سِوَىٰ طَرِيقِهِ فَلْتَعْرِفِ
وَمَنْ يَكُنْ قَدْ خُصَّ بِالْإِشْرَافِ ❁ فَإِنَّهُ يُعَدُّ فِي الْأَشْرَافِ
وَمَعَ ذَا يُخَصُّ بِالْفُرْقَانِ ❁ فَلا يُرَى الْقُرْآنُ كَالْفُرْقَانِ
إِذْ عِنْدَهُمْ لِلصِّفَةِ الْفُرْقَانُ ❁ يُشِيرُ وَالذَّاتُ لَهَا الْقُرْآنُ
وَإِنَّ هَذَا يُعْرِفُ الْمُقَرَّبَا ❁ مَنِ الْقَرِيبُ لِلْمُنَىٰ وَالْأَقْرَبَا
لِأَنَّهُ عَلَى بَصِيرَةٍ دَعَا ❁ فَالْمُقْتَدِي بِهِ سِوَاهُ وَدَّعَا

حِكْمَةُ الأَوْلِياء

فِي إِعْطاءِ العَهْدِ وتَرْكِ الإِعْطاء

ولَقَدْ طَلَبَ بَعْضُ تَلامِذَةِ شَيْخِنا الهُمام (الشَّيْخ عَبْدِ الغَنِي) المِقْدام مِنْهُ الإِذْنَ بِالمُبايَعَةِ والتَّلْقِين ، فَقالَ لَهُ : نَحْنُ طَرِيقُنا العِلْمُ ، والإِفادَةُ بِأَسْرارِ اليَقِين .

قُلْتُ :[1] وهَذا مَذْهَبُ الإِمام الهُمام (مُحْيِي الدِّين بن عَرَبي) عَلَى ما نَقَلَهُ عَنْهُ تِلْمِيذُهُ الشَّيْخُ إِسْماعِيلُ بنُ سَوَدْكِين ، فَكانَ ﷺ يُرَبِّي أَتْباعَهُ بِمُجَرَّدِ الصُّحْبَةِ حَتَّى يَرْفَعَهُمْ إِلَى مَقام القُرْبَةِ ، وعَلَّلَ عَدَمَ أَخْذِهِ العُهُودَ خَشْيَةَ نَقْضِها ، وهُوَ أَمْرٌ مَشْهُودٌ سِيَّما فِي مِثْلِ هَذا الزَّمانِ المَفْسُودِ ، فَإِنَّ الصَّادِقَ المُوَفِّي بِالشُّرُوطِ الواقِفِ مَعَ الحُدُودِ ، كالكِبْرِيتِ الأَحْمَرِ فِي قِلَّةِ وُجُودِهِ ، وقُلْتُ فِي ((الأُرْجُوزَة)) :

وَكَمْ رَأَيْنَا مِنْ مُرِيدٍ أَخَذَا ❁ عَهْدَ الطَّرِيقِ وَلَهُ قَدْ نَبَذَا

فَلَمْ يَلِجْ مَنَازِلَ الْوُصُولِ ❁ لَمَّا أَضَاعَ وَاجِبَ الْأُصُولِ

غَيْرَ أَنَّ الخَلَفَ مِنْ أَهْلِ الطَّرِيقِ اقْتَفَوْا أَثَرَ السَّلَفِ مِنْ أَخْذِ العُهُودِ والمَواثِيقِ ، وقَصَدُوا بِالمُبايَعَةِ تَصْحِيحَ المُتابَعَةِ بِنَفْسٍ طائِعَة .

---

(١) القائِلُ : سَيِّدِي مُصْطَفَى البَكْرِي .

ولَقَدْ شَهِدْنا فِي نُفُوسِنا للمُبايَعَةِ أَثَراً فِي جَذْبِ القُلُوبِ نَحْوَ المُرِيدِ المَنْسُوبِ ، وانْعِطافًا إِلَيْهِ ، وحُنُوًّا عَلَيْهِ .

ولَوْ يَعْلَمُ المُرِيدُ ما للوَسائِلِ مِنَ الفَضائِلِ لأَوْقَفَ نَفْسَهُ خَدِيمًا لِوُرَّادِهِمْ بِوادِيهِمْ إِلَى أَنْ تَلُوحَ عَلَى أَسِرَّتِهِ بَوادِيهِمْ ، ويُعَدَّ مِنْ رِجالٍ ﴿صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (١) ، فاجْتَباهُمْ وهَداهُمْ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ يُوصِلُ إِلَيْهِ .

الطَّرِيقُ جَمِيعُها تَسْتَمِدُّ مِنْ عَيْنِ المَدَدِ المُحَمَّدِي

ومَنْ أَشْرَفَ عَلَى نُقْطَةِ دائِرَةِ الإِحاطَةِ ، ورَبَطَ قَلْبَهُ بِأَحْبالِ الاتِّباعِ ، وأَحْكَمَ ارْتِباطَهُ ، شَهِدَ بِعَيْنِ البَصِيرَةِ بَحْرَ الشَّرِيعَةِ المُحَمَّدِيَّةِ ، فَرَأَى سائِرَ الرَّقائِقِ مَدَدِها واسْتِمْدادِها مِنَ الرَّقِيقَةِ الأَحْمَدِيَّةِ ، وعَرَفَ مِنْ أَيْنَ أَخَذَ كُلٌّ مِمَّنْ أَخَذَ ، ولأَيِّ شَيْءٍ نَبَذَ مَنْ نَبَذَ ، وتَحَقَّقَ بِحَقِيقَةِ سائِرِ المَذاهِبِ والطَّرائِقِ ، وعَلِمَ أَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْها أَعْلَى وأَغْلَى لَدَى الذَّائِقِ ، ولَمْ يُنْكِرْ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ، لأَنَّهُ جَهِلَ فَأَوْجَبَ لَهُ الجَهْلُ النُّكْرانَ ، كَما أَنَّهُ لا يُنْكِرُ الصَّاحِي عَلَى السَّكْرانِ .

والحاصِلُ أَنَّ الطَّرائِقَ وإِنْ كانَتْ بِعَدَدِ الأَنْفاسِ ، فَهِيَ واحِدَةٌ عِنْدَ مَنْ

---

(١) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٢٣ .

أَحْكَمَ الأَساس ، قالَ العارِفُ :

الطُّرْقُ شَتَّىٰ طَرِيقُ الْحَقِّ مُفْرَدَةٌ ❁ وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ أَفْرَادُ

فالطُّرُقُ الَّتي تَشَتَّتْ طُرُقُ العُقَلاء[1]، والطَّرِيقُ المُفْرَدَةُ طَرِيقُ النُّبَلاء ؛ لأَنَّ الحَقَّ واحِدٌ ، والطَّرِيقَ إِلَيْهِ واحِدٌ ، والسَّالِكُونَ إِلَى الفَرْدِ أَفْراد ، ومَعَ وِحْدَتِهِ ، فَلَهُ وُجُوهٌ كَثِيرَةٌ نَشَأَتْ عَنِ اخْتِلافِ السَّالِكِينَ فِيهِ اعْتِدالاً وانْحِرافًا ، قُوَّةً وضَعْفًا ، اسْتِقامَةً ومَيْلًا ، فَعَزَّتْ وعَزَّ طُلَّابُها ، وأَنْشَدُوا :

وَمَا عَـزَّتِ الطُّـلَّابُ إِلَّا لِأَنَّـهُ ❁ إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

وفَقَدَ المَعِينُ عَيْنَ النَّاصِرِ المُعِين ، حَتَّى دَمَعَ العَيْنُ المَعِين ، لِنَفادِ الخَزِينِ باتِّقادِ نارِ القَلْبِ الحَزِين ، حَتَّى إِنَّ العارِفَ تَنَكَّرَ عَلَيْهِ لِعُلُوِّ ما لَدَيْهِ المَعارِفُ[2]، فَلا يُمْكِنُهُ بَثُّ ما شاهَدَ مِنْ عَظِيمِ المَشاهِد ، وإِنْ نَطَقَ بَيْنَهُمْ رُمِيَ بِأَلْسِنَةٍ حِداد ، ونُسِبَ إِلَى الزَّنْدَقَةِ والإِلْحاد .

اضْطِرارُ العارِفِينَ لِكَتْمِ الأَسْرار

فَإِذا لَمْ يَجِدِ الواجِدُ مَنْ يَتَسَلَّى مَعَهُ بِبَثِّ المَواجِدِ سَطَّرَها فِي الأَوْراق ، وأَوْدَعَها النَّارَ إِنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِي إِظْهارِها للإِحْراق ، وعَلَى

---

(١) مِنْ حَيْثُ تَشَتُّتُهُمْ فِي أَفْكارِ العُقُولِ وأَوْهامِها وعَدَمِ وُجُودِ نُورِ الكَشْفِ المُخْرِجِ مِنْ تِيهِ الظُّنُون .

(٢) أَيْ مَعارِفُ العارِف (أَيْ مَنْ يَعْرِفُونَهُ مِنَ النَّاس) يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ لِعُلُوِّ مَراقِيهِ فَلا يُمْكِنُهُ بَثُّ مَعْرِفَتِهِ .

هَذا القَدَم كَثِيرٌ مِنَ العارِفِينَ الأَخْيار .

وحُكِيَ مِثْلُ هَذا عَنِ الإمام مُحَمَّدِ بنِ عَلِيٍّ التِّرْمِذِي ، صاحِبِ الصَّحِيحِ ، الرَّاجِحِ المِقْدار ، ورَأَيْنا عَلَى هَذا المَنْهَجِ الأَبْهَجِ بَعْضَ الرِّجالِ الصَّاعِدِينَ فِي هَذا الدَّرَج .

وانْظُرْ فِيمَنْ حَفِظَ مَسْأَلَةً بِأُصُولِها وفُرُوعِها كَيْفَ يَسْتَطِيعُ كِتْمانَها إذا رَأَى مَحَلًّا قابِلًا لِشُرُوقِها فِيهِ وطُلُوعِها ، فَكَيْفَ حالُ مَنْ تَرِدُ عَلَيْهِ البُحُورُ الزَّواخِرُ الَّتي لا يُدْرَكُ لَها أَوَّلٌ مِنْ آخِر ، ولَمْ يَجِدْ لَها مَحَلًّا يَكُونُ بِها مُحَلًّى ، وأُمِرَ بِالكَتْم ، ولَمْ يُؤْذَنْ لَهُ بِالإفْشا ، فَكَيْفَ لا يَتَمَزَّقُ جِلْدُهُ بِتَأَجُّجِ الحَشا .

ولَقَدْ أَنْشَدَ مَنْ ذاقَ هَذا المَذاقَ وانْتَشَىٰ :

سَقَوْنِي وَقَالُوا : لا تُغَنِّ ، وَلَوْ سَقَوْا ❁ جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقَوْنِي لَغَنَّتِ

قالَ بَعْضُ العارِفِينَ : العارِفُ إذا تَكَلَّمَ أَهْلَكَ غَيْرَهُ ، وإذا سَكَتَ أَهْلَكَ نَفْسَهُ ، وإهْلاكُ الغَيْرِ أَوْلَى .

قُلْتُ : هَذا مِنَ الضِّيقِ المُوجِبِ للتَّمْزِيق ، ومُوجِبُهُ انْفِجارُ عُيُونِ الفُؤادِ بِغَرائِبِ الأَسْرارِ وعَجائِبِ الأَمْداد ، ولَوْلا تَخَلُّقُ العارِفِ بِاسْمِهِ تَعالَى (الواسِع) لَما ثَبَتَ نَفَسًا لِذَلِك ، ولَعادَ مَحْوًا صِرْفًا بِتَجَلِّي المالِك .

وإهْلاكُ الغَيْرِ لا يَكُونُ إلَّا بِطُرُوقِ حالٍ غالِبٍ ، لا دافِعَ لَهُ ولا مُغالِبَ ، وإلَّا فالكامِلُ بِالسَّعَةِ الإلَهِيَّةِ مَوْصُوفٌ ، فَلا هَلاكَ عِنْدَهُ ولا إهْلاكَ ، كَما هُوَ المَعْرُوف .

الطُّرُقُ الصُّوفِيَّةُ مُؤْتَلِفَة

وإنْ تَعَدَّدَتْ فَبَدَتْ مُخْتَلِفَة

فالطُّرُقُ الصُّوفِيَّةُ المُعْتَبَرَةُ جَمَعاء ، هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ والمَحَجَّةِ البَيْضاء .

وَالطُّرْقُ شَتَّىٰ وَالطَّرِيقُ وَاحِدُ ❁ إِلَى الْمُنَىٰ يَسْلُكُ فِيهَا الْوَاجِدُ

ويَزِيدُ الأَمْرَ وُضُوحًا فَضِيلَةُ الشَّيْخ مُحَمَّد زَكِي إبْراهِيمَ قائِلًا :

فالطُّرُقُ الصُّوفِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ عَلَى تَعَدُّدِها سُبُلٌ تَعَدَّدَتْ إلَى اللّه ، لِتُلائِمَ حاجاتِ كُلِّ سالِكٍ إلَيْهِ ، فَيَجِدُ فِيها كُلُّ مُرِيدٍ ما يُناسِبُ طاقَتَهُ ، ووَقْتَهُ ، وبِيئَتَهُ ، قَطْعًا لأَعْذارِ القاعِدِينَ عَنِ الهِجْرَةِ إلَى اللّهِ عَزَّ وجَلَّ ، فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ سَواءً فِي الطَّاقَةِ والمَلَكاتِ ، وإذَنْ فَتَأَمَّلْ بِإمْعانٍ قَوْلَهُ تَعالَى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ (١) ، إذَنْ فَهُناكَ سُبُلٌ شَتَّى تُوَصِّلُ إلَيْهِ تَعالَى ، كَما قالَ تَعالَى : ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ (٢) ، وهَذِهِ السُّبُلُ المُتَعَدِّدَةُ

---

(١) سُورَةُ العَنْكَبُوت : مِنَ الآيَة ٦٩ . (٢) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ١٦ .

القَويمَةُ تَمْضِي مُتَوازِيَةً مُتَحاذِيَةً فِي اتِّجاهٍ واحِدٍ ، فَكَأَنَّها طَرِيقٌ واحِدٌ ، ولِذَلِكَ جاءَتْ فِي أَكْثَرَ مِنْ آيَةٍ بِلَفْظِ المُفْرَدِ ، نَحْوَ : ﴿سَبِيلِيَ﴾ و﴿سَبِيلِهِ﴾ أَوْ ﴿سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ لاتِّحادِ البِدايَةِ والنِّهايَةِ ، فَهِيَ مُجْتَمِعَةً صِراطُ اللّهِ المُسْتَقِيمُ الواحِدُ المُتَّبَعُ ؛ أَيْ أَقْرَبُ مَسافَةٍ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ .

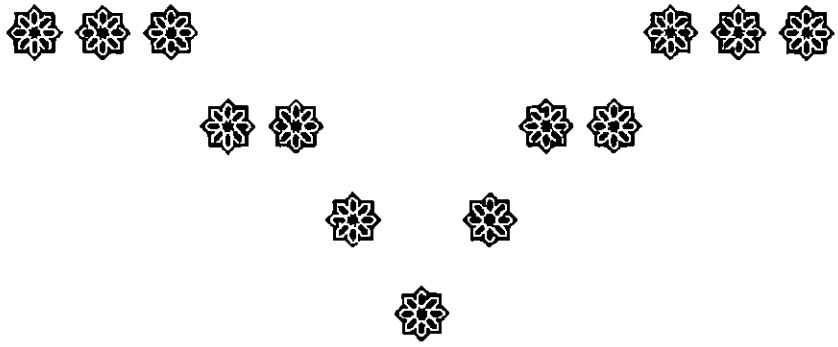
وذَلِكَ أَنَّ الطُّرُقَ الشَّرْعِيَّةَ جَمِيعًا تَبْدَأُ مِنَ التَّوْبَةِ ، وتَنْتَهِي بِالمَعْرِفَةِ ، فَإِذا فَرَضْنا (دائِرَةً ذاتَ مَرْكَز) كانَتْ كُلُّ الطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ (خُطُوطًا داخِلِيَّةً) تَصِلُ ما بَيْنَ مُحِيطِ الدَّائِرَةِ ونُقْطَةِ المَرْكَز ، وكَيْفَما كانَ اتِّجاهُ نُقْطَةِ البِدايَةِ فَلا خِلافَ فِي النِّهايَةِ ولا فِي الأُصُولِ العامَّةِ ولَكِنْ فِي فُرُوعِ كَيْفِيَّةِ الوُصُول .

وبِهَذا يَنْدَفِعُ اعْتِراضُ الباحِثِينَ عَنِ المُشْكِلات ، المُفَرِّقِينَ بَيْنَ الجَماعات ، والمُحْتَجِّينَ زُوراً وعُدْوانًا بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ ؛ فالمَنْهِيُّ عَنْهُ سُبُلُ الشَّيْطانِ والكُفْرانِ الَّتِي تَتَقاطَعُ وتَتَعارَضُ مَعَ سُبُلِ الرَّحْمٰنِ ، وأَمَّا سُبُلُ الرَّحْمٰنِ فَاللّهُ ذَكَرَها كَما بَيَّنَّا ، ووَعَدَ المُجاهِدِينَ فِيهِ بِهِدايَتِهِمْ إِلَيْها ؛ قالَ تَعالَى : ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ، وسَمَّاها تَعالَى : ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ، واعْتَزَّ بِها الأَنْبِياءُ فَقالُوا : ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ ؛

فَكُلُّها مُتَوازِيَةٌ مُتَحاذِيَةٌ وكُلُّها شَرائِحُ يَتَكَوَّنُ مِنْها سَبِيلُهُ تَعالَى ؛ فَهِيَ وإِنْ تَعَدَّدَتْ فَإِنَّها سَبِيلٌ واحِدَةٌ للاتِّحادِ فِي البِدايَةِ والنِّهايَةِ ، والنِّيَّةِ والهَدَفِ الأَعْظَم .

إِنَّ الحَقَّ واحِدٌ لا يَتَعَدَّدُ ، ولَكِنَّ السُّبُلَ تَتَعَدَّدُ فِي إِدْراكِهِ أَوِ الوُصُولِ إِلَيْهِ ، فَلَوْ تَصَوَّرْنا مِصْباحًا مُعَلَّقًا ، فَقَدْ تَصَوَّرْنا أَنَّ النَّظَرَ إِلَيْهِ وإِدْراكَ وُجُودِهِ مُمْكِنٌ مِنَ الجِهاتِ السِّتِّ وما بَيْنَها ، وهَكَذا تَعَدَّدَتْ سُبُلُ رُؤْيَةِ المِصْباح ، وهُوَ واحِدٌ مُسْتَقِرٌّ فِي مَكانِهِ غَيْرُ مُكَرَّر ، وهَذا هُوَ شَأْنُ النَّاظِرِينَ إِلَى الشَّمْسِ والقَمَرِ فِي كافَّةِ أَقْطارِ الدُّنْيا .

يَخْتَلِفُ مَوْقِعُ الطَّالِبِ ويَتَعَدَّدُ ، ولا يَخْتَلِفُ المَطْلُوبُ المُحَدَّدُ .



رَفْعُ الحَرَجِ والضِّيق

عَمَّا أُثِيرَ حَوْلَ فَرْضِيَّةِ اتِّخاذِ شَيْخِ الطَّرِيق

والحاصِلُ أَنَّهُ مَنْ ذاقَ لَذَّةَ الوِصال ، وتَنَعَّمَ مَعَ أَحْبابِهِ فِي بَحْبُوحَةِ كَرَمِ الكَبِيرِ المُتَعال ، وَجَدَ عَلَى نَفْسِهِ لِزامًا أَنْ يُحِبَّ تَمَتُّعَ غَيْرِهِ بِهَذا النَّوال ، فَنادَى مُعْلِنًا بِصَرِيحِ المَقال : أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ عاقِلٍ يُرِيدُ تَخْلِيصَ نَفْسِهِ مِنَ الرَّذائِلِ النَّفْسانِيَّةِ والشَّيْطانِيَّةِ المُرْدِيَةِ عاجِلًا وآجِلًا طَلَبُ شَيْخٍ مُرْشِدٍ مُتَبَحِّرٍ فِي العُلُومِ عارِفٍ بِالعُيُوبِ والعِلَلِ ناصِحٍ ، فَيُلْقِي إِلَيْهِ قِيادَهُ ويَتَّبِعُ أَوامِرَهُ ولا يُخالِفُهُ فِي شَيْءٍ .

فَأَقُولُ[1] وبِاللهِ تَعالَى التَّوْفِيق وهُوَ الهادِي بِمَنِّهِ إِلَى سَواءِ الطَّرِيق : اعْلَمْ أَنَّ شَيْخَنا سُئِلَ هَلْ طَلَبُ الشَّيْخِ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ أَوْ عَلَى البَعْضِ دُونَ البَعْضِ ؟ فَأَجابَ رضي الله عنه بِقَوْلِهِ : إِنَّ طَلَبَ الشَّيْخِ فِي الشَّرْعِ لَيْسَ بِواجِبٍ وُجُوبًا شَرْعِيًّا يَلْزَمُ مِنْ طَلَبِهِ الثَّوابُ ومِنْ عَدَمِ طَلَبِهِ العِقابُ ، فَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ شَيْءٌ مِنْ هَذا ، ولَكِنَّهُ واجِبٌ مِنْ طَرِيقِ النَّظَر ؛ فِي مِثْلِ الظَّمْآنِ إِذا احْتاجَ إِلَى الماءِ وإِنْ لَمْ يَطْلُبْهُ هَلَكَ ، فَطَلَبُهُ عَلَيْهِ لازِمٌ مِنْ طَرِيقِ النَّظَر ، وطَرِيقُ النَّظَرِ فِي هَذا ما قَدَّمْناهُ مِنْ كَوْنِ

---

(١) القائِلُ سَيِّدِي عُمَرُ بنُ سَعِيدٍ الفُوتِي تِلْمِيذُ سَيِّدِي أَحْمَد التِّجانِي رضي الله عنه .

النَّاسِ خُلِقُوا لِعبادَةِ اللهِ والتَّوَجُّهِ إِلَى الحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ بِالإِعْراضِ عَنْ كُلِّ ما سِواها ، وعَلِمَ المُرِيدُ ما فِي نَفْسِهِ مِنَ الثِّقَلِ والتَّثَبُّطِ عَنِ النُّهُوضِ إِلَى الحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ بِتَوْفِيَةِ الحُقُوقِ والآدابِ ، وعَلِمَ أَنَّهُ لا مَلْجَأَ لَهُ مِنَ اللهِ ولا مَنْجا إِنْ رَكَنَ إِلَى نَفْسِهِ مُتَّبِعًا هَواها مُعْرِضًا عَنِ اللهِ تَعالَى ؛ فَإِنَّهُ بِهَذا النَّظَرِ يَجِبُ عَلَيْهِ طَلَبُ الشَّيْخِ الكامِلِ ، وهَذا الوُجُوبُ النَّظَرِي أَمْرٌ وَضْعِيٌّ طَبِيعِيٌّ لَيْسَ مِنْ نُصُوصِ الشَّرْعِ ، إِذْ لَيْسَ فِي نُصُوصِ الشَّرْعِ إِلَّا وُجُوبُ تَوْفِيَةِ القِيامِ بِحُقُوقِ اللهِ تَعالَى ظاهِراً وباطِنًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنْ جَمِيعِ العِبادِ ، ولا عُذْرَ لأَحَدٍ فِي تَرْكِ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ ولا عُذْرَ لَهُ فِي غَلَبَةِ الهَوَى عَلَيْهِ وعَجْزِهِ عَنْ مُقاوَمَةِ نَفْسِهِ ، فَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ إِلَّا وُجُوبُ ذَلِكَ وتَحْرِيمُ تَرْكِهِ لِوُجُوبِ العِقابِ عَلَيْهِ ، فَهَذا ما كانَ فِي الشَّيْخِ ، ولا شَيْخٌ يَجِبُ طَلَبُهُ إِلَّا شَيْخَ التَّعْلِيمِ الَّذِي يُعَلِّمُ كَيْفِيَّةَ الأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يُطْلَبُ فِعْلُها مِنَ العَبْدِ أَمْراً ونَهْيًا وفِعْلًا وتَرْكًا ؛ فَهَذا الشَّيْخُ يَجِبُ طَلَبُهُ عَلَى كُلِّ جاهِلٍ ، لا يَسَعُ أَحَدًا تَرْكُهُ ، وما وَراءَ ذَلِكَ مِنَ الشُّيُوخِ لا يَلْزَمُ طَلَبُهُ مِنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ ، لَكِنْ يَجِبُ طَلَبُهُ مِنْ طَرِيقِ النَّظَرِ بِمَنْزِلَةِ المَرِيضِ الَّذِي أَعْضَلَتْهُ العِلَّةُ وعَجَزَ عَنِ الدَّواءِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وانْعَدَمَتِ الصِّحَّةُ فِي

حَقِّهِ ، فَنَقُولُ لَهُ : إِنْ شِئْتَ البَقاءَ عَلَى هَذا المَرَضِ بَقِيَ كَذَلِكَ ، وإِنْ طَلَبَ الخُرُوجَ إِلَى كَمالِ الصِّحَّةِ ، قُلْنا لَهُ : يَجِبُ عَلَيْكَ طَلَبُ الطَّبِيبِ الماهِرِ الَّذي لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالعِلَّةِ وأَصْلِها وبِالدَّواءِ المُزِيلِ لَها وكَيْفِيَّةِ تَناوُلِهِ كَمًّا وكَيْفًا ووَقْتًا وحالًا .

وفِي تَأْسِيسِ القَواعِدِ للشَّيْخِ أَحْمَد زَرُّوق رضي الله عنه : أَخْذُ العِلْمِ والعَمَلِ عَلَى المَشايِخِ أَتَمُّ مِنْ أَخْذِهِ دُونَهُمْ (بَلْ هُوَ آياتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ واتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ) فَلَزِمَتِ المَشْيَخَةُ سِيَّما والصَّحابَةُ أَخَذُوا عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام ، وقَدْ أَخَذَ ﷺ عَنْ جِبْرِيلَ عليه السلام واتَّبَعَ إِشارَتَهُ فِي أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عَبْداً ، وأَخَذَ التَّابِعُونَ عَنِ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم ، فَكانَ لِكُلٍّ أَتْباعٌ يَخْتَصُّونَ بِهِ ؛ كابنِ سِيرِينَ وابنِ المُسَيِّب والأَعْرَج لِسَيِّدِنا أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، وطاووس ووُهَيْب ومُجاهِد لِسَيِّدِنا ابن عَبَّاس رضي الله عنهم ،إِلَى غَيْرِ ذَلِك .

فَأَمَّا العِلْمُ والعَمَلُ فَأَخْذُهُ جَلِيٌّ فِيما ذُكِرَ كَما ذُكِرَ ، وأَمَّا الإِفادَةُ بِالهِمَّةِ والحالِ فَقَدْ أَشارَ إِلَيْها سَيِّدُنا أَنَس رضي الله عنه بِقَوْلِهِ : ((ما نَفَضْنا التُّرابَ عَنْ أَيْدِينا مِنْ دَفْنِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حَتَّى أَنْكَرْنا قُلُوبَنا)) ، فَأَبانَ أَنَّ رُؤْيَةَ شَخْصِهِ الكَرِيم ﷺ كانَتْ نافِعَةً لَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ .

والعُلَماءُ وَرَثَةُ الأَنْبياءِ حالًا ومَقالًا وإنْ لَمْ يُدانُوا المَرْتَبَةَ ، وهَذا الأَصْلُ فِي طَلَبِ القُرْبِ مِنْ أَهْلِ اللهِ فِي الجُمْلَةِ ، إذْ مَنْ تَحَقَّقَ بِحالَةٍ لَمْ يَخْلُ حاضِرُوهُ مِنْها ، ولِذَلِكَ جاءَ الأَمْرُ بِصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ والنَّهْيُ عَنْ صُحْبَةِ الفاسِقِين .

ثُمَّ قالَ : ضَبْطُ النَّفْسِ بِأَصْلٍ يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي العِلْمِ والعَمَلِ لازِمٌ لِمَنْعِ التَّشَعُّبِ والتَّشْعِيب ، فَلَزِمَ الاقْتِداءُ بِشَيْخٍ قَدْ تَحَقَّقَ اتِّباعُهُ للسُّنَّةِ وتَمَكُّنُهُ مِنَ المَعْرِفَةِ ، لِيَرْجِعَ إِلَيْهِ فِيما يَرِدُ أَوْ يُرادُ ، مَعَ الْتِقاطِ الفَرائِدِ الرَّاجِعَةِ لأَصْلِهِ مِنْ خارِجٍ ؛ إِذِ الحِكْمَةُ ضالَّةُ المُؤْمِنِ وهُوَ كالنَّحْلَةِ تَرْعَى كُلَّ طَيِّبٍ ثُمَّ لا تَبِيتُ فِي غَيْرِ بَيْتِها ، وإِلَّا لَمْ يُنْتَفَعْ بِعَمَلِها .

وقَدْ تَناظَرَ بَعْضُ مُتَصَوِّفَةِ الأَنْدَلُسِ مِنَ المُتَأَخِّرِينَ فِي الاكْتِفاءِ بِالكُتُبِ عَنِ المَشايِخِ ، ثُمَّ كَتَبُوا للبِلاد ، فَكُلٌّ أَجابَ عَلَى حَسَبِ فَتْحِهِ ، وجُمْلَةُ الأَجْوِبَةِ دائِرَةٌ عَلَى ثَلاثَةِ طُرُقٍ :

أَوَّلُها : النَّظَرُ للمَشايِخِ ؛ **فَشَيْخُ التَّعْلِيمِ** تَكْفِي عَنْهُ الكُتُبُ لِلَبِيبٍ حاذِقٍ يَعْرِفُ مَوارِدَ العِلْمِ ، **وشَيْخُ التَّرْبِيَةِ** تَكْفِي عَنْهُ الصُّحْبَةُ لِذِي دِينٍ عاقِلٍ ناصِحٍ ، **وشَيْخُ التَّرْقِيَةِ** يَكْفِي عَنْهُ اللِّقاءُ والتَّبَرُّكُ وأَخْذُ ذَلِكَ مِنْ وَجْهٍ واحِد .

ثانيها : النَّظَرُ إلَى حالِ الطَّالِب ؛ فالبَلِيدُ لا بُدَّ لَهُ مِنْ شَيْخٍ يُرَبِّيه ، واللَّبِيبُ تَكْفِيهِ الكُتُبُ فِي تَرَقِّيه ، لَكِنَّهُ لا يَسْلَمُ مِنْ رُعُونَةِ نَفْسِهِ وإنْ وَصَلَ لابْتِلاءِ العَبْدِ بِرُؤْيَةِ نَفْسِهِ .

الثَّالِثُ : النَّظَرُ للمُجاهَداتِ ؛ فالتَّقْوى لا تَحْتاجُ إلَى شَيْخٍ لِبَيانِها وعُمُومِها ، والاسْتِقامَةُ تَحْتاجُ للشَّيْخِ فِي تَمْيِيزِ الأَصْلَحِ مِنْها ، وقَدْ يَكْتَفِي دُونَهُ اللَّبِيبُ بالكُتُبِ ، ومُجاهَدَةُ الكَشْفِ والتَّرْقِيَةِ لا بُدَّ فِيها مِنْ شَيْخٍ يَرْجِعُ إلَيْهِ فِي فُتُوحِها كَرُجُوعِهِ ﷺ لِوَرَقَةَ بنِ نَوْفَل لِعِلْمِهِ بأَخْبارِ النُّبُوَّةِ ومَبادِئِ ظُهُورِها حِينَ فاجَأَهُ الحَقُّ ، وهَذِهِ الطَّرِيقَةُ قَرِيبَةٌ مِنَ الأُولَى والسُّنَّةُ مَعَها .

وقالَ الإمامُ أَبو القاسِمِ القُشَيْرِي فِي رِسالَتِهِ : ثُمَّ يَجِبُ عَلَى المُرِيدِ أَنْ يَتَأَدَّبَ بِشَيْخٍ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُسْتاذٌ لا يُفْلِحُ أَبَداً .

وفِي الخُلاصَةِ المَرْضِيَّة : فَلا بُدَّ مِنْ مُؤَدِّبٍ وهُوَ الأُسْتاذ ؛ فَإِنَّ الطَّرِيقَ لَمَّا كانَ في غايَةِ الشَّرَفِ والعِزَّةِ حَفَّتْ بِهِ الآفاتُ والأُمُورُ المُهْلِكَةُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، فَلا يَسْلُكُهُ إلَّا شُجاعٌ مِقْدامٌ ويَكُونُ مَعَهُ دَلِيلٌ وعَلامَةٌ ، وحِينَئِذٍ تَقَعُ الفائِدَةُ ، قالَ الشَّيْخُ جِبْرِيلُ الخَرْما باذِي قَدَّسَ اللّهُ سِرَّهُ العَزِيز : أَيُّها السَّالِكُ لا تَدْخُلْ هَذِهِ البادِيَةَ المُهْلِكَةَ إلَّا أَنْ تَكُونَ

فِي خَفارَةِ أَتْباعِ الحَضْرَةِ النَّبَوِيَّة ، ويَكُونُ قُدَّامَكَ دَلِيلٌ قَطَعَ هَذِهِ البَرِّيَّةَ غَيْرَ مَرَّةٍ واضِعًا قَدَمَ صِدْقِهِ عَلَى أَثَرِ قَدَمِ النَّبِيِّ ﷺ ، وغَيْرَ مُنْحَرِفٍ عَنْ جادَّةِ طَرِيقِ المُتابَعَةِ ، ولا يَخْفَى عَلَى مَنْ لَهُ أَدْنَى دِرايَةٍ وفَطانَةٍ أَنَّ السَّيْرَ فِي عالَمِ الشَّهادَةِ الَّذي هُوَ عالَمُ الجِسْمانِيَّاتِ بَرًّا وبَحْراً إِذا كانَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ يَكُونُ الغالِبُ فِيهِ الهَلاك ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُوصِلَ إِلَى المَقْصُود ، فَكَيْفَ فِي عالَمِ الغَيْبِ الَّذي لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ المَحْسُوسات ؟!

فَيَجِبُ عَلَى مَنْ فِي قَلْبِهِ داعِيَةُ السَّفَرِ أَنْ يَبْذُلَ جُهْدَهُ فِي إِيجادِ دَلِيلٍ عارِفٍ بِعَلاماتِ الطَّرِيق ، خَبِيرٍ بِالمَهالِكِ والمَخاوِفِ وآدابِ الدُّرُوب ، قَطَعَ هَذِهِ البَوادِيَ المُبِيدَةَ بِقَدَمِ الصِّدْقِ مِراراً ، وكَثُرَ مَجِيئُهُ وذَهابُهُ فِيها بَعْدَ أَنْ وَصَلَ إِلَى الكَعْبَةِ الحَقِيقِيَّة .

فَإِذا وَجَدَ مِثْلَ هَذا الدَّلِيلِ ، سَلَّمَ نَفْسَهُ إِلَيْهِ وتَبَرَّأَ مِنْها ، ويُطَلِّقُ اخْتِيارَهُ ثَلاثًا ويُفْنِيهِ فِي اخْتِيارِ الدَّلِيلِ وإِرادَتِهِ ، فَإِذا فَعَلَ ذَلِكَ اسْتَعَدَّ لِتَصَرُّفِ الشَّيْخ .

وفِي الخُلاصَةِ المَرْضِيَّةِ أَيْضًا : اعْلَمْ أَيُّها المُرِيدُ نَجاةَ نَفْسِكَ أَنَّ أَوَّلَ ما يَجِبُ عَلَيْكَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ طَلَبُ شَيْخٍ يُبَصِّرُكَ بِعُيُوبِ نَفْسِكَ ،

ويُخْرِجُكَ عَنْ طاعَةِ نَفْسِكَ ، ولَوْ رَحَلْتَ إِلَى طَلَبِهِ فِي أَقْصَى الأَماكِنِ والبِلاد .

وقالَ الإمامُ الغَزالِي رضي الله عنه فِي الإحْياء ((رُبُعُ المُهْلِكات)) : إِنَّ المُرِيدَ يَحْتاجُ إِلَى شَيْخٍ وأُسْتاذٍ يَقْتَدِي بِهِ لا مَحالَةَ لِيَهْدِيَهُ إِلَى سَواءِ السَّبِيل ؛ فَإِنَّ سَبِيلَ الدِّينِ غامِضٌ ، وسُبُلَ الشَّيْطانِ كَثِيرَةٌ ظاهِرَةٌ ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْخٌ يَهْدِيه ، قادَهُ الشَّيْطانُ لا مَحالَةَ إِلَى طَرِيقِهِ ، فَمَنْ سَلَكَ البَوادِيَ المُهْلِكَةَ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ خَفِيرٍ فَقَدْ خاطَرَ بِنَفْسِهِ وأَهْلَكَها ، ويَكُونُ المُسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ كالشَّجَرَةِ الَّتِي تَنْبُتُ بِنَفْسِها ، فَإِنَّها تَجِفُّ عَلَى القُرْبِ ، وإِنْ بَقِيَتْ مُدَّةً وأَوْرَقَتْ لَمْ تُثْمِرْ ، فَمَتَى حَظِيَ المُرِيدُ بِشَيْخِهِ فَلْيَتَمَسَّكْ بِهِ تَمَسُّكَ الأَعْمَى عَلَى شاطِئِ البَحْرِ بِالقائِدِ بِحَيْثُ يُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَيْهِ بِالكُلِّيَّةِ ولا يُخالِفُهُ فِي وِرْدٍ ولا صَدْرٍ ولا يُبْقِي فِي مُتابَعَتِهِ شَيْئًا ولا يَذَرُ ، ولْيَعْلَمْ أَنَّ نَفْعَهُ فِي خَطَأِ شَيْخِهِ لَوْ أَخْطَأَ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ فِي صَوابِ نَفْسِهِ لَوْ أَصابَ .

وقالَ أَبو النَّجِيب السَّهْرَوَرْدِي فِي كِتابِهِ ((آدابُ المُرِيدِينَ)) : أَوَّلُ ما يَلْزَمُ المُرِيدَ بَعْدَ الانْتِباهِ مِنَ الغَفْلَةِ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى شَيْخٍ مِنْ أَهْلِ زَمانِهِ مُؤْتَمَنٍ عَلَى دِينِهِ مَعْرُوفٍ بِالصَّلاحِ والأَمانَةِ عارِفٍ بِالطَّرِيقِ ، فَيُسَلِّمُ

نَفْسَهُ لِخِدْمَتِهِ ، ويَعْتَقِدُ تَرْكَ مُخالَفَتِهِ ، ويَكُونُ الصِّدْقُ وَصْفَ حالَتِهِ ، ثُمَّ يَلْزَمُ الشَّيْخَ أَنْ يُعَرِّفَهُ كَيْفِيَّةَ الرُّجُوعِ إِلَى سَيِّدِهِ ، ويَدُلَّهُ عَلَى الطَّرِيقِ ويُسَهِّلَ عَلَيْهِ سُلُوكَها ، ويُكْرَهُ للمُرِيدِ مُفارَقَةُ أُسْتاذِهِ قَبْلَ انْفِتاحِ عَيْنِ قَلْبِهِ ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ تَحْتَ أَمْرِهِ ونَهْيِهِ فِي خِدْمَتِهِ .

ونَقَلَ القُشَيْرِيُّ عَنْ شَيْخِهِ أَبِي عَلِيٍّ الدَّقَّاق ، أَنَّهُ قالَ : ((الشَّجَرَةُ إِذا نَبَتَتْ بِنَفْسِها مِنْ غَيْرِ غارِسٍ فَإِنَّها تُورِقُ ولا تُثْمِرُ ، كَذَلِكَ المُرِيدُ إِذا لَمْ يَكُنْ لَهُ أُسْتاذٌ يَأْخُذُ مِنْهُ طَرِيقَهُ نَفَسًا نَفَسًا فَهُوَ عابِدٌ هَواهُ ولا يَجِدُ نَفاذًا)) .

قالَ السَّهْرَوَرْدِي : وهُوَ كَما قالَ إِلَّا أَنَّها لا تُثْمِرُ ، ويَجُوزُ أَنَّها تُثْمِرُ كالأَشْجارِ الَّتي فِي الجِبالِ والأَوْدِيَةِ ، ولَكِنْ لا يَكُونُ لِفاكِهَتِها طَعْمُ فاكِهَةِ البَساتِينِ ، والغَرْسُ إِذا نُقِلَ مِنْ مَوْضِعٍ يَكُونُ أَكْثَرَ وأَحْسَنَ ثَمَرَةً لِدُخُولِ التَّصْرِيفِ فِيهِ ، وقَدِ اعْتَبَرَ الشَّرْعُ وُجُودَ التَّعْلِيمِ فِي الكَلْبِ المُعَلَّمِ وحِلَّ ما يَقْتُلُهُ بِخِلافِ غَيْرِ المُعَلَّمِ .

وقالَ السَّهْرَوَرْدِي أَيْضًا : سَمِعْتُ كَثِيراً مِنَ المَشايِخِ يَقُولُونَ : ((مَنْ لَمْ يَرَ مُفْلِحًا لا يُفْلِحُ)) .

قالَ بَعْضُ المَشايِخِ : ((مَنْ لَمْ يَتَأَدَّبْ بِأَوامِرِ الشُّيُوخِ وتَأْدِيبِهِمْ فَلا

يَتَأَدَّبُ بِكِتابٍ ولا سُنَّة)) .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاسِ المُرْسِي : ((وكُلُّ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُسْتاذٌ يُوصِلُهُ بِسِلْسِلَةِ الاتِّباع ، ويَكْشِفُ لَهُ عَنْ قَلْبِهِ القِناع ، فَهُوَ فِي هَذا الشَّأْنِ لَقِيطٌ لا أَبَ لَهُ ، دَعِيٌّ لا نَسَبَ لَهُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ فالغالِبُ عَلَيْهِ غَلَبَةُ الحالِ عَلَيْهِ ، والغالِبُ عَلَيْهِ وُقُوفُهُ مَعَ ما يَرِدُ عَلَيْهِ ، لَمْ تُرَيِّضْهُ سِياسَةُ التَّأْدِيبِ ، ولَمْ يُقَلِّدْهُ زِمامُ التَّرْبِيَةِ والتَّدْرِيب)) .

الوُصُولُ إِلَى مَرْتَبَةِ الخَواص

لا يَكُونُ إِلَّا عَلَى يَدَي أَصْحابِ الإِذْنِ الخاص

وفِيهِ الإِعْلامُ أَنَّهُ لا يَصِلُ السَّالِكُ النَّاسِكُ إِلَى حَضْرَةِ اللهِ وحَضَراتِ صِفاتِهِ وأَسْمائِهِ ولَوْ جَمَعَ عُلُومَ الأَوَّلِينَ وصَحِبَ طَوائِفَ النَّاسِ وعَبَدَ عِبادَةَ الثَّقَلَيْنِ إِلَّا عَلَى يَدَي أَصْحابِ الإِذْنِ الخاص .

قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ ؛

قالَ فِي العَرائِس : ((إِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ سَنَّ سُنَّةً أَزَلِيَّةً أَنْ لا يَجِدَ أَحَدٌ سَبِيلَهُ إِلَّا مَنْ يُقَيِّضُ اللهُ لَهُ أُسْتاذًا عارِفًا بِاللهِ وبِسِرِّ دِينِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ فَيَدُلُّهُ مِنْهاجُ عُبُودِيَّتِهِ ومَعارِجُ رُوحِهِ وقَلْبِهِ إِلَى مُشاهَدَةِ رُبُوبِيَّتِهِ ، ويَكُونُ هُوَ واسِطَةً بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ تَعالَى (وإِنْ كانَ الفَضْلُ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ

يَشاءُ بِغَيْرِ عِلَّةٍ ولا سَبَبٍ) ؛ جَعَلَهُ واسِطَةً للتَّأَدُّبِ لا للتَّقْرِيبِ ، وصَيَّرَهُ شَفِيعًا للجِناياتِ لا شَرِيكًا فِي الهِداياتِ ، هُداهُ نُورُ القُرْآنِ ودِينُهُ حَقِيقَةُ البَيانِ مَعَ إِظْهارِ البُرْهانِ .

وقالَ شَيْخُنا[1]: اعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ سُبْحانَهُ وتَعالَى جَعَلَ فِي سابِقِ عِلْمِهِ ونُفُوذِ مَشِيئَتِهِ أَنَّ المَدَدَ الواصِلَ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ فَيْضِ رَحْمَتِهِ يَجْرِي فِي كُلِّ عَصْرٍ مَعَ الخاصَّةِ العُلْيا مِنْ خَلْقِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ ووَرَثَتِهِمْ مِنَ الأَوْلِياءِ المُعاصِرِينَ ، فَمَنْ فَزِعَ إِلَى أَهْلِ عَصْرِهِ مِنَ الأَحْياءِ (المُتَّصِلِينَ بِسِلْسِلَةِ أَهْلِ الفَضْلِ السَّابِقِينَ السَّارِي سِرُّهُمْ فِيهِ) وصَحِبَهُمْ واقْتَدَى بِهِمْ واسْتَمَدَّ مِنْهُمْ ، فازَ بِنَيْلِ المَدَدِ الفائِضِ مِنَ اللّٰهِ تَعالَى ، ومَنْ أَعْرَضَ عَنْ أَهْلِ عَصْرِهِ أَهْلِ السَّيْرِ والسُّلُوكِ ، مُسْتَغْنِيًا بِكَلامِ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ أَهْلِ السُّطُورِ ، طُبِعَ عَلَيْهِ بِطابِعِ الحِرْمانِ ، وكانَ مَثَلُهُ كَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ صَحِيحِ السَّنَدِ المُتَّصِلِ بِأَهْلِ المَحَجَّةِ البَيْضاءِ ، مُسْتَغْنِيًا بِأَهْلِ الخَلْطِ والتَّخْبِيطِ والأَهْواءِ .

وقالَ فِي ((عَرائِسِ البَيانِ)) عِنْدَ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ ؛ قِيلَ فِي هَذِهِ الآيَةِ : لا تَصِحُّ الإِرادَةُ إِلَّا

---

(١) رِماحُ حِزْبِ الرَّحِيمِ عَلَى نُحُورِ حِزْبِ الرَّجِيمِ : سَيِّدِي عُمَرُ بْنُ سَعِيدٍ الفُوتِي ، وهُوَ مِنْ كُمَّلِ خُلَفاءِ سَيِّدِي أَحْمَدَ التِّجانِي رضي الله عنه .

بالأَخْذِ مِنَ الأَئِمَّةِ ، أَلا تَرَى كَيْفَ نَظَرَ المُصْطَفَى ﷺ فِي زُمْرَةِ أَصْحابِهِ رضي الله عنهم ، فَقالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : (اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وعُمَر) .

فَلا يَصِحُّ الاقْتِداءُ إِلَّا بِمَنْ صَحَّتْ بِدايَتُهُ وسَلَكَ سُلُوكَ السَّاداتِ وأَثَّرَ فِيهِ بَرَكاتُ شُهُودِهِمْ ؛ أَلا تَرَى المُصْطَفَى ﷺ يَقُولُ : (طُوبَى لِمَنْ رَآنِي) ؛ أَيْ فازَ مَنْ أَثَّرَتْ فِيهِ رُؤْيَتِي .

قالَ السَّاحِلِي فِي ((بُغْيَة السَّالِك)) : إِنَّ المَقْصُودَ الأَعْظَم مِنَ الشَّرِيعَةِ هُوَ تَطْهِيرُ النَّفْسِ مِنْ كُدُوراتِ مُتَعَلَّقاتِ الجِسْمِ بِالتَّزْكِيَةِ عَنِ الأَوْصافِ الذَّمِيمَةِ ، والتَّحْلِيَةِ بِالأَوْصافِ الحَمِيدَةِ حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ تَعالَى ، وهَذا لا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ ومَعْرِفَةِ عالَمِها عَلَى اخْتِلافِها (المُفْرَدِ مِنْ ذَلِكَ والمُرَكَّب) ، ومَعْرِفَةِ الأَدْوِيَةِ والأَغْذِيَةِ ، ولا يُحْكِمُ ذَلِكَ إِلَّا الرَّبَّانِي الَّذِي نَوَّرَ اللهُ باطِنَهُ بِأَنْوارِ مَعْرِفَتِهِ وخَصَّهُ بِآثارِ حِكْمَتِهِ وأَطْلَعَهُ عَلَى آثارِ شَرِيعَتِهِ وأَوْقَفَهُ عَلَى مَعانِي الكِتابِ والسُّنَّةِ ، ولا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا مِمَّنْ سَلَكَ طَرِيقَ الدِّينِ وقَطَعَ مَنازِلَ السَّالِكِينَ وتَخَلَّصَ مِنْ نَفْسِهِ عَلَى أَيْدِي وارِثٍ آخَرَ حَتَّى صارَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، وأَهَّلَهُ اللهُ تَعالَى لِهِدايَةِ غَيْرِهِ وخَصَّهُ بِالقُوَّةِ المُقْتَضِيَةِ لِذَلِكَ ، وحَصَلَ لَهُ الإِذْنُ الصَّحِيحُ الصَّرِيحُ فِي ذَلِكَ مِنْ قُدْوَتِهِ ،

ومَهْما قَصَّرَ عَنْ هَذِهِ الأَوْصافِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ يَحْتاجُ إِلَى طَبِيبٍ يُطَبِّبُهُ ورُبَّما بَقِيَ فِيهِ مِنَ البَقِيَّةِ ما لا يَخْلُو مِنْ غَلَطٍ ؛ فَقَدْ عَرَفْتَ الطَّبِيبَ وهُوَ الوارِثُ الكامِلُ ، وقَدْ يُسَمَّى وارِثًا مَنْ حَصَلَ عَلَى بَعْضِ الأَوْصافِ المَذْكُورَةِ بِنَوْعِ المَجازِ لَكِنَّ مَنْفَعَتَهُ مَقْصُورَةٌ عَلَى نَفْسِهِ ، وقَدْ يَنْتَفِعُ بِهِ القَلِيلُ الخاصُّ ، وأَمَّا الانْتِفاعُ الكَثِيرُ فَلا يَكُونُ إِلَّا مِنَ الوارِثِ الكامِلِ الَّذي رَسَخَ عِلْمُهُ وقَوِيَ عَقْلُهُ وتَطَهَّرَتْ نَفْسُهُ وصَدَقَتْ فِراسَتُهُ وتَرَجَّحَ رَأْيُهُ وسَلِمَتْ فِطْنَتُهُ وامْتَحَى هَواهُ وانْشَرَحَ صَدْرُهُ بِأَنْوارِ المَعارِفِ ونَفَحاتِ الأَسْرارِ ، وأَخَذَ عَنْ شَيْخٍ وارِثٍ بِهَذِهِ الصِّفاتِ ، وأَذِنَ لَهُ بِالانْتِصابِ لِهِدايَةِ الخَلْقِ بِتَخْلِيصِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ عالَمِها ، وهَذِهِ هِيَ الوِراثَةُ الحَقِيقِيَّةُ .

فَعَلَيْكَ بِاتِّخاذِ مَنْ هُوَ بِهَذِهِ الأَوْصافِ قُدْوَةً ووَسِيلَةً إِلَى اللهِ تَعالَى فِي خَلاصِ نَفْسِكَ وطَهارَتِها ، ولْتُمَلِّكْهُ زِمامَ الحُكْمِ عَلَيْها مِنْ غَيْرِ ارْتِيابٍ ولا الْتِواءٍ ولا اعْتِراضٍ بِأَنْ تَكُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ كالمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيْ غاسِلِهِ ، وقَدْ قالُوا : مَنْ قالَ لِشَيْخِهِ لِمَ ؟ فَإِنَّهُ لا يَنْتَفِعُ بِهِ ، وقَدْ عَلَّمَنا اللهُ تَعالَى هَذِهِ الفائِدَةَ بِالإِشارَةِ إِلَيْها فِي قِصَّةِ سَيِّدِنا مُوسَى مَعَ الخَضِرِ عَلَيْهِما السَّلامُ .

وفي ((الأَنْوار القُدْسِيَّة فِي العُهُودِ المُحَمَّدِيَّة)) : حُكْمُ الشَّيْخِ فِي سُلُوكِهِ بِالمُرِيدِ وتَرَقِّيهِ بِالأَعْمالِ كَحُكْمِ مَنْ يَمُرُّ بِالمُرِيدِ عَلَى جِبالِ الفُلُوسِ الجُدُدِ ، فَإِذا زَهِدَ فِيها سَلَكَ بِهِ حَتَّى يَمُرَّ بِهِ عَلَى جِبالِ الفِضَّةِ ، فَإِذا زَهِدَ فِيها سَلَكَ بِهِ حَتَّى يَمُرَّ بِهِ عَلَى جِبالِ الذَّهَبِ ثُمَّ الجَواهِرِ ، فَإِذا زَهِدَ فِيها المُرِيدُ أَوْصَلَهُ إِلَى حَضْرَةِ اللهِ تَعالَى ، فَأَوْقَفَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ غَيْرِ حِجابٍ ، فَإِذا ذاقَ ما فِيهِ أَهْلُ تِلْكَ الحَضْرَةِ زَهِدَ فِي نَعِيمِ الدَّارَيْنِ ، وهُناكَ ما قَدَّمَ عَلَى الوُقُوفِ بَيْنَ يَدَي اللهِ تَعالَى شَيْئًا أَبَداً ، وأَمَّا بِغَيْرِ شَيْخٍ فَلا يَعْرِفُ أَحَدٌ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ وَرَطاتِ الدُّنْيا ولَوْ كانَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالنُّقُولِ فِي سائِرِ العُلُومِ .

وقالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : فاسْلُكْ يا أَخِي عَلَى يَدِ شَيْخٍ يَقْطَعُ عَلائِقَكَ أَوْ يَقْلِبُها إِلَى خَيْرٍ ، وإِلَّا لازَمَتْكَ كَثْرَةُ القَواطِعِ حَتَّى تَمُوتَ ، وقَدْ عَجَزَ الأَكابِرُ فَضْلاً عَنْ مِثْلِكَ أَنْ يَعْرِفُوا طَرِيقَ قَطْعِ عَلائِقِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ شَيْخٍ فَلَمْ يَقْدِرُوا ، فَلا يَزالُ الشَّيْخُ يَأْمُرُكَ بِإِزالَةِ العَوائِقِ واحِداً بَعْدَ واحِدٍ حَتَّى لا يَبْقَى إِلَّا واحِدٌ ، فَيَقُولُ لَكَ أَزِلْهُ وها أَنْتَ وحَضْرَةُ رَبِّكَ .

وتَحْتاجُ يا أَخِي إِلَى طُولِ زَمانٍ وصَبْرٍ عَلَى مَأْمُوراتِ شَيْخِكَ ، وغالِبُ

النَّاسِ يَسْلُكُ الطَّرِيقَ ويَمَلُّ فَلا يَحْصُلُ مِنْ قَطْعِ العَلائِقِ عَلَى طائِل ؛

وإيضاحُ ذَلِكَ : أَنَّ طَرِيقَ السَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ طَرِيقُ غَيْبٍ ، والمُرِيدُ كالأَعْمَىٰ الَّذي يُرِيدُ أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقًا طُولَ عُمُرِهِ ما سَلَكَها ، والشَّيْخُ كالمُسافِرِ الَّذي سَلَكَها فِي نُورِ الشَّمْسِ زَمانًا طَوِيلًا فَعَرَفَ مَهالِكَها ، فَهُوَ بِتَقْدِيرِ أَنَّهُ يَعْمَى أَوْ يَسِيرُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَعْرِفُ المَهالِكَ أَوِ الطَّرِيقَ المَسْدُودَةَ كَدَلِيلِ الحاجِّ سَواء .

فَمَنْ سَلَّمَ لِشَيْخٍ وانْقادَ لَهُ قَطَعَ الطَّرِيقَ ونَجا مِنَ العَطَب ، ومَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِشَيْخٍ ما اسْتَطاعَ أَنْ يَمْشِيَ ورُبَّما يَقَعُ فِي مَهْلَكَةٍ لا يَعْرِفُ الخُرُوجَ مِنْها حَتَّى يَمُوتَ ، ولَوْلا أَنَّها طَرِيقُ غَيْبٍ لا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى سُلُوكِها ، ما كانَ لِلدُّعاةِ إِلَى اللهِ فائِدَةٌ مِنْ أَنْبِياءَ وأَوْلِياءَ وعُلَماءَ ، فَلا بُدَّ مِنْ مَزِيدِ خُصُوصِيَّة .

فَلا يَظُنَّ أَحَدٌ أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَ يُمْكِنُ قَطْعُها مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ فَتَنْقَطِعَ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ ، والَّذي يَقْضِي مِنْهُ العَجَبُ أَنَّ مَنْ طَلَبَ سُعْدَىٰ وسَلْمَىٰ لا يَصِلُ إِلَيْها مَعَ وُجُودِ الجِنْسِيَّةِ والقُرْبِ إِلَّا بِواسِطَةٍ يَهْدِيهِ ويُوصِلُهُ ، وهَذا الغافِلُ يَطْمَعُ أَنْ يَصِلَ إِلَى الحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ مَعَ ذَلِكَ البُعْدِ البَعِيدِ مِنْ غَيْرِ واسِطَةٍ ودَلِيل ، ما أَهْوَنَ أَمْرَ رَبِّكَ عَلَيْكَ يا غافِل .

ونَقَلَ القُشَيْرِي بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي عَلِيٍّ الثَّقَفِي أَنَّهُ قالَ : لَوْ أَنَّ رَجُلًا جَمَعَ العُلُومَ كُلَّها ، وصَحِبَ طَوائِفَ النَّاسِ ، لا يَبْلُغُ مَبْلَغَ الرِّجالِ إِلَّا بِالرِّياضَةِ مِنْ شَيْخٍ أَوْ إِمامٍ أَوْ مُؤَدِّبٍ ناصِحٍ .

وقَدْ ضَرَبَ السَّاحِلِيُّ فِي ((بُغْيَة السَّالِك)) مَثَلًا يُوضِّحُ أَنَّ مَنْ رَامَ الوُصُولَ إِلَى حَضْرَةِ اللهِ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِصْحابِ شَيْخٍ مُرْشِدٍ واصِلٍ مَأْذُونٍ لَهُ فِي الإِرْشادِ وارِثٍ كامِلٍ ، قَدْ رامَ المُحالَ ولَوْ جَمَعَ جَمِيعَ العُلُوم ، وصَحِبَ طَوائِفَ النَّاس ، فَقالَ :

إِنَّ مَلِكًا ضَخْمَ المَمْلَكَةِ عَظِيمَ الشَّأْنِ باهِرَ الصِّفاتِ جَمِيلَ الأَفْعالِ لَهُ حَضِيرَةٌ بَدِيعَةُ العَجائِبِ كَثِيرَةُ الأَعْلاقِ والذَّخائِرِ يَعْمُرُها مَن اصْطَفاهُ مِنْ عَبِيدِهِ لِنَفْسِهِ واخْتارَهُ لأَسْرارِهِ ، فَأَرادَ هَذا المَلِكُ أَنْ يَتَعَرَّفَ لِمَنْ فِي مَمْلَكَتِهِ وتَحْتَ إِيالَتِهِ مِنْ عَبِيدِهِ وأَصْنافِ رَعِيَّتِهِ لِيَقُومَ بِوَظائِفِ خِدْمَتِهِ فَيَنالُوا مِنْ نَوالِهِ وجَمالِهِ ، فَوَجَد لَهُمْ مِنْ خَواصِّ عَبِيدِهِ مَنْ عَرَّفَهُمْ بِهِ وقَرَّرَ لَدَيْهِمْ مِنْ أَوْصافِهِ وأَفْعالِهِ ما يُرَغِّبُ فِي خِدْمَتِهِ والتَّعَرُّضِ لِمَعْرِفَتِهِ ، وأَقامَ هَذا المَلِكُ مَبْنًى عَظِيمَ الهَيْئَةِ حَسَنَ المَوْضِعِ بَهِيَّ المَنْظَرِ جَمِيلَ الأَوْصافِ ، يَعْلَمُ جَمِيعُ مَنْ يَراهُ بِتَأَمُّلٍ وتَدَبُّرٍ بِما احْتَوَى عَلَيْهِ ذَلِكَ المَبْنَى مِنَ العَجائِبِ ما عَلَيْهِ مالِكُهُ مِنْ عَظِيمِ الشَّأْنِ وجَمِيلِ الصِّفاتِ ..

ومَهَّدَ مِنْ هَذا المَبْنَى طَرِيقًا سالِكَةً تُفْضِي إِلَى الحَضِيرَة ، ووَكَّلَ مِنْ خَواصِّ عَبِيدِهِ مَنْ يُعَرِّفُ هَذا الطَّرِيقَ وما احْتَوى عَلَيْهِ مِنْ مَناهِلَ ومَراحِلَ وعَقَباتٍ وقُطَّاعِ آفات لِيَدُلُّوا مَنْ أَرادَ الوُصُولَ إِلَى حَضْرَةِ المَلِكِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيق ، وجَعَلَ فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ بابًا يَشْرَعُ إِلَى رَوْضَةٍ مِنْ رَوْضاتِ المَلِكِ ، وكُلُّ رَوْضَةٍ تَحْتَوِي عَلَى صُنُوفٍ مِنَ العَجائِبِ مُعَدَّةٍ لِنُزُولِ المُسافِرِينَ عَلَى الطَّرِيقِ فِيها يَسْتَرِيحُونَ ويَتَنَزَّهُونَ ومِنْها يَتَزَوَّدُونَ إِلَى المَرْحَلَةِ الَّتِي يَقْدُمُ عَلَيْها المُسافِرُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَهُوَ يَجِدُ الزَّادَ مِنْ رِياضِ المَنْزِلِ الَّذِي يَتْلُوهُ ، والمَلِكُ مُشْرِفٌ فِي حَضْرَتِهِ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوالِ رَعِيَّتِهِ وعَبِيدِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ سَمِعَ تَعْرِيفَ أُولَئِكَ الخَواصِّ بِالمَلِكِ فَلَمْ يُعَرِّجْ عَلَيْهِمْ ولا قَبِلَ مِنْهُمْ ، اسْتِغْراقًا بِما هُمْ فِيهِ مِنَ العَمَلِ لأَنْفُسِهِمْ .

ومِنْهُمْ مَنْ سَمِعَ خِطابَهُمْ وعَقَلَ تَعْرِيفَهُمْ فَصَدَّقَهُمْ ثِقَةً بِأَمانَتِهِمْ ومَعْرِفَتِهِمْ ، ولَمْ يَنْظُرُوا فِيما وَراءَ ذَلِك .

ومِنْهُمْ مَنْ صَدَّقَهُمْ لَكِنْ نَظَرُوا فِي ذَلِكَ المَبْنَى الَّذِي عَلِمُوا أَنَّهُ مِلْكٌ لِلمَلِكِ وصُنْعُهُ ، وتَفَكَّروا فِيما احْتَوَى عَلَيْهِ مِنَ العَجائِبِ فَحَصَلَ لَهُمْ بِذَلِكَ زِيادَةُ يَقِينٍ ومَعْرِفَةٍ بِالمَلِكِ ، وما هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفاتِ الَّتِي

يَشْهَدُ لَها ذَلِكَ المَبْنَى ، ولَمْ يَنْظُروا فِيما وَراءَ ذَلِك .

ومِنْهُمْ ما حَصَلَ لَه ما عِنْدَ الفَرِيقَيْنِ بِالوَجْهَيْنِ المَذْكُورَيْنِ لَكِنْ حَمَلَهُ شَرَفُ الهِمَّةِ وقُوَّةُ العَزْمِ عَلَى أَنْ يَسْعَى كَيْ يُدْرِكَ الغايَةَ مِنْ مَعْرِفَةِ هَذا المَلِكِ ؛ فَسَأَلَ : هَلْ لَهُ إِلَى حَضْرَتِهِ مِنْ سَبِيل ؟ فَدُلَّ عَلَى ذَلِكَ الطَّرِيق ، فَتَعَلَّقَ بِدَلِيلٍ مِنْ أُولَئِكَ الخَواصِّ لِيَدُلَّهُ بِذَلِكَ الطَّرِيقِ عَلَى حَضْرَةِ المَلِكِ لِيَتَّصِلَ بِغايَةِ مَعْرِفَتِهِ فَيَنْتَظِمَ فِي سِلْكِ خَواصِّهِ وأَحْبابِهِ فِي حَضْرَتِهِ ، فَشَدَّ حِزامَهُ وجَمَعَ راحِلَتَهُ ورافَقَ ناسًا فِي السَّفَرِ إِلَى الحَضْرَةِ كُلُّهُمْ مُتَعَلِّقٌ بِهَذا الدَّلِيلِ الَّذي يَهْدِيهِمْ ، ثُمَّ ما لَبِثُوا أَنِ اخْتَلَفُوا ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ دَلِيلِهِ واسْتَبَدَّ بِنَظَرِهِ وخاضَ فِي السَّفَرِ بِرَأْيِهِ ، فَما هُوَ إِلَّا يَسِيرٌ حَتَّى عَرَضَ لَهُ أَسَدٌ أَوْ لِصٌّ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الآفاتِ أَوْ عُمِّيَ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ حَتَّى انْقَطَعَ بِهِ دُونَ الرِّفْقَةِ ، ونَهَضَ الباقُونَ مَعَ دَلِيلِهِمْ فَنَزَلُوا فِي المَرْحَلَةِ الأُولَى فِي رِياضِ المَلِكِ لِيَتَنَزَّهُوا ويَسْتَرِيحُوا ويَتَزَوَّدُوا ، ومِنْهُمْ مَنِ اشْتَغَلَ فِي تِلْكَ الرِّياضِ بِالنَّظَرِ فِي ظِلالِ مَبانِيهِ وأَشْجارِهِ عَنْ أَنْ يَنْظُرَ فِي عَجائِبِ تِلْكَ الرِّياضِ لِيَزْدادَ بِما يُشاهِدُهُ مِنْ عَجائِبِ تِلْكَ الرِّياضِ قُوَّةَ يَقِينٍ فِي مَعْرِفَةِ المَلِكِ فَتَخَلَّفَ فِيهِ .

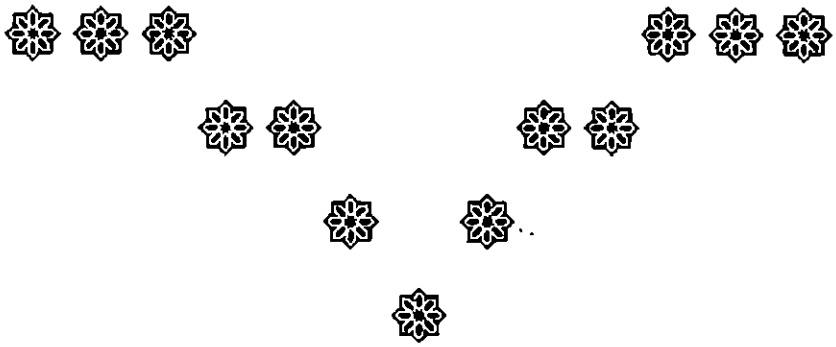
ومِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَشْتَغِلْ بِالنَّظَرِ فِي ظِلالِ مَبانِيهِ وأَشْجارِهِ ، ولَكِنَّهُ ازْدادَ بِما يُشاهِدُهُ فِي تِلْكَ الرِّياضِ شَوْقًا لِمَعْرِفَةِ المَلِكِ وحِرْصًا عَلَى لِقائِهِ ورَغْبَةً فِي الوُرُودِ عَلَى حَضْرَتِهِ ، وعَلِمَ أَنَّ الزَّادَ ضَرُورِيٌّ فِي بُلُوغِهِ الحَضِيرَةَ ، فَتَزَوَّدَ ولازَمَ الدَّلِيلَ ، فَلَمْ يَزَلِ المُسافِرُونَ يَتَخَلَّفُونَ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَ الدَّلِيلِ إِلَّا الأَنْجادُ الأَكْياسُ مِنَ الَّذِينَ حَصَلَ عِنْدَهُمْ بِما شاهَدُوهُ فِي رِياضِ كُلِّ مَنْزِلٍ قُوَّةُ اليَقِينِ فِي مَعْرِفَةِ المَلِكِ وشِدَّةُ الحِرْصِ عَلَى الانْتِظامِ فِي خُلَصائِهِ فِي حَضْرَتِهِ ، حَتَّى إِذا أَشْرَفَ عَلَى بابِ الحَضِيرَةِ أَطْرَقَ مَنْ وَصَفَ صِفاتِ المَلِكِ ما مَلَكَ قَلْبَهُ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ اصْطِباراً ولا آثَرَ عَنْهُ قَراراً ، فَجَدَّ فِي السَّيْرِ مُلازِمًا لِلدَّلِيلِ حَتَّى إِذا دَخَلَ الحَضْرَةَ واطَّلَعَ عَلَى عَجائِبِها وذَخائِرِها وأَبْصَرَ باهِرَ صِفاتِ المَلِكِ اسْتَغْرَقَ فِي حُبِّهِ لِما حَصَلَ لَهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ ، فَكُلَّما حَصَّلَ فِي الحَضْرَةِ انْتَظَمَ مَعَ خُلَصاءِ المَلِكِ فَهُوَ مَعَهُ لا يُفارِقُهُ مَدَى الأَحْيانِ .

ومِنْ شَأْنِ هَذا المَلِكِ أَنْ يَتَوَلَّى مَنْ تَوَلَّاهُ ويَعْطِفَ عَلَى مَنْ أَتاهُ ويَسْتَخْلِصَ مَنْ حَصَلَ فِي حَضْرَتِهِ حَتَّى لا تَكُونَ مِنْهُمْ حَرَكَةٌ ولا سَكَنَةٌ إِلَّا بِإِشارَتِهِ وإِمْدادِهِ ؛ فَعَنْهُ يَنْطِقُونَ وبِهِ يَتَحَرَّكُونَ ويَسْكُنُونَ وعَنْهُ يَصْدُرُونَ وإِلَيْهِ

يَرْجِعُونَ وعَلَيْهِ يَعْتَمِدُونَ :

فالمَلِكُ هُوَ اللّٰهُ تَعالَى (ولَهُ المَثَلُ الأَعْلَى) ، **والخَواصُّ** هُمُ الرُّسُلُ ووَرَثَتُهُمْ ، **والمَبْنَى** هُوَ هَذا الوُجُودُ ، **والطَّرِيقُ** هُوَ ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مَقاماتُ الدِّينِ ، **والأَدِلَّاءُ** هُمُ المَشايِخُ الرَّبَّانِيُّونَ ، **والمَراحِلُ** هِيَ مَنازِلُ المَقاماتِ ، **والرِّياضاتُ** هِيَ مَراتِبُ التَّوْحِيدِ الذَّوْقِي ، **والزَّادُ** هُوَ ما يَخْتَصُّ بِهِ كُلُّ مَنْزِلٍ مِنْ وَظائِفِ الأَعْمالِ ، **والطَّائِفَةُ الأُولَى** هُمْ أَهْلُ الخُسْرانِ والضَّلالِ ، **والطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ** هُمْ أَهْلُ التَّقْلِيدِ ، **والطَّائِفَةُ الثَّالِثَةُ** هُمْ أَهْلُ النَّظَرِ والاسْتِدْلالِ ، **والطَّائِفَةُ الرَّابِعَةُ** هُمُ السَّالِكُونَ إِلَى طَرِيقِ الأَذْواقِ ، ثُمَّ هُمْ أَصْنافٌ : فَصِنْفٌ عَدَلَ عَنْ رَأْيِ قُدْوَتِهِ وشَيْخِهِ اعْتِداداً بِنَظَرِ نَفْسِهِ فَأَحاطَتْ بِهِ عِلَّتُهُ فانْقَطَعَ بِها ، وصِنْفٌ اجْتَهَدَ حَتَّى إِذا بَلَغَ مَنْزِلًا مِنْ مَنازِلِ المَقاماتِ لَعِبَ بِهِ هَواهُ فَشَغَلَهُ بِبَعْضِ الأَوْهامِ عَنِ النُّفُوذِ إِلَى قُدَّامٍ ، وصِنْفٌ وهُمُ الأَقَلُّونَ (جَعَلَنَا اللّٰهُ مِنْهُمْ) كُلَّما بَلَغُوا مَنْزِلًا مِنْ مَنازِلِ المَقاماتِ واطَّلَعُوا عَلَى ما اخْتَصَّ بِهِ مِنْ مَراتِبِ الوُجُودِ قَوِيَ يَقِينُهُمْ واشْتَدَّ حِرْصُهُمْ وعَظُمَ عَزْمُهُمْ ، فَهُمْ مُنْتَهِضُونَ إِلَى قُدَّامٍ ، رَفَضُوا ما يَعْرِضُ لَهُمْ ويَقَعُ بِهِمْ مِنَ الأَوْهامِ .

والحَظِيرَةُ هِيَ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مَقامُ الإِحْسان ، وبابُها المُراقَبَةُ والمَوْضِعُ الَّذي أَشْرَفَ مِنْهُ عَلَى بَعْضِ الصِّفاتِ والطُّمَأْنِينَة ، والحاصِلُونَ فِي الحَظِيرَةِ هُمْ أَهْلُ المَعْرِفَةِ الظَّافِرُونَ بِأَعْلَى دَرَجاتِ التَّوْحِيد .



بَهْجَةُ رُوَّادِ التَّحْقِيق

إِعْلانُ انْتِسابِهِمْ للطَّرِيق

فالاعْتِقادُ فِي أَهْلِ اللهِ وتَصْدِيقُ ما يَبْرُزُ مِنْهُمْ مِنَ العُلُومِ والمَعارِفِ والتَّسْلِيمُ لَهُمْ ومَحَبَّتُهُمْ وِلايَة .

فَقَدْ تَيَقَّنَ أَنَّ الشَّخْصَ لا يُحِبُّ إِلَّا مَنْ جانَسَهُ ، ولا يَوُدُّ إِلَّا مَنْ كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ مُؤانَسَةٌ ، ولا يُصَدِّقُ بِقَلْبِهِ إِلَّا ما يَعْلَمُ صِحَّتَهُ ، ولا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِالذَّوْقِ مِمَّا ذاقَهُ ، أَوْ بِالإِيمانِ بِهِ ، قالَ تَعالَى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ، وفِي ((عَرائِس البَيان)) : ﴿أَعْطَىٰ﴾ : أَيْ بَذَلَ جُهْدَهُ مِنَ الكَوْنَيْنِ وتَبَرَّأَ مِنَ الدَّارَيْنِ لِمُشاهَدَةِ اللهِ ووِصالِهِ ، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ : مِنْ رُؤْيَةِ الإِعْراضِ ومُعارَضَةِ النَّفْسِ والنَّظَرِ إِلَى غَيْرِ اللهِ ، ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ : بِكَشْفِ جَمالِهِ وجَلالِهِ للعارِفِينَ وقُرْبِهِ مِنَ المُوَحِّدِينَ ويَرَى ما أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي الأَزَلِ بِوُصُولِهِ إِلَيْهِ ولا يَجْرِي عَلَى قَلْبِهِ خاطِرُ الشَّكِّ أَصْلًا ، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ : نُسَهِّلُ لَهُ طَرِيقَ الوُصُولِ إِلَيْهِ ونَرْفَعُ عَنْهُ الكُلْفَةَ والتَّعَبَ فِي العُبُودِيَّة .

رَوَى الإِمامُ البُخارِيُّ بِسَنَدِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ فِيما يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ

عَزَّ وجَلَّ : (مَنْ عادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْب) ؛ وقالَ أَهْلُ الحَقِّ العارِفُونَ بِاللهِ : وفِي طَيِّهِ مَنْ وَالَىٰ لِي وَلِيًّا لأَجْلِ أَنَّهُ وَلِيٌّ ، اصْطَفَيْتُهُ واتَّخَذْتُهُ وَلِيًّا .

وفِي شَرْح قَصِيدَةِ الشَّيْخ أَبِي مَدْيَنَ الغَوْث ؛ عِنْدَ قَوْلِهِمْ : هُمْ أَهْلُ وُدِّي وأَحْبابِي : فَإِنَّ الشَّخْصَ لا يُحِبُّ إِلَّا مَنْ يُجانِسُهُ ، ولا يَوُدُّ إِلَّا مَنْ كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ مُؤانَسَةٌ .

وفِي «إِتْحاف الزَّكِيِّ بِشَرْحِ التُّحْفَةِ المُرْسَلَةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ» : أَقَلُّ دَرَجاتِ العاقِلِ اللَّبِيبِ النَّاصِحِ نَفْسَهُ أَنْ لا يُكَذِّبَ بِما يَبْلُغُهُ مِنْ عُلُومِ الأَسْرارِ البارِزَةِ مِنْ أَهْلِ اللهِ الأَتْقِياءِ الأَبْرار ، فَإِنَّهُمْ لا يَأْتُونَ بِما هُوَ خارِجٌ عَنِ الشَّرِيعَةِ المُطَهَّرَةِ ، وكَيْفَ يَكُونُ خارِجًا عَنْها وهُوَ مِنْ نَتائِجِ الاتِّباعِ الكامِلِ ، وإِنَّما يَأْتُونَ بِأَسْرارٍ وحِكَمٍ مِنْ أَسْرارِ الشَّرِيعَةِ مِمَّا هُوَ خارِجٌ عَنْ قُوَّةِ الفِكْرِ والكَسْبِ ، لا تُنالُ إِلَّا بِالمُشاهَدَةِ أَوِ الإِلْهامِ السَّالِمِ مِنَ الاحْتِمالاتِ أَوْ نَحْوِ ذَلِك .

(فالعاقِلُ اللَّبِيبُ إِنْ لَمْ يُصَدِّقْ فَلا أَقَلَّ مِنْ أَنْ لا يُكَذِّبَ أَيْضًا ، بَلْ يَضَعُهُ فِي بُقْعَةِ الإِمْكان ، وأَقَلُّ دَرَجَةِ الطَّالِبِ لِهَذا العِلْمِ الشَّرِيفِ الاحْتِياطِي أَنْ يُصَدِّقَ بِأَنَّ ما يَتَحَقَّقُ بِهِ أَهْلُ طَرِيقِ اللهِ المُتَّبِعُونَ

اتِّباعًا كامِلاً فِي الظَّاهِرِ والباطِنِ حَقٌّ وإنْ لَمْ يَذُقْهُ ، وإذا وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ التَّصْدِيقَ الجازِمَ بِذَلِكَ كانَ مِنْهُمْ فِي مَشْرَبٍ مِنْ مَشارِبِهِمْ وكانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، ولا بُدَّ بِتِلْكَ البَيِّنَةِ يُصَدِّقُهُمْ ويُوافِقُهُمْ وإنْ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ : كَذا قالَهُ الشَّيْخُ الأَكْبَر ابنُ عَرَبِي الحاتِمِي فِي البابِ الثَّامِنِ والثَّمانِينَ والمِائَتَيْنِ مِنْ فُتُوحاتِهِ المَكِّيَّة .

وقالَ تِلْمِيذُهُ الصَّدْرُ القُونَوِي فِي «إعْجاز البَيان» : المُؤَهَّلُونَ للانْتِفاعِ بِنَتائِجِ الأَذْواقِ الصَّحِيحَةِ وعُلُومِ المُكاشَفاتِ الصَّرِيحَةِ هُمُ المُحِبُّونَ للمُحِقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ اللهِ وخاصَّتِهِ والمُؤْمِنُونَ بِهِمْ وبِأَحْوالِهِمْ مِنْ أَهْلِ القُلُوبِ المُنَوَّرَةِ والفِكْرَةِ السَّلِيمَةِ والعُقُولِ الوافِرَةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَداةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ويَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ بِصَفاءِ الطَّوِيَّةِ وحُسْنِ إصْغاءٍ بَعْدَ تَطَهُّرِهِمْ مِنْ صِفَتِي الجِدالِ والنِّزاعِ ونَحْوِهِما مُتَعَرِّضِينَ لِنَفَحاتِ جُودِ الحَقِّ مُراقِبِينَ لَهُ مُنْتَظِرِينَ ما يَبْرُزُ لَهُمْ مِنْ جَنابِهِ العَزِيزِ عَلَى يَدِ مَنْ وَصَلَ مِنْ أَيِّ رُتْبَةٍ مِنْ مَراتِبِ أَسْمائِهِ ، ووَرَدَ بِواسِطَةٍ مَعْلُومَةٍ وبِدُونِها ، مُتَلَقِّينَ بِحُسْنِ الأَدَبِ وازِنِينَ لَهُ بِمِيزانِ رَبِّهِمْ لا بِمَوازِينِ عُقُولِهِمْ ؛ فَمِثْلُ هَذا المُؤْمِنِ الصَّحِيحِ الإيمانِ والفِطْرَةِ الصَّافِي المَحَلِّ يَشْعُرُ بِصِحَّةِ ما يَسْمَعُ مِنْ وَراءِ سِتْرٍ رَقِيقٍ اقْتَضاهُ

حُكْمُ الطَّبْعِ وبَقِيَّةُ الشَّواغِلِ والعَوائِقِ المُسْتَجِمَّةِ فِي المَحَلِّ والعائِقَةِ لَهُ عَنْ كَمالِ الاسْتِجْلاءِ عَنِ الشُّعُورِ المَذْكُورِ ، فَهُوَ مُسْتَعِدٌّ للكَشْفِ مُؤَهَّلٌ للتَّلَقِّي مُنْتَفِعٌ بِما يَسْمَعُ مُرْتَقٍ بِنُورِ الإيمانِ إلَى مَقامِ العَيانِ .

وقالَ أَيْضًا : **المِيزانُ العامُّ** هُوَ المَفْهُومُ الأَوَّلُ مِنْ ظاهِرِ الإخْباراتِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الكِتابِ العَزِيزِ والسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، **والمِيزانُ الخاصُّ** ما يَتَحَقَّقُ مِنَ الكَشْفِ المُحَقَّقِ بِالشُّهُودِ والتَّعْرِيفِ الإلَهِيِّ والإلْهامِ التَّامِّ السَّالِمِ مِنْ كُلِّ احْتِمالٍ ، وَالمُدْرَكُ أَيْضًا مِنَ الأَسْرارِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ باطِنِ الكِتابِ والسُّنَّةِ وهُوَ البَطْنُ المُشارُ إلَيْهِ وفَوْقَهُ الحَدُّ والمَطْلَعُ والكُلُّ مِنْ قِسْمِ الباطِنِ .

وقالَ الشَّيْخُ الأَكْبَرُ الحاتِمِيُّ قُدِّسَ سِرُّهُ فِي البابِ الثَّامِنِ والثَّمانِينَ والمِائَتَيْنِ مِنْ فُتُوحاتِهِ : ((ولا يُسَلِّمُ لِصاحِبِ العِلْمِ الَّذِي هُوَ صاحِبُ العِلْمِ الشَّرِيفِ الإحاطِي أَخْذَ طَرِيقِهِ إلَّا مَنْ ذاقَ ما ذاقُوهُ وآمَنَ بِهِ)) .

كَما قالَ سَيِّدِي أَبو يَزِيدَ البِسْطامِي رضي الله عنه : ((إذا رَأَيْتُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِكَلامِ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ويُسَلِّمُ لَهُمْ ما يَتَحَقَّقُونَ بِهِ ، فَقُولُوا لَهُ يَدْعُو لَكُمْ فَإِنَّهُ مُجابُ الدَّعْوَةِ)) .

ومِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَرْءَ لا يُحِبُّ إلَّا مَنْ يُجانِسُهُ ، ولا يَوُدُّ إلَّا مَنْ كانَ

بَيْنَهُ وبَيْنَهُ مُؤانَسَةٌ ، ولا يُصَدِّقُ بِقَلْبِهِ إلَّا ما يَعْلَمُ صِحَّتَهُ ، ولا يَكُونُ ذَلِكَ إلَّا بِالرِّزْقِ : قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ (١) :

وفِي تَفْسِيرِ (ابن عَطِيَّة) : سَبَبُ الأُلْفَةِ : التَّشابُه ، فَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ أَلِفَ أَشْباهَهُ .

وفِي ((عَرائِسِ البَيان)) : أَلَّفَ بَيْنَ الأَشْكالِ بِالتَّجانُسِ والاسْتِئْناسِ لأَنَّها مِنْ مَصْدَرِ فِطْرَةِ قَوْلِهِ : (خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) ، وأَلَّفَ بَيْنَ الأَرْواحِ بِالتَّجانُسِ والاسْتِئْناسِ مِنْ جِهَةِ الفِطْرَةِ الخاصَّةِ مِنْ قَوْلِهِ : (ونَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) ، وأَلَّفَ بَيْنَ القُلُوبِ بِمُعايَنَةِ الصِّفَةِ لَها بِإِشارَةِ قَوْلِهِ ﷺ : (القُلُوبُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصابِعِ الرَّحْمٰن) ، وأَلَّفَ بَيْنَ العُقُولِ بِتَجانُسِها مِنْ أَصْلِ فِطْرَتِها الَّتِي قِيلَ فِيها : العَقْلُ أَوَّلُ ما صَدَرَ مِنَ البارِي ، وذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ : (أَوَّلُ ما خَلَقَ اللّٰهُ العَقْلَ) انْصَرَفَ مِنْهُ مَصْدَرُ الزِّينَة ، وأَلَّفَ بَيْنَ الأَسْرارِ بِمُطالَعَةِ الأَنْوارِ واتِّصالِ الأَنْوارِ بِها مِنَ الغَيْبِ ، قِيلَ : أَيْ يُشاهِدُونَ أَنْوارَ الغُيُوبِ بِمُوافَقَةِ الأَشْباحِ مِنْ حَيْثُ تَجانُسُ مَقاماتِها فِي

---

(١) سُورَةُ الأَنْفال : مِنَ الآيَتان ٦٢،٦٣ .

الطَّاعاتِ ورُؤْيَةِ الآياتِ والظَّفَرِ بالكَراماتِ ، **ومُوافَقَةِ الأَرْواحِ** بائْتِلافِها ومُجانَسَةِ مَقاماتِها فِي المُشاهَداتِ وسُلُوكِها فِي مَسالِكِ المُراقَباتِ والمُحاضَراتِ ، **ومُوافَقَةِ القُلُوبِ** مِنْ تَجانُسِ سَيْرِها فِي الصِّفاتِ فَمَنْ شاهَدَ القُدْرَةَ يَأْتَلِفُ بِمَنْ شاهَدَ مَقامَهُ فِي القُدْرَةِ وكَذَلِكَ مَقامُ رُؤْيَةِ جَمِيعِ الصِّفاتِ لأَنَّ سَيْرَها فِي أَنْوارِ الصِّفاتِ ، **ومُوافَقَةِ العُقُولِ** مِنْ تَجانُسِ إِدْراكِها أَنْوارَ الأَفْعالِ وإِدْراكِها حِكْمَةَ التَّشْرِيعاتِ مِنْ أُصُولِ الآياتِ وتَدَبُّرِها وتَذَكُّرِها فِيهِ بِأَنوارِ الهِداياتِ ، **ومُوافَقَةِ الأَسْرارِ** مِنْ تَجانُسِ مَشارِبِها مِنْ مُشاهَدَةِ القِدَمِ ومُطالَعَةِ الأَبَدِ .

وكُلُّ سِرٍّ يَرِدُ مِنْ مَشْرَبِ المَعْرِفَةِ أَوِ المَحَبَّةِ أَوِ الشَّوْقِ أَوِ التَّوْحِيدِ أَوِ الفَناءِ أَوِ البَقاءِ أَوِ السُّكْرِ أَوِ الصَّحْوِ يَسْتَأْنِسُ بِمَنْ يَكُونُ شُرْبُهُ مِنْ مَقامِهِ مِنَ الأَسْرارِ ؛ فَسُبْحانَ الَّذِي أَلَّفَ بَيْنَ كُلِّ جِنْسٍ مَعَ جِنْسِهِ رَحْمَةً مِنْهُ وتَلَطُّفًا ، قالَ ﷺ فِي بَيانِ ما شَرَحْنا مِن ائْتِلافِ هَذِهِ المُؤَلَّفاتِ واسْتِئْناسِ هَذِهِ المُسْتَأْنَساتِ فِي مَقامِ القُرُباتِ : (الأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَما تَعارَفَ مِنْها ائْتَلَفَ وما تَناكَرَ مِنْها اخْتَلَفَ) .

فائْتِلافُ المُرِيدِينَ بِالإِرادَةِ ، وائْتِلافُ المُحِبِّينَ بِالمَحَبَّةِ ، وائْتِلافُ العاشِقِينَ بِالعِشْقِ ، وائْتِلافُ المُسْتَأْنِسِينَ بِالأُنْسِ ، وائْتِلافُ العارِفِينَ

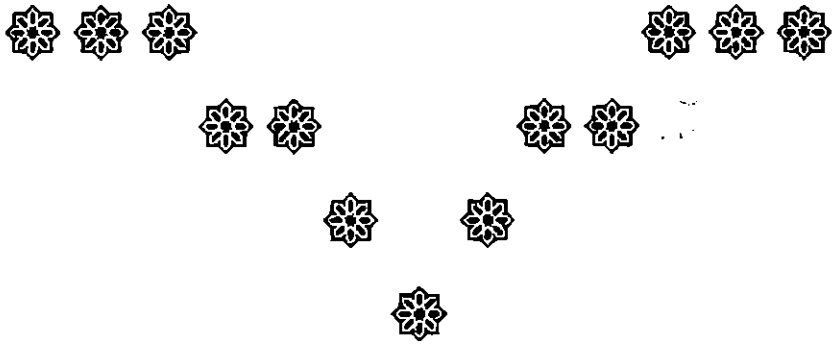
بِالمَعْرِفَةِ ، وائْتِلافُ المُوَحِّدِينَ بِالتَّوْحِيدِ ، وائْتِلافُ الكاشِفِينَ بِالكَشْفِ ، وائْتِلافُ المُشاهِدِينَ بِالمُشاهَدَةِ ، وائْتِلافُ المُخاطَبِينَ بِسَماعِ الخِطابِ ، وائْتِلافُ الواجِدِينَ بِالوَجْدِ ، وائْتِلافُ المُتَفَرِّسِينَ بِالفِراسَةِ ، وائْتِلافُ المُتَعَبِّدِينَ بِالعُبُودِيَّةِ ، وائْتِلافُ الأَوْلِياءِ بِالوِلايَةِ ، وائْتِلافُ الأَنْبِياءِ بِالنُّبُوَّةِ ، وائْتِلافُ المُرْسَلِينَ بِالرِّسالَةِ ، فَكُلُّ جِنْسٍ يَسْتَأْنِسُ بِجِنْسِهِ ويَلْحَقُ بِمَنْ يَلِيهِ فِي مَقامِهِ .

قالَ بَعْضُهُمْ : أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِ المُرْسَلِينَ بِالرِّسالَةِ ، وقُلُوبِ الأَنْبِياءِ بِالنُّبُوَّةِ ، وقُلُوبِ الصِّدِّيقِينَ بِالصِّدْقِ ، وقُلُوبِ الشُّهَداءِ بِالمُشاهَدَةِ ، وقُلُوبِ الصَّالِحِينَ بِالخِدْمَةِ ، وقُلُوبِ عامَّةِ المُؤْمِنِينَ بِالهِدايَةِ ؛ فَجَعَلَ المُرْسَلِينَ رَحْمَةً عَلَى الأَنْبِياءِ ، وجَعَلَ الأَنْبِياءَ رَحْمَةً عَلَى الصِّدِّيقِينَ ، وجَعَلَ الصِّدِّيقِينَ رَحْمَةً عَلَى الشُّهَداءِ ، وجَعَلَ الشُّهَداءَ رَحْمَةً عَلَى الصَّالِحِينَ ، وجَعَلَ الصَّالِحِينَ رَحْمَةً عَلَى عامَّةِ المُؤْمِنِينَ ، وجَعَلَ المُؤْمِنِينَ رَحْمَةً عَلَى الكافِرِينَ .

قالَ أَبو سَعِيدٍ الخَرَّاز : ((أَلَّفَ بَيْنَ الأَشْكالِ وغايَرَ الرُّسُومَ لِمَقامٍ آخَرَ ؛ فَكُلٌّ مَرْبُوطٌ بِجِنْسِهِ ومُسْتَأْنِسٌ بِأَهْلِ نِحْلَتِهِ ، وهَذا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : (الأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَما تَعارَفَ مِنْها ائْتَلَفَ)) .

وإذا فَهِمْتَ جَمِيعَ ما تَقَدَّمَ وأَعْطَيْتَهُ مِنَ التَّأَمُّلِ حَقَّهُ عَلِمْتَ عِلْمًا قَطْعِيًّا يَحْصُلُ لَكَ بِهِ عِلْمُ مَعْنَى قَوْلِ الشَّيْخ زَرُّوق : ((الاعْتِقادُ أَصْلٌ فِي كُلِّ خَيْرٍ)) ، وقَوْلِ القُشَيْرِي : ((الاعْتِقادُ وِلايَة)) ، وكَذا غَيْرِهِما مِنَ السَّاداتِ رضي الله عنهم ، وهَذا ظاهِرٌ جَلِيٌّ لِكُلِّ مُوَفَّقٍ ، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (١).

واللهُ تَعالَى المُوَفِّقُ بِمَنِّهِ للصَّواب ، وإِلَيْهِ سُبْحانَهُ المَرْجِعُ والمَآب .



(١) سُورَةُ النُّور : مِنَ الآيَة ٤٠ .

فِقْهُ النُّفُوس

وإصْلاحُها لِحَضْرَةِ المَلِكَ القُدُّوس

قالَ سَيِّدِي أَبو السُّعُودِ بنُ أَبي العَشائِر - قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ[1] - : الأَخْلاقُ الشَّرِيفَةُ كُلُّها تَنْشَأُ مِنَ القُلُوب ، والأَخْلاقُ الذَّمِيمَةُ تَنْشَأُ مِنَ النُّفُوس ؛ فالصَّادِقُ فِي الطَّلَبِ يُسْرِعُ فِي رِياضَةِ نَفْسِهِ وطَهارَةِ قَلْبِهِ ، حَتَّى تَتَبَدَّلَ أَخْلاقُهُ ، فَيَتَبَدَّلَ الشَّكُّ بِالتَّصْدِيق ، والشِّرْكُ بِالتَّوْحِيد ، والمُنازَعَةُ بِالتَّسْلِيم ، والسُّخْطُ والاعْتِراضُ بِالرِّضا والتَّفْويض ، والغَفْلَةُ بِالمُراقَبَة ، والتَّفْرِقَةُ بِالجَمْعِيَّة ، والغِلْظَةُ بِاللِّين واللُّطْف ، ورُؤْيَةُ عُيُوبِ النَّاسِ بِالغَضِّ عَنْها ورُؤْيَةِ المَحاسِن ، والقَسْوَةُ بِالرَّحْمَة ، والغِلُّ والحِقْدُ بِالنَّصِيحَة ، والإِدْلالُ بِالخَوْفِ وخَوْفِ التَّحْويل ، ويَرَى أَنَّهُ ما وَفَّى اللهَ فِي ساعَةٍ مِنَ السَّاعات ، ولا قامَ بِشُكْرِ ما أَعْطاهُ مِنْ فِعْلِ الخَيْرات ، وحِينَئِذٍ تَتَحَقَّقُ عُبُودِيَّتُهُ ، ويَصْفُو تَوْحِيدُهُ ، ويَطِيبُ عَيْشُهُ ، ويَعِيشُ مَعَ اللهِ عَيْشَ أَهْلِ الجِنانِ فِي الجِنانِ ، وهَذِهِ أَخْلاقُ الأَنْبِياءِ الصِّدِّيقِينَ والأَوْلِياءِ الصَّالِحِينَ والعُلَماءِ العامِلِينَ .

وقالَ أَيْضًا : ما دامَتِ النَّفْسُ باقِيَةً بِأَخْلاقِها وصِفاتِها فَحَرَكاتُ العَبْدِ

---

(١) العَرائِسُ القُدْسِيَّةُ المُفْصِحَةُ عَنِ الدَّسائِسِ النَّفْسِيَّة : سَيِّدي مُصْطَفى بنُ كَمال البَكْري الصِّدِّيقي ، تحقيق : أَحْمَد فريد المَزيدي ، ناصِر صابِر الزَّيَّات ، د. مُحَمَّد عَبد القادِر نَصَّار .

كُلُّها مُتابِعَةٌ لِخَواطِرِها ؛ وهِيَ شَيْئان : إمَّا لِلْخَلْقِ وذَلِكَ شِرْكٌ ، أَوْ لِراحَةِ النَّفْسِ وذَلِكَ هَوًى ؛ فالشِّرْكُ لا يَتْرُكُ التَّوْحِيدَ يَصْفُو ، والهَوَى لا يَتْرُكُ العُبُودِيَّةَ تَصْفُو ، وما لَمْ يَشْتَغِلْ هَذا السَّالِكُ بِإضْعافِ هَذا العَدُوِّ الَّذي بَيْنَ جَنْبَيْهِ لا يَصِحُّ لَهُ قَدَمٌ ولَوْ أَتَى بِأَعْمالٍ تَسُدُّ الخافِقَيْن ، والرَّجُلُ كُلُّ الرَّجُلِ مَنْ داوَى الأَمْراضَ مِنْ خارِجٍ ، وشَرَعَ فِي قَلْعِ أُصُولِها مِنَ الباطِن ، حَتَّى يَصْفُوَ وَقْتُهُ ، ويَطِيبَ ذِكْرُهُ ، ويَدُومَ أُنْسُهُ .

وكانَ يَقُولُ : يَجِبُ عَلَى السَّالِكِ إذا رَأَى مِنْ نَفْسِهِ خُلُقًا سَيِّئًا مِنْ كِبْرٍ أَوْ شِرْكٍ أَوْ بُخْلٍ أَوْ سُوءِ ظَنٍّ بِأَحَدٍ أَنْ يُدْخِلَ نَفْسَهُ فِي ضِدِّ ما دَعَتْ إلَيْهِ ، ثُمَّ يُقْبِلُ عَلَى ذِكْرِ اللّه ، ويَسْتَنْجِدُ بِحَوْلِهِ وقُوَّتِهِ ومُجاهَداتِه ، فَتَضْعُفَ أَخْلاقُ نَفْسِهِ ، ويَكْثُرَ نُورُ قَلْبِهِ ؛ فَيُنْزِلُ الحَقُّ ذَرَّةً مِنْ مَحَبَّتِهِ فِي قَلْبِهِ ، فَتَتْرُكُ الأَشْياءَ بِلا مُكابَدَةٍ ، وتَقْطَعُ كُلَّ مَأْلُوفٍ بِلا مُجاهَدَةٍ .

وكانَ يَقُولُ : الأُصُولُ الَّتي يَبْنِي المُرِيدُ عَلَيْها أَمْرَهُ أَرْبَعَةٌ : اشْتِغالُ اللِّسانِ مَعَ حُضُورِ القَلْبِ بِذِكْرِهِ ، وجَبْرُ القَلْبِ عَلَى مُراقَبَتِهِ ، ومُخالَفَةُ النَّفْسِ والهَوَى مِنْ أَجْلِهِ ، وتَصْفِيَةُ اللُّقْمَةِ لِعُبُودِيَّتِهِ (وهِيَ القُطْبُ) ، وبِها تَزْكُو الجَوارِحُ ويَصْفُو القَلْبُ ، فَيُعْطِي النَّفْسَ حَظَّها ، وهِيَ مَطِيَّتُهُ الَّتي يَسِيرُ عَلَيْها ، فَظُلْمُها كَظُلْمِ الغَيْرِ بَلْ هُوَ أَشَدُّ .

ثُمَّ قالَ : والإكْسِيرُ الَّذي يَقْلِبُ الأَعْيانَ ذَهَبًا خالِصًا هُوَ الإكْثارُ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الإخْلاص .

وكانَ يَقُولُ : يَجِبُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يُدْخِلَ نَفْسَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَغُمُّها ويَسُوءُها ؛ حَتَّى تَرْجِعَ مَطِيَّةً لَهُ ؛ فَإِنَّها هِيَ العَقَبَةُ الَّتي تَعَبَّدَ اللّهُ الخَلْقَ باقْتِحامِها ، وهِيَ حِجابُ العَبْدِ عَنْ مَوْلاه ، وما دامَتْ لَها حَرَكَةٌ لا يَصْفُو الوَقْتُ ، وما دامَ لَها خاطِرٌ لا يَصْفُو الذِّكْرُ ، وبَقاءُ النَّفْسِ هُوَ الَّذي صَعَّبَ عَلَى العُلَماءِ الإخْلاصَ فِي تَعْلِيمِهِمْ ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ إذا اسْتَوْلَتْ عَلَى القُلُوبِ أَسَرَتْها وصارَتِ الولايَةُ لَها ؛ فَإِنْ تَحَرَّكَتْ تَحَرَّكَ القَلْبُ ، وإنْ سَكَنَتْ سَكَنَ القَلْبُ مِنْ أَجْلِها ، وحُبُّ الدُّنْيا والرِّئاسَةِ لا يَخْرُجُ قَطُّ مِنْ قَلْبِ العَبْدِ مَعَ وجُودِها فَكَيْفَ يَدَّعِي العاقِلُ حالًا بَيْنَهُ وبَيْنَ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ مَعَ اسْتِيلائِها ؟! أَمْ كَيْفَ يَصِحُّ لِعابِدٍ أَنْ يُخْلِصَ فِي عِبادَتِهِ وهُوَ غَيْرُ عالِمٍ بِآفاتِها ؟! فَإِنَّ الهَوَى زَوْجُها ، والشَّيْطانَ خادِمُها ، والشِّرْكَ مَرْكُوزٌ فِي طَبْعِها ، ومُنازَعَةَ الحَقِّ والاعْتِراضَ عَلَيْهِ مَجْبُولٌ فِي خِلْقَتِها ، وسُوءَ الظَّنِّ وما يَقْبُحُ مِنَ الكِبْرِ والدَّعْوَى وقِلَّةِ الاحْتِرامِ شِيمَتُها ، ومَحَبَّةَ الصِّيتِ والاشْتِهارِ رَحَباتُها ، ويُكْثِرُ تَعْدادَ آفاتِها ، وهِيَ الَّتي تُحِبُّ أَنْ تُعْبَدَ كَما يُعْبَدُ مَوْلاها ، وتُعَظَّمَ كَما يُعَظَّمُ مَوْلاها ، فَكَيْفَ

يَقْتَرِبُ عَبْدٌ مِنْ مَوْلاهُ مَعَ بَقائِها ومُصالَحَتِها ؟ ومَنْ أَشْفَقَ عَلَيْها لا يُفْلِحُ أَبَداً ؛ فَيَجِبُ عَلَى الصَّادِقِ أَنَّ كُلَّ ماتَمْقَتُهُ النُّفُوسُ يُعانِقُهُ ، وكُلَّ ما تَمِيلُ إِلَيْهِ يُفارِقُهُ ، ويَقْبَلَ مِنَ الذَّامِّينَ ذَمَّهُمْ ، ويَقُولَ للمادِحِينَ : ما مَدَحْتُمُوهُ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ، ويَقُولَ لِنَفْسِهِ فِي كُلِّ نَفَسٍ : لا قَرَّبَ اللّهُ مُرادَكِ ، وأَبْعَدَ اللّهُ مَرامَكِ ، فَنَعُوذُ بِاللّهِ مِنْ أَرْضٍ تَنْبُتُ فِيها نَزاهَةُ النُّفُوس ؛ فَإِنَّ مَنْ لَمَحَ نَزاهَتَها أَوْ رَأَى لَها قَدْراً أَوْ عَرَفَ أَنَّ فِي الوُجُودِ أَخَسَّ مِنْ نَفْسِهِ فَما عَرَفَ نَفْسَهُ ، فَكَيْفَ يُنَزِّهُها أَوْ يَغْضَبُ لَها أَوْ يُؤْذِي مُسْلِمًا لأَجْلِها ؟ فَيَجِبُ اجْتِنابُها كالسُّمِّ ، وما دامَتْ فِي وَجْهِ القَلْبِ لا يَصِلُ إِلَى القَلْبِ خَيْرٌ ؛ لأَنَّها تُرْسٌ[1] فِي وَجْهِهِ ، وكُلَّما قَوِيَتْ عَلَى القَلْبِ زادَ شَرُّهُ ونَقَصَ خَيْرُهُ ، وما بَقِيَ مِنْها بَقِيَّةٌ ؛ فالشَّيْطانُ لا يَنْعَزِلُ عَنْها ، والخَواطِرُ المَذْمُومَةُ لا تَنْقَطِعُ .

وكانَ يَقُولُ : يَجِبُ عَلَى السَّالِكِ أَلَّا يَشْتَغِلَ بِالكُلِّيَّةِ بِمُقاوَمَةِ نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّ مَنِ اشْتَغَلَ بِمُقاوَمَتِها أَوْقَفَتْهُ ، كَما أَنَّ مَنْ أَهْمَلَها رَكِبَتْهُ ، بَلْ يَخْدَعُها بِأَنْ يُعْطِيَها راحَةً دُونَ راحَةٍ ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ ، ومَنْ قاوَمَها

---

(١) التُّرْسُ : ما يُتَوَقَّى بِهِ فِي الحَرْب ؛ والمَعْنَى أَنَّ النَّفْسَ تَمْنَعُ وُصُولَ الخَيْرِ للقَلْبِ . وفِي قَوْلِهِ : وَجْهُ القَلْبِ : اسْتِعارَة تَشْخِيصِيَّة .

وصارَ خَصْمَها شَغَلَتْهُ ، ومَنْ أَخَذَها بِالخِداعِ ولَمْ يُتابِعْ هَواهُ تَبِعَتْهُ .

وكانَ يَقُولُ : إذا أَلْبَسَتِ النَّفْسُ عَلَى مُرِيدٍ حالَها وادَّعَتِ التَّرْكَ للدُّنْيا وأَنَّ عِلْمَها وعَمَلَها وتَعْلِيمَها خالِصٌ للّهِ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَزِنَها بِالمِيزانِ الَّذي لا يَخْرِمُ والمِعْيارِ الَّذي لا يَظْلِمُ ، وهُوَ أَنْ يُصَوِّرَ ذَمَّها بَعْدَ مَدْحِها ، ورَدَّها بَعْدَ قَبُولِها ، والإِعْراضَ عَنْها بَعْدَ الإِقْبالِ عَلَيْها ، وذُلَّها بَعْدَ عَزِّها ، وإِهانَتَها بَعْدَ إِكْرامِها ، فَإِنْ وَجَدَ عِنْدَها التَّغْيِيرَ والانْقِباضَ فَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ بَقِيَّةٌ يَجِبُ عَلَيْهِ مُجاهَدَتُها ، ولا يَجُوزُ لَهُ الاسْتِرْسالُ مَعَها ، ولْيَعْلَمْ حِينَ التَّغْيِيرِ أَنَّهُ واقِفٌ مَعَ نَفْسِهِ ، عابِدٌ لَها ، مُعِينٌ عَلَى حُصُولِ آفاتِها ، وصاحِبُ هَذا الحالِ بَعِيدٌ مِنَ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ .

وكانَ يَقُولُ : إِنَّ المُرِيدَ مَتَى تَرَكَ مُجاهَدَةَ نَفْسِهِ ولَمْ يُحْزِنْها تَوَثَّبَتْ أَخْلاقُها ، وعَجَزَ عَنِ الخُرُوجِ عَنْها ، وكانَ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْنِي عَلَى ذَلِكَ الأَساسِ ، ويُشَيِّدُهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ حَتَّى يَمُوتَ بِدائِهِ وحَسْرَتِهِ ؛ فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ شَيَّدَ لِنَفْسِهِ الجاهَ والصِّيتَ فَأَمْكَنَهُ الخُرُوجَ عَنْهُ ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِرَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ ، ويُنَكِّسَ رَأْسَهُ ، ويَعْتَذِرَ إِلَيْهِ ، ويَسْكُتَ عَنْ كُلِّ دَعْوَى .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : كُلُّ مَنْ بَقِيَ لَهُ عَدُوٌّ ويَخافُ أَنْ يَشْمَتَ بِهِ فَإِنَّما هُوَ لِبَقاءِ نَفْسِهِ ولِبَقاءِ حُبِّ الدُّنْيا فِي قَلْبِهِ .

فَتَأَمَّلْ عِباراتِ هَذا الإمام ، فَإِنَّها تَشْفِي الأَوام[1] وتَمَسُّكَ مِنْ طِيبِها الفائِحِ المُنْعِشِ المُشْفِي للمَرِيض ؛ فَإِنَّها تُعَرِّفُكَ أَنَّ أَشْكاكَها وَخِيمَة ، وجَمِيعَ أَشْكالِها عَقِيمَة ، وتَنْسِفُ رِياحُها جِبالَ دَعْواها الَّتي تُشْبِهُ عِنْدَها جِبالَ شَرِيش ، وهِيَ لِبُطْلانِها أَخَفُّ مِنَ الرِّيش ، وأَوْهَى مِنْ بَيْتِ العَنْكَبُوتِ فِي التَّعْرِيش ، وأَخْفَى رُمُوزِ أَهْلِ الصَّنْعَةِ المَعْمُولَةِ للتَّدْهِيش .

فادْخُلْ رَوْضَ هَذِهِ النَّصائِحِ الأَرِيض ، واذْبَحْ نَفْسَكَ وقَرِّعْها بِالتَّصْرِيحِ والتَّعْرِيض ، فَإِنَّ مُوافَقَتَها أَشَدُّ عَلَى العارِفِ بِها مِنَ القَرْضِ بِالمَقارِيض ؛ إِذْ هُوَ يَرُومُ رَفْعَها إِلَى السَّماءِ وهِيَ تَهْبِطُ بِهِ إِلَى الحَضِيض ، يَدُلُّها عَلَى طَرِيقَةِ التَّسْلِيم والتَّفْوِيض ، فَتُشِيرُ لَهُ بِالمَيْلِ إِلَى الاعْتِراضِ والانْقِباض وتَدْعُوهُ إِلَى إِثْباتِ النَّقِيض ، يُرِيها الأَقْوالَ المُصَحَّحَةَ المُرَجَّحَةَ فَتَأْتِيهِ بِصِيَغِ التَّمْرِيض ، يَطْلُبُ أَنْ يَجْتَمِعَ مَعَها عَلَى الصَّفاءِ الفَضِيض ، وهِيَ تَتَلَوَّنُ بِأَلْوانِ وَجْهِ البَغِيض ، فَدَاؤُها الدَّاءُ العُضالُ الطَّوِيلُ العَرِيض ، ووَفاؤُها أَشْبَهُ شَيْءٍ بِلَمْعِ الوَمِيض ؛

---

(١) الأَوام : العَطَش .

فانْهَضْ لِمُخالَفَتِها فَما العَيْشُ إلَّا النَّهيض[1] وإنْ أَعْياكَ حِينًا طِبُّها فَتَوَسَّلْ بِصاحِبِ الجاهِ العَرِيض ﷺ ؛ فَإنَّ مَدَدَهُ بِكُلِّ إسْعافٍ عَلَى تَوالِي المَدَدِ يُفِيض .

قالَ سَيِّدِي مُحْيِي الدِّين قَدَّس اللّهُ سِرَّهُ ما تَناشَدَ المَحْبُوبُ القَرِيض فِي فُتُوحاتِهِ فِي البابِ المِائَةِ واثْنَي عَشَر فِي مُخالَفَةِ النَّفْس :

خَالِفْ هَوَاكَ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ ❁ وَاعْلَمْ فَإِنَّكَ وَحْدَكَ الْمَقْصُودُ

الْكُلُّ يَسْعَدُ غَيْرُ مَنْ هُوَ مُبْتَلًى ❁ فَلْتُلْقِ سَمْعَكَ لِي وَأَنْتَ شَهِيدُ

أَنْتَ الْعَزِيزُ فَذُقْ وَبَالَ صِفَاتِهِ ❁ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْأَنَامُ شُهُودُ

اعْلَمْ أَيَّدَكَ اللّهُ : أَنَّ مُخالَفَةَ النَّفْسِ هِيَ المَوْتُ الأَحْمَرُ ، وهِيَ حالٌ تُساقُ عَلَيْها ، وهِيَ المُخالَفَةُ نَفْسُها ، فالمُخالِفُ عَيْنُ المُخالَفِ ، وهَذا مِنْ أَعْجَبِ الأُمُور ؛ أَعْنِي وُجُودَ المَشَقَّة ، نَعَمْ لَوْ كانَ المُخالِفُ نَفْسًا أُخْرَى لَمْ يَكُنِ التَّعَجُّبُ مِنْ حُصُولِ المَشَقَّةِ فِي ذَلِكَ ، ونَحْنُ بِحَمْدِ اللّهِ حَيْثُ قُلْنا بِمُخالَفَتِها ولَمْ نَقُلْ تُخالَفُ بِالمُقابِل ، فَقَدْ يَكُونُ الخِلافُ لِما لَيْسَ بِمُقابِلٍ ، فَيَجْمَعُ بَيْنَ وُجُودِ الخِلافِ وبَيْنَ المُساعَدَةِ ، وفائِدَةُ المُخالَفَةِ عَظِيمَة .

---

(١) النَّهِيض : صِيغَة مُبالَغَةٍ مِنَ النَّاهِض .

مَتَى تُخَالَفُ النَّفْسُ ؟

واعْلَمْ أَنَّهُ لا تُخالَفُ النَّفْسُ إلَّا فِي ثَلاثَةِ مَواطِن : فِي المُباحِ ، والمَحْظُورِ ، والمَكْرُوهِ ، لا غَيْر ؛ وأَمَّا إذا وَقَعَتْ لَها لَذَّةٌ فِي طاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ وعَمَلٍ مُقَرِّبٍ فَهُنالِكَ عِلَّةٌ خَفِيَّةٌ يُخالِفُها بِطاعَةٍ أُخْرَى وعَمَلٍ مُقَرِّبٍ ، فَإذا اسْتَوَى عِنْدَها جَمِيعُ التَّصَرُّفاتِ فِي فُنُونِ الطَّاعاتِ سَلَّمْنا لَها تِلْكَ اللَّذَّةَ بِتِلْكَ الطَّاعَةِ الخاصَّةِ ، وإنْ وَجَدَتِ المَشَقَّةَ فِي العَمَلِ المُقَرِّبِ الآخَرِ الَّذي هُوَ خِلافُ هَذا العَمَلِ فالعُدُولُ إلَى المَشاقِّ واجِبٌ ؛ لأَنَّها إذا ائْتَلَفَتِ المُساعَدَةَ بِمِثْلِ هَذا أَثَّرَتْ عَلَيْهِ فِي المُساعَدَةِ فِي المَحْظُورِ والمَكْرُوهِ والمُباح .

وإنَّما صَعُبَ عَلَى النَّفْسِ المُخالَفَةُ لِكَرِيم أَصْلِها وعُلُوِّ مَنْصِبِها ؛ فَإنَّ النِّيابَةَ الإلَهِيَّةَ فِي هَذا العالَمِ لَها ، فَتَقُولُ فِي نَفْسِها : بِيَدِي أَزِمَّةُ الأَمْرِ ومُلْكُهُ ولا سِيَّما وقَدْ خَلَقَنِي اللّهُ عَلَى الصُّورَةِ ، فَمُخالَفَتِي مُخالَفَةُ الحَقِّ .

مِنْ هَذا المَقامِ تَكُونُ المُخالَفَةُ لَها مَوْتًا أَحْمَرَ ، وحُجِبَتْ هَذِهِ النَّفْسُ عَن الاتِّساعِ الإلَهِي وعَمَّا خُلِقَتْ لَهُ وعَنِ العِلْمِ بِأَنَّ الصُّورَةَ لَيْسَتْ

لِكُلِّ نَفْسٍ ، وإِنَّما هِيَ للنَّفْسِ الكامِلَةِ كَنُفُوسِ الأَنْبياءِ ومَنْ كَمُلَ مِنَ النَّاسِ ، فَلَوْ كَمُلَتِ النَّفْسُ ما كانَتِ المُخالَفَةُ لَها مَوْتًا أَحْمَرَ ؛ فَإِنَّ لَذَّةَ العِرْفانِ تُعْطِيها الحَياةَ الَّتي لا مَوْتَ فِيها ، فالوُجُودُ والفَتْحُ مَقْرُونانِ بِمُخالَفَتِها فِي كُلِّ شَيْءٍ يَنْبغِي أَنْ تُخالَفَ فِيه .

(**أَنْواعٌ مِنْ مَوْتِ النُّفُوسِ** : اعْلَمْ أَنَّ المَوْتاتِ أَرْبَعَةٌ : **مَوْتٌ أَحْمَرُ** : وهُوَ مُخالَفَةُ النَّفْسِ ، **وأَبْيَضُ** : وهُوَ الجُوعُ ؛ لأَنَّهُ يُنَوِّرُ الباطِنَ ، ويُبَيِّضُ وَجْهَ القَلْبِ ، فَمَنْ ماتَت بِطْنَتُهُ حَيِيَتْ فِطْنَتُهُ ، **والأَصْفَرُ** : وهِيَ لُبْسُ المُرَقَّعاتِ مِنَ الخِرَقِ الَّتي لَيْسَ لَها قِيمَةٌ لاصْفِرارِ عَيْشِ لابِسِها بِالقَناعَةِ ، **والأَسْوَدُ** : وهُوَ احْتِمالُ الأَذَى وكَفُّهُ ؛ وهَذِهِ المَوْتاتُ تَنْشَأُ عَنْ فَناءِ النَّفْسِ : أَيْ مَحْوِ صِفاتِها الذَّمِيمَةِ ، وبَقاءِ الصِّفاتِ الحَمِيدَةِ) .

فَلا يَنْبَغِي للعاقِلِ أَنْ يُساعِدَ النَّفْسَ فِيما تَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ الَّتي تَأْمُرُهُ بِها مِمَّا وَقَعَ لَها فِيها غَرَضٌ : إِمَّا عَرَضِيٌّ أَوْ ذاتِيٌّ إِلَّا المُؤْمِنُ والعارِفُ ؛ فالمُؤْمِنُ : يُساعِدُها فِي الغَرَضِ الذَّاتِي وهُوَ كُلُّ ما تَأْمُرُهُ بِهِ مِنَ المُباحِ خاصَّةً ومِنْ مَلْذُوذاتِ الطَّاعَةِ ، وأَمَّا العارِفُ الَّذي الحَقُّ سَمْعُهُ وبَصَرُهُ وقُواهُ : فَيُساعِدُها فِي جَمِيعِ أَغْراضِها ؛ فَإِنَّهُ نُورٌ كُلُّهُ ، والنُّورُ ما لا ظُلْمَةَ فِيهِ ، ولِذَلِكَ كانَ ﷺ يَقُولُ فِي دُعائِهِ : (واجْعَلْنِي

نُوراً)[1] ؛ لأَنَّ النَّفْسَ ما يُنْسَبُ إِلَيْها ذَمٌّ إِلَّا بَعْدَ تَصْرِيفِ آلَتِها فِي المَذْمُومِ ، وهُوَ الظُّلْمَةُ ، فَيُقالُ : قَدِ اغْتابَ الغِيبَةَ المُحَرَّمَةَ عَلَيْه ، وقَدْ كَذَبَ الكَذِبَ المُحَرَّمَ عَلَيْه ، وقَدْ نَظَرَ النَّظَرَ المُحَرَّمَ عَلَيْهِ ، وما لَمْ يَظْهَرِ الفِعْلُ عَلَى الآلاتِ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِها ذَمٌّ ، والعارِفُ قَدْ وَقَعَ الإِخْبارُ الإِلَهِي عَنْهُ بِأَنَّ الحَقَّ جَمِيعُ قُواه ، فَذَكَرَ الآلات ، فَلِذا أَبَحْنا للعارِفِ مُساعَدَةَ النَّفْسِ ؛ لِما هُوَ عَلَيْهِ مِنَ العِصْمَةِ فِي ظاهِرِهِ الَّذي هُوَ الحِفْظُ .

وقالَ فِي ((رُوح القُدُس)) : (قالَتْ لِيَ النَّفْسُ : ارْفَقْ ولا تَعْجَلْ عَلَيَّ ؛ فَقَدْ ظَهَرَ لِي فِي مَسْأَلَةِ أُوَيْس هَذا أَمْرٌ خَرَجَ الحَلَّاجُ فِيهِ فَوْقَهُ ، وذَلِكَ أَنَّ الحَلَّاجَ قالَ ، يُخْبِرُ عَنْ حالَتِهِ : إِذا قَعَدَ الرَّجُلُ عِشْرِينَ يَوْمًا دُونَ غِذاءٍ ، ثُمَّ جاءَهُ طَعامٌ ، فَعَرَفَ أَنَّ فِي البَلَدِ مَنْ هُوَ أَحْوَجُ مِنْهُ لِذَلِكَ الطَّعام ، فَأَكَلَهُ ولَمْ يُؤْثِرِ المُحْتاجَ فِيهِ ، فَقَدْ سَقَطَ ، وهَذا مَقامٌ عالٍ كَما رَأَيْتَهُ ، وهَذا سَيِّدُنا أُوَيْسٌ رضي الله عنه ما كانَ يَتَصَدَّقُ إِلَّا بِفَضْلِ طعامِهِ وثِيابِهِ ، فَيَأْخُذُ حاجَتَهُ أَوَّلًا ، ثُمَّ يُعْطِي ما يَفْضُلُ عَلَيْهِ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ قُوتِهِ ، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ثَمَّ جائِعًا ولَمْ يُعْطِهِ ، وهَذا كَما رَأَيْتَهُ قالَ : قُلْتُ

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٥٢٨/١) ، وأَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ (٢٨٤/١) ، وأَبو عُوانَة فِي مُسْنَدِهِ (٣١٤/٢) .

لَها يا نَفْسُ ما أَنْتِ إلَّا اعْتَرَضْتِ اعْتِراضَ مَنْ لا يَعْرِفُ الحَقائِق ، ولَكِنَّكِ جَهِلْتِ المَقامَ ؛ فاسْمَعِي الجَوابَ ، واعْلَمِي أَنَّ أُوَيْسًا هُوَ الإمامُ المُقَدَّمُ الَّذي لا يُلْحَقُ ، لِتَعْلَمِي أَيَّتُها النَّفْسُ أَنَّ العارِفَ إذا كانَ صاحِبَ حالٍ مِثْلَ الحَلَّاج ، فَرَّقَ بَيْنَ نَفْسِهِ وبَيْنَ غَيْرِهِ ؛ فَعامَلَ نَفْسَهُ بِالشِّدَّةِ والقَهْرِ والعَذاب ، وعامَلَ نَفْسَ غَيْرِهِ بِالإيثارِ والرَّحْمَةِ والشَّفَقَة ، وإذا كانَ العارِفُ صاحِبَ تَمْكِينٍ وقُوَّةٍ صارَتْ نَفْسُهُ عَنْهُ أَجْنَبِيَّة ، ويَرْتَفِعُ هُوَ عُلْوِيًّا ، وبَقِيَتْ مَعَ أَبْناءِ جِنْسِها سُفْلِيَّة ؛ فَلَزِمَهُ العَطْفُ عَلَيْها ، كَما لَزِمَهُ العَطْفُ عَلَى غَيْرِها .

فَإِنَّ صاحِبَ الصَّدَقَةِ العارِفَ إذا خَرَجَ بِصَدَقَتِهِ ولَقِيَ أَوَّلَ مِسْكِينٍ يَدْفَعُ إلَيْهِ الصَّدَقَةَ ، فَإِنْ تَرَكَهُ ومَضَى إلَى مِسْكِينٍ آخَرَ ولَمْ يَدْفَعْ لَهُ فَقَدِ انْتَقَلَ مِنْ رِضا رَبِّهِ إلَى هَوَى نَفْسِهِ وخَرَجَ مِنْ دِيوانِهِمْ ؛ فَإِنَّهُ مِثْلُ صاحِبِ الرِّسالَةِ لا يَخُصُّ بِها شَخْصًا ، أَوَّلُ مَنْ يَلْقاهُ يَقُولُ لَهُ : قُلْ : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ، ولا شَكَّ أَنَّ هَذا العارِفَ إذا وَهَبَهُ الباري رِزْقًا يَعْرِفُ أَنَّهُ مُرْسَلٌ بِهِ إلَى عالَمِ النُّفُوس ؛ لِيُؤَدِّيَ إلَيْهِمْ ذَلِكَ القَدْرَ ؛ فَأَوَّلُ نَفْسٍ تَلْقاهُ نَفْسُهُ لا نَفْسَ غَيْرِهِ ، وسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ نُفُوسَ الغَيْرِ غَيْرُ مُلازِمَةٍ لَهُ ولا مُتَعَلِّقَةٍ بِهِ ؛ لأَنَّها لا تَعْرِفُهُ ، ونَفْسُهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ ، مُلازِمَةٌ

لِبابِهِ ، فَلا يَفْتَحُهُ إِلَّا عَلَيْها ، فَتَطْلُبُ أَماناتِها مِنْهُ ، فَيُقَدِّمُها عَلَى غَيْرِها ؛ لأَنَّها أَوَّلُ سائِلٍ ، وإِلَى هَذا السِّرِّ أَشارَ الشَّارِعُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِقَوْلِهِ : (ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ)[1]، والأَقْرَبُونَ أَوْلَى بِالمَعْروفِ ؛ لِتَعَلُّقِهِمْ بِكَ ولُزُومِهِمْ بابَكَ ، والغَيْرُ لا يَتَعَلَّقُ ولا يُلازِمُكَ مُلازَمَةَ نَفْسِكَ وأَهْلِكَ ، فَلَمَّا تَأَخَّرُوا أُخِّرُوا كَما هِيَ الأَسْرارُ سَواء ، يَخْرُجُ فِيهِ الحَقُّ عَلَى بابِ الرَّحْمَة ، فَأَيُّ قَلْبٍ وَجَدَهُ مُتَعَرِّضًا سائِلًا عِنْدَ البابِ دَفَعَ إِلَيْهِ حَظَّهُ مِنَ الأَسْرارِ والحِكَمِ ، وحَظُّهُ مِنْها عَلَى قَدْرِ ما يَرَى فِيهِ مِنَ التَّعَطُّشِ والجُوعِ والذِّلَّةِ والافْتِقار ، وهُمْ خاصَّةُ اللهِ ، وإِلَى هَذا المَقامِ وعَلَيْهِ حَرَّضَتِ الشَّرِيعَةُ ؛ (إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحاتٍ فَتَعَرَّضُوا لَها ، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ مِنْها نَفْحَةٌ لا يَشْقَى بَعْدَها أَبَداً)[2] ، ومَنْ تَأَخَّرَ أُخِّرَ ، ومَنْ نَسِيَ نُسِّيَ ، فانْظُرِي كَمْ بَيْنَ المَنْزِلَتَيْن : مَنْزِلَةِ الحَلَّاج ، ومَنْزِلَةِ أُوَيْس ، وانْظُرِي هَذا المَقامَ عَلَى عُلُوِّهِ وسُمُوِّهِ كَيْفَ اشْتَرَكَ فِي الظَّاهِرِ مَعَ أَحْوالِ العامَّة ؟ فَإِنَّ العامَّةَ أَوَّلُ ما تَجُودُ عَلَى نَفْسِها ، وحِينَئِذٍ يَتَعَدَّى جُودُها إِلَى

---

(١) رَواهُ الحَكِيمُ التِّرْمِذِي فِي النَّوادِر (٢٤٦/١) ، وذَكَرَهُ ابنُ حَجَر فِي فَتْح البارِي (٢١٠/١) ، والمُناوِي فِي فَيْض القَدِير (٦٦/١) ، والمُبارَكْفُورِي فِي تُحْفَةِ الأَحْوَذِي (٣٦٥/٦) .

(٢) رَواهُ الطَّبَرانِي فِي الأَوْسَط (٢٩٦٦) .

غَيْرِها ، وإنَّما يَتَصَرَّفُونَ تَحْتَ حُكْمِ هَذِهِ الحَقِيقَةِ وهُمْ لا يَشْعُرُون ، ولَمَّا أُعْمُوا عَنْ هَذا السِّرِّ وصارُوا مِثْلَ البَهائِمِ لا يَعْرِفُونَ مَواقِعَ أَسْرارِ العالَمِ مَعَ اللّهِ تَعالَى حَرَّضُوا عَلَى الإيثار ، ومُدِحُوا بِهِ ، وهُوَ مَقامُ الحَلَّاجِ الَّذي ذَكَرْتُ عَنْهُ ورَأَيْتُ أَنَّهُ غايَةٌ ، وهَكَذا فَلْتُغْزَلِ الحَقائِق ، وتُحاكُ حُلَلُ الرَّقائِق .

قالَتِ النَّفْسُ : هَذا شَيْءٌ واللّهِ ما قَرَعَ سَمْعِي مِنْ غَيْرِكَ ، وإنَّ هَذا لَهُوَ الحَقُّ المُبِين ، ولِمِثْلِ هَذا فَلْيَعْمَلِ العامِلُونَ ، وفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسُونَ)[1] .

لَقَدْ شَرَحْتَ صَدْراً ، وعَمَرْتَ بِالمَعارِفِ قَدْراً ، ثُمَّ انْسابَ نَثْرُ دُرَرِ اللَّآلِئِ فِي العُقُودِ الغَوالِي نَثْراً بِفَقَراتٍ تُزْرِي إسْكاراً بِآنِيَةِ الدَّوالِي[2] ، ويَوَدُّ النَّظْمُ أَنْ يَكُونَ نَثْراً ، ويَتَمَنَّى صاحِبُها أَنْ لَوْ عادَ عُقابًا كَي ما يُتْلَى عَلَيْهِ ، ونَسْراً لِيُكْشَفَ لَهُ عَنْها سِرًّا فَسِرًّا وسِتْراً فَسِتْراً ، فَكَمْ كَشَفَ فِي هَذا الكِتابِ وغَيْرِهِ أَسْراراً تَتْرَى ، وبَثَّ عُلُومَ أَنْوارٍ وأَطْوارٍ بِها السَّقِيمُ يَبْرَا !

---

(١) هُنا يَنْتَهِي كَلامُ الشَّيْخِ الأَكْبَر المُقْتَبَسُ مِنْ رِسالَة : (رُوح القُدُس) .

(٢) الدَّوالِي : جَمْعُ دَلْو ، المُمْتَلِئَةُ بالخُمُور .

فَياللهِ العَجَبُ مِنْ مُنْكِرٍ يَرَى حَلاوَةَ هَذا الكَلام ، ويُصَيِّرُهُ صَبْراً ، ويَرُومُ أَنْ يُطاوِلَ ويُحاوِلَ رَدًّا ! فَهَلْ سَمِعْتُمْ جُزْجُزْ فِتْر[1] يُطاوِلُ شِبْراً ؟!

وما أَحَقَّ قَوْلَ المُنْصِفِ : إِنَّ لِكَلامِهِ صَوْلَةً لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ لَها نُكْراً ، فَما أَجْرَأَ مَنْ أَجْرَى تَنْقِيصَهُ عَلَى لِسانِهِ ، وما أَحْرَى أَنْ يُعاقَبَ دُنْيا وأُخْرَى ، ولا نَعْنِي مَنْ أَنْكَرَ مِنَ السَّادَةِ الأَعْيان ؛ فَإِنَّ لَهُمْ نِيَّةً صالِحَةً تُكْسِبُهُمْ أَجْراً ، ولأَنَّهُمْ حُماةُ الدِّينِ ورُعاةُ الحُكْمِ الظَّاهِرِ المَتِينِ المُبِين ، وبِذا نالُوا فَخْراً ومُنِحُوا فَضْلاً ، وإِنَّما نَعْنِي خَفافِيشَ أَبْصارٍ دُونَ إِبْصارٍ ، ولَمْ يَشْهَدُوا شَمْسًا ، ولَمْ يُعايِنُوا بَدْراً ، ولا شَمُّوا لِلعُلُومِ رائِحَةً ، ولا عَرَفُوا خُبْراً ولا فَجْراً مِنْ كُلِّ مُتَعَسِّفٍ غَيْرِ مُنْصِفٍ مُتَّصِفٍ بِسِمَةِ أَهْلِ الغِرَّةِ لا العِزَّةِ ، ضَيَّعَ عُمْراً فَعادَ غَمْراً ، ومَنْ كانَ بِهَذِهِ المَثابَةِ فَلا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يُقِيمَ لِقَدْرِ ما أَشْكَلَ عَلَيْهِ مِنَ المَسائِلِ عُذْراً ، وإِلَّا فالتَّسْلِيمُ أَجْدَرُ ، وقَوْلُ لا أَدْرِي أَوْ صاحِبُ البَيْتِ أَدْرَى ، وقَدْ ذَكَرْنا فِي ((السُّيُوف الحِداد فِي أَعْناقِ أَهْلِ الزَّنْدَقَةِ والإِلْحاد)) ما يُنَبِّهُ المُنْكِرَ ويُوسِعُهُ زَجْراً .

---

(١) جُزْجُزْ فِتْر : كِنايَةٌ عَنِ الشَّيْءِ مُتَناهِي الصِّغَر .

حِيازَةُ اللآلِئِ الثَّمِينَة

بِفَهْمِ تَشْبِيهِ جِسْمِ المُؤْمِنِ بِالمَدِينَةِ الحَصِينَة

العالِمُ الدَّانِي أَبُو المَعالِي الهَمَدانِي جَعَلَهُ اللّٰهُ غَرِيقَ المَدَدِ الرَّبَّانِي شَبَّهَ الهَيْكَلَ الجِسْمانِي مِنَ العَبْدِ المُؤْمِنِ النُّورانِي بِمَدِينَةٍ حَصِينَة ، ووَضَعَ فِي هَذا المَعْنَى رِسالَةً مُبِينَة ، فَأَحْبَبْنا إِيرادَها بِعِبارَةٍ أُخْرَى يُمْكِنُ اخْتِصارُها والاقْتِصارُ عَلَى بَعْضِ ما وَجَدُوهُ نَظْمًا ونَثْراً ؛ فَلَعَلَّها تُمْسِي مُغْتَسَلًا بارِدًا لِمَنْ ظَلَّ وارِدًا ، أَوْ عَيْنَ حَياةٍ ، فَيُصْبِحُ وارِدُها خَضِراً ، ويُمْكِنُهُ رَدُّ كُلِّ شارِدٍ ضَبْطًا وحَصْراً ، وإِنْ أُضِيفَ إِلَيْها بَعْضُ زَوائِدٍ فاسْتَوْجِبْ بِها مِنَ الواقِفِ شُكْراً .

فَنَقُولُ : مَثَلُ العَبْدِ المُؤْمِنِ النَّقِيِّ التَّقِيِّ كَمَثَلِ مَدِينَةٍ ذاتِ أَبْراجٍ مَنِيعَةٍ وأَسْوارٍ حَصِينَةٍ ، ورُوحُهُ وجَوارِحُهُ سُورُها المُحِيطُ ، وسِرُّهُ وسِرُّ سِرِّهِ بُحُورُها الَّتي لا يُسْمَعُ لَها غَطِيطٌ ، والإِيمانُ المَلِكُ المُعَظَّمُ ، وسَرِيرُهُ التَّوْحِيد ، وتَجْرِيدُهُ مِنْ تَفْرِيدِ التَّفْرِيد ، ولَهُ وَزِيرٌ وهُوَ العَقْلُ ، وصاحِبُ تَدْبِيرٍ وهُوَ عِلْمُ الكَشْفِ والنَّقْلِ ، وصاحِبُ سِرٍّ وهُوَ الذِّكْرُ ، ونَدِيمٌ وهُوَ الزُّهْدُ ، وسَفِيرٌ وهُوَ الفِكْرُ ، وسِراجٌ وهُوَ الحِلْمُ ، وسُلَّمٌ ومِعْراجٌ وهُما الأَمْنُ والسِّلْمُ ، وبَوَّابٌ وهُوَ المُراقَبَةُ ، ونُوَّابٌ وهُمْ نُعُوتُ

المُسامَرَةِ والمُسابَرَةِ والمُحاسَبَةِ ، وصاحِبُ سَيْفٍ وهُوَ الحَقُّ ، ومُنادٍ وهُوَ الإقْرارُ الَّذِي لأَهْلِ الغَفْلَةِ بِأَهْلِ اليَقَظَةِ أَلْحَق ، ولَهُ جُنُودٌ وأَعْوانٌ وأَمْصارٌ وإِخْوانٌ غَيْرُ خُوَّانٍ يُعِينُونَهُ ويُغِيثُونَهُ ؛ إِذِ العَدُوُّ عَلَيْهِ طَفِقَ ، فَإِنَّ اليَدَ الواحِدَةَ لا تُصَفِّقُ ، والسُّلْطانُ بِجُنُودِهِ لا بِأَلْوِيَتِهِ وبُنُودِه .

فَبَيْنَما المَلِكُ آمِنٌ فِي سِرْبِهِ مُتَلَذِّذٌ فِي شُرْبِهِ إِذْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ العُيُونِ والرَّصَدِ ، وقالَ : أَيُّها المَلِكُ ، إِنَّ الشَّيْطانَ الرَّجِيمَ مُقْبِلٌ إِلَيْكَ قَدْ قَصَدَ ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ، فَإِنَّهُ إِنْ قَدَرَ غَدَرَ وما عَذَر ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ ذَلِكَ وهالَهُ ما هُنالِك ، الْتَجَأَ إِلَى المالِك ، وسَأَلَهُ الخَلاصَ مِنْ ضِيقِ هَذِهِ المَهالِك ، وسُلُوكَ أَحْسَنِ المَسالِكِ بِكُلِّ مُقْتَفٍ سالِك ، وخَضَعَ وخَشَعَ وظَهَرَتْ عَلَيْهِ الذِّلَّةُ والإِنابَة ، فَعَرَفَ قَبُولَ الدُّعاءِ وكَرَفَ عَرْفَ الإِجابَة ، ثُمَّ نادَى مُنادِي سُدَّتِهِ ، عِنْدَ بَدْءِ مَبادِئِ شِدَّتِهِ ، فِي أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ وخَواصِّ مَرْتَبَتِهِ ، وشاوَرَهُمْ فِي هَذا الأَمْر ، مُمْتَثِلًا فِي ذَلِكَ واجِبَ الأَمْر ، والقَلْبُ مِنْهُ مُتَقَلِّبٌ عَلَى الحِجْر ، حَيْثُ هُنا لا نافِعَ ولا دافِعَ إِلَّا اللّٰهُ تَعالَى ، لا زَيْدٌ ولا عَمْرو ، فَقالَ لَهُ الوَزِير : أَيُّها المَلِكُ الخَطِير والإِمامُ الكَبِير الَّذِي مَنْ سَقَطَ عَلَيْهِ فَقَدْ سَقَطَ عَلَى الخَبِير ، وإِنْ تَأْمُرْ بِحَفْرِ خَنْدَقِ الزُّهْدِ حَوْلَ مَدِينَتِكَ السَّاعَةَ فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَدُوَّك ،

ويَرُدُّ كَيْدَهُ ، ويَقْطَعُ أَطْماعَهُ ، فَنَدَبَ عَسْكَرَهُ ، فَشَرَعُوا فِي العَمَلِ بِلا مُهْلَةٍ خَوْفًا مِن اقْتِحامِ العَدُوِّ عَلَى غَفْلَةٍ ، واسْتَعْمَلُوا عَلَى حَفْرِهِ مَعاوِلَ القَلَقِ ، وأَجَرَوْا فِيهِ دُمُوعَ الأَرَقِ ، وأَنْشَدَ لِسانُ الحالِ بِلَطِيفِ المَقالِ :

وَلَمَّا أَحَاطَتْ بِي جُنُودُ وَسَاوِسِي ❁ حَفَرْتُ بِزُهْدِي حَوْلَ قَلْبِيَ خَنْدَقَا

حَفَرْنَاهُ فِي أَرْضِ التَّوَدُّدِ وَالصَّفَا ❁ وَأَرْسَلْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ فِيهِ تَدَفَّقَا

وَأَصْفَيْتُ سِرِّي وَاعْتَصَمْتُ بِخَالِقِي ❁ فَأَصْبَحْتُ مِنْ أَسْرِ الْمَهَالِكِ مُطْلَقَا

ثُمَّ عَلا الغُبارُ وغَلَى حَرُّ النَّقْعِ وثار ، وأَقْبَلَ العَدُوُّ بِعَدَدٍ ما بَيْنَ فارِسٍ وراجِلٍ مِنْ كُلِّ صِنْدِيدٍ فِي المُبارَزَةِ مُعاجِل ، وباهْتِزازٍ مُساجِل ، ونزَلَ الهَوَى عَنْ أَيْمَنِ المَدِينَة ، وضُرِبَتْ خِيامُه ، ونُشِرَتْ أَعْلامُه ، ومَعَهُ مِنَ الجُنُودِ عَشَرَة ، وهُم : (الحَسَدُ ، والتَّجَبُّرُ ، والعُجْبُ ، والتَّكَبُّرُ ، والغِلُّ ، والمَكْرُ ، والوَسْوَسَةُ ، والمُخالَفَةُ فِي الأَمْرِ ، وسُوءُ الظَّنِّ ، والجِدالُ) ؛ فَهَذِهِ عَشْرُ خِصالٍ يَنْبَغِي اجْتِنابُها ، بَلْ يَجِبُ عَلَى طالِبِ الوِصالِ التَّحَلِّي بِأَضْدادِها ، وهِيَ الجُنُودُ المُصاحِبَةُ للعَقْلِ فِي القِتال ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَتَخَلَّ لَمْ يَتَحَلَّ ولَوْ ضُرِبَتْ نَفْسُهُ بِحَدِّ النِّصال ، وهَكَذا بَقِيَّةُ الصِّفاتِ الكائِنَةِ عِنْدَ أَهْلِ الانْفِصالِ والاتِّصال .

ونَزَلَتِ النَّفْسُ عَنْ يَسارِها ومَعَها مِنَ الجُنُودِ عَشَرَةٌ مُؤْذِنَةٌ بِإِعْسارِها

دُونَ يَسارِها ، وهُمُ : (الحِرْصُ ، والشَّهْوَةُ ، والشُّحُّ ، والرَّغْبَةُ ، والزَّيْغُ ، والقَسْوَةُ ، وسُوءُ الخُلُقِ ، والأَمَلُ ، والطَّمَعُ ، والكَسَلُ) ، وهَؤُلاءِ الأُصُولُ والفُرُوعُ لا تَتَناهَى ، فَجِدَّ فِي قَطْعِها ولا تَتَوانَ ، فَتَبْلُغَ مِنْكَ مُشْتَهاها .

ونَزَلَتِ الدُّنْيا عَنْ أَمامِها ؛ لِتَقْتَدِيَ بِها سُكَّانُها وتَرْعاها كَإِمامِها ، وكانَتْ جُنُودُها عَشَرَةً ، وهُمُ : (الرِّياءُ ، والفَواحِشُ ، والبَطَرُ ، واللَّهْوُ ، واللَّعِبُ ، والزُّورُ ، والبُهْتانُ ، والغِشُّ ، والبُغْضُ ، والتَّخْلِيطُ فِي حِفْظِ الشَّرِيعَةِ) .

ونَزَلَ إِبْلِيسُ - لَعَنَهُ اللّهُ وأَخْزاهُ - وَراءَ المَدِينَةِ ؛ لِيَسُوقَ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ أَهْلِها إِلَى المَهاوِي اللَّعِينَةِ ، وكانَتْ جُنُودُهُ عَشَرَةً ، فِي طَلَبِ إِضْلالِ أَهْلِ المَدِينَةِ مُنْتَشِرَةً ، وهُمُ : (الظُّلْمُ ، والخِيانَةُ ، والكُفْرُ ، وتَرْكُ حِفْظِ الأَمانَةِ ، والنَّمِيمَةُ ، والنِّفاقُ ، والخَدِيعَةُ ، والشَّكُّ فِي الواحِدِ الخَلاَّقِ ، والمُخالَفَةُ لِما أَمَرَ بِهِ ذُو الجَلالِ والإِكْرامِ ، والتَّغافُلُ عَنْ سُنَّةِ سَيِّدِ الأَنامِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ) .

فَهَؤُلاءِ الأَرْبَعَةُ المُقابِلُونَ لِلخِيرَةِ البَرَرَةِ ، وكَذَلِكَ جُنُودُهُمْ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ ، فَلَمَّا أَبْصَرَ المَلِكُ ما حَلَّ بِهِ نادَى الفُؤادَ : أَنِ انْتَبِهْ ، وأَنْشَدَ بَعْدَما تَحَيَّرَ والجِدَّ عَلَى الرَّاحَةِ تَخَيَّرَ :

إِنِّي بُلِيتُ بِأَرْبَعٍ مَا سُلِّطُوا ❁ إِلَّا لِطُولِ شَقَاوَتِي وَعَنَائِي
إِبْلِيسُ وَالدُّنْيَا وَنَفْسِي وَالْهَوَىٰ ❁ كَيْفَ الْخَلاصُ وَكُلُّهُمْ أَعْدَائِي
إِبْلِيسُ يَسْلُكُ فِي طَرِيقِ مَهَالِكِي ❁ وَالنَّفْسُ تَأْمُرُنِي بِكُلِّ بَلاءِ
وَأَرَى الْهَوَىٰ تَدْعُو إِلَيْهِ خَوَاطِرِي ❁ فِي ظُلْمَةِ الشُّبُهَاتِ وَالْآرَاءِ
وَزَخَارِفُ الدُّنْيا تَقُولُ أَمَا تَرَىٰ ❁ فَخْرِي وَحُسْنِ مَلابِسِي وَبَهَائِي
وَجُنُودُهُمْ حَاطُوا بِسُورِ مَدِينَتِي ❁ مَا عُدَّتِي فِي شِدَّتِي وَرَخَائِي ؟

فَقالَ لَهُ الوَزِيرُ مُخاطِبًا ومُشَجِّعًا لَمَّا رَآهُ قَدْ خافَ عَلَى مَدِينَتِهِ جَزِعًا :

لا تَجْزَعَنَّ وَلا تَخَفْ ❁ وَدَعِ التَّفَكُّرَ وَالْأَسَفْ
اللّٰهُ عَوَّدَكَ الْجَمِيـ ❁ ـلَ فَقِسْ عَلَى ذَا مَا سَلَفْ

ثُمَّ إِنَّ المَلِكَ طَلَبَ الإِغاثَةَ مِنْ مَوْلاهُ والإِعانَة ، فَثَبَّتَ أَقْدامَه ، وعَمَرَ بِما غَمَرَ مِنْ بِرِّهِ جَنانَه ، وقَوَّى ظَهْرَهُ وأَرْكانَه ، وعَلَّا شَأْنَهُ وأَذْهَبَ عَنْهُ ما شانَه ، فَقالَ للوَزِير : كُنْ أَنْتَ فِي مُقابَلَةِ الهَوَىٰ ، وقابِلْ كُلَّ واحِدٍ مِنْ جُنُودِهِ بِواحِدٍ مِنْ جُنُودِكَ عَلَى السَّوا ، واسْأَلِ اللّٰهَ أَنْ يُقَوِّيَ مِنْكَ القُوَىٰ ، ويَخُصَّكَ بِما فِيهِ نَجاتُكَ مِنْ غَلَبَةِ الأَهْواء ، فَإِنَّ لِلْهَوَىٰ شَوْكَةً قَوِيَّة ، وسَلْطَنَةً غَوِيَّة ، فَعَسَى أَنْ تَقْهَرَهُ وتَعْرِفَ الدَّاءَ والدَّواءَ ، وضَمَّ إِلَيْهِ مِنْ جُنُودِهِ عَشَرَة ، وجَعَلَها تَحْتَ حُكْمِهِ مُنْحَشِرَة ، وهُمُ :

(الإخْلاصُ ، والخُشُوعُ ، واليَقِينُ ، والخُضُوعُ ، والمَعْرِفَةُ ، والهِدايَةُ ، والوَرَعُ ، والتُّقَىٰ ، والتَّسْلِيمُ ، والرِّضا) .

ثُمَّ سَلَّمَ الجانِبَ الثَّانِي للعِلْمِ وأَمَرَهُ أَنْ يَجْنَحَ للحَرْبِ حَتَّى يَجْنَحُوا للسِّلْمِ ، فَإِذا أَسْلَمَ مَنْ هُوَ مُقابِلُكَ ومُقاتِلُكَ واسْتَسْلَمَ فَقَيِّدْهُ بالسِّلاسِلِ المُصَفَّحَة ، بَعْدَما تَتَفَقَّدُ ما مَعَهُ مِنَ الأَسْلِحَة ، وقُلِ : الحَمْدُ للّهِ الَّذي نَجَّانا مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِين ، رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ لأَكُونَ مِنَ العالِمِينَ العامِلِين ، وضَمَّ لَهُ مِنَ الجُنُودِ عَشَرَة ، وجَعَلَها تَحْتَ حُكْمِهِ مُنْحَشِرَة ، وهُمُ : (اليَقَظَةُ ، والحِكْمَةُ ، وغَضُّ الطَّرْفِ ، والقَناعَةُ ، والشُّكْرُ ، والإجابَةُ ، والتَّعَفُّفُ ، والصَّبْرُ ، والنَّصِيحَةُ ، واجْتِنابُ كُلِّ قَبِيح) .

ثُمَّ سَلَّمَ الجانِبَ الثَّالِثَ للذِّكْر ، وأَمَرَهُ بِالنَّظَرِ فِي أَمْرِهِ واسْتِعْمالِ الفِكْر ، وقالَ لَهُ : احْذَرْ أَنْ يُلْقِيَ عَلَيْكَ ما هُوَ مُضارِعُكَ ومُصارِعُكَ بابًا مِنْ أَبْوابِ الغَفْلَةِ عَنِ الشُّكْر ، فَتَتَعَرَّضَ للمُهْلِكاتِ المُتْلِفات ، ورُبَّما جَرَّكَ لِوادِي السُّكْر ؛ فَإِنَّ مُحارِبَكَ لَعِين ، ومُجارِيكَ شَيْنٌ مُشِين ، فاسْتَعِنْ بِاللّهِ المُعِين ، وأَجْرِ ماءَ العَيْنِ المَعِين ، وابْسُطْ أَكُفَّ الطَّلَب ، وقُلْ بِلِسانِ الرَّهَبِ والرَّغَب :

إِنِّي مَدَدْتُ يَدِي إِلَيْكَ فَرُدَّهَا ۞ بِالْفَوْزِ لا بِشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ

ثُمَّ ضَمَّ إِلَيْهِ مِنَ الجُنُودِ عَشَرَة ، كُلُّهُمْ أَصْحابُ نَجْدَةٍ بَرَزَة ، وهُمُ : (الحَياءُ ، والمَحَبَّةُ ، والإيثارُ ، وحُسْنُ الإنابَةِ ، والتَّوَكُّلُ ، وتَرْكُ الجَفاءِ ، والتَّواضُعُ ، والوَفاءُ ، والذُّلُّ ، والجُودُ) .

ثُمَّ سَلَّمَ الجانِبَ الرَّابِعَ للرَّاتِعِ فِي أَرْفَعِ المَراتِعِ والمَرابِعِ ، وهُوَ نَدِيمُهُ الزُّهْد ، وقالَ لَهُ : ابْذُلِ الجُهْدَ وحُضَّ أَتْباعَكَ عَلَى القِتال ، وخُصَّ كُلَّ واحِدٍ بِالوَصِيَّةِ والإقْبال ؛ لِيَشْتَدَّ مِنْهُمُ العَزْم ، ويَحْتَدَّ سَيْفُ الجَزْمِ والحَزْم ، وضُمَّ لَهُ مِنَ الجُنُودِ ما ضُمَّ لِمَنْ تَقَدَّم .

وأَوْصاهُ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَتَقَدَّم ، وأَنْ يَتَجَلَّدَ للشَّامِتِينَ فِي الجِلاد ، وأَنْ يُشَدِّدَ عَلَى السَّاعِينَ فِي الأَرْضِ الفَساد ، المُضِرِّينَ بِالعِبادِ والبِلاد ، المُصِرِّينَ عَلَى الفِتْنَةِ ولَوْ كانُوا الأَهْلَ والأَوْلاد ، وأَمَرَهُ بِالالْتِجاءِ لِحَرَمِ الذِّلَّةِ والخُضُوع ، وأَنْ يَسْكُبَ عَلَى ما فَرَّطَ هَطَّالَ الدُّمُوع ، وأَنْ يَقُولَ إِذْ يَصُول :

يَا رَبِّ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۞ وَاجْعَلْ مَعُونَتَكَ الْحُسْنَى لَنَا مَدَدَا

وَلا تَكِلْنَا إِلَى تَدْبِيرِ أَنْفُسِنَا ۞ فَالنَّفْسُ تَعْجَزُ عَنْ إِصْلاحِ مَا فَسَدَا

وجُنُودُهُ المَضْمُومَةُ إِلَيْهِ المُعَوِّلَةُ فِي أَمْرِهِ عَلَيْهِ : (طَلَبُ الحَلال ،

والافْتِقارُ إِلَى اللهِ ذِي الجَلال ، واجْتِنابُ الحَرام ، وتَرْكُ الزِّينَة ، والنَّدَمُ ، والاسْتِغْفار ، والتَّهَجُّدُ فِي الأَسْحار ، والبُكاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ الواحِدِ القَهَّار ، وتَرْكُ المَعاصِي ، وحُبُّ الفُقَراء) .

ثُمَّ إِنَّ المَلِكَ وَقَفَ عِنْدَ البابِ بِوَصْفِ الاكْتِئاب بَعْدَ ما لَبِسَ لأْمَةَ حَرْبِهِ ، وصارَ يَجُولُ ما بَيْنَ حِزْبِهِ ، وهُوَ يَحُوطُ المَدِينَةَ فِيما يَتْلُوهُ مِنْ حِزْبِهِ[1] ، ويَتَنَفَّسُ الصُّعَداءَ لِتَوالِي هُمُومِهِ وكَرْبِهِ ، وأَقْتَمَ وادَّرَعَ[2] ، وابْتَهَلَ وتَضَرَّعَ ، ولَمَّا نَصَبَ العَدُوُّ مَنْجَنِيقاتِ البَغْيِ والطُّغْيان ، نَصَبَ هُوَ مَنْجَنِيقاتِ الوُقُوفِ مَعَ الحُدُودِ والإِحْسان ، وصارَ للحَرْبِ يُعْمِلُ ، وللدَّم يُهْمِلُ ، إِلَى أَنْ هَجَمَ عَسْكَرُ اللَّيْلِ فَطَرَدَ جُنُودَ النَّهار ، فَهَرَبُوا يَعْثُرُونَ بِالذَّيْل ، وزادَ عَلَى الأَعْداءِ النَّكالَ والوَيْل ، حَيْثُ عايَنُوا شِدَّةَ قِتالٍ تُضْعِفُ مِنْهُمُ الخَيْل .

وعِنْدَما فَصَلَ بَيْنَهُمُ الظَّلام ، فَزِعَ القَوْمُ مِنْ غَدْرِ العَدُوِّ فَأَشْعَلُوا مَشاعِلَ الحُرْقَةِ والغَرام ، وقَدَّمُوا عَلَيْهِمْ فائِدَةَ التَّوبَةِ وحارِسَ الأَوْبَةِ ، وجُعِلُوا حُرَّاسًا بِالنَّوْبَة ، فَقامَ أَهْلُ الحُوبَةِ يَطْلُبُونَ المَثُوبَة ، وإِذا شاهَدَ أَحَدُهُمْ نَقْصَهُ وعُيُوبَهُ يَبْكِي ، فَيَنْكِي عَدُوَّهُ ، ورُبَّما يُمَزِّقُ ثَوْبَهُ ،

---

(١) أَيْ وِرْدُهُ مِنَ الذِّكْرِ والدُّعاء .

(٢) أَقْتَمَ وادَّرَعَ : لَبِسَ عِمامَتَهُ ودِرْعَهُ .

وما زالُوا يَتَدارَسُونَ فِي مَحارِيبِهِمْ ويَصِيحُونَ حَتَّى يَظُنَّ مَنْ يَراهُمْ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ وَجْداً .

واسْتَغْرَقُوا فِي الحالِ ، إِلَى أَنْ قارَبَ الصَّباح ، ونادَى مُنادٍ : حَيَّ عَلَى الفَلاح ، واسْتَبانَ صَباحُ الهُدَىٰ ، وبانَ افْتِضاحُ العِدَىٰ ، فَقالَ المَلِكُ لِرَعِيَّتِهِ : إِذا فُتِحَ الباب ، فَلا يَرُدَّكُمْ رادٌّ عَنْ أَنْ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ القِباب ، فَإِذا دَخَلْتُمُوها فَإِنَّكُمْ غالِبُون ، وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ الطَّالِبُون ، وبِالصِّدْقِ والعَزِيمَةِ مُطالَبُونَ ، ثُمَّ صاحَ : يا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي ، فَما كانَ إِلاَّ ساعَة ، حَتَّى هَجَمَتْ عَلَى الأَعْداءِ سَوابِقُ الخَيْل ، فَدُهِشُوا حَتَّى قالَ كَبِيرُهُمْ : يا قَوْمُ هَذا أَمْرٌ بُيِّتَ بِلَيْل .

وأَلْقَى اللهُ فِي قُلُوبِ أَعْدائِهِ الخَوْفَ والفَزَع ، وظَهَرَ عَلَيْهِمُ الأَسَفُ حِينَ عايَنُوا التَّلَفَ والجَزَع ، وولَّوا هارِبين ، وهُمْ فِي إِثْرِهِمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلُوه ، ومِنْهُمْ مَنْ جَرَحُوه ، ومِنْهُمُ الدَّاخِلُ تَحْتَ أَسْرِهِمْ .

ثُمَّ إِنَّ النَّفْسَ الْتَجَأَتْ إِلَى حِصْنِ الفِتْنَةِ فَحاصَرُوها حَتَّى أَذْعَنَتْ وانْقادَتْ ، ودَخَلَتْ تَحْتَ الطَّاعَةِ والحُكْمِ بَعْدَما عَنِ الجادَّةِ حادَت ، وما لَمْ يُجاهِدْ فِيها صاحِبُها بِمِثْلِ هَذِهِ المُجاهَدَةِ وأَكْثَر ، ويُذِقْها مَرارَةَ المُكابَدَةِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ وأَكْبَر ، حَسِبَتْهُ فِي الأَمْوات ، وكَبَّرَتْ

عَلَيْهِ أَرْبَعَ تَكْبِيرات ، ويَقُولُ لَها بَعْلُها الهَوَى الَّذي اصْطَفَتْهُ وقَدَّمَتْهُ عَلَى الرُّوحِ فَأَذاقَها النَّوَى[1]: قَدْ خَلَى لَكِ الجَوَى واسْتَقامَ النَّوَى ، وقَدْ غَدا حَرْفُ الرُّوحِ لَو ، وحَرْفُكِ فِي الأَمْرِ والنَّهْيِ أَوْ[2].

ولْنَذْكُرْ لَكَ البابَ الثَّالِثَ مِنَ التَّدْبِيراتِ الإِلَهِيَّة ؛ فَإِنَّ فِيهِ مِنَ الفَوائِدِ ما يُعَرِّفُكَ بِأَصْلِ الرِّسالَةِ المَحْكِيَّة ، فانْظُرْهُ نَظْرَةَ مُسْتَفِيدٍ يَقِظ ، فَإِنَّ السَّعِيدَ مَنْ بِغَيْرِهِ اتَّعَظ ، وكُنْ إِذا نُبِّهْتَ شاكِراً ذاكِراً للّه ، إِبْراهِيمِيَّ الإِرْثِ عارِفًا أَنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاه ، وحَرِّرْ مِيزانَ الدَّسائِسِ النَّفْسِيَّة ، وبِمِعْيارِ الشَّرْعِ زِنْها ، وضَيِّقْ عَلَى النَّفْسِ ما وَسَّعَتْهُ لَها آمالُها ، وابْنِها للرُّوحِ ثُمَّ أَبْنِها[3]؛ فَقَدْ ثَبَتَ جَهْلُها ؛ لانْتِفاءِ وَصْفِ العِلْمِ بِالمَقْصُودِ مِنْها ، وتَوَعُّرِ سَهْلِها لَمَّا فاتَها نَيْلُ مَعْرِفَةِ المَقْصُودِ وتَباعَدَ عَنْها ، وإِذا نَصَحْتَ مَنْ يَصْحَبُ ذاتَكَ لِيَجْنِيَ لَذَّاتِكَ فاعْتَبِرْ إِذا عَبَّرْتَ ، ولا تَنْسَ نَفْسَكَ فَتَكُونَ غَيَّرْتَ إِذا عَبَّرْتَ ، فَإِنَّ النَّفْسَ تَغِيبُ عَنْ قُبْحِها فَتَعِيب ،

---

(١) النَّوَى : الفِراقُ والوَيْل .

(٢) قَوْلُهُ : صارَ حَرْفُ الرُّوحِ لَوْ : أَيْ صارَ الرُّوحُ يَتَحَسَّرُ عَلَيْها بِقَوْلِ : لَوْ ؛ لِغَلَبَةِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ عَلَيْها .. وقَوْلُهُ : وصارَ حَرْفُكِ فِي الأَمْرِ والنَّهْيِ : أَوْ . والمَعْنَى أَنَّ النَّفْسَ صارَتْ لَها الغَلَبَةُ عَلَى الرُّوحِ فَهِيَ تَأْمُرُ أَوْ تَنْهَى كَما تَشاء .

(٣) بَيْنَهُما جِناسٌ تامٌّ ؛ الأَوَّلُ بِمَعْنَى شَيِّدْ ، والثَّانِي بِمَعْنَى باعِدْ ، أَي : شَيِّدِ النَّفْسَ لِتَكُونَ فِي خِدْمَةِ الرُّوحِ وباعِدْ بَيْنَها وبَيْنَ الغائِب .

وتَشِحُّ بِذِكْرِ مَساوِئِها لِشُهُودِها فَقْدَ مَساوِئِها ، فَتَسِحُّ بِالتَّنْقِيب ، وإذا جُلْتَ مَعَها فِي مَيْدانِ اللَّهْوِ خِلْتَ أَنَّ ثَوْرًا يَفِيضُ أَوْ يَزِيد ، وتَسْمَحُ بِإِتْلافِ عُمْرِها بِالضَّياع ، وتَتَكَرَّمُ بِهِ تَكَرُّمَ أَكْرَمِ آلِ بَرْمَكٍ جَعْفَرٍ وخالِدٍ ويَزِيد[1] ، وهَذِهِ وإِنْ كانَتْ جُمْلَةً مُعْتَرِضَة ، فَقَدْ يَكُونُ اسْتِعْمالُها عَلَى ما هُوَ مِثْلِي مُخَلِّطًا فَرِيضَةً مُفْتَرَضَة .

هَيْكَلُ الجِسْمِ الإِنْسانِي مَظْهَرٌ لِلتَّجَلِّي الرُّوحانِي

قالَ ﷺ فِي البابِ الثَّالِثِ فِي إِقامَةِ الجِسْمِ وتَفاصِيلِهِ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مِلْكًا لِهَذا الخَلِيفَةِ الَّذي هُوَ الرُّوح : اعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ لَمَّا أَوْجَدَ هَذا الخَلِيفَةَ الَّذي ذَكَرْناهُ آنِفًا بَنَى لَهُ سُبْحانَهُ مَدِينَةً لِيَسْكُنَها رَعِيَّتُهُ وأَرْبابُ دَوْلَتِهِ تُسَمَّى ((حَضْرَةَ الجِسْمِ أَوِ البَدَن)) ، وعَيَّنَ لِلخَلِيفَةِ مِنْها مَوْضِعًا يَسْتَقِرُّ فِيهِ عَلَى قَوْلِ مَنْ قالَ بِأَنَّهُ مُتَحَيِّزٌ ، ويَحِلُّ فِيهِ عَلَى قَوْلِ مَنْ قالَ بِأَنَّهُ قائِمٌ بِمُتَحَيِّزٍ .

وإِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ المَوْضِعُ المُعَيَّنُ لَهُ مَوْضِعَ أَمْرِهِ وخِطابِهِ ونُفُوذِ أَحْكامِهِ وقَضاياهُ عَلَى قَوْلِ مَنْ يُثْبِتُهُ غَيْرَ مُتَحَيِّزٍ ولا قائِمٍ بِمُتَحَيِّزٍ ، فَأَقامَ لَهُ سُبْحانَهُ مَدِينَةَ الجِسْمِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَعْمِدَةٍ ، وسَمَّى سُبْحانَهُ

---

(١) هُمُ البَرامِكَةُ الَّذِينَ خَدَمُوا فِي كَنَفِ دَوْلَةِ بَنِي العَبَّاس ، وكانَ جَعْفَرٌ وخالِدٌ مَضْرِبَ المَثَلِ فِي الجُود ، وهَكَذا النَّفْسُ تَجُودُ بِعُمْرِها فِي مَهالِكِها ، ومُخَلِّط : أَي خَلَطَ عَمَلاً صالِحاً بِغَيْرِ صالِح .

المَوْضِعَ المُعَيَّنَ للخَلِيفَةِ مِنْهُ القَلْبَ ، وجَعَلَهُ مَسْكَنَ الخَلِيفَةِ ، أَوْ مَوْضِعَ أَمْرِهِ ، عَلَى ما ذَكَرْنا مِنَ الخِلاف .

وقالَ قَوْمٌ : إنَّ مَوْضِعَهُ الدِّماغ ، والأَظْهَرُ عِنْدِي مِنْ طَرِيقِ السُّنَّةِ والقُرْآنِ لا مِنْ جِهَةِ البُرْهانِ أَنَّهُ القَلْبُ شَرْعًا ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ مُخْبِراً عَنْ رَبِّهِ ، (ما وَسِعَنِي أَرْضِي ولا سَمائِي ، ولَكِنْ وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِيَ المُؤْمِن)[1] ، وقال ﷺ : (إنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ ولا أَعْمالِكُمْ ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ ونِيَّاتِكُمْ)[2] ، وذَلِكَ أَنَّ المُسْتَخْلِفَ إنَّما يَنْظُرُ أَبَداً فِي خَلِيفَتِهِ ما يَفْعَلُهُ فِيما قَلَّدَ ، واللهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى قَدِ اسْتَخْلَفَ الأَرْواحَ عَلَى الأَجْسام ، ومِمَّا يُؤَكِّدُ ويُؤَيِّدُ ما ذَهَبْنا إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [3] ، ولَيْسَتِ الإِشارَةُ لِلقُلُوبِ النَّباتِيَّة ؛ فَإِنَّ الأَنْعامَ يُشارِكُونَنا فِي ذَلِكَ ، لَكِنْ لِلسِّرِّ المُودَعِ فِيهِ وهُوَ الخَلِيفَةُ والقَلْبُ النَّباتِي مَقَرُّهُ ، وقالَ ﷺ : (أَلا وإنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً ، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وهِيَ القَلْبُ)[4] ، فَإِنَّ القَلْبَ لا فائِدَةَ لَهُ إِلَّا مِنْ حَيْثُ

---

(١) ذَكَرَهُ المُناوِي فِي فَيْضِ القَدِير (٢/٤٩٦) .

(٢) رَواهُ مُسْلِمٌ ، وأَحْمَدُ ، وابنُ ماجَه ، وابنُ حِبَّانَ فِي الصَّحِيح ، والدَّيْلَمِي فِي الفِرْدَوْس .

(٣) سُورَةُ الحَجِّ : مِنَ الآيَة ٤٦.

(٤) أَخْرَجَهُ البُخارِي (١/٢٨) ، ومُسْلِمٌ (٣/١٢١٩) ، والبَيْهَقِي فِي الشُّعَب (٥/٥٠) .

هُوَ مَكانٌ لِهَذا السِّرِّ المَطْلُوب ، المُتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِالخِطاب ، والمُجيبُ إِذا وَرَدَ عَلَيْهِ السُّؤال ، والباقِي إِذا فَنِيَ الجِسْمُ والقَلْبُ النَّباتِي ، فَنَقُولُ كَذَلِكَ : إِذا صَلَحَ الإِمامُ صَلَحَتْ رَعِيَّتُهُ ، وإِذا فَسَدَ فَسَدَتْ ؛ بِذا جَرَتِ العادَةُ وارْتَبَطَتِ الحِكْمَةُ الإِلَهِيَّة ، فَسِرُّ صَلاحِهِ وفَسادِهِ مُرْتَبِطٌ بِصَلاحِ الرَّعِيَّةِ وفَسادِها ، قِيلَ :

إِذَا رَأَيْتَ أَمِيرًا ❁ وَالظُّلْمُ يَصْدُرُ عَنْهُ

فَاعْلَمْ بِأَنَّ الرَّعِيَّةَ ❁ لا شَكَّ أَظْلَمُ مِنْهُ

وسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعالَى إِذا وَلَّى خَلِيفَتَهُ قَوْمًا فَإِنَّهُ يُعْطِيهِ أَسْرارَهُمْ وعُقُولَهُمْ ، فَيَكُونُ إِذْ ذاكَ مَجْمُوعَ رَعِيَّتِهِ ، فَمَتَى خانَهُمْ فِي أَسْرارِهِم وعُقُولِهِمْ ظَهَرَ ذَلِكَ فِيهِمْ ، وإِنِ اتَّقَى اللَّهَ فِي ذَلِكَ ظَهَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وقَدْ تَكُونُ أَسْرارُ رَعِيَّتِهِ حِينَ أَعْطاهُ رَذِلَةً ناقِصَةً ، ولِهَذِهِ الإِشارَةِ قالَ : مِثْلَما تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ ؛ فَإِنْ غَلَبَ عَلَيْها صَلاحُ الإِمام صَلَحَتْ وظَهَرَ آثارُ ذَلِكَ فِي الرَّعِيَّةِ وأَرْبابِ الدَّوْلَةِ بِمَشِيئَةٍ غَيْبِيَّةٍ إِلَهِيَّةٍ ، يَجِدُها الإِنْسانُ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ ، ولا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ وَرَدَتْ عَلَيْهِ ، ولا كَيْفَ حَصَلَتْ لَهُ ، فَهَذا سِرُّ قَوْلِهِ ﷺ : (إِذا صَلَحَتْ صَلَحَ سائِرُ الجَسَدِ) الحَدِيث .

ثُمَّ بَنَى لَهُ سُبْحانَهُ مُتَنَزَّهًا عَجِيبًا مُشْرِفًا فِي أَرْفَعِ مَكانٍ فِي هَذِهِ المَدِينَةِ ، سَمَّاهُ ((الدِّماغ)) ، وفَتَحَ لَهُ فِيهِ طاقاتٍ وخَوْخاتٍ يُشْرِفُ مِنْها عَلَى مُلْكِهِ ؛ وهُمُ : الأُذُنان ، والعَيْنان ، والأَنْفُ ، والفَمُ ، ثُمَّ بَنَى لَهُ فِي مُقَدَّمِ ذَلِكَ المُنْتَزَهِ خِزانَةً سَمَّاها ((خِزانَةَ الخَيال)) ، وجَعَلَها مُسْتَقَرَّ خِباياتِه ، ومَوْضِعَ رَفْعِ وُلاةِ الحِسِّ ، فِيها تُخَزِّنُ خِباياتِها : المُبْصَراتِ ، والمَسْمُوعاتِ ، والمَشْمُوماتِ ، والمَطْعُوماتِ ، والمَلْمُوساتِ ، وما يَتَعَلَّقُ بِها ، ومِنْ تِلْكَ الخِزانَةِ تَكُونُ المَرائِي والأَحْلامُ الَّتي يَراها النَّائِمُ ، وكَما أَنَّ فِي الخِباياتِ حَلالاً وحَرامًا كَذَلِكَ فِي المَرائِي مُبَشِّراتٌ وأَضْغاثُ أَحْلامٍ ، وهِيَ فِي وَسَطِ هَذا المُنْتَزَهِ خِزانَةُ الفِكْرِ الَّذي تَرْتَفِعُ إِلَيْهِ المُتَخَيَّلات ، فَيَقْبَلُ مِنْها الصَّحِيحَ ، ويَرُدُّ الفاسِدَ ، وبَنَى لَهُ فِي هَذا المُنْتَزَهِ خِزانَةَ الحِفْظِ وجَعَلَها مَسْكَنَ الوَزِيرِ الَّذي هُوَ العَقْلُ ، ثُمَّ أَوْجَدَ لَهُ النَّفْسَ ؛ وهِيَ مَحَلُّ التَّغَيُّرِ والتَّطْهِيرِ ومَقَرُّ الأَمْرِ والنَّهْيِ ، وهِيَ اللَّيْلَةُ المُبارَكَةُ الَّتي فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيم ، وحَظُّها مِنَ العالَمِ العُلْوِيِّ الكُرْسِيُّ ، كَما أَنَّ الرُّوحَ مَحَلُّها العَرْشُ مِنْ ذَلِكَ العالَمِ ، والنَّفْسُ هِيَ كَرِيمَةُ هَذا الخَلِيفَةِ وحُرَّتُهُ .

وقَدْ أَشارَ إِلَى ذَلِكَ الإِمامُ أَبُو حامِدٍ الغَزالِي فِي قَوْلِهِ : ((إِنَّ الرُّوحَ نَكَحَ النَّفْسَ فَتَوَلَّدَ ما بَيْنَهُما الجَسَدُ)) .

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾

إِنَّ المُتَصَوِّفَةَ اصْطَلَحُوا عَلَى كُلِّ فِعْلٍ فِيهِ حَظٌّ لِكَوْنٍ مِنَ الأَكْوانِ أَنَّهُ نَفْسٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ عَنْ أَمْرِ نَفْسٍ ، سَواءٌ كانَ الفِعْلُ مَحْمُودًا أَوْ مَذْمُومًا ، وكُلُّ ما لَيْسَ فِيهِ حَظٌّ لِغَيْرِ اللّٰهِ فَهُوَ رُوحٌ .

وإِنَّ الإِنْسانَ لَهُ ثَلاثُ أَنْفُسٍ : نَفْسٌ نَباتِيَّةٌ وبِها يَشْتَرِكُ مَعَ الجَمادات ، ونَفْسٌ حَيَوانِيَّةٌ وبِها يَشْتَرِكُ مَعَ البَهائِم ، ونَفْسٌ ناطِقَةٌ وبِها يَنْفَصِلُ عَنْ هَذَيْنِ المَوْجُودَيْنِ ، ويَصِحُّ لَهُ اسْمُ الإِنْسانِيَّة ، وبِها يَتَمَيَّزُ فِي المَلَكُوت ، وهِيَ الكَرِيمَةُ الَّتي ذَكَرْناها تَحْتَ هَذا الخَلِيفَة .

ثُمَّ إِنَّ اللّٰهَ تَعالَى مِنْ إِتْمامِ النِّعْمَةِ عَلَى الإِنْسانِ وإِكْمالِ النُّسْخَةِ عَلَى الاسْتِيفاءِ أَوْجَدَ فِي هَذِهِ المَمْلَكَةِ أَمِيرًا قَوِيًّا مُطاعًا كَثِيرَ الرَّجُلِ والخَوَلِ ، يَعْنِي العَدَدَ والعُدَدَ مُنازِعًا لِهَذا الخَلِيفَةِ سَمَّاهُ ((الهَوَى)) ، ولَهُ وَزِيرٌ سَمَّاهُ ((شَهْوَة)) ، فَبَرَزَ يَوْمًا فِي أَجْنادِهِ وخُيُولِهِ يَتَنَزَّهُ فِي بَعْضِ بَساتِينِهِ ، فَأَشْرَفَتِ النَّفْسُ الَّتي هِيَ حُرَّةُ الخَلِيفَةِ عَلَيْهِ ، فَتَراءَيا ونَظَرَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما لِصاحِبِهِ ، فَعَشِقَها الهَوَى ، فَأَعْمَلَ الحِيلَةَ فِي

الاجْتِماعِ بِها ، فَما زالَ يَسْتَنْزِلُها ويُسْقِطُها ويَبْسُطُ لَها حَضْرَتَهُ ، ويُهادِيها بِأَحْسَنِ ما عِنْدَهُ ، ولَمْ تَزَلْ رُسُلُ الأَمانِي وسُفُرُ الغُرُورِ تَمْشِي بَيْنَهُما حَتَّى مالَتْ إِلَيْهِ ، وانْقادَتْ لَهُ ، ومَلَكَها بِالإِحْسانِ ، والخَلِيفَةُ غافِلٌ عَنْ هَذا ، والعَقْلُ الذَّي هُوَ وَزِيرُهُ قَدْ شَعَرَ بِذَلِكَ ، وهُوَ يُلَبِّسُ الأَمْرَ ويُخْفِيهِ ، عَسَى أَنْ لا يَشْعُرَ بِذَلِكَ الخَلِيفَة ، وتَرْجِعُ عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ ، فَصارَتِ النَّفْسُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَوِيَّيْنِ مُطاعَيْنِ ؛ هَذا يُفادِيها ، وهَذا يُنادِيها ، والكُلُّ بِإِذْنِ اللهِ : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (١) ، ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ (٢) ، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (٣) ، فِي إِثْرِ قَوْلِهِ : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ (٤) .

ولِهَذا جَعَلْناها مَحَلَّ التَّغَيُّرِ والتَّطْهِيرِ ، فَإِذا أَجابَتِ الهَوَى كانَ التَّغْيِيرُ وجُعِلَ لَها اسْمُ ((الأَمَّارَة بِالسُّوء)) ، وإِنْ أَجابَتِ العَقْلَ كانَ التَّطْهِيرُ وصَحَّ لَها اسْمُ ((المُطْمَئِنَّة)) شَرْعًا لا تَوْحِيدًا ؛ إِذْ وُقُوعُ هَذا الأَمْرِ بِحِكْمَةٍ لَطِيفَةٍ عَجِيبَةٍ ، وهُوَ أَنَّ اللهَ تَعالَى لَمَّا أَوْجَدَ هَذا الخَلِيفَةَ عَلَى ما وَصَفْناهُ مِنَ الكَمالِ أَرادَ سُبْحانَهُ أَنْ يُعَرِّفَهُ أَنَّهُ فَقِيرٌ ، لا

---

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٨٧ .
(٢) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٢٠ .
(٣) سُورَةُ الشَّمْس : الآيَة ٨ .
(٤) سُورَةُ الشَّمْس : الآيَة ٧ .

حَوْلَ ولا قُوَّةَ لَهُ إِلَّا بِسَيِّدِهِ الرَّبِّ تَعالَى ، فَلِهَذا أَوْجَدَ لَهُ مُنازِعًا يُنازِعُهُ فِيما قَلَّدَهُ .

فَلَمَّا رَأَى الرُّوحُ أَنَّهُ يُنادِي والنَّفْسُ لا تُجِيبُهُ ، وقَدْ قِيلَ لَهُ هِيَ مِلْكُكَ قالَ لِوَزِيرِهِ : ماالسَّبَبُ المانِعُ لَها مِنْ إِجابَتِي ؟ فَقالَ لَهُ العَقْلُ : أَيُّها السَّيِّدُ الكَرِيمُ إِنَّ فِي مُقابَلَتِكَ مَوْجُودًا قامَ لَها فِي مَقامِكَ أَمِيرًا قَوِيًّا ، مُطاعًا ، صَعْبَ المُرْتَقَىٰ ، عَزِيزَ المَنالِ ، يُقالُ لَهُ : الهَوَىٰ ، عَطِيَّتُهُ مُعَجَّلَةٌ مَشْهُودَة ، فَأَرْسَلَ وَزِيرُهُ إِلَيْها : فَبَسَطَ لَها حَضْرَتَهُ ، وعَجَّلَ لَها أُمْنِيَتَها فِي أَوْجَزِ زَمانٍ ، فَأَجابَتِ الدَّاعِيَ وانْقادَتْ لَهُ ، وحَصَلَتْ تَحْتَ قَهْرِهِ ، واتَّبَعَتْها أَجْنادُكَ وبادِيَةُ رَعِيَّتِكَ ، وما بَقِيَ لَكَ فِي مَمْلَكَتِكَ إِلَّا أَرْبابُ دَوْلَتِكَ المُتَحَقِّقُونَ بِحَقائِقِكَ والمُخْتَصُّونَ بِكَ ، وها هُوَ قَدْ نَزَلَ بِفِناءِ قَصْرِكَ لِيُخْرِبَهُ ويُخْرِجَكَ عَنْ مُلْكِكَ ، ويَسْتَوْلِيَ عَلَى عَرْشِكَ ، فَدارِكْ دارَكَ قَبْلَ نُزُولِ الهَلاك .

فَرَجَعَ الرُّوحُ بِالشَّكْوَى إِلَى اللهِ القَدِيرِ سُبْحانَهُ ، وثَبَتَتْ لَهُ فِي نَفْسِهِ عُبُودِيَّتُهُ بِالافْتِقارِ والعَجْزِ والذِّلَّة ، وتَحَقُّقِ التَّمْيِيزِ ، وعَرَفَ قَدْرَهُ ، وذَلِكَ كانَ المُرادُ ؛ فَإِنَّ الإِنْسانَ لَوْ نَشَأَ فِي الخَيْرِ والنِّعَمِ طُولَ عُمْرِهِ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ ماهُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يُبْتَلَى ، فَإِذا مَسَّهُ الضُّرُّ عَرَفَ النِّعَم .

فَلَمَّا رَجَعَ الرُّوحُ بالشَّكْوَى إِلَى رَبِّهِ صارَ سُبْحانَهُ واسِطَةً بَيْنَهُ وبَيْنَها ، فَقالَ لَها : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [1] ، فَلَمَّا أَتاها النِّداءُ بِرَفْعِ الوَسائِطِ حَنَّتْ ، وأَنَّتْ ، واشْتاقَتْ ، وأَجابَتْ ، وأَنابَتْ بالعِنايَةِ الإِلَهِيَّة .

سُلُوكُ المُرِيدِ المُلَبِّي مَعَ الشَّيْخِ المُرَبِّي

فَتَأَمَّلْ رَحِمَكَ اللّٰهُ صَنِيعَ الهَوَى واسْتِحواذَهُ عَلَى النَّفْسِ وكَيْفَ صَيَّرَتْهُ مَلاذًا ، ومَيْلَها مَعَهُ ونِسْيانَها بَعْلَها الكَرِيمَ ، واتِّخاذَها هَذا الخَبِيثَ اللَّئِيمَ عِياذًا ، فاسْعَ رَزَقَكَ اللّٰهُ كامِلَ التَّأْيِيدِ واسْتَنْقِذْها بالمُجاهَدَةِ مِنْ يَدِهِ اسْتِنْقاذًا ؛ فَقَدْ أَضَرَّ تَسْوِيفُكَ بالرُّوحِ المُصِرَّةِ عَلَى تَشْوِيفِكَ ، وإِذًا – ولَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ – إِلَّا إِنْ وُفِّقْتَ ووَقَفْتَ نَفْسَكَ عَلَى شَيْخٍ مُرَبٍّ يَحِقُّ لَهُ أَنْ يُسَمَّى أُسْتاذًا ، ومَلَّكْتَهُ مِنْكَ الزِّمام ، ووَفَّيْتَ لَهُ بالذِّمام ، ووَجَدْتَ بِمِحَنِهِ كَمِنَحِهِ اسْتِلْذاذًا ، وجَمَعْتَ قَلْبَكَ عَلَيْهِ ، ولَمْ يُفَرِّقْكَ الهَوَى أَفْخاذًا ، حَتَّى يَسْقِيَكَ رَحِيقَهُ المَخْتُوم ، فَيَشْفِيَكَ عَتِيقُهُ [2] المَحْتُوم ، وأَعْلِمْهُ بِما كَمَنَ فِيكَ ، ولا تَكُنْ مِمَّنْ يَتَسَلَّلُونَ لِواذًا ، وكَسِّرْ

---

(١) سُورَةُ الفَجْر : الآيَات ٢٧ – ٣٠ .

(٢) الشَّرابُ المُعَتَّقُ الذي هُوَ مَظَنَّةُ الاسْتِلْذاذِ والمُتْعَةِ أَكْثَرُ مِنْ حَدِيثِهِ .

أَصْنامَ السَّهَواتِ والشَّهَواتِ[1]، وصَيِّرْها عَنْ أَمْرِهِ جُذَاذًا ، والْزَمْهُ مُلازَمَةَ الظِّلِّ للشَّاخِصِ عَسَى تُسْقَى أَرْضُكَ مِنْهُ وابِلًا ورَذاذًا[2]، وإذا عَرَضَتِ النَّفْسُ عَلَيْكَ غَيْرَهُ فَقُلْ لَها : إنَّ مَنْ هَذَّبَكِ هَذا ، ثُمَّ قُلْ لِتُسْمَعَ فَلا تَطْمَع : الحَمْدُ للهِ الَّذي هَدانا لِهَذا ، وإيَّاكَ إذا أَمَرَكَ أَوْ نَهاكَ أَنْ تَقُولَ : لِماذا ؟ فَمَنْ قالَ لِمُرْشِدِهِ : لِمَ ؟ لا يُفْلِحُ ، ولَوْ كانَ مُرَبِّيهِ غَدا مِمْشاذًا [3]، بَلْ كُنْ كالمَيْتِ عِنْدَهُ لَعَلَّ أَنْ يُلَيِّنَ بِلِينِهِ مِنْكَ قَلْبًا حَكَى الفُولاذا ؛ وإذا شَرَّفَكَ بِخِدْمَةٍ فاشْهَدِ الفَضْلَ لَهُ وقِفْ فَقِيرًا بِبابِهِ سائِلًا شَحَّاذًا ، فَإنَّ هَذا الطَّرِيقَ لا يَصْلُحُ إلَّا لِقَوْمٍ كَنَسُوا بِأَرْواحِهِمُ المَزابِلَ فَكُنْ هَذَا ياذَا ، وعادِ نَفْسَكَ ما اسْتَطَعْتَ وصادِقِ النُّصَّاحَ وأْوِ إلَى الرُّكْنِ الشَّدِيدِ تَكُنْ مُعاذًا ، واعْلَمْ أَنَّ أَهْلَ اللهِ هُمُ المُلُوكُ فَمَنْ لَمْ يَتَأَدَّبْ مَعَهُمْ خَسِرَ فَما رَبِحَ ورُبَّما كانَ سُوءُ الأَدَبِ لِرُوحِهِ أَخَّاذًا ، وإذا دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ فادْخُلْ أَعْمَى لِئَلَّا تَرَى لَهُمْ عَيْبًا ، وانْشَقْ عَبِيرَ شَذًى[4] ، فَإذا خَرَجْتَ فَكُنْ أَخْرَس ؛ لِئَلَّا تَبُوحَ

---

(١) السَّهَوات : الغَفَلات ، الشَّهَوات : النَّزَوات .

(٢) الرَّذاذ : المَطَرُ الضَّعِيف .

(٣) أَيْ سَيِّدِي مِمْشاذ الدِّيْنُوري ، مِنْ أَكابِرِ مَشايِخِ الرِّسالَةِ القُشَيْرِيَّة .

(٤) الشَّذَى : العَبَقُ والرَّائِحَةُ الطَّيِّبَة .

بِسِرِّهِمْ ؛ فَتُسَمَّى خَوَّانًا بِهَذا الاسْمِ مُشْتاذًا ، وقَدْ أَنْشَدَ بَعْضُهُمْ فِيْ المَعْنَى المُغْنِي هَذا :

إِذَا صَحِبْتَ المُلُوكَ فَالْبَسْ ۞ مِنَ التَّوَقِّي أَعَزَّ مَلْبَسْ

وَادْخُلْ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ أَعْمَىٰ ۞ وَاخْرُجْ إِذَا مَا خَرَجْتَ أَخْرَسْ

فَكُلُّ مَنْ لا دَلِيلَ لَهُ لا وُصُولَ لَهُ ، ومَنْ لا وُصُولَ لَهُ لا مَعْرِفَةَ لَهُ ، ومَنْ لا مَعْرِفَةَ لَهُ بِنَفْسِهِ لا مَعْرِفَةَ لَهُ بِرَبِّهِ ورَفِيعِ قُدْسِهِ ، ونَعْنِي بِهَذا : المَعْرِفَةَ الخاصَّةَ لا العامَّة ؛ الَّتِي فُيُوضاتُها طامَّةٌ عامَّة ، وإِمْدادَتُها نامِيَةٌ تامَّة .

جُمْلَةٌ مِنْ دَسائِسِ النَّفْسِ المُعَوِّقَةِ عَنْ حَضْرَةِ القُدْسِ

اعْلَمْ أَنَّ دَسائِسَ النَّفْسِ لا تُحَدُّ ولا يُمْكِنُ أَنْ تُعَدّ ، وقَدْ أَلَّفَ الشَّيْخُ أَبُو بَكْر المُوصِلِي رضي الله عنه فِي دَسائِسِها رِسالَةً نافِعَةً لِدَرَنِ تِلْكَ الخَسائِسِ غَسَّالَة ، ونَبَّهَ أَكابِرُ أَهْلِ الطَّرِيقِ عَلَى بَعْضِها لِيُطْلَقَ مِنْها الوَثِيق ، ويَتَنَبَّهَ الغافِلُ الخائِضُ فِي بِحارِ التَّعْوِيق ؛ الَّتِي أَمْسَى بِها يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ فَأَصْبَحَ كالغَرِيق ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّها تَنْصَحُ أَحْبابَها ، وتَمْنَحُ الفَوائِدَ أَصْحابَها ، وتُنَبِّهُهُمْ عَلَى الهَلَكاتِ المُتْلِفات ، وعَدَمِ التَّعَلُّقِ بِالآلاتِ أَوْ بِما فات ، وتَأْمُرُهُمْ بِالاشْتِغالِ بِما يَطْلُبُهُ الوَقْتُ الحاضِر ،

وتُعَرِّفُهُمْ بِأَنَّ الوَقْتَ سَيْفٌ إذا لَمْ تَقْطَعْهُ قَطَعَكَ فِي أَكْثَرِ المَحاضِر ، مَعَ أَنَّها لا تَتَّصِفُ بِما نَدَبَتْ إِلَيْهِ ، ولا تُنْصِفُ فَتَعْتَرِفَ وتَتُوبَ وتَتَفَرَّغَ للإِقْبالِ عَلَيْهِ ، وتُجِيبَ داعِيَ اللّه ، وتَتْرُكَ كُلَّ داعٍ ساهٍ لاه .

قالَ سَيِّدِي داوُدُ بنُ باخِلًا : داعِي الدُّنْيا يَدْعُوكَ مِنْ حَيْثُ تَشْتَهِي وتَمِيل ، وداعِي الآخِرَةِ يَدْعُوكَ مِنْ حَيْثُ تَنْفِرُ وتَكْرَهُ ، وداعِي الحَقِيقَةِ يَدْعُوكَ مِنْ حَيْثُ تَفْنَى ويَذْهَبُ شاهِدُكَ ؛ فَلِهَذا تَسْتَجِيبُ النَّفْسُ سَرِيعًا للأَوَّل ، وتَسْتَصْعِبُ الاسْتِجابَةَ للثَّانِي ، وتَمْتَنِعُ مِنَ الاسْتِجابَةِ للثَّالِثِ إِلَّا إِنْ حَفَّتِ العِنايَة .

وإذا كانَتْ هِيَ لا تُجِيبُ فَكَيْفَ تُجابُ ، وإذا كانَتْ لا تَقْبَلُ فَكَيْفَ يَقْبَلُ مِنْها الطُّلَّاب .

ومِنْ ذَلِكَ : حِفْظُها لِعِباراتِ القَوْمِ الَّذِينَ نُبِّهُوا مِنْ سَكْرَةِ الغَفْلَةِ والنَّوْم ، وإِيرادُها لَها فِي المَحافِل ، واعْتِرافُها بِأَنَّ صاحِبَها غافِل ، وإِظْهارُها التَّحَسُّرَ والتَّلَهُّفَ ، ورُبَّما بَكَتْ وأَبْدَتِ الذِّلَّةَ والتَّأَسُّفَ ، فَإِذا وَقَفَ صاحِبُها فِي البَحْثِ عَنْ فِعْلِها الحَسَنِ رَأَى أَنَّها إِنَّما فَعَلَتْ ذَلِكَ لِيُقالَ عَنْها ما أَتَمَّ إِقْرارَهُ بِتَقْصِيرِهِ وما أَحْسَن ؛ وهَذِهِ دَسِيسَةٌ تُورِثُ الحِجاب .

وقَدْ قالَ بَعْضُ الأَنْجاب : أَعْظَمُ مِنَ الحِجابِ الحِجابُ عَنِ الحِجاب .

وياللهِ العَجَبُ مِمَّنْ يَغْتَرُّ بِشَقْشَقَةِ اللِّسانِ وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّها لا تُجْدِيهِ نَفْعًا ، ولا تُكْسِبُهُ يَوْمَ نَشْرِ الصَّحائِفِ رَفْعًا .

ومِنْ جُمْلَةِ دَسائِسِها القَبيحَةِ المُلْجِئَةِ إِلَى الفَضيحة (نَسْأَلُ اللهَ تَعالَى السَّلامَةَ بِجاهِ صاحِبِ العَلامَةِ والغَمامَة) : أَنَّها إِذا عَزَمَ صاحِبُها عَلَى الاشْتِغالِ بِالقِراءَةِ والذِّكْرِ والمُحاسَبَةِ والفِكْرِ تُظْهِرُ لَهُ الكَسَلَ والمَلَل ، ورُبَّما تُوهِمُهُ غَلَبَةَ النَّوْمِ عَلَيْهِ ، وأَمْثالَ هَذِهِ العِلَل ، وإِذا وافَقَها وأَرادَ المَنامَ فَتَحَتْ لَهُ بابًا إِلَى مُسامَرَةِ بَعْضِ أَصْحابِهِ واتَّسَعَ الكَلام ، وقَدْ يَسْأَلُهُ بَعْضُ إِخْوانِهِ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي الطَّرِيقِ (وهُوَ فِي غايَةٍ مِنَ الضَّعْفِ الطَّارِئِ مِنَ السَّهَرِ أَوِ المُكابَدَةِ فِي أَداءِ مَراسِمِ هَذا الفَرِيقِ مِنْ أَوْرادٍ وأَذْكارٍ وقِيامٍ وصِيامٍ رَجاءَ الوَفاءِ بِواجِبِ التَّمْزِيقِ لِحاجِبِ التَّدْقِيق) فَيُجِيبُهُ بِجَوابٍ أَوْ أَجْوِبَةٍ جَمَّة ، ورُبَّما نَشَطَ فِي أَثْناءِ الكَلام ، ورَأَى النَّشاطَ عَمَّهُ ، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ : الحَمْدُ للهِ الَّذي جَعَلَنِي إِذا سُئِلْتَ عَنْ مَسْأَلَةٍ وأَنا كَسْلان أَنْشَطُ لإِفادَةِ الإِخْوان ؛ اسْتِغْنامًا لِتَحْصِيلِ الأَجْرِ الجَزِيلِ مِنَ الرَّحِيمِ الرَّحْمٰن .

ولَوْ أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى هَذِهِ الدَّسِيسَةِ لَرَأَى نَفْسَهُ إِنَّما نَشَطَتْ مَخافَةَ أَنْ

تُنْسَبَ عِنْدَ السَّائِلِ إِلَى الجَهْلِ وعَدَمِ المَعْرِفَةِ بِهَذا السُّؤالِ الصَّعْبِ أو السَّهْلِ ؛ أعاذَنا اللهُ مِنْها ونَبَّهَنا لِنَخْلُصَ مِنْ شَرِّها والأَخْذِ عَنْها .

ومِنْها : أَنْ يُذْكَرَ فِي مَجْلِسِها بَعْضُ المُعاصِرِينَ الفُضَلاءِ مِنَ الأَعْلامِ النُّبَلاءِ ، فَيُرَشِّحُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ بِما فِيهِ حَطٌّ لِمَقامِهِ ، فَتَقُولُ لِصاحِبِها : وَجَبَ عَلَيْكَ الدَّفْعُ عَنْ أَخِيكَ ، ورَدُّ قَوْلِ هَذا الطَّاعِنِ ؛ فَإِنَّهُ أَبْلَغُ مِنَ الطَّعْنِ فِيكَ ، فَيَشْرَعُ فِي تَوْجِيهِ ما أَوْجَبَ لِلمُعْتَرِضِ الاعْتِراض ، ويُبَيِّنُ لَهُ ما فِي هَذا الفِعْلِ مِنَ القُبْحِ والأَمْراض ، ورُبَّما شَدَّدَ عَلَيْهِ النَّكِير ، وأَلْزَمَهُ بِالذَّهابِ إِلَى المُسْتَغابِ وطَلَبِ السَّماحِ وذِكْرِ ما صَدَرَ مِنَ التَّعْرِيفِ أَوِ التَّنْكِير ، وإِذا أَمْعَنَ نَظَرَهُ فِي ذَلِكَ وَجَدَها دَسَّتْ دَسِيسَةً خفِيَّةَ المَسالِك ، وهِيَ صِيانَةُ مَجْلِسِها مِنْ أَنْ يُقالَ يُسْتَغابُ عِنْدَهُ فَلا يَرُدُّ ، ويُتَكَلَّمُ لَدَيْهِ بِما لا يَعْنِي فَلا يَصُدُّ ، ويَسْمَعُ فِعْلَهُ ذَلِكَ المُسْتَغابُ ، فَيَمْدَحُهُ ويَشْكُرُ مِنْهُ هَذا الصَّنِيعَ المُسْتَطاب .

ومِنْها : أَنَّهُ يَسْأَلُهُ عَنْ بَعْضِ مُعاصِرِيهِ ، فَيَقُولُ هُوَ أَخُونا وصَدِيقُنا ، ولا تَسْمَحُ (أَيْ نَفْسُهُ لا تَسْمَحُ) أَنْ يَقُولَ شَيْخُنا ، وتَقُولُ لَهُ : الكَذِبُ لا يَجُوزُ ، وكَيْفَ تَصِفُهُ بِالمَشْيَخَةِ ولَمْ يُفِدْكَ فائِدَةً ، ولا عادَتْ لَكَ

مِنْهُ عائِدَةٌ ، وتُنْسِيهِ بَعْضَ قَوْلِ الأَعْيان : يَنْبَغِي للمُرِيدِ أَنْ يَرَى نَفْسَهُ دُونَ كُلِّ جَلِيسٍ ، وإذا شَهِدَ ذَلِكَ فَقَدِ اعْتَرَفَ بِنَقْصِهِ وكَمالِ مُجالِسِهِ ، وهُناكَ يَسْتَفِيدُ مِنْ كُلِّ مُجالِس .

ولِهَذا قالَ بَعْضُ السَّادَةِ وقَدْ سُئِلَ عَنْ أَشْياخِهِ فَقالَ : لا أُحْصِيهِمْ ؛ لأَنِّي ما جالَسْتُ أَحَداً إلَّا واسْتَفَدْتُ مِنْهُ ، ومَنْ أَفادَكَ بِقالِهِ أَوْ حالِهِ فَهُوَ شَيْخُكَ .

وإنَّما امْتَنَعَتْ مِنَ الإِقْرارِ بِالمَشْيَخَةِ خَوْفًا عَلَى مَنْصِبِها فِي الرِّئاسَة ؛ لِئَلَّا يَسْتَصْغِرَها السَّائِلُ ، فَإِذا تَنَبَّهَ (صاحِبُ النَّفْسِ) رَدَعَها وزَجَرَها ، وأَقامَ عَلَيْها الدَّلائِلَ ، ويَقُولُ لَها : هَلْ فِي قَوْلِكِ هَذا أَوْ تَقْبِيلِكِ يَدَ هَذا المَسْؤُولِ عَنْهُ ما يُوجِبُ تَصْغِيرَكِ عِنْدَ الحَقِّ رَبِّ الأَواخِرِ والأَوائِل ؟! واذْكُرْ لَها قَوْلَ العارِفِ الفارِفِ الوَلِيِّ سَيِّدِي أَبِي الحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ قَدَّسَ اللّٰهُ سِرَّهُ ؛ فَإِنَّهُ كانَ يَقُولُ : مِنْ عِلْمِ اليَقِينِ بِاللّٰهِ عَزَّ وجَلَّ ، وبِما لَكَ عِنْدَ اللّٰهِ أَنْ تَتَعاطَى مِنَ الخُلُقِ ما لا تَصْغُرُ بِهِ عِنْدَ اللّٰهِ مِمَّا تَكْرَهُهُ النُّفُوسُ الغَوِيَّة ، كَحَمْلِ مَتاعِكَ مِنَ السُّوق [1] ، وجَمْعِ الحَطَبِ للطَّعام ، وحَمْلِهِ عَلَى رَأْسِكَ ، والمَشْيِ مَعَ زَوْجَتِكَ إِلَى السُّوقِ فِي

---

(١) ورَضِيَ اللّٰهُ عَنِ القائِل : لا يُنْقِصُ الكامِلَ مِنْ كَمالِهِ ❁ ما جَرَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَى عِيالِهِ

حاجَةٍ مِنْ حَوائِجِها ، ورُكُوبِكَ خَلْفَها عَلَى الحِمارِ وغَيْرِهِ ، وأَمَّا ما تَصْغُرُ بِهِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ مِمَّا للشَّرْعِ عَلَيْهِ اعْتِراضٌ فَلَيْسَ مِنْ عِلْمِ اليَقِين ؛ فَلا يَنْبَغِي لَكَ ارْتِكابُه .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : إذا أَهانَ اللّهُ عَبْداً كَشَفَ لَهُ عَنْ حُظُوظِ نَفْسِهِ وسَتَرَ عَنْهُ عُبُودِيَّتَهُ ؛ فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي شَهَواتِهِ حَتَّى يَهْلِكَ ولا يَشْعُر .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : إذا انْتَصَرَ الفَقِيرُ (الصُّوفِيُّ) لِنَفْسِهِ فَأَجابَ عَنْها فَهُوَ والتُّرابُ سَواء ؛ أَيْ لا قَدْرَ لَهُ عِنْدَ أَهْلِ الشَّأْن ، ومَنْ شانَهُ (عابَهُ) بِذَلِكَ فَما يُعابُ بَلْ يُعان ؛ لِيَذْهَبَ عَنْ قَلْبِ المُجِيبِ ما يُغان .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : العارِفُ بِاللّهِ تَعالَى لا تُنْقِصُهُ حُظُوظُ نَفْسِهِ لأَنَّهُ بِاللّهِ فِيما يَأْخُذُ وفِيما يَقُولُ ، إلَّا إذا كانَتِ الحُظُوظُ مَعاصِيَ اللّه .

ومِنْ قَبِيحِ دَسائِسِها : أَنَّها تَذْكُرُ لِصاحِبِها ما جاءَ فِي فَضْلِ السَّماحَةِ والكَرَمِ وتُحَسِّنُ لَهُ الجُودَ بِالمَوْجُودِ دُونَ امْتِنانٍ للأَجْر ، وتَنْبَسِطُ إذا سَمَحَ ، وتُسَرُّ إذا مَنَحَ ، وتُزَيِّنُ لَهُ أَنَّ هَذا مِنْ كَمالِ الإِنْسانِ أَنْ يَفْرَحَ بِالإِحْسانِ .

فَأَفِقْ واصْحُ ؛ فَمَنْ أَفاقَ وصَحَا وحَقَّقَ مَقالَها وللتَّدْقِيقِ نَحا : رَأَى أَنَّ قَوْلَها زُورٌ ومَحْضُ تَلْبِيسٍ لَيْسَ فِيهِ نُورٌ ، وعَلِمَ أَنَّها إنَّما سَمَحَتْ لِتَكُونَ

لَهُ اليَدُ العُلْيا عَلَى الآخِذِ ، ولِيُقَلِّدَهُ المِنَّةَ ، فَيَسْمَحُ لَها بِالغَفَواتِ مَعَهُ ، فَلا يُؤاخِذُهُ ، ويَنْشُرُ لِواءَ مَدْحِها ، ويَطْوِي مَنْثُورَ قَدْحِها .

ولَوْ أَنَّها أَخْلَصَتِ النِّيَّةَ وحَسَّنَتِ الطَّوِيَّةَ ورَأَتْ أَنَّ ما أَهْدَتْهُ كانَ عِنْدَها أَمانَةً فَأَدَّتْهُ لِصاحِبِها فَسَلِمَتْ مِنْ آفَةِ الخِيانَةِ والجِبايَةِ ، وشَهِدَتِ الفَضْلَ لَهُ حَيْثُ خَفَّفَ حَمْلَها وأَخَذَ ما لَهُ عِنْدها لَكانَ وَصْفًا حَسَنًا ؛ إِذْ أَخْلَصَ سِرًّا وعَلانِيَةً ، لَكِنَّها قَلَّ أَنْ تَدَعَ لِصاحِبِها مَقْصِدًا صافِيًا مِنَ الأَكْدار ، لاتِّفاقِها عَلَيْهِ مَعَ العَدُوِّ الأَكْبَرِ الغَدَّار [1]، ولِذا عَضُلَ الدَّاء ، واسْتَصْعَبَ الدَّواء .

ولَقَدْ قالَ سَيِّدِي داوُدُ بنُ باخِلَّا : إِذا اعْتَرَضَتِ النُّفُوسُ للسَّالِكِينَ أَوْقَفَتْهُمْ عَنْ مَزِيدِ الأَذْكارِ والطَّاعات ، وإِذا اعْتَرَضَتْ للعارِفِينَ حَجَبَتْهُمْ عَنْ لَذائِذِ المُشاهَداتِ والارْتِقاءِ إِلَى أَعْلَى الدَّرَجات ؛ فالنَّفْسُ مانِعَةٌ للفَرِيقَيْن .

وقالَ رضي الله عنه : ((أُلْجِمَتِ النُّفُوسُ فِي مِفْتاحِ التَّوْحِيدِ بِلِجامِ (لا) حَتَّى تَرْجِعَ عَنْ جَمِيعِ دَعاوِيها)) .

أَيْ فَإِذا رَجَعَتْ وأَنابَتْ واسْتَسْلَمَتْ وأَجابَتْ أُمِرَتْ بِذِكْرِ اسْمِ الذَّات ؛

---

(١) أَيْ إِبْلِيس ، عَلَيْهِ مِنَ اللهِ ما يَسْتَحِقُّ .

لِتَكْمُلَ لَها بِالجَمْعِيَّةِ سائِرُ اللَّذَّات ، ثُمَّ إذا بَرِقَتْ لَها بَوارِقُ القَبُولِ وتَرَقَّتْ فِي العُثُورِ عَلَى طَوارِقِ الوُصُولِ نُوِّعَتْ لَها الأَسْما ؛ لِتُحَلِّقَ بِالمَقامِ الأَسْمَىٰ .

ومِنْ ذَلِكَ : أَنَّها تُعَرِّفُ مَنْ يَصْحَبُها آدابَ الصُّحْبَةِ ، وتَقُولُ لِصاحِبِها : عَرِّفْهُ بِما لَها مِنَ الشُّرُوط ، واذْكُرْ لَهُ بَعْضَ ما ذَكَرَهُ الهُمامُ الأَكْبَرِي فِي ((الحَلِّ المَرْبُوط)) ؛ فَعَسى أَنْ يَنْتَفِعَ بِذَلِكَ إِنْ صَحِبَ أَحَدَ الأَشْياخِ مِنْ كُلِّ سالِك ، وآدابَها إِنَّما ثَبَتَ لَهُ ما هُنالِك ، لِيَسْلُكَ مَعَها هَذِهِ المَسالِك .

فَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ السَّيِّدِ المالِك ، وإِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ مِنْ ظُلْمَةِ هَذِهِ الحَوالِك ، اللَّهُمَّ سَلِّمْنا وسَلِّمْ أَحْبابَنا مِنَ الوُقُوعِ فِي المَهالِك .

تَطْلُبُ (النَّفْسُ) مِنْ كُلِّ صَدِيقٍ وصاحِبٍ أَنْ يَفِيَ بِصُحْبَتِها ، وهِيَ لا تَفِي بِصُحْبَةِ أَعَزِّ مُصاحِب ، فَهَلْ سَمِعْتَ سَنَدًا تَرْوِيهِ عَنْ تابِعِيٍّ أَوْ صاحِب ؟! كَلَّا ، ولَكِنْ غَرَّتَها الأَمانِيُّ الكاذِبَة ، فَأَيْنَ أَيْنَ الناجِب ؟! فَقَدْ مَضَى العُمْرُ مَعَها سَبَهْلَلا ، ولَمْ يَدْنُ ضَجِيعُها مِنْ حَيِّ المَعْرِفَةِ ولا راقَ لَهُ مِنْها مَنْهَلا ؛ فَحَقَّ البُكاءُ وإِلَى اللهِ المُشْتَكَى ، قالَ العارِفُ :

عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ ۞ وَلَيْسَ لَهُ مِنْها نَصِيبٌ وَلا سَهْمُ

ويا لَيْتَها لَمَّا دَلَّتْ عَلَى شُرُوطِ الصُّحْبَةِ والوَفاءِ بِحُقُوقِ المَحَبَّةِ اتَّصَفَتْ بِبَعْضِ الأَوْصافِ اللَّازِمَةِ لِتَكُونَ مُتَنَبِّهَةً لِرَأْيِها حازِمَةً ، وعَلَى طَلَبِ الكَمالِ الدَّاعِيَةِ لَهُ جازِمَةً ، ولَمَّا تَغافَلَتْ عَنْ قَوْلِ العارِفِ القَلِيلِ أَمْثالُهُ (لا تَصْحَبْ إِلَّا مَنْ يُنْهِضُكَ حالُه ، ويَدُلُّكَ عَلَى اللّٰهِ مَقالُه) ، وأَيْنَ النَّهِيضُ والدَّلالَةُ عِنْدَ مَنْ لا شَبِيهَ لَها إِلَّا البَقَرَةُ الجَلالَة ، والَّتي عِنْدَها فِي عاداتِها فِطْنَةُ الأَعْراب ، ولَها عِنْدَ إِرادَتِها يَقَظَةُ النَّحَوِيِّينَ فِي الإِعْراب ، وأَمَّا مَواعِيدُها العُرْقُوبِيَّةُ فَلَمْعُ سَراب[1] ، وأَمَّا مَوَدَّتُها فَمَوَدَّةُ السُّوقَةِ مَعَ الأَصْحاب ، ولَها فِي طَلَباتِها مَوَدَّةٌ مَتِينَة ، ومَعَ نُصَّاحِها فَمَوَدَّةُ صُحْبَةِ السَّفِينَة ، لا تَكْتُمُ السِّرَّ إِلَّا كَما يَكْتُمُ الزُّجاج ، ولا تُخْفِي ما اسْتُوْدِعَ إِلَّا كَما يُخْفِي السِّراج ، إِذا طَلَبَتْ طَرِيقَ المَعاصِي كانَتْ أَهْدَى مِنَ القَطا[2] ، وإِنْ رامَتْ سَبِيلَ التَّواصِي لِتَهْدِيَ الصَّوابَ ضَلَّتْ ، وساعَدَتْها الخُطا للخَطا [3] ؛ فَهِيَ

---

(١) مَواعِيدُ عُرْقُوب : هِيَ المَواعِيدُ الَّتي لا يَتِمُّ الوَفاءُ بِها قَطُّ (مِنْ أَمْثالِ العَرَب) .

(٢) القَطا : طائِرٌ فِي حَجْمِ الحَمام ، يَذْهَبُ لِطَلَبِ المَاءِ مِنْ مَسِيرَةِ لَيْلَةٍ فَيَرِدُهُ ضَحْوَةً ، ثُمَّ يَعُودُ فَلا يُخْطِئُ مَوْضِعَهُ .

(٣) والمُرادُ أَنَّ النَّفْسَ إِذا رامَتْ سَبِيلَ الصَّوابِ ضَلَّتْ ، وساعَدَتْها الخُطُواتُ عَلَى الخَطايا والزَّلّات .

كَتَمِيم فِي ذَلِكَ الوَصْفِ الذَّمِيم :

تَمِيمُ بِطُرْقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا ❁ وَلَوْ سَلَكَتْ طُرْقَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتِ

ومِنْ جُمْلَةِ دَسائِسِها : أَنْ تُحَرِّضَ صاحِبَها عَلَى طَلَبِ العِلْمِ الزَّائِدِ عَلَى قَدْرِ الواجِبِ المُثْمِرِ بِالفَوائِدِ ، وتَسْرُدَ عَلَيْهِ ما جاءَ فِي فَضْلِ العِلْمِ ، وأَنَّ النَّفْعَ المُتَعَدِّيَ أَبْلَغُ مِنَ القاصِرِ كالصَّفْحِ والحِلْمِ ، فَإِذا جَدَّ وَجَدَ ، فَأَدْرَكَ بَعْضَ ما أَمَّلَ بِالجُهْدِ والكَدِّ ، أَرَتْهُ عُيُوبَ الجُهَلاءِ الَّذِينَ لَمْ يُدْرِكُوا ما أَدْرَكَ ، وصَغَّرَتْهُمْ فِي عَيْنَيْهِ ؛ فَرَآهُمْ كالذَّرِّ أَوْ شَيْئًا لا يُدْرَك ، ولَمْ تَزَلْ تُعَظِّمُ نَفْسَها بِما فازَتْ بِهِ مِنَ المَعارِف ، حَتَّى تَتَنَكَّرَ وتَتَكَبَّرَ عَلَى الأَجانِبِ والمَعارِف ، فَإِذا نَبَّهَها وقالَ لَها : ما هَذا العُجْبُ بِعِلْمِكِ وعَمَلِكِ ، وما هَذا الزَّهْوُ والفَخْرُ الَّذِي ما جَمَّلَكِ بَلِ الأَوْزارَ حَمَّلَكِ ؟! أَما سَمِعْتِ قَوْلَ النَّبِيهِ المُنَبِّهِ للعاقِلِ الَّذي نَفْسُهُ ساحِرَةٌ وبِهِ ساخِرَةٌ :

يَا مَنْ تَقَاعَدَ عَنْ مَكَارِمِ خُلْقِهِ ❁ لَيْسَ التَّفَاخُرُ بِالْعُلُومِ الفَاخِرَهْ

مَنْ لَمْ يُهَذِّبْ عِلْمُهُ أَخْلاقَهُ ❁ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعُلُومِهِ فِي الْآخِرَهْ

فَتُنْكِرُ إِعْجابَها ورُبَّما عَلَى نَفْيِهِ تُقْسِم ، أَوْ تَعْتَرِفُ بِنَقْصِها كَيْما عَنْها مادَّةَ العِتابِ تَحْسِم ، وإِذا رَآها تَطْلُبُ العِلْمَ ولَمْ تَعْمَلْ ، ودَعا لَها

تُسَوِّفُ وتَقُولُ : الآنَ الطَّلَبُ أَجْمَلُ والتَّعَلُّمُ أَشْرَفُ العِباداتِ وأَكْمَل .

فَإِذا قَضَيْتَ مِنْهُ الأَرَبَ كابَدْتَ العَمَل ؛ كَيْما بِهِ تَجْمُل ، وكُلُّ هَذا مِنْ بابِ التَّسْوِيفِ والتَّحْرِيف ، حَتَّى يُوَلِّيَ زَمانُ الصِّبا ويَأْتِيَ المَشِيبُ بِسُيُولِهِ المُوجِبَةِ للتَّخْرِيف ، ويَتْبَعُهُ الضَّعْفُ فَيَسْتَحِقُّ صاحِبُها التَّقْرِيعَ والتَّعْنِيف ، وتَعِدُهُ بِالإِقْبالِ مَواعِيدَ كَمُونِيَّة [1] ، ورَبِيعُ الزَّمانِ والشَّبابِ غَضّ ، فَإِذا وَلَّيا عَنْهُ وذَهَبا ورَأَى نَفْسَهُ صِفْرَ اليَدَيْنِ ما اسْتَفادَ فِضَّةً ولا ذَهَبًا عَلَى السَّبَّابَةِ بِالتَّواجِذِ عَضّ ؛ حَيْثُ أَضاعَ فِي الصَّيْفِ لَبَنَ الفَوائِد [2] ، وفِي الشِّتاءِ الَّذي هُوَ رَبِيعُ المُؤْمِنِ تَزَوُّدُ الزَّوائِد ، وفِي خَرِيفِ اجْتِناءِ الثِّمارِ عَوْدُ العَوائِد ، وفِي رَبِيعِ الأَرْواحِ والأَجْسامِ ادِّخارُ طَيِّبِ الأَعْمالِ لِيَوْمِ الشَّدائِد .

وكُلُّ ما مَضَى لا يُعاد ، ومَرِيضُ عَيْنِ القَلْبِ كالعَيْنِ لا يُعاد [3] ، وإِذا عايَنَ مِنْها حُبَّ الرِّئاسَةِ عَلَى الأَقْرانِ ، والتَّمَيُّزَ ما بَيْنَ الخِلَّانِ ، والتَّصَدُّرَ فِي المَجالِس ، والمُماراةَ والمُجادَلَةَ مَعَ كُلِّ مُجالِس ، ونَهاهَا عَنْ هَذِهِ الصِّفاتِ القَبِيحَة ، تُبْدِي لَهُ الأَعْذارَ بِأَنَّ مُرادَها المُذاكَرَةُ

---

(١) مَواعِيد كَمُونِيَّة : كَمَواعِيدِ عُرْقُوب ؛ لَيْسَ للوَفاءِ بها سَبِيل .

(٢) إِشارَةً إِلَى أَحَدِ أَمْثالِ العَرَبِ الدَّارِجَة : ((فِي الصَّيْفِ ضَيَّعْتِ اللَّبَن)) .

(٣) بَيْنَهُما جِناسٌ تامٌّ ؛ والأَوَّلُ بِمَعْنَى يَتَكَرَّر ، والثَّانِي بِمَعْنَى يُزار .

والمُطارَحَةُ وما شابَهَ ذَلِكَ مِنَ الأَوْجُهِ الصَّحِيحَة ، وإذا أَلْزَمَها الحُجَّةَ وعَرَّفَها أَنَّها ضَلَّتِ المَحَجَّةَ اسْتَدَلَّتْ عَلَيْها بِقَوْلِ القائِلِ مِنَ الأَوائِل : طَلَبْنا العِلْمَ لِغَيْرِ اللّٰهِ فَأَبَى أَنْ يَكُونَ إِلَّا للّٰه ؛ وهُوَ قَوْلٌ صَحِيحٌ وحُكْمٌ رَجِيحٌ ، ولَهُ وَجْهان :

إِمَّا أَنْ يُرَدَّ صاحِبُهُ إِلَى الإِخْلاصِ فِي النِّيَّة ؛ فَيَكُونَ الحَقُّ سُبْحانَهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ ولَطَفَ بِهِ ، وهَذا غَيْرُ واقِعٍ لِكُلِّ مَنْ طَلَبَ العِلْمَ بِغَيْرِ إِخْلاص .

وإِمَّا أَنْ يَكُونَ المَعْنَى أَنَّ العِلْمَ كانَ نُوراً مِنْ أَنْوارِ اللّٰهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وإِلَى الطَّرِيقِ المُسْتَقِيم ، وقَدْ عَصَى صاحِبُهُ بِطَلَبِ العِلْمِ لِغَيْرِ اللّٰه ، وامْتَنَعَ العِلْمُ أَنْ يَسْتَقِرَّ فِي ذِهْنِهِ لأَنَّهُ عاصٍ ، والعِلْمُ نُورٌ مِنْ نُورِ اللّٰه ، ونُورُ اللّٰهِ لا يُؤْتَى لِعاصٍ .

وقَدْ أَنْشَدَ الإِمامُ الشَّافِعِيُّ رضي الله عنه وأَلْهَمَهُ أَنْ يَكُونَ فِي المَوْقِفِ شافِعًا :

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ❁ فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ ❁ وَنُورُ اللّٰهِ لا يُهْدَىٰ لِعَاصِي

وكَيْفَ يَثْبُتُ وَصْفُ العِلْمِ لِعالِمٍ قَصَدَ بِتَعْلِيمِهِ غَيْرَ اللّٰه ، وهُوَ قَدِ ارْتَدَى بُرْدَ الجَهْلِ المُنافِي لِوَصْفِ العِلْمِ ؛ أَمْ كَيْفَ يَتَحَرَّكُ جَسَدُ المُعَلِّمِ مِنْ دُونِ

رُوحِ الإِخْلاص ؟! وقَدْ يُقالُ فِي المَعْنَى : طَلَبْنا العِلْمَ لِيَكُونَ قائِداً لَنا لِغَيْرِ اللهِ مِنْ حُظُوظِنا ، فَأَبَى أَنْ يَكُونَ مُوصِلاً لَنا إِلَّا إِلَى اللهِ ؛ لأَنَّ طَلَبَ غَيْرِ اللهِ جَهْلٌ ، وكَيْفَ يَدُلُّ العِلْمُ عَلَى الجَهْلِ ؟! والجَهْلُ ظُلْمَةٌ والعِلْمُ نُورٌ ، وكَيْفَ يَهْدِي النُّورُ إِلَى الظُّلْمَة ؟! ولَيْسَ العَجَبُ مِنْ فاضِلٍ بِعِلْمِهِ أُعْجِبَ ، إِنَّما يُتَعَجَّبُ مِنْ جاهِلٍ مُتَلَبِّسٍ لِدَعْواه ، وهَذا أَعْجَب ؛ إِذْ هُوَ المُسَمَّى بِالجَهْلِ المُرَكَّب ، وهُوَ الأَحْمَقُ بِعَيْنِهِ الَّذي يُجْتَنَب .

فَإِنَّ الرِّجالَ فِي المَعْرِفَةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسامٍ كَمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الأَعْلام ، فَقالَ : رَجُلٌ يَدْرِي ويَدْرِي أَنَّهُ يَدْرِي فَهُوَ عالِمٌ فاتَّبِعُوهُ ، ورَجُلٌ لا يَدْرِي ولا يَدْرِي أَنَّهُ لا يَدْرِي فَهُوَ أَحْمَقُ فاجْتَنِبُوهُ ، ورَجُلٌ يَدْرِي ولا يَدْرِي أَنَّهُ يَدْرِي فَهَذا غافِلٌ فَنَبِّهُوهُ ، ورَجُلٌ لا يَدْرِي ويَدْرِي أَنَّهُ لا يَدْرِي فَهَذا جاهِلٌ فَعَلِّمُوهُ ، وقَدْ أَنْشَدَ أَبُو القاسِمِ الآمِدِي فِي هَذا المَعْنَى :

إِذَا كُنْتَ لا تَدْرِي وَلَمْ تَكُ بِالَّذِي ❁ يُسائِلُ مَنْ يَدْرِي فَكَيْفَ إِذَا تَدْرِي

جَهِلْتَ وَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّكَ جَاهِلٌ ❁ فَمَنْ لِي بِأَنْ تَدْرِي بِأَنَّكَ لا تَدْرِي

إِذَا جِئْتَ فِي كُلِّ الأُمُورِ بِغُمَّةٍ ❁ فَكُنْ هَكَذَا أَرْضًا يَطَاهَا الَّذِي يَدْرِي

وَمِنْ أَعْجَبِ الأَشْيَاءِ أَنَّكَ لا تَدْرِي ❁ وَأَنَّكَ لا تَدْرِي بِأَنَّكَ لا تَدْرِي

ومِنْ وَصايا سَيِّدِي مُحْيِي الدِّين قَدَّسَ اللّٰهُ سِرَّهُ لِتِلْمِيذِهِ سَيِّدِي إِسْماعِيلَ بنِ سَوْدَكِين ؛ عَلَى ما نَقَلَهُ فِي «لَواقِح الأَسْرار ولَوامِح الأَنْوار» الَّذي جَمَعَهُ مِنْ كَلام الشَّيْخ : ومَتَى ذَكَرْتَ الفائِدَةَ لِشَخْصٍ ما ، فَلا تَذْكُرْها مِنْ كَوْنِكَ أَعْلَمَ مِنْهُ ولا أَفْضَلَ ، فَتُحْجَبَ بِذَلِكَ وتَقُومَ بِشُغُوفِكَ عِنْدَ نَفْسِكَ ، بَلِ اذْكُرْ لَهُ الفائِدَةَ بِالنَّظَرِ إِلَى قَوْلِهِ ﷺ : (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيامَةِ بِلِجامٍ مِنْ نار)[1]، وبِنِيَّةِ نَشْرِ العِلْمِ والإِنْفاقِ مِنْهُ والتَّناصُحِ والنَّظَرِ إِلَى قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [2] ، فَمِنَ الوَفاءِ بِالمِيثاقِ بَذْلُ العِلْمِ الَّذي يَنْتَفِعُ بِهِ سامِعُهُ خاصَّةً ، فَتَكُونُ قَدْ ذَكَّرْتَ وأَجَبْتَهُ بِلِسانِ الشَّرْعِ ، ومَتَى أَنْكَرْتَ عَلَى شَخْصٍ مُنْكَرًا مُحَقَّقًا فِي الشَّرِيعَةِ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ لا تَجِدُ لَكَ مَخْرَجًا ولا بُدَّ مِنْ إِنْكارِهِ شَرْعًا ، فَلا تُنْكِرْ عَلَيْهِ بِطَبْعِكَ ولا تُعَنِّفْهُ ، بَلْ قُلْ بِرِفْقٍ : إِنَّ الشَّرْعَ قَدْ نَهَى عَنْ مِثْلِ هَذا ، لا تَقُلْ لَهُ : أَنْتَ عَلَى خَطَأٍ وأَنْتَ مُخالِفٌ ، بَلِ ارْفُقْ بِهِ ما اسْتَطَعْتَ .

---

(١) رَواهُ أَبو داوُد ، وأَحْمَدُ ، وابنُ ماجَه ، والطَّبَرانِي فِي الكَبِير والأَوْسَطِ والصَّغِير ، والحاكِمُ فِي المُسْتَدْرَك ، وأَبو نُعَيْم فِي الحِلْيَة ، والبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَب ، والدَّيْلَمِي فِي الفِرْدَوْس ، وابنُ عَدِيٍّ فِي الكامِل ، وابنُ أَبِي شَيْبَة فِي المُصَنَّف .

(٢) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٨٧.

ثُمَّ قالَ : اعْلَمْ أَنَّ صِفَةَ العِلْمِ الَّتي قامَتْ بِي أَفْضَلُ مِنْ صِفَةِ الجَهْلِ الَّتي قامَتْ بِغَيْرِي ؛ فالصِّفَةُ أَفْضَلُ مِنَ الصِّفَةِ مُطْلَقًا ، والحالُ أَفْضَلُ مِنَ الحال ؛ لا أَنَّ المَوْصُوفَ أَفْضَلُ مِنَ المَوْصُوف ، كَيْفَ والأَحْوالُ تُحَوَّلُ وتُسْلَبُ وتُؤْخَذُ مِنْ مَحَلٍّ تُعْطَى لِمَحَلٍّ آخَرَ ، فَلا يُفَضَّلُ بَيْنَ الذَّواتِ المَوْصُوفَةِ إِلَّا بِأَمْرٍ إِلَهِيٍّ يُعَرِّفُكَ بِها اخْتِصاصَهُ .

وانْظُرْ إِلَى أَدَبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذي عَلَّمَهُ اللهُ التَّأَدُّبَ بِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [1] ، فَتَسَمَّى بِالاسْمِ الَّذي يُشارِكُهُ فِيهِ جَمِيعُ الخَلْقِ ، ولَمْ يَتَسَمَّ بِأَعْلَى أَوْصافِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ والرِّسالَةِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ ، كُلُّ ذَلِكَ مُراعاةً لِمَقامِ العُبُودِيَّةِ الَّتي خُلِقَ لأَجْلِها ، ولَمْ يُؤْمَرِ النَّبِيُّ ﷺ بِإِظْهارِ مَرْتَبَتِهِ بِقَوْلِهِ : (أَنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ولا فَخْرَ)[2] ، ما أَظْهَرَها ﷺ إِلَّا اعْتِرافًا بِنِعْمَةِ اللهِ تَعالَى عَلَيْهِ .

وقَوْلُ الطَّائِفَةِ : العِلْمُ حِجابٌ : أَي العِلْمُ بِالمَعْلُوماتِ والاشْتِغالُ بِها حِجابٌ عَنِ العِلْمِ بِالذَّاتِ الَّذي أُمِرَ السَّيِّدُ الأَعْظَمُ بِطَلَبِ الزِّيادَةِ مِنْهُ ، أَوْ يُقالُ : المُرادُ بِالعِلْمِ عِلْمُ اليَقِين ؛ إِذْ هُوَ حِجابٌ عَنِ العِلْمِ : أَيْ عَنْ

---

(١) سُورَةُ الكَهْف : مِنَ الآيَة ١١٠ .

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ، والتِّرْمِذِيُّ ، وأَبو داوُدَ ، وأَحْمَدُ ، وابنُ ماجَه ، وابنُ حِبَّانَ فِي الصَّحِيح ، والبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ .

عِلْم عَيْنِ اليَقِين ، وعِلْمُ عَيْنِ اليَقِينِ حِجابٌ عَنْ عِلْم حَقِّ اليَقِين[1]، وقِيلَ : حِجابٌ عَنِ الجَهْل، وقِيلَ : حِجابٌ عَنِ الوُقُوعِ فِي المَعاصِي مَعَ الإِصْرارِ عَلَيْها ، وهُوَ حِجابٌ بِالنَّظَرِ لِمَنِ اغْتَرَّ بِهِ وقَنَعَ بِدُونِ عَمَلٍ ؛ فَأَوْجَبَ لَهُ الزَّلَلَ وأَلْقاهُ فِي التَّكَبُّرِ والعُجْبِ وحُبِّ الرِّئاسَة ، وما شاكَلَ هَذِهِ العِلَلَ .

وبَعْضُ مَنْ لَمْ يَدْرِ المُرادَ مِنْ هَذِهِ العِبارَةِ حَمَلَها عَلَى الإِطْلاقِ ، ورَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالجَهْلِ وأَضْدادِهِ ، فَما أَشْرَفَها مِنْ صِفَةٍ ، حَبانا اللّٰهُ الحَظَّ الوافِرَ مِنْها .

ومِنْ هُنا أَمَرَ الأَشْياخُ تَلامِيذَهُمْ بِطَلَبِ العِلْم الواجِبِ الَّذي لا بُدَّ مِنْهُ ، ولا غِنَى لِكُلِّ مُكَلَّفٍ عَنْهُ مِنْ مَعْرِفَةِ عِلْم العَقائِدِ وما يَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الطَّهارَةِ والصَّلاةِ والصِّيام ، ثُمَّ إِذا وُجِدَ عِنْدَهُ النِّصابُ أَمَرُوهُ بِقِراءَةِ كِتابِ الزَّكاة ، أَوْ ما يُوجِبُ عَلَيْهِ الحَجَّ فَيَأْمُرُوهُ بِقِراءَةِ كِتابِ

---

(١) عِلْمُ اليَقِين : هُوَ العِلْمُ الَّذي لا يُساوِرُ صاحِبَهُ أَدْنَى رَيْبٍ فِيهِ كالعِلْم أَنَّ لِلّٰهِ تَعالَى كَعْبَةً مُشَرَّفَةً يَقْصِدُها الحُجَّاجُ والمُعْتَمِرُون .

عَيْنُ اليَقِين : هُوَ مُطابَقَةُ العِلْم اليَقِينِي بِالرُّؤْيَةِ العَيانِيَّةِ كالسَّفَرِ إِلَى مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ومُعايَنَةِ الكَعْبَةِ والطَّوافِ بِها .

حَقُّ اليَقِين : هُوَ أَنْ يَكُونَ المَعْنَى والمَبْنَى ماثِلًا فِي فُؤادِكَ كَتَمَثُّلِ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ آناءَ اللَّيْلِ وأَطْرافَ النَّهارِ فِي كُلِّ صَلَواتِكَ الفَرْضِيَّةِ والنَّفْلِيَّة ، وهَذِهِ كُلُّها مِنْ بَدَهِيَّاتِ أَهْلِ الطَّرِيق .

الحَجِّ ، وما لا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ مِنْ إعْرابٍ دُونَ إغْرابٍ ؛ لِيَخْلُصَ اللِّسانُ مِنَ الخَطَأِ (ومَدارُهُمْ عَلَى إصابَةِ القَلْبِ واسْتِقامَةِ سَيْرِهِ إذا خَطا) ، وإلَّا فَكَمْ مِنْ مُعْرِبٍ مُصيبٍ بِلِسانِهِ لَحَّانٍ بِفِعْلِهِ وحالِهِ وجَنانِه .

واعْلَمْ أَيُّها الأَخُ المُحْتَسِي كَأْسَ الإفادَة - بَلَّغَكَ اللهُ الحُسْنَى وأَنالَكَ الزِّيادَة - أَنَّ عَدَمَ إعْرابِ بَعْضِ السَّادَةِ لا يُعَدُّ لَحْنًا عِنْدَ أَهْلِ الإرادَة ؛ لأَنَّ القَوْمَ يَدُورُونَ مَعَ حَقائِقِ المَعانِي والمَبانِي ؛ وكَيْفَ يَلْحَنُ النَّاطِقُ بِاللِّسانِ الرُّوحانِي عَنِ الفَيْضِ السُّبْحانِي ؟! لَكِنَّ أَحَدَهُمْ إذا أَرادَ أَنْ يَنْطِقَ بِالكَلامِ الوَضِيعِ الخاوِي عَنِ المَعْنَى الرَّفِيعِ الحاوِي عَلَى المُرادِ البَشِيعِ مَرْفُوعًا وكانَ مِنْ حَقِّهِ الرَّفْعُ تُقابِلُهُ حَقِيقَتُهُ ، وتُخاطِبُهُ بِأَنِّي لا أَسْتَحِقُّ الرَّفْعَ ؛ فَيَنْطِقُ بِالكَلامِ مَخْفُوضاً [1] ، فَيَظُنُّهُ السَّامِعُ أَنَّهُ أَخْطَأَ ، وما أَخْطَأَ نَحْوَ الخَطَا ، ولَكِنَّهُ حَقَّ الحَقِيقَةِ لَها أَعْطَى ، وبِالعَكْس .

ورُبَّما نَصَبَ المَكْسُورَ لِما تُعْطِيهِ حَقِيقَتُهُ مِنَ الفَتْحِ والانْتِصابِ للحَقِّ ، ويَكْسِرُ المَنْصُوبَ إذا أَعْطَتْهُ حَقِيقَتُهُ أَنَّهُ بِالكَسْرِ أَحَقُّ وبِالجَرِّ والانْخِفاضِ

---

(١) يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ ﷺ : إنَّ القَوْلَ الوَضِيعَ لا يَسْتَحِقُّ الرَّفْعَ بَلِ الخَفْضَ (حَتَّى ولَوْ دَرَجَ النُّحاةُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ) ، وهَذا كَلامٌ نُسَلِّمُ بِهِ لأَهْلِ الحَقائِقِ ، كَما نُسَلِّمُ قَواعِدَ النَّحْوِ لأَرْبابِهِ .

سَيَلْحَقُ ، ورُبَّما يَجْزِمُ المُتَحَرِّكَ إذا أَعْطَتْهُ حَقِيقَتُهُ السُّكُونَ والجَزْمَ بالأَمْرِ الَّذي سَيَكُونُ ، ويُحَرِّكُ السَّاكِنَ باعْتِبارِ ما تُعْطِيهِ حَقائِقُ الأَشْخاصِ والأَمْكِنَةِ والأَزْمانِ والأَلْفاظِ أَوِ المَعانِي المُنْخَفِضَةِ أَوِ المَرْفُوعَةِ الحِسان ، ورُبَّما أَلْزَمَ الأَسْماءَ الخَمْسَةَ : الأَلِف ، والياء ، والواو ، لا عَلَى لُغَةِ مَنْ يُجِيزُ ذَلِكَ ، بَلْ لأَمْرٍ وَرَدَ مِنْ حَيْثُ الحَقائِق ؛ فَأَوْجَبَ ما هُنالِك .

ومَعَ هَذا فَلُغَةُ العَرَبِ واسِعَةُ الأَكْنافِ مُنْتَثِرَةُ الأَطْرافِ ، وما ضُبِطَ مِنْها قَدْرٌ يَسِيرٌ ، والكَثِيرُ خَفِيَ وخَبا ، إذِ اللُّغَةُ لَمْ يُحِطْ بِها إلَّا نَبِيٌّ ، فَسَلِّمْ تَسْلَمْ ، واتَّخِذْ للعُرُوجِ سُلَّمًا ، واتْلُ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ (١) ، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (٢) .

ثُمَّ إنَّ المَشايِخَ رضي الله عنهم يَشْغَلُونَ المُرِيدَ بِتَهْذِيبِ الأَخْلاقِ ، وفَتْحِ ما عَلَى القَلْبِ مِنَ الأَغْلاقِ بِدَوامِ الذِّكْرِ ومُراقَبَةِ المَلِكِ الخَلَّاقِ ، والتَّخْلِيَةِ والتَّحْلِيَةِ ؛ لِيَفُوزَ مِنْ وَثاقِهِ بِوَصْفِ الإِطْلاقِ ، ويَأْمُرُونَهُ بِالأَخْذِ بِالعَزائِمِ دُونَ تَتَبُّعِ الرُّخَصِ ، وبِالهَرَبِ إلَى مَواطِنِ الإِجْماعِ ، أَوْ ما عَلَيْهِ الأَكْثَرُ ، حَتَّى يَتِمَّ إشْراقُهُ ، وتَتَحَلَّى بِأَفْخَرِ الحُلَى أَطْواقُهُ ،

---

(١) سُورَةُ الإسراء : مِنَ الآيَة ٨٥ . (٢) سُورَةُ طه : مِنَ الآيَة ١١٤ .

وتَطْمَئِنَّ نَفْسُهُ وتَخْشَع ، وتَذِلَّ لِمَعْرِفَتِها بِجَهْلِها وتَخْضَع ، وتَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ جاءَتْ وإِلَى أَيْنَ تَصِيرُ فَتَخافَ وتَجْزَع ، وتُفِيقَ مِنْ سَكْرَتِها عَمَّا إِلَيْهِ تَصِيرُ وبِذا أَكْبادُها تَتَقَطَّع ، وتُعايِنَ رَشْحَةَ طَلٍّ مِنْ رَشَحاتِ بُحُورِ العُلُومِ الزَّواخِر ، فَتَرَى كُلَّ ما بِأَيْدِي النَّاسِ مِنَ الأَوائِلِ والأَواخِرِ رَشْحَةً مِنْ تِلْكَ الرَّشْحَةِ ونَفْحَةً مِنْ تِلْكَ النَّفْحَةِ ؛ وهُناكَ تَنْقَطِعُ مِنْها شُروشُ الكِبْرِ والإِعْجاب ، ويَطِيشُ عَنْ صاحِبِها الفِكْرُ والعَقْلُ ويُذْهِلُهُ ذَلِكَ الكَشْفُ العُجاب ، فَلَوْ قَرَأَ جَمِيعَ العُلُومِ وأَحاطَ بِسائِرِ الفُهُومِ لَمْ يَزِدْهُ ذَلِكَ إِلَّا خُضُوعًا ، ولَمْ يُكْسِبْهُ ذَلِكَ الاطِّلاعُ إِلَّا خُشُوعًا .

فَإِذا عايَنَ الأُسْتاذُ مِنْ مُرِيدِهِ هَذا الحالَ أَذِنَ لَهُ فِي القِراءَةِ والإِقْرار ، وحَذَّرَهُ غَوائِلَ النَّفْسِ وأَلْزَمَهُ بِخِلافِها فِي الإِقامَةِ والتِّرْحال ، أَلا تَرَى لِمَنْ تَجَلَّى اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى عَلَيْهِ بِصِفَةِ العِلْمِ كالإِنْسانِ الكامِلِ حَتَّى عَلِمَ ما كانَ وما سَيَكُونُ وما لا يَكُونُ كَيْفَ كانَ لَوْ يَكُونُ ؛ لأَنَّ العِلْمَ صِفَةٌ إِحاطِيَّةٌ لا نِهايَةَ لَها ؛ لأَنَّ كُلَّ نِهايَةٍ داخِلَةٌ تَحْتَ حَيْطَتِهِ ، ومَعَ هَذا فَلا يَرَى لِنَفْسِهِ عِلْمًا ولا يَشْهَدُ لَها إِدْراكًا وفَهْمًا ، بَلْ يَتَحَقَّقُ أَنَّ ما عَلِمَهُ بِرَبِّهِ وأَنَّ ما عِنْدَهُ وَدِيعَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ عِنْدَ أَهْلِ الحَقِيقَة .

وإِذا كانَ صاحِبُ هَذا الحالِ غَيْرَ مَقْبُولِ الدَّعْوَى فِي العِلْمِ فَغَيْرُهُ بِالأَوْلَى عِنْدَ مَنِ اسْتَسْلَمَ وجَنَحَ للسَّلْم ، وإِذا تَحَقَّقَتِ النَّفْسُ فِي سِرِّ

قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١) ، وقَوْلِهِ : ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (٢) ، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ (٣) ، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤) ، هَدَأَتْ شَقاشِقُها ، وسَكَنَتْ بَوارِقُها ، وعَلِمَتْ أَنَّ كُلَّ ما هِيَ فِيهِ مِنَ الأَوْصافِ عارِيَةٌ عِنْدَها ، عارِيَةٌ مِنْها ، غَيْرُ مَكْسِيَّةٍ بِذَلِكَ ؛ لأَنَّها لَو اكْتَسَتْ بِهِ رُبَّما مَلَكَتْهُ ، وهُوَ وَدِيعَةٌ ، مَتَى شاءَ أَخَذَها المالِكُ ، فَتَضْمَحِلُّ دَعاوِيها وتَذُوب ، وتَرْجِعُ حَقِيرَةً ذَلِيلَةً إِلَى مَوْلاها وتَتُوب .

قالَ سَيِّدِي عَبْدُ الوَهَّابِ الشَّعرانِي قَدَّسَ اللّٰهُ سِرَّهُ فِي ((مِنَنِهِ الوُسْطَى)) : ومِمَّا مَنَّ اللّٰهُ عَلَيَّ عَدَمُ رُؤْيَتِي نَفْسِي أَنِّي مَعْدُودٌ مِنَ العُلَماء ، لَمْ يَزَلْ جَهْلِي مَشْهُوداً لِي عَلَى الدَّوام ، وهَذا مِنْ أَكْبَرِ نِعَمِ اللّٰهِ عَلَيَّ ؛ ولِذَلِكَ لا تَطْلُبُ نَفْسِي قَطُّ أَنْ تُزاحِمَ العُلَماءَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يَخُصُّهُمْ عادَةً ، حَتَّى لَوْ قُدِّرَ أَنَّ السُّلْطانَ رَسَمَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنَ العُلَماءِ أَلْفَ دِينارٍ لَمْ تُحَدِّثْنِي نَفْسِي قَطُّ أَنَّهُمْ يُعْطُونَنِي مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، بِخِلافِ مَنْ كانَ مُتَفَعِّلًا فِي هَذا المَقام ؛ فَإِنَّهُ رُبَّما يَفِتُّ الخُبْزَ عَلَى الدُّخان ، كَما كانَ أَشْعَبُ الطَّمَّاع .

---

(١) سُورَةُ الإسراء : مِنَ الآيَة ٨٥ .
(٢) سُورَةُ الرَّحْمَن : الآيَتان ١ ، ٢ .
(٣) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ١١٣ .
(٤) سُورَةُ النُّور : مِنَ الآيَة ١٩ .

وسَمِعْتُ أَخِي أَفْضَلُ الدِّينِ يَقُولُ : مَنْ نَظَرَ فِي عُلُومِ السَّلَفِ لَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ قَطُّ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ ؛ فَقَدْ نَقَلَ أَصْحابُ الطَّبَقاتِ أَنَّ الإِمامَ ابنَ الحَدَّادِ لَمَّا حُرِقَتْ كُتُبُ العِلْمِ الَّتي فِي المَدْرَسَةِ النِّظامِيَّةِ بِبَغْدادَ ونَدِمَ عَلَى ذَلِكَ واقِفُها نِظامُ المَلِك ، قالُوا : لا تَخَفْ ، فَإِنَّ ابنَ الحَدَّادِ يُمْلِي جَمِيعَ ما حُرِقَ مِنْ حِفْظِهِ ، فَأَرْسَلُوا وَراءَهُ ، فَأَمْلَى جَمِيعَ ما حُرِقَ فِي مُدَّةِ سَنَتَيْنِ ما بَيْنَ تَفْسِيرٍ وحَدِيثٍ وأُصُولٍ وفِقْهٍ ونَحْوِ ذَلِك .

قالَ : وقَدْ صَنَّفَ ابنُ شاهِينَ المُحَدِّثُ ثَلاثَمِئَةٍ وثَلاثِينَ مُؤَلَّفًا ، مِنْها تَفْسِيرُهُ للقُرْآنِ فِي أَلْفِ مُجَلَّدٍ ، ومِنْها المُسْنَدُ فِي أَلْفٍ وسِتِّمِئَةِ مُجَلَّدٍ ، وحاسَبَ الحَبَّارَ عَلَى اسْتِجْرارِهِ مِنْهُ الحِبْرَ للكِتابَةِ فَبَلَغَ أَلْفَي قِنْطار .

وحَكَى السُّبْكِي وغَيْرُهُ أَنَّ بَعْضَ العُلَماءِ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ صَنَّفَ فِي مَذْهَبِ الإِمامِ الشَّافِعِيِّ أَلْفَ مُجَلَّد .

وحَكَى الجَلالُ السُّيُوطِي أَنَّ للشَّيْخِ أَبِي الحَسَنِ الأَشْعَرِي تَفْسِيراً فِي خِزانَةِ المَدْرَسَةِ النِّظامِيَّةِ سِتَّمِئَةِ مُجَلَّدٍ .

وحُكِيَ أَيْضًا عَنْ مُحَمَّد بنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِي أَنَّهُ كانَ يَحْفَظُ وَقْرَ ثَمانِينَ بَعِيراً .

وحَكَى السُّبْكِي أَنَّ مُحَمَّدَ بنَ الأَنْبارِي كانَ يَحْفَظُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ عَشْرَةَ

آلافِ وَرَقَةٍ ، وأَنَّ الإمامَ الأَوْحَدِي كانَ يَحْفَظُ مِنَ العُلُومِ وَقْرَ مِئَةٍ وعِشْرِينَ بَعِيرًا .

قالَ : ومِنَ الغَرائِبِ أَنَّ عَلِيًّا بنَ سِينا حَفِظَ القُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ واحِدَةٍ ، وكانَ لا يَسْمَعُ شَيْئًا إِلَّا حَفِظَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ كَذَلِك .

وكانَ الإمامُ الشَّافِعِيُّ رضي الله عنه يَقُولُ : ما سَمِعْتُ شَيْئًا قَطُّ ونَسِيتُهُ ، ورَوَينا عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه أَنَّهُ كانَ يَقُولُ : لَوْ شِئْتُ لَوَقَرْتُ لَكُمْ ثَمانِينَ بَعِيرًا مِنْ مَعْنَى الباء .

وكانَ الإمامُ الأَعْظَمُ اللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ رضي الله عنه يَقُولُ : لَوْ كَتَبْتُ ما فِي صَدْرِي ما وَسِعَهُ مَرْكَبٌ .

فَلْيَنْظُرْ مَنْ يَدَّعِي العِلْمَ فِي هَذا الزَّمانِ مَرْتَبَتَهُ فِي العِلْمِ بِالنِّسْبَةِ لِهَؤُلاءِ العُلَماء ، يَعْرِفْ تَخَلُّفَهُ وجَهْلَهُ يَقِينًا .

وسَمِعْتُ سَيِّدِي عَلِيًّا الخَوَّاصَ - رَحِمَهُ اللهُ - يَقُولُ : مَنْ أَرادَ أَنْ يَعْرِفَ مَرْتَبَتَهُ فِي العِلْمِ فَلْيَرُدَّ كُلَّ قَوْلٍ عَلِمَهُ إِلَى قائِلِهِ ، ويَنْظُرْ فِي نَفْسِهِ ، فَما بَقِيَ مَعَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عِلْمُهُ الَّذي يُبْعَثُ عَلَيْهِ يَوْمَ القِيامَة ، وما عَدا ذَلِكَ فَلَهُ مِنْ ثَوابِ حَمْلِهِ لا غَيْرُهُ .

وسَمِعْتُهُ يَقُولُ مَرَّاتٍ : لا يَبْلُغُ الرَّجُلُ مَقامَ الكَمالِ إِلَّا إِنْ صارَتْ مَذاهِبُ

جَمِيعِ المُجْتَهِدِينَ نُصْبَ عَيْنِهِ .

ومِنْ دَسائِسِها : أَنْ تُحَسِّنَ لِصاحِبِها الانْدِراجَ فِي سِلْكِ أَهْلِ الطَّرِيق ، وتُرَغِّبَهُ فِي الدُّخُولِ فِي زُمْرَةِ هَذا الفَرِيق ، وتُعَرِّفَهُ أَنَّ الإِنْسانَ مِنْ دُونِ شَيْخٍ كامِلٍ لا يَخْلُصُ مِنَ الرِّياءِ والعُجْبِ فِيما يُعامِل ، وتَقْرَأَ عَلَيْهِ بَعْضَ عِباراتِ العارِفِينَ فِي طَلَبِ المُرْشِدِ وما أَشارَ إِلَيْهِ مِقْدامُ العارِفِينَ الإِمامُ الشَّعْرانِي والهُمامُ الرَّبَّانِي فِي أَوائِلِ المِنَن ، وتُحَرِّضَهُ عَلَى المُبادَرَةِ فِي طَلَبِ المُرْشِدِ فِي السِّرِّ والعَلَن .

وعِبارَةُ سَيِّدِي عَبْدِ الوَهَّاب : ((فَإِنْ أَرَدْتَ يا أَخِي التَّخَلُّقَ بِشَيْءٍ مِنْ أَخْلاقِ هَذا الكِتابِ فاطْلُبْ لَكَ شَيْخًا صادِقًا ، لا تَشُكُّ فِي صِدْقِهِ ؛ لِيَسْلُكَ بِكَ فِي مَقاماتِ الطَّرِيق ؛ لِتَعْرِفَها بِالذَّوْقِ لا بِالسَّماع ، حَتَّى تَصِيرَ تُوَحِّدُ اللهَ فِي سائِرِ المَراتِبِ كَشْفًا ويَقِينًا ، كَما أَنَّكَ بِمُجَرَّدِ قَوْلِكَ أَنَّ الفِعْلَ للهِ تَعالَى يَذْهَبُ مِنْكَ الرِّياءُ والعُجْبُ بِأَعْمالِكَ ، وتَعْبُدُ اللهَ خالِصًا ، لا خَوْفًا مِنْ نارِهِ ، ولا رَجاءً لِثَوابِهِ [1] ، فَحُكْمُ مَنْ

---

(١) مِنْ كَلِماتِ الأَئِمَّةِ المُرْشِدِينَ فِي هَذا المَعْنَى : ((لا تَعْبُدْ لِتَنالَ أَجْراً فَتَكُونَ عَبْدَ الأَجْر ، ولِتَنالَ قُرْبًا فَتَكُونَ عَبْدَ القُرْب ، جَرِّدْ سِرَّكَ مِنَ التَّفْكِيرِ فِي غَيْرِ رَبِّكَ ، حَتَّى إِذا وَصَلْتَ إِلَى القُدْسِ فاعْلَمْ أَنَّ القُدْسَ حِجابُ القُدُّوسِ سُبْحانَهُ)) ، ويَقُولُ أَيْضًا :

غَيْرِي يَمِيلُ إِلَى الْجِنانِ وَيَطْلُبُ ۞ وَأَنَا الَّذِي عَنْهَا أَفِرُّ وَأَهْرُبُ
نَارُ الْجَحِيمِ مَعَ الرِّضَا هِيَ جَنَّتِي ۞ أَمَّا النَّعِيمُ بِغَيْرِهِ لا أَرْغَبُ

شَهِدَ الفِعْلَ للّهِ كَشْفًا حُكْمُ مَنْ باتَ نائِمًا وجارُهُ قائِمًا إِلَى الصَّباح ؛ فَإِنَّهُ لا يُصْبِحُ يَدَّعِي قِيامَ اللَّيْلِ الَّذي قامَهُ جارُهُ أَبَداً .

وقَدْ كُنْتُ أَنا عَلَى هَذا الحالِ زَمانًا طَوِيلًا إِلَى أَنِ اجْتَمَعْتُ بِسَيِّدِي عَلِيٍّ الخَوَّاص ، فَكَشَفَ لِي عَنْ بَعْضِ مَعالِمِ الطَّرِيق ، فَعَلِمْتُ أَنَّ جَمِيعَ ما كُنْتُ أَظُنُّهُ مِنْ مَقاماتِ الخَواصِّ إِنَّما هُوَ مِنْ مَقاماتِ المُرِيدِينَ ، وأَنَّ مَقاماتِ العارِفِينَ تَجِلُّ عَنْ أَنْ يَذُوقَها أَمْثالُنا ، كَما أَنَّ أَخْلاقَ الأَنْبِياءِ تَجِلُّ عَنْ أَنْ يَذُوقَها أَكابِرُ الأَوْلِياء ؛ فَإِنَّ بِدايَةَ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ تَأْخُذُ مِنْ بَعْدِ انْتِهاءِ دَرَجاتِ الوِلايَة ، فَلَيْسَ لِلأَدْنَى مِنْ تَخَلُّقِهِ بِمِثْلِ صِفاتِ الأَعْلَى سِوَى الاسْم فَقَط)) .

فَإِذا رَغِبَ فِي سُلُوكِ الطَّرِيقَةِ العُلْيا ووَجَّهَ الهِمَّةَ فِي طَلَبِ المُرْشِدِ لِيَكُونَ مُتَّبِعًا لَهُ أَمْراً ونَهْيًا ، فَساقَهُ اللّهُ إِلَيْهِ ودُلَّ عَلَيْهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ دَخَلَ تَحْتَ عَهْدِهِ ومِيثاقِهِ المُحْكَم ، وقَبِلَ كُلَّ ما شَرَطَ عَلَيْهِ ، وبِهِ لِنَفْسِهِ أَلْزَم ، تَنَزَّلَ لَهُ الدَّاعِي حَتَّى تَمَلَّكَ ثُمَّ تَحَكَّم ، وصارَ يُحَمِّلُهُ المِيثاقَ بِدُونِ إِشْفاقٍ كالمَلِكِ المُحَكَّم ، ويَأْمُرُهُ أَنْ يَكُونَ لَدَى أَوامِرِهِ أَخْرَسَ أَبْكَم .

فَلَمَّا عايَنَتِ النَّفْسُ ما حَلَّ بِها ، وتَحَقَّقَتْ أَنَّهُ إِنْ تَمَلَّكَها عَزَلَها ، أَخَذَتْ

فِي نَقْضِ ما أَبْرَمَتْ ، وإِظْهارِ نَقْصِ ما بِفِعْلِهِ تَبَرَّمَتْ ، وصَعَّبَتْ عَلَيْهِ قَطْعَ مَفاوِزِ هَذِهِ المَراقِي ، وزَيَّنَتْ لَهُ أَنَّ تَقاعُسَها أَوَّلًا لِضَعْفِها عَنْ تَناوُلِ كَأْسِ هَذا السَّاقِي ، وشَرَعَتْ فِي إِخْلادِهِ إِلَى أَرْضِ الهَوَىٰ الَّتي مَنْ أَخْلَدَ إِلَيْها الْتَوَىٰ ، وفِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ هَوَى ، ثُمَّ إِذا رَأَتْهُ خالَفَها ، وقالَ لَها : هَذا لا يَكُونُ أَبَداً ، وصَمَّمَ عَلَى عَداوَتِها والمُجاهَدَةِ فِيها سَرْمَداً ، حَسَّنَتْ لَهُ فِي الثَّانِي ما قَصَدَ مِنَ الاسْتِقامَة ، ورُبَّما قالَتْ لَهُ : إِنَّما كانَ قَصْدِي أَنْ أَخْتَبِرَ صِدْقَ تَوَجُّهِكَ فِي طَرِيقِ السَّلامَة ، وانْخَدَعَتْ لَهُ وأَظْهَرَتْ لَهُ الطَّاعَة ، وساعَدَتْهُ حِينًا وأَظْهَرَتْ آوِنَةً جُبْنًا وعَدَمَ اسْتِطاعَة .

وإِذا أَلْقاها خَلْفَ ظَهْرِهِ وجَعَلَها نَسْيًا مَنْسِيًّا أَوْ شَيْئًا فَرِيًّا قَصِيًّا أَلْفاها تابِعَةً نابِعَةً بِمِياهِ المُوافَقَة ، وكُلُّ ما تُبْدِيهِ مُخادَعَةٌ إِذا وَزَنَها بِمِيزانِ المُحاقَقَة ، ثُمَّ إِنَّها لا تَزالُ تُرَغِّبُهُ فِي الازْدِياد ، وتُرَعِّبُهُ مِنْ نَقْضِ العَهْدِ وتَرْكِ الأَذْكارِ والأَوْراد ، وتُفَهِّمُهُ أَنَّها لانَتْ بَعْدَ قَسْوَتِها ، وذَلَّتْ بَعْدَ عِزَّتِها ، وأَرْخَتْ غِبَّ شِدَّتِها ، وحَلُمَتْ بَعْدَ حِدَّتِها .

وكُلُّ ذَلِكَ دَعْوَى بِغَيْرِ دَلِيل ، وزُخْرُفُ قَوْلٍ هُوَ عَيْنُ الأَباطِيل ، وتُثْنِي عَلَى الأُسْتاذِ وتُظْهِرُ حُبَّهُ وما عِنْدَها مِنْ مَحَبَّتِهِ وَزْنَ حَبَّة ، فَإِذا تَفَرَّسَ

فِيها صاحِبُها ، وكانَ مِمَّنْ عَرَفَ مَقاعِدَ الفِراسَة ، واسْتَدَلَّ بِالأَخْلاقِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الباطِنَةِ وحَفِظَ مِنَ الضَّياعِ أَنْفاسَه ، وعَلِمَ بِحُصُولِ أَحَدِ المُتَلازِمَيْنِ عَلَى حُصُولِ الآخَر ، وأَوْقَدَ بِالتَّحْقِيقِ نِبْراسَه ، وهَتَفَتْ بِهِ الخَواطِرُ الصَّحِيحَة ، وأَرْشَدَتْهُ العَلاماتُ الجَسِيمَةُ الرَّجِيحَة ، فَصَحَّحَتِ اقْتِباسَه ، رَآها تَمْكُرُ بِهِ مَكْراً خَفِيًّا ، فَيَجْتَنِبُها ، ويُقْبِلُ عَلَى الرُّوحِ إِقْبالَ بَرٍّ ما زالَ بِها حَفِيًّا ، لا يَتْرُكُها هَمْلًا ، بَلْ يَتَتَبَّعُ آثارَها لِعِلْمِهِ بِالقِيافَة ، ويُنَقِّبُ عَلَى دَسائِسِها ويَسُلُّ عَلَيْها أَسْيافَه ، ولا يَأْخُذُ لَها إِذا عَثُرَتْ بِيَدٍ لِمَعْرِفَتِهِ بِعِلْمِ اليَدِ الَّذي ما فَوْقَهُ يَدُ المُسْتَفِيدِ مِنْهُ أَنَّهُ مَتَى ساعَدَها سَعَتْ فِي إِتْلافِه ، ولا تَزالُ تُراقِبُ صاحِبَها كالعَدُوِّ الواقِفِ بِالمِرْصاد ، وتَوَدُّ لَوْ أَتْلَفَ زَرْعَهُ قَبْلَ مَجِيءِ زَمَنِ الحَصاد ، ومَتَى رَأَتْ عِنْدَهُ فَتْرَةً أَوْ بَوادِرَ كَسَل ، زادَتْهُ جِبالَ خَبالٍ وفَشَل ، ورُبَّما تَعْتَرِضُ أَحْيانًا بِباطِنِها عَلَى الأُسْتاذ ؛ لِتَرْمِيَهُ فِي جِبالِ نَقْضِ العَهْدِ سِيَّما إِذا وافَقَها وأَظْهَرَ الالْتِذاذ ، إِلَّا إِذا كانَ مُخْتَبِرًا مُجَرِّبًا مُمْتَحِنًا لَها ؛ لِيُمْسِيَ لِبُيُوتِ مَقاصِدِها مُخَرِّبًا ، فَلا ضَرَرَ إِذًا ولا ضِرار ، ولا يُعَدُّ هَذا عَيْبًا يُوجِبُ البَوار .

ثُمَّ إِذا عايَنَتْ بَعْضَ لَوائِح ، وفاحَتْ لِمَشامِّها زَكِيَّاتِ الرَّوائِح ، ولَمَعَتْ

لِصاحِبِها لَوامِعُ القُرْبِ ، وهَمَعَتْ [1] عَلَيْها سَحائِبُ صافِي الشُّرْبِ ، أَخَذَها اهْتِزازٌ وطَرَبٌ ، وخَفَّ عَلَيْها حَمْلُ حِمْلِ الكَرْبِ وشَوَّقَتْهُ للمَزِيدِ وشَوَّفَتْهُ للوارِدِ الجَدِيدِ ، وكُلَّما زادَ التَّقْرِيبُ تَعَشَّقَتْ وتَعَلَّقَتْ وتَحَقَّقَتْ فَتَخَلَّقَتْ ، وإذا سَحَّ وابِلُ السَّيْرِ ، وهَطَلَتْ هَواطِلُ الخَيْرِ ، نَما وَجْدُها فَهَمَى إلَى أَنْ تَبْلُغَ مَبْلَغَ الرِّجال ، ويَحْسُنَ مِنْها هُنالِكَ المَجال ، ويُكْشَفُ الغِطاءُ ، ويَرْبُو العَطاءُ ، ويَزُولُ الأَيْنُ والبَيْنُ ، ويَنْمَحِي الرَّانُ والغَيْنُ عَنِ العَيْنِ ، فَيُشاهِدُ بِعَيْنِ القَلْبِ مُمِدَّ كُلِّ عَيْنٍ ، ويُنْشِدُ هُنا مَنْ عانَى وَهْنًا فِي سَيْرِهِ ، قَوْلَ العارِفِ الَّذي دَنا ونالَ بَعْدَ قَطْعِ العَناءِ كُلَّ الفَناءِ :

أَرُومُ وَقَدْ طَالَ الْمَدَىٰ مِنْكِ نَظْرَةً ۞ وَكَمْ مِنْ دِماءٍ دُونَ مَرْمَايَ طَلَّتِ

وكُنَّا وَضَعْنا رِسالَةً عَلَى هَذا البَيْتِ ، سَمَّيْناها «رَفْعُ السِّتْرِ والرِّدا عَنْ مَعْنَى قَوْلِ العارِفِ : أَرُومُ وقَدْ طالَ المَدَىٰ» ، ولا يَتِمُّ هَذا السُّلُوكُ مِنْ طَرِيقِ مَلِكِ المُلُوكِ إلَّا لأَفْرادِ الأَفْرادِ مِنْ كُلِّ مُرادٍ خُصَّ بِنَيْلِ المُرادِ ، وإلَّا فَأَكْثَرُ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ سَلَك ، مَلَكَتْهُ مِنْ أَوَّلِ قَدَمٍ نَفْسُهُ وهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَها مَلَك ، ورُبَّما سَوَّلَتْ لَهُ أَنَّهُ ناجٍ ذُو تاجِ مَلِك ، وهُوَ مَعْدُودٌ فِي

---

(١) هَمَعَ : دَمِعَ أَوْ هَطَلَ .

زُمْرَةِ مَنْ هَلَك ، وتَغَرُّهُ بِخِدْمَةِ الأَشْياخِ وكَثْرَةِ الأَوْرادِ النَّاشِئَةِ عَنْها لَمَّةُ المَلَك ، وتُرِيهِ أَنَّهُ صَعِدَ المَعالِي وهُوَ ما بَرِحَ مَسْجُونًا تَحْتَ مَقْعَرِ أَوَّلِ فَلَك .

وكَمْ لَها فِي هَذا السَّيْرِ دَسائِسُ لا تُحْصَىٰ ! ولِقَرِينِها وَساوِسُ لا تُسْتَقْصَىٰ ! حَتَّى يَكادُ مَنْ كُشِفَ لَهُ عَنْها يَقُولُ : إِنَّ التَّخَلُّصَ مِنْ هَذِهِ الوَحَلاتِ مُحالٌ لِما يَرَى مِنَ الأَمْرِ المَهُولِ ، لَكِنَّ الأَمْرَ كَما قِيلَ : إِنَّ المَقادِيرَ إِذا ساعَدَتْ أَلْحَقَتِ العاجِزَ بِالحازِمِ ، وكَما قِيلَ مِنْ ((مَوالِيا))[1] : ((إِذا أَرادَكَ لِما يَخْتارُهُ هَيَّأَ لَكَ)) ، وفِي آخِرِهِ ((نَظْرَةٌ مِنَ الحُبِّ تَجْعَلُ ناظِرَكَ إِكْسِيرا)) ، ولَمَّا ضَعُفَ الطَّالِبُ والمَطْلُوبُ وعَزَّ الشَّارِبُ والمَشْرُوبُ ، وتَوَعَّرَتِ المَسالِكُ عَلَى السَّالِكِ وقَوِيَ سُلْطانُ الهَوَىٰ ، وقَلَّ مَنْ لَهُ مَهارَةٌ فِي الطِّبِّ القَلْبِي لِيَصِفَ الدَّواء ، وكَثُرَتِ الدَّعاوَى الكاذِبَة ، وأَفَلَتْ شَمْسُ الصِّدْقِ وأَبْدَتِ المَساوِيَ الجاذِبَة ؛ سِيَّما فِي أَبْناءِ هَذا الزَّمانِ الفاسِد ؛ الَّذي فِيهِ عِلْمُ مُداواةِ الأَمْراضِ القَلْبِيَّةِ كاسِد ، اسْتَحْكَمَتِ النَّفْسُ أَيَّ اسْتِحْكام ، وأَنْفَذَتْ ما تَطْلُبُهُ مِنَ الأَحْكام ، فَلا مُجاهِدَ فِيها ولا مُكابِدَ يَكْشِفُ غَواشِيَ خَوافِيها ،

---

(١) المَوالِيا : نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ كالمُوَشَّحاتِ الأَنْدَلُسِيَّة والرُّباعِيَّاتِ والمُخَمَّسات .

وأَكْثَرُ مُرِيدِي هَذا الزَّمانِ قَنِعُوا بِمُجَرَّدِ النِّسْبَةِ الظَّاهِرَةِ عَنِ النِّسْبَةِ الباطِنَةِ الباهِرَةِ الطَّاهِرَة ، واكْتَفَوا بِالدَّرْجِ والرَّقِّ ، فَأُنْتِجَ لَهُمُ الرِّقُّ ، ونَفَرُوا عَنْ مَلابِسِ الصِّفاتِ الكامِلَةِ والسِّماتِ المَرْضِيَّةِ الَّتي إِمْداداتُها شامِلَة ، وقُلْنا فِي الأَلْفِيَّة [1]:

وَكُلُّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِاللَّوَازِمِ ❁ فَفِي السُّلُوكِ لَمْ يَكُنْ بِحَازِمِ
وَرُبَّمَا يَنْقُضُ عَهْدَ الْحَقِّ ❁ مِنْ عَدَمِ التَّقْدِيمِ لِلْأَحَقِّ
وَلَيْسَ كُلُّ سَالِكٍ بِسَائِرِ ❁ وَلا الَّذِي سَارَ كَمِثْلِ الطَّائِرِ
وَكَمْ رَأَيْنَا مِنْ مُرِيدٍ أَخَذَا ❁ عَهْدَ الطَّرِيقِ وَلَهُ قَدْ نَبَذَا
فَلَمْ يَلِجْ مَنَازِلَ الْوُصُولِ ❁ لَمَّا أَضَاعَ وَاجِبَ الْأُصُولِ

وقُلْنا فِي ((أُرْجُوزَة الآداب)) المُسَمَّاةُ بـ ((بُلْغَةُ المُرِيد ومُشْتَهَى مَوْقِفٍ سَعِيد)) :

وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يَكُونُ آخِذَا ❁ عَهْدًا وَلِلشُّرُوطِ أَضْحَىٰ نابِذَا
بِسَالِكٍ فِي هَذِهِ الْمَسَالِكِ ❁ وَسَائِرٍ عَنْ سَائِرِ الْمَهَالِكِ
وَلَا يَنَالُ مِنْ شَرَابِ اللَّاهِجِ ❁ إِلَّا فَتًى سَارَ بِذِي الْمَنَاهِجِ
وَإِنَّمَا مَنْ بِالشُّرُوطِ قَامَا ❁ وَفِي هَوَىٰ حَبِيبِهِ قَدْ هَامَا

---

(١) الأَلْفِيَّة الوَفِيَّة للسَّادَةِ الصُّوفِيَّة : مُصْطَفَى بنُ كَمالِ الدِّينِ البَكْرِي .

وَجَـادَ بِـالآدَابِ وَالْـكَـمَـالِ ۞ يَرْجُو اللِّقَا مِنْ حَضْرَةِ الْجَمَالِ

وَجَـادَ بِالْمَوْجُـودِ لِلْمَوْجُـودِ ۞ وَمَـا تَعَـدَّىٰ قَـطُّ لِلْحُـدُودِ

وَخَـافَ رَبَّـهُ وَجَـافَـى جَنْبَهُ ۞ عَـنِ الْمَـضَاجِـعِ وَأَمَّ قُـرْبَـهُ

وَتَـرَكَ الْخَلْـقَ وَرَاءَ ظَـهْرِهِ ۞ وَمَا الْتَوَىٰ عَنْ حُبِّهِ فِي دَهْرِهِ

فَـذَا يَنَـالُ لِلْمُنَىٰ وَلِلْأَمَـلْ ۞ وَعِلْـمُهُ يَصْـلُحُ مِنْـهُ لِلْعَـمَلْ

وَقُلْنا فِي ((الجَوابُ الشَّافِي واللُّبابُ الكافِي)) :

اعْلَمْ إِذَنْ يَا أَيُّها السَّائِلُ عَنْ ۞ نَهْـجِ طَـرِيقَةٍ ضِـيَاؤُهَا سَـمَا

بِـأَنَّ أَهْـلَـهَا هَـدَاكَ رَبُّـنَـا ۞ كُلُّ فَتًـى بِالْحُـبِّ فِيهِ هُيِّـمَا

تَحَـقَّقُوا مِـنْ بَعْـدِ مَـا تَعَلَّقُوا ۞ ثُـمَّ تَخَلَّقُوا فَسَـادُوا الْعُظَـمَا

وَإِنَّهُـمْ أَهْـلُ تَـلَـقٍّ وَلِـقًـى ۞ وَسِـرُّهُـمْ بِقُـرْبِـهِ تَنَعَّـمَا

سَارُوا عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَقْـ ۞ ـفُونَ السُّرَىٰ لَدَىٰ طَرِيقٍ قَدَمَا

صَعْبِ الْمَرَاقِي سِرُّهُ مَا نَالَهُ ۞ غَـيْرُ مُحِـبٍّ كُلُّـهُ قَـدْ سَلِـمَا

قَدْ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ عَنْ ۞ سُلُوكِهِ إِذْ هُـوَ جِـدًّا عَصَـمَا

فَلَيْـسَ كُلُّ طَـالِـبٍ يُمْكِـنُهُ ۞ سَـيْرٌ بِـهِ إِلَّا إِذَا جِـدًّا سَـمَا

وَقَاطَـعَ الْغَيْرَ وَوَافَىٰ صَادِقًا ۞ مُصَـدِّقًا مُعَظِّـمًا مُحْـتَرَمَا

مُخَـالِـفًا لِنَفْسِهِ فِـي سَـيْرِهِ ۞ وَعِـنْدَ حَيِّ الصَّادِقِينَ خَيَّمَا

مُتَّخِذًا ذِكْرَ الْأَسَامِي سُلَّمًا ❁ وَكُلَّهُ لِمَنْ يُرَبِّي سَلَّمَا

لا بُدَّ مِنْ شَخْصٍ يَرَىٰ شُخُوصًا ❁ مَنْ لَمْ يَسِرْ فِي ظِلِّهِ مَا سَلِمَا

وَكُلُّ مَنْ لَيْسَ لَهُ شَيْخٌ فَذَا ❁ مُرِيدُ الشَّيْطَانِ وَهْوَ فِي عَمَا

فَاطْلُبْهُ بِالصِّدْقِ عَسَى تَنْجُو بِهِ ❁ وَعَلَّهُ يَسْقِيكَ مِنْ رَشْفِ اللَّمَا

واعْلَمْ أَنَّ أُصُولَ مَقاماتِ الطَّرِيقِ عُدَّتْ أَلْفًا .

وقالَ بَعْضُهُمْ : لا تَنْحَصِرُ ؛ أَيْ مِنْ حَيْثُ الفُرُوعُ ؛ فَلا تَشْهَدُ خَلْقًا ، وللنَّفْسِ فِي كُلِّ مَقامٍ دَسائِسُ لا تَنْضَبِطُ ، وغَوائِلُ تَسْوِيلاتٍ وتَسْوِيفاتٍ بَعْضُها بِبَعْضٍ لا يَرْتَبِطُ ، فَكَيْفَ الخَلاصُ مِنْ ضِيقِ هَذِهِ الأَقْفاص ؟! لَكِنَّهُ يَنالُهُ بِإِمْدادِ البارِي ومُكابَدَةِ المَوْتِ الاخْتِيارِي ، فَإِنَّ مَنْ ماتَ عاش ، ومَنْ عاشَ طَاش ، ومَنْ طاشَ راش ، ومَنْ راشَ ارْتَقَى إِلَى حَظائِرِ الإِنْعاش ، ومَنِ ارْتَقَى أَدْرَكَ بَعْدَ الفَناءِ مَنْزِلَةَ البَقاءِ ، وغابَ عَنِ النَّقْشِ بِشُهُودِ النَّقَّاشِ ، والطَّائِفَةُ عَيْشُهُمْ فِي التَّجَلِّي ، وبَلاؤُهُمْ فِي السِّتْرِ المُوجِبِ لَهُم الانْدِهاشُ والاسْتِيحاش ، والخَواصُّ بَيْنَ طَيْشٍ وعَيْشٍ ، فَإِذا تَجَلَّى لَهُمْ طاشُوا ، وإِذا اسْتَرَدُّوا إِلَى الحَظِّ عاشُوا وحَظَوْا بِالإِبْشاش ، وإِلَى المَوْتِ الاخْتِيارِي يُشِيرُ الخَبَرُ الَّذي رَواهُ الدَّيْلَمِي فِي مُسْنَدِهِ ، وهُوَ :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ۞ إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ[1]

وقَدْ وَرَدَ أَيْضًا : (مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا وحاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحاسَبُوا)[2]، وآيَةُ : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[3] ، ويُسَمَّى بِالمَوْتِ الإِرادِي والمَجازِي والمَعْنَوِي ؛ وحَقِيقَتُهُ الفَناءُ عَنِ الأَفْعالِ الذَّمِيمَةِ ثُمَّ الأَقْوالِ ثُمَّ الأَحْوالِ بِالبَقاءِ بِالمَحْمُودِ مِنَ الخِصالِ ، وبِذَلِكَ يَتَخَلَّصُ طَيْرُ السِّرِّ مِنْ قَفَصِ الغَفْلَةِ ، وتَصِيرُ أَرْضُ السَّيْرِ بَعْدَ تَوَعُّرِها سَهْلَةً .

يُحْكَى مِنْ بابِ ضَرْبِ المَثَلِ لِلمُتَفَهِّمِ الأَمْثَلِ أَنَّ مالِكَ دُرَّةٍ هَمَّ بِالسَّفَرِ ، فَسَأَلَتْهُ الدُّرَّةُ عَنْ مُنْتَهَى سَيْرِهِ ؟ فَقالَ لَها : إِلَى بَلَدٍ تُجْلَبُونَ مِنْها وتُغْرَبُونَ عَنْها ، فَقالَتْ لَهُ : يا سَيِّدِي ، لِي إِلَيْكَ حاجَةٌ فِي صَدْرِي ، فَعَسَى أَنْ تَقْضِيَها لِي فَيُرْفَعَ بِها قَدْرِي ، فَقالَ : وما هِيَ ؟ قالَتْ : إِذا وَصَلْتَ دارَ إِخْوَتِي ومَنازِلَ صَبْوَتِي فاقْرَأْ عَلَيْهِمْ مِنِّي السَّلامَ ، وقُلْ لأُولَئِكَ الأَقْوامِ : تَقُولُ لَكُمْ أُخْتُكُمْ : كَيْفَ الخَلاصُ مِنْ ضِيقِ الأَقْفاصِ ؟ وأْتِنِي بِالجَوابِ ، ولَكَ الأَجْرُ والثَّوابُ .

فَلَمَّا بَلَغَ تِلْكَ الأَرْضَ ، وجالَ فِي طُولِها والعَرْضِ ، بَلَّغَ السَّلامَ

---

(١) رَواهُ ابنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي المُصَنَّفِ ، وعَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ ، والدَّيْلَمِي فِي الفِرْدَوْسِ .

(٢) ذَكَرَهُ العَجْلُونِي فِي كَشْفِ الخَفا ، والمُبارَكْفُورِي فِي تُحْفَةِ الأَحْوَذِي .

(٣) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَةِ ١٢٢ .

والأَمانَة ، وطَلَبَ الجَواب ، فَصاحُوا صَيْحَةً واحِدَةً وماتُوا ، فامْتَلأَتْ بِمَوْتاهُمْ تِلْكَ الرِّحاب ، فَأَسِفَ مِنْ ذَلِكَ ورَجَعَ إِلَى أَوْطانِهِ بَعْدَ قَطْعِ المَسالِك ، فَسَأَلَتْهُ عَنِ الجَوابِ والخَبَر ، فَأَخْبَرَها بِما جَرَى وأَجْرَى العِبَر ، فَصاحَتْ صَيْحَتَهُمْ ، وماتَتْ كَمِيتَتِهِمْ ، فَحَزِنَ عَلَيْها السَّيِّدُ حُزْنًا شَدِيدًا ، وأَخْرَجَها مِنَ القَفَصِ لِيَدْفِنَها ، وكانَ قَدْ صَفَّدَهُ تَصْفِيدًا ، فَطارَتْ ، وبِالسَّطْحِ اسْتَجارَتْ ، فَقالَ : حَياةٌ بَعْدَ مَوْتٍ وإِدْراكٌ عَنْ فَوْتٍ ، فَقالَتْ : نَعَم ، ما عاشَ إِلَّا الَّذي ماتَ وانْدَرَجَ فِي سِلْكِ الأَمْواتِ ، وقَدْ عَلَّمُونِي إِخْوَتِي طَرِيقَ الخَلاصِ مِنْ ضِيقِ الأَقْفاص ، ولاتَ حِينَ مَناص[1].

وإِذا سَبَرْنا أَحْوالَ الطُّلَّابِ رَأَيْتَ العَجَبَ العُجاب ، ما بَيْنَ مُدَّعٍ كَذَّابٍ أَوْ قانِعٍ بِمُجَرَّدِ الانْتِساب ، أَوْ زِنْدِيقٍ تَرَكَ حِمَى الشَّرِيعَةِ الغَرَّاءِ وعانَقَ الشَّكَّ والارْتِياب ، وعَوَّلَ عَلَى شَطَحاتٍ صَدَرَتْ عَنْ غَلَبَةِ حالٍ مِنْ شَطَّاحٍ غَيَّاب ؛ فَهَذا هُوَ الجَهْلُ المَحْضُ المُؤَدِّي إِلَى

---

(١) المَقْصُود بِالدُّرَّةِ : عُصْفُورٌ مَحْبُوسٌ فِي قَفَصٍ أَرادَ أَنْ يَعْرِفَ سَبِيلَ الهُرُوبِ مِنَ القَفَصِ فادَّعَى المَوْتَ كَيْ يَخْرُجَ مِنْهُ ، وقَدْ رَمَزَ لَها بِالدُّرَّةِ كِنايَةً عَنْ قِيمَتِها الثَّمِينَةِ الخَفِيَّةِ الَّتي تُعَبِّرُ عَنِ الرُّوحِ الحَبِيسَةِ فِي جِسْمِ الإِنْسانِ الَّذي هُوَ القَفَصُ.أَمَّا الأَغْلالُ فَهِيَ الشَّهَواتُ الَّتي تَعُوقُ تَحَرُّرَ رُوحِ الإِنْسانِ مِنْ هَذا السِّجْنِ .

غَلَبَةِ الانْخِلاعِ مِنْ رِبْقَةِ الدِّينِ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الخِزْيِ يَوْمَ الحِساب ، وقَدْ جَرَّدْنا حُسامَ الرَّدِّ عَلَى هَذِهِ الفِرْقَةِ المُفارِقَةِ الَّتي ما شَمَّتْ للطَّرِيقِ رائِحَة ، ولا بَرِقَتْ لَها مِنْهُ بارِقَةٌ فِي رِسالَةِ ((السُّيُوفُ الحِداد فِي أَعْناقِ أَهْلِ الزَّنْدَقَةِ والإلْحاد)) ، وعَقَدْنا للرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي الأَلْفِيَّةِ فَصْلًا ، وفِي ((النَّصِيحَة السَّنِيَّة فِي مَعْرِفَةِ آداب كِسْوَةِ الخَلْوَتِيَّة)) قُلْنا فِيهِمْ قَوْلًا فَصْلًا ، وكَتَبْنا فِي ((الرَّوْضات العَرْشِيَّة عَلَى الصَّلَواتِ المَشِيشِيَّة)) مُلَمِّحِينَ للرَّدِّ عِنْدَ قَوْلِ المُصَنِّفِ[1] رضي الله عنه : وانْشُلْنِي مِنْ أَوْحالِ التَّوْحِيد ؛ فَراجِعْهُ وقِفْ بِالوَصِيد ، وإيَّاكَ وصُحْبَةَ مَنْ حادَ عَنِ الشَّرِيعَةِ المُحَمَّدِيَّةِ فَإنَّهُ شَيْطانٌ مَرِيد ، جَبَّارٌ عَنِيد ، غافِلٌ عَنِ الحَقِّ بَعِيد ، غَيْرُ مُصَدِّقٍ بِالوَعْدِ والوَعِيد ، وسَيُجْزَى بِما عَمِلَ ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2] .

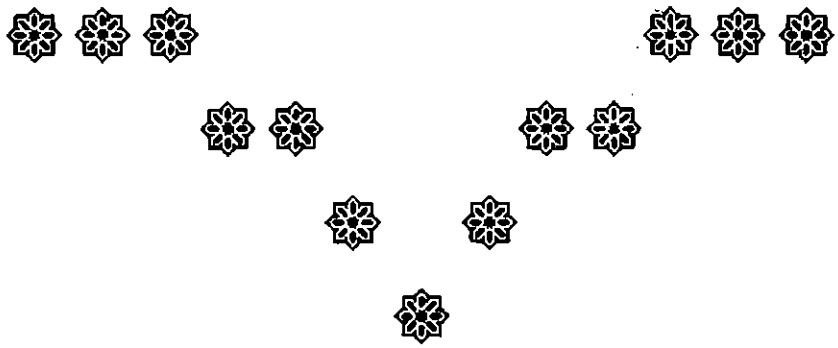
وقَدِيمًا قالَتِ الأَشْياخ : لَنا مِنَ الأَلْفِ واحِدٌ ، وهُوَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ، ونَحْنُ نَتَرَجَّى حُصُولَ الواحِدِ الصَّادِقِ مِنَ الأُلُوفِ ، ولَوْ أَرَدْنا أَنْ نَسْتَقْصِيَ دَسائِسَ النَّفْسِ الجَلِيَّة ؛ كالَّتِي تَقَدَّمَتْ لَها الإشارَةُ الخَفِيَّة.. الَّتي

---

(١) نِسْبَةً إِلَى صاحِبِها سَيِّدِي عَبْدِ السَّلام بنِ مَشِيش ، وبَرْهَنَ أَنَّ التَّوْحِيدَ عِنْدَ ابنِ مَشِيشٍ التَّوْحِيدُ الخالِصُ مِنْ شَوائِبِ الشَّكِّ والشِّرْكِ ما ظَهَرَ مِنْها وما بَطَن .

(٢) سُورَةُ فُصِّلَت : مِنَ الآيَة ٤٦ .

تَضِيقُ عَنْها العِبارَةُ لَما أَمْكَنَنا ذَلِكَ ، وأَعْيانا كَثْرَةُ ما هُنالِكَ ، وقَدْ أَشارَ لِبَعْضِهِ الإمامُ الغَزالِي ﷺ فِي ((غُرُور الخَلْقِ أَجْمَعِين)) ، وفِي كِتاب ((الإحْياء)) ، و((مَناهِج العابِدِين)) ، وإذا حَقَّقْنا النَّظَرَ رَأَيْنا تِلْكَ الدَّسائِسَ مِنْ جُمْلَةِ الدَّسائِس ، ولَكِنَّ الوُقُوفَ عَلَيْها نِعْمَةٌ عَلَى العَبْدِ لا تُجْحَد ؛ لأَنَّ بِالعُثُورِ عَلَيْها لا يُرَى لَها ما بِهِ تُحْمَد ، وهَذا حالُ المُبْتَدِئ ، وللكامِلِ أَحْوالٌ فِي باطِنِهِ تُشْهَد ، فَتارَةً يَحْمَدُها وتارَةً يَجْحَد ؛ لأَنَّها عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ دِرْهَمٍ زائِفٍ عِنْدَ نَقَّادٍ عارِف .



عِلَلُ الطَّرِيقِ وأَمْراضُها ودَواؤُها

ولْنُلْحِقْ هَذا النَّوْعَ السَّابِعَ مِنَ المَعْرِفَةِ الَّذي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ الأَكْبَرُ فِي بابِ المَعْرِفَةِ مِنْ فُتُوحاتِه ؛ لأَنَّ لَهُ تَعَلُّقًا بِهَذا المَقامِ ومُناسَبَةً تامَّةً تَشْفِي المَرِيضَ مِنَ السِّقام .

قالَ رضي الله عنه :النَّوْعُ السَّابِعُ مِنَ المَعْرِفَةِ وهُوَ عِلْمُ العِلَلِ والأَدْواءِ وما يَحْتاجُ إِلَيْهِ مَنْ يُرَبِّي مِنَ الشُّيُوخ ، ولا تَنْفَعُ هَذِهِ الأَدْوِيَةُ إِلَّا فِيمَنْ يَقْبَلُ اسْتِعْمالَها ؛ فَإِنْ لَمْ يَسْتَعْمِلْها العَلِيلُ فَلا يَظْهَرُ لَها أَثَرٌ ؛ فَلْنُبَيِّنْ إِنْ شاءَ اللهُ العِلَلَ بِطَرِيقِ الحَصْرِ لأُمَّهاتِها ، ثُمَّ نَذْكُرُ الأَدْوِيَةَ المُخْتَصَّةَ بِها العِلَلُ فِي هَذا الطَّرِيق ، لَيْسَ لَها مَحَلٌّ إِلَّا النُّفُوسَ خاصَّةً ، لا حَظَّ للعُقُولِ فِيها البَتَّةَ ولا للأَبْدان ؛ فَإِنَّ عِلَلَ العُقُولِ مَعْرُوفَةٌ وعِلَلَ الأَجْسام مَعْرُوفَة ، وأَدْوِيَةَ عِلَلِ الأَجْسام مَوْقُوفَةٌ عَلَى الأَطِبَّاء ، وأَدْوِيَةَ عِلَلِ العُقُولِ اتِّخاذُ الخَلَواتِ بِالمِيزانِ الطَّبِيعِي وإِزالَةِ التَّفَكُّرِ فِيها ومُداوَمَةِ الذِّكْرِ ، لَيْسَ غَيْرُ ذَلِك .

عِلَلُ النُّفُوس

وما بَقِيَ لَنا الخَوْضُ فِيهِ إِلَّا عِلَلَ النُّفُوس ، وهِيَ ثَلاثَةُ أَمْراض : مَرَضٌ فِي الأَقْوال ، ومَرَضٌ فِي الأَفْعال ، ومَرَضٌ فِي الأَحْوال ، وأَمَّا مَرَضُ الاعْتِقادات فَهُوَ مَرَضُ العُقُول ، فَقَدْ ذَكَرْناه .

أ) **أَمْراضُ الأَقْوال** : فَمِنْها الْتِزامُ قَوْلِ الحَقِّ ، وهُوَ أَكْبَرُ الأَمْراضِ ، دَواؤُهُ مَعْرِفَةُ المَواطِنِ الَّتي يَنْبَغِي أَنْ يُصْرَفَ فِيها ؛ فَإِنَّ الغِيْبَةَ حَقٌّ ، والنَّمِيمَةَ حَقٌّ ، وقَدْ نُهِيَ عَنْها ، وما يَفْعَلُهُ الرَّجُلُ مَعَ أَهْلِهِ فِي فِراشِهِ إذا أَفْضَى إِلَيْها ، فَيَقُولُ ، وذَلِكَ حَقٌّ ، وذَلِكَ القَوْلُ مِنَ الكَبائِر ، والنَّصِيحَةُ فِي المَلَأِ بِالحَقِّ حَقٌّ وهِيَ فَضِيحَةٌ ، ولا تَقَعُ إِلَّا مِنَ الجُهَّالِ وأَصْحابِ الأَغْراضِ ؛ لأَنَّ الفائِدَةَ المَطْلُوبَةَ مِنَ النَّصِيحَةِ حُصُولُ المَنْفَعَةِ وثُبُوتُ الوُدِّ ، فَإِذا وَقَعَ النُّصْحُ فِي المَلَأِ لَمْ يَحْصُلِ القَبُولُ وأَثْمَرَ عَداوَةً ، وذَمَّهُ اللّٰهُ ؛ فَإِنَّهُ يَخْجَلُ بِتِلْكَ النَّصِيحَةِ فِي المَلَأِ وربَّما يَكْذِبُ المُخاطَبُ فِي اعْتِذارِهِ عَنْ ذَلِكَ ويَكْذِبُ ويَجِدُ عَلَيْهِ فِيه ، ويَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَى فَسادٍ كَبِير ، فَلَوْ نَصَحَهُ فِي خَلْوَةٍ بِطَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ بِأَنْ يُظْهِرَ لَهُ عَيْبَ نَفْسِهِ فِي الأَمْرِ ولا يُشْعِرُهُ أَنَّهُ يَقْصِدُهُ بِذَلِكَ لِيُعْلِمَهُ أَنَّهُ كانَ جاهِلًا بِقُبْحِ ذَلِكَ الأَمْرِ الَّذي نَصَحَهُ فِيهِ شَكَرَهُ فِي نَفْسِهِ وأَحَبَّهُ ودَعا لَهُ وأَثْمَرَ لَهُ الخَيْرَ وكانَ فِي مِيزانِهِ ، فَما كُلُّ حَقٍّ مَأْمُورٌ بِهِ ولا يُسْتَحْسَنُ شَرْعًا ولا عُرْفًا .

وكَذَلِكَ مَنْ يُجِيبُ النَّاسَ بِما يَكْرَهُونَ وإِنْ كانَ حَقًّا ؛ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى لُؤْمِ الطَّبائِعِ والجَهْلِ وقِلَّةِ الحَياءِ مِنَ اللّٰه ؛ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ أَنْ يَسْلَمَ فِي

نَفْسِهِ عَنْ عَيْبٍ يَكُونُ فِيهِ لا يُرْضِي اللّٰهَ ، فَلَوِ اشْتَغَلَ بِالنَّظَرِ فِي عَيْبِهِ لَشَغَلَهُ ذَلِكَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ .

ومَنِ الْتَزَمَ بِتَتَبُّعِ حَرَكاتِ صاحِبِهِ بِحَيْثُ أَنْ يُقَيِّدَ عَلَيْهِ أَنْفاسَهُ فَهُوَ مِنْ أَشَدِّ الأَمْراض ؛ فَإِنَّهُ اشْتَغَلَ بِما لا يَعْنِيهِ وغَفَلَ عَنْ نَفْسِهِ ، والنَّفْسُ تُخَزِّنُهُ عِنْدَها فـ زَمانِ صَداقَتِهِ لِيَوْم ما وهُوَ لا يَشْعُرُ ، ويَحْجُبُهُ عَنْ هَذا السُّتُورِ مَحَبَّتُهُ فِيهِ فِي الوَقْتِ ، فَإِذا وَجَدَ فِي نَفْسِهِ أَدْنَى كَراهَةٍ فِي صاحِبِهِ أَوْ إِعْراضٍ لِمَلَلٍ أَوْ هَفْوَةٍ صَدَرَتْ مِنْهُ فِي حَقِّهِ أَخْرَجَ ما كانَ مَخْزُونًا مِنَ القَبائِحِ الَّتي كانَ خَبَّأَها عِنْدَهُ واخْتَزَنَها لَهُ فِي نَفْسِهِ فِي تَتَبُّعِهِ ، فَيَقُولُ لَهُ فِي مَعْرِضِ التَّوْبِيخِ : أَلَمْ تَقُلْ كَذا وكَذا ؟! أَلَمْ تَفْعَلْ كَذا وكَذا فِي يَوْم كَذا ؟! ثُمَّ إِذا عَدَّدَ ما كانَ أَخْزَنَهُ يَقُولُ لَهُ : هَذا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ الدِّين ، وأَنا كُنْتُ أَرَى مِنْكَ هَذا كُلَّهُ ، وأَقُولُ لَعَلَّهُ رَأَى فِي هَذا وَجْهًا ، والوَجْهُ لَكَ فِيهِ التَّتَبُّعُ لِمِثالِهِ واخْتِزانُهُ إِيَّاها فِي خِزانَةِ نَفْسِكَ ، وذَلِكَ لِسُوءِ الطَّبْعِ ودَناءَةِ الأَصْلِ والفَرْعِ ، وهَذا يُوجَدُ فِي الأَصْحابِ والأَصْدِقاءِ كَثِيراً : وقَدْ قِيلَ فِي ذَلِكَ :

احْـــذَرْ عَـــدُوَّكَ مَـــرَّةً ❁ وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ

فَلَـرُبَّـمَا هَجَـرَ الصَّـدِيـ ❁ ـقُ فَكَانَ أَدْرَى بِالْمَضَـرَّهْ

وهَذا كُلُّهُ وَبالٌ يَعُودُ عَلَى قائِلِهِ وإِنْ كانَ حَقًّا .

ب) **أَمْراضُ الأَقْوال** : ومِنْ أَمْراضِ الأَقْوالِ السُّؤالُ عَنْ أَحْوالِ النَّاسِ وما يَفْعَلُونَهُ ، ولِمَ جاءَ فُلانٌ ؟ ولِمَ مَشَى فُلانٌ والسُّؤالُ عَنْ كُلِّ ما لا يَعْنِي ، والسُّؤالُ عَنْ أَهْلِهِ ، ماذا فَعَلُوا فِي غَيْبَتِهِ ؟

دَواؤُهُ التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي كَوْنِهِ ما أَتَى أَهْلَهُ مِنْ سَفَرٍ لَيْلا[1]، ونَهْيِهِ أَصْحَابَهُ عَنْ ذَلِكَ ؛ حَتَّى لا يَفْجَأَهُمْ فَيَرَى مِنْهُمْ ما يَكْرَهُ ، والاسْتِئْذانُ مِنْ هَذا البابِ إِبْقاءٌ للسِّتْرِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ لِكُلٍّ هَتَكات .

وأَيْضًا فَما كُلُّ ما يَعْمَلُهُ الإِنْسانُ وإِنْ كانَ خَيْراً يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَهُ كُلُّ أَحَدٍ ، فَإِذا أَلَحَّ هَذا السَّائِلُ عَلَى العِلْمِ بِهِ أَضَرَّ بِالمَسْؤُول ؛ حَيْثُ جَعَلَهُ يَنْطِقُ بِما لا يُرِيدُهُ أَوْ يَكْذِبُ ، فَإِنْ لَمْ يَنْطِقْ أَثَّرَ فِي نَفْسِ السَّائِلِ حَزازَةً ، ويَقُولُ : لَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ بِمَكانَةٍ ما سَتَرَ عَنِّي ما سَأَلْتُهُ عَنْهُ ، فَيَنْقُصُ مِنْ خُلُوصِ مَوَدَّتِهِ الَّتِي كانَتْ لَهُ فِي نَفْسِهِ ، ولَوْ حَصَلَتْ تُهْمَةٌ فِي نَفْسِهِ تُؤَدِّيهِ إِلَى مِثْلِ هَذا الفِعْلِ فَلَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ شَرْعٌ ولا عَقْلٌ ولا مُرُوءَةٌ ، وهَذا بابٌ قَلَّ أَنْ يَقَعَ فِيهِ إِلَّا خَبِيثُ الباطِنِ ، لا دِينَ

---

(١) رَواهُ الإِمامُ أَحْمَدُ ، وذَكَرَهُ السُّيُوطِي فِي أَسْبابِ وُرُودِ الحَدِيث .

لَهُ ، سَيِّئُ السَّرِيرَة ، قالَ ﷺ : (مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيه)[1].

ومِنْ أَمْراضِ الأَقْوال : الامْتِنانُ والتَّحْدِيثُ بِما يَفْعَلُهُ مِنَ الخَيْرِ مَعَ الشَّخْصِ عَلَى طَرِيقِ المَنِّ والأَذَى ؛ لَمَّا كانَ يَسُؤُوهُ ذَلِكَ ويُحْبِطُ أَجْرَ النِّعْمَةِ فَإِنَّهُ قَدْ أَبْطَلَ ذَلِكَ العَمَلَ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [2] ، وأَيُّ داءٍ أَعْظَمُ مِنَ المَنِّ والأَذَى ، فَإِنَّهُ أَذًى نَفْسِيٌّ ، ودَواؤُهُ أَنَّهُ لا يَرَ أَنَّهُ أَوْصَلَ إِلَيْهِ ما كانَ فِي يَدَيْهِ إِلَّا ما هُوَ فِي عِلْمِ اللهِ ، وأَنَّ ذَلِكَ الخَيْرَ إِنَّما كانَ أَمانَةً بِيَدِهِ ما كانَ لَهُ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ صاحِبَها ، فَلَمَّا أَخْرَجَها بِالعَطاءِ لِمَنْ عَيَّنَ اللهُ فِي نَفْسِ الأَمْرِ حِينَئِذٍ يَعْرِفُ صاحِبَ تِلْكَ الأَمانَة ، فَيَشْكُرُ اللهَ عَلَى أَدائِها ، ومَنْ أَعْطَى بِهَذا النَّظَرِ فَلا تَصِحُّ مِنْهُ مِنَّةٌ أَصْلًا .

ومِنْ أَمْراضِ الأَقْوال : أَنْ يَفْعَلَ الرَّجُلُ الخَيْرَ مَعَ بَعْضِ أَوْلادِهِ لأَمْرٍ فِي نَفْسِهِ ، وبَعْضُ أَوْلادِهِ ما يَفْعَلُ مَعَهُمْ ذَلِكَ الخَيْرَ ، فَيَقُولُ لَهُ قائِلٌ بِحُضُورِ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ مَعَهُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلادِهِ : لِمَ لَمْ تَفْعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ مَعَ

---

(١) رَواهُ أَحْمَدُ ، والطَّبَرانِي فِي الكَبِير ، وابنُ حِبَّانَ فِي الصَّحِيح ، والدَّارَقُطْنِي فِي العِلَل ، والقُضاعِي فِي الشِّهاب ، وهَنَّادُ فِي الزُّهْد ، ومَعْمَرُ بنُ راشِد فِي الجامِع .

(٢) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٦٤ .

هَذا الوَلَدِ الآخَر ؟ فَهُوَ مِنْ فُضُولِ الكَلام ، حَيْثُ قالَ بِحُضُورِ وَلَدِهِ ، ويُثِيرُ فِي نَفْسِ الوَلَدِ عَدَاوَةً لأَبِيهِ ، ولا يَقَعُ هَذا إِلَّا مِنْ جاهِلٍ كَثِيرِ الفُضُولِ ؛ فَإِنَّها كَلِمَةٌ شَيْطانِيَّةٌ ، ولَيْسَ لَها دَواءٌ بَعْدَ وُقُوعِها ، وأَمَّا قَبْلَ وُقُوعِها فَدَواؤُها أَنْ يَنْظُرَ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : ((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ)) .

ومِنْ أَمْراضِ الأَقْوالِ : أَنْ يَقُولَ الإِنْسانُ : أَنا أَقُولُ الحَقَّ ولا أُبالِي ، عَزَّ ذَلِكَ عَلَى السَّامِعِ أَوْ لَمْ يَعِزَّ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى فُضُولِ القَوْلِ ومَواطِنِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : قُلْتُ لِفُلانٍ الحَقَّ ، وعَزَّ عَلَيْهِ سَماعُهُ ، ويُزَكِّي نَفْسَهُ ، ويُجَرِّحُ غَيْرَهُ ، ويَنْسَى قَوْلَهُ تَعالَى : ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ [1] ، وهُوَ دَواءٌ لِهَذِهِ العِلَّة ، الدَّواء : ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ [2] ، ولَها مَواطِنُ وصِفَةٌ مَخْصُوصَةٌ ، وهُوَ أَنْ يَأْمُرَهُ فِي السِّرِّ لا فِي الجَهْرِ ؛ فَإِنَّ الجَهْرَ عِلَّةٌ لا يَشْعُرُ بِها ؛ لأَنَّهُ قَدْ يَعِظُهُ لِغَيْرِ اللهِ ، ثُمَّ قالَ اللهُ : ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ [3] ، وقَوْلُ المَعْرُوفِ هُوَ القَوْلُ فِي مَوْطِنِهِ الَّذي عَيَّنَهُ اللهُ ، ويَرْجُو حُصُولَ الفائِدَةِ بِهِ فِي حَقِّ السَّامِعِ ، فَهَذا مَعْنَى ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ جاهِلٌ

---

(١) ، (٢) ، (٣) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ١١٤.

وإنِ ادَّعى العِلْمَ ، قالَ اللهُ : ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (١) ، فَيَعْلَمُ أَنَّ مُرادَ اللهِ التَّوَدُّدُ والتَّحابُب ، فَيَسْعَى فِي ذَلِكَ ، وإِنْ لَمْ يَجْعَلِ الكَلامَ فِي مَوْضِعِهِ أَدَّى إِلَى التَّقاطُعِ والتَّنافُرِ والتَّدابُرِ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذا كُلِّهِ قالَ فِي حَقِّ المُتَكَلِّم : ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ (٢) ، ولا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا مِمَّنْ يَعْلَمُ ما يُرْضِي اللهَ ، ولا يَعْلَمُ ما يُرْضِي اللهَ إِلَّا بِالعِلْمِ بِما شَرَعَ اللهُ فِي كِتابِهِ وعَلَى لِسانِ نَبِيِّهِ ﷺ ، فَيَرَى عِنْدَما يُرِيدُ أَنْ يَنْطِقَ بِالأَمْرِ هَلْ نُطْقُهُ فِي ذَلِكَ المَوْطِنِ يُرْضِي اللهَ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوه ؟ فَإِنْ وَجَدَ وَجْهًا يَقْدَحُ فِيهِ فالكُلُّ غَيْرُ مَقْبُولٍ وغَيْرُ مُرْضٍ عِنْدَ اللهِ ؛ فَإِنَّهُ لا يَحْتَمِلُ التَّجَزُّءَ ولا الانْقِسام ، وهَذا مَوْضِعُ غَلَطٍ ، ودَواؤُهُ ما قُلْنا مِنَ العَمَلِ المَشْرُوعِ والعَمَلِ بِما يُرْضِي اللهَ .

وتَفارِيعُ الأَقْوالِ كَثِيرَةٌ ، وحَصْرُ عالَمِها وأَدْوِيَتِها فِي أَمْرَيْن :

الواحِدُ : أَنْ تَتَكَلَّمَ إِذا اشْتَهَيْتَ أَنْ تَسْكُتَ ، وتَسْكُتَ إِذا اشْتَهَيْتَ أَنْ تَتَكَلَّم .

والأَمْرُ الآخَرُ : أَلَّا تَتَكَلَّمَ إِلَّا فِيما إِذا سَكَتَّ عَنْهُ كُنْتَ عاصِيًا ، وإِلَّا فَلا ، وإِيَّاكَ والكَلامَ عِنْدَما تَسْتَحْسِنُ كَلامَكَ وتَسْتَحْلِيه ، فَإِنَّ الكَلامَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ مِنْ أَكْبَرِ الأَمْراضِ ، وما لَهُ دَواءٌ إِلَّا الصَّمْتَ لا غَيْر .

---

(١) ، (٢) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ١١٤.

مَطْلَبٌ فِي أَمْراضِ الأَفْعال

وأَمَّا أَمْراضُ الأَفْعالِ : وهُوَ أَنْ يَكُونَ أَداؤُكَ الفِعْلَ الَّذي هُوَ عِبادَةٌ كالصَّلاةِ مَثَلًا فِي المَلَأِ أَحْسَنَ مِنْ أَدائِكَ فِي السِّرِّ ؛ يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مِثْلِ هَذِهِ الغَفْلَة : (تِلْكَ اسْتِهانَةٌ اسْتَهانَ بِها رَبَّهُ)[1] فِي رَجُلٍ حَسَّنَ صَلاتَهُ فِي المَلَأِ وأَساءَها فِي الخَلْوَة ، وهَذا مِنْ أَصْعَبِ الأَمْراضِ النَّفْسِيَّةِ ، ودَواؤُهُ :

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [2] ، ﴿سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [3] ، (فاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيا مِنْهُ)[4] ، وأَمْثالُ هَذِهِ الآياتِ والأَخْبار .

ومِنَ الأَمْراضِ الفِعْلِيَّةِ أَيْضًا : تَرْكُ العَمَلِ مِنْ أَجْلِ النَّاس ، وهُوَ الرِّياءُ عِنْدَ الجَماعَة ، وأَمَّا العَمَلُ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ فَذَلِكَ شِرْكٌ ما هُوَ رِياءٌ عِنْدَ السَّادَةِ مِنْ أَهْلِ اللّه ، ودَواؤُهُ : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [5] ، وما أَشْبَهَ هَذِهِ الآيَة .

مَطْلَبٌ فِي أَمْراضِ الأَحْوال

وأَمَّا أَمْراضُ الأَحْوالِ ؛ كَصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ حَتَّى يَشْتَهِرَ فِي النَّاسِ

---

(١) رَواهُ عَبْدُ الرَّزَّاق فِي مُصَنَّفِه ، وأَبُو يَعْلَى فِي مُسْنَدِه .
(٢) سُورَةُ العَلَق : الآيَة ١٤ . (٣) سُورَةُ الأَنْعام : الآيَة ٣ .
(٤) رَواهُ أَبُو نُعَيْم فِي الحِلْيَة ، والبَيْهَقِي فِي الشُّعَب ، والدَّيْلَمِي فِي الفِرْدَوْس .
(٥) سُورَةُ الصَّافَّات : الآيَة ٩٦ .

أَنَّهُ مِنْهُمْ وهُوَ فِي نَفْسِهِ مَعَ شَهْوَتِهِ ، فَإِنْ حَضَرُوا سَماعًا وهُوَ قَدْ تَعَشَّقَ بِجارِيَةٍ أَوْ غُلامٍ ، والجَماعَةُ لا تَعْلَمُ بِذَلِكَ ، فَأَصابَهُ وَجْدٌ وغَلَبَةُ حالٍ ، لِتَعَلُّقِهِ بِذَلِكَ الشَّخْصِ الَّذي فِي نَفْسِهِ ، فَيَتَحَرَّكُ ، ويَصِيحُ ، ويَتَنَفَّسُ الصُّعَداءَ ، أَوْ يَقُولُ : اللّه اللّه ، أَوْ : هُو هُو ، ويُشِيرُ بِإِشاراتِ أَهْلِ اللّه ، والجَماعَةُ تَعْتَقِدُ حالَهُ أَنَّهُ حالٌ إِلَهِيٌّ ، مَعَ كَوْنِهِ ذا وَجْدٍ صَحِيح ، لَكِنْ فِيمَن ؟! دَواؤُهُ : ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [1] ، وما أَشْبَهَ هَذِهِ الآيَةَ مِنَ الأَخْبارِ .

ومِنْ أَمْراضِ الأَحْوالِ : أَنْ يُلَبِّسَ دُونَ ما فِي نَفْسِهِ ، ودَواؤُهُ أَنْ يُظْهِرَ ما فِي نَفْسِهِ ، وما يَحِلُّ لَهُ لِباسُهُ .

فَمَنْ عَرَفَ هَذِهِ العِلَلَ وأَدْواءَها واسْتَعْمَلَها فِي نَفْسِهِ نَفَعَها .

حُكِيَ عَنِ الشَّيْخِ رُوزبَهان أَنَّهُ كانَ ابْتُلِيَ بِحُبِّ امْرَأَةٍ مُغَنِّيَةٍ وهامَ فِيها وَجْداً ، وكانَ كَثِيرَ الزُّعاقِ فِي حالِ وَجْدِهِ فِي اللّه ؛ بِحَيْثُ إِنَّهُ كانَ يُشَوِّشُ عَلَى الطَّائِفِينَ بِالبَيْتِ فِي زَمَنِ مُجاوَرَتِهِ ، فَكانَ يَطُوفُ عَلَى سُطُوحِ الحَرَم ، وكانَ صادِقَ الحال .

ولَمَّا ابْتُلِيَ بِحُبِّ هَذِهِ المَرْأَةِ المُغَنِّيَةِ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ ، وانْتَقَل حُكْمُ

---

(١) سُورَةُ الشَّمْس : الآيَة ١٠ .

ذَلِكَ الَّذي كانَ عِنْدَهُ باللّه بها ، وعَلِمَ أَنَّ النَّاسَ يَتَخَيَّلُونَ فِيهِ أَنَّ ذَلِكَ الوَجْدَ لِوَجْهِ اللّهِ عَلَى أَصْلِهِ ، فَجاءَ إِلَى الصُّوفِيَّة ، وخَلَعَ الخِرْقَةَ[1] ورَمَى بها إِلَيْهِمْ ، وذَكَرَ للنَّاسِ قِصَّتَهُ ، وقالَ : لا أُرِيدُ أَنْ أَكْذِبَ فِي حالٍ ، ولَزِمَ خِدْمَةَ المُغَنِّيَة .

فَأُخْبِرَتِ المَرْأَةُ بِحالِهِ ووَجْدِهِ ، وأَنَّهُ مِنْ أَكابِرِ أَهْلِ اللّه ، فاسْتَحْيَتِ المَرْأَةُ وتابَتْ إِلَى اللّهِ مِمَّا كانَتْ فِيهِ بِبَرَكَةِ صِدْقِهِ ، ولَزِمَتْ خِدْمَتَهُ ، وأَزالَ اللّهُ ذَلِكَ التَّعَلُّقَ بها مِنْ قَلْبِهِ ، فَرَجَعَ إِلَى الصُّوفِيَّة ، ولَبِسَ خِرْقَتَهُمْ ، ولَمْ يَرَ أَنْ يَكْذِبَ مَعَ اللّهِ فِي حالِهِ ، فَهَكَذا صِدْقُهُمْ .

وهَذا الشَّيْخُ رُوزبَهان هُوَ صاحِبُ ((عَرائِسُ البَيان فِي تَفْسِير القُرْآن)) ، و ((لَطائِفُ البَيان)) وهُوَ أَيْضًا فِي تَفْسِيرِ القُرْآن .

وكُنْيَتُهُ أَبو مُحَمَّد بنُ أَبِي النَّصْرِ البَقْلِي ثُمَّ الشِّيرازِي ، صَحِبَ أَبا النَّجِيبِ السَّهْرَوَرْدِي ، ورَحَلَ إِلَى العِراقِ والحِجازِ والشَّام ، وأَخَذَ عَنْ أَساتِذَةٍ أَئِمَّةٍ قادَةٍ أَعْلام .

فَهَذا حَصْرُ الأَمْرِ ؛ فَإِنَّ الإِنْسانَ لا يَخْلُو أَنْ يُقامَ فِي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ حالٍ ، وما ثَمَّ رابِعٌ ، وكَذَلِكَ القِيامُ فِي حالِ الوَجْدِ إِذا قامَ بِوَجْدِهِ ثُمَّ

---

(١) نَوْعٌ مِنَ الزِّيِّ تَشْتَهِرُ بِارْتِدائِهِ صُوفِيَّةُ ذاكَ العَصْر .

زالَ عَنْهُ جَلَسَ مِنْ حِينِهِ ولا يَتَواجَدُ ، فَإِنْ تَواجَدَ ولَمْ يَقُلْ للحاضِرِينَ إِنَّهُ مُتَواجِدٌ فَهُوَ صاحِبُ مَرَضٍ ، فَهَذا إِجْمالُ هَذِهِ المَسْأَلَةِ .

وتَفارِيعُ الأَقْوالِ والأَفْعالِ والأَحْوالِ كَثِيرَةٌ ؛ فَلْيَحْذَرْ مِنَ الكَذِبِ فِي ذَلِكَ ، ولْيَلْزَمِ الصِّدْقَ ، ولا يَظْهَرُ للنَّاسِ إِلَّا بِما يَظْهَرُ للّهِ فِي المَوْطِنِ الَّذي يَنْبَغِي ، فَإِنَّ العِلْمَ بِحُكْمِ اللّهِ فِي تَفاصِيلِ هَذِهِ الأُمُورِ شَرْطٌ فِي أَهْلِ اللّه ، ولا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ ، فَما عَبَدَ اللّهَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ حُكْمَهُ ، فَإِنَّ اللّهَ ما اتَّخَذَ وَلِيًّا جاهِلًا .

وهَذِهِ الأَمْراضُ والعِلَلُ مَحَلُّها النَّفْسُ الَّتي هِيَ مَوْطِنُ الزَّلَلِ ؛ ولِذَلِكَ أَتْبَعْناها بِذِكْرِ الدَّسائِسِ ؛ فَإِنَّها مِنْ جُمْلَةِ تِلْكَ الخَسائِسِ ؛ فَكُلُّ مَنْ لَمْ يَشْتَغِلْ بِسِياسَتِها وتَهْذِيبِها مِنْ أَوَّلِ قَدَمٍ يَضَعُها فِي الطَّرِيقِ لا يَرْتَقِي إِلَى العِلْمِ ، ولا يَشُمُّ رائِحَةَ التَّحْقِيقِ .

قالَ سَيِّدِي أَبو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ عَبْدِ اللّهِ الشَّاذِلِيُّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وعَنَّا بِهِ : أَوَّلُ مَنْزِلٍ يَطَؤُهُ المُحِبُّ للتَّرَقِّي مِنْهُ إِلَى العُلا النَّفْسُ ، فَإِذا اشْتَغَلَ بِسِياسَتِها ورِياضَتِها إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى مَعْرِفَتِها وتَحْقِيقِها أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَنْوارُ المَنْزِلِ الثَّانِي وهُوَ القَلْبُ ، فَإِذا اشْتَغَلَ بِسِياسَتِهِ حَتَّى عَرَفَهُ ولَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَنْوارُ المَنْزِلِ الثَّالِثِ

وهُوَ الرُّوحُ ، فَإذا اشْتَغَلَ بِسياسَتِهِ حَتَّى عَرَفَهُ ولَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ وتَمَّتْ لَهُ المَعْرِفَةُ هَبَّتْ عَلَيْهِ أَنْوارُ اليَقِينِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى تَمام نِهايَتِهِ ، وهَذِهِ طَرِيقَةُ العامَّة ، وأَمَّا طَرِيقَةُ الخاصَّةِ فَهِيَ طَرِيقٌ عُلْوِيٌّ تَضْمَحِلُّ العُقُولُ فِي أَقَلِّ القَلِيلِ مِنْ شَرْحِها .

وقالَ رضي الله عنه : كُلُّ عِلْم تَسْبِقُ إِلَيْكَ فِيهِ الخَواطِرُ ويَتْبَعُهُ التَّصَوُّرُ وتَمِيلُ إِلَيْهِ النَّفْسُ وتَلْتَذُّ بِهِ الطَّبِيعَةُ فارْمِ بِهِ وإِنْ كانَ حَقًّا ، وخُذْ بِعِلْمِ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ، واقْتَدِ بِهِ وبِالخُلَفاءِ والصَّحابَةِ والتَّابِعِينَ مِنْ بَعْدِهِ وبِالهُداةِ المُبَرَّئِينَ مِنَ الهَوَى تَسْلَمْ مِنَ الشُّكُوكِ والظُّنُونِ والأَوْهامِ والدَّعاوَى الكاذِبَةِ المُضِلَّةِ عَنِ الهَوَى وحَقائِقِهِ ، وماذا عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ عَبْداً للهِ ، وحَسْبُكَ مِنَ العِلْمِ العِلْمُ بِالوَحْدانِيَّة ، ومِنَ العَمَلِ مَحَبَّةُ اللهِ ومَحَبَّةُ رَسُولِهِ ومَحَبَّةُ الصَّحابَةِ واعْتِقادُ الحَقِّ للجَماعَة .

قالَ رَجُلٌ : مَتَى السَّاعَةُ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قالَ ﷺ : (ما أَعْدَدْتَ لَها ؟) قالَ : لا شَيْءَ إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)[1].

وقالَ تِلْمِيذُهُ ووارِثُهُ سَيِّدِي أَبُو العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنه : سَمِعْتُ أَبا

---

(١) رَواهُ البُخارِي ، ومُسْلِمٌ ، والتِّرْمِذِيُّ ، وأَحْمَدُ ، والدَّارَقُطْنِي ، والبَزَّار .

الحَسَنِ يَقُولُ : مَنْ ثَبَتَتْ وِلايَتُهُ مِنَ اللهِ لا يَكْرَهُ المَوْتَ ، وهَذا مِيزانٌ للمُرِيدِينَ ؛ لِيَزِنُوا بِهِ عَلَى نُفُوسِهِمْ إذا ادَّعَوْا وِلايَةَ اللهِ ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ النُّفُوسِ وُجُودَ الدَّعْوَى للمَراتِبِ العالِيَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْلُكَ السَّبِيلَ للوُصُولِ إِلَيْها ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (١) .

وقالَ : الطَّيُّ طَيَّان : طَيٌّ أَصْغَر ، وطَيٌّ أَكْبَر ؛ فالطَّيُّ الأَصْغَرُ لِعامَّةِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ أَنْ تُطْوَى لَهُمُ الأَرْضُ مِنْ مَشْرِقِها إِلَى مَغْرِبِها فِي نَفَسٍ واحِدٍ ، والطَّيُّ الأَكْبَرُ طَيُّ أَوْصافِ النُّفُوس .

وكانَ يَقُولُ : الكائِناتُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسام : جِسْمٌ كَثِيفٌ وهُوَ بِمُجَرَّدِهِ جَمادٌ ، وجِسْمٌ لَطِيفٌ وهُوَ بِمُجَرَّدِهِ جانٌّ ، ورُوحٌ شَفَّافٌ وهُوَ بِمُجَرَّدِهِ مَلَكٌ ، وسِرٌّ غَرِيبٌ وهُوَ المَعْنَى المَسْجُودُ لَهُ .

فالآدَمِيُّ بِظاهِرِ صُورَتِهِ جَمادٌ ، وبِوُجُودِ نَفْسِهِ وتَخَيُّلِها وتَشَكُّلِها جانٌّ ، وبِوُجُودِ رُوحِهِ مَلَكٌ ، وبِإِعْطائِهِ السِّرَّ الغَرِيبَ اسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةً .

وكانَ يَقُولُ رضي الله عنه : ما سُمِّيَ إِبْراهِيمُ الخَلِيلُ فَتًى إِلَّا لِكَوْنِهِ كَسَّرَ الأَصْنامَ الحِسِّيَّةَ الَّتِي وَجَدَها ، وأَنْتَ يا وَلَدِي لَكَ أَصْنامٌ خَمْسَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ (فَإِنْ كَسَّرْتَها فَأَنْتَ فَتًى) ، النَّفْسُ والهَوَى والشَّيْطانُ والدُّنْيا والشَّهْوَة ،

---

(١) سُورَةُ الجُمُعَة : مِنَ الآيَة ٦ .

وافْهَمْ ها هُنا : لا سَيْفَ إلَّا ذُو الفَقَّارِ ولا فَتَى إلَّا عَلِيٌّ .

وكانَ يَقُولُ رضي الله عنه فِي مَعْنَى : (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ) : مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِذُلِّها وعَجْزِها عَرَفَ اللّٰهَ بِعِزِّهِ وقُدْرَتِهِ .

قالَ الشَّعْرانِي رضي الله عنه : وهُوَ أَسْلَمُ الأَجْوَبَة .

وقالَ سَيِّدِي عَلِي وَفا ابنُ سَيِّدِي مُحَمَّد وَفا وهُوَ أَحَدُ تَلامِذَةِ سَيِّدِي داوُدَ بنِ باخِلَّا وهُوَ تِلْمِيذُ سَيِّدِي أَحْمَد بنِ عَطاءِ اللّٰهِ وهُوَ تِلْمِيذُ سَيِّدِي أَبِي العَبَّاسِ المُرْسِي قَدَّسَ اللّٰهُ أَسْرارَهُمْ وأَسَّسَ أَطْوارَهُمْ : اطْلُبْ مِنْ نَفْسِكَ الصِّدْقَ فِي مَعْرِفَةِ خُصُوصِيَّةِ أَهْلِ التَّخْصِيص ، وبِحُبِّكَ لَهُمْ تَنالُ مِنْهُمْ ما تُرِيد ، ولا تَطْلُبْ مِنْهُمْ أَنْ يَشْغَلُوا قُلُوبَهُمْ بِكَ وتُهْمِلْ أَنْتَ أَمْرَ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ قَلِيلُ الجَدْوَى .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : إذا عَلِمْتَ مِنْ أُسْتاذِكَ الاطِّلاعَ عَلَى جَمِيعِ أَحْوالِكَ فَقَدْ عَرَضْتَ عَلَيْهِ صَحِيفَتَكَ فَقَرَأَها ، فَإِمَّا أَنْ يَشْكُرَ اللّٰهَ ، وإِمَّا أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبَّكَ ، فاسْمَعْ لِهَذا وأَطِعْ ، وإِنْ أَعْطاكَ اللّٰهُ تَعالَى بَصِيرَةً عَلِمْتَ بِها ذَلِكَ فَقَدْ أُوتِيتَ كِتابَكَ بِيَمِينِكَ ، وإِنْ خالَفْتَ ما فِيهِ فَقَدْ أُوتِيتَ كِتابَكَ بِشِمالِكَ ، وإِنْ أَغْفَلْتَ النَّظَرَ فِيهِ فَقَدْ أُوتِيتَ كِتابَكَ وَراءَ ظَهْرِكَ .

وحَيْثُ جاءَكَ هَذا البَيانُ فاقْرَأْ كِتابَكَ ، وحَرِّرْ حِسابَكَ ، ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١) .

وكانَ رضي الله عنه **يَقُولُ** : النَّفْسُ مَطِيَّةُ المُؤْمِن ، اسْمَعْ ، لا تَسْمَحْ لِنَفْسِكَ فِي الشَّراسَةِ ولا يَقُودُها النِّفار ، فَتَتْعَبَ بِها عِنْدَ رُجُوعِكَ إِلَى الدِّيار ، وتَنْدَمَ عَلَى تَفْرِيطِكَ فِيها حِينَ سُلُوكِكَ فِي مَفازَةِ البَرْزَخِ بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّار .

واعْلَمْ أَنَّ النَّفْسَ مَرْكُوبُ الوافِدِ عِنْدَ مُرُورِهِ عَلَى الصِّراطِ المَنْصُوب ؛ فَإِنْ تَشارَسَتْ أَسْقَطَتْهُ فِي الدَّرْكِ المَغْضُوب ، وإِنْ ذُلِّلَتْ لَهُ نَجا عَلَيْها إِلَى المَطْلُوب ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (٢) .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : قِيامُكَ بِالأَمْرِ لأَجْلِ الآمِرِ وَحْدَهُ إِخْلاصٌ ، ومِيزانُ ذَلِكَ أَنْ تَفْرِضَ أَنَّهُ نَهاكَ عَنْ مَوْضِعٍ أَنَّهُ أَمَرَكَ بِهِ أَوْ عَكْسَهُ ، فَإِنْ وَجَدْتَ نَفْسَكَ تَنْبَسِطُ بِأَحَدِهِما أَكْثَرَ مِنَ الآخَر ، فاعْلَمْ أَنَّ قِيامَكَ بِهِ مَعْلُولٌ ، وأَنَّهُ شَهْوَةٌ نَفْسِيَّةٌ ، وإِلَّا فَلا ؛ فَما أَعَزَّ الإِخْلاصَ وما أَدَقَّ إِدْراكَهُ .

وكانَ رضي الله عنه **يَقُولُ** : تَقُولُ الأَطِبَّاءُ إِنَّ بَرْدَ الرَّحِمِ سَبَبٌ فِي عَدَمِ الحَمْلِ ،

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ١٤ .
(٢) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٨٥ .

هَكَذا نَفْسُ التِّلْمِيذِ مَتَى لَمْ تَجِدْ لَوْعَةَ الوَجْدِ وحُرْقَةَ الطَّلَبِ والشَّوْقَ إِلَى المَقْصُودِ لَمْ يَتَوَلَّدْ فِيها مِنْ فَيْضِ أُسْتاذِهِ شَيْءٌ ، فَهُوَ مِثْلُ الوَقُودِ لا يُؤَثِّرُ فِيهِ القَبَسُ إِلَّا دُخانًا ، كالدَّعاوَى والرُّعُوناتِ الحاصِلَةِ للنُّفُوسِ الدَّاخِلَةِ بَيْنَ القَوْمِ بِغَيْرِ حُرْقَةِ شَوْقٍ وصِدْقٍ وطَلَبِ وَجْدٍ ، ومِثْلُها أَنْ تَكُونَ وَرَقَةٌ مَبْلُولَةً لا تَثْبُتُ عَلَيْها كِتابَةٌ ، ومِثْلُها أَيْضًا كَحَرَّاقٍ بارِدٍ : أَيْ رَطْبٍ لا يَعْلَقُ فِيهِ قَبَسٌ .

وقالَ رضي الله عنه : ما دُمْتَ أَيُّها الآدَمِيُّ صاحِبَ صِفاتٍ كَرِيمَةٍ فَأَنْتَ إِنْسانٌ باقٍ عَلَى أَصْلِكَ ، لَمْ تُفْسَخ ، ولَمْ تُمْسَخ ، ومَتَى نُسِخَتْ مِنْكَ الكَرائِمُ بِالذَّمائِمِ فَقَدْ نُسِخَتْ عَنْكَ الإِنْسانِيَّةُ بِالصُّورَةِ الشَّيْطانِيَّةِ الَّتي نُسِخَتْ بِها ، وإِنْ خَلَطْتَ لَمْ تَكُنْ إِنْسانًا خالِصًا ولا شَيْطانًا مَحْضًا ، وفِي ذَلِكَ يَتَفاوَتُ المُتَفاوِتُونَ ، والحُكْمُ للغالِبِ .

فَتَأَمَّلْ ، ولا تُشِنْ صُورَةَ إِنْسانِيَّتِكَ بِكَدَرِ صِفاتِ نَفْسِكَ فَتَكُونَ كَمَنْ باعَ الدُّرَّ بِالكَدَرِ ، أَوِ الجَواهِرَ بِالمَدَرِ .

واعْلَمْ أَنَّ حُسْنَ الصُّورَةِ نِعْمَةٌ رَبَّانِيَّةٌ ومِنْحَةٌ إِحْسانِيَّةٌ ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تُشَوِّهَها بِصِفاتٍ ذَمِيمَةٍ وسِماتِ نَفْسٍ لَئِيمَةٍ ؛ فَفِي الحَدِيثِ الحَسَنِ عَنْ صاحِبِ الخُلُقِ والخَلْقِ الحَسَنِ ﷺ : (مَنْ آتاهُ اللهُ وَجْهًا حَسَنًا

واسْمًا حَسَنًا وجَعَلَهُ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ شانٍ لَهُ فَهُوَ فِي صَفْوَةِ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ)[1].

وعَنْهُ ﷺ: (مَنْ رُزِقَ حُسْنَ صُورَةٍ وحُسْنَ خُلُقٍ وزَوْجَةً صالِحَةً وسَخاءً فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرَي الدُّنْيا والآخِرَة)[2].

فَحُسْنُ الصُّورَةِ يُنْبِئُ عَنْ حُسْنِ السَّرِيرَة ، وحُسْنُها يُوجِبُ حُسْنَ السِّيرَة .

فَعَلَيْكَ بِالأَخْلاقِ الحَسَنَةِ فَإِنَّها نِعْمَةٌ حَسَنَة ؛ لِيَحْسُنَ صِيتُكَ فِي السَّماء ، فَيُوضَعَ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ ، فَتَكُونَ مِمَّنْ سَما ؛ فَفِي الحَدِيثِ الشَّرِيف : (ما مِنْ عَبْدٍ إِلَّا ولَهُ صِيتٌ فِي السَّماء ، فَإِنْ كانَ صِيتُهُ فِي السَّماءِ حَسَنًا وُضِعَ فِي الأَرْض ، وإِنْ كانَ صِيتُهُ فِي السَّماءِ سَيِّئًا وُضِعَ فِي الأَرْض)[3].

وعَنْهُ ﷺ: (شَرَفُ الدُّنْيا الفَناءُ ، وشَرَفُ الآخِرَةِ التَّقْوَى ، وأَنْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى شَرَفُكُمْ غِناكُمْ ، وكَرَمُكُمْ تَقْواكُمْ ، وأَحْسابُكُمْ أَخْلاقُكُمْ ،

---

(١) رَواهُ ابنُ حِبَّانَ وابنُ عَساكِرَ عَنْ سَيِّدِنا عَبْدِاللهِ بنِ عَبَّاس رضي الله عنهما ، وكَذا الطَّبَرانِي فِي الصَّغِير ، والهَيْثَمِي فِي مَجْمَعِ الزَّوائِد .

(٢) رَواهُ ابنُ شاهِينَ عَنْ سَيِّدِنا أَنَس رضي الله عنه .

(٣) رَواهُ البَزَّارُ بِسَنَدِهِ عَنْ سَيِّدِنا أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه ، وذَكَرَهُ المُناوِي فِي فَيْضِ القَدِير .

وأَنْسابُكُمْ أَعْمالُكُمْ)[1].

ثُمَّ قالَ سَيِّدِي عَلِي وَفا قَدَّسَ اللّٰهُ سِرَّهُ : إِيَّاكَ أَنْ تَحْسِدَ مَنِ اصْطَفاهُ اللّٰهُ عَلَيْكَ ، فَيَمْسَخَكَ الحَقُّ كَما مَسَخَ إِبْلِيسَ مِنَ الصُّورَةِ المَلَكِيَّةِ إِلَى الصُّورَةِ الشَّيْطانِيَّةِ لَمَّا حَسَدَ آدَمَ وأَبَى وتَكَبَّرَ عَلَيْه .

وفِي ذَلِكَ تَحْذِيرٌ لَكَ إِذا رَأَيْتَ إِمامَ هُدًى إِلَى الحَقِّ أَنْ تَحْسِدَهُ أَوْ تَتَكَبَّرَ عَنِ الخُضُوعِ لَهُ والائْتِمامِ بِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْلُبُكَ ما فِيكَ مِنَ الصُّورَةِ المَرْضِيَّةِ ويُدْخِلُكَ فِي الصُّورَةِ الغَضَبِيَّة ، وإِذا خَضَعْتَ لَهُ وكُنْتَ بِالعَكْسِ نَقَلَكَ مِنَ الصُّورَةِ الشَّيْطانِيَّةِ إِلَى المَلَكِيَّة .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : إِذا جِئْتَ إِلَى أَئِمَّةِ الهُدَى فَلا تَأْتِهِمْ إِلَّا لِتَهْتَدِيَ بِهِمْ ولا يَحْصُلُ ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ تَرَى نَفْسَكَ عَلَى غِوايَة ، وأَنْتَ مُضْطَرٌّ إِلَى كَشْفِ غُمَّتِها بِنُورِ رُوحِ الهِدايَة ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[2].

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : انْظُرِ السَّحابَ كَيْفَ يَتَفَرَّقُ ويَنْحَطُّ إِلَى جِهَةِ التُّراب ، فاجْعَلْ نَفْسَكَ بِالعُبُودِيَّةِ تُرابًا يَخْدِمْكَ مَنْ جَعَلَ نَفْسَهُ بِالرِّياسَةِ سَحابًا .

---

(١) رَواهُ الدَّيْلَمِي فِي الفِرْدَوْسِ بِسَنَدِهِ عَنْ سَيِّدِنا عُمَر رضي الله عنه .

(١) سُورَةُ النَّمْل : مِنَ الآيَة ٦٢ .

ومِنْ كَلام سَيِّدِي أَبي المَواهِبِ مُحَمَّد الشَّاذِلي رضي الله عنه وكانَ قَدْ أُعْطِيَ ناطِقَةَ سَيِّدِي عَلِي وَفا قَدَّسَ اللّهُ سِرَّهُ : إذا أَرَدْتَ أَنْ تَهْجُرَ إِخْوانَ السُّوءِ فاهْجُرْ أَخْلاقَكَ السُّوءَ قَبْلَ أَنْ تَهْجُرَهُمْ ؛ فَإِنَّ نَفْسَكَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ ، والأَقْرَبُونَ أَوْلَى بِالمَعْرُوف .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : مِنْ عَلامَةِ المُرائِي إِجابَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ إذا أُضِيفَ إِلَيْهِ نَقْصٌ ، وتَنْقِيصُ الصَّالِحينَ مِنْ أَهْلِ زَمانِهِ .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : احْذَرُوا زَخارِفَ أَقْوالِ أَهْلِ الرِّضا عَنِ النَّفْس ، خُصُوصًا الَّذينَ اتَّخَذُوا العِلْمَ حِرْفَةً وشَبَكَةً لِصَيْدِ حَرامِ الدُّنْيا مَعَ تَكَبُّرِهِمْ عَلَى النَّاس ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ حُرِمُوا خَيْرَي الدُّنْيا والآخِرَة ، ولَهُمْ نُعُوتٌ مَمْقُوتَةٌ وأَحْوالٌ رَزِيَّة ، لَمْ تُبْقِ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ حُرْمَةً ولا قَبُولَ شَفاعَةٍ ، اتَّخَذُوا أَحْسَنَ الزِّيِّ شِعارًا ، وتَكَبَّرُوا بِذَلِكَ اسْتِكْبارًا .

وقَدْ قالَ الشَّيْخُ تاجُ الدِّينِ فِي الحِكَم :[1] لأَنْ تَصْحَبَ جاهِلًا لا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عالِمًا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : إذا رَأَيْتَ نَفْسَكَ مُعْرِضَةً عَنْ مَوَدَّةِ أَهْلِ اللّهِ فاعْلَمْ أَنَّكَ مَطْرُودٌ عَنْ بابِ اللّه .

---

(١) الحِكَمُ العَطائِيَّة : سَيِّدِي أَحْمَدُ بنُ عَطاءِ اللّهِ السَّكَنْدَرِي .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا﴾ [1] : وإِنْ كانَ ظاهِرُهُ إِنْعامٌ فَباطِنُهُ انْتِقامٌ وابْتِلاءٌ واخْتِبار ؛ لِيَنْظُرَ تَعالَى مَنْ هُوَ مَعَهُ ومَنْ هُوَ مَعَ حَظِّ نَفْسِهِ ؛ فافْهَمْ دَقائِقَ أَحْكامِ الباطِنِ ، ولا تَغْتَرَّ بِالرُّخَصِ الظَّاهِرَةِ تَكُنْ مِنَ العارِفِينَ أَهْلِ الفَهْمِ عَنْهُ تَعالَى .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : اتِّباعُ شَهَواتِ النُّفُوس هُوَ الَّذي نَكَّسَ الرُّؤُوس ، ومَنْ أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَى دَقائِقِ نَفْسِهِ أَمِنَ مِنْ عَكْسِهِ ونَكْسِه .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : عَلامَةُ فَتْحِ القُلُوبِ أَلَّا يَدْخُلَ فِيهِ خَلَل ، وعَلامَةُ فَتْحِ النُّفُوسِ السَّآمَةُ والمَلَل .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : مَنْ كانَ للخَلْقِ أَرْضًا فَهُوَ لِرَبِّهِ أَرْضَى ، ومَنْ عَلَى الخَلْقِ تَعالَى [2] لا يُقالُ لَهُ تَعالَ ؛ أَي ائْتِ إِلَيْنا لِتُسْقَى كُؤُوسَ الهَنا لَدَيْنا .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : إِذا رَأَيْتَ فِي مَنامِكَ شَيْئًا مِنَ البُشْرَى فَلا تَرْضَ عَنْ نَفْسِكَ حَتَّى تَعْلَمَ رِضا اللهِ عَنْها .

وقالَ الشَّعرانِي رضي الله عنه فِي طَبَقاتِهِ عَنْ تَرْجَمَةِ شَيْخِهِ سَيِّدِي عَلِيٍّ الخَوَّاص رضي الله عنه : وسَأَلَهُ أَخِي أَفْضَلُ الدِّين عَنِ القَساوَةِ الَّتي يَجِدُها

---

(١) سُورَةُ الطُّور : مِنَ الآيَة ١٩ .
(٢) تَعالَى : تَكَبَّرَ .

فِي قَلْبِهِ ، فَقالَ : اشْكُرِ اللّٰهَ حَيْثُ سَتَرَ عَنْكَ حالَكَ ؛ لِتَكُونَ عَبْداً لَهُ صِرْفًا لا عَبْدَ خُشُوعِكَ وحُضُورِكَ ، فَقالَ : وأَنا إِنْ شاءَ اللّٰهُ عَبْدٌ لَهُ صِرْفٌ مَعَ ذَلِكَ ومَعَ غَيْرِهِ : فَقالَ : صَحِيحٌ ، لَكِنَّ الامْتِحانَ آفاتُهُ كَثِيرَةٌ ؛ والمَحْبُوبُ عِنْدَ اللّٰهِ ادَّخَرَ لَهُ ما وَعَدَهُ بِهِ عَلَى أَعْمالِهِ إِلَى الدَّارِ الآخِرَة ، وخَرَجَ مِنَ الدُّنْيا رَأْسُ مالِهِ كامِلًا مِنْ غَيْرِ خَسارَة .

ثُمَّ قالَ : إِيَّاكَ وكُلَّ شَيْءٍ أَلِفَتْهُ نَفْسَكَ ؛ فَإِنَّ السُّمَّ مَعَهُ ، ولا بُدَّ لِتَعَوُّدِ السُّمِّ مِنْ مُعِين ، ولا مُعِينَ لَهُ إِلَّا النَّفْس ، وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعالَى لآدَمَ وحَوَّاء : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [1] ، مَعَ عِلْمِهِ بِها حالَ عِلْمِهِ بِالأَسْماء ، فَلَمَّا أَرادَ اللّٰهُ نُفُوذَ قُدْرَتِهِ أَلَّفَ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَنْ كانَ سَبَبًا لأَكْلِهِ ، ولَيْسَ إِلَّا نَفْسَهُ الَّتِي حَوَّاءُ مَظْهَرُها ، فَما نَزَلَ بِهِ البَلاءُ إِلَّا مِنْهُ وبِهِ .

وكانَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ ﷺ : (يُحْشَرُ المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِه) [2] : النَّفْسُ أَقْرَبُ خَلِيلٍ إِلَيْكَ ؛ فانْظُرْ كَيْفَ تَكُون ؛ فَإِنَّ مِنْ ها هُنا جاءَ البَلاءُ والخَوْفُ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰه .

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٣٥ .

(٢) رَواهُ التِّرْمِذِي ، وأَبو داوُدَ ، وأَحْمَدُ ، والدَّيْلَمِي فِي الفِرْدَوْس ، وأَبو نُعَيْم فِي الحِلْيَة ، وابنُ عَدِيٍّ فِي الكامِل .

ثُمَّ قالَ : وسَأَلَهُ أَخِي أَفْضَلُ الدِّينِ وأَنا حاضِرٌ عَنْ لَذَّةِ العُلُومِ عِنْدَ إِيجادِها فِي القَلْبِ قَبْلَ أَنْ تُوجَدَ فِي النَّفْسِ ، هَلْ هِيَ مُغْنِيَةٌ للإِنْسانِ عَنْ حِسِّهِ كَما هُوَ الأَمْرُ فِي النَّفْسِ ؟ فَقالَ : إِذا كانَ القَلْبُ يَسَعُ عِلْمَ الحَقِّ كَما وَرَدَ فَكَيْفَ لا يَسَعُ عِلْمَ غَيْرِهِ ؟! فَقالَ لَهُ أَخِي أَفْضَلُ الدِّين : عالَمُ الغَيْبِ أَوْسَعُ مِنْ عالَمِ الشَّهادَة ؛ فَهِيَ أَوْسَعُ حُكْمًا ، والحُكْمُ لا يَفْتَرِقُ عَنِ العَيْنِ كَما لا تَفْتَرِقُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِنْ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَقالَ لَهُ أَخِي المَذْكُور : فَما الحُكْمُ فِي الإِفاضَةِ عَلَى النَّفْس ؟ قالَ الشَّيْخُ : هُوَ بِحُكْمِ اسْتِعْدادِها وبُعْدِها عَنْ عالَمِها : فَقالَ لَهُ أَخِي المَذْكُور : لا بُدَّ مِنَ الفَرْقِ ، فَقالَ الشَّيْخُ : فَرْقٌ بِلا فَرْقٍ كَخِطابِ قَلْبِكَ لِنَفْسِكَ وأَنْتَ أَنْتَ ، وهُما عَيْنُ أَنِيَّتِكَ .

ثُمَّ قالَ : وحَكَى لَهُ أَخِي أَفْضَلُ الدِّينِ وأَنا حاضِرٌ ، فَقالَ : رَأَيْتُ كَأَنِّي مَيِّتٌ وأَنا أَغْسِلُ جَسَدِي حَتَّى فَرَغْتُ ، ثُمَّ حَمَلْتُ نِصْفِيَ الأَسْفَل ، وأَنْتَ يا سَيِّدِي حَمَلْتَ نِصْفِيَ الأَعْلَى ، ثُمَّ سَأَلْتُ نِصْفِيَ عِوَضًا عَنِ المَلَكَيْنِ ، فَقالَ الشَّيْخُ : أَنْتَ مُقَصِّرٌ ، لِمَ لا تَحْمِلُ نَفْسَكَ كُلَّها فَتَكُونَ كامِلًا ؟! فَقاتِلْ نَفْسَكَ بِكَثْرَةِ السُّجُود ، وأَمَّا سُؤالُكَ نَفْسَكَ عِوَضًا عَنِ المَلَكَيْنِ فَهُو صَحِيحٌ ؛ فَإِنَّ السُّؤالَ حَقِيقَةً إِنَّما ثَمَرَتُهُ وفائِدَتُهُ للمَلَكَيْنِ لا لَكَ ؛

لأَنَّكَ لَمْ تُرِدْ بِسُؤالِهما عِلْمًا عَلَى ما كُنْتَ عَلَيْه .

ونُقِلَ عَنْ تَرْجَمَةِ أَخِيهِ المَذْكُورِ أَنَّهُ كانَ رضي الله عنه يَقُولُ : كُونُوا عَبِيدَ اللهِ لا عَبِيدَ أَنْفُسِكُمْ ولا عَبِيدَ دُنْياكُمْ ودِرْهَمِكُمْ ، فَإِنْ كانَ ما يَتَعَلَّقُ بِهِ خاطِرُكُمْ مِنْ مَحْمُودٍ أَوْ مَذْمُومٍ أَخَذَ مِنْ عُبُودِيَّتِكُمْ بِقَدْرِ حُبِّكُمْ لَهُ ، وأَنْتُمْ لَمْ تُخْلَقُوا للكَوْنِ ولا لأَنْفُسِكُمْ بَلْ خَلَقَكُمْ لَهُ ، فلا تَهْرُبوا مِنْهُ ، فَإِنَّكُمْ حَرامٌ لأَنْفُسِكُمْ ، فَكَيْفَ لا تَحْرُمُونَ عَلَى غَيْرِكُمْ .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : لا تَرْكَنْ إِلَى شَيْءٍ ، ولا تَأْمَنْ مِنْ نَفْسِكَ فِي شَيْءٍ ، ولا تَأْمَنْ مِنْ مَكْرِ اللهِ بِشَيْءٍ ولا بِغَيْرِ شَيْءٍ ، ولا تَخْتَرْ لِنَفْسِكَ حالَةً تَكُونُ عَلَيْها ؛ فَإِنَّكَ لا تَدْرِي أَتَصِلُ إِلَى ما اخْتَرْتَهُ أَمْ لا ! ثُمَّ إِنْ وَصَلْتَ إِلَيْهِ فَلا تَعْلَمُ أَلَكَ فِيهِ خَيْرٌ أَمْ لا ! وإِنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ فاشْكُرْهُ الَّذي مَنَعَكَ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْكَ مِنْ بُخْلٍ .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : إِذا خَيَّرَكَ الحَقُّ فِي شَيْءٍ فاخْتَرْ عَدَمَ الاخْتِيار ، ولا تَقِفْ مَعَ شَيْءٍ ، ولا تَرَ لِنَفْسِكَ شَيْئًا ، ولا تَحْزَنْ عَلَى شَيْءٍ خَرَجَ عَنْكَ ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كانَ لَكَ ما خَرَجَ عَنْكَ ، ولا تَفْرَحْ قَطُّ بِما حَصَلَ لَكَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيا والآخِرَةِ دُونَ اللهِ ؛ فَإِنَّ ما سِوَى اللهِ عَدَمٌ .

ثُمَّ قالَ : وسُئِلَ رضي الله عنه مَرَّةً عَنْ قَوْلِهِ : ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ

فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [1] أَلا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الرُّكُونُ إِلَى النَّفْس ؟ فَقالَ : نَعَمْ ، ثُمَّ قالَ : وإيضاحُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ مُتَضَمِنَّةٌ أَيْضًا المَعْرِفَةَ ، وهِيَ أَقْرَبُ الطُّرُقِ إِلَى الحَقِّ ، وهِيَ أَصْلٌ جامِعٌ لِجَمِيعِ الطُّرُقِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ ؛ فَإِنَّ فِي باطِنِها الحَثَّ عَلَى الأَمْرِ بالتَّخَلُّقِ بِالمَقامِ الإِبْراهِيمِي الَّذي نَحْنُ مُكَلَّفُونَ باتِّباعِه ، وذَلِكَ أَنَّ الإِرْكانَ صِفَةٌ مِنْ صِفاتِ النَّفْسِ ، والظُّلْمَ أَيْضًا مِنْ صِفاتِها ، وهِيَ مَوْصُوفَةٌ بِالظُّلْمِ والإِرْكانِ فِي نَفْسِها لاعْتِمادِها عَلَى نَفْسِها ودَعْواها بِأَنَّها أَفْضَلُ وأَعْلَمُ مِنْ غَيْرِها ، ولَمْ تَعْلَمْ هِيَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِها ، ولَوْلا أَنَّها مَوْصُوفَةٌ بِالظُّلْمِ ما ظَهَرَ عَنْها قَطُّ فِعْلٌ ولا أَمْرٌ قَبِيحٌ ، وهَذا أَيْضًا أَقْوَى دَلِيلٍ عَلَى جَهْلِها بِمَعْرِفَةِ نَفْسِها ورَبِّها ، حَيْثُ لَمْ تَسْتَنِدْ إِلَى رَبِّها فِي جَمِيعِ أَفْعالِها وأَقْوالِها وحَرَكاتِها وسَكَناتِها الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ المَحْسُوسَةِ الَّتي تَقَعُ فِي الآخِرَة .

فانْظُرْ يا أَخِي إِلَى سَيِّدِنا إِبْراهِيمَ عليه السلام لَمَّا لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ نارُ الشَّهْوَةِ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ نارُ الحِسِّ بَلْ وَجَدَها بَرْدًا ؛ لأَجْلِ صِفَةِ البَرْدِ الَّذي فِي باطِنِهِ عليه السلام فِي حَرِّ التَّدْبِيرِ المُفْضِي إِلَى الشِّرْكِ الأَكْبَر ، المُشارِ إِلَيْهِ

---

(١) سُورَةُ هُود : مِنَ الآيَة ١١٣.

بِقَوْلِ لُقْمانَ لابْنِهِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١) ، فَعُلِمَ أَنَّ الظَّالِمَ لِحَقِّ رَبِّهِ مُعَذَّبٌ بِنارِ البُعْدِ عَنْهُ ، ومُتَقَرِّبٌ إِلَى هَواهُ الَّذي جَعَلَهُ مَعْبُودَهُ ووِجْهَتَهُ ، قالَ تَعالَى : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (٢) ، وإِنَّما وَصَفَهُ هُنا بِالعِلْمِ لأَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ لَهُ إِلَهًا خارِجًا عَنْهُ وبَعِيدًا مِنْهُ ، والإِلَهُ مِنْ شَأْنِهِ القُرْبُ ، وما ثَمَّ شَأْنٌ أَقْرَبُ إِلَى الإِنْسانِ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ؛ لأَنَّ هَواهُ المَعْبُودَ عالِمٌ بِما يَظْهَرُ فِي سِرِّهِ ونَجْواه ؛ بِخِلافِ الإِلَهِ المَجْعُولِ فِي الظَّاهِرِ ؛ فَإِنَّهُ غَيْرُ عالِمٍ بِمَصالِحِ تِلْكَ النَّفْسِ وأَحْوالِها ؛ لِبُعْدِهِ وعَدَمِ عِلْمِهِ ، ومِنْ هُنا قالُوا : أَلْطَفُ الأَوْثانِ الهَوَى ، وأَكْثَفُها الحِجارَة .

وأَيْضًا فَإِنَّ النَّفْسَ العابِدَةَ لِهَواها هِيَ المَعْبُودَةُ لِهَذا ، فَإِنَّ صِفاتِها عابِدَةٌ لِذاتِها ، ولِذَلِكَ وَقَعَ عَلَيْنا التَّوْبِيخُ فِي قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣).

وفِي حَدِيثِ : (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ) ؛ فَإِنَّ المَعْرِفَةَ هُنا تَكَرَّرَتْ ، وهِيَ لَمْ تَقْبَلْ تَكْرارًا ، والنَّفْسُ والرَّبُّ قَبِلا التَّكْرار ، فاعْلَمْ ما تَحْتَهُ

---

(١) سُورَةُ لُقْمان : مِنَ الآيَة ١٣.

(٢) سُورَةُ الجاثِيَة : مِنَ الآيَة ٢٣.

(٣) سُورَةُ الذَّارِيات : الآيَة ٢١.

تُصِب التَّحْقِيقَ إِنْ شاءَ اللّٰه ، وصَلَّى اللّٰهُ وسَلَّمَ عَلَى مُعَلِّمِ الخَيْرِ ومُظْهِرِ التَّوْحِيد .

ثُمَّ قالَ : وكانَ ﷺ يَقُولُ : مَنْ صَفَّى جَوْهَرَةَ نَفْسِهِ عَلِمَ أَنَّ الحَياةَ إِنَّما هِيَ لِعَيْنِ الجَوْهَر ، وعَلِمَ أَنَّ المَوْتَ إِنَّما هُوَ لِتَبَدُّلِ الصُّوَر ، ويَشْهَدُ مَوْتَهُ كَلا مَوْتٍ[1] .

والشَّهِيدُ المَقْتُولُ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ يَنْقُلُهُ اللّٰهُ إِلَى البَرْزَخ ، لا مَوْت ، فَهُوَ مَقْتُولٌ لا مَيِّت ، ومِنْ هُنا قالُوا : العارِفُونَ لا يَمُوتُونَ ، وإِنَّما يُنْقَلُونَ مِنْ دارٍ إِلَى دارٍ ؛ لأَنَّهُمْ أَماتُوا أَنْفُسَهُمْ فِي دارِ الدُّنْيا بِالمُجاهَدَة .

وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : (مَنْ أَرادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَيِّتٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق) .

وكانَ الشَّيْخُ عَلِيٌّ الكازَرُونِي رَحِمَهُ اللّٰهُ يَقُولُ : ((مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ فَلا غالِبَ لَهُ ، ومَنْ غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ غَلَبَهُ كُلُّ أَحَد)) .

عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ

قالَ سَيِّدِي عَبْدُ الوَهَّابِ الشَّعْرانِي فِي مِنَنِهِ : ومِمَّا مَنَّ اللّٰهُ بِهِ عَلَيَّ نَفْرَةُ طَبْعِي مِمَّنْ يَمْدَحُنِي فِي المَجالِسِ بِنَظْمٍ أَوْ نَثْرٍ ، مِنْ حَيْثُ خَوْفِي

---

(١) الكافُ هُنا كافُ التَّشْبِيه دَخَلَتْ عَلَى ((لا)) النَّافِيَّة ، والمَعْنَى : أَنَّ مَنْ صَفَّى جَوْهَرَةَ نَفْسِهِ عَلِمَ أَنَّ المَوْتَ لَيْسَ بِمَوْتٍ عَلَى الحَقِيقَةِ وأَنَّهُ مِثْلُ اللَّا مَوْت .

مِنْ رُؤْيَةِ النَّفْسِ لِمِثْلِ هَذا ، ثُمَّ إِنِّي أَشْكُرُ اللهَ عَلَى إِطْلاقِهِ بَعْضَ أَلْسِنَةِ عِبادِهِ بِمَدْحِي مَعَ عَدَمِ اسْتِحْقاقِي لِذَلِكَ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَيْضًا أُفَتِّشُ نَفْسِي ؛ فَرُبَّما كانَ حُبُّ المَدْحِ كامِنًا فِيها ، فَيُورِثُنِي المَدْحُ بَعْضَ زَهْوٍ وعُجْبٍ ، فَأُحْجَبُ عَنْ مَقامِ العُبُودِيَّةِ .

وكانَ سَيِّدِي عَلِيٌّ الخَوَّاصُ يَقُولُ : إِذا رَأَيْتَ نَفْسَكَ عَلَى قَدَمِ الاسْتِقامَةِ ثُمَّ مَدَحَكَ إِنْسانٌ فَتَعَرَّفْ مِنَ اللهِ تَعالَى سَبَبَ ذَلِكَ ، فَرُبَّما عَلِمَ مِنْ نَفْسِكَ حُبَّ المَدْحِ لَها عَلَى عِبادَتِها فَأَعْطاكَ ذَلِكَ ، ويَكُونُ هُوَ حَظُّكَ مِنْهُ تَعالَى ، كَما يَفْرَحُ الوَلَدُ الصَّغِيرُ بِالجَلاجِلِ والشَّخاشِيخِ ، ثُمَّ يَقُولُ لِنَفْسِهِ : لَوْ عَلِمَ اللهُ مِنْكَ الإِخْلاصَ والاكْتِفاءَ بِعِلْمِهِ لأَخْفاكَ ولَمْ يَبْعَثْ لَكَ مَنْ يَمْدَحُكَ ؛ إِذْ لا يُساقُ بِالتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ إِلَى الطَّاعَةِ إِلَّا مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ، وما مَدَحَ الأَنْبِياءَ إِلَّا لِيُعْلِمَنا بِمَقامِهِمْ حَتَّى نَقْبَلَ مِنْهُمْ ما جاءُوا بِهِ مِنَ الهُدَى ، لا لِتَرْغِيبِهِمْ فِي الطَّاعَةِ كَغَيْرِهِمْ ؛ إِذْ لا يَحْتاجُ إِلَّا مَنْ كانَ مَحْجُوبًا .

وكانَ سَيِّدِي عَلِيٌّ الخَوَّاصُ يَزْجُرُ مَنْ يَمْدَحُهُ أَشَدَّ الزَّجْرِ غَيْرَةً لِجَنابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يُشارِكَهُ أَحَدٌ فِي صُورَةِ المَدْحِ ، مَعَ أَنَّ مَشْهَدَهُ أَنَّ جَمِيعَ الصِّفاتِ الَّتِي مُدِحَ عَلَيْها إِنَّما هِيَ للهِ بِالأَصالَةِ لأَنَّهُ خالِقُها .

وكانَ يَقُولُ : إذا مَدَحَنِي شَخْصٌ أكادُ أذُوبُ حَياءً مِنَ اللّه ؛ فَإنَّ مِثْلِي لَوْ نَطَقَتْ كُلُّ ذَرَّةٍ مِنْ جَمِيعِ الكائِناتِ بِهَجْوِهِ لَكانَ قَلِيلًا .

وهَذا المَقامُ أعْلَى مِمَّا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ تاجُ الدِّينِ أحْمَدُ بنُ عَطاءِ اللّهِ فِي حِكَمِهِ حَيْثُ يَقُولُ : ((العارِفُونَ إذا مُدِحُوا انْبَسَطُوا لِشُهُودِهِمْ ذَلِكَ مِنَ المَلِكِ الحَقِّ ، والعُبَّادُ إذا مُدِحُوا انْقَبَضُوا لِشُهُودِهِمْ ذَلِكَ مِنَ الخَلْقِ)) .

والكامِلُ مَنْ يَنْظُرُ بِالعَيْنَيْنِ لا بِإحْداهُما ، فَيَنْظُرُ ذَلِكَ مِنَ الحَقِّ فَيَشْكُرُهُ ، ويَنْظُرُ ذَلِكَ مِنَ الخَلْقِ فَيَخافُ أنْ يَكُونَ اسْتِدْراجًا فَيَسْتَغْفِرُ .

وقَدْ تَحَقَّقْتُ بِحَمْدِ اللّهِ بِنَظَرِي بِهاتَيْنِ العَيْنَيْنِ والحَمْدُ للّهِ رَبِّ العالَمِين .

وكُلُّ مَنِ ادَّعَى أنَّ المَدْحَ والذَّمَّ عِنْدَ نَفْسِهِ سِيَّانِ لِشُهُودِهِ أنَّ الأفْعالَ كُلَّها مِنَ اللّهِ المَنَّان ، فَلْيَمْتَحِنْ نَفْسَهُ ؛ فَعِنْدَ الامْتِحانِ يُكْرَمُ المَرْءُ أوْ يُهان :

كُلُّ مَنْ يُدْعَىٰ بِمَا لَيْسَ فِيهِ ❁ كَذَّبَتْهُ شَوَاهِدُ الامْتِحَانِ

وَلْيَزِنْهَا بِالمِيزانِ الَّذِي يَطِيشُ عَلَى الذَّرِّ ؛ وهُوَ الحالُ الَّذي حَكاهُ سَيِّدُ الطَّائِفَةِ (الفائِقُ كَلامُهُ عَلَى الدُّرِّ) عَنْ نَفْسِهِ حَيْثُ قالَ : ((لَوْ

جَلَسَ عَنْ يَمِينِي أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ يُسْمِعُنِي أَطْيَبَ الكَلام ويُطْعِمُنِي أَلَذَّ الطَّعام ويُبَخِّرُنِي بِالنَّدِ والعَنْبَرِ ، ثُمَّ جَلَسَ عَنْ يَسارِي أَشَدُّ النَّاسِ لِي عَدَاوَةً يُلْقِمُنِي الحَنْظَلَ ويُسْمِعُنِي أَقْبَحَ الهَجْوِ ، ويَقْرُضُ لَحْمِي بِمَقارِيضَ مِنْ نارٍ ما زادَ مَنْ عَلَى يَمِينِي ، ولا نَقَصَ مَنْ عَلَى يَسارِي ؛ لِشُهُودِي كُلًّا مِنَ الحالَتَيْنِ مِنَ اللّٰه)) .

ولا تَرْكَنْ لِمَدْحِ مَنْ أَثْنَى عَلَيْكَ فِي حالَةِ الرِّضا بِما لَيْسَ فِيكَ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَغْضَبْتَهُ ذَمَّكَ بِما لَيْسَ فِيكَ ، ولا مَنْ إِذا مَدَحْتَهُ اسْتَقَلَّ مَدْحَكَ واسْتَصْغَر ، وإِذا مَدَحَكَ اسْتَعْظَمَ واسْتَكْبَر ؛ لِغُرُورِهِ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ مُقَدَّمٌ فِي أَبْناءِ جِنْسِهِ ؛ فَهُوَ كَما قالَ القائِل :

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا ❁ تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

فَكُلُّ مَنْ صَغُرَ عِنْدَ نَفْسِهِ كَبُرَ فِي العُيُون ، والضِّدُّ بِالضِّدِّ ؛ فاسْتَفْتِ قَلْبَكَ وإِنْ أَفْتاكَ المُفْتُون :

وَمَا يَنْفَعُ الْأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ ❁ إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ مِنْ بَاهِلَهْ[1]

فارْحَمْ نَفْسَكَ يَرْحَمْكَ الرَّحْمٰن ؛ فَقَدْ جاءَ فِي الحَدِيثِ المُسَلْسَلِ

---

(١) يَقْصِدُ سَيِّدِي مُصْطَفَى البَكْرِي رضي الله عنه : إذا كانَ أَصْلُ المَرْءِ فِي بَنِي هاشِمٍ ونَفْسُهُ رَدِيئَةٌ خَبِيثَةٌ ، فَذَلِكَ الأَصْلُ لا يَنْفَعُهُ ؛ وهَلْ أَغْنَى عَنْ أَبِي لَهَبٍ أَصْلُهُ ؟!

بالأَوَّلِيَّةِ عِنْدَ أَهْلِ الضَّبْطِ والإِتْقان : (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمْهُمُ الرَّحْمٰن ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّماء) ، بِأَنْ تَسْلِكَ بِها سَبِيلَ هُداها ، وتَحُولَ بَيْنَها وبَيْنَ هَواها ؛ فَيَرْحَمُكَ اللّٰهُ رَحْمَةً خاصَّةً خارِجَةً عَنِ الحَدِّ والمِقْدار ، لِرَحْمَتِكَ أَقْرَبَ جار .

وقَدْ أَمَرَكَ الشَّارِعُ أَنْ تَدْعُوَ أَوَّلًا لِنَفْسِكَ مُراعاةً لِحَقِّها ، ولأَنَّ الدُّعاءَ للغَيْرِ رُبَّما يُورِثُ إِعْجابًا بِافْتِقارِ المَدْعُوِّ لَهُ وَذُهُولًا عَنِ افْتِقارِ الدَّاعِي ، فَإِذا بَدَأَ بِنَفْسِهِ حَصَلَتْ لَهُ صِفَةُ الافْتِقارِ فَيَقْرُبُ مِنَ الإِخْلاص ، فَهُناكَ إِذا دَعا لأَخِيهِ كانَ حَرِيًّا بِالإِجابَةِ والاخْتِصاص .

وكُنْ مَعَ النَّاسِ عَلَى نَفْسِكَ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُسْعِدَها عِنْدَ اللّٰه ، وإِذا حَبَسْتَها عَلَى القَلِيلِ مِنَ الذَّمِّ تَأْمَنُ كَثِيرَهُ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَطْلَقْتَها نازَعَتْ وكَثُرَ لَجاجُها ، وإِنْ رَدَعْتَها انْقَمَعَتْ ونَما مِعْراجُها .

وقَدْ قالَ الأَحْنَفُ فِي هَذا المَعْنَى : مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى كَلِمَةٍ سَمِعَ كَلِماتٍ ، ورُبَّ غَيْظٍ قَدْ تَجَرَّعْتَهُ مَخافَةَ ما هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ .

وقالَ بَعْضُهُمْ : مَنْ بَدَأَ بِنَفْسِهِ أَدْرَكَ سِياسَةَ النَّاس ، ومَنْ أَصْلَحَ نَفْسَهُ صَلَحَتْ آخِرَتُهُ ، وكانَ النَّاسُ تَبَعًا لَهُ ، وأَحْسَنُ العِظاتِ ما بَدَأْتَ بِهِ نَفْسَكَ وأَجْرَيْتَ عَلَيْهِ أَمْرَكَ ، وكُلُّ مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ أَسْخَطَ اللّٰهَ

والنَّاسَ عَلَيْهِ ، ومَنْ ظَلَمَها كانَ لِغيْرِهِ أَظْلَم ، ومَنْ هَدَمَ دِينَهُ كانَ لِمَجْدِهِ أَهْدَم ، وأَكْثَرُ ما تَقَعُ المُقاطَعَةُ بَيْنَ الأَصْحابِ والخِلَّانِ مِنْ عَدَمِ الإِنْصافِ والاتِّصافِ بِأَقْبَحِ الأَوْصافِ المُوجِبَةِ للخِذْلانِ وعَدَمِ نَظَرِ العَبْدِ لِمُبْتَداه ، فَمَنْ عَرَفَ مُبْتَداهُ هانَ عَلَيْهِ مُنْتَهاه .

وأَنْشَدَ أبو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي سامَحَهُ الله :

وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الْإِنْصافِ قاطِعَةً ❁ بَيْنَ الرِّجالِ وَلَوْ كانُوا ذَوِي رَحِم

وما أَحْسَنَ الاعْتِرافَ ولَوْ كانَ صاحِبُهُ مِنَ الأَطْراف ، وما أَقْبَحَ الاغْتِرافَ مِنْ قَلِيبِ الاقْتِرافِ ولَوْ كانَ صاحِبُهُ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَناف ، وأَنْشَدُوا :

مَنْ مَشَىٰ مِشْيَةَ تِيهِ ❁ وَنَسِي مَا كَانَ فِيهِ

سَوْفَ يَأْتِيهِ زَمَانٌ ❁ يَتَمَنَّىٰ الْمَوْتَ فِيهِ

واعْلَمْ يا أَخِي أَنَّ مَنْ لَمْ يُجاهِدْ لَمْ يُشاهِدْ ، وكُلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِدايَةٌ مُحْرِقَةٌ لَمْ تَكُنْ لَهُ نِهايَةٌ مُشْرِقَةٌ ، وكُلَّ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِي بِدايَتِهِ قَوْمَةٌ[1] لَمْ تَكُنْ لَهُ فِي نِهايَتِهِ جِلْسَةٌ ، وكُلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ خَدٌّ يُداس لَمْ تَكُنْ لَهُ يَدٌ تُباس ، وكُلَّ مَنْ لَمْ تَصْفُ مِنْهُ السَّرِيرَة لا تَحْسُنْ لَهُ مَسِيرَة ، وكُلَّ مَنْ مالَ مَعَ الهَوَىٰ الغَدَّار آلَ أَمْرُهُ والعِياذُ بِاللهِ إِلَى النَّار ؛ مِثْلَما قالَتِ النَّخْلَةُ للشِّبْلِي رضي الله عنه : كُنْ مِثْلِي يَرْمُونَنِي بِالأَحْجار وأَرْمِيهِمْ بِالأَثْمار ،

(١) المُرادُ بِالقَوْمَةِ هُنا الإِرادَةُ والتَّشْمِيرُ عَنْ ساعِدِ الجِدِّ .

قُلْتُ لَها : ولِمَ كانَ مَصيرُكِ إلَى النَّار ؟! قالَتْ : لِمَيْلِي مَعَ الهَوَى الغَدَّار .

وكُلُّ مَنْ لَمْ يَشْتَغِلْ بِمُجاهَدَةِ نَفْسِهِ كانَ مِنْ أَهْلِ شُغْلِ نَفْسِهِ فِي الدُّنْيا ، ومَنِ اشْتَغَلَ بِمُخالَفَتِها ومُجاهَدَتِها لِيُرْجِعَها راضِيَةً مَرْضِيَّةً وأَشْغَلَها بِاللهِ كانَ مِنْ أَهْلِ شُغْلِ اللهِ فِي الآخِرَة ؛ فَفِي الحَدِيث : (أَهْلُ شُغْلِ اللهِ فِي الدُّنْيا هُمْ أَهْلُ شُغْلِ اللهِ فِي الآخِرَة ، وأَهْلُ شُغْلِ أَنْفُسِهِمْ فِي الدُّنْيا هُمْ أَهْلُ شُغْلِ أَنْفُسِهِمْ فِي الآخِرَة)[1].

أَيْ فَكُلُّ مَنْ كانَ شُغْلُهُ بِاللهِ : أَيْ مِمَّا يُقَرِّبُ إلَيْهِ مِنْ طاعاتٍ وعِباداتٍ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ أَهْلِ شُغْلِ اللهِ : أَيْ مِمَّنْ شَغَلَهُ اللهُ بِهِ عَمَّا سِواهُ هُناكَ ، فَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِمَزِيدِ قُرْبٍ وشُهُود .

ومَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ شُغْلِ نَفْسِهِ : أَيْ مِمَّنِ اشْتَغَلَ بِحُظُوظِها وشَهَواتِها كانَ مِنْ أَهْلِ شُغْلِ نَفْسِهِ فِي الآخِرَة : أَيْ كانَ مِمَّنِ اشْتَغَلَ عَنْ لَذائِذِ النِّعَمِ وعَنِ المُنْعِمِ سُبْحانَهُ وتَعالَى بِما يُوجِبُ لَهُ (مِنْ مُوافَقَتِها هُنا) النِّقَمَ ، فالمُجاهَدَةُ فِيها مِنْ أَفْضَلِ الجِهاد ، وقَدْ جاءَ فِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ عَنْ صاحِبِ القَدْرِ المُنِيف : (أَفْضَلُ الجِهادِ أَنْ تُجاهِدَ نَفْسَكَ وهَواكَ فِي ذاتِ اللهِ)[2].

---

(١) رَواهُ الدَّيْلَمِي فِي الفِرْدَوْس ، وذَكَرَهُ المُناوِي فِي فَيْضِ القَدِير .

(٢) رَواهُ الدَّيْلَمِي بِسَنَدِهِ عَنْ سَيِّدِنا أَبِي ذَرٍّ ﷺ ، وذَكَرَهُ المُناوِي فِي فَيْضِ القَدِير .

ورَوَى العَسْكَرِي فِي الأَمْثالِ عَنْ سَعْدِ بنِ أَبِي هِلالٍ مُرْسَلًا : (لَيْسَ عَدُوُّكَ الَّذي يَقْتُلُكَ فَيُدْخِلُكَ اللهُ بِهِ الجَنَّةَ وإِنْ قَتَلْتَهُ كانَ لَكَ نُورًا ، ولَكِنَّ أَعْدَى الأَعْداءِ نَفْسُكَ الَّتي بَيْنَ جَنْبَيْكَ)[1].

فَجاهِدْ فِيها أَيُّها المُرِيد ، وشَمِّرْ عَنْ ساقَي التَّجْرِيد ، وخاطِرْ بِبَذْلِ الرُّوحِ فَما فازَ إِلَّا المُخاطِرُ الرَّشِيد ، وأَشْهِرْ سَيْفَ العَزْمِ مِنْ غِمْدِهِ وقِفْ بِالوَصِيد ، وتَقَلَّدْ بِجُعْبَةِ الإِقْبال ، وارْمِ العِدا بِنِصالِ الاهْتِبال ، واعْتَقِلْ رُمْحَ الحَزْمِ لِتَفُوزَ بِالتَّأْيِيد ؛ فَطالِبُ الشَّهْدِ يَبْذُلُ الجُهْدَ فَكَيْفَ طالِبُ شُهُودِ الشَّهِيد !

قالَ العارِفُ السَّعِيدُ الغارِفُ مِنْ بَحْرِ مَعْرِفَةِ المَجِيد :

وَمَنْ يَخْطُبُ الْحَسْنَاءَ يَسْخُو بِمَهْرِهَا ۞ وَطَالِبُ شَهْدٍ لَمْ تُخِفْهُ اللَّوَاسِعُ

وإِذا لَمْ تَكُنْ مِمَّنْ يَفْهَمُ فَمِنْ أَهْلِهِ تَفَهَّمْ ، واسْأَلْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتَ لا تَعْلَم ؛ فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ ، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمْ ؛ لِيَسْلُكَ بِنُورِ العِلْمِ السَّبِيلَ الأَسْلَمَ والمَنْهَجَ المُبْهِجَ الأَقْوَم .

قالَ سَيِّدِي مُحَمَّد البَكْرِي الأَفْخَم : فَتَفَهَّمْ تَعْلَمْ ، وجاهِدْ تُشاهِدْ يا مُرِيدِي ، تُعْطَى مِنَ المَزِيدِ .

---

(١) ذَكَرَهُ ابنُ رَجَب فِي جامِعِ العُلُومِ والحِكَم .

قالَ سَيِّدِي مُحْيِي الدِّين قَدَّسَ اللّٰهُ سِرَّهُ المَتِين فِي بابِ الوَصايا ، وهُوَ آخِرُ أَبْوابِ الفُتُوحاتِ المَكِّيَّةِ الحاوِيَةِ عَلَى عَجائِبِ الخَبايا :

وَصِيَّةٌ : عَلَيْكَ بِالجِهادِ الأَكْبَر ، وهُوَ جِهادُكَ هَواك ؛ فَإِنَّهُ أَكْبَرُ أَعْدائِكَ ، وهُوَ أَقْرَبُ الأَعْداءِ إِلَيْكَ الَّذِينَ يَلُونَك ، فَإِنَّهُ بَيْنَ جَنْبَيْك ، واللّٰهُ تَعالَى يَقُولُ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ (١) ، ولا أَكْفَرَ عِنْدَكَ مِنْ نَفْسِكَ ؛ فَإِنَّها فِي كُلِّ نَفَسٍ تَكْفُرُ نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْها مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْها .

فَإِنَّكَ إِنْ جاهَدْتَ نَفْسَكَ فِي هَذا الجِهادِ خَلُصَ لَكَ الجِهادُ الآخَرُ فِي الأَعْداءِ ، الَّذِي إِنْ قُتِلْتَ فِيهِ كُنْتَ مِنَ الشُّهَداءِ الصَّالِحِينَ الأَحْياءِ الَّذِينَ : ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ (٢) ، وقَدْ عَلِمْتَ فَضْلَ المُجاهِدِ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فِي حالِ جِهادِهِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ ؛ إِنَّهُ كالصَّائِمِ القائِمِ القانِتِ بِآياتِ اللّٰهِ لا يَفْتُرُ مِنْ صَلاةٍ ولا صِيامٍ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى المُجاهَدَة ، وقَدْ عَلِمْتَ بِالحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ : (الصَّوْمَ لا مِثْلَ لَهُ) ، وقَدْ قامَ الجِهادُ فِي مَقامِهِ ومَقامِ الصَّلاةِ ، وثَبَتَ هَذا

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ١٢٣ .
(٢) سُورَةُ آلِ عِمْران : الآيَتان ١٦٩، ١٧٠.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وهَذا فِي الجِهادِ الفَرْضِ الَّذي يَتَعَيَّنُ ويَعْصِي الإِنْسانُ بِتَرْكِهِ لا بُدَّ مِنْ ذَلِك .

ولا يَزالُ العَبْدُ النَّاصِحُ نَفْسَهُ المُسْتَبْرِئُ لِدِينِهِ فِي جِهادٍ أَبَدًا لأَنَّهُ مَجْبُولٌ عَلَى خِلافِ ما دَعاهُ إِلَيْهِ الحَقُّ ، فَإِنَّهُ بِالأَصالَةِ مُتَّبِعٌ هَواهُ الَّذي هُوَ بِمَنْزِلَةِ الإِرادَةِ فِي حَقِّ الحَقِّ ، فَيَفْعَلُ الحَقُّ ما يُرِيدُ ، ولا تَحْجِيرَ عَلَيْهِ ، ويُرِيدُ الإِنْسانُ أَنْ يَفْعَلَ ما يَهْوَى ، وعَلَيْهِ التَّحْجِيرُ ، فَما هُوَ مُطْلَقُ الإِرادَة .

فَهَذا هُوَ السَّبَبُ المُوجِبُ لِكَوْنِهِ لا يَزالُ مُجاهِدًا أَبَدًا ، ولِذَلِكَ طَلَبَ أَصْحابُ الهِمَمِ أَنْ يَلْحَقُوا بِدَرَجاتِ العارِفِينَ حَتَّى تَكُونَ إِرادَتُهُمْ إِرادَةَ الحَقِّ : أَيْ يُرِيدُونَ جَمِيعَ ما يُرِيدُهُ الحَقُّ ، وهُوَ ما الحَقُّ عَلَيْهِ ، فَيُرِيدُونَهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ أَرادَ إِيجادَهُ ، ويَكْرَهُونَ مِنْهُ بِكَراهَةِ الحَقِّ ما كَرِهَهُ الحَقُّ ووَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ لا يَرْضاهُ ؛ فَهُوَ يُرِيدُهُ ولا يَرْضاهُ ، ويُرِيدُهُ ويَكْرَهُهُ فِي عَيْنِ إِرادَتِهِ إِنْ أَرادَ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَقَدِ انْسَلَخَ مِنَ الإِيمان ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ غايَةُ الحِرْمان ، وهَذا هُوَ الحَقُّ المَمْقُوت ، كَما تَقُولُ فِي الغِيبَة : إِنَّها الحَقُّ المَنْهِيُّ عَنْهُ .

نَهْـجُ المُصْطَـفَىٰ طَـهَ السَّعِـيد ﷺ

تَزْكِـيَةُ النَّفْـسِ لَدَى الشَّـيْخِ والمُـرِيد

اعْلَمْ أَنَّ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ ما يُرادُ مِنْهُ ، فَأَشْغَلَ نَفْسَهُ واسْتَعْمَلَها فِيما خُلِقَتْ لَهُ ، ووَافَقَها فِي مَواقِفِ العُبُودِيَّةِ للقِيامِ بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّة ، ومَتَى انْشَغَلَتْ بِمُعارَضَةِ الرُّبُوبِيَّةِ فاتَتْها العُبُودِيَّةُ ولَمْ تُدْرِكِ الرُّبُوبِيَّة . وها أَنا أَشْرَحُ[1] لَكَ صِفَةَ ذَاتِكَ ومَعْنَى صِفاتِكَ ؛ لِتَعْلَمَ ما يُرادُ مِنْكَ فِي حَياتِكَ ومَماتِكَ .

فاعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ تَعالَى لَمَّا أَرادَ أَنْ يَبْتَنِيَ صُورَةَ آدَمَ مِنْ زَمَنٍ تَقادَمَ ، ابْتَناها عَلَى صُورَةِ مَدِينَةٍ وأَتْقَنَ فِيها مِنَ المَبانِي ما يَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ البانِي ، وحَرَّكَ فِيها مَثالِثَ ومَثانِيَ يُشِيرُ بِأَنْ لَيْسَ لَهُ ثانٍ ، ثُمَّ نَصَبَ وَسَطَ هَذِهِ المَدِينَةِ قَصْراً ، وبَثَّ حَوْلَهُ أَشْرَاكَ مُهْلِكَة ، وسَمَّى ذَلِكَ القَصْرَ بِالقَلْب ؛ إِذْ هُوَ بَيْتٌ للقُرْب ، وجَعَلَ مَدارَ هَذِهِ المَدِينَةِ عَلَيْهِ ومَرْجِعَ الكُلِّ إِلَيْهِ ، بِإِشارَةِ : (أَلا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذا صَلَحَتْ صَلَحَ بِها سائِرُ الجَسَد ، وإِذا فَسَدَتْ فَسَدَ بِها سائِرُ الجَسَدِ أَلا وهِيَ القَلْب)[2] ، ووَضَعَ فِي هَذا القَصْرِ سَرِيرَ العِزِّ والسُّلْطان ، وأَجْلَسَ

---

(١) الشَّارِحُ سَيِّدِي مُصْطَفَى البَكْرِي رضي الله عنه .

(٢) رَواهُ بِسَنَدِهِ البُخارِي ، ومُسْلِمٌ ، وابنُ ماجَه ، والبَيْهَقِي ، والدَّيْلَمِي رضي الله عنهم .

عَلَيْهِ مَلِكًا يُقالُ لَهُ : الإيمان ، وبَثَّ الجَوارِحَ فِي خِدْمَتِهِ كالغِلْمان ، فَقالَ اللِّسان : أَنا التُّرْجُمان ، وقالَتِ العَيْنان : ونَحْنُ الحارِسان ، وقالَتِ الأُذُنان : ونَحْنُ الجاسُوسان ، وقالَتِ القَدَمان : ونَحْنُ السَّاعِيان ، وقالَتِ اليَدان : ونَحْنُ العامِلان ، وقالَ المَلَكان : ونَحْنُ الشَّاهِدان ، وقالَ صاحِبُ الدِّيوان : وكَما تُدِينُ تُدان .

ثُمَّ جَعَلَ لَهُ وَزِيراً وهُوَ العَقْلُ : فَقالَ الوَزِير : أَيُّها المَلِكُ لا بُدَّ لَكَ مِنْ خاصَّةٍ تَصْطَفِيهِمْ لِنَفْسِكَ خاصَّةً ، يُؤْثِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ولَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَة ؛ فَأَوَّلُ ما تَحْتاجُ إِلَى تاجٍ وهُوَ الوِلايَة ، وإِلَى مِعْراجٍ وهُوَ العِنايَة ، وإِلَى دَلِيلٍ وهُوَ الهِدايَة ، ثُمَّ لا بُدَّ لَكَ مِنْ مَرْكُوبٍ وهُوَ الصِّدْق ، ومِنْ حُلَّةٍ وهِيَ السَّكِينَة ، ومِنْ حاجِبٍ وهُوَ العِلْم ، ومِنْ بَوَّابٍ وهُوَ العَمَل ، ومِنْ سَيَّافٍ وهُوَ الحَقُّ ، ومِنْ كاتِبٍ وهُوَ المُراقَبَة ، ومِنْ سِجْنٍ وهُوَ الخَوْف ، ومِنْ مَيْدانٍ وهُوَ الرَّجاء ، ومِنْ سِراجٍ وهُوَ الحِكْمَة ، ومِنْ نَدِيمٍ وهُوَ الفِكْر ، ومِنْ خِزانَةٍ وهِيَ اليَقِين ، ومِنْ كَنْزٍ وهُوَ القَناعَة ، ومِنْ صاحِبِ تَدْبِيرٍ وهِيَ الفِراسَة .

ثُمَّ أَيُّها المَلِكُ تَنْظُرُ إِلَى رَعِيَّتِكَ بِعَيْنِ الرَّحْمَة ، وتَفْتَحُ خَزائِنَ النِّعْمَة ، وتَعْدِلُ بَيْنَهُمْ فِي القِسْمَة ، وتَبْعَثُ إِلَى كُلِّ واحِدٍ قَسْمَهُ يُقِيمُ

بِهِ رَسْمَهُ ، فَقالَ المَلِك : انْظُرْ أَنْتَ فِي الرَّعِيَّة ، وأَزِلْ عَنْهُمُ الشَّكِيَّة ، وتَوَلَّ تَفْرِقَةَ الجامَكِيَّة ، فَقالَتِ اليَدان : أَنا عَلَيَّ جَمْعُ الأَدِلَّة ، وقالَتِ الأَسْنان : أَنا أَطْحَنُ وأَعْزِلُ النُّخالَة ، وقالَ الرِّيق : وأَنا أَعْجِنُ وأَتَوَلَّى إِلَى المَعِدَةِ إِرْسالَه ، فَقالَتِ المَعِدَة : وأَنا أَطْبُخُ وما أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ عَمالَة ، فَقالَ الكَبِد : وأَنا آخُذُ ما صُفِّيَ وأَتْرُكُ الحُثالَة ، فَقالَتِ القُدْرَة : وأَنا أَتَوَلَّى تَفْرِقَتَها وقِسْمَتَها بِالعَدالَة ، فَأَبْعَثُ إِلَى كُلِّ عُضْوٍ ما يُطِيقُ احتِمالَه ، فَلَمَّا فَرَّقَتِ الجامَكِيَّةُ نَقْداً لأَحْوالِهِ وصَحَّحَ المَلِكُ أَحْوالَه ، قالَ لَهُ الوَزِير : ما بَعْدَ النَّفَقَةِ إِلَّا أَداءُ الفَرَضِ والفَرْض ، فَنادِ فِي جَيْشِكَ بِالطُّولِ والعَرْضِ لِيُنْذِرَ البَعْضَ بِالبَعْض ، قَبْلَ أَنْ تُبَدَّلَ الأَرْضُ غَيْرُ الأَرْض ، فَنادَى مُنادِيه : يا مَعْشَرَ الرَّعِيَّة ، إِنَّ المَلِكَ قَدْ أَقْسَمَ بِالأُلُوهِيَّة ، أَنَّ مَنْ عَدَلَ عَنِ الطَّرِيقِ السَّوِيَّة ، وكَفَرَ نِعْمَةَ العَطِيَّةِ وأَنْفَقَها فِي الخَطِيَّة[1] ، فَلَقَدْ أَفْسَدَ النِّيَّةَ ونَقَضَ البَيِّنَةَ أُولَئِكَ شَرُّ البَرِيَّة ، وإِنَّ لِلمَلِكِ عَدُوًّا وقَدْ سَكَنَ جَوارِحَهُ يُقالُ لَهُ النَّفْسُ الأَمَّارَة ، وهِيَ تُنازِعُهُ فِي الإِمارَة ، واسْتَنْصَرَتْ عَلَيْهِ بِالدُّنْيا الغَدَّارَة ، فَظاهَرَهُما الهَوَى وبَعَثَ إِلَيْهِما أَنْصارَه ، وجاءَ الشَّيْطانُ فَكَتَبَ لَهُ

---

(١) أَيْ فِي نَيْلِ حَظِّهِ وهَواه .

مَنْشُورَ الوِزارَة ، وقَدِ اسْتَوَى فِي أَرْضِ المَلِكِ الغارَة ، فَيا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي ، ومِنَ الأَعْداءِ لا تَرْهَبِي ؛ فَهُناكَ القَلْبُ رَكِبَ بَيْنَ مَيْسَرَةِ خَوْفِهِ ومَيْمَنَةِ رَجائِهِ ومُقَدِّمَةِ تَوَكُّلِهِ ، وساقَهُ الْتِجاؤُهُ مُتَحَمِّلًا أَثْقالَ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

فَلَمَّا وَصَلَ بِجُنُودِهِ إِلَى مَعْبُودِهِ بِصِدْقِ النِّيَّة ، ونادَى مُنادِيهِ فِي نادِيهِ : إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهْرِ الدُّنْيا الدَّنِيَّة ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ، ومَنْ عَوَّلَ عَلَيْهِ فَلْيَتَنَحَّ عَنِّي ، فَقالَتِ الضَّرُورَة : لا بُدَّ مِنْ إِقامَةِ الصُّورَة ، فَجاءَتْ مَرْوَحَةُ الرَّاحَةِ بِإِباحَةِ : ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ (١) ، فَأَمَّا مَنْ عَدِمُوا الفِطْنَةَ ووَقَعُوا فِي شَرَكِ الغَفْلَةِ فَشَرِبُوا وتَزَوَّدُوا حَتَّى أَوْرَثَهُمُ البِطْنَة(٢) ، فَلَمَّا قابَلَهُمُ القَوْمُ قالُوا : لا طاقَةَ لَنا اليَوْمَ ، فَقالَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (٣) ، فالْتَقَيا بِجَيْشِهِما فِي مَجْمَعِ بَحْرَيْهِما : ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ (٤) ، فَكانَ التَّوَكُّلُ مُوَكَّلًا بِالحِرْصِ والزُّهْدُ مُجانِبًا للدُّنْيا ، والتَّواضُعُ مُدافِعًا للعُجْبِ ، والإِخْلاصُ مُبارِزًا

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٤٩.
(٢) البِطْنَة : الامْتِلاءُ الشَّدِيدُ مِنَ الطَّعام .
(٣) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٤٩.
(٤) سُورَةُ الفُرْقان : مِنَ الآيَة ٥٣.

للرِّياء ، والتَّقْوىٰ نافِيَةً للدَّعْوىٰ ، والخَوْفُ مُفارِقًا للهَوىٰ ، والتَّسْبِيحُ والتَّقْدِيسُ فِي مُحارَبَةِ إبْلِيسَ التَّعِيس .

فَتَقَدَّمَ حِزْبُ اللهِ وشِعارُهُمْ : اللَّهُمَّ إنَّا جَعَلْنا بِكَ إقْدامَنا ، فَثَبِّتْ أَقْدامَنا ، فَإنَّا لا نَدْرِي ما قَدَّمْنا ، فَهَزَمُوهُمْ بِإذْنِ اللهِ ، وانْتَصَرُوا ، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ، فَلَمْ يُرَ مِنْهُمْ إلَّا مُوَلٍّ دُبُرَهُ وقاصِمٌ عُمُرَهُ ، فَأَصْبَحَتْ مَنازِلُ الهَوىٰ والنَّفْسِ ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ (١) وما زالَتِ النَّفْسُ ناشِزَةً فِي أَسْرِها حِينَ اعْتَرَفَتْ بِخُسْرِها واتَّصَفَتْ بِكَسْرِها ، وناداها مَنْ لَهُ المِنَّةُ : ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ، وقَدْ قِيلَ :

يَا نَفْسُ تُوبِي الْيَوْمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ ❁ تَفْتَضِحِي فِي الْغَدِ بَيْنَ الْعِبَادْ
وَخَالِفِي يَا نَفْسُ حُكْمَ الْهَوَىٰ ❁ وَجَاهِدِي فِي اللهِ حَقَّ الْجِهَادْ
وَادَّرِعِي دِرْعَ التُّقَىٰ وَاصْبِرِي ❁ وَصَابِرِي فِي حَرْبِ أَهْلِ الْعِنَادْ
يَا نَفْسُ إِنَّ اللهَ مِنْكِ اشْتَرَىٰ ❁ بِشَرْطِ تَسْلِيمِ جَمِيعِ الْقِيَادْ
فَاسْتَبْشِرِي بِالْبَيْعِ واسْتَسْلِمِي ❁ وَأَصْلِحِي يَا نَفْسُ مِنْكِ الْفَسَادْ
أَفْلَسْتِ وَالسِّلْعَةُ مَعْيُوبَةٌ ❁ لا تُشْتَرَىٰ وَالسُّوقُ سُوقُ الْكَسَادْ

---

(١) سُورَةُ يُونُس : مِنَ الآيَة ٢٤.

وَالرَّكْبُ قَدْ جَدُّوا مَسِيرًا فَمَا ۞ لِهَوْلِ يَوْمِ الْعَرْضِ قَدَّمْتِ زَادْ

وَكُلَّما ابْيَضَّ مَشِيبِي فَمَا ۞ يَزْدَادُ وَجْهُ الْقَلْبِ إِلَّا سَوَادْ

وَاخْجَلْتِي وَاحَسْرَتِي إِنْ أَكُنْ ۞ مِنْ بَيْنِ صَحْبِي قَدْ عَدِمْتُ الْوِدَادْ

وقَدْ تَوَجَّهْتُ لِزِيارَةِ شَيْخِنا المِقْدام بَرَكَةِ الشَّام الرَّاقِي للمَنْزِلِ الأَسْنَىٰ والسَّاقِي جُلَّاسَهُ المُدامَ القُدْسِي والمُكاشَفِ بِالسِّرِّ النَّفْسِي سَيِّدِي عَبْدِ الغَنِي النَّابُلْسِي ، رَفَعَ اللّٰهُ قَدْرَهُ لَدَيْهِ ، وجَعَلَ الرُّتَبَ المُتَقاعِسَةَ مُنْقادَةً إِلَيْهِ ، والمَواهِبَ التَّامَّةَ لا النَّاقِصَةَ طَوْعَ يَدَيْهِ ، وخَتَمَ لَهُ بِالحُسْنَى وأَغْدَقَ إِنْعامَهُ عَلَيْهِ ، نَهارَ الأَحَدِ السَّابِعِ مِنْ شَوَّالٍ المُبارَكِ عامَ أَلْفٍ ومِئَةٍ وسَبْعَةٍ وعِشْرِينَ : فَجَرَى الكَلامُ فِي ذِكْرِ النَّفْسِ ، وأَنَّها أَرْضِيَّةٌ وأَنَّ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ وهِيَ عُلْوِيَّة ، وأَنَّ الصِّفاتِ الرُّوحانِيَّةَ إِذا قَوِيَتْ واسْتَوْلَتْ عَلَى صاحِبِها ضَعُفَتِ الصِّفاتُ النَّفْسانِيَّة ، ورُبَّما اضْمَحَلَّتْ وهَذا المُعَبَّرُ عَنْهُ بِالتَّجَرُّدِ والانْسِلاخِ مِنَ الأَحْكامِ الإِنْسانِيَّةِ البَشَرِيَّةِ بِالكُلِّيَّة ، وبَعْدَ ذا يَصِحُّ التَّخَلُّقُ بِالأَخْلاقِ الإِلَهِيَّةِ مَعَ ثُبُوتِ العَلاقَةِ البَدَنِيَّةِ بِالرُّوحِ الحَيوانِيَّة ، وإِنَّما بِظُهُورِ النُّورِ الخَفِيِّ يَخْتَفِي ثَوَرانُ نارِ الوَصْفِ الذَّمِيمِ الخِلْقِي والخُلُقِي كاخْتِفاءِ اشْتِعالِ النَّارِ إِذا أَشْرَقَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ رابِعَةَ النَّهارِ ، فَقالَ رضي الله عنه :إِنَّ كُلَّ ما يَضُرُّ بِالجِسْمِ

مِنَ المُجاهَدات ، تَنْتَفِعُ بِهِ الرُّوحُ فِي المُشاهَدات ، قالَ اللّهُ تَعالَى : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ (١) ، وقالَ تَعالَى : ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ (٢) ، فَلا تَعَدُّدَ فِيهِ ، وإِنَّما التَّعَدُّدُ فِي الخَلْقِ ؛ أَي المَخْلُوق ؛ فالحَقُّ تَعالَى لَهُ الوُجُودُ المَحْضُ ، ويُقابِلُهُ العَدَمُ المَحْضُ ، والمَوْجُوداتُ بَرْزَخٌ ، فَإِنَّ الخَلْقَ لَهُمْ وَجْهان : وَجْهٌ للخَلْقِ (أَي الَّذي هُوَ وَصْفُ حُدُوثِهِمْ) ، ووَجْهٌ للحَقِّ (أَي الَّذي يَسْتَمِدُّونَ بِهِ مِنْهُ تَعالَى) ، فَمِنْ حَيْثُ خَلِيقَتُهُمْ وعَدَمُ قُدْرَتِهِمْ وعَجْزُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ العَجْزُ التَّامُّ عَدَمٌ ، ومِنْ حَيْثُ الوَجْهُ الحَقُّ الَّذي يُمِدُّهُمْ وُجُودٌ ، لَكِنَّ العَقْلَ يَقْصُرُ عَنْ إِدْراكِ كَيْفِيَّةِ ما هُوَ الأَمْرُ عَلَيْه .

فَقُلْتُ لَهُ : لأَنَّهُ مَعْقُولٌ بِالمُحْدَثاتِ واقِفٌ مَعَ الأُمُورِ الوَهْمِيَّة ، **فَقالَ** : هِيَ وَهْمِيَّةٌ مِنْ حَيْثُ صُوَرُها ؛ فَإِنَّ صُورَةَ الشَّمْعَةِ مَثَلًا ما هِيَ عَيْنُ الشَّمْعَة ، ولَوْ كانَتْ عَيْنَها كُنَّا إِذا أَذْهَبْناها فَنِيَ وُجُودُها مَعَ أَنَّهُ باقٍ ، ويُمْكِنُ تَصَوُّرُها بِصُوَرٍ كَثِيرَةٍ ، فَهَذِهِ الصُّوَرُ هِيَ الأُمُورُ الوَهْمِيَّة ، وأَمَّا الأَمْرُ الواحِدُ الظَّاهِرُ بِهِ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقَيِّدَهُ شَيْءٌ فَهُوَ الحَقُّ الثَّابِتُ ، وما عَداهُ الباطِلُ الزَّاهِق ، قالَ اللّهُ تَعالَى : ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٨٥ . (٢) سُورَةُ النَّحْل : مِنَ الآيَة ٧٧ .

وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [1]، فَإذا فَنِيَتْ صِفاتُ العَبْدِ بِتَجَلِّي الحَقِّ الخاصِّ فَإِنَّهُ ما تَجَلَّى لِشَيْءٍ إِلَّا خَشَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ : أَي اضْمَحَلَّ وفَنِيَ لأَنَّ الحادِثَ لا يَقْوَى عَلَى تَجَلِّي القَدِيم ، ثُمَّ يُبْقِيهِ بِإِمْدادِهِ ، فَيَبْدُو لَهُ عَجْزُهُ مِنْ حَيْثُ نَفْسُهُ ، فَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ كَما قالَ الصِّدِّيقُ الأَكْبَرُ رضي الله عنه : ((العَجْزُ عَنْ دَرْكِ الإِدْراكِ هُوَ عَيْنُ الإِدْراك))[2]، فالحَقُّ تَعالَى لا يُدْرَكُ ولا يُدْرَى .

فَقُلْتُ لَهُ : وإِلَى هَذا أَشارُوا بِقَوْلِهِمْ : لا يَرَى اللّٰهَ إِلَّا اللّٰه ، فَقالَ : نَعَمْ ؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِرَبِّهِ لا بِنَفْسِهِ وتَحَقَّقَ فِي ذَلِكَ بِطَرِيقِ الذَّوْقِ وهُوَ فَوْقَ المَعْرِفَةِ لأَنَّ المَعْرِفَةَ تَسْتَدْعِي عارِفًا ومَعْرُوفًا ومَعْرِفَةً .

فَقُلْتُ : والتَّثْلِيثُ مَنْفِيٌّ والتَّوْحِيدُ ثابِتٌ ، فَقالَ : ومِنْ هُنا أَنْشَدَ سَيِّدِي عُمَرُ بنُ الفارِض رضي الله عنه :

وَعَنْ لَقَبِي بِالْعَارِفِ ارْجِعْ فَإِنْ تَرَ الْـ ۞ تَنَابُزَ بِالْأَلْقَابِ فِي الذِّكْرِ تَمْقُتِ

اتَّضَحَ لَهُ أَنَّ الذَّوْقَ فَوْقَ المَعْرِفَة ؛ فَقَدْ يَعْرِفُ الحَقَّ مَنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ فِيه .

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٨١ .

(٢) ذَكَرَهُ المُناوِي فِي فَيْضِ القَدِير ، والسُّيُوطِي فِي شَرْحِه .

فَقُلْتُ : إنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً ، فَقالَ : نَعَمْ ، ولِهَذا كانَ الصِّدْقُ فَوْقَ الحَقِّ ، فَإنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ الحَقَّ ولا يَصْدُقُ فِي قَوْلِهِ : أَيْ كالمُنافِقِ فَإنَّهُ يَقُولُ الحَقَّ ولا يَصْدُقُ فِي قَوْلِهِ عِنْدَ نَفْسِهِ ، فَما طابَقَ الواقِعَ عِنْدَ نَفْسِهِ ؛ لأَنَّ الصِّدْقَ فِي اصْطِلاحِ أَهْلِ المَعانِي هُوَ مُطابَقَةُ الحُكْمِ للوَاقِعِ عَنْ دَلِيلٍ ، فَلا يُعَدُّ المُنافِقُ صادِقًا وإنْ قالَ الحَقَّ .

ثُمَّ قالَ : والمَطْلُوبُ فَناءُ الدَّعاوَىٰ النَّفْسانِيَّةِ الكاذِبَةِ ومُلازَمَةُ الصِّدْقِ : أَيْ فِي الأَقْوالِ والأَفْعالِ والأَحْوالِ ، قالَ اللّٰهُ تَعالَى : ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ (١) ، حَتَّى يَفْنَى فِي شُهُودِهِ ما لَمْ يَكُنْ ، ولْيَبْقَ ما لَمْ يَزَلْ .

فَقُلْتُ : والفَناءُ حاصِلٌ ، فَما مَعْنَى الفَناءِ هُنا ؟ **فَقالَ** : إنَّ الفَناءَ طَهارَةُ الإنْسانِ ، والطَّهارَةُ مَأْمُورٌ بِها ، قالَ اللّٰهُ تَعالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ (٢) ، أَيْ طَهِّرُوها عَنْ أَنْ تُواجِهُوا بِها الأَغْيارَ ، ثُمَّ قالَ اللّٰهُ تَعالَى : ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ (٣) ، مُبالَغَةً فِي الخُرُوجِ عَنِ الدَّعاوَىٰ الكاذِبَةِ .

فَقُلْتُ : وهَذا الفَناءُ إنَّما هُوَ انْكِشافٌ بِاعْتِبارِ الشُّهُودِ لا الوُجُودِ ،

---

(١) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٨ .
(٢) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ٦ .
(٣) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ٦ .

فَقالَ : الانْكِشافُ حاصِلٌ ، وإنَّما الحَقُّ يُقَلِّبُ قُلُوبَ مَنْ شاءَ ويَصْرِفُها عَنْهُ ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ (١)، وقالَ اللهُ تَعالَى : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ (٢)، فَما مُنِعُوا إلَّا بِصَرْفِهِ تَعالَى .

فَقُلْتُ : وطَرِيقُ الذَّوْقِ لا بُدَّ فِيهِ مِنْ مُجاهَدَةٍ ، فَقالَ : نَعَمْ ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (٣)، والجِهادُ فِي اللهِ عَلَى الدَّوامِ يُورِثُ الذَّوْقَ التَّام ؛ وهَذا المَقامُ يَحْتاجُ إلَى صِدْقِ تَوَجُّهٍ لِيُدْرِكَ الكَمالَ ، ولِهَذا قالَ ﷺ لِذَلِكَ الأَعْرابِي :(قُمْ صَلِّ فَإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ)(٤)، مَعَ أَنَّهُ صَلَّى ، لَكِنَّها صَلاةٌ غَيْرُ كامِلَةٍ ، والمَقْصِدُ الكَمال ، فَلَمْ تُسَمَّ صَلاةً لِنُقْصانِها ، وكَذا مَنْ يَدَّعِي المَعْرِفَةَ بِاللهِ ولَمْ يَكُنْ تَحَقَّقَ بِها فَدَعْواهُ زُورٌ ، إذِ النَّاقِصُ لا يُوصَفُ بِصِفَةٍ مُطْلَقَةٍ ؛ أَيْ إنْ لَمْ يَقْصِدِ التَّجَوُّزَ ، ثُمَّ قالَ بَعْدَ سَرْدِ عِباراتٍ : فَمَتَى كُشِفَ لِلعَبْدِ الغِطاءُ أَدْرَكَ الأَمْرَ عَلَى ما هُوَ عَلَيْهِ ، كَما قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ (٥)، فَسَمَّاها

---

(١) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ١١٠ .
(٢) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ١٤٦ .
(٣) سُورَةُ العَنْكَبُوت : الآيَة ٦٩ .
(٤) ذَكَرَهُ ابنُ حَجَر فِي الدِّرايَة .
(٥) سُورَةُ الواقِعَة : الآيَة ١ .

(واقِعَةً) لِتَحَقُّقِ وُقُوعِها مَعَ أَنَّها مِنْ حَيْثُ الشَّاهِدُ لَمْ تَقَعْ ، فَمَنْ كُشِفَ لَهُ شَهِدَ القِيامَةَ وأَحْوالَ الآخِرَةِ ورَأَى أَهْلَ الجَنَّةِ فِي الجَنَّةِ وأَهْلَ النَّارِ فِي النَّار : ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (١) ؛ فالكُلُّ لَهُ ؛ إِذْ هُوَ المَلِكُ لا غَيْرُهُ ، والمَوْجُودُ الحَقُّ لا سِواهُ ، فَمَنْ عَرَفَهُ أَنْكَرَ أَعْداءَهُ . والأَمْرُ لَيْسَ فِيهِ تَعَبٌ ، فَمَنْ دَاوَمَ عَلَى المُراقَبَةِ مَعَ قَدَمِ الاتِّباعِ وَصَلَ إِلَى الذَّوْق ، ومَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ ، فَما ثَمَّ غَيْرُهُ ، واللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيط .

وقَدْ ذَكَرْتُ مَجْلِسًا غَيْرَ هَذا فِي رِسالَةِ الصُّحْبَةِ وآخَرَ مِنْ رَفْعِ السِّتْرِ والرِّداء ، وكُنْتُ وأَنا فِي البَيْتِ المُقَدَّسِ فِي الحَضْرَةِ الثَّانِيَةِ تَصَدَّيْتُ لِجَمْعِ بَعْضِ مَوارِدَ كانَتْ تَرِدُ عَلَيَّ فَأُودِعُها بُطُونَ الأَوْراق ، وكَثِيرًا مِنْها كُنْتُ أُمَزِّقُهُ أَوْ أَغْسِلُهُ أَوْ أُودِعُهُ فِي النَّارِ للإِحْراق ، وسَمَّيْتُ هَذا المَجْمُوعَ ((جَمْع المَوارِد مِنْ كُلِّ شارِد)) ، ولْنَذْكُرْ عِبارَةً مِنْهُ هُنا فِيها فَوائِدُ تُورِثُ الهَناءَ نِسْمَةً فَخْرِيَّة وآيَةً فَجْرِيَّة ، والفَجْرِ ولَيالٍ عَشْر ، لَيْسَ الكَتْمُ كالنَّشْر ، حُصُولُ الفَجْرِ يُزِيلُ ظُلْمَةَ الهَجْرِ ، ويَزِيدُ فِي الأَجْرِ ؛ الفَجْرُ ما بِهِ انْفَجَرَ الظَّلامُ وتَشَقَّقَتْ حُجُبُ الغَمام ، ومُذْ كُنْتَ فِي لَيْلِ العَدَمِ وأَشْرَقَ عَلَيْكَ صُبْحُ وُجُودِ القِدَم ، وكَوْنُكَ مُرَبِّيكَ

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٨٤.

فِي رَحِمِ أُمِّكَ بَعْدَ مُواصَلَةِ أَبِيكَ ثُمَّ بَعْدَ ظُهُورِكَ لِلوُجُودِ أَقَمْتَ فِي لَيْلِ الجُحُودِ حَتَّى أَقْرَرْتَ لِمَعْبُودِكَ بِالتَّوْحِيدِ بَعْدَ أَنْ لاحَ لَكَ فَجْرُ احْتِياجِكَ لِلمَلِكِ الحَمِيدِ ، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ فِي ظُلْمَةِ الجَهْلِ تَغْدُو وتَرُوحُ إِلَى أَنْ يُشْرِقَ عَلَيْكَ فَجْرُ المَعْرِفَةِ مِنْ جَنابِ السُّبُّوحِ ، ثُمَّ لا تَزالُ فِي ظُلْمَةِ قَفَصِ جِسْمِكَ إِلَى أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْكَ فَجْرُ فَناكَ عَنْكَ وعَنِ اسْمِكَ ، ومِنْ هَذا الوادِي النَّادِي تَعْرِفُ جَمَراتِ نَفْسِكَ وتَغْرِفُ تَنَزُّلاتِ قُدْسِكَ بِكَأْسِ أُنْسِكَ ، وتَتَحَقَّقُ فِي حَدِيثِ : (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّه) ، فَتَطَهَّرْ مِنْ رِجْسِكَ ، وتَخَلَّصْ مِنْ حَبائِلِ حَدْسِكَ ، فَإِنَّ مَنْ جَهِلَ نَفْسَهُ ضَلَّ وزَلَّ وكانَ مِمَّنْ بِهِ شَيْطانُهُ هَزِيَ لَمَّا هَزَل ، وعَنِ المُجاهَدَةِ فِي نَفْسِهِ اعْتَزَل ، وقَنَعَ بِالتَّشْبِيبِ والحَماسَةِ والمَدْحِ والغَزَل .

ومِنَ المَعْلُومِ أَنَّ الجِدَّ يُثْمِرُ لِمَنْ ساعَدَهُ حُكْمُ الأَزَل ، فَجَرِّدْ سَيْفَ عَزْمِكَ لِتَكُونَ مِمَّنْ لَهُ الحُبُّ فِي العَطاءِ أَجْزَل ، ومِمَّنْ أُشْرِبَ حُبُّهُ القُلُوبَ لَمَّا عَنْ نَفْسِهِ وهَواهُ نَزَل ، وحاكَ أَثْوابَ المُجاهَدَةِ عَلَى أَنْوالِ المُكابَدَةِ ولِرَقِيقِ التَّدْقِيقِ عَنْ دَسائِسِها غَزَل ، فَناجاهُ الحَبِيبُ فِي لَيالِي التَّقْرِيبِ سَحَرَ فَجْرِ التَّهْذِيبِ لِسَماءِ دُنْيا التَّدْرِيبِ غَيْثُ رَحْمَتِهِ نَزَل ، فَعَساكَ إِذا ظَفِرْتَ بِكَنْزِ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ أَنْ تُطْلِقَ رُوحَكَ مِنَ الحَبْسِ ، فَتَرْقَى مَقاماتِ الأُنْسِ .

واعْلَمْ أَنَّكَ مَتَّى غَفَلْتَ عَنْ رَبِّكَ أَعْقَلَكَ عَنْ نَفْسِهِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [1] ؛ فَمَعْرِفَتُكَ بِنَفْسِكَ أَصْلٌ فِي مَعْرِفَتِكَ بِرَبِّكَ ، ومَفْهُومُ الآيَةِ أَنَّ مَنْ نَسِيَ اللّٰهَ أَنْساهُ اللّٰهُ نَفْسَهُ ، ومَفْهُومُ الحَدِيثِ أَنَّ مَنْ جَهِلَ نَفْسَهُ فَنَسِيَها فَقَدْ جَهِلَ رَبَّهُ ونَسِيَهُ ، فَيُفْهَمُ الطَّرْدُ والعَكْسُ .

فارْكَبْ جَوادَ الهِمَّةِ وسِرْ فِي فَيافِي التَّوْحِيد[2]، وغُصْ بَعْدَ التَّجَرُّدِ عَنْ مَلابِسِ اللَّبْسِ فِي بِحارِ تَجْرِيدِ التَّفْرِيد ، وأُمَّ بِالنَّفْسِ المَراتِبَ المَنْصُوصَةَ والمَعاهِدَ المَخْصُوصَة ، وحُلَّ عُقاصَ الذَّوائِبِ المَعْقُوصَة ؛ لِتُرِيشَ مِنْكَ الأَجْنِحَةُ المَقْصُوصَة ، فَتَطِيرَ لِقِبابِ العُلُومِ الَّتي عَلَى أَهْلِها مَخْصُوصَة ، وبِهِمْ مُمْتَلآتٌ أَرْجاؤُها وأَرْكانُها مَقْصُوصَة ، فالهِمَّةُ بُراقُ أَهْلِ المَعْرِفَةِ عَلَى مَتْنِها تَعُودُ فَيَعْرِفُونَ الأَسْماءَ التَّامَّةَ والمَقْصُورَةَ والمَنْقُوصَة ، فاللَّازِمُ عَلَى كُلِّ حازِمٍ جازِمٍ أَنْ يُوَجِّهَها لِطَلَبِ المَحْبُوبِ لِيَخْلُصَ مِنَ العِيشَةِ المَبْغُوضَةِ المَنْقُوصَةِ إِلَى أَنْ يَسْطَعَ فَجْرُ الإِطْلاقِ ، وهُناكَ يَبْلُغُ المَأْمُولُ أَمَلَه ، ويَبْرُكُ مَحْمَلُ جَمَلِه ، ومَتَى راشَتْ هِمَّةُ مُرِيدٍ إِلَى طَلَبِ المَزِيدِ عِنْدَما انْقَشَعَ حِجابُ

---

(١) سُورَةُ الحَشْر : الآيَة ١٩.

(٢) المَقْصُودُ كَوْنُ السَّيْرِ فِي التَّوْحِيدِ هُوَ بِالمُجاهَدَةِ لِذا شُبِّهَ بِالفَيافِي .

لَيْلِ الطَّبْعِ ولَمَعَ ضَوْءُ المَثانِي السَّبْعِ وبَزَغَ قَمَرُ الرُّوحِ وأَشْرَقَتْ شَمْسُ العَقْلِ فارَ تَنُّورُ الفُتُوحِ ، ووَلَجَ جَمالُ الجمالِ مِنْ سَمِّ خِياطِ الكَمالِ ، دَخَلَ السَّيَّارُ جَنَّةَ التَّحَلِّي ، واسْتَكَنَّ الطَّيَّارُ بِجَنَّةِ التَّجَلِّي ، فَيَبْلُغُ رَفْرَفَ المَعارِفِ وسِدْرَةَ مُنْتهاها ، وتُعْطَى نَفْسُهُ الزَّكِيَّةُ مَجامِعَ مُشْتَهاها ، وتَنْفَجِرُ الأَنْوارُ فِي فُؤادِهِ ، وتَعْكُفُ عَلَيْهِ ، وتَنْجَذِبُ القُلُوبُ القاسِيَةُ بِمَغْناطِيسِ المَحَبَّةِ إِلَيْه .

ومَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أَخْلَصَ للهِ أَرْبَعِينَ صَباحًا فِي سِرِّهِ وإِعْلانِهِ تَفَجَّرَتْ يَنابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسانِهِ ، واليَنابِيعُ لا تَكُونُ مَحَلًّا فِي الأَرْضِ المُقَيَّدَةِ الحامِلَة ، والحِكْمَةُ الإِكْرامِيَّةُ لا تَتَفَجَّرُ إِلَّا فِي قُلُوبٍ مُؤَدَّبَةٍ كامِلَة ؛ قُدِّسَتْ عَنِ الشَّوائِب ، وبَدا لَها ما كانَ عَنْها غائِب ، وإِذا صَحَّ لَمْ يَكُنِ القَلْبُ كالأَرْضِ فِي حَمْلِ الأَسايا وإِظْهارِ مَحاسِنِ الخَبايا ، تُوطَأُ بِالأَقْدام ، ولا تُظْهِرُ لِواطِئِها المَلام ، لا تَظْهَرُ فِيهِ حِكْمَةٌ إِلَهِيَّة ، ولا تَبْدُو واضِحَةً فِيهِ لَمْحَةٌ رَبَّانِيَّة .

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنا بِالرُّشْدِ والهِدايَة ، ويَسْلُكَ بِنا بِمَنِّهِ سَبِيلَ أَهْلِ العِنايَة ؛ فَإِنَّا إِلَيْهِ آيِبُونَ تائِبُونَ مُؤْمِنُونَ بِكُلِّ ما جاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَى مُرادِ اللهِ ، وبِكُلِّ ما جاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مُرادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْنا عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى نَلْقاكَ وأَنْتَ راضٍ عَنَّا يا وَلِيُّ يا مالِك .

التَّوْفِيق لِمَنْ سَلَكَ صُوفِيَّةَ الطَّرِيق

قَالُوا : الْوِلايَةُ حَقٌّ غَيْرَ أَنَّهُمُ ❁ قَدْ قَابَلُوا أَهْلَها جَهْلًا بِإِنْكَارِ

فَكَيْفَ يُعْرَفُ دِينُ الْحَقِّ إِنْ حَجَبُوا ❁ أَعْلامَهُ وَاسْتَعَاضُوهُمْ بِأَغْمَارِ

وَكَيْفَ يُفْهَمُ قَوْلُ اللهِ : (مَنْ عَادَىٰ)[1] ❁ وَيُسْتَفَادُ مِنَ الْفَحْوَىٰ بِإِنْذَارِ ؟

يَا سَعْدَ مَنْ دِينُهُ حُبُّ النَّبِيِّ وَفِي ❁ فُؤَادِهِ عِشْقُ آلِ الْمُصْطَفَىٰ سَارِي

هُمُ الْمَلاذُ الَّذِي أَوْصَى الرَّسُولُ بِهِ ❁ مَعَ الْكِتَابِ لِمَلْهُوفٍ وَمُحْتَارِ[2]

فَكَيْفَ يُنْكَرُ فَضْلٌ بَعْدَمَا سَطَعَتْ ❁ بِهِ شَوَاهِدُ آيَاتٍ وَآثَارِ

حَفِظْتَ دِينَكَ رَبِّي لَيْسَ مَا زَعَمَتْ ❁ جَمَاعَةٌ صُنْعُ تَدْبِيرٍ وَأَفْكَارِ

فَاحْفَظْ بِهِ رَبَّنَا شَيْخَ الطَّرِيقِ لَنَا ❁ وَاجْمَعْ بِهِ شَمْلَنَا فِي كُلِّ أَطْوَارِ

وَجَازِهِ خَيْرَ مَا يَرْجُوهُ مَنْزِلَةً ❁ مِنْ رَبِّهِ كُلُّ صَبَّارٍ وَشَكَّارِ

وَاحْفَظْ مُرِيدِيهِ يَا مَوْلايَ كُلَّهُمُ ❁ وَآلِهِمْ مَعَ أَحْبَابٍ وَأَصْهَارِ

وَاغْفِرْ لَنَا كُلَّ ذَنْبٍ أَنْتَ تَعْلَمُهُ ❁ بِمَا سَتَرْتَ بِهِ يَا خَيْرَ غَفَّارِ

وَادْرِكْ إِلَهِي جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ فَقَدْ ❁ غَزَاهُمُ مِنْ عَدُوٍّ كُلُّ فَجَّارِ

يَا رَبِّ دَارُهُمُ نَهْبٌ لِمُسْتَلِبٍ ❁ إِنْ لَمْ تُدَارِكْهُمُ يَا ضَيْعَةَ الدَّارِ

---

(١) إِشَارَةٌ إِلَى الحَدِيثِ القُدْسِيِّ : (مَنْ عادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ) .

(٢) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ ﷺ : (تَرَكْتُ فِيكُمْ...) الحَدِيث .

يَـا رَبِّ مَـا لَهُـمُ إِلَّاكَ مُلْتَـجَأٌ ❁ فَاقْصِمْ إِلَهِي عِدَاهُمْ بِاسْمِ جَبَّارِ

بِحَقِّ طَهَ الَّذِي لَوْلَاهُ مَا سَطَعَتْ ❁ شَمْسٌ وَلَا عُمِرَتْ أَرْضٌ بِدَيَّارِ

ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ مَا اسْتَغَاثَ بِهِ ❁ مُـوَحِّـدٌ وَعَـلَـى آلٍ وَأَنْـصَـارِ

وَصِيَّةٌ وَصْفِيَّة .. لأَهْلِيَّةِ هَذِهِ المَعِيَّة

فَـذَا الَّـذِي سَـمَّوْهُ بِالْمُـرَبِّي ❁ لَوْلَا الْمُـرَبِّي مَا عَـرَفْتُ رَبِّي

ثُمَّ الَّذِي كَأْسَ اللِّقَا أَسْقَاكَا ❁ وَبَعْـدَ مَحْـوٍ بِالْهَـوَىٰ أَبْقَـاكَا

وَقَـدْ أَنَـارَ الْقَلْـبَ بِالْأَمْـدَادِ ❁ حَتَّى دَخَلْتَ حَضْرَةَ الْإِسْعَادِ

وَكَشَـفَ الْحِجَـابَ وَاللِّثَامَـا ❁ عَنْ نَاظِرَيْكَ فَاجْنُبِ اللِّثَامَا

وَقُمْتَ بِالْبَـاءِ وعِفْـتَ الْيَـاءَ[1] ❁ وَلَـمْ تَـرَ الظِّـلَالَ وَالْأَفْـيَاءَ

وَسَارَ فِيكَ سَيْرَ سَارٍ مُدْلِجِ[2] ❁ لِمَنْزِلِ الشُّهُودِ عَالِي الدَّرَجِ

وَبَعْـدَ مَـا أَفْـنَاكَ عَـنْكَ فِيـهِ ❁ أَبْقَاكَ مُذْ رَقَّاكَ عَنْ تَشْبِيهِ

مَا حَادَ قَطُّ مَنْهَجَ الشَّـرِيعَهْ ❁ وَلَا خَطَا فِي مَهْمَهِ[3] الْقَطِيعَهْ

وَالسَّالِكُ الَّذِي لِمَوْلَاهُ سَـلَكْ ❁ هُوَ الَّذِي كُلَّ الْمَقَامَاتِ مَلَكْ

وَالطَّالِبُ الْمَطْلُوبُ لَمَّا طَلَبَا ❁ صَـبٌّ يَجِدْ نَفْسَهُ قَـدْ غَلَبَا

---

(١) قُمْتَ بالباء : أَيْ باللهِ تعالَى وَحْدَهُ . وعِفْتَ الياء : أَيْ ياءَ الإضافَةِ كَقَوْلِكَ : لِي وعِنْدِي ومَعِي .

(٢) الدَّلَجُ : سَيْرُ اللَّيْل . (٣) المَهْمَه : الصَّحراء المُقْفِرَة .

سُلُوكُ المُرِيدِ إِلَى حَضَراتِ ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾

بَيْنَ حِكْمَةِ (ابنِ عَطاءِ اللهِ) ومَقُولَةِ (ابنِ عَجِيبَةَ) مُرِيدِهِ الرَّشِيد

(وهِيَ آدابُ المُرِيدِ المُلَبِّي والشَّيْخِ المُرَبِّي)

(وهِيَ بِما فِيها مِنَ اللَّطافَةِ طاقَةٌ يَتَجَدَّدُ بِها الإيمانُ ويَزْداد ، جَعَلَ اللهُ مَدَدَ قارِئِها والمُتَلَقِّي لَها بِالقَبُولِ والشُّكْرِ فِي ازْدِياد)

وأَسْكَنَ اللهُ الفِرْدَوْسَ الرَّحِيب شاعِرَ النَّبِيِّ الحَبِيب / مُحَمَّد خَلِيل الخَطِيب جَزاءَ صِدْقِ وَصْفِهِ لِحِكَمِ ابنِ عَطاءِ اللهِ ، وذَلِكَ قَوْلُهُ :

يَا صَاحِبَ الْكَلِمِ الْغَرَّاءِ جَامِعَةً ❁ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ أُولاهَا وَأُخْرَاهَا

أُهْدِي لَكُمْ حِكَمًا لَوْلا مَحَبَّتُكُمْ ❁ مَا قالَها ابْنُ عَطاءٍ أَوْ شَرَحْنَاهَا

رُوحِيَّةُ اللَّفْظِ والْمَعْنَىٰ مُبَارَكَةٌ ❁ مَعْرُوفَةُ السِّرِّ فِي أَرْواحِ قُرَّاهَا

حَوَتْ خُلاصَةَ عِلْمِ الدِّينِ أَجْمَعِهِ ❁ أَكْرِمْ بِمَنْ حَازَ مَبْنَاهَا وَمَعْنَاهَا

فَاقْبَلْ وَأَقْبِلْ وَقُلْ يَا ابْنِي هَدِيَّتُكُمْ ❁ مِنْ أَجْلِ حُبِّكُمُ فِينَا قَبِلْنَاهَا

وَاشْفَعْ لَنَا وَلِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ ❁ أَحَبَّنَا وَلِمَنْ عَنْ حُبِّنَا تَاهَا

وَصَلِّ رَبِّ عَلَى طَهَ وَعِتْرَتِهِ ❁ مُسَلِّمًا وَأَنِلْنَا عِنْدَكُمْ جَاهَا

المُرِيدُ السَّائِرُ الَّذِي يَجْتازُ عَقَباتِ الطَّرِيقِ بُغْيَةَ الوُصُولِ إِلَى مَنازِلِ القُرُباتِ ومَعِيَّةِ الأَكابِر ، زادُهُ إِصْلاحُ الظَّواهِر (بِاجْتِنابِ النَّواهِي

وامْتِثالِ الأَوامِر) ، وإِصْلاحُ السَّرائِر (بالتَّخْلِيَةِ مِنَ الرَّذائِلِ والتَّحْلِيَةِ بِأَنْواعِ الفَضائِل) ، ثُمَّ لا يَصِلُ المُرِيدُ إِلَى بُغْيَتِهِ إِلَّا بَعْدَ قَطْعِهِ سِتَّ عَقَباتٍ وهِيَ :

العَقَبَةُ الأُولَى : فَطْمُ الجَوارِحِ عَنِ المُخالَفاتِ الشَّرْعِيَّة .

العَقَبَةُ الثَّانِيَة : فَطْمُ النَّفْسِ عَنِ المَأْلُوفاتِ العادِيَّة .

العَقَبَةُ الثَّالِثَة : فَطْمُ القَلْبِ عَنِ الرُّعُوناتِ البَشَرِيَّة .

العَقَبَةُ الرَّابِعَة : فَطْمُ النَّفْسِ عَنِ الكُدُوراتِ الطَّبِيعِيَّة .

العَقَبَةُ الخامِسَة : فَطْمُ الرُّوحِ عَنِ البَخُوراتِ الحِسِّيَّة .

العَقَبَةُ السَّادِسَة : فَطْمُ العَقْلِ عَنِ الخَيالاتِ الوَهْمِيَّة .

فَيُشْرِفُ المُرِيدُ مِنَ العَقَبَةِ الأُولَى عَلَى يَنابِيعِ الحِكَمِ القَلْبِيَّة ، ويَطَّلِعُ مِنَ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ عَلَى أَسْرارِ العُلُومِ اللَّدُنِيَّة ، وتَلُوحُ لَهُ فِي العَقَبَةِ الثَّالِثَةِ أَعْلامُ المُناجاةِ المَلَكُوتِيَّة ، ويَلْمَعُ لَهُ فِي العَقَبَةِ الرَّابِعَةِ أَنْوارُ المُنازَلاتِ القُرْبِيَّة ، ويَطَّلِعُ لَهُ فِي العَقَبَةِ الخامِسَةِ أَنْوارُ المُشاهَداتِ الحِبِّيَّة ، ويَهْبِطُ مِنَ العَقَبَةِ السَّادِسَةِ عَلَى رِياضِ الحَضْرَةِ القُدْسِيَّة ، فَهُنالِكَ يَغِيبُ بِما يُشاهِدُهُ مِنَ اللَّطائِفِ الأُنْسِيَّةِ عَنِ الكَثائِفِ الحِسِّيَّة ؛ فَإِذا أَرادَكَ لِخُصُوصِيَّتِهِ الاصْطِفائِيَّة ، سَقاكَ بِكَأْسِ مَحَبَّتِهِ شَرْبَةً تَزْدادُ بِتِلْكَ الشَّرْبَةِ ظَمَأً ، وبِالذَّوْقِ شَوْقًا ، وبِالقُرْبِ طَلَبًا ، وبِالهُيامِ

طَرَبًا ؛ ولا يَعْتَمِدُ المُرِيدُ فِي سُلُوكِهِ عَلَى نَفْسِهِ ، ولا عَلَى عَمَلِهِ ، ولا عَلَى حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ ، وإنَّما يَعْتَمِدُ عَلَى فَضْلِ رَبِّهِ وتَوْفِيقِهِ وهِدايَتِهِ وتَسْدِيدِهِ ؛ فالاعْتِمادُ عَلَى النُّفُوسِ مِنْ عَلامَةِ الشَّقاءِ والبُؤْسِ ، والاعْتِمادُ عَلَى الأَعْمالِ مِنْ عَدَمِ التَّحَقُّقِ بِالزَّوالِ ، والاعْتِمادُ عَلَى الكَرامَةِ والأَحْوالِ مِنْ عَدَمِ صُحْبَةِ الرِّجالِ ، والاعْتِمادُ عَلَى اللهِ مِنْ تَحَقُّقِ المَعْرِفَةِ باللهِ .

وعَلامَةُ الاعْتِمادِ عَلَى اللهِ أَنَّهُ لا يَعْظُمُ خَوْفُهُ إذا صَدَرَتْ مِنْهُ غَفْلَة ، كَما لا يَزِيدُ رَجاؤُهُ إذا وَقَعَتْ مِنْهُ يَقَظَة ، قَدِ اسْتَوَى خَوْفُهُ ورَجاؤُهُ عَلَى الدَّوام ؛ لأَنَّ خَوْفَهُ ناشِئٌ عَنْ شُهُودِ الجَلال ، ورَجاءَهُ ناشِئٌ عَنْ شُهُودِ الجَمال ، وجَلالُ الحَقِّ وجَمالُهُ لا يَتَغَيَّرانِ بِزِيادَةٍ ولا نُقْصان ، فَكَذا ما يَنْشَأُ عَنْهُما ؛ بِخِلافِ المُعْتَمِدِ عَلَى الأَعْمالِ ، إذا قَلَّ عَمَلُهُ قَلَّ رَجاؤُهُ ، وإذا كَثُرَ عَمَلُهُ كَثُرَ رَجاؤُهُ ؛ لِشِرْكِهِ بِرَبِّهِ وتَحَقُّقِهِ بِجَهْلِهِ ، ولَوْ فَنِيَ عَنْ نَفْسِهِ وبَقِيَ بِرَبِّهِ لاسْتَراحَ مِنْ تَعَبِهِ وتَحَقَّقَ بِمَعْرِفَةِ رَبِّهِ .

ولا بُدَّ مِنْ شَيْخٍ كامِلٍ يُخْرِجُكَ مِنْ تَعَبِ نَفْسِكَ إلَى راحَتِكَ بِشُهُودِ رَبِّكَ ؛ فالشَّيْخُ الكامِلُ هُوَ الَّذِي يُرِيحُكَ مِنَ التَّعَب ، لا الَّذِي يَدُلُّكَ عَلَى التَّعَب .

وإذا كانَتْ هِمَّةُ المُرِيدِ وقُوَّةُ عَزِيمَتِهِ مَطْلُوبَةً فِي سَيْرِهِ وسُلُوكِهِ ، فالواجِبُ عَلَى المُرِيدِ أَلَّا يَتَوَهَّمَ أَنَّ الهِمَّةَ تَخْرِقُ سُورَ القَدَر ، وتَفْعَلُ ما لَمْ يَجْرِ بِهِ القَضاءُ والقَدَر ، وهُوَ ما عَبَّرَ عَنْهُ سَيِّدِي ابنُ عَطاءِ اللهِ فِي (حِكَمِهِ) بِقَوْلِهِ :

(سَوابِقُ الهِمَمِ لا تَخْرِقُ أَسْوارَ الأَقْدار) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : السَّوابِقُ : جَمْعُ سابِقَةٍ وهِيَ المُتَقَدِّمَة .

والهِمَمُ : جَمْعُ هِمَّة ، والهِمَّةُ : قُوَّةُ انْبِعاثِ القَلْبِ فِي طَلَبِ الشَّيْءِ والاهْتِمامِ بِهِ ، فَإِذا كانَ ذَلِكَ الأَمْرُ رَفِيعًا ، كَمَعْرِفَةِ اللهِ وطَلَبِ رِضاهُ سُمِّيَتْ هِمَّةً عالِيَة ، وإِنْ كانَ الأَمْرُ خَسِيسًا كَطَلَبِ الدُّنْيا وحُظُوظِها سُمِّيَتْ هِمَّةً دَنِيَّة ، وسَوابِقُ الهِمَمِ مِنْ إِضافَةِ المَوْصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ ؛ أَي الهِمَمُ السَّوابِقُ لا تَخْرِقُ أَسْوارَ الأَقْدار ؛ أَيْ إِذا اهْتَمَّ العارِفُ أَوِ المُرِيدُ بِشَيْءٍ ، وقَوِيَتْ هِمَّتُهُ بِذَلِكَ فَإِنَّ اللهَ تَعالَى يُكَوِّنُ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ فِي ساعَةٍ واحِدَةٍ حَتَّى يَكُونَ أَمْرُهُ بِأَمْرِ اللهِ .

وكانَ مَوْلانا العَرَبِي الدَّرْقاوِي رضي الله عنه يَقُولُ : المُرِيدُ الصَّادِقُ إِذا كانَ فانِيًا فِي الاسْمِ ، مَهْما اهْتَمَّ بِالشَّيْءِ كانَ ، وإِنْ كانَ فانِيًا فِي الذَّاتِ يَكُونُ الشَّيْءُ الَّذِي يَحْتاجُهُ قَبْلَ أَنْ يَهْتَمَّ بِهِ ، أَوْ كَلامٌ هَذا مَعْناهُ ، وهُوَ صَحِيح .

وفِي بَعْضِ الأَخْبارِ : (يَقُولُ اللّٰهُ تَعالَى : عَبْدِي ! أَنا اللّٰهُ الَّذِي أَقُولُ للشَّيْءِ كُنْ فَيَكُون ، فَأَطِعْنِي أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ : كُنْ فَيَكُون) .

وفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَيْضًا : (فَإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وبَصَرًا ويَدًا ومُؤَيِّدًا ، إِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ) الحَدِيث .

ومَعَ ذَلِكَ لا يَنْفَصِلُ بِذَلِكَ ، ولا يَتَكَوَّنُ إِلَّا ما أَحاطَ بِهِ قَدَرُ اللّٰهِ وقَضاؤُهُ ، فَهِمَّةُ العارِفِ تَتَوَجَّهُ لِلشَّيْءِ ، فَإِنْ وَجَدَتِ القَضاءَ سَبَقَ بِهِ ، كانَ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللّٰه ؛ وإِنْ وَجَدَتْ سُورَ القَدَرِ مَضْرُوبًا عَلَيْهِ ، لا تَخْرِقُهُ ، بَلْ تَتَأَدَّبُ مَعَهُ ، وتَرْجِعُ لِوَصْفِها وهِيَ العُبُودِيَّةُ ، فَلا تَتَأَسَّفُ ولا تَحْزَنُ ، بَلْ رُبَّما تَفْرَحُ لِرُجُوعِها لِمَحَلِّها وتَحَقُّقِها بِوَصْفِها .

وقَدِ اشْتُهِرَ عَنْ مَشايِخِ الصُّوفِيَّةِ قَوْلُهُمْ : (نَحْنُ إِذا قُلْنا شَيْئًا فَخَرَجَ فَرِحْنا مَرَّةً واحِدَةً ، وإِذا لَمْ يَخْرُجْ فَرِحْنا عَشْرَ مَرَّاتٍ) ؛ وذَلِكَ لِتَحَقُّقِهِمْ بِمَعْرِفَةِ اللّٰه .

قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : بِماذا عَرَفْتَ رَبَّكَ ؟ قالَ : بِنَقْضِ العَزائِمِ .

وقَدْ يَحْصُلُ هَذا التَّأْثِيرُ لِلهِمَّةِ القَوِيَّةِ وإِنْ كانَ صاحِبُها ناقِصًا ؛ كَما يَقَعُ لِلعائِنِ والسَّاحِرِ عَنْ خُبْثِهِما أَوْ لِخاصِيَّةٍ جَعَلَها اللّٰهُ فِيهِما إِذا نَظَرا لِشَيْءٍ بِقَصْدٍ انْفَعَلَ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللّٰه ، وهَذا كُلُّهُ أَيْضًا لا يَخْرِقُ

أَسْوارَ الأَقْدار ، بَلْ لا يَكُونُ إِلَّا ما أَرادَ الواحِدُ القَهَّار ؛ قالَ تَعالَى :

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (١) .

وقالَ تَعالَى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (٢) .

وقالَ تَعالَى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (٣) .

وقالَ ﷺ : (كُلُّ شَيْءٍ بِقَضاءٍ وقَدَرٍ حَتَّى العَجْزُ والكَيْسُ) ، أَي النَّشاطُ للفِعْل .

وأَشْعَرَ قَوْلُهُ : (سَوابِق) : أَنَّ الهِمَمَ الضَّعِيفَةَ لا يَنْفَعِلُ لَها شَيْءٌ ، وهُوَ كَذَلِكَ فِي الخَيْرِ والشَّرِّ ، وفِي اسْتِعارَتِهِ الخَرْقَ والأَسْوارَ ما يُشْعِرُ بِالقُوَّةِ فِي الجانِبَيْنِ ، لَكِنَّ الحاصِرَ قاهِر ، فَلا عِبْرَةَ بِقُوَّةِ العَبْدِ القاصِر .

وإِذا كانَتِ الهِمَّةُ لا تَخْرِقُ أَسْوارَ الأَقْدار ، فَما بالُكَ بِالتَّدْبِيرِ والاخْتِيارِ الَّذِي أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ فِي حِكْمَتِهِ :

(أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِير ، فَما قامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ ، لا تَقُمْ بِهِ أَنْتَ لِنَفْسِكَ) :(٤)

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٠٢ .

(٢) سُورَةُ القَمَر : الآيَة ٤٩ .

(٣) سُورَةُ الإِنْسان : مِنَ الآيَة ٣٠ .

(٤) إِيقاظُ الهِمَم فِي شَرْح الحِكَم : أَحْمَدُ بنُ عَجِيبَة الحَسَني(ت ١٢٢٤هـ) ؛ وهُوَ العَلَّامَةُ الشَّرِيفُ الحَسِيبُ الفَقِيهُ المُفَسِّرُ ، المالِكِيُّ مَذْهَبًا ، الشَّاذِلِيُّ طَرِيقَةً .

قالَ ابنُ عَجِيبَة :التَّدْبِيرُ فِي اللُّغَةِ هُوَ النَّظَرُ فِي الأُمُورِ وأَواخِرِها .

وفِي الاصْطِلاح : هُوَ كَما قالَ الشَّيْخُ زَرُّوق رضي الله عنه : ((تَقْدِيرُ شُؤُونٍ يَكُونُ عَلَيْها فِي المُسْتَقْبَلِ بِما يُخافُ أَوْ يُرْجَى بِالحُكْم لا بِالتَّفْوِيض ، فَإِنْ كانَ مَعَ تَفْوِيضٍ وهُوَ أُخْرَوِيٌّ فَنِيَّةُ خَيْرٍ ، أَوْ طَبِيعِيٌّ فَشَهْوَةٌ ، أَوْ دُنَيَوِيٌّ فَأُمْنِيَّةٌ)) .

فاقْتَضَى كَلامُهُ أَنَّ التَّدْبِيرَ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام :

قِسْمٌ مَذْمُومٌ ، وقِسْمٌ مَطْلُوبٌ ، وقِسْمٌ مُباحٌ .

فَأَمَّا القِسْمُ المَذْمُوم : فَهُوَ الَّذِي يَصْحَبُهُ الجَزْمُ والتَّصْمِيم ، سَواءٌ كانَ دِينِيًّا أَوْ دُنْيَوِيًّا ؛ لِما فِيهِ مِنْ قِلَّةِ الأَدَبِ وما يَتَعَجَّلُهُ لِنَفْسِهِ مِنَ التَّعَبِ ؛ إِذْ ما قامَ بِهِ الحَيُّ القَيُّومُ عَنْكَ لا تَقُومُ بِهِ أَنْتَ عَنْ نَفْسِكَ ، وغالِبُ ما تُدَبِّرُهُ لِنَفْسِكَ لا تُساعِدُهُ رِياحُ الأَقْدار ، وتَعْقُبُهُ الهُمُومُ والأَكْدار .

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :(إِنَّ اللهَ جَعَلَ الرَّوْحَ والرَّاحَةَ فِي الرِّضا واليَقِين) .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَنِ الشَّاذِلِي : لا تَخْتَرْ مِنْ أَمْرِكَ شَيْئًا ، واخْتَرْ أَلَّا تَخْتار ، وفِرَّ مِنْ ذَلِكَ المُخْتار ، ومِنْ فِرارِكَ ، ومِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى اللهِ تَعالَى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ القَصَص : مِنَ الآيَة ٦٨ .

وقالَ قائِلُهُمْ : ((مِنْ أَوْصافِ الوَلِيِّ الكامِلِ أَلَّا يَكُونَ مُحْتاجًا إِلَّا إِلَى الحالِ الَّذِي يُقِيمُهُ مَوْلاهُ فِي الوَقْتِ)) ، يَعْنِي : ما لَهُ مُرادٌ إِلَّا ما يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرِ القُدْرَة .

فَكَلامُ هَؤُلاءِ السَّاداتِ مَحْمُولٌ عَلَى ما إِذا كانَ بِالنَّفْسِ مَعَ الجَزْمِ ، وأَمَّا ما كانَ مَعَ التَّفْوِيضِ فَلَيْسَ بِمَذْمُومٍ ما لَمْ يَطُل .

وأَمَّا **القِسْمُ المَطْلُوب** : فَهُوَ تَدْبِيرُ ما كُلِّفْتَ بِهِ مِنَ الواجِبات ، وما نُدِبْتَ إِلَيْهِ مِنَ الطَّاعات ، مَعَ تَفْوِيضِ المَشِيئَةِ والنَّظَرِ إِلَى القُدْرَة ، وهَذا يُسَمَّى النِّيَّةَ الصَّالِحَة ، وقَدْ قالَ ﷺ :(نِيَّةُ المُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ) .

وقالَ أَيْضًا حاكِيًا عَنِ اللهِ سُبْحانَهُ : (إِذا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً كامِلَة) .

وهَذا مَفْهُومُ قَوْلِ الشَّيْخ : فَما قامَ بِهِ غَيْرُكَ ؛ إِذْ مَفْهُومُهُ أَنَّ ما لَمْ يَقُمْ بِهِ عَنْكَ وهُوَ الطَّاعَةُ لا يَضُرُّكَ تَدْبِيرُهُ ؛ ولِذَلِكَ قالَ إِبْراهِيمُ الخَوَّاص : ((العِلْمُ كُلُّهُ فِي كَلِمَتَيْنِ : لا تَتَكَلَّفْ ما كُفِيتَ ، ولا تُضَيِّعْ ما اسْتُكْفِيتَ)) ؛ فَقَوْلُهُ : لا تَتَكَلَّفْ ما كُفِيتَ هُوَ القِسْمُ الأَوَّلُ المَذْمُوم ، وقَوْلُهُ : ولا تُضَيِّعْ ما اسْتُكْفِيتَ هُوَ القِسْمُ الثَّانِي المَطْلُوب .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَن : ((وكُلُّ مُخْتاراتِ الشَّرْعِ وتَرْتِيباتِهِ لَيْسَ لَكَ مِنْهُ شَيْءٌ ، إِنَّما هُوَ مُخْتارُ اللهِ لَكَ ، واسْمَعْ وأَطِعْ ، وهَذا مَحَلُّ الفِقْهِ الرَّبَّانِي والعِلْمِ الإِلْهامِي ، وهُوَ أَرْضٌ لِتَنَزُّلِ عِلْمِ الحَقِيقَةِ المَأْخُوذَةِ عَنِ اللهِ تَعالَى لِمَنِ اسْتَوَى)) .

وقَوْلُهُ : لِمَنِ اسْتَوَى : أَيْ كَمُلَ عَقْلُهُ ، وتَمَّتْ مَعْرِفَتُهُ ، واسْتَوَتْ حَقِيقَتُهُ مَعَ شَرِيعَتِهِ ، لَكِنْ لا يَنْبَغِي الاسْتِرْسالُ مَعَهُ ، فَيَشْغَلُهُ عَنِ اللهِ .

وأَمَّا **القِسْمُ المُباح** : فَهُوَ التَّدْبِيرُ فِي أَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ أَوْ طَبِيعِيٍّ ، مَعَ التَّفْوِيضِ للمَشِيئَةِ ، والنَّظَرُ لِما يَبْرُزُ مِنَ القُدْرَةِ غَيْرُ مُعَوِّلٍ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ؛ وعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ ﷺ : (التَّدْبِيرُ نِصْفُ العَيْشِ) .

بِشَرْطِ أَلَّا يُرَدِّدَهُ المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ ؛ فالقَدْرُ المُباحُ مِنْهُ هُوَ مُرُورُهُ عَلَى القَلْبِ كالرِّيحِ ، يَدْخُلُ مِنْ طاقٍ ، ويَخْرُجُ مِنْ أُخْرَى ، وهَذا هُوَ التَّدْبِيرُ باللهِ ، وهُوَ شَأْنُ العارِفِينَ المُحَقَّقِين .

وعَلامَةُ كَوْنِهِ باللهِ ؛ أَنَّهُ إِذا بَرَزَ مِنَ القُدْرَةِ عَكْسُ ما دَبَّرَ لَمْ يَنْقَبِضْ ولَمْ يَضْطَرِبْ ، بَلْ يَكُونُ كَما قالَ الشَّاعِرُ :

سَلِّمْ لِسَلْمَىٰ وَسِرْ حَيْثُ سَارَتْ ❁ وَاتْبَعْ رِياحَ الْقَضَا وَدُرْ حَيْثُ دَارَتْ

وقالَ فِي ((التَّنْوِير)) فائِدَةٌ : اعْلَمْ أَنَّ الأَشْياءَ إِنَّما تُذَمُّ وتُمْدَحُ بِما

تُؤَدِّي إِلَيْهِ ؛ فالتَّدْبِيرُ المَذْمُومُ ما شَغَلَكَ عَنِ اللهِ ، وعَطَّلَكَ عَنِ القِيامِ بِخِدْمَةِ اللهِ ، وصَدَّكَ عَنْ مُعامَلَةِ اللهِ ، والتَّدْبِيرُ المَحْمُودُ هُوَ الَّذِي يُؤَدِّيكَ إِلَى القُرْبِ مِنَ اللهِ ، ويُوصِلُكَ إِلَى مَرْضاةِ اللهِ .

فَهَذا تَحْرِيرُ ما ظَهَرَ لِي فِي شَأْنِ التَّدْبِير ؛ وقَدْ أَلَّفَ الشَّيْخُ[1] رضي الله عنه فِيهِ كِتابًا سَمَّاهُ : ((التَّنْوِير فِي إِسْقاطِ التَّدْبِير)) ، أَحْسَنَ فِيهِ وأَجادَ ، ولَمَّا كَمَّلَهُ ، اطَّلَعَ عَلَيْهِ الوَلِيُّ الكامِلُ سَيِّدِي ياقُوت العَرْشِي ، فَلَمَّا طالَعَهُ قالَ لَهُ : جَمِيعُ ما قُلْتَ مَجْمُوعٌ فِي بَيْتَيْنِ وهُما هَذانِ :

مَـا ثَـمَّ إِلَّا مَـا أَرَادْ ❁ فَاتْرُكْ هُمُومَكَ وَانْطَرِحْ

وَاتْرُكْ شَوَاغِلَكَ الَّتِي ❁ شَغَلَتْ فُؤَادَكَ تَسْتَرِحْ

ولَمَّا كانَ الانْهماكُ فِي التَّدْبِيرِ والاخْتِيارِ يَدُلُّ عَلَى انْطِماسِ البَصِيرَةِ ، وتَرْكُهُما أَوْ فِعْلُهُما بِاللهِ يَدُلُّ عَلَى فَتْحِ البَصِيرَة ، ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ عَلامَةً أُخْرَى أَظْهَرَ وأَشْهَرَ مِنْهُما عَلَى فَتْحِ البَصِيرَةِ أَوْ طَمْسِها ، فَقالَ فِي حِكْمَتِهِ : (**اجْتِهادُكَ فِيما ضُمِنَ لَكَ ، وتَقْصِيرُكَ فِيما طُلِبَ مِنْكَ ، دَلِيلٌ عَلَى انْطِماسِ البَصِيرَةِ مِنْكَ**) :

---

(١) سَيِّدي أَحْمَدُ بنُ عَطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِي : الشَّيْخُ الإمامُ ، قُطْبُ العارِفِينَ ، وتُرْجُمانُ الواصِلِينَ ، مُرْشِدُ السَّالِكِينَ ، ومُنْقِذُ الهالِكِينَ ، مَظْهَرُ شُمُوسِ المَعارِفِ ، ومُبْدِي أَسْرارِ اللَّطائِفِ ، المالِكِيُّ مَذْهَبًا ، الإِسْكَنْدَرِيُّ داراً ، سَفْحُ المُقَطَّمِ مَزاراً ، الصُّوفِيُّ حَقِيقَةً ، الشَّاذِلِيُّ طَرِيقَةً ، الجامِعُ لأَنْواعِ العُلُومِ مِنْ تَفْسِيرٍ ، وحَدِيثٍ ، وفِقْهٍ ، وتَصَوُّفٍ ، ونَحْوٍ ، وأُصُولٍ ، وغَيْرِ ذَلِكَ ، تُوُفِّيَ رضي الله عنه سَنَةَ ٧٠٩ هـ .

قالَ ابنُ عَجيبَة : **الاجْتِهادُ** فِي الشَّيْءِ : اسْتِفْراغُ الجُهْدِ والطَّاقَةِ فِي طَلَبِهِ ، **والتَّقْصِيرُ** : هُوَ التَّفْرِيطُ والتَّضْيِيعُ ، **والبَصِيرَةُ** : ناظِرُ القَلْبِ ، كَما أَنَّ البَصَرَ ناظِرُ القالَبِ ؛ فالبَصِيرَةُ لا تَرَى إِلَّا المَعانِي ، والبَصَرُ لا يَرَى إِلَّا المَحْسُوسات .

أَوْ تَقُولُ : البَصِيرَةُ لا تَرَى إِلَّا اللَّطِيف ، والبَصَرُ لا يَرَى إِلَّا الكَثِيف .

أَوْ تَقُولُ : البَصِيرَةُ لا تَرَى إِلَّا المُكَوِّنَ ، والبَصَرُ لا يَرَى إِلَّا الكَوْنَ ، فَإِذا أَرادَ اللّٰهُ فَتْحَ بَصِيرَةِ العَبْدِ ، أَشْغَلَهُ فِي الظَّاهِرِ بِخِدْمَتِهِ ، وفِي الباطِنِ بِمَحَبَّتِهِ ، فَكُلَّما عَظُمَتِ المَحَبَّةُ فِي الباطِنِ ، والخِدْمَةُ فِي الظاهِرِ ، قَوِيَ نُورُ البَصِيرَةِ حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى البَصَرِ ، فَيَغِيبُ نُورُ البَصَرِ فِي نُورِ البَصِيرَةِ ، فَلا يَرَى إِلَّا ما تَراهُ البَصِيرَةُ مِنَ المَعانِي اللَّطِيفَةِ والأَنْوارِ القَدِيمَةِ .

وإِذا أَرادَ اللّٰهُ خُذْلانَ عَبْدِهِ أَشْغَلَهُ فِي الظَّاهِرِ بِخِدْمَةِ الأَكْوان ، وفِي الباطِنِ بِمَحَبَّتِها ، فَلا يَزالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَطْمِسَ نُورَ بَصِيرَتِهِ ، فَيَسْتَوْلِي نُورُ بَصَرِهِ عَلَى نُورِ بَصِيرَتِهِ ، فَلا يَرَى إِلَّا الحِسَّ ، ولا يَخْدِمُ إِلَّا الحِسَّ ، فَيَجْتَهِدُ فِي طَلَبِ ما هُوَ مَضْمُونٌ مِنَ الرِّزْقِ المَقْسُوم ، ويُقَصِّرُ فِيما هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُ مِنَ الفَرْضِ المَحْتُوم .

قالَ الشَّيْخُ أبو الحَسَنِ الشَّاذِلِيُّ رضي الله عنه : ((البَصِيرَةُ كالبَصَر ، أَدْنَى شَيْءٍ يَقَعُ فِيهِ يَمْنَعُ النَّظَر ، وإنْ لَمْ يَنْتَهِ إلَى العَمَىٰ ؛ فالخَطْرَةُ مِنَ الشَّيْءِ تُشَوِّشُ النَّظَر ، وتُكَدِّرُ الفِكَر ، والإرادَةُ لَهُ تَذْهَبُ بالخَيْرِ رَأْسًا والعَمَلُ بِهِ يُذْهِبُ عَنْ صاحِبِهِ سَهْمًا مِنَ الإسْلام فِيما هُوَ فِيهِ ، فَإذا انْتَهَى إلَى الوقِيعَةِ فِي الأُمَّةِ ومُوالاةِ الظَّلَمَةِ (حُبًّا فِي الجاهِ والمَنْزِلَةِ وحُبًّا للدُّنْيا عَلَى الآخِرَة) فَقَدْ تَفَلَّتَ مِنْهُ الإسْلامُ كُلُّهُ ، ولا يَغُرَّنَّكَ ما تَوَسَّمَ بِهِ ظاهِراً ، فَإنَّهُ لا رُوحَ لَهُ ؛ إذِ الإسْلامُ حُبُّ اللهِ وحُبُّ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِهِ)) .

ولَمَّا كانَ الاجْتِهادُ فِي المَضْمُونِ كُلُّهُ مَذْمُومٌ ، كانَ بالفِعْلِ كَما تَقَدَّمَ ، أَوْ بالقَوْلِ ؛ وهُوَ الاسْتِعْجالُ فِي تَحْصِيلِهِ قَبْلَ إبَّانِهِ بالدُّعاءِ أَوْ بِغَيْرِهِ ، أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ فِي حِكْمَتِهِ :

(لا يَكُنْ تَأَخُّرُ أَمَدِ العَطاءِ مَعَ الإلْحاحِ فِي الدُّعاءِ مُوجِبًا لِيَأْسِكَ ، فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الإجابَةَ فِيما يَخْتارُ لَكَ ، لا فِيما تَخْتارُ لِنَفْسِكَ ، وفِي الوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ ، لا فِي الوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الإلْحاحُ فِي الشَّيْءِ : هُوَ تَكَرُّرُهُ مِنْ وَجْهٍ واحِد ، والدُّعاءُ : طَلَبٌ مَصْحُوبٌ بِأَدَبٍ فِي بِساطِ العُبُودِيَّةِ لِجَنابِ الرُّبُوبِيَّةِ ،

والمُوجِبُ للشَّيْءِ : ما كانَ أَصْلا فِي وُجُودِهِ ، واليَأْسُ : قَطْعُ المَطامِع .

اعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَسْمائِهِ تَعالَى : القَيُّوم ؛ وهُوَ مُبالَغَةٌ فِي القِيام ، فَقَدْ قامَ تَعالَى بِأَمْرِ خَلْقِهِ مِنْ عَرْشِهِ إِلَى فَرْشِهِ ، وعَيَّنَ لِكُلِّ مَظْهَرٍ وَقْتًا مَحْدُودًا وأَجَلًا مَعْلُومًا ، ورِزْقًا مَقْسُومًا : ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (١) .

فَإِذا تَعَلَّقَ قَلْبُكَ بِحاجَةٍ مِنْ حَوائِجِ الدُّنْيا والآخِرَةِ فارْجِعْ إِلَى وَعْدِ اللّهِ واقْنَعْ بِعِلْمِ اللّهِ ، ولا تَحْرِصْ فَفِي الحِرْصِ تَعَبٌ ومَذَلَّة .

قالَ مَوْلايَ العَرَبِي الدَّرْقاوِي : ((النَّاسُ تُقْضَى حَوائِجُهُمْ بِالحِرْصِ فِيها والجَرْيِ عَلَيْها ، ونَحْنُ نَقْضِي حَوائِجَنا بِالزُّهْدِ فِيها والاشْتِغالِ بِاللّهِ عَنْها)) .

وإِنْ كانَ ولا بُدَّ مِنَ الدُّعاءِ فَلْيَكُنْ دُعاؤُكَ عُبُودِيَّةً لا طَلَبًا للحَظِّ ، فَإِنْ تَرَكْتَ الحُظُوظ ، صُبَّتْ عَلَيْكَ الحُظُوظ ، وإِنْ غَلَبَ عَلَيْكَ وارِدُ الطَّلَبِ وطَلَبْتَ شَيْئًا ثُمَّ تَأَخَّرَ عَلَيْكَ وَقْتُ العَطاءِ فِيهِ ، فَلا تَتَّهِمِ اللّهَ فِي وَعْدِهِ حَيْثُ قالَ : ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٢) .

ولا تَيْأَسْ مِنْ نَوالِهِ ورِفْدِهِ ، فَإِنَّ اللّهَ قَدْ ضَمِنَ لَكَ الإِجابَةَ فِيما

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ٣٤ . (٢) سُورَةُ غافِر : مِنَ الآيَة ٦٠ .

يُرِيدُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيا وخَيْرِ الآخِرَةِ ، وقَدْ يَمْنَعُكَ لُطْفًا بِكَ لِكَوْنِ ذَلِكَ المَطْلَبِ لا يَلِيقُ بِكَ ؛ كَما قالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَن : ((اللَّهُمَّ إِنَّا قَدْ عَجَزْنا عَنْ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْ أَنْفُسِنا مِنْ حَيْثُ نَعْلَمُ بِما نَعْلَمُ ، فَكَيْفَ لا نَعْجَزُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ لا نَعْلَمُ بِما لا نَعْلَمُ ؟)) .

وقَدْ قالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ (١) : ما مَوْصُولَة : أَيْ ويَخْتارُ الأَمْرَ الَّذِي لَهُمْ فِيهِ خِيرَتُهُمْ ، وقَدْ يَكُونُ أَجابَكَ ، وعَيَّنَ لِذَلِكَ وَقْتًا هُوَ أَصْلَحُ لَكَ وأَنْفَعُ ، فَيُعْطِيكَ ذَلِكَ فِي الوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ ، لا فِي الوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ ، وقَدْ يُؤَخِّرُ لَكَ ذَلِكَ لِدارِ الكَرامَةِ والبَقاء ، وهُوَ خَيْرٌ لَكَ وأَبْقَى .

وفِي الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :(ما مِنْ داعٍ إِلَّا وهُوَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلاثٍ : إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ طِلْبَتُهُ ، وإِمَّا أَنْ يُدَّخَرَ لَهُ ثَوابُها ، وإِمَّا أَنْ يُصْرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلُها) .

وقالَ الشَّيْخُ عَبْدُ العَزِيزِ المَهْدَوِي : مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي دُعائِهِ تارِكًا لاخْتِيارِهِ ، راضِيًا بِاخْتِيارِ الحَقِّ تَعالَى لَهُ ، فَهُوَ مُسْتَدْرَجٌ مِمَّنْ قِيلَ لَهُ : (اقْضُوا حاجَتَهُ ؛ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ) ، فَإِنْ كانَ مَعَ اخْتِيارِ الحَقِّ تَعالَى ، لا مَعَ اخْتِيارِهِ لِنَفْسِهِ ، كانَ مُجابًا وإِنْ لَمْ يُعْطَ ، والأَعْمالُ بِخَواتِيمِها .

---

(١) سُورَةُ القَصَص : مِنَ الآيَة ٦٨ .

ثُمَّ حَقَّقَ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ إنْجازِ الوَعْدِ ونُفُوذِ المَوْعُودِ ، ولَكِنْ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي يُرِيدُ ، فِي الوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ ، وأَمَرَكَ فِي ذَلِكَ بِالصِّدْقِ والتَّصْدِيق ، ونَهاكَ عَنِ الشَّكِّ والتَّرْدِيد ، لِيَكْمُلَ بِذَلِكَ فَتْحُ بَصِيرَتِكَ ، وتَبْتَهِجَ أَنْوارُ سَرِيرَتِكَ ، فَتَرْجَمَ ابنُ عَطاءِ اللهِ ذَلِكَ فِي حِكْمَتِهِ :

(لا يُشَكِّكَنَّكَ فِي الوَعْدِ عَدَمُ وُقُوعِ المَوْعُودِ وإنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ ، لِئَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ قَدْحًا فِي بَصِيرَتِكَ ، وإخْماداً لِنُورِ سَرِيرَتِكَ) :

التَّشْكِيكُ فِي الشَّيْءِ : هُوَ التَّرَدُّدُ فِي الوُقُوعِ وعَدَمِهِ ، والوَعْدُ : الإخْبارُ بِوُقُوعِ الشَّيْءِ فِي مَحَلِّهِ ، والمَوْعُودُ : المُخْبَرُ بِهِ ، والقَدْحُ فِي الشَّيْءِ : التَّنْقِيصُ لَهُ والغَضُّ مِنْ مَرْتَبَتِهِ ، والبَصِيرَةُ : القُوَّةُ المُهَيَّئَةُ لإدْراكِ المَعانِي ، والسَّرِيرَةُ : القُوَّةُ المُسْتَعِدَّةُ لِتَمَكُّنِ العِلْمِ والمَعْرِفَة .

واعْلَمْ أَنَّ النَّفْسَ والعَقْلَ والرُّوحَ والسِّرَّ شَيْءٌ واحِدٌ ، لَكِنْ تَخْتَلِفُ المُسَمَّياتُ بِاخْتِلافِ المَدارِك ؛ فَما كانَ مِنْ مَدارِكِ الشَّهَواتِ فَمَدْرَكُهُ النَّفْسُ ، وما كانَ مِنْ مَدارِكِ الأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ فَمَدْرَكُهُ العَقْلُ ، وما كانَ مِنْ مَدارِكِ التَّجَلِّياتِ والوارِداتِ فَمَدْرَكُهُ الرُّوحُ ، وما كانَ مِنْ مَدارِكِ التَّحْقِيقاتِ والتَّمَكُّناتِ فَمَدْرَكُهُ السِّرُّ ، والمَحَلُّ واحِدٌ ، وإخْمادُ الشَّيْءِ : خَفاؤُهُ بَعْدَ ظُهُورِهِ .

قالَ ابنُ عَجيبَة : إذا وَعَدَكَ الحَقُّ تعالَى بشَيْءٍ عَلَى لِسانِ الوَحْيِ أَوِ الإلْهامِ مِنْ نَبِيٍّ أَوْ وَلِيٍّ أَوْ تَجَلٍّ قَوِيٍّ ، فَلا تَشُكَّ أَيُّها المُرِيدُ فِي ذَلِكَ الوَعْدِ إنْ كُنْتَ صِدِّيقًا ؛ فَإنْ لَمْ يَتَعَيَّنْ زَمَنُهُ فالأَمْرُ واسِع ، وقَدْ يَطُولُ الزَّمانُ وقَدْ يَقْصُرُ ، فَلا تَشُكَّ فِي وُقُوعِهِ وإنْ طالَ زَمَنُهُ ، وقَدْ كانَ بَيْنَ دُعاءِ سَيِّدِنا مُوسَىٰ وهارُونَ (عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعَلَيْهِما أَفْضَلُ الصَّلاةِ وأَزْكَى السَّلام) عَلَى فِرْعَوْنَ بِقَوْلِهِ : ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ (١) أَرْبَعُونَ سَنَةً عَلَى ما قِيلَ ، وإنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ ولَمْ يَقَعْ ذَلِكَ عِنْدَ حُلُولِهِ فَلا تَشُكَّ فِي صِدْقِ ذَلِكَ الوَعْدِ ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُتَرَتِّبًا عَلَى أَسْبابٍ وشُرُوطٍ غَيْبِيَّةٍ أَخْفاها اللهُ تَعالَى عَنْ ذَلِكَ النَّبِيِّ أَوِ الوَلِيِّ لِتَظْهَرَ قَهْرِيَّةُ عِزَّتِهِ وحِكْمَتِهِ .

وتَأَمَّلْ قَضِيَّةَ سَيِّدِنا يُونُسَ عليه السلام حَيْثُ أَخْبَرَ قَوْمَهُ بِالعَذابِ لَمَّا أُخْبِرَ بِهِ ، وفَرَّ عَنْهُمْ ، وكانَ ذَلِكَ مُتَوَقِّفًا عَلَى عَدَمِ إسْلامِهِمْ ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا تَأَخَّرَ عَنْهُمُ العَذاب .

وكَذَلِكَ قَضِيَّةَ سَيِّدِنا نُوحٍ عليه السلام حَيْثُ قالَ : ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ (٢) ، فَوَقَفَ مَعَ ظاهِرِ العُمُومِ ، فَقالَ لَهُ تَعالَى : ﴿إِنَّهُۥ

---

(١) سُورَةُ يُونُس : مِنَ الآيَة ٨٨ .

(٢) سُورَةُ هُود : مِنَ الآيَة ٤٥ .

لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [1] ، ونَحْنُ إنَّما وَعَدْناكَ بِنَجاةِ الصَّالِحِ مِنْ أَهْلِكَ ، وإنْ فَهِمْتَ العُمُومَ فَعِلْمُنا مُتَّسِع .

ولِهَذا السِّرِّ الخَفِيِّ كانَ الرُّسُلُ - عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ - وأَكابِرُ الصِّدِّيقِينَ لا يَقِفُونَ مَعَ ظاهِرِ الوَعْدِ ، فَلا يَزُولُ اضْطِرارُهُمْ ولا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللهِ قرارُهُمْ ، بَلْ يَنْظُرُونَ لِسَعَةِ عِلْمِهِ تَعالَى ونُفُوذِ قَهْرِهِ ، ومِنْهُ قَوْلُ سَيِّدِنا إبْراهِيمَ الخَلِيلِ عليه السلام : ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [2] .

وقَوْلُ سَيِّدِنا شُعَيْب عليه السلام : ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ [3] أَيْ : فِي مِلَّةِ الكُفْرِ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [4] .

وقَضِيَّةُ نَبِيِّنا صلى الله عليه وسلم يَوْمَ بَدْرٍ ؛ حَيْثُ دَعا حَتَّى سَقَطَ رِداؤُهُ ، وقالَ : (اللَّهُمَّ عَهْدَكَ ووَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصابَةُ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْم) ، فَقالَ لَهُ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه : حَسْبُكَ يا رَسُولَ اللهِ ؛ فَإنَّ اللهَ مُنْجِزٌ لَكَ ما وَعَدَك .

---

(١) سُورَةُ هُود : مِنَ الآيَة ٤٦ .
(٢) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ٨٠ .
(٣)،(٤) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ٨٩ .

فَنَظَرُ المُصْطَفَىٰ ﷺ أَوْسَعُ لِعَدَم وُقُوفِهِ مَعَ ظاهِرِ الوَعْدِ ، ووَقَفَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه مَعَ الظَّاهِر ، فَكُلٌّ عَلَى صَواب ، والنَّبِيُّ ﷺ أَوْسَعُ نَظَراً ، وأَكْمَلُ عِلْمًا .

وأَمَّا قَضِيَّةُ الحُدَيْبِيَة : فَلَمْ يَتَعَيَّنْ فِيها زَمَنُ الوَعْدِ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ (١) ، وقَدْ قالَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - لِسَيِّدِنا عُمَرَ حِينَ قالَ لَهُ : أَلَمْ تُخْبِرْنا أَنَّا نَدْخُلُ مَكَّة ؟ فَقالَ لَهُ ﷺ : (أَقُلْتُ لَكَ هَذا العامَ ؟) ، فَقالَ رضي الله عنه : لا ، فَقالَ ﷺ : (إِنَّكَ داخِلُها ومُطَّوِّفٌ بها) .

فَشُدَّ يَدَكَ يا أَخِي عَلَى تَصْدِيقِ ما وَعَدَكَ اللهُ بِهِ ، وحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ وبِأَوْلِيائِهِ ، ولا سِيَّما شَيْخَكَ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُضْمِرَ التَّكْذِيبَ أَوِ الشَّكَّ ، فَيَكُونَ ذَلِكَ قَدْحًا فِي بَصِيرَتِكَ ، وقَدْ يَكُونُ سَبَبًا فِي طَمْسِها ، ويَكُونُ أَيْضًا إِخْماداً ، أَيْ : إِخْفاءً وإِطْفاءً لِنُورِ سَرِيرَتِكَ ، فَتَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ جِئْتَ ، وتَهْدِمُ كُلَّ ما بَنَيْتَ ، فانْظُرْ أَحْسَنَ التَّأْوِيلات ، والْتَمِسْ أَحْسَنَ المَخارِج .

وقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُ مَشايِخِنا رضي الله عنهم : ((نَحْنُ إِذا قُلْنا شَيْئًا فَخَرَجَ فَرِحْنا

---

(١) سُورَةُ الفَتْح : مِنَ الآيَة ٢٧ .

مَرَّةً ، وإذا لَمْ يَخْرُجْ فَرِحْنا عَشْرَ مَرَّات)) ؛ وما ذاكَ إلَّا لِوُسَعِ نَظَرِهِمْ وتَمَكُّنِهِمْ فِي مَعْرِفَةِ رَبِّهِمْ ، وأَيْضًا قَدْ يُطْلِعُ أَوْلِياءَهُ عَلَى نُزُولِ القَضاء ، ولا يُطْلِعُهُمْ عَلَى نُزُولِ اللُّطْفِ ، فَيُنْزِلُ ذَلِكَ القَضاءَ مَصْحُوبًا بِاللُّطْفِ فَيَنْزِلُ خَفِيفًا سَهْلًا حَتَّى يُظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يَنْزِل .

وقَدْ شَهِدْنا هَذا وما قَبْلَهُ مِنْ أَنْفُسِنا ومِنْ أَشْياخِنا ﷺ فَلَمْ يُنْقِصْ صِدْقَنا ، ولَمْ يُخْمِدْ سَرِيرَتَنا ، فَالحَمْدُ لِلّهِ رَبِّنا .

تَنْبِيه : كَلامُنا مَعَ المُرِيدِينَ الصِّدِّيقِينَ السَّائِرِينَ أَوِ الواصِلِينَ ، وهُمْ مُطالَبُونَ بِالتَّصْدِيقِ للأَشْياخِ فِي كُلِّ ما نَطَقُوا بِهِ ؛ إذْ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ ، فَهُمْ عَلَى قَدَمِهِمْ ، فَلِلْأَنْبِياءِ وَحْيُ الأَحْكام ، وللأَوْلِياءِ وَحْيُ الإلْهام ، لأَنَّ القُلُوبَ إذا صَفَتْ مِنَ الأَكْدارِ والأَغْيارِ ، ومُلِئَتْ بِالأَنْوارِ والأَسْرارِ ، لا يَتَجَلَّى فِيها إلَّا الحَقُّ ، فَإذا نَطَقُوا بِشَيْءٍ مِنْ وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَجِبُ عَلَى المُرِيدِ تَصْدِيقُهُ ، فَإذا دَخَلَهُ تَشْكِيكٌ أَوْ تَرَدُّدٌ فِيما وَعَدَهُ اللّهُ عَلَى لِسانِ نَبِيِّهِ أَوْ شَيْخِهِ قَدَحَ ذَلِكَ فِي نُورِ بَصِيرَتِهِ وأَخْمَدَ سَرِيرَتَهُ ، فَإذا لَمْ يُعَيَّنْ زَمَنُهُ انْتَظَرَ وُقُوعَهُ وإنْ طالَ ، وإنْ عُيِّنَ زَمَنُهُ ولَمْ يَقَعْ تَأَوَّلَ فِيهِ ما تَقَدَّمَ فِي حَقِّ الرُّسُلِ ؛ مِنْ تَوَقُّفِهِ عَلَى أَسْبابٍ وشُرُوطٍ خَفِيَّة ، وبِهَذا فَرَّقُوا بَيْنَ الصِّدِّيقِ والصَّادِقِ ؛ لأَنَّ الصِّدِّيقَ لا

يَتَرَدَّدُ ولا يَتَعَجَّبُ ، والصَّادِقُ يَتَرَدَّدُ ثُمَّ يَجْزِمُ ، وإِنْ رَأَى خَرْقَ عادَةٍ تَعَجَّبَ واسْتَغْرَبَ ، واللهُ تَعالَى أَعْلَم .

ولَمَّا كانَتِ التَّعَرُّفاتُ القَهْرِيَّةُ ظاهِرُها جَلالٌ ، وباطِنُها جَمالٌ ، لِما يَعْقُبُها مِنْ أَوْصافِ الكَمالِ ، ورُبَّما يَشُكُّ المُرِيدُ فِيما وَعَدَ الحَقُّ عَلَيْها مِنَ الخَيْراتِ ، وما رَتَّبَ عَلَيْها مِنَ الفُتُوحاتِ ، نَبَّهَ ابنُ عطاءِ اللهِ عَلَى ذَلِكَ فِي حِكْمَتِهِ فَقالَ :

(**إذا فَتَحَ لَكَ وِجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ فَلا تُبالِ مَعَها إِنْ قَلَّ عَمَلُكَ ، فَإِنَّهُ ما فَتَحَها لَكَ إِلَّا وهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ، والأَعْمالَ أَنْتَ مُهْدِيها إِلَيْهِ ؟ وأَيْنَ ما تُهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ؟**) :

فَتَحَ هُنا بِمَعْنَى : هَيَّأَ ويَسَّرَ ، والغالِبُ اسْتِعْمالُهُ فِي الخَيْرِ ، فَأَشْعَرَ الإِتْيانُ بِهِ هُنا أَنَّ جِهَةَ التَّعْرِيفِ مِنَ الأُمُورِ الجَمِيلَة ، **والوِجْهَةُ** : هِيَ الجِهَةُ ، والمُرادُ هُنا : البابُ والمَدْخَلُ ، **والتَّعْرِيفُ** : طَلَبُ المَعْرِفَةِ ، تَقُولُ : تَعَرَّفَ لِي فُلانٌ إِذا طَلَبَ مِنِّي مَعْرِفَتَهُ ، **والمَعْرِفَةُ** : تَمَكُّنُ حَقِيقَةِ العِلْمِ بِالمَعْرُوفِ مِنَ القَلْبِ حَتَّى لا يُمْكِنَ الانْفِكاكُ عَنْهُ بِحالٍ ، **والمُبالاةُ** : التَّهَمُّمُ بِفَواتِ الشَّيْءِ .

قالَ ابنُ عَجيبَة : إذا تَجلَّى لَكَ الحَقُّ تعالَى باسْمِهِ الجَلِيل ، أَوْ باسْمِهِ القَهَّار ، وفَتَحَ لَكَ مِنْها بابًا ووِجْهَةً لِتَعْرِفَهُ مِنْها ، فاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ تعالَى قَدِ اعْتَنَى بِكَ وأَرادَ أَنْ يَجْتَبِيَكَ لِقُرْبِهِ ، ويَصْطَفِيَكَ لِحَضْرَتِهِ ، فالْتَزِم الأَدَبَ مَعَهُ بالرِّضا والتَّسْلِيم ، وقابِلْهُ بالفَرَحِ والسُّرُور ، ولا تُبالِ بما يَفُوتُكَ بِها مَعَها مِنْ نَوافِلِ الأَعْمالِ البَدَنِيَّةِ فَإِنَّما هِيَ وَسِيلَةٌ للأَعْمالِ القَلْبِيَّة ، فَإِنَّهُ ما فَتَحَ هَذا البابَ إِلَّا وهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَرْفَعَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ الحِجاب ؛ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفاتِ الجَلالِيَّةَ هُوَ الَّذي أَوْرَدَها عَلَيْكَ لِتَكُونَ عَلَيْهِ وارِدًا ، والأَعْمالَ البَدَنِيَّةَ أَنْتَ مُهْدِيها إِلَيْهِ لِتَكُونَ إِلَيْهِ بِها واصِلًا ، وفَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ ما تُهْدِيهِ أَنْتَ مِنَ الأَعْمالِ المَدْخُولَةِ والأَحْوالِ المَعْلُولَةِ ، وبَيْنَ ما يُورِدُهُ عَلَيْكَ الحَقُّ تعالَى مِنْ تُحَفِ المَعارِفِ الرَّبَّانِيَّةِ والعُلُومِ اللَّدُنِيَّةِ ، فَطِبْ نَفْسًا أَيُّها المُرِيدُ بِما يَنْزِلُ عَلَيْكَ مِنْ هَذِهِ التَّعَرُّفاتِ الجَلالِيَّةِ والنَّوازِلِ القَهْرِيَّةِ ، ومِثْلِ ذَلِكَ كالأَمْراضِ والأَوْجاعِ والشَّدائِدِ والأَهْوالِ وكُلِّ ما يَثْقُلُ عَلَى النَّفْسِ ويُؤْلِمُها كالفَقْرِ والذُّلِّ وأَذِيَّةِ الخَلْقِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَكْرَهُهُ النُّفُوس ، فَكُلُّ ما يَنْزِلُ بِمُرِيدِ الحَقِّ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ المُبْتَلَى بِها الخَلْق ، فَهِيَ نِعَمٌ كَبِيرَةٌ ومَواهِبُ عَزِيزَةٌ تَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ صِدْقِكَ ؛ إِذْ بِقَدْرِ ما يَعْظُمُ

الصِّدْقُ يَعْظُمُ التَّعَرُّفُ : (أَشَدُّكُمْ بَلاءً الأَنْبِياءُ ، فالأَمْثَلُ) .

وكانَ مَولانا العَرَبي الدَّرْقاوي يَقُولُ : ((العَجَبُ كُلُّ العَجَبِ مِمَّنْ يَطْلُبُ مَعْرِفَةَ اللهِ ويَحْرِصُ عَلَيْها فَإِذا تَعَرَّفَ لَهُ الحَقُّ تَعالَى هَرَبَ مِنْهُ وأَنْكَرَهُ)) .

وقالَ الشَّيْخُ اليَزِيدِي : ((هَذِهِ التَّعَرُّفاتُ الجَلالِيَّةُ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ : قِسْمٌ عُقُوبَةٌ وطَرْدٌ ، وقِسْمٌ تَأْدِيبٌ وتَنْبِيهٌ ، وقِسْمٌ زِيادَةٌ وتَرَقٍّ)) .

أَمَّا الَّذِي هُوَ عُقُوبَةٌ وطَرْدٌ فَهُوَ الَّذِي يُسِيءُ الأَدَبَ فَيُعاقِبُهُ الحَقُّ تَعالَى ، فَيَسْخَطُ ويَقْنَطُ ويُنْكِرُ ، فَيَزْدادُ مِنَ اللهِ طَرْداً وبُعْداً .

وأَمَّا القِسْمُ الَّذِي هُوَ تَأْدِيبٌ ؛ فَهُوَ الَّذِي يُسِيءُ الأَدَبَ ، فَيُؤَدِّبُهُ الحَقُّ تَعالَى ، فَيَعْرِفُهُ فِيها ، ويَنْتَبِهُ لِسُوءِ أَدَبِهِ ، ويَنْهَضُ مِنْ غَفْلَتِهِ ، فَهِيَ فِي حَقِّهِ نِعْمَةٌ فِي مَظْهَرِ النِّقْمَةِ .

وأَمَّا الَّذِي هِيَ فِي حَقِّهِ زِيادَةٌ وتَرَقٍّ ؛ فَهُوَ الَّذِي تَنْزِلُ بِهِ هَذِهِ التَّعَرُّفاتُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ ، فَيَعْرِفُ فِيها ، ويَتَأَدَّبُ مَعَها ، ويَتَرَقَّى بِها إِلَى مَقامِ الرُّسُوخِ والتَّمْكِينِ) .

ولِذَلِكَ قالَ بَعْضُهُمْ : ((بِقَدْرِ الامْتِحانِ يَكُونُ الامْتِكانِ)) .

وقالُوا أَيْضًا : ((اخْتِبارُ الباقِي يَقْطَعُ التَّباقِي)) .

فائِدَةٌ : إذا أَرَدْتَ أَنْ يَسْهُلَ عَلَيْكَ الجَلالُ فَقابِلْهُ بِضِدِّهِ وهُوَ الجَمالُ ؛ فَإِنَّهُ يَنْقَلِبُ جَمالًا فِي ساعَتِهِ ، وكَيْفِيَّةُ ذَلِكَ : أَنَّهُ إذا تَجَلَّى باسْمِهِ القابِضِ فِي الظَّاهِرِ فَقابِلْهُ أَنْتَ بِالبَسْطِ فِي الباطِنِ فَإِنَّهُ يَنْقَلِبُ بَسْطًا ، وإذا تَجَلَّى لَكَ باسْمِهِ القَوِيِّ فَقابِلْهُ بِالضَّعْفِ ، أَوْ تَجَلَّى باسْمِهِ العَزِيزِ فَقابِلْهُ بِالذُّلِّ فِي الباطِنِ ، وهَكَذا يُقابَلُ الشَّيْءُ بِضِدِّهِ قِيامًا بِالقُدْرَةِ والحِكْمَةِ .

وكانَ الشَّيْخُ العَرَبِي الدَّرْقاوِي يَقُولُ : ((ما هِيَ إِلَّا حَقِيقَةٌ واحِدَة ، إِنْ شَرِبْتَها عَسَلًا وَجَدْتَها عَسَلًا ، وإِنْ شَرِبْتَها لَبَنًا وَجَدْتَها لَبَنًا ، وإِنْ شَرِبْتَها حَنْظَلًا وَجَدْتَها حَنْظَلًا ، فاشْرَبْ يا أَخِي المَلِيح ، ولا تَشْرَبِ القَبِيح)) .

ومَعْنَى كَلامِهِ هُوَ كَما تَقَدَّمَ كَما تُقابِلُهُ يُقابِلُكَ ، واللَّهُ تَعالَى أَعْلَم .

ولَمَّا تَكَلَّمَ ابنُ عَطاءِ اللَّهِ عَلَى الأَعْمالِ وثَمَراتِها ، وهُوَ الأَدَبُ ومَرْجِعُهُ إِلَى السُّكُونِ تَحْتَ مَجارِي الأَقْدارِ مِنْ غَيْرِ تَدْبِيرٍ ولا اخْتِيارٍ ولا تَعْجِيلٍ لِما تَأَخَّرَ ولا تَأْخِيرٍ لِما تَعَجَّلَ ، بَلْ يَكُونُ مَحَطُّ نَظَرِهِ لِما يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرِ القُدْرَةِ فَيَتَلَقَّاهُ بِالمَعْرِفَةِ ، تَكَلَّمَ رضي الله عنه عَلَى تَنْوِيعِها وتَهْذِيبِها بِتَهْذِيبِ عامِلِها ، فَقالَ :

(تَنَوَّعَتْ أَجْناسُ الأَعْمالِ بِتَنَوُّعِ وارِداتِ الأَحْوالِ):

تَنْوِيعُ الشَّيْءِ : تَكْثِيرُهُ . **والأَعْمالُ هُنا** : عِبارَةٌ عَنْ حَرَكَةِ الجِسْم .

والوارِداتُ والأَحْوالُ : عِبارَةٌ عَنْ حَرَكَةِ القَلْب .

فالخاطِرُ والوارِدُ والحالُ مَحَلُّها واحِدٌ وهُوَ القَلْبُ ، لَكِنْ ما دامَ القَلْبُ تَخْطُرُ فِيهِ الخَواطِرُ الظُّلْمانِيَّةُ والنُّورانِيَّةُ سُمِّيَ ما يَخْطُرُ فِيهِ خاطِراً ، وإِنِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ الخَواطِرُ الظُّلْمانِيَّةُ سُمِّيَ ما يَخْطُرُ فِيهِ وارِداً أَوْ حالا ، فَإِضافَةُ أَحَدِهِما إِلَى الآخَرِ إِضافَةٌ بَيانِيَّةٌ وكِلاهُما يَتَحَوَّلانِ ، فَإِنْ دامَ ذَلِكَ سُمِّيَ مَقامًا .

قالَ ابنُ عَجيبَة : قَدْ تَنَوَّعَتْ أَجْناسُ الأَعْمالِ الظَّاهِرَةِ بِتَنَوُّعِ الأَحْوالِ الباطِنَةِ ؛ فَأَعْمالُ الجَوارِحِ تابِعَةٌ لأَحْوالِ القُلُوبِ ، فَإِنْ وَرَدَ عَلَى القَلْبِ قَبْضٌ ظَهَرَ عَلَى الجَوارِحِ أَثَرُهُ مِنَ السُّكُونِ ، وإِنْ وَرَدَ عَلَيْهِ بَسْطٌ ظَهَرَ عَلَى الجَوارِحِ أَثَرُهُ مِنَ الخِفَّةِ والحَرَكَةِ ، وإِنْ وَرَدَ عَلَى القَلْبِ زُهْدٌ وَوَرَعٌ ظَهَرَ عَلَى الجَوارِحِ أَثَرُهُ وهُوَ تَرْكٌ وإِحْجامٌ ، أَيْ : تَأَخُّرٌ ، وإِنْ وَرَدَ عَلَى القَلْبِ رَغْبَةٌ وحِرْصٌ ظَهَرَ عَلَى الجَوارِحِ أَثَرُهُ وهُوَ كَدٌّ وتَعَبٌ ، وإِنْ وَرَدَ عَلَى القَلْبِ مَحَبَّةٌ وشَوْقٌ ظَهَرَ عَلَى الجَوارِحِ أَثَرُهُ وهُوَ شَطْحٌ ورَقْصٌ ، وإِنْ وَرَدَ عَلَى القَلْبِ مَعْرِفَةٌ وشُهُودٌ ظَهَرَ عَلَى الجَوارِحِ أَثَرُهُ وهُوَ راحَةٌ ورُكُودٌ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحْوالِ وما يَنْشَأُ عَنْها مِنَ الأَعْمالِ .

وقَدْ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الأَحْوالُ عَلَى قَلْبٍ واحِدٍ فَيَتَلَوَّنُ الظَّاهِرُ فِي أَعْمالِهِ ، وقَدْ يَغْلِبُ عَلَى قَلْبٍ واحِدٍ حالٌ واحِدٌ فَيَظْهَرُ عَلَيْهِ أَثَرٌ واحِدٌ ؛ فَقَدْ يَغْلِبُ عَلَى الشَّخْصِ القَبْضُ فَيَكُونُ مَقْبُوضًا فِي الغالِبِ ، وقَدْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ البَسْطُ كَذَلِكَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحْوالِ .

وفِي الحَدِيثِ : (إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وإِذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلا وهِيَ القَلْبُ) .

ولأَجْلِ هَذا المَعْنَى اخْتَلَفَتْ أَحْوالُ الصُّوفِيَّةِ ؛ فَمِنْهُمْ عُبَّادٌ ، ومِنْهُمْ زُهَّادٌ ، ومِنْهُمُ الوَرِعُونَ ، والمُرِيدُونَ ، والعارِفُون .

قالَ الشَّيْخُ زَرُّوق فِي قَواعِدِهِ : ((النُّسُكُ : الأَخْذُ بِكُلِّ مَسْلَكٍ مِنَ الفَضائِلِ مِنْ غَيْرِ مُراعاةٍ لِغَيْرِ ذَلِكَ ، فَإِنْ رامَ التَّحْقِيقَ فِي ذَلِكَ ؛ أَي : النُّسُكُ فَهُوَ العابِدُ ، وإِنْ مالَ للأَخْذِ بِالأَحْوالِ فَهُوَ الوَرِعُ ، وإِنْ آثَرَ جانِبَ التَّرْكِ طالِبًا للسَّلامَةِ فَهُوَ الزَّاهِدُ ، وإِنْ أَرْسَلَ نَفْسَهُ فِي مُرادِ الحَقِّ فَهُوَ العارِفُ ، وإِنْ أَخَذَ بِالتَّخَلُّقِ والتَّعَلُّقِ فَهُوَ المُرِيدُ)) .

وقالَ فِي قاعِدَةٍ أُخْرَى : ((لا يَلْزَمُ مِنَ اخْتِلافِ المَسالِكِ اخْتِلافُ المَقاصِدِ ، بَلْ يَكُونُ مُتَّحِداً مَعَ اخْتِلافِ مَسالِكِهِ ؛ كالعِبادَةِ والزَّهادَةِ والمَعْرِفَةِ مَسالِكُ لِقُرْبِ الحَقِّ عَلَى سَبِيلِ الكَرامَةِ ، وكُلُّها مُتَداخِلَةٌ :

فَلا بُدَّ للعارِفِ مِنْ عِبادَةٍ وإلَّا فَلا عِبْرَةَ بِمَعْرِفَتِهِ إذْ لَمْ يَعْبُدْ مَعْرُوفَهُ ، ولا بُدَّ لَهُ مِنْ زَهادَةٍ وإلَّا فَلا حَقِيقَةَ عِنْدَهُ إذْ لَمْ يُعْرِضْ عَمَّا سِواهُ ، ولا بُدَّ للعابِدِ مِنْهُما إذْ لا عِبادَةَ إلَّا بِمَعْرِفَةٍ ، أَيْ : فِي الجُمْلَةِ ، ولا فَراغَ للعِبادَةِ إلَّا بِزُهْدٍ ، والزَّاهِدُ كَذَلِكَ ؛ إذْ لا زُهْدَ إلَّا بِمَعْرِفَةٍ ؛ أَيْ : فِي الجُمْلَةِ ، ولا زُهْدَ إلَّا بِعِبادَةٍ وإلَّا عادَ بَطالَةً ، نَعَمْ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ العَمَلُ فَعابِدٌ ، أَوِ التَّرْكُ فَزاهِدٌ ، أَوِ النَّظَرُ لِتَصْرِيفِ الحَقِّ فَعارِفٌ ، والكُلُّ صُوفِيَّةٌ)) .

ولَمَّا كانَ الإخْلاصُ شَرْطًا فِي كُلِّ عَمَلٍ ، ذَكَرَهُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِأَثَرِهِ ، فَقالَ :

(الأَعْمالُ صُوَرٌ قائِمَةٌ ، وأَرْواحُها وُجُودُ سِرِّ الإخْلاصِ فِيها) :

الأَعْمالُ هُنا : عِبارَةٌ عَنِ الحَرَكَةِ الجِسْمانِيَّةِ أَوِ القَلْبِيَّةِ ، **والصُّوَرُ** : جَمْعُ صُورَةٍ ، وهُوَ ما يَتَشَخَّصُ فِي الذِّهْنِ مِنَ الكَيْفِيَّاتِ ، **والرُّوحُ** : السِّرُّ المُودَعُ فِي الحَيوانات ، وهُوَ هُنا عِبارَةٌ عَمَّا يَقَعُ بِهِ الكَمالُ المُعْتَبَرُ فِي الأَعْمال ، **والإخْلاصُ** : إفْرادُ القَلْبِ لِعِبادَةِ الرَّبِّ ، **وسِرُّهُ** : لُبُّهُ ، وهُوَ الصِّدْقُ المُعَبَّرُ عَنْهُ بِالتَّبَرِّي مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ ؛ إذْ لا يَتِمُّ إلَّا بِهِ ، وإنْ صَحَّ دُونَهُ ؛ إذِ الإخْلاصُ نَفْيُ الرِّياءِ والشِّرْكِ الخَفِيِّ ، **وسِرُّهُ** : نَفْيُ

العُجْبِ ومُلاحَظَةِ النَّفْسِ ، والرِّياءُ قادِحٌ فِي صِحَّةِ العَمَلِ ، والعُجْبُ قادِحٌ فِي كَمالِهِ فَقَطْ ، قالَ ابنُ عَجيبَة : الأَعْمالُ كُلُّها أَشْباحٌ وأَجْسادٌ ، وأَرْواحُها وُجُودُ الإِخْلاصِ فِيها ، فَكَما لا قِيامَ للأَشْباحِ إِلَّا بِالأَرْواحِ ، وإِلَّا كانَتْ مَيِّتَةً ساقِطَةً ، كَذَلِكَ لا قِيامَ للأَعْمالِ البَدَنِيَّةِ والقَلْبِيَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ الإِخْلاصِ فِيها ، وإِلَّا كانَتْ صُوَراً قائِمَةً وأَشْباحًا خاوِيَةً لا عِبْرَةَ بِها ، قالَ تَعالَى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ (١) وقالَ سُبْحانَهُ : ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ (٢).

وقالَ ﷺ حاكِيًا عَنِ اللهِ تَعالَى يَقُولُ : (أَنا أَغْنَى الشُّرَكاءِ ، مَنْ أَشْرَكَ مَعِي غَيْرِي ، تَرَكْتُهُ وشَرِيكَهُ) .

وقالَ ﷺ : (أَخْوَفُ ما أَخافُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكُ الخَفِيُّ ، وهُوَ الرِّياءُ) .

وفِي حَدِيثٍ مُسَلْسَلٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ :

(أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الإِخْلاصِ ، فَقالَ : حَتَّى أَسْأَلَ جِبْرِيلَ ، فَلَمَّا سَأَلَهُ قالَ : حَتَّى أَسْأَلَ رَبَّ العِزَّةِ ، فَلَمَّا سَأَلَهُ قالَ لَهُ : هُوَ سِرٌّ مِنْ أَسْرارِي ، أُودِعُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبادِي ، لا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكْتُبَهُ ، ولا شَيْطانٌ فَيُفْسِدَهُ) .

---

(١) سُورَةُ البَيِّنَة : مِنَ الآيَة ٥ . (٢) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٢ .

قالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ مَقامُ الإِحْسان : (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ) .

والإِخْلاصُ عَلَى ثَلاثِ دَرَجاتٍ : دَرَجَةُ العَوامِّ ، والخَواصِّ ، وخَواصِّ الخَواص .

فَإِخْلاصُ العَوامِّ : هُوَ إِخْراجُ الخَلْقِ مِنْ مُعامَلَةِ الحَقِّ ، مَعَ طَلَبِ الحُظُوظِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ ، كَحِفْظِ البَدَنِ والمالِ وسَعَةِ الرِّزْقِ والقُصُورِ والحُور .

وإِخْلاصُ الخَواصِّ : طَلَبُ الحُظُوظِ الأُخْرَوِيَّةِ دُونَ الدُّنْيَوِيَّة .

وإِخْلاصُ خَواصِّ الخَواصِّ : إِخْراجُ الحُظُوظِ بِالكُلِّيَّةِ ؛ فَعِبادَتُهُمْ تَحْقِيقُ العُبُودِيَّة ، والقِيامُ بِوَظائِفِ الرُّبُوبِيَّة ، أَوْ مَحَبَّةً وشَوْقًا إِلَى رُؤْيَتِهِ كَما قالَ ابنُ الفارِض :

لَيْسَ سُؤْلِي مِنَ الْجِنَانِ نَعِيمًا ❁ غَيْرَ أَنِّي أُحِبُّها لأَرَاكَا

وقالَ آخَرُ :

كُلُّهُمْ يَعْبُدُونَ مِنْ خَوْفِ نارٍ ❁ وَيَرَوْنَ النَّجَاةَ حَظًّا جَزِيلَا

أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الْجِنَانَ فَيُضْحُوا ❁ فِي رِياضٍ وَيَشْرَبُوا السَّلْسَبِيلَا

لَيْسَ لِي فِي الْجِنَانِ وَالنَّارِ رَأْيٌ ❁ أَنَا لا أَبْتَغِي بِحُبِّي بَدِيلَا

قالَ الشَّيْخُ أَبو طالِب : ((الإِخْلاصُ عِنْدَ المُخْلِصِينَ إِخْراجُ الخَلْقِ مِنْ مُعامَلَةِ الحَقِّ ، وأَوَّلُ الخَلْقِ النَّفْسُ)) .

والإِخْلاصُ عِنْدَ المُحِبِّينَ : أَلَّا يَعْمَلُوا عَمَلًا لأَجْلِ النَّفْسِ ، وإِلَّا دَخَلَ عَلَيْها مُطالَعَةُ العِوَضِ ، أَوِ المَيْلُ إِلَى حَظِّ النَّفْسِ .

والإِخْلاصُ عِنْدَ المُوَحِّدِينَ : خُرُوجُ الخَلْقِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ فِي الأَفْعالِ ، و عَدَمُ السُّكُونِ والاسْتِراحَةِ إِلَيْهِمْ فِي الأَحْوالِ .

وقالَ بَعْضُ المَشايِخِ : صَحِّحْ عَمَلَكَ بِالإِخْلاصِ ، وصَحِّحْ إِخْلاصَكَ بِالتَّبَرِّي مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ .

وقالَ بَعْضُ العارِفِينَ : لا يَتَحَقَّقُ الإِخْلاصُ حَتَّى يَسْقُطَ مِنْ عَيْنِ النَّاسِ ، ويُسْقِطَ النَّاسَ مِنْ عَيْنِهِ ؛ ولِذَلِكَ قالَ آخَرُ : كُلَّما سَقَطْتَ مِنْ عَيْنِ الخَلْقِ ، عَظُمْتَ فِي عَيْنِ الحَقِّ ، وكُلَّما عَظُمْتَ فِي عَيْنِ الخَلْقِ ، سَقَطْتَ مِنْ عَيْنِ الحَقِّ ؛ يَعْنِي : مَعَ مُلاحَظَتِهِمْ ومُراقَبَتِهِمْ .

وسَمِعْتُ شَيْخَنا يَقُولُ : ((ما دامَ العَبْدُ يُراقِبُ النَّاسَ ويَهابُهُمْ لا يَتَحَقَّقُ إِخْلاصُهُ أَبَدًا)) .

والحاصِلُ : لا يُمْكِنُ الخُرُوجُ مِنَ النَّفْسِ والتَّخَلُّصُ مِنْ دَقائِقِ الرِّياءِ مِنْ غَيْرِ شَيْخٍ أَبَدًا .

ولَمَّا كانَ الخُمُولُ مِنْ مَضامِنِ الإِخْلاصِ ، بَلْ لا يَتَحَقَّقُ فِي الغالِبِ إِلَّا بِهِ ؛ إِذْ لا حَظَّ فِيهِ لِلنَّفْسِ ، ذَكَرَهُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بَعْدَهُ فَقالَ فِي حِكَمِهِ :

(ادْفِنْ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ الخُمُولِ ، فَما نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ ، لا يَتِمُّ نِتاجُه) :

الدَّفْنُ : هُوَ التَّغْطِيَةُ والسَّتْرُ ، **والخُمُولُ** : سُقُوطُ المَنْزِلَةِ عِنْدَ النَّاس ، **ونِتاجُ الشَّجَرَةِ** : ثَمَرَتُها ؛ اسْتُعِيرَ هُنا للحِكَم والمَواهِبِ والعُلُومِ الَّتِي يَجْتَنِيها العَبْدُ مِنَ المَعْرِفَةِ باللّه ، وذَلِكَ عِنْدَ مَوْتِ نَفْسِهِ وحَياةِ رُوحِه .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : ((اسْتُرْ نَفْسَكَ أَيُّها المُرِيدُ وادْفِنْها فِي أَرْضِ الخُمُولِ حَتَّى تَسْتَأْنِسَ بِهِ وتَسْتَحْلِيَهُ ، ويَكُونَ عِنْدَها أَحْلَى مِنَ العَسَل ، ويَصِيرَ الظُّهُورُ عِنْدَها أَمَرَّ مِنَ الحَنْظَل ، فَإِذا دَفَنْتَها فِي أَرْضِ الخُمُولِ ، وامْتَدَّتْ عُرُوقُها فِيهِ ، فَحِينَئِذٍ تَجْنِي ثَمَرَتَها ، ويَتِمُّ لَكَ نِتاجُها ، وهُوَ سِرُّ الإِخْلاصِ والتَّحَقُّقُ بِمَقامِ خَواصِّ الخَواصِّ ، وأَمَّا إِذا لَمْ تَدْفِنْها فِي أَرْضِ الخُمُولِ ، وتَرَكْتَها عَلَى ظَهْرِ الشُّهْرَةِ تَجُولُ ، ماتَتْ شَجَرَتُها ، أَوْ أُسْقِطَتْ ثَمَرَتُها ، فَإِذا جَنَى العارِفُونَ ما غَرَسُوهُ مِنْ جَنَّاتِ مَعارِفِهِمْ مِنَ العُلُومِ ، وما دَفَنُوهُ مِنْ كُنُوزِ الحِكَمِ ومَخازِنِ الفُهُومِ ، بَقِيتَ أَنْتَ فَقِيراً سائِلًا ، أَوْ سارِقًا صائِلا)) .

قالَ سَيِّدُنا عِيسَىٰ عليه السلام لأَصْحابِهِ : ((أَيْنَ تَنْبُتُ الحَبَّةُ ؟ قالُوا : فِي الأَرْض ، قالَ : كَذَلِكَ الحِكْمَةُ ، لا تَنْبُتُ إِلَّا فِي القَلْبِ كالأَرْض)) .

وقالَ بَعْضُ العارِفِين : كُلَّما دَفَنْتَ نَفْسَكَ أَرْضًا أَرْضًا ، سَما قَلْبُكَ سَماءً سَماءً .

وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :(رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ تَنْبُو عَنْهُ أَعْيُنُ النَّاسِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ فِي قَسَمِهِ) .

وكانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ جالِسًا مَعَ الأَقْرَعِ بنِ حابِسٍ كَبِيرِ بَنِي تَمِيم ، فَمَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ فُقَراءِ المُسْلِمِينَ ، فَقالَ ﷺ للأَقْرَعِ بنِ حابِسٍ : (ما تَقُولُ فِي هَذا ؟)فَقالَ : هَذا يا رَسُولَ اللهِ مِنْ فُقَراءِ المُسْلِمِينَ ، حَقِيقٌ إِنْ خَطَبَ أَلَّا يُزَوَّجَ ، وإِنِ اسْتَأْذَنَ أَلَّا يُؤْذَنَ لَهُ ، وإِنْ قالَ أَلَّا يُسْمَعَ لَهُ ، ثُمَّ مَرَّ بِهِما رَجُلٌ مِنَ المُتْرَفِينَ ، فَقالَ لَهُ ﷺ : (وما تَقُولُ فِي هَذا ؟)فَقالَ : هَذا حَقِيقٌ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُزَوَّجَ ، وإِنِ اسْتَأْذَنَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ ، وإِنْ قالَ أَنْ يُسْمَعَ لَهُ ، فَقالَ ﷺ : (هَذا - يَعْنِي الفَقِيرَ - خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِنْ هَذا) .

والخُلاصَةُ أَنَّ الخُمُولَ هُوَ كَما قالَ الشَّيْخُ زَرُّوق : تَحَقُّقُ النَّفْسِ بِوَصْفِها الأَدْنَى ، وشُعُورُها بِهِ أَبَداً ، ووَصْفُها الأَدْنَى هُوَ الذُّلُّ وكُلُّ ما يَثْقُلُ عَلَيْها ، فَمَرْجِعُهُ للتَّحْقِيقِ بِوَصْفِ التَّواضُع ، وفائِدَتُهُ تَحْصِيلُ العَمَلِ وكَمالُ الحَقِيقَة .

فَإِنْ قُلْتَ : فِي فِعْلِ هَذِهِ الأَحْوالِ التَّعَرُّضُ لِكَلامِ النَّاسِ ، وإِيقاعُهُمْ فِي الغِيبَة .

فالجَوابُ : هَذا مَبْنِيٌّ عَلَى القَصْدِ والنِّيَّة ، وكُلُّ مَنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّما قَصْدُهُ تَزْكِيَةُ نَفْسِهِ ، وتَحْقِيقُ إِخْلاصِهِ ، ودَواءُ قَلْبِهِ ، وهُمْ مُسامِحُونَ لِمَنْ قالَ فِيهِمْ ، عاذِرُونَ لَهُ .

قالَ الشَّيْخُ زَرُّوق فِي قَواعِدِهِ : ((حُكْمُ الفِقْهِ عامٌّ فِي العُمُوم ؛ لأَنَّ مَقْصُودَهُ إِقامَةُ رَسْمِ الدِّينِ ، ورَفْعُ مَنارِهِ ، وإِظْهارُ كَلِماتِهِ ، وحُكْمُ التَّصَوُّفِ خاصٌّ فِي الخُصُوص ؛ لأَنَّهُ مُعامَلَةٌ بَيْنَ العَبْدِ ورَبِّهِ مِنْ غَيْرِ زائِدٍ عَلَى ذَلِكَ ، فَمِنْ ثَمَّ صَحَّ إِنْكارُ الفَقِيهِ عَلَى الصُّوفِي ، ولَمْ يَصِحَّ إِنْكارُ الصُّوفِيِّ عَلَى الفَقِيهِ ، ولَزِمَ الرُّجُوعُ مِنَ التَّصَوُّفِ إِلَى الفِقْهِ فِي الأَحْكام ، لا فِي الحَقائِق)) .

تَنْبِيه : مَنْ زَكَتْ نَفْسُهُ وكَمُلَتْ تَرْبِيَتُهُ فَهُوَ عَبْدٌ للهِ ، سَواءٌ أَظْهَرَهُ أَوْ أَخْفاه ، وفِي هَذا قالَ سَيِّدِي أَبو العَبَّاس المُرْسِي : ((مَنْ أَحَبَّ الظُّهُورَ فَهُوَ عَبْدُ الظُّهور ، ومَنْ أَحَبَّ الخَفاءَ فَهُوَ عَبْدُ الخَفاء ، وعَبْدُاللهِ سَواءٌ عَلَيْهِ أَظْهَرَهُ أَمْ أَخْفاه)) .

ولَمَّا كانَ التَّخَلُّصُ مِنْ دَقائِقِ الرِّياءِ ومَخادِعِ النُّفُوسِ لا يَكُونُ فِي

الغالِبِ إلَّا بِالفِكْرَة ، ولا تَتِمُّ الفِكْرَةُ إلَّا بِالعُزْلَة ، ذَكَرَها ابنُ عَطاءِ اللهِ فَقالَ :

(ما نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِها مَيْدانَ فِكْرَة) :

النَّفْعُ : إيصالُ الفائِدَة ، **والقَلْبُ** : القُوَّةُ المُسْتَعِدَّةُ لِقَبُولِ العِلْم ، **والعُزْلَةُ** : انْفِرادُ القَلْبِ بِاللهِ ، وقَدْ يُرادُ بِها الخَلْوَةُ الَّتِي هِيَ انْفِرادُ القالَبِ عَنِ النَّاس ، وهُوَ المُرادُ هُنا إذْ لا يَنْفَرِدُ القَلْبُ فِي الغالِبِ إلَّا إذا انْفَرَدَ القالَب ، **والمَيْدانُ** : مَجالُ الخَيْل ، اسْتُعِيرَ هُنا للأَفْكارِ إذْ تَرَدُّدُها فِي مَواقِعِها كَتَرَدُّدِ الخَيْلِ فِي مَجالِها ، **والفِكْرَةُ** : سَيْرُ القَلْبِ إلَى حَضْرَةِ الرَّبِّ ، وهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ : فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وإيمان ، وفِكْرَةُ شُهُودٍ وعَيان .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لا شَيْءَ أَنْفَعُ للقَلْبِ مِنْ عُزْلَةٍ مَصْحُوبَةٍ بِفِكْرَة ؛ لأَنَّ العُزْلَةَ كالحِمْيَة ، والفِكْرَةَ كالدَّواء ، فَلا يَنْفَعُ الدَّواءُ مِنْ غَيْرِ حِمْيَة ، ولا فائِدَةَ فِي الحِمْيَةِ مِنْ غَيْرِ دَواء ، فَلا خَيْرَ فِي عُزْلَةٍ لا فِكْرَةَ فِيها ، ولا نُهُوضَ لِفِكْرَةٍ لا عُزْلَةَ مَعَها ؛ إذِ المَقْصُودُ مِنَ العُزْلَةِ هُوَ تَفَرُّغُ القَلْب ، والمَقْصُودُ مِنَ التَّفَرُّغِ هُوَ جَوْلانُ القَلْبِ واشْتِغالُ الفِكْرَة ، والمَقْصُودُ مِنَ اشْتِغالِ الفِكْرَةِ تَحْصِيلُ العِلْمِ وتَمَكُّنُهُ مِنَ القَلْب ،

وتَمَكُّنُ العِلْمِ باللهِ مِنَ القَلْبِ هُوَ دَواؤُهُ وغايَةُ صِحَّتِهِ ، وهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ : القَلْبَ السَّلِيم ، قالَ اللهُ تَعالَى فِي شَأْنِ القِيامَة : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (١) أَيْ : صَحِيح .

وقَدْ قالُوا : إِنَّ القَلْبَ كالمَعِدَة ، إذا قَوِيَتْ عَلَيْها الأَخْلاطُ مَرِضَتْ ولا يَنْفَعُها إِلَّا الحِمْيَة ؛ وهِيَ قِلَّةُ مَوادِّها ومَنْعُها مِنْ كَثْرَةِ الأَخْلاط .

وفِي الحَدِيث : (المَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاء ، والحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّواء) .

وكَذَلِكَ القَلْبُ إذا قَوِيَتْ عَلَيْهِ الخَواطِرُ واسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الحِسُّ مَرِضَ ورُبَّما ماتَ ولا يَنْفَعُهُ إِلَّا الحِمْيَةُ مِنْها والفِرارُ مِنْ مَواطِنِها وهِيَ الخُلْطَةُ ، فَإِذا اعْتَزَلَ عَنِ النَّاسِ واسْتَعْمَلَ الفِكْرَةَ نَجَحَ دَواؤُهُ واسْتَقامَ قَلْبُهُ ، وإِلَّا بَقِيَ سَقِيمًا حَتَّى يَلْقَى اللهَ بِقَلْبٍ سَقِيمٍ بِالشَّكِّ والخَواطِرِ الرَّدِيئَة ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيَة .

قالَ الجُنَيْد : أَشْرَفُ المَجالِسِ الجُلُوسُ مَعَ الفِكْرَةِ فِي مَيْدانِ التَّوْحِيد .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَن : ثِمارُ العُزْلَةِ الظَّفَرُ بِمَواهِبِ المِنَّةِ ، وهِيَ أَرْبَعٌ : كَشْفُ الغِطاءِ ، وتَنَزُّلُ الرَّحْمَةِ ، وتَحَقُّقُ المَحَبَّةِ ، ولِسانُ الصِّدْقِ فِي الكَلِمَةِ ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن

---

(١) سُورَةُ الشُّعَراء : الآيَتان ٨٨ ، ٨٩ .

دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (١) .

فَإِنْ أَضافَ المُرِيدُ إِلَى العُزْلَةِ الصَّمْتَ والجُوعَ والسَّهَر ، فَقَدْ كَمُلَتْ وِلايَتُهُ ، وظَهَرَتْ عِنايَتُهُ ، وأَشْرَقَتْ عَلَيْهِ الأَنْوار ، وانْمَحَتْ مِنْ مِرْآةِ قَلْبِهِ صُوَرُ الأَغْيار .

وقَدْ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَى بَعْضِ ذَلِكَ مُتَعَجِّبًا مِنْ ضِدِّهِ فَقالَ :

(كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوانِ مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرآتِهِ ؟) :

يُشْرِقُ : يَسْتَنِيرُ ويُضِيءُ ، **وصُوَرُ الأَكْوانِ** : أَشْخاصُها وتَماثِيلُها الحِسِّيَّةُ والمَعْنَوِيَّةُ ، **والأَكْوانُ** : أَنْواعُ المَخْلُوقاتِ دَقَّتْ أَوْ جَلَّتْ ، **ومُنْطَبِعَةٌ** : أَيْ ثابِتَةٌ ، وانْطَبَعَ فِيها ما يُقابِلُها ، فَكُلَّما قَوِيَ صَقْلُها ، قَوِيَ ظُهُورُ ما يُقابِلُها فِيها ، واسْتُعِيرَتْ هُنا لِلبَصِيرَةِ الَّتِي هِيَ عَيْنُ القَلْبِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِيها الأَشْياءُ حُسْنُها وقَبِيحُها .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : جَعَلَ اللهُ قَلْبَ الإِنْسانِ كالمِرْآةِ الصَّقِيلَةِ يَنْطَبِعُ فِيها كُلُّ ما يُقابِلُها ، ولَيْسَ لَها إِلَّا وِجْهَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا أَرادَ اللهُ عِنايَتَهُ بِعَبْدٍ شَغَلَ فِكْرَتَهُ بِأَنْوارِ مَلَكُوتِهِ وأَسْرارِ جَبَرُوتِهِ ، ولَمْ يَعْلَقْ قَلْبُهُ بِمَحَبَّةِ

---

(١) سُورَةُ مَرْيَم : الآيَتان ٤٩ ، ٥٠ .

شَيْءٍ مِنَ الأَكْوانِ الظُّلْمانِيَّةِ والخَيالاتِ الوَهْمِيَّةِ ، فانْطَبَعَتْ فِي مِرْآةِ قَلْبِهِ أَنْوارُ الإيمانِ والإحْسان ، وأَشْرَقَتْ فِيها أَقْمارُ التَّوْحِيدِ وشُمُوسُ العِرْفان ، وإِلَى ذَلِكَ أَشارَ الشَّشْتُرِي فِي بَعْضِ أَزْجالِهِ بِقَوْلِهِ :

أَغْمِضِ الطَّرْفَ تَرَىٰ ❁ وَتَلُوحُ أَخْبَارُكْ

وَافْنَ عَنْ ذِي الْوَرَىٰ ❁ تَبْدُو لَكَ أَسْرَارُكْ

وَبِصَقْلِ الْمِرَا ❁ يَهْ يَزُولُ إِنْكَارُكْ

ثُمَّ قالَ :

الْفُلْكُ فِيكَ يَدُورُ ❁ وَيُضِيءُ وَيَلْمَعْ

وَالشُّمُوسُ وَالْبُدُورُ ❁ فِيكَ تَغِيبُ وَتَطْلُعْ

أَيْ : وبِصَقْلِ مِرْآةِ قَلْبِكَ يَزُولُ إِنْكارُكَ للحَقِّ ، فَتَعْرِفُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَيَصِيرُ قَلْبُكَ قُطْبَ فَلَكِ الأَنْوار ، فِيهِ تَبْدُو أَقْمارُ التَّوْحِيدِ وشُمُوسُ العِرْفان .

وإِذا أَرادَ اللّٰهُ تَعالَى خِذْلانَ عَبْدٍ بِعَدْلِهِ وحِكْمَتِهِ أَشْغَلَ فِكْرَتَهُ بِالأَكْوانِ الظُّلْمانِيَّةِ والشَّهَواتِ الجِسْمانِيَّةِ فانْطَبَعَتْ تِلْكَ الأَكْوانُ فِي مِرْآةِ قَلْبِهِ ، فانْحَجَبَ بِظُلُماتِها الكَوْنِيَّةِ وصُوَرِها الخَيالِيَّةِ عَنْ إِشْراقِ شُمُوسِ العِرْفانِ وأَنْوارِ الإيمان ، فَكُلَّما تَراكَمَتْ فِيها صُوَرُ الأَشْياءِ

انْطَمَسَ نُورُها واشْتَدَّ حِجابُها ؛ فَلا تَرَى إلَّا الحِسَّ ولا تَتَفَكَّرُ إلَّا فِي الحِسِّ ، فَمِنْها ما يَشْتَدُّ حِجابُها ويَنْطَمِسُ نُورُها بِالكُلِّيَّةِ فَتُنْكِرُ وُجُودَ النُّورِ مِنْ أَصْلِهِ وهُوَ مَقامُ الكُفْرِ والعِياذُ بِاللّهِ ، ومِنْها ما يَقِلُّ صَداها ويَرِقُّ حِجابُها فَتُقِرُّ بِالنُّورِ ولا تُشاهِدُهُ وهُوَ مَقامُ عَوامِّ المُسْلِمِين ، وهُمْ مُتَفاوِتُونَ فِي القُرْبِ والبُعْدِ وقُوَّةِ الدَّلِيلِ وضَعْفِهِ ، كُلٌّ عَلَى قَدْرِ يَقِينِهِ وقِلَّةِ تَعَلُّقاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وعَوائِقِهِ الشَّهْوانِيَّةِ وخَيالاتِهِ الوَهْمِيَّة .

وفِي الحَدِيث : (إنَّ القُلُوبَ تَصْدَأُ كَما يَصْدَأُ الحَدِيدُ ، وإنَّ الإيمانَ يَخْلَقُ كَما يَخْلَقُ الثَّوْبُ الجَدِيدُ)[1] .

وفِي حَدِيثٍ آخَرَ : (لِكُلِّ شَيْءٍ مَصْقَلَةٌ ، ومَصْقَلَةُ القُلُوبِ ذِكْرُ اللّه) .

وقالَ ﷺ أَيْضًا : (إنَّ العَبْدَ إذا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْداءُ ، فَإنْ هُوَ نَزَعَ واسْتَغْفَرَ صَقُلَتْ ، وإنْ عادَ زِيدَ فِيها حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللّهُ : ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2] أَوْ كَما قالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام .

وإذا عَلِمْتَ أَنَّ القَلْبَ لَيْسَ لَهُ إلَّا وِجْهَةٌ واحِدَةٌ ، إذا قابَلَها النُّورُ أَشْرَقَتْ ، وإذا قابَلَتْها الظُّلْمَةُ أَظْلَمَتْ ، ولا تَجْتَمِعُ الظُّلْمَةُ والنُّورُ

---

(١) يَخْلَقُ : يَبْلَى .

(٢) سُورَةُ المُطَفِّفِين : الآيَة ١٤ .

أَبَداً ، عَلِمْتَ وَجْهَ تَعَجُّبِ الشَّيْخِ فِي حِكْمَتِهِ : ((كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ بِنُورِ الإِيمانِ والإِحْسانِ وصُوَرُ الأَكْوانِ الظُّلْمانِيَّةِ مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرْآةِ قَلْبِهِ ؟)) فالضِّدَّانِ لا يَجْتَمِعان .

قالَ اللّهُ تعالَى : ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ (١).

فَما لَكَ أَيُّها الحَبِيبُ إِلَّا قَلْبٌ واحِدٌ ، إِذا أَقْبَلْتَ عَلَى الخَلْقِ أَدْبَرْتَ عَنِ الحَقِّ ، وإِذا أَقْبَلْتَ عَلَى الحَقِّ أَدْبَرْتَ عَنِ الخَلْقِ ، فَتَرْحَلُ مِنْ عالَمِ المُلْكِ إِلَى المَلَكُوت ، ومِنَ المَلَكُوتِ إِلَى الجَبَرُوت ، وما دُمْتَ مُقَيَّداً فِي هَذا العالَمِ بِشَهَواتِكَ وعَوائِدِكَ ، فَلا يُمْكِنُكَ الرَّحِيلُ إِلَى رَبِّكَ ، وإِلَى ذَلِكَ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللّهِ وهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَواتِهِ ؟)

الرَّحِيلُ : هُوَ النُّهُوضُ والانْتِقالُ مِنْ وَطَنٍ إِلَى وَطَنٍ ، وهُوَ هُنا مِنْ نَظَرِ الكَوْنِ إِلَى شُهُودِ المُكَوِّن ، أَوْ مِنَ المُلْكِ إِلَى المَلَكُوت ، أَوْ مِنَ الوُقُوفِ مَعَ الأَسْبابِ إِلَى رُؤْيَةِ مُسَبِّبِ الأَسْباب ، أَوْ مِنْ وَطَنِ الغَفْلَةِ إِلَى اليَقَظَةِ أَوْ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ إِلَى حُقُوقِ اللّه ، أَوْ مِنْ عالَمِ الأَكْدارِ إِلَى عالَمِ الصَّفا ، أَوْ مِنْ رُؤْيَةِ الحِسِّ إِلَى شُهُودِ المَعْنَى ، أَوْ مِنَ الجَهْلِ إِلَى

---

(١) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٤ .

المَعْرِفَةِ ، أَوْ مِنْ عِلْمِ اليَقِينِ إِلَى عَيْنِ اليَقِين ، أَوْ مِنْ عَيْنِ اليَقِينِ إِلَى حَقِّ اليَقِين ، أَوْ مِنَ المُراقَبَةِ إِلَى المُشاهَدَةِ ، أَوْ مِنْ مَقامِ السَّائِرِينَ إِلَى وَطَنِ المُتَمَكِّنِينَ ، **والمُكَبَّلُ** : هُوَ المُقَيَّدُ ، والمُرادُ **بالشَّهَوات** : كُلُّ ما تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ وتَمِيلُ إِلَيْه .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الرَّحِيلُ مَعَ التَّكْبِيلِ لا يَجْتَمِعان ، فَما دامَ القَلْبُ مَحْبُوسًا بِالمَيْلِ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذا العَرَضِ الفانِي ، ولَوْ كانَ مُباحًا فِي الشَّرْعِ فَهُوَ مُقَيَّدٌ بِهِ ومُكَبَّلٌ فِي وَطَنِهِ ، فَلا يَرْحَلُ إِلَى المَلَكُوتِ ولا تُشْرِقُ عَلَيْهِ أَنْوارُ الجَبَرُوتِ ؛ فَتَعَلُّقُ القَلْبِ بِالشَّهَواتِ مانِعٌ لَهُ مِنَ النُّهُوضِ إِلَى اللهِ ؛ لاشْتِغالِهِ بِالالْتِفاتِ إِلَيْها ، وعَلَى تَقْدِيرِ النُّهُوضِ مَعَها تَكُونُ مُثَبِّطَةً لَهُ عَنِ الإِسْراعِ بِالمَيْلِ إِلَيْها ، وعَلَى تَقْدِيرِ الإِسْراعِ فَلا يَأْمَنُ العَثارَ مَعَها لِأُنْسِ النَّفْسِ بِها .

قالَ الشَّيْخُ زَرُّوق : ((هَذا إِنْ تَعَلَّقَ القَلْبُ بِطَلَبِها قَبْلَ حُصُولِها ، وإِلَّا فَلا ؛ لِعَدَمِ تَعَلُّقِ القَلْبِ بِها)) .

وقَدْ قالُوا فِي حَقِيقَةِ التَّصَوُّفِ : أَنْ تَكُونَ مَعَ اللهِ بِلا عَلاقَة .

وكانَ شَيْخُنا يَقُولُ : ((إِنْ شِئْتُمْ أَنْ نُقْسِمَ لَكُمْ لا يَدْخُلُ عالَمَ المَلَكُوتِ مَنْ فِي قَلْبِهِ عَلَقَة)) .

فاقْطَعْ عَنْكَ يا أَخِي عُرُوقَ العَلائِق ، وفِرَّ مِنْ وَطَنِ العَوائِق ، تُشْرِقْ عَلَيْكَ أَنْوارُ الحَقائِق ، ولِهَذا كانَتِ السِّياحَةُ والهِجْرَةُ مِنَ الأُمُورِ المُؤَكَّدَةِ عَلَى المُرِيد ؛ إِذِ الإِقامَةُ فِي وَطَنِهِ الحِسِّيِّ لا يَخْلُو مَعَها مِنَ التَعَلُّقاتِ الحِسِّيَّة .

وقَدْ قالُوا : الصُّوفِيُّ كالماء ، إِذا طالَ فِي مَوْطِنٍ واحِدٍ تَغَيَّرَ ، وإِذا جَرَى عَذُبَ ، وبِقَدْرِ ما يَسِيرُ فِي الحِسِّ يَسِيرُ فِي المَعْنَى ، وبِقَدْرِ ما يَسِيرُ القالَبُ يَسِيرُ القَلْبُ ، والهِجْرَةُ سُنَّةٌ نَبَوِيَّةٌ ، ومُنْذُ هاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ تَكُنْ لَهُ راحَةٌ إِلَّا فِي السَّفَرِ للجِهاد ، حَتَّى فَتَحَ اللّٰهُ عَلَيْهِ البِلاد ، وكَذَلِكَ الصَّحابَةُ رضي الله عنهم ، لَمْ يَسْتَقِرَّ فِي وَطَنِهِ إِلَّا القَلِيلُ مِنْهُمْ ، حَتَّى فَتَحَ اللّٰهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ سائِرَ البِلاد ، وهَدَى اللّٰهُ بِهِمُ العِباد ، فَنَفَعَنا اللّٰهُ بِبَرَكاتِهِمْ - آمِين .

وإِذا رَحَلَ القَلْبُ مِنْ وَطَنِ شَهَواتِهِ ، وتَطَهَّرَ مِنْ لَوْثِ غَفَلاتِهِ ، وَصَلَ إِلَى حَضْرَةِ رَبِّهِ ، وتَنَعَّمَ بِشُهُودِ قُرْبِهِ ، ولِذَلِكَ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ : (**أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللّٰهِ وهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنابَةِ غَفَلاتِهِ ؟**) :

الحَضْرَةُ : هِيَ حُضُورُ القَلْبِ مَعَ الرَّبِّ ، وهِيَ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام : حَضْرَةُ القُلُوبِ ، وحَضْرَةُ الأَرْواحِ ، وحَضْرَةُ الأَسْرار .

فَحَضْرَةُ القُلُوبِ للسَّائِرِينَ ، وحَضْرَةُ الأَرْواحِ للمُسْتَشْرِفِينَ ، وحَضْرَةُ الأَسْرارِ للمُتَمَكِّنِين .

أَوْ تَقُولُ : حَضْرَةُ القُلُوبِ لأَهْلِ المُراقَبَة ، وحَضْرَةُ الأَرْواحِ لأَهْلِ المُشاهَدَة ، وحَضْرَةُ الأَسْرارِ لأَهْلِ المُكالَمَة .

وسِرُّ ذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ ما دامَتْ تَتَقَلَّبُ بَيْنَ الغَفْلَةِ والحَضْرَةِ كانَتْ فِي حَضْرَةِ القُلُوب ، فَإِذا اسْتَراحَتْ بِالوِصالِ سُمِّيَتْ رُوحًا وكانَتْ فِي حَضْرَةِ الأَرْواح ، وإِذا تَمَكَّنَتْ وتَصَفَّتْ وصارَتْ سِرًّا مِنْ أَسْرارِ اللهِ سُمِّيَتْ سِرًّا وكانَتْ فِي حَضْرَةِ الأَسْرار .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الحَضْرَةُ مُقَدَّسَةٌ مُنَزَّهَةٌ مُرَفَّعَةٌ ، لا يَدْخُلُها إِلَّا المُطَهَّرُونَ ، فَحَرامٌ عَلَى القَلْبِ الجُنُبِ أَنْ يَدْخُلَ مَسْجِدَ الحَضْرَة ، وجَنابَةُ القَلْبِ غَفْلَتُهُ عَنْ رَبِّهِ ، قالَ تَعالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ (١) ؛ أَيْ : لا تَقْرَبُوا صَلاةَ الحَضْرَةِ وأَنْتُمْ سُكارَى بِحُبِّ الدُّنْيا وشُهُودِ السِّوَى ، حَتَّى تَتَيَقَّظُوا وتَتَدَبَّرُوا ما تَقُولُونَ فِي حَضْرَةِ المَلِك ، ولا جُنُبًا مِنْ جِماعِ الغَفْلَةِ وشُهُودِ السِّوَى حَتَّى تَتَطَهَّرُوا بِماءِ الغَيْبِ الَّذِي أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَرَبِي الحاتِمِي رضي الله عنه ؛

---

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٤٣ .

كَما فِي (الطَّبَقاتِ الشَّعرانِيَّةِ) فِي تَرْجَمَةِ أَبِي المَواهِبِ بِقَوْلِهِ :

تَوَضَّأْ بِمَاءِ الْغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ ۞ وَإِلَّا تَيَمَّمْ بِالصَّعِيدِ أَوِ الصَّخْرِ

وَقَدِّمْ إِمَامًا كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ ۞ وَصَلِّ صَلاةَ الظُّهْرِ فِي أَوَّلِ الْعَصْرِ

فَهَذِي صَلاةُ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ ۞ فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَحِ الْبَرَّ بِالْبَحْرِ

يَعْنِي : تَطَهَّرْ مِنْ شُهُودِ نَفْسِكَ بِماءِ الغَيْبَةِ عَنْها بِشُهُودِ رَبِّكَ ، أَوْ تَطَهَّرْ مِنْ شُهُودِ الحِسِّ بِشُهُودِ المَعْنَىٰ ، أَوْ تَطَهَّرْ مِنْ شُهُودِ عالَمِ الشَّهادَةِ بِماءِ شُهُودِ عالَمِ الغَيْبِ ، أَوْ تَطَهَّرْ مِنْ شُهُودِ السِّوَىٰ بِماءِ العِلْمِ بِاللهِ ؛ فَإِنَّهُ يَغِيبُ عَنْكَ كُلُّ ما سِواه ، وإِذا تَطَهَّرْتَ مِنْ شُهُودِ السِّوَى تَطَهَّرْتَ مِنَ العُيُوبِ كُلِّها ، وإِلَى ذَلِكَ أَشارَ الشُّشْتُرِي بِقَوْلِهِ :

طَهِّرِ الْعَيْنَ بِالْمَدَامِعِ سَكْبًا ۞ مِنْ شُهُودِ السِّوَىٰ تَزُلْ كُلُّ عِلَّهْ

وهَذا الماءُ الَّذِي هُوَ ماءُ الغَيْبِ هُوَ النَّازِلُ مِنْ صَفاءِ بِحارِ الجَبَرُوتِ إِلَى حِياضِ رِياضِ المَلَكُوتِ فَتُغْرِفُهُ سَحائِبُ الرَّحْمَةِ وتُثِيرُهُ رِياحُ الهِدايَةِ فَتَسُوقُهُ إِلَى أَرْضِ النُّفُوسِ الطَّيِّبَةِ فَتَمْلأُ مِنْهُ أَوْدِيَةَ القُلُوبِ المُنَوَّرَةِ وخِلْجانَ الأَرْواحِ المُطَهَّرَةِ ، وإِلَيْهِ الإِشارَةُ بِقَوْلِهِ تَعالَى :﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ (١) :

---

(١) سُورَةُ الرَّعْد : مِنَ الآيَة ١٧ .

شَبَّهَ الحَقُّ تَعالَى العِلْمَ النَّافِعَ بِالمَطَرِ النَّازِلِ مِنَ السَّماء ؛ فَكَما أَنَّ المَطَرَ تَعْمُرُ مِنْهُ الأَوْدِيَةُ والغُدْران ، وتَجْرِي مِنْهُ العُيُونُ والأَنْهارُ ، كُلٌّ عَلَى قَدْرِ سَعَتِهِ وكِبَرِهِ ، كَذَلِكَ العِلْمُ النَّافِعُ نَزَلَ مِنْ سَماءِ عالَمِ الغَيْبِ إِلَى أَرْضِ عالَمِ الشَّهادَةِ ، فَسالَتْ بِهِ أَوْدِيَةُ القُلُوبِ ، كُلٌّ عَلَى قَدْرِ طاقَتِهِ وحَسَبِ اسْتِعْدادِهِ ، وكَما أَنَّ المَطَرَ يُطَهِّرُ الأَرْضَ مِنَ الأَوْساخِ ؛ وهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أَيْ : مُرْتَفِعًا عَلَى وَجْهِ الماء ، كَذَلِكَ العِلْمُ النَّافِعُ يُطَهِّرُ النُّفُوسَ مِنَ الأَدْناسِ والقُلُوبَ مِنَ الأَغْيار ، والأَرْواحَ مِنَ الأَكْدار ، والأَسْرارَ مِنْ لَوْثِ الأَنْوار ، وهَذا الماءُ هُوَ الَّذِي أَشارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : تَوَضَّأْ بِماءِ الغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذا سِرٍّ ؛ أَيْ : كُنْتَ صاحِبَ سِرٍّ ، والشُّهُودُ : شُهُودُ الوَحْدَةِ ونَفْيُ الكَثْرَةِ ، أَوْ شُهُودُ العَظَمَةِ بِالعَظَمَة ، ومَنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ بِهَذا فَلا يُمْكِنُهُ التَّطْهِيرُ بِماءِ الغَيْبِ بِالكُلِّيَّة ؛ لِفَقْدِهِ ذَلِكَ الماءِ أَوْ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ ، فَيَنْتَقِلُ لِلتَّيَمُّمِ الَّذِي هُو رُخْصَةُ الضُّعَفاءِ وطَهارَةُ المَرْضَىٰ ، وإِلَى ذَلِكَ أَشارَ بِقَوْلِهِ : وإِلَّا تَيَمَّمْ بِالصَّعِيدِ أَوِ الصَّخْرِ ، أَيْ : وإِنْ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى الطَّهارَةِ الأَصْلِيَّةِ ، وهِيَ الغَيْبَةُ عَنِ السِّوَى ، لِمَرَضِ قَلْبِكَ ، مَعَ عَدَمِ صِدْقِكَ ، فانْتَقِلْ لِلطَّهارَةِ الفَرْعِيَّةِ الَّتِي هِيَ العِبادَةُ الظَّاهِرِيَّة .

أَوْ تَقُولُ : وإِنْ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى الطَّهارَةِ الحَقِيقِيَّةِ الَّتِى هِيَ الطَّهارَةُ الباطِنِيَّةُ ، فانْتَقِلْ للطَّهارَةِ المَجازِيَّةِ الَّتِى هِيَ الطَّهارَةُ الظَّاهِرِيَّة .

أَوْ تَقُولُ : وإِنْ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى طَهارَةِ المُقَرَّبِينَ ، فانْتَقِلْ لِطَهارَةِ أَهْلِ اليَمِين .

أَوْ تَقُولُ : وإِنْ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى طَهارَةِ أَهْلِ المَحَبَّةِ ، فانْتَقِلْ لِطَهارَةِ أَهْلِ الخِدْمَةِ ، قَوْمٌ أَقامَهُمُ اللهُ لِخِدْمَتِهِ ، وقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ : ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (١).

فَطَهارَةُ أَهْلِ المَحَبَّةِ الفِكْرَةُ والنَّظْرَة ، وطَهارَةُ أَهْلِ الخِدْمَةِ بِالمُجاهَدَةِ والمُكابَدَة ؛ بَيْنَ عِبادَةٍ ظاهِرَةٍ كَصَلاةٍ وصِيام وذِكْرٍ وتِلاوَةٍ وتَعْلِيم وغَيْرِ ذَلِكَ ، وبَيْنَ عِبادَةٍ خَفِيَّةٍ كَخَوْفٍ ورَجاءٍ وزُهْدٍ وصَبْرٍ وورَعٍ ورِضًا وتَسْلِيم ورَحْمَةٍ وشَفَقَةٍ وغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لا يَظْهَرُ للعَيان ، وهَذا هُوَ تَصَوُّفُ أَهْلِ الظَّاهِر .

وأَمَّا تَصَوُّفُ أَهْلِ الباطِنِ فَهُوَ الغَيْبَةُ عَنِ الأَكْوانِ بِشُهُودِ المُكَوِّنِ ، أَوِ الغَيْبَةُ عَنِ الخَلْقِ بِشُهُودِ المَلِكِ الحَقِّ ، وهُوَ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ النَّاظِمُ بِماءِ

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : الآيَة ٢٠ .

الغَيْبِ ؛ فَكُلُّ مَنْ لَمْ يُدْرِكْ تَصَوُّفَ أَهْلِ الباطِنِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ التَّيَمُّم ، فَإِنْ كانَ مَشْغُولًا بِالعَمَلِ الظَّاهِرِ كَالصَّلاةِ والصِّيامِ ونَحْوِهِما فَهُوَ كالمُتَيَمِّمِ بِالصَّعِيدِ ؛ لِظُهُورِها كَظُهُورِ أَثَرِ التُّرابِ عَلَى الجَوارِحِ ، وإِنْ كانَ مَشْغُولًا بِالعِبادَةِ الخَفِيَّةِ كالزُّهْدِ والوَرَعِ ونَحْوِهِما ، فَهُوَ كالمُتَيَمِّمِ بِالصَّخْرِ لِعَدَمِ ظُهُورِها فِي الغالِبِ ؛ كَعَدَمِ ظُهُورِ أَثَرِ الصَّخْرِ .

ولَمَّا أَمَرَكَ بِالغَيْبَةِ عَنِ السِّوَى خافَ عَلَيْكَ إِنْكارَ الواسِطَةِ وإِسْقاطَ الحِكْمَةِ ، فَتَقَعُ فِي الزَّنْدَقَةِ فَقالَ : وقَدِّمْ إِمامًا كُنْتَ أَنْتَ أَمامَهُ ، والمُرادُ بِالإِمامِ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ ، ومَنْ كانَ عَلَى قَدَمِهِ مِمَّنْ جَمَعَ بَيْنَ الحَقِيقَةِ والشَّرِيعَةِ ، فَأَمَرَكَ بِاتِّباعِ الشَّرِيعَةِ المُحَمَّدِيَّةِ فِي حالِ غَيْبَتِكَ عَنِ السِّوَى ، فَيَكُونُ ظاهِرُكَ سُلُوكًا وباطِنُكَ جَذْبًا ، ظاهِرُكَ مَعَ الحِكْمَةِ وباطِنُكَ مَعَ القُدْرَةِ ، ولا بُدَّ أَنْ تَقْتَدِيَ بِإِمامٍ كامِلٍ سَلَكَ الطَّرِيقَةَ عَلَى يَدِ شَيْخٍ كامِلٍ ، يُعَلِّمُكَ كَيْفِيَّةَ العَمَلِ بِالشَّرِيعَةِ ويَدُلُّكَ عَلَى الحَقِيقَةِ ، وإِلَّا بَقِيتَ مَرِيضًا عَلَى الدَّوامِ ، تَسْتَعْمِلُ طَهارَةَ المَرْضَى عَلَى الدَّوامِ .

وانْظُرْ قَوْلَ الإِمامِ القَرافِي لَمَّا جُمِعَ عَلَى شَيْخِ التَّرْبِيَةِ قالَ : ((تَيَمَّمْتُ بِالصَّعِيدِ زَمانًا ، والآنَ سَقَطْتُ عَلَى الماءِ)) ؛ إِذْ لا تَجِدُ ماءَ الغَيْبِ ولا

تَقْدِرُ عَلَى اسْتِعْمالِهِ إِلَّا بِصُحْبَةِ أَهْلِ هَذا الماءِ الَّذِينَ شَرِبُوهُ وسَكِرُوا بِهِ ثُمَّ صَحَوْا مِنْ سَكْرَتِهِمْ وسَلَكُوا مِنْ جَذْبَتِهِمْ ، فَتُمَلِّكُهُمْ زِمامَ أَمْرِكَ وتَنْقادُ إِلَيْهِمْ بِكُلِّيَّتِكَ ، بَعْدَ أَنْ أَطْلَعَكَ اللّٰهُ عَلَى خُصُوصِيَّتِهِمْ وكَشَفَ لَكَ عَنْ أَسْرارِهِمْ ، فَشَهِدَتْ لَهُمْ رُوحُكَ بِالتَّقْدِيمِ وسِرُّكَ بِالتَّعْظِيمِ ، فَتُقَدِّمَهُمْ أَمامَكَ بَعْدَ أَنْ كُنْتَ أَنْتَ أَمامَهُمْ وهُمْ يَطْلُبُونَكَ لِلحَضْرَةِ ، وكَذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ كانَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى اللّٰهِ وهُمْ فارُّونَ أَمامَهُ ، فَلَمَّا عَرَفُوا الحَقَّ قَدَّمُوهُ أَمامَهُمْ ، وهَذا مَعْنَى قَوْلِهِ : كُنْتَ أَنْتَ إِمامَهُ .

وقَوْلُهُ : وَصَلِّ صَلاةَ الفَجْرِ فِي أَوَّلِ العَصْرِ ، أَي : ارْجِعْ إِلَى البَقاءِ بَعْدَ كَمالِ الفَناءِ ، أَوْ إِلَى السُّلُوكِ بَعْدَ الجَذْبِ ، إِذِ الغالِبُ عَلَى المُرِيدِ أَنْ يَتَقَدَّمَهُ السُّلُوكُ ثُمَّ يَأْتِيهِ الجَذْبُ ؛ فَأَوَّلُهُ سُلُوكٌ وآخِرُهُ جَذْبٌ ، كَما أَنَّ أَوَّلَ النَّهارِ صَلاةُ الفَجْرِ وآخِرَهُ صَلاةُ العَصْرِ ، أَي : ارْجِعْ إِلَى صَلاةِ الفَجْرِ الَّتِي كانَتْ فِي أَوَّلِ نَهارِكَ ، فَصَلِّها فِي آخِرِ نَهارِكَ ، فارْجِعْ إِلَى السُّلُوكِ الَّذِي كانَ فِي أَوَّلِ أَمْرِكَ فاجْعَلْهُ فِي آخِرِ أَمْرِكَ ، وهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ : مُنْتَهَى الكَمالِ مَبْدَأُ الشَّرائِعِ .

وقالُوا أَيْضًا : نِهايَةُ السَّالِكِينَ بِدايَةُ المَجْذُوبِينَ ، ونِهايَةُ المَجْذُوبِينَ بِدايَةُ السَّالِكِينَ .

وقالُو أَيْضًا : عَلامَةُ النِّهايَةِ الرُّجُوعُ إِلَى البِدايَة .

وقَوْلُهُ : فَهَذِي صَلاةُ العارِفِينَ بِرَبِّهِمْ ، لأَنَّهُمْ تَطَهَّرُوا الطَّهارَةَ الأَصْلِيَّةَ وصَلَّوا الصَّلاةَ الدَّائِمَةَ ، قالَ اللّهُ تَعالَى : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ (١) .

فالعَوامُّ حَدُّ صَلاتِهِمْ أَوْقاتُهُمْ ، والعارِفُونَ فِي الصَّلاةِ عَلَى الدَّوام .

قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : هَلْ للقُلُوبِ صَلاةٌ ؟ فَقالَ : نَعَمْ ، إِذا سَجَدَ لا يَرْفَعُ رَأْسَهُ أَبَداً ؛ أَيْ : إِذا سَجَدَتِ الرُّوحُ لِهَيْبَةِ الجَلالِ والجَمالِ لا تَرْفَعُ رَأْسَها أَبَداً ، وإِلَيْهِ أَشارَ الشُّشْتُرِي بِقَوْلِهِ :

فَاسْجُدْ لِهَيْبَةِ الْجَلالِ عِنْدَ التَّدَانِي ۞ وَلْتَقْرَأْ آيَةَ الْكَمَالِ سَبْعَ الْمَثَانِي

وقَوْلُهُ : فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فانْضَحِ البَرَّ بالبَحْرِ ، أَيْ : فَإِنْ كُنْتَ مِنَ العارِفِينَ المُحَقَّقِينَ فانْضَحْ بَرَّ شَرِيعَتِكَ بِبَحْرِ حَقِيقَتِكَ بِحَيْثُ تَرُشُّ عَلَى شَرِيعَتِكَ مِنْ بَحْرِ حَقِيقَتِكَ حَتَّى تَغْمُرَها وتُغَطِّيَها ، فَتَصِيرَ الشَّرِيعَةُ عَيْنَ الحَقِيقَة ، والحَقِيقَةُ عَيْنَ الشَّرِيعَة ، حَتَّى يَصِيرَ عَمَلُكَ كُلُّهُ بِاللّه .

وإِذا دَخَلَ القَلْبُ حَضْرَةَ القُدْسِ ومَحَلَّ الأُنْسِ ، فَهِمَ دَقائِقَ الأَسْرارِ

---

(١) سُورَةُ المَعارِج : الآيَة ٢٣ .

ومُلِئَ بالمَواهِبِ والأَنْوارِ ، وإلَى ذَلِكَ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بقَوْلِهِ :

(أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقائِقَ الأَسْرارِ وهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَواتِهِ ؟!) :

الرَّجاءُ : تَمَنِّي الشَّيْءِ مَعَ السَّعْيِ فِي أَسْبابِهِ ، وإلَّا فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ ، **والفَهْمُ** : حُصُولُ العِلْمِ بالمَطْلُوب ، **ودَقائِقُ الأَسْرار** : غَوامِضُ التَّوْحِيد ، **والتَّوْبَةُ** : الرُّجُوعُ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ ذَمِيمٍ إلَى كُلِّ وَصْفٍ حَمِيد ؛ وهَذِهِ تَوْبَةُ الخَواصِّ ، **والهَفَواتُ** : جَمْعُ هَفْوَة ، وهِيَ الزَّلَّةُ والسَّقْطَة .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : فَهْمُ دَقائِقِ الأَسْرارِ لا يَكُونُ أَبَداً مَعَ وُجُودِ الإِصْرار .

أَوْ تَقُولُ : فَهْمُ غَوامِضِ التَّوْحِيدِ لا يَكُونُ إلَّا بقَلْبٍ فَرِيد ؛ فَمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَواتِهِ ويَتَحَرَّزْ مِنْ رِقِّ شَهَواتِهِ فَلا يَطْمَعُ فِي فَهْمِ غَوامِضِ التَّوْحِيد ، ولا يَذُوقُ أَسْرارَ أَهْلِ التَّفْرِيد .

قالَ أَحْمَدُ بنُ أَبِي الحَوارِي : وسَمِعْتُ شَيْخِي أَبا سُلَيْمانَ الدَّارانِيَّ رضي الله عنه يَقُولُ : إذا اعْتادَتِ النُّفُوسُ تَرْكَ الآثام جالَتْ فِي المَلَكُوتِ ورَجَعَتْ إلَى صاحِبِها بِطَرائِفِ الحِكْمَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤَدِّيَ إلَيْها عالِمٌ عِلْمًا .

قالَ الإِمامُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَل رضي الله عنه : صَدَقْتَ يا أَحْمَدُ وصَدَقَ شَيْخُكَ ، ما سَمِعْتُ فِي الإِسْلامِ بِحِكايَةٍ أَعْجَبَ إلَيَّ مِنْ هَذِهِ ، (مَنْ عَمِلَ بِما عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ) .

((وقِيلَ للجُنَيْد : كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى التَّحْقِيق ؟ قالَ : بِتَوْبَةٍ تُزِيلُ الإِصْرار ، وخَوْفٍ يَقْطَعُ التَّسْوِيف ، ورَجاءٍ يَبْعَثُ عَلَى مَسالِكِ العَمَل ، وإِهانَةِ النَّفْسِ بِقُرْبِها مِنَ الأَجَلِ وبُعْدِها مِنَ الأَمَلِ ، فَقِيلَ لَهُ : بِماذا يَصِلُ إِلَى هَذا ؟ فَقالَ : بِقَلْبٍ مُفْرَد ، فِيهِ تَوْحِيدٌ مُجَرَّد)) .

فَإِذا انْفَرَدَ القَلْبُ بِاللّه ، وتَخَلَّصَ مِمَّا سِواه ، فَهِمَ دَقائِقَ التَّوْحِيدِ وغَوامِضَهُ الَّتِى لا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْها ، وإِنَّما هِيَ رُمُوزٌ وإِشاراتٌ لا يَفْهَمُها إِلَّا أَهْلُها ، ولا تُفْشَى إِلَّا لَهُمْ ، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ، ومَنْ أَفْشَى شَيْئًا مِنْ أَسْرارِها مَعَ غَيْرِ أَهْلِها ، فَقَدْ أَباحَ دَمَهُ ، وتَعَرَّضَ لِقَتْلِ نَفْسِهِ ؛ كَما قالَ أَبُو مَدْيَنَ الغَوْث :

وَفِي السِّرِّ أَسْرَارٌ دِقَاقٌ لَطِيفَةٌ ❁ تُرَاقُ دِمَانَا جَهْرَةً لَوْ بِهَا بُحْنَا

وهَذِهِ الأَسْرارُ هِيَ أَسْرارُ الذَّاتِ وأَنْوارُ الصِّفاتِ الَّتِى تَجَلَّى الحَقُّ بِها فِي مَظْهَرِ الأَكْوانِ ، وإِلَى ذَلِكَ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(**الكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ ، وإِنَّما أَنارَهُ ظُهُورُ الحَقِّ فِيه**) :

الكَوْنُ : ما كَوَّنَتْهُ القُدْرَةُ وأَظْهَرَتْهُ للعَيان ، **والظُّلْمَةُ** : ضِدُّ النُّور ، وهِيَ عَدَمِيَّةٌ ، والنُّورُ وُجُودِيٌّ ، **وأَنارَهُ** : أَيْ صَيَّرَهُ نُورًا ، **وظُهُورُ الحَقِّ** : تَجَلِّيه .

قالَ ابنُ عَجيبَة : الكَوْنُ مِنْ حَيْثُ كَوْنِيَّتُهُ وظُهُورُ حِسِّهِ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ ؛ لأَنَّهُ حِجابٌ لِمَنْ وَقَفَ مَع ظاهِرِهِ عَنْ شُهُودِ رَبِّهِ ، ولأَنَّهُ سَحابٌ يُغَطِّي شَمْسَ المَعانِي لِمَنْ وَقَفَ مَعَ ظاهِرِ حُسْنِ الأَوانِي ، وإِلَيْهِ أَشارَ الشَّشْتُري بِقَوْلِهِ : ((لا تَنْظُرْ إِلَى الأَوانِي ، وخُضْ بَحْرَ المَعانِي ، لَعَلَّكَ تَرانِي)) ، فَصارَ الكَوْنُ بِهَذا الاعْتِبارِ كُلُّهُ ظُلْمَة ، وإِنَّما أَنارَهُ تَجَلِّي الحَقِّ بِهِ وظُهُورُهُ فِيهِ ؛ فَمَنْ نَظَرَ إِلَى ظاهِرِ حِسِّهِ رَآهُ جِسْمًا ظُلْمانِيًّا ، ومَنْ نَفَذَ إِلَى باطِنِهِ رَآهُ نُوزاً مَلَكُوتِيًّا ، قالَ اللّهُ تَعالَى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (١).

فَتَحَصَّلَ أَنَّ قَوْلَ الشَّيْخ : الكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَة ، إِنَّما هُوَ فِي حَقِّ أَهْلِ الحِجاب ؛ لانْطِباعِ ظاهِرِ صُوَرِ الأَكْوانِ فِي مِرْآةِ قُلُوبِهِمْ .

وأَمَّا أَهْلُ العِرْفان ، فَقَدْ نَفَذَتْ بَصِيرَتُهُمْ إِلَى شُهُودِ الحَقِّ ، فَرَأَوا الكَوْنَ نُوراً فائِضًا مِنْ بَحْرِ الجَبَرُوت ، فَصارَ الكَوْنُ عِنْدَهُمْ كُلُّهُ نُوراً ، قالَ اللّهُ تَعالَى : ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (٢) ، أَيْ : مِنْ نُورِ مَلَكُوتِهِ وأَسْرارِ جَبَرُوتِه ، أَوْ مِنْ أَسْرارِ المَعانِي القائِمَةِ بِالأَوانِي .

---

(١) سُورَةُ النُّور : مِنَ الآيَة ٣٥ .
(٢) سُورَةُ يُونُس : مِنَ الآيَة ١٠١ .

وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنَّ اللهَ احْتَجَبَ عَنْ أَهْلِ الأَرْضِ ، وإِنَّ أَهْلَ المَلأِ الأَعْلَى لَيَطْلُبُونَهُ كَما تَطْلُبُونَهُ أَنْتُمْ ، وإِنَّهُ ما حَلَّ فِي شَيْءٍ ، ولا غابَ عَنْ شَيْءٍ) .

وهَذِهِ المَعانِي إِنَّما هِيَ أَذْواقٌ لا تُدْرَكُ بِالعَقْلِ ولا بِنَقْلِ الأَوْراقِ ، وإِنَّما تُدْرَكُ بِصُحْبَةِ أَهْلِ الأَذْواقِ ، فَسَلِّمْ ولا تَنْتَقِدْ :

وَإِذا لَمْ تَرَ الْهِلَالَ فَسَلِّمْ ❁ لِأُنَـاسٍ رَأَوْهُ بِالْأَبْصَـارِ

ثُمَّ أَقْسامُ النَّاسِ فِي شُهُودِ الحَقِّ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام : عُمُومٌ ، وخُصُوصٌ ، وخُصُوصُ الخُصُوص ، فَقالَ ابنُ عَطاءِ اللهِ فِي حِكْمَتِهِ :

(**فَمَنْ رَأَى الكَوْنَ ، ولَمْ يَشْهَدْهُ فِيهِ ، أَوْ عِنْدَهُ ، أَوْ قَبْلَهُ ، أَوْ بَعْدَهُ ، فَقَدْ أَعْوَزَهُ وُجُودُ الأَنْوار ، وحُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ المَعارِفِ بِسُحُبِ الآثار**) :

فَأَهْلُ مَقامِ البَقاءِ يَشْهَدُونَ الحَقَّ بِمُجَرَّدِ وُقُوعِ بَصَرِهِمْ عَلَى الكَوْنِ ، فَهُمْ يُثْبِتُونَ الأَثَرَ بِاللهِ ، ولا يَشْهَدُونَ بِسِواه ، إِلَّا أَنَّهُمْ لِكَمالِهِمْ يُثْبِتُونَ الواسِطَةَ والمَوْسُوطَةَ ، فَهُمْ يَشْهَدُونَ الحَقَّ بِمُجَرَّدِ شُهُودِ الواسِطَةِ أَوْ عِنْدَها بِلا تَقْدِيم ولا تَأْخِيرٍ ولا ظَرْفِيَّةٍ ولا مَظْرُوف :

مُذْ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرَ غَيْراً ❁ وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ

وقالَ الشَّيْخُ مَوْلايَ عَبْدُ السَّلامِ بنُ مَشِيش رضي الله عنه لِسَيِّدِي أَبِي الحَسَن

رضي الله عنه : ((يا أَبا الحَسَن : حَدِّدْ بَصَرَ الإيمانِ تَجِدِ اللّٰهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وعِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ ، ومَعَ كُلِّ شَيْءٍ ، وفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، وقَرِيبًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ومُحِيطًا بِكُلِّ شَيْءٍ ، بِقُرْبٍ هُوَ وَصْفُهُ ، وبِإحاطَةٍ هِيَ نَعْتُهُ ، وبُعْدٍ عَنِ الظَّرْفِيَّةِ والحُدُودِ ، وعَنِ الأَماكِنِ والجِهاتِ ، وعَنِ الصُّحْبَةِ والقُرْبِ بِالمَسافاتِ ، وامْحَقِ الكُلَّ بِوَصْفِهِ الأَوَّلِ والآخِرِ والظَّاهِرِ والباطِنِ ، كانَ اللّٰهُ ولا شَيْءَ مَعَهُ ، وهُوَ الآنَ عَلَى ما كانَ)) .

وقالَ بَعْضُهُمْ : ما رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا رَأَيْتُ اللّٰهَ فِيهِ .

فَأَهْلُ السَّيْرِ مِنَ المُرِيدِينَ يَشْهَدُونَ الكَوْنَ ، ثُمَّ يَشْهَدُونَ المُكَوِّنَ عِنْدَهُ وبِأَثَرِهِ ، فَيَنْمَحِقُ الكَوْنُ مِنْ نَظَرِهِمْ بِمُجَرَّدِ نَظَرِهِمْ إِلَيْهِ ، وهَذا حالُ المُسْتَشْرِفِين .

وأَهْلُ مَقامِ الفَناءِ يَشْهَدُونَ الحَقَّ قَبْلَ شُهُودِ الخَلْقِ ؛ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لا يَرَوْنَ الخَلْقَ أَصْلًا ، إِذْ لا ثُبُوتَ لَهُ عِنْدَهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ لِسَكْرَتِهِمْ غائِبُونَ عَنِ الواسِطَةِ ، فانُونَ عَنِ الحِكْمَةِ ، غَرْقَى فِي بَحْرِ الأَنْوارِ ، مَطْمُوسٌ عَلَيْهِمُ الآثار .

وفِي هَذا المَقامِ قالَ بَعْضُهُمْ : ما رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا رَأَيْتُ اللّٰهَ قَبْلَهُ .

وأَهْلُ الحِجابِ مِنْ أَهْلِ الدَّلِيلِ والبُرْهانِ إِنَّما يَشْهَدُونَ الكَوْنَ ، ولا

يَشْهَدُونَ المُكَوِّنَ ، لا قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ ، إنَّما يَسْتَدِلُّونَ عَلَى وُجُودِهِ بِوُجُودِ الكَوْنِ ، وهَذا لِعامَّةِ المُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ اليَمِينِ قَدْ أَعْوَزَهُمْ ، أَيْ : فاتَهُمْ وُجُودُ الأَنْوارِ ومُنِعُوا مِنْها ، وحُجِبَتْ عَنْهُمْ شُمُوسُ المَعارِفِ بِسُحُبِ الآثارِ بَعْدَ طُلُوعِها وإشْراقِ نُورِها ، لَكِنْ لا بُدَّ للشَّمْسِ مِنْ سَحاب ، وللحَسْناءِ مِنْ نِقاب ، ولِلّهِ دَرُّ القائِل :

وَمَا احْتَجَبَتْ إِلَّا بِرَفْعِ حِجَابِهَا ❁ وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الظُّهُورَ تَسْتُرُ

وقالَ آخَرُ :

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ

إِلَّا عَلَى أَكْمَهٍ لا يُبْصِرُ الْقَمَرَا

لَكِنْ بَطَنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِبًا

وَكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بِالعِزَّةِ اسْتَتَرَا

ثُمَّ احْتِجابُهُ تَعالَى فِي حالِ ظُهُورِهِ مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ قَهْرِهِ ؛ كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ قَهْرِهِ سُبْحانَهُ أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِما لَيْسَ بِمَوْجُودٍ مَعَهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مِنْ أَسْمائِهِ تَعالَى القَهَّارُ ، ومِنْ مَظاهِرِ قَهْرِهِ

احْتِجابُهُ فِي ظُهُورِهِ ، وظُهُورُهُ فِي بُطُونِهِ ، وبُطُونُهُ فِي ظُهُورِهِ ، وظُهُورُهُ فِي بُطُونِهِ ، وبُطُونُهُ فِي ظُهُورِهِ ، مِمَّا يَدُلُّكَ أَيْضًا عَلَى وُجُودِ قَهْرِهِ أَنِ احْتَجَبَ بِلا حِجاب ، وقَرُبَ بِلا اقْتِراب ، بَعِيدٌ فِي قُرْبِهِ ، قَرِيبٌ فِي بُعْدِهِ ، احْتَجَبَ عَنْ خَلْقِهِ فِي حالِ ظُهُورِهِ لَهُمْ ، وظَهَرَ لَهُمْ فِي حالِ احْتِجابِهِ عَنْهُمْ ، فاحْتَجَبَ عَنْهُمْ بِشَيْءٍ لَيْسَ بِمَوْجُود ، وهُوَ الوَهْمُ ، والوَهْمُ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ مَفْقُود ، فَما حَجَبَهُ إِلَّا شِدَّةُ ظُهُورِهِ ، وما مَنَعَ الأَبْصارَ مِنْ رُؤْيَتِهِ إِلَّا قَهَّارِيَّةُ نُورِهِ ، فَتَحَصَّلَ انْفِرادُ الحَقِّ بِالوُجُود ، ولَيْسَ مَعَ اللهِ مَوْجُود ، قالَ تَعالَى :﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (١) واسْمُ الفاعِلِ حَقِيقَةٌ فِي الحال .

وقالَ تَعالَى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ (٢) ، وقالَ تَعالَى : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ (٣) ، وقالَ تَعالَى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (٤) ، وقالَ تَعالَى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ (٥) وقالَ تَعالَى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (٦) ، وقالَ تَعالَى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ (٧) ، وقالَ

---

(١) سُورَةُ القَصَص : مِنَ الآيَة ٨٨ .
(٢) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ٣ .
(٣) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١١٥ .
(٤) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ٤ .
(٥) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٦٠ .
(٦) سُورَةُ الأَنْفال : مِنَ الآيَة ١٧ .
(٧) سُورَةُ الفَتْح : مِنَ الآيَة ١٠ .

ﷺ : (أَفْضَلُ كَلِمَةٍ قالَها الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيد : أَلا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللّهَ باطِلُ)[1].

وقالَ ﷺ : (يَقُولُ اللّهُ تَعالَى : يا عَبْدِي ! مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ، فَيَقُولُ : يا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِين ؟ فَيَقُولُ اللّهُ : أَما إِنَّهُ مَرِضَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تَعُدْهُ ، فَلَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ ، ثُمَّ يَقُولُ : يا عَبْدِي اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي ، ثُمَّ يَقُولُ : اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي) الحَدِيث ؛ فَدَلَّ الحَدِيثُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الهَياكِلَ والأَشْخاصَ خَيالاتٌ لا حَقِيقَةَ لَها ، فَهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالظِّلال ؛ قالَ الشُّشْتُرِي رضي الله عنه :

الْخَلْقُ خَلْقُكُمُ وَالْأَمْرُ أَمْرُكُمُ ❁ فَأَيُّ شَيْءٍ أَنَا لَكُنْتُ مِنْ ظُلَلِ

مَا لِلْحِجَابِ مَكَانٌ فِي وُجُودِكُمُ ❁ إِلا بِسِرِّ حُرُوفِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ

أَنْتُمْ دَلَلْتُمْ عَلَيْكُمْ مِنْكُمُ وَلَكُمْ ❁ دَيْمُومَةٌ عَبَّرَتْ عَنْ غامِضِ الْأَزَلِ

وَقَدْ عَرَفْتُ بِكُمْ هَذَا الْخَبِيرَ بِكُمْ ❁ أَنْتُمْ هُمُ يَا حَيَاةَ الْقَلْبِ يَا أَمَلِي[2]

قَوْلُهُ : الخَلْقُ خَلْقُكُمْ إِلخ : المُرادُ بِالخَلْقِ صُوَرُ الأَشْباح ، وبالأَمْرِ سِرُّ الأَرْواح ؛ أَي : الأَشْباحُ حِكْمَتُكُمْ ، والأَرْواحُ سِرٌّ مِنْ أَسْرارِكُمْ ، فَأَنا لا وُجُودَ لِي أَصْلًا ، فَأَيُّ شَيْءٍ قَدَّرْتُ نَفْسِي وَجَدْتُها لَكُمْ ومَظْهَراً مِنْ

---

(١) والبَيْتُ الشِّعْرِيُّ هُوَ : أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلا اللّهَ باطِلُ ❁ وَكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحالَةَ زَائِلُ

(٢) قَدْ : زِيادَةٌ يَقْتَضِيها الوَزْن .

مَظاهِرِكُمْ ، وإنَّما أنا ظِلٌّ مِنْ ظِلِّ وُجُودِكُمْ ، إذْ لَوْ كانَ للحِجابِ مَكانٌ فِي وُجُودِكُمْ لَكانَ أَقْرَبَ إلَيْنا مِنْكُمْ ، وهُوَ مُحالٌ ، لأَنَّكَ قُلْتَ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (١).

وقَوْلُهُ : إلَّا بِسِرِّ حُرُوفِ إلخ ، الاسْتِثْناءُ مُنْقَطِعٌ ؛ أَيْ : لا مَوْضِعَ لِلحِجابِ الحِسِّيِّ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ ، لَكِنَّ حِجابَ القَهْرِيَّةِ ورِداءَ العِزَّةِ والكِبْرِياءِ هُوَ الَّذِي مَنَعَ الأَبْصارَ مِنْ رُؤْيَةِ نُورِكُمُ الأَصْلِيِّ الجَبَرُوتِي ، إذْ لَوْ ظَهَرَ ذَلِكَ النُّورُ لاضْمَحَلَّتِ المُكَوَّناتُ ولاحْتَرَقَتْ مِنْ نُورِ السُّبُحاتِ ، ولِهَذا السِّرِّ أَمَرَ اللّهُ سَيِّدَنا مُوسَىٰ عليه السلام حِينَ طَلَبَ الرُّؤْيَةَ بِالنَّظَرِ إلَى الجَبَلِ ، لَمَّا أَرادَ تَعالَى أَنْ يَتَجَلَّى لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا لَمْ يَثْبُتِ الجَبَلُ لِشَيْءٍ قَلِيلٍ مِنْهُ ، عَلِمْنا أَنَّهُ لا طاقَةَ لِلعَبْدِ الضَّعِيفِ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَلَى رُؤْيَةِ الواحِدِ القَهَّارِ إلَّا بِواسِطَةِ الأَكْوانِ الكَثِيفَةِ بَعْدَ أَنْ نَشَرَ عَلَيْها الأَرْدِيَةَ المَعْنَوِيَّةَ ، وهَذا مَعْنَى قَوْلِهِ : إلَّا بِسِرِّ حُرُوفِ ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ ، أَيْ : إلَّا بِحِجابِ القَهْرِيَّةِ المَفْهُومِ مِنْ سِرِّ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ ، وكَأَنَّهُ تَعالَى يَقُولُ : يا مُوسَى ! لَنْ تَقْدِرَ

---

(١) سُورَةُ ق : الآيَة ١٦ .

أَنْ تَرانِي مِنْ غَيْرِ حِجابِ الحِكْمَة ، ولَكِن انْظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنْ أَطاقَ ذَلِكَ فَسَوْفَ تَرانِي أَنْتَ ، فَلَمَّا تَجَلَّى لَهُ الحَقُّ تَعالَى مِنْ غَيْرِ واسِطَةِ الحِسِّ جَعَلَهُ دَكَّاء .

وقالَ أَيْضًا فِي هَذا المَعْنَى :

أَنَـا شَـيْءٌ عَـجِـيبٌ لِمَـنْ رَآنِـي ❁ وَأَنَا الْمُحِبُّ وَالْحَبِيبُ لَيْسَ ثَمَّ ثَانِي

يَا قَاصِدًا عَيْنَ الْخَبَرْ غَطَّاهُ أَيْنُكَ ❁ الْخَمْرُ مِنْكَ وَالْخَبَرْ وَالسِّرُّ عِنْدَكْ

ارْجِعْ لِذَاتِكَ وَاعْتَبِرْ مَا ثَمَّ غَيْرُكْ

فَقَوْلُهُ : يا قاصِداً عَيْنَ الخَبَر ؛ أَيْ : عَيْنَ خَبَرِ التَّحْقِيق ، وقَوْلُهُ : غَطَّاهُ أَيْنُكَ : أَيْ مَكانُ وُجُودِكَ الوَهْمِيِّ ؛ إِذْ لَوْ غِبْتَ عَنْ وُجُودِكَ لَوَقَعْتَ عَلَى عَيْنِ التَّحْقِيق .

وقَوْلُهُ : الخَمْرُ مِنْكَ ؛ أَيْ : شَرْبَةُ خَمْرِ المَحَبَّةِ مِنْكَ ، وهَذا كَما قالَ : مِنِّي عَلَيَّ دارَتْ كُؤُوسِي .

وقَوْلُهُ : والخَبَر ؛ أَي : والخَبَرُ عَنْ عَيْنِ التَّحْقِيقِ مِنْكَ أَيْضًا ، وسِرُّ الرُّبُوبِيَّةِ عِنْدَكَ ؛ لأَنَّكَ كَنْزٌ مُطَلْسَمٌ ، فَإِذا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَهُ فارْجِعْ لِذاتِكَ ، واعْتَبِرْ تَجِدِ الوُجُودَ كُلَّهُ واحِداً ، وأَنْتَ ذَلِكَ الواحِد ؛ قالَ قائِلُهُمْ :

هَذَا الْوُجُودُ وَإِنْ تَعَدَّدَ ظَاهِرًا ❁ وَحَـيَاتِكُـمْ مَـا فِـيهِ إِلَّا أَنْتُـمُ

وقالَ أَيْضًا رضي الله عنه : لَقَدْ فَشَا سِرِّي بِلا مَقال ، وقَدْ ظَهَرَ عَنِّي فِي ذا المِثال ، تَرَى وُجُودَ غَيْرِي مِنَ المُحال ، وكُلُّ ما دُونِي خَيالٌ فِيَّ مُتَّحِدٌ فِي كُلِّ شَيْء ، أَنا هُوَ المَحْبُوبُ وأَنا الحَبِيبُ ، والحُبُّ لِي مِنِّي شَيْءٌ عَجِيب ، وَحْدِي أَنا فافْهَمْ سِرِّي غَرِيب ، فَمَنْ نَظَرَ ذاتِي رَآنِي شَيّ ، وفِي حُلا ذَاتِي طَوانِي طَيّ ، صِفاتِي لا تَخْفَى لِمَنْ نَظَر ، وذاتِي مَعْلُومَةُ تِلْكَ الصُّوَر ، افْنَ عَنِ الإِحْساسِ تَرَ عِبَر ، فِي السِّرِّ والمَعْنَى خَفِيتُ كَيْ أَظْهَر ؛ لأَنَّهُ مَنْ سَتَرَ عَلَيّ .

وقَدِ اتَّفَقَتْ عَلَى هَذا المَعْنَى ، وهُوَ سِرُّ الوِحْدَةِ مَقالاتُ العارِفِينَ ومَواجِيدُ المُحِبِّينَ وأَشْعارُهُمْ ، كُلٌّ عَلَى قَدْرِ ذَوْقِهِ وشُرْبِهِ ، جَزاهُمُ اللّهُ عَنَّا وعَنِ المُسْلِمِينَ خَيْراً .

ولا يَفْهَمُ هَذِهِ العِباراتِ إِلَّا أَهْلُ الأَذْواقِ والإِشاراتِ ، وحَسْبُ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ لَها فَهْمُه ، ولَمْ يُحِطْ بِها عِلْمُه ، أَنْ يُسَلِّمَ ويَكِلَ فَهْمَها إِلَى أَرْبابِها ، ولْيَعْتَقِدْ كَمالَ التَّنْزِيهِ وبُطْلانَ التَّشْبِيهِ ، لأَنَّ هَذِهِ المَعانِي أَذْواق ، لا تُنالُ إِلَّا بِصُحْبَةِ أَهْلِ الأَذْواق .

ثُمَّ اسْتَدَلَّ ابنُ عَطاءِ اللّهِ عَلَى بُطْلانِ وُجُودِ الحِجابِ فِي حَقِّهِ تَعالَى بِعَشَرَةِ أُمُورٍ مُتَعَجِّبًا مِنْ كُلِّ واحِدٍ ؛ لِظُهُورِهِ مَعَ خَفائِهِ ؛ أَيْ : لِشِدَّةِ

ظُهُورِهِ عِنْدَ العارِفِينَ ، وشِدَّةِ خَفائِهِ عِنْدَ الغافِلِينَ الجاهِلِينَ ، فَأَشارَ إِلَى الأَوَّلِ بِقَوْلِهِ :

(كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؟ وهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ!) :

والظَّاهِرُ هُوَ الباطِنُ ؛ ما بَطَنَ فِي عالَمِ الغَيْبِ هُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِي عالَمِ الشَّهادَةِ ، فَحِياضُ الجَبَروتِ مُتَدَفِّقَةٌ بِأَنْوارِ المَلَكُوت ، انْظُرْ جَمالِي شاهِداً فِي كُلِّ إِنْسان ، الماءُ يَجْرِي نافِذاً فِي أُسِّ الأَغْصان ، تَجِدْهُ ماءً واحِداً والزَّهْرُ أَلْوان ، يا عَجَبًا كَيْفَ يُعْرَفُ بِالمَعارِفِ مَنْ بِهِ عُرِفَتِ المَعارِف ؟

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِي عَلَيْكَ شَهَادَةً ۞ وَأَنْتَ الَّذِي أَشْهَدْتَهُ كُلَّ شَاهِدِ

ثُمَّ ذَكَرَ الثَّانِي فَقالَ :

(كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وهُوَ الَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ ؟!) :

بِباءِ الجَرِّ ، أَيْ : تَجَلَّى بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَلا وُجُودَ لِشَيْءٍ مَعَ وُجُودِهِ ، فَكَيْفَ يَحْجُبُهُ شَيْءٌ ؟ والغَرَضُ أَنْ لا شَيْء ، قالَ صاحِبُ العَيْنِيَّة :

تَجَلَّيْتَ فِي الْأَشْيَاءِ حِينَ خَلَقْتَهَا ۞ فَهَا هِيَ مِيطَتْ عَنْكَ فِيهَا الْبَرَاقِعُ

ثُمَّ ذَكَرَ الثَّالِثَ فَقالَ :

(كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وهُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ؟!) :

بِقُدْرَتِهِ وحِكْمَتِهِ ، القُدْرَةُ باطِنَةٌ ، والحِكْمَةُ ظاهِرَةٌ ، فالوُجُودُ كُلُّهُ بَيْنَ قُدْرَةٍ وحِكْمَةٍ ، وبَيْنَ جَمْعٍ وفَرْقٍ ، وقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : ما رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا رَأَيْتُ اللّٰهَ فِيه ؛ أَيْ بِقُدْرَتِهِ وحِكْمَتِهِ ، فَلَوْلا ظُهُورُ أَنْوارِ الصِّفاتِ ما عَرَفْتُ الذَّات ، ولَوْلا الحِسُّ ما قَبَضْتُ المَعْنَى ، ولَوْلا الكَثِيفُ ما عَرَفْتُ اللَّطِيف .

ثُمَّ ذَكَرَ الرَّابِعَ فَقالَ :

(كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وهُوَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْء ؟!) :

بِلام الجَرِّ ؛ أَي : المُتَجَلِّي لِكُلِّ شَيْءٍ بِأَسْرارِ ذاتِهِ وأَنْوارِ صِفاتِهِ ، ولَمَّا تَجَلَّى لِكُلِّ شَيْءٍ ، وعَرَفَهُ فِي الباطِنِ كُلُّ شَيْءٍ ، وسَبَّحَ بِحَمْدِهِ كُلُّ شَيْءٍ ، فَلَمْ يَحْجُبْهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ ، قالَ اللّٰهُ تَعالَى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (١) .

يَقُولُ بِلِسانِ حالِهِ : سُبْحانَ المُتَجَلِّي لِكُلِّ شَيْءٍ ، الظَّاهِرِ بِكُلِّ شَيْءٍ ، يَفْقَهُهُ العارِفُونَ ، ويَجْهَلُهُ الغافِلُونَ .

ثُمَّ ذَكَرَ الخامِسَ فَقالَ :

(كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وهُوَ الظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْء؟!) :

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٤٤ .

فَكُلُّ ما ظَهَرَ فَمِنْهُ وإِلَيْهِ ، فَكانَ فِي أَزَلِهِ ظاهِراً بِنَفْسِهِ ، ثُمَّ تَجَلَّى لِنَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، فَهُوَ الغَنِيُّ بِذاتِهِ عَنْ أَنْ يَظْهَرَ بِغَيْرِهِ ، أَوْ يَحْتاجَ إِلَى مَنْ يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ ، فالكَوْنُ كُلُّهُ مَجْمُوع ، والغَيْرُ عِنْدَنا مَمْنُوع .

ثُمَّ ذَكَرَ السَّادِسَ فَقالَ :

(كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْء ؟) :

إِذْ لا وُجُودَ لِلأَشْياءِ مَعَ وُجُودِهِ ، ولا ظُهُورَ لَها مَعَ ظُهُورِهِ ، وعَلَى تَقْدِيرِ ظُهُورِها فَلا وُجُودَ لَها مِنْ ذاتِها ، فَلَوْلا ظُهُورُهُ فِي الأَشْياءِ ما وَقَعَ عَلَيْها أَبْصار :

مَنْ لا وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ ❁ فَوُجُودُهُ لَوْلاهُ عَيْنُ مُحَال

فالعَبْدُ فِي حالَةِ الحِجابِ تَكُونُ نَفْسُهُ وُجُودُها عِنْدَهُ ضَرُورِيًّا ، ووُجُودُ الحَقِّ تَعالَى عِنْدَهُ نَظَرِيًّا ، فَإِذا عَرَفَ الحَقَّ وفَنِيَ عَنْ نَفْسِهِ وتَحَقَّقَ بِزَوالِها صارَ عِنْدَهُ وُجُودُ الحَقِّ ضَرُورِيًّا ووُجُودُ نَفْسِهِ نَظَرِيًّا ، بَلْ مُحالٌ ضَرُورِيٌّ .

قالَ سَيِّدِي أَبو الحَسَنِ الشَّاذِلِي : ((إِنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى اللهِ بِبَصَرِ الإِيمانِ والإِيقانِ ، فَأَغْنانا عَنِ الدَّلِيلِ والبُرْهانِ ، وإِنَّا لا نَرَى أَحَداً مِنَ الخَلْقِ ، فَهَلْ فِي الوُجُودِ أَحَدٌ سِوَى المَلِكِ الحَقِّ ؟ وإِنْ كانَ ولا بُدَّ فَكالهَباءِ فِي الهَواءِ ، إِنْ فَتَّشْتَهُمْ لَمْ تَجِدْهُمْ شَيْئًا)) .

زادَ فِي «لَطائِف المِنَن» : ومِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ أَنْ تَكُونَ الكائِناتُ مُوَصِّلَةً إِلَى اللهِ ، فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَها وُجُودٌ مَعَهُ حَتَّى تُوَصِّلَ ؟ أَوْ هَلْ لَها مِنَ الوُضُوحِ ما لَيْسَ لَهُ حَتَّى تَكُونَ هِيَ المُظْهِرَةَ لَهُ ؟ وإِنْ كانَتِ الكائِناتُ مُوَصِّلَةً لَهُ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ لَها مِنْ حَيْثُ ذاتُها ، لَكِنْ هُوَ الَّذِي وَلَّاها رُتْبَةَ التَّوْصِيلِ فَوَصَّلَتْ ، فَما وَصَّلَ إِلَيْهِ غَيْرُ إِلَهِيَّتِهِ ، ولَكِنَّ الحَكِيمَ هُوَ واضِعُ الأَسْبابِ ، وهِيَ لِمَنْ وَقَفَ مَعَها ، ولا يَنْفُذُ إِلَى قُدْرَتِهِ عَيْنُ الحِجابِ ، فَظُهُورُ الحَقِّ أَجْلَى مِنْ كُلِّ ما ظَهَر ؛ إِذْ هُوَ السَّبَبُ فِي ظُهُورِ كُلِّ ما ظَهَر ، وما اخْتَفَى إِلَّا مِنْ شِدَّةِ ما ظَهَر .

❁ ومِنْ شِدَّةِ الظُّهُورِ الخَفاء ❁

وإِلَى هَذا المَعْنَى أَشارَ سَيِّدِي أَحْمَدُ الرِّفاعِي بِقَوْلِهِ :

يَا مَنْ تَعاظَمَ حَتَّى رَقَّ مَعْنَاهُ ❁ وَلا تَرَدَّىٰ رِداءَ الْكِبْرِ إِلَّا هُو

أَيْ : يا مَنْ تَعاظَمَ فِي ظُهُورِهِ حَتَّى خَفِيَ مَعْناهُ .

ثُمَّ ذَكَرَ السَّابِعَ فَقالَ :

(كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وهُوَ الواحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ ؟) :

لِتَحَقُّقِ وَحْدانِيَّتِهِ أَزَلًا وأَبَداً : «كانَ اللهُ ولا شَيْءَ مَعَهُ ، وهُوَ الآنَ عَلَى ما عَلَيْهِ كانَ» .

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١) .

﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ ، فَكُلُّ ما ظَهَرَ للعَيانِ ، فَإِنَّما هُوَ مَظاهِرُ الرَّحْمٰنِ .

قالَ صاحِبُ العَيْنِيَّة :

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مَرائِي جَمَالِهِ ❁ فَفِي كُلِّ مَرْأَى لِلْحَبِيبِ طَلَائِعُ

فَلَمَّا تَجَلَّىٰ حُسْنُهُ مُتَنَوِّعًا ❁ تَسَمَّىٰ بِأَسْمَاءٍ فَهُنَّ مَطَالِعُ

فالحَقُّ تَعالَى واحِدٌ فِي ذاتِهِ وفِي صِفاتِهِ وفِي أَفْعالِهِ ، فَلا شَيْءَ قَبْلَهُ ، ولا شَيْءَ بَعْدَهُ ، ولا شَيْءَ مَعَهُ .

ثُمَّ ذَكَرَ الثَّامِنَ فَقالَ :

(كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) :

قالَ تَعالَى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (٢) ، وقالَ تَعالَى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ (٣) ، وقالَ تَعالَى : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ (٤) ، وقالَ تَعالَى : ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٥) .

---

(١) سُورَةُ النَّمْل : مِنَ الآيَة ٦٣ .
(٢) سُورَةُ ق : الآيَة ١٦ .
(٣) سُورَةُ الواقِعَة : الآيَة ٨٥ .
(٤) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٥٢ .
(٥) سُورَةُ طه : الآيَة ٧ .

وقُرْبُهُ تعالَى قُرْبُ عِلْمٍ وإحاطَةٍ وشُهُودٍ ، لا قُرْبُ مَسافَة ؛ إذْ لا مَسافَةَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ ، وتَقَدَّمَ فِي الحَدِيث : (وإنَّ اللّهَ ما حَلَّ فِي شَيْءٍ ، ولا غابَ عَنْ شَيْءٍ) .

وقالَ سَيِّدُنا الإمامُ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللّهُ وَجْهَهُ : ((الحَقُّ تعالَى لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ ، ولا فِي شَيْءٍ ، ولا فَوْقَ شَيْءٍ ، ولا تَحْتَ شَيْءٍ ؛ إذْ لَوْ كانَ مِنْ شَيْءٍ لَكانَ مَخْلُوقًا ، ولَوْ كانَ فَوْقَ شَيْءٍ لَكانَ مَحْمُولًا ، ولَوْ كانَ فِي شَيْءٍ لَكانَ مَحْصُوراً ، ولَوْ كانَ تَحْتَ شَيْءٍ لَكانَ مَقْهُوراً)) .

وقِيلَ لَهُ : يا ابنَ عَمِّ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ! أَيْنَ كانَ رَبُّنا ، أَوْ هَلْ لَهُ مَكان ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ ، وسَكَتَ ساعَةً ثُمَّ قالَ : ((وقَوْلُكُمْ : أَيْنَ اللّهُ ؟ سُؤالٌ عَنْ مَكان ، وكانَ اللّهُ ولا مَكانَ ، ثُمَّ خَلَقَ الزَّمانَ والمَكانَ ، وهُوَ الآنَ كَما كانَ دُونَ مَكانٍ ولا زَمان)) .

ثُمَّ ذَكَرَ التَّاسِعَ فَقالَ :

(كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، ولَوْلاهُ لَما ظَهَرَ وُجُودُ كُلِّ شَيْء ؟!) : قالَ اللّهُ تعالَى : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (١) ، وقالَ تعالَى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٢) .

---

(١) سُورَةُ الفُرْقان : مِنَ الآيَة ٢ . (٢) سُورَةُ القَمَر : الآيَة ٤٩ .

فَكُلُّ ما ظَهَرَ فِي عالَمِ الشَّهادَةِ فَهُوَ فائِضٌ مِنْ عالَمِ الغَيْبِ ، وكُلُّ ما بَرَزَ فِي عالَمِ المَلَكُوتِ فَهُوَ فائِضٌ مِنْ بَحْرِ الجَبَرُوتِ ، فَلا وُجُودَ لِلأَشْياءِ إِلَّا مِنْهُ ، ولا قِيامَ لَها إِلَّا بِهِ ، ولا نِسْبَةَ لَها مَعَهُ ؛ إِذْ هِيَ عَدَمٌ مَحْضٌ ، وعَلَى تَوَهُّمِ وُجُودِها فَهِيَ حادِثَةٌ فانِيَةٌ ، ولا نِسْبَةَ لِلعَدَمِ مَعَ الوُجُودِ ، ولا لِلحادِثِ مَعَ القَدِيمِ ، ولِذَلِكَ تَعَجَّبَ الشَّيْخُ مِنْ اجْتِماعِهِما فَقالَ فِي العاشِرِ :

(يا عَجَبًا كَيْفَ يَظْهَرُ الوُجُودُ فِي العَدَمِ ؟ أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ الحادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ القِدَمِ ؟!) :

فالوُجُودُ والعَدَمُ ضِدَّانِ لا يَجْتَمِعانِ ، والحادِثُ والقَدِيمُ مُتَنافِيانِ لا يَلْتَقِيانِ .

وقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الحَقَّ واجِبُ الوُجُودِ ، وأَنَّ كُلَّ ما سِواهُ عَدَمٌ عَلَى التَّحْقِيقِ ، فَإِذا ظَهَرَ الوُجُودُ انْتَفَى ضِدُّهُ ، وهُوَ العَدَمُ ، فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ وهُوَ عَدَمٌ ؟ فالحَقُّ لا يَحْجُبُهُ الباطِلُ .

قالَ تَعالَى : ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ (١) .

فَلا وُجُودَ لِلأَشْياءِ مَعَ وُجُودِهِ ، فانْتَفَى القَوْلُ بِالحُلُولِ ؛ إِذِ الحُلُولُ

---

(١) سُورَةُ يُونُس : مِنَ الآيَة ٣٢ .

يَقْتَضِي وُجُودَ السِّوَى حَتَّى يَحِلَّ فِيهِ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّة ، والفَرْضُ أَنَّ السِّوَى عَدَمٌ مَحْضٌ ، فَلا يُتَصَوَّرُ الحُلُول ، وإِلَى هَذا أَشارَ فِي العَيْنِيَّةِ بِقَوْلِهِ :

وَنَزِّهْهُ فِي حُكْمِ الْحُلُولِ فَمَا لَهُ ❁ سِوَى وَإِلَى تَوْحِيدِهِ الْأَمْرُ رَاجِعُ

والقَدِيمُ والحادِثُ لا يَلْتَقِيان ، فَإِذا قُرِنَ الحادِثُ بِالقَدِيمِ تَلاشَى الحادِثُ وبَقِيَ القَدِيمُ .

قالَ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَي الإِمامِ الجُنَيْدِ : الحَمْدُ للهِ ، ولَمْ يَقُلْ : رَبِّ العالَمِين ، فَقالَ لَهُ الجُنَيْدُ : كَمِّلْهُ يا أَخِي ، فَقالَ لَهُ الرَّجُلُ : وأَيُّ قَدْرٍ للعالَمِينَ حَتَّى يُذْكَرُوا مَعَهُ ؟ فَقالَ الجُنَيْدُ : قُلْهُ يا أَخِي ؛ فَإِنَّ الحادِثَ إِذا قُرِنَ بِالقَدِيمِ تَلاشَى الحادِثُ وبَقِيَ القَدِيمُ .

فَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الأَشْياءَ كُلَّها فِي حَيِّزِ العَدَمِ ؛ إِذْ لا يَثْبُتُ الحادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ القِدَمِ ، فانْتَفَى القَوْلُ بِالاتِّحاد ؛ إِذْ مَعْنَى الاتِّحادِ هُوَ اقْتِرانُ القَدِيمِ مَعَ الحادِثِ ، فَيَتَّحِدانِ حَتَّى يَكُونا شَيْئًا واحِداً ، وهُوَ مُحالٌ ؛ إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ أَيْضًا عَلَى وُجُودِ السِّوَى ، ولا سِوَى ، وقَدْ يُطْلِقُونَ الاتِّحادَ عَلَى الوَحْدَةِ ؛ كَقَوْلِ ابنِ الفارِض :

وَهَامَتْ بِهَا رُوحِي بِحَيْثُ تَمَازَجَا ❁ اتِّحَادًا وَلا جِرْمٌ تَخَلَّلَهُ جِرْمُ

فَأَطْلَقَ الاتِّحادَ عَلَى اتِّصالِ الرُّوحِ بِأَصْلِها بَعْدَ صِفاتِها ، ولِذَلِكَ قالَ بَعْدَهُ : ولا جِرْمٌ تَخَلَّلَهُ جِرْمُ ؛ فَتَحَصَّلَ أَنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ واحِدٌ فِي مُلْكِهِ ، قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ باقٍ أَبَدِيٌّ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الحُلُولِ والاتِّحاد ، مُقَدَّسٌ عَنِ الشُّرَكاءِ والأَضْداد ، كانَ ولا أَيْنَ ولا مَكانَ ، وهُوَ الآنَ عَلَى ما عَلَيْهِ كانَ .

ومِمَّا يُنْسَبُ لِسَيِّدِنا الإمام عَلِيٍّ - كَرَّمَ اللّٰهُ وَجْهَهُ :

رَأَيْتُ رَبِّي بِعَيْنِ قَلْبِي ❁ فَقُلْتُ لا شَكَّ أَنْتَ أَنْتَ

أَنْتَ الَّذِي حُزْتَ كُلَّ أَيْنٍ ❁ بِحَيْثُ لا أَيْنَ ثَمَّ أَنْتَ

فَلَيْسَ لِلْأَيْنِ مِنْكَ أَيْنٌ ❁ فَيَعْلَمُ الْأَيْنُ أَيْنَ أَنْتَ

وَلَيْسَ لِلْوَهْمِ فِيكَ وَهْمٌ ❁ فَيَعْلَمُ الْوَهْمُ كَيْفَ أَنْتَ

أَحَطْتَ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ ❁ فَكُلُّ شَيْءٍ أَرَاهُ أَنْتَ

وَفِي فَنَائِي فَنَا فَنَائِي ❁ وَفِي فَنَائِي وَجَدْتُ أَنْتَ

«وسُئِلَ أَبو الحَسَنِ النَّوْرِي : أَيْنَ اللّٰهُ مِنْ مَخْلُوقاتِه ؟ فَقالَ : كانَ اللّٰهُ ولا أَيْن ، والمَخْلُوقاتُ فِي عَدَم ، فَكانَ حَيْثُ هُوَ ، وهُوَ الآنَ حَيْثُ كان ؛ إِذْ لا أَيْنٌ ولا مَكان ، فَقالَ لَهُ السَّائِلُ (وهُوَ عَلِيُّ بنُ ثَوْرٍ القاضِي ، فِي قِصَّةِ مِحْنَةِ الصُّوفِيَّة) : فَما هَذِهِ الأَماكِنُ والمَخْلُوقاتُ الظَّاهِرَة ؟ فَقالَ : عِزٌّ ظاهِرٌ ، ومُلْكٌ قاهِرٌ ، ومَخْلُوقاتٌ ظاهِرَةٌ بِهِ ، وصادِرَةٌ

عَنْهُ ، لا هِيَ مُتَّصِلَةٌ بِهِ ، ولا مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ ، فَرَغَ مِنَ الأَشْياءِ ولَمْ تَفْرُغْ مِنْهُ ، لأَنَّها تَحْتاجُ إِلَيْهِ ، وهُوَ لا يَحْتاجُ إِلَيْها .

قالَ لَهُ : صَدَقْتَ ؛ فَأَخْبِرْنِي ماذا أَرادَ اللّٰهُ بِخَلْقِها ؟

قالَ : ظُهُورَ عِزَّتِهِ ومُلْكِهِ وسُلْطانِهِ ، قالَ صَدَقْتَ ؛ فَأَخْبِرْنِي ما مُرادُهُ مِنْ خَلْقِهِ ؟ قالَ : ما هُمْ عَلَيْهِ ، قالَ : أَوَ يُرِيدُ مِنَ الكَفَرَةِ الكُفْرَ ؟ قالَ : أَفَيَكْفُرُونَ بِهِ وهُوَ كارِهٌ ؟ ثُمَّ قالَ : أَخْبِرْنِي ماذا أَرادَ اللّٰهُ بِاخْتِلافِ الشِّيَعِ وتَفْرِيقِ المِلَلِ ؟ قالَ : أَرادَ إِبْلاغَ قُدْرَتِهِ ، وبَيانَ حِكْمَتِهِ ، وإِيجابَ لُطْفِهِ ، وظُهُورَ عَدْلِهِ وإِحْسانِه)) .

وفِيهِ إِشارَةٌ إِلَى أَنَّ تَجَلِّياتِ الحَقِّ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ :

١) قِسْمٌ أَظْهَرَهُمْ لِيُظْهِرَ فِيهِمْ كَرَمَهُ وإِحْسانَهُ ، وهُمْ أَهْلُ الطَّاعَةِ والإِحْسان .

٢) وقِسْمٌ أَظْهَرَهُمْ لِيُظْهِرَ فِيهِمْ عَفْوَهُ وحِلْمَهُ ، وهُمْ أَهْلُ العِصْيانِ مِنْ أَهْلِ الإِيمان .

٣) وقِسْمٌ أَظْهَرَهُمْ لِيُظْهِرَ فِيهِمْ نِقْمَتَهُ وغَضَبَهُ ، وهُمْ أَهْلُ الكُفْرِ والطُّغْيان ؛ فَهَذا سِرُّ تَجَلِّيهِ تَعالَى فِي الجُمْلَة .

آدابُ العارِف

وخُلاصَتُهُ أَنَّ العارِفَ لا يُنْكِرُ شَيْئًا ، ولا يَجْهَلُ شَيْئًا ، وقَدْ قالَ بَعْضُ العارِفِينَ : ((لَيْسَ فِي الإِمْكانِ أَبْدَعُ مِمَّا كانَ)) ، وتَأْوِيلُهُ أَنَّ ما سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ يَكُونُ لا يُمْكِنُ غَيْرُهُ ، فَلا أَبْدَعَ مِنْهُ .

وتَناوَلَ ابنُ عَطاءِ اللهِ تِلْكَ الآدابَ فِي حِكَمِهِ ، فَعَبَّرَ عَنِ الأَدَبِ الأَوَّلِ قائِلًا :

(ما تَرَكَ مِنَ الجَهْلِ شَيْئًا مَنْ أَرادَ أَنْ يَظْهَرَ فِي الوَقْتِ غَيْرُ ما أَظْهَرَهُ اللهُ فِيه) :

الجَهْلُ : هُوَ ضِدُّ العِلْمِ ، وقِيلَ هُوَ عَدَمُ العِلْمِ بِالمَقْصُودِ ، وهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : بَسِيطٌ ومُرَكَّبٌ .

فالبَسِيطُ : أَنْ يَجْهَلَ ، ويَعْلَمَ أَنَّهُ جاهِلٌ .

والمُرَكَّبُ : أَنْ يَجْهَلَ جَهْلَهُ ، وأَقْبَحُ الجَهْلِ الجَهْلُ بِاللهِ وإِنْكارُهُ بَعْدَ طَلَبِ مَعْرِفَتِهِ .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مِنْ آدابِ العارِفِ الحَقِيقِيِّ أَنْ يُقِرَّ الأَشْياءَ فِي مَحَلِّها ، ويَسِيرَ مَعَها عَلَى سَيْرِها ؛ فَكُلُّ ما أَبْرَزَتْهُ القُدْرَةُ للعَيان ، فَهُوَ فِي غايَةِ الكَمالِ والإِتْقان ، قالَ صاحِبُ العَيْنِيَّة :

وَكُلُّ قَبِيحٍ إِنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ ❁ أَتَتْكَ مَعانِي الْحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ

يُكَمِّلُ نُقْصَانَ الْقَبِيحِ جَمَالُهُ ❁ فَمَا ثَمَّ نُقْصَانٌ وَلا ثَمَّ بَاشِعُ

وقالَ أَبُو الحَسَنِ النَّوْرِي : ((مُرادُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ ما هُمْ عَلَيْهِ ، فَإِذا أَقامَ اللهُ عَبْداً فِي مَقامٍ مِنَ المَقامات ، فالواجِبُ عَلَى العارِفِ أَنْ يُقِرَّهُ فِيهِ بِقَلْبِهِ كائِنًا ما كان ، وإِنْ كانَ لا تُسْلِمُهُ الشَّرِيعَةُ رَغْبَةً فِي الخُرُوجِ عَنْهُ بِالسِّياسَةِ ، ويَنْظُرُ ما يَفْعَلُ اللهُ)) .

والواجِبُ أَنْ يُعامِلَهُمْ فِي الظَّاهِرِ بِالشَّرِيعَةِ فَيُذَكِّرَهُمْ ، وفِي الباطِنِ بِالحَقِيقَةِ فَيَعْذُرَهُمْ .

ومَنْ أَرادَ أَنْ يَظْهَرَ فِي الوَقْتِ غَيْرُ ما أَظْهَرَهُ اللهُ تَعالَى فِي نَفْسِهِ أَوْ فِي غَيْرِهِ ، فَقَدْ جَمَعَ الجَهْلَ كُلَّهُ ، ولَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا ، حَيْثُ عارَضَ القَدَرَ ، ونازَعَ القادِرَ ، وقَدْ قالَ تَعالَى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١) ، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (٢) ، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) .

وفِي بَعْضِ الأَخْبارِ يَقُولُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى : (مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضائِي ، ولَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلائِي ، فَلْيَخْرُجْ مِنْ تَحْتِ سَمائِي ، وَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوايَ) .

---

(١) سُورَةُ هُود : مِنَ الآيَة ١٠٧ .
(٢) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ١١٢ .
(٣) سُورَةُ يُونُس : مِنَ الآيَة ٩٩ .

وقالَ سَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ وسَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم : ((لأَنْ أَلْحَسَ جَمْرَةً أَحْرَقَتْ ما أَحْرَقَتْ ، وأَبْقَتْ ما أَبْقَتْ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ لِشَيْءٍ كانَ : لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ ، أَوْ لِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ : لَيْتَهُ كانَ)) .

وقالَ أَبو عُثْمانَ رضي الله عنه : مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ما أَقامَنِي اللهُ تَعالَى فِي حالٍ فَكَرِهْتُهُ ، ولا نَقَلَنِي إِلَى غَيْرِهِ فَسَخِطْتُهُ .

قِيلَ : ((إِنَّ الوَلِيَّ الكامِلَ يَتَطَوَّرُ بِجَمِيعِ الأَطْوارِ يَقْضِي جَمِيعَ الأَوْطارِ)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : ومَنْ تَأَمَّلَ الأَحادِيثَ النَّبَوِيَّةَ وَجَدَها عَلَى هَذا المِنْوال ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ سَيِّدَ العارِفِينَ ، وقُدْوَةَ المُرَبِّينَ ، فَكانَ يُقِرُّ النَّاسَ عَلَى ما أَقامَهُمُ اللهُ فِي حِكْمَتِهِمْ ويُرَغِّبُهُمْ فِيها ، فَلِذَلِكَ تَجِدُ الأَحادِيثَ تَبْدُو مُتَعارِضَةً ، ولا تَعارُضَ فِي الحَقِيقَة ؛ فَإِذا نَظَرْتَ فِي أَحادِيثِ الذِّكْرِ قُلْتَ : لا أَفْضَلَ مِنْهُ ، وإِذا نَظَرْتَ فِي أَحادِيثِ الجِهادِ ، قُلْتَ : لا أَفْضَلَ مِنْهُ ، وإِذا نَظَرْتَ فِي أَحادِيثِ فَضْلِ العِلْمِ ، قُلْتَ : لا أَفْضَلَ مِنْهُ ، وإِذا نَظَرْتَ فِي أَحادِيثِ الزُّهْدِ والتَّجْرِيدِ مِنْ أَسْبابِ الدُّنْيا ، قُلْتَ : لا أَفْضَلَ مِنْهُ ، وإِذا نَظَرْتَ فِي أَحادِيثِ الكَسْبِ والخِدْمَةِ عَلَى العِيالِ كَذَلِكَ ، فَكُلُّ حِكْمَةٍ رَغَّبَ النَّبِيُّ ﷺ فِيها حَتَّى تَقُولَ : لا أَفْضَلَ مِنْها ، تَطْيِيبًا لِخاطِرِ أَهْلِها ، لِيَكُونُوا فِيها عَلَى بَيِّنَةٍ

مِنْ رَبِّهِمْ ، ولَمْ يَأْمُرْهُمْ ﷺ بالانْتِقالِ عَنْها ؛ إذْ مُرادُ اللهِ مِنْهُمْ هُوَ تِلْكَ الحِكْمَة ، فَأَقَرَّهُمْ ﷺ عَلَيْها ، ورَغَّبَهُمْ فِيها حَتَّى يَظُنَّ مَنْ يَسْمَعُ أَحادِيثَها أَنَّهُ لا أَفْضَلَ مِنْها ، وهُوَ كَذَلِكَ ؛ إذْ لا أَفْضَلَ مِنْها فِي حَقِّ أَهْلِها .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ **الأَدَبَ الثَّانِي** مِنْ آدابِ الحَضْرَةِ القُدْسِيَّةِ ، وهُوَ تَرْكُ الرُّعُوناتِ البَشَرِيَّةِ ، فَقالَ :

(إحالَتُكَ الأَعْمالَ عَلَى وُجُودِ الفَراغِ مِنْ رُعُوناتِ النُّفُوس) :

الإحالَةُ عَلَى الشَّيْءِ : هُوَ تَسْلِيطُهُ وإغْراؤُهُ عَلَيْهِ ، والمُرادُ هُنا : تَوَقُّفُ الأَمْرِ عَلَيْهِ ، بِحَيْثُ لا يَتَوَجَّهُ لَهُ حَتَّى يَتَيَسَّرَ وُجُودُهُ ، والفَراغُ مِنَ الشَّيْءِ : خُلُوُّهُ مِنْهُ ، **وفَراغُ القَلْبِ** : خُلُوُّهُ مِمَّا يَشْغَلُهُ ، **وفَراغُ الجَوارِحِ** : خُلُوُّها مِنَ الأَشْغال ، **والرُّعُونَةُ** : نَوْعٌ مِنَ الحُمْق .

مِنْ آدابِ العارِفِ أَنْ يَكُونَ كامِلَ العَقْلِ ، ثاقِبَ الذِّهْنِ .

ومِنْ عَلامَةِ العَقْلِ انْتِهازُ الفُرْصَةِ فِي العَمَل ، ومُبادَرَةُ العُمْرِ مِنْ غَيْرِ تَسْوِيفٍ ولا أَمَل ؛ إذْ ما فاتَ مِنْهُ لا عِوَضَ لَهُ ، وما حَصَلَ لا قِيمَةَ لَهُ .

وفِي الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (أَلا وإنَّ مِنْ عَلامَةِ العَقْلِ التَّجافِيَ عَنْ دارِ الغُرُور ، والإنابَةَ إلَى دارِ الخُلُود ، والتَّزَوُّدَ لِسُكْنَى القُبُور ، والتَّأَهُّبَ لِيَوْمِ النُّشُور) .

وقالَ ﷺ :(الكَيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ ، وعَمِلَ لِما بَعْدَ المَوْتِ ، والأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاها ، وتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمانِيَّ) .

والكَيِّسُ : هُوَ العاقِلُ ، ودانَ نَفْسَهُ : حاسَبَها .

وفِي صُحُفِ إِبْراهِيمَ عليه السلام :((وعَلَى العاقِلِ ما لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ أَنْ تَكُونَ لَهُ ساعات : ساعَةٌ يُناجِي فِيها رَبَّهُ عَزَّ وجَلَّ ، وساعَةٌ يُحاسِبُ فِيها نَفْسَهُ ، وساعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيها فِي صُنْعِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، وساعَةٌ يَخْلُو فِيها بِحاجَتِهِ مِنَ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ)) .

وعَلَى العاقِلِ أَلَّا يَكُونَ ظاعِنًا إِلَّا لِثَلاث : تَزَوُّدٍ لِمَعادٍ ، أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعاشٍ ، أَوْ لَذَّةٍ مِنْ غَيْرِ مُحَرَّمٍ ، وعَلَى العاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيراً بِزَمانِهِ ، مُقْبِلًا عَلَى شانِهِ ، حَفَّاظًا لِلِسانِهِ ، ومَنْ حَسِبَ كَلامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلامُهُ إِلَّا فِيما يَعْنِيهِ .

فَإِحالَتُكَ الأَعْمالَ وتَأْخِيرُها إِلَى وَقْتٍ تَكُونُ فِيهِ فارِغَ القَلْبِ أَوِ القالَبِ مِنْ عَلامَةِ الرُّعُونَةِ والحُمْقِ ، وهُوَ غُرورٌ ، ومِنْ أَيْنَ لَكَ أَنْ تَصِلَ إِلَى ذَلِكَ الوَقْتِ ، والمَوْتُ هاجِمٌ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لا تَشْعُر ؟ وعَلَى تَقْدِيرِ وُصُولِكَ إِلَيْهِ لا تَأْمَنُ مِنْ شُغْلٍ آخَرَ يَعْرِضُ لَكَ ، وفَراغُ الأَشْغالِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نادِرٌ لِقَوْلِهِ ﷺ :(نِعْمَتانِ مَغْبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ :

الصِّحَّةُ ، والفَراغُ) .

أَيْ : كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَقَدُوهُما وغُبِنُوا فِيهِما ؛ إِذْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لا تَجِدُهُ إِلَّا مَشْغُولًا بِدُنْيا ، أَوْ مَفْتُونًا بِهَوًى ، أَوْ مَرِيضًا مُبْتَلًى .

ومَفْهُومُ الكَثِيرِ أَنَّ القَلِيلَ مِنَ النَّاسِ رَزَقَهُمُ اللهُ الصِّحَّةَ والفَراغ ، فَإِنْ عَمَرُوهُما بِطاعَةِ مَوْلاهُمْ ، فَقَدْ شَكَرُوا ورَبِحُوا رِبْحًا عَظِيمًا ، وإِنْ ضَيَّعُوهُما ، فَقَدْ خَسِرُوا خُسْرانًا مُبِينًا ، وكَفَروا بِهاتَيْنِ النِّعْمَتَيْنِ ، فَجَدِيرٌ أَنْ تُسْلَبا عَنْهُمْ ، وهُوَ أَيْضًا مِنْ عَلامَةِ الخِذْلان .

وسَيَأْتِي مِنْ كَلامِ الشَّيْخِ : (الخِذْلانُ كُلُّ الخِذْلانِ أَنْ تَقِلَّ عَوائِقُكَ ، ثُمَّ لا تُقْبِلَ عَلَيْهِ) .

فالواجِبُ عَلَى الإِنْسانِ أَنْ يَقْطَعَ عَلائِقَهُ وعَوائِقَهُ ، ويُخالِفَ هَواهُ ، ويُبادِرَ إِلَى خِدْمَةِ مَوْلاهُ ، ولا يَنْتَظِرَ وَقْتًا آخَرَ ؛ إِذِ الصُّوفِيُّ ابنُ وَقْتِهِ ، فَلا تَجِدُهُ مَشْغُولًا إِلَّا بِفِكْرَةٍ أَوْ نَظْرَةٍ ، أَوْ ذِكْرٍ أَوْ مُذاكَرَةٍ ، أَوْ خِدْمَةِ شَيْخٍ يُوَصِّلُهُ إِلَى مَوْلاه .

فالصُّوفِيُّ الصِّدِّيقُ لَيْسَ لَهُ فِكْرَةٌ ولا هَدْرَةٌ إِلَّا فِي الحَضْرَة ، أَوْ ما يُوَصِّلُهُ للحَضْرَة .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ الأَدَبَ الثَّالِثَ : وهُوَ إِقامَتُهُ حَيْثُ أَقامَهُ اللهُ ،

فَقالَ :

(لا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حالَةٍ لِيَسْتَعْمِلَكَ فِيما سِواها ، فَلَوْ أَرادَكَ لاسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْراج) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مِنْ آدابِ العارِفِ الاكْتِفاءُ بِعِلْمِ اللّهِ والاسْتِغْناءُ بِهِ عَمَّا سِواهُ ، فَإِذا أَقامَهُ اللّهُ تَعالَى فِي حالَةٍ مِنَ الأَحْوالِ فَلا يَسْتَحْقِرُها ويَطْلُبُ الخُرُوجَ مِنْها إِلَى حالَةٍ أُخْرَى ، فَلَوْ أَرادَ الحَقُّ تَعالَى أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ تِلْكَ الحالَةِ ويَسْتَعْمِلَهُ فِيما سِواها لاسْتَعْمَلَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ أَوْ يُخْرِجَهُ ، بَلْ يَمْكُثُ عَلَى ما أَقامَهُ فِيهِ الحَقُّ تَعالَى حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى إِخْراجَهُ كَما تَوَلَّى إِدْخالَهُ : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (١) .

فالمَدْخَلُ الصِّدْقُ : هُوَ أَنْ تَدْخُلَ فِيهِ بِاللّهِ، **والمَخْرَجُ الصِّدْقُ** : هُوَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهُ بِاللّهِ ، وهَذا هُوَ الفَهْمُ عَنِ اللّهِ، وهُوَ مِنْ عَلامَةِ تَحَقُّقِ المَعْرِفَةِ بِاللّه ؛ فالعارِفُ بِاللّهِ هُوَ كَما وَصَفَهُ صاحِبُ العَيْنِيَّةِ بِقَوْلِهِ :

أَرانِيَ كَالْآلاتِ وَهْوَ مُحَرِّكِي ❁ أَنَا قَلَمٌ وَالْإِقْتِدَارُ أَصَابِعُ

قالَ تَعالَى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٨٠ .

ٱلْخِيَرَةُ﴾ [1] ، وقالَ تعالَى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [2].

وأَوْحَى اللهُ تعالَى إِلَى سَيِّدِنا داوُود عليه السلام فقالَ :(يا داوُود ! تُرِيدُ وأُرِيدُ ، ولا يَكُونُ إِلَّا ما أُرِيدُ ، فَإِنْ سَلَّمْتَ لِي ما أُرِيدُ ، أَتَيْتُكَ بِما تُرِيدُ ، وإِنْ لَمْ تُسَلِّمْ لِي ما أُرِيدُ ، أَتْعَبْتُكَ فِيما تُرِيدُ ، ولا يَكُونُ إِلَّا ما أُرِيدُ) .

وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه :(جَفَّ القَلَمُ بِما أَنْتَ لاقٍ) .

وفِي حَدِيثٍ آخَرَ : (جَفَّتِ الأَقْلامُ ، وطُوِيَتِ الصُّحُفُ) .

وهَذا كُلُّهُ إِذا كانَ الحالُ الَّذِي هُوَ فِيهِ مُوافِقًا للشَّرِيعَة ، وإِلَّا فَلْيَطْلُبِ الخُرُوجَ مِنْهُ بِما يُمْكِنُ) .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ **الأَدَبَ الرَّابِعَ** : وهُوَ رَفْعُ الهِمَّةِ عَنِ الأَكْوانِ ودَوامُ التَّرَقِّي فِي مَقاماتِ العِرْفانِ ، فَقالَ :

(ما أَرادَتْ هِمَّةُ سالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَ كَشْفٍ لَها ، إِلَّا ونادَتْهُ هَواتِفُ الحَقِيقَة : الَّذِي تَطْلُبُ أَمامَكَ ، ولا تَبَرَّجَتْ لَهُ ظَواهِرُ المُكَوِّنات ، إِلَّا ونادَتْهُ حَقائِقُها : إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ) :

هِمَّةُ السَّالِك : هِيَ القُوَّةُ الباعِثَةُ لَهُ عَلَى السَّيْر ، ووُقُوفُها مَعَ الشَّيْء : هُوَ اعْتِقادُها أَنَّ ما وَصَلَتْ إِلَيْهِ هُوَ الغايَة ، أَوْ فِيهِ كِفايَة ، **وهَواتِفُ**

---

(١) سُورَةُ القَصَص : مِنَ الآيَة ٦٨ . (٢) سُورَةُ الإِنْسان : مِنَ الآيَة ٣٠ .

الحَقِيقَة : هِيَ لِسانُ حالِ الكَشْفِ عَنْ عَيْنِ التَّحْقِيق ، **وتَبَرُّجُ الشَّيْء** : ظُهُورُهُ فِي حالِ الزِّينَةِ لِقَصْدِ الإمالَة ، **وظَواهِرُ المُكَوِّنات** : هُو ما كَساها مِنَ الحُسْنِ والحِكْمَة ، **وتَزْيِينُها** : هُوَ خَرْقُ عَوائِدِها لَهُ وانْقِيادُها لِحُكْمِهِ ، **وحَقائِقُها** : نُورُها الباطِنِي ، وهُوَ تَجَلِّي المَعْنَى فِيها .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : السَّالِكُ هُوَ الَّذِي يَشْهَدُ الأَثَرَ ، فَإِنْ كانَ يَشْهَدُهُ فِي نَفْسِهِ فَهُوَ سالِكٌ فَقَطْ وهُوَ فِي حالَةِ السَّيْر ، وإِنْ كانَ يَشْهَدُهُ بِاللهِ فَهُوَ سالِكٌ مَجْذُوب .

والمَقاماتُ الَّتِي يَقْطَعُها ثَلاثَةٌ : فَناءٌ فِي الأَفْعالِ ، وفَناءٌ فِي الصِّفاتِ ، وفَناءٌ فِي الذَّات .

أَوْ تَقُولُ : فَناءٌ فِي الاسْم ، وفَناءٌ فِي الذَّاتِ ، وفَناءٌ فِي الفَناءِ وهُوَ مَقامُ البَقاء ، ثُمَّ التَّرَقِّي إِلَى ما لا نِهايَةَ لَهُ ، فَإِذا كُشِفَ لِلسَّالِكِ عَنْ سِرِّ تَوْحِيدِ الأَفْعالِ وذاقَ حَلاوَتَهُ وأَرادَتْ هِمَّتُهُ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَلِكَ المَقام نادَتْهُ هَواتِفُ حَقِيقَةِ الفَناءِ فِي الصِّفاتِ : الَّذِي تَطْلُبُ أَمامَكَ ، وإِذا تَرَقَّى إِلَى مَقامِ الفَناءِ فِي الصِّفاتِ وكُشِفَ لَهُ عَنْ سِرِّ تَوْحِيدِ الصِّفاتِ واسْتَشْرَفَ عَلَى الفَناءِ فِي الذَّاتِ ، وأَرادَتْ هِمَّتُهُ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَلِكَ المَقامِ نادَتْهُ هَواتِفُ حَقِيقَةِ الفَناءِ فِي الذَّاتِ : الَّذِي تَطْلُبُ

أَمامَكَ ، وإذا تَرَقَّى إلَى الفَناءِ فِي الذَّاتِ وكُشِفَ لَهُ سِرُّ تَوْحِيدِ الذَّاتِ وأَرادَتْ هِمَّتُهُ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَلِكَ المَقامِ نادَتْهُ هَواتِفُ حَقِيقَةِ فَناءِ الفَناءِ أَوْ حَقِيقَةِ البَقاءِ : الَّذِي تَطْلُبُ أَمامَكَ ، وإذا وَصَلَ إلَى البَقاءِ ، نادَتْهُ هَواتِفُ العُلُومِ الغَيْبِيَّةِ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١) .

أَوْ تَقُولُ : إذا كُشِفَ للمُرِيدِ عَنِ الفَناءِ فِي الاسْمِ وذاقَ حَلاوَةَ العَمَلِ والذِّكْرِ وأَرادَتْ هِمَّتُهُ أَنْ تَقِفَ مَعَها ، نادَتْهُ هَواتِفُ حَقائِقِ الفَناءِ فِي الذَّاتِ : الَّذِي تَطْلُبُ أَمامَكَ ، فَإذا تَرَقَّى إلَى مَقامِ الفَناءِ فِي الذَّاتِ وذاقَ حَلاوَتَهُ ولَمْ يَتَمَكَّنْ وقَنِعَ بِذَلِكَ وأَرادَتْ هِمَّتُهُ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَلِكَ ، نادَتْهُ هَواتِفُ حَقِيقَةِ التَّمْكِينِ : الَّذِي تَطْلُبُ أَمامَكَ ، وإذا تَمَكَّنَ ولَمْ يَطْلُبْ زِيادَةَ التَّرَقِّي ، نادَتْهُ هَواتِفُ التَّرَقِّي : الَّذِي تَطْلُبُ أَمامَكَ ، وهَكَذا كُلُّ مَقامٍ يُنادِي عَلَى ما قَبْلَهُ : ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ (٢) .

وإذا **تَبَرَّجَتْ** : أَيْ ظَهَرَتْ بِزِينَتِها وحُلَلِها للسَّالِكِ أَوْ للعارِفِ ظَواهِرُ المُكَوَّناتِ بِخَرْقِ عَوائِدِها وانْقِيادِها لَهُ ، وتَصَرُّفِهِ فِيها بِهِمَّتِهِ كالمَشْيِ عَلَى الماءِ ونَبْعِ الماءِ وجَلْبِ الطَّعامِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الكَراماتِ الحِسِّيَّةِ ، وأَرادَتْ هِمَّةُ السَّالِكِ أَنْ تَقِفَ مَعَ ظَواهِرِها وتَشْتَغِلَ بِحَلاوَةِ حِسِّها ،

---

(١) سُورَةُ طه : مِنَ الآيَة ١١٤ .
(٢) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ١٣ .

نادَتْهُ هَواتِفُ المَعانِي الباطِنَة : إنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ لَكَ نَخْتَبِرُكَ ، هَلْ تَقْنَعُ بِها دُونَ مَعْرِفَةِ مالِكِها ومُنْشِئِها المُتَجَلِّي فِيها ؟ أَوْ تُعْرِضُ عَنْها وتَنْفُذُ إِلَى نُورِ مَعانِيها وشُهُودِ مالِكِها ومُجْرِيها ، فَلا تَكْفُرْ وتَجْحَدِ المُتَجَلِّي بِها ، فَتُنْكِرَهُ فَتَكُونَ مِنَ الجاهِلِين .

وقَدْ ضَرَبَ السَّاحِلِيُّ فِي ((البُغْيَة)) مَثَلًا لِهَذِهِ المَقاماتِ والسَّيْرِ فِيها فَقالَ : ((مَثَلُ ذَلِكَ كَمَلِكٍ ظَهَرَ بِالمَشْرِقِ مَثَلًا ، وأَرْسَلَ لَنا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِهِ ، فَقَرَؤُوا عَلَيْنا كِتابَ المَلِكِ ، وشَوَّقُونا إِلَيْهِ غايَةَ التَّشْوِيقِ بِذِكْرِ كَرَمِهِ ومَحاسِنِهِ ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ طاعَتِهِ والانْقِيادِ إِلَيْهِ ، وهُمُ الكُفَّارُ ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ قَبِلَ وآمَنَ ، ولَمْ يَقْدِرْ عَلَى النُّهُوضِ إِلَى حَضْرَةِ المَلِكِ ، وهُمْ عَوامُّ المُسْلِمِينَ ضُعَفاءُ المَحَبَّةِ واليَقِين ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ تَشَوَّقَ للمَلِكِ ، ونَهَضَ إِلَى حَضْرَتِهِ ، فَقالَتْ لَهُ الرُّسُلُ : نَحْنُ نُسَيِّرُكَ ونُعَرِّفُكَ الطَّرِيق ، فَتَقَدَّمُوا أَمامَهُمْ يَسِيرُونَ بِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّ المَلِكَ بَنَى دِياراً ومَنازِلَ يَنْزِلُونَها ، كُلُّ مَنْزِلٍ أَعْظَمُ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ ، هَكَذا إِلَى حَضْرَتِهِ ، فَإِذا نَزَلُوا أَوَّلَ المَنازِلِ ورَأَوْا حُسْنَهُ وبَهْجَتَهُ أَرادُوا أَنْ يُقِيمُوا فِيهِ ، فَتَقُولُ لَهُمُ الرُّسُلُ الَّذِينَ جاؤُوا مِنْ عِنْدِ المَلِك : الَّذِي تَطْلُبُونَ أَمامَكُمْ ، فَيُنْهِضُونَهُمْ مِنْ ذَلِكَ المَنْزِلِ ، فَإِذا نَزَلُوا الثَّانِي

وَجَدُوهُ أَعْظَمَ مِنَ الأَوَّلِ فَيُرِيدُونَ أَنْ يُقِيمُوا فِيهِ ، فَتُرَحِّلُهُمُ الرُّسُلُ إِلَى ما بَعْدَهُ ، وهَكَذا يَقْطَعُونَ بِهِمُ المَنازِلَ مَنْزِلًا مَنْزِلًا حَتَّى يُوقِفُوهُمْ عَلَى المَلِك ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ : ها أَنْتُمْ ورَبُّكُمْ ، فَيَسْتَرِيحُونَ مِنَ التَّعَب ، ويَتَمَتَّعُونَ بِالمُجالَسَةِ والنَّظَر ؛ والمُرادُ بِالرُّسُلِ هُنا الأَنْبِياءُ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللّٰهُ ، وخُلَفاؤُهُمْ مِمَّنْ كانَ عَلَى قَدَمِهِمْ مِمَّنْ جَمَعَ بَيْنَ الحَقِيقَةِ والشَّرِيعَة ، وهَذِهِ المَنازِلُ هِيَ المَقاماتُ الَّتِي يَقْطَعُها المُرِيد)) اهـ انْتَهَى بِالمَعْنَى مَعَ الاخْتِصار ؛ لِطُولِ العَهْدِ بِهِ .

وقَدْ أَشارَ الشُّشْتُرِي إِلَى التَّنْبِيهِ عَلَى عَدَمِ الوُقُوفِ مَعَ هَذِهِ المَقاماتِ والكَراماتِ فَقالَ :

فَلا تَلْتَفِتْ فِي السَّيْرِ غَيْراً وَكُلُّ مَا
سِوَىٰ اللّٰهِ غَيْرٌ فَاتَّخِذْ ذِكْرَهُ حِصْنَا
وَكُلُّ مَـقَامٍ لا تَقُـمْ فِـيهِ إِنَّـهُ
حِجَابٌ فَجِدَّ السَّيْرَ وَاسْتَنْجِدِ الْعَوْنَا
وَمَهْمَا تَجِدْ كُلَّ الْمَـرَاتِبِ تُجْتَلَىٰ
عَلَيْكَ فَحُلْ عَنْهَا فَعَنْ مِثْلِهَا حُلْنَا
وَقُلْ لَيْسَ لِي فِي غَيْرِ ذَاتِكَ مَطْلَبٌ
فَلا صُورَةٌ تُجْلَىٰ وَلا طُرْفَةٌ تُجْنَىٰ

واعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الآدابَ الَّتِي ذَكَرَها الشَّيْخُ فِي هَذا البابِ قَدْ تَكُونُ خاصَّةً بِالعارِف ، وقَدْ يُشارِكُهُ فِيها غَيْرُهُ ، فَلِذَلِكَ يُعَبِّرُ بِعِبارَةٍ واسِعَةٍ لِتَكُونَ عامَّةً ؛ لأَنَّ المُرِيدَ قَدْ يَتَرَقَّى إِلَى مَقامٍ وقَدْ بَقِيَتْ عَلَيْهِ بَقِيَّةٌ مِمَّا قَبْلَهُ ، فَيُكَمِّلُها فِيه .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ **الأَدَبَ الخامِسَ** : وهُوَ تَرْكُ الطَّلَبِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، قالَ فِيما يَأْتِي : رُبَّما دَلَّهُمُ الأَدَبُ عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ ، فَقالَ : **(طَلَبُكَ مِنْهُ اتِّهامٌ لَهُ ، وطَلَبُكَ لَهُ غَيْبَةٌ مِنْكَ عَنْهُ ، وطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ لِقِلَّةِ حَيائِكَ مِنْهُ ، وطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ لِوُجُودِ بُعْدِكَ مِنْهُ)** :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : طَلَبُكَ مِنْهُ يَكُونُ بِالتَّضَرُّعِ والابْتِهال ، وطَلَبُكَ لَهُ يَكُونُ بِالبَحْثِ والاسْتِدْلال ، وطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ يَكُونُ بِالتَّعَرُّفِ والإِقْبال ، وطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ يَكُونُ بِالتَّمَلُّقِ والسُّؤال ؛ **وحاصِلُها أَرْبَعَةٌ** :

١) **أَمَّا طَلَبُكَ مِنْهُ** : فَلِوُجُودِ تُهْمَتِكَ لَهُ ؛ لأَنَّك إِنَّما طَلَبْتَهُ مَخافَةَ أَنْ يُهْمِلَكَ أَوْ يَغْفَلَ عَنْكَ ؛ فَإِنَّما يُنَبَّهُ مَنْ يَجُوزُ مِنْهُ الإِغْفاءُ ، وإِنَّما يُذَكَّرُ مَنْ يُمْكِنُ مِنْهُ الإِهْمالُ :

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١) ، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ (٢) .

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٤٩ . (٢) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٣٦ .

وقالَ ﷺ فِيما يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ : (مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ما أُعْطِي السَّائِلِينَ) .

فالسُّكُونُ تَحْتَ مَجارِي الأَقْدارِ أَفْضَلُ عِنْدَ العارِفِينَ مِنَ التَّضَرُّعِ والابْتِهال .

وكانَ مَوْلانا العَرَبِي الدَّرْقاوِي يَقُولُ : ((الصُّوفِيُّ الصَّادِقُ لَمْ تَبْقَ لَهُ حالَةٌ يَطْلُبُها ، وإِنْ كانَ ولا بُدَّ مِنَ الطَّلَبِ ، فَلْيَطْلُبِ المَعْرِفَةَ)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : وإِذا وَرَدَ مِنْهُمُ الدُّعاءُ ، فَإِنَّما هُوَ عُبُودِيَّةٌ وحِكْمَةٌ ، لا طَلَبًا للقِسْمَة ؛ إِذْ ما قُسِمَ لَكَ واصِلٌ إِلَيْكَ ، ولَوْ سَأَلْتَهُ أَنْ يَمْنَعَكَهُ ما أَجابَك .

وفِي المَسْأَلَةِ خِلافٌ بَيْنَ الصُّوفِيَّة ، هَلِ السُّكُوتُ أَوْلَى أَوِ الدُّعاءُ ؟ والتَّحْقِيقُ أَنْ يَنْظُرَ ما يَتَجَلَّى فِيهِ ويَنْشَرِحُ لَهُ الصَّدْرُ ، فَهُوَ المُرادُ مِنْهُ .

٢) **وأَمَّا طَلَبُكَ لَهُ** : فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى غَيْبَتِكَ عَنْهُ بِوُجُودِ نَفْسِكَ ، فَلَوْ حَضَرَ قَلْبُكَ وغِبْتَ عَنْ نَفْسِكَ ووَهْمِكَ ، لَما وَجَدْتَ غَيْرَهُ :

أَرَاكَ تَسْأَلُ عَنْ نَجْدٍ وأَنْتَ بِها ❁ وعَنْ تِهامَةَ هَذا فِعْلُ مُتَّهِمِ

وقالَ ابنُ المُرَحَّلِ السَّبْتِي رضي الله عنه :

ومِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمُ ❁ وأَسْأَلُ شَوْقًا عَنْهُمُ وهُمُ مَعِي

وتَبْكِيهِمُ عَيْنِي وهُمْ بِسَوادِها ❁ ويَشْكُو النَّوَى قَلْبِي وهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي

وللقُطْبِ الرِّفاعِي رضي الله عنه :

قَالُو أَتَنْسَىٰ الَّذِي تَهْوَىٰ فَقُلْتُ لَهُمْ ۞ يَا قَوْمِ مَنْ هُوَ رُوحِي كَيْفَ أَنْسَاهُ ؟
وَكَيْفَ أَنْسَاهُ وَالْأَشْيَا بِهِ حَسُنَتْ ۞ مِنَ الْعَجائِبِ يَنْسَىٰ الْعَبْدُ مَوْلاهُ
مَا غَابَ عَنِّي وَلَكِنْ لَسْتُ أُبْصِرُهُ ۞ إِلَّا وَقُلْتُ جِهَارًا قُلْ هُوَ اللهُ

٣) **وأَمَّا طَلَبُكَ لِغَيْرِهِ** : أَيْ لِمَعْرِفَةِ غَيْرِهِ ، فَلِقِلَّةِ حَيائِكَ مِنْهُ ، وعَدَمِ أُنْسِكَ بِهِ .

أَمَّا وَجْهُ قِلَّةِ حَيائِكَ مِنْهُ ، فَلِأَنَّهُ يُنادِيكَ إِلَى الحَضْرَةِ ، وأَنْتَ تَفِرُّ مِنْهُ إِلَى الغَفْلَةِ ، ومِثالُ ذَلِكَ كَمَنْ كانَ فِي حَضْرَةِ المَلِكِ ، والمَلِكُ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَعْجَلُ هُوَ يُرِيدُ الخُرُوجَ مِنْها ، ويَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهِ ، فَهَذا يَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ حَيائِهِ وعَدَمِ اعْتِنائِهِ بِالمَلِكِ ، فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُطْرَدَ إِلَى الباب ، أَوْ إِلَى سِياسَةِ الدَّوابِ .

وأَمَّا وَجْهُ عَدَمِ أُنْسِكَ بِهِ ، فَلِأَنَّكَ لَوْ أَنِسْتَ بِهِ لاسْتَوْحَشْتَ مِنْ خَلْقِهِ ، فَلا يُتَصَوَّرُ مِنْكَ طَلَبُ مَعْرِفَتِهِمْ وأَنْتَ تَفِرُّ مِنْهُمْ ، فَإِذا آنَسَكَ بِهِ أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ ، وبِالعَكْسِ ، والاسْتِئْناسُ بِالنَّاسِ مِنْ عَلامَةِ الإِفْلاسِ .

٤) **وأَمَّا طَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ** : فَلِوُجُودِ بُعْدِكَ عَنْهُ ؛ إِذْ لَوْ تَحَقَّقْتَ بِقُرْبِهِ مِنْكَ وهُوَ كَرِيمٌ ، ما احْتَجْتَ إِلَى سُؤالِ غَيْرِهِ وهُوَ لَئِيمٌ .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ الأَدَبَ هُوَ الاكْتِفاءُ بِعِلْمِ اللهِ ، والتَّحَقُّقُ بِمَعْرِفَةِ اللهِ ، والاسْتِغْناءُ بِهِ عَمَّا سِواه .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ **الأَدَبَ السَّادِسَ** : وهُوَ التَّسْلِيمُ والرِّضا بِما يَجْرِي بِهِ القَدَرُ والقَضاءُ فَقالَ :

(ما مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ إِلَّا ولَهُ قَدَرٌ فِيكَ يُمْضِيهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **النَّفَسُ** عِبارَةٌ عَنْ دَقِيقَةٍ مِنَ الزَّمانِ قَدْرَ ما يَخْرُجُ النَّفَسُ ويَرْجِعُ ، وهُوَ أَوْسَعُ مِنَ الطَّرْفَةِ ، والطَّرْفَةُ أَوْسَعُ مِنَ اللَّحْظَةِ ، وهِيَ رَمْقُ البَصَرِ ورَدُّهُ ، **والقَدَرُ** : هُوَ العِلْمُ السَّابِقُ للأَشْياءِ قَبْلَ أَنْ تَظْهَر ؛ وهُوَ عِلْمُ أَوْقاتِها وأَماكِنِها ومَقادِيرِها وعَدَدِ أَفْرادِها ، وما يَعْرِضُ لَها مِنَ الكَيْفِيَّاتِ ، وما يَنْزِلُ بِها مِنَ الآفات .

فَإِذا عَلِمْتَ أَيُّها الإِنْسانُ أَنَّ أَنْفاسَكَ قَدْ عَمَّها القَدَرُ ، ولا يَصْدُرُ مِنْكَ ولا مِنْ غَيْرِكَ إِلَّا ما سَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ ، وجَرَى بِهِ قَلَمُهُ ، لَزِمَكَ أَنْ تَرْضَى بِكُلِّ ما يَجْرِي بِهِ القَضاء ، فَأَنْفاسُكَ مَعْدُودَة ، وطَرَفاتُكَ ولَحَظاتُكَ مَحْصُورَة ، فَإِذا انْتَهَى آخِرُ أَنْفاسِكَ رَحَلْتَ إِلَى آخِرَتِكَ ، وإِذا كانَتِ الأَنْفاسُ مَعْدُودَةً فَما بالُكَ بِالخُطُواتِ والخَطَراتِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّصَرُّفات ؟ ولِلهِ دَرُّ القائِلِ :

مَشَيْناها خُطَى كُتِبَتْ عَلَيْنَا ۞ وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطَى مَشَاهَا

وَمَنْ قُسِمَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ ۞ فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا

وحَقِيقَةُ الرِّضا : تَلَقِّي المَهالِكِ بِوَجْهٍ ضاحِك ، **وحَقِيقَةُ التَّسْلِيم** : اسْتِواءُ النِّقْمَةِ والنَّعِيم ، بِحَيْثُ لا يَخْتارُ فِي أَيِّهُما يُقِيم ، وهَذا هُوَ مَقامُ أَهْلِ الكَمالِ الَّذِينَ تَحَقَّقُوا بِالزَّوال ، نَفَعَنا اللّهُ بِذِكْرِهِمْ ، وخَرَطَنا فِي سِلْكِهِمْ ، آمِين .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ **الأَدَبَ السَّابِعَ** : وهُوَ دَوامُ المُراقَبَةِ ومُواصَلَةُ المُشاهَدَةِ ، فَقالَ :

(لا تَتَرَقَّبْ فَرَاغَ الأَغْيار ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ المُراقَبَةِ لَهُ فِيما هُوَ مُقِيمُكَ فِيه) :

التَّرَقُّبُ : هُوَ الانْتِظارُ ، **والأَغْيارُ** : جَمْعُ غَيْر ، وهُوَ ما يُغَيِّرُ القَلْبَ عَنْ حالِهِ ، والغالِبُ اسْتِعْمالُهُ فِيما يُغَيِّرُهُ مِنْ حالَةِ الكَمالِ إِلَى حالَةِ النَّقْص .

وعِنْدَ الصُّوفِيَّة : كُلُّ ما يَشْغَلُ عَنِ الحَضْرَةِ ويُغَيِّرُ القَلْبَ عَنْها فَهُوَ غَيْرٌ .

والمُراقَبَةُ : هِيَ العَسَّةُ عَلَى القَلْبِ لِئَلَّا يَخْرُجَ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ ، والمُرادُ بِها فِي كَلامِ الشَّيْخِ مُطْلَقُ العَسَّةِ ، فَتَصْدُقُ بِمُراقَبَةِ القَلْبِ

كَما تَقَدَّمَ ، وتَصْدُقُ بِمُراقَبَةِ الرُّوح ، وهِيَ عَسُّها عَلَى دَوامِ الشُّهُود ، وبِمُراقَبَةِ السِّرِّ وهِيَ عَسَّتُهُ عَلَى دَوام التَّرَقِّي والأَدَب .

قالَ ابنُ عَجيبَة : إذا أَقامَكَ الحَقُّ تعالَى فِي حالٍ يَغْلِبُ فِيها وُجُودُ الأَغْيارِ ؛ لِغَلَبَةِ الحِسِّ فِيها ، كَما إذا أَقامَكَ فِي شُغْلٍ دُنْيَوِيٍّ فِي الظَّاهِرِ لا مَحِيدَ لَكَ عَنْهُ ، فَجاهِدْ قَلْبَكَ فِي العَسَّةِ عَلَيْهِ فِي الحُضُورِ لِئَلَّا تَسْرِقَكَ الغَفْلَةُ ، أَوْ جاهِدْ رُوحَكَ فِي العَسَّةِ عَلَيْها فِي دَوامِ الشُّهُودِ لِئَلَّا يَسْرِقَكَ الحِسُّ ، أَوْ جاهِدْ سِرَّكَ فِي اسْتِمْدادِ المَواهِبِ والعُلُومِ لِئَلَّا يَحْصُلَ فِي ذَلِكَ فُتُور ، **ولا تَتَرَقَّبْ** ؛ أَيْ : تَنْظُرُ فَراغَ شُغْلِ يَدِكَ مِنْ تِلْكَ الأَغْيار ، فَتُؤَخِّرَ قَلْبَكَ إِلَى تَمامِ شُغْلِ يَدِكَ ، فَيَفُوتَكَ وُجُودُ المُراقَبَةِ فِي تِلْكَ الحالِ الَّتي أَقامَكَ الحَقُّ فِيها ، فَيَكُونَ فِي حَقِّكَ سُوءُ أَدَبٍ ، وفِيهِ أَيْضًا تَضْيِيعُ ذَلِكَ الوَقْتِ وخُلُوُّهُ مِنْ مُعامَلَةِ الحَقِّ ، وصَرْفٌ لأَوْقاتٍ لا يُمْكِنُ قَضاؤُها .

تَنْبِيه : لَيْسَ هَذا تَكْراراً مَعَ ما تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ : (إحالَتُكَ الأَعْمالَ عَلَى وُجُودِ الفَراغِ ... إلخ) ، لأَنَّ ذَلِكَ فِي عَمَلِ الجَوارِح ، وهَذا فِي عَمَلِ القُلُوب ؛ يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ تَعْبِيرُهُ هُنا بِالمُراقَبَة ، وتَعْبِيرُهُ ثَمَّ بِالأَعْمال ، والإِفادَةُ خَيْرٌ مِنَ الإِعادَة ، وباللهِ التَّوْفِيق .

وإذا حَصَلَتْ لَكَ المُراقَبَةُ أَوِ المُشاهَدَةُ فِي حالَةِ الأَغْيار ، فَلا تَسْتَغْرِبْ ما تَراهُ مِنَ الأَكْدار ؛ لِئَلَّا يَحْصُلَ لَكَ الإِنْكار ، وإِلَى هَذا أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لا تَسْتَغْرِبْ وُقُوعَ الأَكْدارِ ما دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، فَإِنَّها ما أَبْرَزَتْ إِلَّا ما هُوَ مُسْتَحَقُّ وَصْفِها ، وواجِبُ نَعْتِها) :

الاسْتِغْرابُ : تَصْيِيرُ الشَّيْءِ غَرِيبًا حَتَّى يُتَعَجَّبَ مِنْهُ .

والأَكْدارُ : كُلُّ ما يُكَدِّرُ عَلَى النَّفْسِ ويُؤْلِمُها .

ومُسْتَحَقُّ وَصْفِها : ما تَسْتَحِقُّ أَنْ تُوصَفَ بِهِ .

وواجِبُ نَعْتِها : ما يَجِبُ أَنْ تُنْعَتَ بِهِ .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مِنْ آدابِ العارِفِ أَلَّا يَسْتَغْرِبَ شَيْئًا مِنْ تَجَلِّياتِ الحَقِّ ، ولا يَتَعَجَّبَ مِنْ شَيْءٍ مِنْها كائِنَةً ما كانَتْ ، جَلالِيَّةً أَوْ جَمالِيَّةً ، فَإِذا نَزَلَتْ بِهِ نَوازِلُ قَهْرِيَّة ، أَوْ وَقَعَتْ فِي هَذِهِ الدَّارِ أَكْدارٌ وأَغْيارٌ جَلالِيَّة ، فَلا يَسْتَغْرِبْ وُقُوعَ ذَلِكَ ؛ لأَنَّها دارُ أَهْوال ، ومَنْزِلُ فُرْقَةٍ وانْتِقال .

وفِي الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قالَ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ : (أَيُّها النَّاسُ ! إِنَّ هَذِهِ الدَّارَ دارُ تَواءٍ ، أَي : هَلاك ، لا دارُ اسْتِواءٍ ، ومَنْزِلُ تَرَح ، أَي : حُزْنٍ ، لا مَنْزِلُ فَرَحٍ ، فَمَنْ عَرَفَها لَمْ يَفْرَحْ لِرَخائِها ، ولَمْ يَحْزَنْ

لِشَقائِها ، أَلا وإنَّ اللّهَ خَلَقَ الدُّنْيا دارَ بَلْوىٰ ، والآخِرَةَ دارَ عُقْبىٰ ، فَجَعَلَ بَلْوىٰ الدُّنْيا لِثَوابِ الآخِرَةِ سَبَباً ، وثَوابَ الآخِرَةِ مِنْ بَلْوَى الدُّنْيا عِوَضًا ، فَيَأْخُذُ لِيُعْطِيَ ، ويَبْتَلِي لِيَجْزِيَ ، وإنَّها لَسَرِيعَةُ التَّوَى ، وَشِيكَةُ الانْقِلابِ ، فاحْذَرُوا حَلاوَةَ رَضاعِها لِمَرارَةِ فِطامِها ، واهْجُروا لَذِيذَ عاجِلِها لِكُرْبَةِ آجِلِها ، ولا تَسْعَوْا فِي عُمْرانِ دارٍ قَضَى اللّهُ خَرابَها ، ولا تُواصِلُوها وقَدْ أَرادَ اللّهُ مِنْكُمُ اجْتِنابَها ؛ فَتَكُونُوا لِسُخْطِهِ مُتَعَرِّضِينَ ، ولِعُقُوبَتِهِ مُسْتَحِقِّينَ) .

وقالَ الجُنَيْدُ : لا أَسْتَبْشِعُ مِمَّا يَرِدُ عَلَيَّ مِنَ العالَمِ ؛ لأَنِّي أَصَّلْتُ أَصْلًا ، وهُوَ أَنَّ الدَّارَ دارُ هَمٍّ وغَمٍّ وبَلاءٍ وفِتْنَةٍ .

ومِنْ حِكَمِهِ : إنَّهُ يَتَلَقَّانِي بِكُلِّ ما أَكْرَهُ ، فَإِنْ تَلَقَّانِي بِما أُحِبُّ ، فَهُوَ فَضْلٌ ، وإلَّا فالأَصْلُ هُوَ الأَوَّلُ ، وفِي ذَلِكَ قِيلَ :

يُمَثِّلُ ذُو اللُّبِّ فِي لُبِّهِ ❁ شَدَائِدَهُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلا
فَإِنْ نَزَلَتْ بَغْتَةً لَمْ تَرُعْهُ ❁ لِمَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مَثَّلا
رَأَى الْأَمْرَ يُفْضِي إِلَى آخَرٍ ❁ فَصَيَّرَ آخِرَهُ أَوَّلا
وَذُو الْجَهْلِ يَأْمَنُ أَيَّامَهُ ❁ وَيَنْسَىٰ مَصَارِعَ مَنْ قَدْ خَلا
فَإِنْ دَهَمَتْهُ صُرُوفُ الزَّمَانِ ❁ بِبَعْضِ مَصَائِبِهِ أَعْوَلا
وَلَوْ قَدَّمَ الْحَزْمَ مِنْ نَفْسِهِ ❁ لَعَلَّمَهُ الصَّبْرَ عِنْدَ الْبَلا

قالَ أَبُو سُلَيْمانَ الدَّارانِيُّ لأَحْمَدَ بنِ أَبِي الحَوارِيِّ : ((يا أَحْمَد ! جُوعٌ قَلِيل ، وعُرْيٌ قَلِيل ، وذُلٌّ قَلِيل ، وصَبْرٌ قَلِيل ، وقَدِ انْقَضَتْ عَنْكَ أَيَّامُ الدُّنيا)) .

فَلا تَسْتَغْرِبْ أَيُّها العارِفُ ما يَقَعُ لَكَ أَوْ لِغَيْرِكَ مِنَ الأَكْدارِ ما دُمْتَ مُقِيمًا فِي هَذِهِ الدَّارِ ؛ لأَنَّها ما بَرَزَ فِيها مِنَ التَّجَلِّياتِ الجَلالِيَّةِ إِلَّا ما هُوَ مُسْتَحَقٌّ أَنْ تَتَّصِفَ بِهِ ، وواجِبٌ أَنْ تُنْعَتَ بِهِ ، فَلا تَسْتَغْرِبْ شَيْئًا ، ولا تَتَعَجَّبْ مِنْ شَيْءٍ ، بَلِ الواجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ اللّٰهَ فِي الجَلالِ والجَمال ، والحُلْوَةِ والمُرَّة .

وأَمَّا إِنْ كُنْتَ لا تَعْرِفُهُ إِلَّا فِي الجَمال ، فَهَذا هُوَ مَقامُ العَوام ، والمَعْرِفَةُ فِي الجَلالِ السُّكُونُ والأَدَبُ والرِّضا والتَّسْلِيم ، فَإِنَّ الجَلالَ مَقْرُونٌ بِالجَمال ، والجَمالَ مَقْرُونٌ بِالجَلال ، يَتَعاقَبانِ تَعاقُبَ اللَّيْلِ والنَّهار ، والعارِفُ يَتَلَوَّنُ مِنْ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُما ، لا يَسْتَغْرِبُ مِنْ شَيْءٍ ، ولا يَتَعَجَّبُ مِنْ شَيْءٍ ؛ إِذْ كُلُّ ما يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرِ القُدْرَةِ كُلُّهُ واحِدٌ ، وبِهَذا وَقَعَ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الصَّادِقِ والصِّدِّيق ؛ لأَنَّ الصِّدِّيقَ لا يَتَعَجَّبُ مِنْ شَيْء ، ولا يَتَرَدَّدُ فِي شَيْءٍ وَعَدَ بِهِ ، بِخِلافِ الصَّادِقِ فَقَطْ ، فَإِنَّهُ مَهْما رَأَى شَيْئًا مُسْتَغْرَبًا تَعَجَّبَ مِنْهُ ، وإِذا وَعَدَ بِشَيْءٍ قَدْ يَتَرَدَّدُ فِي

امْتِثالِهِ ، وقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعالَى السَّيِّدَةَ مَرْيَمَ بِالصِّدِّيقِيَّة ، ولَمْ يَصِفِ السَّيِّدَةَ سارَّةَ بِها ؛ لأَنَّها لَمَّا بُشِّرَتْ بِالوَلَدِ عَلَى وَجْهِ خَرْقِ العادَةِ اسْتَغْرَبَتْ وقالَتْ : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (١) ، فَلِذَلِكَ قالَتْ لَها المَلائِكَةُ : ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ (٢) .

بِخِلافِ السَّيِّدَةِ مَرْيَم ، فَلَمْ تَتَعَجَّبْ ، وإِنَّما سَأَلَتْ سُؤالَ اسْتِفْهامٍ فَقَطْ ، أَوْ سَأَلَتْ عَنْ وَقْتِ ذَلِكَ ، أَوْ كَيْفِيَّتِهِ هَلْ بِالتَّزَوُّجِ أَوْ بِغَيْرِهِ ؟

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ **الأَدَبَ الثَّامِنَ** ، وهُوَ أَنْ يَكُونَ تَصَرُّفُهُ بِاللهِ ، ولِلهِ ، وإِلَى اللهِ ، وهُوَ مَقامُ الصِّدْقِ الَّذِي هُوَ لُبُّ الإِخْلاص ، وإِخْلاصُ خَواصِّ الخَواصِّ ، فَقالَ :

(ما تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طالِبُهُ بِرَبِّكَ ، ولا تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طالِبُهُ بِنَفْسِكَ) :

التَّوَقُّفُ : الحَبْسُ والتَّعَذُّرُ ، **والمَطْلَبُ** : مَا يُطْلَبُ قَضاؤُهُ ، **والتَّيَسُّرُ** : التَّسْهِيل .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِذا عَرَضَتْ لَكَ حاجَةٌ مِنْ حَوائِجِ الدُّنْيا والآخِرَةِ وأَرَدْتَ أَنْ تُقْضَى لَكَ سَرِيعًا فاطْلُبْها بِاللهِ ، ولا تَطْلُبْها بِنَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ إِذا طَلَبْتَها بِاللهِ تَيَسَّرَ أَمْرُها وسَهُلَ قَضاؤُها ، وإِنْ طَلَبْتَها بِنَفْسِكَ

---

(١) سُورَةُ هُود : مِنَ الآيَة ٧٢ .
(٢) سُورَةُ هُود : مِنَ الآيَة ٧٣ .

صَعُبَ قَضاؤُها وتَعَسَّرَ أَمْرُها ؛ ولا يَتَوَقَّفُ ويُحْبَسُ أَمْرٌ طَلَبْتَهُ بِرَبِّكَ ، ولا يَتَيَسَّرُ ويَسْهُلُ أَمْرٌ طَلَبْتَهُ بِنَفْسِكَ .

قالَ تَعالَى حاكِيًا عَنْ سَيِّدِنا مُوسَىٰ عليه السلام : ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١) .

فَكُلُّ مَنِ اسْتَعانَ بِاللهِ ، وصَبَرَ فِي طَلَبِ حاجَتِهِ ، كانَتِ العاقِبَةُ لَهُ وكانَ مِنَ المُتَّقِين .

وقالَ تَعالَى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ (٢) .

أَيْ : كافِيهِ كُلَّ ما أَهَمَّهُ .

وقالَ ﷺ لِبَعْضِ أَصْحابِهِ ، وهُوَ سُوَيْدُ بنُ غَفَلَةَ : (لا تَطْلُبِ الإِمارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ طَلَبْتَها وُكِلْتَ إِلَيْها ، وإِنْ أَتَتْكَ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْها) .

وعَلامَةُ الطَّلَبِ بِاللهِ الزُّهْدُ فِي ذَلِكَ الأَمْر ، والاشْتِغالُ بِاللهِ عَنْهُ ، فَإِذا جاءَ وَقْتُهُ يَكُونُ بِإِذْنِ اللهِ .

وعَلامَةُ الطَّلَبِ بِالنَّفْسِ هُوَ الحِرْصُ والبَطْشُ إِلَيْهِ ، فَإِذا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ ، انْقَبَضَ وتَغَيَّرَ عَلَيْهِ ، فَهَذا مِيزانُ مَنْ كانَ طَلَبُهُ بِاللهِ ، وطَلَبُهُ بِنَفْسِهِ ،

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف : الآيَة ١٢٨ .

(٢) سُورَةُ الطَّلاق : مِنَ الآيَة ٣ .

فَمَنْ طَلَبَ حَوائِجَهُ بِاللّه ، قُضِيَتْ مَعْنًى وإنْ لَمْ تُقْضَ حِسًّا ، ومَنْ طَلَبَ حَوائِجَهُ بِنَفْسِهِ ، خابَ سَعْيُهُ وضاعَ وَقْتُهُ ، وإنْ قُضِيَتْ نَهْمَتُهُ وحاجَتُهُ .

وها هُنا ضابِطٌ يُعْرَفُ بِهِ أَهْلُ العِنايَةِ مِنْ أَهْلِ الخِذْلان ، وأَهْلُ الولايَةِ مِنْ أَهْلِ الخُسْران ؛ ذَكَرَهُ الشَّيْخُ أَبو الحَسَنِ الشَّاذِلِيُّ رضي الله عنه فَقالَ : ((إذا أَكْرَمَ اللّهُ عَبْداً فِي حَرَكاتِهِ وسَكَناتِهِ ، نَصَبَ لَهُ العُبُودِيَّةَ للّه ، وسَتَرَ عَنْهُ حُظُوظَ نَفْسِهِ ، وجَعَلَهُ يَتَقَلَّبُ فِي عُبُودِيَّتِهِ ، والحُظُوظُ عَنْهُ مَسْتُورَةٌ مَعَ جَرْيِ ما قُدِّرَ لَهُ ، ولا يَلْتَفِتُ إلَيْها كَأَنَّهُ فِي مَعْزِلٍ عَنْها ، وإذا أَهانَ اللّهُ عَبْداً فِي حَرَكاتِهِ وسَكَناتِهِ ، نَصَبَ لَهُ حُظُوظَ نَفْسِهِ ، وسَتَرَ عَنْهُ عُبُودِيَّتَهُ ، فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي شَهَواتِهِ ، وعُبُودِيَّةُ اللّهِ عَنْهُ بِمَعْزِلٍ ، وإنْ كانَ يَجْرِي عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْها فِي الظَّاهِرِ ، قالَ : وهَذا بابٌ مِنَ الولايَةِ والإهانَة .

وأَمَّا الصِّدِّيقِيَّةُ العُظْمَىٰ والولايَةُ الكُبْرَىٰ ، فالحُظُوظُ والحُقُوقُ كُلُّها سَواءٌ عِنْدَ ذَوِي البَصِيرَة ؛ لأَنَّهُ بِاللّهِ فِيما يَأْخُذُ ويَتْرُكُ))[1] .

والحاصِلُ : أَنَّ تَصَرُّفاتِ العارِفِ كُلَّها بِاللّه ، وتَصَرُّفاتِ غَيْرِهِ كُلَّها

---

(١) نَقَلَهُ الشَّيْخُ زَرُّوق فِي بَعْضِ شُرُوحِه .

بِالنَّفْسِ ، ولَوْ كانَتْ بِاللهِ ، فَالعَمَلُ بِاللهِ يُوجِبُ القُرْبَة ، والعَمَلُ للهِ يُوجِبُ المَثُوبَة ، العَمَلُ بِاللهِ صاحِبُهُ داخِلُ الحِجابِ فِي مُشاهَدَةِ الأَحْباب ، والعَمَلُ للهِ يُوجِبُ الثَّوابَ مِنْ وَراءِ الباب ، العَمَلُ بِاللهِ مِنْ أَهْلِ التَّحْقِيق ، والعَمَلُ للهِ مِنْ أَهْلِ التَّشْرِيع ، والعَمَلُ للهِ مِنْ أَهْلِ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، والعَمَلُ بِاللهِ مِنْ أَهْلِ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

النَّجاحُ فِي النِّهاياتِ وسَبَبُهُ

ومَنْ كانَ عِلْمُهُ باللهِ كانَ راجِعًا إِلَيْهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، ومُعْتَمِداً عَلَيْهِ فِي كُلِّ حال ، وإِلَيْهِ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مِنْ عَلامَةِ النَّجاحِ فِي النِّهاياتِ الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ فِي البِدايات) :

النُّجْحُ فِي الشَّيْءِ : هُوَ بُلُوغُ القَصْدِ والمُرادِ فِيه ، ونَجَحَتْ مَطالِبُهُ إِذا قُضِيَتْ وبَلَغَ مِنْها ما أَحَبَّ ، **ونِهايَةُ الشَّيْءِ** : تَمامُهُ ، **وبِدايَتُهُ** : أَوَّلُهُ .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِذا تَوَجَّهَتْ هِمَّتُكَ أَيُّها المُرِيدُ إِلَى طَلَبِ شَيْءٍ ، أَيَّ شَيْءٍ كانَ ، وأَرَدْتَ أَنْ يَنْجَحَ أَمْرُهُ ، وتَبْلُغَ مُرادَكَ فِيه ، وتَكُونَ نِهايَتُهُ حَسَنَةً ، وعاقِبَتُهُ مَحْمُودَةً ، فارْجِعْ إِلَى اللهِ فِي بِدايَةِ طَلَبِهِ ، وانْسَلِخْ مِنْ حَوْلِكَ وقُوَّتِكَ ، وقُلْ كَما قالَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام - :

(إنْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ اللهِ يُمْضِهِ) ، فَلا تَحْرِصْ عَلَيْهِ ، ولا تَهْتَمَّ بِشَأْنِهِ ، فَما شاءَ اللهُ كانَ ، وما لَمْ يَشَأْ رَبُّنا لَمْ يَكُنْ ، فَلَوِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يُقَدِّرْهُ اللهُ لَكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ ، (جَفَّتِ الأَقْلامُ وطُوِيَتِ الصُّحُفُ) كَما فِي الحَدِيث .

فَإذا طَلَبْتَ شَيْئًا وكُنْتَ مُعْتَمِداً عَلَى اللهِ ومُفَوِّضًا أَمْرَكَ إِلَى اللهِ تَنْظُرُ ما سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ ، كانَ ذَلِكَ عَلامَةَ نُجْحِ نِهايَتِكَ وحُصُولِ مَطْلَبِكَ ، قُضِيَتْ فِي الحِسِّ أَوْ لَمْ تُقْضَ ؛ لأَنَّ مُرادَكَ مَعَ مُرادِ اللهِ لا مَعَ مُرادِ نَفْسِكَ ، قَدِ انْقَلَبَتْ حُظُوظُكَ حُقُوقًا ، لا تَشْتَهِي إِلَّا ما قَضَى اللهُ ، ولا تَنْظُرُ إِلَّا ما يَبْرُزُ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، قَدْ فَنِيتَ عَنْ حُظُوظِكَ وشَهَواتِكَ ، وإِنْ طَلَبْتَ شَيْئًا بِنَفْسِكَ مُعْتَمِداً عَلَى حَوْلِكَ وقُوَّتِكَ حَرِيصًا عَلَى قَضائِها جاهِدًا فِي طَلَبِها ، كانَ ذَلِكَ عَلامَةً عَلَى عَدَمِ قَضائِها وخَيْبَةِ الرَّجاءِ فِيها وعَدَمِ نُجْحِ نِهايَتِها ، وإِنْ قُضِيَتْ فِي الحِسِّ وُكِلْتَ إِلَيْها ، فَتَعِبْتَ بِسَبَبِها ، ولَمْ تُعَنْ عَلَى شُؤُونِها ومَآرِبِها ، وهٰذا كُلُّهُ مُجَرَّبٌ صَحِيحٌ عِنْدَ العامِّ والخاصِّ ، وهَذِهِ الحِكْمَةُ تَتْمِيمٌ لِما قَبْلَها وشَرْحٌ لَها .

ثُمَّ كَمَّلَ ابنُ عَطاءِ اللهِ هَذِهِ المَسْأَلَةَ بِقاعِدَةٍ كُلِّيَّةٍ تَصْدُقُ بِما تَقَدَّمَ وبِغَيْرِهِ ، فَقالَ :

(مَنْ أَشْرَقَتْ بدايَتُهُ ، أَشْرَقَتْ نِهايَتُهُ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : إِشْراقُ البِدايَةِ : هُوَ الدُّخُولُ فِيها بِاللهِ ، وطَلَبُها بِاللهِ ، والاعْتِمادُ فِيها عَلَى اللهِ ، مَعَ السَّعْيِ فِي أَسْبابِها ، والاعْتِناءِ فِي طَلَبِها ، قِيامًا بِحَقِّ الحِكْمَةِ وأَدَبًا مَعَ القُدْرَةِ ، ويَعْظُمُ السَّعْيُ فِي السَّبَبِ بِقَدْرِ عَظَمَةِ المَطْلَب ، فَبِقَدْرِ المُجاهَدَةِ تَكُونُ بَعْدَها المُشاهَدَة :

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (١) ، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) .

فَمَنْ رَأَيْناهُ فِي بِدايَتِهِ جادًّا فِي طَلَبِ الحَقِّ ، مُعْرِضًا عَنِ الأُنْسِ بِالخَلْقِ ، مُسْتَغْرِقًا فِي خِدْمَةِ مَوْلاهُ ، ناسِيًا لِحُظُوظِهِ وهَواهُ ، عَلِمْنا أَنَّ نِهايَتَهُ مُشْرِقَةٌ وعاقِبَتَهُ مَحْمُودَةٌ ومَآرِبَهُ مَقْضِيَّةٌ ، ومَنْ رَأَيْناهُ مُقَصِّراً فِي طَلَبِ مَوْلاهُ ، لَمْ يَخْرُجْ عَنْ نَفْسِهِ وهَواهُ ، عَلِمْنا أَنَّهُ كاذِبٌ فِي دَعْواهُ ، فَنِهايَتُهُ الحِرْمان ، وعاقِبَتُهُ الخِذْلان ، إِلَّا أَنْ يَتَدارَكَهُ الكَرِيمُ المَنَّان ؛ هَذا فِي طَرِيقِ الوُصُولِ إِلَى حَضْرَةِ الحَقِّ .

وأَمَّا إِشْراقُ البِدايَةِ فِي طَلَبِ حَوائِجِ الدُّنْيا أَوِ المَقاماتِ أَوِ المَراتِبِ أَوِ الخُصُوصِيَّةِ مَثَلًا ، فَهُوَ بِالزُّهْدِ فِيها ، والإِعْراضِ عَنْها ، والاشْتِغالِ بِاللهِ عَنْها .

---

(١) سُورَةُ العَنْكَبُوت : الآية ٦٩ . (٢) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ٥٦ .

قالَ بَعْضُهُمْ : ((لا تُدْرَكُ المَراتِبُ إلَّا بالزُّهْدِ فِيها)) .

قالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَن : ((كُنْتُ أَنا وصاحِبٌ لِي نَعْبُدُ اللهَ فِي مَغارَة ، ونَقُولُ : فِي هَذا الشَّهْرِ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيْنا ، فِي هَذِهِ الجُمُعَةِ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيْنا ؛ فَوَقَفَ عَلَى بابِ المَغارَةِ رَجُلٌ عَلَيْهِ سِماتُ الخَيْرِ فَقالَ : السَّلامُ عَلَيْكُمْ ، فَرَدَدْنا عَلَيْهِ السَّلامَ ، وقُلْنا لَهُ : كَيْفَ أَنْتَ ؟ فَنَهَضَ عَلَيْنا وقالَ : كَيْفَ يَكُونُ حالُ مَنْ يَقُولُ : فِي هَذا الشَّهْرِ يَفْتَحُ اللهُ ، فِي هَذِهِ الجُمُعَةِ يَفْتَحُ اللهُ ؟! لا فَتَحَ ولا فَلاحَ ، هَلَّا عَبَدْنا اللهَ كَما أَمَرَنا ؟ ثُمَّ غابَ عَنَّا ، فَفَهِمْنا مِنْ أَيْنَ أُخِذْنا ، فَرَجَعْنا عَلَى أَنْفُسِنا باللَّوْم ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْنا)) ا هـ بالمَعْنَى .

فَمَنْ طَلَبَ الخُصُوصِيَّةَ كانَ عَبْدَ الخُصُوصِيَّةِ وفاتَهُ حَظُّهُ مِنَ اللهِ حَتَّى يَتُوبَ ، ومَنْ كانَ عَبْدَ اللهِ نالَ حَظَّهُ مِنَ العُبُودِيَّةِ وأَدْرَكَتْهُ الخُصُوصِيَّةُ مِنْ غَيْرِ الْتِفاتٍ ولا طَلَب .

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الأُمُورَ الَّتِي تُشْرِقُ بِها البِدايَةُ وتَكُونُ عَلامَةً عَلَى إِشْراقِ النِّهايَةِ هِيَ أُمُورٌ باطِنِيَّةٌ ؛ كالاعْتِمادِ عَلَى اللهِ ، والرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، أَوْ كَثْرَةِ الشَّوْقِ والاشْتِياقِ إِلَيْهِ ، ولَكِنْ لا بُدَّ مِنْ ظُهُورِ أَثَرِها عَلَى الظَّاهِرِ ، وإِلَيْهِ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(ما اسْتُودِعَ مِنْ غَيْبِ السَّرائِر ، ظَهَرَ فِي شَهادَةِ الظَّواهِر) :

اسْتُودِعَ : أَيْ : وُضِعَ ، فالاسْتِيداعُ : هُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَحَلٍّ لِيُحْفَظَ ، **وغَيْبُ السَّرائِر** : هُوَ باطِنُها ، والمُرادُ بِالسَّرائِر : القُلُوبُ والأَرْواح ، **وشَهادَةُ الظَّواهِر** : ظاهِرُ الجَوارِح .

قالَ ابنُ عَجيبَة : ما اسْتَوْدَعَ اللّهُ سُبْحانَهُ فِي القُلُوبِ وجَعَلَهُ فِيها : مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، مِنْ نُورٍ أَوْ ظُلْمَة ، مِنْ عِلْمٍ أَوْ جَهْل ، مِنْ رَحْمَةٍ أَوْ قَسْوَة ، مِنْ بُخْلٍ أَوْ شُحٍّ ، أَوْ كَرَمٍ وسَخاءٍ ، قَبْضٍ وبَسْطٍ ، ويَقَظَةٍ أَوْ غَفْلَة ، ومَعْرِفَةٍ أَوْ نُكْران ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَخْلاقِ المَحْمُودَةِ أَوِ المَذْمُومَة ، لا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ آثارُ ذَلِكَ عَلَى الجَوارِح : مِنْ أَدَبٍ وتَهْذِيب ، وسُكُونٍ وطُمَأْنِينَةٍ ورَزانَة ، وبَذْلٍ وعَفْوٍ ، أَوْ طَيْشٍ وقَلَقٍ وغَضَب ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحْوالِ القَلْبِيَّةِ والأَعْمالِ القالَبِيَّة ، قالَ تَعالَى : ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ (١) ، وقالَ تَعالَى : ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ (٢) .

وقالَ ﷺ : (مَنْ أَسَرَّ سَرِيرَةً كَساهُ اللّهُ رِداءَها) .

فَأَفْعالُ الجَوارِحِ تابِعَةٌ لأَحْوالِ القُلُوب ؛ فَمَنْ أَوْدَعَ فِي سِرِّ غَيْبِهِ مَعْرِفَةَ

---

(١) سُورَةُ البَقَرة : مِنَ الآيَة ٢٧٣ . (٢) سُورَةُ الفَتْح : مِنَ الآيَة ٢٩ .

مَوْلاه ، لَمْ يَطْلُبْ مَنْ سِواه ، ومَنْ أَوْدَعَ فِي سِرِّ غَيْبِهِ الجَهْلَ بِمَوْلاه ، تَعَلَّقَ بِما سِواه ، وهَكَذا لأَحْوالِ الباطِن ، كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : تَنَوَّعَتْ أَجْناسُ الأَعْمالِ لِتَنَوُّعِ وارِداتِ الأَحْوالِ .

فالأَساريرُ تَدُلُّ عَلَى السَّريرَة ، والكَلامُ صِفَةُ المُتَكَلِّم ، وما فِيكَ ظَهَرَ عَلَى فِيكَ : ((وكُلُّ إِناءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ)) ، وما خامَرَ القُلُوبَ فَعَلَى الوُجُوهِ أَثَرُهُ .

وأَعْظَمُ ما اسْتُودِعَ فِي غَيْبِ السَّرائِرِ مَعْرِفَةُ اللّه ، وهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ : مَعْرِفَةُ البُرْهان ، ومَعْرِفَةُ العَيان ، وأَحْسَنَ الإِشارَةَ إِلَى الفَرْقِ بَيْنَهُما ابنُ عَطاءِ اللّهِ رضي الله عنه فَقالَ :

(شَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ ، أَوْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ ، المُسْتَدِلُّ بِهِ عَرَفَ الحَقَّ لأَهْلِهِ ، فَأَثْبَتَ الأَمْرَ مِنْ وُجُودِ أَصْلِهِ ، والاسْتِدْلالُ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ الوُصُولِ إِلَيْهِ ، وإِلَّا فَمَتَى غابَ حَتَّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ ؟ ومَتَى بَعُدَ حَتَّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ ؟) :

شَتَّان : بِمَعْنَى : بَعُدَ وافْتَرَقَ ، ولا تَكُونُ إِلَّا فِي افْتِراقِ المَعانِي دُونَ الحِسِّيَّات .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : اعْلَمْ أَنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ لَمَّا أَرادَ أَنْ يَتَجَلَّى بِأَسْرارِ

ذاتِهِ ، وأَنْوارِ صِفاتِهِ ، أَظْهَرَ بِقُدْرَتِهِ قَبْضَةً مِنْ نُورِهِ الأَزَلِيِّ ، فاقْتَضَتِ القُدْرَةُ ظُهُورَ آثارِها وشُهُودَ أَنْوارِها ، واقْتَضَتِ الحِكْمَةُ إِسْدالَ حِجابِها ، وإِظْهارَ أَسْتارِها ، فَلَمَّا أَفْرَغَتِ القُدْرَةُ نُورَها فِي مَظاهِرِ الكَوْنِ ، أَسْدَلَتْ عَلَيْها الحِكْمَةُ رِداءَ الصَّوْنِ فَصارَتِ الأَكْوانُ كُلُّها نُوراً فِي حِجابٍ مَسْتُور .

ثُمَّ إِنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ قَسَّمَ الخَلْقَ قِسْمَيْنِ وفَرَّقَهُمْ فِرْقَتَيْنِ : قِسْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ وجَعَلَهُمْ مِنْ أَهْلِ وِلايَتِهِ ، فَفَتَحَ لَهُمُ الباب ، وكَشَفَ لَهُمُ الحِجاب ، فَأَشْهَدَهُمْ أَسْرارَ ذاتِهِ ولَمْ يَحْجُبْهُمْ عَنْهُ بِآثارِ قُدْرَتِهِ ، وقِسْمٌ أَقامَهُمْ لِخِدْمَتِهِ وجَعَلَهُمْ مِنْ أَهْلِ حِكْمَتِهِ ، أَسْدَلَ عَلَيْهِمْ حِجابَ الوَهْمِ وغَيَّبَ عَنْهُمْ نُورَ العِلْمِ والفَهْمِ فَوَقَفُوا مَعَ ظَواهِرِ القُشُورِ ولَمْ يَشْهَدُوا بَواطِنَ النُّورِ مَعَ شِدَّةِ الظُّهُور .

فَسُبْحانَ مَنْ أَخْفَى سِرَّهُ بِحِكْمَتِهِ ، وأَظْهَرَ نُورَهُ بِقُدْرَتِهِ !

فَأَمَّا أَهْلُ المَحَبَّةِ : وهُمْ أَهْلُ الوِلايَةِ والعِرْفانِ مِنْ أَهْلِ الشُّهُودِ والعَيانِ ؛ فَهُمْ يَسْتَدِلُّونَ بِالنُّورِ عَلَى وُجُودِ السُّتُورِ فَلا يَرَوْنَ إِلَّا النُّور ، وبِالحَقِّ عَلَى وُجُودِ الخَلْقِ فَلا يَجِدُونَ إِلَّا الحَقَّ ، وبِقُدْرَتِهِ عَلَى حِكْمَتِهِ ، فَوَجَدُوا قُدْرَتَهُ عَيْنَ حِكْمَتِهِ وحِكْمَتَهُ عَيْنَ قُدْرَتِهِ ، فَغابُوا بِشُهُودِ الحَقِّ

عَنْ رُؤْيَةِ الخَلْقِ ؛ إِذْ مُحالٌ أَنْ تَشْهَدَهُ وتَشْهَدَ مَعَهُ سِواه .

وأَمَّا أَهْلُ الخِدْمَةِ مِنْ أَهْلِ الحِكْمَةِ : فَهُمْ يَسْتَدِلُّونَ بِظُهُورِ السُّتُورِ عَلَى وُجُودِ النُّورِ ، وبِالخَلْقِ عَلَى وُجُودِ الحَقِّ ، غابُوا عَنْهُ فِي حالِ حُضُورِهِ ، وحُجِبُوا عَنْهُ بِشِدَّةِ ظُهُورِهِ .

قالَ بَعْضُ العارِفِينَ : ((أَثْبَتَ اللّٰهُ تَعالَى للعامَّةِ المَخْلُوقَ فَأَثْبَتُوا بِهِ الخالِقَ ، وأَثْبَتَ للخاصَّةِ نَفْسَهُ ، فَأَثْبَتُوا بِهِ المَخْلُوقَ)) .

فَشَتَّانَ ؛ أَيْ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى ظُهُورِ أَثَرِهِ ، وبَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِظُهُورِ أَثَرِهِ عَلَى وُجُودِهِ ؛ لأَنَّ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَرَفَ الحَقَّ - وهُوَ الوُجُودُ الحَقِيقِيُّ - لأَهْلِهِ ؛ أَيْ لِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ ويَسْتَحِقُّهُ ، وهُوَ اللّٰهُ الواجِبُ الوُجُود ، المَلِكُ المَعْبُود ، وأَثْبَتَ الأَمْرَ - وهُوَ القِدَمُ - للوُجُودِ الحَقِيقِيِّ مِنْ وُجُودِ أَصْلِهِ ، وهُوَ الجَبَرُوتُ الأَصْلِيُّ القَدِيمُ الأَزَلِيُّ ، يَعْنِي : أَنَّ مَنْ عَرَفَ اللّٰهَ حَتَّى صارَ عِنْدَهُ ضَرُورِيًّا ، عَرَفَ أَنَّ الوُجُودَ إِنَّما هُوَ للّٰه ، وانْتَفَى عَنْهُ وُجُودُ ما سِواه ، وأَثْبَتَ القِدَمَ لأَوَّلِهِ ومُنْتَهاه .

وأَمَّا مَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ ، فَلِبُعْدِهِ عَنْهُ فِي حالِ قُرْبِهِ مِنْهُ ، ولِغَيْبَتِهِ عَنْهُ فِي حالِ حُضُورِهِ مَعَهُ ، بَعَّدَهُ الوَهْم ، وغَيَّبَهُ عَدَمُ الفَهْم ، وإِلَّا فَمَتَى غابَ حَتَّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ ؛ إِذْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ حَبْلِ الوَرِيد ، ومَتَى بَعُدَ حَتَّى

تَكُونَ الآثارُ الوَهْمِيَّةُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (١) .

إِذْ أَثَرُ القُدْرَةِ هُوَ عَيْنُها ، فالصِّفَةُ لا تُفارِقُ المَوْصُوف ؛ إِذْ لا قِيامَ لَهَا إِلَّا بِهِ ، ولا ظُهُورَ لَها إِلَّا مِنْهُ ، وسَيَأْتِي لَهُ فِي المُناجاةِ : ((إِلَهِي ! كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ ، أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ ما لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ المُظْهِرَ لَكَ ؟ مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ ؟ ومَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ ؟)) .

ولَمَّا كانَ المُسْتَدِلُّونَ بِاللهِ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ دائِرَةَ العُلُوم ، وفُتِحَتْ لَهُمْ مَخازِنُ الفُهُوم ، بِخِلافِ المُسْتَدِلِّينَ عَلَيْهِ قَدْ قَتَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَرْزاقَ العِلْمِ ، بِوُجُودِ حِجابِ الوَهْمِ ، أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ : **(لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ : الواصِلُونَ إِلَيْه ، ومَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ : السَّائِرُونَ إِلَيْه)** :

السَّعَةُ : الغِنَى ، **وقُدِرَ عَلَيْهِ** : ضُيِّقَ عَلَيْهِ .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : أَمَّا الواصِلُونَ إِلَيْهِ ؛ فَلِأَنَّهُمْ لَمَّا نَفَذَتْ أَرْواحُهُمْ مِنْ ضِيقِ الأَكْوانِ إِلَى فَضاءِ الشُّهُودِ والعَيان .

أَوْ تَقُولُ : لَمَّا عَرَجَتْ أَرْواحُهُمْ مِنْ عالَمِ الأَشْباحِ إِلَى عالَمِ الأَرْواح ،

---

(١) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ٤ .

أَوْ مِنْ عالَمِ المُلْكِ إِلَى عالَمِ المَلَكُوت ، اتَّسَعَتْ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ أَرْزاقِ العُلُوم ، وفُتِحَتْ لَها مَخازِنُ الفُهُوم ، فَأَنْفَقُوا مِنْ سَعَةِ غِناهُمْ جَواهِرَ العِلْمِ المَكْنُون ، ومِنْ مَخازِنِ كُنُوزِهِمْ يَواقِيتَ السِّرِّ المَصُون ، فاتَّسَعَ لَهُمْ مَيْدانُ المَجال ، ورَكِبُوا أَجْيادَ البَلاغَةِ وفَصاحَةَ المَقال ، فَما أَسْرَعَ الغِنَى لِمَنْ واجَهَتْهُ مِنْهُمُ العِنايَة ، وما أَعْظَمَ فَتْحَ مَنْ لَحِظَتْهُ مِنْهُمُ الرِّعايَة ! إِنَّ للّهِ رِجالًا مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ سَعِدَ سَعادَةً لا يَشْقَى بَعْدَها أَبَداً ، وهُمْ أَهْلُ السِّرِّ والحال .

أَمَّا السَّائِرُونَ إِلَى اللّهِ ، فَلِأَنَّهُمْ باقُونَ فِي ضِيقِ الأَكْوان ، وفِي عالَمِ الأَشْباحِ مَسْجُونُونَ فِي سِجْنِ الوَهْم ، لَمْ يُفْتَحْ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ مَخازِنِ الفَهْم ، مَشْغُولُونَ بِجِهادِ نُفُوسِهِمْ ومُعاناةِ تَصْفِيَةِ قُلُوبِهِمْ ، مُضَيَّقٌ عَلَيْهِمْ فِي العُلُوم ، ومُقَتَّرٌ عَلَيْهِمْ فِي سائِرِ الفُهُوم ، فَإِنْ جَدُّوا فِي السَّيْرِ وَصَلُوا ، وانْتَقَلُوا مِنْ ضِيقِ الأَكْوانِ ، ورَحَلُوا وتَبَخْتَرُوا فِي رِياضِ العُلُوم ، ورَفَلُوا فَظَفِرُوا بِما أَمَّلُوا ، واسْتَغْنَوْا بَعْدَما أَنْ مَلُّوا ، وإِنْ رَجَعُوا مِنَ الطَّرِيقِ أَوْ قَصَّرُوا ، فَقَدْ خابُوا وخَسِرُوا .

إِنْ أَرَدْتَ بَسْطَ المَواهِبِ عَلَيْكَ ، صَحِّحِ الفَقْرَ والفاقَةَ لَدَيْكَ ، وافْتَقِرْ إِلَى اللّهِ تُفَضْ عَلَيْكَ المَواهِب : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ

وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ (١).

أَنْوارُ التَّوَجُّهِ وأَنْوارُ المُواجَهَةِ

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ سَبَبَ اتِّساعِ العُلُومِ عَلَى الواصِلِينَ دُونَ السَّائِرِينَ ، وهُوَ أَنَّ الواصِلِينَ لَمْ يَقِفُوا مَعَ شُهُودِ الأَنْوارِ بَلْ نَفَذُوا إِلَى نُورِ الأَنْوارِ ، بِخِلافِ السَّائِرِينَ فَإِنَّهُمْ واقِفُونَ مَعَ الأَنْوارِ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْها مَمْلُوكُونَ فِي يَدِها ، فَقالَ :

(اهْتَدَى الرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوارِ التَّوَجُّهِ ، والواصِلُونَ لَهُمْ أَنْوارُ المُواجَهَةِ ؛ فالأَوَّلُونَ للأَنْوار ، وهَؤُلاءِ الأَنْوارُ لَهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ للهِ ، لا لِشَيْءٍ دُونَهُ :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : أَنْوارُ التَّوَجُّه : هِيَ أَنْوارُ الإِسْلامِ والإِيمان ، وأَنْوارُ المُواجَهَة : هِيَ أَنْوارُ الإِحْسان .

أَوْ تَقُولُ : أَنْوارُ التَّوَجُّه : أَنْوارُ الطَّاعَةِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَة ، وأَنْوارُ المُواجَهَة : هِيَ أَنْوارُ الفِكْرَةِ والنَّظْرَة .

أَوْ تَقُولُ : أَنْوارُ التَّوَجُّه : أَنْوارُ الشَّرِيعَةِ والطَّرِيقَة ، وأَنْوارُ المُواجَهَة : أَنْوارُ الحَقِيقَة .

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ٦٠ .

أَوْ تَقُولُ : أَنْوارُ التَّوَجُّه : أَنْوارُ المُجاهَدَةِ والمُكابَدَة ، وأَنْوارُ المُواجَهَة : هِيَ أَنْوارُ المُشاهَدَةِ والمُكالَمَة .

وبَيانُ ذَلِكَ أَنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ إذا أَرادَ أَنْ يُوصِلَ عَبْدَهُ إِلَيْهِ ، تَوَجَّهَ إِلَيْهِ أَوَّلًا بِنُورِ حَلاوَةِ العَمَلِ الظَّاهِرِ وهُوَ مَقامُ الإِسْلام ، فَيَهْتَدِي إِلَى العَمَلِ ويُعْنَى فِيهِ ويَذُوقُ حَلاوَتَهُ . ثُمَّ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِنُورِ حَلاوَةِ العَمَلِ الباطِنِ ، وهُوَ مَقامُ الإِيمانِ مِنَ الإِخْلاصِ والصِّدْقِ والطُّمَأْنِينَةِ والأُنْسِ بِاللّه ، والتَّوَحُّشِ مِمَّا سِواه ، فَيَهْتَدِي إِلَيْهِ ويَفْنَى فِيهِ ، ويَذُوقُ حَلاوَتَهُ ، ويَتَمَكَّنُ مِنَ المُراقَبَةِ ، وهَذا النُّورُ أَعْظَمُ مِنَ الأَوَّلِ وأَكْمَلُ ، ثُمَّ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِنُورِ حَلاوَةِ المُشاهَدَةِ ، وهُوَ عَمَلُ الرُّوحِ ، وهُوَ أَوَّلُ نُورِ المُواجَهَةِ ، فَتَأْخُذُهُ الدَّهْشَةُ والحَيْرَةُ والسَّكْرَةُ ، فَإِذا أَفاقَ مِنْ سَكْرَتِهِ ، وصَحا مِنْ جَذْبَتِهِ ، وتَمَكَّنَ مِنَ الشُّهُود ، وعَرَفَ المَلِكَ المَعْبُود ، ورَجَعَ إِلَى البَقاء ، كانَ للّه وباللّه ، فاسْتَغْنَى عَنِ النُّورِ بِمُشاهَدَةِ نُورِ النُّورِ ؛ لأَنَّهُ صارَ عَيْنَ النُّورِ ، فَصارَ مالِكًا للأَنْوارِ بَعْدَ أَنْ كانَتْ مالِكَةً لَهُ ؛ لافْتِقارِهِ لَها قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى أَصْلِها ، فَلَمَّا وَصَلَ صارَ عَبْداً للّه ، حُرًّا مِمَّا سِواه ، ظاهِرُهُ عُبُودِيَّة ، وباطِنُهُ حُرِّيَّة .

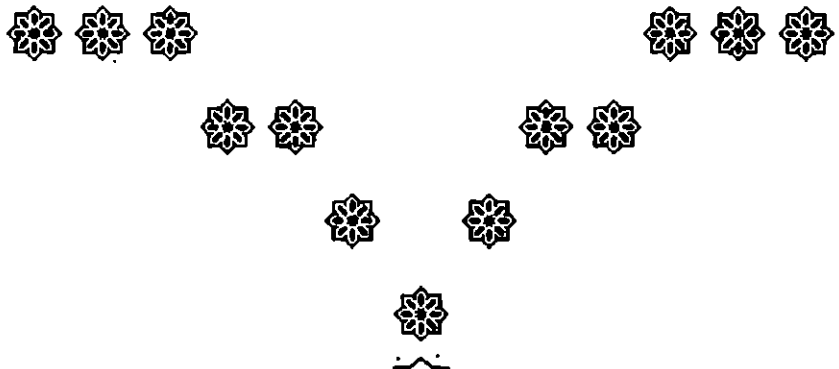
والحاصِلُ : أَنَّ المُرِيدَ ما دامَ فِي السَّيْرِ فَهُوَ يَهْتَدِي بِأَنْوارِ التَّوْجِيهِ مُفْتَقِراً إِلَيْها لِسَيْرِهِ بِها ، فَإِذا وَصَلَ إِلَى مَقامِ المُشاهَدَةِ حَصَلَتْ لَهُ

أَنْوارُ المُواجَهَةِ ، فَلَمْ يَفْتَقِرْ إِلَى شَيْءٍ ؛ لأَنَّهُ للّه ، لا لِشَيْءٍ دُونَهُ ، فالرَّاحِلُونَ (السَّائِرُونَ) للأَنْوارِ ؛ لافْتِقارِهِمْ إِلَيْها وفَرَحِهِمْ بِها .

وهَؤُلاءِ الواصِلُونَ الأَنْوارُ لَهُمْ ؛ لاسْتِغْنائِهِمْ عَنْها بِاللّه ، فَهُمْ للّه ، وباللّه ، لا لِشَيْءٍ دُونَهُ ، ثُمَّ تَلا الشَّيْخُ هَذِهِ الآيَةَ عَلَى طَرِيقِ أَهْلِ الإِشارَةِ : ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ بِقَلْبِكَ ورُوحِكَ ، وغِبْ عَمَّا سِواه ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ أَي : النَّاس ؛ أَي : اتْرُكْهُمْ ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أَي : يَخُوضُونَ فِي السِّوَى ، لاعِبِينَ فِي الهَوَى .

وقَدِ اعْتَرَضَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ عَلَى الصُّوفِيَّةِ اسْتِشْهادَهُمْ بِهَذِهِ الآيَة ، ولَمْ يَفْهَمْ مُرادَهُمْ : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ .

وكانَ الشَّيْخُ ابنُ عَبَّادٍ يَقُولُ : ((لا تَجْعَلُوا أَهْلَ الظَّاهِرِ حُجَّةً عَلَى أَهْلِ الباطِنِ)) ؛ لأَنَّ أَهْلَ الباطِنِ نَظَرُهُمْ دَقِيق ، وغَزْلُهُمْ رَقِيق ، لا يَفْهَمُ إِشارَتَهُمْ غَيْرُهُمْ ، نَفَعَنا اللّهُ بِهِمْ ، ونَظَمَنا فِي سِلْكِهِمْ ، آمِين .



التَّخْلِيَةُ والتَّحْلِيَةُ

ثُمَّ جَمَّعَ ابنُ عَطاءِ اللهِ أَنْوارَهُ الكاشِفَةَ عَلَى خَصْلَتَيْنِ وحالَتَيْنِ مُتَلازِمَتَيْنِ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ القَوْمِ فَأَظْهَرَ حَقِيقَةَ التَّخْلِيَةِ والتَّحْلِيَةِ فَقالَ :

(تَشَوُّفُكَ إِلَى ما بَطَنَ فِيكَ مِنَ العُيُوبِ خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَى ما حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الغُيُوبِ) :

التَّشَوُّفُ إِلَى الشَّيْءِ : الاهْتِمامُ بِهِ والتَّطَلُّعُ لَهُ .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : تَشَوُّفُكَ أَيُّها الإِنْسانُ إِلَى ما بَطَنَ فِيكَ مِنَ العُيُوبِ ؛ كالحَسَدِ والكِبْرِ والعُجْبِ وحُبِّ الجاهِ والرِّياسَةِ وهَمِّ الرِّزْقِ وخَوْفِ الفَقْرِ وطَلَبِ الخُصُوصِيَّةِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ العُيُوبِ ، والبَحْثُ عَنْها ، والسَّعْيُ فِي التَّخَلُّصِ مِنْها ، أَفْضَلُ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَى ما حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الغُيُوبِ ؛ كالاطِّلاعِ عَلَى أَسْرارِ العِبادِ ، وما يَأْتِي بِهِ القَدَرُ مِنَ الوَقائِعِ المُسْتَقْبَلَةِ ، وكالاطِّلاعِ عَلَى أَسْرارِ غَوامِضِ التَّوْحِيدِ قَبْلَ الأَهْلِيَّةِ لَهُ ؛ لأَنَّ تَشَوُّفَكَ إِلَى ما بَطَنَ مِنَ العُيُوبِ سَبَبٌ فِي حَياةِ قَلْبِكَ ، وحَياةُ قَلْبِكَ سَبَبٌ فِي الحَياةِ الدَّائِمَةِ والنَّعِيمِ المُقِيمِ ، والاطِّلاعُ عَلَى الغُيُوبِ إِنَّما هُوَ فُضُول ، وقَدْ يَكُونُ سَبَبًا فِي هَلاكِ النَّفْسِ ، كاتِّصافِها بِالكِبْرِ ورُؤْيَةِ المَزِيَّةِ عَلَى النَّاسِ .

ونُقَرِّرُ هُنا ما قالَهُ ابنُ عَطاءِ اللّه : ((مَنِ اطَّلَعَ عَلَى أَسْرارِ العِبادِ ، ولَمْ يَتَخَلَّقْ بِالرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ ، كانَ اطِّلاعُهُ فِتْنَةً عَلَيْهِ ، وسَبَبًا يَجُرُّ الوَبالَ عَلَيْهِ)) .

واعْلَمْ أَنَّ العُيُوبَ ثَلاثَةٌ : عُيُوبُ النَّفْسِ ، وعُيُوبُ القَلْبِ ، وعُيُوبُ الرُّوحِ .

فَعُيُوبُ النَّفْسِ : تَعَلُّقُها بِالشَّهَواتِ الجِسْمانِيَّةِ ؛ كَطَيِّبِ المَآكِلِ والمَشارِبِ والمَلابِسِ والمَراكِبِ والمَساكِنِ والمَناكِحِ ، وشَبَهِ ذَلِكَ .

وعُيُوبُ القَلْبِ : تَعَلُّقُهُ بِالشَّهَواتِ القَلْبِيَّةِ ؛ كَحُبِّ الجاهِ والرِّياسَةِ والعِزِّ والكِبْرِ والعُجْبِ والحَسَدِ والحِقْدِ ، وحُبِّ المَنْزِلَةِ والخُصُوصِيَّةِ ، وأَشْباهِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَرْكُوزٌ فِي أَوْصافِ البَشَرِيَّةِ .

وعُيُوبُ الرُّوحِ : تَعَلُّقُها بِالحُظُوظِ الباطِنِيَّةِ ؛ كَطَلَبِ الكَراماتِ والمَقاماتِ والقُصُورِ والحُورِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الحُرُوفِ ، فَتَشَوُّفُ المُرِيدِ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ قادِحٌ فِي عُبُودِيَّتِهِ ، مانِعٌ لَهُ مِنَ القِيامِ بِحُقُوقِ رُبُوبِيَّتِهِ ، فاشْتِغالُهُ بِالبَحْثِ عَنْ عُيُوبِهِ النَّفْسانِيَّةِ والقَلْبِيَّةِ والرُّوحانِيَّةِ ، وسَعْيُهُ فِي التَّطَهُّرِ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ أَوْلَى مِنْ تَشَوُّفِهِ إِلَى ما حُجِبَ عَنْهُ مِنْ عِلْمِ الغُيُوبِ .

ولَمَّا ذَكَرَ التَّخْلِيَةَ ، ذَكَرَ ثَمَرَتَها ؛ وهِيَ التَّحْلِيَةُ بِالمَعْرِفَةِ ، إِذْ ما مَنَعَ مِنْها

إلَّا تَشَوُّفُ النَّفْسِ أَوِ القَلْبِ أَوِ الرُّوحِ إِلَى حُظُوظِها الوَهْمِيَّةِ ، فَقالَ :

(الحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ عَنْكَ ، إِنَّما المَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ ؛ إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسَتَرَهُ ما حَجَبَهُ ، ولَوْ كانَ لَهُ ساتِرٌ لَكانَ لِوُجُودِهِ حاصِرٌ ، وكُلُّ حاصِرٍ لِشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ قاهِرٌ ، وهُوَ القاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الحَقُّ تَعالَى مُحالٌ فِي حَقِّهِ الحِجابُ ، فَلا يَحْجُبُهُ شَيْءٌ ؛ لأَنَّهُ ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَلا ظاهِرَ مَعَهُ ، ولا مَوْجُودَ سِواهُ ، فَهُوَ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ عَنْكَ ، وإِنَّما المَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ ؛ لاعْتِقادِكَ الغَيْرِيَّة ، وتَعَلُّقِ قَلْبِكَ بِالأُمُورِ الحِسِّيَّة ، فَلَوْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ بِطَلَبِ المَوْلَىٰ ، وأَعْرَضْتَ بِالكُلِّيَّةِ عَنْ رُؤْيَةِ السِّوَىٰ ، لَنَظَرْتَ إِلَى نُورِ الحَقِّ ساطِعًا فِي مَظاهِرِ الأَكْوان ، وصارَ ما كانَ مَحْجُوبًا عَنْك بِالوَهْمِ فِي مَعَدِّ الشُّهُودِ والعَيان ، ولِلّهِ دَرُّ القائِل :

لَقَدْ تَجَلَّىٰ مَا كَانَ مُخَبَّا ❁ وَالْكَوْنَ كُلَّهُ طَوَيْتُ طَيّ

مِنِّي عَلَيَّ دَارَتْ كُؤُوسِي ❁ مِنْ بَعْدِ مَوْتِي تَرَانِي حَيّ

فالنَّاسُ كُلُّهُمْ يُشاهِدُونَ ولا يَعْرِفُونَ ، وكُلُّهُمْ فِي البَحْرِ ولا يَشْعُرُونَ .

وللشَّيْخِ قَوْلُهُ المُعْتَبَرُ : ((ما حَجَبَكَ عَنِ الحَقِّ وُجُودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ ؛ إِذْ لا

شَيْءَ مَعَهُ ، وإنَّما حَجَبَكَ عَنْهُ تَوَهُّمُ مَوْجُودٍ مَعَهُ)) ؛ إذْ لَوْ حَجَبَهُ تَعالَى شَيْءٌ حِسِّيٌّ لَسَتَرَهُ ذَلِكَ الحِجابُ ، ولَوْ كانَ لَهُ ساتِرٌ حِسِّيٌّ لَكانَ لِوُجُودِهِ حاصِرٌ ؛ إذْ مُحالٌ أَنْ يَسْتُرَهُ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ ولا يَحْصُرَهُ ، وكُلُّ حاصِرٍ لِشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ قاهِرٌ ، كَيْفَ واللهُ تَعالَى يَقُولُ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ (١).

أَيْ : لأَنَّهُمْ فِي قَبْضَتِهِ ، وتَحْتَ تَصْرِيفِ قُدْرَتِهِ ، وتَخْصِيصِ إرادَتِهِ ومَشِيئَتِهِ .

والفَوْقِيَّةُ : عِبارَةٌ عَنْ رِفْعَةِ الجَلالِ والمَكانَةِ لا المَكان ؛ كَما يُقالُ : السُّلْطانُ فَوْقَ الوَزِيرِ ، والسَّيِّدُ فَوْقَ عَبْدِهِ ، والمالِكُ فَوْقَ المَمْلُوك ، وغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يُثْبِتُ الكِبْرِياءَ ويَنْفِي سِماتِ الحُدُوث .

ولَمَّا كانَ حِجابُ الرُّوحِ عَنِ المَعْرِفَةِ أَمْراً وَهْمِيًّا عَدَمِيًّا لا حَقِيقَةَ لَهُ ، وهُوَ مَرَضُها بِأَوْصافِ البَشَرِيَّةِ ، فَلَوْ صَحَّتْ لَعَرَفَتْ ، أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(اخْرُجْ مِنْ أَوْصافِ بَشَرِيَّتِكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُناقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ ، لِتَكُونَ لِنِداءِ الحَقِّ مُجِيبًا ، ومِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيبًا) :

---

(١) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ٦١ .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : أَوْصافُ البَشَرِيَّة : هِيَ الأَخْلاقُ الَّتِى تُناقِضُ خُلُوصَ العُبُودِيَّة ، ومَرْجِعُها إِلَى أَمْرَيْن :

الأَوَّلُ : تَعَلُّقُ القَلْبِ بِأَخْلاقِ البَهائِم ، وهِيَ شَهْوَةُ البَطْنِ والفَرْجِ وما يَتْبَعُها مِنْ حُبِّ الدُّنْيا وشَهَواتِها الفانِيَة ، قالَ تَعالَى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ (١).

الثَّانِي : تَخَلُّقُهُ بِأَخْلاقِ الشَّياطِين ؛ كالكِبْرِ والحَسَدِ والحِقْدِ والغَضَبِ والحِدَّةِ والبَطَرِ والأَشَرِ - التَّكَبُّرِ - ، وحُبِّ الجاهِ والرِّياسَةِ ، والمَدْحِ ، والقَسْوَةِ والفَظاظَةِ والغِلْظَةِ ، وتَعْظِيمِ الأَغْنِياءِ ، واحْتِقارِ الفُقَراءِ ، وكَخَوْفِ الفَقْرِ وهَمِّ الرِّزْقِ ، والبُخْلِ والشُّحِّ ، والرِّياءِ والعُجْبِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لا يُحْصَى ، حَتَّى قالَ بَعْضُهُمْ : للنَّفْسِ مِنَ النَّقائِصِ ما للهِ مِنَ الكَمالات .

وقَدْ أَلَّفَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ السُّلَمِي كِتابًا فِي عُيُوبِ النَّفْسِ وأَدْوِيَتِها ، ونَظَمَهُ الشَّيْخُ زَرُّوق فِي ثَمانِ مِئَةِ بَيْت .

ومَنْ أَلْقاهُ اللهُ إِلَى شَيْخِ التَّرْبِيَةِ فَلا يَحْتاجُ إِلَى شَيءٍ سِوَى الاسْتِماعِ

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٤ .

والاتِّباعِ ، فَإذا خَرَجَ المُريدُ مِنْ أَخْلاقِ البَهائِمِ تَخَلَّقَ بِأَخْلاقِ الرُّوحانِيِّينَ ؛ كالزُّهْدِ والوَرَعِ والقَناعَةِ والعِفَّةِ ، والغِنَىٰ بِاللّٰهِ ، والأُنْسِ بِهِ .

وإذا خَرَجَ مِنْ أَخْلاقِ الشَّياطِينِ تَخَلَّقَ بِأَخْلاقِ المُؤْمِنِينَ ؛ كالتَّواضُعِ وسَلامَةِ الصَّدْرِ ، والحِلْمِ والسَّكِينَةِ والرَّزانَةِ ، والطُّمَأْنِينَةِ والسُّهُولَةِ واللِّيُونَةِ ، والخُمُولِ ، والاكْتِفاءِ بِعِلْمِ اللّٰهِ ، والشَّفَقَةِ والرَّحْمَةِ ، وتَعْظِيمِ الفُقَراءِ والمَساكِينِ ، وأَهْلِ النِّسْبَةِ وجَمِيعِ الأُمَّةِ ، والكَرَمِ والسَّخاءِ والجُودِ والإخْلاصِ ، والصِّدقِ والمُراقَبَةِ والمُشاهَدَةِ والمَعْرِفَةِ ، فَإذا تَخَلَّقَ العَبْدُ بِهَذِهِ الأَخْلاقِ ، وتَحَقَّقَ بِها ذَوْقًا بَعْدَ أَنْ تَخَلَّصَ مِنْ أَضْدادِها ، كانَ عَبْداً خالِصًا لِمَوْلاهُ ، حُرًّا ممَّا سِواهُ ، وكانَ لِنِدائِهِ مُجِيبًا ، ومِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيبًا ، فَإذا قالَ لَهُ رَبُّهُ : ياعَبْدي ! قالَ لَهُ : يا رَبِّ ، فَكانَ صادِقًا فِي إجابَتِهِ ؛ لِصِدْقِ عُبُودِيَّتِهِ ، بِخِلافِ ما إذا كانَ مُنْهَمِكًا فِي شَهَواتِهِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ ، كانَ عَبْداً لِنَفْسِهِ وشَهَواتِهِ ، فَإذا قالَ : يا رَبِّ ! كانَ كاذِبًا ؛ إذْ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا فَهُوَ عَبْدٌ لَهُ ، وهُوَ لا يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِغَيْرِهِ ، وإذا تَخَلَّصَ مِنْ رِقِّ الشَّهَواتِ والحُظُوظِ ، كانَ أَيْضًا قَرِيبًا مِنْ حَضْرَةِ الحَقِّ ، بَلْ عاكِفًا فِيها ؛ إذْ ما أَخْرَجَنا

عَنِ الحَضْرَةِ إلَّا حُبُّ هَذِهِ الخَيالاتِ الوَهْمِيَّة ، فَإذا تَحَرَّرْنا مِنْها ، وتَحَقَّقْنا بالعُبُودِيَّة وَجَدْنا أَنْفُسَنا فِي الحَضْرَة .

واعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الأَوْصافَ البَشَرِيَّةَ الَّتِي احْتَجَبَتْ بها الحَضْرَةُ إنَّما جَعَلَها اللّهُ مِنْدِيلًا لِمَسْحِ أَقْذارِ القَدَرِ ؛ كالنَّفْسِ والشَّيْطانِ والدُّنْيا ، فَجَعَلَ اللّهُ النَّفْسَ والشَّيْطانَ مِنْدِيلًا للأَفعالِ المَذْمُومَةِ ، وجَعَلَ البَشَرِيَّةَ مِنْدِيلًا للأَخْلاقِ الدَّنيئَةِ ، وما ثَمَّ إلَّا مَظاهِرُ الحَقِّ وتَجَلِّياتُ الحَقِّ ، وما ثَمَّ سِواهُ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللّه .

ثُمَّ إنَّ هَذِهِ العُيُوبَ سَبَبُ بَقائِها فِي الإنْسانِ باعْتِبارِ الحِكْمَةِ هِيَ الغَفْلَةُ عَنِ البَحْثِ عَنْها ، وسَبَبُ الغَفْلَةِ عَنِ البَحْثِ عَنْها هُوَ الرِّضا عَنِ النَّفْسِ ؛ إذْ لَوْ أَساءَ ظَنَّهُ بها ، لَبَحَثَ عَنْ مَساوِيها ، فاسْتَخْرَجَها وتَطَهَّرَ مِنْها ، فَلِذَلِكَ قالَ ابنُ عَطاءِ اللّه :

(أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وغَفْلَةٍ وشَهْوَةٍ الرِّضا عَنِ النَّفْس) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إذْ كُلُّ مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ اسْتَحْسَنَ أَحْوالَها ، وغَطَّىٰ مَساوِيَها لِقَوْلِ الشَّاعِر : وَعَيْنُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ۞

(وأَصْلُ كُلِّ طاعَةٍ و يَقَظَةٍ و عِفَّةٍ عَدَمُ الرِّضا مِنْكَ عَنْها) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لأَنَّ مَنِ اتَّهَمَ نَفْسَهُ وأَساءَ ظَنَّهُ بها ونَظَرَ إلَيْها بِعَيْنِ السُّخْطِ ، بَحَثَ عَنْ عُيُوبِها واسْتَخْرَجَ مَساوِيَها :

وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

فابْحَثْ أَيُّها المُريدُ عَنْ مَساوِيكَ ، واتَّهِمْ نَفْسَكَ ولا تَسْتَحْسِنْ شَيْئًا مِنْ أَحْوالِها ؛ فَإِنَّكَ إذا رَضِيتَ عَنْها واسْتَحْسَنْتَ أَحْوالَها لَدَغَتْكَ وأَنْتَ لا تَشْعُرُ ، وحَجَبَتْكَ عَنِ الحَضْرَةِ و أَنْتَ تَنْظُرُ .

قالَ أَبو حَفْصٍ الحَدَّادُ : مَنْ لَمْ يَتَّهِمْ نَفْسَهُ عَلَى دَوامِ الأَوْقاتِ ، ولَمْ يُخالِفْها فِي جَمِيعِ الأَحْوالِ ، ولَمْ يَجُرَّها إِلَى مَكرُوهِها فِي سائِرِ أَيَّامِهِ ، كانَ مَغْروراً ، ومَنْ نَظَرَ إِلَى نَفْسِهِ بِاسْتِحْسانِ شَيْءٍ مِنْها فَقَدْ أَهْلَكَها ، وكَيْفَ يَصِحُّ لِعاقِلٍ الرِّضا عَنْ نَفْسِهِ ، والكَرِيمُ ابنُ الكَرِيمِ ابنِ الكَرِيمِ عليه السلام يَقُولُ : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ (١) .

و فِي مَعْنَى ذَلِكَ أَنْشَدُوا :

تَـوَقَّ نَفْسَـكَ لا تَـأْمَـنْ غَوائِلَـهَا ❁ فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانَا

وقالَ السَّرِيُّ السَّقَطِي (٢٥٧هـ) : ((مَنْ عَرَفَ اللّٰهَ عاشَ ، ومَنْ مالَ إِلَى الدُّنْيا طاشَ ، والأَحْمَقُ يَرُوحُ ويَغْدُو فِي لاش ، والعاقِلُ عَنْ عُيُوبِهِ فَتَّاش))(٢) .

---

(١) سُورَةُ يُوسُف : مِنَ الآيَة ٥٣ . (٢) لاش : لا شَيْء .

فابْحَثْ يا أَخِي عَنْ عُيُوبِكَ إِنْ أَرَدْتَ نُصْحَ نَفْسِكَ ، فَإِذا بَحَثْتَ عَنْ عُيُوبِها ، وفَضَحْتَ عَوْراتِها ، تَخَلَّصْتَ وتَحَرَّرْتَ وتَحَقَّقْتَ ، ودَخَلْتَ الحَضْرَةَ ، واتَّسَعَتْ لَكَ النَّظْرَةُ ، واشْتَكَتْ لَكَ الفِكْرَةُ .

ومَنْ أَرادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ ، فَلْيَصْحَبْ مَنْ تَخَلَّصَ ، ولِذَلِكَ قالَ ابنُ عَطاءِ اللّه :

(ولأَنْ تَصْحَبَ جاهِلًا لا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عالِمًا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِذْ صُحْبَةُ مَنْ لا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ خَيْرٌ مَحْضٌ ؛ لِتَحَقُّقِهِ بِالإِخْلاص ، فَيَسْرِي ذَلِكَ فِي الصَّاحِبِ حَتَّى يَتَحَلَّى بِالإِخْلاص ويَصِيرَ مِنْ جُمْلَةِ الخَواصِّ ، وصُحْبَةُ مَنْ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ شَرٌّ مَحْضٌ ، ولَوْ كانَ أَعْلَمَ أَهْلِ الأَرْض ؛ لأَنَّ الطِّباعَ تَسْرِقُ الطِّباعَ ؛ إِذِ الجَهْلُ الَّذِي يُقَرِّبُ للحَضْرَةِ أَحْسَنُ مِنَ العِلْمِ الَّذِي يُبْعِدُ عَنِ الحَضْرَةِ .

والجَهْلُ الَّذِي يُوصِلُ إِلَى اللّهِ عِلْمٌ عَلَى الحَقِيقَة ، والعِلْمُ الَّذِي يَحْجُبُ عَنِ اللّهِ جَهْلٌ عَلَى الحَقِيقَة ، ولِذَلِكَ قالَ ابنُ عَطاءِ اللّه :

(فَأَيُّ عِلْمٍ لِعالِمٍ يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ؟) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لأَنَّهُ صارَ حِجابًا لَهُ عَنْ رَبِّهِ .

ثُمَّ قالَ ابنُ عَطاءِ اللّه - رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وأَرْضاه - :

(وأَيُّ جَهْلٍ لِجاهِلٍ لا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ ؟) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : إذْ بِعَدَمِ الرِّضا عَنْ نَفْسِهِ بَحَثَ عَنْها وتَخَلَّصَ مِنْ رِقِّها ، فَصارَ عَبْداً حقِيقَةً للّه ، فَحِينَئِذٍ أَحَبَّهُ سَيِّدُهُ ، واصْطَفاهُ لِحَضْرَتِهِ ، واجْتَباهُ لِمَحَبَّتِهِ ، وأَطْلَعَهُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمِهِ ، فَصارَ مِنْ خَواصِّ خَلْقِهِ .

وإذا تَخَلَّصَ العَبْدُ مِنْ حُظُوظِهِ وأَوْصافِ بَشَرِيَّتِهِ ، قَرُبَ مِنْ حَضْرَةِ رَبِّهِ ؛ لِصِحَّةِ قَلْبِهِ وإشْراقِهِ بِنُورِ رَبِّهِ ، ثُمَّ امْتَحَى وُجُودُهُ فِي وُجُودِ مَحْبُوبِهِ ؛ وشُهُودُهُ فِي شُهُودِ مَعْبُودِهِ ، وإلَى ذَلِكَ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(شُعاعُ البَصيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ ، وعَيْنُ البَصِيرَةِ تُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ ، و حَقُّ البَصيرَةِ يُشْهِدُكَ وُجُودَهُ لا عَدَمَكَ ولا وُجُودَكَ ، كانَ اللّهُ ولا شيْءَ مَعَهُ ، و هُوَ الآنَ عَلَى ما عَلَيْهِ كانَ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : البَصِيرَةُ : ناظِرُ القَلْبِ ، كَما أَنَّ البَصَرَ ناظِرُ القالَبِ ؛ فالبَصِيرَةُ تَرَى المَعانِيَ اللَّطِيفَةَ النُّورانِيَّة ، والبَصَرُ يَرَى المَحْسُوساتِ الكَيْفِيَّةَ الظَّلْمانِيَّةَ الوَهْمِيَّة .

ثُمَّ البَصِيرَةُ بِاعْتِبارِ إدْراكِ نُورِ المَعانِي اللَّطِيفَةِ عَلَى خَمْسَةِ أَقْسام :

١) قِسْمٌ فَسَدَ ناظِرُها فَعَمِيَتْ ، فَأَنْكَرَتْ نُورَ الحَقِّ مِنْ أَصْلِهِ ، قالَ البُوصِيري :

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ۞ وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

وهَذِهِ بَصِيرَةُ الكُفَّارِ ، قالَ تَعالَى : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (١).

٢) وقِسْمٌ صَحَّ ناظِرُها ، لَكِنَّها مَسْدُودَةٌ لِضَعْفِ ناظِرِها لِمَرَضٍ أَصابَهُ ، فَهِيَ تُقِرُّ بِالنُّورِ ، لَكِنَّها لا تَقْوَى عَلَى مُشاهَدَتِهِ ، ولا تَشْهَدُ قُرْبَهُ مِنْها ، ولا بُعْدَهُ عَنْها ، وهِيَ لِعامَّةِ المُسْلِمِين .

٣) وقِسْمٌ صَحَّ ناظِرُها ، وقَوِيَ شَيْئًا ما ، حَتَّى قَرُبَ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَهُ ، ولَكِنْ لِشِدَّةِ الشُّعاعِ لَمْ يُطِقْ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَهُ ، فَأَدْرَكَ شُعاعَ النُّورِ قَرِيبًا مِنْهُ ، وهُوَ لِعامَّةِ المُتَوَجِّهِينَ ، ويُسَمَّى هَذا المَقام : شُعاعَ البَصِيرَة .

٤) وقِسْمٌ قَوِيَ ناظِرُها ، فَفَتَحَ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ ، فَأَدْرَكَ النُّورَ مُحِيطًا بِهِ حَتَّى غابَ عَنْ نَفْسِهِ بِمُشاهَدَةِ النُّورِ ، وهَذا لِخاصَّةِ المُتَوَجِّهِينَ ، ويُسَمَّى هَذا المَقام : عَيْنَ البَصِيرَة .

٥) وقِسْمٌ صَحَّتْ بَصِيرَتُهُ ، واشْتَدَّ نُورُها ، فاتَّصَلَ نُورُها بِنُورِ أَصْلِها ،

---

(١) سُورَةُ الحَجِّ : مِنَ الآيَة ٤٦ .

فَلَمْ تَرَ إِلَّا النُّورَ الأَصْلِيَّ ، وأَنْكَرَتْ أَنْ يَكُونَ ثَمَّ شَيْءٌ زائِدٌ عَلَى نُورِ الأَصْلِ ؛ كانَ اللّٰهُ ولا شَيْءَ مَعَهُ ، وهُوَ الآنَ عَلَى ما عَلَيْهِ كانَ ، ويُسَمَّى هَذا : حَقَّ البَصِيرَة .

ووَجْهُ تَسْمِيَتِهِ بِشُعاعِ البَصِيرَةِ : أَنَّ صاحِبَها لَمَّا كانَ يَرَى وُجُودَ الأَكْوانِ انْطَبَعَتْ فِي مِرْآةِ بَصِيرَتِهِ ، فَحَجَبَتْهُ عَنْ شُهُودِ النُّورِ مِنْ أَصْلِهِ ، لَكِنْ لَمَّا رَقَّتْ كَثافَتُها ، و تَنَوَّرَتْ دَلائِلُها ، رَأَى شُعاعَ النُّورِ مِنْ وَرائِها قَرِيبًا مِنْهُ ، فَأَدْرَكَ الشُّعاعَ و لَمْ يُدْرِكِ النُّورَ ، و هَذا هُوَ نُورُ الإِيمانِ ، و هُوَ مَقامُ **عِلْمِ اليَقِين** .

ووَجْهُ تَسْمِيَةِ عَيْنِ البَصِيرَةِ : أَنَّ البَصِيرَةَ لَمَّا صَحَّتْ و قَوِيَتْ ، انْفَتَحَتْ عَيْنُها ، فَرَأَتِ النُّورَ مُحِيطًا و مُتَّصِلًا بِها ، فَسُمِّيَتْ عَيْنَ البَصِيرَةِ ؛ لانْفِتاحِها وإِدْراكِها ما خَفِيَ عَلَى غَيْرِها ، وهَذا مَقامُ **عَيْنِ اليَقِين** .

ووَجْهُ تَسْمِيَةِ حَقِّ البَصِيرَةِ : أَنَّ البَصِيرَةَ لَمَّا أَدْرَكَتِ الحَقَّ مِنْ أَصْلِهِ ، وغابَتْ عَنْ نُورِ الفُرُوعِ بِنُورِ الأُصُولِ ، سُمِّيَتْ حَقَّ البَصِيرَةِ ؛ لِما أَدْرَكَتْهُ مِنَ الحَقِّ ، وغابَتْ عن شُهُودِ الخَلْقِ ، وهَذا مَقامُ **حَقِّ اليَقِين** .

فَشُعاعُ البَصِيرَةِ هُوَ نُورُ الإِيمانِ لأَهْلِ المُراقَبَةِ ، وعَيْنُ البَصِيرَةِ هُوَ نُورُ الإِحْسانِ لأَهْلِ المُشاهَدَةِ ، وحَقُّ البَصِيرَةِ هُوَ نُورُ الرُّسُوخِ والتَّمْكِينِ لأَهْلِ المُكالَمَةِ .

أَوْ تَقُولُ : شُعاعُ البَصِيرَةِ : نُورُ عِلْمِ اليَقِين ، وعَيْنُ البَصِيرَةِ : هُوَ نُورُ عَيْنِ اليَقِين ، وحَقُّ البَصِيرَةِ : هُوَ نُورُ حَقِّ اليَقِين .

فَعِلْمُ اليَقِينِ لأَهْلِ الدَّلِيلِ والبُرْهان ، وعَيْنُ اليَقِينِ لأَهْلِ الكَشْفِ والبَيان ، وحَقُّ اليَقِينِ لأَهْلِ الشُّهُودِ والعَيان .

مِثالُ ذَلِكَ : كَمَنْ سَمِعَ بِمَكَّةَ مَثَلًا ولَمْ يَرَها ، فَهَذا عِنْدَهُ عِلْمُ اليَقِين ، فَإِذا اسْتَشْرَفَ عَلَيْها ورَآها ولَمْ يَدْخُلْها ، فَهُوَ عَيْنُ اليَقِين ، فَإِذا دَخَلَها وتَمَكَّنَ فِيها ، فَهُوَ حَقُّ اليَقِين .

أَوْ تَقُولُ : شُعاعُ البَصِيرَةِ لأَهْلِ عالَمِ المُلْكِ ، وعَيْنُ البَصِيرَةِ لأَهْلِ عالَمِ المَلَكُوت ، وحَقُّ البَصِيرَةِ لأَهْلِ عالَمِ الجَبَرُوت .

فَشُعاعُ البَصِيرَةِ : يُشْهِدُكَ قُرْبَ الحَقِّ مِنْكَ ، أَيْ : يَوجِبُ لَكَ شُهُودَ قُرْبِ نُورِ الحَقِّ مِنْكَ .

قالَ تَعالَى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (١) ، وقالَ تَعالَى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (٢) .

وعَيْنُ البَصِيرَة : يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ ؛ أَيْ : زَوالَكَ بِزَوالِ وَهْمِكَ ؛ لِوُجُودِهِ ؛ أَيْ : وُجُودِ الحَقِّ ؛ إِذْ مُحالٌ أَنْ تَشْهَدَ مَعَهُ سِواه ، فَإِذا زالَ عَنْكَ الوَهْمُ

---

(١) سُورَةُ قٓ : الآيَة ١٦ .
(٢) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ٤ .

وفَنِيتَ عَنْ وُجُودِكَ ، شَهِدْتَ رَبَّكَ بِرَبِّكَ ، وهُوَ عَلامَةُ فَتْحِ البَصِيرَة .

وعِلاجُ السَّرِيرَةِ كَما قالَ شَيْخُ شُيُوخِنا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ المَجْذُوب :

مَنْ رَأَىٰ المُكَوِّنَ بِالْكَوْنِ ❁ عَزِّهِ فِي عَمَىٰ الْبَصِيرَةِ

وَ مَنْ رَأَىٰ الْكَوْنَ بِالْمُكَوِّنِ ❁ صَادَفَ عِلاجَ السَّرِيرَةِ

وحَقُّ البَصِيرَةِ : يُشْهِدُكَ وُجُودَ الحَقِّ وَحْدَهُ ، لا وُجُودَكَ ؛ لأَنَّكَ مَفْقُودٌ مِنْ أَصْلِكَ وعَدَمِكَ ، إِذْ لا يَعْدَمُ إِلَّا ما ثَبَتَ لَهُ وُجُودٌ ، ولَمْ يَكُنْ مَعَ اللهِ مَوْجُود ، كانَ اللهُ ولا شَيْءَ مَعَهُ ، (وهُوَ الآنَ عَلَى ما عَلَيْهِ كانَ)[1].

قالَ مُحْيِي الدِّين ابنُ عَرَبِي الحاتِمي (٦٣٨ هـ) رضي الله عنه : ((مَنْ شَهِدَ الخَلْقَ لا فِعْلَ لَهُمْ فَقَدْ فازَ ، ومَنْ شَهِدَهُمْ لا حَياةَ لَهُمْ فَقَدْ جازَ ، ومَنْ شَهِدَهُمْ عَيْنَ العَدَمِ فَقَدْ وَصَلَ)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : ومَنْ شَهِدَهُمْ بِعَيْنِ العَدَمِ فَقَدْ تَمَكَّنَ وِصالُهُ ، وأَنْشَدُوا :

مَنْ أَبْصَرَ الْخَلْقَ كَالسَّرَابِ ❁ فَقَدْ تَرَقَّىٰ عَنِ الْحِجَابِ

إِلَى وُجُودٍ تَرَاهُ رَتْقًا ❁ بِلا ابْتِعَادٍ وَلا اقْتِرَابِ

فَلا خِطَابَ بِهِ إِلَيْهِ ❁ وَلا مُشِيرَ إِلَى الْخِطَابِ

---

(١) وهَذِهِ الزِّيادَةُ وإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي الحَدِيثِ ؛ لَكِنَّ مَعْناها صَحِيحٌ ؛ إِذِ التَّغَيُّرُ عَلَيْهِ تَعالى مُحال .

وإنَّما دَنْدَنَّا وأَطَلْنا حَوْلَ (اليَقِين) امْتِثالاً لِما وَرَدَ في الأَثَرِ :

(تَعَلَّمُوا اليَقِين) .

(اللَّهُمَّ اقْذِفْ فِي قَلْبِي رَجاءَك ، واقْطَعْ رَجائِي عَمَّنْ سِواك ، حَتَّى لا أَرْجُو أَحَداً غَيْرَك ، اللَّهُمَّ وما ضَعُفَتْ عَنْهُ قُوَّتِي ولَمْ تَبْلُغْهُ مَسْأَلَتِي ، ولَمْ يَجْرِ عَلَى لِسانِي مِمَّا أَعْطَيْتَ أَحَداً مِنَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ مِنَ اليَقِين ، فَخُصَّنِي بِهِ يا رَبَّ العالَمِين) .

ما سِوَىٰ الحَقِّ خَيالٌ

ثُمَّ إذا تَقَرَّرَ انْفِرادُ الحَقِّ بالوُجُود ، فَلا تَتَعَدَّ هِمَّتُكَ إِلَى غَيْرِهِ إِذْ هُوَ مَفْقُود ، وإِلَى ذَلِكَ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَولِهِ :

(لا تَتَعَدَّ نِيَّةُ هِمَّتِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ ، فالكَرِيمُ لا تَتَخَطَّاهُ الآمالُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **لا تَتَعَدَّ** ؛ أَيْ : لا تَتَجاوَزْ ، **ونِيَّةُ الهِمَّة** : قَصْدُها الَّذِي تَتَوَجَّهُ بِهِ ، **والهِمَّة** : القُوَّةُ المُنْبَعِثَةُ فِي طَلَبِ المَقاصِد ، والآمال : قُصُودُ القاصِدِين ، و مَعْنَى **لا تَتَخَطَّاهُ** ؛ أَيْ لا تَتَجاوَزُهُ إِلَى غَيْرِهِ .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إذا تَعَلَّقَتْ هِمَّتُكَ أَيُّها المُرِيدُ بِشَيْءٍ تُرِيدُ تَحْصِيلَهُ ، فَرُدَّها إِلَى اللهِ ، ولا تَتَعَلَّقْ بِشَيْءٍ سِواهُ ؛ لأَنَّهُ سُبْحانَهُ كَرِيمٌ عَلَى الدَّوام ، ونِعَمُهُ سَحَّاءُ عَلَى مَرِّ اللَّيالِي والأَيَّام ، والكَرِيمُ لا تَتَخَطَّاهُ الآمال ، وهُوَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ فَيُجِيبَ السُّؤال .

وقَدْ قالُوا فِي تَفْسِيرِ اسْمِهِ تَعالَى (الكَرِيم) : هُوَ الَّذِي إِذا سُئِلَ أَعْطَى ، ولا يُبالِي كَمْ أَعْطَى ، ولا لِمَنْ أَعْطَى ، وإِذا رُفِعَتْ حاجَةٌ إِلَى غَيْرِهِ لا يَرْضَى ، وإِذا جُفِيَ عَفا ، وإِذا عاتَبَ ما اسْتَقْصَى ، فَهَذا مِنْ كَمالِ كَرَمِهِ ، وتَمامِ إِحْسانِهِ وإِنْعامِهِ ، وفِي ذَلِكَ يَقُولُ سَيِّدِي إِبْراهِيمُ التَّازِي فِي قَصِيدَةٍ لَهُ :

كَمَالُ اللهِ أَكْمَلُ كُلِّ حُسْنٍ ❁ فَلِلّهِ الْكَمَالُ وَلا مُمَارِي

وَحُبُّ اللهِ أَشْرَفُ كُلِّ أُنْسٍ ❁ فَلا تَنْسَ التَّخَلُّقَ بِالْوَقَارِ

وَذِكْرُ اللهِ مَرْهَمُ كُلِّ جُرْحٍ ❁ وَأَنْفَعُ مِنْ زُلالٍ لِلْأُوَارِ

وَلا مَوْجُودَ إِلَّا اللهُ حَقًّا ❁ فَدَعْ عَنْكَ التَّعَلُّقَ بِالْفِشَارِ

وإِذا عَلِمْتَ كَرَمَهُ وجُودَهُ وكَمالَهُ وإِحْسانَهُ ، فَلا تَرْفَعْ إِلَى غَيْرِهِ ما هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ، كَما قالَ ابنُ عَطاءِ اللهِ :

(**لا تَرْفَعَنَّ إِلَى غَيْرِهِ حاجَةً هُوَ مُورِدُها عَلَيْكَ**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ ما سِوَى الحَقِّ خَيالٌ وَهْمِيٌّ لا حَقِيقَةَ لِوُجُودِهِ ، فَإِذا أَنْزَلَ اللهُ بِكَ حاجَةً - كَفاقَةٍ أَوْ شِدَّةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ العَوارِضِ - فَأَنْزِلْها بِاللهِ ، واجْعَلْها تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ ، وغِبْ عَنْها فِي ذِكْرِ اللهِ ، ولا تَلْتَفِتْ إِلَى ما سِواهُ تَعَلُّقًا وتَمَلُّقًا ؛ فَفِي الحَدِيثِ : (مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ) .

وقالَ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَّاق (٤٠٦ هـ) : ((مِنْ عَلامَةِ المَعْرِفَةِ أَلَّا تَسْأَلَ حَوائِجَكَ كُلَّها إِلَّا مِنَ اللهِ ، قَلَّتْ أَوْ جَلَّتْ ، مِثْلَ سَيِّدِنا مُوسَىٰ عليه السلام اشْتاقَ إِلَى رُؤْيَتِهِ فَقالَ : ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ (١) ، واحْتاجَ يَوْمًا إِلَى رَغِيفٍ فَقالَ : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ (٢) .

ثُمَّ تَعَجَّبَ ابنُ عَطاءِ اللهِ مِمَّنْ رَفَعَ أَحْكامَ الحَقِّ إِلَى غَيْرِهِ مَعَ عَجْزِهِ وضَعْفِهِ فَقالَ :

(فَكَيْفَ يُرْفَعُ إِلَى غَيْرِهِ ما كانَ هُوَ لَهُ واضِعًا ؟) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مِنْ قِلَّةِ حَياءِ الإِنْسانِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَى غَيْرِهِ ما أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ الحَقُّ تَعالَى مِنْ أَحْكامِ قَهْرِهِ ، مَعَ عِلْمِهِ تَعالَى بِإِحْسانِهِ وبِرِّهِ ، وعَدَمِ انْفِكاكِ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ .

قالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَن الشَّاذِلِيُّ رضي الله عنه : ((أَيِسْتُ مِنْ نَفْعِ نَفْسِي لِنَفْسِي ، فَكَيْفَ لا أَيْأَسُ مِنْ نَفْعِ غَيْرِي لَها ؟ ورَجَوْتُ اللهَ لِغَيْرِي ، فَكَيْفَ لا أَرْجُوهُ لِنَفْسِي ؟)) .

وقالَ بَعْضُ العارِفِينَ مِنَ المُكاشَفِينَ رضي الله عنهم : ((قِيلَ لِي فِي نَوْمٍ كاليَقَظَةِ ، أَوْ يَقَظَةٍ كالنَّوْمِ : لأُبْدِيَنَّ فاقَةً فَأُضاعِفَها عَلَيْكَ ، مُكافَأَةً لِسُوءِ أَدَبِكَ ،

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ١٤٣ . (٢) سُورَةُ القَصَص : مِنَ الآيَة ٢٤ .

وخُرُوجِكَ إِلَى حَدِّ عُبُودِيَّتِكَ ، سَبَكْتُكَ بِالفاقَةِ لِتَصِيرَ بِها ذَهَبًا خالِصًا ، فَلا تَزِيغَنَّ بَعْدَ السَّبْكِ ، وَسَمْتُكَ بِالفاقَةِ ، وحَكَمْتُ لِنَفْسِي بِالغِنَىٰ ، فَإِنْ وَصَلْتَها بِي ، وَصَلْتُكَ بِالغِنَىٰ ، وإِنْ وَصَلْتَها بِغَيْرِي ، قَطَعْتُ عَنْكَ مَوادَّ مَعُونَتِي ، وحَسَمْتُ أَسْبابَكَ مِنْ أَسْبابِي طَرْدًا لَكَ عَنْ بابِي ، فَمَنْ وَكَلْتُهُ إِلَيَّ مَلَك ، ومَنْ وَكَلْتُهُ إِلَيْهِ هَلَك)) .

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عطاءِ اللهِ وَجْهَ التَّعَجُّبِ فَقالَ :

(مَنْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حاجَةً عَنْ نَفْسِهِ ، فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَها عَنْ غَيْرِهِ رافِعًا ؟) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مَنْ عَجَزَ عَنْ إِصْلاحِ نَفْسِهِ ، فَكَيْفَ يَقْدِرُ أَنْ يُصْلِحَ غَيْرَهُ ؟ ضَعُفَ الطَّالِبُ والمَطْلُوب .

قالَ بَعْضُهُمْ : ((مَنِ اعْتَمَدَ عَلَى غَيْرِ اللهِ فَهُوَ فِي غُرُور ؛ لأَنَّ الغُرُورَ ما لا يَدُومُ ، ولا يَدُومُ شَيْءٌ سِواهُ ، وهُوَ الدَّائِمُ القَدِيمُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ ولا يَزالُ ، وعَطاؤُهُ وفَضْلُهُ دائِمانِ ، فَلا تَعْتَمِدْ إِلَّا عَلَى مَنْ يَدُومُ لَكَ مِنْهُ العَطاءُ والفَضْلُ)) .

ثُمَّ إِنَّ الاعْتِمادَ عَلَى اللهِ ، ورَفْعَ الحَوائِجِ إِلَيْهِ ، والرُّجُوعَ فِي كُلِّ النَّوازِلِ إِلَيْهِ ، سَبَبُهُ حُسْنُ الظَّنِّ بِهِ ؛ كَما أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(إِنْ لَمْ تُحْسِنْ ظَنَّكَ بِهِ لأَجْلِ وَصْفِهِ ، فَأَحْسِنْ ظَنَّكَ بِهِ لأَجْلِ مُعامَلَتِهِ مَعَكَ ، فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلَّا حَسَنًا ؟ وهَلْ أَسْدَى إِلَيْكَ إِلَّا مِنَنًا ؟) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : النَّاسُ فِي حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ عَلَى قِسْمَيْنِ : خَواصُّ وعَوامُّ .

أَمَّا الخَواصُّ : فَحُسْنُ ظَنِّهِمْ بِاللهِ تَعالَى ناشِئٌ عَنْ شُهُودِ جَمالِهِ ورُؤْيَةِ كَمالِهِ ، فَحُسْنُ ظَنِّهِمْ بِاللهِ تَعالَى لا يَنْقَطِعُ ، سَواءٌ واجَهَهُمْ بِجَمالِهِ أَوْ بِجَلالِهِ ؛ لأَنَّ اتِّصافَهُ تَعالَى بِالرَّحْمَةِ والرَّأْفَةِ والكَرَمِ والجُودِ لا يَنْقَطِعُ ، فَإِذا تَجَلَّى لَهُمْ بِجَلالِهِ أَوْ قَهْرِيَّتِهِ عَلِمُوا ما فِي طَيِّ ذَلِكَ مِنْ تَمامِ نِعْمَتِهِ وشُمُولِ رَحْمَتِهِ ، فَغَلَبَ عَلَيْهِمْ شُهُودُ الرَّحْمَةِ والجَمالِ ، فَدامَ حُسْنُ ظَنِّهِمْ عَلَى كُلِّ حال .

وأَمَّا العَوامُّ : فَحُسْنُ ظَنِّهِمْ بِاللهِ ناشِئٌ عَنْ شُهُودِ إِحْسانِهِ ، وحُسْنِ مُعامَلَتِهِ وامْتِنانِهِ ، فَإِذا نَزَلَتْ بِهِمْ قَهْرِيَّةٌ أَوْ شِدَّةٌ ، نَظَروا إِلَى سالِفِ إِحْسانِهِ ، وحُسْنِ ما أَسْدَى إِلَيْهِمْ مِنْ حُسْنِ لُطْفِهِ وامْتِنانِهِ ، فَقاسُوا ما يَأْتِي عَلَى ما مَضَى ، فَتَلَقَّوْا ما يَرِدُ عَلَيْهِمْ بِالقَبُولِ والرِّضا ، وقَدْ يَضْعُفُ هَذا الظَّنُّ بِضَعْفِ النَّظَرِ والتَّفَكُّرِ ، ويَقْوَى بِقُوَّتِهِما ، بِخِلافِ الأَوَّلِ فَإِنَّهُ ناشِئٌ عَنْ شُهُودِ الوَصْفِ ، والوَصْفُ لا يَتَخَلَّفُ .

والثَّانِي ناشِئٌ عَنْ شُهُودِ الفِعْلِ ، وهُوَ يَتَخَلَّفُ ، فَحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِوُجُودِ مُعامَلَتِهِ مَعَكَ بِلُطْفِهِ ومِنَنِهِ ، فَهَلْ عَوَّدَكَ الحَقُّ تَعالَى إلَّا بِرًّا حَسَنًا ولُطْفًا جَمِيلًا ؟ وهَلْ أَسْدَى إلَيْكَ ؛ أَيْ : أَوْصَلَ إلَيْكَ إلَّا مِنَنًا كَبِيرَةً ونِعَمًا غَزِيرَةً ؟

قالَ ﷺ : (أَحِبُّوا اللهَ لِما يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ ، وأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ) .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَنِ الشَّاذِلِي (٦٥٦ هـ) : ((إنَّا لا نُحِبُّ إلَّا اللهَ)) ، فَقالَ رَجُلٌ : أَبَى ذَلِكَ جَدُّكَ يا سَيِّدِي بِقَوْلِهِ : (جُبِلَتِ القُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إلَيْها) .

فَقالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَنِ رضي الله عنه : ((إنَّا لَمَّا لَمْ نَرَ مُحْسِنًا غَيْرَ اللهِ ، لَمْ نُحِبَّ سِواهُ)) .

وقالَ أَيْضًا : ((قَرَأْتُ لَيْلَةً : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلَى أَنْ بَلَغْتُ فِيها : ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ ، فَقِيلَ لِي : شَرُّ الوَسْواسِ وَسْواسٌ يَدْخُلُ بَيْنَكَ وبَيْنَ حَبِيبِكَ ، يُذَكِّرُكَ أَفْعالَكَ السَّيِّئَةَ ، ويُنْسِيكَ أَفْعالَكَ الحَسَنَةَ ، ويُكَثِّرُ عِنْدَكَ ذاتَ الشِّمالِ ، ويُقَلِّلُ عِنْدَكَ ذاتَ اليَمِينِ ، لِيَعْدِلَ بِكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ وكَرَمِهِ إلَى سُوءِ الظَّنِّ بِاللهِ ورَسُولِهِ ، فاحْذَرُوا هَذا البابَ ، فَقَدْ أُخِذَ مِنْهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ العُبَّادِ والزُّهَّادِ وأَهْلِ الطَّاعَةِ والسَّدادِ)) .

وقالَ رضي الله عنه أَيْضًا : ((العارِفُ مَنْ عَرَفَ شَدائِدَ الزَّمانِ فِي الأَلْطافِ الجارِيَةِ مِنَ اللهِ عَلَيْهِ ، وعَرَفَ إِساءَتَهُ فِي إِحْسانِ اللهِ إِلَيْهِ ، ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [1])) .

وإِذا كانَ الحَقُّ تَعالَى ما عَوَّدَكَ إِلَّا الإِحْسانَ ، وما أَسْدَى إِلَيْكَ إِلَّا الامْتِنانَ ، فَمِنَ العَجَبِ أَنْ تَتْرُكَهُ وتَطْلُبَ ما سِواهُ ، وإِلَى ذَلِكَ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(العَجَبُ كُلُّ العَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّا لا انْفِكاكَ لَهُ عَنْهُ ، ويَطْلُبُ ما لا بَقاءَ لَهُ مَعَهُ ، فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ ، ولَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتي فِي الصُّدُور) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : **ما لا انْفِكاكَ مِنْهُ** : هُوَ الحَقُّ تَعالَى وقَضاؤُهُ وقَدَرُهُ ، **وما لا بَقاءَ لَهُ** : هُوَ الدُّنْيا ، أَوْ ما تُدَبِّرُهُ النَّفْسُ وتُقَدِّرُهُ ، فَمِنْ أَعْجَبِ العَجائِبِ أَنْ يَفِرَّ العَبْدُ مِنْ مَوْلاهُ ، ويَتَوَجَّهَ بِالطَّلَبِ لِما سِواهُ ، مَعَ أَنَّهُ لا انْفِكاكَ لَهُ مِنْهُ ، ولا مَحِيدَ لَهُ عَنْهُ ، إِذْ لا وُجُودَ لَهُ إِلَّا مِنْهُ ، ولا قِيامَ لَهُ إِلَّا بِهِ ، فَكَيْفَ يَهْرُبُ مِنْهُ بِتَرْكِ طَلَبِ مَعْرِفَتِهِ ، وبِالتَّقَرُّبِ مِنْهُ بِامْتِثالِ أَمْرِهِ واجْتِنابِ نَهْيِهِ ، ويَطْلُبُ ما لا بَقاءَ لَهُ مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيا الفانِيَةِ

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ٦٩ .

الَّتِي إِنْ لَمْ تَزُلْ عَنْها فِي الحَياةِ ، زالَتْ عَنْكَ بِالمَماتِ ، فاطْلُبْ ما يَبْقَى دُونَ ما يَفْنَى ، ولِلّهِ دَرُّ القائِلِ :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا ۞ أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى زَوَالِ

وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلُ ظِلٍّ ۞ أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بِارْتِحَالِ

أَوْ تَقُولُ : مِنَ العَجَبِ كُلِّ العَجَبِ أَنْ يَهْرُبَ العَبْدُ ممَّا لا انْفِكاكَ لَهُ عَنْ قَدَرِ اللّهِ وقَضائِهِ ، ويَطْلُبَ ما لا بَقاءَ لَهُ مِنْ حُظُوظِ تَدْبِيرِهِ واخْتِيارِهِ ؛ إِذْ كُلُّ ما تُدَبِّرُهُ وتُبْرِمُهُ فَسَخَهُ القَضاءُ وهَدَمَهُ :

مَتَى يَبْلُغُ الْبُنْيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ ۞ إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ

وهَذا كُلُّهُ مِنْ عَدَمِ فَتْحِ البَصِيرَةِ أَوْ عَماها ، ولِذَلِكَ قالَ تَعالَى : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ عَنْ إِدْراكِ الحِسِّ ؛ لأَنَّها أَدْرَكَتْهُ وحُجِبَتْ بِهِ ، ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ﴾ عَنْ إِدْراكِ المَعْنَى ، فَلا تَرَى إِلَّا الحِسَّ ، ولا تُحِبُّ إِلَّا إِيَّاهُ ، ولا تَطْلُبُ شَيْئًا سِواهُ ؛ نَسْأَلُ اللّهَ عافِيَتَهُ وهُداهُ .

قالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَنِ الشَّاذِلِيُّ رضي الله عنه : ((عَمَى البَصِيرَةِ فِي ثَلاثٍ : إِرْسالُ الجَوارِحِ فِي مَعاصِي اللّه ، والطَّمَعُ فِي خَلْقِ اللّه ، والتَّصَنُّعُ بِطاعَةِ اللّه)) .

الهِجْرَةُ إِلَى اللهِ

ثُمَّ إِذا طَلَبْتَ الحَقَّ الَّذِي لا انْفِكاكَ لَكَ عَنْهُ ، ورَحَلْتَ إِلَيْهِ ، فاطْلُبْ مَعْرِفَةَ ذاتِهِ ، لا زَخارِفَ جَنَّاتِهِ ؛ إِذْ هِيَ كَوْنٌ مِنْ مُكَوِّناتِهِ ، ولِذَلِكَ قالَ ابنُ عَطاءِ اللهِ :

(لا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ ؛ فَتَكُونَ كَحِمارِ الرَّحَىٰ يَسِيرُ والَّذِي ارْتَحَلَ إِلَيْهِ هُوَ الَّذي ارْتَحَلَ عَنْهُ ، ولَكِنِ ارْحَلْ مِنَ الأَكْوانِ إِلَى المُكَوِّنِ ، وأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنْتَهَى) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الرَّحِيلُ مِنَ الكَوْنِ إِلَى الكَوْنِ** : هُوَ الرَّحِيلُ مِنَ السِّوَىٰ إِلَى طَلَبِ السِّوَىٰ ، وذَلِكَ كَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيا وانْقَطَعَ إِلَى اللهِ يَطْلُبُ بِذَلِكَ راحَةَ بَدَنِهِ وإِقْبالَ الدُّنْيا عَلَيْهِ ؛ لِقَولِهِ ﷺ : (مَن انْقَطَعَ إِلَى اللهِ ، كَفاهُ كُلَّ مَؤُونَةٍ ، ورَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ) .

ولِقَوْلِهِ ﷺ : (مَنْ كانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ ، جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وجَعَلَ غِناهُ فِي قَلْبِهِ ، وأَتَتْهُ الدُّنْيا وهِيَ صاغِرَةٌ) .

وكَمَنْ زَهِدَ فِيها يَطْلُبُ الخُصُوصِيَّةَ ، كَإِقْبالِ الخَلْقِ والعِزِّ ، وتَرْبِيَةِ المَهابَةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ، أَوْ زَهِدَ فِيها يَطْلُبُ الكَرامَةَ وخَوارِقَ العاداتِ ، أَوْ زَهِدَ فِيها يَطْلُبُ القُصُورَ والحُورَ ؛ فَهَذا كُلُّهُ رَحِيلٌ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ ،

فَمَثَلُهُ كَحِمارِ الطَّاحُونَةِ يَسِيرُ اللَّيْلَ والنَّهارَ ، وهُوَ فِي مَوْضِعِهِ قائِمٌ ، يَظُنُّ أَنَّهُ قَطَعَ مَسافَةً مِمَّا طَلَب ، وما زادَ إِلَّا نَقْصًا مَعَ تَعَب .

قالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَن رضي الله عنه : ((قِفْ بِبابٍ واحِدٍ لا لِتُفَتَّحَ لَكَ الأَبْوابُ ، تُفْتَحْ لَكَ الأَبْوابُ ، واخْضَعْ لِسَيِّدٍ واحِدٍ لا لِتَخْضَعَ لَكَ الرِّقابُ ، تَنْخَضِعْ لَكَ الرِّقابُ ، قالَ تَعالَى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ (١).

فَيَنْبَغِي لَكَ أَيُّها المُرِيدُ أَنْ تَرْفَعَ هِمَّتَكَ إِلَى المَلِكِ المَجِيد ، فَتَرْحَلَ مِنْ رُؤْيَةِ الأَكْوانِ إِلَى طَلَبِ شُهُودِ المَلِكِ الدَّيَّانِ ، أَوْ تَرْحَلَ مِنَ الدَّلِيلِ والبُرْهانِ إِلَى رُتْبَةِ الشُّهُودِ والعَيانِ ، وهُوَ غايَةُ القَصْدِ وبُلُوغُ المُنْتَهَى ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (٢) ، ولا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ ؛ بِأَنْ تَتْرُكَ حَظًّا مِنْ حُظُوظِ نَفْسِكَ طَلَبًا لِحَظٍّ آخَرَ ، فَتَكُونَ كَحِمارِ الرَّحَى ، الَّذِي سارَ مِنْهُ هُوَ الَّذِي عادَ إِلَيْهِ ، وتَشْبِيهُهُ بِالحِمارِ دَلِيلٌ عَلَى بَلادَتِهِ وقِلَّةِ فَهْمِهِ ، إِذْ لَوْ فَهِمَ عَنِ اللهِ ، لَرَحَلَ عَنْ حُظُوظِ نَفْسِهِ وهَواه ، قاصِدًا الوُصُولَ إِلَى حَضْرَةِ مَوْلاه ، فَلا تَرْحَلْ أَيُّها المُرِيدُ مِنْ كَوْنٍ مَخْلُوقٍ إِلَى كَوْنٍ مَخْلُوقٍ مِثْلِكَ ، ولَكِن ارْحَلْ مِنَ الكَوْنِ إِلَى المُكَوِّن ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ .

---

(١) سُورَةُ الحِجْر : مِنَ الآيَة ٢١ . (٢) سُورَةُ النَّجْم : الآيَة ٤٢ .

والرَّحِيلُ إِلَى المُكَوِّن يَكُونُ بِثَلاثَةِ أُمُورٍ :

الأَوَّل : قِصَرُ هِمَّتِكَ عَلَيْهِ دُونَ ما سِواهُ حَتَّى يَطَّلِعَ عَلَى قَلْبِكَ فَلا يَجِدَهُ مُحِبًّا لِسِواه .

الثَّانِي : دَوامُ اللُّجُوءِ إِلَيْهِ ، والاسْتِعانَةِ بِهِ ، والتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، والاسْتِسْلامِ لِما يُورِدُهُ عَلَيْكَ .

الثَّالِثُ : الرُّجْعَى إِلَيْهِ بِإِقامَةِ الحُقُوقِ والفِرارِ مِنَ الحُظُوظِ .

قالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَن : ((أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ احْتاجَ الخَلْقُ إِلَيْهِ ، وهُوَ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ : المَحَبَّةُ للّه ، والغِنَىٰ بِاللّه ، والصِّدْقُ ، واليَقِينُ ؛ الصِّدْقُ فِي العُبُودِيَّة ، واليَقِينُ فِي أَحْكامِ الرُّبُوبِيَّة ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [1])) .

ثُمَّ اسْتَدَلَّ ابنُ عَطاءِ اللّهِ عَلَى طَلَبِ رَفْعِ الهِمَّةِ إِلَى اللّهِ مَعَ الإِعْراضِ عَمَّا سِواهُ بِحَدِيثِ الهِجْرَةِ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ فَقالَ :

(وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ ﷺ : ((**فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللّهِ ورَسُولِهِ ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللّهِ ورَسُولِهِ ، ومَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيا يُصِيبُها ، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُها ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى ما هاجَرَ إِلَيْهِ**))، فافْهَمْ قَوْلَهُ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ

---

(١) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ٥٠ .

والسَّلامُ - : ((فَهِجْرَتُهُ إِلَى ما هاجَرَ إِلَيْهِ)) ، وتَأَمَّلْ هَذا الأَمْرَ إِنْ كُنْتَ ذا فَهْم ، والسَّلام) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الهِجْرَةُ** : هِيَ الانْتِقالُ مِنْ وَطَنٍ إِلَى وَطَنٍ آخَر ؛ بِحَيْثُ يَهْجُرُ الوَطَنَ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ ، ويَسْكُنُ الوَطَنَ الَّذِي انْتَقَلَ إِلَيْهِ ، وهِيَ هُنا مِنْ ثَلاثَةِ أُمُور : مِنْ وَطَنِ المَعْصِيَةِ إِلَى وَطَنِ الطَّاعَة ، ومِنْ وَطَنِ الغَفْلَةِ إِلَى وَطَنِ اليَقَظَةِ ، ومِنْ وَطَنِ عالَمِ الأَشْباحِ إِلَى وَطَنِ عالَمِ الأَرْواح .

أَوْ تَقُولُ : مِنْ وَطَنِ المُلْكِ إِلَى وَطَنِ المَلَكُوت ، أَوْ مِنْ وَطَنِ الحِسِّ إِلَى وَطَنِ المَعْنَى ، أَوْ مِنْ وَطَنِ عِلْمِ اليَقِينِ إِلَى وَطَنِ عَيْنِ اليَقِينِ أَوْ حَقِّ اليَقِين ، فَمَنْ هاجَرَ مِنْ هَذِهِ المَواطِنِ قاصِدًا بِهِجْرَتِهِ الوُصُولَ إِلَى رِضَا اللّهِ عَنْهُ ورَسُولِهِ ، أَوِ الوُصُولَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللّهِ ورَسُولِهِ ، فَهِجْرَتُهُ مُوَصِّلَةٌ إِلَى اللّهِ ورَسُولِهِ عَلَى حَسْبِ قَصْدِهِ وهِمَّتِهِ ، ومَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى حُظُوظِ نَفْسِهِ وهَواهُ ، فَقَدْ خابَ قَصْدُهُ و مَسْعاهُ ، وغايَةُ هِجْرَتِهِ ما هاجَرَ إِلَيْهِ ، وكانَتْ هِجْرَتُهُ زِيادَةً فِي جَرِّ الوَبالِ إِلَيْهِ ، فافْهَمْ أَيُّها السَّامِعُ قَوْلَهُ ﷺ : ((فَهِجْرَتُهُ إِلَى ما هاجَرَ إِلَيْهِ)) ، وتَدَبَّرْ واعْرِضْهُ عَلَى قَلْبِكَ ونَفْسِكَ ، وانْظُرْ هَلْ فِيكَ بَقِيَّةٌ مِنَ الالْتِفاتِ إِلَى ما هاجَرْتَ

مِنْهُ ، أَوْ فِيكَ حَظٌّ سِوَى ما هاجَرْتَ إِلَيْهِ مِنْ رِضْوانِ اللهِ ورَسُولِهِ ، أَوْ مَعْرِفَةِ اللهِ ورَسُولِهِ ، فَإِنَّ اللهَ غَيُورٌ لا يُحِبُّ لِمَنْ طَلَبَهُ أَنْ يَطْلُبَ مَعَهُ سِواه ، ولَنْ يُوصِلَ إِلَيْهِ مَنْ بَقِيَ فِيهِ بَقِيَّةٌ مِنْ حَظِّهِ وهَواه ، قالَ الشَّشْتُرِي :

لَيْسَ يُدْرِكْ وِصَالِي ❁ كُلُّ مَـنْ فِـيهِ بُقْـيَا

وسَمِعْتُ شَيْخَنا اليَزِيدِيَّ يَقُولُ : ((إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَعْرِفُوا هَلْ رَحَلَتْ أَنْفُسُكُمْ مِنْ هَذا العالَمِ إِلَى عالَمِ المَلَكُوتِ أَوْ لَمْ تَرْحَلْ ، فاعْرِضُوا عَلَيْها الأُمُورَ الَّتِي كانَتْ تَشْتَهِيها وتَمِيلُ إِلَيْها واحِدًا بَعْدَ واحِدٍ ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوها رَحَلَتْ عَنْها ، وخَرَجَتْ مَحَبَّتُها مِنْ قَلْبِها ، ولَمْ تَرْكَنْ إِلَى واحِدٍ مِنْها ، فاسْتَبْشِرُوا ، فَقَدْ رَحَلَتْ أَرْواحُكُمْ إِلَى عالَمِ المَلَكُوت ، وإِنْ وَجَدْتُمُوها رَكَنَتْ أَوْ مالَتْ بِالمَحَبَّةِ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذا العالَمِ ، فَجاهِدُوها ، وأَخْرِجُوها عَنْهُ بِالكُلِّيَّةِ حَتَّى تَرْحَلَ إِلَى رَبِّها)) اهـ بِالمَعْنَى .

وخَتَمَ هَذا البابَ بـ (السَّلام) لِما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحِيلِ والمَقام ، فَكُلُّها تَدُلُّ عَلَى سَفَرِ القَلْبِ مِنْ شُهُودِ الخَلْقِ إِلَى شُهُودِ الخالِقِ ، فَناسَبَ خَتْمُها بـ (السَّلام) ؛ لِما فِيهِ مِنْ ذِكْرِ السَّلامَة .

الصُّحْبَة

ولَمَّا كانَ السَّفَرُ لا بُدَّ فِيهِ مِنْ دَلِيل ، وإلَّا ضَلَّ عَنْ سَواءِ السَّبِيل ، اسْتَرْسَلَ ابنُ عَطاءِ اللهِ فِي ذِكْرِ الصُّحْبَةِ وشُرُوطِ المَصْحُوبِ وآدابِها ، فَقالَ :

(لا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حالُهُ ، ولا يَدُلُّكَ عَلَى اللهِ مَقالُهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الَّذِي يُنْهِضُكَ حالُهُ** : هُوَ الَّذِي إذا رَأَيْتَهُ ذَكَرْتَ اللهَ ، فَقَدْ كُنْتَ فِي حالَةِ الغَفْلَةِ ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُ نَهَضَ حالُكَ إلَى اليَقَظَةِ ، أَوْ كُنْتَ فِي حالَةِ الرَّغْبَةِ ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُ نَهَضَ حالُكَ إلَى الزُّهْدِ ، أَوْ كُنْتَ فِي حالَةِ الاشْتِغالِ بِالمَعْصِيَةِ ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُ نَهَضَ حالُكَ إلَى التَّوْبَةِ ، أَوْ كُنْتَ فِي حالَةِ الجَهْلِ بِمَوْلاك ، فَنَهَضْتَ إلَى مَعْرِفَةِ مَنْ تَوَلَّاك ، وهَكَذا .

والَّذِي يَدُلُّكَ عَلَى اللهِ مَقالُهُ : هُوَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاللهِ ، ويَدُلُّ عَلَى اللهِ ، ويَغِيبُ عَمَّا سِواه ؛ إذا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِمَجامِعِ القُلُوب ، وإذا سَكَتَ أَنْهَضَكَ حالُهُ إلَى عَلَّامِ الغُيُوب ، فَحالُهُ يُصَدِّقُ مَقالَهُ ، ومَقالُهُ مُوافِقٌ لِعِلْمِهِ ، فَصُحْبَةُ مِثْلِ هَذا إكْسِيرٌ يَقْلِبُ الأَعْيان ، وهُوَ مَفْهُومٌ مِنْ قَوْلِ الشَّيْخ : ((لا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حالُهُ .... إلخ)) ؛ أَيْ : بَلِ اصْحَبْ مَنْ يُنْهِضُكَ حالُهُ ، ويَدُلُّكَ عَلَى اللهِ مَقالُهُ .

والصُّحْبَةُ فِي طَرِيقِ التَّصَوُّفِ أَمْرٌ كَبِيرٌ فِي السَّيْرِ إِلَى اللهِ تَعالَى حَسْبَما جَرَتْ بِهِ عادَةُ اللهِ تَعالَى وحِكْمَتُهُ ، حَتَّى قالَ بَعْضُهُمْ : ((مَنْ لا شَيْخَ لَهُ ، فالشَّيْطانُ شَيْخُهُ)) .

وقالَ آخَرُ : ((الإِنْسانُ كالشَّجَرَةِ النَّابِتَةِ فِي الخَلاء ، فَإِنْ لَمْ تُقْطَعْ وتُقَلَّمْ ، كانَتْ دَكارَة)) .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنه : ((كُلُّ مَنْ لا شَيْخَ لَهُ فِي هَذا الشَّأْنِ ، لا يُفْرَحُ بِهِ)) .

ومِنْ شُروطِ الشَّيْخِ أَرْبَعَةٌ : عِلْمٌ صَحِيحٌ ، وذَوْقٌ صَرِيحٌ ، وهِمَّةٌ عالِيَةٌ ، وحالَةٌ مَرْضِيَّة .

فالعِلْمُ الصَّحِيحُ : هُوَ ما يَتَيَقَّنُ بِهِ فَرْضَهُ ، ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عالِمًا بِالمَقاماتِ والمَنازِلِ الَّتِي يَقْطَعُها المُرِيدُ ، وبِغُرورِ النَّفْسِ ومَكايِدِها ، قَدْ سَلَكَ ذَلِكَ عَلَى يَدِ شَيْخٍ كامِلٍ ، وذاقَ ذَلِكَ ذَوْقًا لا تَقْلِيدًا ؛ وهُوَ المُرادُ **بِالذَّوْقِ الصَّرِيح** .

والهِمَّةُ العالِيَة : هِيَ المُتَعَلِّقَةُ بِاللهِ دُونَ ما سِواه .

والحالَةُ المَرْضِيَّة : وهِيَ الاسْتِقامَةُ بِقَدْرِ الاسْتِطاعَة .

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ جامِعًا بَيْنَ حَقِيقَةٍ وشَرِيعَةٍ ، وبَيْنَ جَذْبٍ وسُلُوكٍ ؛

فَبِجَذْبِهِ يَجْذِبُ القُلُوب ، وبِسُلُوكِهِ يُخْرِجُها مِنْ حالَةِ الجَذْبِ إلَى البَقاء ، فالسَّالِكُ فَقَطْ ظاهِرِيٌّ لا يَجْذِبُ ولا يُحَقِّقُ ، والمَجْذُوبُ فَقَطْ لا يَسِيرُ ولا يُوصِلُ ، وفَسادُ صُحْبَتِهِ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِها .

قالَ فِي ((أُصُول الطَّرِيقَة)) : ((ومَنْ فِيهِ خَمْسٌ لا تَصِحُّ مَشْيَخَتُهُ : الجَهْلُ بِالدِّين ، وإسْقاطُ حُرْمَةِ المُسْلِمِين ، ودُخُولُ ما لا يَعْنِي ، واتِّباعُ الهَوَى فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وسُوءُ الخُلُقِ مِنْ غَيْرِ مُبالاة)) ؛ فَصُحْبَةُ مِثْلِ هَذا ضَرَرٌ مَحْضٌ ، وإلَيْهِ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(رُبَّما كُنْتَ مُسِيئًا ، فَأَراكَ الإحْسانَ مِنْكَ صُحْبَتُكَ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حالاً مِنْكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **رُبَّ** هُنا للتَّكْثِير ، **وصُحْبَتُكَ** : فاعِلٌ بِأَراكَ ، **والإحْسان** مَفْعُولٌ مُقَدَّمٌ ، والتَّقْدِيرُ : رُبَّما تَكُونُ مُسِيئًا فِي حالِكَ ، مُقَصِّرًا فِي عَمَلِكَ ، فَإذا صَحِبْتَ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حالاً مِنْكَ ، أَراكَ ؛ أَيْ : أَبْصَرَتْكَ صُحْبَتُكَ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حالاً مِنْكَ الإحْسانَ مِنْكَ لِما تَرَى ما يَصْدُرُ مِنْها مِنَ الإحْسان ، ومِنَ المَصْحُوبِ مِنَ التَّقْصِيرِ والنُّقْصان ، فَتَعْتَقِدُ المَزِيَّةَ عَلَيْهِ ؛ لأَنَّ النَّفْسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى رُؤْيَةِ الفَضْلِ لَها ، ومُشاهَدَةِ التَّقْصِيرِ مِنْ غَيْرِها عِلْمًا أَوْ عَمَلاً أَوْ حالاً ، بِخِلافِ ما إذا صَحِبَتْ

مَنْ هُوَ أَحْسَنُ مِنْها ؛ فَإِنَّها لا تَرَى مِنْ نَفْسِها إِلَّا التَّقْصِير ، وفِي ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِير .

قالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَنِ الشَّاذِلِي : ((أَوْصانِي حَبِيبِي فَقالَ : لا تَنْقُلْ قَدَمَيْكَ إِلَّا حَيْثُ تَرْجُو ثَوابَ اللّه ، ولا تَجْلِسْ إِلَّا حَيْثُ تَأْمَنُ غالِبًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللّه ، ولا تَصْطَفِ لِنَفْسِكَ إِلَّا مَنْ تَزْدادُ بِهِ يَقِينًا ، وقَلِيلٌ ما هُمْ)) .

وقالَ لَهُ أَيْضًا : ((لا تَصْحَبْ مَنْ يُؤْثِرُ نَفْسَهُ عَلَيْكَ ؛ فَإِنَّهُ لَئِيم ، ولا مَنْ يُؤْثِرُكَ عَلَى نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ قَلَّما يَدُوم ، واصْحَبْ مَنْ إِذا ذُكِرَ ذُكِرَ اللّه ، فاللّهُ يُغْنِي بِهِ إِذا شُهِدَ ، ويَنُوبُ عَنْهُ إِذا فُقِدَ ، ذِكْرُهُ نُورُ القُلُوب ، ومُشاهَدَتُهُ مَفاتِيحُ الغُيُوب) .

وحاصِلُهُ : لا تَصْحَبْ مَنْ تَتَكَلَّفُ لَهُ فَوْقَ جَهْدِكَ ، ولا مَنْ يَتَكَلَّفُ لَكَ كَذَلِكَ ، و خَيْرُ الأُمُورِ أَوْساطُها .

و قالَ سَيِّدِي عَلِيٌّ رضي الله عنه فِي كِتابِهِ : ((اعْلَمْ أَنَّهُ لا يُقَرِّبُ طالِبَ اللّهِ إِلَى اللّهِ شَيْءٌ مِثْلُ جُلُوسِهِ مَعَ عارِفٍ بِاللّهِ إِنْ وَجَدَهُ ، وإِنْ لَمْ يَجِدْهُ فَعَلَيْهِ بِذِكْرِ اللّهِ لَيْلًا ونَهارًا ، قائِمًا وقاعِدًا ، مَعَ العُزْلَةِ عَنْ أَبْناءِ الدُّنْيا ؛ بِعَدَمِ الجُلُوسِ مَعَهُمْ ، وعَدَمِ الكَلامِ بِذَلِكَ ، وعَدَمِ النَّظَرِ فِيهِمْ ؛

لأَنَّهُمْ سُمٌّ خارِقٌ ولا يُبْعِدُ مِنَ اللهِ شَيْءٌ مِثْلُ جُلُوسِهِ مَعَ فَقِيرٍ جاهِلٍ (المُتَمَصْوِفُ المُتَزَيِّي بِزِيِّ الصُّوفِيَّة ، وهُوَ أَبْعَدُ ما يَكُونُ عَنْ نَهْجِ الصُّوفِيَّة) ؛ الفَقِيرُ الجاهِلُ أَقْبَحُ مِنَ العامِّيِّ الغافِلِ بِأَلْفِ ضِعْف .

الجُلُوسُ مَعَ العارِفِ بِاللهِ أَفْضَلُ مِنَ العُزْلَة ، والعُزْلَةُ أَفْضَلُ مِنَ الجُلُوسِ مَعَ العَوامِّ الغافِلِين ، والجُلُوسُ مَعَ العامِيِّ الغافِلِ أَفْضَلُ مِنَ الجُلُوسِ مَعَ الفَقِيرِ الجاهِل ، لا شَيْءَ فِي الوُجُودِ يُسَوِّدُ قَلْبَ المُرِيدِ مِثْلُ جِلْسَةٍ مَعَ الفَقِيرِ (المُتَمَصْوِفِ) الجاهِل ؛ كَما أَنَّ العارِفَ بِاللهِ يَجْمَعُ بَيْنَ العَبْدِ ومَوْلاهُ بِنَظْرَةٍ أَوْ بِكَلِمَةٍ ، كَذَلِكَ الفَقِيرُ الجاهِلُ بِاللهِ رُبَّما أَتْلَفَ المُرِيدَ عَنْ مَوْلاهُ بِنَظْرَةٍ أَوْ بِكَلِمَةٍ فَما فَوْقَها ، ويَرْحَمُ اللهُ المَجْذُوبَ حَيْثُ يَقُولُ فِي بَعْضِ كَلامِهِ : الجِلْسَةُ مَعَ غَيْرِ الأَخْيارِ تُرْذِلُ ولَوْ تَكُونُ صافِيًا .

وقالَ سَهْلُ بنُ عَبْدِالله : ((احْذَرْ صُحْبَةَ ثَلاثَةٍ مِنْ أَصْنافِ النَّاس : الجَبابِرَةِ الغافِلِين ، والقُرَّاءِ المُداهِنِين ، والمُتَصَوِّفَةِ الجاهِلِين)) .

اللَّهُمَّ أَعِذْنِي وأَحْبابِي مِنْ صُحْبَةِ عالِمٍ مُتَهَتِّك ، وجاهِلٍ مُتَنَسِّك .

وزادَ الشَّيْخُ زَرُّوق : عُلَماءَ الظَّاهِر ؛ قالَ : ((لأَنَّ نُفُوسَهُمْ غالِبَةٌ عَلَيْهِمْ)) .

وكانَ يَحْيَىٰ بنُ مُعاذ الرَّازِي رضي الله عنه يَقُولُ لِعُلَماءِ وَقْتِهِ : ((يا مَعْشَرَ

العُلماء ! دِيارُكُمْ هامانِيَّة ، ومَراكِبُكُمْ قارُونِيَّة ، وأَطْعِمَتُكُمْ فِرْعَونِيَّة ، ووَلائِمُكُمْ جالُوتِيَّة ، ومَواسِمُكُمْ جاهِلِيَّة ، وقَدْ صَيَّرْتُمْ مَذاهِبَكُمْ شَيْطانِيَّة ، فَأَيْنَ المِلَّةُ المُحَمَّدِيَّة ؟)) .

وكَأَنِّي بِهِ يُخاطِبُ العُلماءَ ذَوِي الأَجِنْدَةِ الماسُونِيَّة ، المُتَنَكِّرِينَ بِارْتِداءِ عَباءَةِ الإِنْسانِيَّة .

الأَعْمالُ والأَحْوالُ

ومِمَّا يَتَأَكَّدُ النَّظَرُ إِلَيْهِ فِي المَصْحُوب : الزُّهْدُ فِي الدُّنْيا ، ورَفْعُ الهِمَّةِ عَنْها ، ولَوْ قَلَّ عَمَلُهُ فِي الظَّاهِر ، وإِلَى ذَلِك أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ : **(ما قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زاهِدٍ ، ولا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ راغِبٍ)** : قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الزُّهْدُ فِي الشَّيْءِ** : هُوَ خُروجُ مَحَبَّتِهِ مِنَ القَلْبِ ، وبُرُودَتُهُ مِنْهُ .

وعِنْدَ القَوْمِ : بُغْضُ كُلِّ ما يَشْغَلُ عَنِ اللهِ ، ويَحْبِسُ عَنْ حَضْرَةِ اللهِ .

ويَكُونُ أَوَّلًا فِي المالِ ، وعَلامَتُهُ : أَنْ يَسْتَوِيَ عِنْدَهُ الذَّهَبُ والتُّرابُ ، والفِضَّةُ والحَجَرُ ، والغِنَىٰ والفَقْرُ ، والمَنْعُ والعَطاء .

ويَكُونُ ثانِيًا فِي الجاهِ والمَراتِب ، وعَلامَتُهُ : أَنْ يَسْتَوِيَ عِنْدَهُ العِزُّ والذُّلُّ ، والظُّهُورُ والخُمُولُ ، والمَدْحُ والذَّمُّ ، والرِّفْعَةُ والسُّقُوط .

ويَكُونُ ثالِثًا فِي المَقاماتِ والكَراماتِ والخُصُوصِيَّات ، وعَلامَتُهُ : أَنْ يَسْتَوِيَ عِنْدَهُ الرَّجاءُ والخَوْفُ ، والقُوَّةُ والضَّعْفُ ، والبَسْطُ والقَبْضُ ، يَسِيرُ بِهَذا كَما يَسِيرُ بِهَذا ، أَوْ يُعْرَفُ فِي هَذا كَما يُعْرَفُ فِي هَذا ، ثُمَّ يَكُونُ الزُّهْدُ فِي الكَوْنِ بِأَسْرِه بِشُهُودِ المُكَوِّنِ وأَمْرِهِ .

فَإِذا تَحَقَّقَ المُرِيدُ بِهَذِهِ المَقاماتِ فِي الزُّهْدِ ، أَوْ جُلِّها ، كانَ عَمَلُهُ كُلُّهُ عَظِيمًا كَبِيرًا فِي المَعْنَى عِنْدَ اللهِ ، وإِنْ كانَ قَلِيلًا فِي الحِسِّ عِنْدَ النَّاس ، وهَذا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : (عَمَلٌ قَلِيلٌ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ كَثِيرٍ فِي بِدْعَةٍ) .

وأَيُّ بِدْعَةٍ أَعْظَمُ وأَشْنَعُ مِنْ حُبِّ الدُّنْيا والانْكِبابِ عَلَيْها بِالقَلْبِ والقالَبِ ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِهِ ﷺ ، ولا فِي زَمَنِ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم ، حَتَّى تَجَدَّدَ ظُهُورُ الفَراعِنَةِ فَبَنَوْا وشَيَّدُوا وزَخْرَفُوا ، فَهَذِهِ هِيَ البِدْعَةُ الحَقِيقِيَّةُ ، فَعَمَلُ هَؤُلاءِ قَلِيلٌ فِي المَعْنَى ، وإِنْ كانَ كَثِيرًا فِي الحِسِّ ، إِذْ لا عِبْرَةَ بِحَرَكَةِ الأَشْباحِ ، وإِنَّما العِبْرَةُ بِخُضُوعِ الأَرْواحِ .

وسَمِعْتُ شَيْخَنا رضي الله عنه يَقُولُ : ((الرَّاغِبُ فِي الدُّنْيا غافِلٌ ولَوْ كانَ يَقُولُ : اللهَ اللهَ بِلِسانِهِ عَلَى الدَّوامِ ؛ إِذْ لا عِبْرَةَ باللِّسانِ ، والزَّاهِدُ فِي الدُّنْيا ذاكِرٌ عَلَى الدَّوامِ ولَوْ قَلَّ ذِكْرُهُ باللِّسانِ)) .

قالَ ابنُ عَجيبَة : ((وبِهَذا فَسَّرَ بَعْضُهُمْ قَوْلَهُ تَعالَى : ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [1] ؛ أَيْ : مَعَ الغَفْلَةِ والرَّغْبَةِ ، ولَوْ كَثُرَ فِي الحِسِّ)) .

وقالَ سَيِّدُنا الإمامُ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - و رضي الله عنه : ((كُونُوا لَقَبُولِ العَمَلِ أَشَدَّ مِنْكُمْ اهْتِمامًا للعَمَل ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَقِلَّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَى ، وكَيْفَ يَقِلُّ عَمَلٌ يُتَقَبَّلُ ؟!)) .

وقالَ سَيِّدُنا عَبْدُاللهِ بنُ مَسْعُود رضي الله عنه : ((رَكْعَتانِ مِنْ زاهِدٍ عالِمٍ خَيْرٌ وأَحَبُّ عِنْدَ اللهِ مِنْ عِبادَةِ المُتَعَبِّدِينَ المُجْتَهِدِينَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ أَبَداً سَرْمَداً)) .

قالَ بَعْضُ السَّلَف : ((لَمْ يَفُتْكُمْ أَصْحابُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِكَثْرَةِ صَلاةٍ ولا صِيام ، إِلَّا أَنَّهُمْ كانُوا أَزْهَدَ فِي الدُّنْيا)) .

قالَ الشَّيْخُ زَرُّوق : ((وإِنَّما كانَتْ للزُّهَّادِ هَذِهِ الفَضِيلَةُ لِثَلاثَةِ أَوْجُهٍ :

أَحَدُها : ما فِيهِ مِنْ فَراغِ القَلْبِ عَنِ الشَّواغِلِ والشَّواغِب .

الثَّانِي : لأَنَّهُ شاهِدٌ بِوُجُودِ الصِّدْقِ فِي المَحَبَّة ؛ إِذِ الدُّنْيا مَحْبُوبَةٌ لا تُتْرَكُ إِلَّا بِما هُوَ أَحَبُّ ، قالَ ﷺ : (الصَّدَقَةُ بُرْهانٌ) ؛ قِيلَ : عَلَى حُبِّ العَبْدِ رَبَّهُ .

---

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ١٤٢ .

الثَّالِثُ : لأَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى المَعْرِفَةِ بِاللهِ والثِّقَةِ بِهِ ؛ لأَنَّ بَذْلَ المَوْجُودِ مِنَ الثِّقَةِ بِالمَعْبُودِ ، ومَنْعَ المَوْجُودِ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ بِالمَعْبُودِ)) .

ولَمَّا كانَ حُسْنُ العَمَلِ الظَّاهِرِ وإِتْقانُهُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ كَمالُهُ ونُقْصانُهُ إِنَّما هُوَ نِتاجُ حُسْنِ الباطِنِ وأَحْوالِهِ ، أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(حُسْنُ الأَعْمالِ نِتاجُ حُسْنِ الأَحْوالِ ، وحُسْنُ الأَحْوالِ مِنَ التَّحَقُّقِ فِي مَقاماتِ الإِنْزالِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الأَعْمالُ** : حَرَكَةُ الجِسْمِ بِالمُجاهَدَة ، **والأَحْوالُ** : حَرَكَةُ القَلْبِ بِالمُكابَدَة ، **والمَقاماتُ** : سُكُونُ القَلْبِ بِالطُّمَأْنِينَة ؛ مِثالُ ذَلِكَ مَقامُ الزُّهْدِ مَثَلًا ، فَإِنَّهُ يَكُونُ أَوَّلًا عَمَلُهُ مُجاهَدَةً بِتَرْكِ الدُّنْيا وأَسْبابِها ، ثُمَّ يَكُونُ مُكابَدَةً بِالصَّبْرِ عَلَى الفاقَةِ حَتَّى يَصِيرَ حالًا ، ثُمَّ يَسْكُنُ القَلْبُ ويَذُوقُ حَلاوَتَهُ فَيَصِيرُ مَقامًا ، وكَذَلِكَ التَّوَكُّلُ يَكُونُ مُجاهَدَةً بِتَرْكِ الأَسْبابِ ، ثُمَّ يَكُونُ مُكابَدَةً بِالصَّبْرِ عَلَى مَرارَةِ تَصَرُّفاتِ الأَقْدارِ ، ثُمَّ يَصِيرُ حالًا ، ثُمَّ يَسْكُنُ القَلْبُ فِيهِ ويَذُوقُهُ فَيَصِيرُ مَقامًا ، وكَذَلِكَ المَعْرِفَةُ تَكُونُ مُجاهَدَةً بِالعَمَلِ فِي الظَّاهِرِ ؛ كَخَرْقِ العَوائِدِ مِنْ نَفْسِهِ ، ثُمَّ تَكُونُ مُكابَدَةً بِالمَعْرِفَةِ والإِقْرارِ عِنْدَ التَّعَرُّفاتِ ، ثُمَّ

تَصِيرُ حالًا ، فَإِذا سَكَنَتِ الرُّوحُ فِي الشُّهُودِ وتَمَكَّنَتْ ، صارَتْ مَقامًا ، فالأَحْوالُ مَواهِبُ ، والمَقاماتُ مَكاسِبُ ؛ يَعْنِي أَنَّ الأَحْوالَ مَواهِبُ مِنَ اللهِ جَزاءً لِثَوابِ الأَعْمالِ ، فَإِذا دامَ العَمَلُ واتَّصَلَ الحالُ صارَ مَقامًا ؛ فالأَحْوالُ تَتَحَوَّلُ وتَذْهَبُ وتَجِيءُ ، فَإِذا سَكَنَ القَلْبُ فِي ذَلِكَ المَعْنَى صارَ مَقامًا ، وهُوَ مُكْتَسَبٌ مِنْ دَوامِ العَمَلِ .

واعْلَمْ أَنَّ المَقامَ والحالَ لِكُلِّ واحِدٍ عِلْمٌ وعَمَلٌ ، فالمَقامُ يَتَعَلَّقُ بِهِ العِلْمُ أَوَّلًا ، ثُمَّ يَسْعَى فِي عَمَلِهِ حَتَّى يَكُونَ حالًا ، ثُمَّ يَصِيرُ مَقامًا ، وكَذَلِكَ الحالُ يَتَعَلَّقُ بِهِ العِلْمُ أَوَّلا ، ثُمَّ العَمَلُ ، ثُمَّ يَصِيرُ مَقامًا حالا .

فَعَلامَةُ التَّحَقُّقِ بِمَقاماتِ الإِنْزالِ هُوَ حُسْنُ الحالِ ، وعَلامَةُ حُسْنِ الحالِ هُوَ حُسْنُ العَمَلِ ؛ فَإِتْقانُ الأَعْمالِ وحُسْنُها هُوَ ثَمَرَةُ ونَتِيجَةُ حُسْنِ الأَحْوالِ ، وحُسْنُ الأَحْوالِ هُوَ نَتِيجَةُ التَّحَقُّقِ بِمَقاماتِ الإِنْزالِ ؛ أَي : التَّحَقُّقُ بِالإِنْزالِ فِي المَقاماتِ .

أَوْ تَقُولُ : حُسْنُ الأَحْوالِ دَلِيلٌ عَلَى التَّحَقُّقِ بِالمَقاماتِ الَّتِي يُنْزِلُ اللهُ عَبْدَهُ فِيها ، وحُسْنُ الأَعْمالِ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ الأَحْوالِ ، والتَّحَقُّقُ بِالحالِ والسُّكُونُ فِي المَقامِ أَمْرٌ باطِنِيٌّ ، ويَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي عَمَلِ الجَوارِحِ .

والحاصِلُ : أَنَّ حَرَكَةَ القالَبِ تَدُلُّ عَلَى صَلاحِ القَلْبِ أَوْ فَسادِهِ ؛ لِقَوْلِهِ

ﷺ : (إنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلا وهِيَ القَلْبُ) .

فَإذا تَحَقَّقَ القَلْبُ بِالزُّهْدِ مَثَلًا ، وصارَ لَهُ حالًا أَوْ مَقامًا ، ظَهَرَ ذَلِكَ عَلَى جَوارِحِهِ ؛ مِنَ الثِّقَةِ بِاللهِ ، والاعْتِمادِ عَلَيْهِ ، وقِلَّةِ الحَرَكَةِ عِنْدَ الأَسْبابِ المُحَرِّكَةِ ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ : (لَيْسَ الزُّهْدُ بِتَحْرِيمِ الحَلالِ ، ولا بِإضاعَةِ المالِ ، إنَّما الزُّهْدُ أَنْ تَكُونَ بِما فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدِكَ) .

وقالَ سَيِّدُنا أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه للشَّيْخِ أَبِي الحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ فِي النَّوْمِ : ((عَلامَةُ خُرُوجِ حُبِّ الدُّنْيا مِنَ القَلْبِ بَذْلُها عِنْدَ الوَجْدِ ، ووُجُودُ الرَّاحَةِ مِنْها عِنْدَ الفَقْدِ)) .

فَعلامَةُ التَّحَقُّقِ بِالإنْزالِ فِي مَقامِ التَّوَكُّلِ السُّكُونُ والطُّمَأْنِينَةُ عِنْدَ مُحَرِّكاتِ الأَسْبابِ .

وعَلامَةُ التَّحَقُّقِ بِالإنْزالِ فِي مَقامِ المَعْرِفَةِ هُوَ الأَدَبُ ظاهِرًا وباطِنًا ، وحُسْنُ الخُلُقِ مَعَ كُلِّ مَخْلُوقٍ ، ولِذَلِكَ قالَ أَبو حَفْصٍ رضي الله عنه : حُسْنُ أَدَبِ الظَّاهِرِ عُنْوانُ حُسْنِ أَدَبِ الباطِنِ ، فَإنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : (لَوْ خَشِعَ قَلْبُ هَذا ، لَخَشَعَتْ جَوارِحُهُ) .

ذِكْرُ اللهِ

وأَفْضَلُ الأَعْمالِ الَّتي يَقْطَعُ بِها المُرِيدُ المَقاماتِ وأَقْرَبُها هُوَ ذِكْرُ اللهِ ، ولِذَلِكَ ذَكَرَهُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِأَثَرِهِ فَقالَ :

(لا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِ قَلْبِكَ مَعَ اللهِ فِيهِ ؛ لأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ ، فَعَسَى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ ، ومِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ ، ومِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى المَذْكُورِ ، وما ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الذِّكْرُ رُكْنٌ قَوِيٌّ فِي طَرِيقِ القَوْمِ ، وهُوَ أَفْضَلُ الأَعْمال ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ (١) ، وقالَ تَعالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٢).

والذِّكْرُ الكَثِيرُ : أَلَّا يَنْساهُ أَبَداً .

قالَ سَيِّدُنا عَبْدُاللهِ بنُ عَبَّاس رضي الله عنهما : ((كُلُّ عِبادَةٍ فَرَضَها اللهُ تَعالَى جَعَلَ لَها وَقْتًا مَخْصُوصًا ، وعَذَرَ العِبادَ فِي غَيْرِ أَوْقاتِها ، إِلَّا الذِّكْرَ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ وَقْتًا مَخْصُوصًا ، قالَ تَعالَى : ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ،

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٥٢ .
(٢) سُورَةُ الأَحْزاب : الآيَة ٤١ .

وقالَ تعالَى : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ (١).

وقالَ رَجُلٌ : يا رَسُولَ اللّه ! كَثُرَتْ عَلَيَّ شَعائِرُ الإِسْلام ، فَأَوْصِنِي بِأَمْرٍ أُدْرِكُ بِهِ ما فاتَنِي وأَوْجِزْ ، فَقالَ ﷺ : (لا يَزالُ لِسانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللّه) .

وقالَ ﷺ : (لَوْ أَنَّ رَجُلًا فِي حِجْرِهِ دَراهِمُ يُقَسِّمُها ، وآخَرَ يَذْكُرُ اللّهَ ، لَكانَ الذَّاكِرُ للّهِ أَفْضَل) .

وقالَ ﷺ : (أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمالِكُمْ وأَزْكاها عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وأَرْفَعِها فِي دَرَجاتِكُمْ وخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفاقِ الذَّهَبِ والْوَرِقِ ، وخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْناقَهُمْ ويَضْرِبُوا أَعْناقَكُمْ ؟)

قالُوا : و ما ذاكَ يا رَسُولَ اللّه ؟ قالَ : (ذِكْرُ اللّه) .

وعَنِ الإِمامِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللّهُ وَجْهَهُ - : قُلْتُ : يا رَسُولَ اللّه ! أَيُّ الطُّرُقِ أَقْرَبُ إِلَى اللّهِ وأَسْهَلُها عَلَى عِبادِ اللّهِ وأَفْضَلُها عِنْدَ اللّهِ تَعالَى ؟

فَقالَ ﷺ : (يا عَلِيُّ ! عَلَيْكَ بِمُداوَمَةِ ذِكْرِ اللّه) ، فَقالَ عَلِيٌّ : كُلُّ النَّاسِ يَذْكُرُونَ اللّهَ ، فَقالَ ﷺ : (يا عَلِيُّ ! لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لا

---

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ١٠٣ .

يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مَنْ يَقُولُ : اللّه) ، فَقالَ عَلِيٌّ : كَيْفَ أَذْكُرُ يا رَسُولَ اللّه ؟

فَقالَ لَهُ ﷺ : (غَمِّضْ عَيْنَيكَ ، واسْمَعْ مِنِّي ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قُلْ مِثْلَها وأَنا أَسْمَعُ) ، فَقالَ ﷺ : (لا إِلَهَ إِلاَّ اللّه) ثَلاثَ مَرَّاتٍ مُغْمِضًا عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ قالَها عَلِيٌّ رضي الله عنه كَذَلِكَ .

ثُمَّ لَقَّنَها الإِمامُ عَلِيٌّ رضي الله عنه للحَسَنِ البَصْرِيِّ ، ثُمَّ الحَسَنُ لِحَبِيبٍ العَجَمِيِّ ، ثُمَّ حَبِيبٌ لِداودَ الطَّائِي ، ثُمَّ داودُ لِمَعْرُوفٍ الكَرْخِيِّ ، ثُمَّ مَعْرُوفٌ للسَّرِيِّ ، ثُمَّ السَّرِيُّ للجُنَيْدِ ، ثُمَّ انْتَقَلَتْ إِلَى أَرْبابِ التَّرْبِيَةِ ، فَلا مَدْخَلَ عَلَى اللّهِ إِلَّا مِنْ بابِ الذِّكْرِ ، فالواجِبُ عَلَى العَبْدِ أَنْ يَسْتَغْرِقَ فِيهِ أَوْقاتَهُ ، ويَبْذُلَ فِيهِ جُهْدَهُ ؛ فَإِنَّ الذِّكْرَ مَنْشُورُ الوِلايَة ، ولا بُدَّ مِنْهُ فِي البِدايَةِ والنِّهايَة ، فَمَنْ أُعْطِيَ الذِّكْرَ فَقَدْ أُعْطِيَ المَنْشُورَ ، ومَنْ تَرَكَ الذِّكْرَ فَقَدْ عُزِلَ ، وأَنْشَدُوا :

وَالذِّكْرُ أَعْظَمُ بَابٍ أَنْتَ دَاخِلُهُ ❁ لِلّهِ فَاجْعَلْ لَهُ الأَنْفاسَ حُرَّاسَا

ورَحِمَ اللّهُ القائِلَ :

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمُ ❁ وَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ

فَلْيَلْتَزِمِ المُرِيدُ الذِّكْرَ عَلَى كُلِّ حالٍ ، ولا يَتْرُكِ الذِّكْرَ بِاللِّسانِ لِعَدَمِ

حُضُورِ قَلْبِه فِيهِ ، بَلْ يَذْكُرُهُ بِلِسانِهِ ، ولَوْ كانَ غافِلًا بِقَلْبِهِ ، فَإِنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ ؛ لأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ ذِكْرِهِ إِعْراضٌ عَنْهُ بِالكُلِّيَّةِ ، وفِي وُجُودِ ذِكْرِهِ إِقْبالٌ بِوَجْهٍ ما ، وفِي شُغْلِ اللِّسانِ بِذِكْرِ اللهِ تَزْيِينُ جارِحَةٍ بِطاعَةِ اللهِ ، وفِي فَقْدِهِ تَعَرُّضٌ لاشْتِغالِها بِالمَعْصِيَةِ .

قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : ما لَنا نَذْكُرُ اللهَ بِاللِّسانِ والقَلْبُ غافِلٌ ؟ فَقالَ : اشْكُرِ اللهَ عَلَى ما وَفَّقَ مِنْ ذِكْرِ اللِّسانِ . ولَوْ أَشْغَلَهُ بِالغِيبَةِ ما كُنْتَ تَفْعَلُ ؟ فَلْيَلْزَمِ الإِنْسانُ ذِكْرَ اللِّسانِ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ فِي ذِكْرِ الجَنانِ ، فَعَسَى أَنْ يَنْقُلَكَ الحَقُّ تَعالَى مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ ؛ أَي : انْتِباهٍ لِمَعانِي الذِّكْرِ عِنْدَ الاشْتِغالِ بِهِ ، ومِنْ ذِكْرٍ مَعَ يَقَظَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورِ المَذْكُورِ وارْتِسامِهِ فِي الخَيالِ حَتَّى يَطْمَئِنَّ القَلْبُ بِذِكْرِ اللهِ ، ويَكُونَ حاضِرًا بِقَلْبِهِ مَعَ دَوامِ ذِكْرِهِ ، **وهَذا هُوَ ذِكْرُ الخَواصِّ** ، **والأَوَّلُ ذِكْرُ العَوامِّ** ، فَإِنْ دُمْتَ عَلَى ذِكْرِ الحُضُورِ ، رَفَعَكَ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ الغَيْبَةِ عَمَّا سِوَى المَذْكُورِ ، لِما يَغْمُرُ قَلْبَكَ مِنَ النُّورِ ، ورُبَّما يَعْظُمُ قُرْبُ نُورِ المَذْكُورِ فَيَغْرَقَ فِي النُّورِ حَتَّى يَغِيبَ عَمَّا سِوَى المَذْكُورِ ، حَتَّى يَصِيرَ الذَّاكِرُ مَذْكُورًا ، والطَّالِبُ مَطْلُوبًا ،

والواصِلُ مَوْصُولًا ، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [1]، أَيْ : بِمُمْتَنِعٍ ؛ فَقَدْ يُرْفَعُ فِي أَعْلَى الدَّرَجاتِ مَنْ كانَ فِي أَسْفَلِ الدَّرَكاتِ ، وها هُنا يَسْكُتُ اللِّسانُ ويَنْتَقِلُ الذِّكْرُ لِلْجَنان .

قالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَنِ الشَّاذِلِيُّ رضي الله عنه : ((حَقِيقَةُ الذِّكْرِ الانْقِطاعُ عَنِ الذِّكْرِ إِلَى المَذْكُورِ وعَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِواهُ لِقَوْلِهِ تعالَى : ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [2])) .

وقالَ القُشَيْرِي : الذِّكْرُ انْدِراجُ الذَّاكِرِ فِي مَذْكُورِهِ ، واسْتِظْلامُ السِّرِّ عِنْدَ ظُهُورِهِ ، وفِي مَعْنَى ذَلِكَ أَنْشَدُوا :

ذَكَرْتُكَ لا أَنِّي نَسِيتُكَ لَمْحَةً ❁ وَأَيْسَرُ ما فِي الذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي

وَصِرْتُ بِلا وَجْدٍ أَهِيمُ مِنَ الْهَوَىٰ ❁ وَهَامَ عَلَيَّ الْقَلْبُ بِالْخَفَقَانِ

فَلَمَّا أَرَانِي الْوَجْدُ أَنَّكَ حَاضِرِي ❁ شَهِدْتُكَ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكانِ

فَخَاطَبْتُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ ❁ وَشَاهَدْتُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ عِيَانِ

وفِي هَذا المَقامِ يَتَحَقَّقُ المُرِيدُ بِعِبادَةِ الفِكْرَةِ أَوِ النَّظْرَةِ ، وفِكْرَةُ ساعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً ، ولِذَلِكَ قالَ الشَّيْخُ أَبُو العَبَّاسِ المُرْسِيُّ رضي الله عنه :

---

(١) سُورَةُ إِبْراهِيم : مِنَ الآيَة ٢٠ .
(٢) سُورَةُ المُزَّمِّل : الآيَة ٨ .

أَوْقاتُنا كُلُّها لَيْلَةُ القَدْرِ ؛ أَيْ : عِبادَتُنا كُلُّها مُضاعَفَةٌ مَعَ خَفائِها وتَحْقِيقِ الإِخْلاصِ فِيها ؛ إِذْ لا يَطَّلِعُ عَلَيْها مَلَكٌ فَيَكْتُبَهُ ، ولا شَيْطانٌ فَيُفْسِدَهُ ؛ وفِي ذَلِكَ قالَ بَعْضُهُمْ :

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ ❁ تَرَىٰ مَا لا يُرَىٰ لِلنَّاظِرِينَا

وَأَلْسِنَةٌ بِأَسْرَارٍ تُنَاجِي ❁ تَغِيبُ عَنِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَا

وَأَجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ ❁ إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَا

وقَدْ ذَيَّلَها ابنُ عَجِيبَةَ بِبَيْتَيْنِ فَقالَ :

وَأَفْئِدَةٌ تَهِيمُ بِعِشْقِ وَجْدٍ ❁ إِلَى جَبَرُوتِ ذِي حَقٍّ يَقِينَا

فَإِنْ تُرِدَ انْ تُباكِرَ ذِي الْمَعَانِي ❁ فَبَذْلُ الرُّوحِ مِنْكَ يَقِلُّ فِينَا

عَلاماتُ مَوْتِ القَلْبِ

ولَمَّا كانَ الذِّكْرُ هُوَ سَبَبَ حَياةِ القَلْبِ ، وتَرْكُهُ سَبَبَ مَوْتِهِ ، وفِي الحَدِيثِ : (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ والَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ كَمَثَلِ الحَيِّ والمَيِّتِ) ، ذَكَرَ العَلَّامَةُ ابنُ عَطاءِ اللهِ عَلامَةَ حَياةِ القَلْبِ ومَوْتِهِ بِقَوْلِهِ فِي حِكْمَتِهِ : **(مِنْ عَلاماتِ مَوْتِ القَلْبِ عَدَمُ الحُزْنِ عَلَى ما فاتَكَ مِنَ المُوافَقاتِ ، وتَرْكُ النَّدَمِ عَلَى ما فَعَلْتَ مِنْ وُجُودِ الزَّلَّاتِ)** :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مَوْتُ القَلْبِ سَبَبُهُ ثَلاثَةُ أَشْياء : حُبُّ الدُّنْيا ، والغَفْلَةُ

عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وإرْسالُ الجَوارِحِ فِي مَعاصِي اللهِ .

وسَبَبُ حَياتِهِ ثَلاثَةُ أَشْياء : الزُّهْدُ فِي الدُّنْيا ، والاشْتِغالُ بِذِكْرِ اللهِ ، وصُحْبَةُ أَوْلِياءِ اللهِ .

وعَلامَةُ مَوْتِهِ ثَلاثَةُ أَشْياء : عَدَمُ الحُزْنِ عَلَى ما فاتَ مِنَ الطَّاعاتِ ، وتَرْكُ النَّدَمِ عَلَى ما فَعَلْتَ مِنَ الزَّلّاتِ ، وصُحْبَتُكَ للغافِلِينَ الأَمْواتِ ؛ وذَلِكَ لأَنَّ صُدُورَ الطَّاعَةِ مِنَ العَبْدِ عُنْوانُ السَّعادَةِ ، وصُدُورَ المَعْصِيَةِ عَلامَةُ الشَّقاوَةِ . فَإِنْ كانَ القَلْبُ حَيًّا بِالمَعْرِفَةِ والإيمانِ آلَمَهُ ما يُوجِبُ شَقاوَتَهُ ، وأَفْرَحَهُ ما يُوجِبُ سَعادَتَهُ .

أَوْ تَقُولُ : صُدُورُ الطَّاعَةِ مِنَ العَبْدِ عَلامَةٌ عَلَى رِضا مَوْلاهُ ، وصُدُورُ المَعْصِيَةِ عَلامَةٌ عَلَى غَضَبِهِ ؛ فالقَلْبُ الحَيُّ يُحِسُّ بِما يُرْضِيهِ عِنْدَ مَوْلاهُ فَيَفْرَحُ ، وما يُسْخِطُهُ عَلَيْهِ فَيَحْزَنُ ، والقَلْبُ المَيِّتُ لا يُحِسُّ بِشَيْءٍ ، قَدِ اسْتَوَى عِنْدَهُ وُجُودُ الطَّاعَةِ والمَعْصِيَةِ ، لا يَفْرَحُ بِطاعَةٍ ومُوافَقَةٍ ، ولا يَحْزَنُ عَلَى زَلَّةٍ ولا مَعْصِيَةٍ ، كَما هُوَ شَأْنُ المَيِّتِ فِي الحِسِّ .

وفِي الحَدِيثِ عَنْ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ :

(مَنْ سَرَّتْهُ حَسَناتُهُ ، وساءَتْهُ سَيِّئاتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ) .

وقالَ سَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : ((المُؤْمِنُ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي

أَصْلِ جَبَلٍ يَخافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، والفاجِرُ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ فَقالَ بِهِ هَكَذا ، فَأَطارَهُ)) .

الخَوْفُ والرَّجاء

لَكِنْ لا يَنْبَغِي للعَبْدِ أَنْ يُغَلِّبَ النَّظَرَ إِلَى جانِبِ الذَّنْبِ فَيَقِلَّ رَجاؤُهُ ، ويُسِيءَ الظَّنَّ بِسَيِّدِهِ ، كَما أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ فِي حِكْمَتِهِ بِقَوْلِهِ :

(لا يَعْظُمِ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ ، فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ اسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : النَّاسُ فِي الخَوْفِ والرَّجاءِ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام : أَهْلُ البِدايَةِ يَنْبَغِي لَهُمْ تَغْلِيبُ جانِبِ الخَوْفِ ، وأَهْلُ الوَسَطِ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْتَدِلَ خَوْفُهُمْ ورَجاؤُهُمْ ، وأَهْلُ النِّهايَةِ يُغَلِّبُونَ جانِبَ الرَّجاء .

أَمَّا أَهْلُ البِدايَةِ : فَلِأَنَّهُمْ إِذا غَلَّبُوا جانِبَ الخَوْفِ جَدُّوا فِي العَمَلِ وانْكَفُّوا عَنِ الزَّلَلِ ، فَبِذَلِكَ تُشْرِقُ نِهايَتُهُمْ : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (١).

وأَمَّا أَهْلُ الوَسَطِ : فَلِأَنَّهُمْ قَدِ انْتَقَلَتْ عِبادَتُهُمْ إِلَى تَصْفِيَةِ بَواطِنِهِمْ ، فَعِبادَتُهُمْ قَلْبِيَّةٌ ، فَلَوْ غَلَّبُوا جانِبَ الخَوْفِ لَرَجَعُوا إِلَى عِبادَةِ الجَوارِحِ ،

---

(١) سُورَةُ العَنْكَبُوت : مِنَ الآيَة ٦٩ .

والمَطْلُوبُ مِنْهُمْ عِبادَةُ البَواطِنِ عَلَى رَجاءِ الوُصُولِ وخَوْفِ القَطِيعَةِ ، فَيَعْتَدِلُ خَوْفُهُمْ ورَجاؤُهُمْ .

وأَمَّا الواصِلُونَ ؛ فَلا يَرَوْنَ لأَنْفُسِهِمْ فِعْلًا ولا تَرْكًا ، فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى تَصْرِيفِ الحَقِّ وما يَجْرِي بِهِ سابِقُ القَدَرِ ، فَيَتَلَقَّوْنَهُ بِالقَبُولِ والرِّضا ، فَإِنْ كانَ طاعَةً شَكَرُوا وشَهِدُوا مِنَّةَ اللهِ ، وإِنْ كانَ مَعْصِيَةً اعْتَذَرُوا وتَأَدَّبُوا ولَمْ يَقِفُوا مَعَ أَنْفُسِهِمْ ؛ إِذْ لا وُجُودَ لَها عِنْدَهُمْ وإِنَّما يَنْظُرُونَ إِلَى ما يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرِ القُدْرَةِ ، فَنَظَرُهُمْ إِلَى حِلْمِهِ وعَفْوِهِ وإِحْسانِهِ وبِرِّهِ أَكْثَرُ مِنْ نَظَرِهِمْ إِلَى بَطْشِهِ وقَهْرِهِ ، ويَرْحَمُ اللهُ إِمامَنا الشَّافِعِيَّ حَيْثُ قالَ رضي الله عنه وعَنَّا بِهِ :

فَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ❁ جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ❁ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

فَمَا زِلْتَ ذَا جُودٍ وَفَضْلٍ وَمِنَّةٍ ❁ تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَصِيرُ لِجَنَّةٍ ❁ أُهَنَّا وَإِمَّا لِلسَّعِيرِ فَأَنْدَمَا

قالَ تَعالَى : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (١).

---

(١) سُورَةُ الزُّمَر : الآيَة ٥٣ .

وتَأَمَّلْ قَضِيَّةَ الَّذِي قَتَلَ تِسْعًا وتِسْعِينَ نَفْسًا ، ثُمَّ سَأَلَ راهِبًا فَقالَ لَهُ : هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقالَ لَهُ : لا تَوْبَةَ لَكَ . فَكَمَّلَ بِهِ المِئَةَ ، ثُمَّ أَتَى عالِمًا فَسَأَلَهُ ، فَقالَ لَهُ : مَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وبَيْنَها ؟ ولَكِن اذْهَبْ إِلَى قَرْيَةِ كَذا ؛ فَفِيها قَوْمٌ يَعْبُدُونَ اللّٰهَ ، فَكُنْ فِيهِمْ حَتَّى تَمُوتَ ، فَلَمَّا تَوَسَّطَ الطَّرِيقَ ، أَدْرَكَهُ المَوْتُ ، فاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذابِ ، فَأَوْحَى اللّٰهُ إِلَيْهِمْ : أَنْ قِيسُوا القَرْيَةَ الَّتِي خَرَجَ إِلَيْها ، والقَرْيَةَ الَّتِي خَرَجَ مِنْها ، فَإِلَى أَيِّهِما كانَ أَقْرَبَ ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِها ، فَأَوْحَى اللّٰهُ إِلَى القَرْيَةِ الَّتِي يُرِيدُ : أَنْ تَقارَبِي ، وإِلَى القَرْيَةِ الَّتِي خَرَجَ مِنْها : أَنْ تَباعَدِي ، فَوُجِدَ أَقْرَبَ إِلَى القَرْيَةِ الَّتِي يُرِيدُ بِشِبْرٍ ، فَأَخَذَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، والحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ نَقَلْتُهُ بِالمَعْنَى .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنه : العامَّةُ إِذا خُوِّفُوا خافُوا ، وإِذا رُجُّوا رَجَوْا ، والخاصَّةُ مَتَى خُوِّفُوا رَجَوْا ، ومَتَى رَجَوْا خافُوا .

قالَ فِي «لَطائِفِ المِنَنِ» : «ومَعْنَى كَلامِ الشَّيْخِ هَذا أَنَّ العامَّةَ واقِفُونَ مَعَ ظَواهِرِ الأَمْرِ ، فَإِذا خُوِّفُوا خافُوا ، إِذْ لَيْسَ لَهُمْ نُفُوذٌ إِلَى ما وَراءِ العِبارَةِ بِنُورِ الفَهْمِ كَما لأَهْلِ اللّٰهِ ، وأَهْلُ اللّٰهِ إِذا خُوِّفُوا رَجَوْا ، عالِمِينَ أَنَّ مِنْ وَراءِ خَوْفِهِمْ وما خُوِّفُوا بِهِ أَوْصافَ المَرْجُوِّ الَّذِي لا يَنْبَغِي أَنْ

يُقْنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ ، ولا أَنْ يُيْأَسَ مِنْ مِنَّتِهِ ، فاحْتالُوا عَلَى أَوْصافِ كَرَمِهِ ، عِلْمًا مِنْهُمْ أَنَّهُ ما خَوَّفَهُمْ إِلَّا لِيَجْمَعَهُمْ عَلَيْهِ ، ولِيَرُدَّهُمْ بِذَلِكَ إِلَيْهِ ، وإِذا رَجَوْا يَخافُونَ غَيْبَ مَشِيئَتِهِ الَّذِي هُوَ مِنْ وَراءِ رَجائِهِمْ، وخافُوا أَنْ يَكُونَ ما ظَهَرَ مِنَ الرَّجاءِ اخْتِبارًا لِعُقُولِهِمْ : هَلْ تَقِفُ مَعَ الرَّجاءِ أَوْ تَنْفُذُ إِلَى ما بَطَنَ مِنْ مَشِيئَتِهِ ؟ فَلِذَلِكَ أَثارَ الرَّجاءُ خَوْفَهُمْ)) .

ودَخَلَ الجُنَيْدُ عَلَى خالِهِ وشَيْخِهِ السَّرِيِّ ، فَوَجَدَهُ مَقْبُوضًا ، فَقالَ لَهُ : ما لَكَ أَيُّها الشَّيْخُ مَقْبُوضًا ؟ فَقالَ : دَخَلَ عَلَيَّ شابٌّ فَقالَ لِي : ما حَقِيقَةُ التَّوْبَة ؟ فَقُلْتُ لَهُ : أَلَّا تَنْسَى ذَنْبَكَ ، فَقالَ الشَّابُّ : بَلِ التَّوْبَةُ أَنْ تَنْسَى ذَنْبَكَ ، ثُمَّ خَرَجَ عَنِّي .

قالَ الجُنَيْدُ : فَقُلْتُ : الصَّوابُ ما قالَهُ الشَّابُّ ؛ لأَنِّي إِذا كُنْتُ فِي حالَةِ الجَفاءِ ثُمَّ نَقَلَنِي إِلَى شُهُودِ الصَّفاءِ ، فَذِكْرُ الجَفاءِ فِي حالِ الصَّفاءِ جَفاءٌ .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : نَظَرَ السَّرِيُّ إِلَى أَهْلِ البِدايَة ، ونَظَرَ الجُنَيْدُ إِلَى أَهْلِ النِّهايَة ، والكُلُّ صَواب .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ مُوجِبَ تَصْغِيرِ الذَّنْبِ بِقَوْلِهِ :

(فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ ، اسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : بَلْ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ ، غابَ عَنْ رُؤْيَةِ ذَنْبِهِ ؛ لِفَنائِهِ عَنْ نَفْسِهِ بِشُهُودِ رَبِّهِ ، فَإِنْ صَدَرَ مِنْهُ فِعْلٌ يُخالِفُ الحِكْمَةَ ، غَلَبَ عَلَيْهِ شُهُودُ النِّعْمَةِ ، قالَ تعالَى :﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (١) وأَمَّا قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ (٢) ؛ فَإِنَّما هُوَ لِمَنْ لَمْ يَتُبْ .

وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لَوْ أَذْنَبْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطاياكُمْ عَنانَ السَّماءِ ، ثُمَّ تُبْتُمْ ، لَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ، ولَوْ أَنَّ العِبادَ لَمْ يُذْنِبُوا ، لَذَهَبَ اللهُ بِهِمْ ، ثُمَّ جاءَ بِقَوْمٍ آخَرِينَ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ ، وهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم) .

واللهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنَ الظَّمْآنِ الوارِدِ ، ومِنَ العَقِيمِ الوالِدِ ، ومِنَ الضَّالِّ الواجِدِ ، لَكِنْ لا يَنْبَغِي أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ ذَنْبُهُ حَتَّى يَغْتَرَّ بِحِلْمِ اللهِ .

وقَدْ أَوْحَى اللهُ إِلَى سَيِّدِنا داوُودَ عليه السلام : (يا داوُودُ ! قُلْ لِعبادِيَ الصِّدِّيقِينَ لا يَغْتَرُّوا ؛ فَإِنِّي إِنْ أُقِمْ عَلَيْهِمْ عَدْلِي وقِسْطِي ، أُعَذِّبْهُمْ غَيْرَ ظالِمٍ لَهُمْ ، وقُلْ لِعِبادِيَ المُذْنِبِين : لا يَقْنَطُوا ؛ فَإِنَّهُ لا يَعْظُمُ عَلَيَّ ذَنْبٌ أَغْفِرُهُ لَهُمْ) .

---

(١) ، (٢) سُورَةُ الحِجْر : الآيَتان ٤٩ ، ٥٠ .

وقالَ الجُنَيْدُ : إذا بَدَتْ عَيْنٌ مِنَ الكَرِيمِ أَلْحَقَتِ المُسِيءَ بالمُحْسِنِ .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاس المُرْسِيِّ فِي حِزْبِهِ : ((إلَهِي ! مَعْصِيَتُكَ نادَتْنِي بالطَّاعَة ، وطاعَتُكَ نادَتْنِي بالمَعْصِيَة ، فَفِي أَيِّهِما أَخافُ ، وفِي أَيِّهِما أَرْجُو ؟ إن قُلْتُ بالمَعْصِيَةِ قابَلْتَنِي بفَضْلِكَ ، فَلَمْ تَدَعْ لِي خَوْفًا ، وإنْ قُلْتُ بالطَّاعَةِ قابَلْتَنِي بعَدْلِكَ ، فَلَمْ تَدَعْ لِي رَجاءً ، فَلَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ أَرَى إحْسانِي مَعَ إحْسانِكَ ، أَمْ كَيْفَ أَجْهَلُ فَضْلَكَ مَعَ عِصْيانِكَ ؟)) .

ومَعْنَى كَلامِ الشَّيْخِ رضي الله عنه أَنَّ العَبْدَ إذا كانَ فِي المَعْصِيَةِ شَهِدَ قَهْرِيَّةَ الحَقِّ وعَظَمَتَهُ وضَعْفَ نَفْسِهِ وعَجْزَهُ ، اكْتَسَبَ مِنَ المَعْصِيَةِ انْكِساراً وذُلًّا لِنَفْسِهِ وتَعْظِيمًا وإجْلالًا لِرَبِّهِ ؛ وهَذا أَفْضَلُ الطَّاعاتِ ، فَقَدْ نادَتْهُ مَعْصِيَتُهُ الَّتِي هُوَ فِيها بالطَّاعَةِ الَّتِي يَجْتَنِيها مِنْها ، وإذا كانَ فِي الطَّاعَةِ رُبَّما شَهِدَ فِيها نَفْسَهُ وقَصَدَ مُتْعَتَهُ وحَظَّهُ ، فَأَشْرَكَ بِرَبِّهِ وأَخَلَّ بِأَدَبِهِ ، وهَذِهِ مَعْصِيَةٌ ، فَإذا كانَ فِي الطَّاعَةِ نادَتْهُ بِهَذِهِ المَعْصِيَةِ الَّتِي يَجْتَنِيها مِنْها ، فَلا يَدْرِي مِنْ أَيِّهِما يَخافُ وأَيِّهِما يَرْجُو ؟

وقَوْلُهُ : إنْ قُلْتُ بالمَعْصِيَةِ إلخ ؛ أَيْ : إنْ نَظَرْتُ إلَى صُورَةِ المَعْصِيَةِ قابَلْتَنِي بِفَضْلِكَ فامْتَحَىٰ اسْمُها وانْدَرَسَ رَسْمُها ، وإنْ نَظَرْتُ إلَى صُورَةِ المَعْصِيَةِ قابَلْتَنِي بِعَدْلِكَ فاضْمَحَلَّتْ وامْتَحَتْ وبَقِيَ مَحْضُ

الرَّجاءِ مِنَ الكَرِيمِ الوَهَّابِ الَّذِي يُعْطِي بِلا سَبَبٍ ويُعْطِي بِحِلْمِهِ المُناقَشَةَ والعِتاب .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ العارِفَ لا يَقِفُ مَعَ مَعْصِيَةٍ وإِنْ جَلَّتْ ، ولا مَعَ طاعَةٍ وإِنْ عَظُمَتْ ، وهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ابنِ عَطاءِ اللهِ فِي حِكْمَتِهِ :

(لا صَغِيرَةَ إِذا قابَلَكَ عَدْلُهُ ، ولا كَبِيرَةَ إِذا واجَهَكَ فَضْلُهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الصَّغِيرَةُ** : هِيَ الجَرِيمَةُ الَّتِي لا وَعِيدَ فِيها مِنَ القُرْآنِ ولا مِنَ الحَدِيثِ ، **والكَبِيرَةُ** : هِيَ الَّتِي تُوُعِّدَ عَلَيْها بِالعَذابِ أَوِ الحَدِّ فِي القُرْآنِ أَوْ فِي السُّنَّةِ ، وقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ ، هَذا كُلُّهُ بِالنَّظَرِ لِظاهِرِ الأَمْرِ ، وأَمَّا بِاعْتِبارِ ما عِنْدَ اللهِ مِنْ أَمْرِ غَيْبِهِ ، وبِالنَّظَرِ إِلَى حِلْمِهِ وعَدْلِهِ ، فَقَدْ يَبْرُزُ خِلافُ ما يُظَنُّ .

قالَ تَعالَى : ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ (١) .

فَمَنْ سَبَقَتْ لَهُ العِنايَةُ لا تَضُرُّهُ الجِنايَة .

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ (٢) .

وإِنْ كانَتِ الأَعْمالُ عَلاماتٍ فَقَدْ تَخْتَلِفُ فِي بَعْضِ المُقَدِّماتِ ، فَوَجَبَ اسْتِواءُ الرَّجاءِ والخَوْفِ فِي بَعْضِ المَقاماتِ ، والتَّسْلِيمُ للهِ

---

(١) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٤٧ . (٢) سُورَةُ الفُرْقان : مِنَ الآيَة ٧٠ .

فِي كُلِّ الأَوْقاتِ ؛ إِذْ قَدْ تَمَّتْ كَلِماتُ رَبِّكَ صِدْقًا وعَدْلًا ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ ، فَإِذا قابَلَكَ الحَقُّ - سُبْحانَهُ وتَعالَى - بِعَدْلِهِ وجَلالِهِ ، لَمْ تَبْقَ لَكَ صَغِيرَةٌ ، وعادَتْ صَغائِرُكَ كَبائِرَ ، وإِذا واجَهَكَ الحَقُّ تَعالَى بِفَضْلِهِ وكَرَمِهِ وإِحْسانِهِ وجَمالِهِ ، لَمْ تَبْقَ لَكَ كَبِيرَةٌ ، وعادَتْ كَبائِرُكَ صَغائِرَ .

قالَ يَحْيىٰ بنُ مُعاذٍ الرَّازِي : ((إِذا أَنالَهُمْ فَضْلَهُ لَمْ تَبْقَ لَهُمْ سَيِّئَةٌ ، وإِذا وَضَعَ عَلَيْهِمْ عَدْلَهُ لَمْ تَبْقَ لَهُمْ حَسَنَةٌ)) .

وقِيلَ : ((لَوْ وُزِنَ رَجاءُ المُؤْمِنِ وخَوْفُهُ ما رَجَحَ أَحَدُهُما عَلَى الآخَرِ ، بَلِ المُؤْمِنُ كالطَّائِرِ بَيْنَ جَناحَيْنِ)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : وحَدِيثُ الرَّجُلِ يُمَدُّ لَهُ تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ سِجِلًّا ، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصَرِ ، ثُمَّ تُخْرَجُ لَهُ بِطاقَةٌ قَدْرَ الأُنْمُلَةِ فِيها شَهادَةُ أَن لا إِلَهَ إِلَّا اللّٰه ، فَتَطِيشُ تِلْكَ السِّجِلَّاتُ ، يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ حِلْمِهِ ورَحْمَتِهِ وشُمُولِ كَرَمِهِ ومِنَّتِهِ .

ولَمَّا ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ عَلامَةَ مَوْتِ القَلْبِ ، ذَكَرَ الأَعْمالَ الَّتِي تُوجِبُ حَياتَهُ ، فَقالَ فِي حِكْمَتِهِ :

(لا عَمَلَ أَرْجَى لِلقُلُوبِ مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ ، ويَتَحَقَّرُ عِنْدَكَ وُجُودُهُ) :

يَعْنِي أَنَّهُ لا عَمَلَ أَرْجَى لِحَياةِ القُلُوبِ مِنْ عَمَلٍ يَكُونُ بِاللهِ ولله ، غائِبًا فِيهِ عَمَّا سِواه ، غَيْرَ مُلاحِظٍ فِيهِ حُظُوظَهُ وهَواه ، مُتَبَرِّئًا فِيهِ مِنْ حَوْلِهِ وقُواه ، فَإِذا أَظْهَرَتْهُ عَلَيْهِ القُدْرَةُ غابَ عَنْ شُهُودِهِ ، وصَغُرَ فِي عَيْنِهِ صُورَةُ وُجُودِهِ ؛ لِما تَجَلَّى فِي قَلْبِهِ مِنْ عَظَمَةِ مَوْلاه ، فَصَغُرَ عِنْدَهُ كُلُّ ما سِواه ، فَمِثْلُ هَذا العَمَلِ تَحْيا بِهِ القُلُوب ، وتَحْظَى بِمُشاهَدَةِ عَلَّام الغُيُوب ، وهُوَ رُوحُ اليَقِين ، وهُوَ حَياةُ قُلُوبِ العارِفِين ، فَإِذا أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَوَلَّى عَبْدَهُ أَنْهَضَهُ للعَمَلِ وصَغَّرَهُ فِي عَيْنِهِ ، فَلا يَزالُ جادًّا فِي عَمَلِ الجَوارِحِ حَتَّى يَنْقُلَهُ إِلَى عَمَلِ القُلُوبِ ، فَتَسْتَرِيحَ الجَوارِحُ مِنَ التَّعَبِ ، ولا يَبْقَى إِلَّا شُهُودُ العَظَمَةِ مَعَ الأَدَبِ .

قالَ النَّهْرُجُورِيُّ : ((مِنْ عَلاماتِ مَنْ تَوَلَّاهُ اللهُ فِي أَحْوالِهِ أَنْ يَشْهَدَ التَّقْصِيرَ فِي إِخْلاصِهِ ، والغَفْلَةَ فِي أَذْكارِهِ ، والنُّقْصانَ فِي صِدْقِهِ ، والفُتُورَ فِي مُجاهَدَتِهِ ، وقِلَّةَ المُراعاةِ فِي فَقْرِهِ ، فَتَكُونَ جَمِيعُ أَحْوالِهِ عِنْدَهُ غَيْرَ مَرْضِيَّةٍ ، ويَزْدادَ فَقْراً إِلَى اللهِ فِي قَصْدِهِ وسَيْرِهِ حَتَّى يَفْنَى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ دُونَهُ)) .

الوارِداتُ الإِلَهِيَّة

وإِذا حَيِيَ القَلْبُ بِمَعْرِفَةِ اللهِ ، كانَ مَحَلًّا لِتَجَلِّي الوارِداتِ الإِلَهِيَّة ،

وإلَى ذَلِكَ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(إنَّما أَوْرَدَ عَلَيْكَ الوارِدَ لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وارِدًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الوارِدُ** : نُورٌ إلَهِيٌّ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قَلْبِ مَنْ أَحَبَّ مِنْ عِبادِهِ ، وهُوَ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام : عَلَى حَسَبِ البِدايَةِ ، والوَسَطِ ، والنِّهايَة .

أَوْ تَقُولُ : عَلَى حَسَبِ الطَّالِبِينَ ، والسَّائِرِينَ ، والواصِلِين .

القِسْمُ الأَوَّلُ) وارِدُ الانْتِباه : وهُوَ نُورٌ يُخْرِجُكَ مِنْ ظُلْمَةِ الغَفْلَةِ إلَى نُورِ اليَقَظَةِ ، وهُوَ لأَهْلِ البِدايَةِ مِنَ الطَّالِبِينَ ، فَإذا تَيَقَّظَ مِنْ نَوْمِهِ ، وانْتَبَهَ مِنْ غَفْلَتِهِ ، اسْتَوى عَلَى قَدَمِهِ طالِبًا لِرَبِّهِ ، فَيُقْبِلُ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ وبِقالَبِهِ ، ويُجْمَعُ عَلَيْهِ بِكُلِّيَّتِهِ .

القِسْمُ الثَّانِي) وارِدُ الإقْبال : وهُوَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ فَيُحَرِّكُهُ لِذِكْرِ مَوْلاه ، ويُغَيِّبُهُ عَمَّا سِواه ، فَلا يَزالُ مُشْتَغِلًا بِذِكْرِهِ غائِبًا عَنْ غَيْرِهِ حَتَّى يَمْتَلِئَ القَلْبُ بِالنُّورِ ويَغِيبَ عَمَّا سِوَى المَذْكُورِ ، فَلا يَرَى إلَّا النُّورَ فَيَخْرُجَ مِنْ سِجْنِ الأَغْيارِ ويَتَحَرَّرَ مِنْ رِقِّ الآثار .

القِسْمُ الثَّالِثُ) : وارِدُ الوِصال : وهُوَ نُورٌ يَسْتَوْلِي عَلَى قَلْبِ العَبْدِ ، ثُمَّ يَسْتَوْلِي عَلَى ظاهِرِهِ وباطِنِهِ ، فَيُخْرِجُهُ مِنْ سِجْنِ نَفْسِهِ ، ويُغَيِّبُهُ عَنْ شُهُودِ حِسِّهِ .

وقَدْ أشارَ إلَى القِسْمِ الأَوَّلِ ؛ وهُوَ وارِدُ الانْتِباهِ بقَوْلِهِ : (إنَّما أَوْرَدَ عَلَيْكَ الوارِدَ لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وارِداً) أَي : إنَّما أَشْرَقَ عَلَيْكَ نُورَ اليَقَظَةِ والانْتِباهِ وهُوَ الوارِدُ ؛ لِتَكُونَ بِسَبَبِه وارِداً عَلَيْهِ ؛ وسائِراً إلَيْهِ ، ولَوْ لَمْ يُورِدْ عَلَيْكَ هَذا الوارِدَ لَبَقِيتْ فِي وَطَنِ غَفْلَتِكَ نائِمًا فِي سَكْرَتِكَ ، دائِمًا فِي حَسْرَتِكَ .

ثُمَّ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ إلَى القِسْمِ الثَّانِي ، وهُوَ وارِدُ الإقْبال ، فَقال : (**أَوْرَدَ عَلَيْكَ الوارِدَ ، لِيَتَسَلَّمَكَ مِنْ يَدِ الأَغْيار ، ولِيُحَرِّرَكَ مِنْ رِقِّ الآثار**) :

أَيْ : إنَّما أَوْرَدَ عَلَيْكَ وارِدَ الإقْبال ، لِيُؤْنِسَكَ بِذِكْرِ الكَبِيرِ المُتَعال ، فَإذا اشْتَغَلْتَ بِذِكْرِهِ ، وغِبْتَ عَنْ غَيْرِهِ ، تَسَلَّمَكَ ؛ أَيْ : أَنْقَذَكَ مِنْ يَدِ لُصُوصِ الأَغْيارِ بَعْدَ أَنْ شَدُّوا وَثاقَكَ بِحَبْلِ هَواكَ ، وسَجَنُوكَ فِي سِجْنِ حُظُوظِكَ ومُناكَ ، ولِيُحَرِّرَكَ ويُعْتِقَكَ أَيْضًا مِنْ رِقِّ الآثار ، بَعْدَ أَنْ مَلَكَتْكَ بِما أَظْهَرَتْهُ لَكَ مِنْ زُخْرُفِ الاغْتِرار ، فَإذا تَسَلَّمْتَ مِنْ يَدِ الأَغْيار ، أَفْضَيْتَ إلَى شُهُودِ الأَنْوار ، وإذا تَحَرَّرْتَ مِنْ رِقِّ الآثار ، تَرَقَّيْتَ إلَى شُهُودِ الأَسْرار ، فالأَنْوارُ أَنْوارُ الصِّفات ، والأَسْرارُ أَسْرارُ الذَّات ، فالأَنْوارُ لأَهْلِ الفَناءِ فِي الصِّفات ، والأَسْرارُ لأَهْلِ الفَناءِ فِي الذَّات .

ثُمَّ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَى القِسْمِ الثَّالِثِ ، وهُوَ وارِدُ الوُصُولِ ، فَقالَ :

(أَوْرَدَ عَلَيْكَ الوارِدَ ؛ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجُودِكَ إِلَى فَضاءِ شُهُودِكَ) :

أَيْ : إِنَّما أَوْرَدَ عَلَيْكَ وارِدَ الوِصالِ ، بَعْدَ أَنْ أَهَبَّ عَلَيْكَ نَفَحاتِ الإِقْبالِ ؛ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ رُؤْيَةِ وُجُودِكَ إِلَى فَضاءِ (أَي : اتِّساعِ) شُهُودِكَ لِرَبِّكَ ، فَرُؤْيَتُكَ وُجُودَكَ مانِعَةٌ لَكَ مِنْ شُهُودِ رَبِّكَ ، إِذْ مُحالٌ أَنْ تَشْهَدَهُ وتَشْهَدَ مَعَهُ سِواه ، وأَنْشَدَ الجُنَيْدُ :

وُجُودِي أَنْ أَغِيبَ عَنِ الْوُجُودِ ❁ بِمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنَ الشُّهُودِ

فالفَناءُ عَنِ النَّفْسِ وزَوالُها أَصْعَبُ مِنَ الفَناءِ عَنِ الكَوْنِ وهَدْمِهِ ، فَمَهْما زالَتِ النَّفْسُ وهُدِمَتْ ، انْهَدَمَ الكَوْنُ ولَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ ، وقَدْ يُهْدَمُ الكَوْنُ وتَبْقَى فِي النَّفْسِ بَقِيَّةٌ ؛ فَلِذَلِكَ قَدَّمَ الشَّيْخُ رِقَّ الأَكْوانِ عَلَى سِجْنِ وُجُودِ الإِنْسانِ .

ثُمَّ فَسَّرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ تِلْكَ الوارِداتِ فَقالَ :

(الأَنْوارُ مَطايا القُلُوبِ والأَسْرارِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **النُّورُ** : نُكْتَةٌ تَقَعُ فِي قَلْبِ العَبْدِ مِنْ مَعْنَى اسْمٍ أَوْ صِفَةٍ ، يَسْرِي مَعْناها فِي كُلِّيَّتِهِ حَتَّى يُبْصِرَ الحَقَّ والباطِلَ إِبْصاراً لا يُمْكِنُهُ التَّخَلُّفُ مَعَهُ عَنْ مُوجِبِهِ .

والمَطايا : جَمْعُ مَطِيَّةٍ ؛ وهِيَ النَّاقَةُ المُهَيَّأَةُ للرُّكُوب ، والقُلُوبُ : جَمْعُ قَلْبٍ ؛ وهُوَ الحَقِيقَةُ القابِلَةُ للمَفْهُومات ، والأَسْرارُ : جَمْعُ سِرٍّ ؛ وهُوَ الحَقِيقَةُ القابِلَةُ للتَّجَلِّيات ، والسِّرُّ أَدَقُّ وأَصْفَى مِنَ القَلْبِ ، والكُلُّ اسْمٌ للرُّوح ، فَإِنَّ الرُّوحَ ما دامَتْ مُظْلِمَةً بِالمَعاصِي والذُّنُوبِ والشَّهَواتِ والعُيُوبِ سُمِّيَتْ نَفْسًا ، فَإِذا انْزَجَرَتْ وانْعَقَلَتْ انْعِقالَ البَعِيرِ سُمِّيَتْ عَقْلًا ، فَما زالَتْ تَتَقَلَّبُ فِي الغَفْلَةِ والحُضُورِ ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ قَلْبًا ، فَإِذا اطْمَأَنَّتْ وسَكَنَتْ واسْتَراحَتْ مِنْ تَعَبِ البَشَرِيَّةِ سُمِّيَتْ رُوحًا ، فَإِذا تَصَفَّتْ مِنْ غَبَشِ الحِسِّ سُمِّيَتْ سِرًّا ؛ لِكَوْنِها صارَتْ سِرًّا مِنْ أَسْرارِ اللهِ حِينَ رَجَعَتْ إِلَى أَصْلِها ، وهُوَ سِرُّ الجَبَرُوتِ ، فَإِذا أَرادَ اللهُ تَعالَى أَنْ يُوصِلَ عَبْدَهُ إِلَى حَضْرَةِ قُدْسِهِ ، ويَحْمِلَهُ إِلَى مَحَلِّ أُنْسِهِ ، أَمَدَّهُ بِواردات الأَنْوارِ كَالمَطايا ، فَيُحْمَلُ عَلَيْها فِي مَحَفَّةِ العِنايَةِ ، مُرَوَّحًا عَلَيْهِ بِنَسِيمِ الهِدايَةِ ، مَحْفُوفًا بِنُصْرَةِ الرِّعايَةِ ، فَتَرْحَلُ الرُّوحُ مِنْ عَوالِمِ البَشَرِيَّةِ إِلَى عَوالِمِ الرُّوحانِيَّةِ حَتَّى تَصِيرَ سِرًّا مِنْ أَسْرارِ اللهِ ، لا يَعْلَمُها إِلَّا اللهُ : ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ (١).

فالأَنْوارُ الَّتِي هِيَ الوارِداتُ مَطايا القُلُوبِ تَحْمِلُها إِلَى حَضْرَةِ عَلَّامِ الغُيُوبِ ، وهِيَ أَيْضًا مَطايا الأَسْرارِ تَحْمِلُها إِلَى جَبَرُوتِ العَزِيزِ

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٨٥ .

الجَبَّارِ ، فالسُّلُوكُ هِدايَة ، والجَذْبُ عِنايَة ، فَوارِدُ الانْتِباهِ والإقْبالِ حَمَلَهُ سُلُوكُ وارِدِ الوِصالِ حَمْلَةَ جَذْبٍ ، فالأَنْوارُ الَّتِي هِيَ مَطايا القُلُوبِ تَحْمِلُهُمْ عَلَى جِهَةِ السُّلُوكِ ، إلَّا أَنَّهُمْ مَحْمُولُونَ فِيهِ بِحَلاوَةِ نُورِ الانْتِباهِ والإقْبالِ ، فَصارَ سُلُوكُهُمْ كَأَنَّهُ جَذْبٌ .

وأَمَّا الأَنْوارُ الَّتِي تَحْمِلُهُمْ عَلَى مَطايا الأَسْرارِ ، فَإِنَّها تَحْمِلُهُمْ عَلَى جِهَةِ الجَذْبِ مَمْزُوجًا بِسُلُوك ، فَيَكُونُونَ بَيْنَ جَذْبٍ وسُلُوك ، وهَذا الحَمْلُ أَعْظم .

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ كَيْفِيَّةَ السَّيْرِ عَلَى هَذِهِ المَطايا ، وما يَعُوقُها عَنِ السَّيْرِ ؛ فَقالَ :

(**النُّورُ جُنْدُ القَلْبِ ، كَما أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْسِ ، فَإِذا أَرادَ اللهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أَمَدَّهُ بِجُنُودِ الأَنْوارِ ، وقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ الظُّلَمِ والأَغْيارِ**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الظُّلْمَةُ** : نَكْتَةٌ تَقَعُ مِنَ الهَوَىٰ فِي النَّفْسِ عَنْ عَوارِضِ الوَهْمِ ، فَتُوجِبُ العَمَىٰ عَنِ الحَقِّ ؛ لِتُمَكِّنَ الباطِلَ مِنَ الحَقِيقَة ، فَيَأْتِي العَبْدُ (يَفْعَلُ) ويَذَرُ (يَتْرُكُ) عَلَى غَيْرِ بَصِيرَة .

وقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ النَّفْسَ والعَقْلَ والرُّوحَ والسِّرَّ أَسْماءٌ لِمُسَمًّى واحِدٍ ، وهُوَ اللَّطِيفَةُ الرَّبَّانِيَّةُ النُّورانِيَّةُ المُودَعَةُ فِي هَذا القالَبِ الجِسْمانِيِّ

الظُّلْمانِيِّ ، وإنَّما اخْتَلَفَتْ أَسْماؤُها باخْتِلافِ أَحْوالِها ، وتَنَقُّلِ أَطْوارِها ، ومِثالُ ذَلِكَ كَماءِ المَطَرِ النَّازِلِ فِي أَصْلِ الشَّجَرِ ، ثُمَّ يَصْعَدُ فِي فُرُوعِها فَيَظْهَرُ وَرَقًا ، ثُمَّ نَوْراً وأَزْهاراً ، ثُمَّ يَعْقِدُ ثَمَرَةً يَنْمُو حَتَّى يَكْمُلَ ، فالماءُ واحِدٌ ، واخْتَلَفَتْ أَسْماؤُهُ باخْتِلافِ أَطْوارِهِ ، هَكَذا قالَهُ السَّاحِلِيُّ فِي ((بُغْيَتِهِ)) .

وعَلَى هَذا يَكُونُ تَقابُلُ القَلْبِ مَعَ النَّفْسِ بالمُحارَبَةِ كِنايَةً عَنْ صُعُوبَةِ انْتِقالِ الرُّوحِ مِنْ وَطَنِ الظُّلْمَةِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ النَّفْسِ إلَى وَطَنِ النُّورِ الَّذِي هُوَ القَلْبُ وما بَعْدَهُ .

فالقَلْبُ يُحارِبُها لِيَنْقُلَها إلَى أَصْلِها ، وهِيَ تَتَقاعَدُ وتَسْقُطُ إلَى أَرْضِ البَشَرِيَّةِ وشَهَواتِها ، فالقَلْبُ لَهُ أَنْوارُ الوارِداتِ تُقَرِّبُهُ وتَنْصُرُهُ حَتَّى يَتَرَقَّى بِها ويَنْتَصِرَ عَلَى ظُلْمَةِ النَّفْسِ ؛ وهَذِهِ الأَنْوارُ هِيَ الوارِداتُ المُتَقَدِّمَةُ ، والنَّفْسُ لَمَّا رَكَنَتْ إلَى الشَّهَواتِ واسْتَحْلَتْها صارَتْ كَأَنَّها جُنُودٌ لَها ، وهِيَ ظُلْمَةٌ مِنْ حَيْثُ إنَّها حَجَبَتْها عَنِ الحَقِّ ، ومَنَعَتْها مِنْ شُهُودِ شُمُوسِ العِرْفانِ ، فَإذا هاجَتِ النَّفْسُ بِجُنُودِ ظُلُماتِها وشَهَواتِها إلَى مَعْصِيَةٍ أَوْ شَهْوَةٍ ، رَحَلَ إلَيْها القَلْبُ بِجُنُودِ أَنْوارِهِ ، فَيَلْتَحِمُ بَيْنَهُما القِتالُ ، فَإذا أَرادَ اللّهُ عِنايَةَ عَبْدِهِ ونَصْرَهُ ، أَمَدَّ قَلْبَهُ بِجُنُودِ الأَنْوارِ

وقَطَعَ عَنْهُ مِنْ جِهَةِ النَّفْسِ مَدَدَ الأَغْيارِ ، فَيَسْتَوْلِي النُّورُ عَلَى الظُّلْمَةِ وتُوَلِّي النَّفْسُ مُنْهَزِمَةً ، وإذا أَرادَ اللهُ خِذْلانَ عَبْدِهِ أَمَدَّ نَفْسَهُ بِالأَغْيارِ وقَطَعَ عَنْ قَلْبِهِ شَوارِقَ الأَنْوارِ ، فَيَأْتِي المَنْصُورُ بِالأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ ، والمَخْذُولُ بِالشَّيْءِ عَلَى عَكْسِهِ .

قالَ الشَّيْخُ زَرُّوق رضي الله عنه : ((وأَمْدادُ الأَنْوارِ ثَلاثَةٌ :

أَوَّلُها : يَقِينٌ لا يُخالِطُهُ شَكٌّ ولا رَيْبٌ ، **الثَّانِي** : عِلْمٌ تَصْحَبُهُ بَصِيرَةٌ وبَيانٌ ، **الثَّالِثُ** : إلْهامٌ يَجْرِي بَعْدَ العَيانِ .

وأَمْدادُ الظُّلَمِ ثَلاثَةٌ : **أَوَّلُها** : ضَعْفُ اليَقِينِ ، **ثانِيها** : غَلَبَةُ الجَهْلِ عَلَى النَّفْسِ ، **ثالِثُها** : الشَّفَقَةُ عَلَى النَّفْسِ .

وذَلِكَ كُلُّهُ أَصْلُهُ الرِّضا عَنِ النَّفْسِ وعَدَمُهُ ، ومَظْهَرُهُ الثَّلاثُ المُرَتَّبَةُ عَلَيْهِ ؛ وهِيَ المَعاصِي والشَّهَواتُ والغَفَلاتُ ، وأَضْدادُها مِنَ الطَّاعاتِ والمَعْرِفَةِ واليَقَظَةِ والمُراقَبَةِ)) .

أَمْدادُ الأَنْوارِ

ولَمَّا كانَ النُّورُ هُوَ جُنْدَ القَلْبِ ؛ لأَنَّهُ يَكْشِفُ عَنْ حَقائِقِ الأَشْياءِ ، فَيَتَمَيَّزُ الحَقُّ مِنَ الباطِلِ ، فَيُحِقُّ الحَقَّ ويُبْطِلُ الباطِلَ ، فَيَنْتَصِرُ القَلْبُ بِإِقْبالِهِ عَلَى الحَقِّ عَلَى بَيِّنَةٍ واضِحَةٍ ، وتَنْهَزِمُ النَّفْسُ بِانْهِزامِ جُنْدِ

ظُلُماتِها ؛ إذْ لا بَقاءَ للظُّلْمَةِ مَعَ وُضُوحِ النُّورِ ، كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(النُّورُ لَهُ الكَشْفُ ، والبَصِيرَةُ لَها الحُكْمُ ، والقَلْبُ لَهُ الإقْبالُ والإدْبارُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : النُّورُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكْشِفَ الأُمُورَ ويُوضِّحَها حَتَّى يَظْهَرَ حَسَنُها مِنْ قَبِيحِها ، ومِنْ شَأْنِ البَصِيرَةِ المَفْتُوحَةِ أَنْ تَحْكُمَ عَلَى الحَسَنِ بِحُسْنِهِ ، وعَلَى القَبِيحِ بِقُبْحِهِ ، والقَلْبُ يُقْبِلُ عَلَى ما يَثْبُتُ حُسْنُهُ ، ويُدْبِرُ عَمَّا يَثْبُتُ قُبْحُهُ .

أَوْ تَقُولُ : يُقْبِلُ عَلَى ما فِيهِ نَفْعُهُ ، ويُدْبِرُ عَمَّا فِيهِ ضَرَرُهُ ، ومِثالُ ذَلِكَ : رَجُلٌ دَخَلَ بَيْتًا مُظْلِمًا فِيهِ عَقارِبُ وحَيَّات ، وفِيهِ سَبائِكُ ذَهَبٍ وفِضَّة ، فَلا يَدْرِي ما يَأْخُذُ ولا ما يَذَرُ ، ولا ما فِيهِ نَفْعٌ ولا ضَرَرٌ ، فَإذا أَدْخَلَ فِيهِ مِصْباحًا ، رَأَى ما يَنْفَعُهُ وما يَضُرُّهُ ، وما يَأْمَنُهُ وما يَحْذَرُهُ ، كَذَلِكَ قَلْبُ المُؤْمِنِ العاصِي لا يُفَرِّقُ بَيْنَ مَرارَةِ المَعْصِيَةِ وحَلاوَةِ الطَّاعَةِ ، فَإذا اسْتَضاءَ بِنُورِ التَّقْوَى ، عَرَفَ ما يَضُرُّهُ وما يَنْفَعُهُ ، وفَرَّقَ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ ، قالَ تَعالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ الأَنْفال : مِنَ الآيَة ٢٩ .

أَيْ : نُوراً يُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِل .

وقالَ تَعالَى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ (١).

وقالَ تَعالَى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (٢).

وهَذا النُّورُ الَّذِي يَكْشِفُ الأُمُورَ هُوَ نُورُ الوارِداتِ المُتَقَدِّمَةِ الَّذِي هُوَ مَطايا إِلَى عَلَّامِ الغُيُوبِ :

أَوَّلُها) نُورُ وارِدِ الانْتِباهِ ، ومِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكْشِفَ ظُلْمَةَ الغَفْلَةِ ، ويُظْهِرَ نُورَ اليَقَظَةِ ، فَتَحْكُمُ البَصِيرَةُ بِقُبْحِ الغَفْلَةِ وحُسْنِ اليَقَظَةِ ، فَيُقْبِلُ القَلْبُ حِينَئِذٍ عَلَى ذِكْرِ رَبِّهِ ، ويُدْبِرُ عَمَّا يُغْفِلُهُ عَنْ رَبِّهِ ، وهَذا هُوَ نُورُ الطَّالِبِين .

الثَّانِي) نُورُ وارِدِ الإِقْبالِ ، ومِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكْشِفَ ظُلْمَةَ الأَغْيارِ ، ويُظْهِرَ بَهْجَةَ المَعارِفِ والأَسْرارِ ، فَتَحْكُمُ البَصِيرَةُ بِضَرَرِ الأَغْيارِ ، وحُسْنِ الأَسْرارِ ، فَيُقْبِلُ القَلْبُ عَلَى بَهْجَةِ الأَسْرارِ ، ويُدْبِرُ عَنْ ظُلْمَةِ الأَغْيارِ ، وهَذا هُوَ نُورُ السَّائِرِين .

---

(١) سُورَةُ الأَنعام : مِنَ الآيَة ١٢٢ . (٢) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٢٢ .

الثَّالِثُ) نُورُ وارِدِ الوِصالِ ، ومِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكْشِفَ ظُلْمَةَ الكَوْنِ ، ورِداءَ الصَّوْنِ ، ويُظْهِرَ نُورَ تَجَلِّياتِ المُكَوِّنِ ، فَيُقْبِلُ القَلْبُ عَلَى مُشاهَدَةِ مَوْلاه ، ويُدْبِرُ عَنِ الالْتِفاتِ إِلَى ما سِواه ، وهَذا هُوَ نُورُ الواصِلِين ، وهُوَ نُورُ المُواجَهَةِ ، ونُورُ ما قَبْلَهُ نُورُ التَّوَجُّه .

وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هُوَ نُورُ الإِسْلامِ والإِيمانِ والإِحْسانِ ؛ **فَنُورُ الإِسْلام** : يَكْشِفُ ظُلْمَةَ الكُفْرِ والعِصْيان ، ويُظْهِرُ نُورَ الانْقِيادِ والإِذْعان ، فَتَحْكُمُ البَصِيرَةُ بِقُبْحِ الكُفْرِ والعِصْيان ، وحُسْنِ نُورِ الإِسْلامِ والإِذْعان ، فَيُقْبِلُ القَلْبُ عَلَى طاعَةِ رَبِّهِ ، ويُعْرِضُ عَمَّا يُبْعِدُهُ مِنْ رَبِّهِ ، **ونُورُ الإِيمان** : يَكْشِفُ ظُلُماتِ الشِّرْكِ الخَفِيِّ ، ويُظْهِرُ بَهْجَةَ الإِخْلاصِ والصِّدْقِ الوَفِيِّ ، فَتَحْكُمُ البَصِيرَةُ بِقُبْحِ الشِّرْكِ وضَرَرِهِ ، وحُسْنِ الإِخْلاصِ وخَيْرِهِ ، فَيُقْبِلُ القَلْبُ عَلَى تَوْحِيدِ رَبِّهِ ، ويُعْرِضُ عَنِ الشِّرْكِ وشَرِّهِ ، **ونُورُالإِحْسانِ** : يَكْشِفُ ظُلْمَةَ السِّوَى ، ويُظْهِرُ نُورَ وُجُودِ المَوْلَى ، فَتَحْكُمُ البَصِيرَةُ بِقُبْحِ ظُلْمَةِ الأَثَرِ ، وحُسْنِ نُورِ المُؤَثِّرِ ، فَيُقْبِلُ القَلْبُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَوْلاه ، ويَغِيبُ بِالكُلِّيَّةِ عَمَّا سِواه .

وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هَذا النُّورُ هُوَ نُورُ الشَّرِيعَةِ والطَّرِيقَةِ والحَقِيقَة :

فَنُورُ الشَّرِيعَةِ : يَكْشِفُ ظُلْمَةَ البَطالَةِ والتَّقْصِير ، ويُظْهِرُ نُورَ المُجاهَدَةِ

والتَّشْمِير ، فَتَحْكُمُ البَصِيرَةُ بِقُبْحِ البَطالَةِ وحُسْنِ المُجاهَدَةِ ، فَيُقْبِلُ القَلْبُ عَلَى مُجاهَدَةِ الجَوارِحِ فِي طاعَةِ مَوْلاه ، ويُدْبِرُ عَنْ مُتابَعَةِ حُظُوظِهِ وهَواه .

ونُورُ الطَّرِيقَةِ : يَكْشِفُ ظُلْمَةَ المَساوِئِ والعُيُوب ، ويُظْهِرُ بَهْجَةَ الصَّفاءِ وما يُثْمِرُهُ مِنْ عِلْمِ الغُيُوب ، فَتَحْكُمُ البَصِيرَةُ بِقُبْحِ العُيُوبِ وحُسْنِ الصَّفاءِ وعَمَلِ الغُيُوب ، فَيُقْبِلُ القَلْبُ عَلَى ما يُوجِبُ التَّصْفِيَة ، ويُدْبِرُ عَمَّا يَمْنَعُهُ مِنَ التَّخْلِيَةِ والتَّحْلِيَة .

ونُورُ الحَقِيقَةِ : يَكْشِفُ ظُلْمَةَ الحِجاب ، ويُظْهِرُ لَهُ مَحاسِنَ الأَحْباب ، أَوْ تَقُولُ : نُورُ الحَقِيقَةِ يَكْشِفُ لَهُ ظُلْمَةَ الأَكْوان ، ويُظْهِرُ نُورَ الشُّهُودِ والعَيان ، فَيُقْبِلُ القَلْبُ عَلَى مُشاهَدَةِ الأَحْبابِ داخِلَ الحِجابِ ، ويُدْبِرُ عَمَّا يَقْطَعُهُ عَنِ الأَدَبِ مَعَ الأَحْباب ... جَعَلَنا اللّٰهُ مَعَهُمْ عَلَى الدَّوامِ فِي هَذِهِ الدَّارِ وفِي دارِ السَّلام ، آمين .

سِرُّ الفَرَحِ بِالطَّاعَة

ولَمَّا كانَ أَصْلُ كُلِّ نُورٍ وسِرٍّ وخَيْرٍ هُوَ طاعَةَ اللّٰهِ ، وأَصْلُ كُلِّ ظُلْمَةٍ وحِجابٍ وبُعْدٍ هُوَ مَعْصِيَةَ اللّٰه ، ومِنْ عَلامَةِ حَياةِ القَلْبِ فَرَحُهُ بِالطَّاعَة ، وحُزْنُهُ عَلَى صُدُورِ المَعْصِيَة ، نَبَّهَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ عَلَى وَجْهِ الفَرَحِ بِالطَّاعَةِ

الَّتِي هِيَ سَبَبُ نُورِ القُلُوبِ ومَفاتِيحِ الغُيُوبِ ، فَقالَ فِي حِكْمَتِهِ :

(**لا تُفْرِحْكَ الطَّاعَةُ لأَنَّها بَرَزَتْ مِنْكَ ، وافْرَحْ بها لأَنَّها بَرَزَتْ مِنَ اللهِ إِلَيْكَ** ، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [1]) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ جاءَ فِي الحَدِيثِ : (مَنْ سَرَّتْهُ حَسَناتُهُ ، وساءَتْهُ سَيِّئاتُهُ ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ) .

والنَّاسُ فِي الفَرَحِ بِالطَّاعَةِ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام :

❁ قِسْمٌ فَرِحُوا بِها لِما يَرْجُونَ عَلَيْها مِنَ النَّعِيم ، ويَدْفَعُونَ بِها مِنْ عَذابِهِ الأَلِيم ، فَهُمْ يَرَوْنَ صُدُورَها مِنْ أَنْفُسِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ ، لَمْ يَتَبَرَّؤُوا فِيها مِنْ حَوْلِهِمْ وقُوَّتِهِمْ ، وهُمْ مِنْ أَهْلِ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .

❁ وقِسْمٌ فَرِحُوا بِها مِنْ حَيْثُ إِنَّها عُنْوانُ الرِّضا والقَبُول ، وسَبَبٌ فِي القُرْبِ والوُصُول ، فَهِيَ هَدايا مِنَ المَلِكِ الكَرِيم ، ومَطايا تَحْمِلُهُمْ إِلَى حَضْرَةِ النَّعِيم ، لا يَرَوْنَ لأَنْفُسِهِمْ تَرْكًا ولا فِعْلًا ، ولا قُوَّةً ولا حَوْلًا ، يَرَوْنَ أَنَّهُمْ مَحْمُولُونَ بِالقُدْرَةِ الأَزَلِيَّة ، مَصْرُوفُونَ عَنِ المَشِيئَةِ الأَصْلِيَّة ، وهُمْ مِنْ أَهْلِ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

---

(١) سُورَةُ يُونُس : الآيَة ٥٨ .

فَأَهْلُ القِسْمِ الأَوَّلِ عِبادَتُهُمْ للّه ، وأَهْلُ القِسْمِ الثَّانِي عِبادَتُهُمْ بِاللّهِ وبِقُدْرَةِ اللّه ، وبَيْنَهُما فَرْقٌ كَبِير .

❁ وقِسْمٌ ثالِثٌ فَرَحُهُمْ بِاللّهِ دُونَ شَيْءٍ سِواه ، فانُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، باقُونَ بِرَبِّهِمْ ، فَإِنْ ظَهَرَتْ مِنْهُمْ طاعَةٌ ، فالمِنَّةُ للّه ، وإِنْ ظَهَرَتْ مِنْهُمْ مَعْصِيَةٌ ، اعْتَذَرُوا للّهِ أَدَبًا مَعَ اللّه ، لا يَنْقُصُ فَرَحُهُمْ إِنْ ظَهَرَتْ مِنْهُمْ زَلَّة ، ولا يَزِيدُ إِنْ ظَهَرَتْ مِنْهُمْ طاعَةٌ أَوْ يَقَظَة ؛ لأَنَّهُمْ باللّهِ مِنْ أَهْلِ لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا باللّه ، وهُمُ العارِفُونَ باللّه ، فَإِنْ ظَهَرَتْ مِنْكَ أَيُّها المُرِيدُ طاعَةٌ أَوْ إِحْسانٌ فَلا تَفْرَحْ بِها مِنْ حَيْثُ إِنَّها بَرَزَتْ مِنْكَ ، فَتَكُونَ مُشْرِكًا بِرَبِّكَ ، فَإِنَّ اللّهَ تَعالَى غَنِيٌّ عَنْكَ وعَنْ طاعَتِكَ ، وغَنِيٌّ عَنْ أَنْ يَحْتاجَ إِلَى مَنْ يُطِيعُهُ سِواه ؛ قالَ جَلَّ فِي عُلاه : ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١) .

وقالَ ﷺ حاكِيًا عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ : (يا عِبادِي ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ ما زادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا) الحَدِيث .

وافْرَحْ بِها مِنْ حَيْثُ إِنَّها هَدِيَّةٌ مِنَ اللّهِ إِلَيْكَ ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ مِنْ

---

(١) سُورَةُ العَنْكَبُوت : الآيَة ٦ .

مَظاهِرِ كَرَمِهِ وفَضْلِهِ وإِحْسانِهِ ، فالفَرَحُ إِنَّما هُوَ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ ، قالَ تعالَى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١).

فَفَضْلُ اللهِ هُوَ هِدايَتُهُ وتَوْفِيقُهُ ، ورَحْمَتُهُ هُوَ اجْتِباؤُهُ وتَقْرِيبُهُ .

وقِيلَ : فَضْلُ اللهِ الإِسْلامُ ، ورَحْمَتُهُ القُرْآن .

وقِيلَ : فَضْلُ اللهِ هِدايَةُ الدِّينِ ، ورَحْمَتُهُ جَنَّةُ النَّعِيم .

وقِيلَ : فَضْلُ اللهِ تَوْحِيدُ الدَّلِيلِ والبُرْهانِ ، ورَحْمَتُهُ تَوْحِيدُ الشُّهُودِ والعَيانِ .

وكُلُّ ذَلِكَ مَجْمُوعٌ فِي الحَبِيبِ الأَعْظَم سَيِّدِنا مُحَمَّد ﷺ .

ولَمَّا كانَ الفَرَحُ بِالطَّاعَةِ قَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ فَرْعُ رُؤْيَتِها والنَّظَرِ إِلَيْها ، رَفَعَ ابنُ عَطاءِ اللهِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(قَطَعَ السَّائِرِينَ لَهُ والواصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمالِهِمْ ، وشُهُودِ أَحْوالِهِمْ ؛ أَمَّا السَّائِرُونَ فَلأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ مَعَ اللهِ فِيها ، وأَمَّا الواصِلُونَ فَلأَنَّهُ غَيَّبَهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْها) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَطَعَ هُنا بِمَعْنَى غَيَّبَ ؛ أَيْ : غَيَّبَ السَّائِرِينَ لَهُ عَنْ

---

(١) سُورَةُ يُونُس : الآيَة ٥٨ .

رُؤْيَةِ أَعْمالِهِمْ وأَحْوالِهِمْ ، والواصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَةِ وُجُودِهِمْ ؛ أَمَّا السَّائِرُونَ فَلِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا فِيها الصِّدْقَ مَعَ اللّه ، وأَمَّا الواصِلُونَ فَلِأَنَّهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا مَعَ اللّهِ سِواه ، يَعْنِي : أَنَّ الحَقَّ تَعالَى غَيَّبَ السَّائِرِينَ لَهُ والواصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمالِهِمُ الظَّاهِرَةِ ، وشُهُودِ أَحْوالِهِم الباطِنَةِ ؛ أَمَّا السَّائِرُونَ فَلِأَنَّهُمْ يَتَّهِمُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى الدَّوامِ ، فَمَهْما صَدَرَ مِنْهُمْ إِحْسانٌ ، ولاحَ لَهُمْ يَقَظَةٌ أَوْ وِجْدانٌ ، رَأَوْها فِي غايَةِ الخَلَلِ والنُّقْصان ، فاسْتَحْيَوْا مِنَ اللّهِ أَنْ يَعْتَمِدُوا عَلَيْها أَوْ يَعْتَدُّوا بِها ، فَغابُوا عَنْ أَعْمالِهِمْ وأَحْوالِهِمْ ، واعْتَمَدُوا عَلَى فَضْلِ رَبِّهِمْ ، فالصِّدْقُ هُوَ لُبُّ الإِخْلاصِ وسِرُّهُ ؛ أَيْ : لَمْ يَتَحَقَّقُوا بِسِرِّ الإِخْلاصِ فِيها ، فَلَمْ يَرَوْها ، ولَمْ يَرْكَنُوا إِلَيْها .

سُئِلَ بَعْضُ العارِفِينَ : ما عَلامَةُ قَبُولِ العَمَلِ ؟ قالَ : نِسْيانُكَ إِيَّاهُ ، وانْقِطاعُ نَظَرِكَ عَنْهُ بِالكُلِّيَّةِ ، بِدَلالَةِ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (١) .

وقالَ زَيْنُ العابِدِين رضي الله عنه : ((كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَفْعالِكَ إِذا اتَّصَلَتْ بِهِ رُؤْيَتُكَ ، فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُقْبَلْ ؛ لأَنَّ المَقْبُولَ مَرْفُوعٌ مُغَيَّبٌ عَنْكَ ، وما انْقَطَعَتْ عَنْهُ رُؤْيَتُكَ ، فَذاكَ دَلِيلٌ عَلَى القَبُولِ)) .

---

(١) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ١٠ .

وأَمَّا الواصِلُونَ فَلِأَنَّهُمْ فانُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ غائِبُونَ فِي شُهُودِ مَعْبُودِهِمْ فَحَرَكاتُهُمْ وسَكَناتُهُمْ كُلُّها بِاللهِ ومِنَ اللهِ وإِلَى اللهِ ؛ إِذْ مُحالٌ أَنْ تَشْهَدَهُ وتَشْهَدَ مَعَهُ سِواه ، فَإِنْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ طاعَةٌ أَوْ صَدَرَ مِنْهُمْ إِحْسان ، شَهِدُوا فِي ذَلِكَ الواحِدَ المَنَّان .

فَضَمِيرُ (قَطَعَ) يَعُودُ إِلَى الحَقِّ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، و(السَّائِرِينَ ، والواصِلِينَ) مَفْعُولٌ بِهِ .

واعْلَمْ أَنَّ السَّائِرِينَ فِي كَلامِ الشَّيْخِ هُمُ القِسْمُ الثَّانِي الَّذِينَ فَرَحُهُمْ بِالطَّاعَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّها عُنْوانُ القَبُولِ ، ولا يَلْزَمُ مِنَ الفَرَحِ بِها رُؤْيَتُها ؛ إِذْ قَدْ يَفْرَحُ بِها مِنْ حَيْثُ إِنَّها مِنَّةٌ مِنَ اللهِ ، ويَقْطَعُ رُؤْيَتَهُ عَنْها مِنْ حَيْثُ اعْتِمادُهُ عَلَى اللهِ .

والواصِلُونَ هُنا هُمُ القِسْمُ الثَّالِثُ الَّذِينَ هُمْ فَرَحُهُمْ بِاللهِ دُونَ شَيْءٍ سِواه .

الطَّمَع

ولَمَّا كانَ الطَّمَعُ هُوَ أَصْلَ الذُّلِّ ؛ لأَنَّ صاحِبَ الطَّمَعِ تَرَكَ رَبًّا عَزِيزًا ، وتَعَلَّقَ بِعَبْدٍ حَقِير ، فاحْتُقِرَ مِثْلَهُ ، وتَرَكَ رَبًّا كَرِيمًا ، وتَعَلَّقَ بِعَبْدٍ فَقِير ، فافْتَقَرَ مِثْلَهُ ، تَرَكَ رَفْعَ هِمَّتِهِ إِلَى الغَنِيِّ الكَرِيم ، وأَسْقَطَ

هِمَّتَهُ إِلَى الدَّنِي اللَّئِيم ، إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ العَبْدَ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ .

وأَيْضًا كانَ عَبْدًا للهِ ، حُرًّا مِمَّا سِواه ، فَصارَ عَبْدًا للمَخْلُوق ، وعَبْدًا لِنَفْسِهِ وهَواه ؛ لأَنَّكَ ما أَحْبَبْتَ شَيْئًا وطَمِعْتَ فِيهِ إِلَّا كُنْتَ عَبْدًا لَهُ ، وما أَيِسْتَ مِنْ شَيْءٍ ، ورَفَعْتَ هِمَّتَكَ عَنْهُ ، إِلَّا كُنْتَ حُرًّا مِنْهُ ، وفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

أَبَتِ الْمَطَامِعُ أَنْ تُهَشِّمَنِي ❁ إِنِّي لِمَعْوَلِهَا صَفًا صَلْدُ

الْعَبْدُ حُرٌّ مَا عَصَىٰ طَمَعًا ❁ وَالْحُرُّ مَهْمَا طَاعَهُ عَبْدُ

صاغَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِحِكْمَتِهِ فَقالَ :

(ما بَسَقَتْ أَغْصانُ ذُلٍّ إِلَّا عَلَى بِذْرِ طَمَعٍ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **البُسُوقُ** : هُوَ الطُّولُ ؛ قالَ تَعالَى : ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ (١) ، أَيْ : طَوِيلات ، **والبِذْرُ** : الزَّرِيعَة ، **والطَّمَعُ** : تَعَلُّقُ القَلْبِ بِما فِي أَيْدِي الخَلْقِ ، وتَشَوُّفُ القَلْبِ إِلَى غَيْرِ الرَّبِّ ، وهُوَ أَصْلُ شَجَرَةِ الذُّلِّ ، فَما بَسَقَتْ أَغْصانُ شَجَرَةِ الذُّلِّ إِلَّا عَلَى زَرِيعَةِ الطَّمَعِ ، ولِذَلِكَ قالَ الشَّيْخُ أَبُو العَبَّاسِ المُرْسِي : ((واللهِ ما رَأَيْتُ العِزَّ إِلَّا فِي رَفْعِ الهِمَّةِ عَنِ الخَلْقِ)) .

---

(١) سُورَةُ قٓ : مِنَ الآيَة ١٠ .

قالَ فِي «التَّنْوِير» : وكُنْ أَيُّها العَبْدُ إبْراهِيمِيًّا ، فَقَدْ قالَ أَبُوكَ إبْراهِيمُ عليه السلام ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ (١) ، وكُلُّ ما سِوَى اللهِ آفِلٌ إمَّا وُجُودًا وإمَّا إمْكانًا ، و قَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (٢) .

فَواجِبٌ عَلَى المُؤْمِنِ أَنْ يَتَّبِعَ مِلَّةَ إبْراهِيمَ ، ومِنْ مِلَّةِ إبْراهِيمَ رَفْعُ الهِمَّةِ عَنِ الخَلْقِ ؛ فَإِنَّهُ يَوْمَ زُجَّ بِهِ فِي المَنْجَنِيق ، تَعَرَّضَ لَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقالَ : أَلَكَ حاجَةٌ ؟ فَقالَ : أَمَّا إلَيْكَ فَلا ، وأَمَّا إلَى اللهِ فَنَعَمْ .

قالَ : فاسْأَلْهُ ، قالَ : حَسْبِيَ مِنْ سُؤالِي عِلْمُهُ بِحالِي .

فانْظُرْ كَيْفَ رَفَعَ سَيِّدُنا إبْراهِيمُ عليه السلام هِمَّتَهُ عَنِ الخَلْقِ ، ووَجَّهَها إلَى المَلِكِ الحَقِّ ، فَلَمْ يَسْتَغِثْ بِجِبْرِيلَ ، ولا احْتالَ عَلَى السُّؤالِ مِنَ اللهِ ، بَلْ رَأَى الحَقَّ سُبْحانَهُ أَقْرَبَ إلَيْهِ مِنْ جِبْرِيلَ ومِنْ سُؤالِه ، فَلِذَلِكَ سَلَّمَهُ مِنْ نَمْرُوذَ ونَكالِه ، وأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِنَوالِهِ وأَفْضالِه ، وخَصَّهُ بِوُجُودِ إقْبالِه .

ومِنْ مِلَّةِ إبْراهِيمَ مُعاداةُ كُلِّ ما شَغَلَ عَنِ اللهِ ، وصَرْفُ الهِمَّةِ بِالوُدِّ إلَى اللهِ ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (٣) .

فَحُسْنُ الأَعْمالِ إنَّما هُوَ الفَهْمُ عَنِ اللهِ ، والفَهْمُ هُوَ ما ذَكَرْناهُ مِنَ

---

(١) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ٧٨ .
(٢) سُورَةُ الحَجِّ : مِنَ الآيَة ١٠ .
(٣) سُورَةُ الشُّعَراء : الآيَة ٧٧ .

الاغْتِناءِ بِاللهِ والاكْتِفاءِ بِهِ والاعْتِمادِ عَلَيْهِ ، ورَفْعِ الحَوائِجِ إلَيْهِ ، والدَّوامِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وكُلُّ ذَلِكَ مِنْ ثَمَرَةِ الفَهْمِ عَنِ اللهِ ، وتَفَقُّدْ وُجُودَ الوَرَعِ مِنْ نَفْسِكَ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَفَقَّدُ ما سِواه ، وتَطَهَّرْ مِنَ الطَّمَعِ فِي الخَلْقِ ، فَلَوْ تَطَهَّرَ الطَّامِعُ فِيهِمْ بِسَبْعَةِ أَبْحُرٍ ما طَهَّرَهُ إلَّا اليَأْسُ مِنْهُمْ ، ورَفْعُ الهِمَّةِ عَنْهُمْ .

وقَدِمَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ الإمامُ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - البَصْرَةَ ، فَدَخَلَ جامِعًا ، فَوَجَدَ القُصَّاصَ يَقُصُّونَ ، فَأَقامَهُمْ حَتَّى وَجَدَ الحَسَنَ البَصْرِيَّ ، فَقالَ : يا فَتَى ! إنِّي سائِلُكَ عَنْ أَمْرٍ ، فَإنْ أَجَبْتَ عَنْهُ أَبْقَيْتُكَ ، وإلَّا أَقَمْتُكَ كَما أَقَمْتُ أَصْحابَكَ ، وكانَ قَدْ رَأَى عَلَيْهِ سَمْتًا وهَدْيًا ، فَقالَ الحَسَنُ : سَلْ عَمَّا شِئْتَ ، فَقالَ : ما مِلاكُ الدِّين ؟ قالَ : الوَرَعُ ، قالَ : فَما فَسادُ الدِّين ؟ قالَ : الطَّمَعُ ، قالَ الإمامُ عَلِيٌّ : اجْلِسْ ؛ فَمِثْلُكَ مَنْ يَتَكَلَّمُ عَلَى النَّاس .

قالَ ابنُ عَطاءِ اللهِ : وسَمِعْتُ شَيْخَنا أَبا العَبَّاسِ المُرْسِيَّ رضي الله عنه يَقُولُ : كُنْتُ فِي ابْتِداءِ أَمْرِي بِالإسْكَنْدَرِيَّة ، فَجِئْتُ إلَى بَعْضِ مَنْ يَعْرِفُنِي ، فاشْتَرَيْتُ مِنْهُ حاجَةً بِنِصْفِ دِرْهَم ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَعَلَّهُ لا يَأْخُذُهُ مِنِّي ، فَهَتَفَ بِي هاتِف : السَّلامَةُ فِي الدِّينِ بِتَرْكِ الطَّمَعِ فِي المَخْلُوقِين .

وسَمِعْتُهُ يَقُولُ : صاحِبُ الطَّمَعِ لا يَشْبَعُ أَبَدًا ، أَلا تَرَى أَنَّ حُرُوفَهُ كُلَّها مُجَوَّفَةٌ ؟ الطَّاءُ والمِيمُ والعَيْن ، فَعَلَيْكَ أَيُّها المُرِيدُ بِرَفْعِ هِمَّتِكَ عَنِ الخَلْقِ ، ولا تَذِلَّ لَهُمْ فِي شَأْنِ الرِّزْقِ ، فَقَدْ سَبَقَتْ قِسْمَتُهُ وُجُودَكَ ، وتَقَدَّمَ ثُبُوتُهُ ظُهُورَكَ ، واسْمَعْ ما قالَ بَعْضُ المَشايِخِ : أَيُّها الإِنْسانُ[1] ! ما قُدِّرَ لِماضِغَيْكَ أَنْ يَمْضُغاهُ فَلا بُدَّ أَنْ يَمْضُغاه ، فَكُلْهُ وَيْحَكَ بِعِزٍّ ولا تَأْكُلْهُ بِذُلٍّ .

وقالَ أَبو الحَسَنِ الوَرَّاق : مَنْ أَشْعَرَ نَفْسَهُ مَحَبَّةَ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيا ، فَقَدْ قَتَلَها بِسَيْفِ الطَّمَع ، ومَنْ طَمِعَ فِي شَيْءٍ ذَلَّ لَهُ ، وبِذَلِكَ هَلَك .

وقالَ أَبو بَكْرٍ الوَرَّاق : لَوْ قِيلَ لِلطَّمَعِ : مَنْ أَبُوكَ ؟ لَقالَ : الشَّكُّ فِي المَقْدُور ، فَلَوْ قِيلَ لَهُ : ما حِرْفَتُكَ ؟ لَقالَ : اكْتِسابُ الذُّلِّ ، فَلَوْ قِيلَ لَهُ : ما غايَتُكَ ؟ لَقالَ : الحِرْمان .

وفِي مَعْنَى هَذا أَنْشَدُوا :

اضْرَعْ إِلَى اللهِ لا تَضْرَعْ إِلَى النَّاسِ ❁ وَاقْنَعْ بِعِزٍّ فَإِنَّ الْعِزَّ فِي الْيَاسِ
وَاسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبٍ وَذِي رَحِمٍ ❁ إِنَّ الْغَنِيَّ مَنِ اسْتَغْنَىٰ عَنِ النَّاسِ

ولَمَّا كانَ سَبَبُ وُجُودِ الطَّمَعِ هُوَ الوَهْمَ والجَزَعَ ، ذَكَرَهُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِأَثَرِهِ فَقالَ :

---

(١) الإِنْسان : رَجُلًا كانَ أَم امْرَأَةً .

(ما قادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الوَهْمِ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : يُقالُ : قادَ الشَّيْءَ يَقُودُهُ : جَرَّهُ إِلَيْهِ ، والوَهْمُ : أَوَّلُ الخاطِرِ ، وهُوَ أَضْعَفُ مِنَ الشَّكِّ ، والمُرادُ هُنا ما خالَفَ اليَقِينَ ، فَيَصْدُقُ بِالظَّنِّ والشَّكِّ .

يَقُولُ ﷺ : ما جَرَّكَ شَيْءٌ وقادَكَ إِلَى الطَّمَعِ فِي الخَلْقِ والتَّمَلُّقِ لَهُمْ ، والتَّذَلُّلِ لِما فِي أَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِثْلُ الوَهْمِ ، يَعْنِي أَنَّكَ تَوَهَّمْتَ أَنَّ بِيَدِهِمْ نَفْعًا أَوْ ضُرًّا ، أَوْ عَطاءً أَوْ مَنْعًا ، طَمِعْتَ فِيهِمْ ، وتَذَلَّلْتَ لَهُمْ ، واعْتَمَدْتَ عَلَيْهِمْ ، وخِفْتَ مِنْهُمْ ، ولَوْ حَصَلَ لَكَ اليَقِينُ أَنَّ أَمْرَهُمْ بِيَدِ اللهِ ، وأَنْفُسَهُمْ فِي قَبْضَةِ اللهِ ، عاجِزِينَ عَنْ نَفْعِ أَنْفُسِهِمْ ، فَكَيْفَ يَقْدِرُونَ عَلَى نَفْعِ غَيْرِهِمْ ، لَقَطَعْتَ يَأْسَكَ مِنْهُمْ ، ولَرَفَعْتَ هِمَّتَكَ عَنْهُمْ ، ولَتَعَلَّقَتْ هِمَّتُكَ بِرَبِّ الأَرْبابِ ، و لَنَبَذْتَ الأَصْحابَ والأَحْبابَ .

أَوْ تَقُولُ : ما قادَكَ شَيْءٌ عَنْ حَضْرَةِ الشُّهُودِ والأَعْيانِ إِلاَّ تَوَهُّمُكَ وُجُودَ الأَكْوانِ ، ولَوِ انْهَتَكَ عَنْكَ حِجابُ الوَهْمِ ، لَوَقَعَ العَيانُ عَلَى فَقْدِ الأَعْيانِ ، ولَوْ أَشْرَقَ نُورُ الإِيقانِ ، لَغَطَّى وُجُودَ الأَكْوانِ .

قالَ فِي ((التَّنْوِيرِ))[1] : ((وإِنَّما مَنَعَ العِبادَ مِنَ السَّبْقِ إِلَى اللهِ جَواذِبُ

---

(١) التَّنْوِير فِي إِسْقاطِ التَّدْبِير : أَحْمَدُ بنُ عَطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِي.

التَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللهِ ؛ فَكُلَّما هَمَّتْ قُلُوبُهُمْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَى اللهِ ، جَذَبَها ذَلِكَ التَّعَلُّقُ إِلَى ما بِهِ تَعَلَّقَتْ فَكَرَّتْ راجِعَةً إِلَيْهِ مُقْبِلَةً عَلَيْهِ ، فالحَضْرَةُ مُحَرَّمَةٌ عَلَى مَنْ هَذا وَصْفُهُ ، ومَمْنُوعَةٌ عَلَى مَنْ هَذا نَعْتُهُ .

قالَ بَعْضُ العارِفِين : لا تَظُنَّ أَنْ تَدْخُلَ الحَضْرَةَ الإِلَهِيَّةَ وشَيْءٌ مِنْ وَرائِكَ يَجْذِبُكَ ، وافْهَمْ هُنا قَوْلَهُ سُبْحانَهُ : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (١) ؛ والقَلْبُ السَّلِيمُ : هُوَ الَّذِي لا تَعَلُّقَ لَهُ بِشَيْءٍ دُونَ اللهِ .

وقَوْلَهُ تَعالَى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (٢) ؛ يُفْهَمُ مِنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ لا يَصِحُّ مَجِيئُكَ إِلَى اللهِ بِالوُصُولِ إِلَيْهِ إِلَّا إِذا كُنْتَ فَرْدًا مِمَّا سِواه .

وقَوْلَهُ تَعالَى : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ (٣) ؛ يُفْهَمُ أَنَّهُ لا يُؤْوِيكَ إِلَيْهِ إِلَّا إِذا صَحَّ يُتْمُكَ مِمَّا سِواه .

وقَوْلَهُ ﷺ : (إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ) .

أَيْ : يُحِبُّ القَلْبَ الَّذِي لا يَشْفَعُ بِثَنَوِيَّةِ الآثار .

---

(١) سُورَةُ الشُّعَراء : الآيَتان ٨٨،٨٩ .
(٢) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ٩٤ .
(٣) سُورَةُ الضُّحَى : الآيَة ٦ .

ثُمَّ قالَ : وقالَ بَعْضُهُمْ : لَوْ كُلِّفْتُ أَنْ أَرَى غَيْرَهُ لَمْ أَسْتَطِعْ ؛ فَإِنَّهُ لا غَيْرَ مَعَهُ حَتَّى أَشْهَدَهُ مَعَهُ)) .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ الوَهْمَ حَجَبَ عَنِ اللهِ العَوامَّ والخَواصَّ ، وأَمَّا خَواصُّ الخَواصِّ ، فَلَمْ يَحْجُبْهُمْ عَنِ اللهِ شَيْءٌ .

أَمَّا العَوامُّ فَقادَهُمْ إِلَى التَّعَلُّقِ بِالخَلْقِ ، ومَنَعَهُمْ عَنِ السَّيْرِ إِلَى المَلِكِ الحَقِّ ، فاشْتَغَلُوا بِمُراقَبَةِ الأَحْباب ، وعَداوَةِ مَنْ عاداهُمْ مِنَ الأَصْحاب ، فَفاتَهُمْ مَحَبَّةُ الحَبِيب ، ومُراقَبَةُ الرَّقِيب .

وأَمَّا الخَواصُّ فَقادَهُمُ الوَهْمُ إِلَى ثُبُوتِ الآثار ، والوُقُوفِ مَعَ الأَنْوار ، فَقَنَعُوا بِذَلِكَ ، ولَمْ يَتَشَوَّفُوا إِلَى ما وَراءَ ذَلِكَ .

وسَمِعْتُ شَيْخَنا رضي الله عنه يَقُولُ : ((واللهِ ما حَجَبَ النَّاسَ عَنِ اللهِ إِلَّا الوَهْمُ ، والوَهْمُ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ لا حَقِيقَةَ لَهُ)) .

وأَمَّا خَواصُّ الخَواصِّ فَلَمْ يَحْجُبْهُمْ عَنِ اللهِ شَيْءٌ ، قَطَعُوا حِجابَ الوَهْم ، وحَصَلَ لَهُمْ مِنَ اللهِ العِلْمُ والفَهْم ، فَلَمْ يَتَعَلَّقُوا بِشَيْءٍ ، ولَمْ يَحْجُبْهُمْ عَنِ اللهِ شَيْءٌ ، جَعَلَنا اللهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ .

ولَمَّا كانَ الوَهْمُ يَنْشَأُ عَنْهُ الطَّمَع ، والطَّمَعُ يَنْشَأُ عَنْهُ الذُّلُّ والعُبُودِيَّة ، واليَقِينُ يَنْشَأُ عَنْهُ الوَرَع ، والوَرَعُ يَنْشَأُ عَنْهُ العِزُّ والحُرِّيَّة ، نَبَّهَ عَلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(أَنْتَ حُرٌّ مِمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ ، وعَبْدٌ لِما أَنْتَ فِيهِ طامِعٌ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : إنَّما كانَ الإنْسانُ حُرًّا مِمَّا أَيِسَ مِنْهُ ؛ لأَنَّهُ لَمَّا أَيِسَ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ رَفَعَ هِمَّتَهُ عَنْهُ ، وعَلَّقَها بِالمَلِكِ الحَقِّ ، فَلَمَّا عَلَّقَ هِمَّتَهُ بِالمَلِكِ الحَقِّ ، سَخَّرَ الحَقُّ تَعالَى لَهُ سائِرَ الخَلْقِ ، فَكانَتِ الأَشْياءُ كُلُّها عَبيدًا لَهُ ، ومُسَخَّرَةً لأَمْرِه .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ مَحَبَّةَ الأَشْياءِ والطَّمَعَ فِيها هُوَ سَبَبُ الذُّلِّ والهَوانِ والتَّعَبُّدِ لِسائِرِ الأَكْوان ، وأَنَّ الإياسَ مِنَ الأَشْياءِ ورَفْعَ الهِمَّةِ عَنْها هُوَ سَبَبُ العِزِّ والحُرِّيَّةِ والتِّيهِ عَلَى الأَقْران ، ولِلّهِ دَرُّ القائِلِ حَيْثُ قالَ :

رَأَيْتُ الْقَنَاعَةَ رَأْسَ الْغِنَىٰ ❁ فَصِرْتُ بِأَذْيَالِهَا مُمْتَسِكْ

فَأَلْبَسَنِي عِزُّهَا حُلَّةً ❁ يَمُرُّ الزَّمَانُ وَلا تَنْهَتِكْ

فَصِرْتُ غَنِيًّا بِلا دِرْهَمٍ ❁ أَتِيهُ عَلَى النَّاسِ تِيهَ الْمَلِكْ

قالَ ابنُ عَجيبَة : وهَذا هُوَ الغِنَىٰ الأَكْبَر ، والإكْسِيرُ عِنْدَ الأَكْياس ، ويُسَمَّى فِي اصْطِلاحِ الصُّوفِيَّة : الوَرَع . أَعْنِي : الوَرَعَ الخاصَّ ، وهُوَ رَفْعُ الهِمَّةِ عَنِ السِّوَىٰ .

قالَ فِي ((لَطائِف المِنَن))[1] : ((واعْلَمْ - رَحِمَكَ اللّهُ - أَنَّ وَرَعَ الخُصُوصِ

---

(١) لَطائِفُ المِنَن فِي مَناقِبِ الشَّيْخِ أَبِي العَبَّاسِ المُرسِيِّ وشَيْخِهِ الشَّاذِلِيِّ أَبِي الحَسَن : أَحْمَدُ ابنُ عَطاءِ اللّهِ السَّكَنْدَرِي .

لا يَفْهَمُهُ إلَّا قَلِيلٌ ، فَإنَّ مِنْ جُمْلَةِ وَرَعِهِمْ تَوَرُّعَهُمْ أَنْ يَسْكُنُوا لِغَيْرِهِ ، أَوْ يَمِيلُوا بِالحُبِّ لِغَيْرِهِ ، أَوْ تَمْتَدَّ أَطْماعُهُمْ بِالطَّمَعِ فِي غَيْرِ فَضْلِهِ وخَيْرِهِ ، ومِنْ وَرَعِهِمْ وَرَعُهُمْ عَنِ الخَوْفِ مَعَ الوَسائِطِ والأَسْباب ، وخَلْعِ الأَنْدادِ والأَرْباب ، ومِنْ وَرَعِهِمْ وَرَعُهُمْ عَنِ الوُقُوفِ مَعَ العادات ، والاعْتِمادِ عَلَى الطَّاعات ، والسُّكُونِ إلَى أَنْوارِ التَّجَلِّيات ، ومِنْ وَرَعِهِمْ وَرَعُهُمْ عَنْ أَن تَفْتِنَهُمُ الدُّنْيا ، أَوْ تُوقِفَهُمُ الآخِرَة ، تَوَرَّعُوا عَنِ الدُّنْيا وَفاءً ، وعَنِ الآخِرَةِ صَفاءً)) .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَن : ((الوَرَعُ نِعْمَ الطَّرِيقُ لِمَنْ عُجِّلَ مِيراثُهُ ، وأُجِّلَ ثَوابُهُ ، فَقَدِ انْتَهَى بِهِمُ الوَرَعُ إلَى الأَخْذِ مِنَ اللهِ وعَنِ اللهِ ، والقَوْلِ بِاللهِ ، والعَمَلِ للهِ وباللهِ ، عَلَى البَيِّنَةِ الواضِحَةِ ، والبَصِيرَةِ الفائِقَةِ ، فَهُمْ فِي عُمُومِ أَوْقاتِهِمْ وسائِرِ أَحْوالِهِمْ لا يُدَبِّرُونَ ، ولا يَخْتارُونَ ، ولا يُرِيدُونَ ، ولا يَتَفَكَّرُونَ ، ولا يَنْظُرُونَ ، ولا يَنْطِقُونَ ، ولا يَبْطِشُونَ ، ولا يَمْشُونَ ، ولا يَتَحَرَّكُونَ إلَّا باللهِ وللهِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ، هَجَمَ بِهِمُ العِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الأَمْرِ ، فَهُمْ مَجْمُوعُونَ فِي عَيْنِ الجَمْعِ ، لا يَفْتَرِقُونَ فِيما هُوَ أَعْلَى ، ولا فِيما هُوَ أَدْنَى .

وأَمَّا أَدْنَى الأَدْنَى ، فاللهُ يُوَرِّعُهُمْ عَنْهُ ثَوابًا لِوَرَعِهِمْ مَعَ الحِفْظِ لِمَنازَلاتِ

الشَّرْعِ عَلَيْهِمْ ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ لِعِلْمِهِ وعَمَلِهِ مِيراثٌ فَهُوَ مَحْجُوبٌ بِدُنْيا أَوْ مَصْرُوفٌ بِدَعْوَى ، ومِيراثُهُ التَّعَزُّزُ لِخَلْقِهِ ، والاسْتِكْبارُ عَلَى مِثْلِهِ ، والدَّلالَةُ عَلَى اللهِ بِعِلْمِهِ ، فَهَذا هُوَ الخُسْرانُ المُبِين ، والعِياذُ بِاللهِ العَظِيم مِنْ ذَلِك .

والأَكْياسُ يَتَوَرَّعُونَ عَنْ هَذا الوَرَعِ ، ويَسْتَعِيذُونَ بِاللهِ مِنْهُ ، ومَنْ لَمْ يُزَوَّدْ بِعِلْمِهِ وعَمَلِهِ افْتِقارًا لِرَبِّهِ ، واحْتِقارًا لِنَفْسِهِ ، وتَواضُعًا لِخَلْقِهِ ، فَهُوَ هالِك .

فَسُبْحانَ مَنْ قَطَعَ كَثِيراً مِنَ الصَّالِحِينَ بِصَلاحِهِمْ عَنْ مُصْلِحِهِمْ ، كَما قَطَعَ كَثِيراً مِنَ المُفْسِدِينَ بِفَسادِهِمْ عَنْ مُوجِدِهِمْ : ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (١) .

فانْظُرْ - فَهَّمَكَ اللهُ سَبِيلَ أَوْلِيائِهِ ، ومَنَّ عَلَيْكَ بِمُتابَعَةِ أَحِبَّائِهِ - هَذا الوَرَعَ الَّذِي ذَكَرَهُ هَذا الشَّيْخُ رضي الله عنه ، هَلْ كانَ فَهْمُكَ يَصِلُ إِلَى هَذا النَّوْعِ مِنَ الوَرَع ؟ أَلا تَرَى قَوْلَهُ : ((قَدِ انْتَهَى بِهِمُ الوَرَعُ إِلَى الأَخْذِ مِنَ اللهِ ، وَعنِ اللهِ ، والقَوْلِ بِاللهِ ، والعَمَلِ للهِ وبِاللهِ عَلَى البَيِّنَةِ الواضِحَةِ والبَصِيرَةِ الفائِقَةِ ؟)) ؛ فَهَذا هُوَ وَرَعُ الأَبْدالِ والصِّدِّيقِينَ لا وَرَعُ المُتَنَطِّعِينَ الَّذِي يَنْشَأُ عَنْ سُوءِ الظَّنِّ وغَلَبَةِ الوَهْم .

---

(١) سُورَةُ فُصِّلَت : مِنَ الآيَة ٣٦ .

قالَ ابنُ عَجيبَة : هَذا الوَرَعُ الَّذي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ هُوَ وَرَعُ الخَواصِّ ، أَوْ خَواصِّ الخَواصِّ ، وهُوَ الَّذي يُقابِلُ الطَّمَعَ كَما تَقَدَّمَ فِي قَوْلِ الحَسَنِ البَصْري : ((صَلاحُ الدِّينِ الوَرَعُ ، وفَسادُ الدِّينِ الطَّمَعُ)) ، لا وَرَعُ العَوامِّ الَّذي هُوَ تَرْكُ المُتَشابِهِ والحَرام ؛ فَإِنَّهُ لا يُقابِلُ الطَّمَعَ كُلَّ المُقابَلَة ، وحاصِلُهُ صِحَّةُ اليَقِين ، وكَمالُ التَّعَلُّقِ بِرَبِّ العالَمِين ، ووُجُودُ السُّكُونِ إِلَيْهِ ، وعُكُوفُ الهَمِّ عَلَيْهِ ، وطُمَأْنِينَةُ القَلْبِ بِهِ ، حَتَّى لا يَكُونَ لَهُ رُكُونٌ إِلَى شَيْءٍ مِنَ السِّوَىٰ ، فَهَذا هُوَ الوَرَعُ الَّذي يُقابِلُ الطَّمَعَ المُفْسِدَ ، وبِهِ يَصْلُحُ كُلُّ عَمَلٍ مُقَرِّب ، وحالٍ مُسْعِد .

قالَ يَحْيَى بنُ مُعاذ رضي الله عنه : الوَرَعُ عَلَى وَجْهَيْنِ : وَرَعٌ فِي الظَّاهِرِ : وهُوَ أَلَّا تَتَحَرَّكَ إِلَّا للّٰه ، ووَرَعٌ فِي الباطِنِ : وهُوَ أَلَّا يَدْخُلَ قَلْبَكَ إِلَّا اللّٰه .

وإِذا أَرادَ اللّٰهُ تَعالَى أَنْ يُعِزَّ عَبْدَهُ ويَرْفَعَهُ إِلَى هَذا المَقام ، قَطَعَ عَنْهُ زِمامَ الوَهْم والجَزَع ، وحَرَّرَهُ مِنْ رِقِّ الطَّمَع ، فَقادَهُ إِلَيْهِ بِمُلاطَفَةِ الإِحْسان ، أَوْ بِسَلاسِلِ الامْتِحان ؛ كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(مَنْ لَمْ يُقْبِلْ عَلَى اللّٰهِ بِمُلاطَفاتِ الإِحْسانِ ، قِيدَ إِلَيْهِ بِسَلاسِلِ الامْتِحان) :

أَقْسامُ العِباد ، ولَوازِمُ الوِداد

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ قَسَّمَ اللّٰهُ تَعالَى عِبادَهُ ثَلاثَةَ أَقْسام :

أَهْلُ الشِّمال ، وأَهْلُ اليَمِين ، والسَّابِقُون .

أَمَّا أَهْلُ الشِّمال : فَلا كَلامَ عَلَيْهِمْ ؛ إِذْ لا إِقْبالَ لَهُمْ عَلَى اللّٰهِ أَصْلا .

وأَمَّا أَهْلُ اليَمِين : فَلَهُمْ إِقْبالٌ بِوَجْهٍ ما ، لَكِنْ لا خُصُوصِيَّةَ لَهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ قَنَعُوا بِظاهِرِ الشَّرِيعَة ، ولَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى سُلُوكِ طَرِيقَةٍ ولا حَقِيقَة ، وقَفُوا مَعَ الدَّلِيلِ والبُرْهان ، ولَمْ يَنْهَضُوا إِلَى مَقامِ الشُّهُودِ والعِيان ، ولا كَلامَ مَعَهُمْ أَيْضًا .

وأَمَّا السَّابِقُون : فَقَدْ أَقْبَلُوا عَلَى اللّٰهِ مُتَوَجِّهِينَ إِلَيْهِ طالِبِينَ الوُصُولَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ، وهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى قِسْمَيْن :

قِسْمٌ أَقْبَلَ عَلَى اللّٰهِ بِمُلاطَفَةِ إِحْسانِهِ ، وقِيامًا بِشُكْرِ إِنْعامِهِ وامْتِنانِهِ ، وهُمْ أَهْلُ مَقامِ الشُّكْر .

وقِسْمٌ أَقْبَلَ عَلَى اللّٰهِ بِسَلاسِلِ الامْتِحان ، وضُرُوبِ البَلايا والمِحَن ، وهُمْ أَهْلُ مَقامِ الصَّبْر .

أَهْلُ المَقامِ الأَوَّلِ أَقْبَلُوا عَلَى اللّٰهِ طَوْعًا .

وأَهْلُ المَقامِ الثَّانِي أَقْبَلُوا عَلَى اللّٰهِ كَرْهًا ، قالَ تَعالَى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (١) .

قالَ أبو مَدْيَن رضي الله عنه : سُنَّةُ اللهِ اسْتِدْعاءُ العِبادِ لِطاعَتِهِ بِسَعَةِ الأَرْزاقِ ، ودَوامِ المُعافاةِ ؛ لِيَرْجِعُوا إِلَيْهِ بِنِعْمَتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ، ابْتَلاهُمْ بِالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ؛ لأَنَّ مُرادَهُ - عَزَّ وجَلَّ - رُجُوعُ العِبادِ إِلَيْهِ طَوْعًا وكَرْهًا .

فَقَوْمٌ بَسَطَ اللهُ عَلَيْهِمُ النِّعَم ، وصَرَفَ عَنْهُمُ البَلايا والنِّقَم ، ورَزَقَهُمُ الصِّحَّة ، وأَمَدَّهُمْ بِالأَمْوالِ والعافِيَة ، فَأَدَّوا حَقَّها ، وقامُوا بِشُكْرِها ، وتَشَوَّفُوا إِلَى مَعْرِفَةِ المُنْعِمِ بِها ، فَكانَتْ مَطِيَّةً لَهُمْ عَلَى السَّيْرِ إِلَيْهِ ، ومَعُونَةً لَهُمْ عَلَى القُدُومِ عَلَيْهِ ، أَخْرَجُوها مِنْ قُلُوبِهِمْ ، وجَعَلُوها فِي أَيْدِيهِمْ ، وقَلِيلٌ ما هُمْ .

قالَ تَعالَى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ (٢) .

وفِي مِثْلِ هَؤُلاءِ وَرَدَ الحَدِيثُ : (نِعْمَتِ الدُّنْيا مَطِيَّةُ المُؤْمِنِ ، عَلَيْها يَبْلُغُ الخَيْرَ ، وبِها يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ) أَوْ كَما قالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام .

قالَ بَعْضُ أَصْحابِنا : جَعَلَ ﷺ الدُّنْيا مَطِيَّةً للمُؤْمِنِ حامِلَةً لَهُ ، ولَمْ يَجْعَلِ المُؤْمِنَ مَطِيَّةً لَها حَتَّى يَتَكَلَّفَ حَمْلَها ، فَهَذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّها فِي

---

(١) سُورَةُ الرَّعْد : مِنَ الآيَة ١٥ .

(٢) سُورَةُ سَبَا : مِنَ الآيَة ١٣ .

يَدِهِ يَسْتَعِينُ بِها عَلَى السَّيْرِ إِلَى رَبِّهِ ، لا أَنَّها فِي قَلْبِهِ حَتَّى يَرْتَكِبَ المَشَقَّةَ فِي طَلَبِها .

وقَوْمٌ أَمَدَّهُمُ اللهُ بِالنِّعَم ، وبَسَطَ لَهُمْ فِي المالِ والعافِيَةِ وصَرَفَ عَنْهُمُ النِّقَم ، فَشَغَلَهُمْ ذَلِكَ عَنِ النُّهُوضِ إِلَيْهِ ، ومَنَعَهُمْ مِنَ المَسِيرِ إِلَى حَضْرَتِهِ ، فَسَلَبَ ذَلِكَ عَنْهُمْ ، وضَرَبَهُمْ بِالبَلايا والمِحَن ، فَأَقْبَلُوا عَلَى اللهِ بِسَلاسِلِ الامْتِحان : (عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُساقُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلاسِل) .

وقَدْ مَدَحَ اللهُ الغَنِيَّ الشَّاكِرَ والفَقِيرَ الصَّابِرَ بِمَدْحٍ واحِدٍ ؛ فقالَ تَعالَى فِي حَقِّ سَيِّدِنا سُلَيْمانَ عليه السلام : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (١) .

وقالَ فِي حَقِّ سَيِّدِنا أَيُّوبَ عليه السلام : ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (٢) .

وقالَ بَعْضُهُمْ : لأَنْ أُعْطَى فَأَشْكُرَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فَأَصْبِرَ .

وكانَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاسِ المُرْسِي يُرَجِّحُ الغَنِيَّ الشَّاكِرَ عَلَى الفَقِيرِ الصَّابِر ، وهُوَ مَذْهَبُ ابنِ عَطاءِ اللهِ السَّكْنْدَرِي ، ومَذْهَبُ أَبِي

---

(١) سُورَةُ صٓ : الآيَة ٣٠ .
(٢) سُورَةُ صٓ : مِنَ الآيَة ٤٤ .

عَبْدِاللّٰهِ التِّرْمِذِي الحَكِيم يَقُولُ : الشُّكْرُ صِفَةُ أَهْلِ الجَنَّة ، والفَقْرُ لَيْسَ كَذَلِك .

والتَّحْقِيقُ أَنَّ الفَقِيرَ الصَّابِرَ هُوَ الغَنِيُّ الشَّاكِرُ ، وبالعَكْس ؛ لأَنَّ الغِنَى إِنَّما هُوَ بِاللّٰه ، فَإِذا اسْتَغْنَى القَلْبُ بِاللّٰه ، فَصاحِبُهُ هُوَ الغَنِيُّ الشَّاكِرُ ، ولا عِبْرَةَ بِما فِي اليَدِ ، فَقَدْ تَكُونُ اليَدُ مَعْمُورَةً ، والقَلْبُ فَقِيرٌ ، وقَدْ يَكُونُ القَلْبُ غَنِيًّا بِاللّٰهِ ، واليَدُ فَقِيرَةٌ ، وقَدْ تَكُونُ اليَدُ مَعْمُورَةً والقَلْبُ مَعَ اللّٰهِ غَنِيًّا بِهِ عَمَّا سِواه .

قالَ بَعْضُ المَشايخ : كانَ رَجُلٌ بِالمَغْرِب مِنَ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيا ، ومِنْ أَهْلِ الجِدِّ والاجْتِهاد ، وكانَ عَيْشُهُ مِمَّا يَصِيدُهُ مِنَ البَحْر ، وكانَ الَّذِي يَصِيدُهُ يَتَصَدَّقُ بِبَعْضِهِ ، ويَتَقَوَّتُ بِبَعْضِهِ ، فَأَرادَ بَعْضُ أَصْحابِ هَذا الشَّيْخِ أَنْ يُسافِرَ إِلَى بَلَدٍ مِنْ بِلادِ المَغْرِب ، فَقالَ لَهُ هَذا الزَّاهِدُ : إِذا دَخَلْتَ عَلَى بَلْدَةِ كَذا ، فاذْهَبْ إِلَى أَخِي فُلان ، فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلامَ ، واطْلُبْ مِنْهُ الدُّعاءَ ، فَإِنَّهُ وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِياءِ اللّٰهِ تَعالَى .

قالَ : فَسافَرْتُ حَتَّى قَدِمْتُ تِلْكَ البَلْدَةَ ، فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ الرَّجُل ، فَدُلِلْتُ عَلَى دارٍ لا تَصْلُحُ إِلَّا لِلمُلُوك ، فَعَجِبْتُ مِنْ ذَلِكَ ، وطَلَبْتُهُ ، قِيلَ لِي : هُوَ عِنْدَ السُّلْطان ، فازْدادَ تَعَجُّبِي ، فَبَعْدَ ساعَةٍ وإِذا هُوَ

قَدْ أَتَى فِي أَفْخَرِ مَرْكَبٍ ومَلْبَسٍ ، وكَأَنَّهُ هُوَ مَلِكٌ فِي مَرْكَبِهِ ، قالَ : فازْدادَ تَعَجُّبِي أَكْثَرَ مِنَ الأُولَيَيْنِ ، فَهَمَمْتُ بِالرُّجُوعِ وعَدَمِ الاجْتِماعِ بِهِ ، ثُمَّ قُلْتُ : لا يُمْكِنُنِي مُخالَفَةُ الشَّيْخِ ، فاسْتَأْذَنْتُ ، فَأُذِنَ لِي ، فَلَمَّا دَخَلْتُ ، رَأَيْتُ ما هالَنِي مِنَ العَبِيدِ والخَدَمِ والشَّارَةِ الحَسَنَةِ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَخُوكَ فُلانٌ يُسَلِّمُ عَلَيْكَ ، قالَ لِي : جِئْتَ مِنْ عِنْدِهِ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قالَ : إذا رَجَعْتَ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ : إِلَى كَم اشْتِغالُكَ بِالدُّنْيا ؟ وإِلَى كَمْ إِقْبالُكَ عَلَيْها ؟ وإِلَى مَتَى لا تَنْقَطِعُ رَغْبَتُكَ فِيها ؟ فَقُلْتُ : واللّهِ هَذِهِ أَعْجَبُ مِنَ الأُولَى .

فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى الشَّيْخِ قالَ : اجْتَمَعْتَ بِأَخِي فُلان ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قالَ : فَما الَّذي قالَ لَكَ ؟ قُلْتُ : لا شَيْءَ ، قالَ : لا بُدَّ أَنْ تَقُولَ لِي ، فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ ما قالَ ، فَبَكَى طَوِيلًا وقالَ : صَدَقَ أَخِي فُلان ، وهُوَ غَسَلَ اللّهُ قَلْبَهُ مِنَ الدُّنْيا وجَعَلَها فِي يَدِهِ وعَلَى ظاهِرِهِ ، وأَنا أَخَذَها مِنْ يَدِي ولِي إِلَيْها بَقايا التَّطَلُّع .

فَأَحْوالُ الأَوْلِياءِ لا تَنْضَبِطُ بِفَقْرٍ ولا غِنًى ؛ لأَنَّ الوِلايَةَ أَمْرٌ قَلْبِيٌّ لا يَعْلَمُها إِلَّا مَنْ خَصَّهُمْ بِها .

ومَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللّهِ بِمُلاطَفَةِ إِحْسانِهِ ، وَجَبَ عَلَيْهِ شُكْرُ ما أَسْدَى إِلَيْهِ

مِنْ لَطائِفِ كَرَمِهِ وامْتِنانِه ، وإلَّا زالَتْ عَنْهُ بِسَبَبِ جُحُودِهِ وعِصْيانِه ، وإلَى ذَلِكَ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوالِها ، ومَنْ شَكَرَها فَقَدْ قَيَّدَها بِعِقالِها) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : اتَّفَقَتْ مَقالاتُ الحُكَماءِ عَلَى هَذا المَعْنَى ، وأَنَّ الشُّكْرَ قَيْدُ المَوْجُود ، وصَيْدُ المَفْقُود ، وقالُوا أَيْضًا : مَنْ أُعْطِيَ ولَمْ يَشْكُرْ ، سُلِبَ ولَمْ يَشْعُرْ ؛ فَمَنْ شَكَرَ النِّعْمَةَ ، فَقَدْ قَيَّدَها بِعِقالِها ، ومَنْ كَفَرَها فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوالِها .

قالَ تَعالَى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (١) .

أَيْ : إِنَّ اللّٰهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْم مِنَ النِّعَم حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الشُّكْرِ ، وتَغْيِيرُهُمُ الشُّكْرَ هُوَ اشْتِغالُهُمْ بِالمَعاصِي والكُفْرِ ، ولِذَلِكَ قالَ الإمامُ الجُنَيْدُ رضي الله عنه : الشُّكْرُ أَلَّا يُعْصَى اللّٰهُ بِنِعَمِهِ .

وقِيلَ : الشُّكْرُ فَرَحُ القَلْبِ بِالمُنْعِم لأَجْلِ نِعْمَتِهِ حَتَّى يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى الجَوارِحِ ، فَتَنْبَسِطَ بِالأَوامِر ، وتَنْكَفَّ عَلَى الزَّواجِر .

وقالَ فِي «لَطائِفِ المِنَن» : الشُّكْرُ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام : شُكْرُ اللِّسان ، وشُكْرُ الأَرْكان ، وشُكْرُ الجَنان .

---

(١) سُورَةُ الرَّعْد : مِنَ الآيَة ١١ .

فَشُكْرُ اللِّسان : التَّحَدُّثُ بِنِعَمِ اللهِ ، قالَ تَعالَى : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١) .

وشُكْرُ الأَرْكان : العَمَلُ بِالطَّاعَةِ للهِ تَعالَى ، قالَ تَعالَى : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ (٢) .

وشُكْرُ الجَنان : بِالاعْتِرافِ بِأَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ بِكَ أَوْ بِأَحَدٍ مِنَ العِبادِ هِيَ مِنَ اللهِ تَعالَى ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (٣) .

ومِنَ القِسْمِ الأَوَّلِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : (التَّحَدُّثُ بِالنِّعَمِ شُكْرٌ) .

ومِنَ الثَّانِي : أَنَّهُ ﷺ قامَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَماهُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَتَتَكَلَّفُ كُلَّ ذَلِكَ ، وقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ ؟

فَقالَ ﷺ : (أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟) .

وسُئِلَ أَبو حازِمٍ رضي الله عنه : «ما شُكْرُ العَيْنَيْنِ ؟ قالَ : إِذا رَأَيْتَ بِهِما خَيْراً أَعْلَنْتَهُ ، وإِذا رَأَيْتَ بِهِما شَرًّا سَتَرْتَهُ ، قالَ السَّائِلُ : فَما شُكْرُ الأُذُنَيْنِ ؟ قالَ : إِذا سَمِعْتَ بِهِما خَيْراً وَعَيْتَهُ ، وإِذا سَمِعْتَ بِهِما شَرًّا دَفَنْتَهُ ، قالَ : فَما شُكْرُ اليَدَيْنِ ؟ قالَ : لا تَأْخُذْ بِهِما ما لَيْسَ لَكَ ،

---

(١) سُورَةُ الضُّحَى : الآيَة ١١ .
(٢) سُورَةُ سَبَأ : مِنَ الآيَة ١٣ .
(٣) سُورَةُ النَّحْل : مِنَ الآيَة ٥٣ .

ولا تَمْنَعْ حَقًّا هُوَ للهِ فِيها ، قالَ : فَما شُكْرُ البَطْن ؟ قالَ : أَنْ يَكُونَ أَسْفَلُهُ صَبْراً ، وأَعْلاهُ عِلْمًا ، قالَ : فَما شُكْرُ الفَرْج ؟ قالَ : كَما قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (١) ، قالَ : فَما شُكْرُ الرِّجْلَيْن ؟ قالَ : إِنْ رَأَيْتَ شَيْئًا غَبَطْتَهُ اسْتَعْمَلْتَهُما ، وإِنْ رَأَيْتَ شَيْئًا مَقَتَّهُ كَفَفْتَهُما)) .

واعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ فِي الشُّكْرِ عَلَى ثَلاثِ دَرَجات : عَوامٌّ ، وخَواصٌّ ، وخَواصُّ الخَواصِّ .

فَشُكْرُ العَوامِّ عَلَى النِّعَم فَقَط ، وشُكْرُ الخَواصِّ عَلَى النِّعَم والنِّقَم ، وشُكْرُ خَواصِّ الخَواصِّ الغَيْبَةُ فِي المُنْعِم عَنْ شُهُودِ النِّعَم والنِّقَم .

والنِّعَمُ الَّتي يَقَعُ الشُّكْرُ عَلَيْها ثَلاثَةُ أَقْسام :

دُنْيَوِيَّةٌ : كالصِّحَّةِ والعافِيَةِ والمالِ الحَلال .

ودِينِيَّةٌ : كالعِلْم والعَمَلِ والتَّقْوَى والمَعْرِفَة .

وأُخْرَوِيَّةٌ : كالثَّوابِ عَلَى العَمَلِ القَلِيلِ بِالعَطاءِ الجَزِيلِ .

وأَجَلُّ النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ الَّتي يَتَأَكَّدُ الشُّكْرُ عَلَيْها نِعْمَةُ الإِسْلام والإِيمان

---

(١) سُورَةُ المَعارِج : الآيَتان ٢٩، ٣٠ .

والمَعْرِفَةِ ، وشُكْرُها هُوَ اعْتِقادُ أَنَّها مِنَّةٌ مِنَ اللهِ تعالَى بلا واسِطَةٍ ولا حَوْلٍ ولا قُوَّةٍ ، قالَ اللهُ تعالَى : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ (١) ، ثُمَّ قالَ : ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ (٢).

قالَ أَبو طالِبٍ المَكِّيُّ (٣) (٣٨٦ هـ) : .. بَعْدَ كَلام : ((فَلَوْ قَلَّبَ قُلُوبَنا فِي الشَّكِّ والضَّلالِ كَما يُقَلِّبُ نِيَّاتِنا فِي الأَعْمالِ ، أَيَّ شَيْءٍ كُنَّا نَصْنَعُ ؟ وعَلَى أَيِّ شَيْءٍ نُعَوِّلُ ؟ وبِأَيِّ شَيْءٍ كُنَّا نَطْمَئِنُّ ونَرْجُو ؟ فَهَذا مِنْ كَبائِرِ النِّعَمِ .

ومَعْرِفَتُهُ هُوَ شُكْرُ نِعْمَةِ الإيمان ، والجَهْلُ بِهَذا غَفْلَةٌ عَنْ نِعْمَةِ الإيمانِ تُوجِبُ العُقُوبَة ، وادِّعاءُ الإيمانِ أَنَّهُ عَنْ كَسْبٍ مَعْقُولٍ أَوِ اسْتِطاعَةٍ بِقُوَّةٍ وحَوْلٍ هُوَ كُفْرُ نِعْمَةِ الإيمان ، وأَخافُ عَلَى مَنْ تَوَهَّمَ ذَلِكَ أَنْ يُسْلَبَ الإيمان ؛ لأَنَّهُ بَدَّلَ شُكْرَ نِعْمَةِ الإيمانِ كُفْراً)) .

اسْتِدْراجُ اللهِ العَبْدَ

فَإِنْ غَفَلَ العَبْدُ عَنْ شُكْرِ هَذِهِ النِّعَم ، ثُمَّ دامَتْ صُورَتُها عِنْدَهُ ، فَلا

---

(١) سُورَةُ الحُجُرات : مِنَ الآيَة ٧ . (٢) سُورَةُ الحُجُرات : مِنَ الآيَة ٨ .

(٣) صاحِبُ كِتاب (قُوت القُلُوب فِي مُعامَلَةِ المَحْبُوب ووَصْف طَرِيق المُرِيد إِلَى مَقام التَّوْحِيد) .

يَغْتَرَّ ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ اسْتِدْراجًا ؛ كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(خَفْ مِنْ وُجُودِ إِحْسانِهِ إِلَيْكَ ، ودَوامِ إِساءَتِكَ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتِدْراجًا ، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾) :

الاسْتِدْراجُ : هُوَ كُمُونُ المِحْنَةِ فِي عَيْنِ المِنَّةِ ، وهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ دَرَجَ الصَّبِيُّ ؛ أَيْ : أَخَذَ فِي المَشْيِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ، ومِنْهُ الدَّرَجُ الَّذي يُرْتَقَى عَلَيْهِ إِلَى العُلُوِّ ، كَذَلِكَ المُسْتَدْرَجُ هُوَ الَّذي تُؤْخَذُ مِنْهُ النِّعْمَةُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ وهُوَ لا يَشْعُرُ ، قالَ تَعالَى : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

أَيْ : نَأْخُذُهُمْ بِالنِّعَمِ حَتَّى نُجَرَّهُمْ إِلَى النِّقَمِ وهُمْ لا يَشْعُرون (٢).

فَخَفْ أَيُّها المُرِيدُ مِنْ دَوامِ إِحْسانِ الحَقِّ إِلَيْكَ بِالصِّحَّةِ والفَراغِ وسَعَةِ الأَرْزاقِ ، ودَوامِ الأَمْدادِ الحِسِّيَّةِ أَوِ المَعْنَوِيَّةِ ، مَعَ دَوامِ إِساءَتِكَ مَعَهُ بِالغَفْلَةِ والتَّقْصِيرِ ، وعَدَمِ شُكْرِكَ للمَلِكِ الكَبِيرِ ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتِدْراجًا مِنْهُ تَعالَى ، قالَ تَعالَى : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

---

(١) سُورَةُ القَلَم : مِنَ الآيَة ٤٤ .

(٢) قالَهُ الشَّيْخُ زَرُّوق ﷺ .

قالَ سَهْلُ بنُ عَبْدِالله رضي الله عنه : ((نُمِدُّهُمْ بِالنِّعَمِ ونُنْسِيهِمُ الشُّكْرَ عَلَيْها ، فَإذا رَكَنُوا إِلَى النِّعْمَةِ وحُجِبُوا عَنِ المُنْعِمِ أُخِذُوا)) .

فالواجِبُ عَلَى الإنْسانِ إذا أَحَسَّ بِنِعْمَةٍ ظاهِرَةٍ أَوْ باطِنَةٍ ، حِسِّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ ، أَنْ يَعْرِفَ حَقَّها ، ويُبادِرَ إِلَى شُكْرِها نُطْقًا واعْتِقادًا وعَمَلا ، فالنُّطْقُ : الحَمْدُ والشُّكْرُ بِاللِّسان ، والاعْتِقادُ : شُهُودُ المُنْعِمِ فِي النِّعْمَةِ وإِسْنادُها إِلَيْهِ ، والغَيْبَةُ عَنِ الواسِطَةِ بالقَلْبِ مَعَ شُكْرِها بِاللِّسان : (مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ الله) ، (أَشْكَرُكُمْ للنَّاسِ أَشْكَرُكُمْ لله) .

فَإذا قالَ لَهُ : جَزاكَ اللهُ خَيْراً ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَها .

والشُّكْرُ بِالعَمَلِ صَرْفُها فِي طاعَةِ اللهِ كَما تَقَدَّمَ ، فَإنْ لَمْ يَقُمْ بِهَذا الواجِبِ ، خِيفَ عَلَيْهِ السَّلْبُ والاسْتِدْراجُ ، وهُوَ أَقْبَحُ .

والحاصِلُ : أَنَّ الشُّكْرَ هُوَ الأَدَبُ مَعَ المُنْعِمِ ، ومَنْ جاءَت عَلَى يَدَيْهِ ، فَإنْ أَساءَ الأَدَبَ أُدِّبَ ، وقَدْ يُؤَدَّبُ فِي الباطِنِ وهُوَ لا يَشْعُرُ ؛ كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(مِنْ جَهْلِ المُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ الأَدَبَ ، فَتُؤَخَّرَ العُقُوبَةُ عَنْهُ ، فَيَقُولَ : لَوْ كانَ هَذا سُوءَ أَدَبٍ لَقَطَعَ الأَمْدادَ وأَوْجَبَ البِعادَ ، فَقَدْ يُقْطَعُ المَدَدُ

مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ إلَّا مَنْعُ المَزِيد ، وقَدْ تُقامُ مَقامَ البُعْدِ وأَنْتَ لا تَدْرِي ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ إلَّا أَنْ يُخَلِّيَكَ وما تُرِيدُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مِنَ الأُمُورِ المُؤَكَّدَةِ عَلَى المُرِيدِ الصَّادِقِ أَنْ يُراعِيَ الأَدَبَ مَعَ اللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، ويَلْتَزِمَ التَّعْظِيمَ لِكُلِّ شَيْءٍ ، ويَحْفَظَ الحُرْمَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِنْ أَخَلَّ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ وأَساءَ الأَدَبَ مَعَ رَبِّهِ ، فَلْيُبادِرْ بِالتَّوْبَةِ والاعْتِذارِ مَعَ الذِّلَّةِ والانْكِسارِ ، فَإِنْ أَخَّرَ التَّوْبَةَ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ انْقَطَعَتْ عَنْهُ الأَمْداد ، واسْتَوْجَبَ الطَّرْدَ والبِعاد ، وقَدْ لا يَشْعُرُ بِذَلِكَ فِي الحِين ، فَيَحْتَجُّ لِنَفْسِهِ ويَقُولُ : لَوْ كانَ هَذا سُوءَ أَدَبٍ لانْقَطَعَ عَنِّي المَدَدُ ، وهَذا مِنْهُ جَهْلٌ قَبِيحٌ يُفْضِي إِلَى العَطَبِ إِنْ لَمْ تُدْرِكْهُ العِنايَةُ مِنْ رَبِّ الأَرْباب .

وإِنَّما كانَ هَذا جَهْلًا مِنَ المُرِيدِ لانْتِصارِهِ لِنَفْسِهِ وَقْتَ سُوءِ أَدَبِهِ وعَدَمِ شُعُورِهِ بِنُقْصانِ قَلْبِهِ ؛ إِذْ لَوْ كانَ عالِمًا بِمَخادِعِ النَّفْسِ لاتَّهَمَها وما انْتَصَرَ لَها ، ولَوْ كانَ عارِفًا بِرَبِّهِ لَشَعَرَ بِنُقْصانِ قَلْبِهِ ، فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ جَهالَةٍ وجَهْلٍ ؛ فالجَهالَةُ هِيَ سُوءُ الأَدَبِ الَّذي صَدَرَ مِنْهُ ، والجَهْلُ هُوَ مُخاصَمَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وإِنْكارُهُ أَنْ يَكُونَ ما صَدَرَ مِنْهُ سُوءَ أَدَبٍ ، وما احْتَجَّ بِهِ مِنْ كَوْنِهِ لَمْ يُحِسَّ بِالعُقُوبَة ، ولَوْ كانَ ذَلِكَ سُوءَ أَدَبٍ

لأَحَسَّ بِقَطْعِ الأَمْداد ، ولأَوْجَبَ الطَّرْدَ والبِعاد ، فَقَدْ يُقْطَعُ عَنْهُ المَدَدُ وهُوَ لا يَشْعُرُ .

ومِثالُ ذَلِكَ الأَشْجارُ الَّتي عَلَى الماء ، فَإذا قُطِعَ عَنْها الماءُ لا يَظْهَرُ أَثَرُ العَطَشِ عَلَيْها إلَّا بَعْدَ حِين ، فَإذا طالَ الأَمْرُ يَبِسَتْ شَيْئًا فَشَيْئًا ، كَذَلِكَ قَلْبُ المُرِيدِ قَدْ لا يُحِسُّ بِقَطْعِ المَدَدِ فِي القُرْبِ حَتَّى يَغْرَقَ فِي الوَهْمِ ، ويَحْتَرِقَ بِالحِسِّ ، فَإنْ كانَتْ لَهُ سابِقَةُ خَيْرٍ ، تابَ وأَصْلَحَ ما أَفْسَدَ ، فَيَرْجِعُ إلَيْهِ المَدَد ، وإنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ سابِقَةٌ رَجَعَ إلَى وَطَنِهِ وأَقامَ فِي بُعْدِهِ ، نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلامَةَ مِنْ سَلْبِ نِعْمَتِهِ بَعْدَ عَطائِهِ ؛ ولَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ العُقُوبَةِ إلَّا مَنْعُ المَزِيدِ مِنَ السَّيْرِ أَوْ التَّرَقِّي لَكانَ كافِيًا ؛ لأَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي زِيادَةٍ فَهُوَ فِي نُقْصان ، ومَنْ كانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ الخَسْران .

وقَوْلُهُ فِي الاحْتِجاجِ أَيْضًا : لَوْ كانَ هَذا سُوءَ أَدَبٍ لأَوْجَبَ البِعادَ ، فَقَدْ يُقامُ مَقامَ البُعْدِ وهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ فِي مَحَلِّ القُرْبِ ؛ لأَنَّ مَراتِبَ القُرْبِ والبُعْدِ لا نِهايَةَ لَها ، وما مِنْ مَقامٍ فِي القُرْبِ إلَّا وما بَعْدَهُ أَعْظَمُ مِنْهُ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ القُرْبُ بِالنِّسْبَةِ إلَى ما بَعْدَهُ بُعْداً ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ البُعْدُ إلَّا أَنْ يَتْرُكَكَ مَعَ ما تُرِيدُ ، لَكانَ كافِيًا فِي الطَّرْدِ والبُعْدِ ؛ إذْ

تَرْكُ العَبْدِ مَعَ هَواهُ وشَهَواتِهِ مِنْ عَلامَةِ الإهْمال ، وإخْراجُ العَبْدِ عَنْ هَواهُ وما تَرْكَنُ إلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْ عَلامَةِ الاعْتِناءِ والإقْبال ، فَإذا اعْتَنَى اللّٰهُ تَعالَى بِعَبْدٍ وأَرادَ أَنْ يُوصِلَهُ إلَى حَضْرَتِهِ شَوَّشَ عَلَيْهِ كُلَّ ما تَرْكَنُ إلَيْهِ نَفْسُهُ وأَزْعَجَهُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا حَتَّى يُؤَيِّسَهُ مِنْ هَذا العالَمِ ولَمْ يَبْقَ لَهُ رُكُونٌ إلَى شَيْءٍ مِنْهُ ، فَحِينَئِذٍ يَصْطَفِيهِ لِحَضْرَتِهِ ، ويَجْتَبِيهِ لِمَحَبَّتِهِ ، فَلَيْسَ لَهُ حِينَئِذٍ عَنْ نَفْسِهِ إخْبارٌ ، ولا مَعَ غَيْرِ اللّٰهِ قَرار .

وأَصْلُ ذَلِكَ قَضِيَّةُ سَيِّدِنا مُوسَى عليه السلام لَمَّا عَلِمَ اللّٰهُ تَعالَى مَحَبَّتَهُ لِعَصاهُ ورُكُونَهُ إلَيْها ، قالَ لَهُ الحَقُّ تَعالَى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ (١) أَيْ : حَوائِجُ أُخَرُ ﴿قَالَ﴾ (٢) لَهُ : ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ (٣) ، فَلَمَّا فَرَّ عَنْها ، وقَطَعَ يَأْسَهُ مِنْها ، ﴿قَالَ﴾ (٤) لَهُ : ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ (٥) ؛ لأَنَّها لا تَضُرُّكَ حَيْثُ رَجَعْتَ إلَيْها بِاللّٰه .

ويُقالُ للمُرِيد : وما تِلْكَ بِيَمِينِكَ أَيُّها المُرِيدُ ؟ فَيَقُول : هِيَ دُنْيايَ أَعْتَمِدُ عَلَيْها ، وأَقْضِي بِها مَآرِبِي ، فَيُقالُ لَهُ : أَلْقِها مِنْ يَدِكَ ،

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) سُورَةُ طه : الآيات ١٧-٢١.

فإذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ، كانَتْ تَلْدَغُهُ وهُوَ لا يَشْعُرُ ، فَإذا أَيِسَ مِنْها ، واسْتَأْنَسَ بِاللهِ واطْمأَنَّ بِهِ ، قِيلَ لَهُ : خُذْها ولا تَخَفْ ؛ لأَنَّكَ تَأْخُذُها بِاللهِ لا بِنَفْسِكَ .

دَقائِقُ آدابِ الأَحْباب

ومِنْ دَقائِقِ الآدابِ أَلَّا يَسْتَحْقِرَ مَقامًا أَقامَ الحَقُّ تَعالَى فِيهِ عَبْداً مِنْ عِبادِهِ ، كائِنًا ما كانَ ؛ كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ :

(إِذا رَأَيْتَ عَبْدًا أَقامَهُ اللهُ بِوُجُودِ الأَوْرادِ ، وأَدامَهُ عَلَيْها مَعَ طُولِ الإِمْدادِ ، فَلا تَسْتَحْقِرَنَّ ما مَنَحَهُ مَوْلاهُ ؛ لأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيما العارِفِينَ ، ولا بَهْجَةَ المُحِبِّينَ ، فَلَوْلا وارِدٌ ما كانَ وِرْدٌ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : ما ذَكَرَهُ الشَّيْخُ هُنا مِنْ مُؤَكِّداتِ صُحْبَةِ المُرِيدِ لأَدَقِّ الأَدابِ ، وهُوَ أَلَّا يَسْتَحْقِرَ شَيْئًا مِنْ تَجَلِّياتِ الحَقِّ عَلَى أَيِّ حالٍ كانَتْ ، فَلا يَنْبَغِي أَنْ يُنازِعَ مُقْتَدِرٌ ، ولا أَنْ يُضادَّ قَهَّارٌ ، ولا أَنْ يُعْتَرَضَ عَلَى حَكِيمٍ .

فَإذا رَأَيْتَ عَبْداً أَقامَهُ الحَقُّ تَعالَى بِوُجُودِ الأَوْرادِ ؛ كَكَثْرَةِ صَلاةٍ وصِيامٍ وذِكْرٍ وتِلاوَةٍ واجْتِهادٍ ، وأَدامَهُ عَلَيْها مَعَ طُولِ الإِمْدادِ ؛ أَي : اسْتِمْرارُهُ مَعَهُ ، وهُوَ تَقْوِيتُهُ فِي الباطِنِ ، وصَرْفُ الشَّواغِلِ والشَّواغِبِ

فِي الظَّاهِر ، لَكِنَّهُ لَمْ يُفْتَحْ عَلَيْهِ فِي عِلْمِ الأَذْواقِ وعَمَلِ القُلُوبِ ، فَلا تَسْتَحْقِرَنَّ حالَهُ وما مَنَحَهُ مَوْلاهُ لأَجْلِ أَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيما العارِفِينَ مِنَ السَّكِينَةِ والطُّمَأْنِينَةِ وراحَةِ الجَوارِحِ والقَلْبِ ، بِسَبَبِ هُبُوبِ نَسِيمِ الرِّضا والتَّسْلِيمِ عَلَى أَرْواحِهِمْ .

وقالَ الشَّيْخُ زَرُّوق (٨٩٩ هـ/١٤٩٣م) : ((سِيما العارِفِينَ ثَلاث :

أَوَّلُها : الإِعْراضُ عَمَّا سِوَى مَعْرُوفِهِمْ بِكُلِّ حالٍ ، وعَلَى كُلِّ وَجْهٍ .

الثَّانِي : الإِقْبالُ عَلَيْهِ بِتَرْكِ الحُظُوظِ وإِقامَةِ الحُقُوقِ .

الثَّالِثُ : الرِّضا عَنْهُ فِي مَجارِي أَقْدارِهِ)) .

ولا تَسْتَحْقِرْ حالَهُ أَيْضًا لأَجْلِ أَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ بَهْجَةَ المُحِبِّينَ ؛ وهِيَ الفَرَحُ بِمَحْبُوبِهِ ، والإِكْثارُ مِنْ ذِكْرِهِ ، والقِيامُ بِشُكْرِهِ ، والاغْتِباطُ بِمَحَبَّتِهِ ، والمُسارَعَةُ إِلَى مَحابِّهِ وطَلَبِ مَرْضاتِهِ ، والخُضُوعُ لِعَظَمَتِهِ ، والتَّذَلُّلُ لِقَهْرِهِ وعِزَّتِهِ :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ فَلَيْسَ الْهَوَىٰ سَهْلُ ❁ إِذَا رَضِيَ الْمَحْبُوبُ صَحَّ لَكَ الْوَصْلُ

تَـذَلَّلْ لَـهُ تَحْظَىٰ بِرُؤْيَـا جَـمَالِـهِ ❁ فَفِي وَجْهِ مَنْ تَهْوَىٰ الْفَرَائِضُ وَالنَّفْلُ

فَكَيْفَ تَسْتَحْقِرُ مَنْ دامَتْ خِدْمَتُهُ ، واتَّصَلَتْ أَوْرادُه ؟ فَلَوْلا وُجُودُ الوارِدِ الإِلَهِيِّ فِي باطِنِهِ ما قَدَرَ عَلَى إِدامَةِ أَوْرادِهِ ، ولَوْلا وارِدٌ ما كانَ

وِرْدٌ ؛ فالوارِدُ ما مِنْهُ إِلَيْكَ ، والوِرْدُ ما مِنْكَ إِلَيْهِ ؛ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ (١) ، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢) ، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (٣) ، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا۟﴾ (٤) .

فالعِنايَةُ سابِقَةٌ ، والهِدايَةُ لاحِقَةٌ ، والأَمْرُ كُلُّهُ بِيَدِهِ .

وفِي التَّحْقِيق : ما ثَمَّ إِلَّا سابِقَةُ التَّوْفِيق ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

قالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَن رضي الله عنه : ((أَكْرِم المُؤْمِنين وإِنْ كانُوا عُصاةً فاسِقِينَ ، وأَقِمْ عَلَيْهِمُ الحُدُودَ ، واهْجُرْهُمْ رَحْمَةً بِهِمْ لا تَقَذُّراً لَهُمْ)) .

وقالَ الشَّيْخُ زَرُّوق رضي الله عنه : ((فالمُنْتَسِبُ لِجانِبِ الحَقِّ يَتَعَيَّنُ إِكْرامُهُ مُراعاةً لِنِسْبَتِهِ ، ثُمَّ إِنْ كانَ كاذِبًا فالأَمْرُ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَن انْتَسَبَ إِلَيْهِ ، فَإِنْ أَمَرَنا بِإِقامَةِ حَقِّهِ عَلَيْهِ بِحَيْثُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ ، كُنَّا مَعَهُ كَعَبْدِ السَّيِّدِ يَضْرِبُ وَلَدَ سَيِّدِهِ بِإِذْنِهِ ، يُؤَدِّبُهُ ولا يَحْتَقِرُهُ)) .

ولأَبِي الحَسَنِ الحَرَّانِي - رَحِمَهُ اللهُ - :

ارْحَمْ بُنَيَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ كُلِّهِمِ ۞ وَانْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ اللُّطْفِ وَالشَّفَقَهْ
وَقِّرْ كَبِيرَهُمُ وَارْحَمْ صَغِيرَهُمُ ۞ وَرَاعِ فِي كُلِّ خَلْقٍ حَقَّ مَنْ خَلَقَهْ

---

(١) سُورَةُ النُّور : مِنَ الآيَة ٢١ .
(٢) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٨٣ .
(٣) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ٥٤ .
(٤) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ١١٨ .

حِصْنُ السَّعادَةِ الحَصِين

فِي

صُحْبَةِ ورِفادَةِ الصَّالِحِين

الجُزْءُ الثَّانِي

د. سَعِيد أبو الأسْعَاد

كَنَفُ أَهْلِ اللهِ ، مَبْدَأُ الأَمْرِ ومُنْتَهاه

زِيارَةُ أَرْبابِ التُّقَىٰ مَرْهَمٌ يُبْرِي ۞ وَمِفْتاحُ أَبْوابِ الْهِدايَةِ وَالْخَيْرِ

وَتُحْدِثُ فِي صَدْرِ الْخَلِّي إِرادَةً ۞ وتَشْرَحُ صَدْراً ضاقَ مِنْ سَعَةِ الْوِزْرِ

وَتَنْصُرُ مَظْلُوماً وترْفَعُ خَامِلاً ۞ وَتُكْسِبُ مَعْدُوماً وَتَجْبُرُ ذَا كَسْرِ

فَكَمْ خَلَّصَتْ مِنْ لُجَّةِ الإِثْمِ فَاتِكًا ۞ فَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ الإِنابَةِ وَالْبِرِّ

وَتَبْسِطُ مَقْبُوضاً وتُضْحِكُ باكِيًا ۞ وتَرْفِدُ بِالْبَذْلِ الْكَثِيرِ وَبِالأَجْرِ

وَكَمْ مِنْ بَعِيدٍ قَرَّبَتْهُ بِجَذْبَةٍ ۞ فَفَاجَأَهُ الْفَتْحُ الْمُبِينُ مِنَ الْبِرِّ

وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ أَظْفَرَتْهُ بِمُرْشِدٍ ۞ حَكِيمٍ بَصِيرٍ بِالْبَلاءِ وَمَا يُبْرِي

فَأَلْقَىٰ عَلَيْهِ حُلَّةً يَمَنِيَّةً ۞ مُطَرَّزَةً بِالْفَتْحِ وَالْيُمْنِ وَالنَّصْرِ

وَلا فَرْقَ فِي أَحْكَامِها بَيْنَ سَالِكٍ ۞ مُرَبٍّ وَمَجْذُوبٍ وَحَيٍّ وَذِي قَبْرِ

وذِي الزُّهْدِ والعُبَّادِ فَالكُلُّ مُنْعَمٌ ۞ عَلَيْهِ ولَكِنْ لَيْسَتِ الشَّمْسُ كالْبَدْرِ

فَزُرْ وَتَأَدَّبْ بَعْدَ تَصْحِيحِ نِيَّةٍ ۞ تَأَدُّبَ مَمْلُوكٍ مَعَ الْمَلِكِ الْحُرِّ

عَلَيْكَ بِهَا فَالْقَوْمُ بَاحُوا بِسِرِّها ۞ ووَصَّوْا بِها يا صَاحِ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ

المَخْصُوصُونَ بِالعِنايَة

ثُمَّ إِنَّ الإِقامَةَ عَلَى دَوام الأَوْرادِ وهِيَ خِدْمَةُ الجَوارِحِ مِنْ شَأْنِ أَهْلِ الخِدْمَةِ وهُمُ العُبَّادُ والزُّهَّادُ ، والانْتِقالُ مِنْها إِلَى عِمارَةِ القُلُوبِ مِنْ شَأْنِ أَهْلِ المَحَبَّةِ والمَعْرِفَةِ وهُمُ العارِفُونَ ، وكُلُّهُمْ عِبادُ اللهِ ومِنْ أَهْلِ عِنايَتِهِ ، فَلا يَسْتَحْقِرُهُمْ إِلَّا جاهِلٌ أَوْ مَطْرُودٌ ، كَما بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(**قَوْمٌ أَقامَهُمُ الحَقُّ لِخِدْمَتِهِ ، وقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ** ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : العِبادُ المَخْصُوصُونَ بِالعِنايَةِ عَلَى قِسْمَيْنِ : **قِسْمٌ** وَجَّهَهُمُ الحَقُّ لِخِدْمَتِهِ ، وأَقامَهُمْ فِيها ، وهُمْ أَنْواع :

فَمِنْهُمْ : مَنِ انْقَطَعَ فِي الفَيافِي والقِفارِ لِقِيامِ اللَّيْلِ وصِيامِ النَّهارِ ، وهُمُ العُبَّادُ والزُّهَّاد .

ومِنْهُمْ : مَنْ وَجَّهَهُ الحَقُّ لإِقامَةِ الدِّينِ وحِفْظِ شَرائِعِ المُسْلِمِينَ ، وهُمُ العُلَماءُ والصُّلَحاء .

ومِنْهُمْ : مَنْ أَقامَهُ الحَقُّ لِنُصْرَةِ الدِّينِ وإِعْلاءِ كَلِماتِهِ ، وهُمُ المُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ رَبِّ العالَمِين .

ومِنْهُمْ : مَنْ أَقامَهُ الحَقُّ لِتَمْهِيدِ البِلادِ وتَسْكِينِ العِبادِ ، وهُمُ الأُمَراءُ والسَّلاطِين .

وقِسْمٌ أَقامَهُمُ الحَقُّ لِمَحَبَّتِهِ واخْتَصَّهُمْ بِمَعْرِفَتِهِ ، وهُمُ العارِفُونَ الكامِلُونَ ، سَلَكُوا سَواءَ الطَّرِيق ، ووَصَلُوا إِلَى عَيْنِ التَّحْقِيق .

وبَيْنَهُما فَرْقٌ كَبِير ؛ لأَنَّ أَهْلَ الخِدْمَةِ طالِبُونَ الأُجُور ، وأَهْلَ المَحَبَّةِ رُفِعَتْ عَنْهُمُ السُّتُور ، أَهْلُ الخِدْمَةِ يَأْخُذُونَ أُجُورَهُمْ وَراءَ الباب ، وأَهْلُ المَحَبَّةِ فِي مُناجاةِ الأَحْباب ، أَهْلُ الخِدْمَةِ مُسْدَلٌ بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُ الحِجاب ، وأَهْلُ المَحَبَّةِ مَرْفُوعٌ بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُ الحِجاب ، أَهْلُ الخِدْمَةِ مِنْ أَهْلِ الدَّلِيلِ والبُرْهان ، وأَهْلُ المَحَبَّةِ مِنْ أَهْلِ الشُّهُودِ والعِيان ، أَهْلُ الخِدْمَةِ لا تَنْفَكُّ عَنْهُمُ الحُظُوظ ، وأَهْلُ المَحَبَّةِ تَنْصَبُّ عَلَيْهِمُ الحُظُوظ ، أَهْلُ الخِدْمَةِ مَحَبَّتُهُمْ مَقْسُومَة ، وأَهْلُ المَحَبَّةِ مَحَبَّتُهُمْ مَجْمُوعَة ؛ فَلِذَلِكَ دامَ أَهْلُ الخِدْمَةِ فِي خِدْمَتِهِمْ ، ونَفَذَ المُحِبُّونَ إِلَى شُهُودِ مَحْبُوبِهِمْ ، فَلَوْ تَرَكُوا الحُظُوظَ وحَصَرُوا مَحَبَّتَهُمْ فِي مَحْبُوبٍ واحِدٍ لَنَفَذُوا إِلَى مَحْبُوبِهِمْ وشَهِدُوهُ بِبَصَرِ إِيقانِهِمْ واسْتَرَاحُوا مِنْ تَعَبِ خِدْمَتِهِمْ ، ولَكِنَّ حِكْمَةَ الحَكِيمِ أَقامَتْهُمْ فِي خِدْمَتِهِمْ ، فَوَجَبَ تَعْظِيمُهُمْ فِي الجُمْلَة ، ولا يَلْزَمُ مِنْهُ عَدَمُ تَفْضِيلِ أَهْلِ المَعْرِفَةِ والمَحَبَّةِ عَلَيْهِمْ .

انْظُرْ كَيْفَ قالَ تعالَى بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (١).

فَدَلَّ عَلَى تَفْضِيلِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْض ، لَكِنَّ عَبِيدَ المَلِكِ كُلَّهُمْ مُعَظَّمُونَ فِي الجُمْلَة ، ولا يُحِبُّ المَلِكُ أَنْ نَحْقِرَ لَهُ عَبْداً مِنْ عِبادِهِ ، وإِنْ كانُوا مُتَفاوِتِينَ عِنْدَهُ .

الوارِداتُ لا تَحْتاجُ إِلَى اسْتِعْداد

وإِذا أَرادَ اللّهُ أَنْ يَصْطَفِيَ عَبْداً لِحَمْلِ مَعْرِفَتِهِ ، ويَنْقُلَهُ مِنْ تَعَبِ خِدْمَتِهِ ، قَوَّى عَلَيْهِ الوارِداتِ الإِلَهِيَّة ، فَجَذَبَتْهُ إِلَى الحَضْرَةِ الرَّبَّانِيَّة ، وهِيَ مَواهِبُ لا مَكاسِبُ ، لا تُنالُ بِأَعْمالٍ ولا بِحِيَلٍ ، وقَلَّ أَنْ تَأْتِيَ إِلَّا بَغْتَةً ؛ كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(قَلَّمَا تَأْتِي الوارِداتُ الإِلَهِيَّةُ إِلَّا بَغْتَةً ؛ صِيانَةً لَها ، لِئَلَّا يَدَّعِيها العُبَّادُ بِوُجُودِ الاسْتِعْداد) :

قالَ القُشَيْرِي : الوارِدُ هُوَ ما يَرِدُ عَلَى القُلُوبِ مِنَ الخَواطِرِ المَحْمُودَةِ مِمَّا لا يَكُونُ للعَبْدِ فِيهِ تَحَمُّلٌ ، والوارِداتُ أَعَمُّ مِنَ الخَواطِر ، لأَنَّ الخَواطِرَ تَخْتَصُّ بِنَوْعِ خِطابٍ أَوْ ما تَضَمَّنَ مَعْناه ، والوارِداتُ تَكُونُ وارِدَ سُرُورٍ ، ووارِدَ حُزْنٍ ، ووارِدَ قَبْضٍ ، ووارِدَ بَسْطٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : الآيَة ٢١ .

مِنَ المَعانِي ، وهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الحال .

وسُئِلَ الشَّيْخُ عَبْدُ القادِر الجَيْلانِي - نَفَعَنا اللّهُ بِذِكْرِهِ - عَنْ صِفاتِ الوارِداتِ الإِلَهِيَّةِ والطَّوارِقِ الشَّيْطانِيَّةِ ، فَقالَ : ((الوارِدُ الإِلَهِيُّ لا يَأْتِي عَلَى نَمَطٍ واحِدٍ ، ولا فِي وَقْتٍ واحِدٍ ، والطَّوارِقُ الشَّيْطانِيَّةُ بِخِلافِ ذَلِكَ غالِبًا)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : والمُرادُ بِهِ هُنا نَوْعٌ خاص ، وهُوَ نَفَحاتٌ إِلَهِيَّةٌ يَهُبُّ نَسِيمُها عَلَى القُلُوبِ والأَرْواحِ والأَسْرار ، فَتَغِيبُ القُلُوبُ فِي حَضْرَةِ عَلَّامِ الغُيُوب ، وتَغِيبُ الأَرْواحُ فِي جَبَرُوتِ العَزِيزِ الجَبَّار ، فَتَطِيشُ فَرَحًا وسُرُورًا ، وتَرْقُصُ شَوْقًا وحُبُورًا :

إِذا اهْتَزَّتِ الْأَرْواحُ شَوْقًا إِلَى اللِّقَا

تَرَقَّصَتِ الْأَشْباحُ يَا جاهِلَ الْمَعْنَى

قَلَّما تَكُونُ هَذِهِ الوارِداتُ الإِلَهِيَّةُ إِلَّا بَغْتَةً ؛ لأَنَّها لا تُنالُ باكْتِساب ، وإِنَّما هِيَ فَتْحٌ مِنَ الكَرِيمِ الوَهَّاب ، ولَوْ كانَتْ تُنالُ بِجِدٍّ واجْتِهاد ، لادَّعاها العُبَّادُ والزُّهَّاد ، بِوُجُودِ التَّأَهُّبِ والاسْتِعْداد ، فَتَصِيرُ حِينَئِذٍ مَكاسِب ، والأَحْوالُ والوارِداتُ إِنَّما هِيَ مَواهِب : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٠٥ .

قالَ : ((والحِكْمَةُ فِي إتْيانِها بَغْتَةً ثَلاثَةُ أُمُورٍ :

أَحَدُها : لِتُعْرَفَ مِنَّةُ اللهِ فِيها .

الثَّانِي : لِيُقْدَرَ قَدْرُها ، ويَعْظُمَ الفَرَحُ بِها .

الثَّالِثُ : الغَيْرَةُ عَلَيْها وتَعْزِيزُها ؛ لأَنَّ ما كانَ مِنَ العَزِيزِ لا يَكُونُ إِلَّا عَزِيزًا)) .

الوارِداتُ والخَواطِر

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الوارِداتِ الإِلَهِيَّةَ والمَواهِبَ الاخْتِصاصِيَّةَ أَسْرارٌ مِنَ الحَكِيمِ الغَفَّار ، لا يَمْنَحُها إِلَّا لأَهْلِ الصِّيانَةِ والأَمانَة ، لا لأَهْلِ الإِفْشاءِ والخِيانَة ، كَما أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيبًا عَنْ كُلِّ ما سُئِلَ ، ومُعَبِّراً عَنْ كُلِّ ما شَهِدَ ، وذاكِراً لِكُلِّ ما عَلِمَ ، فاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ جَهْلِهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : أَمَّا وَجْهُ جَهْلِهِ فِي كَوْنِهِ مُجِيبًا عَنْ كُلِّ ما سُئِلَ ، فَلِما يَقْتَضِيهِ حالُهُ مِنَ الإِحاطَةِ بِالعُلُومِ ، وقَدْ قالَ تَعالَى : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [1] .

فَأَيُّ جَهْلٍ أَعْظَمُ مِمَّنْ يُعارِضُ كَلامَ اللهِ ، ولِما فِيهِ أَيْضًا مِنَ التَّكَلُّفِ ،

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٨٥ .

وقَدْ قالَ تعالَى : ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾

وقالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : (أنا وأَتْقِياءُ أُمَّتِي بُرَآءُ مِنَ التَّكَلُّف) .

ولا يَخْلُو صاحِبُ التَّكَلُّفِ مِنَ التَّصَنُّعِ والتَّزَيُّنِ وهُوَ مِنْ شَأْنِ الجَهْلِ باللّه ؛ إِذْ لَوْ كانَ عالِمًا بِهِ ، لاكْتَفَى بِعِلْمِهِ وعَرَفَ قَدْرَهُ ؛ فَفِي بَعْضِ الأَخْبارِ : ((عاشَ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ)) .

وسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنِ العِلْمِ النَّافِعِ ، فَقالَ : أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ ، ولا تَتَعَدَّى طَوْرَكَ .

وقالَ فِي ((الإِحْياءِ)) : كانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يُسْأَلُ أَحَدُهُمْ عَنِ المَسْأَلَةِ الواحِدَةِ ، فَيَدْفَعُ السَّائِلَ إِلَى غَيْرِهِ ، ثُمَّ يَدْفَعُهُ الثَّانِي إِلَى آخَرَ ، ثُمَّ كَذَلِكَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الأَوَّل .

وكانَ بَعْضُهُمْ إِذا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ يَقُولُ للسَّائِل : اذْهَبْ بِها إِلَى القاضِي فَقَلِّدْها فِي عُنُقِهِ .

وقَدْ سُئِلَ الإِمامُ مالِكٌ رضي الله عنه عَنِ اثْنَتَيْنِ وثَلاثِينَ مَسْأَلَةً ، فَأَجابَ عَنْ ثَلاثٍ ، وقالَ فِي الباقِي : لا أَدْرِي ، فَقالَ لَهُ السَّائِلُ : وما نَقُولُ للنَّاس ؟ فَقالَ : قُلْ لَهُمْ : قالَ مالِكٌ : لا أَدْرِي .

وأَيْضًا إِجابَةُ كُلِّ سائِلٍ جَهْلٌ وضَرَرٌ ؛ إِذْ قَدْ يَكُونُ السَّائِلُ مُتَعَنِّتًا لا

يَسْتَحِقُّ جَوابًا ، وقَدْ تَكُونُ المَسْأَلَةُ الَّتِي سَأَلَ عَنْها لا تَلِيقُ بِهِ ؛ لأَنَّهُ لا يَفْهَمُها ، ولا يُطِيقُ مَعْرِفَتَها ، فَتُوقِعُهُ فِي الحَيْرَةِ أَوِ الإِنْكار ، وقَدْ قالَ ﷺ : (لا تُؤْتُوا الحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِها فَتَظْلِمُوها ، ولا تَمْنَعُوها أَهْلَها فَتَظْلِمُوهُمْ) .

ورَحِمَ اللّٰهُ القائِلَ :

سَأَكْتُمُ عِلْمِي عَنْ ذَوِي الْجَهْلِ طَاقَتِي ❁ وَلا أَنْثُرُ الدُّرَّ النَّفِيسَ عَلَى الْبَهَمْ
فَإِنْ قَدَّرَ اللّٰهُ الْكَرِيمُ بِلُطْفِهِ ❁ وَلاقَيْتُ أَهْلًا لِلْعُلُومِ وَلِلْحِكَمْ
بَذَلْتُ عُلُومِي وَاسْتَفَدْتُ عُلُومَهُمْ ❁ وَإِلَّا فَمَخْزُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ
فَمَنْ مَنَحَ الْجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ ❁ وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

وقالَ الإِمامُ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللّٰهُ وَجْهَهُ - و رضي الله عنه :

حَدِّثِ النَّاسَ بِقَدْرِ ما يَفْهَمُونَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللّٰهُ ورَسُولُه ؟

وقَدْ قِيلَ للجُنَيْدِ : يَسْأَلُكَ الرَّجُلانِ فَتُجِيبُ هَذا بِخِلافِ ما تُجِيبُ بِهِ هَذا ؟ فَقالَ : الجَوابُ عَلَى قَدْرِ السَّائِلِ ؛ قالَ ﷺ : (أُمِرْنا أَنْ نُخاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ) .

وقالَ رَجُلٌ لِبَعْضِ العُلَماءِ وقَدْ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ : أَما عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ قالَ : (مَنْ كَتَمَ عِلْمًا نافِعًا أُلْجِمَ يَوْمَ القِيامَةِ بِلِجامٍ مِنَ

النَّار) ؟ فَقالَ لَهُ العالِمُ : اتْرُكِ اللِّجامَ واذْهَبْ ، فَإذا جاءَ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ ، وكَتَمْتُهُ ، فَلْيُلْجِمْنِي بِهِ .

وأَمَّا وَجْهُ جَهْلِهِ فِي كَوْنِهِ مُعَبِّراً عَنْ كُلِّ ما شَهِدَ مِنَ الكَراماتِ ، وما وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ المَقاماتِ ، وما ذاقَهُ مِنَ الأَنْوارِ والأَسْرارِ ؛ فَلِأَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ أَذْواقٌ باطِنِيَّةٌ ، وأَسْرارٌ رَبَّانِيَّةٌ لا يَفْهَمُها إِلَّا أَرْبابُها ، فَذِكْرُها لِمَنْ لا يَفْهَمُها ولا يَذُوقُها جَهْلٌ بِقَدْرِها .

وأَيْضًا هِيَ أَماناتٌ وسِرٌّ مِنْ أَسْرارِ المَلِك ، وسِرُّ المَلِكِ لا يَحِلُّ إِفْشاؤُهُ ، فَمَنْ أَفْشاهُ كانَ خائِنًا ، واسْتَحَقَّ الطَّرْدَ والعُقُوبَة ، ولا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا بَعْدَ ذَلِكَ ، فَكَتْمُ الأَسْرارِ مِنْ شَأْنِ الأَخْيارِ ، وهَتْكُ الأَسْرارِ مِنْ شَأْنِ الأَشْرارِ ، وقَدْ قالُوا : قُلُوبُ الأَحْرار قُبُورُ الأَسْرار .

وقالَ الشَّاعِر :

لا يَكْتُمُ السِّرَّ إِلَّا كُلُّ ذِي ثِقَةٍ ❁ فَالسِّرُّ عِنْدَ خِيارِ النَّاسِ مَكْتُومُ

وفِي إِفْشائِها قِلَّةُ عَمَلِها ونَفْعِها فِي الباطِن ، فَفائِدَةُ هَذِهِ الأَحْوالِ والوارِداتِ الإِلَهِيَّةِ هِيَ مَحْوُ الحِسِّ ، وإِظْهارُ المَعْنَى ، أَوْ مَحْوُ الشَّكِّ وتَقْوِيَةُ اليَقِين ، فَإِذا أَفْشاها ضَعُفَ إِعْمالُها وقَلَّتْ نَتِيجَتُها ، والخَيْرُ كُلُّهُ فِي الكِتْمان .

فِي الحَدِيث : (اسْتَعِينُوا عَلَى قَضاءِ حَوائِجِكُمْ بِكِتْمانِها) ، أَوْ كَما قالَ ﷺ .

ويَنْخَرِطُ فِي سِلْكِ الأَحْوالِ الَّتي يَجِبُ كِتْمانُها خَرْقُ عَوائِدِ النُّفُوس ، فَمَنْ خَرَقَ عادَةً فِي نَفْسِهِ ، فَلا يُفْشِ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ دَسِيسَةً لَها ؛ لأَنَّها تُحِبُّ أَنْ تُذْكَرَ بِالقُوَّةِ والنَّجْدَة ، فَيَكُونُ كُلُّ ما قَتَلَ مِنْها أَحْياهُ فِي ساعَتِه .

وفِيهِ أَيْضًا نَقْصُ الإِخْلاصِ وإِدْخالُ الرِّياءِ ، وهُوَ سَبَبُ الهَلاكِ - والعِياذُ بِاللّه - .

وأَمَّا وَجْهُ جَهْلِهِ فِي كَوْنِهِ ذاكِرًا لِكُلِّ ما عَلِمَ مِنَ الحَقائِقِ والعُلُوم والمَعارِف ، فَلِأَنَّهُ جَهِلَ قَدْرَها واسْتَخَفَّ شَأْنَها ، فَلَوْ كانَتْ عِنْدَهُ عَزِيزَةً ما أَفْشاها لِغَيْرِهِ ؛ إِذْ صاحِبُ الكَنْزِ لا يَبُوحُ بِهِ ، وإِلَّا سُلِبَهُ مِنْ ساعَتِهِ .

وإِذا كانَ اللّهُ تَعالَى يَقُولُ : ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ (١) ، فَكَيْفَ بِالعِلْمِ الَّذي هُوَ لُؤْلُؤٌ مَكْنُون ؟

قالَ الحَبِيبُ الأَعْظَم ﷺ : (إِنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لا يَعْرِفُهُ إِلَّا العُلَماءُ بِاللّه ، فَإِذا أَظْهَرُوهُ ، أَنْكَرَهُ أَهْلُ الغِرَّةِ بِاللّه) .

---

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٥ .

وقالَ سَيِّدُنا أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : ((حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ جِرابَيْنِ مِنْ عِلْمٍ : أَمَّا أَحَدُهُما فَبَثَثْتُهُ فِي النَّاس ، وأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ لَقُطِعَ مِنِّي هَذا البُلْعُوم)) .

ولِلّهِ دَرُّ زَيْنِ العابِدِينَ سَيِّدِنا عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهم حَيْثُ يَقُولُ :

يَا رُبَّ جَوْهَرِ عِلْمٍ لَوْ أَبُوحُ بِهِ ❁ لَقِيلَ لِي أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْوَثَنَا

وَلاسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُونَ دَمِي ❁ يَرَوْنَ أَقْبَحَ مَا يَأْتُونَهُ حَسَنَا

إِنِّي لأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِي جَواهِرَهُ ❁ كَيْلا يَرَى الحَقَّ ذُو جَهْلٍ فَيُفْتَتَنَا

وقالَ الرُّوزباري : عِلْمُنا هَذا إِشارَة ، فَإِذا صارَ عِبارَةً ، خَفِيَ .

وقالَ الإِمامُ الغَزالِي : قَدْ تَضُرُّ الحَقائِقُ بِأَقْوامٍ كَما يَتَضَرَّرُ الجُعَلُ بِالوَرْدِ والمِسْك .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ يُرَخَّصُ للعارِفِ الماهِرِ إِلْقاءُ الحَقائِقِ مَعَ مَنْ لا يَعْرِفُها ؛ بِعِبارَةٍ رَقِيقَةٍ وإِشارَةٍ لَطِيفَةٍ وغَزْلٍ رَقِيقٍ بِحَيْثُ لا يَأْخُذُ السَّامِعُ مِنْها شَيْئًا ؛ فَقَدْ كانَ الجُنَيْدُ رضي الله عنه يُلْقِي الحَقائِقَ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهاد ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقالَ : جانِبُ العِلْمِ أَحْمَى مِنْ أَنْ يَأْخُذَهُ غَيْرُ أَهْلِهِ ، أَوْ : عِلْمُنا مَحْفُوظٌ مِنْ أَنْ يَأْخُذَهُ غَيْرُ أَهْلِه .

ثُمَّ إِنَّ الإِجابَةَ عَنْ كُلِّ ما سُئِلَ ، والتَّعْبِيرَ عَنْ كُلِّ ما شَهِدَ ، وذِكْرَ كُلِّ ما عَلِمَ يُوجِبُ إِقْبالَ الخَلْقِ عَلَيْهِمْ ، وتَعْظِيمَهُمْ وإِكْرامَهُمْ فِي هَذِهِ

الدَّار ؛ لأَنَّ مَنْ ظَهَرَتْ مَزِيَّتُهُ وَجَبَتْ خِدْمَتُهُ ، ومِنْ شَأْنِ العامَّةِ تَعْظِيمُ صاحِبِ الكَرامَة ، فَيَجْنِي ثَمَرَةَ عِلْمِهِ وعَمَلِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ الفانِيَةِ ، وتَفُوتُهُ دَرَجاتُ الصِّدِّيقِينَ فِي تِلْكَ الدَّارِ الباقِيَةِ ، فَأَمَرَهُ بِكَتْمِها ، ويَقْنَعُ بِعِلْمِ اللّه ، ويَدَّخِرُ الجَزاءَ عَلَيْها لِيَوْمِ لِقاءِ اللّه ، وعَلَى ذَلِكَ نَبَّهَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ فِي حِكْمَتِهِ :

(إِنَّما جَعَلَ الدَّارَ الآخِرَةَ مَحَلًّا لِجَزاءِ عِبادِهِ المُؤْمِنِينَ ؛ لأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ لا تَسَعُ ما يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ ، ولأَنَّهُ أَجَلَّ أَقْدارَهُمْ عَنْ أَنْ يُجازِيَهُمْ فِي دارٍ لا بَقاءَ لَها) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لا شَكَّ أَنَّ اللّهَ تَعالَى وَسَمَ هَذِهِ الدَّارَ بِدارِ الغُرُور ، وحَكَمَ عَلَيْها بِالهَلاكِ والثُّبُور ، فَهِيَ دارٌ دَنِيَّةٌ دانِيَة ، زائِلَةٌ فانِيَة ؛ فَلِذَلِكَ سُمِّيَتِ الدُّنْيا ، إِمَّا لِدُنُوِّها ، وإِمَّا لِدَناءَتِها ، فَهِيَ ضَيِّقَةُ الزَّمانِ والمَكان ، ووَسَمَ الآخِرَةَ بِدارِ القَرار ، ومَحَلِّ ظُهُورِ الأَنْوار ، وانْكِشافِ الأَسْرار ، مَحَلِّ النَّظْرَةِ والحُبُور ، ودَوامِ النِّعْمَةِ والسُّرور ، مَحَلِّ شُهُودِ الأَحْباب ، ودَفْعِ الحِجاب ، نَعِيمُها دائِم ، ووُجُودُها عَلَى الدَّوام قائِم ، فَلِذَلِكَ جَعَلَها الحَقُّ تَعالَى مَحَلًّا لِجَزاءِ عِبادِهِ المُؤْمِنِينَ ، ومَقْعَدَ صِدْقٍ لِلنَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ ، ولَمْ يَرْضَ سُبْحانَهُ أَنْ يُجازِيَهُمْ فِي دارٍ لا بَقاءَ

لَها ، ضَيِّقَةِ الزَّمانِ والمَكانِ ، ومَحَلِّ الأَكْدارِ والذُّلِّ والهَوانِ ؛ لأَنَّها ضَيِّقَةٌ لا تَسَعُ ما يُرِيدُ أَنْ يُكْرِمَهُمْ بِهِ تَعالَى زَمانًا ولا مَكانًا ، لأَنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَمْلِكُ قَدْرَ الدُّنْيا عَشْرَ مَرَّاتٍ ، فَكَيْفَ بِأَعْلاهُمْ ؟!

قالَ تَعالَى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (١) .

وقالَ ﷺ : (يَقُولُ اللهُ - تَبارَكَ وتَعالَى - : أَعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ) .

دَلِيلُ قَبُولِ الأَعْمال

ثُمَّ إِنَّ الجَزاءَ فِي تِلْكَ الدَّارِ إِنَّما يَكُونُ عَلَى العَمَلِ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِشَرْطِ كَوْنِهِ مَقْبُولًا ، وقَبُولُهُ مُغَيَّبٌ ، لَكِنْ لَهُ عَلاماتٌ يُعْرَفُ بِها هُنا ؛ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَيْها بِقَوْلِهِ :

(مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عاجِلًا ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ القَبُولِ آجِلًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : ثَمَرَةُ العَمَلِ هِيَ لَذِيذُ الطَّاعَةِ ، وحَلاوَةُ المُناجاةِ ، وأُنْسُ القَلْبِ بِالمُراقَبَةِ ، وفَرَحُ الرُّوحِ بِالمُشاهَدَةِ ، والسِّرِّ بِالمُكالَمَةِ : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ (٢) .

---

(١) سُورَةُ السَّجْدَة : الآيَة ١٧ .

(٢) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٦٠ .

ودَلِيلُ وُجُودِ هَذِهِ الثَّمَرَةِ النَّشاطُ فِي النُّهُوضِ إِلَيْها ، والاغْتِباطُ بِها ، والمُداوَمَةُ عَلَيْها ، وزِيادَةُ المَدَدِ فِيها ، وهِيَ عَلامَةُ حُلُولِ الهِدايَةِ فِي القَلْبِ ، قالَ تَعالَى : ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ (١) .

وللبُوصِيري فِي هَمْزِيَّتِهِ :

وإِذَا حَلَّتِ الْهِدَايَةُ قَلْبًا ❁ نَشِطَتْ لِلْعِبَادَةِ الْأَعْضَاءُ

فَمَنْ رَأَيْناهُ فِي زِيادَةِ الأَعْمال ، والتَّرَقِّي فِي الأَحْوال ، عَلِمْنا أَنَّهُ وَجَدَ لِعَمَلِهِ ثَمَرَةً ، فَهِيَ بِشارَةٌ لَهُ عَلَى قَبُولِها ، ومَنْ رَأَيْناهُ انْقَطَعَ عَنْ عَمَلِهِ ، أَوْ نَقَصَ مِنْ أَحْوالِهِ ، خِفْنا عَلَيْهِ عَدَمَ قَبُولِ أَعْمالِهِ .

ومِنْ ثَمَرَةِ العَمَلِ أَيْضًا الاسْتِيحاشُ مِنَ الخَلْقِ ، والأُنْسُ بِالمَلِكِ الحَقِّ .

ومِنْ ثَمَرَةِ العَمَلِ أَيْضًا الاكْتِفاءُ بِعِلْمِ اللهِ ، والاسْتِغْناءُ بِهِ عَمَّا سِواه .

زادَ الشَّيْخُ زَرُّوق : ((الحَياةُ الطَّيِّبَة ، ونُفُوذُ الكَلِمَة ، وانْتِفاءُ الحُزْنِ للفَرَحِ بِالمِنَّة)) .

فَدَلِيلُ الأَوَّل : قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (٢) ؛ قِيلَ : هِيَ القَناعَةُ : وقِيلَ : هِيَ الرِّضا والتَّسْلِيمُ ، والتَّحْقِيقُ : أَنَّها المَعْرِفَة .

---

(١) سُورَةُ مَرْيَم : مِنَ الآيَة ٧٦ .

(٢) سُورَةُ النَّحْل : مِنَ الآيَة ٩٧ .

ودَلِيلُ الثَّانِي ، وهُوَ نُفُوذُ الكَلِمَة : قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (١) ، فَنُفُوذُ الكَلِمَةِ هِيَ الخِلافَة .

وقالَ أَيْضًا : ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (٢) .

وأَمَّا الثَّالِثُ : وهُوَ انْتِفاءُ الحُزْنِ ، فَدَلِيلُهُ فِي نَفْسِهِ ؛ لأَنَّ حَلاوَةَ العَمَلِ تُنْسِي الحُزْنَ والغَمَّ ، لأَنَّها شَبِيهَةٌ بِنِعَمِ الجَنَّة ، قالَ تَعالَى فِي شَأْنِ أَهْلِ الجَنَّة : ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ (٣) .

كَيْفَ تَعْرِفُ قَدْرَكَ ؟

ولَمَّا ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ مِيزانَ مَقادِيرِ الأَعْمال ، ذَكَرَ مِيزانَ مَقادِيرِ الرِّجال .

أَوْ تَقُولُ : لَمَّا ذَكَرَ مِيزانَ العَمَلِ المَقْبُولِ مِنَ المَرْدُودِ ، ذَكَرَ مِيزانَ العامِلِ المَحْبُوبِ مِنَ المَطْرُودِ ، فَقالَ رضي الله عنه :

(إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ ، فانْظُرْ فِي ماذا يُقِيمُكَ ؟) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : جَعَلَ اللهُ تَعالَى بِحِكْمَتِهِ خَلْقَهُ عَلَى قِسْمَيْنِ : أَشْقِياءَ

---

(١) سُورَةُ النُّور : مِنَ الآيَة ٥٥ .
(٢) سُورَةُ الأَنْبِياء : مِنَ الآيَة ٧٣ .
(٣) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ٣٤ .

وسُعَداءَ ، وجَعَلَ السُّعَداءَ قِسْمَيْنِ : أَهْلَ قُرْبٍ وأَهْلَ بُعْدٍ .

أَوْ تَقُولُ : أَهْلَ يَمِين ، ومُقَرَّبين ، وهُمُ السَّابِقُون ؛ فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الشَّقاوَةِ ، أَوْ مِنْ أَهْلِ السَّعادَة ؟ فانْظُرْ فِي قَلْبِكَ ، فَإِنْ كُنْتَ تُصَدِّقُ بِوُجُودِ رَبِّكَ ، وتُوَحِّدُهُ فِي مُلْكِهِ ، وتَنْقادُ لِمَنْ عَرَّفَكَ بِهِ ، وهُوَ رَسُولُهُ ﷺ ، فَأَنْتَ مِمَّنْ سَبَقَتْ لَهُ الحُسْنَى ، وإِنْ كُنْتَ تُنْكِرُ ، أَوْ تَشُكُّ فِي رَبِّكَ ، أَوْ تُشْرِكُ بِهِ غَيْرَهُ فِي اعْتِقادِكَ ، أَوْ لَمْ تُذْعِنْ لِمَنْ عَرَّفَكَ بِهِ ، فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ الشَّقاء (والعِياذُ بِاللّه) .

ثُمَّ إِنْ وَجَدْتَ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ السَّعادَة ، وأَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ هَلْ أَنْتَ مِنْ أَهْلِ القُرْبِ أَوْ مِنْ أَهْلِ البُعْدِ ، فانْظُرْ ؛ فَإِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَسْتَدِلُّ بِأَثَرِهِ عَلَيْهِ ، فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ البُعْدِ مِنْ أَصْحابِ اليَمِين ، وإِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ ، فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ القُرْبِ المُقَرَّبِين .

ثُمَّ إِنْ عَرَفْتَ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ اليَمِين ، وأَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ ، هَلْ أَنْتَ مِنَ المُكَرَّمِينَ أَوْ مِنَ المُهانِينَ ، فانْظُرْ فَإِنْ كُنْتَ تَمْتَثِلُ أَمْرَهُ ، وتَجْتَنِبُ نَهْيَهُ ، وتُسارِعُ فِي مَرْضاتِهِ ، وتَتَحَبَّبُ إِلَى أَوْلِيائِهِ وأَحِبَّائِهِ ، فَأَنْتَ مِنَ المُكَرَّمِينَ المُعَظَّمِينَ ، وإِنْ كُنْتَ تَتَهاوَنُ فِي أَمْرِهِ ، وتَتَساهَلُ فِي نَواهِيهِ ، وتَتَكاسَلُ عَنْ طاعَتِهِ ، وتَهْتِكُ حُرُماتِهِ ، وتُعادِي

أَوْلِياءَهُ ، فَأَنْتَ واللهِ عِنْدَهُ مِنَ المُهانِينَ المَحْرُومِينَ المَطْرُودِين ، إِلَّا إِنْ تَدارَكَتْكَ عِنايَةٌ مِنْ رَبِّ العالَمِين .

وإِنْ تَحَقَّقْتَ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ القُرْبِ ، وأَنَّكَ بَلَغْتَ مَقامَ الشُّهُودِ ؛ تَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ فَلا تَرَى سِواه ، فَإِنْ كُنْتَ تُقِرُّ بِالواسِطَةِ وتُثْبِتُ الحِكْمَةَ ، وتُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَأَنْتَ مِنَ المُقَرَّبِينَ الكامِلِين ، وإِنْ كُنْتَ تُنْكِرُ الحِكْمَةَ ، وتَغِيبُ عَنِ الواسِطَةِ ، فَإِنْ كُنْتَ مَجْذُوبًا مَغْلُوبًا ، فَأَنْتَ فِي هَذا المَحَلِّ ناقِصٌ ، وإِنْ كُنْتَ صاحِيًا ، فَأَنْتَ ساقِطٌ إِلَّا أَنْ يَأْخُذَ بِيَدِكَ شَيْخٌ واصِل ، أَوْ عارِفٌ كامِل .

وهُنا مِيزانٌ آخَرُ تَعْرِفُ بِهِ نَفْسَكَ فِي القُرْبِ والبُعْدِ ، فَإِنْ وَجَدْتَ شَيْخًا مُرَبِّيًا كَشَفَ اللهُ لَكَ عَنْ أَنْوارِهِ ، وأَطْلَعَكَ عَلَى خَصائِصِ أَسْرارِهِ ، فَأَنْتَ قَطْعًا مِنْ أَهْلِ القُرْبِ بِالفِعْلِ أَوْ بِالإِمْكان ؛ لِقَوْلِ الشَّيْخِ رضي الله عنه : ((سُبْحانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيائِهِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ عَلَيْه ، ولَمْ يُوصِلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْه)) .

وإِنْ لَمْ تَجِدْ شَيْخًا مُرَبِّيًا ، وغَرَّكَ قَوْلُ مَنْ قالَ : إِنَّهُ انْقَطَعَ وُجُودُه ، فَأَنْتَ قَطْعًا مِنْ أَهْلِ اليَمِينِ مِنْ عَوامِّ المُسْلِمِين ، هَذا الغالِب ، والنَّادِرُ لا حُكْمَ لَهُ .

وفِي الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ : (يَقُولُ اللّٰهُ تَبارَكَ وتَعالَى : أَنا اللّٰهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنا ، خَلَقْتُ الخَيْرَ والشَّرَّ ، فَطُوبَى لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلْخَيْرِ ، وأَجْرَيْتُ الخَيْرَ عَلَى يَدِهِ ، ووَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُهُ للشَّرِّ ، وأَجْرَيْتُ الشَّرَّ عَلَى يَدِهِ) .

وفِي حَدِيثٍ آخَر : (مَنْ أَرادَ أَنْ يَعْلَمَ ما لَهُ عِنْدَ اللّٰه ، فَلْيَنْظُرْ ما للّٰهِ عِنْدَهُ) .

وفِي رِوايَةٍ : (مَنْ أَرادَ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللّٰه ، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللّٰهِ تَعالَى مِنْ قَلْبِه ، فَإِنَّ اللّٰهَ تَعالَى يُنْزِلُ العَبْدَ حَيْثُ أَنْزَلَهُ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ) .

قالَ اللّٰهُ تَعالَى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [1] .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللّٰه مِيزانًا آخَرَ تَعْرِفُ بِهِ المُقَرَّبِينَ والأَغْنِياءَ الشَّاكِرِينَ فَقالَ :

(مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةَ والغِنَى بِهِ عَنْها ، فاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وباطِنَة) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الطَّاعَةُ فِي الظَّاهِرِ هِيَ رُسُومُ الشَّرِيعَة ، والغِنَى بِهِ فِي الباطِنِ هُوَ شَواهِدُ الحَقِيقَة ، فَإِذا جَمَعَ لَكَ بَيْنَ الطَّاعَةِ فِي

---

[1] سُورَةُ اللَّيْل : الآيات ٥ - ٧ .

جَوارِحِكَ ، والغِنَى بِهِ عَنْها فِي باطِنِكَ ، فَقَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ ؛ أَيْ : أَكْمَلَ وأَطالَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وباطِنَة ، وهَذِهِ سِيما العارِفِينَ المُقَرَّبِينَ الأَغْنِياءِ بِاللّه ، الفُقَراءِ مِمَّا سِواه ، اسْتَغْنَوْا بِمَعْبُودِهِمْ عَنْ رُؤْيَةِ عِبادَتِهِمْ ، وبِمَعْلُومِهِمْ عَنْ عِلْمِهِمْ ، وبِمُصْلِحِهِمْ عَنْ صَلاحِهِمْ .

قالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَن فِي ((حِزْبِهِ الكَبِير)) : نَسْأَلُكَ الفَقْرَ مِمَّا سِواكَ ، والغِنَى بِكَ حَتَّى لا نَشْهَدَ إِلَّا إِيَّاكَ .

فَهَؤُلاءِ الأَغْنِياءُ بِاللّه ، الغائِبُونَ فِيهِ عَمَّا سِواه ، عِبادَتُهُمْ بِاللّه ولِلّه ومِنَ اللّه ، قِيامًا بِشُكْرِ النِّعْمَة ، وإِتْمامًا لِوَظائِفِ الحِكْمَة .

وفِي الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ : (أَحَبُّ العِبادِ إِلَى اللّهِ الأَغْنِياءُ الأَخْفِياءُ الأَتْقِياءُ) ، أَوْ كَما قالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام .

وفِي حَدِيثٍ آخَر : (لَيْسَ الغِنَى بِكَثْرَةِ العَرَض ، إِنَّما الغِنَى غِنَى النَّفْس) .

وهُوَ الغِنَى بِاللّه ، وهَذِهِ هِيَ النِّعْمَةُ الحَقِيقِيَّة .

فالنِّعَمُ الظَّاهِرَة : هِيَ تَزْيِينُ الجَوارِحِ بِالشَّرِيعَة .

والنِّعَمُ الباطِنَة : هِيَ إِشْراقُ الأَسْرارِ بِالحَقِيقَة .

وقِيلَ : النِّعَمُ الظَّاهِرَةُ : هِيَ الكِفايَةُ والعافِيَة .

والنِّعَمُ الباطِنَة : هِيَ الهِدايَةُ والمَعْرِفَة .

وقِيلَ : النِّعَمُ الظَّاهِرَة : راحَةُ البَدَنِ مِنْ مُخالَفَةِ أَمْرِه .

والباطِنَةُ : سَلامَتُهُ مِنْ مُنازَعَةِ حُكْمِه .

وحَقِيقَةُ النِّعْمَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ : ما لا يُوجِبُ أَلَمًا ، ولا يُعْقِبُ نَدَمًا .

وقِيلَ : النِّعْمَةُ العُظْمَى : الخُرُوجُ مِنْ رُؤْيَةِ النَّفْس .

خَيْرُ ما يُطْلَبُ مِنَ اللّٰه

وإِنْ كانَ ولا بُدَّ مِنَ الطَّلَب ، فاطْلُبْ مِنْهُ ما هُوَ طالِبُهُ مِنْكَ ؛ كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ إِلَيْهِ ، فَقالَ :

(خَيْرُ ما تَطْلُبُهُ مِنْهُ ما هُوَ طالِبُهُ مِنْكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الَّذي طَلَبَهُ مِنَّا امْتِثالُ أَمْرِهِ ، واجْتِنابُ نَهْيِهِ ، والإِكْثارُ مِنْ ذِكْرِهِ ، والاسْتِسْلامُ لِقَدَرِهِ ، فالأَكْمَلُ فِي حَقِّ العارِفِ أَنْ يَسْتَغْنِيَ بِعِلْمِ اللّٰه ، ويَكْتَفِيَ بِسُؤالِ الحالِ عَنْ طَلَبِ المَقال ، فَإِنْ تَجَلَّى فِيهِ وارِدُ الطَّلَب ، فَخَيْرُ ما يَطْلُبُهُ مِنْ سَيِّدِهِ ما هُوَ طالِبُهُ مِنْهُ ، وهُوَ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

فَفِي بَعْضِ الأَحادِيث : (إِنَّ اللّٰهَ لا يَسْأَلُ الخَلْقَ عَنْ ذاتِهِ وصِفاتِهِ ، ولا عَنْ قَضائِهِ وقَدَرِهِ ، ولَكِنْ عَنْ أَمْرِهِ ونَهْيِهِ) .

قالَ ابنُ عَجيبَة : لأَنَّ الأَمْرَ والنَّهْيَ فِي كَسْبِهِ ومُكَلَّفٌ بِهِ ، ومَعْرِفَةَ الذَّاتِ والصِّفاتِ والرِّضا والتَّسْلِيمِ إِنَّما هِيَ مَواهِبُ جَزاءِ الأَعْمال ، ونَتائِجُ الامْتِثال ، فَإِذا فَعَلَ ما أَمَرَهُ بِهِ سَيِّدُهُ ، رَزَقَهُ المَعْرِفَةَ بِهِ المَعْرِفَةَ العامَّة ، وهِيَ مَعْرِفَةُ الدَّلِيل ، فَإِذا اشْتَدَّ عَطَشُهُ ، قَيَّضَ لَهُ مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ حَتَّى يُعَرِّفَهُ بِهِ المَعْرِفَةَ الخاصَّة .

ثُمَّ إِذا طَلَبْتَ مِنْهُ ، (فاطْلُبْ مِنْهُ ما طَلَبَهُ مِنْكَ ، وهُوَ الطَّاعَةُ والاسْتِقامَة) ، ولَمْ تُساعِفْكَ الأَقْدار ، ومُنِعْتَ مِنْها قَبْلَ أَنْ تَسْأَل ، فَإِنْ لَمْ تَنْهَضْ إِلَيْها بِقَلْبِكَ ، وتَأَسَّفْتَ عَلَيْها بِنَفْسِكَ ، فَذَلِكَ عَلامَةُ الاغْتِرار ، كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(الحُزْنُ عَلَى فُقْدانِ الطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ النُّهُوضِ إِلَيْها مِنْ عَلاماتِ الاغْتِرار) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : الحُزْنُ هُوَ التَّحَسُّرُ عَلَى شَيْءٍ ، فَإِنْ لَمْ تُحَصِّلْهُ ، ونَدِمْتَ عَلَى عَدَمِ تَحْصِيلِهِ ، أَوِ التَّوَجُّعُ عَلَى شَيْءٍ مُنِعْتَ مِنْهُ ولَمْ تَقْدِرْ عَلَى تَحْصِيلِهِ ، فَإِنْ كانَ حُزْنُكَ عَلَى شَيْءٍ مُنِعْتَ مِنْهُ ، ونَهَضْتَ إِلَى أَسْبابِهِ المُوصِلَةِ إِلَيْهِ ، فَهُوَ حُزْنُ الصَّادِقِين .

وفِيهِ قالَ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَّاق : يَقْطَعُ صاحِبُ الحُزْنِ فِي شَهْرٍ ما لا يَقْطَعُهُ غَيْرُهُ فِي سِنِين .

وإنْ لَمْ تَنْهَضْ إلَى أَسْبابِهِ ، فَهُوَ حُزْنُ الكاذِبين .

وإنْ كانَ عَلَى ما فاتَ ، ونَهَضْتَ إلَى اسْتِدْراكِ ما يُمْكِنُ اسْتِدْراكُهُ ، فَهُوَ حُزْنُ الصَّادِقِين ، وإنْ لَمْ تَنْهَضْ إلَى اسْتِدْراكِهِ فَهُوَ حُزْنُ الكاذِبين .

فالحُزْنُ عَلَى فُقْدانِ الطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ النُّهُوضِ إلَى اسْتِدْراكِ ما فاتَ مِنْها ، أَوْ تَحْصِيلِ ما حَضَرَ مِنْها ، مِنْ عَلامَةِ الاغْتِرار ؛ أَي الغُرُور ، وهُوَ الرُّكُونُ إلَى ما لا حَقِيقَةَ لَهُ ، فالاغْتِرارُ قَبُولُ الغارِّ والانْقِيادُ إلَى غُرُورِهِ وخِدَعِهِ .

فالحُزْنُ يَنْقَسِمُ إلَى ثَلاثَةِ أَقْسام : حُزْنُ الكاذِبِينَ ، والصَّادِقِينَ ، والصِّدِّيقِينَ السَّائِرين .

فَحُزْنُ الكاذِبين : هُوَ ما تَقَدَّمَ مِنْ عَدَمِ النُّهُوضِ والاسْتِدْراكِ لِما فاتَ .

وحُزْنُ الصَّادِقِين : هُوَ الحُزْنُ المَصْحُوبُ بِالجِدِّ والاجْتِهاد ، والتَّوَسُّطِ فِي العَمَلِ والاقْتِصاد ، مَعَ اغْتِنامِ ما بَقِيَ مِنَ الأَوْقاتِ لاسْتِدْراكِ ما فاتَ .

وحُزْنُ الصِّدِّيقِينَ مِنَ السَّائِرين : هُوَ الحُزْنُ عَلَى فَواتِ الأَوْقاتِ ، أَوْ حُصُولِ شَيْءٍ مِنَ الغَفَلاتِ ، أَوْ وُقُوعِ مَيْلٍ أَوْ رُكُونٍ إلَى الحُظُوظِ والشَّهَواتِ ، إلَّا أَنَّ حُزْنَهُمْ لا يَدُومُ ؛ إذْ لا يَقِفُونَ مَعَ شَيْءٍ ، ولا يَقْبِضُهُمْ شَيْءٌ .

وأَمَّا الواصِلُونَ : فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ، قال تَعالَى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١).

إِذِ الحُزْنُ إِنَّما يَكُونُ عَلَى فَقْدِ شَيْءٍ ، أَوْ فَواتِ غَرَضٍ ، وماذا فَقَدَ مَنْ وَجَدَ اللهَ ؟ ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ (٢).

وفِي هَذا المَقام يَنْقَطِعُ البُكاءُ ؛ إِذْ لا بُكاءَ فِي الجَنَّة .

تَنْبِيه : قالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَنِ الشَّاذِلِيُّ رضي الله عنه : مَنْ لَمْ تُطاوِعْهُ نَفْسُهُ عَلَى النُّهُوضِ إِلَى الطَّاعات ، وأَخْلَدَتْ إِلَى أَرْضِ الشَّهَوات ، فَدَواؤُهُ فِي حَرْفَيْن :

الأَوَّلُ : أَنْ يَعْلَمَ مِنَّةَ اللهِ عَلَيْهِ بِالهِدايَةِ للإِسْلامِ ومَحَبَّةِ الإِيمانِ ، فَيَشْكُرَ اللهَ عَلَيْها لِيُحَصِّنَ بَقاءَها عِنْدَهُ .

الثَّانِي : دَوامُ تَضَرُّعِهِ وابْتِهالِهِ فِي مَظانِّ الإِجابَةِ قائِلًا : يا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ .

الإِشارات

ثُمَّ إِذا أَعْطاكَ ما طَلَبْتَ مِنْ كَمالِ الاسْتِقامَة ، ونَهَضْتَ إِلَيْهِ نادِمًا عَلَى ما فاتَكَ مِنَ الطَّاعَة ، كانَتْ نِهايَتُكَ الوُصُولَ إِلَى الحَبِيب ،

---

(١) سُورَةُ يُونُس : الآيَة ٦٢ . (٢) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ٣٤ .

ومُناجاةَ القَرِيب ، هُناكَ تَكِلُّ الأَلْسُنُ عَنِ العِبارَة ، وتَنْقَطِعُ الإِشارَة ، كَما أَبانَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(ما العارِفُ مَنْ إِذا أَشارَ وَجَدَ الحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشارَتِهِ ، بَلِ العارِفُ مَنْ لا إِشارَةَ لَهُ ؛ لِفَنائِهِ فِي وُجُودِهِ ، وانْطِوائِهِ فِي شُهُودِهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الإِشارَةُ** : أَرَقُّ وأَدَقُّ مِنَ العِبارَة ، **والرَّمْزُ** : أَدَقُّ مِنَ الإِشارَة ؛ فالأُمُورُ ثَلاثَةٌ : عِباراتٌ وإِشاراتٌ ورُمُوزٌ ، وكُلُّ واحِدَةٍ أَدَقُّ مِمَّا قَبْلَها .

فالعِبارَةُ تُوَضِّحُ ، والإِشارَةُ تُلَوِّحُ ، والرَّمْزُ يُفَرِّحُ ؛ أَيْ : يُفَرِّحُ القُلُوبَ بِإِقْبالِ المَحْبُوب .

وقالُوا : عِلْمُنا كُلُّهُ إِشارَة ، فَإِذا صارَ عِبارَةً خَفِيَ ؛ أَيْ : خَفِيَ سِرُّهُ ، فَإِذا صارَ عِبارَةً بِإِفْصاحِ اللِّسان ، لَمْ يَظْهَرْ سِرُّهُ عَلَى الجَنان ، فَإِشارَةُ الصُّوفِيَّةِ هِيَ تَغَزُّلاتُهُمْ وتَلْوِيحاتُهُمْ بِالمَحْبُوب ؛ كَذِكْرِ سَلْمَى ولَيْلَى ، وذِكْرِ الخَمْرَةِ والكُؤُوسِ والنَّدِيم ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَذْكُورٌ فِي أَشْعارِهِمْ وتَغَزُّلاتِهِمْ ، وكَذِكْرِ الأَقْمارِ والنُّجُوم ، والشُّمُوسِ والبُدُورِ واللَّوائِحِ والطَّوالِع ، وكَذِكْرِ البِحارِ والإِغْراقِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَذْكُورٌ فِي اصْطِلاحاتِهِمْ .

وأَمَّا الرُّمُوزُ : فَهِيَ إِيماءٌ وأَسْرارٌ بَيْنَ المَحْبُوبِ وحَبِيبِهِ لا يَفْهَمُها غَيْرُهُمْ ، ومِنْها فِي القُرْآنِ فَواتِحُ السُّوَر ، ومِنْها فِي الحَدِيثِ كَقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه : (أُرِيدُ أَنْ أَدْعُوَكَ لأَمْرٍ) ، قالَ : وما هُوَ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قال : (هُوَ ذاكَ) ، فَرَمَزَ ﷺ لأَمْرٍ بَيْنَهُما لا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُما .

وقالَ ﷺ لَهُ أَيْضًا : (يا أَبا بَكْرٍ ! أَتَعْلَمُ يَوْمَ يَوْمَ ؟) بِتَكْرِيرِ لَفْظِ : يَوْم ، ((قالَ : نَعَمْ يا رَسُولَ اللهِ ، سَأَلْتَنِي عَنْ يَوْمِ المَقادِير)) ، فَهَذِهِ رُمُوزٌ بَيْنَ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه وحَبِيبِهِ ﷺ .

قالَ الشَّيْخُ زَرُّوق رضي الله عنه فِي شَرْحِ الحِزْبِ الكَبِير : ((وقَدْ حارَتِ العُقُولُ فِي رُمُوزِ الحُكَماء ، فَكَيْفَ بِالعُلَماء ؟ فَكَيْفَ بِالأَنْبِياء ؟ فَكَيْفَ بِالمُرْسَلِين ؟ فَكَيْفَ يُطْمَعُ فِي حَقائِقِ رَبِّ العالَمِين ؟)) .

وأَمَّا الإِشارات : فَيُدْرِكُها أَرْبابُها مِنْ أَهْلِ الفَنِّ ، والنَّاسُ فِي إِدْراكِها وعَدَمِهِ عَلَى أَقْسام : فَمِنْهُمْ مَنْ لا يَفْهَمُ شَيْئًا ، ولا يَعْرِفُ إِلَّا ظاهِرَ العِبارَة ، وهُمُ الجُهَّالُ مِنْ عُمُومِ النَّاس .

ومِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ المَقْصُودَ ، ويَجِدُ الحَقَّ بَعْدَ الإِشارَة ؛ أَيْ : بَعْدَ سَماعِ الإِشارَة ، وهُمْ أَهْلُ البِدايَةِ مِنَ السَّائِرِين .

ومِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ الإشارَة ، ويَجِدُ المُشارَ إلَيْهِ وهُوَ الحَقُّ أَقْرَبَ إلَيْهِ مِنْ إشارَتِهِ ، وهُمْ أَهْلُ الفَناءِ فِي الذَّاتِ قَبْلَ التَّمْكِين ، ولِهَذا تَجِدُهُمْ يَتَواجَدُونَ عِنْدَ السَّماع ، ويَتَحَرَّكُون ، وتَطِيبُ أَوْقاتُهُمْ ، وتَهِيمُ أَرْواحُهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَواجَدُونَ عِنْدَ الذِّكْر ؛ لأَنَّ الإشارَةَ تُهَيِّجُ أَكْثَرَ مِنَ العِبارَة ، خِلافَ المُتَمَكِّنِينَ فَقَدْ رَسَخَتْ أَقْدامُهُمْ ، واطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ ، وتَحَقَّقَ وُصُولُهُمْ ، فاسْتَغْنَوا عَنِ الإشارَةِ والمُشِير .

ولِذَلِكَ قِيلَ للجُنَيْد : «ما لَكَ كُنْتَ تَتَحَرَّكُ عِنْدَ السَّماعِ وتَتَواجَدُ ، واليَوْمَ لا نَراكَ تَتَحَرَّكُ بِشَيْء ؟ قالَ : ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ (١).

وهَذا هُوَ العارِفُ الَّذي لا إشارَةَ لَهُ ؛ لِفَنائِهِ فِي وُجُودِ الحَقِّ ، وانْطِوائِهِ فِي مَشْهُودِهِ ، أَوْ تَقُولُ : لِتَحَقُّقِ وُصُولِهِ ، وتَمَكُّنِهِ فِي شُهُودِهِ ، فَصارَ المُشِيرُ عَيْنَ المُشارِ إلَيْهِ ؛ لِفَناءِ وُجُودِهِ فِي وُجُودِ مَحْبُوبِهِ ، وانْطِواءِ ذاتِهِ فِي ذاتِ مَشْهُودِهِ .

أَوْ تَقُولُ : لِزَوالِ وَهْمِهِ ، وثُبُوتِ عِلْمِهِ ، فَتَحَقَّقَتِ الوَحْدَةُ ، وامْتَحَقَتِ الغَيْرَةُ :

---

(١) سُورَةُ النَّمْل : مِنَ الآيَة ٨٨ .

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَاقَتِ الْخَمْرُ ❁ فَتَشَابَهَا وَتَشَاكَلَ الْأَمْرُ

فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلا قَدَحٌ ❁ وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلا خَمْرُ

فَالأَقْداحُ أَشْباح ، والخُمُورُ أَرْواح .

أَوْ تَقُولُ : لِذَهابِ حِسِّهِ ، وانْطِماسِ رَسْمِهِ ، فَانْكَسَرَتِ الأَوانِي ، وسَطَعَتِ المَعانِي :

وَطَاحَ مُقَامِي فِي الرَّوَاسِمِ كُلِّهَا ❁ فَلَسْتُ أَرَى فِي الْوَقْتِ قُرْبًا وَلا بُعْدَا

فَنِيتُ بِهِ عَنِّي فَبَانَ بِهِ عَيْبِي ❁ فَهَذَا ظُهُورُ الْحَقِّ عِنْدَ الْفَنَا قَصْدَا

أَحَاطَ بِنَا التَّعْظِيمُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ❁ وَعَادَتْ صِفَاتُ الْحَقِّ مِمَّا يَلِي الْعَبْدَا

قالَ القُطْبُ الشَّيْخُ ابنُ مَشِيش رضي الله عنه ونَفَعَنا بِبَرَكاتِه : ((وشَرابُ المَحَبَّةِ مَزَجَ الأَوْصافَ بِالأَوْصاف ، والأَخْلاقَ بِالأَخْلاق ، والأَنْوارَ بِالأَنْوار ، والأَسْماءَ بِالأَسْماء ، والنُّعُوتَ بِالنُّعُوت ، والأَفْعالَ بِالأَفْعال)) .

وأَطْلَقَ المَزْجَ عَلَى التَّبْدِيلِ مُناسَبَةً للشَّراب .

وقالَ إِمامُ الطَّرِيقَةِ أَبُو القاسِمِ الجُنَيْد رضي الله عنه فِي وَصْفِ العارِف : ((عَبْدٌ ذاهِبٌ عَنْ نَفْسِهِ ، مُتَّصِلٌ بِذِكْرِ رَبِّهِ ، قائِمٌ بِأَداءِ حَقِّهِ ، ناظِرٌ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ ، أَحْرَقَتْ قَلْبَهُ أَنوارُ هِدايَتِهِ ، وصَفا شَرابُهُ مِنْ كَأْسِ وُدِّهِ ، تَجَلَّى لَهُ الجَبَّارُ عَنْ أَسْتارِ غَيْبِهِ ، فَإِنْ تَكَلَّمَ فَبِاللهِ ، وإِنْ سَكَتَ فَمِنَ

اللّه ، وإنْ تَحَرَّكَ فَبِإذْنِ اللّه ، وإنْ سَكَنَ فَمَعَ اللّه ، فَهُوَ بِاللّهِ وللّه ، ومَعَ اللّهِ ومِنَ اللّهِ وإلَى اللّه)) .

فَهَذِهِ صِفاتُ العارِفِ الحَقِيقِيِّ الرَّاسِخِ المُتَمَكِّن ، قَدْ كَلَّ لِسانُهُ عَنِ التَّعْبِير ، واسْتَغْنَى عَنِ الإشارَةِ والمُشِير ، فَإذا صَدَرَتْ مِنْهُ إشارَةٌ أَوْ تَعْبِير ، فَإنَّما ذَلِكَ لِفَيَضانِ وَجْدٍ ، أَوْ هِدايَةِ فَقِير .

وقَدْ صَدَرَتْ إشاراتٌ مِنَ المُتَمَكِّنِينَ ، فَتُحْمَلُ عَلَى هَذا القَصْدِ ، كَقَوْلِ الشَّيْخِ أَبِي العَبَّاسِ المُرْسِيِّ رضي الله عنه :

أَعِنْدَكَ عَنْ لَيْلَىٰ حَدِيثٌ مُحَرَّرُ ❁ بِإيرَادِهِ يَحْيَا الرَّمِيمُ وَيُنْشَرُ؟

فَعَهْدِي بِهَا الْعَهْدُ الْقَدِيمُ وَإنَّنِي ❁ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي هَوَاهَا مُقَصِّرُ

وَقَدْ كَانَ هَذَا الطَّيْفُ قِدْمًا يَزُورُنِي ❁ وَلَـمَّا يَـزُرْ مَـا بَالُـهُ يَتَعَـذَّرُ ؟

وَهَلْ بَخِلَتْ حَتَّى بِطَيْفِ خَيَالِهَا ❁ أَم اعْتَلَّ حَتَّى لا يَصِحَّ التَّصَوُّرُ ؟

وَمِنْ وَجْهِ لَيْلَىٰ طَلْعَةُ الشَّمْسِ تَسْتَضِي ❁ وَفِي الشَّمْسِ أَبْصَارُ الْوَرَى تَتَحَيَّرُ

وَمَا احْتَجَبَتْ إلَّا بِرَفْعِ حِجَابِهَا ❁ وَمِـنْ عَجَـبٍ أَنَّ الظُّهُـورَ تَسَـتُّرُ

فَقَوْلُ الشَّيْخ : ((ما العارِفُ إلخ)) ؛ أَيْ : لَيْسَ العارِفُ الكامِلُ ، وهُوَ الرَّاسِخُ المُتَمَكِّنُ ، وأَمَّا السَّائِرُ فَيَحْتاجُ إلَى الإشارَة ، ويَجِدُ الحَقَّ أَقْرَبَ إلَيْهِ مِنَ الإشارَةِ ، أَوْ مَعَهَا ، وهِيَ إعانَةٌ لَهُ وقُوتُهُ ، كالعِبارَةِ

للمُتَوَجِّهين ، وسَيَأْتِي : ((العِبارَةُ قُوتٌ لِعائِلَةِ المُسْتَمِعِينَ ، ولَيْسَ لَكَ إلَّا ما أَنْتَ لَهُ آكِلٌ)) .

وقَوْلُهُ : ((مَنْ إذا أَشارَ)) ؛ أَيْ : أُشِيرَ لَهُ .

وقَوْلُهُ : ((بَلِ العارِفُ مَنْ لا إشارَةَ لَهُ)) ؛ أَيْ : لا يَحْتاجُ إلَيْها فِي نَفْسِهِ ، وقَدْ يُشِيرُ لأَجْلِ غَيْرِهِ كَما تَقَدَّمَ ، وإنَّما اسْتَغْنَى عَنِ الإشارَةِ ؛ لأَنَّ الإشارَةَ والعِبارَةَ قُوتُ الجائِعِ ، وهُوَ قَدْ شَبِعَ واسْتَغْنَى .

الرَّجاء

ولَمَّا كانَ المَطْلُوبُ مِنَ العَبْدِ القِيامَ بِوَظائِفِ العُبُودِيَّة ، ومَعْرِفَةَ عَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّة ، تَشَوَّقَتِ القُلُوبُ إلَى نَيْلِها ، وطَمِعُوا فِي إدْراكِها ، ورَجَوْا بُلُوغَ آمالِهِمْ فِيها ، فَبَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ الرَّجاءَ الصَّادِقَ مِنَ الكاذِبِ فَقالَ : (**الرَّجاءُ ما قارَنَهُ عَمَلٌ ، وإلَّا فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ**) :

قالَ بَعْضُ العُلَماء : **الرَّجاءُ** : تَعَلُّقُ القَلْبِ بِمَطْمُوعٍ يَحْصُلُ فِي المُسْتَقْبَلِ مَعَ الأَخْذِ فِي العَمَلِ المُحَصِّلِ لَهُ ، وأَقْرَبُ مِنْهُ طَمَعٌ يَصْحَبُهُ عَمَلٌ فِي سَبَبِ المَطْمُوعِ فِيهِ ؛ لأَجْلِ تَحْصِيلِهِ .

الأُمْنِيَّةُ : اشْتِهاءٌ وتَمَنٍّ لا يَصْحَبُهُ عَمَلٌ ، فَإنْ كانَ مَعَ الحُكْمِ والجَزْمِ فَهُوَ تَدْبِيرٌ ، وهُوَ أَتَمُّ قُبْحًا (قالَهُ الشَّيْخُ زَرُّوق) .

قالَ ابنُ عَجيبَة : فَمَنْ رَجا أَنْ يُدْرِكَ النَّعِيمَ الحِسِّيَّ كالقُصُورِ والحُور ، فَعَلَيْهِ بِالجِدِّ والطَّاعَة ، والمُسارَعَةِ إِلَى النَّوافِلِ والخَيْرات ، وإِلَّا كانَ رَجاؤُهُ حُمْقًا وغُرورًا .

وقَدْ قالَ مَعْرُوفٌ الكَرْخِي رضي الله عنه :((طَلَبُ الجَنَّةِ بِلا عَمَلٍ ذَنْبٌ مِنَ الذُّنُوب ، وارْتِجاءُ الشَّفاعَةِ بِلا سَبَبٍ نَوْعٌ مِنَ الغُرور ، وارْتِجاءُ رَحْمَةِ مَنْ لا يُطاعُ جَهْلٌ وحُمْقٌ)) .

وقِيلَ : مَنْ زَعِمَ أَنَّ الرَّجاءَ مَعَ الإِصْرارِ صَحِيح ، فَكَذَلِك فَلْيَزْعُمْ أَنَّ الرِّبْحَ مَعَ الفَقْرِ ووَقْدَ النَّارِ مِنَ البَحْرِ صَحِيح ، ومَنْ كانَ رَجاؤُهُ تَحْقِيقَ العُلُوم ، وفَتْحَ مَخازِنِ الفُهُوم ، فَعَلَيْهِ بِالمُدارَسَةِ والمُطالَعَةِ ، ومُجالَسَةِ أَهْلِ العِلْمِ المُحَقَّقِينَ العامِلِينَ ، مَعَ تَحْلِيَتِهِ بِالتَّقْوَى والوَرَع .

قالَ تَعالَى : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (١) .

فَإِنْ فَعَلَ هَذا ، كانَ طالِبًا صادِقًا ، وإِلَى ما رَجا واصِلًا ، وإِلَّا كانَ باطِلًا ، وبَقِيَ جاهِلًا .

وقَدْ قالَ بَعْضُ المُحَقِّقِينَ : مَنْ أَعْطَى كُلِّيَّتَهُ فِي العِلْمِ أَخَذَ كُلِّيَّتَهُ ، ومَنْ لَمْ يُعْطِ كُلِّيَّتَهُ لَمْ يَأْخُذْ بَعْضَهُ ولا كُلِّيَّتَهُ .

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٨٢ .

وفِي الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ :(إنَّما العِلْمُ بِالتَّعَلُّم ، وإنَّما الحِلْمُ بِالتَّحَلُّم ، مَنْ يَطْلُبِ الخَيْرَ يُؤْتَهُ ، ومَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ) .

والَّذي تُفِيدُهُ التَّقْوَى إنَّما هُوَ فَهْمٌ يُوافِقُ الأُصُولَ ، ويَشْرَحُ الصُّدُورَ ، ويُوَسِّعُ المَعْقُولَ ، ومَنْ كانَ رَجاؤُهُ الوُصُولَ إلَى إدْراكِ المَقاماتِ ، وتَحْقِيقِ المُنازَلاتِ ومَواجِيدِ المُحِبِّينَ وأَذْواقِ العارِفِينَ ، فَعَلَيْهِ بِصُحْبَةِ الواصِلِينَ مِنَ الرِّجالِ أَهْلِ السِّرِّ والحالِ ؛ بِحَطِّ رَأْسِهِ وذَبْحِ نَفْسِهِ والأَخْذِ فِيما كُلِّفُوا بِهِ مِنَ الأَعْمالِ ، مَعَ الذُّلِّ والافْتِقارِ والخُضُوعِ والانْكِسارِ ، فَإنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْهُمْ ، فَلْيَصْدُقْ فِي الطَّلَب ، فَسِرُّ اللّهِ كُلُّهُ فِي صِدْقِ الطَّلَب ، ولْيَسْتَغْرِقْ أَوْقاتَهُ فِي ذِكْرِ اللّه ، ولْيَلْتَزِم الصَّمْتَ والعُزْلَة ، ولْيُحْسِنْ ظَنَّهُ باللّهِ وبِعِبادِ اللّه ، فَإنَّ اللّهَ يُقَيِّضُ لَهُ مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ : ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ (١) .

قالَ فِي ((القَواعِد)) : قاعِدَةٌ : طَلَبُ الشَّيْءِ مِنْ وَجْهِهِ وقَصْدِهِ أَقْرَبُ لِتَحْصِيلِه ، وقَدْ ثَبَتَ أَنَّ حَقائِقَ عُلُومِ الصُّوفِيَّةِ مِنَحٌ إلَهِيَّةٌ ، ومَواهِبُ اخْتِصاصِيَّةٌ ، لا تُنالُ بِمُعْتادِ الطَّلَب ، فَلَزِمَ مُراعاةُ وَجْهِ ذَلِكَ ، وهُوَ ثَلاثَةٌ :

---

(١) سُورَةُ الأَنْفال : مِنَ الآيَة ٧٠ .

أَوَّلُها : العَمَلُ بِما عَلِمَ قَدْرَ الاسْتِطاعَة .

الثَّانِي : اللَّجَأُ إِلَى اللهِ عَلَى قَدْرِ الهِمَّة .

الثَّالِثُ : إِطْلاقُ النَّظَرِ فِي المَعانِي حالَ الرُّجُوعِ لأَصْلِ السُّنَّة ، فَيَجْرِي الفَهْمُ ، ويَنْتَفِي الخَطَأُ ، ويَتَيَسَّرُ الفَتْحُ .

وقَدْ أشارَ الجُنَيْدُ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ((ما أَخَذْنا التَّصَوُّفَ عَنِ القِيلِ والقال ، والمِراءِ والجِدال ، إِنَّما أَخَذْناهُ عَنِ الجُوعِ والسَّهَرِ ومُلازَمَةِ الأَعْمال ، أَوْ كَما قال)) .

وفِي الخَبَرِ عَنْهُ ﷺ : (مَنْ عَمِلَ بِما عَلِمَ ، أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ) .

وقالَ أَبو سُلَيْمانَ الدَّارانِي رضي الله عنه : ((إِذا اعْتادَتِ النُّفُوسُ عَلَى تَرْكِ الآثام جالَتْ فِي المَلَكُوت ، ورَجَعَتْ إِلَى صاحِبِها بِطَرائِفِ العُلُومِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْها عالِمٌ)) .

فَمَنْ رَجا أَنْ يُدْرِكَ هَذِهِ الأُمُورَ المُتَقَدِّمَةَ وشَرَعَ فِي أَسْبابِها وتَحْصِيلِ مَبادِئِها ، كانَ عَلامَةً عَلَى نُجْحِ مَطْلَبِهِ ، وكانَ رَجاؤُهُ صادِقًا .

ومَنْ طَمِعَ فِيها مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْخُذَ بِالجِدِّ فِي أَسْبابِ تَحْصِيلِها كانَ أُمْنِيَّةً ؛ أَيْ : غُرُورًا وحُمْقًا .

ولَمَّا كانَ مَنْ رَجا شَيْئًا وطَمِعَ فِيهِ الغالِبُ أَنَّهُ يَطْلُبُهُ ، بَيَّنَ ابنُ عَطاءٍ

اللهِ خَيْرَ ما يَطْلُبُهُ العَبْدُ ويَرْجُوهُ فَقالَ :

(مَطْلَبُ العارِفِينَ مِنَ اللهِ تَعالَى : الصِّدْقُ فِي العُبُودِيَّة ، والقِيامُ بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّة) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : المَطْلَبُ : مَصْدَرٌ بِمَعْنَى المَفْعُول ، أَوِ اسْمُ مَكان ؛ أَيْ : مَطْلُوبُ العارِفِينَ ومَقْصُودُهُمْ ، أَوْ مَحَلُّ قَصْدِهِمْ ومَحَلُّ نَظَرِهِمْ إِنَّما هُوَ تَحَقُّقُ الصِّدْقِ فِي العُبُودِيَّة : بِحَيْثُ لا تَبْقَى فِيهِمْ بَقِيَّة ؛ إِذِ المُكاتَبُ عَبْدٌ ما بَقِيَ عَلَيْهِ دِرْهَمٌ ، فَما دامَ العَبْدُ مَسْجُونًا بِمُحِيطاتِهِ مَحْصُورًا فِي هَيْكَلِ ذاتِهِ ، لا تَنْفَكُّ عَنْهُ الحُظُوظ ؛ إِمَّا دُنْيَوِيَّة ، أَوْ أُخْرَوِيَّة ، فَلا تَتَحَقَّقُ عُبُودِيَّتُهُ للهِ وفِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِحُظُوظِهِ وهَواه ، فَلا يَكُونُ صادِقًا فِي عُبُودِيَّتِهِ وهُوَ مَمْلُوكٌ لِحَظِّ نَفْسِهِ ، فَإِذا قالَ : أَنا عَبْدُ اللهِ ، نازَعَتْهُ حُظُوظُهُ وهَواه ، فَلا تَتَّفِقُ عُبُودِيَّتُهُ حَتَّى يَتَحَرَّرَ مِنْ رِقِّ الأَكْوان ، ويَتَحَقَّقَ بِمَقامِ الأَحْرارِ مِنْ أَهْلِ العِرْفان ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ سالِمًا للهِ حُرًّا مِمَّا سِواه .

قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ (١) أَيْ : مُتَخاصِمُونَ ، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ (٢) .

---

(١)، (٢) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٢٩ .

أَيْ : لا يَسْتَوِيانِ أَبَداً ؛ إِذِ العَبْدُ الخالِصُ لِسَيِّدٍ واحِدٍ يَكُونُ أَحْظَى وأَعَزَّ وأَقْرَبَ مِنَ العَبْدِ المُشْتَرَك ، وكَذَلِكَ العَبْدُ الخالِصُ للهِ أَحْظَى بِمَحَبَّةِ مَوْلاه .

وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (تَعِسَ[1] عَبْدُ الدِّينارِ والدِّرْهَمِ والخَمِيصَة ، إِذا أُعْطِيَ رَضِيَ ، وإِذا لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِسَ وانْتَكَسَ ، وإِذا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ) ؛ أَيْ : إِذا أَصابَتْهُ شَوْكَةٌ فاللهُ لا يُخْرِجُها مِنْهُ بِالنَّقْشِ عَلَيْها ، وهُوَ دُعاءٌ عَلَى مَنْ حَطَّهُ هَواهُ بِالتَّنْكِيس ، وعَدَمِ الخُرُوجِ مِمَّا يَقَعُ فِيه .

وقالَ أَبُو سُلَيْمانَ الدَّارانِي : ((شَتَّانَ بَيْنَ مَنْ هَمُّهُ الحُورُ والقُصُور ، وبَيْنَ مَنْ هَمُّهُ الحُضُورُ ورَفْعُ السُّتُور)) .

ولأَجْلِ هَذا كانَ مَطْلَبُ العارِفِينَ إِنَّما هُوَ التَّحَقُّقَ بِالعُبُودِيَّةِ لِمَوْلاهُم ، بِالتَّحَرُّرِ مِنْ رِقِّ هَواهُمْ ، والقِيامِ بِوَظائِفِ الرُّبُوبِيَّةِ بِالأَدَبِ والتَّعْظِيم ، والإِجْلالِ لِمَوْلاهُمْ ، وهُما مُتَلازِمان ، فَما تَحَقَّقَ الصِّدْقُ فِي العُبُودِيَّةِ إِلَّا حَصَلَ القِيامُ بِوَظائِفِ الرُّبُوبِيَّةِ ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ إِذا ماتَتْ بِتَرْكِ حُظُوظِها ، حَيِيَتِ الرُّوح ، وإِذا حَيِيَتِ الرُّوح ، عَرَفَتْ ، وإِذا عَرَفَتْ ، أَذْعَنَتْ وخَضَعَتْ لِهَيْبَةِ الجَلال ، وهَذا هُوَ القِيامُ بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّة ،

---

(١) تَعِسَ : خابَ وخَسِرَ .

وهُوَ مُرادُ العارِفِين ، ومَقْصُودُ السَّائِرين ، ومَحَطُّ نَظَرِ القاصِدِينَ والطَّالِبين .

قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : ((ما مُرادُ العارِف ؟ قالَ : مُرادُ مَعْرُوفِهِ)) .

أَيْ : لا يُرِيدُ إِلَّا ما أَرادَ سَيِّدُهُ ، ولا يَتَمَنَّى إِلَّا ما يَقْضِيهِ عَلَيْهِ مَوْلاه .

وقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : ما تَشْتَهِي ؟ قالَ : ما يَقْضِي اللّه ، فَبِهَذا يَتَحَقَّقُ للعارِفِ فَناؤُهُ ، وبِتَحَقُّقِ فَنائِهِ بَقاؤُهُ ، وأَنْشَدُوا :

لَوْقِيلَ ما تَمَنَّى وَالْعَبْدُ يُعْطَى مُنَاهُ ۞ لَقُلْتُ مُنْيَةُ قَلْبِي أَنْ يَطُولَ بَقَاهُ

أَيْ : فِي أَنْ يَطُولَ بَقاؤُهُ مَعَ مَوْلاه .

فَإِذا طَلَبَ العَبْدُ مِنْ مَوْلاهُ ما هُوَ طالِبُهُ مِنْهُ مِن اسْتِقامَةِ ظاهِرِهِ بِالنُّهُوضِ إِلَى كَمالِ الطَّاعات ، والحُزْنِ عَلَى ما سَلَفَ مِنَ الغَفَلات ، واسْتِقامَةِ باطِنِهِ بِمَعْرِفَةِ مَعْبُودِهِ ، والفَناءِ فِي شُهُودِهِ ، فَيَكُونُ ظاهِرُهُ قائِمًا بِوَظائِفِ العُبُودِيَّة ، وباطِنُهُ مُتَحَقِّقًا بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّة .

ثُمَّ إِذا أَحَسَّ بِإِجابَةِ المَطْلَب ، وحُصُولِ المُنَى والمَرْغَب ، فَرِحَ قَلْبُهُ ، وانْبَسَطَتْ رُوحُهُ ، حَيْثُ شَمَّتْ نَسِيمَ الإِقْبالِ ورَوْحَ الوِصال ، فَرُبَّما يَقْبِضُها البَسْطُ عَنْ شُهُودِ مَوْلاها ، فَيُخْرِجُها مِنْهُ إِلَى القَبْضِ ، ثُمَّ يُرَحِّلُها عَنْهُما إِلَيْهِ ، كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(بَسَطَكَ كَيْلا يُبْقِيَكَ مَعَ القَبْضِ ، وقَبَضَكَ كَيْلا يَتْرُكَكَ مَعَ البَسْطِ ، وأَخْرَجَكَ عَنْهُما كَيْلا تَكُونَ لِشَيْءٍ دُونَهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **البَسْطُ** : فَرَحٌ يَعْتَرِي القُلُوبَ أَوِ الأَرْواحَ ؛ إِمَّا بِسَبَبِ قُرْبِ شُهُودِ الحَبِيب ، أَوْ شُهُودِ جَمالِهِ ، أَوْ بِكَشْفِ الحِجابِ عَنْ أَوْصافِ كَمالِهِ ، وتَجَلِّي ذاتِهِ لَهُمْ ، أَوْ بِغَيْرِ سَبَب .

والقَبْضُ : حُزْنٌ وضِيقٌ يَعْتَرِي القَلْبَ : إِمَّا بِسَبَبِ فَواتِ مَرْغُوبٍ ، أَوْ عَدَمِ حُصُولِ مَطْلُوب : أَوْ بِغَيْرِ سَبَب .

والبَسْطُ والقَبْضُ يَتَعاقَبانِ عَلَى السَّالِكِ تَعاقُبَ اللَّيْلِ والنَّهار ، فالعَوامُّ إِذا غَلَبَ عَلَيْهِمُ الخَوْفُ انْقَبَضُوا ، وإِذا غَلَبَ عَلَيْهِمُ الرَّجاءُ انْبَسَطُوا ، والخَواصُّ إِذا تَجَلَّى لَهُمْ بِوَصْفِ الجَمالِ انْبَسَطُوا ، وإِذا تَجَلَّى لَهُمْ بِوَصْفِ الجَلالِ انْقَبَضُوا ، وخَواصُّ الخَواصِّ اسْتَوَى عِنْدَهُمُ الجَلالُ والجَمال ، فَلا تُغَيِّرُهُمْ وارِداتُ الأَحْوال ؛ لأَنَّهُمْ بِاللهِ ولله ، لا لِشَيْءٍ سِواه ، فالأَوَّلُونَ مَلَكَتْهُمُ الأَحْوال ، وخَواصُّ الخَواصِّ مالِكُونَ الأَحْوال ، فَمِنْ لُطْفِهِ بِكَ أَيُّها السَّالِكُ أَخْرَجَكَ مِنَ الأَغْيار ، ودَفَعَكَ إِلَى حَضْرَةِ الأَسْرار ، فَإِذا أَخَذَكَ القَبْضُ ، وتَمَكَّنَ مِنْكَ الخَوْفُ ، وسَكَنْتَ تَحْتَ

قَهْرِهِ ، وأَنِسْتَ بِأَمْرِهِ ، أَخْرَجَكَ إِلَى البَسْطِ ، لِئَلَّا يَحْتَرِقَ قَلْبُكَ ، ويَذُوبَ جِسْمُكَ ، فَإِذا حَبَسَكَ البَسْطُ وفَرِحْتَ بِهِ وأَنِسْتَ بِجَمالِهِ ، قَبَضَكَ لِئَلَّا يَتْرُكَكَ مَعَ البَسْطِ فَتُسِيءَ الأَدَبَ وتُجَرَّ إِلَى العَطَب ؛ إِذْ لا يَقِفُ مَعَ الأَدَبِ فِي البَسْطِ إِلَّا القَلِيل .

هَكَذا يُسَيِّرُكَ بَيْنَ شُهُودِ جَلالِهِ وجَمالِهِ ، فَإِذا شَهِدْتَ أَثَرَ وَصْفِ الجَلالِ انْقَبَضْتَ ، وإِذا شَهِدْتَ أَثَرَ وَصْفِ الجَمالِ انْبَسَطْتَ ، ثُمَّ يَفْتَحُ لَكَ الباب ، ويَرْفَعُ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ الحِجاب ، فَتَتَنَزَّهُ فِي كَمالِ الذَّاتِ وشُهُودِ الصِّفات ، فَتَغِيبُ عَنْ أَثَرِ الجَلالِ والجَمالِ بِشُهُودِ الكَبِيرِ المُتَعال ، فَلا جَلالُهُ يَحْجُبُكَ عَنْ جَمالِهِ ، ولا جَمالُهُ يَحْجُبُكَ عَنْ جَلالِهِ ، ولا ذاتُهُ تَحْبِسُكَ عَنْ صِفاتِهِ ، ولا صِفاتُهُ تَحْبِسُكَ عَنْ ذاتِهِ .

تَشْهَدُ جَمالَهُ فِي جَلالِهِ ، وجَلالَهُ فِي جَمالِهِ ، وتَشْهَدُ ذاتَهُ فِي صِفاتِهِ ، وصِفاتِهِ فِي ذاتِهِ ، أَخْرَجَكَ عَنْ شُهُودِ أَثَرِ الجَلالِ والجَمال ؛ لِتَكُونَ حُرًّا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وعَبْدًا لَهُ فِي كُلِّ شَيْء ، وأَنْشَدُوا :

حَرامٌ عَلَى مَنْ وَحَّدَاللَّهَ رَبَّهُ ❁ وَأَفْرَدَهُ أَنْ يَحْتَذِي أَحَدًا رِفْدَا

فَيَا صَاحِبِي قِفْ بِي عَلَى الْحَقِّ وَقْفَةً ❁ أَمُوتُ بِهَا وَجْدًا وَأَحْيَا بِهَا وَجْدَا

وَقُلْ لِمُلُوكِ الْأَرْضِ تَجْهَدُ جُهْدَهَا ❁ فَذَا الْمُلْكُ مُلْكٌ لا يُبَاحُ وَلا يُهْدَىٰ

آدابُ القَبْضِ والبَسْط

واعْلَمْ أَنَّ القَبْضَ والبَسْطَ لَهُما آداب ، فَإِذا أَساءَ فِيهِما الأَدَبَ طُرِدَ إِلَى الباب ، أَوْ إِلَى سِياسَةِ الدَّوابّ .

فَمِنْ آدابِ القَبْضِ : الطُّمَأْنِينَةُ والوَقار ، والسُّكُونُ تَحْتَ مَجارِي الأَقْدار ، والرُّجُوعُ إِلَى الواحِدِ القَهَّار ، فَإِنَّ القَبْضَ شَبِيهٌ بِاللَّيْلِ ، والبَسْطَ شَبِيهٌ بِالنَّهار ، ومِنْ شَأْنِ اللَّيْلِ الرُّقادُ والهُدُوُّ والسُّكُونُ والحُنُوُّ .

فاصْبِرْ أَيُّها المُرِيد ، واسْكُنْ تَحْتَ ظُلْمَةِ لَيْلِ القَبْضِ حَتَّى تُشْرِقَ عَلَيْكَ شُمُوسُ نَهارِ البَسْط ؛ إِذْ لا بُدَّ لِلَّيْلِ مِنْ تَعاقُبِ النَّهار ، ولا بُدَّ للنَّهارِ مِنْ تَعاقُبِ اللَّيْل : ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ (١) .

هَذِهِ آدابُ القَبْضِ الَّذي لا تَعْرِفُ لَهُ سَبَبًا .

وأَمَّا إِذا عَرَفْتَ لَهُ سَبَبًا ، فارْجِعْ فِيهِ إِلَى مُسَبِّبِ الأَسْباب ، ولُذْ بِجانِبِ الكَرِيمِ الوَهَّاب ، فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلاَّ حَسَنًا ؟ وهَلْ أَسْدَى إِلَيْكَ إِلاَّ مِنَنًا ؟ فالَّذي واجَهَتْكَ مِنْهُ الأَقْدارُ هُوَ الَّذي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاخْتِيار ، فالَّذي أَنْزَلَ الدَّاءَ هُوَ الَّذي بِيَدِهِ الشِّفاء .

يا مَهْمُومًا بِنَفْسِهِ ! لَوْ أَلْقَيْتَها إِلَى اللّه ، لاسْتَرَحْتَ ، فَما تَجِدُهُ القُلُوبُ

---

(١) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ٦ .

مِنَ الأَحْزان ، فَلِأَجْلِ ما مُنِعَتْهُ مِنَ الشُّهُودِ والعِيان .

والحاصِلُ : أَنَّ سَبَبَ القَبْضِ إِنَّما هُوَ النَّظَرُ للسِّوَى ، والغَفْلَةُ عَنِ المَوْلَى ، وأَمَّا أَهْلُ الصَّفاءِ فَلا يَشْهَدُونَ إِلَّا الصَّفاءَ ، ولِذَلِكَ كانَ ﷺ يَقُولُ :

(مَنْ أَصابَهُ هَمٌّ أَوْ غَمٌّ فَلْيَقُلْ : اللّٰه اللّٰه لا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، فَإِنَّ اللّٰهَ يُذْهِبُ هَمَّهُ وغَمَّهُ) .

فانْظُرْ كَيْفَ دَلَّ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - المَقْبُوضَ إِلَى الدَّواء ، وهُوَ شُهُودُ التَّوْحِيد ، والغَيْبَةُ عَنِ الشِّرْكِ ، فَدَلَّنا ﷺ عَلَى القَوْلِ ، والمُرادُ مِنْهُ المَعْنَى ، فَكَأَنَّهُ قالَ : اعْرِفُوا اللّٰهَ ووَحِّدوهُ ، يَنْقَلِبْ قَبْضُكُمْ بَسْطًا ونِقْمَتُكُمْ نِعْمَةً .

وكَذَلِكَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ قالَ ﷺ :

(ما قالَ أَحَدٌ : اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وابْنُ عَبْدِكَ وابْنُ أَمَتِكَ ، ناصِيَتِي بِيَدِكَ ، ماضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ العَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي ، ونُورَ بَصَرِي ، وجَلاءَ حُزْنِي ، وذَهابَ هَمِّي وغَمِّي ، إِلَّا أَذْهَبَ

اللّٰهُ هَمَّهُ وغَمَّهُ ، وأَبْدِلَ مَكانَ هَمِّهِ فَرَحًا وسُرُورًا) .

فَدَلَّهُمْ أَوَّلًا فِي الحَدِيثِ الأَوَّلِ عَلَى شُهُودِ الرُّبُوبِيَّة ، وفِي الحَدِيثِ الثَّانِي عَلَى القِيامِ بِوَظائِفِ العُبُودِيَّة ، وهُوَ الصَّبْرُ والرِّضا ؛ إِذْ مِنْ شَأْنِ العَبْدِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى أَحْكامِ سَيِّدِهِ ، ويُسَلِّمَ ويَرْضَى لِما يُجْرِيهِ عَلَيْهِ مِنْ أَوْصافِ قَهْرِهِ .

ومِنْ آدابِ البَسْطِ : كَفُّ الجَوارِحِ عَنِ الطُّغْيان ، وخُصُوصًا جارِحَةَ اللِّسان ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ إِذا فَرِحَتْ بَطِرَتْ وخَفَّتْ و نَشَطَتْ ، فَرُبَّما تَنْطِقُ بِكَلِمَةٍ لا تُلْقِي لَها بالًا ، فَتَسْقُطَ فِي مَهاوِي القَطِيعَةِ بِسَبَبِ سُوءِ أَدَبِها ، ولِذَلِكَ كانَ البَسْطُ مَزَلَّةَ أَقْدام ، فَإِذا أَحَسَّ المُرِيدُ بِالبَسْطِ ، فَلْيُلْجِمْ نَفْسَهُ بِلِجامِ الصَّمْت ، ولْيَتَحَلَّ بِحِلْيَةِ السَّكِينَةِ والوَقار ، ولْيَدْخُلْ خَلْوَتَهُ ، ولْيَلْتَزِمْ بَيْتَهُ ، فَمَثَلُ المُرِيدِ فِي حالَةِ البَسْطِ والقُوَّةِ كَقِدْرٍ غَلَى وفارَ ، فَإِنْ تَرَكَهُ يَغْلِي ، أَهْراقَ إِدامَهُ وبَقِيَ شاحِتًا ، وإِنْ كَفَّهُ وأَخْمَدَ نارَهُ ، بَقِيَ إِدامُهُ تامًّا ، كَذَلِكَ المُرِيدُ فِي حالَةِ القُوَّةِ والبَسْطِ يَكُونُ نُورُهُ قَوِيًّا ، وقَلْبُهُ مَجْمُوعًا ، فَإِذا تَحَرَّكَ وبَطَشَ وتَتَبَّعَ قُوَّتَهُ ، بَرَدَ ورَجَعَ لِضَعْفِهِ ، وما ذَلِكَ إِلَّا لِسُوءِ أَدَبِهِ .

ولأَجْلِ هَذا كانَ العارِفُونَ يَخافُونَ مِنَ البَسْطِ أَكْثَرَ مِنَ القَبْضِ ؛ كَما

نَبَّهَ عَلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(**العارِفُونَ إذا بُسِطُوا أَخْوَفُ مِنْهُمْ إذا قُبِضُوا**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : كُلُّ مَنْ فُتِحَ عَلَيْهِ فِي شُهُودِ المَعانِي فَهُوَ عارِفٌ ، فَإِنْ تَمَكَّنَ مِنْ شُهُودِ المَعْنَى عَلَى الدَّوامِ فَهُوَ واصِلٌ مُتَمَكِّنٌ ، وإِلَّا فَهُوَ سائِرٌ .

وإِنَّما كانَ العارِفُ إذا انْبَسَطَ أَخْوَفَ مِنْهُ إذا انْقَبَضَ ؛ لأَنَّ القَبْضَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقْبِضَ النَّفْسَ عَنْ حُظُوظِها ، ومِنْ شَأْنِهِ أَيْضًا السُّكُونُ ، والسُّكُونُ كُلُّهُ أَدَبٌ ، ومِنْ شَأْنِ البَسْطِ أَنْ يَبْسُطَ النَّفْسَ ويُنَشِّطَها ، فَرُبَّما تَبْطِشُ لِما فِيهِ حَظُّها ، فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها بِسَبَبِ قِلَّةِ آدابِها ، ولِذَلِكَ قالَ ابنُ عَطاءِ اللهِ :

(**ولا يَقِفُ عَلَى حُدُودِ الأَدَبِ فِي البَسْطِ إِلَّا قَلِيلٌ**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : وهُمْ أَهْلُ الطُّمَأْنِينَةِ والتَّمْكِين ؛ لأَنَّهُمْ كالجِبالِ الرَّواسِي ، لا يُحَرِّكُهُمْ قَبْضٌ ولا بَسْطٌ ، فَهُمْ مالِكُونَ الأَحْوال ، لا يُخْرِجُهُم القَبْضُ ولا البَسْطُ عَنْ حالَةِ الاعْتِدال ، بِخِلافِ السَّائِرِينَ وإِنْ كانُوا عارِفِينَ ، فَإِنَّهُمْ رُبَّما تُؤَثِّرُ فِيهِمُ الوارِداتُ ، فَيَرِدُ عَلَيْهِمْ وارِدُ البَسْطِ فَيُخْرِجُهُمْ عَنْ حَدِّ الأَدَبِ ، وقَدْ قِيلَ : قِفْ عَلَى البِساط ، وإِيَّاكَ والانْبِساط .

وقالَ رَجُلٌ لأَبي مُحَمَّد الحَريري : كُنْتُ عَلَى بِساطِ الأُنْسِ ، وفُتِحَ عَلَيَّ طَرِيقُ البَسْطِ ، فَزَلَلْتُ زَلَّةً ، فَحُجِبْتُ عَنْ مَقامِي ، فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهِ ؟ دُلَّنِي عَلَى الوُصُولِ إِلَى ما كُنْتُ عَلَيْهِ ، فَبَكَى أَبُو مُحَمَّدٍ وقالَ : يا أَخِي ! الكُلُّ فِي قَهْرِ هَذِهِ الخُطَّةِ ، لَكِنِّي أُنْشِدُكَ أَبْياتًا لِبَعْضِهِمْ ، وأَنْشَدَ يَقُولُ :

قِفْ بِالدِّيَارِ فَهَذِهِ آثَارُهُمْ ❁ تَبْكِي الْأَحِبَّةَ حَسْرَةً وتَشَوُّقَا

كَمْ قَدْ وَقَفْتُ بِرَبْعِهَا مُسْتَخْبِرًا ❁ عَنْ أَهْلِهَا أَوْ سَائِلًا أَوْ مُشْفِقَا

فَأَجَابَنِي دَاعِي الْهَوَى فِي رَسْمِهَا ❁ فَارَقْتَ مَنْ تَهْوَى فَعَزَّ الْمُلْتَقَىٰ

ثُمَّ عَلَّلَ ابنُ عَطاءِ اللَّهِ عَدَمَ الوُقُوفِ عَلَى حُدُودِ الأَدَبِ فِي البَسْطِ فَقالَ : (**البَسْطُ تَأْخُذُ النَّفْسُ مِنْهُ حَظَّها بِوُجُودِ الفَرَحِ ، والقَبْضُ لا حَظَّ لِلنَّفْسِ فِيهِ**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لأَنَّ البَسْطَ جَمال ، والقَبْضَ جَلال ، ومِنْ شَأْنِ الجَمالِ ، أَنْ يَأْتِيَ بِكُلِّ جَمال ، وأَيْنَ هُوَ الجَمال ؟ ثُمَّ هُوَ عَيْنُ الجَلال ، أَيْنَ هُوَ حَبِيبُكَ ؟ ثَمَّ هُوَ عَدُوُّكَ ، أَيْنَ هُوَ الرِّبْحُ ؟ ثَمَّ هُوَ الخَسارَة . ومَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ المَوْضِعَ الَّذي يُلائِمُ النَّفْسَ ويَلِيقُ بِها ثَمَّ هُوَ خَسارَةُ القَلْبِ وحِجابُ الرُّوح ؛ لأَنَّ المَوْضِعَ الَّذي تَحْيا بِهِ النَّفْسُ يَمُوتُ فِيهِ

القَلْبُ ؛ والمَوْضِعَ الَّذي تَمُوتُ فِيهِ النَّفْسُ يَحْيا بِهِ القَلْبُ والرُّوح ، ولِذَلِكَ قالَ ابنُ الفارِض :

الْمَوْتُ فِيهِ حَيَاتِي ❁ وَفِي حَيَاتِيَ قَتْلِي

وقالَ الشَّشْتُرِي :

إِنْ تُرِدْ وَصْلَنَا فَمَوْتُكَ شَرْطٌ ❁ لا يَنَالُ الْوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَهْ

وكَتَبَ يُوسُفُ بنُ الحُسَيْنِ الرَّازِي إِلَى الإِمامِ الجُنَيْد : ((لا أَذاقَكَ اللّهُ طَعْمَ نَفْسِكَ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ ذُقْتَها لا تَذُقْ بَعْدَها خَيْراً أَبَداً)) .

وقالَ أَبو عَلِيٍّ الدَّقَّاق : ((القَبْضُ حَقُّ الحَقِّ مِنْكَ ، والبَسْطُ حَقُّكَ مِنْهُ ، ولأَنْ تكُونَ بِحَقِّ رَبِّكَ أَوْلَى مِنْ أَنْ تَكُونَ بِحَظِّ نَفْسِكَ)) .

وهَذا كُلُّهُ فِي حَقِّ السَّائِرِينَ ، وأَمَّا الواصِلُونَ المُتَمَكِّنُونَ ، فَلا يُؤَثِّرُ فِيهِمْ جَلالٌ ولا جَمالٌ ، ولا يُحَرِّكُهُمْ قَبْضٌ ولا بَسْطٌ ؛ لأَنَّهُمْ بِاللّهِ ولِلّه ، ومِنَ اللّهِ وإِلَى اللّه ؛ بِاللّهِ تَصَرُّفُهُمْ ، ولِلّهِ عُبُودِيَّتُهُمْ ، ومِنَ اللّهِ وُرُودُهُمْ ، وإِلَى اللّهِ صُدُورُهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ لِلّه ، لا لِشَيْءٍ دُونَهُ .

قالَ الجُنَيْدُ رضي الله عنه : ((الخَوْفُ يَقْبِضُنِي ، والرَّجاءُ يَبْسِطُنِي ، والحَقِيقَةُ تَجْمَعُنِي ، والحَقُّ يُفَرِّقُنِي ، إِذا قَبَضَنِي بِالخَوْفِ أَفْنانِي عَنِّي ، وإِذا بَسَطَنِي بِالرَّجاءِ رَدَّنِي عَلَيَّ ، وإِذا جَمَعَنِي بِالحَقِيقَةِ أَحْضَرَنِي ، وإِذا

فَرَّقَنِي بِالحَقِّ أَشْهَدَنِي غَيْرِي ، فَغَطَّانِي عَنْهُ ، فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُحَرِّكِي غَيْرُ مُسَكِّنِي ، ومُوحِشِي غَيْرُ مُؤْنِسِي ، بِحُضُورِي لِذَوْقِ طَعْمِ وُجُودِي ، فَلَيْتَهُ أَفْنانِي عَنِّي فَمَتَّعَنِي ، أَوْ غَيَّبَنِي عَنِّي فَرَوَّحَنِي)) .

قَوْلُهُ رضي الله عنه : الخَوْفُ يَقْبِضُنِي ؛ لأَنَّ العَبْدَ فِي حالَةِ الخَوْفِ يَشْهَدُ ما مِنْهُ إِلَى اللهِ مِنَ الإِساءَة ، فَيَنْفَتِحُ لَهُ بابُ الحُزْن ، وفِي حالَةِ الرَّجاءِ يَشْهَدُ ما مِنَ اللهِ إِلَيْهِ مِنَ الإِحْسان ، فَيَنْفَتِحُ لَهُ بابُ الرَّجاءِ والبَسْط .

وقَوْلُهُ : والحَقِيقَةُ تَجْمَعُنِي ؛ أَيْ : تُغْنِينِي عَنْ نَفْسِي وتَجْمَعُنِي بِهِ ، فَلا نَشْهَدُ إِلَّا ما مِنَ اللهِ إِلَى اللهِ ، فَلا قَبْضَ ولا بَسْطَ .

وقَوْلُهُ : والحَقُّ يُفَرِّقُنِي ، المُرادُ بِالحَقِّ الحُقُوقُ اللَّازِمَةُ للعُبُودِيَّة ، فَلا يَنْهَضُ إِلَيْها إِلَّا بِشُهُودِ نَوْعٍ مِنَ الفَرْق ، وإِنْ كانَ نُهُوضُهُ بِاللهِ .

وقَوْلُهُ : إِذا قَبَضَنِي بِالخَوْفِ أَفْنانِي عَنِّي ؛ أَي : إِذا تَجَلَّى لِي بِاسْمِهِ الجَلِيل ، ذابَ جِسْمِي مِنْ هَيْبَةِ المُتَجَلِّي ، وإِذا بَسَطَنِي بِالرَّجاءِ بِأَنْ تَجَلَّى لِي بِاسْمِهِ الجَمِيلِ أَوِ الرَّحِيم ، رَدَّ نَفْسِي ووُجُودِي عَلَيَّ ، وإِذا جَمَعَنِي إِلَيْهِ بِشُهُودِ الحَقِيقَة ، أَحْضَرَنِي مَعَهُ بِزَوالِ وَهْمِي ، وإِذا فَرَّقَنِي بِالحَقِّ الَّذي أَوْجَبَهُ عَلَيَّ لِلقِيامِ بِوَظائِفِ حِكْمَتِهِ ، أَشْهَدَنِي

غَيْرِي ، حَتَّى يَظْهَرَ الأَدَبُ مِنِّي مَعَهُ ، وقَدْ يَقْوَى الشُّهُودُ فَلا يَشْهَدُ الأَدَبَ إِلَّا مِنْهُ إِلَيْه .

وقَوْلُهُ : فَغَطَّانِي عَنْهُ ؛ لأَنَّ العَبْدَ فِي حالَةِ النُّزُولِ إِلى سَماءِ الحُقُوقِ أَوْ أَرْضِ الحُظُوظِ قَدْ يَرْجِعُ لِمَقامِ المُراقَبَة ، لَكِنَّهُ غَيْرُ لازِم ، وسَيَأْتِي لابن عَطاءِ اللّه : ((بَلْ نَزَلُوا فِي ذَلِكَ بِاللّهِ ومِنَ اللّهِ وإِلَى اللّه)) ، فَعَلَى هَذا لا تَغْطِيَةَ للعَبْدِ فِي حالَةِ النُّزُولِ لِلحَقِّ أَصْلًا .

وقَوْلُهُ : فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُحَرِّكِي غَيْرُ مُسَكِّنِي . يَعْنِي أَنَّ الحَقَّ تَعالَى حِينَ يَقْبِضُهُ بِالخَوْفِ ، أَوْ يَبْسِطُهُ بِالرَّجاءِ ، أَوْ يَجْمَعُهُ بِالحَقِيقَةِ ، أَوْ يُفَرِّقُهُ بِالحَقِّ ، هُوَ مُحَرِّكٌ لَهُ لِيُسَيِّرَهُ إِلَيْهِ ، ويَحُوشَهُ إِلَيْهِ ، غَيْرُ مُسَكِّنٍ لَهُ فِي مَقامٍ واحِد ، ومُوحِشُهُ عَنْ عالَمِ نَفْسِهِ ، غَيْرُ مُؤْنِسٍ لَهُ بِها بِسَبَبِ حُضُورِهِ مَعَ عَوالِمِهِ البَشَرِيَّة ، فَيَذُوقُ طَعْمَ وُجُودِها ، فَإِذا غَيَّبَهُ عَنْهُ ، عَرَفَ قَدْرَ ما مَنَّ بِهِ عَلَيْهِ ، ولِذَلِكَ قالَ : فَلَيْتَهُ أَفْنانِي عَنِّي ؛ أَيْ : عَنْ رُؤْيَةِ وُجُودِي ، فَمَتَّعَنِي بِشُهُودِهِ ، أَوْ غَيَّبَنِي عَنْ حِسِّي ، فَرَوَّحَنِي مِنَ الحُقُوقِ الَّتِي تُفَرِّقُنِي عَنْهُ بِإِسْقاطِها عَنِّي فِي حالَةِ الغَيْبَة ، وكَأَنَّهُ مالَ إِلى طَلَبِ السَّلامَة ؛ خَوْفًا مِنَ الوُقُوعِ فِيما يُوجِبُ المَلامَة ، وإِنْ كانَ الكَمالُ هُوَ الجَمْعَ بَيْنَ العُبُودِيَّةِ وشُهُودِ الرُّبُوبِيَّة .

أَسْبابُ القَبْضِ والبَسْطِ

ثُمَّ ذَكَرَ أَسْبابَ القَبْضِ والبَسْطِ ، وهُوَ العَطاءُ والمَنْعُ فِي الغالِب ، فَقالَ رضي الله عنه :

(رُبَّما أَعْطاكَ فَمَنَعَكَ ، ورُبَّما مَنَعَكَ فَأَعْطاكَ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : الغالِبُ عَلَى النَّفْسِ الأَمَّارَةِ واللَّوَّامَةِ أَنْ تَنْبَسِطَ بِالعَطاء ، وتَنْقَبِضَ بِالمَنْع ؛ لأَنَّ فِي العَطاءِ مُتْعَتَها وشَهْوَتَها ، فَلا جَرَمَ أَنَّها تَنْبَسِطُ بِذَلِكَ ، وفِي المَنْعِ قَطْعُ مَوادِّها ، وتَرْكُ حُظُوظِها ، ولا شَكَّ أَنَّها تَنْقَبِضُ بِذَلِكَ ، وذَلِكَ لِجَهْلِها بِرَبِّها ، وعَدَمِ فَهْمِها ، فَلَوْ فَهِمَتْ عَنِ اللهِ ، لَعَلِمَتْ أَنَّ المَنْعَ عَيْنُ العَطاء ، والعَطاءَ عَيْنُ المَنْعِ ، فافْهَمْ أَيُّها الفَقِيرُ عَنْ مَوْلاك ، ولا تَتَّهِمْهُ فِيما بِهِ أَوْلاك .

فَرُبَّما أَعْطاكَ ما تَشْتَهِيهِ النُّفُوس ، فَمَنَعَكَ بِذَلِكَ حَضْرَةَ القُدُّوس ، ورُبَّما مَنَعَكَ ما تَشْتَهِيهِ نَفْسُك ، فَيَتِمُّ بِذَلِكَ حُضورُكَ وأُنْسُك .

رُبَّما أَعْطاكَ مُتْعَةَ الدُّنْيا وزَهْرَتَها ، فَمَنَعَكَ جَمالَ الحَضْرَةِ وبَهْجَتَها ، ورُبَّما مَنَعَكَ زِينَةَ الدُّنْيا وبَهْجَتَها ، فَأَعْطاكَ شُهُودَ الحَضْرَةِ ونَظْرَتَها .

رُبَّما أَعْطاكَ قُوتَ الأَشْباح ، فَمَنَعَكَ قُوتَ الأَرْواح ، ورُبَّما مَنَعَكَ قُوتَ الأَشْباح ، فَمَتَّعَكَ بِقُوتِ الأَرْواح .

رُبَّما أَعْطاكَ إقْبالَ الخَلْق ، فَمَنَعَكَ مِنْ إقْبالِ الحَقِّ ، ورُبَّما مَنَعَكَ مِنْ إقْبالِ الخَلْقِ فَأَعْطاكَ الأُنْسَ بالمَلِكِ الحَقِّ .

رُبَّما أَعْطاكَ العُلُومَ ، وفَتَحَ لَكَ مَخازِنَ الفُهُوم ، فَحَجَبَكَ بِذَلِكَ عَنْ شُهُودِ المَعْلُوم ومَعْرِفَةِ الحَيِّ القَيُّوم ، ورُبَّما مَنَعَكَ مِنْ كَثْرَةِ العُلُوم ، وأَعْطاكَ الأُنْسَ بالحَيِّ القَيُّوم ، فَأَحَطْتَ بِكُلِّ مَجْهُولٍ ومَعْلُوم .

رُبَّما أَعْطاكَ عِزَّ الدُّنْيا ، ومَنَعَكَ عِزَّ الآخِرَة ، ورُبَّما مَنَعَكَ مِنْ عِزِّ الدُّنْيا ، وأَعْطاكَ عِزَّ الآخِرَة .

رُبَّما أَعْطاكَ التَّعَزُّزَ بالخَلْق ، ومَنَعَكَ مِنَ التَّعَزُّزِ بالحَقِّ ، ورُبَّما مَنَعَكَ مِنَ التَّعَزُّزِ بالخَلْق ، وأَعْطاكَ التَّعَزُّزَ بالمَلِكِ الحَقِّ .

رُبَّما أَعْطاكَ خِدْمَةَ الكَوْن ، فَمَنَعَكَ مِنْ شُهُودِ المُكَوِّن ، ورُبَّما مَنَعَكَ مِنْ خِدْمَةِ الكَوْن ، وأَعْطاكَ شُهُودَ المُكَوِّن .

رُبَّما أَعْطاكَ التَّصَرُّفَ فِي المُلْكِ ، ومَنَعَكَ دُخُولَ المَلَكُوت ، ورُبَّما مَنَعَكَ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي المُلْكِ ، ومَنَحَكَ شُهُودَ المَلَكُوت .

رُبَّما أَعْطاكَ أَنْوارَ المَلَكُوتِ ، ومَنَعَكَ التَّرَقِّيَ إلَى بَحْرِ الجَبَرُوت ، ورُبَّما حَجَبَ عَنْكَ أَنْوارَ المَلَكُوتِ ، فَأَعْطاكَ الدُّخُولَ إلَى حَضْرَةِ الجَبَرُوت .

رُبَّما أَعْطاكَ القُطْبانِيَّةَ ، ومَنَعَكَ التَّمَتُّعَ بِشُهُودِ الفَرْدانِيَّة ، ورُبَّما مَنَعَكَ القُطْبانِيَّةَ ، ومَتَّعَكَ بِشُهُودِ سِرِّ الوَحْدانِيَّة .

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لا يُحْصِيهِ إِلَّا عَلَّامُ الغُيُوب .

قَالَ ابنُ عَرَبِي الحاتِمِي رضي الله عنه : ((إذا مُنِعْتَ فَذاكَ عَطاؤُهُ ، وإذا أُعْطِيتَ فَذاكَ مَنْعُهُ ، فاخْتَرِ التَّرْكَ عَلَى الأَخْذ)) .

وشاهِدُهُ قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (١) .

فَإذا فَهِمْتَ هَذا ، عَلِمْتَ أَنَّ المَنْعَ هُوَ العَطاءُ ، كَما بَيَّنَهُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مَتَى فَتَحَ لَكَ بابَ الفَهْمِ فِي المَنْعِ ، عادَ المَنْعُ هُوَ عَيْنَ العَطاء) :

قَالَ ابنُ عَجِيبَة : إذا فَهِمْتَ أَيُّها العَبْدُ عَنِ اللهِ بَعْدَ تَحَقُّقِكَ بِرَحْمَتِهِ ورَأْفَتِهِ وكَرَمِهِ وجُودِهِ ونُفُوذِ قُدْرَتِهِ وإحاطَةِ عِلْمِهِ ، عَلِمْتَ أَنَّكَ إذا سَأَلْتَهُ شَيْئًا ، أَوْ هَمَمْتَ بِشَيْءٍ ، أَوِ احْتَجْتَ إِلَى شَيْءٍ ، فَمَنَعَكَ مِنْهُ ، فَإِنَّما مَنَعَكَ ذَلِكَ رَحْمَةً بِكَ ، وإحْسانًا إِلَيْكَ ؛ إِذْ لَمْ يَمْنَعْكَ مِنْ بُخْلٍ ولا عَجْزٍ ولا جَهْلٍ ولا غَفْلَةٍ ، وإنَّما ذَلِكَ حُسْنُ نَظَرٍ إِلَيْكَ ، وإتْمامٌ لِنِعْمَتِهِ عَلَيْكَ ؛ لِكَوْنِهِ أَتَمَّ نَظَراً وأَحْمَدَ عاقِبَةً : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢) .

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢١٦ .

(٢) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢١٦ .

فَرُبَّما دَبَّرْنا أَمْراً ظَنَنَّا أَنَّهُ لَنا ، فَكانَ عَلَيْنا ، ورُبَّما أَتَتِ الفَوائِدُ مِنْ وُجُوهِ الشَّدائِد ، والشَّدائِدُ مِنْ وُجُوهِ الفَوائِد ، ورُبَّما كَمُنَتِ المِنَنُ فِي المِحَن ، والمِحَنُ فِي المِنَن ، ورُبَّما انْتَفَعْنا عَلَى أَيْدِي الأَعْداء ، وأُوذِينا عَلَى أَيْدِي الأَحِبَّاء ، ورُبَّما تَأْتِي المَسارُّ مِنْ حَيْثُ المَضارُّ ، وقَدْ تَأْتِي المَضارُّ مِنْ حَيْثُ المَسارُّ .

ولِسَيِّدِى أَبِي الحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ فِي ((حِزْبِهِ)) : اللَّهُمَّ إِنَّا قَدْ عَجَزْنا عَنْ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْ أَنْفُسِنا مِنْ حَيْثُ لا نَعْلَمُ بِما نَعْلَمُ ، فَكَيْفَ لا نَعْجَزُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ لا نَعْلَمُ بِما لا نَعْلَمُ ؟

فَمَتَى فُتِحَ لَكَ أَيُّها المُرِيدُ بابُ الفَهْمِ عَنْهُ فِي المَنْعِ ، وعَلِمْتَ ما فِيهِ مِنَ الشَّرِّ والخَيْرِ ، وحُسْنِ النَّظَرِ لَكَ ، عادَ المَنْعُ فِي حَقِّكَ هُوَ عَيْنَ العَطاء .

ومِثالُ ذَلِكَ : كَصَبِيٍّ رَأَى طَعامًا حَسَنًا أَوْ حَلْواءَ أَوْ عَسَلًا ، وفِيهِ سُمٌّ ، وأَبُوهُ عالِمٌ بِما فِيه ، فَكُلَّما بَطَشَ الصَّبِيُّ لِذَلِكَ الطَّعام ، رَدَّهُ أَبُوه ، فالصَّبِيُّ يَبْكِي عَلَيْهِ لِعَدَمِ عِلْمِهِ ، وأَبُوهُ يَرُدُّهُ بِالقَهْرِ لِوُجُودِ عِلْمِهِ ، فَلَوْ عَقَلَ الصَّبِيُّ ما فِيهِ ، ما بَطَشَ إِلَيْهِ ، ولَعَلِمَ نُصْحَ أَبِيهِ وشِدَّةَ رَأْفَتِهِ بِهِ .

كَذَلِكَ العَبْدُ يَبْطِشُ للدُّنْيا أَوِ الرِّياسَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ ضَرَرُه ، فَيَمْنَعُهُ الحَقُّ تَعالَى مِنْهُ رَحْمَةً بِهِ وشَفَقَةً عَلَيْهِ واعْتِناءً بِهِ ، فَإِذا فَهِمَ مِنَ اللّه ، سَلَّمَ الأَمْرَ إِلَى مَوْلاه ، ولَمْ يَتَّهِمْهُ فِيما أَبْرَمَهُ وقَضاه ، وإِذا لَمْ يَفْهَمْ عَنِ اللّه ، تَحَسَّرَ ، ورُبَّما سَخِطَ ، فَإِذا انْكَشَفَ لَهُ سِرُّ ذَلِكَ بَعْدُ ، عَلِمَ ما كانَ فِي ذَلِكَ مِنَ الخَيْر ، لَكِنْ فاتَتْهُ دَرَجَةُ الصَّبْر ، لِقَوْلِهِ ﷺ : (إِنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى) .

وانْظُرْ قَضِيَّةَ الرَّجُلِ الَّذي كانَ يَسْكُنُ فِي البادِيَة ، وكانَ مِنَ العارِفِين ، فاتَّفَقَ لَهُ ذاتَ يَوْم أَنْ ماتَ حِمارُهُ وكَلْبُهُ وديكُهُ ، فَأَتَى إِلَيْهِ أَهْلُهُ ، فَقالُوا لَهُ حِينَ ماتَ الحِمار : ماتَ حِمارُنا ، فَقالَ : خَيْرٌ ، ثُمَّ قالُوا : ماتَ الكَلْبُ ، فَقالَ : خَيْرٌ ، ثُمَّ قالُوا لَهُ : ماتَ الدِّيكُ ، فَقالَ : خَيْرٌ ، فَغَضِبَ أَهْلُ الدَّارِ وقالُوا : أَيُّ خَيْرٍ فِي هَذا ؟ مَتاعُنا ذَهَبَ ونَحْنُ نَنْظُر ؟ فاتَّفَقَ أَنَّ بَعْضَ العَرَبِ ضَرَبُوا عَلَى ذَلِكَ الحَيِّ فِي تِلْكَ اللَّيْلَة ، فاجْتاحُوا كُلَّ ما فِيهِ ، وكانُوا يَسْتَدِلُّونَ عَلَى الخِيامِ بِنَهِيقِ الحِمارِ ونُباحِ الكِلابِ وصُراخِ الدِّيَكَة ، فَأَصْبَحَتْ خَيْمَتُهُ سالِمَةً ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَقِيَ مَنْ يَفْضَحُها .

فانْظُرْ كَيْفَ كانَ حُسْنُ نَظَرِ الحَقِّ لأَوْلِيائِهِ وحُسْنُ تَدْبِيرِهِ لَهُمْ ؟ وكَيْفَ

فَهِمَ الرَّجُلُ العارِفُ ما فِي ذَلِكَ مِنَ السِّرِّ فِي أَوَّلِ مَرَّة ؟

فَهَذا هُوَ الفَهْمُ عَنِ اللّه ، رَزَقَنا اللّهُ مِنْ ذَلِكَ الحَظَّ الأَوْفَرَ ، آمِين .

قالَ الشِّبْلِي : ((الصُّوفِيَّةُ أَطْفالٌ فِي حِجْرِ الحَقِّ تَعالَى)) .

يَعْنِي : أَنَّهُ يَتَوَلَّى حِفْظَهُمْ وتَدْبِيرَهُمْ عَلَى ما فِيهِ صَلاحُهُمْ ، ولا يَكِلُهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ .

سَبَبُ عَدَمِ الفَهْمِ عَنِ اللّه

وسَبَبُ عَدَمِ الفَهْمِ عَنِ اللّهِ هُوَ الوُقُوفُ مَعَ ظَواهِرِ الأَشْياءِ دُونَ النَّظَرِ إِلَى بَواطِنِها ؛ كَما أَبانَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(الأَكْوانُ ظاهِرُها غِرَّةٌ ، وباطِنُها عِبْرَةٌ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الغِرَّةُ : وُقُوعُ الغُرُور ، وإِنَّما كانَتِ الأَكْوانُ ظاهِرُها غِرَّةٌ لِوَجْهَيْن :

الوَجْهُ الأَوَّل : ما جَعَلَ اللّهُ سُبْحانَهُ عَلَى ظاهِرِ حِسِّها مِنَ البَهْجَةِ وحُسْنِ المَنْظَر ، وما تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ مِنْ أَنْواعِ المَآكِلِ والمَشارِبِ والمَلابِسِ والمَراكِب ، وشَهْوَةِ المَناكِحِ والمَساكِنِ والبَساتِين والرِّياضات ، وكَثْرَةِ الأَمْوالِ والبَنِينَ ، وكَثْرَةِ الأَصْحابِ والعَشائِرِ والأَجْنادِ والعَساكِر ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بَهْجَتِها وزَهْرَتِها وزُخْرُفِها ، فانْكَبَّ جُلُّ النَّاسِ عَلَى الاشْتِغالِ

بِجَمْعِها وتَحْصِيلِها ، والجَرْيِ عَلَيْها اللَّيْلَ والنَّهارَ ، والشُّهُورَ والأَعْوامَ ، حَتَّى هَجَمَ عَلَيْهِمْ هادِمُ اللَّذَّات ، فَأَعْقَبَهُمُ النَّدَمَ والحَسَرات ، ولَمْ يَنْفَعِ النَّدَم ، وقَدْ جَفَّ القَلَم .

سافَروا بِلا زاد ، وقَدِمُوا عَلَى المَلِكِ بِلا تَأَهُّبٍ ولا اسْتِعْداد ، فاسْتَوْجَبُوا مِنَ اللهِ الطَّرْدَ والبِعاد ، ولأَجْلِ هَذا حَذَّرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى مِنْ غُرُورِها وزُخْرُفِها ، والوُقُوفِ مَعَ ظاهِرِها ، قالَ تَعالَى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ (١) .

ثُمَّ قالَ : ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ (٢) .

وقالَ تَعالَى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٣) .

أَيْ : لِنَخْتَبِرَهُمْ أَيُّهُمْ أَزْهَدُ فِيها ؟

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْران : الآيَة ١٤ .
(٢) سُورَةُ آلِ عِمْران : الآيَة ١٥ .
(٣) سُورَةُ الكَهْف : الآيَة ٧ .

وقالَ تعالَى لِنَبيِّهِ ﷺ : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ (١).

وسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَوْلياءِ اللهِ الَّذينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ، فَقالَ : (الَّذينَ نَظَرُوا إِلَى باطِنِ الدُّنْيا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظاهِرِها ، واهْتَمُّوا بِآجِلِ الدُّنْيا حِينَ اهْتَمَّ النَّاسُ بِعاجِلِها ، فَأَماتُوا مِنْها ما خَشَوْا أَنْ يُمِيتَهُمْ ، وتَرَكُوا مِنْها ما عَلِمُوا أَنْ سَيَتْرُكَهُمْ ، فَما عارَضَهُمْ مِنْ نائِلِها عارِضٌ إِلَّا رَفَضُوهُ ، ولا خادَعَهُمْ مِنْ رِفْعَتِها خادِعٌ إِلَّا وَضَعُوهُ ، خَلُقَتِ الدُّنْيا فِي قُلُوبِهِمْ فَلَمْ يُجَدِّدُوها ، وخَرَّبَتْ بُنْيانَهُمْ فَما يَعْمُرُونَها ، وماتَتْ فِي صُدُورِهِمْ فَما يُحْيُونَها ، بَلْ يَهْدِمُونَها فَيَبْنُونَ بِها آخِرَتَهُمْ ، ويَبِيعُونَها لِيَشْتَرُوا بِها ما يَبْقى لَهُمْ ، ونَظَرُوا إِلَى أَهْلِها صَرْعَى قَدْ خَلَتْ بِهِمُ المَثُلاتُ ، فَما يَرَوْنَ أَمانًا دُونَ ما يَرْجُونَ ، ولا خَوْفًا دُونَ ما يَجِدُونَ) .

فَقَدْ جَعَلَ الحَقُّ سُبْحانَهُ هَذِهِ الأَكْوانَ وهِيَ الدُّنْيا وما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ، ظاهِرُها فِتْنَةً ، وباطِنُها عِبْرَةً ، فَمَنْ وَقَفَ مَعَ ظاهِرِها كانَ مَغْرُورًا ، ومَنْ نَفَذَ إِلَى باطِنِها كانَ عِنْدَ اللهِ مَبْرُوراً ، فَأَهْلُ الغَفْلَةِ والبَطالَةِ

---

(١) سُورَةُ طَه : مِنَ الآيَة ١٣١ .

وَقَفُوا مَعَ مُتْعَةِ عاجِلِها ، وبَهْجَةِ ظاهِرِها ، فَغَرَّتْهُمْ بِزُخْرُفِها ، وخَدَعَتْهُمْ بِغُرُورِها حَتَّى أَخَذَتْهُمْ بَغْتَةً ، وأَهْلُ اليَقَظَةِ والحَزْمِ نَفَذُوا إِلَى باطِنِها ، فَعَرَفُوا سُرْعَةَ ذَهابِها ، وقِلَّةَ بَقائِها ، فاشْتَغَلُوا بِجَمْعِ الزَّاد ، وتَأَهَّبُوا لِيَوْمِ المَعاد ، أُولَئِكَ الَّذينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون .

الوَجْهُ الثَّانِي : إِنَّما جَعَلَ اللّهُ سُبْحانَهُ الأَكْوانَ ظاهِرُها غِرَّةٌ ، تَغْطِيَةً لِسِرِّهِ ، وإِظْهارًا لِحِكْمَتِهِ ، وذَلِكَ أَنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ لَمَّا تَجَلَّى فِي مَظاهِرِ خَلْقِهِ ، غَطَّى سِرَّهُ بِظُهُورِ حِكْمَتِهِ .

أَوْ تَقُول : الأَكْوانُ ظاهِرُها ظُلْمَة ، وباطِنُها نُور ، فَمَنْ وَقَفَ مَعَ الظُّلْمَةِ كانَ مَحْجُوبًا ، ومَنْ نَفَذَ إِلَى شُهُودِ النُّورِ كانَ عارِفًا مَحْبُوبًا .

أَوْ تَقُول : الأَكْوانُ ظاهِرُها حِسٌّ ، وباطِنُها مَعْنًى ، فَمَنْ وَقَفَ مَعَ الحِسِّ كانَ جاهِلًا ، ومَنْ نَفَذَ إِلَى المَعْنَى كانَ عارِفًا .

أَوْ تَقُول : الأَكْوانُ ظاهِرُها مُلْكٌ ، وباطِنُها مَلَكُوت ؛ فَمَنْ وَقَفَ مَعَ المُلْكِ كانَ مِنْ عَوامِّ أَهْلِ اليَمِين ، ومَنْ نَفَذَ إِلَى شُهُودِ المَلَكُوتِ كانَ مِنْ خَواصِّ المُقَرَّبِين .

وقَدْ أَشَرْتُ إِلَى ذَلِكَ فِي قَصِيدَتِي التَّائِيَّةِ حَيْثُ قُلْتُ :

إِذا حُبِسَتْ نَفْسٌ بِسِجْنِ الْهَوَى الَّذِي

تَقَيَّدَ فِيهِ الْعَقْلُ فِي قَهْرِ قَبْضَةِ

وَأَشْغَلَهَا عِلْمُ الصَّوَانِ لِحِكْمَةٍ

فَلَمْ تَرَ إِلَّا الْكَوْنَ فِي كُلِّ وِجْهَةِ

فَذَلِكَ عَيْنُ الْمُلْكِ وَهْمٌ ثُبُوتُهُ

وَنَاظِرُهُ مَحْجُوبُ فِي سِجْنِ ظُلْمَةِ

وَإِنْ نَفَذَتْ رَوْحُ الْمُقَدَّسِ سِرُّهُ

إِلَى دَرْكِ نُورِ الْحَقِّ فَاضَ بِقُدْرَةِ

فَذَا مَلَكُوتُ اللهِ يُسْنَى لِوُسْعِهِ

وَعَارِفُهُ يَحْظَى بِفَتْحِ بَصِيرَةِ

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ الواقِفَ مَعَ الظَّواهِرِ والنَّافِذَ إِلَى البَواطِنِ ، فَقالَ :

(فالنَّفْسُ تَنْظُرُ إِلَى ظاهِرِ غِرَّتِها ، والقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى باطِنِ عِبْرَتِها) : قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِنَّما كانَتِ النَّفْسُ تَنْظُرُ إِلَى ظاهِرِ غِرَّتِها ؛ لِما فِيها مِنْ مُتْعَةِ شَهْوَتِها وحُظُوظِها ، فَلا يُخْرِجُها عَنْ ذَلِكَ إِلَّا شَوْقٌ مُقْلِقٌ ، أَوْ خَوْفٌ مُزْعِجٌ ، أَوْ عِنايَةٌ رَبَّانِيَّةٌ ، إِمَّا بِواسِطَةِ شَيْخٍ كامِلٍ لَهُ إِكْسِيرٌ يَقْلِبُ بِهِ الأَعْيان ، أَوْ بِغَيْرِ واسِطَةٍ : ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [1].

---

(١) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ٢٩ .

وإنَّما كانَ القَلْبُ يَنْظُرُ إلَى باطِنِ عِبْرَتِها لِما فِيهِ مِنْ نُورِ العِرْفان ، الَّذي يُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ ، ويُمَيِّزُ بَيْنَ النَّافِعِ والضَّارِّ ، وهُوَ ثَمَرَةُ التَّقْوَى والتَّصْفِيَة .

أَوْ تَقُول : لِما فِيهِ مِنْ عَيْنِ البَصِيرَةِ الَّتي لا تَرَى إلَّا المَعانِي ، بِخِلافِ عَيْنِ البَصرِ الَّتي لا تَرَى إلَّا الحِسَّ .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ أَهْلَ النُّفُوسِ وَقَفُوا مَعَ ظَواهِرِ الأَشْياء ، واغْتَرُّوا بِعاجِلِها ، ولَمْ يَهْتَمُّوا بِآجِلِها ، فَحُجِبُوا عَنِ العَمَل ، وغَرَّهُمُ الأَمانِيُّ وطُولُ الأَمَل .

وأَهْلُ القُلُوبِ لَمْ يَقِفُوا مَعَ ظَواهِرِ الأَشْياء ، بَلْ نَفَذُوا إلَى بَواطِنِها ، واهْتَمُّوا بِآجِلِها ، ولَمْ يَغْتَرُّوا بِعاجِلِها ، فاشْتَغَلُوا بِالجِدِّ والاجْتِهاد ، وأَخَذُوا فِي الأُهْبَةِ والاسْتِعْداد ، وهُمُ العُبَّادُ والزُّهَّاد .

وأَهْلُ الأَرْواحِ والأَسْرار ، لَمْ يَقِفُوا مَعَ الأَكْوان ، لا ظاهِرِها العاجِل ، ولا باطِنِها الآجِل ، بَلْ نَفَذُوا إلَى نُورِ المَلَكُوت ، فاشْتَغَلُوا بِتَطْهِيرِ القُلُوب ، والتَّأَهُّبِ لِحَضْرَةِ عَلَّامِ الغُيُوب ، حَتَّى صَلَحُوا للحَضْرَة ، وتَنَزَّهُوا فِي رِياضِ الفِكْرِ والنَّظْرَة .

﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

---

(١) سُورَةُ المُجادِلَة : مِنَ الآيَة ٢٢ .

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (١) .

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٢) .

جَعَلَنا اللهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ .

وهَؤُلاءِ ومَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ هُمُ الأَعِزَّاءُ عِنْدَ اللهِ ، تَعَزَّزُوا بِطاعَةِ العَزِيزِ ، فَعَزَّهُمُ العَزِيزُ كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لا يَفْنَى ، فَلا تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزٍّ يَفْنَى) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : العِزُّ الَّذِي لا يَفْنَى هُوَ العِزُّ بِاللهِ ، والفِنَى بِطاعَةِ اللهِ ، أَوْ بِالقُرْبِ مِمَّنْ تَحَقَّقَ عِزُّهُ بِاللهِ ، فالعِزُّ بِاللهِ يَكُونُ بِتَعْظِيمِهِ وإِجْلالِهِ ، وهَيْبَتِهِ ومَحَبَّتِهِ ومَعْرِفَتِهِ ، وحُسْنِ الأَدَبِ مَعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وعَلَى كُلِّ حال ، ويَكُونُ بِالرِّضا بِأَحْكامِهِ ، والخُضُوعِ تَحْتَ قَهْرِ جَلالِهِ وكِبْرِيائِهِ ، وبِالحَياءِ والخَوْفِ مِنْهُ ، ويَكُونُ بِالذُّلِّ والانْكِسارِ كَما قالَ الشَّاعِر :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوىٰ لِتَكْسِبَ عِزَّةً ❁ فَكَمْ عِزَّةٍ قَدْ نَالَهَا الْمَرْءُ بِالذُّلِّ

إِذَا كَانَ مَنْ تَهْوَىٰ عَزِيزًا وَلَمْ تَكُنْ ❁ ذَلِيلا لَهُ فَاقْرَ السَّلامَ عَلَى الْوَصْلِ

وأَمَّا العِزُّ بِطاعَةِ اللهِ فَهُوَ بِالمُبادَرَةِ لامْتِثالِ أَمْرِهِ ، واجْتِنابِ نَهْيِهِ ، والإِكْثارِ مِنْ ذِكْرِهِ ، وبَذْلِ المَجْهُودِ فِي تَحْصِيلِ بِرِّهِ .

---

(١) سُورَةُ الواقِعَة : الآيَتان ١١ ، ١٢ .

(٢) سُورَةُ القَمَر : الآيَة ٥٥ .

وأَمَّا العِزُّ بِالقُرْبِ مِمَّنْ تَحَقَّقَ عِزُّهُ بِاللهِ ، فَيَكُونُ بِصُحْبَتِهِمْ وتَعْظِيمِهِمْ وخِدْمَتِهِمْ ، وحُسْنِ الأَدَبِ مَعَهُمْ ، وهَذا فِي التَّحْقِيقِ يَرْجِعُ إِلَى التَّعَزُّزِ بِاللهِ بِكَوْنِهِ وَسِيلَةً إِلَيْهِ ، فَإِذا تَحَقَّقَ بِاللهِ ، اسْتَغْنَى بِعِزِّ اللهِ عَنْ عِزِّ غَيْرِهِ ، فَمَنْ حَصَّلَ هَذا العِزَّ وتَحَقَّقَ بِهِ ، فَقَدْ تَعَزَّزَ بِعِزٍّ لا يَفْنَى أَبَداً ، يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ وعَلَى أَوْلادِهِ ، وأَوْلادِ أَوْلادِهِ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ .

قالَ تَعالَى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (١).

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (٢).

والمُرادُ بِالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الأَوْلِياءُ أَهْلُ الإِيمانِ الكامِلِ .

وقالَ تَعالَى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

وقالَ سَيِّدُنا الإِمامُ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : ((مَنْ أَرادَ الغِنَى بِغَيْرِ مالٍ ، والكَثْرَةَ بِغَيْرِ عَشِيرَةٍ ، فَلْيَسْتَقِلْ مِنْ ذُلِّ المَعْصِيَةِ إِلَى عِزِّ الطَّاعَةِ)) .

فَمَنْ تَحَقَّقَ عِزُّهُ بِاللهِ لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يُذِلَّه .

وأَمَّا التَّعَزُّزُ بِالعِزِّ الَّذي يَفْنَى فَهُوَ التَّعَزُّزُ بِالمَخْلُوق ، كَتَعَزُّزِ مُلُوكِ

---

(١) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ١٠ .
(٢) سُورَةُ المائِدَة : الآيَة ٥٦ .
(٣) سُورَةُ المُنافِقُون : مِنَ الآيَة ٨ .

الجَوْرِ ومَنِ انْتَسَبَ إِلَيْهِمْ بِكَثْرَةِ الأَتْباعِ والأَجْنادِ ، وبِالعِصِيِّ والقَهْرِ ، وكالتَّعَزُّزِ بِالأَمْوالِ والجاهِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ ، والرِّياسَةِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَنْقَطِعُ وَيَبِيدُ ، فَمَنْ تَعَزَّزَ بِهَذا ماتَ عِزُّهُ واتَّصَلَ ذُلُّهُ ، فَإِنَّ التَّعَزُّزَ بِالمَخْلُوقِ قَطْعًا يَعْقُبُهُ الذُّلُّ عاجِلًا وآجِلًا .

ويُقالُ لِمَنْ تَعَزَّزَ بِالمَخْلُوق :

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ (١) .

فَإِنْ أَرَدْتَ أَيُّها المُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لا يَفْنَى ، فاسْتَعِزَّ بِاللهِ ، وبِطاعَةِ اللهِ ، وبِالقُرْبِ مِنْ أَوْلِياءِ اللهِ ، ولا تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزِّ مَخْلُوقٍ يَفْنَى ، فَإِنَّ مَنْ تَعَزَّزَ بِمَنْ يَمُوتُ ، ماتَ عِزُّه .

قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (٢) .

وقالَ سَيِّدِي أَبو العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنه : ((واللهِ ما رَأَيْتُ العِزَّ إِلَّا فِي رَفْعِ الهِمَّةِ عَنِ الخَلْق)) .

تَنْبِيهٌ وإِرْشاد : اعْلَمْ أَنَّ سَبَبَ العِزِّ الَّذي يُعْطِيهِ اللهُ لأَوْلِيائِهِ هُوَ حُبُّهُ لَهُمْ ، فالعِزُّ نَتِيجَةُ الحُبِّ ، فَفِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ

---

(١) سُورَةُ طه : مِنَ الآيَة ٩٧ .
(٢) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ١٣٩ .

قالَ : (إذا أَحَبَّ اللّٰهُ عَبْداً نادَى جِبْرِيل : إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَوات : إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّماء ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْض ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ الأَرْض) .

وفِي رِوايَةٍ : (يُلْقَى لَهُ القَبُولُ فِي الماء ، فَيَشْرَبُهُ النَّاسُ ، فَيُحِبُّونَهُ جَمِيعًا) ، أَوْ كَما قالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام .

وسَبَبُ حُبِّ اللّٰهِ للعَبْدِ هُوَ زُهْدُهُ فِي الدُّنْيا ؛ فَفِي حَدِيثِ التِّرْمِذِي عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (ازْهَدْ فِي الدُّنْيا يُحْبِبْكَ اللّٰهُ ، وازْهَدْ فِيما فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحْبِبْكَ النَّاسُ) .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ هَذا العِزَّ الَّذي يُعْطِيهِ اللّٰهُ لأَوْلِيائِهِ لا يَكُونُ فِي بِدايَتِهِمْ ، ولا فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ ، لِئَلَّا يَفْتِنَهُمُ الخَلْقُ عَنِ الوُصُولِ إِلَى الحَقِّ ، بَلْ مِنْ لُطْفِ اللّٰهِ بِهِمْ وغَيْرَتِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يُنَفِّرَ عَنْهُمُ الخَلْقُ ، أَوْ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَتَخَلَّصُوا مِنْ رِقِّ الأَشْياء ، ويَتَحَقَّقُوا بِالوُصُولِ والتَّمْكِين ، فَحِينَئِذٍ إِنْ شاءَ أَظْهَرَ عِزَّهُمْ لِيَنْفَعَ بِهِمْ عِبادَهُ ، ويَهْدِيَ بِهِمْ مَنْ شاءَ مِنْ خَلْقِهِ ، وإِنْ شاءَ أَخْفاهُمْ واسْتَأْثَرَ بِعِزِّهِمْ حَتَّى يَقْدُمُوا عَلَيْهِ ، فَيَنْشُرَ عِزَّهُمْ ، ويُظْهِرَ مَكانَتَهُمْ فِي دارٍ لا فَناءَ لَها .

الطَّيُّ عِنْدَ الصُّوفِيَّة

ثُمَّ ذَكَرَ سَيِّدِي الشَّيْخُ أَحْمَدُ بنُ عَطاءِ اللهِ رضي الله عنه سَبَبَ العِزِّ الَّذي لا يَفْنَي ، وهُوَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيا كَما ذَكَرْنا ، فَقالَ :

(الطَّيُّ الحَقِيقِيُّ أَنْ تَطْوِيَ مَسافَةَ الدُّنْيا عَنْكَ ، حَتَّى تَرَى الآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الطَّيُّ هُوَ اللَّفُّ والضَّمُّ بِحَيْثُ يَصِيرُ الطَّوِيلُ قَصِيراً ، والكَبِيرُ صَغِيراً ؛ يُقالُ : طَوَيْتُ الثَّوْبَ ؛ أَيْ : ضَمَمْتُهُ .

ويَنْقَسِمُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسام :

طَيُّ الزَّمان ، وطَيُّ المَكان ، وطَيُّ الدُّنْيا ، وطَيُّ النُّفُوس .

فَأَمَّا طَيُّ الزَّمان : فَهُوَ أَنْ يَقْصُرَ فِي مَوْضِعٍ ويَطُولَ فِي مَوْضِعٍ آخَر ؛ كَمَنْ مَرَّ عَلَيْهِ سِنُونَ فِي مَوْضِعٍ ، وفِي مَوْضِعٍ آخَرَ ساعَةٌ أَوْ يَوْمٌ ؛ كالرَّجُلِ الَّذي خَرَجَ يَغْتَسِلُ فِي الفُراتِ يَوْمَ الجُمُعَةِ قُرْبَ الزَّوال ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ ، لَمْ يَجِدْ ثِيابَهُ ، فَسَلَكَ طَرِيقًا حَتَّى دَخَلَ مِصْرَ ، فَتَزَوَّجَ فِيها ، ووُلِدَ لَهُ أَوْلاد ، وبَقِيَ سَبْعَ سِنِينَ ، ثُمَّ ذَهَبَ يَغْتَسِلُ يَوْمَ الجُمُعَةِ بِنِيلِ مِصْرَ ، فَلَمَّا فَرَغَ ، فَإِذا ثِيابُهُ الأُولَى ، فَسَلَكَ طَرِيقًا فَإِذا هُوَ بِبَغْدادَ قَبْلَ صَلاةِ الجُمُعَةِ مِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ الَّذي خَرَجَ فِيهِ ،

والحِكايَةُ مُطَوَّلَةٌ للفَرْغانِي فِي شَرْحِ التَّائِيَّة .

وأَمَّا طَيُّ المَكان : فَمِثالُهُ أَنْ يَكُونَ بِمَكَّةَ مَثَلًا ، فَإِذا هُوَ بِغَيْرِها مِنَ البُلْدان ، وهَذا مَشْهُورٌ لأَوْلِياءِ اللّه ، قالَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاسِ رضي الله عنه : ((واللّهِ ما سارَ الأَوْلِياءُ مِنْ قافٍ إِلَى قافٍ حَتَّى يَلْقَوْا رَجُلًا مِثْلَنا ، فَإِذا لاقَوْهُ ، كانَ بُغْيَتَهُمْ)) .

وأَمَّا طَيُّ الدُّنْيا : فَهُوَ أَنْ تُطْوَى عَنْكَ مَسافَتُها بِالزُّهْدِ فِيها ، والغَيْبَةِ عَنْها ، وحُصُولِ اليَقِينِ التَّامِّ فِي قَلْبِكَ حَتَّى يَكُونَ الآتِي عِنْدَكَ واقِعًا أَوْ كالواقِع .

قالَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ رضي الله عنه : ((لَوْ أَشْرَقَ نُورُ اليَقِينِ فِي قَلْبِكَ ، لَرَأَيْتَ الآخِرَةَ أَقْرَبَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْها ، ولَرَأَيْتَ الدُّنْيا وكَسْفَةَ الفَناءِ ظاهِرَةً عَلَيْها)) .

وأَمَّا طَيُّ النُّفُوس : فَهُوَ بِالغَيْبَةِ فِي اللّهِ عَنْها ، ولِذَلِكَ يَتَحَقَّقُ الزَّوالُ وتَمامُ الوِصال ، وقَدْ ذَكَرَهُ الشَّيْخُ بِقَوْلِهِ : ((لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُطْوَى لَكَ الأَرْضُ ، فَإِذا أَنْتَ بِمَكَّةَ أَوْ غَيْرِها مِنَ البُلْدان ، إِنَّما الشَّأْنُ أَنْ تُطْوَى عَنْكَ أَوْصافُ نَفْسِكَ ، فَإِذا أَنْتَ عِنْدَ رَبِّكَ)) .

وهَذا هُوَ الطَّيُّ الحَقِيقِيُّ المُعْتَبَرُ عِنْدَ المُحَقِّقِين ، لا طَيُّ الزَّمانِ أَوِ

المَكان ، إذْ قَدْ يَكُونُ اسْتِدْراجًا أَوْ مَكْرًا أَوْ تَخَيُّلًا وسِحْرًا ، فالطَّيُّ الحَقِيقِي : هُوَ أَنْ تُطْوَى عَنْكَ مَسافَةُ الدُّنْيا كُلُّها حَتَّى يَكُونَ المَوْتُ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ الَّتي بَيْنَ جَنْبَيْكَ ، وكَما قالَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه :

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ ۞ وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وحَتَّى تَرْحَلَ عَنْها بِالكُلِّيَّةِ فَلا تَبْقَى فِيكَ مِنْها بَقِيَّة ، هُنالِكَ تَرْحَلُ إِلَى عالَمِ المَلَكُوت ، وتُكْشَفُ لَكَ أَسْرارُ الجَبَرُوت ، وقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ ﷺ : (الدُّنْيا خُطْوَةُ مُؤْمِن) : بِمَعْنَى أَنَّهُ يَتَخَطَّاها بِالزُّهْدِ فِيها .

وقالَ بَعْضُهُمْ : لا تَتَعَجَّبُوا مِمَّنْ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ فَيُخْرِجُ ما يُرِيدُ ، ولَكِنْ تَعَجَّبُوا مِمَّنْ يَضَعُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ ولَمْ يَجِدْ شَيْئًا ولَمْ يَتَغَيَّرْ .

وقِيلَ لأَبِي مُحَمَّد المُرْتَعِش : ((إِنَّ فُلانًا يَمْشِي عَلَى الماء ، قالَ : عِنْدِي مَنْ مَكَّنَهُ اللهُ مِنْ مُخالَفَةِ هَواه ، فَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ المَشْيِ عَلَى الماءِ وفِي الهَواء)) .

وكانَ شَيْخُ شَيْخِنا رضي الله عنه يَقُولُ : لا تَفْرَحُوا للمُرِيدِ إِذا رَأَيْتُمُوهُ يُصَلِّي كَثِيراً ، أَوْ يَذْكُرُ كَثِيراً ، أَوْ يَصُومُ كَثِيراً ، أَوْ يَعْتَزِلُ كَثِيراً ، حَتَّى تَرَوْهُ زَهِدَ فِي الدُّنْيا ، ورَحَلَ عَنْها ، ولَمْ يَبْقَ لَهُ الْتِفاتٌ إِلَيْها ! فَحِينَئِذٍ يُفْرَحُ بِهِ ، ولَوْ قَلَّتْ صَلاتُهُ وصِيامُهُ وذِكْرُهُ وعُزْلَتُهُ .

قالَ ابنُ عَجيبَة : ومِثْلُ هَذا جاءَ فِي قَوْلِ ابنِ عَطاءِ اللّه : ((ما قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زاهِد)) ، وكَذَلِكَ قالَ فِي ((التَّنْوير)) : ((لا تَدُلُّ عَلَى فَهْمِ العَبْدِ كَثْرَةُ عِلْمِهِ ، ولا مُداوَمَتُهُ عَلَى وِرْدِهِ ، وإنَّما يَدُلُّ عَلَى نُورِهِ وفَهْمِهِ غِناهُ بِرَبِّهِ ، وانْحِياشُهُ إلَيْهِ بِقَلْبِهِ ، وتَحَرُّرُهُ مِنْ رِقِّ الطَّمَعِ ، وتَحَلِّيهِ بِحِلْيَةِ الوَرَعِ ، وبِذَلِكَ تَحْسُنُ الأَعْمال ، وتَزْكُو الأَحْوال)) .

فَما قالَهُ شَيْخُ شَيْخِنا صَحِيحٌ ، لَكِنْ لا يَفْهَمُهُ إلَّا أَهْلُ الفَنِّ مِنْ أَهْلِ الذَّوْقِ ؛ إذْ لا تَجْتَمِعُ مُجاهَدَةٌ ومُشاهَدَةٌ ، وإنَّما تَكُونُ المُجاهَدَةُ أَوَّلا ، فَإذا حَصَلَتِ المُشاهَدَةُ فِي الباطِنِ رَكَدَتِ الجَوارِحُ فِي الظَّاهِر ، وما بَقِيَ إلَّا فِكْرَةٌ أَوْ نَظْرَة ، والأَدَبُ مَعَ الحَضْرَة ، وُرُبَّما يَعْتَرِضُ عَلَى الشَّيْخِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ مَقْصُودَهُ مِنْ جَهَلَةِ عِلْمِ الطَّرِيق ، وباللّهِ التَّوْفِيق .

وإنَّما يَتَحَقَّقُ طَيُّ مَسافَةِ الدُّنْيا بِتَحَقُّقِ الزُّهْدِ فِيها ، ولا يَتَحَقَّقُ الزُّهْدُ فِيها إلَّا بِرَفْعِ الهِمَّةِ عَنِ الخَلْقِ ، والتَّعَلُّقِ بِالمَلِكِ الحَقِّ ، وبِالإيِاسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاس ، كَما أَبانَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(العَطاءُ مِنَ الخَلْقِ حِرْمانٌ ، والمَنْعُ مِنَ اللّهِ إحْسانٌ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : إنَّما كانَ العَطاءُ مِنَ الخَلْقِ حِرْمانًا لِثَلاثَةِ أَوْجُهٍ :

الوَجْهُ الأَوَّلُ : ما فِي ذَلِكَ مِنْ حَظِّها وفَرَحِها ، والتَّوَصُّلِ إلَى شَهَواتِها وحُظُوظِها ، وفِي ذَلِكَ مَوْتُ القَلْبِ وقَسْوَتُهُ .

الوَجْهُ الثَّانِي : ما فِي ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الدَّرَجات ، والغَضِّ مِنْ كَمالِ المَراتِبِ والمَقامات ، ولِذَلِكَ تَرَكَ الأَكابِرُ التَّمَتُّعَ بِالشَّهَواتِ ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ (١) .

وقَدْ يَتَعَرَّضُ المُرِيدُ للسُّؤالِ لأَجْلِ مَوْتِ نَفْسِهِ وحَياةِ رُوحِهِ ، فَإِذا كَثُرَ عَلَيْهِ العَطاءُ مِنَ الخَلْقِ ، فَرِحَتِ النَّفْسُ وأَنِسَتْ ، فَلا تَمُوتُ بِهِ سَرِيعًا ، بِخِلافِ ما إِذا واجَهَهُ المَنْعُ ، فَإِنَّها تَمُوتُ سَرِيعًا ؛ إِذْ لا حَظَّ لَها فِيه ، فالجِهادُ الَّذي لا غَنِيمَةَ فِيهِ أَعْظَمُ مِنَ الجِهادِ الَّذي فِيهِ الغَنِيمَة ، فَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (إِذا خَرَجَتْ طائِفَةٌ للغَزْوِ ، فَجاهَدُوا وغَنِمُوا ، فَقَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَي أَجْرِهِمْ ، وإِذا لَمْ يَغْنَمُوا ، رَجَعُوا بِأَجْرِهِمْ كامِلًا) .

الوَجْهُ الثَّالِث : ما فِي ذَلِكَ مِنَ الرُّكُونِ إِلَيْهِمْ ، ومَيْلِ القَلْبِ بِالمَحَبَّةِ لَهُمْ ؛ إِذِ النَّفْسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْها ، فَتَسْتَرِقُّ لَهُمْ ، وتَكُونُ أَسِيرَةً فِي أَيْدِيهِمْ .

وفِي وَصِيَّةِ سَيِّدِنا الإِمامِ عَلِيٍّ رضي الله عنه وكَرَّمَ اللّٰهُ وَجْهَهُ : لا تَجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَ اللّٰهِ مُنْعِمًا ، وعُدَّ نِعْمَةَ غَيْرِهِ عَلَيْكَ مَغْرَمًا ، وأَنْشَدَ رضي الله عنه :

---

(١) سُورَةُ الأَحْقاف : مِنَ الآيَة ٢٠ .

لَعَمْرُكَ مَنْ أَوْلَيْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً ❁ وَمَدَّ لَهَا كَفًّا فَأَنْتَ أَمِيرُهُ

وَمَنْ كُنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ فَإِنَّهُ ❁ أَمِيرُكَ تَحْقِيقًا وَأَنْتَ أَسِيرُهُ

وَمَنْ كُنْتَ عَنْهُ ذَا غِنًى وَهْوَ مَالِكٌ ❁ أَزِمَّةَ أَهْلِ الدَّهْرِ أَنْتَ نَظِيرُهُ

فَعِشْ قَانِعًا إِنَّ الْقَنَاعَةَ لِلْفَتَىٰ ❁ غِنَاءٌ وَهَذَا مُقْتَضَىٰ مَا أُشِيرُهُ

وقالَ شَيْخُ شُيُوخِنا ومادَّةُ طَرِيقِنا بَعْدَ نَبِيِّنا مَوْلايَ عَبْدُ السَّلام بنُ مَشِيش ﷺ لِسَيِّدِي أَبِي الحَسَن ﷺ : ((يا أَبا الحَسَن ! اهْرُبْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَهْرُبَ مِنْ شَرِّهِمْ ؛ فَإِنَّ خَيْرَهُمْ يُصِيبُكَ فِي قَلْبِكَ ، وشَرَّهُمْ يُصِيبُكَ فِي بَدَنِكَ ، ولأَنْ تُصابَ فِي بَدَنِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصابَ فِي قَلْبِكَ ، ولَعَدُوٌّ تَصِلُ بِهِ إِلَى رَبِّكَ خَيْرٌ مِنْ حَبِيبٍ يَقْطَعُكَ عَنْ رَبِّكَ)) .

وقالَ بَعْضُهُمْ : عِزُّ النَّزاهَةِ أَكْمَلُ مِنْ سُرورِ الفائِدَة ، ولأَجْلِ هَذا المَعْنَى قالَ ﷺ : (إذا أَسْدَى إِلَيْكُمْ أَحَدٌ مَعْرُوفًا فَكافِئُوه) ؛ أَيْ : لِتُسْقِطُوا مِنَّتَهُ عَلَيْكُمْ .

وإِنَّما كانَ المَنْعُ مِنَ اللهِ إِحْسانًا لِوَجْهَيْن :

أَحَدُهُما : ما تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ ما مَنَعَكَ بُخْلًا ولا عَجْزًا ، وإِنَّما هُوَ حُسْنُ نَظَرٍ لَكَ ، إِذْ لَعَلَّ ما طَلَبْتَهُ لا يَلِيقُ بِحالِكَ فِي الوَقْت ،

وأَخَّرَهُ لِوَقْتٍ هُوَ أَوْلَى لَكَ وأَحْسَن ، أَوِ ادَّخَرَ لَكَ ذَلِكَ لِيَوْمِ فَقْرِكَ .

الثَّانِي : ما فِي ذَلِكَ مِنْ دَوامِ الوُقُوفِ بِبابِه ، واللِّياذِ بِجَنابِه ، وفِي ذَلِكَ غايَةُ شَرَفِكَ ، ورَفْعٌ لِقَدْرِكَ ، وفِي الحَدِيث : (إذا دَعا العَبْدُ الصَّالِحُ ، يَقُولُ اللهُ تَعالَى للمَلائِكَةِ : أَخِّرُوا حاجَتَهُ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ ، وإذا دَعا الفاجِرُ ، قالَ للمَلائِكَةِ : اقْضُوا حاجَتَهُ ؛ فَإِنِّي أَكْرَهُ صَوْتَهُ) أَوْ كَما قالَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - لِطُولِ العَهْدِ بِهِ .

تَنْبِيه : ما ذَكَرَهُ الشَّيْخُ مِنْ كَوْنَ العَطاءِ مِنَ الخَلْقِ حِرْمانًا إِنَّما هُوَ بِاعْتِبارِ السَّائِرِين ، أَوْ بِاعْتِبارِ الزُّهَّادِ والعُبَّادِ ، وأَمَّا الواصِلُونَ إِلَى اللهِ ، المُتَمَكِّنُونَ مَعَ اللهِ ، فَقَدْ تَوَلَّاهُمُ الحَقُّ وغَيَّبَهُمْ عَنْ شُهُودِ الخَلْقِ ، فَهُمْ يَتَصَرَّفُونَ بِاللهِ ، يَأْخُذُونَ مِنَ اللهِ ، ويَدْفَعُونَ بِاللهِ ، ولا يَرَوْنَ فِي الوُجُودِ إِلَّا اللهَ :

مُذْ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرَ غَيْرًا ❁ وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ

مُذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقًا ❁ فَأَنَا الْيَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعُ

فَلا يَرَوْنَ العَطاءَ إِلَّا مِنَ اللهِ ، ولا يَرَوْنَ الخَلْقَ الْبَتَّةَ إِلَّا ما يَشْهَدُونَ فِيهِمْ مِنْ واسِطَةِ الحِكْمَة ، كَما قالَ القائِل :

إِذَا مَا رَأَيْتَ اللهَ فِي الْكُلِّ فَاعِلًا ❁ رَأَيْتَ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ مِلَاحَا

وبِاللهِ التَّوْفِيق ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بِاللهِ .

النَّقْدُ والنَّسِيئَة

ومِنْ جُمْلَةِ العَطاءِ ما يُعْطِيهِ الحَقُّ سُبْحانَهُ عِبادَهُ مِنَ الخَيْراتِ فِي مُقابَلَةِ أَعْمالِهِمُ الصَّالِحاتِ ؛ كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ : (**جَلَّ رَبُّنا أَنْ يُعامِلَهُ العَبْدُ نَقْدًا ، فَيُجازِيَهُ نَسِيئَةً**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **النَّقْدُ** : ما كانَ مُعَجَّلًا ، **والنَّسِيئَةُ** : ما كانَ مُؤَخَّرًا ، ومِنْ شَأْنِ الكَرِيم إِذا اشْتَرَى شَيْئًا أَنْ يُنْجِزَ نَقْدَهُ ، ويَزِيدَ إِحْسانَهُ ورِفْدَهُ ، وقَدِ اشْتَرَى الحَقُّ تَعالَى مِنَّا أَنْفُسَنا وأَمْوالَنا ، فَعَوَّضَنا بِها الجَنَّةَ ، فَمَنْ باعَ نَفْسَهُ ومالَهُ ونَقَدَهُما وسَلَّمَهُما إِلَيْهِ ، عَوَّضَهُ اللهُ جَنَّةَ المَعارِفِ عاجِلًا ، وزادَهُ جَنَّةَ الزَّخارِفِ آجِلًا مَعَ ما يُتْحِفُهُ بِهِ مِنْ أَنْواعِ النَّعِيم ودَوامِ الشُّهُودِ والنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الكَرِيم .

فَجَلَّ رَبُّنا : أَيْ : تَنَزَّهَ وتَرَفَّعَ أَنْ يُعامِلَهُ العَبْدُ نَقْدًا ، أَيْ : مُعَجَّلًا ، **فَيُجازِيَهُ نَسِيئَةً** ، أَيْ : مُؤَخَّرًا ، بَلْ لا بُدَّ أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ ما يَلِيقُ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّار ، ويَدَّخِرَ لَهُ ما يَلِيقُ بِهِ فِي تِلْكَ الدَّار .

والَّذي عَجَّلَ لَهُ سُبْحانَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ أُمُورٌ :

مِنْها : ما يَدْفَعُ عَنْهُ مِنَ المَضارِّ ، ويَجْلِبُ لَهُ مِنَ المَنافِعِ والمَسارِّ ،

لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (١).

وقالَ تَعالَى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (٢).

وقالَ تَعالَى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣).

وقَدْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى عَقِبِهِ كَما تَقَدَّم .

ومِنْها : ما يُشْرِقُ عَلَيْهِ مِنَ الأَنْوار ، ويَكْشِفُ لِقَلْبِهِ مِنَ الأَسْرار ، وهِيَ أَنْوارُ التَّوَجُّهِ وأَنْوارُ المُواجَهَةِ ، قال تَعالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (٤)؛ وهُوَ نُورٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِل .

وقالَ تَعالَى : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ (٥).

وقالَ تَعالَى : ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (٦).

يُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلْمَةِ الكُفْرِ إِلَى نُورِ الإيمان ، ومِنْ ظُلْمَةِ المَعْصِيَةِ إِلَى نُورِ الطَّاعَة ، ومِنْ ظُلْمَةِ الغَفْلَةِ إِلَى نُورِ اليَقَظَةِ ، ومِنْ ظُلْمَةِ الحِسِّ إِلَى نُورِ المَعْنَى ، ومِنْ ظُلْمَةِ الكَوْنِ إِلَى نُورِ المُكَوِّنِ .

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ١٩٦ .
(٢) سُورَةُ الطَّلاق : الآيَتان ٢ ، ٣ .
(٣) سُورَةُ يُونُس : الآيَة ٦٢ .
(٤) سُورَةُ الأَنْفال : مِنَ الآيَة ٢٩ .
(٥) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٨٢ .
(٦) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٥٧ .

ومِنْها : التَّوْفِيقُ والهِدايَةُ لَها قَبْلَ عَمَلِها ، حَتَّى جَعَلَكَ أَهْلًا للوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وهُوَ الَّذي أَبانَهُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(كَفَى مِنْ جَزائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيَكَ لَها أَهْلًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لأَنَّ المَلِكَ لا يَدْعُو لِخِدْمَتِهِ إِلَّا مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُكْرِمَهُ ، ولا يُدْخِلُ لِحَضْرَتِهِ إِلَّا مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُعَظِّمَهُ ، ولا يَنْسِبُ لَهُ إِلَّا أَهْلَ الفَضْلِ والتَّكْرِمَة .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[1] .

فالتَّوْفِيقُ لَها أَعْظَمُ مِنَّةٍ وأَكْبَرُ جَزاءٍ عَلَى وُجُودِها ؛ لأَنَّها تُحَقِّقُ لِلعَبْدِ ثَلاثَةً :

أَوَّلُها : تَصْحِيحُ النِّسْبَةِ لِمَوْلاهُ بِوَجْهٍ ما .

الثَّانِي : وُجُودُ الإِقْبالِ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ ما .

الثَّالِثُ : إِقامَةُ رَسْمِ العُبُودِيَّة ؛ (قالَهُ الشَّيْخُ زَرُّوق رضي الله عنه) .

ومِنْها : ما يَرِدُ عَلَى قَلْبِهِ حالَ عَمَلِها مِنَ المُؤانَسَةِ بِهِ والقُرْبِ لَهُ ، وهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(كَفَىٰ العامِلِينَ جَزاءً ما هُوَ فاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي طاعَتِهِ) :

---

(١) سُورَةُ النُّور : مِنَ الآيَة ٢١ .

قالَ ابنُ عَجيبَة : والَّذي فَتَحَهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي حالَةِ العَمَلِ ثَلاثٌ : مُحاضَرَةٌ ، أَوْ مُراقَبَةٌ ، أَوْ مُشاهَدَةٌ ؛ فالمُحاضَرَةُ للطَّالِبِينَ ، والمُراقَبَةُ للسَّائِرِينَ ، والمُشاهَدَةُ للواصِلِينَ ؛ فالمُحاضَرَةُ للعُمُوم ، والمُراقَبَةُ للخُصُوص ، والمُشاهَدَةُ لِخُصُوصِ الخُصُوص ، والكُلُّ يُسَمَّى خُشُوعًا .

قالَ بَعْضُهُمْ : الخُشُوعُ : إِطْراقُ السِّرِّ عَلَى بِساطِ النَّجْوَى بِاسْتِكْمالِ نَعْتِ الهَيْبَةِ ، والذَّوَبانُ تَحْتَ سُلْطانِ الكَشْفِ ، والامِّحاءُ عِنْدَ غَلَباتِ التَّجَلِّي .

وقالَ الشَّيْخُ زَرُّوق : ما يَجِدُهُ فِي حالَةِ الطَّاعَةِ ثَلاث :

أَوَّلُها : وُجُودُ الأُنْسِ بِهِ فِيها بِرُوحِ إِقْبالِهِ ، ومِنْهُ ما يَقَعُ مِنَ الرِّقَّةِ والخُشُوع .

الثَّانِي : وُجُودُ التَّمَلُّقِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ولَهُ حَلاوَةٌ يَنْسَى بِها كُلَّ شَيْء .

الثَّالِثُ : حُصُولُ الفَهْمِ والفَوائِدِ العِلْمِيَّةِ والإِلْهاماتِ اللَّدُنِّيَّةِ ، الَّتي بِها يَتْرُكُ كُلَّ شَيْء .

قالَ بَعْضُهُمْ : فِي الدُّنْيا جَنَّةٌ مَنْ دَخَلَها لَمْ يَشْتَقْ إِلَى جَنَّةِ الآخِرَةِ ، ولا إِلَى شَيْءٍ ، ولَمْ يَسْتَوْحِشْ أَبَداً ، قِيلَ : وما هِيَ ؟ قالَ : مَعْرِفَةُ اللّه .

وقالَ بَعْضُ العُلَماء : لَيْسَ فِي الدُّنْيا ما يُشْبِهُ نَعِيمَ الجَنَّةِ إِلَّا ما يَجِدُهُ

أَهْلُ التَّمَلُّقِ فِي قُلُوبِهِمْ بِاللَّيْلِ مِنْ حَلاوَةِ المُناجاة .

وكانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ : ((التَّمَلُّقُ للحَبِيبِ والمُناجاةُ للقَرِيبِ فِي الدُّنْيا لَيْسَ مِنَ الدُّنْيا ، لا يَعْرِفُهُ إِلَّا هُمْ ، ولا يَجِدُهُ سِواهُمْ رَوْحًا لِقُلُوبِهِمْ)) .

ومِنْها : مايَجِدُهُ مِنَ الثَّمَراتِ بَعْدَ عَمَلِها ، وهُوَ الَّذي أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(وما هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤانَسَتِهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : هَذِهِ المُؤانَسَةُ الَّتي يَجِدُها العامِلُ بَعْدَ العَمَلِ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام :

مُؤانَسَةُ ذِكْرٍ : وهُوَ لأَهْلِ الفَناءِ فِي الأَفْعال .

ومُؤانَسَةُ قُرْبٍ : وهُوَ لأَهْلِ الفَناءِ فِي الصِّفات ، وهُمْ أَهْلُ الاسْتِشْراف .

ومُؤانَسَةُ شُهُود : وهُوَ لأَهْلِ الفَناءِ فِي الذَّات .

فالأَوَّلُ لأَهْلِ الإِسْلام ، والثَّانِي لأَهْلِ الإِيمان ، والثَّالِثُ لأَهْلِ الإِحْسان .

فَمُؤانَسَةُ الأَوَّلِ تُوجِبُ لَهُ الفِرارَ مِنَ النَّاسِ ، والوَحْشَةَ مِنْهُمْ .

ومُؤانَسَةُ الثَّانِي تُوجِبُ القُرْبَ لَهُمْ عَلَى حَذَرٍ مِنْهُمْ .

ومُؤانَسَةُ الثَّالِثِ تُوجِبُ الصُّحْبَةَ لَهُمْ ومُخالَطَتَهُمْ ؛ لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ ولا يَأْخُذُونَ مِنْهُ .

فالأَوَّلُ لا تَلِيقُ بِهِ إِلَّا العُزْلَةُ لِضَعْفِهِ ، والثَّانِي تَلِيقُ بِهِ الصُّحْبَةُ مَعَ العِفَّةِ لِيَتَعَلَّمَ بِالقُوَّة ، فَهُوَ يَشْرَبُ مِنْهُمْ ولا يَشْرَبُونَ مِنْهُ ؛ لِبُعْدِهِ مِنْهُمْ بِقَلْبِهِ ، والثَّالِثُ لا تَلِيقُ بِهِ إِلَّا الصُّحْبَة ؛ لِتَحَقُّقِهِ بِالقُوَّة ، فَهُوَ يَأْخُذُ النَّصِيبَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ولا يَأْخُذُ النَّصِيبُ مِنْهُ أَيَّ شَيْءٍ ، يَصْفُو بِهِ كَدَرُ كُلِّ شَيْءٍ ، ولا يُكَدِّرُ صَفْوَهُ شَيْءٌ .

ومُؤانَسَةُ الذِّكْرِ تُوصِلُ لِمُؤانَسَةِ القُرْبِ ، ومُؤانَسَةُ القُرْبِ تُوصِلُ لِمُؤانَسَةِ الشُّهُود ؛ فَمَنْ صَعِدَ عَقَبَةً أَفْضَتْ بِهِ إِلَى راحَةِ ما بَعْدَها .

قالَ بَعْضُ العارِفِين : لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الطَّاعاتِ إِلَّا ودُونَهُ عَقَبَةٌ كَؤُودٌ يُحْتاجُ فِيها إِلَى الصَّبْر ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى شِدَّتِها ، أَفْضَى إِلَى الرَّاحَةِ والسُّهُولَة ، وإِنَّما هِيَ مُجاهَدَةُ النَّفْسِ ، ومُخالَفَةُ الهَوَى ، ثُمَّ واللهِ مُكابَدَةٌ فِي تَرْكِ الدُّنْيا ، ثُمَّ اللَّذَّةُ والتَّنَعُّمُ : أَيْ : ثُمَّ تَكُونُ لَذَّةُ الطَّاعَةِ وتَنَعُّمُ المَعْرِفَة .

أَنْواعُ العِبادَة

ثُمَّ يَنْبَغِي لَكَ أَيُّها المُرِيدُ أَلَّا تَقْصِدَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ الَّتِي يُجازِيكَ الحَقُّ تَعالَى بِها كانَتْ مُعَجَّلَةً أَوْ مُؤَجَّلَةً ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَقْصٌ فِي إِخْلاصِكَ ، وناقِصٌ لِصِدْقِ عُبُودِيَّتِكَ ، كَما أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مَنْ عَبَدَهُ لِشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ ، أَوْ لِيَدْفَعَ بِطاعَتِهِ وُرُودَ العُقُوبَةِ عَنْهُ ، فَما قامَ بِحَقِّ أَوْصافِهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : النَّاسُ فِي عِبادَةِ اللهِ - بِاعْتِبارِ إِخْلاصِهِمْ - عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام :

فَمِنْهُمْ : مَنْ يَعْبُدُ اللهَ خَوْفًا مِنْ عُقُوبَتِهِ مُعَجَّلَةً أَوْ مُؤَجَّلَةً ، أَوْ طَمَعًا فِي رَحْمَتِهِ وحِفْظِهِ عاجِلاً وآجِلا ؛ وهُمْ عَوامُّ المُسْلِمِين ، وفِيهِمْ قالَ ﷺ : (لَوْلا النَّارُ ما سَجَدَ للهِ ساجِدٌ) .

ومِنْهُمْ : مَنْ يَعْبُدُ اللهَ مَحَبَّةً فِي ذاتِهِ ، وشَوْقًا إِلَى لِقائِهِ ، لا طَمَعًا فِي جَنَّتِهِ وحِفْظِهِ ، ولا خَوْفًا مِنْ نارِهِ ونَكالِهِ ، وهُمُ المُحِبُّونَ العاشِقُونَ مِنَ السَّائِرِين .

ومِنْهُمْ : مَنْ يَعْبُدُ اللهَ قِيامًا بِوَظائِفِ العُبُودِيَّة ، وأَدَبًا مَعَ عَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّة ؛ أَوْ تَقُولُ : صِدْقًا فِي العُبُودِيَّة ، وقِيامًا بِوَظائِفِ الرُّبُوبِيَّة ، وهُمُ المُحِبُّونَ العارِفُون .

فالقِسْمُ الأَوَّلُ عِبادَتُهُ بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، والثَّانِي عِبادَتُهُ بِنَفْسِهِ للهِ ، والثَّالِثُ عِبادَتُهُ بِاللهِ للهِ ، ومِنَ اللهِ إِلَى اللهِ .

فَمَنْ عَبَدَ اللهَ تَعالَى لِشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ فِي الدُّنْيا أَوْ فِي الآخِرَةِ ،

أَوْ لِيَدْفَعَ عَنْهُ بِطاعَتِهِ وُرُودَ العُقُوبَةِ فِي الدُّنْيا أَوْ فِي الآخِرَةِ ، فَما قامَ بِحَقِّ أَوْصافِ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتي هِيَ العَظَمَةُ والكِبْرِياءُ والعِزَّةُ والغِنَى وجَمِيعُ أَوْصافِ الكَمالِ ونُعُوتُ الجَلالِ والجَمال ؛ إِذْ نُعُوتُ الرُّبُوبِيَّةِ مِنَ العَظَمَةِ والجَلالِ تَقْتَضِي خُضُوعَ العُبُودِيَّةِ بِالانْكِسارِ والإِذْلال .

أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ تَكُنْ جَنَّةٌ ولا نار ، أَلَمْ يَكُنْ أَهْلًا لأَنْ يُعْبَدَ الواحِدُ القَهَّار ؟

أَرَأَيْتَ مَنْ أَنْعَمَ بِنِعْمَةِ الإِيجادِ والإِمْداد ، أَلَيْسَ أَهْلًا لأَنْ يَشْكُرَهُ جَمِيعُ العِباد ؟

فَمَنْ كانَ عَبْداً مَمْلُوكًا لِسَيِّدِهِ لا يَخْدِمُهُ فِي مُقابَلَةِ نَوالِهِ ورِفْدِهِ ، بَلْ يَخْدِمُهُ لأَجْلِ عُبُودِيَّتِهِ ورِقِّهِ ، وسَيِّدُهُ لا مَحالَةَ يَقُومُ بِمؤُونَتِهِ ورِزْقِهِ ، أَيُبْرِزُكَ لِوُجُودِهِ ويَمْنَعُكَ مِنْ جُودِهِ ؟ أَيُدْخِلُكَ دارَهُ ويَمْنَعُكَ إِبْرارَهُ ؟

لَقَدْ أَسَأْتَ الظَّنَّ بِالرَّبِّ الكَرِيم إِنِ اعْتَقَدْتَ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَعْبُدْهُ مَنَعَكَ مِنْ جُودِهِ العَظِيم ، لَقَدْ أَجْرَى عَلَيْكَ مِنَّتَهُ ورِزْقَهُ وأَنْتَ فِي ظُلْمَةِ الأَحْشاء ، ثُمَّ حِينَ أَظْهَرَكَ لِوُجُودِهِ وبَسَطَ لَكَ مِنْ جُودِهِ جَعَلَكَ تَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ تَشاء ، وتَصْنَعُ بِهِ ما تَشاء .

ومِمَّا وُجِدَ مَكْتُوبًا بِقَلَمِ القُدْرَةِ فِي حَجَرٍ فِي الكَعْبَة :

تَذَكَّرْ جَمِيلِي فِيكَ إِذْ كُنْتَ نُطْفَةً ❁ ولا تَنْسَ تَصْوِيرِي لِشَخْصِكَ فِي الْحَشَا

وَكُنْ وَاثِقًا بِي فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ۞ سَأَكْفِيكَ مِنْهَا مَا يُخَافُ وَيُخْتَشَىٰ
وَسَلِّمْ إِلَيَّ الْأَمْرَ وَاعْلَمْ بِأَنَّنِي ۞ أُصَرِّفُ أَحْكَامِي وَأَفْعَلُ مَا أَشَا
فاسْتَحْيِ مِنَ اللهِ أَيُّها الإِنْسانُ أَنْ تَطْلُبَ أَجْراً عَلَى عِبادَةٍ أَجْراها عَلَيْكَ الواحِدُ المَنَّان ، واذْكُرْ قَوْلَهُ تَعالَى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ (١) ، وقَوْلَهُ تَعالَى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (٢) ، وقَوْلَهُ تَعالَى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (٣) .

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :(لا يَكُنْ أَحَدُكُمْ كالعَبْدِ السُّوءِ إِنْ خافَ عَمِلَ ، ولا كالأَجِيرِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يُعْطَ الأُجْرَةَ لَمْ يَعْمَلْ) .

وقالَ سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه : ((نِعْمَ العَبْدُ صُهَيْبٌ ، لَوْ لَمْ يَخَفِ اللهَ لَمْ يَعْصِهِ)) .

وقالَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّه : فِي زَبُورِ داوودَ عليه السلام : ((ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ عَبَدَنِي لِجَنَّةٍ أَوْ نار ، لَوْ لَمْ أَخْلُقْ جَنَّةً ولا نارًا أَلَمْ أَكُنْ أَهْلًا أَنْ أُطاع ؟)) .

وأَيْضًا فِي أَخْبارِ سَيِّدِنا داوود عليه السلام : ((إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيْهِ : إِنَّ أَوَدَّ

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ٤٣ .
(٢) سُورَةُ القَصَص : مِنَ الآيَة ٦٨ .
(٣) سُورَةُ الإِنْسان : مِنَ الآيَة ٣٠ .

الأَوِدَّاءِ إِلَيَّ مَنْ عَبَدَنِي لِغَيْرِ نَوال ، لَكِنْ لِيُعْطِيَ الرُّبُوبِيَّةَ حَقَّها)) .

ثُمَّ إِنْ رَفَعْتَ هِمَّتَكَ عَنْ طَلَبِ الحُظُوظ ، صُبَّتْ عَلَيْكَ الحُظُوظ ؛ فَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الأَخْبار : إِنَّ اللهَ يَحْفَظُ الأَوْلادَ وأَوْلادَ الأَوْلادِ بِطاعَةِ الأَجْداد ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَلِحًا﴾ (١).

فَقَدْ حَفِظَ الحَقُّ تَعالَى كَنْزَهُما بِصَلاحِ أَبِيهِما ، فَقَدْ صُبَّتِ الحُظُوظُ عَلَى الأَوْلاد ، وهُوَ حِفْظُهُمْ بِتَرْكِ الآباءِ الحُظُوظَ .

وكانَ سَعِيدُ بنُ المُسَيِّب رضي الله عنه يَقُولُ لِوَلَدِهِ : ((إِنِّي لأُطِيلُ الصَّلاةَ مِنْ أَجْلِكَ)) .

ومَعْناهُ : إِنِّي أَعْبُدُهُ مُخْلِصًا ؛ عَلَّهُ يَحْفَظُكَ .

ثُمَّ إِنَّ مَدَدَ الحَقِّ ، وهُوَ لُطْفُهُ وإِبْرارُهُ ، جارٍ عَلَى الطَّائِعِينَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وحِين ، سَواءٌ أَعْطاهُمْ فِي الحِسِّ أَوْ مَنَعَهُمْ ، وسَواءٌ بَسَطَهُمْ أَوْ قَبَضَهُمْ ، وهُوَ ظاهِرٌ لِمَنْ يَفْهَمُ عَنِ اللهِ كَما أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مَتَى أَعْطاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ ، ومَتَى مَنَعَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ ، فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ ، ومُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ) :

---

(١) سُورَةُ الكَهْف : مِنَ الآيَة ٨٢ .

قالَ ابنُ عَجيبَة : مِنْ أَسْمائِهِ تَعالَى ((اللَّطِيفُ والرَّحِيمُ)) ؛ فَهُوَ تَعالَى لَطِيفٌ بِعِبادِهِ ، رَحِيمٌ بِخَلْقِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وعَلَى كُلِّ حال ، سَواءٌ أَعْطاهُمْ أَوْ مَنَعَهُمْ ، وسَواءٌ بَسَطَهُمْ أَوْ قَبَضَهُمْ ، فَإِنْ أَعْطاهُمْ أَوْ بَسَطَهُمْ أَشْهَدَهُمْ بِرَّهُ وإِحْسانَهُ فَعَرَفُوا أَنَّهُ سُبْحانَهُ بارٌّ بِعِبادِهِ لَطِيفٌ بِخَلْقِهِ ، رَحِيمٌ كَرِيمٌ جَوادٌ مُحْسِنٌ ، فَتَعْظُمُ مَحَبَّتُهُمْ فِيهِ ويَكْثُرُ شَوْقُهُمْ واشْتِياقُهُمْ إِلَيْهِ ، ويَكْثُرُ شُكْرُهُمْ فَيَزْدادُ نَعِيمُهُمْ ، وفِي هَذا ما لا مَزِيدَ عَلَيْهِ مِنَ البِرِّ والإِحْسانِ والجُودِ والامْتِنانِ ، وإِنْ مَنَعَهُمْ أَوْ قَبَضَهُمْ أَشْهَدَهُمْ قَهْرَهُ وكِبْرِياءَهُ ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ تَعالَى قَهَّارٌ كَبِيرٌ عَظِيمٌ جَلِيلٌ ، فَخافُوا مِنْ سَطْوَتِهِ ، وذابُوا مِنْ خَشْيَتِهِ ، وخَضَعُوا تَحْتَ قَهْرِهِ ، فَدامَتْ عِبادَتُهُمْ ، وقَلَّتْ ذُنُوبُهُمْ ، ومُحِيَتْ مَساوِيهِمْ ، واضْمَحَلَّتْ خَطِيئَتُهُمْ ، فَوَرَدُوا يَوْمَ القِيامَةِ خِفافًا مُطَهَّرِينَ ، فَرِحِينَ مُبْتَهِجِينَ ؛ إِذْ لا يَجْمَعُ اللّٰهُ عَلَى عَبْدِهِ خَوْفَيْنِ ولا أَمْنَيْنِ ، فَمَنْ أَخافَهُ فِي الدُّنْيا أَمَّنَهُ يَوْمَ القِيامَة ، ومَنْ أَمَّنَهُ فِي الدُّنْيا فاغْتَرَّ أَخافَهُ يَوْمَ القِيامَةِ كَما فِي الحَدِيث .

فَلا تَتَّهِمْ رَبَّكَ أَيُّها العَبْدُ فِي المَنْعِ ولا فِي العَطاء ، فَإِنَّهُ مَتَى أَعْطاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ ورَحْمَتَهُ وكَرَمَهُ ، فَعَرَفْتَ بِذَلِكَ أَنَّهُ بَرٌّ كَرِيمٌ رَؤُوفٌ رَحِيم ،

فَتَتَعَلَّقُ بِكَرَمِهِ وجُودِهِ دُونَ غَيْرِهِ ، فَتَتَحَرَّرُ مِنْ رِقِّ الطَمَعِ ، ويَذْهَبُ عَنْكَ الغَمُّ والجَزَعُ ، وتَتَخَلَّقُ أَيْضًا بِوَصْفِ الكَرَمِ والرَّحْمَةِ والإِحْسان ، فَإِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ أَنْ يَتَخَلَّقَ عَبْدُهُ بِخُلُقِهِ ، وفِي الحَدِيثِ : (تَخَلَّقُوا بِأَخْلاقِ الرَّحْمٰن) .

وقالَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها : ((كانَ خُلُقُ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ القُرْآن)) ؛ والقُرْآنُ فِيهِ أَوْصافُ الرَّحْمٰن ، فَكَأَنَّها رضي الله عنها قالَت : كانَ خُلُقُهُ خُلُقَ الرَّحْمٰن ، إِلا أَنَّها رضي الله عنها احْتَشَمَتِ الحَضْرَةَ ، وعَلَّمَتْنا التَأَدُّبَ مَعَ الرُّبُوبِيَّة .

ومَتَى مَنَعَكَ أَوْ قَبَضَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ وكِبْرِياءَهُ ، فَعَرَفْتَ أَنَّهُ قَهَّارٌ جَبَّار ، فَيَعْظُمُ خَوْفُكَ ، وتَشْتَدُّ هَيْبَتُكَ وحَياؤُكَ مِنْهُ ، فَلا جَرَمَ أَنَّ اللّٰهَ يُعَظِّمُكَ ويُكْرِمُكَ ويَحْفَظُكَ ، ويَسْتَحْيِي مِنْكَ كَما اسْتَحْيَيْتَ مِنْهُ ، فَإِنَّ اللّٰهَ يُنْزِلُ عَبْدَهُ عَلَى قَدْرِ مَنْزِلَتِهِ مِنْهُ ، وإِنَّما يُطِيعُ العَبْدُ رَبَّهُ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ وخَوْفِهِ مِنْهُ ، فَهُوَ - سُبْحانَهُ وتَعالَى - فِي كُلِّ ذَلِكَ مِنْ إِعْطاءٍ ومَنْعٍ ، وقَبْضٍ وبَسْطٍ ، مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ ، أَيْ : طالِبٌ مِنْكَ أَنْ تَعْرِفَهُ بِصِفاتِهِ وأَسْمائِهِ ، وما مِن اسْمٍ مِنْ أَسْمائِهِ تَعالَى إِلَّا اقْتَضَى ظُهُورَ ما يَطْلُبُهُ : فاسْمُهُ الكَرِيمُ اقْتَضَى الإِعْطاءَ والإِحْسانَ وهُوَ ظاهِرٌ فِي خَلْقِهِ ، واسْمُهُ المانِعُ اقْتَضَى ظُهُورَ المَنْعِ فَظَهَرَ فِي عِبادِهِ أَيْضًا ،

واسْمُهُ المُنْتَقِمُ اقْتَضَى ظُهُورَهُ فِي قَوْمٍ وَجَّهَهُمْ لِمُخالَفَتِهِ ، واسْمُهُ القَهَّارُ اقْتَضَى ظُهُورَهُ فِي قَوْمٍ يَقْهَرُهُمْ عَلَى ما يُرِيدُ مِنْ مَنْعٍ أَوْ غَيْرِهِ ، وظَهَرَ قَهْرُهُ أَيْضًا فِي عِبادِهِ بِالمَوْتِ فَهُوَ مِنْ مُقْتَضَى اسْمِهِ القَهَّار .

وهَكَذا كُلُّ اسْمٍ يَقْتَضِي ظُهُورَهُ فِي الوُجُود ، وكُلُّها فِي بَنِي آدَمَ ، فَإِذا تَحَقَّقْتَ هَذا فِي حالَةِ الإِعْطاءِ والمَنْعِ عَلِمْتَ أَيْضًا أَنَّهُ تَعالَى مُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ وإِبْرارِهِ عَلَيْكَ ؛ إِذْ هُوَ مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، ومُقْبِلٌ عَلَيْكَ فِي كُلِّ وَجْهٍ ، فاطْلُبْ أَيْضًا أَنْتَ مَعْرِفَتَهُ فِي كُلِّ حال ، واعْرِفْ مِنَّتَهُ عَلَيْكَ فِي الجَمالِ والجَلال ، وأَقْبِلْ عَلَيْهِ بِكُلِّيَّتِكَ ، واسْتَسْلِمْ لِقَهْرِهِ بِرُوحِكَ وبَشَرِيَّتِكَ ، تَكُنْ عَبْدَهُ حَقًّا ، وهُوَ رَبُّكَ حَقًّا وصِدْقًا .

ويُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الحِكْمَةِ أَنَّ المَدارَ إِنَّما هُوَ عَلَى قُوَّةِ الرُّوحانِيَّةِ الَّتِي هِيَ المَعْرِفَةُ فِي الجَلالِ والجمالِ ، لا عَلَى قُوَّةِ البَشَرِيَّةِ ؛ لأَنَّ بِمَنْعِهِ يَحْصُلُ للعَبْدِ الكَمال ، وباللهِ التَّوْفِيق .

ثُمَّ هَذا كُلُّهُ إِنَّما يَذُوقُهُ مَنْ يَفْهَمُ عَنِ اللهِ كَما تَقَدَّمَ ، وإِلَيْهِ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(إِنَّما يُؤْلِمُكَ المَنْعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللهِ فِيه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لأَنَّ الفَهْمَ عَنِ اللهِ يَقْتَضِي وُجُودَ المَعْرِفَةِ بِهِ ، ولا

تَكُونُ المَعْرِفَةُ كامِلَةً حَتَّى يَكُونَ صاحِبُها يَعْرِفُهُ فِي الجَلالِ والجَمالِ ، والمَنْعِ والعَطاءِ ، والقَبْضِ والبَسْطِ .

وأَمَّا إِنْ كانَ لا يَعْرِفُهُ إِلَّا فِي الجَمال ، فَهَذِهِ مَعْرِفَةُ العَوامِّ الَّذِينَ هُمْ عَبِيدُ أَنْفُسِهِمْ ، فَإِنْ أُعْطُوا رَضُوا ، وإِنْ لَمْ يُعْطَوْا إِذا هُمْ يَسْخَطُون .

وأَيْضًا مِنْ ثَمَراتِ المَعْرِفَةِ : التَّسْلِيمُ والرِّضا لِما يَجْرِي بِهِ القَضاء ، ومِنْ ثَمَراتِ المَحَبَّةِ والهَوَى : الصَّبْرُ عِنْدَ الشَّدائِدِ والبَلْوَى :

تَدَّعِي مَذْهَبَ الْهَوَىٰ ثُمَّ تَشْكُو ❁ أَيْنَ دَعْوَاكَ فِي الْهَوَىٰ قُلْ أَيْنَا

لَوْ وَجَدْنَاكَ صَابِرًا لِهَوَانَا ❁ لَمَنَحْنَاكَ كُلَّ مَا تَتَمَنَّىٰ

فَلا يَكُونُ المُحِبُّ صادِقًا فِي مَحَبَّتِهِ ، ولا العارِفُ صادِقًا فِي مَعْرِفَتِهِ ؛ حَتَّى يَسْتَوِيَ عِنْدَهُ المَنْعُ والعَطاءُ ، والقَبْضُ والبَسْطُ ، والفَقْرُ والغِنَى ، والعِزُّ والذُّلُّ ، والمَدْحُ والذَّمُّ ، والفَقْدُ والوَجْدُ ، والحُزْنُ والفَرَحُ ، فَيَعْرِفُ مَحْبُوبَهُ فِي الجَمِيعِ كَما قالَ القائِلُ :

❁ حَبِيبِي وَمَحْبُوبِي عَلَى كُلِّ حَالَةٍ ❁

ويَرْضَى ويُسَلِّمُ فِي الجَمِيع ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ عِنْدَهُ سَواءً ، فَلا يَدَّعِي مَرْتَبَةَ العِشْقِ والهَوَى ، فَيَعْرِفُ قَدْرَهُ ، ولا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ ، ولا يَتَرامَى عَلَى مَراتِبِ الرِّجال ؛ مَنِ ادَّعَى ما لَيْسَ فِيهِ فَضَحَتْهُ شَواهِدُ الامْتِحان .

ولابن الفارض رضي الله عنه :

فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيدًا فَمُتْ بِهِ ۞ شَهِيدًا وَإِلَّا فَالْغَرَامُ لَهُ أَهْلُ

وقالَ إبْراهِيمُ الخَوَّاص رضي الله عنه : ((لا يَصِحُّ الفَقْرُ (الوَصْفُ بِالتَّصَوُّفِ) للفَقِيرِ حَتَّى تَكُونَ فِيهِ خَصْلَتان : إحْداهُما الثِّقَةُ بِالله ، والأُخْرَى الشُّكْرُ للهِ فِيما رُوِيَ عَنْهُ مِمَّا ابْتَلَى بِهِ غَيْرَهُ مِنَ الدُّنْيا)) .

وقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : ما الزُّهْدُ عِنْدَكُمْ ؟ قالَ : إذا وَجَدْنا شَكَرْنا ، وإذا فَقَدْنا صَبَرْنا ، فَقالَ : هَذِهِ حالَةُ الكِلابِ عِنْدَنا بِبَلْخ ، فَقالَ : وما الزُّهْدُ عِنْدَكُمْ أَنْتُمْ ؟ قالَ : إذا فَقَدْنا شَكَرْنا ، وإذا وَجَدْنا آثَرْنا .

فَهَذا هُوَ الفَهْمُ عَنِ الله ؛ حَيْثُ شَكَرَ حِينَ الفَقْد ، فَقَدْ عَدَّ الفَقْدَ نِعْمَةً ، والفاقَةَ غِنًى ؛ لِما يَجِدُ فِيها مِنَ المَواهِبِ والأَسْرار ، ولِما يَتَرَقَّبُ بَعْدَها مِنْ وُرُودِ الوارِداتِ والأَنْوار ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ إلَّا التَّفَرُّغُ مِنَ الشَّواغِلِ والأَغْيار ، وبِهَذا تَزْكُو الأَحْوال ، وتَعْظُمُ الأَعْمال ، ويَتَأَهَّلُ صاحِبُها للقَبُولِ والإِقْبال ، وإلَّا فَلا عِبْرَةَ بِصُورَةِ وُجُودِها مَعَ عَدَمِ قَبُولِها ، كَما نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(رُبَّما فَتَحَ لَكَ بابَ الطَّاعَةِ ، وما فَتَحَ لَكَ بابَ القَبُول) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لا عِبْرَةَ بِالطَّاعَةِ إذا لَمْ يَصْحَبْها قَبُول ، كَما لا عِبْرَةَ

بِالسُّؤالِ حَيْثُ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ مَأْمُول ؛ إِذِ الطَّاعَةُ إِنَّما هِي وَسِيلَةٌ لِمَحَبَّةِ المُطاعِ وإِقْبالِهِ عَلَى المُطِيع ؛ بِحَيْثُ يَفْتَحُ فِي وَجْهِهِ الباب ، ويَرْفَعُ عَنْ قَلْبِهِ وُجُودَ الحِجاب ، ويُجْلِسُهُ عَلَى بِساطِ الأَحْباب ، فَإِذا فَتَحَ لَكَ بابَ العَمَل ، وبَلَغْتَ فِي تَحْصِيلِهِ غايَةَ الأَمَل ، غَيْرُ أَنَّكَ لَمْ تَجِدْ لَهُ ثَمَرَةً ولَمْ تَذُقْ لَهُ حَلاوَةً مِنَ الأُنْسِ بِاللّه ، والوَحْشَةِ مِمَّا سِواه ، ومِنَ الغِنَى بِه والانْحِياشِ إِلَيْهِ ، والاكْتِفاءِ بِعَمَلِهِ والقَناعَةِ بِقِسْمَتِهِ ، فَلا تَغْتَرَّ بِذَلِكَ أَيُّها المُرِيدُ ، فَرُبَّما فَتَحَ لَكَ بابَ طاعَتِهِ وأَنْهَضَكَ لِخِدْمَتِهِ ، ولَمْ يَفْتَحْ لَكَ بابَ القَبُول ، ومَنَعَكَ بِها مِنَ الوُصُول ؛ حَيْثُ اعْتَمَدْتَ عَلَيْها ، وركَنْتَ إِلَيْها ، وأَنِسْتَ بِها ، وأَشْغَلَتْكَ حَلاوَتُها عَنِ التَّرَقِّي إِلَى حَلاوَةِ شُهُودِ المُنْعِمِ بِها .

ولِذَلِكَ قالَ بَعْضُهُمْ : احْذَرُوا حَلاوَةَ الطَّاعاتِ فَإِنَّها سُمُومٌ قاتِلَةٌ لأَنَّها تَقْبِضُ صاحِبَها فِي مَقامِ الخِدْمَةِ ، ويُحْرَمُ مِنْ مَقامِ المَحَبَّةِ ، وفَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ مَنْ شَغَلَهُ بِخِدْمَتِهِ ، وبَيْنَ مَنِ اصْطفاهُ لِمَحَبَّتِهِ واجْتَباهُ لِحَضْرَتِهِ .

قَدْ يَكُونُ الذَّنْبُ سَبَبَ الوُصُول

فَإِجْراءُ الذَّنْبِ عَلَى العَبْدِ أَحْسَنُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الطَّاعَةِ الَّتي تَكُونُ سَبَبَ

الحِجاب ، كَما نَبَّهَ عَلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(ورُبَّما قَضَى عَلَيْكَ الذَّنْبَ ، فَكانَ سَبَبًا فِي الوُصُول) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : وذَلِكَ أَنَّ العَبْدَ إذا كانَ سائِراً لِمَوْلاه ، قاصِداً الوُصُولَ إِلَى حَضْرَةِ حَبِيبِهِ ورِضاه ، فَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ كَلَل ، أَوْ يُصِيبُهُ مَلَل ، أَوْ يَرْكَبُهُ كَسَل ، أَوْ تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ فَيَسْقُطُ ، فَسَلَّطَ الحَقُّ عَلَيْهِ ذَنْبًا ، فَإِذا قامَ مِنْ سَقْطَتِهِ جَدَّ فِي سَيْرِهِ ، ونَهَضَ مِنْ غَفْلَتِهِ ، ونَشِطَ مِنْ كَسَلِهِ ، فَلا يَزالُ جادًّا فِي طَلَبِ مَوْلاه ، غائِبًا عَمَّا سِواه ، حَتَّى يَدْخُلَ حَضْرَتَهُ ، ويُشاهِدَ طَلْعَتَهُ ، وهِيَ الحَضْرَةُ الَّتي هِيَ تَجَلِّياتُ الحَقِّ وأَسْرارُ ذاتِه .

ومِثالُ ذَلِكَ : رَجُلٌ مُسافِرٌ أَصابَهُ فِي الطَّرِيقِ نَوْمٌ أَوْ كَسَل ، فَيَسْقُطُ ، فَيَضْرِبُهُ حَجَر ، فَإِذا قامَ ، ذَهَبَ كَسَلُهُ ، وجَدَّ فِي سَيْرِهِ .

وفِي الحَدِيث : (رُبَّ ذَنْبٍ أَدْخَلَ صَاحِبَهُ الجَنَّة) ، قالُوا : وكَيْفَ ذَلِكَ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قالَ ﷺ : (لا يَزالُ تائِبًا فارًّا مِنْهُ ، خائِفًا مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَمُوتَ فَيُدْخِلَهُ الجَنَّة) .

وفِي حَدِيثٍ آخَرَ : عَنْ سَيِّدِنا أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ، لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ ، ولَجاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ) .

وقالَ ﷺ فِي شَأْنِ الطَّاعَةِ الَّتِي لَمْ تُقْبَلْ : (رُبَّ صائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيامِهِ إِلَّا الجُوعُ ، وقائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيامِهِ إِلَّا السَّهَرُ) .

فَمِثْلُ هَذِهِ الطَّاعَةِ المَعْصِيَةُ الَّتي يَصْحَبُها الانْكِسارُ أَحْسَنُ مِنْها بِكَثِيرٍ ؛ كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وافْتِقارًا ، خَيْرٌ مِنْ طاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا واسْتِكْباراً) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِنَّما كانَتِ المَعْصِيَةُ الَّتي تُوجِبُ الانْكِسارَ أَفْضَلَ مِنَ الطَّاعَةِ الَّتي تُوجِبُ الاسْتِكْبار ؛ لأَنَّ المَقْصُودَ مِنَ الطَّاعَةِ هُوَ الخُضُوعُ والخُشُوعُ والانْقِيادُ والتَّذَلُّلُ والانْكِسار : (أَنا عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي) .

فَإِذا خَلَتِ الطَّاعَةُ مِنْ هَذِهِ المَعانِي ، واتَّصَفَتْ بِأَضْدادِها ، فالمَعْصِيَةُ الَّتي تُوجِبُ هَذِهِ المَعانِيَ وتَجْلِبُ هَذِهِ المَحاسِنَ أَفْضَلُ مِنْها ؛ إِذْ لا عِبْرَةَ بِصُورَةِ الطَّاعَةِ ولا بِصُورَةِ المَعْصِيَةِ ، وإِنَّما العِبْرَةُ بِما يَنْتُجُ عَنْهُما : (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ ولا إِلَى أَعْمالِكُمْ ، وإِنَّما يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ) .

فَثَمَرَةُ الطَّاعَةِ هِيَ الذُّلُّ والانْكِسار ، وثَمَرَةُ المَعْصِيَةِ هِيَ القَسْوَةُ والاسْتِكْبار ، فَإِذا انْقَلَبَتِ الثَّمَراتُ انْقَلَبَتِ الحَقائِقُ ، وصارَتِ الطَّاعَةُ مَعْصِيَةً ، والمَعْصِيَةُ طاعَةً .

ولِذَلِكَ قالَ المُحاسِبي رضي الله عنه : ((إنَّما مُرادُ اللهِ سُبْحانَهُ مِنْ عِبادِهِ قُلُوبُهُمْ ، فَإذا تَكَبَّرَ العالِمُ أَوِ العابِدُ ، وتَواضَعَ الجاهِلُ والعاصِي ، وذَلَّ هَيْبَةً للهِ - عَزَّ وجَلَّ - وخَوْفًا مِنْهُ ، فَهُوَ أَطْوَعُ للهِ - عَزَّ وجَلَّ - مِنَ العالِمِ والعابِدِ بِقَلْبِهِ)) .

وقالَ الشَّيْخُ أَبُو العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنه : ((كُلُّ إساءَةِ أَدَبٍ تُثْمِرُ أَدَبًا فَلَيْسَتْ بِإساءَةِ أَدَب)) .

وكانَ رضي الله عنه يُكْرِمُ النَّاسَ عَلَى نَحْوِ رُتْبَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ ، حَتَّى إنَّهُ رُبَّما يَدْخُلُ عَلَيْهِ مُطِيعٌ فَلا يُبالِي بِهِ ، ورُبَّما دَخَلَ عَلَيْهِ عاصٍ فَأَكْرَمَهُ ؛ لأَنَّ ذَلِكَ الطَّائِعَ أَتَى وهُوَ مُتَكَبِّرٌ بِعَمَلِهِ ، وناظِرٌ لِفِعْلِهِ ، وذَلِكَ العاصِي دَخَلَ بِكَثْرَةِ مَعْصِيَتِهِ وذِلَّتِهِ ومُخالَفَتِهِ .

وقالَ أَبو يَزِيدَ رضي الله عنه : ((نُودِيتُ فِي سِرِّي : خَزائِنِي مَمْلُوءَةٌ بِالخِدْمَةِ ، فَإنْ أَرَدْتَنا ، فَعَلَيْكَ بِالذِّلَّةِ والافْتِقار)) .

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ، لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ ما هُوَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ : العُجْبَ) .

وقالَ ﷺ : (لَوْلا أَنَّ الذَّنْبَ خَيْرٌ مِنَ العُجْبِ ، ما خَلَّى اللهُ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وذَنْبٍ أَبَداً) .

وقالَ شَيْخُ شُيُوخِنا رضي الله عنه : ((مَعْصِيَةٌ بِاللهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ طاعَةٍ بِالنَّفْس)) .

ومَعْنَى كَلامِ الشَّيْخِ : أَنَّ العَبْدَ إذا أُجْرِيَتْ عَلَيْهِ زَلَّةٌ ، لَمْ يَقْصِدْها بِقَلْبِهِ ، وإنَّما جَرَّتْهُ القُدْرَةُ إِلَيْها رَغْمًا عَلَى أَنْفِهِ ، ثُمَّ نَدِمَ وانْكَسَرَ ، فَهِيَ فِي حَقِّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ طاعَةٍ يَشْهَدُ فِيها نَفْسَهُ ، ويَتَبَجَّحُ بِها عَلَى عِبادِ اللهِ .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو مَدْيَن رضي الله عنه : ((انْكِسارُ العاصِي خَيْرٌ مِنْ صَوْلَةِ المُطِيع)) .

ولَمَّا كانَتِ النِّعَمُ تَقْتَضِي مِنَ العَبْدِ شُكْرَها ، وشُكْرُها هُوَ العَمَلُ بِطاعَةِ اللهِ فِيها ، قالَ الجُنَيْدُ : الشُّكْرُ أَلَّا يُعْصَى اللهُ بِنِعَمِهِ ، بَيَّنَ شَيْخُنا ابنُ عَطاءِ اللهِ أُصُولَ النِّعَم وفُرُوعَها ، فَقالَ :

(**نِعْمَتانِ ما خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُما ، ولا بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ مِنْهُما ، نِعْمَةُ الإيجاد ، ونِعْمَةُ الإمْداد**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **أَمَّا نِعْمَةُ الإيجاد** : فَهِيَ الإظْهارُ مِنْ عالَمِ الغَيْبِ إِلَى عالَمِ الشَّهادَة ، أَوْ مِنْ عالَمِ الأَمْرِ إِلَى عالَمِ الخَلْقِ ، أَوْ مِنْ عالَمِ الأَرْواحِ إِلَى عالَمِ الأَشْباح ، أَوْ مِنْ عالَمِ القُدْرَةِ إِلَى عالَمِ الحِكْمَة ، أَوْ مِنْ عالَمِ التَّقْدِيرِ إِلَى عالَمِ التَّكْوِين .

وأَمَّا نِعْمَةُ الإمْداد : فَهِيَ قِيامُهُ تَعالَى بِالأَشْياءِ بَعْدَ أَنْ أَوْجَدَها ،

وإمْدادُهُ إيَّاها بما تَقُومُ بِهِ بِنْيَتُها .

وهاتانِ النِّعْمَتانِ عامَّتانِ ، واخْتَصَّ الإنْسانُ بما اجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الضِّدَّيْنِ ، وهُما النُّورُ والظُّلْمَةُ ، واللَّطافَةُ والكَثافَةُ ، فَلَوْ بَقِيتَ أَيُّها الإنْسانُ عَلَى ما كُنْتَ عَلَيْهِ مِنَ العَدَمِ فِي عالَمِ القِدَمِ ، لَمْ تَتَمَتَّعْ بِنِعْمَتَيْنِ ، نِعْمَةِ الأَشْباحِ ، ونِعْمَةِ الأَرْواحِ ، ولَوْ تَجَلَّى فِيكَ بِوَجْهَةٍ واحِدَةٍ لَكُنْتَ ناقِصًا فِي شُهُودِ المَعْرِفَةِ لأَنَّ مَزِيَّةَ الآدَمِيِّ فِي المَعْرِفَةِ أَعْظَمُ ؛ إذْ بِقَدْرِ المُجاهَدَةِ يَكُونُ التَّرَقِّي فِي المُشاهَدَةِ ؛ لِما فِيهِ مِنَ الكَثافَةِ واللَّطافَةِ ، فَكُلَّما لَطَفَ مِنْ كَثافَةٍ ، تَرَقَّى فِي مُشاهَدَةِ رَبِّهِ ، ولِما فِيهِ مِنَ النُّورِ والظُّلْمَةِ ، فَكُلَّما انْتَفَتِ الظُّلْمَةُ قَوِيَ النُّورِ ، بِخِلافِ غَيْرِهِ مِنَ الجِنِّ والمَلائِكَةِ غَيْرِ المُقَرَّبِينَ ، قالَ اللَّهُ تَعالَى فِي حَقِّ المَلائِكَةِ : ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١) .

فَما مَثَلُ الآدَمِيِّ إلَّا كَياقُوتَةٍ سَوْداءَ ، وهِيَ أَعْظَمُ اليَواقِيتِ ، كُلَّما صَقَلْتَها ، أَشْرَقَتْ وزادَ نُورُها وجَمالُها ، ومَثَلُ المَلائِكَةِ كالزُّجاجِ ، إذا صُقِلَ مَرَّةً كَفاهُ ، ولا يَزِيدُ نُورُهُ عَلَى أَصْلِهِ .

فَلَوْ بَقِيتَ أَيُّها الإنْسانُ عَلَى ما كُنْتَ عَلَيْهِ مِنَ العَدَمِ ، أَوْ مِنَ اللَّطافَةِ

---

(١) سُورَةُ الصَّافَّات : الآيَة ١٦٤ .

بَعْدَ قَبْضَةِ القِدَم ، لَمْ يَكُنْ لَكَ مَزِيَّةٌ عَلَى غَيْرِكَ .

ومِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ تَجَلِّيَ الآدَمِيِّ أُعْظِمَ اخْتِصاصُهُ بِالجَنَّةِ والنَّظَر ، قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ (١) .

والكَلامُ إِنَّما هُوَ مَعَ الخَواصِّ ، فَخَواصُّ الآدَمِيِّ ؛ أَعْنِي الأَنْبِياءَ ، أَعْظَمُ مِنْ خَواصِّ المَلائِكَةِ ، وخَواصُّ المَلائِكَةِ ؛ أَعْنِي : المُقَرَّبِينَ ، أَعْظَمُ مِنْ خَواصِّ الآدَمِي ؛ أَعْنِي : العارِفِينَ ، والعارِفُونَ أَعْظَمُ مِنْ عَوامِّ المَلائِكَة ، وعَوامُّ المَلائِكَةِ أَعْظَمُ مِنْ عَوامِّ بَنِي آدَم ، واللهُ تَعالَى أَعْلَم .

فَأَنْعَمَ الحَقُّ سُبْحانَهُ عَلَيْكَ أَيُّها الإِنْسانُ أَوَّلًا بِنِعْمَةِ الإِيجاد ، وأَصْحَبَكَ الرَّأْفَةَ والوِداد ؛ لِتَظْهَرَ مَزِيَّتُكَ ، وتَكْمُلَ نِعْمَتُكَ ، ثُمَّ أَنْعَمَ عَلَيْكَ ثانِيًا بِنِعْمَةِ الإِمْدادِ حِسِّيَّةً ومَعْنَوِيَّةً .

أَمَّا المَدَدُ الحِسِّي : فَغِذاءُ البَشَرِيَّةِ مِنْ أَوَّلِ النَّشْأَةِ إِلَى مُنْتَهاها .

وأَمَّا المَدَدُ المَعْنَوِي : فَغِذاءُ الرُّوحِ مِنْ قُوتِ اليَقِينِ والعُلُومِ والمَعارِفِ والأَسْرار .

ثُمَّ إِنَّ هَذا المَدَدَ المَعْنَوِيَّ مِنْ حَيْثُ هُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلاثَةِ أَقْسام :

---

(١) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٧٥ .

مِنْهُ : ما لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ ، وهُوَ مَدَدُ المَلائِكَةِ ، قالَ تَعالَى فِيهِمْ : ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١) .

ومِنْهُ : ما يَزِيدُ وينْقُصُ ، وهُوَ مَدَدُ عَوامِّ بَنِي آدَم .

ومِنْهُ : ما لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ ، وهُوَ مَدَدُ خَواصِّهِمْ ؛ كالرُّسُلِ والأَنْبياءِ وأَكابِرِ الأَوْلِياءِ ، ومَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ مِمَّنْ دَخَلَ تَحْتَ حَضانَتِهِمْ ، ولَزِمَ عُشَّهُمْ مِنَ الفُقَراءِ والمُرِيدِينَ السَّائِرِينَ ، فَمَدَدُهُمْ فِي الزِّيادَةِ عَلَى الدَّوام ، وهَذا المَدَدُ ثابِتٌ للرُّوحِ قَبْلَ اتِّصالِها بِالبَشَرِيَّة ، فَذَلِكَ إِقْرارُها بِالرُّبُوبِيَّةِ فِي عالَمِ الذَّرِّ .

قالَ فِي ((التَّنْوِير)) : ((اعْلَمْ أَنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ تَوَلَّاكَ بِتَدْبِيرِهِ عَلَى جَمِيعِ أَطْوارِكَ ، وقامَ لَكَ فِي كُلِّ ذَلِكَ بِوُجُودِ إِبْرارِكَ ، فَقامَ لَكَ بِحُسْنِ التَّدْبِيرِ يَوْمَ المَقادِيرِ يَوْمَ قالَ : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ (٢).

ومِنْ حُسْنِ تَدْبِيرِهِ لَكَ أَنْ عَرَّفَكَ بِهِ فَعَرَفْتَهُ ، وتَجَلَّى لَكَ فَشَهِدْتَهُ ، واسْتَنْطَقَكَ وأَلْهَمَكَ الإِقْرارَ بِرُبُوبِيَّتِهِ فَوَحَّدْتَهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ جَعَلَكَ نُطْفَةً مُسْتَوْدَعَةً فِي الأَصْلاب ، تَوَلَّاكَ بِتَدْبِيرِهِ هُنالِكَ حافِظًا لَكَ ، وحافِظًا لِما أَنْتَ فِيهِ ، مُوصِلًا لَكَ المَدَدَ بِواسِطَةِ ما أَنْتَ فِيهِ مِنَ الآباءِ إِلَى

---

(١) سُورَةُ الصَّافَّات : الآيَة ١٦٤ .

(٢) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ١٧٢ .

أَبيكَ آدَمَ ، ثُمَّ قَذَفَكَ فِي رَحِمِ الأُمِّ ، فَتَوَلَّاكَ بِحُسْنِ التَّدْبِير ، وجَعَلَ الرَّحِمَ قابِلَةً لَكَ ، أَرْضًا يَكُونُ فِيها نَباتُكَ ، ومُسْتَوْدَعًا تُعْطَى فِيها حَياتَكَ ، ثُمَّ جَمَعَ بَيْنَ النُّطْفَتَيْنِ ، وأَلَّفَ بَيْنَهُما ، فَكُنْتَ عَنْهُما لِما بُنِيَتْ عَلَيْهِ الحِكْمَةُ الإِلَهِيَّةُ مِنْ أَنَّ الوُجُودَ كُلَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى سِرِّ الازْدِواج ، ثُمَّ جَعَلَكَ بَعْدَ النُّطْفَةِ عَلَقَةً مُهَيَّأَةً لِما يُرِيدُ سُبْحانَهُ أَنْ يَنْقُلَها إِلَيْهِ ، ثُمَّ بَعْدَ العَلَقَةِ مُضْغَةً ، ثُمَّ فَتَقَ سُبْحانَهُ فِي المُضْغَةِ صُورَتَكَ ، وأَقامَ فِيها بِنْيَتَكَ ، ثُمَّ نَفَخَ فِيكَ الرُّوحَ بَعْدَ ذَلِكَ ، ثُمَّ غَذَّاكَ بِدَمِ الحَيْضِ فِي رَحِمِ الأُمِّ ، فَأَجْرَى عَلَيْكَ رِزْقَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْرِجَكَ إِلَى الوُجُودِ ، ثُمَّ أَبْقاكَ فِي رَحِمِ الأُمِّ حَتَّى قَوِيَتْ أَعْضاؤُكَ ، واشْتَدَّتْ أَرْكانُكَ ، لِيُهَيِّئَكَ إِلَى البُرُوزِ إِلَى ما قُسِمَ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، ولِيُبْرِزَكَ إِلَى دارٍ يَتَعَرَّفُ فِيها بِفَضْلِهِ وعَدْلِهِ إِلَيْكَ ، ثُمَّ لَمَّا أَنْزَلَكَ إِلَى الأَرْضِ عَلِمَ سُبْحانَهُ أَنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَناوَلَ خُشُوناتِ المَطاعِم ، ولَيْسَ لَكَ أَسْنانٌ تَسْتَعِينُ بِها عَلَى ما أَنْتَ بِهِ طاعِم ، فَأَجْرَى الثَّدْيَيْنِ بِالغِذاءِ اللَّطِيف ، ووَكَّلَ بِهِما مُسْتَحَثَّ الرَّحْمَةِ الَّتي جَعَلَها فِي قَلْبِ الأُمِّ ، فَكُلَّما وَقَفَ اللَّبَنُ عَنِ البُرُوزِ ، اسْتَحَثَّتْهُ الرَّحْمَةُ الَّتي جَعَلَها لَكَ فِي الأُمِّ مُسْتَحَثًّا لا يَفْتُرُ ، ومُسْتَنْهَضًا لا يَقْصُرُ ، ثُمَّ إِنَّهُ شَغَلَ الأَبَ والأُمَّ بِتَحْصِيلِ مَصالِحِكَ ،

والرَّأْفَةِ عَلَيْكَ ، والرَّحْمَةِ والنَّظَرِ بِعَيْنِ المَوَدَّةِ مِنْهُما إلَيْكَ ، وما هِيَ إلَّا رَأْفَتُهُ ساقَها للعِبادِ فِي مَظاهِرِ الآباءِ والأُمَّهاتِ تَعْرِيفًا بالوداد ، وفِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ ما كَفَلَتْكَ إلَّا رُبُوبِيَّتُهُ ، وما حَضَنَكَ إلَّا أُلُوهِيَّتُهُ ، ثُمَّ أَلْزَمَ الأَبَ القِيامَ بِكَ إلَى حِينِ البُلُوغِ ، وأَوْجَبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ رَأْفَةً مِنْهُ بِكَ ، ثُمَّ رَفَعَ قَلَمَ التَّكْلِيفِ عَنْكَ إلَى أَوانِ تَكْمُلُ الأَفْهامِ ، وذَلِكَ عِنْدَ الاحْتِلامِ ، ثُمَّ إلَى أَنْ صِرْتَ كَهْلًا لَمْ يَقْطَعْ عَنْكَ نَوالًا ولا فَضْلًا ، ثُمَّ إذا انْتَهَيْتَ إلَى الشَّيْخُوخَةِ ، ثُمَّ إذا قَدِمْتَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ إذا حُشِرْتَ إلَيْهِ ، ثُمَّ إذا أَقامَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ إذا سَلَّمَكَ مِنْ عِقابِهِ ، ثُمَّ إذا أَدْخَلَكَ دارَ ثَوابِهِ ، ثُمَّ إذا كَشَفَ عَنْكَ وُجُودَ حِجابِهِ ، وأَجْلَسَكَ مَجالِسَ أَوْلِيائِهِ وأَحْبابِهِ ، قالَ سُبْحانَهُ : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (١) .

فَلِأَيِّ إحْسانِهِ تَشْكُرُ ؟ ولأَيِّ أَيادِيهِ تَذْكُرُ ؟

واسْمَعْ قَوْلَهُ سُبْحانَهُ : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ (٢) .

تَعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ تَخْرُجْ عَنْ إحْسانِهِ ، ولَنْ يَتَعَدَّاكَ وُجُودُ فَضْلِهِ وامْتِنانِهِ)) .

انْتَهَى كلامُهُ فِي ((التَّنْوِير)) ، وهُوَ شَرْحٌ لِهَذِهِ الحِكْمَةِ ؛ لاشْتِمالِهِ عَلَى النِّعْمَتَيْنِ إيجادًا وإمْدادًا .

---

(١) سُورَةُ القَمَر : الآيَتان ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) سُورَةُ النَّحْل : مِنَ الآيَة ٥٣ .

ومِنْ نِعْمَةِ الإِمْدادِ المَعْنَوِي : نِعْمَةُ الإِسْلام والإِحْسان ، وحِفْظُ ذَلِكَ وإِدامَتُهُ عَلَيْنا فِي كُلِّ وَقْتٍ وحِين ، وزِيادَةُ التَّرَقِّي فِي المَعْرِفَةِ واليَقِينِ إِلَى يَوْم الدِّين ، فالحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِين .

ثُمَّ المَقْصُودُ بِالنَّظَرِ إِلَى هاتَيْنِ النِّعْمَتَيْنِ هُوَ الإِنْسان ، وإِنْ كانَتا عامَّتَيْنِ فِي جَمِيعِ الأَكْوان ؛ إِذْ هُوَ المَطْلُوبُ بِشُكْرِها ، والتَّحَدُّثُ بِذِكْرِها ، ولِذَلِكَ خَصَّهُ بِالخِطاب كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوَّلًا بِالإِيجاد ، وثانِيًا بِتَوالِي الإِمْداد) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **تَوالِي الإِمْداد** : هُوَ تَتابُعُهُ واتِّصالُهُ ، سَواءٌ كانَ حِسِّيًّا أَوْ مَعْنَوِيًّا ، فَفِي كُلِّ ساعَةٍ ولَحْظَةٍ أَنْتَ مُفْتَقِرٌ إِلَى إِمْدادِهِ قَلْبًا وقالَبًا ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(فاقَتُكَ لَهُ ذاتِيَّةٌ ، ووُرُودُ الأَسْبابِ مُذَكِّرَةٌ لَكَ بِما خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْها ، والفاقَةُ الذَّاتِيَّةُ لا تَرْفَعُها العَوارِضُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الفاقَةُ الذَّاتِيَّة** : هِيَ الأَصْلِيَّةُ الحَقِيقِيَّة ، والأَسْبابُ المُحَرِّكَةُ لَها هِيَ العَوارِضُ الجَلالِيَّة ، وهِيَ كُلُّ ما يَقْهَرُ النَّفْسَ ويُزْعِجُها عَنْ حُظُوظِها وتَصَرُّفاتِها العادِيَّة ، وإِنَّما كانَتْ فاقَتُنا ذاتِيَّةً لا تُفارِقُنا ساعَةً واحِدَةً لأَنَّ نَشْأَتَنا مُرَكَّبَةٌ مِنْ حِسٍّ ومَعْنًى ، ولا يَقُومُ

الحِسُّ إلَّا بالمَعْنَى ، والمَعْنَى هُوَ أَسْرارُ الرُّبُوبِيَّةِ القائِمَةِ بالأَشْياء ، فَأَشْباحُنا مُفْتَقِرَةٌ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ إلَى نِعْمَةِ الإمْدادِ بَعْدَ نِعْمَةِ الإيجادِ ، وما الحِكْمَةُ إلَّا بالقُدْرَة ، ولا البَشَرِيَّةُ إلَّا بالرُّوحانِيَّة ، والرُّوحُ سِرٌّ مِنْ أَسْرارِ الله ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ (١).

فالبَدَنُ قائِمٌ بالرُّوح ، والرُّوحُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ الله ، وكُلُّ شَيْءٍ قائِمٌ بأَمْرِ الله ، فافْتِقارُ البَشَرِيَّةِ للرُّوحانِيَّةِ حاصِلٌ عَلَى الدَّوام ، قالَ تَعالَى فِي نِعْمَةِ الإيجاد : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (٢).

فَهَذا هُوَ الافْتِقارُ إلَى نِعْمَةِ الإيجاد .

ثُمَّ قالَ فِي نِعْمَةِ الإمْداد : ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٣).

وهَذا هُوَ افْتِقارُنا إلَى نِعْمَةِ الإمْداد .

وقالَ تَعالَى فِي افْتِقارِ بَقِيَّةِ العالَم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ (٤).

فالكَوْنُ كُلُّهُ قائِمٌ بأَمْرِ الرُّبُوبِيَّة ، مَظْهَرٌ مِنْ مَظاهِرَ لا قِيامَ لَهُ بِدُونِها .

---

(١) سُورَةُ الإسْراء : مِنَ الآيَة ٨٥ .
(٢) سُورَةُ فاطِر : الآيَة ١٥ .
(٣) سُورَةُ فاطِر : الآيَة ١٦ .
(٤) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ٤١ .

قالَ الشَّيْخُ أَبو مَدْيَن رضي الله عنه : ((الحَقُّ سُبْحانَهُ مُسْتَبِدٌّ ، والوُجُودُ مُسْتَمِدٌّ ، والمادَّةُ مِنْ عَيْنِ الجُود ، فَإِذا انْقَطَعَتِ المادَّةُ ، أَيْ : مادَّةُ المَعْنَى ، انْهَدَّ الوُجُود)) .

والمُرادُ بِالوُجُودِ ظُهُورُ الحِسِّ ، وعَيْنُ الجُودِ هُوَ المَعانِي اللَّطِيفَةُ القَدِيمَة . يَعْنِي أَنَّ الحَقَّ تَعالَى مُسْتَبِدٌّ ؛ أَيْ : قائِمٌ بِنَفْسِهِ ، وظُهُورُ تَجَلِّياتِهِ مُسْتَمِدَّةٌ مِنْ باطِنِ صِفاتِهِ ، ومادَّةُ الأَشْياءِ كُلِّها مِنْ عَيْنِ الجُودِ ؛ وهِيَ نِعْمَةُ الإِيجادِ والإِمْدادِ ، فَإِذا انْقَطَعَتِ المادَّةُ ؛ أَيْ : مادَّةُ المَعْنَى مِنَ الحِسِّ ، اضْمَحَلَّ الحِسُّ واضْمَحَلَّتِ الأَكْوان ، فَلَوْ ظَهَرَتْ صِفاتُهُ اضْمَحَلَّتْ مُكَوَّناتُه .

فَفاقَتُكَ ؛ أَي : افْتِقارُكَ أَيُّها الإِنْسانُ لَهُ ذاتِيَّة ؛ أَيْ : أَصْلِيَّةٌ حَقِيقِيَّة ، لَكِنَّها خَفِيَّة ، ووُرُودُ الأَسْبابِ المُحَرِّكَةِ لِظُهُورِ تِلْكَ الفاقَةِ ، وهِيَ الشِّدَّةُ والحَيْرَةُ ، وكُلُّ ما يُلْجِئُكَ إِلَى مَوْلاكَ مُذَكِّرَةٌ لَكَ ما خَفِيَ عَنْها مِنْها . يَعْنِي أَنَّ فاقَتَكَ لا تُفارِقُكَ ، إِذْ كُلَّ لَحْظَةٍ تَفْتَقِرُ إِلَى مَنْ يُمِدُّكَ بِالوُجُودِ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَة ، إِلَّا أَنَّها خَفِيَّةٌ لا تَذْكُرُها حَتَّى يَتَحَرَّكَ عَلَيْكَ أَسْبابُ ظُهُورِها ؛ كالفِتَنِ والمَرَضِ وغَيْرِهِما ، والفاقَةُ الأَصْلِيَّةُ الذَّاتِيَّةُ لا تَرْفَعُها العَوارِضُ ، وهِيَ الصِّحَّةُ والعافِيَة ، فَما دامَ العَبْدُ

فِي العافِيَةِ فَفاقَتُهُ خَفِيَّةٌ لا يَتَفَطَّنُ لَها إلَّا العارِفُونَ ؛ لأَنَّهُ لا يَزُولُ اضْطِرارُهُمْ ، فَإذا قامَ عَلَيْهِ جَلالٌ أَوْ مُحَرِّكٌ ، ظَهَرَ افْتِقارُهُ وتَحَقَّقَ اضْطِرارُهُ ، مَعَ أَنَّهُ دائِمُ الفاقَةِ حِسُّهُ ومَعْناه .

ثُمَّ إنَّ رُجُوعَ الشَّيْءِ إلَى أَصْلِهِ مُرَغِّبٌ فِيهِ ، وخُرُوجَهُ عَنْ أَصْلِهِ لا خَيْرَ فِيهِ ، وأَصْلُكَ أَيُّها الإنْسانُ هُوَ الفاقَةُ والاضْطِرار ، والذِّلَّةُ والانْكِسار ، فَكُلُّ ما يَرُدُّكَ إلَى أَصْلِكَ فَهُوَ لَكَ فِي غايَةِ الحُسْنِ والاخْتِيار ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(**خَيْرُ أَوْقاتِكَ وَقْتٌ تَشْهَدُ فِيهِ وُجُودَ فاقَتِكَ ، وتُرَدُّ فِيهِ إلَى وُجُودِ ذِلَّتِكَ**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إنَّما كانَ شُهُودُ الفاقَةِ هُوَ خَيْرَ أَوْقاتِكَ لِوَجْهَيْن :

أَحَدُهُما : ما فِي ذَلِكَ مِنْ تَحْقِيقِ العُبُودِيَّة ، وتَعْظِيمِ شَأْنِ الرُّبُوبِيَّة ، وفِي ذَلِكَ شَرَفُ العَبْدِ وكَمالُهُ ؛ إذْ بِقَدْرِ تَحْقِيقِ العُبُودِيَّةِ فِي الظَّاهِرِ يَعْظُمُ شُهُودُ الرُّبُوبِيَّةِ فِي الباطِن .

أَوْ تَقُولُ : بِقَدْرِ العُبُودِيَّةِ فِي الظَّاهِرِ تَكُونُ الحُرِّيَّةُ فِي الباطِن .

أَوْ تَقُولُ : بِقَدْرِ الذُّلِّ فِي الظَّاهِرِ يَكُونُ العِزُّ فِي الباطِن .

أَوْ تَقُولُ : بِقَدْرِ وَضْعِ الظَّاهِرِ يَكُونُ رَفْعُ الباطِن .

مَنْ تَواضَعَ دُونَ قَدْرِهِ ، رَفَعَهُ اللّهُ فَوْقَ قَدْرِهِ .

وانْظُرْ أَشْرَفَ خَلْقِ اللهِ ، وهُمُ الأَنْبياءُ بماذا خاطَبَهُمُ اللهُ تعالَى ؛ فما خاطَبُهُمْ إلَّا بالعُبُودِيَّة ؛ قالَ اللهُ تعالَى : ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ (١) ، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ (٢) ، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ (٣) .

وقَدِ اخْتارَها نَبيُّنا ﷺ حِينَ خُيِّرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبيًّا مَلِكًا ، أَوْ نَبيًّا عَبْداً ، فاخْتارَ أَنْ يَكُونَ نَبيًّا عَبْداً ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ أَشْرَفَ حالِ الإِنْسانِ هُوَ العُبُودِيَّة ، فَبِقَدْرِ ما يَتَحَقَّقُ بِها فِي الظَّاهِرِ يَعْظُمُ قَدْرُهُ فِي الباطِنِ ، ومَهْما خَرَجَ مِنْها فِي الظَّاهِرِ بِإِظْهارِ الحُرِّيَّةِ أَدَّبَتْهُ القُدْرَةُ ورَدَّتْهُ القَهْرِيَّةُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَصْلِهِ ويَعْرِفَ ما لَهُ وعَلَيْهِ .

الوَجْهُ الثَّانِي : ما فِي الفاقَةِ مِنْ مَزِيدِ المَدَدِ وطَلَبِ الاسْتِمداد : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ (٤) .

وقَدْ جَعَلَ اللهُ النَّصْرَ والفَتْحَ مَقْرُونَيْنِ بالفاقَةِ والذِّلَّةِ وتَحْقِيقِ الضَّعْفِ والقِلَّةِ ؛ قالَ اللهُ تعالَى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (٥) .

وقالَ تعالَى : ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ (٦) .

وجَعَلَ الخِذْلانَ وعَدَمَ النَّصْرِ والمَعُونَةِ فِي إِظْهارِ الحُرِّيَّةِ والقُوَّةِ ، قالَ

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ١ .
(٢) سُورَةُ ص : مِنَ الآيَة ١٧ .
(٣) سُورَةُ ص : مِنَ الآيَة ٤١ .
(٤) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ٦٠ .
(٥) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٢٣ .
(٦) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ٨٦ .

تعالَى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (١).

وذَلِكَ لِما وَقَعَ مِنْ بَعْضِ الصَّحابَةِ الَّذينَ كانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِالإِسْلام ، فَأَدَّبَهُمُ اللّهُ بِإِظْهارِ الحُرِّيَّةِ ، ولَكِنْ عَمَّتِ الفِتْنَة .

قالَ تَعالَى : ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (٢).

وهَذا وَجْهُ ذِكْرِ الآيَةِ قَبْلَ ذِكْرِ القَضِيَّةِ ، واللّهُ تَعالَى أَعْلَم .

فَإِذًا خَيْرُ أَوْقاتِكَ أَيُّها المُرِيدُ وَقْتٌ تَشْهَدُ فِيهِ وُجُودَ فاقَتِكَ ؛ أَيْ ظُهُورُها ، وإِلَّا فَهِيَ كامِنَةٌ فِيكَ كَما تَقَدَّمَ ، وتُسَمَّى عِنْدَ المُتَأَخِّرِينَ الحِيزَةَ ، وهِيَ الشِّدَّةُ ، فَهِيَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ إِنْ عَرَفْتَ فِيها رَبَّكَ .

والمَعْرِفَةُ فِيها أَنْ تَسْكُنَ عَنِ التَّحَرُّكِ والاضْطِراب ، وتَقْطَعَ النَّظَرَ عَنِ التَّعَلُّقِ بِالأَسْباب ، وتَرْجِعَ فِيها إِلَى مُسَبِّبِ الأَسْباب ، وتُعَلِّقَ هِمَّتَكَ بِرَبِّ الأَرْباب ، وتَكْتَفِي بِعِلْمِ اللّهِ الكَرِيمِ الوَهَّاب .

ولَقَدْ سَمِعْتُ شَيْخَنا اليَزِيدِيَّ رضي الله عنه يَقُولُ : ((العَجَبُ مِنَ الإِنْسانِ يَرَى الخَيْرَ أَوِ الفَتْحَ واصِلًا إِلَيْهِ ، وقادِمًا عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَقُومُ يُبادِرُ بِسَدِّ البابِ فِي وَجْهِهِ ، وهُوَ أَنْ يَرَى الفاقَةَ قادِمَةً عَلَيْهِ فَيُبادِرَ إِلَى الأَسْبابِ الَّتِي

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ٢٥ .
(٢) سُورَةُ الأَنْفال : مِنَ الآيَة ٢٥ .

تَقْطَعُها عَنْهُ قَبْلَ وُصُولِها ، فَقَدْ كانَ الرِّيحُ واصِلًا إلَيْهِ ، فَقامَ فَرَدَّهُ)) .

وخَيْرُ أَوْقاتِكَ أَيْضًا وَقْتٌ تَشْهَدُ فِيهِ وُجُودَ ذِلَّتِكَ كَما تَقَدَّمَ ؛ لأَنَّهُ سَبَبُ عِزِّكَ ونَصْرِكَ ؛ إذِ الأَشْياءُ كامِنَةٌ فِي أَضْدادِها : العِزُّ فِي الذُّلِّ ، والغِنَى فِي الفَقْرِ ، والقُوَّةُ فِي الضَّعْفِ ، والعِلْمُ فِي الجَهْلِ ؛ أَيْ فِي إظْهارِ الجَهْلِ ، إلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، قالَ تَعالَى : ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ (١).

وقالَ تَعالَى فِي حَقِّ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم حِينَ كانُوا فِي حالَةِ الاسْتِضْعافِ والإذايَةِ تَسْلِيَةً لَهُمْ : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (٢).

والحاصِلُ : بِقَدْرِ الجَلالِ يَكُونُ الجَمالُ عاجِلًا وآجِلًا ، قال تَعالَى : ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٣).

وقالَ ﷺ : (لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ) .

كَما فِي الحَدِيثِ حَيْثُ قالَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - لابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما :

---

(١) سُورَةُ القَصَص : الآيَة ٥ .
(٢) سُورَةُ النُّور : مِنَ الآيَة ٥٥ .
(٣) سُورَةُ الشَّرْح : الآيَتان ٥ ، ٦ .

(واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً) .

خَيْرُ أَوْقاتِكَ

ثُمَّ إذا صَحَّ فَقْرُكَ إِلَيْهِ ، وتَحَقَّقَتْ ذِلَّتُكَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، أَتْحَفَكَ بِأُنْسِهِ ، وزَجَّ بِكَ فِي حَضْرَةِ قُدْسِهِ ، كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (**مَتَى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ ، فاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَ الأُنْسِ بِهِ**) : قالَ ابنُ عَجِيبَة : هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ تَعالَى فِي خَلْقِهِ ، إذا أَرادَ أَنْ يُؤْنِسَ عَبْدَهُ بِذِكْرِهِ ، ويُتْحِفَهُ بِمَعْرِفَتِهِ ، أَوْحَشَهُ مِنْ خَلْقِهِ ، وشَغَلَهُ بِخِدْمَتِهِ ، وأَلْهَمَهُ ذِكْرَهُ ، حَتَّى إذا امْتَلأَ قَلْبُهُ بالأَنْوار ، وتَمَكَّنَ مِنْ حَلاوَةِ الشُّهُودِ والاسْتِبْصار ، رَدَّهُ إِلَيْهِمْ رَحْمَةً لَهُمْ ؛ لأَنَّهُ حِينَئِذٍ لِقُوَّتِهِ يَأْخُذُ مِنْهُمْ ولا يَأْخُذُونَ مِنْهُ ، ومِثالُهُ فِي الحِسِّ كَفَتِيلَةٍ أَشْعَلْتَها ، فَما دامَتْ ضَعِيفَةً لا بُدَّ أَنْ تَحْفَظَها مِنَ الرِّيح ، وتَقْصِدَ بِها المَواضِعَ الخَفِيَّة ، فَإِذا اشْتَدَّ نُورُها ، وأَشْعَلْتَها فِي الحَطَب ، صَعِدَتْ بِها إِلَى ظُهُورِ الجِبال ، فَبِقَدْرِ ما يُصِيبُها الرِّيحُ يَعْظُمُ اشْتِعالُها ، كَذَلِكَ مُرِيدُ الحَقِّ ما دامَ فِي البِدايَةِ لا يَلِيقُ بِهِ إِلَّا الوَحْشَةُ مِنَ الخَلْقِ ، والفِرارُ مِنْهُمْ ، فَإِذا تَمَكَّنَ فِي الشُّهُودِ فَلا يَلِيقُ بِهِ حِينَئِذٍ إِلَّا الخُلْطَةُ مَعَهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ لا يَضُرُّونَهُ . فَمَتَى أَوْحَشَكَ أَيُّها المُرِيدُ مِنْ خَلْقِهِ ، وعَزَلَكَ عَنْهُمْ فِي قَلْبِكَ ،

فاعْلَمْ أَنَّهُ تعالَى أَرادَ أَنْ يُؤْنِسَكَ بِهِ ، ويُغْنِيَكَ بِمَعْرِفَتِهِ ، فَقَدْ كانَ ﷺ حِينَ قَرُبَ أَوانُ النُّبُوَّةِ والرِّسالَةِ ، حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلْوَةُ ، فَكانَ يَخْلُو بِغارِ حِراء ؛ وحِكْمَةُ ذَلِكَ تَصْفِيَةُ البَواطِنِ مِنَ الشَّواغِلِ والشَّواغِبِ لِتَتَهَيَّأَ لِقَبُولِ ما تَتَحَمَّلُهُ مِنَ الأَسْرارِ والمَواهِبِ ، فَإِذا تَطَهَّرَ مِنَ الأَكْدارِ ، مُلِئَ بِالأَنْوارِ ، فَأَشْرَقَتْ فِيهِ شُمُوسُ العِرْفانِ ، وتَمَكَّنَ مِنْ حَضْرَةِ الشُّهُودِ والعِيانِ ، فَهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي أَوْلِيائِهِ وأَصْفِيائِهِ ، يَفِرُّونَ أَوَّلًا مِنَ النَّاسِ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُمْ مِنْهُمُ الإِياسُ ، ثُمَّ يَرُدُّهُمُ الحَقُّ إِلَيْهِمْ رَغْمًا عَلَى أَنْفِهِمْ لِمَقامِ الدَّلالَةِ والإِرْشادِ ، فَيَنْتَفِعُ بِهِمُ العِبادُ ، وتَحْيا بِوُجُودِهِمُ البِلادُ ، وفِي مِثْلِهِمْ قالَ الشَّاعِرُ :

تَحْيا بِكُمْ كُلُّ أَرْضٍ تَنْزِلُونَ بِها ❁ كَأَنَّكُمْ فِي بِقاعِ الْأَرْضِ أَمْطارُ

وَتَشْتَهِي الْعَيْنُ فِيكُمْ مَنْظَرًا حَسَنًا ❁ كَأَنَّكُمْ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ أَقْمارُ

لا أَوْحَشَ اللهُ رَبْعًا مِنْ زِيارَتِكُمْ ❁ يا مَنْ لَهُمْ فِي الْحَشَا وَالْقَلْبِ تَذْكارُ

نَفَعَنا اللهُ بِهِمْ ، وحَقَّقَنا بِمَعْرِفَتِهِمْ ، آمِين .

ثُمَّ إِذا فَتَحَ لَكَ بابَ الأُنْسِ ، وتَشَوَّقْتَ إِلَى حَضْرَةِ القُدْسِ ، ثُمَّ أَطْلَقَ لِسانَكَ بِطَلَبِها ، فاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَها ، كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مَتَى أَطْلَقَ لِسانَكَ بِالطَّلَبِ ، فاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَكَ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : لأَنَّ الحَقَّ تَعالَى جَعَلَ الطَّلَبَ سَبَبًا مِنَ الأَسْباب ، فَإِذا أَرادَ أَنْ يُنْجِزَ للعَبْدِ ما سَبَقَ لَهُ ، فَتَحَ لَهُ فِيهِ بابَ الطَّلَب ، فَإِذا حَصَلَ مِنْهُ الطَّلَب ، حَصَّلَ الَّذي قَسَمَ لَهُ فِي الأَزَلِ إِظْهارًا لِحِكْمَتِهِ ، وإِخْفاءً لِقُدْرَتِهِ ، وتَغْطِيَةً لِسِرِّهِ ، فالدُّعاءُ مِنْ جُمْلَةِ الأَسْبابِ العادِيَّةِ كالحَرْثِ والدَّواءِ والتَّزَوُّجِ فِي الوَلَدِ وغَيْرِ ذَلِكَ ، وكُلُّ ذَلِكَ سَبَقَتْ بِهِ المَشِيئَةُ ، ونَفَذَ بِهِ القَضاءُ والقَدَرُ ، فَما بَقِيَ الدُّعاءُ إِلَّا إِظْهارًا للفاقَة ، وإِبْقاءً لِرَسْمِ العُبُودِيَّة ، لا طَلَبًا لِحُصُولِ ما لَمْ يَكُنْ ، جَلَّ حُكْمُ الأَزَلِ أَنْ يُضافَ للأَسْبابِ والعِلَلِ .

فَمَتَى أَطْلَقَ لِسانَكَ أَيُّها المُرِيدُ بِالطَّلَبِ لِشَيْءٍ تَجَلَّى فِي قَلْبِكَ أَوِ احْتَجْتَ إِلَيْهِ ، فاعْلَمْ أَنَّ الحَقَّ تَعالَى أَرادَ أَنْ يُعْطِيَكَ ما طَلَبْتَ مِنْهُ ، فَلا تَحْرِصْ ولا تَسْتَعْجِلْ ، فَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدار ، فَإِنْ أَطْلَقَ لِسانَكَ فِي الدُّعاءِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ ، فَخَيْرُ ما تَطْلُبُهُ مِنْهُ ما هُوَ طالِبُهُ مِنْكَ كَما تَقَدَّم .

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (مَنْ أُعْطِيَ الدُّعاءَ لَمْ يُحْرَم الإِجابَة) .

وقالَ أَيْضًا ﷺ : (مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي الدُّعاءِ فَقَدْ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوابُ الرَّحْمَة ، وما سُئِلَ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ العَفْوِ والعافِيَة) .

وقالَ الكِتَّانِي رضي الله عنه : ((لَمْ يَفْتَحِ اللهُ لِسانَ المُؤْمِنِ بِالمَعْذِرَةِ إِلَّا وقَدْ فَتَحَ لَهُ بِالمَغْفِرَةِ)) .

وقالَ الخَفَّافُ : ((وكَيْفَ لا يُجِيبُهُ وهُوَ يُحِبُّ صَوْتَهُ ؟! ولَوْلا ذَلِكَ ما مَنَحَ الدُّعاءَ)) ، وفِي ذَلِكَ قِيلَ :

لَـوْ لَـمْ تُـرِدْ نَيْـلَ مَـا أَرْجُـو وَأَطْلُبُهُ

مِنْ فَيْضِ جُودِكَ مَا عَلَّمْتَنِي الطَّلَبَا

ثُمَّ هَذا كُلُّهُ قَبْلَ فَتْحِ بابِ المَعْرِفَةِ .

وإذا فَتَحَ لَكَ البابَ فَلا تَحْتاجُ إِلَى طَلَبٍ ؛ لِغِناكَ بِمُسَبِّبِ الأَسْبابِ ، فَيَكُونُ دُعاؤُكَ إِنَّما هُوَ إِظْهارٌ للفاقَةِ والاضْطِرارِ اللَّازِمَتَيْنِ لَكَ مَعَ كُلِّ نَفَسٍ وفِي كُلِّ وَقْتٍ وحالَةٍ ؛ كَما أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(العارِفُ لا يَزُولُ اضْطِرارُه ، ولا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللهِ قَرارُه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : أَمَّا وَجْهُ كَوْنِهِ لا يَزُولُ اضْطِرارُهُ فَلِتَحَقُّقِ قَيُّومِيَّةِ الحَقِّ بِهِ ؛ إِذِ الحِسُّ لا يَقُومُ إِلَّا بِالمَعْنَى ؛ فَحِسُّ العُبُودِيَّةِ لا يَقُومُ إِلَّا بِمَعْنَى الرُّبُوبِيَّة ، فَبِقَدْرِ تَحَقُّقِ العَبْدِ بِقَيُّومِيَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ يَشْتَدُّ اضْطِرارُهُ فِي ظاهِرِ العُبُودِيَّة .

وأَيْضًا العارِفُ لا يَزالُ فِي التَّرَقِّي ، فَهُوَ مُتَعَطِّشٌ للزِّيادَةِ عَلَى الدَّوام ،

كَما قالَ النَّقْشَبَنْدِي - رَحِمَهُ اللّه - :

وَذُو الصَّبَابَةِ لَوْ يُسْقَى عَلَى عَدَدِ الـ ❁ أَنْفَاسِ وَالْكَوْنُ كَأْسٌ لَيْسَ يُرْوِيهِ

وقالَ آخَرُ :

سَقَانِي الْحُبَّ كَأْسًا بَعْدَ كَأْسٍ ❁ فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَلا رَوِيتُ

وقالَ بَعْضُهُمْ : لَوْ شَرِبْتَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ أَلْفَ بَحْرٍ ، لا تَرَى ذَلِكَ إِلَّا قَلِيلًا ، وتَشْهَدَ شَفَتَيْكَ يابِسَة ، وكُلُّ ذَلِكَ كِنايَةً عَنْ عَدَمِ النِّهايَة ، وأَنَّ المَقْصُودَ غَيْرُ مُنْضَبِطٍ ، فالعارِفُ لا يَزالُ مُفْتَقِراً للزِّيادَةِ عَلَى الدَّوام ، فَلا يَزُولُ اضْطِرارُهُ عَلَى الدَّوام ، وقَدْ قالَ اللّهُ تَعالَى لِسَيِّدِ العارِفِينَ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١) .

فالاضْطِرارُ إِلَى زِيادَةِ العِلْمِ لا يَنْقَطِعُ ، ولَوْ جَمَعَ عُلُومَ أَهْلِ السَّمَواتِ والأَرْض .

قالَ تَعالَى مُخاطِبًا للكُلِّ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢) .

وأَمَّا وَجْهُ كَوْنِهِ لا يَكُونُ بِأَسْرِهِ ، فَلَمْ تَبْقَ لَهُ حاجَةٌ إِلَى غَيْرِهِ ، فَقَرارُهُ إِنَّما هُوَ شُهُودُ الذَّاتِ الأَقْدَس ، فَإِنْ نَزَلَ إِلَى سَماءِ الحُقُوق ، أَوْ أَرْضِ الحُظُوظ ، فَبِالإِذْنِ والتَّمَكُّنِ والرُّسُوخِ فِي اليَقِين ، فالعارِفُ لَيْسَ لَهُ

---

(١) سُورَةُ طه : مِنَ الآيَة ١١٤ .

(٢) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٨٥ .

عَنْ نَفْسِهِ إِخْبار ، ولا مَعَ غَيْرِ اللهِ قَرار .

وأَيْضًا سابِقُ العِنايَةِ لا يَتْرُكُهُ يَرْكَنُ إِلَى غَيْرِ مَوْلاه ، فَمَهْما رَكَنَ قَلْبُهُ إِلَى شَيْءٍ شَوَّشَتْهُ عَلَيْهِ العِنايَة ، واكْتَنَفَتْهُ الرِّعايَة ، فَهُوَ مَحْفُوظٌ مِنَ الأَغْيار ، مَحْفُوفٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ بِمَدَدِ الأَنْوار ؛ إِذا كانَ اللهُ قَدْ حَرَسَ السَّماءَ مِنَ اسْتِراقِ السَّمْع ، فَكَيْفَ لا يَحْرُسُ قُلُوبَ أَوْلِيائِهِ مِنَ الأَغْيار ، وما تَوَلَّاهُمْ بِمَحَبَّتِهِ حَتَّى حَفِظَهُمْ مِنْ شُهُودِ غَيْرِهِ ، فَكَيْفَ بِالرُّكُون ؟ هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، هَذا لا يَكُون .

أَنْوارُ الظَّواهِر

مَنْ كانَ ظاهِرُهُ مَحْفُوفًا بِالأَنْوار ، وباطِنُهُ مَحْشُوًّا بِالأَسْرار ، فَكَيْفَ يَرْكَنُ إِلَى شُهُودِ الأَغْيار ؟ كَما أَبانَ ابنُ عَطاءِ اللهِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(أَنارَ الظَّواهِرَ بِأَنْوارِ آثارِهِ ، وأَنارَ السَّرائِرَ بِأَنْوارِ أَوْصافِهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **أَنْوارُ الظَّواهِر** : هِيَ ما ظَهَرَ عَلَى تَجَلِّياتِ الأَكْوانِ مِنْ تَأْثِيرِ قُدْرَتِهِ ، وإِبْداعِ حِكْمَتِهِ ؛ كَتَزْيِينِ السَّماءِ بِالكَواكِبِ والقَمَرِ والشَّمْسِ ، وما فِيها مِنْ إِبْداعِ الصُّنْعِ وتَمامِ الإِتْقان ، وكَتَزْيِينِ الأَرْضِ بِالأَزْهارِ والثِّمارِ والنَّباتِ وسائِرِ الفَواكِهِ ، وكَتَزْيِينِ الإِنْسانِ بِالبَصَرِ والسَّمْعِ والكَلامِ وسائِرِ ما فِيهِ عَنْ عَجائِبِ الصَّنْعَة .

قالَ تَعالَى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (١).

وقالَ تَعالَى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ (٢) .

فَهَذِهِ أَنْوارُ الظَّواهِر .

وأَنْوارُ الأَوْصاف : هِيَ العُلُومُ والمَعارِفُ والأَسْرار ، والمُرادُ بِالأَوْصافِ أَوْصافُ الرُّبُوبِيَّة ؛ كالعَظَمَةِ والعِزَّةِ والجَلالِ والجَمالِ والكِبْرِياءِ والكَمال ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَوْصافِ الذَّاتِ العَلِيَّة ، والذَّاتُ لا تُفارِقُ الصِّفات .

فَإِذا أَشْرَقَتِ السَّرائِرُ بِأَنْوارِ مَعْرِفَةِ الصِّفات ، فَقَدْ أَشْرَقَتْ بِأَنْوارِ مَعْرِفَةِ الذَّات ؛ للتَّلازُمِ الَّذي بَيْنَ الصِّفاتِ والذَّات .

ثُمَّ النَّاسُ فِي شُهُودِ هَذِهِ الأَنْوارِ الباطِنَةِ الَّتي هِيَ أَنْوارُ الأَوْصافِ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام :

- قِسْمٌ يَشْهَدُونَها عَلَى البُعْدِ ، وهُمْ أَهْلُ مَقامِ الإِسْلام .
- وقِسْمٌ يَشْهَدُونَها عَلَى القُرْبِ ، وهُمْ أَهْلُ المُراقَبَةِ مِنْ مَقامِ الإِيمان .
- وقِسْمٌ يَشْهَدُونَها عَلَى الاتِّصالِ ، وهُمْ أَهْلُ المَعْرِفَةِ مِنْ مَقامِ الإِحْسان .

---

(١) سُورَةُ التِّين : الآيَة ٤ .

(٢) سُورَةُ الكَهْف : مِنَ الآيَة ٧ .

فَأَهْلُ مَقامِ الإِسْلامِ أَنْوارُهُمْ ضَعِيفَةٌ كَأَنْوارِ النُّجُومِ ، وأَهْلُ مَقامِ الإِيمانِ أَنْوارُهُمْ مُتَوَسِّطَةٌ كَنُورِ القَمَرِ ، وأَهْلُ مَقامِ الإِحْسانِ أَنْوارُهُمْ ساطِعَةٌ كَأَنْوارِ الشَّمْسِ .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ أَنْوارَ الباطِنِ الثَّلاثَةِ : نُجُومُ الإِسْلامِ ، وقَمَرُ التَّوْحِيدِ ، وشَمْسُ المَعْرِفَةِ ، وإِلَى هَذا المَعْنَى أَشارَ ابنُ الفارِضِ بِقَوْلِهِ :

لَهَا الْبَدْرُ كَأْسٌ وَهْيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا

هِـلالٌ وَكَمْ يَبْـدُو إِذَا مُزِجَتْ نَجْمُ

فالضَّمِيرُ لِخَمْرَةِ المَحَبَّةِ ، وهِيَ أَيْضًا شَمْسُ المَعْرِفَةِ ، فَإِذا مُزِجَتْ لِتُشْرَبَ ظَهَرَ نَجْمُ الإِسْلامِ ، وإِذا وُضِعَتْ فِي الكَأْسِ طَلَعَ قَمَرُ التَّوْحِيدِ وهُوَ الإِيمانُ ، وإِذا شُرِبَتْ أَشْرَقَتْ شَمْسُ المَعْرِفَةِ ، والَّذي يُدِيرُها عَلَى الشَّارِبِينَ هِلالُ الهِدايَةِ ، هَذا مَعْنَى كَلامِهِ فِي الجُمْلَةِ .

وتَشْبِيهُ الأَنْوارِ المَعْنَوِيَّةِ بِالأَنْوارِ الحِسِّيَّةِ إِنَّما هُوَ تَقْرِيبٌ ، وإِلَّا فَأَنْوارُ القُلُوبِ كُلُّها عَظِيمَةٌ حَتَّى قالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَنِ رضي الله عنه : لَوْ كُشِفَ عَنْ نُورِ المُؤْمِنِ العاصِي لَطَبَّقَ ما بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ ، فَما ظَنُّكَ بِنُورِ المُؤْمِنِ المُطِيعِ ؟

وقالَ فِي ((لَطائِفِ المِنَنِ)) : ولَوْ كَشَفَ الحَقُّ عَنْ مُشْرِقاتِ قُلُوبِ أَنْوارِ

أَوْلِيائِهِ لانْطَوَى نُورُ الشَّمْسِ والقَمَرِ فِي مُشْرِقاتِ أَنْوارِ قُلُوبِهِمْ ، وأَيْنَ نُورُ الشَّمْسِ والقَمَرِ مِنْ أَنْوارِهِمْ ؟

الشَّمْسُ والقَمَرُ يَطْرَأُ عَلَيْهِما الكُسُوفُ والغُرُوبُ ، وأَنْوارُ قُلُوبِ أَوْلِيائِهِ لا كُسُوفَ لَها ولا غُرُوب ، ولِذَلِكَ قالَ قائِلُهُم :

هَذِهِ الشَّمْسُ قَابَلَتْنَا بِنُورٍ ❁ وَلَشَمْسُ الْيَقِينِ أَبْهَرُ نُورَا

فَرَأَيْنَا بِهَذِهِ النُّورَ لَكِنَّا ❁ بِهَاتِيكَ قَدْ رَأَيْنَا الْمُنِيرَا

فَأَنارَ الحَقُّ سُبْحانَهُ ظَواهِرَ الكائِناتِ بِأَنْوارِ الظَّواهِرِ وهِيَ النُّجُومُ والقَمَرُ والشَّمْسُ فِي الحِسِّ ، وتَزْيِينُ الخَلْقِ وإِبْداعُهُ وتَخْصِيصُهُ وتَقْيِيدُهُ عَنْ شَكْلٍ مَعْلُومٍ فِي الأَنْوارِ الخَفِيَّة ، وتَهْذِيبُ الجَوارِحِ وتَطْهِيرُها مِنَ الأَنْوارِ المَعْنَوِيَّة .

وأَنارَ سُبْحانَهُ القُلُوبَ والسَّرائِرَ بِأَنْوارِ أَوْصافِهِ وهِيَ عَظَمَةُ الرُّبُوبِيَّةِ وأَوْصافُها ، فَإِذا أَشْرَقَتْ فِي سَماءِ القُلُوبِ الصُّحْبَةُ والأَسْرارُ الصَّافِيَةُ غابَ العَبْدُ عَنْ شُهُودِ الأَغْيار ، وغَرِقَ فِي بَحْرِ الأَنْوار ، فَتَفْنَى الأَشْكالُ والرُّسُومُ ولا يَبْقَى إِلَّا الحَيُّ القَيُّوم .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ الفَرْقَ بَيْنَ أَنْوارِ الظَّواهِرِ وأَنْوارِ السَّرائِرِ ، فَقالَ :

(لأَجْلِ ذَلِكَ أَفَلَتْ أَنْوارُ الظَّواهِر ، ولَمْ تَأْفُلْ أَنْوارُ القُلُوبِ والسَّرائِر) : أَيْ : لأَجْلِ أَنَّ أَنْوارَ الظَّواهِرِ إِنَّما هِيَ أَنْوارُ الأَثَر ، ومِنْ شَأْنِ الأَثَرِ أَنْ يَتَأَثَّرَ ويَتَغَيَّرَ بِالطُّلُوعِ والغُرُوب ؛ **فَأَفَلَتْ** : أَيْ غَرَبَتْ أَنْوارُ الظَّواهِر ، إِمَّا بِالغُرُوبِ المَعْلُوم أَوْ بِالعَدَمِ المَحْتُوم ، **ولَمْ تَأْفُلْ** : أَيْ لَمْ تَغْرُبْ أَنْوارُ القُلُوب (وهِيَ أَنْوارُ الإِسْلامِ والإِيمان) ، وأَنْوارُ السَّرائِر (وهِيَ أَنْوارُ الإِحْسان) ؛ فَأَنْوارُ الإِسْلامِ والإِيمانِ هِيَ أَنْوارُ التَّوَجُّه ، وأَنْوارُ الإِحْسانِ هِيَ أَنْوارُ المُواجَهَة .

فالنُّورُ عِبارَةٌ عَنِ اليَقِينِ الَّذي يَحْصُلُ فِي القَلْبِ يُثْمِرُ حَلاوَةَ العَمَل ، فَإِذا قَوِيَ اليَقِينُ قَوِيَ النُّورُ واشْتَدَّتِ الحَلاوَةُ حَتَّى يَتَّصِلَ بِحَلاوَةِ الشُّهُودِ فَيُغَطِّيَ حَلاوَةَ العَمَل ، فَلِذَلِكَ يَقِلُّ عَمَلُ الجَوارِحِ عِنْدَ العارِف ؛ إِذْ حَلاوَةُ الشُّهُودِ تُغْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، لَيْسَ الخَبَرُ كالعَيان .

وفِي بَعْضِ الأَحادِيثِ : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَيُّ الأَعْمالِ أَفْضَلُ ؟ (قالَ : العِلْمُ بِاللهِ) ، قالُوا : يا رَسُولَ اللهِ ، سَأَلْناكَ عَنِ العَمَلِ ، (قالَ : العِلْمُ بِاللهِ ، ثُمَّ قالَ ﷺ فِي الثَّالِثَةِ : (عَمَلٌ قَلِيلٌ كافٍ مَعَ العِلْمِ بِاللهِ) .

وحَقِيقَةُ النُّورِ فِي الأَصْلِ كَيْفِيَّةٌ تَنْبَسِطُ مِنَ النَّيِّرَيْنِ عَلَى سَطْحِ

الجِسْم ، فَيَنْكَشِفُ ما عَلَيْهِ بِواسِطَةِ البَصَر ، ثُمَّ شَبَّهَ بِهِ العِلْمَ واليَقِينَ والمَعْرِفَةَ لِما بَيْنَهُما مِنَ الشَّبَهِ فِي كَشْفِ حَقِيقَةِ الأَشْياءِ وتَمْييزِها ، فالنُّورُ الحِسِّيُّ يَنْقَطِعُ بِانْقِطاعِ أَصْلِهِ ، والنُّورُ المَعْنَوِيُّ الَّذي هُوَ نُورُ القُلُوبِ لا يَنْقَطِعُ أَبَدًا ، ولِذَلِكَ قِيلَ :

إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْـ ❁ ـلِ وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

قالَ الشَّيْخُ زَرُّوق رضي الله عنه : ((فَشَمْسُ القُلُوبِ لا تَغِيبُ أَبَدًا ، بَلْ هِيَ دائِمَةٌ لا تَنْقَطِعُ ، وباقِيَةٌ لا تَنْصَرِمُ لِبَقاءِ مَدَدِها ، وهِيَ مَعانِي الأَوْصافِ الرَّبَّانِيَّةِ ودَوامِ مَحالِّها ، وهِيَ الآفاقُ الرُّوحانِيَّة ، فالمُتَعَلِّقُ بِها مُتَعَلِّقٌ بِحَقِيقَةٍ لا تَنْصَرِمُ ، ومِنْ هَذا الوَجْهِ كانَ غِنَى القَوْمِ بِاللهِ ، لا بِالأَسْباب ، وتَعَلُّقُهُمْ بِهِ ، لا بِشَيْءٍ دُونَهُ)) .

لُطْفُ اللهِ

تَحْقِيقُ الأَدَبِ فِي التَّعَرُّفاتِ الجَلالِيَّة : هُوَ دَأْبُ السَّالِكِينَ طَرِيقَ الصُّوفِيَّة ؛ ولِذا كانَتْ مُهِمَّةُ الشَّيْخِ تَبْصِيرَ مُرِيدِهِ بِدَوامِ مَعْرِفَةِ اللهِ وشُهُودِ نِعْمَتِهِ فِي نِعْمَتِهِ ، وجَرَيانِ لُطْفِهِ وبِرِّهِ فِي حالِ قَضائِهِ وقَدَرِهِ ، حَتَّى لا يَغْلِبَهُ الهَوَىٰ فَتَلْتَبِسَ عَلَيْهِ سُبُلُ الهُدَىٰ ، أَوْ يَقِفَ مَعَ ظاهِرِ الأَشْياءِ الَّتي هِيَ مَحَلُّ الجَلال ، فَيُحْجَبَ عَنِ البَواطِنِ الَّتي هِيَ

مُسْتَقَرُّ الجَمال ؛ فالذَّاتُ جَلال ، والصِّفاتُ جَمال ، فَمَنْ وَقَفَ مَعَ ظَواهِرِ الجَلال ، حُجِبَ عَنْ شُهُودِ الجَمال ، وحُرِمَ مِنْ مَعْرِفَةِ الرِّجال ، وكانَ مَحْجُوبًا عَنْ ذِي العَظَمَةِ والجَلال .

وفِي تَرْسِيخِ سِياقِ الأَدَبِ بَدَأَهُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لِيُخَفِّفَ أَلَمَ البَلاءِ عَنْكَ عَلَّمَكَ بِأَنَّهُ سُبْحانَهُ هُوَ المُبْلِي لَكَ ، فالَّذِي واجَهَتْكَ مِنْهُ الأَقْدار ، هُوَ الَّذي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاخْتِيار) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إذا أَصابَتْكَ أَيُّها الإِنْسانُ مُصِيبَةٌ ، أَوْ نَزَلَتْ بِكَ بَلِيَّةٌ فِي بَدَنٍ أَوْ أَهْلٍ أَوْ مال ، فاذْكُرْ مَنْ أَنْزَلَ ذَلِكَ عَلَيْكَ ، وما هُوَ مُتَّصِفٌ بِهِ مِنَ الرَّحْمَةِ والرَّأْفَةِ بِكَ ، والمَحَبَّةِ والعَطْفِ عَلَيْكَ ، لَعَلَّكَ تَفْهَمُ ما فِي طَيِّ ذَلِكَ مِنَ النِّعَم ، وما يَعْقُبُهُ مِنْ سَوابِغِ الفَضْلِ والكَرَم ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَطْهِيرُكَ مِنَ الذُّنُوب ، وتَمْحِيصُكَ مِنَ العُيُوب ، وتَقْرِيبُكَ مِنْ حَضْرَةِ عَلَّام الغُيُوب ، لَكَفَى ، فَهَلْ تَعَوَّدْتَ مِنْهُ إِلَّا الإِحْسان ؟ وهَلْ رَأَيْتَ مِنْهُ إِلَّا غايَةَ المَبَرَّةِ والامْتِنان ؟

فالَّذي واجَهَتْكَ مِنْهُ ظَواهِرُ المِحَنِ هُوَ الَّذي أَسْبَغَ عَلَيْكَ بَواطِنَ المِنَنِ ، فالَّذي واجَهَتْكَ مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارِيَّتِهِ الرَّزايا هُوَ الَّذي أَتْحَفَكَ بِأَنْواعِ الكَراماتِ والهَدايا .

ولله دَرُّ صاحِبِ العَيْنِيَّةِ حَيْثُ يَقُولُ :

تَلَـذُّ لِيَ الْآلامُ إِذْ أَنْتَ مُسْقِمِـي ❁ وَإِنْ تَمْتَحِنِّي فَهْيَ عِنْدِي صَنَائِعُ

تَحَكَّـمْ بِـمَا تَهْـوَاهُ فِـيَّ فَإِنَّنِـي ❁ فَقِـيرٌ لِسُلْـطَانِ الْمَحَـبَّةِ طَائِعُ

قالَ فِي ((التَّنْوِير)) : ((وإِنَّما يُعِينُهُمْ عَلَى حَمْلِ الأَحْكامِ فَتْحُ بابِ الإِفْهامِ . وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : إِنَّما صَبَّرَهُمْ عَلَى القَضاءِ عِلْمُهُمْ بِأَنَّ الصَّبْرَ يُورِثُ الرِّضا .

وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : إِنَّما صَبَّرَهُمْ عَلَى الأَقْدارِ كَشْفُ الحُجُبِ والأَسْتارِ .

وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : إِنَّما صَبَّرَهُمْ عَلَى أَقْدارِهِ عِلْمُهُمْ بِما أَوْدَعَ فِيها مِنْ لُطْفِهِ وإِبْرارِهِ)) .

وإِلَى هَذا الأَخِيرِ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مَنْ ظَنَّ انْفِكاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ ، فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مِنْ أَعْظَمِ إِحْسانِ اللهِ وبِرِّهِ كَوْنُ لُطْفِهِ لا يَنْفَكُّ عَنْ قَدَرِهِ ، فَما نَزَلَ القَدَرُ إِلَّا سَبَقَهُ اللُّطْفُ وصَحِبَهُ ، وبِهَذا حَكَمَ النَّقْلُ والعَقْلُ .

أَمَّا العَقْلُ ؛ فَما مِنْ مُصِيبَةٍ تَنْزِلُ بِالعَبْدِ إِلَّا وفِي قُدْرَةِ اللهِ ما هُوَ أَعْظَمُ مِنْها ، وقَدْ وُجِدَ ذَلِكَ ، فَإِذا نَزَلَتْ بِكَ أَيُّها الإِنْسانُ مُصِيبَةٌ ،

فاذْكُرْ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْكَ بَلاءً ، فَكَمْ مِنْ إِنْسانٍ يَتَقَطَّعُ بِالأَوْجاع ، وكَمْ مِنْ إِنْسانٍ مُبْتَلًى بِالجُذام والبَرَص والجُنُونِ والعَمَىٰ ، وكَمْ مِنْ إِنْسانٍ مَطْرُوحٍ فِي الطُّرُقاتِ لا يَجِدُ مَنْ يُبْرِئُهُ إِلَّا مَنِ ابْتَلاه ، وكَمْ مِنْ إِنْسانٍ أَعْمَىٰ أَوْ مُقْعَدٍ أَوْ مَحْمُومٍ إِلَى ما لا يَتَنَاهَىٰ .

نَسْأَلُ اللّٰهَ عافِيَتَهُ الدَّائِمَةَ فِي الدَّارَيْن .

وأَمَّا مِنْ جِهَةِ النَّقْل ؛ فَقَدْ وَرَدَ فِي ثَوابِ الأَمْراضِ والأَوْجاعِ أَحادِيثُ كَثِيرَةٌ وآياتٌ قُرْآنِيَّةٌ فِي مَدْحِ الصَّابِرِينَ :

مِنْها قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١) .

وقَوْلُهُ تَعالَى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (٢) .

وقَوْلُهُ تَعالَى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (٣) .

وقَوْلُهُ ﷺ : (ما يُصِيبُ المُؤْمِنُ مِنْ وَصَبٍ ولا نَصَبٍ ولا سَقَمٍ ولا حَزَنٍ ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشاكُها ، وحَتَّى الهَمُّ يُهِمُّهُ ، إِلا كَفَّرَ بِهِ سَيِّئاتِهِ) .

فالأَمْرُ واضِحٌ لِمَنْ هُوَ لِنَفْسِهِ ناصِحٌ ، فَلا يُخافُ عَلَيْكَ مِنَ الجَهْلِ بِالحَقِّ ، وإِنَّما يُخافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ الهَوَىٰ وجَهَلَةِ الخَلْقِ ، كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

---

(١) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ١٠ .
(٢) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٥٣ .
(٣) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٥٥ .

(لا يُخافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقُ عَلَيْكَ ، وإِنَّما يُخافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ الهَوَىٰ عَلَيْكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لا شَكَّ أَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ بَيَّنَ لَنا طَرِيقَ الوُصُولِ عَلَى لِسانِ الرَّسُولِ ﷺ ، فَبَيَّنَ لَنا أَعْلامَ الشَّرِيعَة ، ومَنارَ الطَّرِيقَة ، وأَنْوارَ الحَقِيقَة ، فَقَرَّرَ لَنا شَرائِعَ الإِسْلام ، وقَواعِدَ الإِيمان ، ومَقامَ الإِحْسان ، فَما تَرَكَ ﷺ شَيْئًا يُقَرِّبُنا إِلَى اللهِ إِلَّا دَلَّنا عَلَيْهِ ، ولا شَيْئًا يُبْعِدُنا عَنْهُ إِلَّا حَذَّرَنا مِنْهُ ، لَمْ يَأْلُ جُهْدًا فِي إِرْشادِ العِبادِ وإِظْهارِ طَرِيقِ السَّدادِ ، فَما رَحَلَ إِلَى اللهِ تَعالَى حَتَّى تَرَكَ النَّاسَ عَلَى الدِّينِ القَوِيمِ والمِنْهاجِ المُسْتَقِيمِ ، عَلَى طَرِيقٍ بَيْضاءَ لا يَضِلُّ عَنْها إِلَّا مَنْ كانَ أَعْمَىٰ .

قالَ تَعالَى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ (١).

وقالَ تَعالَى : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ (٢).

وقالَ ﷺ : (لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَة) .

وقالَ أَحْمَدُ بنُ حَضْرَوَيْه البَلْخِي رضي الله عنه : «الطَّرِيقُ واضِح ، والدَّلِيلُ

---

(١) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ٣ .

(٢) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٥٦ .

لائِح ، والدَّاعِي قَدْ أَسْمَعَ ، فَما التَّحَيُّرُ بَعْدَ هَذا إِلَّا مِنَ العَمَىٰ)) .

وسَمِعَتْ رابِعَةُ العَدَوِيَّةُ صالِحًا المَرِّي يَقُولُ : ((مَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ الباب ، يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ)) ، فَقالَتْ لَهُ : ((البابُ مَفْتُوحٌ وأَنْتَ تَفِرُّ مِنْهُ ، كَيْفَ تَصِلُ إِلَى مَقْصِدٍ أَخْطَأْتَ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ فِي أَوَّلِ قَدَمٍ؟)) .

فَلا يُخافُ عَلَيْكَ أَيُّها المُرِيدُ أَنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقُ المُوَصِّلَةُ إِلَى اللهِ تَعالَى عَلَيْكَ ؛ لأَنَّها فِي غايَةِ الوُضُوح ، وإِنَّما يُخافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ الهَوَى عَلَيْكَ فَيُصِمَّكَ ويُعْمِيك :

❁ إِنَّ الهَوَىٰ مَا تَوَلَّىٰ يُصْمِ أَوْ يَصِمِ ❁

فَلا يُخافُ عَلَيْكَ عَدَمُ وُجُودِ أَهْلِ التَّحْقِيق ، وإِنَّما يُخافُ عَلَيْكَ قُطَّاعُ الطَّرِيق ، لا يُخافُ عَلَيْكَ مِنْ خَفاءِ أَهْلِ الحَقِّ ، إِنَّما يُخافُ عَلَيْكَ مِنْ قِلَّةِ الصِّدْقِ : ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (١) .

واللهُ ما حَجَبَهُمْ عَنْكَ إِلَّا مِنْ عَدَمِ صِدْقِكَ ، فَلَوْ حَسَّنْتَ ظَنَّكَ بِاللهِ وبِأَوْلِياءِ اللهِ ، لَرَفَعَ اللهُ الحِجابَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُمْ ، ووَجَدْتَهُمْ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهِمْ ، فَسُبْحانَ مَنْ سَتَرَهُمْ فِي حالِ ظُهُورِهِمْ ، وأَظْهَرَهُمْ فِي حالِ خَفائِهِمْ ، كَما نَبَّهَ عَلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

---

(١) سُورَةُ مُحَمَّد : مِنَ الآيَة ٢١ .

(سُبْحانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ وَصْفِ البَشَرِيَّة ، وظَهَرَ بِعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي إِظْهارِ العُبُودِيَّة) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الخُصُوصِيَّة** : هِيَ نُورُ الحَقِّ يُشْرِقُهُ اللّٰهُ فِي قُلُوبِ خَواصِّ عِبادِهِ المُقَرَّبِينَ بَعْدَ تَطْهِيرِها مِنَ الأَكْدارِ وتَنْزِيهِها عَنِ المَساوِئِ والأَغْيار ، يَغِيبُونَ بِهِ عَنْ شُهُودِ أَنْفُسِهِمْ بِشُهُودِ مَحْبُوبِهِمْ ، **وسِرُّها** : هُوَ ما احْتَوَى عَلَيْهِ ذَلِكَ النُّورُ مِنَ الكَمالاتِ العَلِيَّةِ والنُّعُوتِ القُدْسِيَّةِ والصِّفاتِ السَّنِيَّةِ الَّتي تَلِيقُ بِالمُتَحَلِّي بِهِ كالكِبْرِياءِ والعِزِّ والقُوَّةِ والعَظَمَةِ والإِجْلال ، وكالاتِّصافِ بِالقُدْرَةِ التَّامَّةِ والعِلْمِ المُحِيطِ وسائِرِ أَوْصافِ الكَمال .

ثُمَّ إِنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ مِنْ عَظِيمِ حِكْمَتِهِ وباهِرِ قُدْرَتِهِ أَنْ سَتَرَ تِلْكَ الأَوْصافَ اللَّازِمَةَ لِذَلِكَ النُّورِ بِظُهُورِ أَضْدادِها الَّتي هِيَ أَوْصافُ العُبُودِيَّة ؛ فَسَتَرَ كِبْرِياءَهُ وعَظَمَتَهُ بِظُهُورِ الذُّلِّ والفَقْرِ والضَّعْفِ عَلَى العَبْدِ ، وسَتَرَ قُدْرَتَهُ وإِرادَتَهُ بِظُهُورِ العَجْزِ والقَهْرِيَّةِ عَلَيْهِ ، وسَتَرَ عِلْمَهُ المُحِيطَ بِظُهُورِ الجَهْلِ والسَّهْوِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَوْصافِ العُبُودِيَّةِ المُقابِلَةِ لأَوْصافِ الرُّبُوبِيَّة .

فَسُبْحانَ مَنْ جَعَلَ الأَشْياءَ كامِنَةً فِي أَضْدادِها ، سَتَرَ كَمالاتِ الرُّبُوبِيَّةِ

بِنَقائِصِ العُبُودِيَّة ، ولَوْلا ذَلِكَ لَكانَ السِّرُّ غَيْرَ مَصُون ، والكَنْزُ غَيْرَ مَدْفُون .

قالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَن رضي الله عنه : ((العُبُودِيَّةُ جَوْهَرَةٌ أَظْهَرَ بِها الرُّبُوبِيَّة)) .

إِذِ الرُّبُوبِيَّةُ تَقْتَضِي مَرْبُوبًا مَوْصُوفًا بِضِدِّ ما اتَّصَفَ بِهِ رَبُّهُ مِنَ الكَمالاتِ الإِلَهِيَّةِ والنُّعُوتِ القُدْسِيَّة ، فَما ظَهَرَتْ أَوْصافُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتي هِيَ الغِنَى والعِزُّ والقُدْرَةُ وغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الكَمالاتِ إِلَّا فِي أَضْدادِها مِنَ الفَقْرِ والذُّلِّ والضَّعْفِ وغَيْرِ ذَلِك ؛ فالفَقْرُ الحَقِيقِيُّ شامِلٌ لِسائِرِ المَوْجُودات ، والغِنَى المُطْلَقُ واجِبٌ لِمَنْ تَجَلَّى فِي الأَرْضِ والسَّمَوات : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (١) .

فَإِذا تَقَرَّرَ هَذا ، عَلِمْتَ أَنَّ الإِضافَةَ فِي سِرِّ الخُصُوصِيَّةِ لَيْسَتْ هِيَ للبَيان ، بَلْ هِيَ للتَّخْصِيص ، فَسِرُّ الخُصُوصِيَّةِ غَيْرُها ؛ إِذِ الخُصُوصِيَّةُ هِيَ النُّورُ الَّذي يَقْذِفُهُ اللهُ سُبْحانَهُ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِهِ ، وسِرُّها هُوَ الكَمالاتُ الَّتي تُلازِمُ ذَلِكَ النُّورَ كَما تَقَدَّم .

واعْلَمْ أَنَّ سِرَّ الخُصُوصِيَّةِ الَّذي جَعَلَهُ اللهُ فِي بَواطِنِ أَوْلِيائِهِ وسَتَرَهُ بِظُهُورِ وَصْفِ بَشَرِيَّتِهِمْ ، قَدْ يُظْهِرُهُ عَلَيْهِمْ عَلَى وَجْهِ خَرْقِ العادَة ،

---

(١) سُورَةُ فاطِر : الآيَة ١٥ .

فَقَدْ يُظْهِرُ عَلَى وَلِيِّهِ مِنْ قُدْرَتِهِ وعِلْمِهِ وسائِرِ كَمالاتِهِ ما تَحارُ فِيهِ العُقُولُ وتَذْهَلُ فِيهِ الأَذْهان ، لَكِنْ لا يَدُومُ ذَلِكَ لَهُمْ ، بَلْ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الكَراماتِ وخَرْقِ العادات ؛ يُشْرِقُ عَلَيْهِمْ شُمُوسَ أَوْصافِهِ فَيَتَّصِفُونَ بِصِفاتِهِ ، ثُمَّ يَقْبِضُ ذَلِكَ عَنْهُمْ فَيَرُدُّهُمْ إِلَى حُدُودِهِمْ ، فَنُورُ الخُصُوصِيَّةِ (وهِيَ المَعْرِفَةُ) ثابِتٌ لا يَزُولُ ، ساكِنٌ لا يَحُولُ ، وسِرُّها (وهُوَ كَمالاتُهُ تَعالَى) تارَةً يُشْرِقُ عَلَى أُفُقِ بَشَرِيَّتِهِمْ ، فَيَسْتَنِيرُ بِأَوْصافِ الرُّبُوبِيَّة ، وتارَةً يَنْقَبِضُ عَنْهُمْ ، فَيُرَدُّونَ إِلَى حُدُودِهِمْ وشُهُودِ عُبُودِيَّتِهِمْ ، فالمَعْرِفَةُ ثابِتَةٌ ، والوارِداتُ مُخْتَلِفَة .

واعْلَمْ أَيْضًا أَنَّ أَوْصافَ البَشَرِيَّةِ الَّتي سَتَرَ اللّٰهُ بِها سِرَّ الخُصُوصِيَّةِ إِنَّما هِيَ الأَوْصافُ الذَّاتِيَّةُ اللَّازِمَةُ للبَشَر ؛ كالأَكْلِ والشُّرْبِ والنَّوْمِ والنِّكاح ، لا الأَوْصافُ المَذْمُومَةُ المُناقِضَةُ للعُبُودِيَّةِ ؛ كالكِبْرِ والعُجْبِ والحَسَدِ والغَضَبِ وغَيْرِ ذَلِك ، فَإِنَّ تِلْكَ أَوْصافٌ ذَهَبَتْ بِظُهُورِ نُورِ العِنايَةِ وسابِقِ الهِدايَة ؛ إِذْ لا تَثْبُتُ الخُصُوصِيَّةُ إِلَّا بَعْدَ مَحْوِها ، بِخِلافِ الأَوْصافِ الذَّاتِيَّةِ ؛ فَإِنَّها تُجامِعُ الخُصُوصِيَّةَ بَلْ هِيَ حِجابُها وصِوانُها ، وبِوُجُودِها وَقَعَ السِّتْرُ والخَفاءُ لأَوْلِياءِ اللّٰهِ تَعالَى غَيْرَةً عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْرِفَهُمْ مَنْ لا يَعْرِفُ قَدْرَهُمْ .

قالَ فِي ((لَطائِف المِنَن)) : فَأَوْلِياءُ اللهِ أَهْلُ كَهْفِ الإِيواء ، فَقَلِيلٌ مَنْ يَعْرِفُهُمْ .

وسَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبا العَبَّاس رضي الله عنه يَقُولُ : ((مَعْرِفَةُ الوَلِيِّ أَصْعَبُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ ؛ فَإِنَّ اللهَ مَعْرُوفٌ بِكَمالِهِ وجَمالِهِ ، ومَتَى تَعْرِفُ مَخْلُوقًا مِثْلَكَ يَأْكُلُ كَما تَأْكُلُ ، ويَشْرَبُ كَما تَشْرَبُ ؟ وإِذا أَرادَ اللهُ أَنْ يُعَرِّفَكَ بِوَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيائِهِ طَوَى عَنْكَ وُجُودَ بَشَرِيَّتِهِ ، وأَشْهَدَكَ وُجُودَ خُصُوصِيَّتِهِ)) .

تَنْبِيه : هَذا النُّورُ الَّذي أَشْرَقَهُ اللهُ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِهِ كانَ كامِنًا فِي الرُّوحِ فِي أَصْلِ بُرُوزِها ، فَأَصْلُها نُورانِيَّةٌ عالِمَةٌ بِأَسْرارِ الغَيْب ، دَرَّاكَةٌ لِلأَشْياءِ عَلَى حَقِيقَتِها ، وإِنَّما حَجَبَها عَنْ ذَلِكَ سِجْنُها فِي هَذا البَدَنِ الطِّينِي ، واشْتِغالُها بِحُظُوظِهِ وشَهَواتِه ، فَمَنْ أَدَّبَها وَرَيَّضَها عَلَى يَدِ شَيْخٍ كامِلٍ رَجَعَتْ إِلَى أَصْلِها ؛ قالَ فِي المَباحِث :

وَلَمْ تَزَلْ كُلُّ نُفُوسِ الْأَحْيَا ❁ عَـلَّامَـةً دَرَّاكَـةً لِلْأَشْـيَا

وَإِنَّـمَا تَعُـوقُـهَا الْأَبْـدَانُ ❁ وَالْأَنْفُسُ النُّزَّغُ وَالشَّيْطَانُ

فَكُلُّ مَـنْ أَذَاقَـهُمْ جِـهَادَهْ ❁ أَظْهَرَ لِلْقَاعِدِ خَرْقَ الْعَادَهْ

فَإِذا طَلَبْتَ رَبَّكَ فِي تَطْهِيرِكَ مِنْ وَصْفِ البَشَرِيَّةِ لِيَكْشِفَ لَكَ سِرَّ الخُصُوصِيَّة ، ثُمَّ تَأَخَّرَ مَطْلَبُكَ ، فَإِنَّما ذَلِكَ مِنْ سُوءِ أَدَبِكَ ؛ كَما نَبَّهَ

عَلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لا تُطالِبْ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ ، ولَكِنْ طالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : هَذِهِ قاعِدَةٌ عامَّة ، وإِنْ كانَتْ مُناسَبَتُها خاصَّة ، فَإِذا طَلَبْتَ شَيْئًا ، ثُمَّ تَأَخَّرَ ظُهُورُ ذَلِكَ المَطْلَب ، فَإِنَّما ذَلِكَ لِما فاتَكَ مِنْ حُسْنِ الأَدَب ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا قَصْدُ خُصُوصِ ذَلِكَ الطَّلَب ، فَلا تُطالِبْ رَبَّكَ أَنْ يُعَجِّلَ مَطْلَبَكَ بِسَبَبِ تَأَخُّرِهِ عَنْكَ ، ولَكِنْ طالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ ، فَلَوْ أَحْسَنْتَ الأَدَبَ فِي الطَّلَبِ لَقُضِيَتْ حاجَتُكَ مَعْنًى وإِنْ لَمْ تُقْضَ حِسًّا .

وحُسْنُ الأَدَبِ هُنا هُوَ اكْتِفاؤُكَ بِعِلْمِهِ ، ورِضاكَ بِحُكْمِهِ ، واعْتِمادُكَ عَلَى ما اخْتارَهُ لَكَ دُونَ ما اخْتَرْتَهُ لِنَفْسِكَ لِقِلَّةِ عِلْمِكَ ، فَقَدْ ضَمِنَ لَكَ الإِجابَةَ فِيما يُرِيدُ لا فِيما تُرِيدُ ، وفِي الوَقْتِ الَّذي يُرِيدُ لا فِي الوَقْتِ الَّذي تُرِيد .

ولِلّهِ دَرُّ القائِل :

وَكَمْ رُمْتُ أَمْرًا خِرْتَ لِي فِي انْصِرافِهِ ❁ فَلا زِلْتَ لِي مِنِّي أَبَرَّ وَأَرْحَمَا

عَزَمْتُ عَلَى أَلَّا أُحِسَّ بِخَاطِرٍ ❁ عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا كُنْتَ أَنْتَ الْمُقَدَّمَا

وَأَلَّا تَرَانِي عِنْدَما قَدْ نَهَيْتَنِي ❁ لِأَنَّكَ فِي نَفْسِي كَبِيرًا مُعَظَّمَا

وقالَ وَهْبُ بنُ مُنْبِه رضي الله عنه : ((قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الكُتُب : يا ابنَ آدَم ! أَطِعْنِي فِيما أَمَرْتُكَ ، ولا تُعَلِّمْنِي بِما يُصْلِحُكَ ، إِنِّي عالِمٌ بِخَلْقِي ، إِنَّما أُكْرِمُ مَنْ أَكْرَمَنِي ، وأُهِينُ مَنْ هانَ عَلَيْهِ أَمْرِي ، ولَسْتُ بِناظِرٍ فِي حَقِّ عَبْدِي حَتَّى يَنْظُرَ عَبْدِي فِي حَقِّي)) .

وأَعْظَمُ الآدابِ وأَكْمَلُها امْتِثالُ أَمْرِهِ ، والاسْتِسْلامُ لِقَهْرِهِ ، كَما نَبَّهَ عَلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مَتَى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلًا لأَمْرِهِ ، وفِي الباطِنِ مسْتَسْلِمًا لِقَهْرِهِ ، فَقَدْ أَعْظَمَ المِنَّةَ عَلَيْكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِنَّما كانَ مِنْ أَعْظَمِ المِنَّةِ لأَنَّهُ شاهَدَ المَعْرِفَةَ الَّتي هِيَ مُنْتَهَى الهِمَمِ وأَقْصَى غايَةِ النِّعَمِ .

فامْتِثالُ الأَمْرِ فِي الظَّاهِرِ يَدُلُّ عَلَى كَمالِ الشَّرِيعَةِ وتَحْقِيقِ العُبُودِيَّة ، والاسْتِسْلامُ للقَهْرِ فِي الباطِنِ يَدُلُّ عَلَى كَمالِ الطَّرِيقَةِ ونِهايَةِ الحَقِيقَة ، والجَمْعُ بَيْنَهُما هُوَ غايَةُ الكَمال ؛ إِذْ مُنْتَهَى الكَمالاتِ الشَّرائِع ؛ فَمَتَى جَعَلَكَ أَيُّها الإِنْسانُ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلًا لأَمْرِهِ ، ومُجْتَنِبًا لِنَهْيِهِ ، وفِي الباطِنِ مُسْتَسْلِمًا لِقَهْرِهِ ، فَقَدْ أَعْظَمَ المِنَّةَ عَلَيْكَ ؛ حَيْثُ أَراحَ ظاهِرَكَ مِنْ عَنَتِ المُخالَفَة ، وأَراحَ باطِنَكَ مِنْ تَعَبِ المُنازَعَة .

أَوْ تَقُولُ : حَيْثُ زَيَّنَ ظاهِرَكَ بِالطَّاعَة ، وزَيَّنَ باطِنَكَ بِالمَعْرِفَة ، فالواجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَشْكُرَ هَذِهِ النِّعْمَةَ ، وتَعْرِفَ قَدْرَها حَتَّى تَعْظُمَ مَحَبَّةُ اللهِ فِي قَلْبِكَ ، وذَلِكَ أَقْصَرُ مُرادِكَ وقَصْدِكَ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

ومَتَى أَثْبَتَ لَكَ هَذا الأَمْرَ ، فَقَدْ خَلَّصَكَ مِنْ نَفْسِكَ ، وحَرَّرَكَ مِنْ رِقِّ حَظِّكَ ، فَلا تُبالِ مَعَها ما فاتَكَ مِنْ تَخْصِيصِ الكَراماتِ الحِسِّيَّة ؛ لأَنَّها كَراماتٌ وَهْمِيَّة ؛ كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُ كَمُلَ تَخْلِيصُهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **المُرادُ هُنا بِالتَّخْصِيص** : تَخْصِيصُهُ بِالكَراماتِ الحِسِّيَّة ، **والمُرادُ بِالتَّخْلِيص** : تَخْلِيصُهُ مِنْ رِقِّ الحُظُوظِ ومِنْ بَقِيَّةِ السِّوَىٰ ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُ بِالكَراماتِ الحِسِّيَّةِ كَمُلَ تَخْلِيصُهُ مِنْ حُظُوظِهِ النَّفْسِيَّة .

لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُ بِالكَرامات ، كَمُلَ تَخْلِيصُهُ مِنَ العَوائِدِ والشَّهَوات ، بَلْ قَدْ يُعْطَى الكَرامَةَ الحِسِّيَّةَ بَعْضُ مَنْ لَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْ حُظُوظِهِ النَّفْسِيَّة .

وحِكْمَةُ ظُهُورِها عَلَيْهِ ثَلاثَةُ أُمُور :

أَحَدُها : إِنْهاضُهُ فِي العَمَلِ لِحُصُولِ فَتْرَةٍ أَوْ وَقْعَةٍ .

الثَّانِي : اخْتِبارٌ لَهُ ، هَلْ يَقِفُ مَعَها فَيُحْجَبُ ، أَوْ يَأْنَفُ عَنْها فَيَقْرُبُ ؟

الثَّالِثُ : زِيادَةٌ فِي يَقِينِهِ أَوْ يَقِينِ الغَيْرِ فِيهِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ ، فَهِيَ مَقْصُودَةٌ بِالتَّكْمِيلِ عَلَى كُلِّ حال .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الكَرامَةُ العُظْمَى هِيَ المَعْرِفَةُ والاسْتِقامَة ، ورَفْعُ الحِجابِ وفَتْحُ البابِ ، فَلا كَرَامَةَ أَعْظَمُ مِنْ هَذا .

ويُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِالتَّخْصِيصِ تَخْصِيصَ التَّقْرِيبِ والهِدايَة ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُ بِالهِدايَةِ وشُرُوقِ الأَنْوارِ كَمُلَ تَخْلِيصُهُ مِنْ رُؤْيَةِ الأَغْيارِ ، فَقَدْ يُخَصَّصُ بِالمُجاهَدَةِ والمُكابَدَة ، ولا يُتْحَفُ بِالمَعْرِفَةِ والمُشاهَدَة ، قَوْمٌ أَقامَهُمْ لِخِدْمَتِهِ ، وقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ ، فالعُبَّادُ والزُّهَّادُ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُمْ ، فَهُمْ مِنْ عَوامِّ المُقَرَّبِين ، ولَمْ يَكْمُلْ تَخْلِيصُهُمْ مِنْ شُهُودِ السِّوَى حَتَّى يَكُونُوا مِنْ خَواصِّ العارِفِين ، وبِاللهِ التَّوْفِيق .

الوِرْدُ وأَقْسامُه

مُرِيدُ الحَقِّ شَغَلَ ظاهِرَهُ بِوَظائِفِ العُبُودِيَّة ، وباطِنَهُ بِشُهُودِ الرُّبُوبِيَّة ، فَكانَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلًا لأَمْرِهِ ، وفِي الباطِنِ مُسْتَسْلِمًا لِقَهْرِهِ ، فَتَمَّتْ عَلَيْهِ نِعْمَةُ مَوْلاه ، وكَمُلَ تَخْلِيصُهُ مِنْ رِقِّ حُظُوظِهِ وهَواه ، فَهُوَ يُعَظِّمُ

ما يُعَظِّمُ مَوْلاه ، ولا يَسْتَحْقِرُ شَيْئًا مِنْ أَسْبابِ مَحَبَّتِهِ ورِضاه ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لا يَسْتَحْقِرُ الوِرْدَ إِلَّا جَهُولٌ ، الوارِدُ يُوجَدُ فِي الدارِ الآخِرَة ، والوِرْدُ يَنْطَوِي بِانْطِواءِ هَذِهِ الدَّار ، وأَوْلَى ما يُعْتَنَى بِهِ ما لا يُخْلَفُ وُجُودُه ، الوِرْدُ هُوَ طالِبُهُ مِنْكَ ، والوارِدُ أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ ، وأَيْنَ ما هُوَ طالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا هُوَ مَطْلَبُكَ مِنْهُ ؟) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الوِرْدُ فِي اللُّغَةِ** : هُوَ الشُّرْبُ ، قالَ تَعالَى : ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [1] ، **وفِي الاصْطِلاحِ** : ما يُرَتِّبُهُ العَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ ، أَوِ الشَّيْخُ عَلَى تِلْمِيذِهِ مِنَ الأَذْكارِ والعِباداتِ .

والوارِدُ فِي اللُّغَةِ : هُوَ الطَّارِقُ والقادِمُ ، يُقالُ : وَرَدَ عَلَيْنا فُلانٌ ، أَيْ : قَدِمَ .

وفِي الاصْطِلاحِ : ما يُتْحِفُهُ الحَقُّ تَعالَى قُلُوبَ أَوْلِيائِهِ مِنَ النَّفَحاتِ الإِلَهِيَّة ، فَيُكْسِبُهُ قُوَّةً مُحَرِّكَةً ، ورُبَّما يُدْهِشُهُ أَوْ يُغَيِّبُهُ عَنْ حِسِّهِ ، ولا يَكُونُ إِلَّا بَغْتَةً ، ولا يَدُومُ عَلَى صاحِبِه .

ثُمَّ إِنَّ الوِرْدَ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلاثَةِ أَقْسام :

---

(١) سُورَةُ هُود : مِنَ الآيَة ٩٨ .

١) وِرْدُ العُبَّادِ والزُّهَّادِ مِنَ المُجْتَهِدِين .

٢) وِرْدُ أَهْلِ السُّلُوكِ مِنَ السَّائِرِين .

٣) وِرْدُ أَهْلِ الوُصُولِ مِنَ العارِفِين .

فَأَمَّا وِرْدُ المُجْتَهِدِين : فَهُوَ اسْتِغْراقُ الأَوْقاتِ فِي أَنْواعِ العِبادات ، وعِبادَتُهُمْ بَيْنَ ذِكْرٍ ودُعاءٍ وصَلاةٍ وصِيام ؛ وقَدْ ذُكِرَ فِي ((الإحياء))[١] ، و((القُوت))[٢] أَوْرادُ النَّهارِ وأَوْرادُ اللَّيْل ، وعُيِّنَ لِكُلِّ وَقْتٍ وِرْدٌ مَعْلُوم .

وأَمَّا وِرْدُ السَّائِرِين : فَهُوَ الخُرُوجُ مِنَ الشَّواغِلِ والشَّواغِب ، وتَرْكُ العَلائِقِ والعَوائِق ، وتَطْهِيرُ القُلُوبِ مِنَ المَساوِئِ والعُيُوب ، وتَحْلِيَتُها بِالفَضائِلِ بَعْدَ تَخْلِيَتِها مِنَ الرَّذائِلِ ، وعِبادَتُهُمْ ذِكْرٌ واحِدٌ ، وهُوَ ما يُعَيِّنُهُ لَهُمُ الشَّيْخُ ، مَعَ جَمْعِ القَلْبِ وحُضُورِهِ مَعَ الرَّبِّ .

وأَمَّا وِرْدُ الواصِلِين : فَهُوَ إِسْقاطُ الهَوَىٰ ، ومَحَبَّةُ المَوْلَىٰ ، وعِبادَتُهُمْ فِكْرَةٌ أَوْ نَظْرَة ، مَعَ العُكُوفِ فِي الحَضْرَة ، فَكُلُّ مَنْ أَقامَهُ مَوْلاهُ فِي وِرْدٍ ، فَلْيَلْتَزِمْهُ ، ولا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ ، ولا يَسْتَحْقِرْ غَيْرَهُ ؛ إِذِ العارِفُ لا يَسْتَحْقِرُ شَيْئًا ، بَلْ يَصِيرُ مَعَ كُلِّ واحِدٍ فِي مَقامِهِ ، ويُقَرِّرُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَحَلِّهِ ، فَلا يَسْتَحْقِرُ الوِرْدَ ويَطْلُبُ الوارِدَ إِلَّا جَهُولٌ أَوْ مُعانِد ، وكَيْفَ

---

(١) إِحْياءُ عُلُوم الدِّين : حُجَّةُ الإِسْلام أَبُو حامِد الغَزالِي .

(٢) قُوتُ القُلُوب : أَبُو طالِب المَكِّي .

يَسْتَحْقِرُ الوِرْدَ وبِهِ يَكُونُ الوُرُودُ عَلَى المَلِكِ المَعْبُود ؟ الوِرْدُ يُوجَدُ ثَوابُهُ وثَمَرَتُهُ فِي الدَّارِ الآخِرَة ، والوارِدُ الَّذي تَطْلُبُهُ يَنْطَوِي بِانْطِواءِ هَذِهِ الدَّار ، قالَ تَعالَى : ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١).

وجاءَ فِي الأَثَر : ((إِنَّ اللّٰهَ يَقُولُ : اُدْخُلُوا الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ، وتَقاسَمُوها بِأَعْمالِكُمْ)) .

وأَيْضًا المُرادُ مِنَ الوارِداتِ ثَمَراتُها ونَتائِجُها ، وهُوَ ما يَعْقُبُها مِنَ اليَقِينِ والطُّمَأْنِينَةِ والرِّضا والتَّسْلِيم ؛ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَحاسِن ، فَإِذا أَعْطَتْكَ نَتائِجَها وجَنَيْتَ ثَمَراتِها ، فَلَكَ فِي اللّٰهِ غِنًى عَنْها ، فَلا يَسْتَحْقِرُ الوِرْدَ ويَطْلُبُ الوارِدَ إِلَّا مَنْ كانَ عَبْدَ الوارِد ، وأَمَّا مَنْ كانَ عَبْدَ اللّٰهِ ، فَلا يَلْتَفِتُ إِلَى ما سِواه ، بَلْ يَلْزَمُ ما هُوَ مُكَلَّفٌ بِهِ مِنْ وَظائِفِ العُبُودِيَّة ، قِيامًا بِحَقِّ عَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّة ، فَهُوَ الَّذي يَدُوم ، وبِهِ التَّوَصُّلُ إِلَى رِضا الحَيِّ القَيُّوم ، وأَوْلَى ما يَعْتَنِي بِهِ الإِنْسانُ ما يَنْقَطِعُ وُجُودُهُ بِانْقِطاعِ مَوْتِهِ ، وهُوَ وِرْدُهُ ، فَيَغْتَنِمُ وُجُودَهُ ما دامَ فِي هَذِهِ الدَّار ، فَلَيْسَ فِي تِلْكَ الدَّارِ عَمَل ، وإِنَّما هِيَ دارُ جَزاءٍ وحُصُولُ

---

(١) سُورَةُ الزُّخْرُف : الآيَة ٧٢ .

أَمَل ، فالدُّنْيا دارُ عَمَلٍ لا جَزاءَ فِيها ، والآخِرَةُ دارُ جَزاءٍ لا عَمَلَ فِيها ، فَلْيَغْتَنِمِ الإِنْسانُ عُمْرَهُ قَبْلَ الفَوات ، فَما مِنْ زَمَنٍ يَخْلُو عَنْهُ إِلَّا وهُوَ فائِتٌ مِنْهُ .

وقَدْ جاءَ فِي الحَدِيث : (لا تَأْتِي عَلَى العَبْدِ ساعَةٌ لا يَذْكُرُ اللّٰهَ فِيها إِلَّا كانَتْ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ القِيامَة) .

والذِّكْرُ مُتَنَوِّعٌ ، كُلٌّ بِحَسَبِ حالِه .

وقالَ الحَسَنُ البَصْرِي رضي الله عنه : ((أَدْرَكْتُ أَقْوامًا كانُوا عَلَى ساعاتِهِمْ أَشْفَقَ مِنْكُمْ عَلَى دَنانِيرِكُمْ ودَراهِمِكُمْ)) .

وفِي مَعْنَى ذَلِكَ قِيلَ :

السِّبَاقَ السِّبَاقَ قَوْلًا وَفِعْلًا ❁ حَذِّرِ النَّفْسَ حَسْرَةَ الْمَسْبُوقِ

وفِي بَعْضِ الأَحادِيثِ عَنْهُ ﷺ : (مَنِ اسْتَوَى يَوْماهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ ، ومَنْ كانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَحْرُومٌ ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الزِّيادَةِ فَهُوَ فِي النُّقْصانِ ، ومَنْ كانَ فِي النُّقْصانِ فالمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ) .

وأَوْلَى ما يَعْتَنِي بِهِ العَبْدُ أَيْضًا ما هُوَ طالِبُهُ مِنْهُ الحَقُّ تَعالَى ، وهُوَ الوِرْدُ ، دُونَ ما يَطْلُبُهُ هُوَ مِنْهُ ، وهُوَ الوارِدُ ، فالوِرْدُ مِنْ وَظائِفِ العُبُودِيَّةِ وهُوَ الَّذي طَلَبَهُ مِنَّا الحَقُّ تَعالَى ، والوارِدُ مِنْ وَظائِفِ الحُرِّيَّة ، ولِذَلِكَ

تَطْلُبُهُ النَّفْسُ وتَتَعَشَّقُ إِلَيْهِ ، وأَيْنَ ما هُوَ طالِبُهُ مِنَّا مِمَّا هُوَ مَطْلَبُنا مِنْهُ ؟ بَيْنَهُما فَرْقٌ كَبير .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ الاعْتِناءَ بِالوِرْدِ أَفْضَلُ وأَكْمَلُ مِنَ الاعْتِناءِ بِالوارِد ؛ لأَنَّ الوِرْدَ مِنْ وَظائِفِ العُبُودِيَّةِ وهِيَ لا تَنْقَطِعُ ما دامَ العَبْدُ فِي هَذِهِ الدَّار ، كَما أَنَّ حُقُوقَ الرُّبُوبِيَّةِ لا تَنْقَطِعُ ، كَذَلِكَ حُقُوقُ العُبُودِيَّةِ لا تَنْقَطِعُ .

قالَ النَّقْشَبَنْدِي : ((ولِهَذا لَمْ يَتْرُكِ العِبادَةَ سَيِّدُ هَذا المَقام ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَماه : فَقِيلَ لَهُ : تَفْعَلُ هَذا وقَدْ غَفَرَ اللّٰهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ ؟

فَقالَ ﷺ : (أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا) .

فَأَفادَ ﷺ أَنَّ شُكْرَ النِّعْمَةِ تَمامُ الخِدْمَةِ ، وهُوَ مُوجِبُ المَزِيدِ ، قالَ اللّٰهُ تَعالَى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (١) .

وهَذا سَيِّدُ الطَّائِفَةِ الجُنَيْدُ لَمْ يَتْرُكْ أَوْرادَهُ فِي حالِ نَزْعِهِ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ؟ فَقالَ : ومَنْ أَوْلَى مِنِّي بِذَلِكَ ، وهَذِهِ صَحائِفِي تُطْوَى ؟

فَلَمْ يَتْرُكِ الخِدْمَةَ رضي الله عنه فِي مِثْلِ هَذِهِ الحالَةِ ، فَكَيْفَ بِسِواها ؟

قِيلَ لَهُ : إِنَّ جَماعَةً يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَصِلُونَ إِلَى حالَةٍ يَسْقُطُ عَنْهُمُ التَّكْلِيف ، قالَ : وَصَلُوا ، ولَكِنْ إِلَى سَقَر .

---

(١) سُورَةُ إِبْراهِيم : مِنَ الآيَة ٧ .

وقالَ رضي الله عنه فِي كَلام آخَرَ : هَذا كَلامُ مَنْ يَقُولُ بِالإِباحَة ، والسَّرِقَةُ والزِّنَىٰ عِنْدَنا أَهْوَنُ حالًا مِمَّنْ يَقُولُ بِهَذِهِ المَقالَة .

ولَقَدْ صَدَقَ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ هَذا ، فَإِنَّ الزَّانِيَ والسَّارِقَ عاصٍ بِزِناهُ وسَرِقَتِهِ ، ولا يَصِلُ إِلَى حَدِّ الكُفْر .

وأَمَّا القائِلُ بِسُقُوطِ الفَرائِض ، المُعْتَقِدُ لِذَلِكَ ، فَقَدِ انْسَلَّ مِنَ الدِّينِ كانْسِلالِ الشَّعْرَةِ مِنَ العَجِين ، فَعَضَّ عَلَى هَذا الأَصْلِ بِالنَّواجِذِ يا أَخِي ، ولا تَسْمَعْ كَلامَ مَنْ أَخَذَ الحَقائِقَ مِنَ الكُتُب ، وصارَ يَتَكَلَّمُ بِالزَّنْدَقَةِ والإِلْحادِ وإِسْقاطِ الأَعْمالِ عَلَى حَسَبِ فَهْمِهِ وهَواه .

قالَ ﷺ : (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تابِعًا لِما جِئْتُ بِهِ) .

وقالَ تَعالَى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (١) .

فَعَلَيْكَ بِمُتابَعَتِهِ ﷺ ومُتابَعَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي الأَقْوالِ والأَفْعالِ والأَحْوالِ تَحُزْ مَقامَهُمْ ، وتَسْكُنْ مَعَهُمْ ، فالمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)) .

انْتَهَى كَلامُ النَّقْشَبَنْدِي رضي الله عنه وهُوَ حَسَنٌ ؛ لأَنَّ مَنْ أَخَذَ الحَقائِقَ مِنَ الكُتُبِ لا ذَوْقَ عِنْدَهُ ، وإِنَّما يَتَرامَى عَلَى الحَقِيقَةِ بِالعِلْمِ ، فَيَتَّبِعَ الرُّخَصَ ، ويَسْقُطَ فِي مَهاوِي الهَوَىٰ .

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ٣١ .

وأَمَّا مَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الأَذْواقِ ، فَسِرُّهُ مَكْتُوم ، وأَمْرُهُ مَحْزُوم ؛ عِبادَتُهُ أَدَبٌ وشُكْر ، وهُوَ أَحَقُّ بِدَوامِ الشُّكْر ، وكَيْفَ يُنْكِرُ الواسِطَةَ ولَوْلا الواسِطَةُ لَذَهَبَ المَوْسُوط ؟

قالَ أَبُو الحَسَنِ الدَّرَّاج رضي الله عنه : ((ذَكَرَ الجُنَيْدُ أَهْلَ المَعْرِفَةِ بِاللّه ، وما يُراعُونَهُ مِنَ الأَوْرادِ والعِباداتِ بَعْدَما أَتْحَفَهُمُ اللّهُ بِهِ مِنَ الكَراماتِ ، فَقالَ الجُنَيْدُ رضي الله عنه : العِبادَةُ عَلَى العارِفِينَ أَحْسَنُ مِنَ التِّيجانِ عَلَى رُؤُوسِ المُلُوك)) .

وقَدْ رَأَى رَجُلٌ الجُنَيْدَ رضي الله عنه : وفِي يَدِهِ سِبْحَة ، فَقالَ لَهُ : أَنْتَ مَعَ شَرَفِكَ تَأْخُذُ فِي يَدِكَ سِبْحَة ! فَقالَ : نَعَمْ ، سَبَبٌ وَصَّلَنا إِلَى ما وَصَلْنا ، فَلا نَتْرُكُهُ أَبَدًا .

فالشَّرِيعَةُ باب ، والحَقِيقَةُ بَيْتُ الحَضْرَة .

قالَ تَعالَى : ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ (١) .

ثُمَّ قالَ : فَلا دُخُولَ للحَقِيقَةِ إِلَّا مِنْ بابِ الشَّرِيعَة ، ولِلّهِ دَرُّ سَيِّدِي عَبْدِ اللّهِ الهَبْطِي الزَّجْلِي رضي الله عنه : حَيْثُ يَقُولُ فِي مَنْظُومَتِهِ :

وَثَالِثُ الْفُصُولِ فِي الشَّرِيعَهْ ❁ لِأَنَّهَا إِلَى الْهُدَىٰ ذَرِيعَهْ

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٨٩ .

فَكُلُّ بَابٍ دُونَهَا مَسْدُودُ ❁ وَمَنْ أَتَىٰ مِنْ غَيْرِهَا مَرْدُودُ

قَدِ اصْطَفَاهَا رَبُّنَا عَزَّ وَجَلْ ❁ بِفَضْلِهِ وَجُودِهِ عَلَى الْمِلَلْ

طَرِيقَةُ الْعَدْنَانِ لِلرَّحْمٰنِ ❁ مَحْفُوفَةٌ بِالنُّورِ وَالرِّضْوَانِ

طُوبَىٰ لِمَنْ أَتَى بِهَا لِلْعَرْضِ ❁ وَالْوَيْلُ لِلَّذِي بِهَا لَمْ يَقْضِ

يَا أَيُّهَا الْمُرِيدُ إِنْ أَرَدْتَ ❁ وِصَالَ مَنْ بِحُبِّهِ شُغِفْتَ

فَشُدَّ مِنْكَ الْكَفَّ يَا وَلِيّ ❁ عَلَىٰ شَرِيعَةِ النَّبِي الْأُمِّيّ

حَصِّلْ جَمِيعَ مَا لَهُ الشَّرْعُ ارْتَضَىٰ ❁ وَكُنْ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ رَافِضَا

تَرَىٰ الْفُؤَادَ صَافِيًا وَشَارِقَا ❁ وَعَنْ سِوَى الْمَوْلَىٰ إِلَى الْمَوْلَىٰ ارْتَقَىٰ

ثُمَّ قَالَ :

فَبِالشَّرِيعَةِ الْوِصَالُ لِلْمُنَىٰ ❁ كَالْفَوْزِ بِالْبَقَاءِ مِنْ بَعْدِ الْفَنَا

وَمَنْ يَظُنُّ الْخَيْرَ فِي سِوَاهَا ❁ فَإِنَّهُ وَاللّٰهِ مَا دَرَاهَا

قالَ ابنُ عَجيبَة : وقَدْ رَأَيْتُ كَثِيراً مِنَ الفُقَراءِ (المُنْتَسِبينَ فِي الظَّاهِرِ إِلَى الصُّوفِيَّة) قَصَّرُوا مِنَ الشَّرِيعَة ، فَخَرَجُوا مِنَ الطَّرِيقَة ، وسُلِبُوا نُورَ الحَقِيقَة ، ورَأَيْتُ آخَرِينَ طالَ أَمَدُهُمْ فِي صُحْبَةِ القَوْم ، ولَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِمْ بَهْجَةُ المُحِبِّينَ ، ولا سِيما العارِفِينَ ، وما ذَلِكَ إِلَّا لِعَدَمِ التَّحَفُّظِ عَلَى مَراسِمِ الشَّرِيعَة .

وكانَ شَيْخُنا اليَزِيدِي رضي الله عنه يَقُولُ : ((كُلُّ مَنْ تَرَكَ الشَّرِيعَةَ مِنْ غَيْرِ جَذْبٍ ولا عُذْرٍ سُلُوكُهُ كَبِيرَة)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : واللهِ ما رَأَيْنا الخَيْرَ إلَّا فِيها ، وما رَبِحْنا إلَّا مِنْها ، فاللهُ يَرْزُقنا الأَدَبَ مَعَها إلَى يَوْمِ الفَصْلِ والقَضاء ، آمِين .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ ثَمَرَةَ الوِرْدِ ونَتِيجَتَهُ ، وهُوَ المَدَدُ الإلَهِي ؛ إذْ بِقَدْرِ الاسْتِعْدادِ تَحْصُلُ الأَمْداد ، ولا اسْتِعْدادَ لَها إلَّا بِدَوامِ الأَوْراد ، وتَفَرُّغِ الفُؤاد ، فَقالَ :

(وُرُودُ الأَمْدادِ بِحَسَبِ الاسْتِعْدادِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **المُرادُ بِالأَمْداد** : أَنْوارُ التَّوَجُّهِ للسَّائِرِينَ ، وأَنْوارُ المُواجَهَةِ للواصِلِينَ ، فَهِيَ تَتَوالَى عَلَى قُلُوبِ العِبادِ بِحَسَبِ التَّأَهُّبِ والاسْتِعْدادِ ؛ فَبِقَدْرِ المُجاهَدَةِ تَكُونُ المُشاهَدَة ، وبِقَدْرِ التَّخْلِيَةِ تَكُونُ التَّحْلِيَة .

وفائِدَةُ هَذِهِ الأَمْدادِ تَطْهِيرُ القُلُوبِ مِنَ الأَغْيار ، وتَقْدِيسُ الأَسْرارِ مِنْ غَبَشِ الحِسِّ والأَكْدار ، والوُقُوفِ مَعَ الأَنْوار ، فَلا تَزالُ أَمْطارُ المَدَدِ تَنْزِلُ عَلَى أَرْضِ النُّفُوسِ الطَّيِّبَةِ ، والقُلُوبِ المُطَهَّرَةِ ، والأَرْواحِ المُنَوَّرَةِ ، والأَسْرارِ المُقَدَّسَةِ ، حَتَّى تَمْتَلِئَ بِأَنْوارِ المَعانِي ، فَحِينَئِذٍ

تَنْشَقُّ لَها أَسْرارُ الذَّات ، وتَتَعَلَّقُ لَها أَنْوارُ الصِّفات ، فَتَغِيبُ بِشُهُودِ الذَّاتِ عَنْ أَثَرِ الصِّفات ، ثُمَّ تُرَدُّ إِلَى شُهُودِ الصِّفاتِ بِالذَّاتِ ، والذَّاتِ بِالصِّفاتِ ، لا يَحْجُبُها جَمْعُها عَنْ فَرْقِها ، ولا فَرْقُها عَنْ جَمْعِها ، تُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وتُوَفِّي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ .

قالَ شَيْخُ شَيْخِنا مَوْلايَ العَرَبِي رضي الله عنه : فِي بَعْضِ رَسائِلِهِ : ((فَإِنْ قُلْتُمْ : أَيَّ وَقْتٍ نَكُونُ كالجِبالِ : ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ (١) .

قُلْنا : إذا زَهَدْتُمْ فِي الدُّنْيا بِالكُلِّيَّة ، وقَطَعْتُمُ الإِياسَ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَيْها بِالكُلِّيَّة ، ثُمَّ اعْتَقَدْتُمْ فِي شُيُوخِكُمْ أَنَّهُمْ كُمَّلٌ ، وأَنَّهُمْ عَلَى قَدَمِ الأَنْبِياءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ - مِنْ وَرَثَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَوَاللهِ العَظِيم لَيَنْزِلُ عَلَيْكُمُ المَدَدُ اللَّيْلَ والنَّهار ، والشَّهْرَ والعام ، وفِي كُلِّ وَقْتٍ وساعَةٍ ولَحْظَة ، حَتَّى تَمْتَلِئَ قُلُوبُكُمْ بِمَعْرِفَةِ الله ، وتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِذِكْرِ الله ، وتَكُونُوا كالجِبالِ الرَّاسِيَة)) .

هَذا مَعْنَى كَلامِهِ بِاخْتِصار رضي الله عنه : ، وهُوَ كَما قالَ ؛ لأَنَّ الزَّاهِدَ فِي الدُّنْيا تَفَرَّغَ وتَخَلَّى مِنَ الأَكْدار ، وتَهَيَّأَ للأَنْوار ، فَإِذا نَزَلَ المَدَدُ ،

---

(١) سُورَةُ النَّمْل : مِنَ الآيَة ٨٨ .

وَجَدَ القَلْبَ مُتَّسِعًا مُطَهَّرًا مُنَظَّفًا ، فَمَلَأَهُ مِنْ أَنْوارِهِ ، وحَلَّاهُ بِحِلْيَةِ أَسْرارِهِ ، بِخِلافِ ما إذا كانَ القَلْبُ مَعْمُورًا بِأَغْيارِ الدُّنْيا لَمْ يَجِدِ المَدَدُ مَوْضِعًا يَنْزِلُ فِيه ، فَيَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ جاءَ ، واعْتِقادُ كَمالِ الشُّيُوخِ هُوَ عَيْنُ الصِّدْق ، وبِقَدْرِ الصِّدْقِ يَنْبُعُ المَدَد ، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَنْقَطِعَ الوَهْمُ أَوْ يَذْهَبَ الحِسُّ إِلَّا بِالصِّدْقِ مَعَ الزُّهْد ، فَبِالزُّهْدِ يَتَهَيَّأُ للمَدَد ، وبِالصِّدْقِ يَفِيضُ عَلَيْهِ المَدَد ، فَكُلَّما فاضَ ماءُ المَدَد ، غَسَلَ أَوْساخَ الوَهْم ، فَإِذا لَمْ يَبْقَ للوَهْمِ أَثَرٌ ، حَصَلَ الاسْتِمْدادُ مِنَ البَحْر .

ثُمَّ فَسَّرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ الأَمْدادَ ، وكَيْفِيَّةَ الاسْتِعْدادِ ، فَقالَ :

(وشُرُوقُ الأَنْوارِ عَلَى حَسَبِ صَفاءِ الأَسْرارِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : شُرُوقُ أَنْوارِ المَعارِفِ فِي أُفُقِ سَماءِ القُلُوبِ يَكُونُ عَلَى قَدْرِ صَحْوِها مِنْ سُحُبِ الآثارِ ، وغَيْمِ الأَغْيارِ ، وغَيْنِ الأَنْوارِ ، كَما قالَ الشَّاعِر :

إِنْ تَلاشَى الْحِجَابُ عَنْ عَيْنِ قَلْبِي ❁ شَاهَدَ السِّرُّ غَيْبَهُ فِي بَيَانِ

فَاطْرَحِ الْكَوْنَ عَنْ عِيانِكَ وَامْحُ ❁ نُقْطَةَ الْغَيْنِ إِنْ أَرَدْتَ تَرَانِي

فَبِقَدْرِ صَفائِها ومَحْوِها يَكُونُ تَمامُ إِشْراقِ نُورِها ، فَإِذا انْجَلَتْ عَنْ سَماءِ القُلُوبِ سُحُبُ الآثارِ وغَيْمُ الأَغْيارِ ، أَشْرَقَ فِيها نُورُ الفَناء ،

فَيَغِيبُ القَلْبُ والرُّوحُ عَنِ الرُّسُوم ، ولَمْ يَبْقَ إِلَّا الحَيُّ القَيُّوم ، وإذا انْجَلَتْ عَنِ الأَسْرارِ غَيْنُ الأَنْوارِ ، أَشْرَقَ فِيها نُورُ البَقاء ، فَيَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ ، ويَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ ؛ ولِصاحِبِ العَيْنِيَّةِ رضي الله عنه :

فَنِيتُ بِهَا عَيْنِي فَمَا لِي أَنِيَّةٌ ❁ هُوِيَّةُ لَيْلَى لِلْأَنِيَّةِ قَاطِعُ

وَكُنْتُ كَمَا إِنْ لَمْ أَكُنْ وَهْوَ أَنَّهُ ❁ كَمَا لَمْ يَزَلْ فَرْدًا وَلِلْكُلِّ جَامِعُ

فَشَمْسِيَ فِي أُفْقِ الْأُلُوهَةِ مُشْرِقٌ ❁ وَبَدْرِيَ فِي شَرْقِ الرُّبُوبَةِ طَالِعُ

فَأَفْنَيْتُهَا حَتَّى فَنَتْ وَهْيَ لَمْ تَكُنْ ❁ وَلَكِنَّنِي بِالْوَهْمِ كُنْتُ أُطَالِعُ

فَعَلامَةُ شُرُوقِ هَذِهِ الأَنْوارِ تَرْكُ التَّدْبِيرِ والاخْتِيارِ ، والاكْتِفاءُ بِنَظَرِ الواحِدِ القَهَّارِ ، كَما أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(**الغافِلُ إِذا أَصْبَحَ نَظَرَ ماذا يَفْعَلُ ، والعاقِلُ يَنْظُرُ ماذا يَفْعَلُ اللهُ بِهِ**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الغافِلُ** : هُوَ الجاهِلُ بِاللهِ ، ولَوْ كَثُرَ ذِكْرُهُ بِاللِّسان ، **والعاقِلُ** : هُوَ العارِفُ بِاللهِ ، ولَوْ قَلَّ ذِكْرُ اللِّسان ، إِذِ المُعْتَبَرُ هُوَ ذِكْرُ الجَنان ، **فالغافِلُ** : نَفْسُهُ مَوْجُودَة ، وآمالُهُ مَمْدُودَة ، إِذا أَصْبَحَ نَظَرَ ماذا يَفْعَلُ بِنَفْسِهِ ، فَيُدَبِّرُ شُؤُونَهُ ومَآرِبَهُ بِعَقْلِهِ وحَدْسِهِ ، فَهُوَ ناظِرٌ لِفِعْلِهِ ، مُعْتَمِدٌ عَلَى حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ ، فَإِذا فَسَخَ القَضاءُ ما أَبْرَمَهُ ، وهَدَمَ لَهُ ما أَمَّلَهُ ، غَضِبَ وسَخِطَ ، وحَزِنَ و قَنِطَ ، فَنازَعَ رَبَّهُ ، وأَساءَ أَدَبَهُ ،

فَلا جَرَمَ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ مِنَ اللهِ البُعْدَ ، ويَسْتَوْجِبُ فِي قَلْبِهِ الوَحْشَةَ والطَّرْدَ ، إلَّا إنْ حَصَلَ لَهُ إياب ، وأَدامَ الوُقُوفَ بِالبابِ حَتَّى يُرْفَعَ عَنْهُ الحِجاب ، فَحِينَئِذٍ يَلْتَحِقُ بِالأَحْباب .

وأَمَّا العاقِلُ ، وهُوَ العارِفُ ، فَقَدْ تَحَقَّقَتْ فِي قَلْبِهِ عَظَمَةُ رَبِّهِ ، وانْجَمَعَ إِلَيْهِ بِكُلِّيَّةِ قَلْبِهِ ، فَأَشْرَقَتْ فِي قَلْبِهِ شُمُوسُ العِرْفان ، وطُوِيَ مِنْ نَظَرِهِ وُجُودُ الأَكْوان ، فَلَيْسَ لَهُ عَنْ نَفْسِهِ أَخْبار ، ولا مَعَ غَيْرِ اللهِ قَرار ، تَصَرُّفُهُ بِاللهِ ومِنَ اللهِ وإِلَى اللهِ ، فَقَدْ فَنِيَ عَنْ نَفْسِهِ ، وبَقِيَ بِرَبِّهِ ، فَلَمْ يَرَ لَها تَرْكًا ولا فِعْلًا ، ولا قُوَّةً ولا حَوْلًا ، فَإِذا أَصْبَحَ نَظَرَ ماذا يَفْعَلُ اللهُ بِهِ ، فَتَلَقَّى كُلَّ ما يَرِدُ عَلَيْهِ بِالفَرَحِ والسُّرُور ، والبَهْجَةِ والحُبُور ؛ لِما هَجَمَ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ اليَقِين ، والغِنَى بِرَبِّ العالَمِين .

قالَ سَيِّدُنا عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيز رضي الله عنه : أَصْبَحْتُ وما لِي سُرُورٌ إلَّا مَواقِعُ القَدَر .

فَإِذا أَرادَ المُرِيدُ أَنْ يَكُونَ تَصَرُّفُهُ بِاللهِ ، فَلْيَنْعَزِلْ عَنْ حُظُوظِهِ وهَواه ، فَإِذا أَرادَ أَنْ يَفْعَلَ أَمْرًا فَلْيَتَأَنَّ ويَصْبِرْ ويَسْتَمِعْ إِلَى الهاتِف ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ يُسْمِعُهُ ما يُرِيدُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ فِعْلًا أَوْ تَرْكًا ، وقَدْ جَرَّبْنا هَذا فِي سَفَرِنا وإِقامَتِنا ، فَكُنَّا لا نَتَصَرَّفُ إلَّا بِإِذْنٍ خاصٍّ ، والحَمْدُ للهِ .

وصاحِبُ الاعْتِناءِ كُلُّهُ هَكَذا مَعَ التَّأَنِّي ، فَإِنَّ التَّأَنِّي مِنَ اللهِ ، والعَجَلَةَ مِنَ الشَّيْطان ، وكَثِيرًا ما كانَ الشَّيْخُ المَجْذُوبُ الوَلِيُّ العارِفُ سَيِّدِي أَحْمَدُ أَبو سَلْهام يُنْشِدُنِي هَذا البَيْت :

تَـأَنَّ وَلا تَعْجَـلْ لِأَمْـرٍ تُـرِيـدُهُ ❁ وَكُنْ رَاحِمًا بِالْخَلْقِ تُبْلَ بِرَاحِمِ

فَعَلَيْكَ أَيُّها المُرِيدُ بِالاعْتِناءِ بِهَذا الأَمْر ، وافْهَمْ عَنِ اللهِ فِي أُمُورِكَ كُلِّها ، وأَنْشِدْ عَلَى نَفْسِكَ :

اتْبَعْ رِيَاحَ الْقَضَا وَدُرْ حَيْثُ دَارَتْ ❁ وَسَلِّمْ لِسَلْمَى وَسِرْ حَيْثُ سَارَتْ

واسْتَعِنْ عَلَى هَذا الأَمْرِ بِأَدْعِيَتِهِ ﷺ : فِي هَذا المَقام ، كَقَوْلِهِ ﷺ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا ولا نَفْعًا ، ولا مَوْتًا ولا حَياةً ولا نُشُورًا ، ولا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا ما أَعْطَيْتَنِي ، ولا أَنْ أَتَّقِيَ إِلَّا ما وَقَيْتَنِي ، فَوَفِّقْنِي اللَّهُمَّ لِما تَرْضاهُ مِنِّي مِنَ القَوْلِ والفِعْلِ ، وفِي عافِيَةٍ وسِتْرٍ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير) .

وكَقَوْلِهِ أَيْضًا ﷺ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ لا أَسْتَطِيعُ دَفْعَ ما أَكْرَهُ ، ولا أَمْلِكُ نَفْعَ ما أَرْجُو ، وأَصْبَحَ الأَمْرُ بِيَدِ غَيْرِي ، وأَصْبَحْتُ مُرْتَهَنًا بِعَمَلِي ، فَلا فَقِيرَ أَفْقَرُ مِنِّي ، اللَّهُمَّ لا تُشْمِتْ بِي عَدُوِّي ، ولا تُسِئْ بِي صَدِيقِي ، ولا تَجْعَلْ مُصِيبَتِي فِي دِينِي ، ولا تَجْعَلِ الدُّنْيا أَكْبَرَ هَمِّي ، ولا مَبْلَغَ عِلْمِي ، ولا تُسَلِّطْ عَلَيَّ مَنْ لا يَرْحَمُنِي) .

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَدْعِيَةِ الَّتي تُكْسِبُ الرِّضا والتَّسْلِيم ، والمَقْصُودُ مِنْ دُعائِهِ ﷺ فَهْمُ مَعانِيها ، لا مُجَرَّدُ أَلْفاظِها ، فالمُرادُ المَعانِي لا الأَوانِي .

وقالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَن رضي الله عنه : ((احْرِصْ أَنْ تُصْبِحَ وتُمْسِيَ مُفَوِّضًا مُسْتَسْلِمًا ، لَعَلَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْكَ فَيَرْحَمُكَ)) .

ثُمَّ إِنَّ العاقِلَ الَّذي يَنْظُرُ ما يَفْعَلُ اللهُ هُوَ العارِفُ كَما تَقَدَّمَ ؛ لأَنَّهُ هُوَ الَّذي يَتَحَقَّقُ فِيهِ ذَلِكَ ، ومِنْ عَلامَتِهِ أَنَّهُ لا يَسْتَوْحِشُ مِنْ شَيْءٍ ؛ لِمَعْرِفَتِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وفَهْمِهِ عَنِ اللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، بِخِلافِ غَيْرِهِ مِنَ العُبَّادِ والزُّهَّادِ ، وهُوَ الَّذي أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(إِنَّما يَسْتَوْحِشُ العُبَّادُ والزُّهَّادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِغَيْبَتِهِمْ عَنِ اللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : العُبَّادُ : هُمُ الَّذينَ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الفِعْلُ ، فَهُمْ مُسْتَغْرِقُونَ فِي العِبادَةِ الحِسِّيَّة ، يَقُومُونَ اللَّيْلَ ويَصُومُونَ النَّهارَ ، شَغَلَتْهُمْ حَلاوَةُ العِبادَةِ عَنْ حَلاوَةِ شُهُودِ المَعْبُود ، فَحُجِبُوا بِعِبادَتِهِمْ عَنْ مَعْبُودِهِمْ ، والزُّهَّادُ هُمُ الَّذِينَ غَلَبَ عَلَيْهِمُ التَّرْكُ ، فَهُمْ يَفِرُّونَ مِنَ الدُّنْيا وأَهْلِها ، ذاقُوا حَلاوَةَ الزُّهْدِ ، فَوَقَفُوا مَعَهُ وحُجِبُوا عَنِ اللهِ ، فَهُمْ يَسْتَوْحِشُونَ

مِنَ الأَشْياءِ لِغَيْبَتِهِمْ عَنِ اللّهِ فِيها ، ولَوْ عَرَفُوا اللّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ما اسْتَوْحَشُوا مِنْ شَيْءٍ ولأَنِسُوا بِكُلِّ شَيْءٍ وتَأَدَّبُوا مَعَ كُلِّ شَيْء .

والعارِفُونَ لِنُفُوذِ بَصِيرَتِهِمْ شَهِدُوا الخَلْقَ مَظاهِرَ مِنْ مَظاهِرِ الحَقِّ ، فَحُجِبُوا أَوَّلًا بِالحَقِّ عَنِ الخَلْقِ ، وبِالمَعْنَى عَنِ الحِسِّ ، وبِالقُدْرَةِ عَنِ الحِكْمَةِ ، ثُمَّ رُدُّوا إِلَى شُهُودِ الحَقِّ فِي الخَلْقِ ، والقُدْرَةِ فِي الحِكْمَةِ ، فَحِينَ عَرَفُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، أَنِسُوا بِكُلِّ شَيْءٍ ، وتَأَدَّبُوا مَعَ كُلِّ شَيْءٍ ، وعَظَّمُوا كُلَّ شَيْء .

والحاصِلُ : أَنَّ العارِفِينَ بِاللّهِ غابُوا عَنْ شُهُودِ الخَلْقِ بِشُهُودِ الحَقِّ ، فَهُمْ مَعَ الخَلْقِ بِالأَشْباح ، ومَعَ الحَقِّ بِالأَرْواح ، ماتُوا وبُعِثُوا وقامَتْ قِيامَتُهُمْ ، وتَبَدَّلَتْ فِي حَقِّهِمُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمَوات ، وبَرَزُوا للّهِ الواحِدِ القَهَّار ، فَهُمْ يَرَوْنَ الأَنْوار ، والنَّاسُ فِي ظُلْمَةِ الأَغْيار .

تَجَلِّي الذَّات

كَشَفَ لَهُمُ الحَقُّ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَنْ أَسْرارِ مَكْنُوناتِهِ مَسْدُولَةً عَلَيْها قَهَّارِيَّةُ أَسْتارِه ، وسَيَكْشِفُ لَهُمْ فِي تِلْكَ الدَّارِ عَنْ أَسْرارِ ذاتِهِ مِنْ غَيْرِ حِجابِ الحِكْمَةِ الَّتي هِيَ أَثَرُ صِفاتِهِ ، كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِالنَّظَرِ فِي مُكَوَّناتِهِ ، وسَيَكْشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ الدَّارِ عَنْ كَمالِ ذاتِه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِنَّما أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ بِواسِطَةِ مُكَوَّناتِهِ لأَنَّكَ لا تَقْدِرُ هُنا أَنْ تَنْظُرَ إِلَى حَقِيقَةِ ذاتِهِ المُقَدَّسَةِ فِي عَظَمَةِ الجَبَرُوتِ الأَصْلِي بِلا واسِطَةٍ لِضَعْفِ نَشْأَتِكَ ، وإِنْ كانَ ذَلِكَ جائِزًا عَقْلًا ، ولِذَلِكَ طَلَبَهُ سَيِّدُنا مُوسَىٰ عليه السلام ، لَكِنَّ حِكْمَةَ الحَكِيمِ اقْتَضَتْ تَغْطِيَةَ أَسْرارِ الرُّبُوبِيَّةِ بِأَنْوارِ سُبُحاتِ الأُلُوهِيَّة ؛ إِذْ لا بُدَّ لِلحَسْناءِ مِنْ نِقاب ، وللشَّمْسِ مِنْ سَحاب ، ولَوْ ظَهَرَ مِنْ غَيْرِ رِداءِ الكِبْرِياءِ لَوَقَعَ الإِدْراكُ ولَمْ يَبْقَ حِينَئِذٍ تَرَقٍّ ، فالتَّرَقِّي فِي أَسْرارِ الذَّاتِ إِنَّما هُوَ بِالنَّظَرِ إِلَى أَنْوارِ الصِّفاتِ ، وهُوَ لا يَنْقَطِعُ أَبَدًا فِي الدَّارَيْن ، فَلا تُنالُ الذَّاتُ مِنْ غَيْرِ مَظْهَرٍ أَصْلًا ، فالمَعْنَى لا تُقْبَضُ إِلَّا بِالحِسِّ ، هَذا مَذْهَبُ أَهْلِ التَّحْقِيقِ مِنْ أَهْلِ المَعانِي .

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ فَرَّقَ الشَّيْخُ بَيْنَ الرُّؤْيَتَيْنِ بِاعْتِبارِ الدَّارَيْنِ ، والتَّحْقِيقُ أَنَّها رُؤْيَةٌ واحِدَةٌ لأَنَّ المَظْهَرَ مُتَّحِدٌ ؟

فالجَوابُ : أَنَّهُ لَمَّا كانَ مَظْهَرُ هَذِهِ الدَّارِ الحِسُّ فِيهِ غالِبٌ عَلَى المَعْنَى ، والحِكْمَةُ ظاهِرَةٌ ، والقُدْرَةُ باطِنَةٌ ، ومَظْهَرُ الدَّارِ الآخِرَةِ بِالعَكْسِ ؛

المَعْنَى فِيهِ غالِبٌ عَلَى الحِسِّ ، والقُدْرَةُ ظاهِرَةٌ ، انْكَشَفَ ثَمَّ عَنْ حَقِيقَةِ الذَّاتِ أَكْثَرَ مِمَّا انْكَشَفَ هُنا ، فَبِهَذا المَعْنَى وَقَعَ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الرُّؤْيَتَيْنِ ، ومِثْلُهُ قَوْلُ الشَّيْخِ أَبِي الحَسَن رضي الله عنه فِي ((حِزْبِهِ الكَبِير)) : ((عِزُّ الدُّنْيا بِالإِيمانِ والمَعْرِفَةِ ، وعِزُّ الآخِرَةِ بِاللِّقاءِ والمُشاهَدَةِ)) ؛ هَذا بِاعْتِبارِ الخَواصِّ .

وأَمَّا العَوامُّ ، فَلا يَرَوْنَ إِلَّا الحِسَّ فِي هَذِهِ الدَّار ، وفِي تِلْكَ الدَّار .

وأَمَّا الرُّؤْيَةُ الَّتي تَحْصُلُ لَهُمْ يَوْمَ المَزِيد ، فَيُحْتَمَلُ أَنْ يُظْهِرَ لَهُمْ نُورًا مِنْ أَنْوارِ قُدْسِهِ ويُلْهِمَهُمُ المَعْرِفَةَ فِيهِ ، وهُوَ ظاهِرُ الحَدِيث ، أَوْ يَفْنِيَهُمْ عَنْ حِسِّهِمْ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ حَتَّى يَشْهَدُوا مَعانِي الذَّات ، ويَتَلَذَّذُوا بِرُؤْيَتِها ، ثُمَّ يَرُدَّهُمْ إِلَى حِسِّهِمْ .

والحاصِلُ : أَنَّ تَجَلِّي الذَّاتِ عَلَى قِسْمَيْنِ :

قِسْمٌ يَكُونُ بِوَسائِطَ كَثِيفَة ، ظاهِرُها ظُلْمَةٌ وباطِنُها نُورٌ ، ظاهِرُها حِكْمَةٌ وباطِنُها قُدْرَةٌ ؛ ظاهِرُها حِسٌّ وباطِنُها مَعْنًى ، وهُوَ تَجَلِّي هَذِهِ الدَّار .

وقِسْمٌ يَكُونُ بِوَسائِطَ لَطِيفَةٍ نُورانِيَّة ، ظاهِرُها نُورٌ وباطِنُها نُورٌ ، ظاهِرُها قُدْرَةٌ وباطِنُها حِكْمَةٌ ، ظاهِرُها مَعْنًى وباطِنُها حِسٌّ ، وهُوَ تَجَلِّي دارِ الآخِرَة .

فالعارِفُونَ لَمَّا حَصَلَ لَهُمُ الشُّهُودُ والمَعْرِفَةُ فِي هَذِهِ الدَّار ، وفِي تِلْكَ الدَّار ، لا يَحْجُبُهُمْ عَنِ اللهِ حُورٌ ولا قُصُور ، بَلْ دائِمًا فِي النَّظْرَةِ والسُّرُور ، والنَّضْرَةِ والحُبُور ، وذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا عَرَّفَهُمْ بِهِ هُنا ، لَمْ يَحْجُبْهُمْ هُنالِك ، يَمُوتُ المَرْءُ عَلَى ما عاشَ عَلَيْهِ ، ويُبْعَثُ عَلَى ما ماتَ عَلَيْهِ ، بِخِلافِ العامَّةِ ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا حَجَبَهُمْ هُنا بِشُهُودِ أَنْفُسِهِمْ ، انْحَجَبُوا هُناكَ عَنْ رُؤْيَةِ مَعْبُودِهِمْ ، إِلَّا فِي وَقْتٍ مَخْصُوصٍ عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوص ، ولِذَلِكَ كَتَبَ ابنُ عَرَبِي الحاتِمِي إِلَى الإِمامِ الرَّازِي فَقالَ لَهُ : تَعالَ نُعَرِّفْكَ بِاللهِ اليَوْمَ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ ؛ فَإِذا تَجَلَّى اللهُ لِعِبادِهِ ، أَنْكَرْتَهُ ولَمْ تَعْرِفْهُ .

وسُئِلَ الشَّيْخُ عَبْدُ القادِرِ الجَيْلانِي رضي الله عنه عَنْ رَجُلٍ يَدَّعِي أَنَّهُ يَرَى اللهَ بِبَصَرِهِ ، فاسْتَدْعاهُ فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقالَ : نَعَمْ ، فانْتَهَرَهُ ونَهاهُ عَنْ هَذا القَوْل ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ : أَمُحِقٌّ هُوَ أَمْ مُبْطِلٌ ؟ فَقالَ : هُوَ مُحِقٌّ مُلَبَّسٌ عَلَيْهِ ؛ وذَلِكَ أَنَّهُ شَهِدَ بِبَصِيرَتِهِ نُورَ الجَمال ، ثُمَّ خَرَقَ مِنْ بَصِيرَتِهِ إِلَى بَصَرِهِ ، فَنَفَذَ فَرَأَى بَصَرُهُ بَصِيرَتَهُ ، وبَصِيرَتُهُ يَتَّصِلُ شُعاعُها بِنُورِ شُهُودِهِ ، فَظَنَّ أَنَّ بَصَرَهُ رَأَى ما شاهَدَتْهُ بَصِيرَتُهُ ، وإِنَّما رَأَى بَصَرُهُ بَصِيرَتَهُ فَحَسْب .

والحاصِلُ : أَنَّهُ انْعَكَسَ بَصَرُهُ فِي بَصِيرَتِهِ فَرآهُ بِبَصِيرَتِهِ وظَنَّ أَنَّهُ رَآهُ بِبَصَرِهِ ، ومَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ ما دامَتْ مَحْجُوبَةً بِالبَشَرِيَّةِ كانَ النَّظَرُ إِنَّما هُوَ للبَصَرِ الحِسِّي ، فَلا يَرَى إِلَّا الحِسِّيَّ ، فَإِذا اسْتَوْلَتِ الرُّوحانِيَّةُ عَلَى البَشَرِيَّةِ انْعَكَسَ نَظَرُ البَصَرِ إِلَى البَصِيرَةِ فَلا يَرَى البَصَرُ إِلَّا المَعانِي الَّتي كانَتْ تَراها البَصِيرَة ، وهُوَ مَعْنَى قَوْلِ شَيْخِ شُيُوخِنا المَجْذُوب :

غَيَّبْتُ نَظَرِي فِي نَظَرْ ❁ وَأُفْتِيتُ عَنْ كُلِّ فَانِي

حَقَّقْتُ مَا وَجَدْتُ غَيْرْ ❁ وَأَمْسَيْتُ فِي الْحَالِ هَانِي

وإِنَّما أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ فِي مُكَوَّناتِهِ تَسْلِيَةً لَكَ عَنْ شُهُودِ ذاتِهِ والنَّظَرِ إِلَيْهِ ؛ إِذْ لا صَبْرَ للمُحِبِّ عَنْ مَحْبُوبِهِ ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لَمَّا عَلِمَ أَنَّكَ لا تَصْبِرُ عَنْهُ ، أَشْهَدَكَ ما بَرَزَ مِنْهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لَمَّا فَصَلَ الحَقُّ سُبْحانَهُ هَذِهِ الرُّوحَ الَّتي هِيَ لَطِيفَةٌ نُورانِيَّةٌ مِنْ أَصْلِها ، وتَغَرَّبَتْ عَنْ وَطَنِها ، تَعَشَّقَتْ إِلَى أَصْلِها ، وتَعَطَّشَتْ إِلَى مَحَبَّةِ سَيِّدِها ، فَلَمَّا عَلِمَ الحَقُّ سُبْحانَهُ أَنَّها لا تَصْبِرُ عَنْهُ ، ولا تَقْدِرُ أَنْ تَراهُ عَلَى ما هُوَ عَلَيْهِ مِنْ كَمالِ جَلالِهِ ونُورِ بَهاءِ جَمالِهِ ما

دامَتْ فِي هَذا السِّجْنِ الَّذي هُوَ قَفَصُ البَدَنِ ، أَشْهَدَها الحَقُّ تَعالَى ما بَرَزَ مِنْهُ مِنْ تَجَلِّياتِهِ فِي مَظاهِرِ مُكَوَّناتِهِ وآثارِ صِفاتِهِ ، لَكِنْ لا بُدَّ للحَسْناء مِنْ نِقاب ، وللشَّمْسِ مِنْ سَحاب ، فَبَرَزَتْ أَنْوارُ الجَبَرُوتِ إِلَى رِياضِ المَلَكُوتِ ، فَغَطَّتْها سَحائِبُ الحِكْمَةِ وآثارُ القُدْرَةِ ، فَبَقِيَتِ الرُّوحُ تَتَعَشَّقُ إِلَى أَصْلِها مِنْ وَراءِ سَحابِ الأَثَرِ ، فَإِذا انْقَشَعَ السَّحابُ ورُفِعَ الحِجابُ ، لَقِيَ كُلُّ حَبِيبٍ حَبِيبَهُ ، وعَرَفَ كُلُّ إِنْسانٍ مَثْواهُ ومُسْتَقَرَّهُ ، فَقَنَعَتِ الرُّوحُ بِشُهُودِ المَعانِي خَلْفَ وَرَقَةِ الأَوانِي ، وإِلَيْهِ أَشارَ الشَّيْخُ الغَوْثُ أَبو مَدْيَنَ رضي الله عنه بِقَوْلِهِ :

فَلَوْلا مَعانِيكُمْ تَراهَا قُلُوبُنَا ❁ إِذَا نَحْنُ أَيْقاظٌ وَفِي النَّوْمِ إِنْ غِبْنَا

لَمُتْنَا أَسًى مِنْ بُعْدِكُمْ وَصَبَابَةً ❁ وَلَكِنَّ فِي الْمَعْنَى مَعانِيكُمُ مَعْنَا

أَيْ : فَلَوْلا مَعانِي ذَاتِكُمْ تَراها قُلُوبُنا فِي مَظاهِرِ صِفاتِكُمْ ، لَمُتْنا عِشْقًا ، أَوْ : فَلَوْلا مَعانِي رُبُوبِيَّتِكُمْ تَراها قُلُوبُنا فِي مَظاهِرِ مُكَوَّناتِكُمْ ، أَوْ : فَلَوْلا مَعانِي الجَبَرُوتِ تَراها قُلُوبُنا فِي عالَمِ المَلَكُوتِ لَمُتْنا أَسًى ؛ أَيْ : حُزْنًا عَلَى فِراقِكُمْ ، وشَوْقًا إِلَى لِقائِكُمْ .

وقَوْلُهُ : ((ولَكِنَّ فِي المَعْنَى مَعانِيكُمْ مَعْنا)) : أَيْ : ولَكِنَّ مَعانِيكُمُ الَّتي تُشاهِدُها قُلُوبُنا فِي المَعْنَى مَعْنًى عَظِيمٌ ، فاسْتَأْنَسْنا بِمُشاهَدَتِها ، وأَنِسَتْ أَرْواحُنا بِها ، فَلَمْ تَمُتْ عِشْقًا وشَوْقًا .

تَلْوِينُ الطَّاعات

ومِمَّا تَسْتَأْنِسُ بِهِ الرُّوحُ عَنْ صَدَماتِ المَحَبَّةِ اشْتِغالُها بِالخِدْمَةِ ؛ كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لَمَّا عَلِمَ مِنْكَ وُجُودَ المَلَل ، لَوَّنَ لَكَ الطَّاعات) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مِنْ كَرَمِهِ تَعالَى وحُسْنِ اخْتِيارِهِ لَكَ أَيُّها العَبْدُ أَنَّهُ لَمَّا عَلِمَ أَنَّكَ لا تَقْدِرُ أَنْ تَصْبِرَ عَنْهُ ، أَشْهَدَكَ ما بَرَزَ مِنْهُ ، ولَمَّا عَلِمَ الحَقُّ سُبْحانَهُ أَنَّ مِنْ عِبادِهِ مَنْ لا يَقْدِرُ أَنْ يَشْهَدَهُ فِيما بَرَزَ مِنْهُ ، أَشْغَلَهُ بِخِدْمَتِهِ ، ولَمَّا عَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ رُبَّما يَمَلُّ مِنْ خِدْمَةٍ واحِدَةٍ ، لَوَّنَ لَهُ طاعَتَهُ ؛ لأَنَّ مِنْ شَأْنِ النَّفْسِ أَنْ تَمَلَّ مِنْ تَكَرُّرِ الشَّيْءِ الواحِد ، وفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

لا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِذْ كَانَتْ مُدَبِّرَةً ❁ إِلَّا التَّنَقُّلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ

فَلَوَّنَ لَكَ طاعَتَهُ ، فَإِذا مَلَلْتَ مِنَ الصَّلاةِ مَثَلًا انْتَقَلْتَ إِلَى ذِكْرِهِ ، وإِذا مَلَلْتَ مِنْ ذِكْرِهِ انْتَقَلْتَ إِلَى قِراءَةِ كِتابِهِ ، وهَكَذا ، وأَنْواعُ الذِّكْرِ كَثِيرَةٌ ، والتَّنَقُّلُ مِنْ مُوجِباتِ النَّشاط .

فالعِبادَةُ مَعَ النَّشاطِ - ولَوْ قَلَّتْ - أَعْظَمُ مِنَ العِبادَةِ مَعَ الكَسَلِ - وإِنْ كَثُرَتْ - ، لَيْسَ العِبْرَةُ بِكَثْرَةِ الجِسِّ ، وإِنَّما العِبْرَةُ بِوُجُودِ المَعْنَى .

وقالَ الشَّيْخُ زَرُّوق رضي الله عنه : فَلُوِّنَتْ لَهُ الطَّاعَةُ لِثَلاثَةِ أَوْجُهٍ :

أَحَدُها : رَحْمَةً بِهِ لِيَسْتَرِيحَ مِنْ لَوْنٍ إِلَى لَوْن .

الثَّانِي : إِقامَةً للحُجَّةِ عَلَيْهِ ؛ إِذْ لا عُذْرَ لَهُ فِي التَّرْكِ .

الثَّالِثُ : لِيُثْبِتَ لَهُ النِّسْبَةَ فِي العَمَلِ بِوُجُودِ التَّخْيِيرِ فِي الجُمْلَةِ ، فَتَكْمُلُ الكَرامَة ، وتَسْهُلُ الطَّاعَة .

فَقَدْ قالَ سَيِّدُنا عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيز رضي الله عنه : إِذا وافَقَ الحَقُّ الهَوَىٰ فَذَلِكَ الشَّهْدُ بِالزُّبْدِ ، ومَنْ سارَ إِلَى اللهِ بِطَبْعِهِ كانَ الوُصُولُ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ طَبْعِهِ ، ومَنْ سارَ إِلَى اللهِ بِمُخالَفَةِ طَبْعِهِ كانَ الوُصُولُ إِلَيْهِ بِقَدْرِ بُعْدِهِ عَنْ طَبْعِهِ ، ومَتَى يَصِحُّ بُعْدُهُ عَنْ طَبْعِهِ ؛ والمَقْصُودُ إِنَّما هُوَ مُوافَقَةُ الحَقِّ لا مَخافَةَ النَّفْسِ ، وشَواهِدُ السُّنَّةِ لا تَخْفَى ، فافْهَمْ .

ومِنْ دَواعِي المَلَلِ وُجُودُ الشَّرَه ؛ وهُوَ الحِرْصُ ، ومُوجِبُهُ هُوَ الإِطْلاقُ فِي العَمَل ، فَلِذَلِكَ قُيِّدَتِ الطَّاعَةُ بِأَعْيانِ الأَوْقاتِ ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(وعَلِمَ ما فِيكَ مِنْ وُجُودِ الشَّرَه ، فَحَجَرَها عَلَيْكَ فِي بَعْضِ الأَوْقات) :

الشَّرَه : خِفَّةٌ فِي النَّفْسِ تُوجِبُ المُسارَعَةَ للعَمَلِ والإِسْراعَ فِيه ، ويُنْتِجُ آفاتٍ ثَلاثًا :

أُولاها) التَّرْكُ عِنْدَ الدَّوامِ لِتَرَوِّي النَّفْسِ وضِيقِها .

الثَّانِيَةُ) المَلَل ، وهُوَ التَّثاقُلُ إنْ لَمْ يَكُنْ تَرْكٌ .

الثَّالِثَةُ) الإخْلالُ بِالحُقُوقِ لِوُجُودِ العَجَلَة .

والحَجْرُ بِالوَقْتِ فِيهِ فَوائِدُ ثَلاث :

أُولاها) مَنْعُ الشَّرَهِ ؛ إذْ لَوْ كانَتْ مُرْسَلَةً ، لَوَقَعَتِ النَّفْسُ فِيها عَلَى وَجْهِ الشَّرَه .

الثَّانِيَةُ) نَفْيُ التَّسْوِيف ؛ إذْ لَوْلا الوَقْتُ ، لَكانَتِ النَّفْسُ تُؤَخِّرُهُ مِنْ زَمَنٍ إلَى زَمَنٍ ، فَيُؤَدِّي إلَى التَّفْرِيط .

الثَّالِثَةُ) التَّمْكِينُ مِنَ العَمَلِ والتَّمَكُّنُ فِيه ؛ إذْ لَوْلا الوَقْتُ لأَهْمَلَ العَمَلَ ولَمْ يُحافِظْ عَلَيْهِ لِغَلَبَةِ الهَوَى ولَمْ يَحْفَظْهُ اسْتِعْمالاً للحُظُوظ .

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ رضي الله عنه وَجْهَ التَّحْجِير ، وهُوَ الإتْقانُ والإقامَةُ ، فَقالَ :

(لِيَكُونَ هَمُّكَ إقامَةَ الصَّلاةِ ، لا وُجُودَ الصَّلاة) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : السِّرُّ فِي تَحْجِيرِ الصَّلاةِ فِي بَعْضِ الأَوْقاتِ لِتَشْتاقَ النَّفْسُ إلَيْها وتَرْتاحَ بِها ، فَيَحْصُلَ فِيها الخُشُوعُ والحُضُورُ وقُرَّةُ العَيْن ، بِخِلافِ ما إذا كانَتْ دائِمَةً فِيها ، فَلا تَتَعَشَّقُ إلَيْها ، بَلْ رُبَّما تَمَلُّ ،

فَتُوقِعُها عَلَى غَيْرِ تَمام ، والمَقْصُودُ مِنْكَ حَرَكَةُ قَلْبِكَ لا حَرَكَةُ جِسْمِكَ : (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ ولا إِلَى أَعْمالِكُمْ ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ) .

لَيْسَ الشَّأْنُ حَرَكَةَ الأَشْباح ، إِنَّما الشَّأْنُ خُضُوعُ الأَرْواح ، فالسِّرُّ فِي تَحْجِيرِ الصَّلاةِ عَنْكَ فِي بَعْضِ الأَوْقاتِ أَنْ يَكُونَ هَمُّكَ إِقامَةَ الصَّلاةِ ؛ وهُوَ إِتْقانُها ، والقِيامُ بِحُقُوقِها الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ ، لا وُجُودَ الصَّلاةِ مِنْ غَيْرِ إِقامَة ، فَهِيَ مَيِّتَةٌ خاوِيَةٌ ، فَهِيَ إِلَى العُقُوبَةِ أَقْرَب .

قالَ الإِمامُ القُشَيْرِي رضي الله عنه : ((إِقامَةُ الصَّلاةِ هُوَ القِيامُ بِأَرْكانِها وسُنَنِها ، ثُمَّ الغَيْبَةُ عَنْ شُهُودِها بِرُؤْيَةِ مَنْ يُصَلِّي لَهُ ، فَتُحْفَظُ عَلَيْهِ أَحْكامُ الأَمْرِ بِما يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْهُ وهُوَ عَنْ مُلاحَظَتِها مَحْوٌ ، فَنُفُوسُهُمْ مِنْهُ مُسْتَقْبِلَةٌ إِلَى القِبْلَة ، وقُلُوبُهُمْ مُسْتَقِرَّةٌ فِي حَقائِقِ الوَصْلَة)) .

وقالَ تاجُ العارِفِينَ ابنُ عَطاءِ اللهِ رضي الله عنه : إِقامَةُ الصَّلاةِ حِفْظُ حُدُودِها مَعَ حِفْظِ السِّرِّ مَعَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، لا يَخْتَلِجُ بِسِرِّكَ سِواه .

وكَتَبَ سَيِّدُنا عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيز رضي الله عنه إِلَى عُمَّالِهِ : ((إِنَّ أَهَمَّ أُمُورِكُمْ عِنْدِي الصَّلاةُ ، فَمَنْ حَفِظَها وحافَظَ عَلَيْها فَهُوَ لِما سِواها أَحْفَظُ ، ومَنْ ضَيَّعَها فَهُوَ لِما سِواها أَضْيَعُ)) .

الخُشُوعُ فِي الصَّلاة

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ وَجْهَ كَوْنِ المَطْلُوبِ هُوَ الإِقامَةُ دُونَ الوُجُودِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، فَقالَ :

(فَما كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٌ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لأَنَّ الإِقامَةَ فِي اللُّغَةِ هِيَ الإِكْمالُ والإِتْقانُ ، يُقالُ : أَقامَ فُلانٌ دارَهُ : إِذا أَكْمَلَها ، وجَعَلَ فِيها كُلَّ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ ، فَإِقامَةُ الصَّلاةِ إِتْقانُها كَما تَقَدَّم ، وضِدُّ الإِقامَةِ هُوَ الإِخْلالُ والتَّفْرِيطُ ، فَلَيْسَ كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمًا ، فَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ لَيْسَ لَهُ مِنْ صَلاتِهِ إِلَّا التَّعَب !

وفِي بَعْضِ الأَحادِيث : (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، لَمْ تَزِدْهُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا) .

وفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْهُ ﷺ : (إِذا صَلَّى العَبْدُ فَلَمْ يُتِمَّ رُكُوعَها ولا سُجُودَها ولا خُشُوعَها ، لُفَّتْ كَما يُلَفُّ الثَّوْبُ الخَلَقُ ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِها وَجْهُهُ) .

فالمُصَلُّونَ كَثِيرٌ ، والمُقِيمُونَ قَلِيلٌ ، فَأَهْلُ الأَشْباحِ كَثِيرٌ ، وأَهْلُ القُلُوبِ قَلِيلٌ .

وقالَ أَبُو بَكْرِ بنِ العَرَبِي المَعافِرِي : ((ولَقَدْ رَأَيْتُ مِمَّن يُحافِظُ عَلَيْها

آلافًا لا أُحْصِيها ، فَأَمَّا مَنْ يُحافِظُها بِالخُشُوعِ والإِقْبالِ ، فَما أَسْتَوْفِي مِنْهُمْ خَمْسَةً)) .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنه : ((كُلُّ مَوْضِعٍ ذُكِرَ فِيهِ المُصَلُّونَ فِي مَوْضِعِ المَدْحِ فَإِنَّما جاءَ لِمَنْ أَقامَ الصَّلاةَ ؛ إِمَّا بِلَفْظِ الإِقامَةِ أَوْ بِمَعْنًى يَرْجِعُ إِلَيْها ، قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (١) ، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ (٢) ، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (٣) ، ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ (٤) .

ولَمَّا ذَكَرَ المُصَلِّينَ بِالغَفْلَةِ قالَ : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٥) ، ولَمْ يَقُلْ : فَوَيْلٌ للمُقِيمِينَ الصَّلاة)) .

واعْلَمْ أَنَّ الخُشُوعَ فِي الصَّلاةِ عَلَى ثَلاثِ مَراتِب :

المَرْتَبَةُ الأُولَى : خُشُوعُ خَوْفٍ وانْكِسارٍ وإِذْلال ، وهُوَ للعُبَّادِ والزُّهَّاد .

المَرْتَبَةُ الثَّانِيَة : خُشُوعُ تَعْظِيم وهَيْبَةٍ وإِجْلال ، وهُوَ للمُرِيدِينَ السَّالِكِين .

المَرْتَبَةُ الثَّالِثَة : خُشُوعُ فَرَحٍ وسُرُورٍ وإِقْبال ، وهُوَ للواصِلِينَ مِنَ العارِفِين ، ويُسَمَّى هَذا المَقامُ قُرَّةَ العَيْن .

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٣ .
(٢) سُورَةُ إِبْراهِيم : مِنَ الآيَة ٤٠ .
(٣) سُورَةُ التَّوْبة : مِنَ الآيَة ١٨ .
(٤) سُورَةُ الحَجِّ : مِنَ الآيَة ٣٥ .
(٥) سُورَةُ الماعُون : الآيَتان ٤ ، ٥ .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الصَّلاةَ الَّتي لا يَصْحَبُها خُشُوعٌ ولا حُضُورٌ هِيَ باطِلَةٌ عِنْدَ الصُّوفِيَّة ، غَيْرُ مَقْبُولَةٍ عِنْدَ العُلَماء ، وقالُوا : لَيْسَ للعَبْدِ مِنْ صَلاتِهِ إِلَّا ما حَضَرَ فِيها قَلْبُهُ ؛ فَقَدْ يَكُونُ لَهُ رُبُعُ صَلاتِهِ ، أَوْ نِصْفُها ، بِقَدْرِ ما حَضَرَ فِيها ، ويُعِينُ عَلَى الخُشُوعِ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيا ، وهَذا هُوَ الدَّواءُ الكَبِير ؛ إِذْ مُحالٌ أَنْ تَكُونَ عِنْدَكَ بِنْتُ إِبْلِيسَ ولا يَزُورُها أَبُوها ، فَلا يَتَأَتَّى الخُلُوصُ مِنَ الخَواطِرِ ما دامَتْ فِي القَلْبِ ، وقَلِيلُها هُوَ كَثِيرُها ، فَمَنْ بَقِيَتْ فِيهِ بَقِيَّةٌ مِنْها فَإِنَّهُ تَأْتِيهِ الخَواطِرُ عَلَى حَسَبِها ، فَمُحالٌ أَنْ تَكُونَ شَجَرَةُ الدُّنْيا فِي قَلْبِكَ وتَسْلَمُ مِنَ الخَواطِر .

ومِثالُ ذَلِكَ كَشَجَرَةٍ عِنْدَكَ فِي بُسْتانٍ يَجْتَمِعُ عَلَيْها الطُّيُور ، ويَهُولُونَكَ بِأَصْواتِهِمْ ، فَكُلَّما شَوَّشْتَهُمْ ، رَجَعُوا ، فَلا يَنْقَطِعُونَ عَنْكَ أَبَدًا حَتَّى تَقْطَعَ تِلْكَ الشَّجَرَة ، فَإِذا قَطَعْتَها اسْتَرَحْتَ مِنْ أَصْواتِهِمْ ، فَكَذَلِكَ الدُّنْيا ما دامَتْ فِي اليَدِ وهُوَ مَعْمُورٌ بِها ، لا يَسْلَمُ القَلْبُ مِنَ الخَواطِرِ حَتَّى يَخْرُجَ عَنْها ، وحِينَئِذٍ يَسْتَرِيحُ مِنْ مَساوِيها .

ومِمَّا يُعِينُ أَيْضًا عَلَى الخُشُوع : الإِكْثارُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ بِالقَلْبِ والقالَبِ ، وإِدْمانُ الطَّهارَةِ ؛ لأَنَّ الظَّاهِرَ لَهُ تَعَلُّقٌ بِالباطِنِ ؛ إِذا طَهُرَ هَذا ، طَهُرَ هَذا ، وبِاللهِ التَّوْفِيق .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ رضي الله عنه نَتائِجَ الصَّلاةِ وثَمَراتِها ؛ ومَرْجِعُها إِلَى سِتٍّ ، كُلُّ واحِدةٍ تُوَصِّلُ إِلَى ما بَعْدَها : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ :

فَأَشارَ إِلَى الأَوَّلِ بِقَوْلِهِ :

(الصَّلاةُ مُطَهِّرَةٌ للقُلُوب) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِنَّما كانَتِ الصَّلاةُ طُهْرَةً للقُلُوبِ مِنَ المَساوِئِ والعُيُوبِ لِما فِيها مِنَ الخُضُوعِ والانْكِسارِ والذُّلِّ والافْتِقارِ والتَّذَلُّلِ والاضْطِرارِ ؛ فَإِذا خَضَعَ القَلْبُ لِهَيْبَةِ الجَلالِ طَهُرَ مِنْ سائِرِ العِلَلِ لأَنَّ طَلَبَ العُلُومِ والرِّفْعَةِ هُوَ أَصْلُ العِلَلِ وعُنْصُرُها ، ومِنْ شَأْنِ النَّفْسِ وطَبِيعَتِها طَلَبُ العُلُوِّ والاسْتِكْبارِ والتَّعَزُّزِ والافْتِخارِ لأَنَّها جاءَتْ مِنْ عالَمِ العِزِّ ، فَلا تَرْضَى إِلَّا بِالعِزِّ ، وإِلَى هَذا أَشارَ شَيْخُ شُيُوخِنا المَجْذُوبُ بِقَوْلِهِ :

مِنْ أَيْنَ جِئْتِ يَا ذِي الرُّو ❁ حْ الْهَايْمَا رُوحَانِيَّا

مَقَامُهَا بِسَاطُ الْعِـ ❁ ـزِّ أَحْوَالُهَا رَبَّانِيَّا

فَلَمَّا رَكِبَتْ هَذا القالَبَ الجِسْمانِي ، رَدَّتْها القَهْرِيَّةُ إِلَى العُبُودِيَّة ، وجَعَلَتْها لَها بابًا للوُصُولِ إِلَى حَضْرَةِ الرُّبُوبِيَّة ، فَلا يَطْمَعُ لَها فِي الرُّجُوعِ إِلَى أَصْلِها إِلَّا بِانْكِسارِها وذُلِّها ، ولِذَلِكَ قالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ

الرِّفاعِي رضي الله عنه : ((أَتَيْتُ الأَبْوابَ كُلَّها ، فَوَجَدْتُ عَلَيْها ازْدِحامًا ، فَأَتَيْتُ بابَ الذُّلِّ والانْكِسارِ فَوَجَدْتُهُ خالِيًا ، فَدَخَلْتُ مِنْهُ ، وقُلْتُ : هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ)) .

فَإِذا انْكَسَرَتْ وذَلَّتْ رَجَعَتْ لأَصْلِها ووَصَلَتْ ، وإِذا تَعَزَّزَتْ واسْتَكْبَرَتْ حُجِبَتْ وطُرِدَتْ ، وإِذا طُرِدَتْ بَعُدَتْ ، وكُلَّما بَعُدَتْ عَنِ الحَضْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ اسْتَحْكَمَتْ فِيها الشَّهَواتُ الجِسْمانِيَّةُ والأَخْلاقُ الشَّيْطانِيَّة ، فاتَّصَفَتْ حِينَئِذٍ بِكُلِّ خُلُقٍ دَنِيٍّ ، وبَعُدَتْ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ سَنِيٍّ .

فَإِذا أَرادَ اللّٰهُ تَعالَى أَنْ يَرْحَمَها بِالقُرْبِ مِنْ جَنابِهِ ، والوُقُوفِ بِبابِهِ أَلْهَمَها الصَّلاةَ وحَبَّبَها إِلَيْها ، حَتَّى إِذا تَطَهَّرَتْ مِنَ الذُّنُوبِ ومُحِيَتْ عَنْها المَساوِئُ والعُيُوب ، قَرُبَتْ مِنْ حَضْرَةِ الحَبِيبِ ومُناجاةِ القَرِيبِ ، فَقَرَعَتِ الباب ، وطَلَبَتْ رَفْعَ الحِجاب ، وهَذا مَعْنَى قَوْلِ ابنِ عَطاءِ اللّٰه :

(**واسْتِفْتاحٌ لِبابِ الغُيُوب**) ؛ وهِيَ النَّتِيجَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ نَتائِجِ الصَّلاة .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **المُرادُ بِالغُيُوب** : أَسْرارُ المَلَكُوت ، وأَسْرارُ الجَبَرُوت ، وإِنَّما كانَتِ الصَّلاةُ اسْتِفْتاحًا لِبابِ الغُيُوب ؛ لِما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَطْهِيرِ الظَّاهِرِ والباطِن .

قالَ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ التِّرْمِذِي الحَكِيم رضي الله عنه : ((دَعا اللّٰهُ المُوَحِّدِينَ إِلَى هَذِهِ الصَّلَواتِ الخَمْسِ رَحْمَةً مِنْهُ عَلَيْهِمْ ، وهَيَّأَ لَهُمْ فِيها أَنْواعَ الضِّيافَةِ لِيَنالَ العَبْدُ مِنْ كُلِّ قَوْلٍ وفِعْلٍ شَيْئًا مِنْ عَطاياه ؛ فالأَفْعالُ كالأَطْعِمَةِ ، والأَقْوالُ كالأَشْرِبَةِ ، وهِيَ عَرْشُ المُوَحِّدِين ، هَيَّأَها رَبُّ العالَمِينَ لأَهْلِ رَحْمَتِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ حَتَّى لا يَبْقَى عَلَيْهِمْ دَنَسٌ مِنَ الأَغْيار)) .

فَإِذا تَطَهَّرَ الظَّاهِرُ بِالطَّهارَةِ الحِسِّيَّة ، والباطِنُ بِالطَّهارَةِ المَعْنَوِيَّة ، اسْتَحَقَّ الدُّخُولَ إِلَى الحَضْرَةِ القُدْسِيَّة ، فَأَوَّلُ ما يُتْحَفُ بِهِ قُرْبُهُ إِلَى الباب ، وسَماعُ خِطابِ الأَحْبابِ مِنْ وَراءِ حِجاب ، فَيَتَمَتَّعُ بِمُناجاةِ الأَحْبابِ ولَذِيذِ الخِطاب ، وهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ابنِ عَطاءِ اللّٰه :

(**الصَّلاةُ مَحَلُّ المُناجاة**) ، وهِيَ النَّتِيجَةُ الثَّالِثَة .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **المُناجاةُ** : هِيَ المُسارَّةُ والمُكالَمَةُ مَعَ الأَحْباب ، فَمُناجاةُ العَبْدِ رَبَّهُ بِالتِّلاوَةِ والأَذْكار ، ومُناجاةُ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ بِالتَّفَهُّمِ والفَتْحِ ورَفْعِ الأَسْتار .

وفِي الحَدِيثِ الصَّحِيح : (المُصَلِّي يُناجِي رَبَّهُ) .

وقالَ أَيْضًا ﷺ : (يَقُولُ اللّٰهُ تَعالَى : قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وبَيْنَ عَبْدِي ،

ولِعَبْدِي ما سَأَلَ ، فَإذا قالَ العَبْدُ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، قالَ تَعالَى : حَمِدَنِي عَبْدِي ، فَإذا قالَ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، قالَ اللّٰهُ تَعالَى : مَجَّدَنِي عَبْدِي ، فَإذا قالَ : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ، قالَ اللّٰهُ تَعالَى : فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي ، فَإذا قالَ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، قالَ اللّٰهُ تَعالَى : هَذِهِ بَيْنِي وبَيْنَ عَبْدِي ، فَإذا قالَ : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ، قالَ اللّٰهُ : هَذِهِ لِعَبْدِي ولِعَبْدِي ما سَأَلَ) .

فَلا يَزالُ المُصَلِّي يُناجِي رَبَّهُ ، ويَطْلُبُ قُرْبَهُ ، حَتَّى تَتَمَكَّنَ المَحَبَّةُ مِنَ القَلْبِ ، والإِقْبالُ مِنَ الرَّبِّ ؛ فَتَصْفُوَ مِنْ كَدَرِ الجَفا ، ويَتَّصِلُ المُحِبُّ مَعَ حَبِيبِهِ فِي مَحَلِّ الصَّفا ، وهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ابنِ عَطاءِ اللّٰه :

(ومَعْدِنُ المُصافاة) ؛ وهِيَ النَّتِيجَةُ الرَّابِعَة .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : المَعْدِنُ : هُوَ مَحَلُّ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، اسْتُعِيرَ هُنا لِصَفاءِ القُلُوبِ والأَرْواحِ لِتَصْفِيَتِها مِنْ لَوَثِ صَلْصالِ الأَشْباح ، فالمُصافاةُ خُلُوصُ المُناجاةِ مِنْ تَشْوِيشِ الحِسِّ ، وكَدَرِ الهَواجِسِ ، فَهِيَ أَرَقُّ وأَصْفَى مِنَ المُناجاةِ كَما قالَ ابنُ الفارِض رضي الله عنه :

وَلَقَدْ خَلَوْتُ مَعَ الْحَبِيبِ وَبَيْنَنَا ۞ سِرٌّ أَرَقُّ مِنَ النَّسِيمِ إِذَا سَرَىٰ

وهَذِهِ مُصافاةُ العَبْدِ لِرَبِّهِ ، ومُصافاةُ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ بِالإِقْبالِ عَلَيْهِ حَتَّى لا يَدَعَهُ لِغَيْرِهِ ، وفِي الخَبَرِ : ((إِنَّ العَبْدَ إِذا قامَ إِلَى الصَّلاةِ ، رَفَعَ اللّهُ الحِجابَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ ، ووَاجَهَهُ بِوَجْهِهِ ، وقامَتِ المَلائِكَةُ مِنْ لَدُنْ مَنْكِبَيْهِ إِلَى الهُوِيِّ يُصَلُّونَ بِصَلاتِه)) .

فَإِذا تَمَّتِ التَّصْفِيَةُ ، وعَظُمَتِ المَحَبَّةُ ، وكَثُرَ العَطَشُ ، وظَهَرَ الدَّهَشُ ، اسْتَحَقَّتِ الرُّوحُ رَفْعَ الحِجابِ وفَتْحَ البابِ ، فَتَدْخُلُ إِلَى حَضْرَةِ الأَحْباب ، ويَرْتَفِعُ بَيْنَها وبَيْنَهُمُ الحِجاب ، فَتَخْرُجُ مِنْ ضِيقِ الأَشْباحِ إِلَى فَضاءِ عالَمِ الأَرْواحِ ، أَوْ مِنْ ضِيقِ المُلْكِ إِلَى سَعَةِ عالَمِ المَلَكُوت ، وهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ابنِ عَطاءِ اللّه :

(**تَتَّسِعُ فِيها مَيادِينُ الأَسْرار**) ؛ وهِيَ النَّتِيجَةُ الخامِسَة .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **المَيادِينُ** : جَمْعُ مَيْدان ، وهُوَ مَجالُ الخَيْلِ ، اسْتُعِيرَ هُنا لِفَضاءِ عالَمِ المَلَكُوت .

فَإِذا تَنَزَّهَتِ الرُّوحُ فِي عالَمِ المَلَكُوت ، وجالَتْ بِفِكْرَتِها فِي سَعَةِ أَنْوارِها ، أَشْرَقَتْ عَلَيْها أَنْوارُ سَنا الجَبَرُوت ، وهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ابنِ عَطاءِ اللّه :

(**وتُشْرِقُ فِيها شَوارِقُ الأَنْوار**) ؛ وهِيَ النَّتِيجَةُ السَّادِسَة .

قالَ ابنُ عَجيبَة : أَرادَ **بِالأَسْرارِ** : أَسْرارُ الذَّاتِ وهُوَ لأَهْلِ الفَناء ، **وبِالأَنْوارِ** : أَنْوارُ الصِّفاتِ وهُوَ لأَهْلِ البَقاء .

وأَرادَ الشَّيْخُ بِهَذِهِ الصَّلاةِ (الَّتي تَنْقُلُهُ مِنْ حالٍ إِلَى حالٍ ، ومِنْ مَقامٍ إِلَى مَقام) صَلاةَ أَهْلِ الاعْتِناء ، وهُمْ أَهْلُ السُّلُوكِ عَلَى يَدِ الشُّيُوخ ، لا صَلاةَ أَهْلِ الغَفْلَة ، وصَلاةُ أَهْلِ المُجاهَدَةِ مِنَ العُبَّادِ والزُّهَّادِ ، فَلَيْسَ لَهُمْ هَذا السَّيْر .

قالَ أَبو طالِب : حُدِّثْنا أَنَّ المُؤْمِنَ إِذا تَوَضَّأَ للصَّلاةِ تَباعَدَتْ عَنْهُ الشَّياطِينُ فِي أَقْطارِ الأَرَضِينَ خَوْفًا مِنْهُ لأَنَّهُ تَأَهَّبَ للدُّخُولِ عَلَى المَلِك ، فَإِذا كَبَّرَ حُجِبَ عَنْهُ إِبْلِيسُ وضُرِبَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ بِسُرادِقَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وواجَهَهُ الجَبَّارُ بِوَجْهِهِ ، فَإِذا قالَ : اللهُ أَكْبَر ، اطَّلَعَ المَلَكُ فِي قَلْبِهِ ، فَإِذا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ ، فَيَقُولُ المَلَكُ : صَدَقْتَ ، اللهُ أَكْبَرُ فِي قَلْبِكَ كَما تَقُولُ ، فَيَتَشَعْشَعُ فِي قَلْبِهِ نُورٌ يَلْحَقُ مَلَكُوتَ العَرْش ، فَيَنْكَشِفُ لَهُ بِذَلِكَ مَلَكُوتُ السَّمَواتِ والأَرْضِ ويُكْتَبُ لَهُ حَشْوُ ذَلِكَ النُّورِ حَسَنات .

قالَ : وإِنَّ الغافِلَ الجاهِلَ إِذا قامَ إِلَى الوُضُوءِ احْتَوَشَتْهُ الشَّياطِينُ كَما يَحْتَوِشُ الذُّبابُ عَلَى نُقْطَةِ العَسَلِ ، فَإِذا كَبَّرَ اطَّلَعَ المَلَكُ فِي قَلْبِهِ ،

فَإِذا كُلُّ شَيْءٍ فِي قَلْبِهِ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ عِنْدَهُ ، فَيَقُولُ المَلَكُ : كَذَبْتَ ، لَيْسَ اللهُ فِي قَلْبِكَ كَما تَقُولُ ، فَيَثُورُ مِنْ قَلْبِهِ دُخانٌ يَلْحَقُ بِعَنانِ السَّماءِ فَيَكُونُ حِجابًا لِقَلْبِهِ عَنِ المَلَكُوت ، قالَ : فَيَرُدُّ ذَلِكَ الحِجابُ صَلاتَهُ ، وتَلْتَقِمُ الشَّياطِينُ قَلْبَهُ ، ولا تَزالُ تَنْفُخُ فِيهِ وتَنْفُثُ وتُوَسْوِسُ وتُزَيِّنُ لَهُ حَتَّى يَنْصَرِفَ مِنْ صَلاتِهِ ولا يَعْقِلَ ما فَعَلَ .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ حِكْمَةَ حَصْرِها فِي عَدَدٍ مَعْلُومٍ وهُوَ خَمْسَةٌ ، فَقالَ رضي الله عنه :

(عَلِمَ وُجُودَ الضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أَعْدادَها) :

وهِيَ خَمْسٌ بَعْدَ أَنْ كانَتْ خَمْسِين .

فَمِنْ لُطْفِهِ سُبْحانَهُ بِكَ أَيُّها الإِنْسانُ قَلَّلَ أَعْدادَها مَعَ سَعَةِ الزَّمانِ ؛ فَجَعَلَ عَلَيْكَ صَلاةً فِي أَوَّلِ نَهارِهِ شُكْراً لِما أَظْهَرَهُ لَكَ مِنْ باهِرِ أَنْوارِهِ ، ولِيَكُونَ نُهُوضُكَ إِلَيْهِ فِي أَوَّلِ قِيامِكَ جَبْراً لِما حَصَلَ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي طُولِ مَنامِكَ ، وجَعَلَ عَلَيْكَ صَلاةً فِي وَسَطِ نَهارِهِ إِخْمادًا عَنْكَ لِما أَظْهَرَهُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ مِنْ وَقُودِ نارِهِ ، وجَعَلَ عَلَيْكَ صَلاةً قُرْبَ انْصِرافِ النَّهارِ لِيَكُونَ شاهِدًا لَكَ بِوُجُودِ طاعَتِكَ عِنْدَ المَلِكِ الغَفَّار ، ولِتَشْهَدَ عَلَيْكَ مَلائِكَةُ الرَّحْمٰنِ بِالصَّلاةِ عِنْدَ المَلِكِ الدَّيَّان ،

وأَوْجَبَ عَلَيْكَ صَلاةً فِي أَوَّلِ زَمانِ اللَّيْلِ اسْتِفْتاحًا لِذَلِكَ الزَّمانِ بِوُجُودِ طاعَتِكَ كَما اسْتَفْتَحْتَ أَوَّلَ نَهارِكَ ، واسْتِحْفاظًا لِما يُتَوَقَّعُ مِنْ عَجائِبِ اللَّيْلِ ، ثُمَّ لَمَّا أَرَدْتَ أَنْ تَنامَ عَنْ سَيِّدِكَ ، وتَغْفَلَ عَنْ رَبِّكَ ، وتَتَمَتَّعَ بِفِراشِكَ ، أَمَرَكَ أَنْ تُوَدِّعَهُ بِحُضُورِكَ مَعَهُ ، وأَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِكَ بِهِ وُجُودَ طاعَتِكَ ، فَهَذا كُلُّهُ جَذْبٌ مِنْهُ لَكَ لِحَضْرَتِهِ ، واسْتِخْراجٌ مِنْكَ لِشُكْرِ مِنَّتِهِ .

وحِينَ قَلَّلَ أَعْدادَها لَمَّا عَلِمَ احْتِياجَكَ إِلَى مِنَّتِهِ كَثَّرَ إِمْدادَها ، وإِلَيْهِ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(وعَلِمَ احْتِياجَكَ إِلَى فَضْلِهِ ، فَكَثَّرَ إِمْدادَها) :

المُرادُ بِالإِمْداد : الجَزاءُ الَّذي رُتِّبَ عَلَيْها ، فَجَعَلَ كُلَّ صَلاةٍ بِعَشْرٍ ؛ فَهِيَ خَمْسٌ وهِيَ خَمْسُونَ (خَمْسٌ فِي الحِسِّ ، وخَمْسُونَ فِي المَعْنَى) أَي : الثَّواب .

وإِذا فَعَلْتَ فِي الجَماعَةِ كانَتْ كُلُّ واحِدَةٍ بِخَمْسٍ وعِشْرِينَ ، وكُلُّ دَرَجَةٍ بِعَشْرٍ ، فَكانَ عَدَدُ صَلاةِ الجَماعَةِ مِئَتَيْنِ وخَمْسِينَ فِي صَلاة : ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [1] .

---

(١) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ٢٩ .

وتَتَفاوَتُ الدَّرَجَةُ أَيْضًا بِكَثْرَةِ الجَماعَةِ وكَمالِها ، وبِقَدْرِ الحُضُورِ والخُشُوعِ والغَيْبَةِ ورَفْعِ السُّتُور : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (١) .

وتَتَفاوَتُ أَيْضًا بِقَدْرِ البِقاعِ ؛ كَبَيْتِ اللهِ الحَرام ، والمَسْجِدِ النَّبَوِي ، وبَيْتِ المَقْدِس ، وبِقَدْرِ رُتْبَةِ الإِمام : (مَنْ صَلَّى خَلْفَ مَغْفُورٍ ، غَفَرَ اللهُ لَهُ) .

لَكِنْ لا يَنْبَغِي لَكَ أَيُّها المُرِيدُ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَى هَذا الحَظِّ ، فَإِنَّ فَضْلَ اللهِ كَثِيرٌ لِمَنْ رَفَعَ هِمَّتَهُ إِلَى العَلِيِّ الكَبِير ؛ كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مَتَى طَلَبْتَ عِوَضًا عَنْ عَمَلٍ طُولِبْتَ بِوُجُودِ الصِّدْقِ فِيهِ ، ويَكْفِي المُرِيبَ وِجْدانُ السَّلامَة) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مَتَى صَدَرَ مِنْكَ عَمَلٌ مِنْ أَعْمالِ البِرِّ وطَلَبْتَ الحَقَّ سُبْحانَهُ أَنْ يُجازِيَكَ عَلَيْهِ ، طَلَبَكَ الحَقُّ تَعالَى بِوُجُودِ الصِّدْقِ فِيه ، وهُوَ سِرُّ الإِخْلاصِ ولُبُّهُ الَّذي هُوَ التَّبَرِّي مِنَ الحَوْلِ والقُوَّة ، وانْعِزالُ النَّفْسِ عَنْ رُؤْيَةِ العَمَلِ لَها بِالكُلِّيَّةِ بَعْدَ تَحْقِيقِ الحُضُور ، والسَّلامَةُ

---

(١) سُورَةُ السَّجْدَة : الآيَة ١٧ .

مِنَ الوَساوِسِ والخَواطِرِ والهَواجِسِ حَتَّى تَكُونَ صَلاتُكَ بِاللهِ ولِلّه ، غائِبًا فِيها عَمَّا سِواه ، قَدْ مَلأَتْ قَلْبَكَ عَظَمَةُ اللّه ، فَغِبْتَ فِي اللّهِ بِاللّه ، فَإِنْ تَحَقَّقْتَ فِيكَ هَذِهِ الأُمُور ، صَحَّ لَكَ أَنْ تَطْلُبَ ما رَتَّبَ الحَقُّ سُبْحانَهُ عَلَى العَمَلِ مِنْ أَنْواعِ الجَزاءِ والأُجُور ، وإِنْ لَمْ تَتَحَقَّقْ مِنْ نَفْسِكَ هَذِهِ الأُمُور ، فاعْلَمْ أَنَّ عَمَلَكَ مَدْخُولٌ ، فاسْتَحْيِ مِنَ اللّهِ أَنْ تَطْلُبَ الجَزاءَ عَلَى عَمَلٍ مَدْخُول ، فَيَكْفِيكَ مِنَ الجَزاءِ وحُصُولِ المُطالَبَةِ السَّلامَةُ مِنَ الهَلاكِ والعَطَبِ ، يَكْفِيكَ مِنْ طَلَبِ حُسْنِ نَوالِهِ السَّلامَةُ مِنْ عِقابِهِ ونَكالِهِ ، يَكْفِي المُرِيبَ - وهُوَ المُتَّهَمُ - وِجْدانُ السَّلامَةِ مِنَ العُقُوبَةِ فِيما اتُّهِمَ فِيه ، فَمَنْ كانَ عِنْدَ المَلِكِ مُتَّهَمًا ، وهُوَ مَحْبُوسٌ للعُقُوبَةِ عَلَى ما اتُّهِمَ فِيهِ ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ : إِنَّ المَلِكَ يَمْنَحُكَ ويُعْطِيكَ كَذا وكَذا ، فَيَقُولُ لَهُمْ : يَكْفِينِي فِي العَطاءِ وِجْدانُ السَّلامَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ .

وأَنْتَ أَيُّها الإِنْسانُ طُولِبْتَ بِالأَعْمالِ والإِخْلاصِ فِيها وإِتْقانِها وإِتْمامِ إِقامَتِها ، فَأَتَيْتَ بِطاعَةٍ مَشُوبَةٍ بِالخَواطِرِ والوَساوِس ، وعَلَى تَقْدِيرِ سَلامَتِها مِنْ ذَلِكَ ، فَطَلَبُكَ الجَزاءَ يَقْتَضِي مِنْ عَطائِهِ وُجُودَ السَّلامَةِ مِنْ عِقابِه .

قالَ الواسِطِي رضي الله عنه : ((العِبادَةُ إِلَى طَلَبِ العَفْوِ عَنْها أَقْرَبُ مِنْها إِلَى طَلَبِ الأَعْواض)) .

وقالَ خَيْرٌ النَّسَّاج رضي الله عنه : ((مِيراثُ أَعْمالِكَ ما يَلِيقُ بِأَفْعالِكَ ، فاطْلُبْ مِيراثَ فَضْلِهِ ؛ فَإِنَّهُ أَتَمُّ وأَحْسَن ؛ قالَ اللّهُ تَعالَى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١) .

ومَعْنَى كَلامِهِ رضي الله عنه : أَنَّ جَزاءَ أَعْمالِكَ ما يَلِيقُ بِأَفْعالِكَ النَّاقِصَة ، وجَزاءُ النَّاقِصِ ناقِصٌ ، فاطْلُبْ مِنْهُ ثَمَرَةَ فَضْلِهِ فَإِنَّهُ كامِلٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، فَهُوَ أَتَمُّ وأَكْمَل .

وكَيْفَ تَطْلُبُ الجَزاءَ عَلَى عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فاعِلًا ، ولا عَلِمْتَ كَوْنَ القَبُولِ لَهُ حاصِلًا ، كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(لا تَطْلُبْ عِوَضًا عَلَى عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فاعِلًا ، يَكْفِي مِنَ الجَزاءِ لَكَ عَلَى العَمَلِ أَنْ كانَ لَهُ قابِلًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَ أَهْلِ الحَقِّ أَنَّ العَبْدَ مَجْبُورٌ فِي قالَبٍ مُخْتار ، فَلَيْسَ لَهُ فِعْلٌ ولا اخْتِيار ، وإِنَّما الفاعِلُ هُوَ الواحِدُ القَهَّار ، قالَ تَعالَى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (٢) ، وقالَ تَعالَى : ﴿وَٱللَّهُ

---

(١) سُورَةُ يُونُس : الآيَة ٥٨ .

(٢) سُورَةُ القَصَص : مِنَ الآيَة ٦٨ .

خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [1] ، وقالَ تعالَى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [2] .

وقالَ ﷺ : (كُلُّ شَيْءٍ بِقَضاءٍ وقَدَرٍ حَتَّى العَجْزُ والكَيْسُ) أَي : النَّشاط .

وقالَ ﷺ : (كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ ، فَأَمَّا مَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ السَّعادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعادَة ، وأَمَّا مَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقاوَة) ، ثُمَّ قَرَأَ ﷺ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [3] .

فَإِذا تَقَرَّرَ هَذا ، فَكَيْفَ يَطْلُبُ العَبْدُ الأَجْرَ عَلَى عَمَلٍ لَيْسَ هُوَ فاعِلَهُ ، وعَلَى تَقْدِيرِ نِسْبَتِهِ إِلَيْهِ ، فالجَزاءُ مُتَوَقِّفٌ عَلَى القَبُول ، فَمِنْ أَيْنَ تَدْرِي هَلْ يَكُونُ مَقْبُولًا أَمْ لا ؟ وإِذا تَفَضَّلَ عَلَيْكَ بِالقَبُولِ عَلَى ما هُوَ عَلَيْهِ مِنَ النَّقْصِ والخَلَلِ ؛ فَهَذا يَكْفِيكَ فِي جَزائِكَ عَلَى العَمَلِ ، فَلَوْلا جَمِيلُ سِتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلُكَ أَهْلًا للقَبُول ، فَلَوْلا أَنَّ اللّٰهَ سُبْحانَهُ تَفَضَّلَ عَلَى عِبادِهِ بِالعَفْوِ والحِلْمِ ، ما قَبِلَ عَمَلًا قَطُّ ؛ إِذْ تَصْفِيَةُ الأَعْمالِ كادَتْ تَكُونُ مِنَ المُحال : قالَ اللّٰهُ تَعالَى : ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [4] ؛ أَيْ : عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِه .

---

(١) سُورَةُ الصَّافَّات : الآيَة ٩٦ .
(٢) سُورَةُ التَّكْوير : الآيَة ٢٩ .
(٣) سُورَةُ اللَّيْل : الآيَة ٥ .
(٤) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٦٧ .

وقالَ تَعالَى : ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [1] ؛ أَيْ : لَمْ يَقْضِ الإِنْسانُ ما أَمَرَهُ سَيِّدُهُ عَلَى الوَجْهِ الَّذي أَمَرَهُ بِهِ .

وانْظُرْ قَوْلَهُ تَعالَى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [2] .

ولَمْ يَقُلِ الحَقُّ تَعالَى : نَتَقَبَّلُ مِنْهُمْ ؛ لأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّهُ كامِلٌ ، بَلْ عَدَّاهُ بـ (عَن) المُفِيدَةِ للتَّجاوُز ؛ كَأَنَّهُ قالَ : أُولَئِكَ الَّذينَ نَتَجاوَزُ عَنْهُمْ فِي أَحْسَنِ ما عَمِلُوا ، فَنَتَقَبَّلُها مِنْهُمْ ، ولَوْ لَمْ يَتَجاوَزْ عَنْهُمْ فِيها ما تُقُبِّلَتْ مِنْهُمْ ، ولَكِنَّ الكَرِيمَ لا يَنْتَقِدُ بَلْ يَقْبَلُ ما يُعْطاهُ لِعَظِيم كَرَمِهِ وغِناهُ . فالحَمْدُ دائِمًا للهِ حَيْثُ خَلَقَ فِيهِ العَمَل ، وأَعْطانا عَلَيْهِ غايَةَ المُنَى والأَمَل ، كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(إِذا أَرادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ ، خَلَقَ فِيكَ ، ونَسَبَ إِلَيْكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الحَقُّ تَعالَى فاعِلٌ بِالمَشِيئَةِ والاخْتِيار : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [3] ؛ أَيْ : لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ حَقِيقَةً ، وهُمْ يُسْأَلُونَ شَرِيعَةً .

تَقْسِيمُ العِباد

ثُمَّ إِنَّ الحَقَّ - سُبْحانَهُ وتَعالَى - قَسَّمَ عِبادَهُ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام :

---

(١) سُورَةُ عَبَس : الآيَة ٢٣ .

(٢) سُورَةُ الأَحْقاف : مِنَ الآيَة ١٦ .

(٣) سُورَةُ الأَنْبِياء : الآيَة ٢٣ .

قِسْمٌ أَعَدَّهُمْ للانْتِقام : فَأَظْهَرَ فِيهِ اسْمَهُ المُنْتَقِمَ واسْمَهُ القَهَّار ، أَجْرَى عَلَيْهِمْ صُورَةَ العِصْيانِ بِحِكْمَتِهِ ، ونَسَبَها إِلَيْهِمْ بِعَدْلِهِ وقَهْرِهِ : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (١) ، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ (٢) .

فَقامَتِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِاعْتِبارِ النِّسْبَةِ وإِظْهارِ الحِكْمَةِ :

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (٣) ، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤) .

وقِسْمٌ أَعَدَّهُمُ اللهُ للحِلْم : لِيُظْهِرَ فِيهِ اسْمَهُ الحَلِيمَ واسْمَهُ الرَّحِيمَ ، أَجْرَى عَلَيْهِمُ العِصْيان ، وحَلَّاهُمْ بِالإيمان ، فاسْتَحَقُّوا العُقُوبَةَ عَلَى العِصْيان ، ثُمَّ إِنَّ الحَقَّ تَعالَى حَلُمَ عَلَيْهِمْ ، وعَفا عَنْهُمْ ، وأَدْخَلَهُمُ الجِنان .

وقِسْمٌ أَعَدَّهُمُ اللهُ للكَرَم : لِيُظْهِرَ فِيهِ اسْمَهُ الكَرِيمَ واسْمَهُ الرَّحِيمَ ، خَلَقَ فِيهِمُ الطَّاعَةَ والإِحْسان ، وحَلَّاهُمْ بِالإِسْلام والإِيمان ، ورُبَّما زادَهُمُ التَّحَلِّي بِالإِحْسان ، فَأَدْخَلَهُمْ فَسِيحَ الجِنان ، ومَتَّعَهُمْ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الرَّحْمٰن ، فَإِذا أَرادَ اللهُ تَعالَى أَنْ يُلْحِقَكَ بِهَؤُلاءِ السَّادات ،

---

(١) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ١١٢ .
(٢) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ١٠٧ .
(٣) سُورَةُ فُصِّلَت : مِنَ الآيَة ٤٦ .
(٤) سُورَةُ النَّحْل : مِنَ الآيَة ١١٨ .

هَيَّأَكَ لأَنْواعِ الطَّاعات ، وخَلَقَ فِيكَ القُوَّةَ عَلَى فِعْلِ الخَيْرات ، ثُمَّ نَسَبَ إِلَيْكَ ذَلِكَ الفِعْلَ فَقالَ : يا عَبْدِي ! فَعَلْتَ كَذا وكَذا مِنَ الخَيْرِ فَأَنا أُجازِيكَ عَلَيْه ، ادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ، وتَرَقَّ إِلَى مَقامِكَ بِعَمَلِكَ ، فَمَقامُكَ حَيْثُ انْتَهَى عَمَلُكَ ، قالَ تَعالَى : ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (١) .

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢) .

ثُمَّ يَنْبَغِي لَكَ أَيُّها الإِنْسانُ أَنْ تَتَأَدَّبَ مَعَ المَلِكِ الدَّيَّان ، فَلا تَنْسِبْ إِلَيْهِ النَّقْصَ والعِصْيان ، وإِنَّما أَغْوَتْكَ نَفْسُكَ والشَّيْطان ، قالَ تَعالَى : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ (٣) ؛ أَي : الشَّيْطان ، فَما كانَ مِنَ الكَمالِ فانْسِبْهُ إِلَى الكَبِيرِ المُتَعال ، وما كانَ مِنَ النُّقْصانِ فامْسَحْهُ فِي مِنْدِيلِ النَّفْسِ والشَّيْطان .

قالَ سَهْلُ بنُ عَبْدِالله رضي الله عنه : ((إِذا عَمِلَ العَبْدُ حَسَنَةً ، وقالَ : يا رَبِّ بِفَضْلِكَ عَمِلْتُ وأَنْتَ أَعَنْتَ وأَنْتَ سَهَّلْتَ ، شَكَرَ اللهُ ذَلِكَ لَهُ ، وقالَ :

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : الآيَتان ٢٠ ، ٢١ .
(٢) سُورَةُ النَّحْل : مِنَ الآيَة ٣٢ .
(٣) سُورَةُ لُقْمان : مِنَ الآيَة ٣٣ .

يا عَبْدِي بَلْ أَنْتَ أَطَعْتَ وأَنْتَ تَقَرَّبْتَ .

وإذا نَظَرَ إِلَى نَفْسِهِ وقالَ : أَنا عَمِلْتُ ، وأَنا أَطَعْتُ ، وأَنا تَقَرَّبْتُ ، أَعْرَضَ اللّٰهُ عَنْهُ ، وقالَ لَهُ : يا عَبْدِي ! أَنا وَفَّقْتُ ، وأَنا أَعَنْتُ ، وأَنا سَهَّلْتُ .

وإذا عَمِلَ سَيِّئَةً وقالَ : يا رَبِّ ! أَنْتَ قَدَّرْتَ وأَنْتَ قَضَيْتَ وأَنْتَ حَكَمْتَ ، غَضِبَ المَوْلَى - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - عَلَيْهِ وقالَ : يا عَبْدِي ! بَلْ أَنْتَ أَسَأْتَ وأَنْتَ جَهِلْتَ وأَنْتَ عَصَيْتَ .

وإذا قالَ : يا رَبِّ ! أَنا ظَلَمْتُ وأَنا أَسَأْتُ وأَنا جَهِلْتُ ، أَقْبَلَ المَوْلَى - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - عَلَيْهِ وقالَ : يا عَبْدِي ! أَنا قَضَيْتُ وأَنا قَدَّرْتُ وقَدْ غَفَرْتُ وقَدْ حَلُمْتُ وقَدْ سَتَرْتُ .

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ النِّسْبَةَ الَّتي نَسَبَ اللّٰهُ لِعَبْدِهِ بِما خَلَقَ فِيهِ بِها يَسْتَحِقُّ المَدْحَ والذَّمَّ ، فَإِذا خَلَقَ فِيهِ الطَّاعَةَ ونَسَبَها إِلَيْهِ اسْتَحَقَّ المَدْحَ بِلِسانِ الشَّرْعِ ، وإِذا أَجْرَى عَلَيْهِ المَعْصِيَةَ وقَضاها عَلَيْهِ اسْتَحَقَّ الذَّمَّ بِلِسانِ الشَّرْعِ أَيْضًا ، كَما أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(لا نِهايَةَ لِمَذامِّكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ ، ولا تَفْرُغُ مَدائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِذا أَرادَ اللّٰهُ إِهانَةَ عَبْدٍ وإِذْلالَهُ ، رَدَّهُ إِلَى نَفْسِهِ

وهَواه ، فَأُحِيلَ عَلَيْها ووُكِلَ إلَيْها ، فَيُوَلِّيهِ ما تَوَلَّى ، فَإذا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الهَوَى أَعْماهُ وأَصَمَّهُ ، وفِي مَهاوِي الرَّدَى أَسْقَطَهُ ، كَما قالَ الشَّاعِر :

تَـرْكُكَ نَفْسَكَ وَهَـوَاهَـا ❁ سَعْـيٌ لَـهَا فِـي رَدَاهَـا

فالهَوَى مُخْتَصَرٌ مِنَ الهَوان ، ومُوجِبٌ لَهُ كَما قالَ البُرَعِي رَحِمَهُ اللّه :

لا تَتْبَعِ النَّفْسَ فِي هَوَاهَا ❁ إنَّ اتِّبَـاعَ الْهَـوَىٰ هَـوَانُ

وإذا أَرادَ اللّهُ إعْزازَ عَبْدٍ وعِنايَتَهُ ، أَظْهَرَ عَلَيْهِ جُودَهُ وكَرَمَهُ ، فَتَوَلَّاهُ وحَفِظَهُ ، ولَمْ يَتْرُكْهُ مَعَ نَفْسِهِ وهَواهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ ولا أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ ، فَلا نِهايَةَ لِمَذامِّكَ أَيُّها الإنْسانُ إنْ رَدَّكَ إلَى نَفْسِكَ ، وحَكَّمَها فِيكَ ، وتَرَكَكَ مَعَ هَواكَ ؛ لأَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَلامَةِ الإهْمال ، وسُقُوطِكَ مِنْ عَيْنِ الكَبِيرِ المُتَعال ، والعِياذُ بِاللّهِ مِنْ كُلِّ خُسْرٍ ووَبال ، ولا تَفْرُغُ مَدائِحُكَ إنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ ، فَتَوَلَّاكَ بِحِفْظِهِ ورَعاكَ بِعِنايَتِهِ ، وحَجَزَكَ عَنْ نَفْسِكَ ، وحالَ بَيْنَكَ وبَيْنَ تَدْبِيرِكَ وحَدْسِكَ .

ومِنْ دُعائِهِ ﷺ : (إنْ تَكِلْنِي إلَى نَفْسِي ، تَكِلْنِي إلَى ضَعْفٍ وعَوْرَةٍ وذَنْبٍ وخَطِيئَةٍ ، وإنِّي لا أَثِقُ إلَّا بِرَحْمَتِكَ) .

والحاصِلُ : أَنَّكَ إنْ كُنْتَ بِرَبِّكَ تَكَمَّلَ عِزُّكَ ولا يَتَناهَى مَدْحُكَ ، وإنْ كُنْتَ بِنَفْسِكَ تَكامَلَ ذُلُّكَ ولا يَتَناهَى ذَمُّكَ .

أَوْ تَقُولُ : مَنْ أَهْمَلَهُ اللهُ وتَرَكَهُ مَعَ نَفْسِهِ وهَواهُ لا نِهايَةَ لِمَذامِّهِ وقَبائِحِهِ ؛ فَإِنَّ للنَّفْسِ مِنَ النَّقائِصِ ما للهِ مِنَ الكَمالات ، ومَنْ تَوَلَّاهُ اللهُ وأَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْهِ ولَمْ يَتْرُكْهُ مَعَ نَفْسِهِ وأَزْعَجَهُ عَنْ حَظِّهِ وحالَ بَيْنَهُ وبَيْنَ هَواهُ فَلا نِهايَةَ لِمَدائِحِهِ ؛ إِذْ كَمالاتُ اللهِ لا نِهايَةَ لَها ، وما هُنا إِلَّا مَظاهِرُهُ ، فَكَما لا نِهايَةَ لِجَلالِهِ ، كَذَلِكَ لا نِهايَةَ لِجَمالِهِ .

التَّعَلُّقُ بِأَوْصافِ الرُّبُوبِيَّة ، والتَّخَلُّقُ بِأَوْصافِ العُبُودِيَّة

فَإِذا أَرَدْتَ أَنْ يَظْهَرَ جُودُهُ عَلَيْكَ ، وتُبْسَطَ مَواهِبُهُ لَدَيْكَ ، فَتَحَقَّقْ بِوَصْفِكَ ، وتَعَلَّقْ بِوَصْفِهِ كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(كُنْ بِأَوْصافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقًا ، وبِأَوْصافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : أَوْصافُ الرُّبُوبِيَّة : هِيَ العِزُّ والكِبْرِياءُ والعَظَمَةُ والغِنَى والقُدْرَةُ والعِلْمُ ، وغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَوْصافِ الكَمالاتِ الَّتي لا نِهايَةَ لَها ، وأَوْصافُ العُبُودِيَّةِ هِيَ الذُّلُّ والفَقْرُ والعَجْزُ والضَّعْفُ والجَهْلُ ، وغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يُناسِبُ العبُودِيَّةَ مِنَ النَّقائِص .

كَيْفِيَّةُ التَّعَلُّقِ بِأَوْصافِ الحَقِّ : هُوَ أَنْ تَلْتَجِئَ فِي أُمُورِكَ إِلَيْهِ ، وتَعْتَمِدَ فِي حَوائِجِكَ عَلَيْهِ ، وتَرْفُضَ كُلَّ ما سِواه ، ولا تَرَى فِي الوُجُودِ إِلَّا إِيَّاه .

فَإِذا نَظَرْتَ إِلَى عِزِّهِ وكِبْرِيائِهِ وعَظَمَتِهِ تَعَزَّزْتَ بِهِ ولَمْ تُعَزَّزْ بِغَيْرِهِ ،

وصَغُرَ فِي عَيْنَيْكَ دُونَهُ كُلُّ شَيْء ، وإذا نَظَرْتَ إِلَى وَصْفِهِ تَعالَى بِالغِنَى تَعَلَّقْتَ بِغِناه ، واسْتَغْنَيْتَ عَمَّا سِواه ، ولَمْ تَفْتَقِرْ إِلَى شَيْءٍ ، واسْتَغْنَيْتَ بِهِ عَنْ كُلِّ شَيْء .

وإذا نَظَرْتَ إِلَى وَصْفِهِ تَعالَى بِالقُدْرَةِ والقُوَّةِ لَمْ تَلْتَجِئْ فِي حالِ عَجْزِكَ وضَعْفِكَ إِلَّا إِلَى قُدْرَتِهِ وقُوَّتِهِ ، واسْتَضْعَفْتَ كُلَّ شَيْء .

وإذا نَظَرْتَ إِلَى سَعَةِ عِلْمِهِ وإحاطَتِهِ ، اكْتَفَيْتَ بِعِلْمِهِ ، واسْتَغْنَيْتَ عَنْ طَلَبِهِ ، وقُلْتَ بِلِسانِ الحال : ((عِلْمُهُ بِحالِي يُغْنِي عَنْ سُؤَالِي)) .

وهَكَذا فِي جَمِيعِ الأَوْصافِ والأَسْماءِ ، فَكُلُّها يَصْلُحُ للتَّعَلُّقِ والتَّخَلُّقِ والتَّحَقُّق .

كَيْفِيَّةُ التَّخَلُّقِ بِأَوْصافِهِ تَعالَى : أَنْ تَكُونَ فِي باطِنِكَ عَزِيزًا ، قَوِيًّا بِهِ عَظِيمًا كَبِيرًا عِنْدَهُ ، قَوِيًّا فِي دِينِهِ وفِي مَعْرِفَتِهِ ، عالِمًا بِهِ وبِأَحْكامِهِ ، وهَكَذا .

وحاصِلُها : اسْتِعْمالُ الحُرِّيَّةِ فِي الباطِن ، والعُبُودِيَّةِ فِي الظَّاهِر .

كَيْفِيَّةُ التَّحَقُّقِ بِأَسْماءِ اللهِ تَعالَى : أَنْ تَكُونَ تِلْكَ المَعانِي فِيكَ راسِخَةً مُتَمَكِّنَةً مُتَحَقِّقًا فِيكَ وُجُودُها ، فالتَّخَلُّقُ مُجاهَدَةٌ ، والتَّحَقُّقُ مُشاهَدَةٌ ؛ أَيْ : يَكُونُ وُجُودُها غَرِيزِيًّا .

كَيْفِيَّةُ التَّخَلُّقِ بِأَوْصافِ العُبُودِيَّة : هُوَ التَّحَقُّقُ بِالذُّلِّ فِي الظَّاهِرِ حَتَّى يَصِيرَ الذُّلُّ عِنْدَكَ حِرْفَةً وطَبِيعَةً لا تَأْنَفُ مِنْهُ ، بَلْ تَسْتَحْلِيهِ وتَغْتَبِطُ بِهِ ، وكَذَلِكَ الفَقْرُ والضَّعْفُ والجَهْلُ ، وسائِرُ أَوْصافِ العُبُودِيَّةِ تَتَحَقَّقُ بِوُجُودِها فِي ظاهِرِكَ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ شَرَفًا عِنْدَكَ .

وكانَ شَيْخُ شُيُوخِنا سَيِّدِي عَلِيٌّ رضي الله عنه يَقُولُ : ((أَهْلُ الظَّاهِرِ يَتَنافَسُونَ فِي العُلُوِّ أَيُّهُمْ يَكُونُ أَعْلَى مِنَ الآخَر ، وأَهْلُ الباطِنِ يَتَنافَسُونَ فِي الحُنُوِّ أَيُّهُمْ يَكُونُ أَحْنَى مِنَ الآخَر)) .

وقالَ الشَّيْخُ زَرُّوق رضي الله عنه : ((أَوْصافُ الرُّبُوبِيَّةِ أَرْبَعَةٌ ، تُقابِلُها أَرْبَعَةٌ هِيَ أَوْصافُ العُبُودِيَّة : **أَوَّلُها** : الغِنَى ، ويُقابِلُهُ الفَقْرُ ، **الثَّانِي** : العِزُّ ، ويُقابِلُهُ الذُّلُّ ، **الثَّالِثُ** : القُدْرَةُ ، ويُقابِلُها العَجْزُ ، **الرَّابِعُ** : القُوَّةُ ، ويُقابِلُها الضَّعْفُ ، وكُلُّ هَذِهِ مُتَلازِمَةٌ ؛ إِنْ وُجِدَ واحِدُها وُجِدَ جَمِيعُها ، ووُجُودُ المُقابِلِ مَلْزُومٌ بِوُجُودِ مُقابِلِهِ .

فَمَنِ اسْتَغْنَى بِاللهِ افْتَقَرَ إِلَيْهِ ، ومَنِ افْتَقَرَ إِلَى اللهِ اسْتَغْنَى بِهِ ، ومَنْ تَعَزَّزَ بِاللهِ ذَلَّ لَهُ ، ومَنْ ذَلَّ لَهُ تَعَزَّزَ بِهِ ، ومَنْ شاهَدَ قُدْرَتَهُ رَأَى عَجْزَ نَفْسِهِ ، ومَنْ رَأَى عَجْزَ نَفْسِهِ شاهَدَ قُدْرَةَ مَوْلاه ، ومَنْ نَظَرَ ضَعْفَ نَفْسِهِ رَأَى قُوَّةَ مَوْلاه ، ومَنْ رَأَى قُوَّتَهُ عَلِمَ ضَعْفَ نَفْسِهِ ، لَكِنْ إِن كانَ

البِساطُ النَّظَرَ لأَوْصافِكَ فَأَنْتَ الفَقِيرُ إِلَى اللهِ ، وإِنْ كانَ البِساطُ النَّظَرَ إِلَى أَوْصافِهِ فَأَنْتَ الغَنِيُّ بِاللهِ ، وهُما يَتعاقَبانِ عَلَى العارِف ؛ فَتارَةً يَغْلِبُ عَلَيْهِ الغِنَى بِاللهِ فَتَظْهَرُ عَلَيْهِ آثارُ العِنايَة ، وتارَةً يَظْهَرُ عَلَيْهِ آثارُ الفَقْرِ إِلَى اللهِ فَيَلْتَزِمُ الرِّعايَة ، فَحِينَ غَلَبَ الغِنَى بِاللهِ عَلَى حَبِيبِ اللهِ أَطْعَمَ أَلْفًا مِنْ صاع ، وحِينَ غَلَبَ عَلَيْهِ الفَقْرُ إِلَى اللهِ شَدَّ الحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الجُوع ، فافْهَمْ)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : والتَّحْقِيقُ ما قَدَّمْناهُ مِنْ أَنَّ التَّعَلُّقَ بِأَوْصافِ الرُّبُوبِيَّةِ يَكُونُ فِي الباطِن ، والتَّحَقُّقَ بِأَوْصافِ العُبُودِيَّةِ يَكُونُ فِي الظَّاهِر ؛ فالحُرِّيَّةُ فِي الباطِنِ عَلَى الدَّوام ، والعُبُودِيَّةُ فِي الظَّاهِرِ عَلَى الدَّوام ؛ فَحُرِّيَّةُ الباطِنِ هِيَ شُهُودُ أَوْصافِ الرُّبُوبِيَّة ، وهُوَ مَعْنَى التَّعَلُّقِ بِها ، لَكِنْ إِنْ كانَ مُجاهَدَةً فَهُوَ تَعَلُّقٌ ، وإِنْ كانَ طَبِيعَةً وغَرِيزَةً فَهُوَ تَحَقُّقٌ .

أَوْ تَقُولُ : إِنْ كانَ حالًا فَهُوَ تَعَلُّقٌ ، وإِنْ كانَ مَقامًا فَهُوَ تَحَقُّقٌ ، وعَبْدِيَّةُ الظَّاهِرِ هِيَ شُهُودُ أَوْصافِ العُبُودِيَّةِ قِيامًا بِالحِكْمَةِ وسَتْراً للقُدْرَةِ .

والحاصِلُ : أَنَّ عَظَمَةَ الرُّبُوبِيَّةِ ظَهَرَتْ فِي مَظاهِرِ العُبُودِيَّة ، فَمَنْ نَظَرَ للعَظَمَةِ صِرْفًا تَحَقَّقَ بِعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّة ، ومَنْ نَظَرَ لِظاهِرِ المَظْهَرِ تَحَقَّقَ بِأَوْصافِ العُبُودِيَّة ، والكامِلُ يَنْظُرُ لَهُما مَعًا ، فَيَتَحَقَّقُ بِعَظَمَةِ

الرُّبُوبِيَّةِ فِي الباطِن ، ويَتَحَقَّقُ بِأَوْصافِ العُبُودِيَّةِ فِي الظَّاهِر ، فَيُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فالجَمِيعُ فِي باطِنِهِ مَشْهُود ، والفَرْقُ فِي ظاهِرِهِ مَوْجُود .

فَإِنْ أَظْهَرَ أَوْصافَ الرُّبُوبِيَّة ، فَقَدْ تَعَدَّى طَوْرَهُ وجَهِلَ قَدْرَهُ ، فَلا بُدَّ أَنْ تُؤَدِّبَهُ القُدْرَة ، وإِلَى ذَلِكَ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ ما لَيْسَ لَكَ مِمَّا هُوَ للمَخْلُوقِين ، أَفَيُبِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وهُوَ رَبُّ العالَمِين ؟ !) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الحَقُّ تَعالَى غَيُورٌ ، فَلا يُحِلُّ لِعَبْدِهِ أَنْ يُفْشِيَ سِرَّ خُصُوصِيَّتِهِ ، ولا يَرْضَى لِعَبْدِهِ أَنْ يُشارِكَهُ فِي أَوْصافِ رُبُوبِيَّتِهِ ؛ فَمِنْ غَيْرَتِهِ تَعالَى أَنْ سَتَرَ سِرَّ الخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ وَصْفِ البَشَرِيَّة ، ولَوْلا ذَلِكَ لَكانَ سِرُّ الرُّبُوبِيَّةِ مُبْتَذَلًا ظاهِراً ، وذَلِكَ مُناقِضٌ لِحِكْمَتِهِ ، وكَيْفَ وهُوَ يَقُولُ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١) .

ومِنْ غَيْرَتِهِ تَعالَى أَنِ اخْتُصَّ بِأَوْصافِ الرُّبُوبِيَّةِ ونَهانا عَنْ إِظْهارِها والتَّحَلِّي بِها حالًا أَوْ مَقالًا ؛ وذَلِكَ كاتِّصافِ العَبْدِ بِالعِزِّ والعَظَمَةِ والكِبْرِ ، وطَلَبِ الرِّياسَةِ والعُلُوِّ ، أَوِ ادِّعاءِ ذَلِكَ بِالمَقال ، فَإِنْ فَعَلَ

---

(١) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ٨٣ .

شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ اسْتَحَقَّ مِنَ اللهِ الطَّرْدَ والنَّكال ، فَفِي الحَدِيثِ القُدْسِيِّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : (يَقُولُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى : الكِبْرِياءُ رِدائِي والعَظَمَةُ إزارِي ، فَمَنْ نازَعَنِي واحِداً مِنْهُما ، قَصَمْتُهُ) .

وقالَ أَيْضًا ﷺ : (لا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وما بَطَنَ) .

وفِي ((البُخارِي)) فِي قِصَّةِ سَيِّدِنا مُوسَىٰ عليه السلام :

(أَنَّهُ خَطَبَ عَلَى النَّاسِ خُطْبَةً ذَرَفَتْ مِنْها العُيُونُ ، فَقامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ ، فَقالَ لَهُ : هَلْ تَعْلَمُ أَحَداً أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ فَقالَ : لا ، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ ، فَقالَ لَهُ : بَلَى عَبْدُنا خَضِرٌ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ ، فَكانَ مِنْ شَأْنِهِما ما قَصَّ اللهُ فِي كِتابِهِ) .

فانْظُرْ كَيْفَ أَدَّبَهُ بِطَلَبِ غَيْرِهِ ، حَتَّى صارَ تِلْمِيذاً لَهُ يَأْمُرُهُ وَيَنْهاهُ بِقُوَّةِ وُصُولِهِ مَعَ عِظَمِ قَدْرِهِ وجَلالَةِ مَنْصِبِهِ ، وما ذَلِكَ إِلَّا لإِظْهارِ شَيْءٍ مِنَ الحُرِّيَّةِ ، فَكُلُّ مَنْ أَظْهَرَ الحُرِّيَّةَ رَدَّهُ إِلَى العُبُودِيَّةِ بِالقَهْرِيَّةِ ، وكُلُّ مَنْ أَظْهَرَ العُبُودِيَّةَ حَقَّقَ لَهُ فِي باطِنِهِ الحُرِّيَّةَ ومَلَّكَهُ الكَوْنَ بِالكُلِّيَّةِ ، فَمَنْ تَواضَعَ دُونَ قَدْرِهِ ، رَفَعَهُ اللهُ فَوْقَ قَدْرِهِ .

ومِنْ غَيْرَتِهِ تَعالَى أَيْضًا أَنْ حَرَّمَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وما بَطَنَ ،

والفَواحِشُ : كُلُّ ما فَحُشَ قُبْحُه وعَظُمَ جُرْمُهُ ؛ كالزِّنا والغَصْبِ والسَّرِقَةِ والتَّعَدِّي وأَكْلِ أَمْوالِ اليَتامَى ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ العِباد .

فَإِذا كانَ قَدْ مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ ما لَيْسَ لَكَ مِمَّا هُوَ للمَخْلُوقِينَ مِنَ الغَرَضِ الفانِي ، فَكَيْفَ يُبِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهُ مِنَ العِزَّةِ والكِبْرِياء ، وهُوَ رَبُّ العالَمِين ؟!

فَإِذا ادَّعَيْتَ ما لَيْسَ لَكَ سَلَبَكَ ما مَلَّكَكَ ، وإِذا تَحَقَّقْتَ بِوَصْفِكَ ، وسَلَّمْتَ لَهُ وَصْفَهُ مَنَحَكَ ما لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وآتاكَ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العالَمِين ، فَكُلَّما نَزَلْتَ بِنَفْسِكَ أَرْضًا أَرْضًا سَما قَلْبُكَ سَماءً سَماءً .

تَنْبِيه : اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ ، ووَفَّقَكَ للتَّسْلِيمِ لأَوْلِيائِهِ - أَنَّ الحُرِّيَّةَ إِذا تَحَقَّقَتْ فِي الباطِنِ لا بُدَّ مِنْ رَشَحاتٍ تَظْهَرُ عَلَى الظَّاهِر :

❁ فَكُلُّ إِناءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَرْشَحُ ❁

وصاحِبُ الكَنْزِ لا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ السُّرُور ، وصاحِبُ الغِنَىٰ لا يَخْلُو مِنْ بَهْجَةٍ وحُبُور ؛ كَما قالَ الشَّاعِر :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ❁ وَإِنْ خَالَها تَخْفَىٰ عَلَى النَّاسِ تُعْلَم

ولِذَلِكَ نَجِدُ أَهْلَ الباطِنِ ﷺ جُلُّهُمْ أَقْوِياءَ فِي الظَّاهِر ، فَرُبَّما تَصْدُرُ مِنْهُمْ مَقالاتٌ تَسْتَخْرِجُها القُدْرَةُ مِنْهُمْ ، فَيَظُنُّ الجاهِلُ بِحالِهِمْ أَنَّ

ذَلِكَ دَعْوَى وظُهُور ، ولَيْسَ كَذَلِك ، وإنَّما ذَلِكَ رَشَحاتٌ مِنْ قُوَّةِ الباطِن ، لا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى إمْساكِها ، مِنْها ما يَكُونُ تَحَدُّثًا بِالنِّعَم ، ومِنْها ما يَكُونُ نُصْحًا للعِباد ؛ لِيَعْرِفُوا حالَهُمْ ، فَيَنْتَفِعُوا بِهِمْ فِي طَرِيقِ الإرْشاد ، ومِنْ هَذا الأَمْرِ رَفَضَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الظَّاهِرِ والمُتَعَمِّقُونَ فِي العِبادَةِ أَوِ المُتَجَمِّدُونَ عَلَى ظاهِرِ الشَّرِيعَةِ أَوْ مَنْ لَمْ تَطُلْ صُحْبَتُهُ مَعَهُمْ فِي الطَّرِيقَةِ وإنْ كانَ كامِلًا .

وسِرُّ هَذِهِ القُوَّةِ الَّتي ظَهَرَتْ فِي العارِفِينَ هُوَ مِنْ جِهَةِ الرُّوح ؛ وذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ جاءَتْ مِنْ عالَمِ العِزِّ والقُوَّةِ ، فَلَمَّا رُكِّبَتْ فِي هَذا البَدَنِ حُجِبَتْ وقُهِرَتْ ، فَأَرادَتِ الرُّجُوعَ إِلَى أَصْلِها ، فَطَلَبَتْهُ بِالعِزِّ الأَصْلِيِّ والقُوَّةِ الأَصْلِيَّة ، فَمُنِعَتْ مِنْهُ وأَتَتْ مِنْ كُوَّةِ الذُّلِّ والافْتِقار ، وخَرَقَتْ عَوائِدَ نَفْسِها ، فانْخَرَقَتْ لَها حِينَئِذٍ الحُجُبُ فَرَجَعَتْ إِلَى أَصْلِها ، فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَى أَصْلِها اتَّصَفَتْ بِالقُوَّةِ الَّتي كانَتْ لَها ، فَأُمِرَتْ أَنْ تَجْعَلَ ذَلِكَ فِي باطِنِها فَفَعَلَتْ ، لَكِنْ رُبَّما رَشَحَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الظَّاهِرِ غَلَبَةً .

خَرْقُ عَوائِدِ النَّفْس

ولِذَلِكَ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ فِي حِكَمِهِ خَرْقَ العَوائِدِ إِثْرَ ذِكْرِ التَّحَقُّقِ

بِالعُبُودِيَّةِ ، فَقالَ رضي الله عنه :

(كَيْفَ تُخْرَقُ لَكَ العَوائِدُ ، وأَنْتَ لَمْ تَخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ العَوائِد ؟!) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **العَوائِدُ** : كُلُّ ما تَعَوَّدَتْهُ النَّفْسُ وأَلِفَتْهُ واسْتَمَرَّتْ مَعَهُ حَتَّى صَعُبَ خُرُوجُها عَنْهُ ، سَواءٌ كانَ ظُلْمانِيًّا ، أَوْ نُورانِيًّا ؛ كَتَتَبُّعِ الفَضائِل ، وكَثْرَةِ النَّوافِل .

وهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ : عَوائِدُ ظاهِرَةٌ حِسِّيَّة ، وعَوائِدُ باطِنَةٌ مَعْنَوِيَّة .

فَمِثالُ العوائِدِ الحِسِّيَّة : كَثْرَةُ الأَكْلِ والشُّرْبِ والنَّوْمِ واللِّباسِ وخُلْطَةِ النَّاسِ ، والدُّخُولُ فِي الأَسْباب ، وكَثْرَةُ الكَلامِ والمُخاصَمَةِ والعِتاب ، والاسْتِغْراقُ فِي العِبادَةِ الحِسِّيَّةِ أَوِ العُلُومِ الرَّسْمِيَّةِ ، وغَيْرُ ذَلِك .

ومِثالُ العَوائِدِ المَعْنَوِيَّة : حُبُّ الجاهِ والرِّياسَةِ وطَلَبُ الخُصُوصِيَّة ، وحُبُّ الدُّنْيا والمَدْحِ ، وكالحَسَدِ والكِبْرِ ، والعُجْبِ والرِّياءِ ، والطَّمَعِ فِي الخَلْقِ ، وخَوْفِ الفَقْرِ ، وهَمِّ الرِّزْقِ ، والفَظاظَةِ والقَسْوَةِ ، وغَيْرِ ذَلِك .

فَمَنْ خَرَقَ مِنْ نَفْسِهِ عَوائِدَها الحِسِّيَّةَ بِالرِّياضاتِ القَهْرِيَّة ، خُرِقَتْ لَهُ العَوائِدُ الحِسِّيَّةُ : كالطَّيَرانِ فِي الهَواء ، والمَشْيِ عَلَى الماء ، ونُفُوذِ الدَّعْوَةِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الكَراماتِ الحِسِّيَّة .

ومَنْ خَرَقَ مِنْ نَفْسِهِ عَوائِدَها المَعْنَوِيَّة ، خُرِقَتْ لَهُ العَوائِدُ الباطِنَةُ ؛ كَرَفْعِ حُجُبِ الغَفْلَةِ ، وتَطْهِيرِ القُلُوبِ ، وكَشْفِ الحِجابِ ، وفَتْحِ البابِ ، وتَحَقُّقِ العِرْفانِ ، والتَّرَقِّي إلَى مَقامِ الإحْسانِ ، وهَذا هُوَ المُعْتَبَرُ عِنْدَ الأَكْياس ، وهُوَ المَطْلُوبُ مِنْ سائِرِ النَّاس .

وأَمَّا خَرْقُ العَوائِدِ الحِسِّيَّة ، فَقَدْ تَكُونُ لِمَنْ لَيْسَتْ لَهُمْ خُصُوصِيَّة ؛ كالسَّحَرَةِ وأَرْبابِ الشَّعْوَذَةِ ؛ نَعَمْ مَنْ جَمَعَ بَيْنَهُما خُرِقَتْ لَهُ فِيهِما ، فَكَيْفَ تَطْلُبُ أَيُّها المُرِيدُ أَنْ تُخْرَقَ لَكَ عَوائِدُ نَفْسِكَ حَتَّى تَدْخُلَ حَضْرَةَ قُدْسِكَ ، وأَنْتَ لَمْ تَخْرِقْ عَوائِدَ نَفْسِكَ ، فَما حَجَبَ النَّفْسَ عَنِ الشُّهُودِ إلَّا ما تَعَوَّدَتْهُ مِنْ رُؤْيَةِ هَذا الوُجُودِ ، فَلَوْ غابَتْ عَنْ رُؤْيَةِ هَذا الوُجُود ، لَتَحَقَّقَ لَها أَمْرُ الشُّهُود ، ولا يُمْكِنُ أَنْ تَغِيبَ عَنْهُ إلَّا بِخَرْقِ عَوائِدِ نَفْسِها .

فَخَرْقُ العَوائِدِ إبْدالُها بِضِدِّها ، كَتَبْدِيلِ كَثْرَةِ الأَكْلِ والنَّوْمِ بِالجُوعِ والسَّهَرِ ، وكَتَبْدِيلِ كَثْرَةِ اللِّباسِ بِالتَّقَلُّلِ مِنْهُ ، أَوْ ما خَشُنَ مِنَ الثِّيابِ كالمُرَقَّعاتِ ونَحْوِها ، وكَتَبْدِيلِ الخُلْطَةِ بِالعُزْلَةِ ، والأَسْبابِ بِالزُّهْدِ ، والكَلامِ بِالصَّمْتِ ، وسُوءِ الخُلُقِ بِحُسْنِ الخُلُقِ ، وكَتَبْدِيلِ حُبِّ الجاهِ والرِّياسَةِ بِالذُّلِّ والخُمُولِ وسُقُوطِ المَنْزِلَةِ عِنْدَ النَّاسِ ، وحُبِّ الدُّنْيا

بِالزُّهْدِ فِيها والفِرارِ مِنْها ، وكاتِّصافِهِ بِالتَّخْلِيَةِ مِنَ الرَّذائِل ، والتَّحْلِيَةِ بِالفَضائِل .

فَإِذا تَحَقَّقَ المُرِيدُ بِهَذِهِ الأُمُور ، وخُرِقَتْ لَهُ العَوائِدُ عَلَى ما يُرِيدُ حَتَّى يَكُونَ (باسْمِ اللهِ) عِنْدَهُ مُوافَقَةٌ لَكِنْ مِنَ اللهِ ، فَيَكُونُ أَمْرُهُ بِأَمْرِ اللهِ : ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١) .

ولا بُدَّ فِي خَرْقِ العَوائِدِ الباطِنِيَّةِ مِنْ شَيْخٍ كامِلٍ جامِعٍ بَيْنَ حَقِيقَةٍ وشَرِيعَة ، يَحْمِلُكَ بِهِمَّتِهِ ، فَإِذا رَمَيْتَ يَدَكَ فِي نَفْسِكَ ، حَمَلَتْكَ الهِمَّةُ ونَصَرَتْكَ القُدْرَة ، فَقَتَلْتَها بِالمَرَّة .

وأَمَّا إِذا لَمْ يَكُنْ لَكَ شَيْخٌ ، فَكُلَّما قَتَلْتَها رَجَعَتْ أَكْبَرَ مِمَّا كانَتْ ، ولا تَمُوتُ النَّفْسُ الحَيَّةُ إِلَّا مَعَ الأَمْوات .

وخَرْقُ العَوائِدِ الباطِنِيَّةِ الَّتي هِيَ رَفْعُ الحُجُبِ وشُهُودُ المَحْبُوبِ لا يَكُونُ بِمُجَرَّدِ الطَّلَبِ دُونَ السَّعْيِ فِي السَّبَبِ مَعَ تَحَقُّقِ الأَدَبِ ، كَما نَبَّهَ عَلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لَيْسَ الشَّأْنُ وُجُودَ الطَّلَب ، إِنَّما الشَّأْنُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ الأَدَب) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الطَّلَبُ كُلُّهُ مَدْخُولٌ عِنْدَ المُحَقِّقِينَ أُولِي الأَلْبابِ

---

(١) سُورَةُ إِبْراهِيم : الآيَة ٢٠ .

لِما يَقْتَضِيهِ مِنْ وُجُودِ النَّفْسِ ، والوُقُوفِ مَعَ الحِسِّ ؛ إِذِ العارِفُ المُحَقَّقُ لَمْ تَبْقَ لَهُ حاجَةٌ يَطْلُبُها لأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ الغِنَى الأَكْبَر ، وفازَ مِنْ مَوْلاهُ بِالحَظِّ الأَوْفَر ، وهُوَ مَعْرِفَةُ مَوْلاهُ ، والغَيْبَةُ عَمَّا سِواه ، ولَيْسَ الشَّأْنُ وُجُودَ صُورَةِ الطَّلَب ، وإِنَّما الشَّأْنُ أَنْ تَسْتَغْنِيَ بِهِ عَنْ كُلِّ مَطْلَب ، وتُرْزَقَ مَعَهُ حُسْنَ الأَدَب ، والاكْتِفاءَ بِعِلْمِ اللّه ، والوُقُوفَ مَعَ مُرادِ اللّه .

قالَ الشَّيْخُ زَرُّوق رضي الله عنه : ((والأَدَبُ عَلَى ثَلاثَةِ أَوْجُهٍ : آدابٌ فِي الظَّاهِرِ وذَلِكَ بِإِقامَةِ الحُقُوق ، وآدابٌ فِي الباطِنِ بِالإِعْراضِ عَنْ كُلِّ مَخْلُوق ، وآدابٌ فِيهما وذَلِكَ بِالانْحِياشِ للحَقِّ والدَّوامِ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى بِساطِ الصِّدْقِ ، وذَلِكَ هُوَ جُمْلَةُ الأَمْرِ وتَفْصِيلُهُ وتَفْرِيعُهُ وتَأْصِيلُه)) .

فالطَّلَبُ عِنْدَ العارِفِينَ لَيْسَ هُوَ بِلِسانِ المَقال ، وإِنَّما هُوَ بِلِسانِ الحال ، وهُوَ الاضْطِرار ، وظُهُورُ الذِّلَّةِ والافْتِقار ، كَما نَبَّهَ عَلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(ما طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الاضْطِرار ، ولا أَسْرَعَ بِالمَواهِبِ مِثْلُ الذِّلَّةِ والافْتِقار) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِنَّما كانَ طَلَبُ العارِفِينَ بِلِسانِ الحالِ دُونَ المَقالِ

لِما حَقَّقَهُمْ بِهِ مِنْ وُجُودِ مَعْرِفَتِهِ حَتَّى شَهِدُوا مِنَّتَهُ فِي مِحْنَتِهِ ، ونِعْمَتَهُ فِي نِقْمَتِهِ ، فَإِذا تَجَلَّى لَهُمْ بِالقُوَّةِ والجَلال ، تَلَقَّوْهُ بِالضَّعْفِ والإِذْلال ، فَحِينَئِذٍ يَتَجَلَّى لَهُمْ باسْمِهِ الجَمِيل ، فَيَمْنَحُهُمْ كُلَّ جَمِيل ، وإِذا تَجَلَّى لَهُمْ بِاسْمِهِ العَزِيزِ أَوِ القَهَّار ، تَلَقَّوْهُ بِالذِّلَّةِ والافْتِقار ، فَتَتَوارَدُ عَلَيْهِمُ المَواهِبُ الغِزار .

فَإِذا أَرَدْتَ أَيُّها العارِفُ أَنْ تَطْلُبَ مِنْ مَولاكَ شَيْئًا جَلْبًا أَوْ دَفْعًا فَعَلَيْكَ بِالاضْطِرار ، والاضْطِرارُ : هُوَ أَنْ يَكُونَ كالغَرِيقِ فِي البَحْرِ أَوْ الضَّالِّ فِي التِّيهِ القَفْرِ ، ولا يَرَى لِغِياثِهِ إِلَّا مَوْلاه ، ولا يَرْجُو لِنَجاتِهِ مِنْ هَلَكَتِهِ أَحَداً سِواه ، فَما طُلِبَ لَكَ مِنْ مَوْلاكَ شَيْءٌ مِثْلُ اضْطِرارِكَ إِلَيْه ، والوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْه ، مُتَحَلِّيًا بِحِلْيَةِ العَبِيد ، هُنالِكَ تَنالُ كُلَّ ما تُرِيد ، كَما قالَ الشَّاعِرُ :

أَدَبُ الْعَبِـيدِ تَـذَلُّلٌ ❁ وَالْعَبْدُ لا يَدَعُ الْأَدَبْ

فَـإِذَا تَكَامَـلَ ذُلُّـهُ ❁ نَـالَ الْمَوَدَّةَ وَاقْتَرَبْ

وقالَ آخَرُ :

وَمَا رُمْتُ الدُّخُولَ عَلَيْهِ حَتَّى ❁ حَلَلْتُ مَحَـلَّةَ الْعَـبْدِ الذَّلِـيلِ

وَأَغْضَيْتُ الْجُفُونَ عَلَى قَذَاهَا ❁ وَصُنْتُ النَّفْسَ عَنْ قَالٍ وَقِيلِ

إذا أَرَدْتَ وُرُودَ المَواهِبِ عَلَيْكَ وهِيَ العُلُومُ اللَّدُنِيَّةُ والأَسْرارُ الرَّبَّانِيَّةُ فَلا شَيْءَ أَسْرَعُ لَكَ بِها مِثْلُ الذِّلَّةِ والافْتِقار ، بَيْنَ يَدَي الحَلِيمِ الغَفَّار ، يَكُونُ ذَلِكَ قَلْبًا وقالَبًا ، فَيَنْبَغِي لَكَ حِينَئِذٍ أَنْ تَسْتَعِدَّ لِكَسْبِ المَواهِبِ ، ونَيْلِ المَراتِبِ ، قالَ تَعالَى : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ (١) ، وقالَ تَعالَى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (٢) ، وقالَ أَيْضًا : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (٣) .

وقالَ ﷺ : (إِنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وإِنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً) .

الوُصُولُ إِلَى اللهِ

فَإِذا طَلَبْتَ الدُّخُولَ مَعَ الأَحْباب ، فَقِفْ ذَلِيلًا بِالباب ، حَتَّى يَرْفَعَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُمُ الحِجاب ، مِنْ دُونِ حِيلَةٍ مِنْكَ ولا أَسْباب ، وإِنَّما هُوَ فَضْلٌ مِنَ الكَرِيمِ الوَهَّاب ؛ كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(لَوْ كُنْتَ لا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ فَناءِ مَساوِيكَ ، ومَحْوِ دَعاوِيكَ ، لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَداً ، ولَكِنْ إِذا أَرادَ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ ، سَتَرَ وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ ، وغَطَّى نَعْتَكَ بِنَعْتِهِ ، فَوَصَلَكَ إِلَيْهِ بِما مِنْهُ إِلَيْكَ ، لا بِما مِنْكَ إِلَيْه) :

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ٦٠ .
(٢) سُورَةُ النَّمْل : مِنَ الآيَة ٦٢ .
(٣) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٢٣ .

قالَ ابنُ عَجيبَة : الوُصُولُ إِلَى اللهِ هُوَ العِلْمُ بِهِ وبِإِحاطَتِهِ ؛ بِحَيْثُ يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ ، ويَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ ، وهَذا لا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِ النُّفُوس ، وحَطِّ الرُّؤُوس ، وبَذْلِ الأَرْواح ، وبَيْعِ الأَشْباح ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ (١) .

أَيْ : جَنَّةُ المَعارِفِ لأَهْلِ الجِهادِ الأَكْبَر ، وجَنَّةُ الزَّخارِفِ لأَهْلِ الجِهادِ الأَصْغَر ، ولِقَوْلِهِ ﷺ : (مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا) .

قالَ فِي ((لَطائِف المِنَن)) : لا يُدْخَلُ عَلَى اللهِ إِلَّا مِنْ بابَيْن : أَحَدُهُما : المَوْتُ الأَكْبَر ، وهُوَ المَوْتُ الحِسِّيُّ ، والثَّانِي : المَوْتُ الَّذي تَعْنِيهِ هَذِهِ الطَّائِفَةُ ؛ يَعْنِي : مَوْتَ النُّفُوس .

وقالَ الشَّشْتُري رضي الله عنه :

إِنْ تُرِدْ وَصْلَنَا فَمَوْتُكَ شَرْطٌ ❁ لَنْ يَنَالَ الْوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَهْ

وقالَ أَيْضًا :

لَيْسَ يُدْرِكْ وِصَالِي ❁ كُلُّ مَنْ فِيهِ بُقْيَا

وقالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَن رضي الله عنه : ((لا يَصِلُ الوَلِيُّ إِلَى اللهِ تَعالَى ومَعَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَواتِه ، أَوْ تَدْبِيرٌ مِنْ تَدْبِيراتِه ، واخْتِيارٌ مِنَ اخْتِياراتِه)) .

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ١١١ .

وهَذِهِ التَّصْفِيَةُ لَيْسَتْ هِيَ مِنْ فِعْلِ العَبْدِ وكَسْبِهِ ، وإنَّما هِيَ بِسابِقِ عِنايَةِ رَبِّهِ ، فَلَوْ كانَ العَبْدُ لا يَصِلُ إلَى اللّهِ تَعالَى إلَّا بَعْدَ فَناءِ مَساوِيهِ ، ومَحْوِ دَعاوِيهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ هُوَ ، لَمْ يَصِلْ أَبَداً ، لَكِنَّ الحَقَّ تَعالَى مِنْ كَرَمِهِ وجُودِهِ إذا أَرادَ أَنْ يَطْوِيَ عَنْهُ مَسافَةَ البُعْدِ أَظْهَرَ لَهُ مِنْ أَنْوارِ قُدْسِهِ ونُعُوتِ وَصْفِهِ ما يَغِيبُ بِهِ العَبْدُ عَنْ شُهُودِ نَفْسِهِ ، فَحِينَئِذٍ تَفْنَى المَساوِي ، وتَمْتَحِقُ الدَّعاوِي ، فَيَحْصُلُ الوُصُولُ ، ويَبْلُغُ المَأْمُولُ ، بِما مِنَ اللّهِ إلَى العَبْدِ مِنْ سابِقِ العِنايَةِ والوِداد ، لا بِما مِنَ العَبْدِ إلَى اللّهِ مِنَ الكَدِّ والاجْتِهاد .

وإنْ شِئْتَ قُلْتَ : فَناءُ المَساوِي هُوَ التَّطْهِيرُ مِنْ أَوْصافِ البَشَرِيَّة ، وهِيَ الأَخْلاقُ المَذْمُومَةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ ، ومَحْوُ الدَّعاوِي ، وهُوَ التَّبَرِّي مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ بِحَيْثُ لا يَرَى لِنَفْسِهِ فِعْلًا ولا تَرْكًا ولا نَقْصًا ولا كَمالًا ، وإنَّما هِيَ غَرَضٌ لِسَهامِ الأَقْدار ، تَجْرِي عَلَيْها أَحْكامُ الواحِدِ القَهَّار ، فَتَحْقِيقُ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ عَلَى الكَمالِ مَعَ وُجُودِ النَّفْسِ كادَ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُحالِ ، لَكِنَّ الحَقَّ تَعالَى لِكَرَمِهِ وجُودِهِ إذا رَأَى مِنْكَ صِدْقَ الطَّلَبِ وأَرادَ أَنْ يُوصِلَكَ إلَيْهِ وَصَلَكَ إلَى وَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيائِهِ وأَطْلَعَكَ عَلَى خُصُوصِيَّتِهِ واصْطِفائِه ، فَلَزِمْتَ الأَدَبَ مَعَهُ ؛ فَما زالَ يَسِيرُ بِكَ حَتَّى

قالَ لَكَ : ها أَنْتَ ورَبُّكَ ، فَحِينَئِذٍ يَسْتُرُ الحَقُّ تَعالَى وَصْفَكَ الَّذي هُوَ وَصْفُ العُبُودِيَّةِ بِوَصْفِهِ الَّذي هُوَ وَصْفُ الحُرِّيَّة ، فَتَكْمُنُ أَوْصافُ البَشَرِيَّة ، بِظُهُورِ أَوْصافِ الرُّوحانِيَّة ، ويُغَطِّي أَيْضًا نَعْتَكَ الَّذي هُوَ الحُدُوثُ بِنَعْتِهِ الَّذي هُوَ القِدَمُ ، أَوْ يُغَطِّي نَعْتَكَ الَّذي هُوَ العَدَمُ بِنَعْتِهِ الَّذي هُوَ الوُجُود .

وقالَ الشَّيْخُ زَرُّوق : ((سَتَرَ فَقْرَكَ بِغِناه ، وذُلَّكَ بِعِزِّه ، وعَجْزَكَ بِقُدْرَتِهِ ، وضَعْفَكَ بِقُوَّتِهِ ، ويُصَرِّفُكَ عَنْ شُهُودِ ذَلِكَ مِنْكَ وإِلَيْكَ بِشُهُودِ ما مِنْهُ إِلَيْه)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : وهُوَ لازِمٌ لِما فَسَّرْتُهُ بِهِ مِنْ وَصْفِ العُبُودِيَّةِ ونَعْتِ الحُرِّيَّة ، فَوَصَلَكَ حِينَئِذٍ بِما مِنْهُ عَلَيْكَ مِنَ الإِحْسان ، واللُّطْفِ والامْتِنان ، لا بِما مِنْكَ إِلَيْهِ مِنَ المُجاهَدَةِ والطَّاعَةِ والإِذْعان .

ومِثالُ النَّفْسِ كالفَحْمَة ، كُلَّما غَسَلْتَها بِالصَّابُون ، زادَ سَوادُها ، فَإِذا اشْتَعَلَتْ فِيها النَّارُ ونَفَخَ فِيها الرِّيحُ ، كَسَتْها النَّارُ ولَمْ يَبْقَ لِلَوْنِ الفَحْمَةِ فِيها أَثَرٌ ، فَكَذَلِكَ أَوْصافُ البَشَرِيَّةِ إِذا كَساها نُورُ الرُّوحانِيَّةِ تَغَطَّتْ ظُلْمَةُ البَشَرِيَّة ولَمْ يَبْقَ لَها أَثَرٌ ، فَتَنْقَلِبُ البَشَرِيَّةُ فِي صِفَةٍ رُوحانِيَّة .

والنَّارُ الَّتي تُحْرِقُ البَشَرِيَّةَ هِيَ مُخالَفَةُ الهَوَى وتَحَمُّلُ النَّفْسِ ما يَثْقُلُ عَلَيْها ؛ كالذُّلِّ والفَقْرِ ونَحْوِهما مَعَ دَوامِ ذِكْرِ الاسْمِ المُفْرَدِ ، فَكُلَّما فَنِيَ فِيهِ ، ذابَتْ بَشَرِيَّتُهُ ، وقَوِيَتْ رُوحانِيَّتُهُ حَتَّى تَسْتَوْلِيَ عَلَى بَشَرِيَّتِهِ ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ الحُكْمُ لَها ، فَتَغِيبُ فِي نُورِ مَذْكُورِها ، وتَغْرَقُ فِي شُهُودِ عَظَمَةِ مَحْبُوبِها ، فَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ الوِصال .

سِـــتْرُ اللهِ

والحاصِلُ أَنَّه لَمَّا أَمَرَكَ بِالتَّعَلُّقِ بِأَوْصافِ الرُّبُوبِيَّة ، والتَّحَقُّقِ بِأَوْصافِ العُبُودِيَّة ، وعَدَمِ مُشارَكَتِكَ لَهُ فِي وَصْفِ الحُرِّيَّة ، وما تَعَوَّدَتْ بِهِ مِنْ ذَلِك ، فاخْرِقْ لَها تِلْكَ العَوائِدَ هُنالِكَ حَتَّى تَتَهَذَّبَ وتَتَأَدَّب ، وتَكْتَفِي بِعِلْمِ الحالِ عَنْ وُجُودِ الطَّلَب ، فَيَكُونُ طَلَبُها شاهِدَ حالِها مِنَ الذِّلَّةِ والانْكِسار ، وظُهُورِ الفاقَةِ والاضْطِرار ، فَحِينَئِذٍ تَتَرادَفُ عَلَيْها المَواهِب ، وتَنالُ بِذَلِكَ غايَةَ المَطالِب ، ومُنْتَهَى الرَّغائِب ، وهُوَ الوُصُولُ إِلَى حَضْرَةِ القُدْسِ ، ومَحَلِّ الأُنْسِ ، مِنْ غَيْرِ حِيلَةٍ ولا اكْتِساب ، وإِنَّما هُوَ مِنَّةٌ مِنَ الكَرِيمِ الوَهَّاب ، مَنَّ عَلَيْها بِالوُصُول ، وتَفَضَّلَ عَلَيْها بِالقَبُول ، كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(لَوْلا جَمِيلُ سِتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلًا للقَبُول) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : لأَنَّ العَمَلَ الَّذي يَكُونُ أَهْلًا للقَبُول ، هُوَ الَّذي تَتَوافَرُ فِيهِ شُرُوطُ القَبُول ، وهُوَ سِرُّ الإِخْلاص وغايَةُ الحُضُور ، والتَّبَرِّي فِيهِ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّة ، وهَذا فِي غايَةِ النُّدُور ، فَلَوْلا أَنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ تَفَضَّلَ عَلَيْنا بِجَمِيلِ سِتْرِهِ ، فَغَطَّى مَساوِينا بِجَلائِلِ لُطْفِهِ وبِرِّهِ ، ما كانَ عَمَلٌ أَهْلًا للقَبُولِ أَصْلًا ، ولَكِنَّ الَّذي مَنَّ بِوُجُودِ الأَعْمالِ يَمُنُّ بِوُجُودِ القَبُولِ والإِقْبال .

قالَ بَعْضُهُمْ : ما هُناكَ إِلَّا فَضْلُه ، ولا نَعِيشُ إِلَّا فِي سِتْرِهِ ، ولَوْ كَشَفَ الغِطاءَ لَكَشَفَ عَنْ أَمْرٍ عَظِيم .

وقالَ يَحْيَىٰ بنُ مَعاذ رضي الله عنه : ((مِسْكِينٌ ابنُ آدَمَ ، جِسْمٌ مَعِيب ، وقَلْبٌ مَعِيب ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ مَعِيبَيْنِ عَمَلًا بِلا عَيْب)) .

قالَ ابنُ عَجيبَة : ولِهَذا المَعْنَى قالَ تَعالَى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ (١) ؛ فَعَبَّرَ بـ (عَنِ) الَّتي تَدُلُّ عَلَى التَّجاوز ، ولَمْ يَقُلْ : نَتَقَبَّلُ مِنْهُمْ ، فَكَأَنَّهُ قالَ : أُولَئِكَ الَّذينَ نَتَجاوَزُ عَنْهُمْ فِي أَعْمالِهِمْ ، فَنَتَقَبَّلُها مِنْهُمْ .

ورُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ :

---

(١) سُورَةُ الأَحْقاف : مِنَ الآيَة ١٦ .

(البَلاءُ والهَوَى والشَّهْوَةُ مَعْجُونَةٌ بِطِينِ آدَم) .

قِيلَ : وهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تعالَى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [1] ، أَيْ : أَخْلاط ، فاخْتَلَطَ بِهِ البَلاءُ والهَوَى والشَّهْوَة ، فَرُكِّبَ ابنُ آدَمَ مِنْها ، فَلَزِمَتْهُ الثَّلاثَةُ ما دامَتْ بِنْيَتُهُ قائِمَةً ، وبَشَرِيَّتُهُ مَوْجُودَةً ، فَإِذا انْهَدَمَتِ البَشَرِيَّةُ حِسًّا أَوْ مَعْنًى ، لَمْ يَبْقَ حُكْمُ النُّطْفَةِ الأَمْشاجِيَّة ، وصارَ الحُكْمُ للرُّوحِ النُّورانِيَّة .

فَإِذا تَقَرَّرَ أَنَّ عَمَلَنا مَدْخُول ، ولَيْسَ أَهْلًا للقَبُول ، لَوْلا جَمِيلُ سِتْرِهِ المَأْمُول ، عَلِمْتَ أَنَّ افْتِقارَنا إِلَى حِلْمِهِ وعَفْوِهِ فِي حالِ الطَّاعَةِ أَعْظَمُ مِنَ افْتِقارِنا إِلَيْهِ فِي حالِ المَعْصِيَة ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(أَنْتَ إِلَى حِلْمِهِ إِذا أَطَعْتَهُ أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَيْهِ إِذا عَصَيْتَهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : وذَلِكَ لأَنَّ الطَّاعَةَ بِساطُ العِزِّ والرِّفْعَة ، وللنَّفْسِ فِيها شَهْوَةٌ ومُتْعَة ، ولأَنَّ النَّاسَ يَلْحَظُونَ صاحِبَ الطَّاعَةِ الظَّاهِرَة ، ويَنْظُرُونَهُ بِعَيْنِ التَّعْظِيم ، ويُبادِرُونَ إِلَيْهِ بِالخِدْمَةِ والتَّكْرِيم ، وكُلُّ ما عَظُمَ فِي عَيْنِ الخَلْقِ سَقَطَ مِنْ عَيْنِ الحَقِّ ، إِنْ كانَ يَفْرَحُ بِذَلِكَ

---

(١) سُورَةُ الإِنْسان : مِنَ الآيَة ٢ .

ويَقْنَعُ بِهِ دُونَ المَلِكِ الحَقِّ ، بِخِلافِ المَعْصِيَةِ فَإِنَّما هِيَ بِساطُ الذُّلِّ والانْكِسار ، ومَحَلُّ السُّقُوطِ والاحْتِقار ، وكُلُّ ما سَقَطَ مِنْ عَيْنِ الخَلْقِ عَظُمَ فِي عَيْنِ الحَقِّ ، فَكانَ العَبْدُ فِي حالِ طاعَتِهِ لِرَبِّهِ أَحْوَجَ إِلَى حِلْمِهِ وعَفْوِهِ مِنْهُ فِي حالِ مَعْصِيَتِهِ ؛ لأَنَّ الطَّاعَةَ الَّتي يَنْشَأُ عَنْها العِزُّ والاسْتِكبار ، أَقْبَحُ مِنَ المَعْصِيَةِ الَّتي تُورِثُ الذُّلَّ والافْتِقار ، بَلْ فِي الحَقِيقَةِ لَيْسَتْ بِطاعَة ؛ لأَنَّ الطَّاعَةَ الَّتي تُوجِبُ البُعْدَ لَيْسَتْ بِطاعَة ، والمَعْصِيَةَ الَّتي تُوجِبُ القُرْبَ لَيْسَتْ بِمَعْصِيَة .

وفِي الحَدِيث : (يَقُولُ اللّهُ - تَبارَكَ وتَعالَى - : أَنا عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي) .

ومَنْ كانَ اللّهُ عِنْدَهُ ، فَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ أَلْفِ مُطِيعٍ تُوجِبُ لَهُ طاعَتُهُ طَرْدَهُ وبُعْدَهُ .

أَوْحَى اللّهُ تَعالَى إِلَى بَعْضِ الأَنْبِياءِ - عَلَيْهِمُ السَّلام - : (قُلْ لِعِبادِي الصِّدِّيقِينَ لا يَغْتَرُّوا ؛ فَإِنِّي إِنْ أُقِمْ عَلَيْهِمْ عَدْلِي وقِسْطِي أُعَذِّبْهُمْ غَيْرَ ظالِمٍ لَهُمْ ، وقُلْ لِعِبادِي الخاطِئِينَ لا يَيْئَسُوا مِنْ رَحْمَتِي ، فَإِنَّهُ لا يَكْبُرُ عَلَيَّ ذَنْبٌ أَغْفِرُهُ) .

وقالَ الشَّيْخُ أَبُو يَزِيد رضي الله عنه : ((تَوْبَةُ المَعْصِيَةِ واحِدَةٌ ، وتَوْبَةُ الطَّاعَةِ

أَلْفُ تَوْبَة ، وكانَ ﷺ إذا صَلَّى اسْتَغْفَرَ ثَلاثًا تَعْلِيمًا للأُمَّةِ فِي شُهُودِ التَّقْصِير ، وإلا فَلا اسْتِغْفارَ مِنْ طاعَة ، ولا ذَنْبَ عَلَى المُخْتار ﷺ)) .

ولَمَّا كانَتِ المَعْصِيَةُ بِساطَ الذُّلِّ والاحْتِقارِ كَما تَقَدَّمَ ، وهِيَ أَقْرَبُ لِمَقامِ العُبُودِيَّة ، والطَّاعَةُ مِنْ بِساطِ العِزِّ والرِّفْعَة ، فافْتَقَرَتْ إِلَى حِلْمِ اللهِ أَكْثَرَ ، صارَ النَّاسُ يَطْلُبُونَ السَّتْرَ فِي المَعْصِيَةِ أَوْ عَنْها خَوْفًا مِمَّا يَنْشَأُ عَنْها ، كَما أَبانَ ابنُ عَطاءِ اللهِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(السَّتْرُ عَلَى قِسْمَيْن : سَتْرٌ عَنِ المَعْصِيَةِ ، وسَتْرٌ فِيها ؛ فالعامَّةُ يَطْلُبُونَ السَّتْرَ مِنَ اللهِ فِيها خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ الخَلْقِ ، والخاصَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ السَّتْرَ عَنْها خَشْيَةَ سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ المَلِكِ الحَقِّ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **السَّتْرُ** : هُوَ الحِفْظُ والتَّغْطِيَةُ ، وهُوَ فِي الحِسِّ الحِفْظُ مِنَ الآفاتِ والبَلِيَّاتِ الَّتي تُوجِبُ هَلاكَهُ ، وفِي المَعْنَى الحِفْظُ مِنَ الفَضِيحَةِ والمَقْتِ وسُقُوطِ المَرْتَبَةِ .

وهُوَ باعْتِبارِ المَعْصِيَةِ عَلَى قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يَقَعُ السَّتْرُ فِيها فَلا يُفْضَحُ صاحِبُها ، وقِسْمٌ يَقَعُ السَّتْرُ عَنْها ، فَلا يَقَعُ العَبْدُ فِيها ، ولَوْ طَلَبَها ؛ لِما شَمِلَهُ مِنْ حِفْظِ اللهِ ورِعايَتِهِ .

فالعامَّةُ : يَطْلُبُونَ السَّتْرَ مِنَ اللهِ فِيها مَعَ وُقُوعِها لِئَلَّا يَسْقُطُوا مِنْ عَيْنِ الخَلْقِ ، فَهُمْ : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ (١) .

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

فَمَحَطُّ نَظَرِهِمْ إِنَّما هُوَ شُهُودُ الخَلْقِ غائِبِينَ عَنْ نَظَرِ المَلِكِ الحَقِّ ، وذَلكَ لِضَعْفِ إِيمانِهِمْ ، وقِلَّةِ يَقِينِهِمْ ، وانْطِماسِ بَصِيرَتِهِمْ .

وفِي بَعْضِ الأَخْبار : (يَقُولُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى : يا عِبادِي ! إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّي لا أَراكُمْ ، فالخَلَلُ فِي إِيمانِكُمْ ، وإِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّي أَراكُمْ ، فَلِمَ جَعَلْتُمُونِي أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْكُمْ ؟!) .

وأَمَّا الخاصَّةُ : فَهُمْ يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ السَّتْرَ عَنْها ، والعِصْمَةَ مِنْها ، خَشْيَةَ أَنْ يَسْقُطُوا مِنْ عَيْنِ الحَقِّ ؛ لأَنَّ صُدُورَ المَعْصِيَةِ مِنَ العَبْدِ سُوءُ أَدَبٍ ، ومَنْ أَساءَ الأَدَبَ مَعَ الأَحْباب ، طُرِدَ إِلَى الباب ، فَإِذا وَقَعَتْ مِنْهُمْ مَعْصِيَةٌ بادَرُوا إِلَى الاعْتِذار ، وصَحِبَهُمُ الخَجَلُ والانْكِسار ، ثُمَّ جَدُّوا فِي سَيْرِهِمْ ، ولَمْ يَقِفُوا مَعَ نُفُوسِهِمْ ؛ إِذْ لا وُجُودَ لَها فِي نَظَرِهِمْ ، ولا الْتِفاتَ لَهُمْ إِلَى الخَلْق ؛ إِذْ لَمْ يَبْقَ فِي نَظَرِهِمْ إِلَّا المَلِكُ الحَقُّ ،

---

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ١٠٨ .
(٢) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ٦٢ .

غابُوا بِشُهُودِ الحَقِّ عَنْ رُؤْيَةِ الخَلْقِ ، أَوْ بِشُهُودِ المَعْنَى عَنْ رُؤْيَةِ الحِسِّ ، أَوْ بِشُهُودِ المَوْسُوطِ عَنِ الواسِطَة .

وأَمَّا خاصَّةُ الخاصَّةِ : فَلا يَطْلُبُونَ شَيْئًا ، ولا يَخافُونَ مِنْ شَيْء ، صارَتِ الأَشْياءُ عِنْدَهُمْ شَيْئًا واحِداً ، واسْتَغْنَوْا بِشُهُودِ واحِدٍ عَنْ كُلِّ واحِد ، فَهُمْ يَنْظُرُونَ ما يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرِ القُدْرَة ، فَيَتَلَقَّوْنَهُ بِالقَبُولِ والرِّضا ، فَإِنْ كانَ طاعَةً شَهِدُوا فِيها المِنَّة ، وإِنْ كانَ مَعْصِيَةً شَهِدُوا فِيها القَهْرِيَّة ، وتَأَدَّبُوا مَعَ اللّٰهِ فِيها بِالتَّوْبَةِ والانْكِسار ، قِيامًا بِأَدَبِ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ المُخْتار ﷺ .

وقَدْ وَرَدَتْ أَحادِيثُ فِي المَقاماتِ الثَّلاثَةِ تَعْلِيمًا للأُمَّة ، فَقَد دَعا ﷺ بِالسَّتْرِ عَلَى المَساوِئِ ومِنْها ، وهِيَ العِصْمَةُ والحِفْظُ ، وطَلَبَ مَقامَ الرِّضا والتَّسْلِيم لأَحْكامِ اللّٰهِ القَهْرِيَّة ، كُلُّ ذَلِكَ مَنْشُورٌ فِي كُتُبِ الأَحادِيثِ ، فَلا نُطِيلُ بِهِ .

حَمْدُ اللّٰهِ عَلَى سَتْرِهِ

ثُمَّ إِذا سَتَرَ الحَقُّ تَعالَى مَساوِيَكَ وذُنُوبَكَ ، ثُمَّ تَوَجَّهَ النَّاسُ إِلَيْكَ بِالتَّعْظِيمِ والمَجْدِ والتَّكْرِيم ، فاعْرِفْ مِنَّةَ اللّٰهِ عَلَيْكَ ، وانْظُرْ مَنِ المَمْدُوحُ فِي الحَقِيقَة ؟ هَلْ أَنْتَ ، أَوْ مَنْ سَتَرَ مَساوِيَكَ ، كَما أَبانَ ابنُ

عَطاءِ اللهِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(مَنْ أَكْرَمَكَ ، فَإِنَّما أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سَتْرِهِ ، فالحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ ، لَيْسَ الحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وشَكَرَكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إذا كانَ الحَقُّ تَعالَى تَوَلَّى حِفْظَكَ بِرِعايَتِهِ ، وسَتَرَ مَساوِيَكَ بِسَتْرِ عِنايَتِهِ ، فَغَطَّى وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ ، ونَعْتَكَ بِنَعْتِهِ ، ثُمَّ تَوَجَّهَ النَّاسُ إِلَيْكَ بِالتَّعْظِيمِ والتَّمْجِيدِ والتَّكْرِيمِ ، فاعْرِفْ مِنَّةَ اللهِ عَلَيْكَ ، وانْعَزِلْ عَنْ شُهُودِ نَفْسِكَ ، فَمَنْ أَكْرَمَكَ فَإِنَّما أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سَتْرِهِ .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١) .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ (٢) .

فالحَمْدُ فِي الحَقِيقَةِ إِنَّما هُوَ لِمَنْ سَتَرَكَ ، لا لِمَنْ أَكْرَمَكَ ، إِذْ لَوْ أَظْهَرَ للنَّاسِ ذَرَّةً مِنْ مَساوِيكَ ، لَمَقَتُوكَ وأَبْغَضُوكَ ، فاشْكُرِ اللهَ عَلَى ما أَسْدَى إِلَيْكَ مِنَ الكَرَمِ ، وغَطَّى عَلَيْكَ مِنَ المَساوِئِ الَّتي تُوجِبُ أَنْواعَ الإِذايَةِ والنِّقَمِ .

قالَ الشَّيْخُ زَرُّوق رضي الله عنه : إِذْ لَوْلا سَتْرُهُ عَنِ المَعاصِي ما كُنْتَ مُطِيعًا ،

---

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٨٣ .

(٢) سُورَةُ النُّور : مِنَ الآيَة ٢١ .

ولَوْلا سَتْرُهُ فِيها لَكُنْتَ مُهانًا عِنْدَ الخَلْقِ ، ومَخْصُوصًا بِالمَقْتِ بَيْنَهُمْ ؛ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ (١).

فالخَلْقُ كُلُّهُمْ إنَّما يَتَعامَلُونَ بَيْنَهُمْ بِسَتْرِ مَوْلاهُمْ ، ولَوْ خَلا عَبْدُهُ مِنْ سَتْرِهِ لأَبْغَضَهُ أَحَبُّ النَّاسِ إلَيْهِ ، ولآذاهُ أَشْفَقُ الخَلْقِ عَلَيْهِ ، ولأَهْلَكَهُ أَرْأَفُ الخَلْقِ بِهِ ، ولِلّهِ دَرُّ القائِلِ :

يَظُنُّونَ بِي خَيْراً وَمَا بِيَ مِنْ خَيْرِ ❁ وَلَكِنَّنِي عَبْدٌ ظَلُومٌ كَمَا تَدْرِي

سَتَرْتَ عُيُوبِي كُلَّهَا عَنْ عُيُونِهِمْ ❁ وَأَلْبَسْتَنِي ثَوْبًا جَمِيلا مِنَ السَّتْرِ

فَصَارُوا يُحِبُّونِي وَمَا أَنَا بِالَّذِي ❁ يُحَبُّ ، وَلَكِنْ شَبَّهُونِيَ بِالْغَيْرِ

فَلا تَفْضَحَنِّي فِي الْقِيَامَةِ بَيْنَهُمْ ❁ وَكُنْ لِيَ يَا مَوْلايَ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ

ولَمَّا بَلَغَتِ الإذايَةُ كُلَّ مَبْلَغٍ مِنْ حَبِيبِ اللهِ ﷺ ، ما زادَ عَلَى أَنْ قالَ : (لا غِنَى لِي عَنْ عافِيَتِكَ ، عافِيَتُكَ أَوْسَعُ لِي) الحَدِيث .

وإذا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذي أَكْرَمَكَ هُوَ الَّذي سَتَرَ عُيُوبَكَ ، وغَطَّى مَساوِيَكَ ، بَعْدَ اطِّلاعِهِ عَلَى خَفاياها ، وعِلْمِهِ بِخَباياها ، فاتَّخِذْهُ صاحِبًا ، وكُنْ لَهُ مُراقِبًا ، ودَعِ النَّاسَ جانِبًا ؛ كَما نَبَّهَ عَلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ : **(ما صَحِبْكَ إلَّا مَنْ صَحِبَكَ وهُوَ بِعَيْبِكَ عَلِيم ، ولَيْسَ ذَلِكَ إلَّا مَوْلاكَ الكَرِيم)** :

---

(١) سُورَةُ الصَّافَّات : الآيَة ٥٧ .

قالَ ابنُ عَجيبَة : وإذا عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ صاحِبٌ إِلَّا مَوْلاكَ ، فاعْرِفْ حَقِيقَةَ صُحْبَتِه ، والْزَم الأَدَبَ فِي ظاهِرِكَ وباطِنِكَ ، واسْتَحْيِ مِنْهُ أَنْ يَراكَ حَيْثُ نَهاكَ ، أَوْ يَفْقِدَكَ حَيْثُ أَمَرَكَ .

وفِي الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قالَ لأَصْحابِهِ : (اسْتَحْيُوا مِنَ اللّهِ حَقَّ الحَياء) ، قالُوا : إِنَّا نَسْتَحْيِي والحَمْدُ لله ، قالَ لَهُمْ : (الحَياءُ مِنَ اللّهِ حَقَّ الحَياءِ ، أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وما وَعَى ، والبَطْنَ وما حَوَى ، وتَذْكُرَ القَبْرَ والبِلَى ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيا مِنَ اللّهِ حَقَّ الحَياء) .

فالصَّاحِبُ الَّذي يَدُومُ لَكَ هُوَ الَّذي يَصْحَبُكَ وهُوَ عالِمٌ بِعَيْبِكَ ؛ لأَنَّ ذَلِكَ داعٍ للسَّلامَةِ مِنَ التَّكَلُّفِ والرِّياءِ والتَّصَنُّع ، ولَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا مَوْلاكَ العالِمَ بِخَفاياكَ ، المُطَّلِعَ عَلَى سِرِّكَ وعَلانِيَتِكَ ، إِنْ عَصَيْتَهُ سَتَرَكَ ، وإِنِ اعْتَذَرْتَ إِلَيْهِ قَبِلَ عُذْرَكَ .

وقَدْ قِيلَ : مِنَ الحِكْمَةِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ (١) ؛ مَعَ أَنَّ الكُلَّ مِلْكُهُ ، ثَلاثَةُ أَشْياء :

أَحَدُها : البِشارَةُ بِعَدَمِ الرَّدِّ بِالعَيْبِ ؛ لأَنَّ المُشْتَرِيَ عالِمٌ بِهِ .

الثَّاني : لِيُسَلِّمَ العَبْدُ نَفْسَهُ إِلَيْهِ ، فَيَتَوَلَّى تَدْبِيرَهُ ؛ إِذْ لا يَتِمُّ بَيْعٌ إِلَّا بِالتَّسْلِيم ، ولا كَفالَةَ إِلَّا بَعْدَ إِقْباض .

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ١١١ .

الثَّالِثُ : إِظْهاراً لِتَمامِ الفَضْلِ فِي ظُهُورِ النِّسْبَةِ للهِ سُبْحانَه .

وذِكْرُ الصُّحْبَةِ فِي جانِبِ الحَقِّ وَقَعَتْ فِي حَدِيث : (أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَر) .

صُحْبَةُ العارِفِين

واعْلَمْ أَنَّ الأَمْرَ الَّذي يُرَغِّبُ فِي الصُّحْبَةِ ويَعْقِدُ المَحَبَّةَ والمَوَدَّةَ أَمْران :

أَحَدُهُما : ما تَقَدَّمَ مِنْ كَوْنِ الصَّاحِبِ يُغَطِّي شَيْنَكَ بِحِلْمِهِ ، ويَسْتُرُ وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ .

والثَّانِي : كَوْنُهُ يُحِبُّكَ ، ويَطْلُبُكَ إِلَى حَضْرَتِهِ مِنْ غَيْرِ غَرَضٍ ولا مَنْفَعَةٍ لَهُ فِي صُحْبَتِكَ ، وإِلَى الثَّانِي أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(خَيْرُ مَنْ تَصْحَبُ مَنْ يَطْلُبُكَ لا لِشَيْءٍ يَعُودُ مِنْكَ إِلَيْه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : ولا يُوجَدُ هَذا الوَصْفُ المَجِيدُ إِلَّا للغَنِيِّ الحَمِيدِ الفَعَّالِ لِما يُرِيدُ ، يُحِبُّ مَنْ يَشاءُ بِلا عِلَّةٍ ولا سَبَب ، ويَمْقُتُ مَنْ يَشاءُ بِلا ضَرَرٍ يَلْحَقُهُ ولا تَعَب ، يُقَرِّبُ مَنْ يَشاءُ بِلا عَمَل ، ويُبْعِدُ مَنْ يَشاءُ بِلا زَلَل .

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (١) ، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (٢) .

---

(١) سُورَةُ الأَنْبِياء : الآيَة ٢٣ .

(٢) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ١١٢ .

وكَلامُنا إنَّما هُوَ مَعَ أَهْلِ التَّحْقِيق ، وأَمَّا باعْتِبارِ الحِكْمَةِ وأَهْلِ التَّشْرِيعِ ، فَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحداً ، ولَكِنَّ فاعِلَ السَّبَبِ هُوَ فاعِلُ المُسَبَّب ؛ (مَنْ وَجَدَ خَيْراً ، فَلْيَحْمَدِ اللّٰهَ ، ومَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ ، فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ) .

ولِلجِيلي رَحِمَهُ اللّٰه :

إِذَا كُنْتُ فِي حُكْمِ الشَّرِيعَةِ عَاصِيًا ❁ فَإِنِّي فِي حُكْمِ الْحَقِيقَةِ طَائِعُ

فَخَيْرُ مَنْ تَصْحَبُهُ أَيُّها الإِنْسانُ مَوْلاك ، الَّذي يَطْلُبُكَ لِحَضْرَتِهِ ، ويَجْتَبِيكَ لِمَحَبَّتِهِ ، مِنْ غَيْرِ نَفْعٍ يَعُودُ مِنْكَ إِلَيْهِ ؛ وإِنَّما هُوَ بُرُوزٌ وإِحْسانٌ مِنْهُ إِلَيْكَ ، فَكَيْفَ تَتْرُكُهُ وتَطْلُبُ الأُنْسَ بِغَيْرِه ، وضَرَرُهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِه ؟!

قالَ بَعْضُهُمْ : إذا طَلَبْتَ الصُّحْبَةَ ، فاصْحَبِ العارِفِينَ الَّذينَ يُنْهِضُكَ حالُهُمْ ، ويَدُلُّكَ عَلَى اللّٰهِ مَقالُهُمْ ، ولِلّٰهِ دَرُّ صاحِبِ العَيْنِيَّةِ حَيْثُ يَقُولُ فِي عَيْنِيَّتِهِ :

فَشَمِّرْ وَلُذْ بِالْأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ ❁ لَهُمْ مِنْ كِتَابِ الْحَقِّ تِلْكَ الْوَقَائِعُ

هُمُ الذُّخْرُ لِلْمَلْهُوفِ وَالكَنْزُ وَالرَّجَا ❁ وَمِنْهُمْ يَنَالُ الصَّبُّ مَا هُوَ طَامِعُ

بِهِمْ يَهْتَدِي لِلْعَيْنِ مَنْ ضَلَّ فِي الْعَمَىٰ ❁ بِهِمْ يُجْذَبُ الْعُشَّاقُ وَالرَّبْعُ شَاسِعُ

هُمُ الْقَصْدُ وَالْمَطْلُوبُ وَالسُّؤْلُ وَالْمُنَىٰ ❁ وَإِسْمُهُمُ لِلصَّبْرِ فِي الْحُبِّ شَافِعُ

هُمُ النَّاسُ فَالْزَمْ إِنْ عَرَفْتَ جَنَابَهُمْ ۞ فَفِيهِمْ لِضُرِّ الْعَالَمِينَ مَنَافِعُ

وقالَ فِي التَّحْذِيرِ مِنْ صُحْبَةِ غَيْرِهِمْ مِنَ الغافِلِينَ والعَوامِّ :

وَقَاطِعْ لِمَنْ وَاصَلْتَ أَيَّامَ غَفْلَةٍ ۞ فَمَا وَاصَلَ الْعُذَّالَ إِلَّا مُقَاطِعُ

وَجَانِبْ جَنَابَ الْأَجْنَبِيِّ لَوَ انَّهُ ۞ لِقُرْبِ انْتِسَابٍ فِي الْمَنَامِ مُضَاجِعُ

فَلِلنَّفْسِ مِنْ جُلَّاسِهَا كُلُّ نِسْبَةٍ ۞ وَمِنْ خُلَّةٍ لِلْقَلْبِ تِلْكَ الطَّبَائِعُ

والحاصِلُ : أَنَّ صُحْبَةَ مَنْ يُوصِلُ إِلَى اللهِ فَما هِيَ إِلَّا صُحْبَةُ اللهِ ؛ إِذْ ما ثَمَّ سِواه ، والنَّظَرُ إِلَى العارِفِ بِاللهِ ، فَإِنَّما هُوَ نَظَرٌ إِلَى اللهِ ؛ إِذْ لَمْ تَبْقَ فِيهِ بَقِيَّةٌ عَلَيْهِ لِغَيْرِ اللهِ ، فَصارَ نُورًا مَحْضًا مِنْ نُورِ اللهِ ، وفِيهِمْ قالَ ﷺ : (إِنَّ للهِ رِجالًا مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ سَعِدَ سَعادَةً لا يَشْقَى بَعْدَها أَبَداً) .

وهُمْ مَوْجُودُونَ لا يَنْقَطِعُونَ أَبَداً ، ظاهِرُونَ ظُهُورَ الشَّمْسِ ، لا يَخْفَوْنَ إِلَّا عَلَى مَنْ أَرادَ اللهُ مِنْهُ طَرْداً وبُعْداً ، والعِياذُ بِاللهِ مِنَ السَّلْبِ بَعْدَ العَطاءِ ، ومِنْ سُوءِ القَضاءِ ، وشَماتَةِ الأَعْداءِ ، وعُضالِ الدَّاءِ ، وخَيْبَةِ الرَّجاءِ ، وزَوالِ النِّعْمَةِ ، وفَجْأَةِ النِّقْمَةِ ، آمِين .

ثُمَّ فائِدَةُ صُحْبَةِ العارِفِين ، وهُوَ حُصُولُ اليَقِين ، كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ :

(لَوْ أَشْرَقَ لَكَ نُورُ اليَقِين ، لَرَأَيْتَ الآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْها ، ولَرَأَيْتَ مَحاسِنَ الدُّنْيا قَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ الفَناءِ عَلَيْها) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **اليَقِينُ** : هُوَ العِلْمُ الَّذي لا يُزاحِمُهُ وَهْمٌ ، ولا يُخالِطُهُ رَيْبٌ ، ولا يَصْحَبُهُ اضْطِراب ؛ مُشْتَقٌّ مِنْ يَقِنَ الماءُ : إذا حُبِسَ ولَمْ يَجْرِ ، شُبِّهَ بِهِ العِلْمُ إذا صَحِبَتْهُ الطُّمَأْنِينَةُ ، ولَمْ يَبْقَ للقَلْبِ فِيهِ تَحَرُّكٌ ولا اضْطِراب .

وإِشْراقُ نُورِهِ : هُوَ ظُهُورُ أَثَرِهِ عَلَى الجَوارِح ، فَيَظْهَرُ فِيها الزُّهْدُ فِي الدُّنْيا ، والرَّغْبَةُ فِي الآخِرَة ، ويَظْهَرُ مِنْهُ الانْحِياشُ إِلَى اللّه ، والاشْتِياقُ إِلَى حَضْرَةِ جَمالِهِ ، والسُّكُونُ والخُضُوعُ تَحْتَ قَهْرِ جَلالِهِ ، والمُسارَعَةُ إِلَى ابْتِغاءِ مَرْضاتِهِ ، والمُبادَرَةُ إِلَى مَظانِّ مَحابِّهِ ، ولَهْجُ اللِّسانِ بِذِكْرِهِ ، وشُغْلُ القَلْبِ بِالفِكْرَةِ فِي عَظَمَتِهِ ، وهَيَمانُ الرُّوحِ فِي حَضْرَةِ قُرْبِهِ ، وسُكْرُها مِنْ شَرابِ حُبِّهِ ، واغْتِمارُها بِشُهُودِ قُرْبِهِ ، فَهَذِهِ عَلامَةُ إِشْراقِ نُورِ اليَقِينِ فِي القَلْب .

ومِنْ عَلامَتِهِ أَيْضًا أَنْ يَصِيرَ الآجِلُ عاجِلًا ، والبَعِيدُ حاصِلًا ، والغَيْبُ شَهادَةً : ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ الأَنْعام : الآيَة ١٣٤ .

ولَنا فِي هَذا المَعْنَى :

فَلا تَرْضَىٰ بِغَيْرِ اللهِ حِبًّا ❁ وَكُنْ أَبَدًا بِعِشْقٍ وَاشْتِيَاقِ

تَرَىٰ الْأَمْرَ المُغَيَّبَ ذَا عِيَانٍ ❁ وَتَحْظَىٰ بِالْوِصَالِ وَبِالتَّلاقِ

وزادَها ابنُ عَجِيبَةَ نَفْعًا وبَيانًا بِقَوْلِهِ :

فَلا دَهَشٌ وَحَامِي الْحَيِّ حَيٌّ ❁ وَلا عَطَشٌ وَسَاقِي الْقَوْمِ بَاقِ

فَمَا الدُّنْيَا بِبَاقِيَةٍ لِحَيٍّ ❁ وَمَا حَيٌّ عَلَى الدُّنْيَا بِبَاقِ

فَلَوْ أَشْرَقَ نُورُ اليَقِينِ فِي قَلْبِكَ ، لَرَأَيْتَ الآخِرَةَ الآتِيَةَ حاضِرَةً لَدَيْكَ ، أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْها ؛ إِذْ هِيَ الرَّاحِلَةُ إِلَيْكَ ، والمُدْرِكَةُ لَكَ ، ولَرَأَيْتَ مَحاسِنَ الدُّنْيا الوَهْمِيَّةِ الفانِيَة ، قَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ الفَناءِ عَلَيْها ؛ أَيْ : قَدِ انْكَسَفَ نُورُ وُجُودِها بِظُهُورِ ظُلْمَةِ فَنائِها ، فَصارَ ما كانَ ظاهِرًا باطِنًا ، وما كانَ باطِنًا صَارَ ظاهِرًا ، وما كانَ لَطِيفًا صارَ كَثِيفًا ، وما كانَ غَيْبًا صارَ شَهادَةً ، وما كانَ شَهادَةً صارَ غَيْبًا ، وإِنَّما بَعَّدَ ذَلِكَ عَنِ الخَلْقِ ضَعْفُ إِيمانِهِمْ ، وقِلَّةُ نُورِ إِيقانِهِمْ ، ولَوْ أَشْرَقَ نُورُ اليَقِينِ فِي قُلُوبِهِمْ لَرَأَوا الدُّنْيا مَكْسُوفَةً أَنْوارُها ، بادِيَةً عُوارُها ، كَما رَآها سَيِّدُنا حارِثَةُ رضي الله عنه حِينَ أَخْبَرَ عَنْ حَقِيقَةِ إِيمانِه ؛ فَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ :

(بَيْنَما رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْشِي ، إِذِ اسْتَقْبَلَهُ شابٌّ مِنَ الأَنْصار ، فَقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ يا حارِثَةُ ؟ قالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا بِاللهِ حَقًّا ، فَقالَ لَهُ : انْظُرْ ما تَقُولُ ، فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً ، فَما حَقِيقَةُ إِيمانِكَ ؟ فَقالَ : يا رَسُولَ اللهِ ! عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيا ؛ أَي : أَدْبَرَتْ وهَرَبَتْ ، فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي ، وأَظْمَأْتُ نَهارِي ، فَكَأَنِّي بِعَرْشِ رَبِّي بارِزًا ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَزاوَرُونَ فِيها ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَعاوَوْنَ فِيها ، فَقالَ لَهُ : أَبْصَرْتَ فالْزَمْ ، عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ الإِيمانَ فِي قَلْبِه ؛ قالَ : يا رَسُولَ اللهِ ! ادْعُ لِي بِالشَّهادَة ، فَدَعا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَقُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ شَهِيداً ، فَجاءَتْ أُمُّهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَتْ : يا رَسُولَ اللهِ ! قَدْ عَلِمْتَ مَنْزِلَةَ حارِثَةَ مِنِّي ، فَإِنْ يَكُنْ فِي الجَنَّةِ أَصْبِرْ ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الجَنَّةِ تَرَ ما أَصْنَعُ ، فَقالَ ، أَوَ هُبِلْتِ ؟ أَجَنَّةٌ هِيَ ؟ إِنَّها جِنانٌ ، وإِنَّ ابْنَكِ أَصابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى ، فَرَجَعَتْ وهِيَ تَضْحَكُ وتَقُولُ : بَخٍ بَخٍ يا حارِثَة) .

وكَما رَآها سَيِّدُنا مُعاذُ بنُ جَبَل رضي الله عنه حِينَ دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وهُوَ يَبْكِي ، فَقالَ لَهُ : (كَيْفَ أَصْبَحْتَ يا معاذُ ؟ قالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا ، فَقالَ : إِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ مِصْداقًا ، ولِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً ، فَما مِصْداقُ ما

تَقُولُ ؟ فَقالَ : يا رَسُولَ اللهِ ! ما أَصْبَحْتُ صَباحًا قَطُّ إلَّا ظَنَنْتُ لا أُمْسِي ، وما أَمْسَيْتُ قَطُّ إلَّا ظَنَنْتُ لا أُصْبِحُ ، ولا خَطَوْتُ خُطْوَةً قَطُّ إلَّا ظَنَنْتُ أَنِّي لا أُتْبِعُها بِأُخْرَى ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إلَى كُلِّ أُمَّةٍ جاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلَى كِتابِها ، مَعَها نَبِيُّها وأَوْثانُها الَّتي كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إلَى عُقُوبَةِ أَهْلِ النَّارِ ، وثَوابِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، فَقالَ ﷺ : عَرَفْتَ فالْزَمْ) .

فَهَذانِ الرَّجُلانِ الأَنْصارِيَّانِ أَشْرَقَ نُورُ الإيقانِ فِي قُلُوبِهِما ، وشَرَحَ اللهُ صُدُورَهُما ، فَرَأَيا ما كانَ آجِلًا عاجِلًا ، وما كانَ آتِيًا واصِلًا .

وفِي الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (إنَّ النُّورَ إذا دَخَلَ القَلْبَ ، انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وانْفَسَحَ ، قِيلَ : يا رَسُولَ اللهِ ! هَلْ لِذَلِكَ مِنْ عَلامَةٍ يُعْرَفُ بِها ؟ قالَ : نَعَمْ ، التَّجافِي عَنْ دارِ الغُرُورِ ، والإنابَةُ إلَى دارِ الخُلُودِ ، والاسْتِعْدادُ لِلمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ) أَوْ كَما قالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام .

وقالَ أَحْمَدُ بنُ عاصِمٍ الأَنْطاكِي : ((اليَقِينُ نُورٌ يَجْعَلُهُ اللهُ فِي قَلْبِ العَبْدِ حَتَّى يُشاهِدَ بِهِ أُمُورَ آخِرَتِهِ ، ويَخْرِقَ بِهِ كُلَّ حِجابٍ بَيْنَهُ وبَيْنَها حَتَّى يُطالِعَ الآخِرَةَ كالمُشاهِدِ لَها)) .

قالَ ابنُ عَجيبَة : فَإذا تَكامَلَ إشْراقُ نُورِ الإيقان ، غَطَّى وُجُودَ الأَكْوان ، ووَقَعَ العَيانُ عَلَى فَقْدِ الأَعْيان ، ولَمْ يَبْقَ إلَّا نُورُ المَلِكِ الدَّيَّان ، كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(ما حَجَبَكَ عَنِ اللهِ وُجُودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ ؛ إذْ لا شَيْءَ مَعَهُ ، ولَكِنْ حَجَبَكَ عَنْهُ تَوَهُّمُ مَوْجُودٍ مَعَهُ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : الحَقُّ تَعالَى ظاهِرٌ ، ونُورُهُ للبَصائِرِ باهِرٌ ، وإنَّما حَجَبَهُ مُقْتَضَى اسْمِهِ الحَكِيم ، واسْمِهِ القاهِر ، فَما حَجَبَكَ عَنْ شُهُودِ الحَقِّ وُجُودُ شَيْءٍ مَعَهُ : ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١) .

ولَكِنْ حَجَبَكَ عَنْ شُهُودِهِ تَوَهُّمُ وُجُودِ مَوْجُودٍ مَعَهُ ، ولا شَيْءَ مَعَهُ ، وكَما كانَ لا شَيْءَ ، بَقِيَ ولا شَيْءَ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ (٢) .

واحِدٌ فِي ذاتِهِ ، وفِي صِفاتِهِ ، وفِي أَفْعالِهِ ، فالفِعْلُ لا يَصْدُرُ مِنْ غَيْرِ صِفَةٍ ، والصِّفَةُ لا تُفارِقُ المَوْصُوفَ ، فالفِعْلُ مُتَّحِدٌ ، والفاعِلُ واحِدٌ ، والصِّفَةُ مُتَّحِدَةٌ والمُتَّصِفُ بِها واحِدٌ .

وللشَّشْتُري رضي الله عنه :

صِفَاتِيَ لا تَخْفَى لِمَنْ نَظَرْ ❁ وَذَاتِيَ مَعْلُومَةُ تِلْكَ الصُّوَرْ

فَافْنَ عَنِ الْإِحْسَاسِ تَرَى عِبَرْ

---

(١) سُورَةُ النَّمْل : مِنَ الآيَة ٦٣ . (٢) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ٣ .

وسَبَبُ تَوَهُّمِ الغَيْرِيَّةِ عَدَمُ الفِكْرَة ، وسَبَبُ عَدَمِ الفِكْرَةِ حُبُّ العاجِلَةِ فَهِيَ الشَّاغِلَةُ للقُلُوبِ عَنِ السَّيْرِ إلَى حَضْرَةِ عَلَّامِ الغُيُوب .

وحِكْمَةُ حُبِّ الدُّنْيا ظُهُورُ القَهْرِيَّة ، فَمِنْ قَهَّارِيَّتِهِ - تَعالَى - أَنِ احْتَجَبَ بِلا حِجاب ، وغَطَّى نُورَ شَمْسِهِ بِلا سَحاب .

وأَيْضًا قَوالِبُ العُبُودِيَّةِ حَجَبَتْ مَظاهِرَ أَنْوارِ الرُّبُوبِيَّة ، ووُجُودُ الحِكْمَةِ سَتَرَ ظُهُورَ القُدْرَة .

وقالَ بَعْضُ العارِفِينَ : ((الحَقُّ - تَعالَى - مُنَزَّهٌ عَنِ الأَيْنِ والجِهَةِ ، والكَيْفِ والمادَّةِ والصُّورَة ، ومَعَ ذَلِكَ لا يَخْلُو مِنْهُ أَيْنٌ ولا مَكانٌ ، ولا كَمٌّ ولا كَيْفٌ ، ولا جِسْمٌ ولا جَوْهَرٌ ولا عَرَضٌ ؛ لأَنَّهُ لِلُطْفِهِ سارٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، ولِنُورِيَّتِهِ ظاهِرٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، ولإِطْلاقِهِ وإِحاطَتِهِ مُتَكَيِّفٌ بِكُلِّ كَيْف ، غَيْرُ مُتَقَيِّدٍ بِذَلِكَ ؛ ومَنْ لَمْ يَذُقْ هَذا ولَمْ يَشْهَدْهُ فَهُوَ أَعْمَى البَصِيرَةِ ، مَحْرُومٌ عَنْ مُشاهَدَةِ الحَقِّ)) .

ومِنْ كَلام ابنِ وَفا رضي الله عنه :

هُوَ الْحَقُّ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ ❁ هُوَ الرَّحْمٰنُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ
هُوَ النُّورُ الْمُبِينُ بِغَيْرِ شَكٍّ ❁ هُوَ الرَّبُّ الْمُحَجَّبُ فِي الْعَبِيدِ
هُوَ الْمَشْهُودُ فِي الْأَشْهَادِ يَبْدُو ❁ فَيُخْفِيهِ الشُّهُودُ عَنِ الشَّهِيدِ
هُوَ الْعَيْنُ الْعِيَانُ لِكُلِّ غَيْبٍ ❁ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ

جَمِيعُ الْعَالَمِينَ لَهُ ظِلالٌ ۞ سُجُودٌ فِي الْقَرِيبِ وَفِي الْبَعِيدِ وَهَذَا الْقَدْرُ فِي التَّحْقِيقِ كَافٍ ۞ فَكُفَّ النَّفْسَ عَنْ طَلَبِ الْمَزِيدِ

وقالَ الشَّيْخُ القُطْبُ مَوْلايَ عَبْدُ السَّلام بنُ مَشِيش مُخاطِبًا لِوارِثِهِ الشَّيْخ أَبِي الحَسَنِ الشَّاذِلِي رضي الله عنه : فِي وَصِيَّةٍ لَهُ ، وقَدْ تَقَدَّمَتْ : ((حَدِّدْ بَصَرَ الإيمان ، تَجِدِ اللّٰهَ تَعالَى فِي كُلِّ شَيْء ، وعِنْدَ كُلِّ شَيْء ، ومَعَ كُلِّ شَيْء ، وقَبْلَ كُلِّ شَيْء ، وبَعْدَ كُلِّ شَيْء ، وفَوْقَ كُلِّ شَيْء ، وتَحْتَ كُلِّ شَيْء ، وقَرِيبًا مِنْ كُلِّ شَيْء ، ومُحِيطًا بِكُلِّ شَيْء ، بِقُرْبٍ هُوَ وَصْفُهُ ، وبِحَيْطَةٍ هِيَ نَعْتُهُ ، وعَدِّ عَنِ الظَّرْفِيَّةِ والحُدُودِ ، وعَنِ الأَماكِنِ والجِهاتِ ، وعَنِ الصُّحْبَةِ والقُرْبِ فِي المَسافاتِ ، وعَنِ الدَّوْرِ بِالمَخْلُوقاتِ ، وامْحَقِ الكُلَّ بِوَصْفِهِ الأَوَّلِ والآخِرِ ، والظَّاهِرِ والباطِنِ ، وهُوَ هُوَ هُوَ : كانَ اللّٰهُ ولا شَيْءَ مَعَهُ ، وهُوَ الآنَ عَلَى ما عَلَيْهِ كانَ)) .

قالَ بَعْضُهُمْ : ((ونَبَّهَ بِقَوْلِهِ : وعَدِّ إلخ ، عَلَى أَنَّ ما جَرَى مِنْ كَلامِهِ مِنَ الظُّرُوفِ لَيْسَتْ بِزَمانِيَّةٍ ولا مَكانِيَّةٍ لأَنَّها مِنْ جُمْلَةِ الأَكْوانِ ؛ وإِنَّما هِيَ أُمُورٌ ذَوْقِيَّة ، فاعْتَقِدْ كَمالَ التَّنْزِيه ، وبُطْلانَ التَّشْبِيه ، وتَمَسَّكْ بِقَوْلِهِ عَزَّ وجَلَّ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ الشُّورَى : مِنَ الآيَة ١١ .

وسَلِّمْ ذَلِكَ لأَهْلِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ عَلَى بَصِيرَةٍ فِيما رَمَزُوا إِلَيْهِ مِمَّا ذاقُوهُ ووَجَدُوهُ ، بَلْ هُوَ مِنْ مَحْضِ الإِيمان ، وخالِصِ العِرْفان ، وهُوَ حَقِيقَةُ التَّوْحِيد ، وصَفْوُ الإِيمان .

وأَمَّا قَوْلُهُ : وهُوَ الآنَ عَلَى ما هُوَ عَلَيْهِ كانَ ، وإِنْ لَمْ يَرِدْ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيح ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ صَحِيحٌ ؛ إِذْ لا وُجُودَ فِي الحَقِيقَةِ للأَشْياءِ مَعَهُ تَعالَى ، وإِنَّما هِيَ كالخَيالِ ووُجُودِ الظِّلالِ ، فَلا تُنْسَخُ أَحَدِيَّتُهُ ، ولا تُرْفَعُ فَرْدانِيَّتُهُ .

وبِالجُمْلَةِ فَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ شُهُودُ الأَحَدِيَّة ، وكُوشِفَ بِسِرِّ الوَحْدانِيَّة ، واسْتَغْرَقَ فِي الحَقِيقَةِ العَيانِيَّة ، انْقَطَعَ عَنِ الشُّعُورِ بِنَفْسِهِ ، وغابَ عَنِ السِّوَى بِالكُلِّيَّة ، وإِنْ رُدَّ إِلَى الشُّعُورِ بِهِ رَآهُ قائِمًا بِهِ وظاهِراً فِيهِ وبِهِ ، وحُكْمًا مِنْ أَحْكامِهِ)) .

وقالَ فِي ((لَطائِف المِنَن)) : وأَشْبَهُ شَيْءٍ بِوُجُودِ الكائِناتِ إِذا نَظَرْتَ إِلَيْها بِعَيْنِ البَصِيرَةِ وُجُودُ الظِّلالِ والظِّلِّ ، لا مَوْجُودَ بِاعْتِبارِ جَمِيعِ مَراتِبِ الوُجُود ، ولا مَعْدُومَ بِاعْتِبارِ جَمِيعِ مَراتِبِ العَدَم .

وإِذا ثَبَتَ ظِلِّيَّةُ الآثار ، لَمْ تُنْسَخْ أَحَدِيَّةُ المُؤَثِّرِ لأَنَّ الشَّيْءَ إِنَّما يُشْفَعُ بِمِثْلِهِ ، ويُضَمُّ إِلَى شَكْلِهِ ، كَذَلِكَ أَيْضًا مَنْ شَهِدَ ظِلِّيَّةَ الآثار ، لَمْ تَعُقْهُ عَنِ اللهِ ، فَإِنَّ ظِلالَ الأَشْجارِ فِي الأَنْهارِ لا تَعُوقُ السُّفُنَ عَنِ

التَّسْيار ، ومِنْ ها هُنا تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الحِجابَ لَيْسَ أَمْراً وُجُودِيًّا بَيْنَكَ وبَيْنَ اللّهِ تَعالَى ، ولَوْ كانَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ حِجابٌ وُجُودِيٌّ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْهُ ، ولا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنَ اللّه . فَرَجَعَتْ حَقِيقَةُ الحِجابِ إِلَى تَوَهُّمِ الحِجاب .

كانَ اللّهُ ولا شَيْءَ مَعَهُ

ولَمَّا قَرَّرَ أَمْرَ الوَحْدَةِ ونَفَى وُجُودَ الغَيْرِيَّةِ ، اسْتَشْعَرَ سائِلًا يَقُولُ لَهُ : وهَذِهِ المُكَوَّناتُ الظَّاهِرَةُ فَما نَقُولُ فِيها مَعَ ثُبُوتِ الوَحْدَة ؟ فَأَجابَ بِأَنَّها قائِمَةٌ بِهِ ، ولَوْلا ظُهُورُ نُورِهِ فِيها ما ظَهَرَتْ ، كَما بَيَّنَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(لَوْلا ظُهُورُهُ فِي المُكَوَّناتِ ما وَقَعَ عَلَيْها وُجُودُ الصِّفاتِ ، ولَوْ ظَهَرَتْ صِفاتُهُ اضْمَحَلَّتْ مُكَوَّناتُهُ) :

الأَكْوانُ لا وُجُودَ لَها مِنْ ذاتِها ، فَلَوْلا ظُهُورُ الحَقِّ بِها ما ظَهَرَتْ ، ولا وَقَعَ عَلَيْها إِبْصارُ الخَلْقِ كَما قالَ القائِل :

مَنْ لا وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ ❁ فَوُجُودُهُ لَوْلاهُ عَيْنُ مُحَالِ

وقالَ آخَرُ :

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الحَقُّ لَمْ يَبْقَ كَائِنٌ ❁ فَمَا ثَمَّ مَوْصُولٌ وَمَا ثَمَّ بَائِنُ

بِذَا جَاءَ بُرْهَانُ الْعِيَانِ فَمَا أَرَى ❁ بِعَيْنِيَ شَيْئًا غَيْرَهُ إِذْ أُعَايِنُ

وظُهُورُهُ تعالَى بواسِطَةِ تَجَلِّياتِ الأَكْوانِ فِيهِ لُطْفٌ كَبِير ؛ إِذْ لا يُمْكِنُ شُهُودُهُ ومَعْرِفَتُهُ إِلَّا بِواسِطَةِ هَذِهِ التَّجَلِّيات ، ولَوْ ظَهَرَ بالأَوْصافِ الَّتي كانَ عَلَيْها فِي الأَزَلِ بلا واسِطَةٍ لَتَلاشَتِ الكائِناتُ واضْمَحَلَّتْ .

وفِي الحَدِيث : (حِجابُهُ النُّورُ ، لَوْ كُشِفَ عَنْهُ ، لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ) .

وهَذا مَعْنَى قَوْلِهِ : لَوْ ظَهَرَتْ صِفاتُهُ اضْمَحَلَّتْ مُكَوَّناتُهُ ؛ أَيْ : لَوْ ظَهَرَتْ نُعُوتُهُ الأَصْلِيَّةُ الأَزَلِيَّة ، لاضْمَحَلَّتِ المُكَوَّناتُ الحَدِيثَة ؛ إِذِ الكائِناتُ كُلُّها تَكْثِيفٌ للأَسْرارِ اللَّطِيفَة .

وما مِثالُ الكَوْنِ إِلَّا كالثَّلْجَة ، ظاهِرُها جامِدٌ ، وباطِنُها مائِع ، فَإِذا ذُوِّبَتِ الثَّلْجَةُ رَجَعَتْ إِلَى أَصْلِها ماءً ، ولَمْ يَبْقَ للثَّلْجَةِ أَثَرٌ ، فَكَذَلِكَ المُكَوَّناتُ الحِسِّيَّة ، إِذا ظَهَرَتْ أَسْرارُها اللَّطِيفَةُ الَّتي قامَتْ بِها ، ذابَتْ ذَواتُها الكَثِيفَةُ وتَلاشَتْ ورَجَعَتْ لأَصْلِها ، وإِلَى هَذا المَعْنَى أَشارَ صاحِبُ العَيْنِيَّةِ بِقَوْلِهِ :

وَمَا الْكَوْنُ فِي التِّمْثَالِ إِلَّا كَثَلْجَةٍ ❁ وَأَنْتَ لَهَا الْمَاءُ الَّذِي هُوَ نَابِعُ

فَمَا الثَّلْجُ فِي تَحْقِيقِنا غَيْرُ مَائِهِ ❁ وَغَيْرَانِ فِي حُكْمٍ دَعَتْهُ الشَّرَائِعُ

وَلَكِنْ بِذَوْبِ الْمَاءِ يُرْفَعُ حُكْمُهُ ❁ وَيُوضَعُ حُكْمُ الْمَاءِ وَالْأَمْرُ وَاقِعُ

فَمَنْ وَقَفَ مَعَ ظاهِرِ الثَّلْجَةِ أَنْكَرَ الماءَ الَّذي فِي باطِنِها وكانَ جاهِلًا بِحَقِيقَتِها ، ومَنْ نَفَذَ إِلَى باطِنِها عَرَفَ أَصْلَها وفَرْعَها ، وكَذَلِكَ الأَكْوانُ ظاهِرُها غِرَّةٌ لِمَنْ وَقَفَ مَعَ كَثافَتِها ، وباطِنُها عِبْرَةٌ لِمَنْ نَفَذَ إِلَى أَصْلِها .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ الحِسَّ لا قِيامَ لَهُ إِلَّا بِالمَعْنَى ، وهِيَ مَعْنَى أَسْرارِ الذَّات ، فَصارَ قِيامُ الأَشْياءِ كُلِّها بِاللّه ، ولا وُجُودَ لَها مَعَهُ ، وهُوَ الَّذي أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ الفارِضِ بِقَوْلِهِ :

وَقَامَتْ بِهَا الْأَشْيَاءُ ثُمَّ لِحِكْمَةٍ ۞ بِهَا احْتَجَبَتْ عَنْ كُلِّ مَنْ لا لَهُ فَهْمُ

أَيْ : قامَتِ الأَشْياءُ كُلُّها بِالذَّاتِ العَلِيَّة ؛ أَيْ : بِأَسْرارِها اللَّطِيفَةِ الأَزَلِيَّة .

وقَوْلُهُمْ أَيْضًا : الذَّاتُ عَيْنُ الصِّفات ، والصِّفاتُ عَيْنُ الذَّات ؛ فاعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كانَ لا ظُهُورَ للذَّاتِ إِلَّا مِنْ أَنْوارِ الصِّفات ، ولا قِيامَ للصِّفاتِ إِلَّا بِالذَّات ، والصِّفاتُ لا تُفارِقُ المَوْصُوفَ ، صارَ كَأَنَّ هَذا عَيْنُ هَذا ، فَنَطَقُوا بِتِلْكَ العِبارَةِ تَحْوِيشًا للجَمْعِ ، وفِراراً مِنَ الفَرْقِ ، وهُوَ اصْطِلاحٌ مِنْهُمْ ؛ سَمَّوْا ما تَكَثَّفَ وظَهَرَ للحِسِّ : صِفات ، وما بَطَنَ مِنْ سِرِّ الرُّبُوبِيَّةِ : ذاتًا ومَعْنًى ، والصِّفاتُ لا تُفارِقُ المَوْصُوف ، كَما تَقُولُ فِي الثَّلْجَة : ظاهِرُها ثَلْج ، وباطِنُها ماء ، فالثَّلْجُ صِفات ، والماءُ ذات ،

والثَّلْجُ حِسٌّ ، والماءُ مَعْنًى ؛ لِلَطافَتِهِ وخَفائِهِ صارَ كَأَنَّهُ مَعْنًى .

قالَ سَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاس رضي الله عنهما فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (١) : فِي كُلِّ شَيْءٍ اسْمٌ مِنْ أَسْمائِهِ ، واسْمُ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ اسْمِهِ ، فَإِنَّما أَنْتَ بَيْنَ أَسْمائِهِ وصِفاتِهِ وأَفْعالِهِ ، باطِنًا بِقُدْرَتِهِ ، ظاهِراً بِحِكْمَتِهِ ، ظَهَرَ بِصِفاتِهِ ، وبَطَنَ بِذاتِهِ ، حَجَبَ الذَّاتَ بِالصِّفات ، وحَجَبَ الصِّفاتِ بِالأَفْعال ، وكَشَفَ العِلْمَ بِالإِرادَة ، وأَظْهَرَ الإِرادَةَ بِالحَرَكات ، وأَخْفَى الصُّنْعَ فِي الصَّنْعَةِ ، وأَظْهَرَ الصَّنْعَةَ بِالذَّوات ، فَهُوَ باطِنٌ فِي غَيْبِهِ ، وظاهِرٌ بِحِكْمَتِهِ وقُدْرَتِهِ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (٢) .

فَقَوْلُهُ رضي الله عنه : حَجَبَ الذَّاتَ بِالصِّفات ؛ أَيْ حَجَبَ أَسْرارَ الذَّاتِ بِأَنْوارِ الصِّفاتِ ، وهِيَ أَثَرُها .

وقَوْلُهُ رضي الله عنه : وحَجَبَ الصِّفاتِ بِالأَفْعال ؛ لأَنَّ الأَفْعالَ ظُرُوفٌ للصِّفات ؛ لأَنَّها أَثَرٌ مِنْ أَثارِها ، ومُظْهِرَةٌ لَها .

وقَوْلُهُ رضي الله عنه : وكَشَفَ العِلْمَ بِالإِرادَة ؛ أَيْ : أَظْهَرَ ما سَبَقَ فِي عِلْمِهِ بِإِرادَتِهِ المُخَصَّصَةِ لِوَقْتِ إِظْهارِهِ .

---

(١) سُورَةُ الجاثِيَة : مِنَ الآيَة ١٣ .

(٢) سُورَةُ الشُّورَى : مِنَ الآيَة ١١ .

وقَوْلُهُ ﷺ : وأَظْهَرَ الإرادَةَ بالحَرَكات ؛ أَيْ : أَظْهَرَ ما سَبَقَ مِنْ إرادَتِهِ بِظُهُورِ الحَرَكاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ما أَراد .

وقَوْلُهُ ﷺ : وأَخْفَى الصُّنْعَ فِي الصَّنْعَةِ ؛ أَيْ : أَخْفَى الصَّانعَ فِي صَنْعَتِهِ .

وقَوْلُهُ ﷺ : وأَظْهَرَ الصَّنْعَةَ بالذَّوات ؛ أَيْ : أَظْهَرَ قُدْرَتَهُ فِي الأَجْرامِ وسائِرِ الذَّوات .

وقَوْلُ شَيْخِ شُيُوخِنا سَيِّدِي عَلِيٍّ ﷺ : فِي كِتابِهِ تَفْسِيرِ الذَّاتِ والصِّفات : إنَّ كُلَّ ما هُوَ جَلالٌ فَهُوَ ذات ، وكُلَّ ما هُوَ جَمالٌ فَهُوَ صِفات ، فَإِنَّما ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّشْبِيه ، فَإِنَّ تَجَلِّي الصِّفاتِ كُلُّهُ جَمالٌ ؛ لأَنَّهُ مَحَلُّ نُزْهَةِ أَرْواحِ العارِفِين ، وبِهِ يَرْتَقِي أَهْلُ الدَّلِيلِ إِلَى مَعْرِفَةِ رَبِّ العالَمِين ، وهُوَ الَّذي شَبَّهَهُ الشَّيْخُ ابنُ مَشِيش بالرِّياضِ فِي قَوْلِهِ : فَرِياضُ المَلَكُوتِ بِزَهْرِ جَمالِهِ مُونِقَة .

وأَيْضًا هُوَ الَّذي تُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ ، وتَحْصُلُ المَعْرِفَةُ بِهِ ، بِخِلافِ تَجَلِّي الذَّات ؛ فَإِنَّهُ جَلالٌ مَحْضٌ ؛ إِذْ لَوْ ظَهَرَتْ ذَرَّةٌ مِنْ نُورِهِ الأَصْلِيِّ بِلا واسِطَةٍ لاحْتَرَقَ الكَوْنُ مِنْ أَصْلِهِ .

وفِي الحَدِيثِ : (حِجابُهُ النَّارُ) ، وفِي رِوايَةٍ : (النُّورُ ، لَوْ كَشَفَ عَنْها لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ) .

فَصارَ تَجَلِّي الصِّفاتِ كُلُّهُ جَمالٌ ، وتَجَلِّي الذَّاتِ كُلُّهُ جَلالٌ ، فَأَطْلَقَ وَجْهَ التَّشْبِيهِ أَنَّ كُلَّ ما يَشُقُّ عَلَى النَّفْسِ فَهُوَ ذاتٌ ؛ لأَنَّهُ جَلالٌ كَتَجَلِّي الذَّات ، وكُلَّ ما يَخِفُّ عَلَى النَّفْسِ فَهُوَ صِفاتٌ ، لأَنَّهُ جَمالٌ كَتَجَلِّي الصِّفات .

ثُمَّ اسْتَدَلَّ ابنُ عَطاءِ اللهِ عَلَى ظُهُورِهِ فِي المُكَوَّناتِ بِقَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ (١) .

فَأَشارَ إِلَى تَفْسِيرِ الظَّاهِرِ والباطِنِ بِقَوْلِهِ :

(أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ بِأَنَّهُ الباطِن ، وطَوَى وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ بِأَنَّهُ الظَّاهِر) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مُضَمَّنُهُ أَنَّ اسْمَهُ - تَعالَى - الباطِنُ يَقْتَضِي ظُهُورَ الأَشْياءِ حِسًّا لِيَكُونَ باطِنًا بِسَبَبِ ظُهُورِ حِسِّها ؛ لأَنَّ الحِسَّ رِداءُ أَسْرارِ المَعانِي ، واسْمَهُ الظَّاهِرَ يَقْتَضِي بُطُونَ الأَشْياء ؛ أَيْ : هَلاكُها واضْمِحْلالُها ؛ لِيَكُونَ ظاهِراً بِما ظَهَرَ مِنْها ، هَذا مَعْنَى قَوْلِهِ : أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ بِأَنَّهُ الباطِنُ ؛ أَيْ : بِسَبَبِ أَنَّهُ الباطِنُ ؛ لِيَتَحَقَّقَ بُطُونُهُ بِها ، وطَوَى وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ بِسَبَبِ أَنَّهُ الظَّاهِرُ ؛ لِيَتَحَقَّقَ انْفِرادُهُ بِالظُّهُورِ فِيها .

---

(١) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ٣ .

والحاصِلُ : أَنَّ الحَصْرَ فِي قَوْلِهِ تعالَى : (هُوَ الظَّاهِرُ) يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لا ظاهِرَ مَعَهُ ، فانْطَوَى وُجُودُ الأَشْياءِ واضْمَحَلَّ لَها ، وقَوْلِهِ : (هُوَ الباطِنُ) يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لا باطِنَ سِواه ، فَبَطَنَتِ الأَشْياءُ كُلُّها بَعْدَ ظُهُورِها ، فَدَلَّ كَلامُهُ سُبْحانَهُ أَنَّ ما ظَهَرَ بِهِ هُوَ الَّذِي بَطَنَ فِيه ، والَّذِي بَطَنَ بِهِ هُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِيه ، وإِلَّا لَمْ يَصِحَّ الحَصْر .

فَإِنْ قُلْتَ : المُتَقابِلانِ لا يَجْتَمِعانِ كالضِّدَّيْنِ ، وكَيْفَ جَمَعْتَهُما فِي ذاتٍ واحِدَة ؟

قُلْتُ : لَمْ يَتَوارَدا عَلَى مَحَلٍّ واحِدٍ ، بَلْ ذَلِكَ بِاعْتِبارَيْنِ : فاسْمُهُ الظَّاهِرُ بِاعْتِبارِ الحِسِّ فِي عالَمِ الحِكْمَة ، واسْمُهُ الباطِنُ بِاعْتِبارِ المَعْنَى فِي عالَمِ القُدْرَة ؛ فالحِكْمَةُ ظاهِرَةٌ ، والقُدْرَةُ باطِنَةٌ .

أَوْ تَقُولُ : ظاهِرٌ بِاعْتِبارِ مَظاهِرِ الرُّبُوبِيَّة ، باطِنٌ بِاعْتِبارِ قَوالِبِ العُبُودِيَّة .

أَوْ تَقُولُ : ظاهِرٌ بِاعْتِبارِ التَّعْرِيف ، باطِنٌ بِاعْتِبارِ التَّكْيِيف ، فالذَّاتُ واحِدَةٌ ، والاعْتِباراتُ مُخْتَلِفَةٌ ، وذَلِكَ كَثِير .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ ظاهِرٌ فِي بُطُونِهِ ، باطِنٌ فِي ظُهُورِهِ ، ما ظَهَرَ بِهِ هُوَ الَّذي بَطَنَ فِيه ؛ أَيْ : ما ظَهَرَ فِيهِ بِحِكْمَتِهِ ، هُوَ الَّذي بَطَنَ فِيها بِقُدْرَتِهِ ، وما بَطَنَ فِيهِ بِقُدْرَتِهِ ، هُوَ الَّذي ظَهَرَ فِيهِ بِحِكْمَتِهِ ، وهُوَ

الَّذي قَصَدَهُ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ :

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ۞ إِلَّا عَلَى أَكْمَهٍ لا يُبْصِرُ الْقَمَرَا

لَكِنْ بَطَنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِبًا ۞ وَكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرَا

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ كَيْفِيَّةَ النَّظَرِ والاعْتِبارِ فِي المُكَوَّناتِ لِتَعْرِفَ ظُهُورَهُ تَعالَى فِيها فَقالَ :

(أَباحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ ما فِي المُكَوَّنات ، وما أَذِنَ لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَواتِ المُكَوَّنات : ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، فَبِقَوْلِهِ : ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فَتَحَ لَكَ بابَ الأَفْهام ، ولَمْ يَقُلْ : انْظُرُوا السَّمَوات ؛ لِئَلَّا يَدُلَّكَ عَلَى وُجُودِ الأَجْرام) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِنَّما أَبْرَزَ اللهُ هَذِهِ المُكَوَّنات ، وأَظْهَرَ هَذِهِ العَوالِمَ لِيُعْرَفَ بِها ، ويَظْهَرَ نُورُهُ فِيها ، قالَ تَعالَى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (١) .

وقالَ تَعالَى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ (٢) .

قالَ فِي ((لَطائِف المِنَن)) : فَما نُصِبَتِ الكائِناتُ لِتَراها ، ولَكِنْ لِتَرَى فِيها مَوْلاها ، فَمُرادُ الحَقِّ مِنْكَ أَنْ تَراها بِعَيْنِ مَنْ لا يَراها ، تَراها

---

(١) سُورَةُ الدُّخان : الآيَتان ٣٨ ، ٣٩ . (٢) سُورَةُ المُؤْمِنُون : مِنَ الآيَة ١١٥ .

مِنْ حَيْثُ ظُهُورُهُ فِيها ، ولا تَراها مِنْ حَيْثُ كَوْنِيَّتُها ، قالَ : ولَنا فِي هَذا المَعْنَى :

مَـا أَقَـامَ لَـكَ الْعَـوَالِـمَ إِلَّا ❁ لِتَـرَاهَـا بِعَـيْنِ مَـنْ لا يَـرَاهـا

فَارْقَ عَنْهَا رُقِيَّ مَنْ لَيْسَ يَرْضَىٰ ❁ حَـالَـةً دُونَ أَنْ يَـرَى مَـوْلاهَـا

فَأَباحَ لَكَ أَيُّها الإِنْسانُ أَنْ تَنْظُرَ ماذا فِي السَّمَواتِ والأَرْضِ مِنَ النُّورِ اللَّطِيفِ الَّذي قامَتْ بِهِ الأَشْياء ، وما أَباحَ لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَواتِ المُكَوَّنات ؛ تَقِفَ مَعَ القِشْر ، وتُحْجَبَ عَنِ اللُّبِّ ، وقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ : ((الأَكْوانُ ظاهِرُها غِرَّة ، وباطِنُها عِبْرَة ، فَمَنْ وَقَفَ مَعَ ظاهِرِها كانَ مَحْجُوبًا ، ومَنْ نَفَذَ إِلَى باطِنِها كانَ عارِفًا مَحْبُوبًا)) ، ولأَجْلِ هَذا السِّرِّ قالَ تَعالَى : ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أَيْ : ما فِيها مِنْ عَظَمَتِهِ ، ومَعانِي أَسْرارِ ذاتِهِ ، وكَمالِ قُدْرَتِهِ وإِرادَتِهِ وسائِرِ صِفاتِهِ ، فَقَدْ فَتَحَ لَكَ بابَ الأَفْهام ؛ أَيْ : فَتَحَ لَكَ بابَ الفَهْمِ لِتَدْخُلَ بِها مِنْ ظاهِرِ القِشْرِ إِلَى باطِنِ اللُّبِّ ، حَتَّى تَعْرِفَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وتَفْهَمَ عَنْهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، ولَوْ قالَ الحَقُّ تَعالَى : قُلِ انْظُرُوا السَّمَواتِ ، لَدَلَّكَ عَلَى الأَجْرام ، وسَدَّ لَكَ بابَ الأَفْهام ، وكَيْفَ يَدُلُّكَ عَلَى الأَجْرامِ وهِيَ أَغْيار ، والأَغْيارُ مانِعَةٌ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى شُهُودِ

الأَنْوار ؟ ومِثالُ ذَلِكَ فِي التَّقْرِيبِ لَوْ قالَ لَكَ قائِلٌ : انْظُرْ هَذِهِ الثَّلْجَة لَدَلَّكَ عَلَى ظاهِرِ جِرْمِها ، ولَوْ قالَ لَكَ : انْظُرْ ما فِي هَذِهِ الثَّلْجَة ، لَفَتَحَ لَكَ بابَ الفَهْمِ إِلَى نَظَرِ ما فِي باطِنِها مِنَ الماءِ دُونَ الوُقُوفِ مَعَ ظاهِرِ جِرْمِها .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ الأَشْياءَ كُلَّها قائِمَةٌ بِاللّٰه ، أَثْبَتَها لِيُعْرَفَ بِها ، ثُمَّ مَحاها بِوَحْدانِيَّتِهِ ؛ كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(**الأَكْوانُ ثابِتَةٌ بِإِثْباتِهِ ، مَمْحُوَّةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذاتِه**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الأَكْوانُ** : هِيَ ما ظَهَرَ فِي عالَمِ الشَّهادَة .

أَوْ تَقُولُ : ما دَخَلَ عالَمَ التَّكْوِين ، وهِيَ مَوْجُودَةٌ بِوُجُودِ الحَقِّ ، قائِمَةٌ بِهِ ، ثابِتَةٌ بِإِثْباتِهِ لِيُعْرَفَ بِها ، مَمْحُوَّةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذاتِهِ لانْفِرادِ وُجُودِهِ ، فَمَنْ أَثْبَتَها لِنَفْسِها فَقَدْ جَهِلَهُ فِيها ، ومَنْ أَثْبَتَها بِاللّٰهِ فَقَدْ عَرَفَ فِيها وشَهِدَ فِيها مَوْلاها .

النَّاسُ فِي المَدْحِ والذَّمِّ

وإِذا كانَ اللّٰهُ مَنَّ عَلَيْنا أَوَّلًا بِالطَّاعَةِ والعَمَل ، وتَفَضَّلَ عَلَيْنا ثانِيًا بِالقَبُولِ مَعَ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ عَمَلُنا مِنَ النَّقْصِ والخَلَل ، ثُمَّ إِذا وَقَعَتْ مِنَّا مَعْصِيَةٌ أَوْ زَلَل ، فَقَدْ غَطَّانا بِسِتْرِهِ وبِمَغْفِرَتِهِ لَنا تَفَضُّلًا ، وإِذا

تَوَجَّهْنا إِلَيْهِ بِقُلُوبِنا ، سَتَرَنا مِنْها وحَفِظَنا لِيَعْظُمَ قَدْرُنا ، ويَظْهَرَ شُكْرُنا ، فَنَتَّخِذَهُ صاحِبًا ، ونَدَعَ غَيْرَهُ جانِبًا ، فَحِينَئِذٍ تُشْرِقُ فِي قُلُوبِنا أَنْوارُ اليَقِين ، ونَرْحَلُ إِلَى الآخِرَةِ فِي أَقْرَبِ حِين ، ثُمَّ تُشْرِقُ عَلَيْنا أَنْوارُ الإِحْسان ، فَتَنْطَوِي لَنا رُؤْيَةُ الأَكْوان ، بِشُهُودِ نُورِ المَلِكِ الدَّيَّان ، فَحِينَئِذٍ يَنْشُرُ مَحاسِنَنا للعِباد ، فَيُقْبِلُونَ عَلَيْنا بِالثَّناءِ والمَحَبَّةِ والوِداد ، كَما أَبانَ هَذا ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ لِما يَظُنُّونَ فِيكَ ، فَكُنْ أَنْتَ ذامًّا لِنَفْسِكَ لِما تَعْلَمُهُ مِنْها) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِذا مَدَحَكَ النَّاسُ بِشَيْءٍ لَيْسَ هُوَ مَوْجُودًا فِيكَ ، فاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ هَواتِفُ مِنَ الحَقِّ يَهْتِفُونَ بِكَ ، ويَحُوشُونَكَ إِلَى الزِّيادَةِ ويَقُولُونَ لَكَ : الخَيْرُ أَمامَكَ ، فَلا تَقْنَعْ بِذَلِكَ ، ولا تَرْكَنْ إِلَى ما هُنالِكَ ، بَلِ ارْجِعْ عَلَى نَفْسِكَ بِاللَّوْمِ ، ولا يَغُرَّنَّكَ ثَناءُ القَوْمِ ؛ فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ مِنْكَ إِلَّا الصَّوانَ الظَّاهِرَ ، وأَنْتَ تَعْلَمُ مِنْ نَفْسِكَ اللُّبَّ الباطِن .

وكانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي خَيْراً مِمَّا يَظُنُّونَ ، ولا تُؤاخِذْنِي بِما يَقُولُونَ ، واغْفِرْ لِي ما لا يَعْلَمُون .

وإِنَّما قُلْنا : مَدائِحُ النَّاسِ هَواتِفُ الحَقِّ ، إِذْ لَيْسَ فِي الوُجُودِ إِلا الحَقُّ :

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ﴾ (١) .

فَأَهْلُ الفَهْمِ عَنِ اللهِ يَسْتَمِعُونَ إِلَى الخِطاب ، فَإِذا سَمِعُوهُ مَدَحَهُمْ بِشَيْءٍ ، نَظَرُوا ، فَإِذا كانَ فِيهِمْ ، عَلِمُوا أَنَّهُ تَنْبِيهٌ لَهُمْ عَلَى مَقام الشُّكْر ، وإِنْ لَمْ يَجِدُوهُ فِيهِمْ ، عَلِمُوا أَنَّهُ تَنْبِيهٌ لَهُمْ عَلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ المَقام ، ولِهَذا لَمَّا سَمِعَ الإِمامُ الأَعْظَمُ أَبُو حَنِيفَةَ رضي الله عنه قَوْمًا يَمْدَحُونَهُ بِقِيامِ اللَّيْلِ كُلِّهِ ، وكانَ لا يَقُومُ إِلَّا نِصْفَهُ ، جَعَلَ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ .

وقَدْ ذَمَّ اللهُ قَوْمًا أَحَبُّوا أَنْ يُمْدَحُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَقالَ : ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ (٢) .

ثُمَّ إِنَّ ذَمَّكَ لِنَفْسِكَ إِذا تَوَجَّهَ الخَلْقُ إِلَيْكَ بِالمَدْحِ إِنَّما هُوَ حَياءٌ مِنْ رَبِّكَ حَيْثُ سَتَرَ عُيُوبَكَ ، وأَظْهَرَ مَحاسِنَكَ ، وهُوَ الَّذي نَبَّهَ عَلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(المُؤْمِنُ إِذا مُدِحَ اسْتَحْيا مِنَ اللهِ أَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ بِوَصْفٍ لا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ التَّحْقِيقَ ما هُوَ إِلَّا سابِقَةُ التَّوْفِيق ، ومِنْ تَمامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ أَنْ خَلَقَ فِيكَ ونَسَبَ إِلَيْكَ ، فَإِذا أَطْلَقَ الثَّناءَ عَلَيْكَ

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٩١ . (٢) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٨٨ .

بِشَيْءٍ لا نِسْبَةَ لَكَ فِيهِ ، وإِنَّما أَنْتَ مَحَلٌّ لِظُهُورِهِ فاسْتَحْي مِنْهُ تَعالَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ تَعْلَمُهُ أَنَّهُ مِنْ فِعْلِ غَيْرِكَ ، أَوْ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْهُ أَصْلًا ، فَإِنْ مُدِحْتَ بِشَيْءٍ زائِدٍ عَلَى ما ظَهَرَ فِيكَ ، فاطْلُبْ مِنْهُ القُوَّةَ عَلَى المَزِيد : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١) .

ولا يَضُرُّكَ مَدْحُكَ بِما تَفْعَلُ إِنْ لَمْ تَقْصِدِ التَعَرُّضَ للمَدْح ؛ فَفِي الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (أَتَدْرُونَ مَنِ المُؤْمِنُ ؟ قالُوا : اللّهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قالَ الَّذي لا يَمُوتُ حَتَّى يَمْلَأَ مَسامِعَهُ مِمَّا يُحِبُّ ، ولَوْ أَنَّ رَجُلًا عَمِلَ بِطاعَةِ اللّهِ فِي جَوْفِ بَيْتٍ إِلَى سَبْعِينَ بَيْتًا ، عَلَى كُلِّ بَيْتٍ بابٌ مِنْ حَدِيدٍ ، لأَلْبَسَهُ اللّهُ رِداءَ عَمَلِهِ حَتَّى يَتَحَدَّثَ النَّاسُ بِذَلِكَ ويَزِيدُونَ ، قِيلَ : يا رَسُولَ اللّهِ ! كَيْفَ يَزِيدُونَ ؟ قالَ ﷺ : المُؤْمِنُ يُحِبُّ ما زادَ فِي عَمَلِهِ) الحَدِيث .

وفِي حَدِيثٍ آخَرَ : (قِيلَ : يا رَسُولَ اللّهِ ! الرَّجُلُ يَعْمَلُ خُفْيَةً ، ثُمَّ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهِ فَيَفْرَحُ ، فَقالَ ﷺ : لَهُ الأَجْرُ مَرَّتَيْنِ : أَجْرُ العَمَلِ ، وأَجْرُ الفَرَحِ) .

فَإِنْ مُدِحَ بِما لَيْسَ فِيهِ واغْتَرَّ بِذَلِكَ فَهُوَ جاهِلٌ بِرَبِّهِ ، كَما أَشارَ إِلَيْهِ

---

(١) سُورَةُ هُود : مِنَ الآيَة ١٠٧ .

ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقِينَ ما عِنْدَهُ لِظَنِّ ما عِنْدَ النَّاس) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **اليَقِينُ الَّذي عِنْدَهُ** : هُوَ عِلْمُهُ بِمَساوِيهِ وخَفايا عُيُوبِهِ ، وما انْطَوَتْ عَلَيْهِ سَرائِرُهُ مِنَ النَّقائِصِ والتَّقْصِير ، **وظَنُّ ما عِنْدَ النَّاس** : هُوَ ما يَرَوْنَ عَلَى ظاهِرِهِ مِنَ الكَمالاتِ وأَنْوارِ الطَّاعات ، الَّتي تَصْحَبُها العِلَلُ الباطِنِيَّةُ والحُظُوظُ النَّفْسانِيَّةُ ، فَيَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ بِالمَدْحِ والثَّناء ، فَإِذا قَنِعَ بِذَلِكَ وفَرِحَ بِما هُنالِكَ ، فَهُوَ أَجْهَلُ النَّاسِ وأَحْمَقُ النَّاس ؛ إِذْ قَدْ قَنِعَ بِعِلْمِ الخَلْقِ ، ولَمْ يَخَفْ مِنْ مَقْتِ الحَقِّ ، والمَطْلُوبُ مِنْ مُرِيدِ الحَقِّ عَكْسُ هَذا ، وهُوَ أَنْ يَنْقَبِضَ عِنْدَ المَدْحِ ، ويَنْبَسِطَ عِنْدَ الذَّمِّ حَتَّى يَسْتَوِيا عِنْدَهُ ، هَذا إِنْ كانَ المادِحُ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ والخَيْرِ ، وأَمَّا إِنْ كانَ جاهِلًا أَوْ فاسِقًا ، فَلا غَباوَةَ أَعْظَمُ مِنَ الرِّضا بِمَدْحِهِمْ ، والفَرَحِ بِهِمْ .

وأَمَّا إِذا أَطْلَقَ الثَّناءَ عَلَيْكَ الكَبِيرُ المُتَعال ؛ بِما لَسْتَ لَهُ أَهْلًا فِي الحال ، فَأَثْنِ عَلَيْهِ بِما هُوَ أَهْلُه ؛ كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(إِذا أَطْلَقَ الثَّناءَ عَلَيْكَ ولَسْتَ بِأَهْلٍ ، فَأَثْنِ عَلَيْهِ بِما هُوَ أَهْلُه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِذا أَطْلَقَ اللهُ تَعالَى الثَّناءَ عَلَيْكَ عَلَى أَلْسِنَةِ خَلْقِهِ

بِما لا تَعْلَمُهُ مِنْ نَفْسِكَ ، ولَسْتَ بِأَهْلٍ لَهُ ، فَأَثْنِ عَلَى اللهِ بِما هُوَ أَهْلُهُ ؛ أَيْ : بِما يَسْتَحِقُّهُ مِنَ التَّعْظِيم ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ شُكْراً لِنِعْمَةِ إِطْلاقِ الأَلْسِنَةِ بِالثَّناءِ عَلَيْكَ ، وأَيْضًا هُوَ الَّذي سَتَرَ مِنْهُمْ مَساوِيكَ ، وأَظْهَرَ لَهُمْ مَحاسِنَكَ ، ولَوْ أَظْهَرَ لَهُمْ ذَرَّةً مِنْ مَساوِيكَ لَمَقَتُوكَ وأَبْغَضُوكَ ، فَإِنَّ العَبْدَ مَحَلُّ النَّقائِص ، والحَقُّ تَعالَى مَحَلُّ الكَمالات ، فَكُلُّ ما ظَهَرَ عَلَيْكَ مِنَ الكَمالاتِ فَإِنَّما هُوَ رَشْحَةٌ مِنْ كَمالاتِهِ تَعالَى ، فالثَّناءُ فِي الحَقِيقَةِ إِنَّما هُوَ للهِ ، فَإِذا وَقَعَ عَلَيْكَ فَرُدَّهُ أَنْتَ إِلَى أَصْلِهِ ، ولَكِنْ لَمَّا اخْتَلَفَ القَصْدُ اخْتَلَفَ الحُكْمُ .

أُثْنِيَ عَلَى بَعْضِ السَّاداتِ وهُوَ ساكِتٌ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقالَ : ((وما عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ ولَسْتُ أَغْلَظَ فِي نَفْسِي ؟ بَلْ لَسْتُ فِي البَيْن ، والمُجْرِي والمُنْشِي هُوَ اللهُ تَعالَى)) ؛ هَذِهِ حالَةُ أَهْلِ الجَمْع .

وكانَ بَعْضُ السَّاداتِ يَسْتَعْمِلُ الفَرْقَ ، إِذا سَمِعَ الثَّناءَ عَلَيْهِ أَلْقَى عَلَى رَأْسِهِ التُّرابَ فِي خَلْوَتِه .

فالنَّاسُ فِي حالَةِ المَدْحِ والذَّمِّ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام :

● قِسْمٌ يَفْرَحُونَ بِالمَدْحِ ويَكْرَهُونَ الذَّمَّ ؛ لأَنَّ نُفُوسَهُمْ غالِبَةٌ عَلَيْهِمْ ، ولا شَكَّ أَنَّها تَفْرَحُ بِالعِزِّ والرِّفْعَةِ ، وتَنْقَبِضُ بِالذَّمِّ والضَّعَةِ ، وهُمُ

العَوامُّ الغافِلُون .

● وقِسْمٌ يَكْرَهُونَ المَدْحَ ويُحِبُّونَ الذَّمَّ ؛ لأَنَّهُمْ فِي مُجاهَدَةِ نُفُوسِهِمْ ، فَكُلُّ ما يُؤْلِمُها ويَقْتُلُها أَقْبَلُوا عَلَيْهِ ، وكُلُّ ما يُحْيِيها ويُقَوِّيها فَرُّوا مِنْهُ ، وهُمُ العُبَّادُ والزُّهَّادُ والسَّائِرُونَ مِنَ المُرِيدِين .

● وقِسْمٌ يَفْرَحُونَ بِالمَدْحِ لِشُهُودِهِ مِنْ مَوْلاهُمْ ، ويَنْقَبِضُونَ مِنَ الذَّمِّ لِشُهُودِهِمْ جَلالَ مَنْ تَوَلَّاهُمْ ، وهُمُ العارِفُون .

وقَدْ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَى القِسْمِ الثَّانِي والثَّالِثِ بِقَوْلِهِ :

(**الزُّهَّادُ إِذا مُدِحُوا انْقَبَضُوا لِشُهُودِهِمُ الثَّناءَ مِنَ الخَلْقِ ، والعارِفُونَ إِذا مُدِحُوا انْبَسَطُوا لِشُهُودِهِمْ ذَلِكَ مِنَ المَلِكِ الحَقِّ**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : أَمَّا العُبَّادُ والزُّهَّادُ فَلِأَنَّهُمْ مَحْجُوبُونَ بِرُؤْيَةِ الخَلْقِ عَنْ شُهُودِ الحَقِّ ؛ فَإِذا مُدِحُوا شَهِدُوا ذَلِكَ مِنَ الخَلْقِ ، وحُجِبُوا عَنِ الجَمْعِ بِالفَرْقِ ، فانْقَبَضُوا وخافُوا عَلَى نُفُوسِهِمْ أَنْ تَغْتَرَّ بِذَلِكَ ، أَوْ تَقِفَ هُنالِكَ ، وهُمْ عامِلُونَ عَلَى ما تَمُوتُ بِهِ نُفُوسُهُمْ ، وتَحْيا بِهِ قُلُوبُهُمْ ، ولا شَكَّ أَنَّ المَدْحَ لَها فِيهِ حَظٌّ وافِر ، فَرُبَّما تَمِيلُ إِلَى ذَلِكَ فَتَعْتَقِدُ المَزِيَّةَ عَلَى الغَيْر ، فَيُوجِبُ لَها التَكَبُّرُ والرِّضا ، وهُما أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ .

وأَمَّا الذَّمُّ ، فَلا حَظَّ لَها فِيه ، وإِنَّما فِيهِ مَوْتُها ، وفِي مَوْتِها حَياتُها ، فَلِذَلِكَ إِذا مُدِحُوا انْقَبَضُوا ، وإِذا ذُمُّوا انْبَسَطُوا ، وسَكَتَ عَنْهُ الشَّيْخُ وكَأَنَّهُ يُؤْخَذُ بِالمَفْهُوم .

وأَمَّا العارِفُونَ الواصِلُونَ ، فَلِأَنَّهُمْ فانُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، باقُونَ بِرَبِّهِمْ ، غائِبُونَ عَنِ الخَلْقِ بِشُهُودِ المَلِكِ الحَقِّ ، فَإِذا أُثْنِيَ عَلَيْهِمْ ، رَأَوْا أَلْسِنَةَ الخَلْقِ أَقْلامَ الحَقِّ ، وشَهِدُوا الجَمْعَ فِي عَيْنِ الفَرْقِ ، فَفَرِحُوا بِمَدْحِ مَوْلاهُمْ ، وانْبَسَطُوا عِنْدَ مَنْ تَوَلَّاهُمْ ، فَيَزْدادُونَ لَهُ حُبًّا وشَوْقًا ، ويَفْنَوْنَ فِيهِ شَغَفًا وعِشْقًا ، وفِي مِثْلِ هَؤُلاءِ وَرَدَ الحَدِيثُ : (إِذا مُدِحَ المُؤْمِنُ رَبا الإِيمانُ فِي قَلْبِهِ رَبْوَةً) .

وإِذا ذُمُّوا انْقَبَضُوا سُكُونًا تَحْتَ قَهْرِيَّةِ الحَقِّ وأَدَبًا مَعَ جَلالِه ، ولَيْسَ فِي هَذا الانْقِباضِ دَلِيلٌ عَلَى كَراهِيَةِ الذَّمِّ مِنْ حَيْثُ نِسْبَتُهُ للخَلْقِ ؛ لأَنَّهُمْ يَرَوْنَ الخَلْقَ مُصَرَّفِينَ بِقُدْرَةِ الحَقِّ ، وعَلامَةُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَسْمَحُونَ لِمَنْ أَجْرِيَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، بَلْ يَتَعَطَّفُونَ عَلَيْهِ ، ويَتَوَدَّدُونَ بِالمَحَبَّةِ إِلَيْهِ ؛ كَما قالَ الشَّاعِر :

رُبَّ رَامٍ لِي بِأَحْجَارِ الْأَذَىٰ ❁ لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ الْعَطْفِ عَلَيْهِ

فَعَسَىٰ يَطَّلِعُ اللّٰهُ عَلَىٰ ❁ فَرَحِ الْقَوْمِ فَيُدْنِينِي إِلَيْهِ

وفِي تَعْبِيرٍ آخَر : النَّاسُ فِي المَدْحِ والذَّمِّ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسام : عَوامٌّ جُهَّال ، وعُبَّادٌ زُهَّاد ، ومُرِيدُونَ سالِكُون ، وعارِفُونَ واصِلُون .

فَأَمَّا العَوامُّ : فَنُفُوسُهُمْ غالِبَةٌ عَلَيْهِمْ ، ودائِرَةُ الحِسِّ مُحِيطَةٌ بِهِمْ ، مَحَطُّ نَظَرِهِمُ الخَلْق ، غافِلُونَ عَنْ طَلَبِ الحَقِّ ، إِذا مُدِحُوا وأَقْبَلَ عَلَيْهِمُ الخَلْقُ فَرِحُوا وبَطِرُوا لِنَيْلِ مُرادِهِمْ وتَحْصِيلِ أَغْراضِهِمْ ، والنَّفْسُ الأَمَّارَةُ مَجْبُولَةٌ عَلَى الإِمارَة ، وإِذا ذُمُّوا وأَدْبَرَ عَنْهُمُ الخَلْقُ انْقَبَضُوا وحَزِنُوا لِفَواتِ ما أَمَّلُوا ، فَهَؤُلاءِ قُلُوبُهُمْ خَرِبَةٌ مِنَ النُّور .

وأَمَّا العُبَّادُ والزُّهَّادُ : فَهُمْ مُجْتَهِدُونَ فِي العِبادَةِ ، فارُّونَ مِنَ الخَلْقِ ، طالِبُونَ رِضا الحَقِّ ، مُسْتَوْحِشُونَ مِنَ النَّاس ، تَحَقَّقُوا مِنْهُمُ الإِياس ، فَإِذا أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ بِالمَدْحِ والثَّناءِ انْقَبَضُوا وخافُوا أَنْ يَشْغَلُوهُمْ عَمَّا هُمْ فِيه ، وإِذا ذُمُّوا وأَدْبَرَ عَنْهُمُ الخَلْقُ فَرِحُوا وانْبَسَطُوا لِتَفَرُّغِهِمْ حِينَئِذٍ لِلعِبادَة ، وإِقْبالِهِمْ عَلَى ما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ المُجاهَدَة .

وأَمَّا المُرِيدُونَ السَّالِكُون : فَهُمْ عامِلُونَ عَلَى قَتْلِ نُفُوسِهِمْ وحَياةِ قُلُوبِهِمْ ، فَإِذا ذُمُّوا وأَدْبَرَ الخَلْقُ عَنْهُمْ فَرِحُوا لِما فِي ذَلِكَ مِنْ مَوْتِ نُفُوسِهِمْ ، وحَياةِ قُلُوبِهِمْ ، وإِذا مُدِحُوا انْقَبَضُوا خَوْفًا عَلَى قُوَّةِ نُفُوسِهِمْ وضَعْفِ قُلُوبِهِمْ ؛ إِذْ فِي مَوْتِ النَّفْسِ حَياةُ القُلُوب ، وفِي حَياةِ القُلُوبِ مَوْتُ النُّفُوس .

وأَمَّا العارِفُون : فَقَدْ ظَفِرُوا بِنُفُوسِهِمْ ، ووَصَلُوا إِلَى شُهُودِ مَعْبُودِهِمْ ، فَهُمْ يَسْتَأْنِسُونَ بِكُلِّ شَيْءٍ لِمَعْرِفَتِهِمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، يَأْخُذُونَ النَّصِيبَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ويَفْهَمُونَ عَنِ اللهِ فِي كُلِّ شَيْء ؛ فَإِذا مُدِحُوا انْبَسَطُوا بِاللهِ لِشُهُودِهِمُ المَدْحَ مِنَ اللهِ وإِلَى اللهِ ، ولا شَيْءَ فِي الكَوْنِ سِواه ، ولَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ كَما فِي الحَدِيث ، وإِذا ذُمُّوا انْقَبَضُوا تَأَدُّبًا مَعَ جَلالِ اللهِ ، أَوْ شَفَقَةً عَلَى عِبادِ اللهِ : (مَنْ عادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ) .

فَصارَ بَسْطُهُمْ بِاللهِ ، وقَبْضُهُمْ بِاللهِ ، واسْتَغْنَوْا بِهِ عَمَّا سِواه ، وبِهَذا المَعْنَى وهُوَ الفَناءُ عَنِ النُّفُوسِ صَحَّ مَدْحُهُمْ لأَنْفُسِهِمْ تَحَدُّثًا بِما أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ ؛ كالشَّيْخِ عَبْدِ القادِرِ الجَيْلانِي ، والرِّفاعِي ، والبَدَوِيِّ ، والدُّسُوقِيِّ ، والشَّاذِلِي ، والمُرْسِي ، والشَّيْخِ زَرُّوق ، وأَشْباهِهِمْ رضي الله عنهم ، وذَلِكَ مَشْهُورٌ عَنْهُمْ نَظْمًا ونَثْراً ، ومِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَيْضًا أَقَرُّوا مَنْ مَدَحَهُمْ ، وأَظْهَروا الانْبِساطَ عِنْدَ مَدْحِهِمْ .

ولابنِ عَطاءِ اللهِ قَصائِدُ فِي مَدْحِ شَيْخِهِ أَبِي العَبَّاس ، وكانَ يَقُولُ لَهُ : أَيَّدَكَ اللهُ بِرُوحِ القُدُس ؛ كَما كانَ يَقُولُ الحَبِيبُ الأَعْظَم ﷺ : لِسَيِّدِنا حَسَّانَ بنِ ثابِت رضي الله عنه : حِينَ يَمْدَحُهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام .

ومَدْحُ الشُّيُوخِ مِنْ أَعْظَمِ القُرُباتِ وأَقْرَبِ الوَسائِلِ إِلَى الوُصُول ؛ إِذْ هُمْ بابُ اللهِ الأَعْظَم ، ويَدُ اللهِ الآخِذَةُ بِيَدِ الدَّاخِلِينَ إِلَى الحَضْرَة ، فَمَنْ مَدَحَهُمْ فَقَدْ مَدَحَ اللهَ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ (١).

ومَنْ ذَمَّهُمْ فَقَدْ ذَمَّ اللهَ ، وكَذَلِكَ مَدْحُ الرَّسُولِ ﷺ : هُوَ بابٌ عَظِيمٌ فِي الوُصُولِ إِلَى حَضْرَةِ الكَرِيم .

فَإِنْ قُلْتَ : قَوْلُهُ ﷺ : (احْثُوا التُّرابَ فِي أَوْجُهِ المادِحِينَ) ، يَقْتَضِي العُمُومَ ، فَيَصْدُقُ بِمَدْحِ العارِفِينَ وغَيْرِهِمْ .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى المَدْحِ بِالكَذِبِ عَلَى وَجْهِ الطَّمَعِ ؛ كَما يَقَعُ لِلمُلُوكِ وأَرْبابِ الأَمْوالِ طَمَعًا فِيما عِنْدَهُمْ ، أَوْ يُحْمَلُ عَلَى مَنْ كانَ باقِيًا مَعَ نَفْسِهِ خائِفًا عَلَيْها ؛ كالعُبَّادِ والزُّهَّادِ ، فَإِذا مَدَحَهُمْ أَحَدٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يَزْجُرُوهُ ويَحْثُوا فِي وَجْهِهِ التُّراب .

قِيلَ : حَقِيقَةٌ ، وقِيلَ : كِنايَةٌ عَنِ الخَيْبَةِ والرَّدِّ والنَّهْيِ والزَّجْرِ .

وأَمَّا العارِفُونَ المُتَحَقِّقُونَ فَقَدْ عَرَفُوا المَمْدُوحَ ، وغابُوا عَنْ شُهُودِ الواسِطَةِ فِي المادِحِ والمَمْدُوح ، نَفَعَنا اللهُ بِذِكْرِهِمْ ، ونَظَمَنا اللهُ فِي سِلْكِهِمْ ، آمِين .

---

(١) سُورَةُ الفَتْح : مِنَ الآيَة ١٠ .

ثُمَّ مِنْ عَلامَةِ الكَمال ، تَحْقِيقُ الاعْتِدال ، واسْتِواءُ الأَحْوال ، فِي ثَمانِي خِصال : المَدْحِ والذَّمِّ ، والعِزِّ والذُّلِّ ، والقَبْضِ والبَسْطِ ، والمَنْعِ والعَطاء ، وقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُها ، وأَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَى الأَخِيرَتَيْنِ بِقَوْلِهِ :

(**مَتَى كُنْتَ إِذا أُعْطِيتَ بَسَطَكَ العَطاءُ ، وإِذا مُنِعْتَ قَبَضَكَ المَنْعُ ، فاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى ثُبُوتِ طُفُولِيَّتِكَ ، وعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الطُّفُولِيَّةُ والتَّطَفُّلُ هُوَ الدُّخُولُ فِي قَوْمٍ ولَيْسَ مِنْهُمْ ولَمْ يَسْتَأْذِنْهُمْ .

والطُّفَيْلِي : هُوَ الَّذي يَأْتِي للوَلِيمَةِ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ ، وهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى رَجُلٍ مِن أَهْلِ الكُوفَةِ مِنْ بَنِي عَبْدِ اللهِ بنِ غَطَفان كانَ يُقالُ لَهُ : طُفَيْلُ الأَعْراس ، كانَ يَأْتِي إِلَى الوَلائِم مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدْعَى إِلَيْها ، فَشَبَّهَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِهِ مَنْ دَخَلَ مَعَ القَوْمِ ولَمْ يَتَحَقَّقْ بِما تَحَقَّقُوا بِهِ مِنَ اسْتِواءِ الأَحْوال ، فَإِذا كُنْتَ أَيُّها المُرِيدُ إِذا أُعْطِيتَ حُظُوظَكَ ومَنالَكَ ، واتَّصَلْتَ بِعَوائِدِكَ وهَواكَ مِنَ الغِنَى والعِزِّ والجاهِ والبَسْطِ والصِّحَّةِ والعافِيَةِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الحُظُوظِ والشَّهَواتِ ، انْبَسَطْتَ وفَرِحْتَ ، وإِذا مُنِعْتَ مِنْ حُظُوظِكَ وشَهَواتِكَ ، وأَبْدَلَكَ الغِنَى بِالفَقْرِ ، والعَزَّ بِالذُّلِّ ،

والجاهَ بالخُمُولِ ، والبَسْطَ بالقَبْضِ ، والصِّحَّةَ بالمَرَضِ ، والعافِيَةَ بالبَلِيَّةِ ، انْقَبَضْتَ وجَزِعْتَ ، فاسْتَدِلَّ بذَلِكَ عَلَى ثُبُوتِ تَطَفُّلِكَ عَلَى كَلامِهِمْ ، ولا نِسْبَةَ لَكَ مِنْ مَقامِهِمْ ، وإنَّما أَنْتَ طُفَيْلِيُّ الأَعْراس ، ما زِلْتَ فِي غَفْلَةِ النُّعاس ، واسْتَدِلَّ بذَلِكَ أَيْضًا عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ ؛ إذِ الصِّدْقُ فِي العُبُودِيَّةِ يَقْتَضِي اسْتِواءَ النِّعْمَةِ والبَلِيَّةِ ، كَما قالَ قائِلُهُمْ :

أَحِبَّايَ أَنْتُمْ أَحْسَنَ الدَّهْرُ أَمْ أَسَا ❁ فَكُونُوا كَمَا شِئْتُمْ أَنَا ذَلِكَ الْخِلُّ

قالَ ابنُ عَطاءِ اللهِ فِي ((التَّنْوِير)) : وقَدْ أَظْهَرَ اللهُ بِحِكْمَتِهِ ووُجُودِ مِنَّتِهِ المُتَظاهِرِينَ بِالنِّسْبَةِ لأَهْلِ الخِرْقَةِ وهُمْ لَيْسُوا بِصادِقِينَ ، بِإظْهارِ ما كَتَمُوا مِنَ الرَّغْبَةِ ، وأَسَرُّوا مِنَ الشَّهْوَةِ ، فابْتَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ لأَبْناءِ الدُّنْيا ، مُباسِطِينَ لَهُمْ ، مُلائِمِينَ لَهُمْ ، مُوافِقِينَ لَهُمْ عَلَى مَلْذُوذاتِهِمْ ، مَدْفُوعِينَ عَلَى أَبْوابِهِمْ ، فَتَرَى الواحِدَ مِنْهُمْ يَتَزَيَّنُ كَما تَتَزَيَّنُ العَرُوس ، مُعْتَنُونَ بِإصْلاحِ ظَواهِرِهِمْ ، غافِلُونَ عَنْ إصْلاحِ سَرائِرِهِمْ ، ولَقَدْ وَسَمَهُمُ الحَقُّ بِسِمَةٍ كَشَفَ بِها عُوارَهُمْ ، وأَظْهَرَ أَخْبارَهُمْ ، فَبَعْدَ أَنْ كانَتْ نِسْبَتُهُ أَنْ لَوْ صَدَقَ مَعَ اللهِ أَنْ يُقالَ فِيهِ : عَبْدُ الكَبِير ، فَخَرَجَ مِنْ هَذِهِ النِّسْبَةِ لِعَدَمِ صِدْقِهِ ، فَصارَ يُقالُ لَهُ :

شَيْخُ الأَمِير ، أُولَئِكَ الكاذِبُونَ عَلَى اللّه ؛ الصَّادُّونَ العِبادَ عَنْ صُحْبَةِ أَوْلِياءِ اللّه ؛ لأَنَّ ما يَشْهَدُهُ العَوامُّ مِنْهُمْ يَسْحَبُونَهُ عَلَى كُلِّ مُنْتَسِبٍ لَهُمْ ، صادِقٍ وغَيْرِ صادِقٍ ، فَهُمْ حُجُبُ أَهْلِ التَّحْقِيق ، وسُحُبُ شُمُوسِ أَهْلِ التَّوْفِيق ، ضَرَبُوا طُبُولَهُمْ ، ونَشَرُوا أَعْلامَهُمْ ، ولَبِسُوا دُرُوعَهُمْ ، فَإِذا وَقَعَتِ الحَمْلَةُ وَلَّوْا عَلَى أَعْقابِهِمْ ناكِصِين ، أَلْسِنَتُهُمْ مُنْطَلِقَةٌ بِالدَّعْوَى ، وقُلُوبُهُمْ خاوِيَةٌ مِنَ التَّقْوَى ، أَلَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَهُ تَعالَى : ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ (١) .

أَتُرَى إِذا سَأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ، أَيَتْرُكُ المُدَّعِينَ بِغَيْرِ سُؤال ؟ أَلَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَهُ سُبْحانَهُ : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢) .

فَهُمْ فِي الظَّاهِرِ فِي زِيِّ الصَّادِقِين ، وعَمَلُهُمْ عَمَلُ المُعْرِضِين ، كَما قالَ القائِل :

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ ❁ وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا
لا وَالَّذِي حَجَّتْ قُرَيْشٌ بَيْتَهُ ❁ مُسْتَقْبِلِينَ الرُّكْنَ مِنْ بَطْحَائِهَا
مَا أَبْصَرَتْ عَيْنِي خِيَامَ قَبِيلَةٍ ❁ إِلَّا بَكَيْتُ أَحِبَّتِي بِفِنَائِهَا

(١) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٨ . (٢) سُورَةُ التَّوْبَة : الآيَة ١٠٥ .

الخَوْفُ والرَّجاء

العُبَّادُ يُغَلِّبُونَ حُبَّ الذَّمِّ عَلَى المَدْحِ ، والعارِفُونَ يُغَلِّبُونَ حُبَّ المَدْحِ عَلَى الذَّمِّ ، أَوْ يَعْتَدِلُونَ كَما يَعْتَدِلُونَ فِي حالِ المَنْعِ والعَطاءِ ، والقَبْضِ والبَسْطِ ، والذُّلِّ والعِزِّ ، والفَقْرِ والغِنَى ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ اخْتِلافِ الآثار ، وتَنَقُّلاتِ الأَطْوار ، ومِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ الخَوْفُ والرَّجاء ؛ بِحَيْثُ إِذا صَدَرَتْ مِنْهُمْ طاعَةٌ لا يَزِيدُ رَجاؤُهُمْ ، وإِذا وَقَعَتْ مِنْهُمْ زَلَّةٌ لا يَعْظُمُ خَوْفُهُمْ ولا تَنْقُصُ اسْتِقامَتُهُمْ ؛ كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(إِذا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلا يَكُنْ سَبَبًا يُؤْيِسُكَ مِنْ حُصُولِ الاسْتِقامَةِ مَعَ رَبِّكَ ، فَقَدْ يَكُونَ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : السَّائِرُ الصِّدِّيق ، أَو الواصِلُ إِلَى التَّحْقِيق ، كالرَّاكِبِ المُغِير ، جادًّا فِي المَسِير ، كادَ مِنَ السُّرْعَةِ أَنْ يَطِير ، فَإِذا وَقَعَتْ مِنْهُ كَبْوَةٌ أَوْ سَقْطَةٌ ، أَوْ صَدَرَتْ مِنْهُ عَثْرَةٌ أَوْ هَفْوَةٌ ، اسْتَوَى عَلَى جَوادِهِ ، واسْتَمَرَّ عَلَى إِغارَتِهِ فِي طَلَبِ مُرادِهِ ، فَإِذا سَقَطَ وجَعَلَ يَتَمَرَّغُ فِي سَقْطَتِهِ ، كانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى فَتْرَتِهِ ، وعَدَمِ تَحْصِيلِ طِلْبَتِهِ ، فَإِذا وَقَعَ مِنْكَ أَيُّها المُرِيدُ ذَنْبٌ فَلا يَكُنْ سَبَبًا فِي قَطْعِكَ عَنِ اللّه ، أَوْ يُؤْيِسُكَ

مِنَ الاسْتِقامَةِ مَعَ اللّه ، فَيَتَضاعَفُ عَلَيْكَ وَبالُ المَعْصِيَة ، وتَعْظُمُ فِي حَقِّكَ المُصِيبَةُ والبَلِيَّة ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ رَحْمَةً بِكَ ، وتَنْبِيهًا لَكَ مِنْ سِنَتِكَ ، كَحُصُولِ مَلَلٍ وفَتْرَة ، فَإذا سَقَطْتَ نَهَضْتَ ، وإذا قُمْتَ وقَدْ جَدَّدْتَ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قَدَّرَهُ اللّهُ عَلَيْك .

وتَأَمَّلْ ما وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنَ الأكابِر ، كانُوا لُصُوصًا فَصارُوا خُصُوصًا ، فَلْيَكُنْ لَكَ بِهِمْ أُسْوَةٌ فِي حُسْنِ الظَّنِّ بِاللّه .

قالَ تَعالَى : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (١) .

وقالَ تَعالَى : ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ (٢) .

وقالَ تَعالَى : ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (٣) .

وقالَ صاحِبُ أَوَّلِيَّةِ الخَلْقِ وأَوَّلِيَّةِ الفَضْلِ والتَّرْتِيب ، النَّبِيُّ الحَبِيب ﷺ : (كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ) .

وقالَ تَعالَى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٤) .

فَهَذِهِ الآياتُ تُقَوِّي رَجاءَ العِباد ، وتُوجِبُ الاعْتِدالَ والسَّداد .

---

(١) سُورَةُ الزُّمَر : الآيَة ٥٣ .
(٢) سُورَةُ الحِجْر : الآيَة ٥٦ .
(٣) سُورَةُ يُوسُف : مِنَ الآيَة ٨٧ .
(٤) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٢٢ .

وقَدْ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ أَصْلَ الرَّجاءِ والخَوْفِ ومَنْشَأَهُما فَقالَ :

(إذا أَرَدْتَ أَنْ يَنْفَتِحَ لَكَ بابُ الرَّجاءِ فاشْهَدْ ما مِنْهُ إِلَيْكَ ، وإذا أَرَدْتَ أَنْ يَنْفَتِحَ لَكَ بابُ الخَوْفِ فاشْهَدْ ما مِنْكَ إِلَيْه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إذا أَرَدْتَ أَيُّها الإِنْسانُ أَنْ يَتَقَوَّى رَجاؤُكَ فِي الكَرِيمِ المَنَّان ، فاشْهَدْ ما مِنْهُ إِلَيْكَ مِنَ الإِحْسان ، واللُّطْفِ والمَبَرَّةِ والامْتِنان ، فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلَّا حَسَنًا ؟ وهَلْ أَسْدَى إِلَيْكَ إِلَّا مِنَنًا ؟ عَلَيْكَ بَسَطَ مِنَّتَهُ ، ولَكَ هَيَّأَ جَنَّتَهُ ، أَنْعَمَ عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِغايَةِ الإِنْعام ، وما قَنِعَ لَكَ بِذَلِكَ حَتَّى أَعَدَّ لَكَ دارَ السَّلام ، باقِيَةً مُسْتَمِرَّةً عَلَى الدَّوام ، ثُمَّ أَتْحَفَكَ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الكَرِيم ، تَمامًا عَلَى سابِقِ إِحْسانِهِ القَدِيم .

وإذا أَرَدْتَ أَنْ يَنْفَتِحَ لَكَ بابُ الحُزْنِ والخَوْفِ ، فاشْهَدْ ما مِنْكَ إِلَيْهِ مِنَ الإِساءَةِ والتَّقْصِيرِ فِي العِبادَة ، أَوْ مِنْ مُوافَقَةِ الشَّهْوَةِ والاسْتِرْسالِ مَعَ الغَفْلَة ، فَإِنَّكَ إِنْ شَهِدْتَ ذَلِكَ دامَ حُزْنُكَ وقَوِيَ خَوْفُكَ ، ورُبَّما كانَ سَبَبًا فِي سُوءِ ظَنِّكَ بِرَبِّكَ : ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [1] .

وفِي الحَدِيث : (لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وجاءَ بِقَوْمٍ آخَرِينَ

---

(١) سُورَةُ النَّحْل : مِنَ الآيَة ٩٤ .

يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ ، وهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم) .

فَدَلَّ الحَدِيثُ عَلَى أَنَّ شُهُودَ الكَرَمِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ شُهُودِ الانْتِقام .

وخَصْلَتانِ لَيْسَ فَوْقَهُما شَيْءٌ مِنَ الخَيْر : حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ ، وحُسْنُ الظَّنِّ بِعِبادِ اللهِ .

وخَصْلَتانِ لَيْسَ فَوْقَهُما شَيْءٌ مِنَ الشَّرِّ : سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ ، وسُوءُ الظَّنِّ بِعِبادِ اللهِ ؛ كَما فِي الحَدِيث .

وبَقِيَتْ مَرْتَبَةٌ ثَالِثَةٌ وهِيَ الغَيْبَةُ عَنِ الرَّجاءِ والخَوْفِ بِشُهُودِ ما مِنَ اللهِ إِلَى اللهِ ، وهُوَ مَقامُ أَهْلِ الشُّهُود ، فَلِذَلِكَ اعْتَدَلَ أَمْرُهُمْ فِي جَمِيعِ الأَحْوال ، نَفَعَنا اللهُ بِذِكْرِهِمْ ، آمِين .

ثُمَّ إِنَّ ثَمَرَةَ الرَّجاءِ ونَتِيجَتَهُ البَسْطُ ، وثَمَرَةَ الخَوْفِ ونَتِيجَتَهُ القَبْضُ ، فَلِذَلِكَ ذَكَرَهُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بَعْدَهُما ، فَقالَ :

(رُبَّما أَفادَكَ فِي لَيْلِ القَبْضِ ما لَمْ تَسْتَفِدْهُ فِي إِشْراقِ نَهارِ البَسْطِ ، لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **القَبْضُ والبَسْطُ** : حالَتانِ يَتَعاقَبانِ عَلَى الإِنْسانِ كَتَعاقُبِ اللَّيْلِ والنَّهار ، فاللَّيْلُ مَحَلُّ السُّكُونِ والقَرار ، والنَّهارُ مَحَلُّ التَّحَرُّكِ والانْتِشار ، القَبْضُ لا حَظَّ فِيهِ للنَّفْسِ ، والبَسْطُ تَأْخُذُ النَّفْسُ

حَظَّها مِنْهُ ، وما لاحَظَّ فِيهِ للنَّاسِ أَقْرَبُ للسَّلامَة ، وأَعْظَمُ للإفادَة .

فالقَبْضُ كاللَّيْلِ ، واللَّيْلُ مَحَلُّ المُناجاةِ والمُصافاةِ ، ومُلاقاةِ الأَحْبابِ ، ورَفْعِ الحِجابِ ، فَرُبَّما أَفادَكَ فِي لَيْلِ القَبْضِ مِنَ انْخِناسِ النَّفْسِ ، وذَهابِ الحِسِّ ، ومُوالاةِ الأُنْسِ ، ما لا تَسْتَفِيدُهُ فِي نَهارِ البَسْطِ ؛ مِنْ تَحْصِيلِ العُلُومِ وتَحْقِيقِ الفُنُونِ ومُجالَسَةِ الأَخْيارِ ومُخالَطَةِ الأَبْرارِ ، فالقَبْضُ لَهُ فَوائِدُ ، والبَسْطُ لَهُ فَوائِدُ ، والعَبْدُ لا يَدْرِي أَيُّهُما أَقْرَبُ لَهُ نَفْعًا ، فَتَعَيَّنَ الوُقُوفُ مَعَ ما يُواجِهُهُ مِنْ جِهَةِ الحَقِّ ، فَيَتَلَقَّاهُ بِالقَبُولِ والأَدَبِ ، وقَدْ تَقَدَّمَ آدابُ كُلِّ واحِدٍ مِنْها عِنْدَ قَوْلِهِ : (بَسَطَكَ كَيْلا يَتْرُكَكَ مَعَ القَبْضِ) إلخ .

فَلا تَطْلُبِ البَسْطَ إِنْ واجَهَكَ بِالقَبْضِ ، ولا تَطْلُبِ القَبْضَ إِنْ واجَهَكَ بِالبَسْطِ ، فَقَدْ تَسْتَفِيدُ مِنْ أَحَدِهِما ما لا تَسْتَفِيدُهُ مِنَ الآخَرِ ، فَلا تَدْرِي أَيُّهُما أَنْفَعُ ، ولا أَيُّهُما أَضَرُّ ، ولِذَلِكَ اسْتَدَلَّ بِالآيَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي مِيراثِ الأَبِ مِنَ الابْنِ ، فالبَسْطُ كالأَبِ ، لأَنَّهُ ناشِئٌ مِنْ شُهُودِ ما مِنْهُ إِلَيْكَ ، وهُوَ فِعْلُ الحَقِّ الَّذِي صَدَرَ مِنْهُ كُلُّ مَوْجُود ، وهُوَ الأَصْلُ ، والقَبْضُ كابْنٍ ؛ لأَنَّهُ ناشِئٌ مِنْ شُهُودِ ما مِنْكَ إِلَيْهِ ، وهُوَ الفَرْعُ ؛ إِذِ الفِعْلُ كُلُّهُ مِنَ القُدْرَة .

وأَمَّا الحِكْمَةُ ، فَإِنَّما هِيَ تَغْطِيَةٌ ، وإذا كانَ العَبْدُ جاهِلًا بِمَنْفَعَتِها كَجَهْلِهِ بِالأَنْفَعِ مِنَ الآباءِ والأَبْناءِ ، تَعَيَّنَ مُتابَعَةُ الحَقِّ بِاتِّباعِ مُرادِهِ ، وانْتِهاجِهِ حالَهُ مِنْ غَيْرِ تَحَوُّلٍ ولا انْتِقال ، ولا تَشَوُّفٍ إِلَى غَيْرِ ما هُوَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الحال ، بِذَلِكَ يَتَنَوَّرُ قَلْبُهُ ، ويَتَطَهَّرُ سِرُّهُ ولُبُّهُ ، فَتَنْكَشِفُ عَنْهُ الحُجُبُ والأَسْتار ، ويَتَهَيَّأُ لِحَمْلِ الأَنْوارِ والأَسْرار ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مَطالِعُ الأَنْوارِ القُلُوبُ والأَسْرارُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **المَطالِعُ** : جَمْعُ مَطْلَع ، وهُوَ مَحَلُّ طُلُوعِ الشَّمْسِ وغَيْرِها ، والأَنْوارُ هُنا : الوارِداتُ والكُشُوفاتُ الَّتي تَكْشِفُ الحُجُبَ ، وتَرْفَعُ رِداءَ الصَّوْنِ عَنْ مَظاهِرِ الكَوْنِ ، وقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ النَّفْسَ والعَقْلَ والقَلْبَ والرُّوحَ والسِّرَّ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ شَيْءٌ واحِدٌ ، وما هِيَ إِلَّا الرُّوحُ تَتَطَوَّرُ بِحَسَبِ التَّصْفِيَةِ والتَّرْقِيَةِ ؛ فَما دامَتْ مَشْغُولَةً بِحُظُوظِها وشَهَواتِها ، فَهِيَ نَفْسٌ ونُورُها مَكْسُوف ، فَإِذا انْزَجَرَتْ وعَقَلَتْ بِعِقالِ الشَّرْعِ ، إِلَّا أَنَّها تَمِيلُ إِلَى المَعاصِي والذُّنُوب ، فَتارَةً تَعْصِي وتَتُوب ، وتارَةً تَحِنُّ وتَؤُوب ، سُمِّيَتْ عَقْلًا ونُورُها قَلِيلٌ لأَنَّها مَحْبُوسَةٌ فِي سِجْنِ الأَكْوان ، مَعْقُولَةٌ بِالدَّلِيلِ والبُرْهان ، فَإِذا سَكَنَتْ عَنِ المَعاصِي

سُمِّيَتْ قَلْبًا وهُوَ أَوَّلُ مَطالِعِ الأَنْوار ، فَتُشْرِقُ عَلَيْهِ أَنْوارُ التَّوَجُّهِ ، فَلا تَزالُ تَتَرادَفُ عَلَيْهِ الوارِداتُ وهِيَ أَنْوارُ التَّوَجُّهِ حَتَّى يَسْكُنَ إِلَى اللّٰهِ ويَطْمَئِنَّ بِذِكْرِ اللّٰه ، فَحِينَئِذٍ تُسَمَّى رُوحًا وهُوَ أَوَّلُ مَطالِعِ أَنْوارِ المُواجَهَةِ ، فَبِهَذِهِ الأَنْوارِ يَنْكَشِفُ الحِجاب ، ويَنْفَتِحُ الباب ، وتَدْخُلُ فِي حَضْرَةِ الأَحْباب ، فَإِذا تَصَفَّتْ مِنْ غَبَشِ الحِسِّ ، وتَطَهَّرَتْ مِنْ كَدَرِ الأَغْيارِ سُمِّيَتْ سِرًّا ؛ وهُوَ أَوَّلُ مَطالِعِ أَنْوارِ المُشاهَدَةِ ، فَإِذا تَزَكَّتْ مِنْ لَوَثِ الأَنْوار وهُوَ الوُقُوفُ مَعَ المَقاماتِ أَوْ الالْتِفاتُ إِلَى الكَراماتِ ، سُمِّيَتْ سِرَّ السِّرِّ وهُوَ أَوَّلُ مَطالِعِ أَنْوارِ المُعايَنَةِ والمُكالَمَةِ ثُمَّ لا حالٌ ولا مقامٌ .

وأَمَّا التَّرَقِّي فِي العُلُومِ والمَعارِفِ فَلا نِهايَةَ لَهُ عَلَى الأَبَدِ ، فالقُلُوبُ مَطالِعُ ، ومَشارِقُ أَنْوارِ المُواجَهَةِ والمُشاهَدَةِ والمُعايَنَةِ والرُّوحِ والسِّرِّ قَرِيبٌ بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ فِي المَرْتَبَةِ ، فَلِذَلِكَ سَكَتَ الشَّيْخُ عَنِ الأَرْواحِ لانْدِراجِها فِي الأَسْرار .

والحاصِلُ : أَنَّ النُّفُوسَ والعُقُولَ الظُّلْمَةُ غالِبَةٌ عَلَيْهِما ؛ لانْهِماكِهِما فِي الحِسِّ ، وفَنائِهِما فِي الغَلَسِ والخَنْسِ ، فَلَيْسَتا مَطْلَعًا لِشَيْءٍ مِنَ النُّور ؛ لِعَدَمِ تَوَجُّهِهِما إِلَى الكَرِيمِ الغَفُور .

وأَمَّا القَلْبُ والرُّوحُ والسِّرُّ فَهِيَ مَطالِعُ الأَنْوار ؛ أَيْ : مَحَلُّ طُلُوعِها وإِشْراقِها ، إِلَّا أَنَّ القَلْبَ مَطْلَعٌ لأَنْوارِ التَّوَجُّه ، والرُّوحَ والسِّرَّ مَطْلَعانِ لأَنْوارِ المُواجَهَةِ ، وقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُما عِنْدَ قَوْلِهِ : (اهْتَدَى الرَّاحِلُون) إلخ ، وقَدْ سَوَّى الشَّيْخُ بَيْنَهُما ، ومُرادُهُ ما ذَكَرْناه .

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ ابْتِداءَ مَطْلِعِ هَذا النُّور ، وهُوَ القَلْبُ ، ثُمَّ يُشْرِقُ عَلَى الرُّوحِ ، ثُمَّ عَلَى السِّرِّ ، فَقالَ رضي الله عنه :

(نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي القُلُوب ، مَدَدُهُ النُّورُ الوارِدُ مِنْ خَزائِنِ الغُيُوب) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **النُّورُ المُسْتَوْدَعُ فِي القُلُوب** : هُوَ نُورُ اليَقِين ، ويَكُونُ أَوَّلًا ضَعِيفًا كَنُورِ النُّجُوم وهُوَ نُورُ الإِسْلام ، ثُمَّ لا يَزالُ يَتَقَوَّى ويَسْتَمِدُّ مِنَ النُّورِ الوارِدِ مِنْ خَزائِنِ الغُيُوبِ حَتَّى يَكُونَ كَنُورِ القَمَرِ وهُوَ نُورُ الإِيمان ، ثُمَّ لا يَزالُ يَنْمُو بِالطَّاعَةِ والذِّكْرِ والصُّحْبَةِ حَتَّى يَكُونَ كَنُورِ الشَّمْسِ وهُوَ نُورُ الإِحْسان ، **وخَزائِنُ الغُيُوب** : هِيَ أَنْوارُ الصِّفاتِ ، وأَسْرارُ الذَّاتِ ، فَمِنْها تَسْتَمِدُّ أَنْوارُ الإِسْلامِ وأَنْوارُ الإِيمانِ ثُمَّ تُشْرِقُ أَنْوارُ الإِحْسانِ فَيَتَغَطَّى وُجُودُ الأَكْوان .

قالَ فِي ((التَّنْوِير)) : ((ولَوِ انْهَتَكَ حِجابُ الوَهْمِ لَوَقَعَ العِيانُ عَلَى فَقَدِ الأَعْيانِ ، ولأَشْرَقَ نُورُ الإِيقانِ فَغَطَّى وُجُودَ الأَكْوان)) .

واعْلَمْ أَنَّ وَجْهَ اصْطِلاحِ الصُّوفِيَّةِ ﷺ فِي تَرْتِيبِ الإِسْلامِ أَوَّلًا ، ثُمَّ الإِيمانِ ، ثُمَّ الإِحْسانِ : أَنَّ العَبْدَ ما دامَ مَشْغُولًا بِالعِبادَةِ الظَّاهِرَةِ الحِسِّيَّةِ ، سُمِّيَ ذَلِكَ المَقامُ مَقامَ الإِسْلامِ ، فَإِذا انْتَقَلَ العَمَلُ للقَلْبِ (وهُوَ اشْتِغالُهُ بِتَصْفِيَةِ القَلْبِ بِالتَّخْلِيَةِ والتَّحْلِيَةِ ، وتَحْقِيقِ الإِخْلاص) سُمِّيَ ذَلِكَ مَقامَ الإِيمان ، فَإِذا انْتَقَلَ العَمَلُ للرُّوحِ والسِّرِّ (وهُوَ الفِكْرَةُ والنَّظْرَة) سُمِّيَ مَقامَ الإِحْسان ، بِخِلافِ الفُقَهاءِ فَإِنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ الإِيمانَ عَلَى الإِسْلامِ ، فَيَقُولُونَ : لا يَصِحُّ شَيْءٌ دُونَ الإِيمان ، ولا مُشاحَّةَ فِي الاصْطِلاح : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ (١) .

قالَ بَعْضُ المُحَقِّقِينَ : ((اعْلَمْ أَنَّ لِعالَمِ المُلْكِ وهُوَ عالَمُ الشَّهادَةِ أَنْواراً ظاهِرَةً ، ولِعالَمِ المَلَكُوتِ وهُوَ عالَمُ الغَيْبِ أَنْوارًا باطِنَةً ، وأَشْهَرُ ما فِي عالَمِ المُلْكِ ثَلاثَةُ أَنْوار : نُورُ الشَّمْسِ ، ونُورُ القَمَرِ ، ونُورُ النُّجُوم ، ويُقابِلُها مِنْ عالَمِ المَلَكُوت : نُورُ المَعْرِفَةِ ، ونُورُ الفَهْمِ ، ونُورُ العِلْم .

فَبِطُلُوعِ نَجْمِ العِلْمِ فِي لَيْلِ الجَهْلِ تَبْدُو الآخِرَةُ والأُمُورُ الغَيْبِيَّة ، وبِطُلُوعِ قَمَرِ الفَهْمِ فِي أُفُقِ التَّوْحِيدِ يُشاهَدُ قُرْبُ الحَقِّ ، وبِطُلُوعِ شَمْسِ المَعْرِفَةِ

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٦٠ .

فِي أُفُقِ التَّفْرِيدِ يَقْوَى اليَقِينُ ويَلُوحُ وَجْهُ المُشاهَدَةِ ، وأَوَّلُ نُورٍ يَلِجُ فِي الصَّدْرِ نُورُ الإِسْلام ، فَإِذا انْشَرَحَ القَلْبُ بِهِ انْقَذَفَ فِيهِ نُورُ الإِيمان ، فَإِذا تَقَوَّى فِيهِ صارَ شُهُودًا)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : وبِهَذا النُّورِ وَسِعَ القَلْبُ مَعْرِفَةَ الحَقِّ ، وهُوَ الَّذي أَشارَ إِلَيْهِ فِي الحَدِيثِ القُدْسِي : (لَنْ يَسَعَنِي أَرْضِي ولا سَمائِي ، ووَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِن) .

فانْظُرْ هَذا القَلْبَ الَّذي وَسِعَ الرَّبَّ - سُبْحانَهُ - ما أَعْظَمَهُ وأَجَلَّهُ ! فَتَحَبَّبْ يا أَخِي إِلَى أَرْبابِ هَذِهِ القُلُوب ، الَّتي وَسِعَتْ عَلَّامَ الغُيُوب ، حَتَّى يُوصِلُوكَ إِلَى ما وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ عِلْمِ الغُيُوب ، وباللهِ التَّوْفِيق .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ ثَمَرَةَ النُّورِ وهِيَ الكَشْفُ عَنْ حَقائِقِ الأَشْياءِ ، فَقالَ رضي الله عنه :

(نُورٌ يُكْشَفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثارِه ، ونُورٌ يُكْشَفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصافِه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : أَصْلُ النُّورِ مِنْ حَيْثُ هُوَ الكَشْفُ ، فالنُّورُ الحِسِّيُّ يَكْشِفُ عَنِ المَحْسُوسات ، والنُّورُ المَعْنَوِيُّ يَكْشِفُ عَنِ المَفْهُومات .

أَوْ تَقُولُ : نُورُ الحِسِّ يَكْشِفُ عَنِ الأَوانِي ، والنُّورُ المَعْنَوِيُّ يَكْشِفُ عَنِ المَعانِي ، ولا عِبْرَةَ بِرُؤْيَةِ الأَوانِي خاوِيَةً عَنِ المَعانِي .

ثُمَّ إِنَّ النُّورَ المَعْنَوِيَّ يَنْقَسِمُ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ باعْتِبارِ القُوَّةِ والضَّعْفِ :

فَنُورُ الإِسْلامِ الَّذي هُوَ كالنُّجُومِ يَكْشِفُ لَكَ الحَقَّ - تَعالَى - بِهِ عَنْ وُجُودِ آثارِهِ ، فَتَسْتَدِلُّ بِها عَلَى صانِعِها .

ونُورُ الإِيمانِ الَّذي هُوَ كالقَمَرِ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ ثُبُوتِ أَوْصافِهِ ؛ فَلا يَتَحَرَّكُ شَيْءٌ أَوْ يَسْكُنُ إِلَّا تَراهُ بِقُدْرَةِ اللهِ وإِرادَتِهِ وعِلْمِهِ وحَياتِهِ إِلَى آخِرِ صِفاتِهِ .

ونُورُ الإِحْسانِ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ حَقِيقَةِ ذاتِهِ ؛ فَلا تَرَى شَيْئًا إِلَّا رَأَيْتَ صانِعَهُ فِيهِ بِواسِطَةِ تَجَلِّياتِهِ : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (١) .

فَنِهايَةُ كَشْفِ النُّورِ الأَوَّلِ الفَناءُ فِي الأَفْعالِ ، ونِهايَةُ كَشْفِ النُّورِ الثَّانِي الفَناءُ فِي الصِّفاتِ ، ونِهايَةُ كَشْفِ النُّورِ الثَّالِثِ التَّمْكِينُ فِي الفَناءِ بِالذَّاتِ ، واسْتَغْنَى الشَّيْخُ عَنِ النُّورِ الثَّالِثِ بِذِكْرِ النُّورِ الثَّانِي ؛ لأَنَّ الفَناءَ فِي الصِّفاتِ قَرِيبٌ مِنَ الفَناءِ فِي الذَّاتِ ؛ لأَنَّ الصِّفاتِ لا تُفارِقُ المَوْصُوفَ ، فَمَنْ كانَ يَرَى سَمْعَهُ بِاللهِ ، وبَصَرَهُ بِاللهِ ، وحَرَكَتَهُ بِاللهِ ، يَرَى وُجُودَهُ بِاللهِ ؛ ولِذَلِكَ اسْتَغْنَى بَعْضُهُمْ بِالفَناءِ فِي الذَّاتِ عَنِ الفَناءِ فِي الصِّفاتِ لِتَقارُبِهِما ، فَمَهْما تَحَقَّقَ أَحَدُهُما ، تَحَقَّقَ الآخَرُ ، واللهُ تَعالَى أَعْلَم .

---

(١) سُورَةُ النُّور : مِنَ الآيَة ٣٥ .

ويَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ : (نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثارِهِ) : النُّورَ الحِسِّيَّ المُدْرَكَ بِالبَصَرِ الحِسِّيِّ ، ونُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصافِ نُورِ البَصِيرَة : المَعْنَوِيِّ ، وعَلَيْهِ اقْتَصَرَ الشَّيْخُ ابنُ عَبَّاد رضي الله عنه ، لَكِنَّ نُورَ البَصَرِ الحِسِّيِّ لا يَسْتَقِلُّ بِإِدْراكِ المُؤَثِّرِ فِي الأَثَرِ ما لَمْ تُمِدَّهُ الأَنْوارُ الباطِنِيَّةُ العَقْلِيَّةُ ، فالمَدارُ إِنَّما هُوَ عَلَى الأَنْوارِ الباطِنِيَّة ، وأَمَّا الحِسِّيَّةُ فَمُدْرَكَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ ، حَتَّى البَهائِم ، فَلا خُصُوصِيَّةَ لَها ، وبِاللهِ التَّوْفِيق .

ثُمَّ المَطْلُوبُ مِنَ العَبْدِ هُوَ التَّرَقِّي مِنْ نُورِ شُهُودِ الأَثَرِ إِلَى نُورِ الصِّفات ، ثُمَّ إِلَى نُورِ شُهُودِ الذَّات ، وقَدْ تَقِفُ بَعْضُ القُلُوبِ مَعَ النُّورِ الأَوَّلِ فَتُحْجَبُ عَنِ الثَّانِي ، ومَعَ الثَّانِي فَتُحْجَبُ عَنِ الثَّالِث ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(رُبَّما وَقَفَتِ القُلُوبُ مَعَ الأَنْوار ، كَما حُجِبَتِ النُّفُوسُ بِكَثائِفِ الأَغْيار) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ تَقِفُ بَعْضُ القُلُوبِ مَعَ أَنْوارِ المَقامات ، دُونَ الوُصُولِ إِلَى الغايات ، فَتُحْجَبُ عَنِ الوُصُولِ كَما حُجِبَتِ النُّفُوسُ بِكَثائِفِ المَحْسُوساتِ عَنْ إِدْراكِ لَطائِفِ المَعانِي والمَفْهُومات ؛ وذَلِكَ إِمَّا لِعَدَمِ شَيْخِ التَّرْبِيَة ، أَوْ لِضَعْفِ الهِمَّةِ عَنِ التَّرْقِيَة .

فَقَدْ يَنْكَشِفُ لِبَعْضِ القُلُوبِ عَنْ سِرِّ تَوْحِيدِ الأَفْعال ، فَتَفْنَى فِي العَمَلِ وتَذُوقُ حَلاوَتَهُ فَتَقِفُ مَعَهُ ، وهَواتِفُ الحَقِيقَةِ تُنادِيها : الَّذي تَطْلُبُهُ أَمامَك .

وقَدْ يَنْكَشِفُ لَها سِرُّ تَوْحِيدِ الصِّفات ، وتَلُوحُ لَها أَنْوارُ المَقامات ؛ كَتَحْقِيقِ الزُّهْدِ والوَرَعِ وصِحَّةِ التَّوَكُّلِ ، والرِّضا والتَّسْلِيم ، وحَلاوَةِ المَحَبَّةِ والاشْتِياقِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، فَتَقْنَعُ بِذَلِكَ ، وتَقِفُ هُنالِكَ ، والمَطْلُوبُ هُوَ الكَشْفُ عَنْ سِرِّ تَوْحِيدِ الذَّاتِ وأَنْوارِ الصِّفاتِ : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (١) .

فالنُّورُ عِبارَةٌ عَنِ الحَلاوَةِ والقُوَّةِ الَّتي يَجِدُها المُرِيدُ فِي باطِنِهِ ، مِنْ مَزِيدِ إِيمان ، وقُوَّةِ إِيقان ، فَحَلاوَةُ الخِدْمَةِ لأَهْلِ الفَناءِ فِي الأَفْعال ، وحَلاوَةُ الذِّكْرِ الحِسِّيِّ اللِّسانِيِّ أَوِ القَلْبِيِّ لأَهْلِ الفَناءِ فِي الصِّفاتِ مَعَ الحِجاب ، وحَلاوَةُ الفِكْرَةِ والنَّظْرَةِ لأَهْلِ الفَناءِ فِي الذَّات .

وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : رُبَّما وَقَفَتِ القُلُوبُ مَعَ أَنْوارِ الأَحْوال ، فَتُحْجَبُ عَنْ مَقاماتِ الرِّجال ، أَوْ مَعَ أَنْوارِ المَقامات ، فَتُحْجَبُ عَنْ مَعْرِفَةِ الذَّات ، ولِذَلِكَ قالَ سَيِّدِي الشَّيْخُ ابنُ مَشِيش لِتِلْمِيذِهِ سَيِّدِي أَبِي الحَسَن :

---

(١) سُورَةُ النَّجْم : الآيَة ٤٢ .

أَشْكُو إِلَى اللهِ مِنْ بَرْدِ الرِّضا والتَّسْلِيم ، كَما تَشْكُو أَنْتَ مِنْ حَرِّ التَّدْبِيرِ والاخْتِيار .

خافَ رضي الله عنه أَنْ يُحْجَبَ بِحَلاوَةِ الرِّضا والتَّسْلِيم عَنْ شُهُودِ الذَّات .

واعْلَمْ أَنَّ الوُقُوفَ مَعَ الأَحْوالِ والمَقاماتِ إِنَّما هُوَ مِنْ عَدَمِ الوُصُولِ إِلَى الشَّيْخ ، وأَمَّا مَنْ صَحِبَ الشَّيْخَ ، وأَكْثَرَ الوُصُولَ إِلَيْهِ ، فَلا بُدَّ أَنْ يُرَحِّلَهُ إِلَى المَقْصُود ، إِلَّا أَنْ يَرَى هِمَّتَهُ ضَعِيفَةً لا تُطِيقُ أَنْوارَ الشُّهُود ، فَيَتْرُكُهُ عَلَى ما هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى تَنْهَضَ هِمَّتُهُ إِلَى شُهُودِ المَعْبُود .

وشَبَّهَ الشَّيْخُ رضي الله عنه حَجْبَ القُلُوبِ بِالأَنْوار ، بِحَجْبِ النُّفُوسِ بِالأَغْيار ؛ لاشْتِراكِهِما فِي الحَجْبِ عَنِ اللهِ ، لَكِنَّ حَجْبَ النَّفْسِ بِالأَغْيارِ أَشَدُّ ، لأَنَّها ظُلْمَة ، والظُّلْمَةُ أَشَدُّ حِجابًا مِنَ النُّور ، فالقُلُوبُ نُورانِيَّةٌ حُجِبَتْ بِالنُّور ، والنُّفُوسُ ظُلْمانِيَّةٌ حُجِبَتْ بِالظُّلْمَة .

وكَثائِفُ الأَغْيارِ : هِيَ ما ظَهَرَ مِنْ بَهْجَةِ الدُّنْيا وزُخْرُفِها وغُرُورِها وزَهْرَتِها ، وهِيَ الَّتي أَشارَ إِلَيْها الحَقُّ تَعالَى بِقَوْلِهِ : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٤ .

ويَدْخُلُ فِيها ما يُلائِمُها مِنْ حُبِّ الجاهِ والرِّياسَة ، وحُبِّ المَدْحِ والتَّعْظِيم ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَهَواتِها وعَوائِدِها ، وهِيَ الَّتي حَجَبَتْ جُلَّ النَّاس ، وساقَتْهُمْ إِلَى الخَيْبَةِ والإِفْلاس ، نَسْأَلُ اللّٰهَ العِصْمَةَ بِمَنِّهِ وكَرَمِه .

ويَدْخُلُ فِي الأَغْيارِ العُلُومُ العَقْلِيَّةُ واللِّسانِيَّة ، فالاشْتِغالُ بِها والوُقُوفُ مَعَ حَلاوَتِها مِنْ أَشَدِّ الحُجُبِ عَنْ مَعْرِفَةِ اللّٰه ؛ أَعْنِي : المَعْرِفَةَ الخاصَّة .

ويَدْخُلُ فِيها أَيْضًا الكَراماتُ الحِسِّيَّةُ كالطَيَرانِ فِي الهَواءِ ، والمَشْيِ عَلَى الماءِ ؛ فالوُقُوفُ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَشَدِّ الحُجُبِ أَيْضًا ، ولِذَلِكَ قالَ بَعْضُهُمْ : أَشَدُّ النَّاسِ حِجابًا عَنِ اللّٰهِ العُلَماءُ ، ثُمَّ العُبَّادُ ، ثُمَّ الزُّهَّادُ ، فَسُبْحانَ مَنْ حَجَبَ العُلَماءَ بِعِلْمِهِمْ عَنْ مَعْلُومِهِمْ ، والعُبَّادَ بِعِبادَتِهِمْ عَنْ مَعْبُودِهِمْ ، والصَّالِحِينَ بِصَلاحِهِمْ عَنْ مُصْلِحِهِمْ ، واللّٰهُ مِنْ وَراءِ ذَلِكَ كُلِّه .

وحِكْمَةُ وُجُودِ هَذِهِ الأَنْوارِ الحِسِّيَّةِ والأَغْيارِ الظُّلْمانِيَّةِ تَغْطِيَةٌ وسَتْرٌ لأَنْوارِ السَّرائِرِ الباطِنِيَّة ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(سَتَرَ أَنْوارَ السَّرائِرِ بِكثائِفِ الظَّواهِرِ ، إِجْلالًا لَها أَنْ تُبْتَذَلَ بِوُجُودِ الإِظْهار ، وأَنْ يُنادَى عَلَيْها بِلِسانِ الاشْتِهار) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : **أَنْوارُ السَّرائِر** : هِيَ العُلُومُ اللَّدُنِيَّة ، والمَعارِفُ الرَّبَّانِيَّة ، ويَجْمَعُها عِلْمُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذي يَجِبُ كَتْمُهُ عَنْ غَيْرِ أَهْلِهِ ، ومَنْ أَباحَهُ أُبيحَ دَمُهُ ، وهُوَ الَّذي قُتِلَ بِسَبَبِهِ الحَلَّاج ، **وكَثائِفُ الظَّواهِر** : هِيَ البَشَرِيَّةُ الظَّاهِرَة .

أَوْ تَقُولُ : **أَنْوارُ السَّرائِر**: هِيَ الحُرِّيَّةُ الباطِنِيَّة ، **وكَثائِفُ الظَّواهِر** : هِيَ العُبُودِيَّةُ الظَّاهِرِيَّة .

أَوْ تَقُولُ : **أَنْوارُ السَّرائِر** : هِيَ عِلْمُ القُدْرَةِ الباطِنِيَّة ، **وكَثائِفُ الظَّواهِر** : هِيَ عِلْمُ الحِكْمَةِ الظَّاهِرَة ، فَأَنْوارُ السَّرائِرِ مَعانٍ لَطِيفَةٌ رَقِيقَةٌ سَتَرَها اللّٰهُ تَعالَى بِالكَثائِفِ الظَّاهِرَة ، ولِذَلِكَ وَقَعَ الإِنْكارُ عَلَى أَهْلِها قَدِيمًا وحَدِيثًا حَتَّى قالَ الكُفَّارُ : ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ (١) ، وقالُوا : ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ (٢) .

ووُقُوعُ الإِنْكارِ عَلَى أَوْلِياءِ اللّٰهِ سُنَّةٌ ماضِيَةٌ ، وحِكْمَةُ ذَلِكَ إِجْلالٌ وتَعْظِيمٌ لَها أَنْ تُبْتَذَلَ وتَظْهَرَ بِوُجُودِ الإِظْهار ، وأَنْ يُنادَى عَلَيْها بِلِسانِ الاشْتِهار ، فَلا يَبْقَى لَها سِرٌّ ولا عِزٌّ ، والحاصِلُ : أَنَّ الأَشْياءَ كُلَّها قائِمَةٌ بَيْنَ ذاتٍ وصِفاتٍ ، بَيْنَ حِسٍّ ومَعْنًى ، بَيْنَ قُدْرَةٍ وحِكْمَةٍ ، فَسَتَرَ

---

(١) سُورَةُ الفُرْقان : مِنَ الآيَة ٧ .
(٢) سُورَةُ المُؤْمِنُون : مِنَ الآيَة ٢٤ .

الحَقُّ سُبْحانَهُ مَعانِيَ أَسْرارِ الذَّاتِ اللَّطِيفَة ، بِظُهُورِ الذَّواتِ الكَثِيفَة ، وسَتَرَ المَعْنَى اللَّطِيفَ بِالحِسِّ الكَثِيف ، وسَتَرَ القُدْرَةَ بِالحِكْمَة ، والكُلُّ مِنَ اللهِ ، وإِلَى اللهِ ، ولا مَوْجُودَ سِواه ، وهَذِهِ الكَثائِفُ الظَّاهِرَةُ هِيَ أَرْدِيَةٌ وقُمُصٌ للمَعانِي اللَّطِيفَة .

دَلِيلُ الوِلايَة

تَحَصَّلَ فِي مَسِيرَتِنا آدابُ السَّائِرِ فِي حالِ سَيْرِهِ ، بِحَيْثُ لا يَقِفُ مَعَ مَعْصِيَةٍ ، ولا يَرْكَنُ إِلَى طاعَةٍ ، ولا يَغْلِبُ عَلَيْهِ خَوْفٌ ولا رَجاءٌ ، ولا قَبْضٌ ولا بَسْطٌ ، بَلْ يَبْرُزُ مِنَ الغَيْبِ ، فَيَتَلَقَّاهُ بِالمَعْرِفَةِ والرَّحْبِ ، فَإِذا فَعَلَ ذَلِكَ أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ الأَنْوار ، فَتُخْرِجُهُ مِنْ رِقِّ الآثار ، حَتَّى تُفْضِي بِهِ إِلَى شُهُودِ المَلِكِ القَهَّار ، لَكِنْ لا بُدَّ للحَسْناءِ مِنْ نِقاب ، وللشَّمْسِ مِنْ سَحاب ، ولليَواقِيتِ مِنْ صَوان ، فَخَفِيَتِ الأَنْوارُ بِكَثائِفِ الأَغْيار ، إِجْلالاً لَها أَنْ تُبْتَذَلَ بِوُجُودِ الإِظْهار ؛ وأَنْ يُنادَى عَلَيْها بِلِسانِ الاشْتِهار ، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَخْفَى أَوْلِياءَهُ فِي خَلْقِهِ ، فَلا يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرادَ أَنْ يَخُصَّهُ بِما خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ سِرِّهِ ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(سُبْحانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيائِهِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ ، ولَمْ يُوصِلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : **الدَّليلُ** : هُوَ المُوَصِّلُ للمَطْلُوب ، فَإذا سَارَ الحَقُّ تَعالَى بِكَ إِلَى وَلِيٍّ عارِفٍ بِهِ ، ودَلَّكَ عَلَيْهِ ، فَقَدْ سارَ بِكَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ، ودَلَّكَ عَلَيْهِ ، فَمَهْما دَلَّكَ عَلَى وَلِيِّهِ ، وأَطْلَعَكَ عَلَى سِرِّهِ ، فَقَدْ دَلَّكَ عَلَيْهِ قَطْعًا ، ووَصَّلَكَ إِلَى حَضْرَتِهِ سَرِيعًا ، فَلَمْ يَجْعَلِ الحَقُّ سُبْحانَهُ الدَّلالَةَ عَلَى أَوْلِيائِهِ والوُصُولَ إِلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الدَّلالَةِ عَلَيْه ، ولَمْ يُوصِلْ أَحَدًا إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ ؛ فَلِأَجْلِ هَذِهِ المُلازَمَةِ وعَدَمِ الانْفِكاكِ تَعَجَّبَ الشَّيْخُ مِنْ ذَلِك .

وقالَ شَيْخُنا : وُصُولُكَ إِلَى اللهِ وُصُولُكَ إِلَى العِلْمِ بِهِ ، قالَ : وُصُولُكَ إِلَيْهِ وُصُولُكَ إِلَى عارِفٍ بِهِ ، يَعْنِي : مَهْما وَصَلَكَ إِلَى عارِفٍ بِهِ وأَطْلَعَكَ عَلَيْهِ فَقَدْ وَصَلَكَ إِلَيْهِ ، ومَهْما حَجَبَكَ عَنِ العارِفِينَ بِهِ فَقَدْ حَجَبَكَ عَنْهُ ، فَلا طَرِيقَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ مَعْرِفَتِهِمْ ، ولا دَلِيلَ عَلَى اللهِ ؛ أَعْنِي : عَلَى مَعْرِفَتِهِ الخاصَّةِ البَيانِيَّةِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ عَلَيْهِمْ ، وكَما حَجَبَ الحَقُّ - سُبْحانَهُ - ذاتَهُ المُقَدَّسَةَ بِعِزَّتِهِ وقَهْرِيَّتِهِ ، كَذَلِكَ حَجَبَ أَوْلِياءَهُ بِما أَظْهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَوْصافِ البَشَرِيَّة ، فَلا يَعْرِفُهُمْ إِلَّا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ العِنايَةُ الرَّبَّانِيَّة ؛ إِذْ لا يَعْرِفُ الخَواصَّ إِلَّا الخَواصُّ .

قالَ فِي ((لَطائِف المِنَن)) : أَهْلُ اللهِ مِنْ خاصَّةِ عِبادِهِ هُمْ عَرائِسُ الوُجُود ، والعَرائِسُ مَحْجُوبُونَ عَنِ المُجْرِمِين ، فَهُمْ أَهْلُ كَهْفِ الإيواء ، فَقَلِيلٌ مَنْ يَعْرِفُهُمْ .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنه : ((مَعْرِفَةُ الوَلِيِّ أَصْعَبُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ مَعْرُوفٌ بِكَمالِهِ وجَمالِهِ ، ومَتَى تَعْرِفُ مَخْلُوقًا مِثْلَكَ يَأْكُلُ كَما تَأْكُلُ ويَشْرَبُ كَما تَشْرَبُ ؟)) .

ثُمَّ قالَ : ((وإذا أَرادَ أَنْ يُعَرِّفَكَ بِوَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيائِهِ ، طَوَى عَنْكَ شُهُودَ بَشَرِيَّتِهِ ، وأَشْهَدَكَ وُجُودَ خُصُوصِيَّتِهِ)) .

وأَيْضًا فَإِنَّ الوَلِيَّ لا يُعْرَفُ بِالصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ ، وإِنَّما يُعْرَفُ بِالمَعانِي الباطِنَةِ ؛ لأَنَّ اللهَ لا يَعْبَأُ بِالصُّوَرِ : (رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ) فِي قَسَمِه .

فَمَنْ أَرادَ مَعْرِفَتَهُ بِالصُّورَةِ فَلا يَعْرِفُهُ ؛ لأَنَّهُ لا يَرَى إِلَّا بَشَرًا يَأْكُلُ الطَّعامَ ويَمْشِي فِي الأَسْواق ، فالعَيْنُ لا تَرَى إِلَّا الأَجْسامَ الكَثِيفَةَ الَّتي يَطْرَأُ عَلَيْها ما يَطْرَأُ عَلَى أَهْلِ الحِجاب ، ولَمْ يُدْرِكْ ما انْطَوَتْ عَلَيْهِ الصُّورَةُ مِنَ المَعانِي اللَّطِيفَةِ والأَسْرارِ المُنِيفَة .

فَمَنْ أَرادَ اللهُ سَعادَتَهُ ، رَزَقَهُ الاعْتِقادَ والتَّصْدِيقَ أَوَّلًا ، ثُمَّ الهِدايَةَ

والتَّوْفِيقَ ثانِيًا ، فالتَّصْدِيقُ بِأَسْرارِ الوِلايَةِ أَوَّلُ المَعْرِفَة ، ولِهَذا قالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَن : التَّصْدِيقُ بِطَرِيقَتِنا هَذِهِ وِلايَة .

وقالَ بَعْضُهُمْ : للّهِ رِجالٌ لا يَعْرِفُهُمْ إِلَّا الخاصَّةُ ، وللّهِ رِجالٌ يَعْرِفُهُمُ الخاصَّةُ والعامَّةُ ، وللّهِ رِجالٌ لا يَعْرِفُهُمْ لا الخاصَّةُ ولا العامَّةُ ، وللّهِ رِجالٌ أَظْهَرَهُمْ فِي البِدايَةِ وسَتَرَهُمْ فِي النِّهايَة ، وللّهِ رِجالٌ سَتَرَهُمْ فِي البِدايَةِ وأَظْهَرَهُمْ فِي النِّهايَة ، وللّهِ رِجالٌ لا يَعْرِفُهُمْ سِواه ، ولا يَطَّلِعُ عَلَى ما بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ إِلَّا الحَفَظَةُ الكِرامُ الَّذِينَ وُكِّلُوا بِحِفْظِ السَّرائِر ، وللّهِ رِجالٌ اخْتَصَّ اللّهُ بِمَعْرِفَتِهِمْ لا يُظْهِرُ حَقِيقَةَ ما بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ حَتَّى يَلْقَوْهُ ، فَهُمْ شُهَداءُ المَلَكُوتِ الأَعْلَى ، وهُمُ المُقَرَّبُون ، وهُمُ الَّذِينَ يَتَوَلَّى اللّهُ قَبْضَ أَرْواحِهِمْ بِيَدِهِ ، وهُمُ الَّذِينَ طابَتْ أَجْسامُهُمْ مِنْ طِيبِ أَرْواحِهِمْ ، فَلا يَعْدُو عَلَيْها الثَّرَى حَتَّى يُبْعَثُوا مُشْرِقِينَ بِأَنْوارِ البَقاءِ المَجْعُولِ فِيهِمْ بِبَقاءِ الأَبَدِ مَعَ الباقِي الأَحَدِ ، وهُمُ المُخْفَوْنَ تَحْتَ حِجابِ الأُنْسِ ، المَغْمُوسُونَ فِي بِحارِ المَحَبَّةِ والقُدْسِ ، لَيْسَ لَهُمْ مَعَ غَيْرِهِ قَرار ، ولا عَنْ أَنْفُسِهِمْ إِخْبار ، تَوَلَّى اللّهُ شَأْنَهُمْ : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ المائِدَة : الآيَة ٥٦ .

قالَ الشُّطَيْبِي : وهَذِهِ الأَسْرارُ الَّتي انْطَوَتْ عَنْها أَسْرارُ الأَوْلِياء ، واحْتَجَبَتْ عَنِ العامَّةِ هِيَ أَسْرارُ المَلَكُوتِ الغَيْبِيَّةِ الَّتي أَشارَ إِلَيْها ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(رُبَّما أَطْلَعَكَ عَلَى غَيْبِ مَلَكُوتِهِ ، وحَجَبَ عَنْكَ الاسْتِشْرافَ عَلَى أَسْرارِ العِباد) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **المَلَكُوت** : مُبالَغَةٌ فِي المُلْك ؛ هَذا بِاعْتِبارِ اللُّغَة .

وأَمَّا بِاعْتِبارِ اصْطِلاحِ الصُّوفِيَّة ، فالعَوالِمُ ثَلاثَةٌ : مُلْكٌ ، ومَلَكُوتٌ ، وجَبَرُوت ؛ فالمُلْكُ ما يُدْرَكُ بِالحِسِّ والوَهْم ، والمَلَكُوتُ ما يُدْرَكُ بِالعِلْم والفَهْم ، والجَبَرُوتُ ما يُدْرَكُ بِالبَصِيرَةِ والمَعْرِفَةِ ، وهَذِهِ العَوالِمُ مَحَلُّها واحِدٌ وهُوَ الوُجُودُ الأَصْلِي والفَرْعِي ، وإِنَّما تَخْتَلِفُ التَّسْمِيَةُ بِاخْتِلافِ النَّظْرَة ، وتَخْتَلِفُ النَّظْرَةُ بِاخْتِلافِ التَّرَقِّي فِي المَعْرِفَة ، فالوُجُودُ عِنْدَ المُحَقِّقِينَ مِنَ العارِفِينَ واحِدٌ : قِسْمٌ لَطِيفٌ ؛ غَيْبٌ لَمْ يَدْخُلْ عالَمَ التَّكْوِين ، وقِسْمٌ كَثِيفٌ دَخَلَ عالَمَ التَّكْوِين .

فالأَوَّلُ يُسَمَّى : عالَمَ الغَيْب .

والثَّانِي : عالَمَ الشَّهادَة .

وما كانَ خَفِيًّا فِي عالَمِ الغَيْبِ ظَهَرَ فِي عالَمِ الشَّهادَةِ ، فَمَنْ نَظَرَ إِلَى حِسِّ الأَشْياءِ الظَّاهِرَةِ سَمَّاهُ مُلْكًا ، ويُسَمَّى أَيْضًا : عالَمَ الحِكْمَةِ وعالَمَ الأَشْباحِ ، ومَنْ نَظَرَ إِلَى أَسْرارِ المَعانِي القائِمَةِ بِالأَوانِي وهِيَ أَسْرارُ الذَّاتِ القائِمَةُ بِأَنْوارِ الصِّفاتِ سَمَّاهُ مَلَكُوتًا ، ومَنْ نَظَرَ إِلَى الأَسْرارِ الأَزَلِيَّةِ الَّتي كانَتْ حالَ الكَنْزِيَّةِ الَّتي لَمْ تَدْخُلْ عالَمَ التَّكْوِينِ سَمَّاهُ جَبَرُوتًا .

أَوْ تَقُولُ : ومَنْ نَظَرَ إِلَى الكَثِيفِ الَّذي دَخَلَ التَّكْوِينَ ورَآهُ مُشْتَغِلًا بِنَفْسِهِ قائِمًا بِقُدْرَةِ اللهِ سُمِّيَ فِي حَقِّهِ مُلْكًا ، وهُوَ لأَهْلِ الحِجابِ مِنْ أَهْلِ الفَرْقِ .

ومَنْ رَآهُ نُورًا فائِضًا مِنَ النُّورِ اللَّطِيفِ مُتَّصِلًا بِهِ إِلَّا أَنَّهُ تَكَثَّفَ بِالقُدْرَةِ وتَسَتَّرَ بِالحِكْمَةِ سَمَّاهُ مَلَكُوتًا ، وسَمَّى اللَّطِيفَ الباقِيَ عَلَى أَصْلِهِ الَّذي لَمْ يَدْخُلْ عالَمَ التَّكْوِينِ (الَّذي هُوَ أَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ وآخِرُ كُلِّ شَيْءٍ ومُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ) جَبَرُوتًا ؛ فَإِنْ ضَمَّ الفَرْعَ إِلَى أَصْلِهِ والكَثِيفَ إِلَى اللَّطِيفِ سَمَّى الجَمِيعَ جَبَرُوتًا ؛ وهَذِهِ المَعانِي لا يَفْهَمُها إِلَّا أَهْلُ الأَذْواقِ بِصُحْبَةِ أَهْلِ الأَذْواقِ ، وحَسْبُ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ لِهَذا المَقامِ التَّسْلِيمُ ، وإِلَّا وَقَعَ فِي الإِنْكارِ عَلَى أَوْلِياءِ اللهِ بِما لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمًا .

ولْنَرْجِعْ إِلَى كَلام الشَّيْخ رضي الله عنه فَنَقُولُ : رُبَّما كَشَفَ اللّهُ عَنْكَ الحِجاب ، وتَرَقَّيْتَ إِلَى الدُّخُولِ مَعَ الأَحْباب ، فَأَخْرَجَكَ مِنْ سِجْنِ رُؤْيَةِ الأَكْوانِ إِلَى شُهُودِ المُكَوِّن ، ومِنْ عالَم الأَشْباحِ إِلَى عالَم الأَرْواح ، فَأَطْلَعَكَ عَلَى غَيْبِ مَلَكُوتِهِ فَأَبْصَرْتَ الكَوْنَ كُلَّهُ نُورًا فائِضًا مِنْ بَحْرِ الجَبَرُوتِ فَأَلْحَقْتَهُ بِأَصْلِهِ وفَنِيتَ عَنْ شُهُودِ المُلْكِ الَّذي هُوَ عالَمُ الفَرْقِ بِشُهُودِ المَلَكُوت ؛ الَّذي هُوَ عالَمُ الجَمْعِ الَّذي قالَ فِيهِ ابنُ البَنَّاء :

مَهْمَا تَعَدَّيْتَ عَنِ الْأَجْسَامِ ۞ أَبْصَرْتَ نُورَ الْحَقِّ ذَا ابْتِسَامِ

وحَجَبَ عَنْكَ الاسْتِشْرافَ عَلَى أَسْرارِ العِبادِ رَحْمَةً بِكَ ؛ لأَنَّكَ قَدْ تُحْجَبُ بِذَلِكَ عَنْ شُهُودِ المَلَكُوت ، فَلا عِبْرَةَ عِنْدَ المُحَقَّقِينَ بِمُكاشَفَةِ أَسْرارِ العِباد ، فَقَدْ تَكُونُ عُقُوبَةً فِي حَقِّ صاحِبِها كَما يَأْتِي ، وقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ لِمَنْ لا اسْتِقامَةَ لَهُ أَصْلًا ؛ كالكُهَّانِ والسَّحَرَةِ وغَيْرِهِمْ .

والغالِبُ أَنَّ أَهْلَ شُهُودِ المَلَكُوتِ يُحْجَبُونَ عَنْ مُكاشَفَةِ أَسْرارِ العِبادِ لاشْتِغالِهِمْ بِما هُوَ أَعْظَمُ وأَحْظَى عِنْدَ اللّه ، وإِنَّما تَكُونُ هَذِهِ المُكاشَفاتُ عِنْدَ العُبَّادِ الزُّهَّادِ وأَهْلِ الرِّياضاتِ والمُجاهَداتِ

تُنْكَرُ أَنْ تَكُونَ عِنْدَ العارِفِينَ ، فَقَدْ تَجْتَمِعُ لَهُمُ المُكاشَفَةُ والكَشْفُ ؛ أَيْ : مُكاشَفَةُ أَسْرارِ العِباد ، وكَشْفُ الحِجابِ عَنِ الفُؤاد ، إِلَّا أَنَّ الغالِبَ هُوَ اسْتِغْراقُ الرُّوحِ فِي شُهُودِ نُورِ المَلَكُوت ، دُونَ الاسْتِشْرافِ إِلَى أَسْرارِ العِبادِ الَّتي هِيَ مِنْ عالَمِ المُلْك .

وقَدْ كانَ الشَّيْخُ أَبُو يَعْزَى يَطَّلِعُ عَلَى سَرائِرِ النَّاسِ ويَفْضَحُهُمْ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ شَيْخُهُ أَبُو شُعَيْبَ أَيُّوبُ (المَعْرُوفُ بِالسَّارِيَة) مِنْ أَزْمُور يُحَذِّرُهُ مِنْ ذَلِكَ ويَنْهاهُ عَنْ هَتْكِ أَسْتارِ المُسْلِمِينَ ، فَكَتَبَ لَهُ الشَّيْخُ أَبُو يَعْزَى يُجِيبُهُ : ((لَيْسَ هَذا مِنْ قُدْرَةِ البَشَرِ أَنْ يَسَعَ أَحَدٌ مَعْرِفَةَ أَسْرارِ العِبادِ وإِخْراجَ عُيُوبِهِمْ مِنْ عالَمِ الغَيْبِ إِلَى عالَمِ الشَّهادَة ، وإِنَّما هُوَ شَيْءٌ يُلْقَى إِلَيَّ ، ويُقالُ لِي : قُلْ واسْمَعِ الخِطاب ، أَنْتَ آيَةٌ مِنْ آياتِ اللّٰه ، والمُرادُ مِنْكَ أَنْ يَتُوبَ الخَلْقُ عَلَى يَدَيْكَ ، فَتَأْخُذَنِي غَلَبَةٌ ، وتَسْتَوْلِي عَلَيَّ مَلَكَةٌ لا أَقْدِرُ مَعَها عَنِ الكَفِّ عَنِ القَوْل)) .

وكُلُّهُمْ أَوْلِياءُ اللّٰه ، نَفَعَنا اللّٰهُ بِذِكْرِهِمْ ، ولَيْسَ قَصْدُنا تَنْقِيصَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وإِنَّما مُرادُنا أَنَّ طَرِيقَ المُكاشَفَةِ لَيْسَ هِيَ النِّهايَة ، بَلْ قالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ البِدايَة ، وبِاللّٰهِ التَّوْفِيق .

وقَدْ تَكُونُ وَبالًا فِي حَقِّ المُرِيدِ كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(مَنِ اطَّلَعَ عَلَى أَسْرارِ العِبادِ ولَمْ يَتَخَلَّقْ بِالرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّة ، كانَ اطِّلاعُهُ فِتْنَةً عَلَيْهِ وسَبَبًا لِجَرِّ الوَبالِ إِلَيْه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الاطِّلاعُ عَلَى أَسْرارِ العِبادِ قَبْلَ التَّمْكِينِ فِي الشُّهُود ، والتَّخَلُّقِ بِأَخْلاقِ المَلِكِ المَعْبُود ، فِتْنَةٌ عَظِيمَة ، وبَلِيَّةٌ ومُصِيبَة ، وذَلِكَ لأَنَّهُ قَبْلَ التَّمْكِينِ مِنَ المَعْرِفَةِ قَدْ يَشْتَغِلُ بِذَلِكَ قَلْبُه ، ويَتَشَوَّشُ خاطِرُهُ ولُبُّه ، فَيُفْتِرُهُ عَنِ الشُّهُود ، ويَفْتِنُهُ عَنِ الرُّسُوخِ فِي مَعْرِفَةِ المَلِكِ الوَدُود .

وأَيْضًا ما دامَتِ النَّفْسُ حَيَّةً ولَمْ يَقَعِ الفَناءُ عَنْها ؛ قَدْ يَعْتَقِدُ بِذَلِكَ المَزِيَّةَ عَلَى النَّاسِ فَيَدْخُلُهُ الكِبْرُ والعُجْبُ ، وهُما أَصْلُ المَعاصِي ، فَكانَ اطِّلاعُهُ حِينَئِذٍ عَلَى أَسْرارِ العِبادِ سَبَبًا فِي جَرِّ هَذا الوَبال ؛ أَي : العُقُوبَة إِلَيْه ، وهُوَ التَّكَبُّرُ عَلَى النَّاس ، واعْتِقادُ المَزِيَّةِ عَلَيْهِمْ ، وهُوَ سَبَبُ البُعْدِ عَنِ اللّه ، بِخِلافِ ما إِذا تَمَكَّنَ فِي مَعْرِفَةِ الحَقِّ ، وتَخَلَّقَ بِأَخْلاقِهِ ، وتَحَقَّقَ بِمَعانِي صِفاتِهِ وأَسْمائِهِ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ عَلَى خُلُقِ الرَّحمٰن ، فَإِذا اطَّلَعَ عَلَى مَعاصِي العِبادِ ومَساوِيهِمْ رَحِمَهُمْ وسَتَرَهُمْ وحَلُمَ عَلَيْهِمْ ، وقَدْ قالَ ﷺ : (الخَلْقُ عِيالُ اللّه ، وأَقْرَبُكُمْ إِلَى اللّهِ أَرْحَمُكُمْ بِعِيالِه) .

حَظُّ النَّفْسِ فِي المَعْصِيَة

ولَمَّا كانَ الاطِّلاعُ عَلَى أَسْرارِ العِبادِ قَدْ يُدْرَكُ بِكَثْرَةِ الطَّاعاتِ والاجْتِهاد ، فَقَدْ تَقْصِدُ النَّفْسُ بِالطَّاعَةِ هَذا الحَظَّ الدَّنِيَّ ، وهُوَ مَرَضٌ خَفِيٌّ ، نَبَّهَ عَلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(حَظُّ النَّفْسِ فِي المَعْصِيَةِ ظاهِرٌ جَلِيٌّ ، وحَظُّها فِي الطَّاعَةِ باطِنٌ خَفِيٌّ ، ومُداواةُ ما خَفِيَ صَعْبٌ عِلاجُه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **حَظُّ النَّفْسِ فِي المَعْصِيَةِ** : هُوَ مُتْعَةُ البَشَرِيَّةِ الظَّاهِرَة ؛ كَلَذَّةِ الأَكْلِ والشُّرْبِ والنِّكاحِ وسَماعِ اللَّهْوِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ أَذْواقِ الحِسِّ الَّتي هِيَ مُحَرَّمَةٌ ، وحَظُّها فِي الطَّاعَةِ : هُوَ طَلَبُ الكَرامات ، وخَوارِقِ العادات ، والاطِّلاعِ عَلَى المُغَيَّبات ، وكَحُبِّ الخُصُوصِيَّةِ والمَنْزِلَةِ عِنْدَ النَّاس ، ومُداواةُ هَذا المَرَضِ الخَفِيِّ أَصْعَبُ مِنْ مُداواةِ الأَوَّلِ الجَلِيِّ ، فَكَذَلِكَ المَعْنَوِيُّ الباطِنِيُّ .

فالأَوَّلُ يُمْكِنُ دَواؤُهُ بِالعُزْلَةِ ، والفِرارِ مِنْ مَواطِنِ الأَشْرارِ ، وبِصُحْبَةِ الأَخْيارِ ، وبِكَثْرَةِ الطَّاعَةِ والأَذْكارِ ، بِخِلافِ الثَّانِي ؛ فَلا تَزِيدُهُ الطَّاعَةُ إِلَّا كَثْرَةً وقُوَّةً ؛ إِذْ بِها صارَتْ تَطْلُبُ حَظَّها ، فَلا يُداويها مِنْ هَذا إِلَّا خَوْفٌ مُزْعِج ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِق ، أَوْ وَلِيٌّ عارِفٌ مُحَقِّق ، يَصْحَبُهُ بِالمَحَبَّةِ والتَّصْدِيق .

قالَ بَعْضُهُمْ : مَنْ عَسَرَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، فَلْيُسَلِّمْها إِلَى شَيْخِ التَّرْبِيَة .

قالَ تَعالَى : ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ (١) .

وإِنْ عَسَرَتْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ ، فَسَتُرْضِعُ لَهُ نَفْسَهُ نَفْسٌ أُخْرَى حَتَّى يَكْمُلَ أَوانُ فِطامِها ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ واحِدٌ مِنْ هَذِهِ ، ماتَ وهُوَ سَقِيم ، ولَمْ يَلْقَ اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيم .

فالواجِبُ عَلَى العَبْدِ اتِّهامُ نَفْسِهِ ومُراقَبَةُ قَلْبِهِ ، فَإِذا اسْتَحْلَتِ النَّفْسُ شَيْئًا مِنَ الطَّاعاتِ وأَلِفَتْهُ ، أَخْرَجَها إِلَى غَيْرِها ، ولَوْ كانَتْ مَفْضُولَةً فِي ظاهِرِ أَمْرِها ، كَما قالَ ابنُ عَطاءِ اللّٰه : ((إِذا الْتَبَسَ عَلَيْكَ أَمْران ، انْظُرْ أَثْقَلَهُما عَلَى النَّفْس ، فَإِنَّهُ لا يَثْقُلُ عَلَيْها إِلَّا ما كانَ حَقًّا)) .

ثُمَّ فَسَّرَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ ذَلِكَ الدَّاءَ الَّذي يَكُونُ خَفِيًّا فِي الطَّاعَةِ بِبَعْضِ جُزْئِيَّاتِهِ ، وهُوَ أَعْظَمُها ، فَقالَ :

(رُبَّما دَخَلَ الرِّياءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لا يَنْظُرُ الخَلْقُ إِلَيْكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الرِّياءُ** : هُوَ طَلَبُ المَنْزِلَةِ عِنْدَ النَّاس ، وقَصْدُ ذَلِكَ بِعَمَلٍ صالِح ، سَواءٌ كانَ ذَلِكَ ظاهِرًا لِلنَّاس ، وهُوَ الغالِبُ ، أَوْ خَفِيًّا عَنْهُمْ ، فَقَدْ يَكُونُ الرِّياءُ فِي العَمَلِ الخَفِيِّ ، فَيَدْخُلُ الرِّياءُ عَلَيْكَ حَيْثُ

---

(١) سُورَةُ الطَّلاق : مِنَ الآيَة ٦ .

لا يَنْظُرُ أَحَدٌ إِلَيْكَ ، وهَذا أَصْعَبُ مِنَ الأَوَّل ؛ لأَنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ كَما فِي الحَدِيث .

قالَ بَعْضُهُمْ : مِنْ أَعْظَمِ الرِّياءِ مَنْ رَأَى العَطاءَ والمَنْعَ ، والضَّرَرَ والنَّفْعَ مِنَ الخَلْق .

أَقْسامُ الرِّياء

وقالَ بَعْضُهُمْ : أَقْسامُ الرِّياءِ ثَلاثَةٌ كُلُّها عِلَّةٌ فِي الدِّين :

الأَوَّلُ : وهُوَ أَعْظَمُها : أَنْ يَقْصِدَ بِعَمَلِهِ الخَلْقَ ، ولَوْلاهُمْ لَمْ يَعْمَلْ .

الثَّانِي : أَنْ يَعْمَلَ للمِدْحَةِ والثَّناء ، ولَوْ لَمْ يَعْلَمْهُ النَّاس .

الثَّالِثُ : أَنْ يَعْمَلَ لله ، ويَرْجُو عَلَى عَمَلِهِ الثَّوابَ ورَفْعَ العِقاب ، وهَذا النَّوْعُ جَيِّدٌ مِنْ وَجْهٍ ، مَعْلُولٌ مِنْ وَجْهٍ ؛ عِنْدَ العارِفِينَ رِياءٌ ، وعِنْدَ عامَّةِ المُسْلِمِينَ إِخْلاصٌ .

وقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (١) ، هُوَ السَّالِمُ مِنَ الرِّياءِ ظاهِرًا وباطِنًا ؛ بِحَيْثُ لا يُرِيدُ عامِلُهُ حَظًّا دُنْيَوِيًّا ولا أُخْرَوِيًّا .

عَلامَةُ المُرائِي

وللمُرائِي عَلاماتٌ لا تَخْفَى :

---

(١) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ١٠ .

مِنْها : نَشاطُهُ فِي الجَلْوَة ، وكَسَلُهُ فِي الخَلْوَة ، أَوْ إِتْقانُ العَمَلِ حَيْثُ يَراهُ النَّاسُ ، وتَساهُلُهُ حَيْثُ لا يَراهُ إِلَّا اللّٰه .

ومِنْها : الْتِماسُهُ بِقَلْبِهِ تَوْقِيرَ النَّاسِ لَهُ ، وتَعْظِيمَهُ ، ومُسارَعَتَهُمْ إِلَى قَضاءِ حَوائِجِهِ ، وإِذا قَصَّرَ أَحَدٌ فِي حَقِّهِ الَّذي يَسْتَحِقُّهُ عِنْدَ نَفْسِهِ ، اسْتَبْعَدَ ذَلِكَ ، واسْتَنْكَرَهُ ، ويَجِدُ تَفْرِقَةً بَيْنَ إِكْرامِهِ وإِكْرامِ غَيْرِهِ ، وإِهانَتِهِ وإِهانَةِ غَيْرِهِ مِنْ أَقْرانِهِ ، حَتَّى رُبَّما يُظْهِرُ بَعْضُ سُخَفاءِ العُقُولِ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، فَيَتَوَعَّدُونَ مَنْ قَصَّرَ فِي حَقِّهِمْ بِمُعاجَلَةِ اللّٰهِ لَهُمْ ، وأَخْذِ ثَأْرِهِمْ ، فَإِنْ وَجَدَ المُرِيدُ هَذِهِ الأَماراتِ فِي نَفْسِهِ ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مُراءٍ بِعَمَلِهِ ، وإِنْ أَخْفاهُ عَنْ أَعْيُنِ النَّاس .

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا وأَنا أَعْلَمُهُ ، وأَسْتَغْفِرُكَ لِما لا أَعْلَمُهُ)) .

ولا يَسْلَمُ مِنَ الرِّياءِ الجَلِيِّ والخَفِيِّ إِلَّا العارِفُونَ المُوَحِّدُونَ ؛ لأَنَّ اللّٰهَ تَعالَى طَهَّرَهُمْ مِنْ دَقائِقِ الشِّرْك ، وغَيَّبَ عَنْ نَظَرِهِمْ رُؤْيَةَ الخَلْق ، بِما أَشْرَقَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ أَنْوارِ اليَقِينِ والمَعْرِفَة ، لَمْ يَرْجُوا مِنْهُمْ حُصُولَ مَنْفَعَة ، ولَمْ يَخافُوا مِنْهُمْ وُجُودَ مَضَرَّة ، فَأَعْمالُ هَؤُلاءِ خالِصَةٌ ، وإِنْ عَمِلُوها بَيْنَ أَظْهُرِ النَّاس .

ومَنْ لَمْ يَحْظَ بِهَذا ، وشاهَدَ الخَلْقَ ، وتَوَقَّعَ مِنْهُمْ حُصُولَ المَنافِعِ ودَفْعَ المَضارِّ ، فَهُوَ مُراءٍ بِعَمَلِهِ ، وإِنْ عَبَدَ اللّٰهَ تَعالَى فِي قِنَّةِ جَبَلٍ أَيْ : أَعْلاهُ ، قالَهُ الشَّيْخُ ابنُ عَبَّاد رضي الله عنه .

ومِنْها : أَيْ : ومِنْ عَلامَةِ الرِّياءِ الخَفِيَّةِ أَيْضًا : اسْتِشْرافُ العَبْدِ وتَطَلُّعُهُ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ بِخُصُوصِيَّتِهِ ، كَما أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(اسْتِشْرافُكَ أَنْ يَعْلَمَ الخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِذا خَصَّكَ الحَقُّ تَعالَى أَيُّها المُرِيدُ بِخُصُوصِيَّةٍ مِنْ خَصُوصِيَّةِ خَواصِّهِ ؛ كَزُهْدٍ ، أَوْ وَرَعٍ ، أَوْ تَوَكُّلٍ ، أَوْ رِضًا ، أَوْ تَسْلِيمٍ ، أَوْ مَحَبَّةٍ ، أَوْ يَقِينٍ فِي القَلْبِ ، أَوْ مَعْرِفَةٍ ، أَوْ أَظْهَرَ عَلَى يَدَيْكَ كَرامَةً حِسِّيَّةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً ، أَوِ اسْتَخْرَجَتْ فِكْرَتُكَ حِكَمًا أَوْ مَواهِبَ كَسْبِيَّةً أَوْ لَدُنِيَّةً ، ثُمَّ اسْتَشْرَفْتَ ؛ أَيْ : تَطَلَّعْتَ وتَمَنَّيْتَ أَنْ يَعْلَمَ الخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ ؛ بِأَنْ يَطَّلِعُوا عَلَى تِلْكَ الخُصُوصِيَّةِ الَّتِي خَصَّكَ اللّٰهُ بِها ، فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الرِّياءِ الخَفِيِّ فِي باطِنِكَ ، ودَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ ، بَلْ أَنْتَ كاذِبٌ فِيها ، إِذْ لَوْ كُنْتَ صادِقًا

فِي عُبُودِيَّتِكَ ، لاكْتَفَيْتَ بِعِلْمِ اللهِ ، وقَنِعْتَ بِمُراقَبَتِهِ إيَّاكَ ، واسْتَغْنَيْتَ بِهِ عَنْ رُؤْيَةِ غَيْرِه .

فالواجِبُ عَلَى المُرِيدِ إذا خَصَّهُ اللهُ بِخُصُوصِيَّةٍ كَتْمُها وجَحْدُها وسَتْرُها إلَّا عَلَى شَيْخِهِ ، فَإنْ أَظْهَرَها فَهُوَ عَلَى خَطَر ، فَقَدْ يَكُونُ تَحَدُّثًا ، وقَدْ يَكُونُ تَبَجُّحًا ، وفِي الكِتْمانِ السَّلامَة .

ولِهَذا كانَ إسْقاطُ المَنْزِلَةِ شَرْطًا فِي هَذا الطَّرِيق ، فَإنْ تَحَقَّقَ العَبْدُ بِالمَعْرِفَةِ ومُشاهَدَةِ الوَحْدانِيَّةِ جازَ لَهُ الإخْبارُ بِالوَحْدانِيَّةِ بِأَعْمالِهِ ، والإظْهارُ لِمَحاسِنِ أَحْوالِهِ بِناءً مِنْهُ عَلَى نَفْيِ الغَيْر ، وأَداءِ الواجِبِ مِنَ الشُّكْر .

كانَ بَعْضُ السَّلَفِ يُصْبِحُ فَيَقُولُ : صَلَّيْتُ كَذا وكَذا وكَذا رَكْعَة ، وتَلَوْتُ كَذا وكَذا سُورَة ، فَيُقالُ لَهُ : أَما تَخْشَى مِنَ الرِّياء ؟ فَيَقُولُ : وَيْحَكُمْ ، وهَلْ رَأَيْتُمْ مَنْ يُرائِي بِفِعْلِ غَيْرِه ؟!

والحاصِلُ : مَنْ فَنِيَ عَنْ نَفْسِهِ ، وتَحَقَّقَ بِشُهُودِ رَبِّهِ ، فَلا كَلامَ عَلَيْه ، وقَدْ قالُوا : مَنْ أَحَبَّ الخَفا فَهُوَ عَبْدُ الخَفا ، ومَنْ أَحَبَّ الظُّهُورَ فَهُوَ عَبْدُ الظُّهُور ، ومَنْ لَمْ يُرِدْ غَيْرَ ما أَرادَ اللهُ بِهِ فَهُوَ عَبْدُ اللهِ حَقًّا .

ثُمَّ عَلَّمَنا شَيْخُنا ابنُ عَطاءِ اللهِ الدَّواءَ فِي تَرْكِ الاسْتِشْرافِ إلَى

الخَلْقِ ؛ وهُوَ الاكْتِفاءُ بِنَظَرِ الحَقِّ ، فَقالَ نَفَعَ اللّٰهُ بِهِ ورَضِيَ عَنْهُ :

(غَيِّبْ نَظَرَ الخَلْقِ إِلَيْكَ بِنَظَرِ اللّٰهِ إِلَيْكَ ، وغَيِّبْ عَنْ إِقْبالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبالِهِ عَلَيْكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الخَلْقُ فِي التَّحْقِيقِ عَدَمٌ ، والوُجُودُ إِنَّما هُوَ اللّٰهُ الواحِدُ الأَحَدُ ، فَوُجُودُ السِّوَى كالهَباءِ فِي الهَواءِ أَوْ كَظِلالِ الأَشْخاصِ ، إِنْ فَتَّشْتَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا ، فَغَيِّبْ عَنْكَ أَيُّها المُرِيدُ نَظَرَ الخَلْقِ إِلَيْكَ اكْتِفاءً بِنَظَرِ الحَقِّ إِلَيْكَ ؛ إِذْ لا نَظَرَ لِسِواه ، وغَيِّبْ عَنْ إِقْبالِهِمْ عَلَيْكَ بِالتَّعْظِيم والتَّكْرِيم بِشُهُودِ إِقْبالِ المَلِكِ الكَرِيم ، فَغَيِّبْ عَنِ الوَهْمِ بِثُبُوتِ العِلْم ، فَإِقْبالُكَ عَلَى الخَلْقِ إِدْبارُكَ عَنِ الحَقِّ ، وإِدْبارُكَ عَنِ الخَلْقِ إِقْبالُكَ عَلَى الحَقِّ ، ولا يَجْتَمِعان .

وفِي الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ فِي وَصِيَّتِهِ لابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما : (احْفَظِ اللّٰهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللّٰهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ ، إِذا سَأَلْتَ فاسْأَلِ اللّٰهَ ، وإِذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بِاللّٰه ، واعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّٰهُ لَكَ ، ولَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّٰهُ عَلَيْكَ ، جَفَّتِ الأَقْلامُ ، وطُوِيَتِ الصُّحُف) .

قالَ فِي ((لَطائِف المِنَن)) : ((اعْلَمْ أَنَّ مَبْنَى الوَلِيِّ عَلَى الاكْتِفاءِ بِالله ، والقَناعَةِ بِعِلْمِهِ ، والاعْتِناءِ بِشُهُودِه .

قالَ سُبْحانَهُ : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ (١) ، وقالَ : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ (٢) ، وقالَ : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ (٣) ، وقالَ : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤) .

فَسَبِيلُ أَمْرِهِمْ فِي بِدايَتِهِمْ الفِرارُ مِنَ الخَلْقِ ، والانْفِرادُ بِالمَلِيكِ الحَقِّ ، وإِخْفاءُ الأَعْمالِ ، وكَتْمُ الأَحْوالِ ، تَحْقِيقًا لِفَنائِهِمْ ، وتَثْبِيتًا لِزُهْدِهِمْ ، وعَمَلًا عَلَى سَلامَةِ قُلُوبِهِمْ ، حَتَّى إِذا تَمَكَّنَ اليَقِين ، وأُيِّدُوا بِالرُّسُوخِ والتَّمْكِين ، وتَحَقَّقُوا بِتَحْقِيقِ الفَناء ، ورُدُّوا إِلَى وُجُودِ البَقاء ، فَهُناكَ إِنْ شاءَ الحَقُّ أَظْهَرَهُمْ هادِينَ إِلَيْهِ عِبادَهُ ، وإِنْ شاءَ سَتَرَهُمْ ، فاقْتَطَعَهُمْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْه ، إِلخ كَلامِه)) .

ثُمَّ إِنَّهُ لا تَتَحَقَّقُ الغَيْبَةُ عَنْ نَظَرِ الخَلْقِ بِنَظَرِ الحَقِّ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الحَقِّ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ ، وشُهُودِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

---

(١) سُورَةُ الطَّلاق : مِنَ الآيَة ٣ .
(٢) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٣٦ .
(٣) سُورَةُ العَلَق : الآيَة ١٤ .
(٤) سُورَةُ فُصِّلَت : مِنَ الآيَة ٥٣ .

(مَنْ عَرَفَ الحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، ومَنْ فَنِيَ بِهِ غابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ومَنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **مَعْرِفَةُ الحَقِّ** : هِيَ شُهُودُ رُبُوبِيَّتِهِ فِي مَظاهِرِ عُبُودِيَّتِهِ .

أَوْ تَقُولُ : هِيَ التَّرَقِّي مِنْ شُهُودِ عالَمِ الأَشْباحِ إِلَى شُهُودِ عالَمِ الأَرْواحِ . ، فَيَكُونُ جِسْمُكَ مَعَ الأَشْباحِ ، ورُوحُكَ مَعَ الأَرْواحِ ؛ قالَ فِي ((المَباحِث)) :

وَاسْتَشْعَرُوا شَيْئًا سِوَى الأَبْدَانِ ❁ يَدْعُونَهُ بِالْعَالَمِ الرُّوحَانِي

ثُمَّ وَرَاءَ الْعَالَمِ الْمَعْقُولِ ❁ مَعَارِفٌ تُلْغِزُ بِالْمَنْقُولِ

والفَناءُ : هُوَ أَنْ تَبْدُوَ لَكَ العَظَمَةُ ، فَتُنْسِيَكَ كُلَّ شَيْءٍ ، وتُغَيِّبَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، سِوَى الواحِدِ الَّذي : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (١) ، ولَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ .

أَوْ تَقُولُ : هُوَ شُهُودُ حَقٍّ بِلا خَلْقٍ ، كَما أَنَّ البَقاءَ هُوَ شُهُودُ خَلْقٍ بِحَقٍّ .

والمَحَبَّةُ : أَخْذُ الحَقِّ قَلْبَ مَنْ أَحَبَّ مِنْ عِبادِهِ ، فَلا يَكُونُ لَهُ عَنْ نَفْسِهِ إِخْبار ، ولا مَعَ غَيْرِ مَحْبُوبِهِ قَرار ، وقِيلَ غَيْرُ ذَلِك .

فَمَنْ عَرَفَ الحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ولَمْ يَرَ مَعَهُ شَيْئًا ؛ لِنُفُوذِ بَصِيرَتِهِ مِنْ شُهُودِ عالَمِ الأَشْباحِ إِلَى شُهُودِ عالَمِ الأَرْواح ، ومِنْ شُهُودِ عالَمِ

---

(١) سُورَةُ الشُّورَى : مِنَ الآيَة ١١ .

المُلْكِ إِلَى شُهُودِ فَضاءِ المَلَكُوت ، ومَنْ فَنِيَ بِهِ وانْجَذَبَ إِلَى حَضْرَتِهِ ، غابَ فِي شُهُودِ نُورِهِ عَنْ كُلِّ شَيْء ، ولَمْ يُثْبِتْ مَعَ اللهِ شَيْئًا .

العارِفُ والفانِي

والفَرْقُ بَيْنَ الفانِي والعارِفِ أَنَّ العارِفَ يُثْبِتُ الأَشْياءَ بِاللهِ ، والفانِيَ لا يُثْبِتُ شَيْئًا سِوَى اللهِ .

العارِفُ يُقَرِّرُ القُدْرَةَ والحِكْمَة ، والفانِي لا يَرَى إِلَّا القُدْرَة .

والعارِفُ يَرَى الحَقَّ فِي الخَلْقِ ؛ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : ما رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا رَأَيْتُ اللهَ فِيه ، والفانِي لا يَرَى إِلَّا الحَقَّ ، يَقُولُ : ما رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا رَأَيْتُ اللهَ قَبْلَه .

العارِفُ فِي مَقامِ البَقاء ، والفانِي مَجْذُوبٌ فِي مَقامِ الفَناء .

الفانِي سائِر ، والعارِفُ مُتَمَكِّنٌ واصِل ، ومَنْ أَحَبَّ اللهَ لا يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ حُظُوظِهِ وهَوَى نَفْسِهِ ، ولَوْ كانَ فِيهِ حَتْفُ أَنْفِهِ ، كَما قالَ القائِلُ :

قَالَتْ وَقَدْ سَأَلَتْ عَنْ حَالِ عَاشِقِها ❁ بِاللهِ صِفْهُ وَلا تَنْقُصْ وَلا تَزِدِ
فَقُلْتُ لَوْ كَانَ رَهْنَ الْمَوْتِ مِنْ ظَمَأٍ ❁ وَقُلْتِ قِفْ عَنْ وُرُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدِ

والكَلامُ فِي المَحَبَّةِ طَوِيلٌ ، ذَكَرَ الشَّيْخُ فِي ((لَطائِف المِنَن)) مِنْهُ

جُمْلَةً صالِحَةً ، وكَلامُ الشَّيْخِ رضي الله عنه مِنْ بابِ التَّدَلِّي ، فالمَعْرِفَةُ أَعْلَى المَقامات ، وقَبْلَها الفَناء ، وقِيلَ للفَناء : المَحَبَّة ؛ أَيْ : أَوَّلُها ، فَأَوَّلُ ما يَقْذِفُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ الَّذي يُرِيدُ أَنْ يَصْطَفِيَهُ لِحَضْرَتِهِ ويُعَرِّفَهُ بِهِ مَحَبَّتُهُ ، فَلا يَزالُ يَلْهَجُ بِذِكْرِهِ ، ويُتْعِبُ جَوارِحَهُ فِي خِدْمَتِهِ ، ويَتَعَطَّشُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالنَّوافِلِ حَتَّى يُحِبَّهُ الحَقُّ ، فَإِذا أَحَبَّهُ أَفْناهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وغَيَّبَهُ عَنْ حِسِّهِ ، فَكانَ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ ، ويَدَهُ وجُمْلَتَهُ ، ثُمَّ رَدَّهُ إِلَيْهِ ، وأَبْقاهُ بِهِ ، فَعَرَفَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، ورَآهُ قائِمًا بِكُلِّ شَيْءٍ ، ظاهِرًا فِي كُلِّ شَيْء .

ولِهَذا الَّذي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ عَلاماتٌ تَدُلُّ عَلَى تَحْقِيقِ تِلْكَ المَقامات ، فَمَنْ وَجَدَها فِي نَفْسِهِ كانَتْ دَعْواهُ لِتِلْكَ المَقاماتِ أَوْ بَعْضِها صَحِيحَة ، ومَنْ لَمْ يَجِدْها فِي نَفْسِهِ كانَتْ دَعْواهُ لَها كاذِبَةً وفَضِيحَة ، فَلْيَعْرِفْ قَدْرَهُ ، ولا يَتَعَدَّ طَوْرَهُ ، وبِاللهِ التَّوْفِيق .

ولَمَّا كانَتِ المَعْرِفَةُ تَقْتَضِي ظُهُورَ الحَقِّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَراهُ ظاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ ، بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ وَجْهَ احْتِجابِهِ وخَفائِهِ فَقالَ :

(**إِنَّما حَجَبَ الحَقَّ عَنْكَ شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ ، وإِنَّما احْتَجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ ، وخَفِيَ عَنِ الأَبْصارِ لِعَظِيمِ نُورِه**) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : ذَكَرَ فِي حِكْمَةِ خَفائِهِ تَعالَى مَعَ شِدَّةِ ظُهُورِهِ ثَلاثَ حِكَم :

الحِكْمَةُ الأُولَى) شِدَّةُ القُرْب ، ولا شَكَّ أَنَّ شِدَّةَ القُرْبِ تُوجِبُ الخَفاءَ ؛ كَسَوادِ العَيْنِ مِنَ الإِنْسان ، فَإِنَّ الإِنْسانَ لا يُدْرِكُ سَوادَ عَيْنِهِ لِشِدَّةِ قُرْبِهِ مِنْهُ ، واللّٰهُ تَعالَى أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْء .

قالَ تَعالَى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (١) .

الحِكْمَةُ الثَّانِيَة) فِي خَفائِهِ شِدَّةُ ظُهُورِهِ ، ولا شَكَّ أَنَّ شِدَّةَ الظُّهُورِ مُوجِبَةٌ للخَفاء ، كَما قالَ صاحِبُ الهَمْزِيَّة (٢) :

❁ وَمِنْ شِدَّةِ الظُّهُورِ الْخَفَاءُ ❁

وقَدْ مَثَّلُوا ذَلِكَ بِقُرْصِ الشَّمْسِ حِينَ يَعْظُمُ شُعاعُهُ ، ويَتَقَوَّى إِشْراقُهُ ، فَإِنَّ الأَبْصارَ الضَّعِيفَةَ لا تَقْوَى عَلَى مُشاهَدَتِهِ مَعَ شِدَّةِ ظُهُورِهِ ، فَصارَتْ شِدَّةُ الظُّهُورِ مُوجِبَةً للخَفاء .

الحِكْمَةُ الثَّالِثَة) شِدَّةُ نُورِهِ ، ولا شَكَّ أَنَّ شِدَّةَ النُّورِ مُوجِبَةٌ لِعَدَمِ الإِدْراك ؛ فَإِنَّ البَصَرَ لا يُقاوِمُ النُّورَ الباهِر .

---

(١) سُورَةُ ق : الآيَة ١٦ .

(٢) الإمامُ البُوصِيري ، ت (٦٩٥هـ) . وضَرِيحُهُ مِنْ مَعالِمِ الإِسْكَنْدَرِيَّة بِجِوارِ مَرْقَدِ ومَسْجِدِ شَيْخِهِ أَبِي العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنهما .

وانْظُرِ البَرْقَ الخاطِفَ ؛ فَإِنَّ البَصَرَ لا يُطِيقُ رُؤْيَتَهُ ، وأَنْشَدُوا :

بِالنُّورِ يَظْهَرُ مَا تَرَى مِنْ صُورَةٍ ❁ وَبِهِ وُجُودُ الْكَائِنَاتِ بِلَا امْتِرَا
لَكِنَّهُ يَخْفَى لِفَرْطِ ظُهُورِهِ ❁ حِسًّا وَيُدْرِكُهُ الْبَصِيرُ مِنَ الْوَرَىٰ
فَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ عَقْلِكَ لَمْ تَجِدْ ❁ شَيْئًا سِوَاهُ عَلَى الذَّوَاتِ مُصَوَّرَا
وَإِذَا طَلَبْتَ حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِهِ ❁ فَبِذَيْلِ جَهْلِكَ لا تَزَالُ مُعَثَّرَا

وهَذا النُّورُ الَّذي نَتَكَلَّمُ فِيهِ لَيْسَ هُوَ حِسِّيًّا ، وإِنَّما هُوَ ما يَبْدُو مِنْ مَعانٍ بِالصِّفاتِ والأَسْماءِ الَّتي تَخْرُجُ مِنْ ظُلْمَةِ الجَهْلِ إِلَى مَعْرِفَةِ أَسْمائِهِ وصِفاتِه [1] .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : هُوَ النُّورُ الأَصْلِيُّ الَّذي فاضَ مِنْ بَحْرِ الجَبَرُوت ، إِلَّا أَنَّهُ تَسَتَّرَ بِالحِكْمَةِ والعِزَّةِ القَهْرِيَّة .

سُئِلَ أَبو القاسِم النَّصْرُ أَباذِي عَنْ قَوْلِهِمْ :

وَيُظْهِرُ فِي الْهَوَىٰ عِزَّ الْمَوَالِي ❁ فَيَلْزَمُنِي لَهُ ذُلُّ الْعَبِيدِ

فَقالَ : عِزُّ المَوالِي السَّتْرُ ؛ لأَنَّهُ لَو انْهَتَكَ الحِجاب ، لَفَطَرَ الأَلْباب .

أَدَبُ الطَّلَب

والحاصِلُ أَنَّهُ هُوَ الظَّاهِرُ فِي كُلِّ شَيْء ، وإِنَّما حَجَبَهُ شِدَّةُ قُرْبِهِ ، وشِدَّةُ ظُهُورِهِ ، وعَظِيمُ نُورِه .

---

(١) قالَهُ الشَّيْخُ زَرُّوق .

وإذا عَلِمْتَ أَنَّهُ قَرِيب ، وأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ رُوحِكَ وقَلْبِكَ ، اكْتَفَيْتَ بِنَظَرِه ، واسْتَغْنَيْتَ بِعِلْمِهِ عَنْ طَلَبِه ، فَإِنْ كانَ ولا بُدَّ مِنَ الدُّعاء ، فَلْيَكُنْ عُبُودِيَّةً ومُناجاةً وتَمَلُّقًا ، لا سَبَبًا للعَطاء ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لا يَكُنْ طَلَبُكَ سَبَبًا إِلَى العَطاءِ مِنْهُ ، فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ ، ولْيَكُنْ طَلَبُكَ لإِظْهارِ العُبُودِيَّة ، وقِيامًا بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّة) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الطَّلَبَ كُلَّهُ مَعْلُولٌ عِنْدَ ذَوِي الأَلْباب ، فَإِنْ كانَ ولا بُدَّ مِنَ الطَّلَب ، فَلْيَكُنْ إِظْهارًا للعُبُودِيَّة ، وقِيامًا بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّة ، فَلا يَكُنْ طَلَبُكَ مِنَ الحَقِّ سَبَبًا إِلَى العَطاءِ مِنْهُ ، فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ ؛ لأَنَّ الفَهْمَ عَنِ اللهِ يَقْتَضِي الاكْتِفاءَ بِعِلْمِهِ ، والاسْتِغْناءَ بِمَعْرِفَتِهِ ، فَلا يَحْتاجُ إِلَى شَيْءٍ ، ولا يَتَوَقَّفُ عَلَى شَيْءٍ ، فَماذا فَقَدَ مَنْ وَجَدَك ، فَلا يَكُنْ مَحَطُّ نَظَرِهِ إِلَّا ما يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرِ القُدْرَة ، ولا يَشْتَهِ إِلَّا ما يَقْتَضِيهِ عَلَيْهِ مَوْلاه .

قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : ماذا تَشْتَهِي ؟ قالَ : ما يَقْضِي اللهُ .

قالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَن رضي الله عنه : لا يَكُنْ حَظُّكَ مِنَ الدُّعاءِ الفَرَحَ بِقَضاءِ حاجاتِكَ ومِنْ مُناجاةِ مَحْبُوبِكَ ، فَتَكُونَ مِنَ المَحْجُوبِين .

وقالَ بَعْضُهُمْ : فائِدَةُ الدُّعاءِ إِظْهارُ الفاقَةِ بَيْنَ يَدَيْه ، وإِلَّا فالرَّبُّ يَفْعَلُ ما يَشاء .

وقِيلَ : إِنَّ سَيِّدَنا مُوسَىٰ عليه السلام قالَ : يا رَبِّ أَطْعِمْنِي فَإِنِّي جائع ، فَأَوْحَى اللّٰهُ إِلَيْهِ : قَدْ عَلِمْتُ ذَلِك ، قالَ : يا رَبِّ أَطْعِمْنِي ، قالَ لَهُ : حَتَّى أُرِيد ؛ وهَذا مَقامُ أَهْلِ النِّهايات .

وأَمَّا أَهْلُ البِدايات ، فَيُرَخَّصُ لَهُمْ فِي طَلَبِ الحاجات ، وفِي كَثْرَةِ الدُّعاءِ والتَّضَرُّعات ؛ فالدُّعاءُ فِي حَقِّهِمْ واجِبٌ ، أَوْ مَنْدُوبٌ ، وفِيهِمْ وَرَدَ التَّرْغِيبُ فِي الدُّعاءِ والإِلْحاحِ فِيه :

قالَ تَعالَى : ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (١) ، وقالَ : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (٢) .

ووَرَدَ فِي بَعْضِ الأَخْبارِ أَنَّ اللّٰهَ تَعالَى قالَ لِسَيِّدِنا مُوسَىٰ عليه السلام : ((سَلْنِي حَتَّى مِلْحَ عَجِينِكَ ؛ تَشْرِيعًا للضُّعَفاء ؛ لأَنَّ الأَنْبِياءَ - عَلَيْهِمُ السَّلامُ - بُعِثُوا مُعَلِّمِينَ للضُّعَفاءِ والأَقْوِياء .

ويَنْبَغِي أَنْ يَتَأَدَّبَ فِي الدُّعاء ، فَلا يَدْعُوَ بِمَمْنُوعٍ شَرْعًا ، ولا مُمْتَنِعٍ عَقْلًا ، ويَكُونُ بِتَلَطُّفٍ وانْكِسار ، وظُهُورِ فاقَةٍ واضْطِرار ، لا بِانْبِساطٍ وإِدْلال ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَقامُ الرِّجالِ أَهْلِ المَكانَةِ والكَمال .

---

(١) سُورَةُ غافِر : مِنَ الآيَة ٦٠ .
(٢) سُورَةُ النَّمْل : مِنَ الآيَة ٦٢ .

ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّيْخ أَبي الحَسَن رضي الله عنه فِي ((حِزْبِهِ الكَبير)) : ولَيْسَ مِنَ الكَرَم أَلَّا تُحْسِنَ إِلَّا لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ ، إلخ .

وذُكِرَ فِي ((قُوت القُلُوب)) أَنَّ بَنِي إِسْرائِيلَ قَحَطُوا سَبْعَ سِنِينَ ، فَخَرَجَ سَيِّدُنا مُوسَىٰ عليه السلام بِسَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ لِيَسْتَسْقِيَ لَهُمْ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْه : كَيْفَ أَسْتَجِيبُ لَهُمْ وقَدْ أَظْلَمَتْ عَلَيْهِمْ ذُنُوبُهُمْ ، وسَرائِرُهُمْ خَبِيثَة ، فَدَعَوْنِي عَلَى غَيْرِ يَقِين ، ويَأْمَنُونَ مَكْرِي ؟ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبادِي يُقالُ لَهُ : بَرْخٌ ، قُلْ لَهُ يَخْرُجْ حَتَّى أَسْتَجِيبَ لَهُ ، فَسَأَلَهُمْ عَنْهُ سَيِّدُنا مُوسَىٰ عليه السلام ، فَلَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ ، فَبَيْنَما سَيِّدُنا مُوسَىٰ عليه السلام يَمْشِي فِي طَرِيق ، إِذا بِعَبْدٍ أَسْوَدَ قَدِ اسْتَقْبَلَهُ ، بَيْنَ عَيْنَيْهِ تُرابٌ مِنَ السُّجود ، وقَدْ عَقَدَ شَمْلَةً عَلَى عاتِقِهِ ، فَعَرَفَهُ سَيِّدُنا مُوسَىٰ عليه السلام بِنُورِ اللّه ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وقالَ : ما اسْمُكَ ؟ قالَ : بَرْخ ، فَقالَ لَهُ : مُنْذُ حِينٍ وأَنا أَطْلُبُكَ ، اخْرُجْ فاسْتَسْقِ لَنا ، فَخَرَجَ ، فَكانَ مِنْ خِطابِهِ لِرَبِّهِ فِي دُعائِهِ ومُناجاتِه : ((ما هَذا مِنْ فِعالِكَ ، وما هُوَ مِنْ حِكَمِكَ ، وما بِذَلِكَ عُرِفْتَ ، أَنَقَصَتْ عَلَيْكَ عُيُونُ مائِكَ ؟ أَمْ عانَدَتِ الرِّياحُ عَنْ طاعَتِكَ ، أَمْ نَفِدَ ما عِنْدَكَ ، أَمِ اشْتَدَّ غَضَبُكَ عَلَى المُذْنِبين ؟ أَلَسْتَ كُنْتَ غَفَّارًا قَبْلَ خَطَأِ الخَطَّائِين ؟ خَلَقْتَ الرَّحْمَةَ ،

وأَمَرْتَ بِالعَطِيَّةِ ، فَتَكُونَ لِما تَأْمُرُ مِنَ المُخالِفِين ، أَمْ تُرِينا أَنَّكَ مُمْتَنِع ، أَمْ تَخْشَى الفَوْتَ فَتُعَجِّلَ بِالعُقُوبَة ؟)) .

قالَ : فَما زالَ حَتَّى اخْضَلَّتْ بَنُو إِسْرائِيلَ بِالقَطْرِ ، وأَنْبَتَ اللّهُ العُشْبَ فِي نِصْفِ يَوْم حَتَّى بَلَغَ الرُّكَبَ ، قالَ : فَخَرَجَ بَرْخٌ ، فاسْتَقْبَلَهُ سَيِّدُنا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقالَ لَهُ : ما هَذا الخِطابُ الَّذي خاطَبْتَ بِهِ الحَقَّ ؟ فأَوْحَى اللّهُ إِلَيْهِ : دَعْهُ ؛ فَإِنَّ دُعاءَهُ يُضْحِكُنِي .

فانْظُرْ هَذِهِ الحِكايَةَ كَيْفَ وَقَعَتْ عَلَى بِساطِ المُباسَطَةِ الَّتي لا يَفْهَمُها إِلَّا أَهْلُ المَكانَةِ والتَّمْكِين ، وحَسْبُ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مَقاماتِ الرِّجالِ الأَدَبُ والهَيْبَةُ مَعَ رَبِّ العالَمِين .

الاكْتِفاءُ بِتَدْبِيرِ الحَقِّ

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ وَجْهَ ما ذَكَرَهُ مِنْ كَوْنِ الدُّعاءِ إِنَّما يَكُونُ عُبُودِيَّةً لا سَبَبًا فِي العَطاءِ ، فَقالَ :

(كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ اللَّاحِقُ سَبَبًا فِي عَطائِكَ السَّابِق ، جَلَّ حُكْمُ الأَزَلِ أَنْ يُضافَ إِلَى العِلَل) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **العَطاءُ السَّابِقُ** : هُوَ ما تَعَلَّقَ بِهِ عِلْمُهُ القَدِيمُ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ تَجَلِّياتُ الأَكْوان ، ولا شَكَّ أَنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ قَدَّرَ فِي الأَزَلِ ما كانَ وما يَكُونُ إِلَى أَبَدِ الأَبَدِ ؛ فَقَدْ قَسَّمَ الأَرْزاقَ الحِسِّيَّةَ والمَعْنَوِيَّةَ ،

وقَدَّرَ الآجالَ ، قالَ تَعالَى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (١) ، وقالَ : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (٢) ، وقالَ : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣) ، وقالَ : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ (٤) ، وقالَ تَعالَى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ (٥) .

فَإذا عَلِمْتَ أَيُّها الإِنْسانُ أَنَّ القَضاءَ والقَدَرَ قَدْ سَبَقَ بِرِزْقِكَ وأَجَلِكَ ، وأَنَّهُ قَدْ سَبَقَتْ قِسْمَتُكَ وُجُودَكَ ، فَماذا تَطْلُبُ ؟ وإذا طَلَبْتَ ، فَكَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ اللَّاحِقُ سَبَبًا فِي عَطائِهِ السَّابِقِ ؟ إِذْ قَدْ سَبَقَ مِنْهُ العَطاءُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ مِنْكَ الطَّلَبُ ، جَلَّ : أَيْ عَظُمَ وتَعالَى حُكْمُ الأَزَلِ القَدِيمِ أَنْ يُضافَ إِلَى العِلَلِ والأَسْبابِ الحادِثَةِ ؛ إِذْ مُحالٌ أَنْ يَتَقَدَّمَ الحادِثُ عَلَى القَدِيمِ ، لا وُجُودًا ولا حُكْمًا .

قالَ ذُو النُّونِ المِصْرِي رضي الله عنه : «التَّوْحِيدُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ قُدْرَةَ اللهِ فِي الأَشْياءِ بِلا عِلاجٍ ، وصُنْعَهُ لَها بِلا مِزاجٍ ، وعِلَّةَ كُلِّ شَيْءٍ صُنْعُهُ ،

---

(١) سُورَةُ القَمَر : الآيَة ٤٩ .
(٢) سُورَةُ الرَّعْد : مِنَ الآيَة ٨ .
(٣) سُورَةُ الأَعْراف : الآيَة ٣٤ .
(٤) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ١١ .
(٥) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٤٥ .

ولا عِلَّةَ لِصُنْعِهِ ، ولَيْسَ فِي السَّمَواتِ العُلا ، ولا فِي الأَرَضِينَ السُّفْلَىٰ مُدَبِّرٌ غَيْرُ اللهِ ، وكُلُّ ما يَخْطُرُ بِبالِكَ ، فاللهُ مُخالِفٌ لِذَلِكَ)) .

قَوْلُهُ : وعِلَّةُ كُلِّ شَيْءٍ ؛ الضَّمِيرُ فِي ((صُنْعِهِ)) يَعُودُ عَلَى الحَقِّ تَعالَى ؛ أَيْ : وعِلَّةُ كُلِّ شَيْءٍ صُنْعُ الحَقِّ لَهُ ؛ يَعْنِي : أَنَّ سَبَبَ وُجُودِ الأَشْياءِ وظُهُورِها هُوَ صُنْعُ الحَقِّ لَها ، وصُنْعُ الحَقِّ لا عِلَّةَ لَهُ .

ومِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ طَلَبَكَ لَيْسَ سَبَبًا فِي عَطائِهِ لَكَ وُجُودُ عِنايَتِهِ بِكَ قَبْلَ ظُهُورِكَ الَّذي أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(عِنايَتُهُ فِيكَ لا لِشَيْءٍ مِنْكَ ، وأَيْنَ كُنْتَ حِينَ واجَهَتْكَ عِنايَتُهُ ، وقابَلَتْكَ رِعايَتُه ؟ لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إِخْلاصُ أَعْمال ، ولا وُجُودُ أَحْوال ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ إِلَّا مَحْضُ الإِفْضال ، ووُجُودُ النَّوال) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مِمَّا تَواتَرَتْ بِهِ الأَخْبارُ والنُّقُول ، ووافَقَ المَنْقُولُ المَعْقُول ، أَنَّ ما شاءَ اللهُ يَكُون ، وما لَمْ يَشَأْ رَبُّنا لَمْ يَكُنْ ، ومَشِيئَتُهُ تَعالَى قَدِيمَة ؛ لأَنَّها عَيْنُ إِرادَتِهِ ؛ وإِرادَتُهُ عَلَى وَفْقِ عِلْمِهِ ، وعِلْمُهُ قَدِيم ، فَكُلُّ ما يَبْرُزُ فِي عالَمِ الشَّهادَةِ ، فَإِنَّما هُوَ ما قَدَّرَهُ الحَقُّ فِي عالَمِ الغَيْب : (جَفَّتِ الأَقْلامُ ، وطُوِيَتِ الصُّحُفُ) .

قالَ تَعالَى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا

فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [1] : أَيْ : نُظْهِرُها ؛ فَلا سَعادَةَ ولا شَقاءَ إلَّا وقَدْ سَبَقَ بِهِما القَدَرُ والقَضاء ، السَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، والشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، وقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ : ((ما مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ إلَّا ولَهُ قَدَرٌ فِيكَ يُمْضِيهِ)) .

فَإذا عَلِمْتَ ذَلِكَ أَيُّها الإنْسان ، اكْتَفَيْتَ بِعِلْمِهِ السَّابِق ، عَنْ طَلَبِكَ اللَّاحِق ، وبَقِيَ طَلَبُكَ عُبُودِيَّةً ، وأَدَبًا مَعَ الرُّبُوبِيَّة ، وإلَّا فَعِنايَتُهُ فِيكَ سابِقَةٌ عَلَى وُجُودِكَ ، لا لِشَيْءٍ مِنْكَ تَسْتَحِقُّ بِهِ عِنايَتُهُ ومِنَّتُهُ ، وأَيْنَ كُنْتَ حِينَ واجَهَتْكَ عِنايَتُهُ فِي أَزَلِهِ ، حِينَ سَبَقَتْ لَكَ مِنْهُ العِنايَة ، وكَتَبَكَ فِي جُمْلَةِ أَهْلِ الرِّعايَةِ والهِدايَة ؟ ثُمَّ لَمَّا اسْتَنْطَقَكَ يَوْمَ المِيثاق ، أَقْرَرْتَ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، وأَيْنَ كُنْتَ حِينَ قابَلَتْكَ رِعايَتُهُ وحِفْظُهُ ، وأَنْتَ فِي ظُلْمَةِ الأَحْشاءِ حِينَ أَجْرَى عَلَيْكَ رِزْقَهُ مِنْ عِرْقِ الدَّم ، وحَفِظَكَ فِي ذَلِكَ المُسْتَوْدَعِ حَتَّى اشْتَدَّتْ أَعْضاؤُكَ ، وقَوِيَتْ أَرْكانُكَ ؟ فَأَخْرَجَكَ إلَى رِفْقِهِ ، وما يَسَّرَ لَكَ مِنْ رِزْقِهِ ، لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ حِينَ واجَهَتْكَ عِنايَتُهُ ، ولا فِي مُسْتَوْدَعِكَ فِي الرَّحِم حِينَ قابَلَتْكَ رِعايَتُهُ إخْلاصُ أَعْمالٍ ولا وُجُودُ أَحْوالٍ تَسْتَحِقُّ بِهِما وُجُودَ النَّوال ، بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ إلَّا مَحْضُ الإفْضالِ وعَظِيمُ النَّوال .

---

(١) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ٢٢ .

قالَ الواسِطِي رضي الله عنه : أَقْسامٌ قُسِمَتْ ، ونُعُوتٌ أُجْرِيَتْ ، كَيْفَ تُسْتَجْلَبُ بِحَرَكات ، أَوْ تُنالُ بِمُعامَلات ؟

قالَ الشَّاعِر :

فَلا عَمَلٌ مِنِّي إِلَيْهِ اكْتَسَبْتُهُ ❁ سِوَى مَحْضِ فَضْلٍ لا بِشَيْءٍ يُعَلَّلُ

وقالَ آخَرُ :

وَكُنْتُ قَدِيمًا أَطْلُبُ الْوَصْلَ مِنْهُمُ ❁ فَلَمَّا أَتَانِي الْعِلْمُ وَارْتَفَعَ الْجَهْلُ
عَلِمْتُ بِأَنَّ الْعَبْدَ لا طَلَبٌ لَهُ ❁ فَإِنْ قَرُبُوا فَضْلٌ وَإِنْ بَعُدُوا عَدْلُ
وَإِنْ أَظْهَرُوا لَمْ يُظْهِرُوا غَيْرَ وَصْفِهِمْ ❁ وَإِنْ سَتَرُوا فَالسَّتْرُ مِنْ أَجْلِهِمْ يَحْلُو

وقالَ آخَرُ :

قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ وَصْلَكَ يُشْتَرَى ❁ بِنَفَائِسِ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْبَاحِ
وَظَنَنْتُ جَهْلًا أَنَّ حُبَّكَ هَيِّنٌ ❁ تُفْنَىٰ عَلَيْهِ كَرَائِمُ الْأَرْوَاحِ
حَتَّى رَأَيْتُكَ تَجْتَبِي وَتَخُصُّ مَنْ ❁ تَخْتَارُهُ بِلَطَائِفِ الْإِمْنَاحِ
فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لا تُنَالُ بِحِيلَةٍ ❁ فَلَوَيْتُ رَأْسِي تَحْتَ طَيِّ جَنَاحِي
وَجَعَلْتُ فِي عُشِّ الْغَرَامِ إِقَامَتِي ❁ فِيهِ غُدُوِّي دَائِمًا وَرَوَاحِي

ولِهَذا لَمْ يَلْتَفِتْ قَلْبُ العارِفِ لِخَوْفٍ ولا رَجاء ، ولَمْ يَبْقَ لَهُ فِي نَفَسٍ غَيْرُ وَجْهِ اللّٰهِ حاجَة .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ الوِلايَةَ وهِيَ سِرُّ العِنايَةِ لا تُنالُ بِحِيلَةٍ ولا تُدْرَكُ بِطَلَبٍ ، لَكِنْ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ العِنايَة ، يُسِّرَ لِما أُرِيدَ مِنْهُ .

قِيلَ لِذِي النُّون : بِمَ عَرَفْتَ رَبَّك ؟ قالَ : عَرَفْتُ رَبِّي بِرَبِّي ، ولَوْلا رَبِّي ما عَرَفْتُ رَبِّي .

وهُنا انْتَهَتْ مَعْرِفَةُ العارِفِينَ ، أَعْنِي : حِينَ تَحَقَّقُوا بِسابِقِ القَدَر ، غابُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ فِي وُجُودِ مَعْرُوفِهِمْ ، فاسْتَراحُوا واسْتَظَلُّوا فِي ظِلِّ الرِّضا والتَّسْلِيم ، وهَبَّ عَلَيْهِمْ مِنْ جَنَّاتِ المَعارِفِ نَسِيم ، لَكِن اخْتَلَفَتْ أَحْوالُهُمْ فِي حالِ نِهايَتِهِمْ :

❁ المَاءُ وَاحِدٌ وَالزَّهْرُ أَلْوَانُ ❁

فَمِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الهَيْبَةُ والحَياء .

قالَ بَعْضُهُمْ : مَنِ ازْدادَتْ مَعْرِفَتُهُ بِاللّه ، ازْدادَتْ هَيْبَتُهُ لَهُ ، ومَنْ كانَ بِاللّهِ أَعْرَف ، كانَ لَهُ أَخْوَف ، وفِيهِمْ قالَ اللّهُ تَعالَى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ (١) .

ومِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الشَّوْقُ والاشْتِياق .

وقالَ بَعْضُهُمْ : مَنْ عَرَفَ اللّهَ اتَّسَمَ بِالبَقاء ، واشْتاقَ إِلَى اللِّقاء ،

---

(١) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ٢٨ .

وضاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيا بِحَذافِيرِها .

وقالَ السَّرِيُّ : أَجَلُّ مَقامِ العارِفِ الشَّوْقُ ، يَقُولُ اللّٰهُ تَبارَكَ وتَعالَى : (إِنَّ لِي عِبادًا مِنْ عِبادِي ، أُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَنِي ، وأَشْتاقُ إِلَيْهِمْ ويَشْتاقُونَ إِلَيَّ ، وأَذْكُرُهُمْ ويَذْكُرُونَنِي ، وأَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ويَنْظُرُونَ إِلَيَّ ، مَنْ سَلَكَ طَرِيقَهُمْ أَحْبَبْتُهُ ، ومَنْ عَدَلَ عَنْهُمْ مَقَتُّهُ ، قِيلَ : يا رَبَّنا ! وما عَلامَتُهُمْ ؟ قالَ : يُراعُونَ الظِّلالَ بِالنَّهارِ كَما يُراعِي الرَّاعِي الشَّفِيقُ غَنَمَهُ ، ويَحِنُّونَ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ كَما تَحِنُّ الطَّيْرُ إِلَى أَوْكارِها عِنْدَ الغُرُوب ، فَإِذا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ ، واخْتَلَطَ الظَّلامُ ، وفُرِشَتِ الفُرُشُ ، ونُصِبَتِ الأَسِرَّةُ ، وخَلا كُلُّ حَبِيبٍ بِحَبِيبِهِ ، نَصَبُوا إِلَيَّ أَقْدامَهُمْ ، وافْتَرَشُوا إِلَيَّ وُجُوهَهُمْ ، وناجَوْنِي بِكَلامِي ، وتَمَلَّقُوا إِلَيَّ بِإِنْعامِي ، فَمِنْ صارِخٍ وباكٍ ، ومِنْ مُتَأَوِّهٍ وشاكٍ ، ومِنْ قائِمٍ وقاعِدٍ ، ومِنْ راكِعٍ وساجِدٍ ، بِعَيْنِي ما يَتَحَمَّلُونَ مِنْ أَجْلِي ، وبِسَمْعِي ما يَشْكُونَ مِنْ حُبِّي ، أَوَّلُ ما أُعْطِيهِمْ ثَلاثًا : أَقْذِفُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ نُورِي ، فَيُخْبِرُونَ عَنِّي كَما أُخْبِرُ عَنْهُمْ ، والثَّانِيَةُ : لَوْ كانَتِ السَّمَواتُ والأَرْضُ وما فِيهِنَّ مِنْ مَوازِينِهِمْ لاسْتَقْلَلْتُها لَهُمْ ، والثَّالِثَةُ : أُقْبِلُ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِي ، أَتُرَى مَنْ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ بِوَجْهِي يَعْلَمُ أَحَدٌ ما أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَهُ ؟) .

ومِنْهُمْ مَنْ تَغْلُبُ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ فِي القَلْبِ ؛ لأَنَّ العِلْمَ واليَقِينَ يُوجِبانِ السُّكُونَ والطُّمَأْنِينَة ، فَمَنِ ازْدادَتْ مَعْرِفَتُهُ ، ازْدادَتْ سَكِينَتُهُ ، قالَ تَعالَى : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (١) .

ومِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الدَّهَشُ والحَيْرَة .

قالَ بَعْضُهُمْ : أَعْرَفُ النَّاسِ بِاللهِ أَشَدُّهُمْ تَحَيُّراً فِيه .

ومِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ التَّواضُعُ والخُضُوعُ ، والذُّلُّ والانْكِسار .

قالَ الجُنَيْدُ : العارِفُ كالأَرْضِ يَطَؤُها البارُّ والفاجِرُ ، وكالسَّحابِ يُظِلُّ الأَحْمَرَ والأَبْيَضَ ، وكالمَطَرِ يَسْقِي الماشِي والرَّاشِي .

ومِنْهُمْ مَنْ تَتَّسِعُ مَعْرِفَتُهُ ، ويَخُوضُ بِحارَ التَّوْحِيد ، فَلا يُكَدِّرُهُ شَيْءٌ ، ولا يُسَلَّطُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، بَلْ يَأْخُذُ النَّصِيبَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ولا يُؤْخَذُ مِنْ نَصِيبِهِ شَيْءٌ ، يَأْنَسُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، ولا يَسْتَوْحِشُ مِنْ شَيْءٍ .

وقالَ أَبُو تُرابٍ النَّخْشَبِي : ((العارِفُ بِهِ يَصْفُو كَدَرُ كُلِّ شَيْءٍ ، ولا يُكَدِّرُهُ شَيْءٌ)) .

وقالَ أَبُو سُلَيْمانَ الدَّارانِي : إِنَّ اللهَ يَفْتَحُ للعارِفِ عَلَى فِراشِهِ ما لا يَفْتَحُ لَهُ وهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي .

---

(١) سُورَةُ الرَّعْد : مِنَ الآيَة ٢٨ .

وقالَ بَعْضُهُمْ : العارِفُ مَنْ أَنِسَ بِذِكْرِ اللهِ حَتَّى اسْتَوْحَشَ مِنْ خَلْقِه ، وافْتَقَرَ إِلَى اللهِ تَبارَكَ وتَعالَى فَأَغْناهُ عَنْ خَلْقِه ، وذَلَّ إِلَى اللهِ تَبارَكَ وتَعالَى فَأَعَزَّهُ اللهُ فِي خَلْقِه .

كَلامُ اللهِ لِسَيِّدِنا داوُود عليه السلام

وفِي زَبُورِ سَيِّدِنا داوُودَ عليه السلام : (يا داوُود ! بَلِّغْ أَهْلَ رِضائِي أَنِّي حَبِيبٌ لِمَنْ أَحَبَّنِي ، وجَلِيسٌ لِمَنْ جالَسَنِي ، وأَنِيسٌ لِمَنْ أَنِسَ بِذِكْرِي ، وصاحِبٌ لِمَنْ صاحَبَنِي ، ومُخْتارٌ لِمَنِ اخْتارَنِي ، ومُطِيعٌ لِمَنْ أَطاعَنِي ، بِعِزَّتِي حَلَفْتُ ما أَحَبَّنِي عَبْدٌ أَعْلَمُ ذَلِكَ يَقِينًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا قَبِلْتُهُ لِنَفْسِي ، وأَحْبَبْتُهُ أَشَدَّ مِمَّا أَحَبَّنِي ، ومَنْ طَلَبَنِي وَجَدَنِي ، ومَنْ طَلَبَ غَيْرِي لَمْ يَجِدْنِي ، فارْفُضُوا يا أَهْلَ الأَرْضِ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ غُرُورِها ، وهَلُمُّوا إِلَى كَرامَتِي ومُصاحَبَتِي ومُجالَسَتِي ، وأَنِسُوا بِذِكْرِي أُؤْنِسْكُمْ بِي ، وأَسْرِعُوا إِلَى مَحَبَّتِي أُسْرِعْ إِلَى مَحَبَّتِكُمْ ، فَإِنِّي خَلَقْتُ طِينَةَ أَحِبَّتِي مِنْ طِينَةِ إِبْراهِيمَ خَلِيلِي ، ومُوسَىٰ كَلِيمِي ، وعِيسَىٰ رُوحِي ، ومُحَمَّدٍ صَفِيِّي ، وخَلَقْتُ قُلُوبَ المُشْتاقِينَ مِنْ نُورِي ، ونَعَّمْتُها بِجَلالِي وجَمالِي) .

ولَمَّا كانَ الاعْتِمادُ عَلَى السَّابِقَةِ يَقْتَضِي تَرْكَ العَمَل ، بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ سِرَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ .

(عَلِمَ أَنَّ العِبادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ظُهُورِ سِرِّ العِنايَةِ فَقالَ : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ، وعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وذَلِكَ ، لَتَرَكُوا العَمَلَ اعْتِمادًا عَلَى الأَزَلِ ، فَقالَ : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لَمَّا أَخْبَرَ اللهُ سُبْحانَهُ فِي كُتُبِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ أَنَّ المَدارَ إِنَّما هُوَ عَلَى السَّابِقَةِ ، فَمَنْ سَبَقَتْ لَهُ العِنايَةُ لا تَضُرُّهُ الجِنايَةُ ، تَشَوَّقَ الخَلْقُ كُلُّهُمْ إِلَى ظُهُورِ سِرِّ هَذِهِ العِنايَة ، فَكُلُّ واحِدٍ يَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِها ، فَأَخْبَرَهُمُ الحَقُّ تَعالَى أَنَّ ذَلِكَ السِّرَّ إِنَّما هُوَ للبَعْضِ دُونَ البَعْضِ ، فَقالَ : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[2] .

فالرَّحْمَةُ هُنا هِيَ العِنايَةُ السَّابِقَة ، وهِيَ قَرِيبَةٌ مِنَ المُحْسِنِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا عِبادَةَ رَبِّهِمْ ، وأَحْسَنُوا إِلَى عِبادِ رَبِّهِمْ .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ سِرَّ العِنايَةِ إِنَّما يَظْهَرُ عَلَى المُحْسِنِينَ المُتْقِنِينَ لأَعْمالِهِمْ ، المُخْلِصِينَ فِي عُبُودِيَّةِ رَبِّهِمْ ، فَمَنِ اسْتَنَدَ إِلَى الحُكْمِ السَّابِقِ وتَرَكَ العَمَلَ فَهُوَ مَغْرُورٌ أَوْ مَطْرُودٌ ؛ لإِبْطالِهِ الحِكْمَة ، ومَنِ اسْتَنَدَ إِلَى العَمَلِ دُونَ النَّظَرِ للقُدْرَةِ والمَشِيئَةِ السَّابِقَةِ فَهُوَ جاهِلٌ بَعِيدٌ عَنِ الحَضْرَةِ غافِل ، ومَنْ جَمَعَ بَيْنَهُما فَهُوَ مُحَقَّقٌ كامِل ، وسِرُّ العِنايَةِ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ اللهُ واصِل .

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ٥٦ .
(٢) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ٧٤ .

قالَ بَعْضُهُمْ : ((لَيْسَ كُلُّ مَنْ طَلَبَ نالَ ، ولا كُلُّ مَنْ نالَ وَصَل ، ولا كُلُّ مَنْ وَصَلَ أَدْرَكَ ، ولا كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ وَجَد ، ولا كُلُّ مَنْ وَجَدَ سَعِد ، وكَمْ مِنْ واجِدٍ حُرِمَ مِنَ المُنَىٰ بِمِنَىٰ ! وكَمْ مِنْ واجِدٍ أَدْرَكَ مِنَ القُرُباتِ غُرُفات ! ومَنْ أُيِّدَ بِالتَّوْفِيق ، وَصَلَ فِي لَحْظَةِ العَيْنِ إِلَى عَيْنِ القَبُول)) .

كَما حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ أَنَّهُ رَأَى فِي مَنامِهِ إِبْلِيسَ اللَّعِينَ ضَجَّ بِالصِّياحِ والعَوِيل ، فاجْتَمَعَ عَلَيْهِ جُنُودُهُ ، وقالُوا : ما لَكَ ؟ فَقالَ لَهُمْ : كُنْتُ أَطْمَعُ فِي فُلانٍ مُنْذُ سِنِينَ ، فَإِذا بِهِ قَدِ اسْتَوَى ظاهِرُهُ وباطِنُهُ ، وسِرُّهُ وعَلانِيَتُهُ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، تَحَلَّى بِالصِّدْقِ ، فامْتَنَعَ مِنِّي فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِر .

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ ما تَقَدَّمَ مِنْ حُكْمِ المَشِيئَةِ فَقالَ :

(إِلَى المَشِيئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ ، ولَيْسَتْ تَسْتَنِدُ هِيَ إِلَى شَيْء) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **المَشِيئَةُ** والإِرادَةُ شَيْءٌ واحِدٌ ، وإِلَيْهِما تَسْتَنِدُ الأَشْياءُ كُلُّها ، قالَ تَعالَى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [1] ، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [2] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ عَلَى سَبْقِ المَشِيئَةِ لِكُلِّ شَيْء .

---

(١) سُورَةُ الإِنْسان : مِنَ الآيَة ٣٠ .

(٢) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ١١٢ .

وأَمَّا هِيَ ، فَلا تَسْتَنِدُ إِلَى شَيْءٍ ، ولا تَتَوَقَّفُ عَلَى شَيْءٍ ، فَلا تَتَوَقَّفُ عَلَى سُؤالٍ ولا عَلَى طَلَب ، وما لَمْ يَشَأْ رَبُّنا لَمْ يَكُنْ ، قَرَّبَ مَنْ شاءَ بِلا عَمَلٍ ، وبَعَّدَ مَنْ شاءَ بِلا سَبَب : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (١) .

فَقاعِدَةُ التَّحْقِيق ما هِيَ إِلَّا سابِقَةُ التَّوْفِيق .

قالَ أَبُو بَكْرٍ الواسِطِي رضي الله عنه : إِنَّ اللّٰهَ لا يُقَرِّبُ فَقِيرًا لأَجْلِ فَقْرِهِ ، ولا يُبْعِدُ غَنِيًّا لأَجْلِ غِناه ، ولَيْسَ للأَعْراضِ عِنْدَهُ خَطَرٌ حَتَّى بِها يُوصِلُ وبِها يَقْطَعُ ، ولَوْ بَذَلْتَ الدُّنْيا والآخِرَةَ ما أَوْصَلَكَ إِلَيْهِ بِها ، ولَوْ أَخَذْتَها كُلَّها ما قَطَعَكَ بِها ، قَرَّبَ مَنْ شاءَ بِغَيْرِ عِلَّة ، وقَطَعَ مَنْ شاءَ مِنْ غَيْرِ عِلَّة ، كَما قالَ تَعالَى : ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (٢) .

فالنَّظَرُ إِلَى المَشِيئَةِ حَقِيقَة ، والنَّظَرُ إِلَى السَّبَبِ شَرِيعَة .

أَوْ تَقُولُ : النَّظَرُ إِلَى المَشِيئَةِ قُدْرَة ، والنَّظَرُ إِلَى الأَسْبابِ حِكْمَة ، ولا بُدَّ مِنَ الجَمْعِ بَيْنَهُما ، فالحَقِيقَةُ مُعَيِّنَة ، والشَّرِيعَةُ مُبَيِّنَة ، الشَّرِيعَةُ حِكْمَة ، والحَقِيقَةُ قُدْرَة ، والحَقِيقَةُ حاكِمَةٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ فِي الباطِن ، والشَّرِيعَةُ حاكِمَةٌ عَلَى الحَقِيقَةِ فِي الظَّاهِر ، ولَيْسَ حُكْمُ القُدْرَةِ بِأَوْلَى

(١) سُورَةُ الأَنْبِياء : الآيَة ٢٣ .
(٢) سُورَةُ النُّور : مِنَ الآيَة ٤٠ .

مِنْ وَصْفِ الحِكْمَةِ فِي مَحَلِّهِ ، ولا بِالعَكْس .

النَّاسُ والحَقِيقَةُ والشَّرِيعَة

قالَ الشُّطَيْبِي : واعْلَمَ أَنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةٌ :

ناظِرٌ فِي السَّوابِقِ ؛ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ الحُكْمَ الأَزَلِيَّ لا يَتَغَيَّرُ بِاكْتِسابِ العَبْد .

وناظِرٌ فِي العَواقِبِ ؛ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ الأَعْمالَ بِخَواتِمِها .

وناظِرٌ للوَقْتِ ؛ لا يَشْتَغِلُ بِالسَّوابِقِ ولا بِالعَواقِبِ غَيْرَ أَداءِ ما كُلِّفَ بِهِ مِنْ حُكْمِ الوَقْتِ ، عالِمٌ بِأَنَّ العارِفَ ابنُ وَقْتِهِ ، لا يَهْتَمُّ بِماضٍ ولا مُسْتَقْبَلٍ ، ولا يَرَى غَيْرَ الوَقْتِ الَّذي هُوَ فِيه .

وناظِرٌ للهِ وَحْدَهُ ؛ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ الماضِيَ والمُسْتَقْبَلَ والحالَ مُتَقَلِّبُونَ فِي قَبْضَتِهِ ، مُتَصَرِّفُونَ فِي حُكْمِهِ ، والأَوْقاتُ كُلُّها قابِلَةٌ للتَّغَيُّرِ وتَبْدِيلِ الحالِ فَلا يَراها ، وإِنَّما يُراقِبُ مَنْ كُلُّ شَيْءٍ بِيَدِهِ .

وقَدْ أَرادَ بَعْضُهُمُ الخُرُوجَ مِنْ بَيْنِ يَدَي بَعْضِ المَشايِخِ ، فَقالَ لَهُ الشَّيْخُ : أَيْنَ تُرِيد ؟ فَقالَ : يا سَيِّدِي ! لِئَلَّا أَشْغَلَكَ عَنْ وَقْتِكَ ، فَقالَ لَهُ : لَيْسَ عِنْدَ اللهِ وَقْتٌ ولا مَقْتٌ ، إِنَّما نَرَى رَبَّ الوَقْتِ لا الوَقْت .

ومَنْ تَمَكَّنَتْ فِيهِ حالَةُ الشُّهود ، غابَ بِالمُوجِدِ عَنِ الوُجُود : ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ الكَهْف : مِنَ الآيَة ١٨ .

الكَرامَةُ الحِسِّيَّة

الكَراماتُ الحَقِيقِيَّةُ هِيَ الاسْتِقامَةُ عَلَى العُبُودِيَّة ، ومُشاهَدَةُ أَنْوارِ الرُّبُوبِيَّة ، فَإِذا تَحَقَّقَ ذَلِكَ فِي الوَلِيِّ فاضَ بِالحِكَم وأُذِنَ لَهُ فِي التَّعْبِير ، وهَذا ما تَدَرَّجَ فِيهِ بِالاسْتِفاضَةِ ابنُ عَطاءِ اللّهِ - نَفَعَ اللّهُ بِهِ ورَضِيَ عَنْهُ - فَقالَ :

(ربُمَّا رُزِقَ الكَرامَةَ مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الاسْتِقامَة) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الكَرامَةُ الحِسِّيَّة** : هِيَ خَرْقُ الحِسِّ العادِي ، كالمَشْيِ عَلَى الماء ، والطَّيَرانِ فِي الهَواءِ وعَلَى الأَرْض ، ونَبْعِ الماء ، وجَلْبِ الطَّعام ، والاطِّلاعِ عَلَى المُغَيَّبات ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَوارِقِ العادات .

والكَرامَةُ المَعْنَوِيَّة : هِيَ اسْتِقامَةُ العَبْدِ مَعَ رَبِّهِ فِي الظَّاهِرِ والباطِن ، وكَشْفُ الحِجابِ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى عَرَفَ مَوْلاه ، والظَّفَرُ بِنَفْسِهِ ومُخالَفَةُ هَواه ، وقُوَّةُ يَقِينِهِ وسُكُونِه ، وطُمَأْنِينَتُهُ بِاللّه .

والمُعْتَبَرُ عَنِ المُحَقِّقِينَ هِيَ هَذِهِ الكَرامَة ، وأَمَّا الكَرامَةُ الحِسِّيَّةُ فَلا يَطْلُبُونَها ، ولا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْها ؛ إِذْ قَدْ تَظْهَرُ عَلَى يَدِ مَنْ لا اسْتِقامَةَ لَهُ أَصْلًا ؛ كالسَّحَرَةِ والكُهَّان ، وقَدْ تَظْهَرُ عَلَى أَيْدِي الرُّهْبان ، ولَيْسَتْ بِكَرامَة ، إِنَّما هِيَ اسْتِدْراج .

قالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَن رضي الله عنه : ((إِنَّما هُما كَرامَتانِ جامِعَتانِ مُحِيطَتان : كَرامَةُ الإِيمانِ بِمَزِيدِ الإِيقانِ وشُهُودِ العِيانِ ، وكَرامَةُ العَمَلِ عَلَى الاقْتِداءِ والمُتابَعَةِ ، ومُجانَبَةِ الدَّعاوَىٰ والمُخادَعَةِ ، فَمَنْ أُعْطِيَهُما ، ثُمَّ جَعَلَ يَشْتاقُ إِلَى غَيْرِهِما ، فَهُوَ عَبْدٌ مُغْتَرٌّ كَذَّاب ، أَوْ ذُو خَطَأٍ فِي العِلْمِ والعَمَلِ بِالصَّواب ؛ كَمَنْ أُكْرِمَ بِشُهُودِ المَلِكِ عَلَى نَعْتِ الرِّضا ، فَجَعَلَ يَشْتاقُ إِلَى سِياسَةِ الدَّوابِّ وخِلَعِ المَرْضَىٰ .

قالَ : وكُلُّ كَرامَةٍ لا يَصْحَبُها الرِّضا عَنِ اللهِ ومِنَ اللهِ ، فَصاحِبُها مُسْتَدْرَجٌ مَغْرُور ، أَوْ ناقِصٌ أَوْ هالِكٌ مَثْبُور)) .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنه : ((لَيْسَ الشَّأْنُ مَنْ تُطْوَى لَهُ الأَرْضُ ، فَإِذا هُوَ بِمَكَّةَ أَوْ غَيْرِها مِنَ البُلْدان ، إِنَّما الشَّأْنُ مَنْ تُطْوَى لَهُ صِفاتُ نَفْسِهِ ، فَإِذا هُوَ عِنْدَ رَبِّهِ)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : والكَرامَةُ الحَقِيقِيَّةُ : هِيَ الاسْتِقامَةُ عَلَى الدِّين ، وحُصُولُ كَمالِ اليَقِين ، وأَمَّا خَوارِقُ العاداتِ الحِسِّيَّةِ فَإِنْ صَحِبَتْها الاسْتِقامَةُ ظاهِرًا وباطِنًا وَجَبَ تَعْظِيمُ صاحِبِها لأَنَّها شاهِدَةٌ لَهُ بِالكَمالِ مِمَّا هُوَ فِيه ، وإِنْ لَمْ تَصْحَبْها اسْتِقامَةٌ فلا عِبْرَةَ بِها .

والغالِبُ أَنَّ أَهْلَ الباطِنِ كَرامَتُهُمْ باطِنِيَّة ؛ كَكَشْفِ الحُجُبِ ، ومَزِيدِ

الإيمانِ ، ومَعْرِفَةِ الشُّهُودِ والعِيانِ ، وكَذَلِكَ عُقُوبَةُ مَنْ آذاهُمْ جُلُّها باطِنِيَّةٌ لا يَتَفَطَّنُونَ لَها ؛ كَقَساوَةِ القَلْبِ ، والانْهِماكِ فِي الذُّنُوبِ ، والغَفْلَةِ عَنِ اللّه ، والبُعْدِ عَنْ حَضْرَتِهِ ، ولَكِنْ لا يَشْعُرُون ، وهِيَ أَعْظَمُ مِنَ العُقُوبَةِ فِي الحِسِّ .

والحاصِلُ : أَنَّ أَهْلَ الاسْتِقامَةِ الظَّاهِرِيَّةِ كَرامَتُهُمْ ظاهِرِيَّةٌ حِسِّيَّة ، وأَهْلُ الاسْتِقامَةِ البَاطِنِيَّةِ كَرامَتُهُمْ باطِنِيَّةٌ مَعْنَوِيَّة ، أَهْلُ الظَّاهِرِ مَنْ آذاهُمْ عُوقِبَ فِي الظَّاهِر ، وأَهْلُ الباطِنِ مَنْ آذاهُمْ عُوقِبَ فِي الباطِن ، وقَدْ لا يُعاقَبُ ؛ لأَنَّهُمْ رَحْمَة ، كُلُّ مَنْ قَرُبَ مِنْهُمْ شَمِلَتْهُ الرَّحْمَة ، كانَ قُرْبُهُ تَسْلِيمًا أَوْ إِنْكارًا ، هُمْ قَوْمٌ لا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ ، فَهُمْ عَلَى قَدَمِ النَّبِيِّ ﷺ ، حَيْثُ قالَ : (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُون) .

وكُلُّ وَلِيٍّ أَرادَ اللّهُ تَعالَى أَنْ يَنْتَفِعَ النَّاسُ عَلَى يَدِهِ لا يُعاجِلُ بِالعُقُوبَةِ مَنْ آذاه ؛ اقْتِداءً بِرَسُولِ اللّه ﷺ ، حَيْثُ خَيَّرَهُ مَلَكُ الجِبالِ فَحَلُمَ ﷺ وعَفا ، وقالَ : (لَعَلَّ اللّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَقُولُ : لا إِلَهَ إِلَّا اللّه) .

وأَعْظَمُ الكَرامَةِ الفَهْمُ عَنِ اللّه ، والرِّضا بِقَضاءِ اللّه ، وتَرْكُ التَّدْبِيرِ

والاخْتِيارِ مَعَ اللّه ، وإقامَةُ العَبْدِ حَيْثُ أَقامَهُ اللّه ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(مِنْ عَلاماتِ إقامَةِ الحَقِّ لَكَ فِي الشَّيْءِ إدامَتُهُ إيَّاكَ فِيهِ مَعَ حُصُولِ النَّتائِجِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إذا أَقامَ الحَقُّ تَعالَى عَبْدَهُ فِي حالَةٍ لا يَسْتَقْبِحُها الشَّرْعُ ، ولا يَذُمُّها سَلِيمُ الطَّبْعِ ، فَلا يَنْبَغِي لَهُ الانْتِقالُ عَنْها بِنَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ الحَقُّ تَعالَى الَّذي أَدْخَلَهُ فِيها هُوَ الَّذي يَتَوَلَّى إخْراجَهُ مِنْها . ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (١) .

فالمُدْخَلُ الصِّدْقُ : أَنْ تَدْخُلَ فِي الشَّيْءِ باللّه ، لا بِنَفْسِكَ : والمُخْرَجُ الصِّدْقُ : أَنْ تَخْرُجَ مِنْهُ باللّهِ لا بِنَفْسِكَ .

فَإذا أَقامَكَ الحَقُّ تَعالَى فِي الأَسْباب ، فَلا تَخْرُجْ مِنْها بِنَفْسِكَ فَتَتْعَب ، فامْكُثْ حَتَّى يُخْرِجَكَ الحَقُّ تَعالَى بِإشارَةٍ صَرِيحَةٍ مِنْ شَيْخِكَ ، أَوْ مِنْ هاتِفٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ .

ومِنْ عَلامَةِ إقامَةِ اللّهِ تَعالَى لَكَ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذي أَنْتَ فِيهِ إدامَةُ الحَقِّ إيَّاكَ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ ، مَعَ حُصُولِ النَّتائِجِ ، وسَلامَةِ الدِّين .

---

(١) سُورَةُ الإسْراء : مِنَ الآيَة ٨٠ .

والمُرادُ بالنَّتائِجِ ما يَترتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ إعْطاءِ حَقِّهِ الواجِبَ والمُسْتَحَبَّ ؛ كَأَداءِ الزَّكاةِ ، وإطْعامِ الجائِعِ ، وسَتْرِ العُرْيانِ ، وإغاثَةِ اللَّهْفانِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْواعِ الإحْسان .

وإذا أقامَكَ الحَقُّ تعالَى فِي التَّجْريد ، فالْزَمِ البابَ وتَحَلَّ بالآداب ، حَتَّى يُفْتَحَ لَكَ الباب ، فَعَلامَةُ إقامَتِهِ إيَّاكَ فِيهِ حُصُولُ نَتائِجِهِ ، وهِيَ التَّرَقِّي فِي الأَحْوالِ والمَقامات ، حَتَّى تَبْلُغَ النِّهايات .

والمَقاماتُ هِيَ التَّوْبَةُ ، والتَّقْوَى ، والاسْتِقامَة ، والزُّهْدُ ، والوَرَعُ ، والخَوْفُ ، والرَّجاءُ ، والرِّضا ، والتَّسْلِيمُ ، والإخْلاصُ ، والصِّدْقُ ، والطُّمَأْنِينَةُ ، والمُراقَبَةُ ، والمُشاهَدَةُ ، والمَعْرِفَةُ ، وكُلُّ مَقام لَهُ عِلْمٌ وعَمَلٌ وحالٌ ، فَأَوَّلُهُ عِلْمٌ ، وثانِيهِ عَمَلٌ ، وثالِثُهُ حالٌ ، ثُمَّ مَقامٌ ؛ فَإذا بَلَغَ إلَى مَقامِ المَعْرِفَةِ وتَمَكَّنَ فِيها انْقَطَعَتِ المَقامات .

قالَ بَعْضُهُمْ : فِي بَحْرِ التَّوْحِيدِ غاصَتِ الأَحْوالُ وانْطَمَسَتِ المَقامات ؛ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (١) .

فَحِينَئِذٍ يُغْمَسُ فِي بَحْرِ الإحْسان .

فَإذا عَبَّرَ مِنْ بِساطِ إحْسانِ اللهِ لَهُ لَمْ يَصْمُتْ إذا أَساءَ ، كَما أَبانَ

---

(١) سُورَةُ النَّجْم : الآيَة ٤٢ .

ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(**مَنْ عَبَّرَ مِنْ بِساطِ إِحْسانِهِ أَصْمَتَتْهُ الإِساءَة ، ومَنْ عَبَّرَ مِنْ بِساطِ إِحْسانِ اللهِ إِلَيْهِ لَمْ يَصْمُتْ إِذا أَساءَ**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : أَهْلُ التَّعْبِيرِ (وهُمْ أَهْلُ التَّذْكِيرِ الَّذِينَ يُذَكِّرُونَ عِبادَ اللهِ ، ويُعَبِّرُونَ عَمَّا مَنَحَهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ العُلُومِ والمَواهِبِ والفُتُوحاتِ والكَرامات) عِلَى قِسْمَيْن : عُلماء ، وعارِفُون .

أَوْ تَقُولُ : أَهْلُ الحِجابِ ، وأَهْلُ الفَتْح .

فَأَهْلُ الحِجابِ يُعَبِّرُونَ مِنْ بِساطِ إِحْسانِ أَنْفُسِهِمْ ، فَيَقُولُونَ : فَعَلْنا كَذا ، ورَأَيْنا كَذا ، وفُتِحَ عَلَيْنا فِي كَذا ، وافْعَلُوا أَيُّها النَّاسُ كَذا ، واتْرُكُوا كَذا ، فَإِذا وَقَعُوا فِي زَلَّةٍ أَوْ هَفْوَةٍ ، سَكَتُوا حَياءً مِنَ اللهِ ، وخَوْفًا أَنْ يَأْمُرُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا ؛ لأَنَّهُمْ باقُونَ مَعَ نُفُوسِهِمْ ، مَحْجُوبُونَ عَنْ رَبِّهِمْ ، فَإِذا فَعَلُوا طاعَةً فَرِحُوا بِها واعْتَمَدُوا عَلَيْها ، وإِذا فَعَلُوا زَلَّةً حَزِنُوا وجَزِعُوا وسُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ، فَلَمَّا عَبَّرُوا مِنْ بِساطِ إِحْسانِ نُفُوسِهِمْ ، أَصْمَتَتْهُمُ الإِساءَة .

وأَهْلُ الفَتْحِ مِنَ العارِفِينَ ، يُعَبِّرُونَ مِنْ بِساطِ إِحْسانِ الحَقِّ ، غائِبِينَ عَنْ شُهُودِ الخَلْقِ ، فانُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، باقُونَ بِرَبِّهِمْ .

فَهَؤُلاءِ إذا عَبَّرُوا عَمَّا مَنَحَهُمُ اللهُ مِنَ المَعارِفِ والأَسْرار ، والعُلُوم والأَنْوار ، والكَراماتِ والفُتُوحاتِ والمَواهِب ، وذَكَّرُوا ، فَأَمَرُوا ونَهَوْا دامَ تَعْبِيرُهُمْ ، ونَفَعَ تَذْكِيرُهُمْ ، فَإذا أَساؤُوا لَمْ تُصْمِتْهُمْ إساءَتُهُمْ لأَنَّ إساءَتَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وتَعْبِيرَهُمْ مِنْ بِساطِ إحْسانِ اللهِ إلَيْهِمْ ، وإحْسانُهُ لا يُكَدِّرُهُ شَيْء .

وقَوْلُنا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؛ أَعْنِي : أَدَبًا فَقَطْ ؛ إذْ هُمْ لا يَشْهَدُونَ إلَّا تَصْرِيفَ الحَقِّ فِيهِمْ ، فَلِذَلِكَ لَمْ تُصْمِتْهُمْ إساءَتُهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ مَغْمُوسُونَ فِي بَحْرِ المِنَّةِ ، لا يَشْهَدُونَ فِي الكَوْنِ سِواه .

وأَيْضًا مَنْ عَبَّرَ مِنْ بِساطِ نَفْسِهِ نادَتْهُ مَساوِيه : اسْكُتْ ، أَما تَذْكُرُ فِعْلَكَ القَبِيحَ ووَصْفَكَ الذَّمِيم ؟ فَيَسْكُتُ خَجَلًا .

ومَنْ عَبَّرَ مِنْ بِساطِ إحْسانِ اللهِ ، غابَتْ عَنْهُ مَساوِيهِ لِغَيْبَتِهِ فِي مَحاسِنِ مَوْلاه ، فَلا يَشْهَدُ إلَّا إيَّاه .

فَإذا أَرادَ أَنْ يُعَبِّرَ سَبَقَ نُورُ مَعْرِفَتِهِ إلَى قُلُوبِ عِبادِهِ فَيَسْرِي فِيهِمُ التَّعْبِير ، ويَأْخُذُ بِقُلُوبِهِمُ التَّذْكِير ؛ كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ : (**تَسْبِقُ أَنْوارُ الحُكَماءِ أَقْوالَهُمْ ، فَحَيْثُما صارَ التَّنْوِيرُ وَصَلَ التَّعْبِيرُ**) : قالَ ابنُ عَجِيبَة : **الحُكَماءُ** : هُمُ العارِفُونَ باللهِ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ باللهِ ،

ويَصْمُتُونَ بِالله ، غائِبُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَشْهَدُونَ ما مِنَ اللهِ إِلَى الله ، فَإِذا أَرادُوا أَنْ يُعَبِّرُوا عَمَّا مَنَحَهُمْ مَوْلاهُمْ مِنَ العُلُوم والمَعارِف ، سَبَقَ نُورُ شُهُودِهِمْ إِلَى القُلُوبِ المُسْتَمِعَةِ فَتَسْرِي فِيهِمْ عَلَى قَدْر صِدْقِهِمْ . فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ النُّورُ سُوَيْداءَ قَلْبِهِ ، ومِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ النُّورُ عَلَى ظاهِرِ قَلْبِهِ ، ومِنْهُمْ مَنْ يُشْرِقُ النُّورُ عَلَى طَرَفِ قَلْبِهِ ، فَإِذا عَبَّرَ العارِفُ عَنِ المَقاماتِ والأَحْوال ، وَصَلَ التَّعْبِيرُ عَلَى قَدْرِ سَرَيانِ النُّور ؛ فَمَنْ وَصَلَ النُّورُ إِلَى سُوَيْداءِ قَلْبِهِ نَهَضَ مِنْ ساعَتِهِ إِلَى رَبِّه ، ومَنْ وَصَلَ إِلَى طَرَفِ قَلْبِهِ عَرَفَ الحَقَّ و صَدَّقَ ، فَحَيْثُما صارَ التَّنْوِيرُ وَصَلَ التَّعْبِيرُ .

وقَوْلُنا فِي تَفْسِيرِ الحُكَماء : هُمُ العَارِفُونَ ؛ مَأْخَذُنا فِيهِ قَوْلُهُ ﷺ : (رَأْسُ الحِكْمَةِ مَخافَةُ الله) .

أَعْرَفُ النَّاسِ بِاللهِ أَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً ، وفِيهِمْ قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ (١) .

وسُئِلَ الإِمامُ مالِكٌ عَنِ الحِكْمَة ؟ فَقالَ رضي الله عنه : ما زَهِدَ عَبْدٌ واتَّقَى إِلَّا أَنْطَقَهُ اللهُ بِالحِكْمَة ، ثُمَّ قالَ : مَنْ أَرادَ أَنْ يَفْتَحَ اللهُ عَيْنَ قَلْبِهِ

---

(١) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ٢٨ .

فَلْيَكُنْ عَمَلُهُ فِي السِّرِّ أَكْثَرَ مِنْ عَمَلِهِ فِي العَلانِيَة ؛ لأَنَّ عَمَلَ السِّرِّ مَنْبَعُ الإِخْلاص ، والإِخْلاصُ مَنْبَعُ الحِكْمَة .

وسُئِلَ رضي الله عنه مَرَّةً أُخْرَى عَنِ الحِكْمَةِ أَيْضًا ، فَقالَ :

((نُورٌ يَقْذِفُهُ اللّهُ فِي قَلْبِ العَبْد المُؤْمِنِ مِنْ فُسْحَةِ المَلَك)) .

فَأَهْلُ التَّنْوِير هُمُ الحُكَماءُ ، وهُمُ العارِفُونَ باللّهِ ، وللّهِ دَرُّ القائِلِ فِي وَصْفِهِم حَيْثُ قالَ :

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسارٌ بَنُو يَسَرٍ ❁ سُوَّاسُ مَكْرُمَةٍ أَبْناءُ أَيْسَارِ
لا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ الْحَقِّ إِنْ نَطَقُوا ❁ وَلا يُمَارُونَ إِنْ مَارَوْا بِإِكْثَارِ
مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ❁ مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

وَقَوْلُنا فِي وَصْفِهِمْ : يَشْهَدُونَ ما مِنَ اللّهِ إِلَى اللّهِ ، يَعْنِي : أَنَّهُمْ غائِبُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، لا يَرَوْنَ إِلَّا تَصْرِيفَ الحَقِّ فِي مَظاهِرِ أَنْوارِهِ .

قالَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاس المُرْسِي رضي الله عنه : ((النَّاسُ عَلَى ثَلاثَةٍ : عَبْدٌ يَشْهَدُ ما مِنْهُ إِلَى اللّه ، وعَبْدٌ يَشْهَدُ ما مِنَ اللّهِ إِلَيْهِ ، وعَبْدٌ يَشْهَدُ ما مِنَ اللّهِ إِلَى اللّه : الأَوَّلُ ذُو حُزْنٍ وأَشْجان ، والثَّانِي ذُو فَرَحٍ وامْتِنان ، والثَّالِثُ لَمْ يَشْغَلْهُ عَنِ اللّهِ خَوْفُ نارٍ ولا مَثْوَى جِنان ؛ الأَوَّلُ ذُو كَدٍّ وتَكْلِيف ، والثَّانِي ذُو عِنايَةٍ وتَعْرِيف ، والثَّالِثُ مُشاهِدٌ للمَوْلَى اللَّطِيف)) .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ عَلامَةَ التَّعْبِيرِ الَّذي يَسْبِقُهُ التَّنْوِيرُ والَّذي يَسْبِقُهُ التَّكْدِيرُ : فَقالَ رضي الله عنه :

(كُلُّ كَلامٍ يَبْرُزُ وعَلَيْهِ كِسْوَةُ القَلْبِ الَّذي مِنْهُ بَرَزَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : عَلامَةُ الكَلامِ الَّذي يَسْبِقُهُ التَّنْوِيرُ هُوَ تَأْثِيرُهُ فِي القُلُوب ، وتَهْيِيجُهُ الأَرْواح ، وتَشْوِيقُهُ الأَسْرار ، فَإِذا سَمِعَهُ الغافِلُ تَنَبَّهَ ، وإِذا سَمِعَهُ العاصِي انْزَجَرَ ، وإِذا سَمِعَهُ الطَّائِعُ زادَ نَشاطُهُ وعَظُمَ شَوْقُهُ ، وإِذا سَمِعَهُ السَّائِرُ طَوَى عَنْهُ تَعَبَ سَيْرِهِ ، وإِذا سَمِعَهُ الواصِلُ تَمَكَّنَ مِنْ حالِهِ ؛ فالكَلامُ صِفَةُ المُتَكَلِّم ، فَإِذا كانَ المُتَكَلِّمُ ذا تَنْوِيرٍ وَقَعَ فِي قُلُوبِ السَّامِعِينَ ، وإِذا كانَ ذا تَكْدِيرٍ حَدَّ كَلامِهِ آذانُ المُسْتَمِعِينَ ، فَكُلُّ كَلامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ القَلْبِ الَّذي مِنْهُ بَرَزَ ، ولِذَلِكَ قالَ سَيِّدُنا الإِمامُ عليٌّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - : ((مَنْ تَكَلَّمَ عَرَفْناهُ مِنْ ساعَتِهِ ، ومَنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ عَرَفْناهُ مِنْ يَوْمِهِ)) .

وقِيلَ : النَّاسُ حَوانِيتُ مُغْلَقَة ؛ فَإِذا تَكَلَّمُوا فَقَدْ فَتَحُوا ، هُناكَ يَتَبَيَّنُ البَيْطارُ مِنَ العَطَّار .

وقالُوا أَيْضًا : الكَلامُ إِذا خَرَجَ مِنَ القَلْبِ وَقَعَ فِي القَلْب ، وإِذا خَرَجَ مِنَ اللِّسانِ حَدُّهُ الآذان ، وإِنْهاضُ الحالِ أَكْثَرُ مِنَ المَقال ، وإِذا

اجْتَمَعَ الحالُ والمَقالُ فَهُوَ البَحْرُ الطَّامُّ ، والنَّجْمُ الثَّاقِبُ التَّامُّ .

وقالَ بَعْضُ العارِفين : مَنْ كانَ قَلْبُهُ رُوحانِيًّا كانَ كَلامُهُ مَعْنَوِيًّا يَنْزِلُ مِنَ القُلُوبِ أَوْسَعَ ساحاتِها ، ومَنْ كانَ قَلْبُهُ نَفْسِيًّا كانَ كَلامُهُ حِسِّيًّا ، يَعْنِي لا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِي الحِسِّ ولايَخُوضُ إِلَّا فِيه ، ومَنْ طَمَسَ أُذُنَ قَلْبِهِ حُجُبُ الدُّنْيا ، فَلا يَسْمَعُ ولا يُسْمَعُ .

حُسْنُ التَّعْبِيرِ والقَبُول

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الكِسْوَةَ الَّتي تَبْرُزُ عَلَى الكَلام ، إِنَّما هِيَ مِنْ نَتائِجِ الإِذْنِ مِنَ اللهِ فِيه ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِه :

(مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي التَّعْبِير ، حَسُنَتْ فِي مَسامِعِ الخَلْقِ عِبارَتُهُ ، وجُلِّيَتْ إِلَيْهِمْ إِشارَتُه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الإِذْنُ فِي التَّعْبِيرِ إِنَّما يَكُونُ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ الكامِلِ العارِفِ الَّذي أَهَّلَهُ اللهُ للتَّرْبِيَة ، ونَصَّبَهُ للتَّوْصِيلِ والتَّرْقِيَة ، فَإِذا رَأَى عَلَى تِلْمِيذِهِ أَهْلِيَّةَ التَّذْكِير ، أَذِنَ لَهُ فِي التَّعْبِير ، فَإِذا عَبَّرَ أَخَذَ بِمَجامِعِ القُلُوب ، وفاضَ مِنْ لِسانِهِ أَسْرارُ عِلْمِ الغُيُوب ، فَتَحْسُنُ فِي مَسامِعِ الخَلْقِ عِبارَتُهُ ، وتُجْلَى إِلَيْهِمْ إِشارَتُهُ ؛ أَيْ : تَظْهَرُ وتُفْهَمُ ، ولا عِبْرَةَ عِنْدَ المُحَقِّقِينَ بِلَحْنِ الكَلامِ وإِعْرابِهِ ، ولا خَطَأَ فِي رَفْعِهِ

ونَصْبِهِ مِنْ صَوابِهِ ، وإنَّما العِبْرَةُ بِالمَعانِي دُونَ القَوالِبِ والأَوانِي .

يُحْكَى أَنَّ بَعْضَ النَّحوِيِّينَ دَخَلَ مَجْلِسَ الحَسَنِ بنِ سَمْعُونَ لِيَسْمَعَ كَلامَهُ ، فَوَجَدَهُ يُلْحِنُ ، فانْصَرَفَ ذامًّا لَهُ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الحَسَنَ ، فَكَتَبَ لَهُ : إنَّكَ مِنْ كَثْرَةِ الإعْجابِ رَضِيتَ بِالوُقُوفِ دُونَ البابِ ، فاعْتَمَدْتَ عَلَى ضَبْطِ أَقْوالِكَ مَعَ لَحْنِ أَفْعالِكَ ، وإنَّكَ قَدْ تُهْتَ بَيْنَ خَفْضٍ ورَفْعٍ ونَصْبٍ وجَزْمٍ ، فانْقَطَعْتَ عَنِ المَقْصُود ، هَلَّا رَفَعْتَ إلَى اللّهِ جَمِيعَ الحاجات ، وخَفَضْتَ كُلَّ المُنْكَرات ، وجَزَمْتَ عَنِ الشَّهَوات ، ونَصَبْتَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ المَمات ؟ واللّهِ يا أَخِي مايُقالُ للعَبْدِ : لِمْ لَمْ تَكُنْ مُعْرِبًا ، وإنَّما يُقالُ لَهُ : لِمَ كُنْتَ مُذْنِبًا ، لَيْسَ المُرادُ فَصاحَةَ المَقال ، وإنَّما المُرادُ فَصاحَةُ الفِعال ، ولَوْ كانَ فِي فَصاحَةِ اللِّسان ، لَكانَ سَيِّدُنا هارُونُ عليه السلام أَوْلَى بِالرِّسالَةِ مِنْ سَيِّدِنا مُوسَى عليه السلام حَيْثُ يَقُولُ : ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ (١) .

ومِمَّا يُنْسَبُ للخَلِيلِ بنِ أَحْمَد ، أَوْ لِسِيبَوَيْه :

لِسَانٌ فَصِيحٌ مُعْرِبٌ فِي كَلامِهِ ❁ فَيَالَيْتَهُ مِنْ وَقْفَةِ العَرْضِ يَسْلَمُ

وَلا خَيْرَ فِي عَبْدٍ إذَا لَمْ يَكُنْ تُقًى ❁ وَمَا ضَرَّ ذَا تَقْوَى لِسَانٌ مُعْجَّمُ

---

(١) سُورَةُ القَصَص : مِنَ الآيَة ٣٤ .

وقالَ آخَرُ :

مُنْحَرِفٌ بِالْفِعَالِ ذُو زَلَلٍ ❁ وَإِنْ يُجَادِلْ جِدَالُهُ وَزَنَهْ

يَقُولُ لِي إِذْ كَتَبْتُ لَفْظَتَهُ ❁ تِيهًا وَعُجْبًا أَصَابَ مَا لَحَنَهْ

وَإِنَّ ذَا اللَّحْنِ مَنْ يَقُومُ غَدًا ❁ وَلا يُرَى فِي كِتَابِهِ حَسَنَهْ

وكانَ شَيْخُ شَيْخِنا رضي الله عنه : إذا ذَكَرَ مَنْ تَقَدَّمَ لَهُ فِي العَرَبِيَّةِ يقُولُ لَهُ : أَنْتَ اتْرُكْ شَيْئًا مِنْ عَرَبِيَّتِكَ ، وأَنا أَتْرُكُ شَيْئًا مِنْ جَبَلِيَّتِي ، (يَعْنِي : مِنَ اللُّغَةِ الجَبَلِيَّة) وَنَلْتَفِتُ للطَّرِيق .

والحاصِلُ : أَنَّ مَنِ اجْتَمَعَ فِيهِ الحالُ وفَصاحَةُ المَقال ، فَهُوَ كَمالُ الكَمال ؛ وذَلِكَ لأَنَّهُ يُنْتَفَعُ بِكَلامِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ ؛ كالإمامِ الغَزالِي والشَّشْتُرِي والشَّاذِلِي والمُرْسِي وابنِ عَطاءِ اللهِ رضي الله عنهم .

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ الكَلامَ الَّذي لَمْ يُؤْذَنْ لِصاحِبِهِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ ، فَقالَ :

(رُبَّما بَرَزَتِ الحَقائِقُ مَكْسُوفَةَ الأَنْوار ؛ إِذا لَمْ يُؤْذَنْ لَكَ فِيها بِالإِظْهار) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ يَتَكَلَّمُ الإِنْسانُ بِحِكَمٍ وحَقائِق ، مَعَ فَصاحةٍ وَبلاغَةٍ وشَقاشِق ، لَكِنَّها مَكْسُوفَةُ الأَنْوار ، مَطْمُوسَةُ الأَسْرار ، لَيْسَ

فِيها حَلاوَة ، ولا عَلَيْها طَلاوَة ، سَبَبُ ذَلِكَ عَدَمُ الإِذْنِ فِيها ؛ إِذْ لَوْ أُذِنَ لَهُ فِي التَّعْبِير ، لَظَهَرَ عَلَيْها كِسْوَةُ التَّنْوِير .

قالَ فِي ((لَطائِف المِنَن)) : ((مِنْ أَجَلِّ مَواهِبِ اللهِ لأَوْلِيائِهِ وُجُودُ العِبارَة .

قالَ : وسَمِعْتُ شَيْخَنا أَبا العَبَّاسِ يَقُولُ : الوَلِيُّ يَكُونُ مَشْحُونًا بِالمَعارِفِ والعُلُوم ، والحَقائِقُ لَدَيْهِ مَشْهُورَة ، حَتَّى إِذا أُعْطِيَ العِبارَةَ كانَ ذَلِكَ كالإِذْنِ مِنَ اللهِ فِي الكَلامِ .

قالَ : وسَمِعْتُ أَبا العَبَّاسِ يَقُولُ : كَلامُ المَأْذُونِ لَهُ يَخْرُجُ وعَلَيْهِ كِسْوَةٌ وطَلاوَة ، وكَلامُ الَّذي لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ يَخْرُجُ مَكْسُوفَ الأَنْوار ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَتَكَلَّمانِ بِالحَقِيقَةِ الواحِدَةِ ، فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِما ، وتُرَدُّ عَلَى الآخَر)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : ويَنْبَغِي لأَهْلِ التَّعْبِيرِ أَنْ يُخاطِبُوا النَّاسَ بِقَدْرِ ما يَفْهَمُون ، فَلَيْسَ التَّعْبِيرُ لأَهْلِ البِدايَةِ كَأَهْلِ النِّهايَة .

وفِي الحَدِيث : (خاطِبُوا النَّاسَ بِقَدْرِ ما يَفْهَمُونَ) .

نَعَمْ إِنْ ضاقَ الوَقْتُ عَلَى التَّفْرِيق ، جَمَعَ الكُلَّ ، وذَكَرَ فِي البِدايَةِ والوَسَطِ والنِّهايَة ، وكُلُّ واحِدٍ يَأْخُذُ نَصِيبَهُ ، ويَشْرَبُ مِنْ مَنْهَلِهِ :

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ (١) .

وهَذِهِ كانَتْ طَرِيقَةُ الجُنَيْد رضي الله عنه ؛ يُلْقِي الحَقائِقَ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهاد ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقالَ : عِلْمُنا مَحْفُوظٌ أَنْ يَأْخُذَهُ غَيْرُ أَهْلِهِ ، أَوْ ما هَذا مَعْناه .

ثُمَّ عِبارَتُهُمْ بَعْدَ الإِذْنِ لا تَكُونُ إِلَّا لِحِكْمَةٍ بَيَّنَها الشَّيْخُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(عِبارَتُهُمْ إِمَّا لِفَيَضانِ وَجْدٍ ، أَوْ لِقَصْدِ هِدايَةِ مُرِيدٍ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة (أَجْزَلَ اللهُ لَهُ المَثُوبَة) : ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُ العارِفِينَ مِنَ المَعارِفِ وأَسْرارِ التَّوْحِيدِ وغَوامِضِ العُلُومِ الَّتِي لا تُطِيقُها جُلُّ الفُهُومِ هُوَ سِرٌّ مِنْ أَسْرارِ اللهِ ، وهُمْ أُمَناءُ اللهِ عَلَيْها ، فَلا يُطْلِعُونَ عَلَيْها إِلَّا مَنْ رَأَوْهُ أَهْلًا لَها ، إِلَّا مَنْ كانَ مَغْلُوبًا عَلَى حالِهِ ، لا يَقْدِرُ عَلَى إِمْساكِها ، وهُوَ مَنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ حالِهِ فِيها ، فَعِبارَتُهُمْ إِذًا إِمَّا لِفَيَضانِ وَجْدٍ غَلَبَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِمْساكِها ، أَوْ لأَجْلِ هِدايَةِ مُرِيدٍ وإِرْشادِهِ وتَرْقِيَتِهِ إِلَى مَقامٍ اسْتَحَقَّ الاطِّلاعَ عَلَيْهِ ، وإِلَّا فَلا يُظْهِرُونَ مِنْ تِلْكَ الأَسْرارِ قَلِيلًا ، ولا أَقَلَّ مِنَ القَلِيل ، وقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : قُلُوبُ الأَحْرار قُبُورُ الأَسْرار .

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٦٠ .

وقالَ آخَرُ :

لا يَكْتُمُ السِّـرَّ إلَّا كُلُّ ذِي ثِـقَـةٍ ۞ فَالسِّرُّ عِنْدَ خِيَارِ النَّاسِ مَكْتُومُ

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ حالَ الفَرِيقَيْنِ ومَقامَ الرَّجُلَيْنِ ، فَقالَ :

(الأَوَّلُ حالُ السَّالِكين) :

وهُمُ المُسْتَشْرِفُونَ مِنَ السَّائِرين ، حَقَّقُوا ولَمْ يَتَمَكَّنُوا فَهُمْ مَمْلُوكُونَ مِنْ يَدِ الأَحْوال ، إذا غَلَبَ عَلَيْهِمُ الوَجْدُ فاضُوا ولَمْ يَشْعُرُوا ، وإذا رَجَعُوا إلَى أَنْفُسِهِمْ نَدِمُوا واسْتَغْفَرُوا .

ثُمَّ بَيَّنَ رضي الله عنه حالَ الثَّانِي ، فَقالَ :

(والثَّانِي حالُ أَرْبابِ المُكْنَةِ والمُتَحَقِّقِين) :

وهُمُ الرَّاسِخُونَ المُتَمَكِّنُون ، فَلا يُعَبِّرُونَ عَنْ تِلْكَ الأَسْرارِ إلَّا لأَجْلِ هِدايَةِ المُرِيدِينَ ، وتَرْبِيَةِ السَّالِكِينَ ، وتَرْقِيَةِ السَّائِرِينَ ، وأَمَّا لِغَيْرِ هَؤُلاءِ ، فَلا ، فَإِنْ عَبَّرَ عَنْها السَّالِكُ لا عَنْ غَلَبَةِ وَجْدٍ كانَ فِي ذَلِكَ نَوْعٌ مِنَ الدَّعْوَى ، وإنْ عَبَّرَ عَنْها المُتَمَكِّنُ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ هِدايَةٍ كانَ فِي ذَلِكَ إفْشاءٌ لأَسْرارِ الرُّبُوبِيَّة ، وهِيَ عِنْدَهُمْ أَعَزُّ مِنَ الكِبْرِيتِ الأَحْمَر .

قالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَن : ((عَلامَةُ الوِلايَة : الرِّضا بِالقَضاء ، والصَّبْرُ عَلَى البَلاء ، والفِرارُ إلَى اللهِ عِنْدَ الشَّدائِد ، والرُّجُوعُ إلَيْهِ عِنْدَ

النَّوائِب ، فَمَنْ أُعْطِيَ هَذِهِ الأَرْبَعَةَ مِنْ خَزائِنِ الأَعْمالِ والمُجاهَدَةِ ، فَقَدْ صَحَّتْ وِلايَتُهُ للهِ ورَسُولِهِ وللمُؤْمِنين ، ومَنْ أُعْطِيها مِنْ خَزائِنِ المِنَنِ والمُوادَدَة ، فَقَدْ تَمَّتْ وِلايَةُ اللهِ لَهُ ، فَالوِلايَةُ الأُولَى وِلايَةٌ صُغْرَى ، والوِلايَةُ الثَّانِيَةُ وِلايَةٌ كُبْرَى .

قِيلَ لَهُ : كَيْفَ يَتَوَلَّى اللهَ ورَسُولَهُ والَّذينَ آمَنُوا ؟ قالَ : يَتَوَلَّى اللهَ بِالمُجاهَدَةِ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ (١) .

ويَتَوَلَّى الرَّسُولَ بِالمُتابَعَةِ : ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ (٢) ، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (٣) .

ويَتَوَلَّى المُؤْمِنينَ بِالاقْتِداءِ بِهِمْ ، وهِيَ عَلاماتُ مَنْ خاضَ بَحْرَ الوِلايَة .

وأَمَّا الَّذينَ تَوَلَّاهُمُ اللهُ : فَهُمُ الَّذينَ صَلَحُوا لِحَضْرَتِهِ ، وغابُوا عَنْ خَلِيقَتِهِ ، فَلا يَرَوْنَ فِي الوُجُودِ إِلَّا اللهَ ، الأُولَى تُسَمَّى وِلايَةَ إِيمان ، وهَذِهِ وِلايَةُ إِيقان .

فَقِيلَ لَهُ وما الفَرْقُ بَيْنَ الإِيمانِ والإِيقان ؟ قالَ : كُلُّ يَقِينٍ إِيمانٌ ، ولَيْسَ كُلُّ إِيمانٍ يَقِينًا ، فالإِيمانُ رُبَّما تَدْخُلُهُ الغَفْلَة ، والإِيقانُ لا

---

(١) سُورَةُ العَنْكَبُوت : مِنَ الآيَة ٦٩ .
(٢) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ٣١ .
(٣) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٨٠ .

تَدْخُلُهُ الغَفْلَة ، المُؤْمِنُ يَتَجَلَّى لَهُ الحَقُّ دُونَ كُلِّ شَيْء ، والمُوقِنُ يَتَجَلَّى لَهُ الحَقُّ فِي كُلِّ شَيْء ، المُؤْمِنُ فانٍ عَنْ كُلِّ شَيْء ، فَلَمْ يَشْهَدْ مَعَ اللهِ شَيْئًا ، والمُوقِنُ باقٍ فِي كُلِّ شَيْء ، فَهُوَ يَشْهَدُ اللهَ فِي كُلِّ شَيْء)) .

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ فائِدَةَ التَّعْبِيرِ ، وثَمَرَةَ العِبارَةِ فَقالَ :

(العِبارَةُ قُوتٌ لِعائِلَةِ قُلُوبِ المُسْتَمِعِين ، ولَيْسَ لَكَ مِنْها إلَّا ما أَنْتَ لَهُ آكِلٌ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : العائِلُ هُوَ الفَقِيرُ ، والعائِلَةُ جَمْعٌ لَهُ ، فَعِبارَةُ العارِفِينَ قُوتٌ لِقُلُوبِ الفُقَراءِ الطَّالِبِينَ ؛ لِزِيادَةِ إيقانِ قُلُوبِهِمْ ومُشاهَدَةِ مَحْبُوبِهِمْ ، فَلا يَزالُونَ فِي حَضانَةِ الشُّيُوخِ وعِيالِهِمْ حَتَّى يَكْمُلَ إيقانُهُمْ ، وتَرْشُدَ أَحْوالُهُمْ ، فَحِينَئِذٍ يَسْتَقِلُّونَ بِأَنْفُسِهِمْ .

وعَلامَةُ رُشْدِهِمْ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ النَّصِيبَ مِنْ كُلِّ شَيْء ، ولا يَنْقُصُ مِنْ حالِهِمْ شَيْء ، يَفْهَمُونَ عَنِ اللهِ فِي كُلِّ شَيْء ، ويَعْرِفُونَ فِي كُلِّ شَيْء ، ويَشْرَبُونَ مِنْ كُلِّ شَيْء ، فَإِذا كانُوا كَذَلِكَ ، فَقَدِ اسْتَقَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ وتَأَهَّلُوا لِإِرْشادِ غَيْرِهِمْ .

قالَ بَعْضُ الحُكَماء : مَنْ لَمْ يَفْهَمْ صَرِيرَ الباب ، ولا طَنِينَ الذُّباب ، ولا نَبِيحَ الكِلاب ، فَلَيْسَ مِنْ ذَوِي الأَلْباب .

وأَمَّا مَنْ لَمْ يَبْلُغْ هَذا المَقام ، فَلا بُدَّ أَنْ يَلْزَمَ العُشَّ فِي حَضانَةِ مَنْ يَرْزُقُهُ ويُطْعِمُهُ ، فَإِذا طارَ مِنَ العُشِّ قَبْلَ تَرْبِيَةِ الجَناح ، اصْطادَتْهُ الكِلابُ والبِيزان ، ولَعِبَتْ بِهِ النِّساءُ والصِّبْيان ، فَإِذاكانَ فِي عُشِّ الشَّيْخ وكانَ يُطْعِمُهُ مَعَ غَيْرِهِ فَلَيْسَ لَهُ مِنَ القُوتِ إِلَّا ما يَقْدِرُ أَنْ يَأْكُلَهُ وإِلَّا قَتَلَهُ ، فَلَيْسَ طَعامُ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ كَطَعامِ الرَّجُلِ الكَبِير ، وكَذَلِكَ عِبارَةُ الشُّيُوخِ للمُرِيدِينَ : كُلُّ واحِدٍ يَأْخُذُ ما يَلِيقُ بِحالِهِ ، فالشُّيُوخُ يَذْكُرُونَ فِي الجُمْلَة ، فَيَذْكُرُونَ أَحْوالَ البِداياتِ والنِّهاياتِ والوَسَط ، وكُلُّ واحِدٍ يَأْخُذُ ما يَلِيقُ بِهِ : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ (١) .

فَلا يَتَعَلَّقُ المُبْتَدِئُ بِمُذاكَرَةِ المُنْتَهِي فَيَفْسَدَ ، كَما إِذا أَكَلَ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ طَعامَ الكَبِيرِ يَقِفُ فِي حَلْقِهِ ، وإِذا أَكَلَ الكَبِيرُ طَعامَ الصَّغِيرِ لا يُشْبِعُهُ ؛ هَذا مَعْنَى قَوْلِ الشَّيْخ : (ولَيْسَ لَكَ مِنْها إِلَّا ما أَنْتَ آكِلٌ) ؛ أَيْ : لَيْسَ لَكَ مِنْ قُوتِ العِبارَةِ إِلَّا ما أَنْتَ قادِرٌ عَلَى أَكْلِهِ ، وإِلَّا غَصَصْتَ بِهِ .

وقَدْ سُئِلَ ابنُ عَجِيبَةَ عَنْ قُوتِ الرُّوحانِيَّةِ والبَشَرِيَّةِ ، فَقالَ : قُوتُ البَشَرِيَّةِ مَعْلُوم ، وقُوتُ الرُّوحانِيَّةِ عَلَى وِزانِ قُوتِ البَشَرِيَّة ، فالصَّبِيُّ

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٦٠ .

لا يُطِيقُ الطَّعامَ الخَشِنَ حَتَّى يَكْبُرَ ، كَذَلِكَ الرُّوحُ تُرَبَّى شَيْئًا فَشَيْئًا ، فَتَطْعَمَ أَوَّلًا ذِكْرَ اللِّسانِ فَقَطْ ، ثُمَّ ذِكْرَ القَلْبِ مَعَ اللِّسان ، ثُمَّ ذِكْرَ القَلْبِ فَقَطْ ، ثُمَّ ذِكْرَ الرُّوحِ وهُوَ الفِكْرَة ، ثُمَّ ذِكْرَ السِّرِّ وهُوَ النَّظْرَة ، ثُمَّ تَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ وتَشْرَبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَسْرُطَ [1] الكَوْنَ بِأَسْرِهِ ، فَلَوْ أَعْطَيْتَها الفِكْرَةَ أَوِ النَّظْرَةَ الَّذي هُوَ طَعامُ الرِّجالِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وهِيَ فِي مَقامِ الأَطْفالِ لَلَفِظَتْهُ وطَرَحَتْهُ ، فَإِذا بَلَغَتِ الرُّوحُ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ شَيْءٍ وتَشْرَبَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَقَدْ صَحَّ لَها أَنْ تَطِيرَ فِي المَلَكُوتِ الأَعْلَى وتَذْهَبَ حَيْثُ تَشاء .

وقَدْ يَخْتَلِفُ الشُّرْبُ لِجَماعَةٍ مِنْ آنِيَةٍ واحِدَةٍ لاخْتِلافِ مَقامِهِمْ ؛ كَقَضِيَّةِ الرِّجالِ الَّذينَ سَمِعُوا قائِلًا يَقُولُ : يا سَعْتَر بَرِّي ! وذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا فِي الصَّفا بِمَكَّةَ صاحَ : يا سَعْتَر بَرِّي لِرَجُلٍ آخَرَ كانَ اسْمُهُ ذَلِكَ ، فَسَمِعَهُ الثَّلاثَةُ ، فَكُلُّ واحِدٍ تَعَلَّقَ بِذِهْنِهِ ما يَلِيقُ بِحالِهِ ، فَسَمِعَ أَحَدُهُمْ : السَّاعَةَ تَرَى بِرِّي ، وسَمِعَ الآخَرُ : اسْعَ تَرَى بِرِّي ، وسَمِعَ الثَّالِثُ : ما أَوْسَعَ بِرِّي ! فالأَوَّلُ كانَ مُسْتَشْرِفًا ، والثَّانِي مُبْتَدِيًا ، والثَّالِثُ كانَ واصِلًا .

---

(١) سَرَطَ الشَّيْءَ : ابْتَلَعَهُ وسارَ سَيْراً سَهْلًا .

قالَ فِي ((لَطائِفِ المِنَن)) : واعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ المَفْهُوماتِ المَعْنَوِيَّةَ الخارِجَةَ عَنِ الفَهْمِ الظَّاهِرِ لَيْسَتْ بِإحالَةِ اللَّفْظِ عَنْ مَفْهُومِه ، بَلْ هُوَ فَهْمٌ زائِدٌ عَلَى الفَهْمِ العام ، يَهَبُهُ اللهُ لِهَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنْ أَرْبابِ القُلُوب ، وهُوَ مِنْ باطِنِ الحُكْمِ المُنْدَرِجِ فِي ظاهِرِهِ انْدِراجَ النَّباتِ فِي الحَبَّةِ ، وذَلِكَ أَنَّ المَدَدَ النُّورانِيَّ والفَتْحَ الرَّبَّانِيَّ يَتَّصِلُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ إِلَى الطَّرَفِ الظَّاهِر ، فَحَيْثُ انْتَهَتِ القُوَّةُ انْتَهَى الإِدْراكُ ، فَرُبَّما فَهِمُوا ما يُوافِقُ ظاهِرَ المَعْنَى الباطِنِي ، ورُبَّما خالَفَهُ مِنْ جِهَةٍ ما ، ورُبَّما كانَ الفَهْمُ بِعَكْسِ ظاهِرِهِ .

ثُمَّ إِنَّ العِبارَةَ لا تَدُلُّ عَلَى حالِ المُعَبِّر ، فَقَدْ يَكُونُ فَوْقَ ما يَقُولُ ، وقَدْ يَكُونُ دُونَ ما يَقُولُ ، كَما أَشارَ إِلَى بَيانِ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ : **(رُبَّما عَبَّرَ عَنِ المَقامِ مَنِ اسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ ، ورُبَّما عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ ، وذَلِكَ مُلْتَبِسٌ إِلَّا عَلَى صاحِبِ بَصِيرَة)** :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : العِبارَةُ لا تَدُلُّ عَلَى نِهايَةِ المُعَبِّرِ ، ولا وُصُولِهِ إِلَى ما عَبَّرَ عَنْهُ ، فَقَدْ يُعَبِّرُ عَنِ المَقامِ مَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَيْه ، ولَكِن اسْتَشْرَفَ عَلَيْه ، وقَدْ يُعَبِّرُ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْه ، ورُبَّما عَبَّرَ عَنِ المَقامِ وقَدَمُهُ فَوْقَ ما عَبَّرَ عَنْهُ ، وذَلِكَ مُلْتَبِسٌ ؛ إِذْ لا يَعْرِفُ المُسْتَشْرِفَ مِنَ الواصِلِ

إِلَّا ذُو بَصِيرَةٍ نافِذَةٍ ، يَعْنِي : مَنْ فُتِحَ عَلَيْهِ فِي المَعْرِفَة ، فَكُلُّ مَنْ فُتِحَ عَلَيْهِ فِي مَعْرِفَةِ اللّه ، ورُفِعَ عَنْهُ الحِجاب ، عَرَفَ كَلامَ الواصِلِ مِنَ المُسْتَشْرِف ؛ فَلَيْسَ مَنْ خالَطَ البَلَدَ ووَصَفَها ثُمَّ نَعَتَها كَمَنِ اسْتَشْرَفَ عَلَيْها ولَمْ يَدْخُلْها ، ثُمَّ جَعَلَ يَنْعَتُها .

قالَ بَعْضُهُمْ : وقَدْ يُعْرَفُ المُسْتَشْرِفُ بِطُولِ التَّعْبِير ، والواصِلُ بِاخْتِصارِه ، فالمُسْتَشْرِفُ يُطَوِّلُ العِبارَةَ ويُكَرِّرُها والواصِلُ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ يُدْرِكُها .

قالَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ رضي الله عنه : ((الاسْتِشْرافُ والوُصُولُ لَيْسَ إِلَّا مَراتِبَ التَّوَجُّهِ للتَّحَقُّقِ بِالعَجْزِ ، فَمَنْ وَصَلَ لِمَعْرِفَةِ العَجْزِ عَنِ الوُصُولِ فَهُوَ الواصِلُ ، لَكِنَّ العَجْزَ لا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الاتِّصافِ بِهِ حَقِيقَةً لا مَجازًا ، وذَلِكَ أَنَّ الجاهِلَ عَجْزُهُ حالِيٌّ قَهْرِيٌّ ، والعارِفَ عَجْزُهُ جَلالِيٌّ رَحْمانِيٌّ .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : المُرادُ بِالعَجْزِ فِي حَقِّهِ : الحَيْرَةُ والدَّهَشُ أَوَّلًا ، ثُمَّ العَجْزُ عَنِ الإِحالَةِ والكُنْهِ ثانِيًا .

ثُمَّ قالَ ابنُ عَطاءِ اللّه : يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّ الجاهِلَ مَتَى تَحَرَّكَ وَقَعَ فِي الحُظُوظ ، والعارِفَ لا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالحُقُوق ، والجاهِلَ نَصِيبُهُ الوَهْم ، والعارِفَ نَصِيبُهُ الفَهْم ، الجاهِلَ طالِبٌ للعِلْم ، والعارِفَ

طالِبٌ للمَعْلُوم ، الجاهِلَ تابِعٌ بِنَظَرِهِ للصُّوَرِ الحِسِّيَّة ، والعارِفَ غائِصٌ بِبَصِيرَتِهِ مَعَ الأَرْواحِ المَعْنَوِيَّة ، وجَمِيعُ المَراتِبِ والمَقاماتِ مَراحِلُ بَيْنَ الحِسِّ والمَعْنَى ، وانْتِقالٌ مِنَ الهَياكِلِ الجِسْمِيَّةِ للعَوالِمِ القَلْبِيَّة ، ثُمَّ مِنَ العَوالِمِ القَلْبِيَّةِ إِلَى الحَقائِقِ الرُّوحانِيَّة ، ثُمَّ مِنَ الحَقائِقِ الرُّوحانِيَّةِ إِلَى الأَسْرارِ الرَّبَّانِيَّة ، ثُمَّ مِنَ الأَسْرارِ الرَّبَّانِيَّةِ إِلَى المَعارِفِ التَّوْحِيدِيَّة)) .

ثُمَّ لا يَنْبَغِي للسَّالِكِ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ هَذِهِ الأَسْرارِ إِذا واجَهَتْهُ فِي طَرِيقِ السُّلُوك ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لا يَنْبَغِي للسَّالِكِ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ وارِداتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُقَلِّلُ عَمَلَها فِي قَلْبِهِ ، ويَمْنَعُهُ وُجُودَ الصِّدْقِ فِيها مَعَ رَبِّهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : المُرِيدُ فِي حالِ سَيْرِهِ مَأْمُورٌ بِالكِتْمانِ لِعِلْمِهِ وعَمَلِهِ وحالِ وارِداتِه ، فَإِفْشاؤُهُ لِعَمَلِهِ مِنْ قِلَّةِ إِخْلاصِهِ ، وإِفْشاؤُهُ لأَحْوالِهِ مِنْ قِلَّةِ صِدْقِهِ مَعَ رَبِّه .

وأَيْضًا الأَحْوالُ تَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّار ، فَتُزْعِجُ القُلُوبَ خَوْفًا ، وتُقْلِقُها شَوْقًا ، فَإِذا أَفْشَى ذَلِكَ كانَ تَبْرِيدًا لَها وإِطْفاءً لِنُورِها ؛ كَمَنْ غَلَتْ قِدْرَتُهُ فَصَبَّ فِيها الماءَ البارِدَ فَيَطُولُ عَلَيْهِ غَلَيانُها ثانِيًا ، ولَوْ قَلَّلَ

نارَها وحَرَّكَها لاسْتَفادَ إدامَها ، كَذَلِكَ الواردات الإلَهيَّةُ تَفْجَأُ القُلُوبَ لِتُحَرِّكَها إلَى النُّهُوضِ إلَى مَوْلاها ، فَإذا أَفْشاها وذَكَرَها للنَّاسِ قَلَّ عَمَلُها فِي قَلْبِهِ ودَلَّ عَلَى قِلَّةِ صِدْقِهِ فِيها مَعَ رَبِّه .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : ومِنْ ذَلِكَ اسْتِعْمالُ الأَحْوالِ الَّتي تُمِيتُ النُّفُوسَ لا يَنْبَغِي إفْشاؤُها ، فَلِلنَّفْسِ حَظٌّ فِي ذَلِكَ لأَنَّها مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ المَدْحِ والذِّكْرِ الحَسَن .

كَثِيرًا ما تَرَى بَعْضَ المُرِيدِينَ يَذْكُرُونَها ويَتَبَجَّحُونَ بِها وهُوَ غَيْرُ صَواب ، نَعَمْ إنْ كانَ يُقْتَدَى بِهِ فَيَذْكُرُها للاقْتِداءِ ولإنْهاضِ المُرِيدِينَ ، فَذَلِكَ حَسَنٌ مَعَ نِيَّةٍ حَسَنَةٍ ، وكَثِيرًا ما تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ الأَحْوالُ فِي حالِ السُّؤال ، فَلِذَلِكَ ذَكَرَهُ بِأَثَرِه .

أَوْ تَقُولُ : لَمَّا كانَ التَّعْبِيرُ عَنِ الوارِداتِ الإلَهيَّةِ مِمَّا يُوجِبُ الإقْبالَ والتَّعْظِيمَ فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إلَى العَطاء ، فَيَحْتاجُ إلَى آدابِ القَبْضِ ، بَيَّنَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِه :

(لا تَمُدَّنَّ يَدَكَ إلَى الأَخْذِ مِنَ الخَلائِقِ إلَّا أَنْ تَرَى أَنَّ المُعْطِيَ فِيهِمْ مَوْلاكَ ، فَإنْ كُنْتَ كَذَلِكَ ، فَخُذْ ما وافَقَكَ العِلْمُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مَدُّ اليَدِ إلَى الأَخْذِ مِنَ الخَلائِقِ عَلَى قِسْمَيْن : إمَّا

أَنْ يَكُونَ مِنْ غَيْرِ سُؤال ، أَوْ بَعْدَ السُّؤال ، ولِكُلٍّ واحِدٍ مِنْهُما أَحْكام .

أَمَّا الأَخْذُ مِنْ غَيْرِ سُؤالٍ ، فَشَرْطُهُ أَمْران : أَحَدُهُما عِلْمِيٌّ والآخَرُ صُوفِيٌّ .

أَمَّا العِلْمِيُّ : فَلا يَأْخُذُ مِمَّنْ كَسْبُهُ حَرامٌ ، ولا مُخَلِّط ، ولا مَحْجُورٍ عَلَيْهِ كالصَّبِيِّ والمَجْنُونِ والعَبْد .

وأَمَّا الصُّوفِيُّ : فَلا يَقْبِضُ حَتَّى يَعْرِفَ مِمَّنْ يَقْبِضُ عِلْمًا وحالًا ، فَإِنِ اتَّسَعَتْ مَعْرِفَتُهُ وتَحَقَّقَ فَناؤُهُ بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ لَهُ نَظَرٌ للواسِطَةِ أَصْلا ، فَرُبَّما يُسَلَّمُ لَهُ القَبْضُ مُطْلَقًا لأَنَّهُ يَقْبِضُ مِنَ اللهِ ، ويَدْفَعُ بِاللهِ ، ولَكِنَّ الكَمالَ هُوَ الجَمْعُ بَيْنَ الحَقِيقَةِ والشَّرِيعَة ، وقَدْ كانَ كَثِيرٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الحَقِيقِيِّينَ يَقْبِضُونَ جَوائِزَ السُّلْطان ، ثُمَّ يَدْفَعُونَها عَلَى أَيْدِيهِمْ .

وأَمَّا القَبْضُ بَعْدَ السُّؤالِ فَالكلامُ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهَيْن :

الأَوَّلُ : فِي جَوازِ السُّؤالِ ومَنْعِهِ .

والثَّانِي : فِيما يَقْبِضُهُ بَعْدَ أَخْذِهِ .

أَمَّا حُكْمُ السُّؤالِ فَأَصْلُهُ الجَوازُ : قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ الضُّحَى : الآيَة ١٠ .

فَلَوْ كانَ مَمْنوعًا ما نَهَى اللّٰهُ عَنْهُ ، ثُمَّ تَعْتَرِيهِ الأَقْسامُ الخَمْسَة :

يَكُونُ واجِبًا ، ومَنْدُوبًا ، ومُباحًا ، ومَكْرُوهًا ، وحَرامًا .

فَأَمَّا الواجِبُ : فَهُوَ ما يَكُونُ لِسَدِّ الرَّمَق ، بِحَيْثُ إِذا تَرَكَ السُّؤالَ ماتَ فَهَذا واجِبٌ عَلَيْهِ ، فَلَوْ تَرَكَهُ حَتَّى ماتَ ماتَ عاصِيًا ، فَأَوْجَبَهُ الشَّارِعُ خَوْفًا عَلَى فَواتَ حَياةِ البَشَرِيَّةِ الحِسِّيَّة ، وأَوْجَبَتْهُ الصُّوفِيَّةُ أَيْضًا عَلَى مَنْ خافَ فَواتَ حَياةِ الرُّوحانِيَّةِ بِحَيْثُ مَنَعَتْهُ الرِّياسَةُ مِنْ حَظِّ رَأْسِهِ وذَبْحِ نَفْسِهِ .

فَقَدْ نَقَلَ القَسْطَلَّانِي فِي ((شَرْحِ البُخارِي)) عَنِ ابنِ العَرَبِي المُعافِرِي أَنَّهُ قالَ : هُوَ واجِبٌ عَلَى المُرِيدِ فِي البِدايَة .

وإِلَيْهِ أَشارَ ابنُ البَنَّاءِ بِقَوْلِهِ :

وَمَا عَلَى السَّائِلِ مِنْ تَأْوِيلِ ❁ لأَجْلِ قَهْرِ النَّفْسِ وَالتَّذْلِيلِ

فَمِنْ أُولِي الْأَذْوَاقِ وَالْأَحْوَالِ ❁ مَنْ كَانَ رَاضَ النَّفْسَ بِالسُّؤَالِ

قَالُوا وَلَا خَيْرَ إِذَا فِي الْعَبْدِ ❁ مَا لَمْ يَكُنْ قَدْ ذَاقَ طَعْمَ الرَّدِّ

وبِالجُمْلَةِ فَهُوَ لِرِياضَةِ النَّفْسِ واجِبٌ أَوْ مَنْدُوب .

وكانَ إِبْراهِيمُ الخَوَّاصُ تُعْرَضُ عَلَيْهِ الأُلُوفُ فَلا يَقْبَلُها ، ورُبَّما سَأَلَ مَنْ يَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ الدِّرْهَمَ والدِّرْهَمَيْن ، لا يَزِيدُ عَلَى ذَلِك .

وأَمَّا **المَنْدُوبُ** : فَهُوَ أَنْ يَسْأَلَ لِغَيْرِهِ ، فَهُوَ مِنَ التَّعاوُنِ عَلَى البِرِّ ؛ فَيَسْأَلُ الطَّعامَ لِيُطْعِمَهُ مَنْ يَسْتَحِيي ، أَوْ يَسْأَلُ اللِّباسَ ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ، وقَدْ سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ لأَصْحابِهِ رضي الله عنهم حِينَ قَدِمُوا عَلَيْهِ عُراةً .

ويَدْخُلُ فِي المَنْدُوبِ ما كانَ لِرِياضَةِ النُّفُوسِ حَيْثُ لَمْ يُخَفْ عَلَيْهِ كَما تَقَدَّم .

وأَمَّا **المَكْرُوهُ** : فَهُوَ أَنْ يَسْأَلَ لِقُوتِ البَشَرِيَّةِ مَعَ القُدْرَةِ عَلَى الاسْتِغْناءِ عَنْهُ بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبابِ ، وهَذا ما لَمْ يَنْقَطِعْ للعِبادَةِ ويَتَجَرَّدْ إِلَى الذِّكْرِ ، وأَمَّا المُنْقَطِعُ إِلَى اللهِ فَلا بَأْسَ بِهِ ، وقَدْ فَعَلَهُ كَثِيرٌ مِنَ العارِفِينَ المُحَقَّقِينَ ؛ فَقَدْ كانَ أَبُو جَعْفَرٍ الحَدَّاد (وهُوَ شَيْخُ الجُنَيْدِ) يَسْأَلُ بابًا أَوْ بابَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً بَيْنَ العِشاءَيْنِ ، فَكانَتِ العامَّةُ تَتَعَجَّبُ مِنْهُ أَوَّلًا ، ثُمَّ عُرِفَ بِذَلِكَ ، فَكانَ لا يَعِيبُهُ عَلَيْهِ العامَّةُ ولا الخاصَّةُ مَعَ جَلالَةِ قَدْرِهِ وعُلُوِّ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ .

وكَثِيرٌ مِنَ الرِّجالِ عَلَى هَذِهِ الحالِ قَطَعُوا الدُّنْيا الفانِيَةَ لإِيثارِهِم الأُخْرَى الباقِيَة ، وكُلُّ ذَلِكَ لا يَقْدَحُ فِي شَرِيعَةٍ ولا حَقِيقَة ، ولا يُطْفِئُ نُورَ المَعْرِفَة ، وقَدْ أَشارَ ابنُ البَنَّاءِ إِلَى هَذَيْنِ القِسْمَيْنِ (المَنْدُوبَ والمَكْرُوهَ) فَقالَ :

وَكَـرِهُـوا سُـؤَالَـهُ لِنَفْـسِهِ ۞ ثُـمَّ أَبَـاحُـوهُ لأَجْـلِ جِنْـسِهِ

وَلَـمْ يَعُـدُّوهُ مِـنَ السُّـؤَالِ ۞ لَكِنْ مِنَ الْعَوْنِ عَلَى الْأَعْمَالِ

إِذْ كَانَ خَيْرُ الْخَلْقِ فِي أَتْرَابِهِ ۞ يَسْـأَلُ أَحْيَانًا إِلَـى أَصْحَابِهِ

وأَمَّا المُباحُ : فَهُوَ أَنْ يَسْأَلَ الحاجَةَ غَيْرَ الضَّرُورِيَّةِ كَسُؤالِهِ لِقَضاءِ دَيْنِهِ ، أَوْ ما يَزِيدُ عَلَى سَتْرِ عَوْرَتِهِ وسَدِّ رَمَقِهِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ بِضَرُورَةٍ ، لَكِنَّهُ حاجِيٌّ ؛ أَيْ : مُحْتاجٌ إِلَيْه .

وأَمَّا المُحَرَّمُ : فَهُوَ أَنْ يَسْأَلَ تَكَثُّراً أَوْ زِيادَةً عَلَى ما يَكْفِيه .

وفِي الحَدِيث : (مَنْ لَهُ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا ، فالسُّؤالُ عَلَيْهِ حَرامٌ) .

وفِيهِ وَرَدَ الحَدِيثُ : (إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيامَةِ ولَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْم) .

ومِنَ المُحَرَّم أَيْضًا : ما فِيهِ إِلْحاحٌ وإِضْرارٌ بِالمَسْؤُول .

قالَ تَعالَى : ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (١) .

وينْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي حالِ السُّؤالِ يَدُهُ مُشِيرَةٌ إِلَى الخَلْقِ ، وقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالحَقِّ .

قالَ بَعْضُ الأَغْنِياء : كُنْتُ نائِمًا ، وإِذا بِإِنْسانٍ قَدْ وَقَفَ عَلَيَّ فِي عالَمِ

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٧٣ .

النَّوْم ، وزَجَرَنِي ، وقالَ لِي : أَجِبِ المَلْهُوفَ ، فانْتَبَهْتُ وأَنا مَذْعُورٌ ، ولَمْ أَدْرِ ما أَصْنَع ، فَأَوْقَعَ اللّٰهُ فِي قَلْبِي أَنْ أَخَذْتُ صُرَّةً فِيها مِئَةُ دِينار ، ورَكِبْتُ دابَّةً وأَطْلَقْتُ زِمامَها ، فَخَرَجَتْ بِي مِنَ العُمْرانِ إِلَى مَسْجِدٍ خَرِبٍ ، ووَقَفَتْ ، فَنَزَلْتُ ودَخَلْتُ المَسْجِدَ فَوَجَدْتُ مِسْكِينًا ، وهُوَ يَتَضَرَّعُ إِلَى اللّٰهِ ويَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ حالِهِ ، فَقالَ : أَنا صاحِبُ عِيال ، ولِي بُنَيَّاتٌ مُنْذُ ثَلاثٍ ما طَعِمُوا ، فَأَنا أَسْأَلُ اللّٰهَ مِنْ فَضْلِه ، فَدَفَعْتُ لَهُ المِئَةَ ، وقُلْتُ لَهُ : إِذا نَفِدَتْ فاسْأَلْ عَنِّي ، فَأَنا فُلان ، وائْتِنِي ، فَقالَ : لا واللّٰهِ ما أَسْأَلُ غَيْرَ اللّٰه ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ وأَنا مُتَعَجِّبٌ مِنْ ثِقَتِهِ بِاللّٰهِ تَعالى .

فَهَذِهِ حِكايَةُ جُنُودٍ مِنْ جُنُودِ اللّٰهِ تَعالَى تُقَوِّي اليَقِين ، وتُوجِبُ الثِّقَةَ بِرَبِّ العالَمِين ، فَيَسْتَحْيِي العَبْدُ مِنَ اللّٰهِ أَنْ يَرْفَعَ حاجَتَهُ إِلَيْهِ ، فَأَوْلَى أَلَّا يَرْفَعَها إِلَى غَيْرِهِ كَما بَيَّنَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(رُبَّما اسْتَحْيا العارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حاجَتَهُ إِلَى مَوْلاهُ اكْتِفاءً بِمَشِيئَتِهِ ، فَكَيْفَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَها إِلَى خَلِيقَتِهِ ؟) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : العارِفُ : هُوَ الَّذي بَلَغَ مِنَ التَّقَرُّبِ والقُرْبِ حَتَّى هانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ بِالكُلِّيَّة ، وزالَتْ عَنْهُ الأَيْنِيَّةُ والغَيْرِيَّة ، بِحَيْثُ لَمْ

يَبْقَ لَهُ عَنْ نَفْسِهِ إِخْبار ، ولا مَعَ غَيْرِ مَوْلاهُ قَرار ، فَإِذا أَرادَ أَنْ يَسْأَلَ عُبُودِيَّةً اسْتَحْيا مِنْ مَوْلاهُ أَنْ يُثْبِتَ مَعَهُ سِواهُ اكْتِفاءً بِمَشِيئَتِهِ وتَحْقِيقًا لأَحَدِيَّتِهِ ، فَإِذا كانَ يَسْتَحْيِي مِنْ مَوْلاهُ أَنْ يَرْفَعَ حَوائِجَهُ إِلَيْهِ ، فَكَيْفَ لا يَسْتَحْيِي مِنْهُ أَنْ يَرْفَعَها إِلَى غَيْرِهِ ؟ فَلا جَرَمَ أَنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ يُعْطِيهِ أَفْضَلَ ما يُعْطِي السَّائِلِينَ ، ويُبَوِّئُهُ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ مَعَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ ، وقَدْ تَقَدَّمَ الحَدِيثُ : (مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ما أُعْطِي السَّائِلِين) .

اخْتِيارُ أَحْسَنِ الأَمْرَيْنِ

تَذاكَرْنا الكَلامَ عَلَى الكَرامات ، وما يَنْشَأُ عَنْها مِنَ العِبارات ، إِلَّا أَنَّ الكَراماتِ الحَقِيقِيَّةَ هِيَ الاسْتِقامَةُ عَلَى العُبُودِيَّة ، ومُشاهَدَةُ أَنْوارِ الرُّبُوبِيَّة ، فَإِذا تَحَقَّقَ ذَلِكَ فِي الوَلِيِّ فاضَ بِالحِكَمِ وأُذِنَ لَهُ فِي التَّعْبِير ، فَحِينَئِذٍ رُبَّما يُقْبِلُ عَلَيْهِ الخَلْقُ بِالعَطاء ، فَإِذا عَرَفَ فِيهِمْ مَوْلاهُ حَلَّ لَهُ الأَخْذُ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وإِلَّا فَلا .

وأَمَّا السُّؤالُ مِنْهُمْ لِقُوتِ البَشَرِيَّةِ فَلا يُتَصَوَّرُ مِنَ العارِفِينَ اسْتِحْياءً مِنَ اللهِ واكْتِفاءً بِعِلْمِهِ ومَشِيئَتِهِ ، هَذا مَقامُ الواصِلِين .

وأَمَّا السَّائِرُونَ فَهُمْ عامِلُونَ عَلَى مُجاهَدَةِ نُفُوسِهِمْ ، فَإِنْ ثَقُلَ عَلَيْها

السُّؤالُ قَدَّمُوها إلَيْهِ ، وإنْ ثَقُلَ عَلَيْها الفاقَةُ والصَّبْرُ والاكْتِفاءُ بالمَشِيئَةِ والعِلْمِ قَدَّمُوهُ ، وهَذا ما تَدَرَّجَ فِيهِ بالاسْتِفاضَةِ ابنُ عَطاءِ اللهِ فَقالَ :

(إذا الْتَبَسَ عَلَيْكَ أَمْرانِ فانْظُرْ أَثْقَلَهُما عَلَى النَّفْسِ فاتَّبِعْهُ ؛ فَإِنَّهُ لا يَثْقُلُ عَلَيْها إلَّا ما كانَ حَقًّا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : هَذا مِيزانٌ صَحِيحٌ فِي حَقِّ السَّائِرِينَ المُشْتَغِلِينَ بالجِهادِ الأَكْبَر :

قالَ تَعالَى : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ (١) .

وقالَ : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (٢) .

فَكُلُّ ما يَثْقُلُ عَلَى نَفْسِ المُرِيدِ وتَنْفُرُ مِنْهُ فَهُوَ حَقٌّ ، فالواجِبُ عَلَى المُرِيدِ اتِّباعُهُ ، وكُلُّ ما يَخِفُّ عَلَيْها فَهُو باطِلٌ ، وفِيهِ حَظُّها ، فالواجِبُ عَلَيْهِ اجْتِنابُهُ وهَذا الأَمْرُ يَخْتَلِفُ اخْتِلافًا كَثِيراً ، فَرُبَّ نَفْسٍ يَثْقُلُ عَلَيْها غَيْرُ ما يَثْقُلُ عَلَى الأُخْرَى ، فَبَعْضُها يَثْقُلُ عَلَيْها الصَّمْتُ ، وبَعْضُها يَثْقُلُ عَلَيْها الكَلامُ ، وبَعْضُها يَثْقُلُ عَلَيْها العُزْلَةُ ، وبَعْضُها يَثْقُلُ عَلَيْها الخُلْطَةُ ، وبَعْضُها يَثْقُلُ عَلَيْها الصِّيامُ ، وبَعْضُها الفِطْرُ ، وبَعْضُها يَثْقُلُ

---

(١) سُورَةُ الحَجِّ : مِنَ الآيَة ٧٨ .

(٢) سُورَةُ العَنْكَبُوت : مِنَ الآيَة ٦٩ .

عَلَيْها السُّؤالُ وتَمُوتُ مِنْهُ فِي ساعَةٍ واحِدَةٍ ، وبَعْضُها يَخِفُّ عَلَيْها كَما إذا تَعَوَّدَتْهُ قَبْلَ الأَمْرِ بِهِ ، وقِسْ عَلَى ذَلِك .

فَلْيَكُنِ العَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَة ، ويَصِيرُ مَعَها عَلَى عَكْسِ مُرادِها ، هَكَذا يَسْتَمِرُّ مَعَها يُخالِفُها فِيما تَأْمُرُهُ ، ويَتَّهِمُها فِيما تَسْتَحْسِنُهُ ، فَإذا تَزَكَّتْ وتَطَهَّرَتْ مِنَ الحِسِّ ، ولَمْ يَبْقَ فِيها بَقِيَّةٌ ، فَحِينَئِذٍ يَجِبُ عَلَيْهِ مُوافَقَتُها ؛ إذْ لا يَتَجَلَّى فِيها حِينَئِذٍ إلَّا الحَقُّ ، فَقَدْ جاءَ الحَقُّ وزَهَقَ الباطِلُ ، فَيَصِيرُ أَمْرُ العارِفِ مَعْكُوسًا مَعَ السَّائِر .

فالسَّائِرُ يَضُرُّهُ التَّدْبِيرُ والاخْتِيار ، والعارِفُ يَنْفَعُه ، والسَّائِرُ تَضُرُّهُ الخُلْطَة ، والعارِفُ تَنْفَعُه ، السَّائِرُ يَضُرُّهُ الكَلام ، والعارِفُ يَنْفَعُه ، السَّائِرُ تَضُرُّهُ الدُّنْيا ويَهْرَبُ مِنْها ، والعارِفُ غائِبٌ عَنْها لا تَضُرُّهُ ، ورُبَّما تَنْفَعُه .

ويَجِبُ عَلَى مَنْ أَرادَ جِهادَ نَفْسِهِ أَنْ يُلْقِيَها إلَى شَيْخِ التَّرْبِيَة ، إذْ قَدْ يَلْتَبِسُ عَلَيْهِ أَمْرُها ، وعَلَى فَرْضِ عِلْمِهِ بِما يَثْقُلُ عَلَيْها لا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى مُجاهَدَتِها إلَّا بِهِمَّةِ الشَّيْخ ، هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبادِهِ ، فَإنَّ النَّفْسَ لا تُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ عَنْ رَأْيِها ومُرادِها أَبَدًا ، فالواجِبُ إسْلامُها إلَى مَنْ يُعِينُهُ عَلَيْها ، وانْظُرِ التَّكالِيفَ الشَّرْعِيَّةَ تَجِدْها مُخالِفَةً لِهَوَى النَّفْس .

مِيزانٌ آخَرُ للعَمَل

وها هُنا مِيزانٌ آخَرُ تَعْرِفُ بِهِ العَمَلَ الَّذي فِيهِ حَظُّ النَّفْسِ وهَواها ، وما لا حَظَّ لَها فِيه ؛ هُوَ أَنْ تَعْرِضَ عَلَيْها المَوْتَ وأَنْتَ فِي ذَلِكَ العَمَل ، فَإِنْ رَضِيَتْ بِالمَوْتِ وهِيَ فِي ذَلِكَ العَمَلِ فالعَمَلُ صَحِيح ، وإِنْ لَمْ تَرْضَ بِالمَوْتِ وهِيَ فِي ذَلِكَ العَمَلِ فالعَمَلُ باطِلٌ ، فَكُلُّ عَمَلٍ لا يَهْزِمُهُ المَوْتُ فَهُوَ صَحِيحٌ ، وكُلُّ عَمَلٍ يَهْزِمُهُ المَوْتُ فَهُوَ باطِلٌ ، يَعْنِي : فِيهِ الهَوَى والحَظُّ ، وكَذَلِكَ الإِنْسانُ يَزِنُ نَفْسَهُ بِهَذا المِيزانِ لِيَعْرِفَ هَلَ رَحَلَ مِنْ هَذا العالَم أَوْ هُوَ باقٍ ، فَيَعْرِضُ المَوْتَ عَلَى نَفْسِهِ فِي حالِ عافِيَةٍ وجَمال ، فَإِذا قَبِلَتِ المَوْتَ ولَمْ تَفِرَّ مِنْهُ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ رَحَلَ مِنْ هَذا العالَم ، وإِنْ لَمْ تَقْبَلْ نَفْسُهُ المَوْتَ وطَلَبَتِ البَقاءَ ، فَفِيهِ بَقِيَّةٌ بِقَدْرِ ما تَفِرُّ مِنْهُ ، وبِاللهِ التَّوْفِيق .

عَلامَةُ اتِّباعِ الهَوَىٰ

ثُمَّ ذَكَرَ سَيِّدِي أَحْمَدُ بنُ عَطاءِ اللهِ مِيزانًا آخَرَ يُعْرَفُ بِهِ اتِّباعُ الهَوَى مِنَ الحَقِّ فَقالَ :

(مِنْ عَلامَةِ اتِّباعِ الهَوَىٰ المُسارَعَةُ إِلَى نَوافِلِ الخَيْرات ، والتَّكاسُلُ عَنِ القِيامِ بِالواجِبات) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : هَذا مِيزانٌ آخَرُ ، وإنْ شِئْتَ قُلْتَ : هُوَ داخِلٌ فِي المِيزانِ الأَوَّل ؛ إذْ مِنْ شَأْنِ النَّفْسِ أَنْ يَثْقُلَ عَلَيْها الواجِبُ لِمُشارَكَةِ النَّاسِ لَها فِيه ، إذْ جُلُّ النَّاسِ يَفْعَلُونَهُ فَلا يَظْهَرُ لَها فِيهِ مَزِيَّةٌ عَلَى غَيْرِها ، وهِيَ أَبَدًا تَحْتَ الخُصُوصِيَّة ، بِخِلافِ النَّوافِلِ فَإنَّها تَبْطِشُ إلَيْها وتُحِبُّ أَنْ تَنْفَرِدَ بِها ، إمَّا لِطَلَبِ المَدْحِ والثَّناء ، وإمَّا لِطَلَبِ الأُجُورِ مِنَ القُصُورِ والحُور ، وهَذا كُلُّهُ عِنْدَ المُحَقِّقِينَ مِنَ الحُظُوظِ الجَلِيَّةِ أَوِ الخَفِيَّة ، فالمُسارَعَةُ إلَى نَوافِلِ الخَيْراتِ وفَضائِلِ الطَّاعاتِ مَعَ التَّكاسُلِ عَنِ الفُرُوضِ الواجِباتِ مِنْ عَلامَةِ الهَوَى ، فَيَجِبُ عَلَى الإنْسانِ أَنْ يُقَدِّمَ الفَرْضَ الواجِب ، ولا يُقَدِّمَ عَلَيْهِ إلَّا ما هُوَ مِنْ كَمالِهِ كالنَّوافِلِ قَبْلَهُ وبَعْدَهُ إعانَةً عَلَى الحُضُورِ فِيه ، فَإنْ حَصَلَ الحُضُورُ اسْتَغْنَى عَنِ الوَسِيلَة ، والنَّافِلَةُ الكُبْرَى عِنْدَنا : الاسْتِغْراقُ فِي مُشاهَدَةِ مَوْلاهُ بَيْنَ فِكْرَةٍ ونَظْرَةٍ أَوْ ما يُوصِلُ إلَى هَذا المَقامِ مِنْ مُذاكَرَةٍ أَوْ ذِكْرٍ ، ومَنْ رَفَضَ الدُّنْيا بِحَذافِيرِها وغابَ عَنْ نَفْسِهِ وجِنْسِهِ فَقَدْ جَمَعَ الفَرائِضَ والنَّوافِلَ كُلَّها .

حِكْمَةُ تَوْقِيتِ الطَّاعات

ولَمَّا كانَ مِنْ شَأْنِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ التَّكاسُلُ عَنِ الطَّاعات ، قَيَّدَها الحَقُّ تَعالَى بِأَعْيانِ الأَوْقات ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(قَيَّدَ الطَّاعاتِ بِأَعْيانِ الأَوْقاتِ ، لِئَلَّا يَمْنَعَكَ عَنْها وُجُودُ التَّسْوِيف ، ووَسَّعَ عَلَيْكَ الوَقْتَ لِيُبْقِيَ لَكَ حِصَّةَ الاخْتِيار) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مِنْ شَأْنِ النَّفْسِ تَسْوِيفُ العَمَلِ وتَطْوِيلُ الأَمَل ، فَلَوْ تُرِكَتْ مَعَ اخْتِيارِها ما تَوَجَّهَتْ قَطُّ إِلَى رَبِّها .

ولَمَّا عَلِمَ الحَقُّ - سُبْحانَهُ - أَنَّ مِنْ عِبادِهِ مَنْ لا تُنْهِضُهُ المَحَبَّة ، ولا يَسُوقُهُ إِلَيْهِ مُجَرَّدُ الرَّغْبَة ، وإِنَّما تَسُوقُهُ إِلَيْهِ سَلاسِلُ الامْتِحانِ بِتَخْوِيفِ النِّيران ، أَوْ شَبَكَةُ الطَّمَعِ بِنَعِيمِ الجِنان ، أَوْعَدَ مَنْ حادَ عَنْ طاعَتِهِ بِالعَذابِ الأَلِيم ، ووَعَدَ مَنْ أَطاعَهُ وتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِالنَّعِيمِ المُقِيم ، ثُمَّ فَرَضَ عَلَيْهِمْ ما تَظْهَرُ فِيهِ طاعَتُهُ مِنَ الأَحْكامِ والفَرائِض ، وعَيَّنَ لَها أَوْقاتًا مَخْصُوصَة ؛ إِذْ لَوْ تَرَكَ ذَلِكَ لاخْتِيارِ عِبادِهِ ، ما أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِها إِلَّا القَلِيلُ مِنْ أَهْلِ مَحَبَّتِهِ ووِدادِه ، ومِنْ رَحْمَتِهِ تَعالَى أَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ فِي تِلْكَ الأَوْقات ، فَبَقِيَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ضَرْبٌ مِنَ الاخْتِيار .

فَوَسَّعَ الظُّهْرَ مَثَلًا إِلَى العَصْر ، والعَصْرَ إِلَى الاصْفِرار ، والمَغْرِبَ إِلَى العِشاء ، والعِشاءَ إِلَى نِصْفِ اللَّيْل ، والصُّبْحَ إِلَى قُرْبِ الطُّلُوع ، فَقَدْ قَيَّدَ لَكَ أَيُّها العَبْدُ الطَّاعاتِ الَّتي أَوْجَبَها عَلَيْكَ بِأَعْيانِ الأَوْقات ، لِئَلَّا يَمْنَعَكَ التَّسْوِيفُ مِنْ فِعْلِها ، فَيُؤَدِّيَ ذَلِكَ بِكَ إِلَى تَرْكِها ، ووَسَّعَ عَلَيْكَ

الوَقْتَ لِيُبْقِيَ لَكَ حِصَّةً ؛ أَيْ : ضَرْبًا ونَصِيبًا مِنَ الاخْتِيار ؛ إِذْ لَوْ ضَيَّقَ عَلَيْكَ الوَقْتَ لَكانَ ذَلِكَ فِي غايَةِ الحَرَجِ والاضْطِرار ، فالحَمْدُ للّٰهِ عَلَى مِنَّتِهِ وسَعَةِ رَحْمَتِهِ .

وقَدْ قِيلَ : ((إِنَّ اللّٰهَ سُبْحانَهُ يَقُولُ لِعَبْدِهِ : أَلَمْ أُخْرِجْكَ مِنَ العَدَمِ إِلَى الوُجُود ، وأَمُدَّكَ بِأَمْدادِ الفَضْلِ والجُود ؟ جَعَلْتُ لَكَ نُورًا فِي بَصَرِكَ لِتُدْرِكَ بِهِ أَدِلَّةَ قُدْرَتِي وعَظِيمَ آياتِي ، وجَعَلْتُ لَكَ نُورًا فِي بَصِيرَتِكَ لِتَفْهَمَ بِهِ خِطابِي ، وتَتَّقِيَ بِالطَّاعَةِ عِقابِي ، وتَرْجُوَ ثَوابِي ، فَوَعَدْتُكَ الثَّوابَ عَلَى الطَّاعَة ، وأَوْعَدْتُكَ العِقابَ عَلَى المُخالَفَة ، ثُمَّ كَلَّفْتُكَ مِنَ العَمَلِ ما تُطِيق ، ووَسَّعْتُ عَلَيْكَ فِي الأَوْقاتِ كُلَّ ضِيق ، فَلَوْ أَنَّكَ قَضَيْتَ ما أَوْجَبْتُ عَلَيْكَ فِي أَوَّلِ عُمُرِكَ فِي آخِرِهِ لَقَبِلْتُهُ مِنْكَ ، فَمَنْ ذا الَّذي مَنَعَكَ مِنَ الامْتِثال ، ولَمْ يَكُنْ بِكَ عُذْرٌ غَيْرَ الغَوايَةِ والضَّلال ؟)) .

وقَدْ قِيلَ فِي المَثَل : مَنْ طَلَبَ جاب ، ومَنْ هابَ خاب ، وانْظُرْ كَيْفَ قَرَنَ اللّٰهُ الهِدايَةَ بِالمُجاهَدَة ، وأَوْجَبَ سُبْحانَهُ عَلَى نَفْسِهِ ما لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ ؛ فَقالَ سُبْحانَهُ وهُوَ أَصْدَقُ القائِلِينَ : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ العَنْكَبُوت : الآيَة ٦٩ .

وأَنْشَدُوا فِي هَذا المَعْنَى :

لَوْ صَحَّ مِنْكَ الْهَوَى أَرْشِدْتَ لِلْحِيَلِ ۞ وَالصِّدْقُ سَيْفٌ يُنِيلُ غَايَةَ الْأَمَلِ

فَكُنْ أَخَا هِمَّةٍ تَسْمُو بِصَاحِبِهَا ۞ وَلا تَكُنْ بِالتَّوَانِي مُحْبَطَ الْعَمَلِ

وكانَ الرَّبِيعُ بنُ خَثْيَمَ يُرَدِّدُ هَذِهِ الآيَةَ ويَبْكِي ، وهِيَ قَوْلُهُ تَعالَى :

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١).

وكانَ يَصِيحُ : لَيْتَ شِعْرِي مِنْ أَيِّ الفَرِيقَيْنِ أَنْتِ يا نَفْسِي ؟ وهَذِهِ الآيَةُ تُسَمَّى مُبْكِيَةَ العابِدِين .

وقالَ سَهْلٌ رضي الله عنه فِي مَعْنَى هَذِهِ الآيَة : «لَيْسَ أَهْلُ المُوافَقَةِ كَأَهْلِ المُخالَفَةِ ، أَهْلُ المُوافَقَةِ : ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٢) ، وأَهْلُ المُخالَفَةِ فِي : ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ (٣) .

حِكْمَةُ إِيجابِ الطَّاعَة

ولَمَّا ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ حِكْمَةَ تَوْقِيتِ الطَّاعَة ، ذَكَرَ حِكْمَةَ إِيجابِها عَلَى عِبادِهِ ، فَقالَ رضي الله عنه :

---

(١) سُورَةُ الجاثِيَة : الآيَة ٢١ .

(٢) سُورَةُ القَمَر : الآيَة ٥٥ .

(٣) سُورَةُ المُلْك : مِنَ الآيَة ٥ .

(عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ العِبادِ إِلَى مُعامَلَتِهِ ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طاعَتِهِ ، فَساقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلاسِلِ الإِيجاب ، عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُساقُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلاسِلِ ، أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ طاعَتِهِ ، وما أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلَّا دُخُولَ جَنَّتِهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : هَذِهِ حِكْمَةُ التَّشْرِيع ، لَكِنَّهُ ما ذَكَرَ إِلَّا حِكْمَةَ أَهْلِ الظَّاهِر .

وحاصِلُها : أَنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ مِنْ حِكْمَتِهِ لَمَّا عَلِمَ مِنْ عِبادِهِ قِلَّةَ النُّهُوضِ إِلَى مُعامَلَتِهِ ؛ لأَنَّهُ قالَ : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ (١) ، وقالَ أَيْضًا : ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (٢) ، فَلَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ طاعَتَهُ ، وأَوْعَدَهُمْ عَلَى تَرْكِها بِالعُقُوبَة ، فَساقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلاسِلِ الإِيجاب .

ثُمَّ ذَكَرَ الشَّيْخُ حَدِيثًا وَرَدَ فِي شَأْنِ الأَسارَى ؛ إِشارَةً إِلَى أَنَّ العَبْدَ لا اخْتِيارَ لَهُ ، فَهُوَ أَسِيرٌ فِي يَدِ قُدْرَةِ القَدِير ، والحَدِيثُ مَشْهُورٌ وهُوَ قَوْلُهُ ﷺ : (عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُساقُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلاسِلِ) ؛ لأَنَّهُ ﷺ كانَ يَدْعُو إِلَى اللهِ وإِلَى دُخُولِ حَضْرَتِهِ ، فَمَنْ وافَقَهُ نَجا ، ومَنْ خالَفَهُ جَعَلَ لَهُ السِّلْسِلَةَ فِي عُنُقِهِ وساقَهُ إِلَى حَضْرَةِ رَبِّهِ ، ولَفْظُ

---

(١) سُورَةُ سَبَأ : مِنَ الآيَة ١٣ .

(٢) سُورَةُ صٓ : مِنَ الآيَة ٢٤ .

الحَدِيث : (عَجِبَ اللّهُ مِنْ قَوْمٍ يُساقُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلاسِل) .

قالَ بَعْضُ العُلَماء : ((يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى التَّعَجُّبِ المَنْسُوبِ إِلَى اللّهِ إِظْهارَ عَجَبِ هَذا الأَمْرِ لِخَلْقِهِ ؛ لأَنَّهُ بَدِيعُ الشَّأْنِ ، وهُوَ أَنَّ الجَنَّةَ الَّتي أَخْبَرَ اللّهُ بِما فِيها مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ ، والخُلُودِ فِي العَيْشِ الرَّغَدِ الدَّائِم ، ومِنْ حُكْمِ مَنْ سَمِعَ بِها مِنْ ذَوِي العَقْلِ أَنْ يُسارِعَ إِلَيْها ، ويَبْذُلَ جُهْدَهُ فِيها ويَحْتَمِلَ المَكارِهَ والمَشَقَّاتِ لِيَنالَها ، وهَؤُلاءِ يَفِرُّونَ مِنْها ويَرْغَبُونَ عَنْها حَتَّى يُقادُوا إِلَيْها بِالسَّلاسِل ؛ كَما يُقادُ إِلَى المَكارِهِ العَظِيمَةِ الَّتي تَنْفُرُ مِنْها الطِّباع)) .

ثُمَّ إِنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الانْتِفاعِ بِالمَنافِع ، فَما أَمَرَكَ بِهَذا ونَهاكَ عَنْ هَذا إِلَّا لِما لَكَ فِيهِ مِنْ جَلْبِ المَنافِعِ ودَفْعِ المَضارِّ ، أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ طاعَتِه ، وما أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلَّا دُخُولَ جَنَّتِه .

قالَ بَعْضُ الحُكَماء : واعْلَمْ أَنَّ فِي الطَّاعاتِ تَفاوُتًا ودَرَجات ، وفِي المُخالَفَةِ كَبائِرَ ودَرَكات ، قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : (إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَراءَوْنَ الغُرَفَ مِنْ فَوْقِهِمْ كَما يَرَى أَهْلُ الأَرْضِ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ فِي أُفُقِ السَّماء) ، قِيلَ : يا رَسُولَ اللّه ! تِلْكَ مَنازِلُ الأَنْبِياء ، قالَ : (والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ ! رِجالٌ آمَنُوا بِاللّهِ ، وصَدَّقُوا المُرْسَلِين) .

التَّفاوُت فِي الطَّاعات

وقالَ آخَرُ : ((النَّاسُ ثَلاثَةٌ : عَبْدٌ أَطاعَ اللّٰهَ عُبُودِيَّةً وشُكْرًا وامْتِثالًا وقِيامًا بِحَقِّ الخِدْمَة ، فَزادَهُ الوُجُوبُ شَرَفًا وعُلُوَّ دَرَجَة ، وعَبْدٌ أَطاعَ اللّٰهَ تَعْظِيمًا لِلمَوْجُوب ، فالوُجُوبُ فِي حَقِّهِ تَنْبِيهٌ وإِظْهارٌ للحِكْمَة ، وعَبْدٌ أَطاعَ اللّٰهَ خَوْفًا مِنْ عَذابِهِ ورَجاءً فِي ثَوابِهِ ، ولَوْلا ذَلِكَ ما عَبَدَهُ ، فالوُجُوبُ فِي حَقِّهِ لُطْفٌ بِهِ ، وفِي الكُلِّ خَيْرٌ ، وشَتَّانَ ما بَيْنَهُمْ)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : والتَّحْقِيقُ إِنَّما هُما قِسْمان : قِسْمٌ أَطاعَ عَلَى التَّكْلِيف ، وهُمْ أَهْلُ التَّكْثِيف ، وقِسْمٌ أَطاعَ عَلَى التَّعْظِيم وهُمْ أَهْلُ التَّعْلِيم والتَّعْرِيف ؛ أَهْلُ الحِجابِ أَطاعُوا خَوْفًا وطَمَعًا ، وأَهْلُ العِيانِ أَطاعُوا حُبًّا وشُكْرًا ، وهُوَ مَقامُ الأَنْبِياء ، وخَواصِّ الأَوْلِياء :

قالَ ﷺ : (أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا) .

فالحِكْمَةُ عِنْدَ أَهْلِ الباطِنِ فِي وُجُوبِ الخِدْمَةِ إِنَّما هِيَ إِظْهارٌ لِسَتْرِ سِرِّ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتي هِيَ فِي مَظاهِرِ العُبُودِيَّة ، فالرُّبُوبِيَّةُ بِلا عُبُودِيَّةٍ نَقْصٌ يَلْزَمُ عَلَيْهِ إِبْطالُ حِكْمَتِهِ ، والعُبُودِيَّةُ بِلا رُبُوبِيَّةٍ مُحالٌ لا يُتَصَوَّرُ وُجُودُه .

مَنْ لا وُجُودَ لِذاتِهِ مِنْ ذاتِهِ ❁ فَوُجُودُهُ لَوْلاهُ عَيْنُ مُحالِ

ولأَجْلِ هَذا المَعْنَى كانَ العارِفُونَ إذا تَحَقَّقُوا هَذا السِّرَّ ، وهُوَ أَنَّ العُبُودِيَّةَ لا وُجُودَ لَها مِنْ ذاتِها ، وإنَّما حِكْمَةُ وُجُودِها صَوْنُ سِرِّ الرُّبُوبِيَّةِ بِإظْهارِ أَحْكامِ العُبُودِيَّةِ ، وعَرَفُوا ذَلِكَ حالًا وذَوْقًا ، كانَتْ عِبادَتُهُمْ شُكْرًا ، وكانُوا فِيها مَحْمُولِينَ غَيْرَ حامِلِينَ ، عَمَلُهُمْ بِاللهِ للهِ ، فَعِبادَةُ هَؤُلاءِ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ فِي المَعْنَى ، وإنْ كانَتْ قَلِيلَةً فِي الحِسِّ ، ولا تَقِلُّ أَبَدًا ، إذْ تَصَرُّفاتُهُمْ كُلُّها عِبادَة ، نَوْمُهُمْ عِبادَة ، وأَكْلُهُمْ عِبادَة ، ومَشْيُهُمْ عِبادَة ، وفِي مِثْلِ هَؤُلاءِ وَرَدَ الحَدِيثُ : (نَوْمُ العالِمِ عِبادَة) .

وقالَ أَيْضًا : (رِجالٌ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى الفُرُشِ المُمَهَّدَة) ، قِيلَ : مَنْ هُمْ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قالَ ﷺ : (الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا) .

وقالَ أَبُو سُلَيْمان : قَدْ يُدْرِكُ العارِفُ عَلَى فِراشِهِ ما لا يُدْرِكُهُ فِي صَلاتِه .

ولا يَسْتَغْرِبُ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ بُلُوغَ هَذا المَقام ؛ فَإنَّ فَضْلَ اللهِ لا يُنالُ بِسَبَب ، وقُدْرَةَ اللهِ صالِحَةٌ لِدَرْكِ كُلِّ مَطْلَب ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِه :

(مَنِ اسْتَغْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ اللهُ مِنْ شَهْوَتِهِ ، وأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ ، فَقَدِ اسْتَعْجَزَ القُدْرَةَ الإلَهِيَّة ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : لا شَكَّ أَنَّ الحَقَّ تَعالَى لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، هُوَ الغالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ، وقُلُوبُ عِبادِهِ بِيَدِهِ يُصَرِّفُها كَيْفَ شاءَ ويُقَلِّبُها حَيْثُ شاءَ ، فَمَنْ كانَ مُنْهَمِكًا فِي الغَفْلَةِ مُسْتَغْرِقًا فِي بِحارِ الشَّهْوَةِ فَلا يَسْتَغْرِبْ أَنْ يُنْقِذَهُ اللّٰهُ مِنْ غَفْلَتِهِ وأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ شَهْوَتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْحٌ فِي إيمانِه ، وكَيْفَ يُسْتَغْرَبُ ذَلِكَ ورَبُّنا تَعالَى يَقُولُ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (١) ، وأَنْتَ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْء ؟

وقالَ تَعالَى فِي حَقِّ العُصاة : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (٢) .

وقالَ تَعالَى : ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ (٣) ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيات .

وقالَ ﷺ : (لَو أَذْنَبْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطاياكُمْ عَنانَ السَّماء ، ثُمَّ تُبْتُمْ ، لَتابَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ) .

ولْيَتَذَكَّرْ مَنْ تَقَدَّمَ قَبْلَهُ مِنْ أَهْلِ الغَفْلَةِ والعِصْيان ، ثُمَّ صارَ مِنْ أَهْلِ المُشاهَدَةِ والعِيان ، كانُوا لُصُوصًا فَصارُوا خُصُوصًا ؛ كَإِبْراهِيمَ بنِ أَدْهَم ، والفُضَيْلِ بنِ عِياض ، وأَبِي يَعْزَى ، وكَثِيرٍ مِمَّن يَتَعَذَّرُ حَصْرُهُ ،

---

(١) سُورَةُ الكَهْف : مِنَ الآيَة ٤٥ .
(٢) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٥٣ .
(٣) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ٣٩ .

وقَدْ ذَكَرَ القُشَيْرِي فِي أَوَّلِ رِسالَتِهِ مِنْهُمْ رِجالًا ، قَدَّمَهُمْ أَوَّلًا تَقْوِيَةً لِرَجاءِ المُذْنِبين .

فَيا عَجَبًا مِمَّنْ يُنْكِرُ ضَوْءَ الشَّمْسِ بَعْدَ طُلُوعِها ، ونُورَ القَمَرِ بَعْدَ ظُهُورِه ، ولَكِنْ كَما قالَ صاحِبُ البُرْدَة :

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ۞ وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ (١) .

وأَعْجَبُ مِنْهُ مَنْ يُنْكِرُ وُجُودَ شَيْخِ التَّرْبِيَةِ ، ويُقِرُّ بِانْقِطاعِ أَهْلِ الخُصُوصِيَّة .

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (٢) .

أَعْنِي : تَعْمَى عَنْ طَرِيقِ أَهْلِ الخُصُوص ، وتُبْصِرُ طَرِيقَ أَهْلِ العُمُوم ؛ كَحالِ الخُفَّاشِ يُبْصِرُ فِي الظُّلْمَةِ ولا يُبْصِرُ فِي النُّور ، فَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَعْذُور ؛ لِفَقْدِهِ ما عِنْدَ الأَقْوِياءِ مِنَ النُّور .

وقَدْ يُسَلِّطُ اللّٰهُ عَلَى عَبْدِهِ الانْهماكَ فِي الشَّهَوات ، ويَحْبِسُهُ فِي سِجْنِ الغَفَلات ، ثُمَّ يَمُنُّ عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ والتَّيَقُّظِ مِنَ الغَفْلَة ، ويُدْخِلُهُ مَعَ أَحِبَّائِهِ مَداخِلَ الحَضْرَة ؛ لِيَعْرِفَ قَدْرَ ما أَظْهَرَ اللّٰهُ عَلَيْهِ مِنَ المِنَّة ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

---

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٨٨ .
(٢) سُورَةُ الحَجِّ : مِنَ الآيَة ٤٦ .

(رُبَّما وَرَدَتِ الظُّلَمُ عَلَيْكَ لِيُعَرِّفَكَ قَدْرَ ما مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : لا شَكَّ أَنَّ نَيْلَ الشَّيْءِ بَعْدَ الطَّلَب ، أَلَذُّ وأَعَزُّ مِنَ المُساقِ بِغَيْرِ تَعَب ، والمَحَبَّةَ بَعْدَ القَطِيعَةِ أَحْلَى مِنَ المَحَبَّةِ بِلا قَطِيعَة ، والصَّفاءَ بَعْدَ الجَفاءِ أَصْفَى مِنَ الصَّفاءِ بِلا جَفاء ، وفِطامَ النَّفْسِ عَنْ مَأْلُوفاتِها وعَوائِدِها أَشَدُّ مُعالَجَةً مِنَ النَّفْسِ السَّلِسَةِ المُنْقادَةِ مِنْ غَيْرِ تَعَب ، فَيَكُونُ الأَجْرُ أَوِ القَدْرُ عَلَى قَدْرِ التَّعَب ، فَهَذِهِ حِكْمَةُ تَقْدِيمِ وُرُودِ الغَفْلَةِ والشَّهْوَةِ عَلَى العَبْد ، ثُمَّ يُنْقِذُهُ مِنْها لِيَعْلَمَ قَدْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتي أَنْعَمَ اللّهُ بِها عَلَيْه ، فَرُبَّما أَوْرَدَ عَلَيْكَ أَيُّها الإِنْسانُ الحَقُّ - تَعالَى - الظُّلَمَ (جَمْعُ الظُّلْمَة) وهِيَ الأَغْيارُ والأَكْدارُ وحُبُّ الشَّهَواتِ والعَوائِدُ ، فَتَغْرَقَ فِي بِحارِها وتُسْجَنَ فِي سُجُونِ ظُلُماتِها ، ثُمَّ يُنْقِذُكَ مِنْها فِي ساعَةٍ واحِدَةٍ ، وذَلِكَ لِتَعْرِفَ بَعْدَ الفَتْحِ قَدْرَ ما مَنَّ اللّهُ بِهِ عَلَيْكَ ، فَتَزْدادَ مَحَبَّةً وشُكْرًا ، ويَعْظُمُ السِّرُّ عِنْدَكَ مَحَلًّا وقَدْرًا ، فَتَعْرِفَ حَقَّهُ ، وتَصُونَهُ عَمَّنْ لا يَسْتَحِقُّهُ ، ولأَجْلِ هَذا جَعَلَ اللّهُ الجَنَّةَ مَحْفُوفَةً بِالمَكارِه ، لِيَعْرِفَ العِبادُ بَعْدَ دُخُولِها قَدْرَ النِّعْمَةِ الَّتي مَنَّ اللّهُ بِها عَلَيْهِمْ ، وكَذَلِكَ جَنَّةُ العارِفِ مَحْفُوفَةٌ بِالمَكارِه ، لِيَعْرِفَ العارِفُ قَدْرَ السِّرِّ الَّذي كُوشِفَ بِهِ والخَيْرِ الَّذي مَنَحَهُ اللّهُ إِيَّاه .

واعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الظُّلَمَ الَّتي تَرِدُ عَلَى القُلُوبِ فَتَحْجُبَها عَنْ عَلَّام الغُيُوب ، هِيَ ناشِئَةٌ بِحِكْمَةِ اللّٰهِ مِنَ الدُّنْيا والنَّفْسِ والشَّيْطان ، فَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيا وغابَ عَنْ نَفْسِهِ وأَطْلَقَ يَدَهُ مِنْها وذَكَرَ اللّٰهَ حَتَّى احْتَرَقَ الشَّيْطانُ وذاب ، دَخَلَ مَعَ الأَحْباب ، وفُتِحَ لَهُ عَنْ عِلْمِ الغُيُوبِ الباب .

مَتَى يَعْرِفُ قَدْرَ النِّعْمَة

ثُمَّ مَنْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْهِ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَسْرِ نَفْسِهِ ، وأَطْلَقَهُ مِنْ غَفْلَتِهِ ، فَلَمْ يَعْرِفْ هَذِهِ النِّعْمَةَ سُلِبَها مِنْ ساعَتِهِ ، كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ بِوِجْدانِها ، عَرَفَها بِوُجُودِ فُقْدانِها) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : هَذا الَّذي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ مُجَرَّبٌ صَحِيح ، وذَلِكَ أَنَّ العَبْدَ قَدْ تَتَرادَفُ عَلَيْهِ النِّعَمُ والعَوافِي ، فَلا يَعْرِفُ قَدْرَها ولا تَعْظُمُ عِنْدَهُ كُلَّ التَّعْظِيم ، فَإِذا سُلِبَها ، وضُرِبَ بِالبَلاءِ والأَوْجاعِ والمَصائِب ، فَحِينَئِذٍ يَعْرِفُ قَدْرَ العافِيَة ، وكَذَلِكَ المُرِيدُ يَكُونُ مَصْحُوبًا بِالحُضُورِ والفِكْرَةِ والنَّظْرَة ، فَلا يَعْظُمُ عِنْدَهُ قَدْرُها ، فَإِذا أَصابَتْهُ الغَفْلَةُ ، ورَجَعَ إِلَى الحِسِّ ، وفَقَدَ قَلْبُهُ ، عَرَفَ قَدْرَ ما كانَ عِنْدَهُ ، فَإِذا الْتَجَأَ

واضْطَرَّ إِلَى اللهِ ، رَدَّ إِلَيْهِ ما سَلَبَهُ .

ويَسْتَعِينُ العَبْدُ عَلَى مَعْرِفَةِ قَدْرِ النِّعَمِ بِالتَّفَكُّرِ فِيها ، وبِالتَّفَكُّرِ فِي حالِ نَفْسِهِ قَبْلَ وُجُودِها ، فَيَنْظُرُ إِذا كانَ غَنِيًّا إِلَى حالِ فَقْرِهِ المُتَقَدِّمِ حِسًّا أَوْ مَعْنًى ، ويَنْظُرُ إِذا كانَ صَحِيحًا إِلَى حالِ مَرَضِهِ ، ويَنْظُرُ إِذا كانَ طائِعًا فِي حالِ عِصْيانِهِ ، ويَنْظُرُ إِذا كانَ ذاكِرًا إِلَى وَقْتِ غَفْلَتِهِ ، ويَنْظُرُ إِذا كانَ عالِمًا إِلَى وَقْتِ جَهْلِهِ ، ويَنْظُرُ إِذا كانَ مُصاحِبًا لِشَيْخٍ عارِفٍ إِلَى وَقْتِ ضَلالَتِهِ ، ويَنْظُرُ إِذا كانَ عارِفًا إِلَى وَقْتِ جَهالَتِهِ ، وهَكَذا كُلُّ نِعْمَةٍ يَنْظُرُ إِلَى وُجُودِ ضِدِّها الَّذي كانَ مَوْجُودًا فِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَلا شَكَّ أَنَّهُ يَعْرِفُ قَدْرَها ، فَيَشْكُرَها ، فَتَدُومَ عَلَيْهِ مَعَ الزِّيادَةِ : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ .

وأَمَّا مَنْ لَمْ يَتَفَكَّرْ فِي حالِ النِّعَمِ ، فَلا يَعْرِفُ قَدْرَها ، فَيَغْفَلَ عَنْ شُكْرِها ، فَتُسْلَبَ مِنْهُ وهُوَ لا يَشْعُرُ .

قالَ بَعْضُهُمْ : شُكْرُ اللهِ تَعالَى بِاللِّسانِ هُوَ الاعْتِرافُ بِالنِّعْمَةِ عَلَى وَجْهِ الخُضُوعِ ، وشُكْرُ اللهِ بِاليَدِ : هُوَ الاتِّصافُ بِالخِدْمَةِ عَلَى وَجْهِ الإِخْلاصِ ، وشُكْرُ اللهِ بِالقَلْبِ : هُوَ مُشاهَدَةُ المِنَّةِ وحِفْظُ الحُرْمَةِ : وقالَ الجُنَيْدُ : ((أَلا تَرَى نَفْسَكَ أَهْلا لِلنِّعْمَةِ ، وأَلا تَعْصِيَ اللهَ بِنِعْمَتِهِ)) .

شُكْرُ النِّعَم

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ أَقُومُ بِشُكْرِ النِّعَم وهِيَ لا تُحْصَى ؟

قالَ ابنُ عَجِيبَة : القِيامُ بِها هُوَ الاعْتِرافُ بِها للمُنْعِم وَحْدَهُ ، وإِلَى هَذا المَعْنَى أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِه :

(لا تُدْهِشْكَ وَارِداتُ النِّعَم عَنِ القِيامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ يَتَفَكَّرُ الإِنْسانُ فِي نَفْسِهِ ، وما بِهِ مِنَ النِّعَم ، فَيَجِدُ نَفْسَهُ مَغْمُوسًا فِي النِّعَم حِسِّيَّةً ومَعْنَوِيَّةً ، فَيَنْظُرُ فِي نِعْمَةِ البَصَرِ ، فِي نِعْمَةِ السَّمْعِ ، فِي نِعْمَةِ الشَّمِّ ، فِي نِعْمَةِ الذَّوْقِ ، فِي نِعْمَةِ الكَلامِ ، فِي نِعْمَةِ العَقْلِ ، فِي نِعْمَةِ اليَدَيْنِ ، فِي نِعْمَةِ الرِّجْلَيْنِ ، فِي نِعْمَةِ الصِّحَّةِ والعافِيَة ، فِي نِعْمَةِ الكِفايَة ، فِي نِعْمَةِ الأَهْل ، فِي نِعْمَةِ الأَوْلاد ، ثُمَّ فِي نِعْمَةِ الهِدايَةِ إِلَى الإِسْلام ، ثُمَّ فِي نِعْمَةِ الإِيمان ، ثُمَّ فِي نِعْمَةِ الطَّاعَة ، ثُمَّ فِي نِعْمَةِ العِلْم ، ثُمَّ فِي نِعْمَةِ مَنْ يَسْتَعِينُ بِهِ مِنَ الأَحْباب ، ثُمَّ فِي النِّعْمَةِ الكُبْرَى ، نِعْمَةِ الشَّيْخِ فِيما أَعَدَّ اللّهُ لَهُ بَعْدَ المَوْتِ الَّذي لا نِهايَةَ لَهُ ، فَإِذا وَجَدَ نَفْسَهُ مَغْمُورًا فِي النِّعَم ، فَلا يَدْهَشْ مِنْها ويَتَحَقَّرْ فِي نَفْسِهِ عَنِ القِيامِ بِشُكْرِها ، فَإِنَّ الاعْتِرافَ

بها ومَعْرِفَتَها والإقْرارَ بها أَنَّها مِنَ اللهِ بلا واسِطَةٍ هُوَ شُكْرُها ، وقَوْلُهُ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كافٍ فِي شُكْرِ اللِّسان ، أَلا تَرَى أَنَّ الجَنَّةَ هِيَ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ ، فَكانَ شُكْرُ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيها : ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١) .

وقَدْ جاءَ فِي بَعْضِ الأَخْبارِ أَنَّ سَيِّدَنا داوُود عليه السلام : قالَ : إِلَهِي ! إِنَّ ابنَ آدَمَ لَيْسَ فِيهِ شَعْرَةٌ إِلَّا وتَحْتَها نِعْمَةٌ وفَوْقَها نِعْمَةٌ فَمِنْ أَيْنَ يُكافِئُها ؟ فَأَوْحَى اللهُ تَعالَى إِلَيْه : يا داوُود ! إِنِّي أُعْطِي الكَثِير ، وأَرْضَى بِاليَسِير ، وإِنَّ شُكْرَ ذَلِكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ما بِكَ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنِّي .

وأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ فِي هَذا المَعْنَى :

إِذَا كَانَ شُكْرُ اللهِ لِلْعَبْدِ نِعْمَةً ❁ عَلَيْهَا مِنَ اللهِ لَهُ يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ لَهُ بِالشُّكْرِ وَالشُّكْرُ نِعْمَةٌ ❁ وَلَوْ وَالَتِ الْأَحْقَابُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ

ولَمَّا كانَ أَعْظَمُ النِّعَمِ وأَشْرَفُها هُوَ دَواءُ القَلْبِ ، وشِفاؤُهُ مِنْ مَرَضِ الْهَوَى الَّذي قَيَّدَهُ فِي سِجْنِ الغَفْلَة ، وعَرَّضَهُ لِغَضَبِ المَوْلَى ، نَبَّهَ الشَّيْخُ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِيَعْرِفَ العَبْدُ قَدْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ إِذا كانَ شَفاهُ اللهُ ، أَوْ يَطْلُبَ مِنَ اللهِ إِخْراجَهُ مِنْ تِلْكَ النِّقْمَةِ إِذا لَمْ يَكُنْ شَفاهُ اللهُ ،

---

(١) سُورَةُ يُونُس : مِنَ الآيَة ١٠ .

فَقالَ ابنُ عَطاءِ اللّٰه :

(تَمَكُّنُ حَلاوَةِ الهَوَى مِنَ القَلْبِ هُوَ الدَّاءُ العُضال) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : حَلاوَةُ الهَوَى عَلَى قِسْمَيْنِ : هَوَى النَّفْس ، وهَوَى القَلْب :

فَهَوى النَّفْسِ : يَرْجِعُ لِشَهَواتِها الجِسْمانِيَّة ؛ كَحَلاوَةِ المَآكِلِ والمَشارِبِ والمَلابِسِ والمَراكِبِ والمَناكِحِ والمَساكِن .

وهَوَى القَلْب : هُوَ شَهَواتُهُ المَعْنَوِيَّة ؛ كَحُبِّ الجاهِ والرِّياسَةِ ، والعِزِّ ، والمَدْحِ والخُصُوصِيَّةِ والكَرامات ، وحَلاوَةِ الطَّاعاتِ الحِسِّيَّة ؛ كَمَقامِ العُبَّادِ والزُّهَّادِ ، وحَلاوَةِ عِلْمِ الحُرُوفِ والرُّسُوم .

فَأَمَّا عِلاجُ هَوَى النَّفْس : فَأَمْرٌ قَرِيبٌ يُمْكِنُ عِلاجُهُ بِالفِرارِ مِنْ أَوْطانِ ذَلِكَ ، والزُّهْدِ وصُحْبَةِ الأَخْيار .

وأَمَّا عِلاجُ هَوَى القَلْب إذا تَمَكَّنَ ، فَهُوَ صَعْبٌ ، وهُوَ الدَّاءُ العُضالُ الَّذي أَعْضَلَ الأَطِبَّاءَ ؛ أَيْ : أَعْجَزَهُمْ وحَبَسَهُمْ عَنْ عِلاجِهِ ، فَلا يَزِيدُهُ الدَّواءُ إِلَّا تَمَكُّنًا ، وإِنَّما يُخْرِجُهُ وارِدٌ إِلَهِيٌّ بِعِنايَةٍ سابِقَةٍ ، بِواسِطَةٍ أَوْ بِغَيْرِ واسِطَةٍ ، كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(لا يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ القَلْبِ إِلَّا خَوْفٌ مُزْعِج ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِق) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : الشَّهْوَةُ إذا تَمَكَّنَتْ مِنَ القَلْبِ صَعُبَ عِلاجُها ، فَلا يُمْكِنُ خُرُوجُها فِي العادَةِ إلَّا بِوارِدٍ قَهْرِيٍّ جَلالِيٍّ أَوْ جَمالِيٍّ ، **فالوارِدُ الجَلالِيُّ** : هُوَ خَوْفٌ مُزْعِج ، فَيُزْعِجُكَ عَنْ شَهْوَتِكَ ، ويُخْرِجُكَ عَنْ وَطَنِكَ وأَهْلِكَ ، **والوارِدُ الجَمالِيُّ** : هُوَ شَوْقٌ مُقْلِقٌ ، فَيُقْلِقُكَ عَنْ مُراداتِكَ وحُظُوظِكَ ، فَيُنْسِيكَ نَفْسَكَ ، ويُؤْنِسُكَ بِرَبِّكَ ، ولأَجْلِ صُعُوبَةِ هَذا المَرَضِ كانَ أَشَدَّ النَّاسِ حِجابًا عَنِ اللهِ العُلَماءُ ، ثُمَّ الزُّهَّادُ ؛ لأَنَّ هَذِهِ الشَّهْوَةَ خَفِيَّةٌ ؛ لأَنَّ صاحِبَها : ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (١) ، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (٢) .

أَيْ : أَضَلَّهُمْ عَنْ طَرِيقِ الخُصُوص ، وبَقَوْا فِي طَرِيقِ العُمُوم .

أَمَّا العُلَماءُ الظَّاهِرِيُّونَ : فَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لا فَضِيلَةَ فَوْقَ عِلْمِهِمْ ؛ حَتَّى إنِّي سَمِعْتُ مِنْ بَعْضِهِمْ يَقُولُ : إنَّ مَقامَ الإحْسانِ هُوَ مَقامُهُمُ الَّذي هُمْ فِيهِ مِنَ العَمَلِ بِظاهِرِ الكِتابِ والسُّنَّة ، ولا مَقامَ فَوْقَ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ إخْراجُ هَذا إلَّا بِعِنايَةٍ سابِقَة ؟

وأَمَّا العُبَّادُ والزُّهَّادُ : فَهُمْ يَقُولُونَ أَيْضًا : هَذِهِ غايَةُ المَحَبَّةِ والطَّاعَة ، ويَزِيدُهُمْ بُعْدًا ما يَرَوْنَهُ مِنَ الكَراماتِ الحِسِّيَّةِ ، فَيَزْدادُونَ حِجابًا

---

(١) سُورَةُ الجاثِيَة : مِنَ الآيَة ٢٣ .
(٢) سُورَةُ الكَهْف : مِنَ الآيَة ١٠٤ .

وتَمَكُّنًا فِي حالِهِمْ .

وأَمَّا العَوامُّ وأَهْلُ الغَفْلَةِ : فَهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى الانْقِيادِ والنُّفُوذِ إِلَى رَبِّهِمْ .

وفِي الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ قالَ : (أَكْثَرُ أَهْلِ الجَنَّةِ البُلْهُ) ؛ البُلْهُ : جَمْعُ أَبْلَه : وهُوَ الغافِلُ عَنِ الشَّرِّ ، السَّلِيمُ الصَّدْر .

ومِمَّا يَدُلُّكَ أَنَّ الشَّهْوَةَ القَلْبِيَّةَ أَصْعَبُ مِنَ الشَّهْوَةِ النَّفْسِيَّةِ قِصَّةُ آدَمَ والشَّيْطان ؛ فَإِنَّ آدَمَ عليه السلام كانَتْ شَهْوَتُهُ فِي بَطْنِهِ ، فَتَدارَكَهُ اللهُ بِعِنايَتِهِ ، والشَّيْطانُ كانَتْ شَهْوَتُهُ فِي قَلْبِهِ : ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ (١) ، فَطُرِدَ إِلَى يَوْمِ القِيامَة .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الخَوْفَ عَلَى قِسْمَيْن : خَوْفُ العَوامِّ ، وخَوْفُ الخَواصِّ .

خَوْفُ العَوامِّ مِنَ العِقابِ والعَذاب ، وخَوْفُ الخَواصِّ مِنَ القَطِيعَةِ والحِجاب .

والشَّوْقُ أَيْضًا عَلَى قِسْمَيْن : شَوْقُ العَوامِّ للحُورِ والقُصُور ، وشَوْقُ الخَواصِّ للشُّهُودِ والحُضُور .

شَوْقُ العَوامِّ لِنَعِيمِ الأَشْباح ، وشَوْقُ الخَواصِّ لِنَعِيمِ الأَرْواح .

---

(١) سُورَةُ صٓ : مِنَ الآيَة ٧٦ .

شَوْقُ العَوامِّ ناشِئٌ عَنْ قَوْلِهِ تعالَى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ (١) .

وشَوْقُ الخَواصِّ ناشِئٌ عَنْ قَوْلِهِ تعالَى : ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (٢) .

جَعَلَنا اللهُ مِنْ أَعْظَمِهِمْ قَدْرًا ، وأَكْمَلِهِمْ مَحَلًّا وفَضْلًا ، آمِنِينَ بِمَنِّهِ وكَرَمِه .

الإِخْلاصُ وسَبَبُه

فَإِذا دَخَلَ الخَوْفُ أَوِ الشَّوْقُ إِلَى القَلْبِ أَخْرَجَ كُلَّ ما فِيهِ مِنَ الأَغْيار ، ومُلِئَ بِالمَعارِفِ والأَنْوار ، فَحِينَئِذٍ تَخْلُصُ الأَعْمال ، وتَزْكُو الأَحْوال ، ويُقْبِلُ عَلَيْهِ ذُو العَظَمَةِ والجَلال ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ : **(كَما لا يُحِبُّ العَمَلَ المُشْتَرَكَ لا يُحِبُّ القَلْبَ المُشْتَرَك ، العَمَلُ المُشْتَرَكُ لا يَقْبَلُهُ ، والقَلْبُ المُشْتَرَكُ لا يُقْبِلُ عَلَيْه)** :

قالَ ابنُ عَجيبَة : **العَمَلُ المُشْتَرَكُ** : هُوَ الَّذي تَصْحَبُهُ الحُظُوظُ النَّفْسانِيَّةُ دُنْيَوِيَّةً أَوْ أُخْرَوِيَّةً ، **والقَلْبُ المُشْتَرَكُ** : هُوَ الَّذي يَكُونُ فِيهِ

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ٧٢ .
(٢) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ٧٢ .

حُبُّ السِّوَى ، فالعَمَلُ الَّذي تَصْحَبُهُ الحُظُوظُ مَدْخُولٌ ، والمَدْخُولُ غَيْرُ مَقْبُول : يَقُولُ اللّٰهُ تعالَى : (أَنا أَغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْك ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشَرِيكَهُ).

والقَلْبُ الَّذي فِيهِ حُبُّ شَيْءٍ مِنَ السِّوَى مُلَطَّخٌ بِالهَوَى ، لا يَلِيقُ لِحَضْرَةِ المَوْلَى ، قالَ تعالَى : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ (١) .

وقِيلَ : يا داوُودُ ! طَهِّرْ لِي بَيْتًا أَسْكُنُه .

وللّٰهِ دَرُّ الشَّشْتُرِي حَيْثُ يَقُولُ :

وَلِي حَبِيبٌ إِنَّمَا هُوَ غَيُورْ ❁ يَظَلُّ فِي الْقَلْبِ كَطَيْرٍ حَذُورْ

إِذَا رَأَى شَيْئًا امْتَنَعَ أَنْ يَزُورْ

فَمَنْ حَصَّنَ أَعْمالَهُ بِالإِخْلاصِ اسْتَحَقَّ القَبُولَ وكانَ مِنَ الخَواصِّ ، ومَنْ حَصَّنَ قَلْبَهُ مِنَ الأَغْيارِ امْتَلَأَ بِالعُلُومِ والأَنْوارِ ونَبَعَتْ مِنْهُ المعَارِفُ والأَسْرار .

واعْلَمْ أَنَّ العَمَلَ المُشْتَرَكَ هُوَ الَّذي يَدْخُلُهُ ثَلاثُ عِلَل : إِمَّا رِياءٌ ، أَوْ عُجْبٌ ، أَوْ طَلَبُ عِوَض .

أَمَّا الرِّياءُ : فَهُوَ الشِّرْكُ الأَصْغَر ، وقَدْ تَقَدَّمَ الحَدِيثُ : (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي ، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ) .

---

(١) سُورَةُ الحَجِّ : مِنَ الآيَة ٢٦ .

وفِي حَدِيثِ مُسْلِم : (ثَلاثَةٌ أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمْ جَهَنَّمُ يَوْمَ القِيامَة) : فَذَكَرَ القارِئَ لِغَيْرِ الله ، والشُّجاعَ الَّذي يُقاتِلُ لِغَيْرِ الله ، والغَنِيَّ الَّذي يَتَصَدَّقُ لِغَيْرِ الله .

وأَمَّا العُجْبُ : فَهُوَ رُؤْيَةُ النَّفْسِ ، وإِسْنادُ العَمَلِ إِلَيْها ، ورُؤْيَةُ المَزِيَّةِ لَها عَلَى النَّاس ، قالَ تَعالَى : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ (١) .

قِيلَ مَعْناهُ : إِذا عَمِلْتَ عَمَلًا ، فَلا تَقُلْ : عَمِلْتُ ، ولا تُظْهِرْهُ عِنْدَ مَنْ يُعَظِّمُكَ لأَجْلِ عِلْمِهِ بِذَلِك ؛ لأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (ثَلاثٌ مُهْلِكاتٌ : شُحٌّ مُطاعٌ ، وهَوًى مُتَّبَعٌ ، وإِعْجابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ) .

قالَ زَيْدُ بنُ أَسْلَم : مَعْنَى لا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ : لا تَعْتَقِدُوا أَنَّها بارَّةٌ .

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ ماهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الذُّنُوبِ : العُجْبَ) .

قالَ بَعْضُ السَّلَف : ((لأَنْ أَبِيتَ نائِمًا وأُصْبِحَ نادِمًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَبِيتَ قائِمًا وأُصْبِحَ مُعْجَبًا)) .

وقِيلَ لأُمِّنا عائِشَةَ رضي الله عنها : مَتَّى يَكُونُ الرَّجُلُ مُسِيئًا ؟ قالَتْ إِذا ظَنَّ أَنَّهُ مُحْسِنٌ .

---

(١) سُورَةُ النَّجْم : مِنَ الآيَة ٣٢ .

قِيلَ : والمُعْجَبُ أَعْمَى عَنْ آفاتِ نَفْسِهِ وعَمَلِهِ ، والعَمَلُ إذا لَمْ يُتَفَقَّدْ ضاعَ ، وإنَّما يَتَفَقَّدُ عَمَلَهُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ خَوْفُ اللّهِ وخَوْفُ ذُنُوبِهِ ، ولا يُرِيدُ الثَّناءَ عَلَى نَفْسِهِ وحَمْدَها وتَزْكِيَتَها ، ورُبَّما أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ وعَقْلِهِ ، فَيَسْتَنْكِفُ عَنْ سُؤَالِ غَيْرِهِ ، ولا يَسْمَعُ نُصْحَ ناصِحٍ لِنَظَرِهِ مَنْ سِواهُ بِنَظَرِ الاسْتِحْقار ، نَسْأَلُ اللّهَ السَّلامَةَ والعافِيَة .

وأَمَّا طَلَبُ العِوَضِ والجَزاء : فَقَدْ تَقَدَّمَ مِراراً الزَّجْرُ عَنْهُ ، وإنَّكَ إنْ طالَبْتَهُ بِالجَزاء ، طالَبَكَ بِسِرِّ الإخْلاص ، ويَكْفِي المُرِيبَ وِجْدانُ السَّلامَة ، فَكُلُّ عَمَلٍ فِيهِ بَعْضُ هَذِهِ الآفات ، فَإنَّ اللّهَ لا يَقْبَلُهُ قَبُولَ الخَواصِّ .

وأَمَّا القَلْبُ المُشْتَرَكُ : الَّذي يَدْخُلُهُ ثَلاثٌ أَيْضًا : حُبُّ الدُّنْيا ، أَوْ حُبُّ الخُصُوصِيَّة ، أَوِ النِّعَمِ الأُخَرِوِيَّة ، وكُلُّها قادِحَةٌ فِي الإخْلاص ، مُخْرِجَةٌ عَنْ دَرَجَةِ التَّوْحِيدِ الخاصِّ ، وباللّهِ التَّوْفِيق .

التَّرْغِيبُ فِي تَحْصِيلِ الأَنْوار

فَإذا رَأَيْتَ مَنْ حَبَسَتْهُ نَفْسُهُ وتَمَكَّنَ داءُ الهَوَى مِنْ قَلْبِهِ ، فاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الدَّاءُ العُضال ، فَلا يُخْرِجُهُ مِنْهُ إلَّا خَوْفٌ مُزْعِج ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِق ، فَإذا أَزْعَجَهُ الخَوْفُ أَوِ الشَّوْقُ تَفَرَّغَ قَلْبُهُ وخَلُصَ عَمَلُهُ فَيُقْبَلُ

اللهُ عَلَيْهِ ، فَإذا أَقْبَلَ عَلَيْهِ مَلأَهُ بالأَنْوار ، فَمِنْها ما يَصِلُ إِلَى سُوَيْداءِ قَلْبِهِ ، ومِنْها ما يَقِفُ عَلَى ظاهِرِ قَلْبِهِ ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(**أَنْوارٌ أُذِنَ لَها فِي الوُصُول ، وأَنْوارٌ أُذِنَ لَها فِي الدُّخُول**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **أَمَّا الأَنْوارُ الَّتي أُذِنَ لَها فِي الوُصُولِ** فَهِيَ أَنْوارُ الإيمان ، وهِيَ لأَهْلِ الدَّلِيلِ والبُرْهان ؛ لأَنَّ قُلُوبَهُمْ لَمْ تَتَفَرَّغْ مِنَ الأَغْيار ، ولَمْ تُمْحَ مِنْها صُوَرُ الآثار ، فَلَمَّا جاءَتْ ، وَجَدَتْ داخِلَ القَلْبِ مَمْلُوءًا بِصُوَرِ الآثار ، فَوَقَفَتْ فِي ظاهِرِ القَلْب .

وأَمَّا الأَنْوارُ الَّتي أُذِنَ لَها فِي الدُّخُولِ فَهِيَ أَنْوارُ الإحْسان ، مِنَ الشُّهُودِ والعِيان ؛ وذَلِكَ لأَنَّهُمْ لَمَّا فَرَّغُوا قُلُوبَهُمْ مِمَّا سِوَى رَبِّهِمْ دَخَلَتْها الأَنْوارُ فَوَجَدَتْ مُتَّسَعًا فَسَكَنَتْ سُوَيْداءَ قُلُوبِهِمْ .

وعَلامَةُ النُّورِ الواصِلِ والدَّاخِلِ أَنَّ صاحِبَ النُّورِ الواصِلِ للظَّاهِرِ فَقَط : تَراهُ تارَةً مَعَ الدُّنْيا وتارَةً مَعَ الآخِرَة ؛ تارَةً مَعَ حَظِّ نَفْسِهِ ، وتارَةً فِي حَقِّ رَبِّهِ ، تارَةً مَعَ الغَفْلَة ، وتارَةً مَعَ اليَقَظَة .

وصاحِبُ النُّورِ الدَّاخِلِ لِسُوَيْداءِ القُلُوبِ لا تَراهُ إِلَّا مَعَ رَبِّه ، لا يَشْغَلُهُ عَنْهُ حُظُوظُ الدُّنْيا ولا حُظُوظُ الآخِرَة ، غائِبًا عَنْ نَفْسِهِ ، حاضِرًا مَعَ رَبِّهِ .

قالَ بَعْضُ الحُكَماء : ((إنَّ الإيمانَ إذا كانَ فِي ظاهِرِ القَلْبِ كانَ العَبْدُ مُحِبًّا لآخِرَتِهِ ودُنْياه ، فَيَكُونُ صاحِبُهُ تارَةً مَعَ رَبِّهِ وتارَةً مَعَ نَفْسِهِ ، وبِقَدْرِ تَمَكُّنِ النُّورِ فِي القَلْبِ ودُخُولِهِ إلَيْهِ يَكُونُ بُغْضُ العَبْدِ للدُّنْيا وتَرْكُهُ لِهَواه)) .

وفِي هَذا المَعْنَى قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((النُّورُ إذا دَخَلَ القَلْبَ انْفَسَحَ وانْشَرَحَ) ، قِيلَ : فَهَلْ لَهُ مِنْ عَلامَةٍ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قالَ ﷺ : (نَعَمْ ، التَّجافِي عَنْ دارِ الغُرُور ، والإنابَةُ إلَى دارِ الخُلُود ، والتَّزَوُّدُ لِسُكْنَى القُبُور ، والتَّأَهُّبُ لِيَوْمِ النُّشُور) .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الأَنْوارَ الَّتي أُذِنَ لَها فِي الوُصُولِ عامَّةٌ لِجَمِيعِ المُؤْمِنِين ، وقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُ أَبِي الحَسَن : ((لَوْ كُشِفَ عَنْ نُورِ المُؤْمِنِ العَاصِي ، لَطَبَقَ مابَيْنَ السَّماءِ والأَرْض)) .

وأَمَّا الأَنْوارُ الَّتي أُذِنَ لَها فِي الدُّخُولِ فَهِيَ خاصَّةٌ بِالخَواصِّ أَهْلِ التَّفَرُّغِ مِنَ الأَغْيارِ ولَوَثِ الأَنْوار ، فَأَمَّا مَنْ كانَ قَلْبُهُ مَحْشُوًّا بِصُوَرِ آثارِها ، فَلا يَطْمَعْ فِي نَيْلِ أَسْرارِها ، كَما أبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(رُبَّما وَرَدَتْ عَلَيْكَ الأَنْوارُ فَوَجَدَتِ القَلْبَ مَحْشُوًّا بِصُوَرِ الآثار ، فارْتَحَلَتْ مِنْ حَيْثُ جاءَتْ) :

قال ابنُ عَجيبَة : رُبَّ هُنا للتَّكْثير ؛ أَيْ : كَثيرًا ماتَرِدُ عَلَيْكَ أَنْوارُ عالَمِ الغَيْبِ لِتُغْنِيَكَ عَنْ عالَمِ الشَّهادَةِ فَتَجِدُ قَلْبَكَ مَحْشُوًّا بِصُوَرِ عالَمِ الشَّهادَةِ فَتَرْحَلُ عَنْكَ وتَتْرُكُكَ مَحْبُوسًا فِي يَدِها .

أَوْ تَقُولُ : كَثيرًا ماتَرِدُ عَلَيْكَ أَنْوارُ المَعانِي لِتُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ الأَوانِي فَتَجِدُ قَلْبَكَ مَمْلُوءًا بِها فَتَتْرُكُكَ فِي وَسَطِها مَحْجُوبًا بِها .

أَوْ تَقُولُ : كَثيرًا ماتَرِدُ عَلَيْكَ أَنْوارُ المَلَكُوت ، فَتَجِدُ قَلْبَكَ مَحْشُوًّا بِظُلْمَةِ المُلْك ، فَتَتْرُكُكَ فِي ظُلْمَةِ الكَوْن .

أَوْ تَقُولُ : قَدْ تَرِدُ عَلَيْكَ أَنْوارُ الجَبَرُوت ، فَتَجِدُ قَلْبَكَ مَحْشُوًّا بِأَنْوارِ المَلَكُوتِ فَرِحًا بِها قانِعًا بِبَهْجَتِها ، فَتَتْرُكُكَ واقِفًا مَعَها وتُنادِي عَلَيْكَ : القَناعَةُ مِنَ اللهِ حِرْمان ، الَّذي تَطْلُبُ أَمامَك ، ولَوْ كانَ العِلْمُ يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ مَحْدُود ، لَمْ يَقُلِ اللهُ تَعالَى لِسَيِّدِ العارِفِينَ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١) .

قالَ ﷺ : (كُلُّ يَوْم لا أَزْدادُ فِيهِ عِلْمًا لا بُورِكَ لِي فِي طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ اليَوْم) ، أَوْ كَما قالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام .

فالمانِعُ للقَلْبِ مِنْ دُخُولِ الأَنْوارِ هُوَ وُجُودُ الأَغْيارِ كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ

---

(١) سُورَةُ طه : مِنَ الآيَة ١١٤ .

ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الأَغْيارِ تَمْلَأْهُ بِالمَعارِفِ والأَسْرارِ) :

قال ابنُ عَجِيبَة : **التَّفَرُّغُ** : هُوَ الخُلُوُّ مِنَ الشَّيْءِ والتَّنْظِيفُ مِنْهُ ، **والأَغْيارُ** : جَمْعُ غَيْر ، والمُرادُ بِهِ السِّوَى ، وإِنَّما جَمَعَهُ لِتَعَدُّدِ أَنْواعِهِ ؛ كَما قالُوا فِي جَمْعِ العالَمِين .

يَقُولُ ﷺ : فَرِّغْ قَلْبَكَ أَيُّها المُرِيدُ مِنَ الأَغْيار ، وهُوَ سِوَى اللهِ ، بِحَيْثُ لا يَتَعَلَّقُ قَلْبُكَ بِشَيْءٍ مِنَ الكَوْنِ عُلْوِيًّا أَوْ سُفْلِيًّا ، دُنْيَوِيًّا أَوْ أُخْرَوِيًّا ، حِسِّيًّا أَوْ مَعْنَوِيًّا ؛ كَحُبِّ الخُصُوصِيَّةِ وغَيْرِها مِنَ الحُظُوظ ، فَإِذا رَحَلَ قَلْبُكَ مِنْ هَذا العالَمِ بِالكُلِّيَّةِ ولَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا مَحَبَّةُ مَوْلاه ، فَإِنَّهُ يُمْلَأُ بِالمَعارِفِ بِحَيْثُ يَكْشِفُ عَنْكَ حِجابَ الوَهْمِ ويُذْهِبُ عَنْكَ ظُلْمَةَ الحِسِّ ، فَتُشاهِدُ الأَشْياءَ كُلَّها أَنْوارًا مَلَكُوتِيَّةً مُشاهَدَةً ذَوْقِيَّةً تَمْكِينِيَّة ، ويَمْلَؤُهُ أَيْضًا بِأَسْرارٍ وهِيَ أَسْرارُ الجَبَرُوتِ ، فَتَغِيبُ بِالجَمْعِ عَنِ الفَرْقِ ، وبِشُهُودِ الجَبَرُوتِ عَنْ شُهُودِ المَلَكُوت ، وتُكاشَفُ بِأَسْرارِ القَدَرِ فَيَهُبُّ عَلَيْكَ نَسِيمُ بَرْدِ الرِّضا والتَّسْلِيم ، وأَنْتَ فِي حَضْرَةِ النَّعِيمِ المُقِيمِ عِنْدَ المَلِكِ الكَرِيم ؛ فالأَسْرارُ عَلَى هَذا أَبْلَغُ مِنَ المَعارِف : فالمَعارِفُ أَنْوارُ المَلَكُوتِ فَيَشْهَدُ الكَوْنَ كُلَّه نُورًا ، لَكِنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَى

تِلْكَ الأَنْوارِ لِيَتَرَقَّى بِها إِلَى التَّمْكِينِ فِي شُهُودِ الذَّاتِ كافْتِقارِ القارِئِ إِلَى النَّظَرِ فِي الرُّسُومِ ، فَإِذا حَفِظَ القارِئُ المَعْنَى وتَمَكَّنَ مِنْهُ مَحا الرُّسُومَ ولَمْ يَفْتَقِرْ إِلَيْها ، كَذَلِكَ السَّالِكُ يُكْشَفُ لَهُ أَوَّلًا عَنْ نُورِ الكَوْنِ فَيَغِيبُ فِي النُّورِ عَنْ ظُلْمَةِ الحِسِّ ، ثُمَّ لا يَزالُ فِي السَّيْرِ حَتَّى يَقْبِضَ المَعْنَى ويَتَمَكَّنَ مِنْهُ ، فَلا يَحْتاجُ إِلَى مُشاهَدَةٍ ، فَيَسْتَغْنِي عَنْ نُورِ المَلَكُوتِ بِنُورِ الجَبَرُوت .

ومِنْ أَرادَ سُرْعَةَ السَّيْرِ إِلَى هَذا المَقام ، فَلْيُفَرِّغْ قَلْبَهُ ويُنَظِّفْهُ عَلَى التَّمام ، فَبِقَدْرِ التَّخْلِيَةِ تَكُونُ التَّحْلِيَة ، وبِقَدْرِ التَّصْفِيَةِ تَكُونُ التَّرْقِيَة . فَإِنْ طالَ بِالمُرِيدِ السَّفَر ، وتَأَخَّرَ عَنْهُ الفَتْحُ والظَّفَر ، فَلَمْ يُدْرِكْ هَذِهِ الأَسْرار ، ولَمْ تُكْشَفْ لَهُ تِلْكَ الأَنْوار ، فلا يُسْتَبْطَأُ مِنْ رَبِّهِ النَّوال ؛ فَإِنَّهُ جَوادٌ كَرِيم ، ولَكِنْ يُسْتَبْطَأُ مِنْهُ وُجُودُ الإِقْبال ، وإِلَى ذَلِكَ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لا تَسْتَبْطِئِ النَّوالَ ، ولَكِنِ اسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ الإِقْبال) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الحَقُّ سُبْحانَهُ جَوادٌ كَرِيمٌ حَلِيمٌ رَحِيم : ((مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ شِبْرًا تَقَرَّبَ مِنْهُ ذِراعًا ، ومَنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ ذِراعًا تَقَرَّبَ مِنْهُ باعًا ، ومَنْ أَتاهُ يَمْشِي أَتاهُ هَرْوَلَةً)) ؛ كَما فِي الحَدِيث .

فَإِنْ تَوَجَّهْتَ إِلَيْهِ بِقَلْبِكَ ثُمَّ تَأَخَّرَ الفَتْحُ مِنْ قِبَلِهِ فَلا تَسْتَبْطِئْ مِنْهُ النَّوالَ ؛ أي : العَطاء ، وهُوَ كَشْفُ الحِجاب ، ولَكِن اسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ الإِقْبال ، فَلَعَلَّ إِقْبالَكَ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ بِكُلِّيَّتِكَ ؛ فَإِنَّ اللّه سُبْحانَهُ يَقُولُ بِلِسانِ الحال : ولَيْسَ يُدْرِكُ وِصالِي كُلُّ مَنْ فِيهِ بَقِيَّة ، أَوْ كانَ بِحَرْفٍ أَوْ خَطٌّ ، وأَما لَوْ زالَتْ أَغْيارُكَ لأَشْرَقَتْ أَنْوارُكَ ، ولَوْ تَطَهَّرْتَ مِنْ جَنابَةِ الغَفْلَةِ لاسْتَحْقَقْتَ الدُّخُولَ إِلَى مَسْجِدِ الحَضْرَة ، وقَدْ يَكْمُلُ إِقْبالُكَ ويَفُوتُكَ الأَدَبُ مَعَ سَيِّدِكَ ، وهُوَ اسْتِبْطاؤُكَ النَّوال ، ولَوْ صَحَّ مِنْكَ الإِقْبال .

قالَ بَعْضُهُمْ : هَبْ أَنَّ السَّيِّدَ الكَرِيمَ أَهْلٌ لِكُلِّ فَضْلٍ وكَرَم ، أَفَتَرَى العَبْدَ يَتْرُكُ الأَدَبَ بَيْنَ يَدَي سَيِّدِهِ ، ويَكْشِفُ جِلْبابَ الحَياءِ عَنْ وَجْهِهِ ؟ فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ ، فَهُوَ بِالعُقُوبَةِ أَوْلَى مِنَ الكَرَم .

وقَدْ قالَ أَرْبابُ المَعْرِفَة : ((لأَنْ تَكُونَ صاحِبَ اسْتِقامَةٍ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ صاحِبَ كَرامَة)) ، ومَنْ باعَ نَفْسَهُ للّه ، وكانَ عَبْدًا مَمْلُوكًا لِمَوْلاه ، فَأَيَّ شَيْءٍ يَسْتَحِقُّ عَلَى مَوْلاه ؟

ثُمَّ مَنْ صَحَّ إِقْبالُهُ عَلَى اللّه ، لَمْ يُضَيِّعْ شَيْئًا مِنَ الأَوْقاتِ فِي غَيْرِ طاعَةِ مَوْلاه ، كَما نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(**حُقُوقٌ فِي الأَوْقاتِ يُمْكِنُ قَضاؤُها ، وحُقُوقُ الأَوْقاتِ لا يُمْكِنُ قَضاؤُها**) :

قال ابنُ عَجِيبَة : **أَمَّا الحُقُوقُ الَّتي فِي الأَوْقات** : فَهِيَ الطَّاعَةُ الَّتي عَيَّنَ اللّهُ تَعالَى لَها وَقْتًا مَحْدُودًا كالصَّلَواتِ الخَمْسِ والسُّنَنِ المُؤَكَّدَةِ وكَذَلِكَ الزَّكاةِ والصِّيامِ لَهُما وَقْتٌ مَحْدُودٌ فِي العام ، فَإِذا خَرَجَ وَقْتُها أَمْكَنَ قَضاؤُها وإِنْ كانَ يُسَمَّى مُفَرِّطًا ، لَكِنَّ بَعْضَ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ ، **وأَمَّا حُقُوقُ الأَوْقاتِ بِأَنْفُسِها** : فَهِيَ مُراقَبَةُ الحَقِّ أَوْ مُشاهَدَتُهُ ، كُلُّ واحِدٍ عَلَى قَدْرِ وُسْعِهِ : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [1] .

وَهَذِهِ الحُقُوقُ إِذا فاتَ وَقْتُها لا يُمْكِنُ قَضاؤُها ؛ إِذِ الوَقْتُ الثَّانِي لَهُ حَقٌّ مَخْصُوصٌ لايَسَعُ غَيْرَهُ ، فَما مِنْ لَحْظَةٍ إِلَّا ويَجِبُ عَلَيْكَ فِيها أَنْ تَكُونَ عامِلًا للّه ، مُشْتَغِلًا فِيها بِما يُوصِلُكَ إِلَى قُرْبِهِ ورِضاه ، وهَذا مَعْنَى قَوْلِ ابنِ عَطاءِ اللّه :

(**إِذْ ما مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلَّا وللّهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيد ، وأَمْرٌ أَكِيد ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ ، وأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللّهِ فِيه ؟**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : ما مِنْ وَقْتٍ أَوْ لَحْظَةٍ تَرِدُ عَلَيْكَ أَيُّها العَبْدُ إِلا وللّهِ عَلَيْكَ فِيها حَقٌّ جَدِيدٌ مِنْ ذِكْرٍ أَوْ فِكْرَةٍ أَوْ نَظْرَةٍ ، أَوْ مِنْ مُراقَبَةٍ أَوْ مُشاهَدَةٍ أَوْ

---

(١) سُورَةُ الطَّلاق : مِنَ الآيَة ٧ .

خِدْمَةٍ حِسِّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّة : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ (١) .

وأَمْرٌ أَكِيدٌ مِنَ التَّحْقِيقِ بِالعُبُودِيَّةِ والقِيامِ بِوَظائِفِ الرُّبُوبِيَّة ، فَإِنْ غَفِلْتَ عَنِ الحَقِّ الجَدِيدِ ، أَوِ الأَمْرِ الأَكِيدِ فِي وَقْتٍ ما ، ودَخَلَ الوَقْتُ الثَّانِي ، فَقَدْ فاتَكَ القَضاءُ ونَدِمْتَ عَلَى ما مَضَى ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَقْضِيَ فِي الوَقْتِ الثَّانِي حَقَّ غَيْرِه ، وهُوَ أَيْضًا لَهُ حَقٌّ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُؤَدِّيَهُ فِيه ، فَلا يُمْكِنُكَ أَنْ تَقْضِيَ حَقَّ الوَقْتِ الأَوَّلِ فِي الوَقْتِ الثَّانِي وأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللهِ فِيه ؛ أَيْ : فِي الوَقْتِ الثَّانِي .

والحاصِلُ : أَنَّ كُلَّ وَقْتٍ لَهُ حَقٌّ ، فَإِنْ فاتَ فَلا قَضاءَ لَهُ ، ولِذَلِكَ قالُوا فِي الآداب : التَّصَوُّفُ هُوَ ضَبْطُ الأَنْفاس ، وحِفْظُ الحَواس .

والأَنْفاسُ هِيَ دَقائِقُ السَّاعات ، وضَبْطُها : هُوَ عِمارَتُها بِأَنْواعِ الطَّاعات ، فَإِذا ضَيَّعَ حُقُوقَ السَّاعات ، خَرَجَ عَنْ أَدَبِ التَّصَوُّف .

أَوْقاتُ العَبْد

قالَ الشَّيْخُ أَبُو العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنه : ((أَوْقاتُ العَبْدِ أَرْبَعَةٌ لا خامِسَ لَها : نِعْمَةٌ أَوْ بَلِيَّة ، طاعَةٌ أَوْ مَعْصِيَة ، ولَهُ عَلَى عَبْدِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْها حَقٌّ ؛ فَفِي النِّعْمَةِ الشُّكْرُ ، وفِي البَلِيَّةِ الصَّبْرُ ، وفِي الطَّاعَةِ شُهُودُ

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٦٠ .

المِنَّة ، وفِي المَعْصِيَةِ اللَّجَأُ والإنابَةُ وطَلَبُ الإقالَةِ بالمَعْنَى ، وفِي هَذا المَعْنَى قالَ ﷺ : (مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وابْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وظُلِمَ فَغَفَرَ ، وأَذْنَبَ فاسْتَغْفَرَ) ثُمَّ سَكَتَ ﷺ : فَقالُوا : ما لَهُ يا رَسُولَ اللّه ؟ قالَ ﷺ : (أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهُمْ مُهْتَدُون) .

أَيْ : لَهُمُ الأَمْنُ يَوْمَ القِيامَة ، وهُمْ مُهْتَدُونَ فِي الدُّنْيا .

وقِيلَ : لَهُمُ الأَمْنُ فِي الدَّارَيْنِ ، وهُمْ مُهْتَدُونَ إِلَى حَضْرَتِهِ فِي الكَوْنَيْن .

واعْلَمْ أَنَّ القِيامَ بِحُقُوقِ الأَوْقاتِ عَلَى التَّمامِ يَكادُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَذِّرًا فِي حَقِّ البَشَر ، قالَ تَعالَى : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ (١) .

أَيْ : ما عَبَدُوهُ حَقَّ عِبادَتِهِ ، وما عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ، فَلِهَذا كانَتْ حُقُوقُ الأَوْقاتِ لا يُمْكِنُ قَضاؤُها ؛ لأَنَّها راجِعَةٌ لِحِفْظِ الأَنْفاسِ والخَطَرات ، وقَدْ أَعْيا الرِّجالَ حِفْظُها فِي حالِ الصَّلاة ، فَكَيْفَ فِي كُلِّ وَقْت ؟ لَكِنْ قَدْ ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ (٢) .

قالَ بَعْضُهُمْ : مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً ما خَطَرَ عَلَى قَلْبِي شَيْءٌ سِوَى اللّهِ تَعالَى .

وقالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَن : ((مَنْ أَحَبَّ اللّهَ لَمْ يَسْتَعْمِلْ جَوارِحَهُ إِلَّا

---

(١) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٦٧ .
(٢) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٠٥ .

فِيما يُوافِقُ مَحْبُوبَهُ ، وأَنْفاسُهُ كُلُّها مَحْفُوظَةٌ بِالطَّاعَة ، ولَوْ حِيلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الخِدْمَةِ لَفارَقَ الدُّنْيا مِنْ ساعَتِهِ ؛ لأَنَّ الطَّاعَةَ قَدْ صارَتْ غِذاءَ أَرْواحِهِمْ ، فَإِنْ فارَقُوها ماتُوا)) ، نَفَعَنا اللهُ بِهِمْ ، آمِين .

كَيْفَ يُقاسُ العُمْرُ ؟

ثُمَّ فِي تَضْيِيعِ حُقُوقِ الأَوْقاتِ تَضْيِيعُ العُمْرِ الَّذي هُوَ أَعَزُّ مِنَ الكِبْرِيتِ الأَحْمَر ، وهُوَ الَّذي نَبَّهَ عَلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(ما فاتَ مِنْ عُمْرِكَ لا عِوَضَ لَهُ ، وما حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لا قِيمَةَ لَهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : عُمْرُ المُؤْمِنِ هُوَ رَأْسُ مالِهِ ، فِيهِ رِبْحُهُ وخُسْرانُه ؛ فَمَنْ شَدَّ يَدَهُ عَلَيْهِ كانَ مِنَ الفائِزِين ، ومَنْ ضَيَّعَهُ فِي البَطالَةِ والتَّقْصِيرِ كانَ مِنَ الخاسِرِين ، فَما فاتَ مِنْهُ فِي غَيْرِ طاعَةِ رَبِّهِ لا عِوَضَ لَهُ ؛ إِذْ ما ذَهَبَ لا يَرْجِعُ أَبَدًا ، وما حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لا قِيمَةَ لَهُ تَفِي بِقَدْرِهِ ؛ إِذْ لَوِ اشْتَرَيْتَ ساعَةً مِنْهُ بِمِلْءِ الأَرْضِ ذَهَبًا لَكانَ نَزْرًا فِي حَقِّهِ ؛ لأَنَّ ساعَةً مِنْهُ تَذْكُرُ اللهَ فِيها تَنالُ بِذَلِكَ مُلْكًا كَبِيرًا ، ونَعِيمًا مُقِيمًا ، لَوْ بِيعَتِ الدُّنْيا بِحَذافِيرِها ما بَلَغَتْ مِنْهُ عُشْرَ العُشْر ، ولأَجْلِ هَذا المَعْنَى اشْتَدَّتْ مُحافَظَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ عَلَى الأَوْقات ، وبَذَلُوا مَجْهُودَهُمْ فِي اغْتِنامِ السَّاعات ، ولَمْ يَقْنَعُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ إِلَّا بِالجِدِّ والتَّشْمِير ، ولَمْ

يَسْمَحُوا لَها فِي الرَّاحَةِ والبَطالَةِ بِقَلِيلٍ ولا كَثِير ، وفِي الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : (لا تَأْتِي عَلَى العَبْدِ ساعَةٌ لا يَذْكُرُ اللهَ فِيها إِلَّا كانَتْ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ القِيامَة) .

وقالَ الإمامُ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - : ((بَقِيَّةُ عُمْرِ العَبْدِ ما لَها ثَمَنٌ ، يُدْرِكُ بِها ما فاتَ ، ويُحْيِي بِها ما ماتَ)) .

وقالَ الحَسَنُ البَصْرِي رضي الله عنه : ((أَدْرَكْتُ أَقْوامًا كانُوا عَلَى أَنْفاسِهِمْ وأَوْقاتِهِمْ أَشَدَّ حِفْظًا وأَحْرَصَ شَفَقَةً مِنْكُمْ عَلَى دَنانِيرِكُمْ ودَراهِمِكُمْ ، كَما لا يُخْرِجُ أَحَدُكُمْ دِرْهَمَهُ ولا دِينارَهُ إِلَّا فِي وُرُودِ مَنْفَعَةٍ واسْتِجْلابِ فائِدَةٍ ، كَذَلِكَ كانُوا لا يُضَيِّعُونَ نَفَسًا مِنْ أَنْفاسِهِمْ فِي غَيْرِ طاعَةٍ أَبَدًا)) .

ومِمَّا يُعِينُ عَلَى حِفْظِ الأَوْقاتِ واتِّصالِ الطَّاعاتِ الزُّهْدُ فِي السِّوَى ومَحَبَّةُ المَوْلَى ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ ، وخَدَمَهُ وخَضَعَ لَهُ ، وكانَ عَبْدًا حَقِيقَةً لَهُ ، كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(ما أَحْبَبْتَ شَيْئًا إِلا كُنْتَ لَهُ عَبْدًا ، وهُوَ لا يُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : القَلْبُ إِذا أَحَبَّ شَيْئًا أَقْبَلَ إِلَيْهِ ، وخَضَعَ لَهُ ، وأَطاعَهُ فِي كُلِّ ما يَأْمُرُهُ .

وهَذِهِ حَقِيقَةُ العُبُودِيَّة : الخُضُوعُ والطَّاعَة ، ولَيْسَ للقَلْبِ إلَّا وِجْهَةٌ واحِدَة ، ولَيْسَ للإنْسانِ إلَّا قَلْبٌ واحِد ، قالَ تَعالَى : ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ (١) .

وإذا كانَ للقَلْبِ وِجْهَةٌ واحِدَةٌ ، فَمَهْما أَقْبَلَ بِها عَلَى مَوْلاه ، أَعْرَضَ عَمَّا سِواه ، وكانَ عَبْدًا لَهُ حَقِيقَةً ، وإذا أَقْبَلَ عَلَى هَواه ، أَعْرَضَ قَطْعًا عَنْ مَوْلاه ، وكانَ عَبْدًا لِسِواه ، والحَقُّ سُبْحانَهُ لا يَرْضَى لِعَبْدِهِ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِغَيْرِهِ ، قالَ تَعالَى فِي ذَمِّ مَنْ كانَ عَبْدًا لِهَواه : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ (٢) .

فالآيَةُ نَصٌّ فِي ذَمِّ مَنْ أَحَبَّ هَواه ، واتَّخَذَ رَبًّا مِنْ دُونِ مَوْلاه .

قالَ ﷺ : (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ والدِّرْهَم والقَطِيفَة) .

زادَ فِي رِوايَةٍ : (والزَّوْجَةِ ، تَعِسَ وانْتَكَسَ ، وإذا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ) .

واعْلَمْ أَنَّ مَنْ تَخَلَّصَ مِنْ رِقِّ طَبْعِهِ ، واسْتُنْقِذَ مِنْ أَسْرِ نَفْسِهِ ، فَقَدْ تَحَقَّقَ بِمَحَبَّةِ رَبِّهِ ، والمَحَبَّةُ لَها بِدايَةٌ ووَسَطٌ ونِهايَة .

---

(١) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٤ . (٢) سُورَةُ الجاثِيَة : مِنَ الآيَة ٢٣ .

فَأَوَّلُ المَحَبَّةِ وبِدايَتُها مُلازَمَةُ امْتِثالِ الأَمْرِ واجْتِنابُ النَّهْيِ ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (١) .

ووَسَطُها لَهَجُ اللِّسانِ بِالذِّكْرِ ، وتَعَلُّقُ القَلْبِ بِشُهُودِ المَحْبُوبِ .

ونِهايَتُها لا تُدْرَكُ بِالعِبارَةِ ، ولا تَلْحَقُها الإِشارَةُ .

ومَعْنَى مَحَبَّةِ اللهِ لِعَبْدِهِ حِينَ يُقْبِلُ عَلَيْهِ هُوَ تَقْرِيبُهُ لِحَضْرَتِهِ ، وهِدايَتُهُ لِمَحَبَّتِهِ مِنْ غَيْرِ نَفْعٍ لَهُ فِي ذَلِكَ ؛ إِذْ لا تَنْفَعُهُ طاعَةُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، ولا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ ؛ إِذْ هُوَ غَنِيٌّ عَنِ الكُلِّ ، كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لا تَنْفَعُهُ طاعَتُكَ ، ولا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ ، وإِنَّما أَمَرَكَ بِهَذا ونَهاكَ عَنْ هَذا لِما يَعُودُ إِلَيْكَ ، لا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، ولا يَنْقُصُ مِنْ قَدْرِهِ إِدْبارُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الحَقُّ سُبْحانَهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ ، لا تَنْفَعُهُ طاعَةُ الطَّائِعِينَ ، ولا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ العاصِينَ ؛ فَلا تَنْفَعُهُ أَيُّها العَبْدُ طاعَتُكَ فَيَكُونَ مُحْتاجًا إِلَيْها ، تَعالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ ، ولا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ فَيَكُونَ مَقْهُورًا بِها : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (٢) ،

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ٣١ .

(٢) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ٦١ .

فَإِنَّما أَمَرَكَ بِالطَّاعَةِ لِيُقَرِّبَكَ إِلَيْه : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (١) .

وإِنَّما نَهاكَ عَنِ المَعاصِي لِما جَعَلَ فِيها مِنْ عَلامَةِ البُعْدِ عَنْ حَضْرَتِهِ ، فَما أَمَرَكَ اللّهُ بِشَيْءٍ إِلَّا وفِيهِ تَقْرِيبٌ وآدابٌ للحَضْرَة ، وما نَهى اللّهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وفِيهِ ضَرَرٌ وإِبْعادٌ عَنِ الحَضْرَة ؛ والتَّحْقِيقُ أَنَّهُ : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (٢) .

لا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ؛ لأَنَّ عِزَّتَهُ أَزَلِيَّةٌ قَدِيمَة ، ولا يُنْقِصُ مِنْ عِزِّهِ إِدْبارُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ ؛ لأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ العالَمِين .

وفِي الحَدِيثِ القُدْسِي : (لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ ما زادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، ولَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا) (٣) .

مَعْنَى وُصُولِ العَبْد

ومَعْنَى وُصُولِ العَبْدِ إِلَى مَوْلاه : عِلْمُهُ بِنُورِ عَظَمَةِ رَبِّهِ وسَناه ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ٥٦ .
(٢) سُورَةُ الأَنْبياء : الآيَة ٢٣ .
(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِه .

(وُصُولُكَ إِلَيْهِ وُصُولُكَ إِلَى العِلْمِ بِهِ ، وإِلَّا فَجَلَّ رَبُّنا أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيْءٌ ، أَوْ أَنْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : قَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الفَنِّ فِي هَذا المَقامِ اصْطِلاحاتٍ وأَلْفاظًا تَداوَلُوها بَيْنَهُمْ تَقْرِيبًا لِفَهْمِ المَعانِي :

فَمِنْها : السَّيْرُ ، والرَّحِيلُ ، وذِكْرُ المَنازِلِ ، والمَناهِلُ ، والمَقامات .

ومِنْها : الرُّجُوعُ ، والوُقُوفُ ، وكُلُّ ذَلِكَ كِنايَةً عَنْ مُجاهَدَةِ النُّفُوسِ ومُحارَبَتِها ، وقَطْعِ العَوائِقِ والعَلائِقِ عَنْها ، أَوِ الوُقُوفِ مَعَ شَيْءٍ مِنْها .

ومِنْها : الوُصُولُ ، والتَّمْكِينُ ، والسُّكُونُ ، والطُّمَأْنِينَة .

ومِنْها : المُشاهَدَةُ ، والمُكالَمَةُ ، والمُجالَسَةُ ، والمُسارَرَةُ ، وغَيْرُ ذَلِكَ ، وكُلُّ ذَلِكَ كِنايَةً عَمَّا أَدْرَكَتْهُ أَرْواحُهُمْ ، وذاقَتْهُ أَسْرارُهُمْ مِنْ عَظَمَةِ الحَقِّ وجَلالِه .

ومَعْنَى الوُصُولِ عِنْدَهُمْ تَحْقِيقُ العِلْمِ بِوُجُودِهِ وَحْدَهُ ، فَوُصُولُكَ إِلَيْهِ هُوَ شُعُورُكَ بِعَدَمِكَ حَتَّى يَكُونَ عَدَمُكَ عِنْدَكَ ضَرُورِيًّا ، وعِلْمُكَ بِوُجُودِهِ كَذَلِكَ ، وهَذا الأَمْرُ كانَ حاصِلًا لَكَ فِي نَفْسِ الأَمْر ، لَكِنْ لَمْ تَشْعُرْ بِهِ .

قالَ شَيْخُ شُيُوخِنا سَيِّدِي عَلِي : النَّاسُ كُلُّهُمْ يُشاهِدُونَ ولا يَعْرِفُون .

وسَمِعْتُ شَيْخَنا يَقُولُ : النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي البَحْر ، أَيْ : فِي بَحْرِ الوَحْدَة ، ولَكِنْ لا يَشْعُرُون ، فَوُصُولُ العَبْدِ إِلَى اللهِ تَحْقِيقُ العِلْم بِوُجُودِهِ ، والغَيْبَةُ عَنْ نَفْسِهِ وعَنْ كُلِّ ما سِواه ، وإِلَّا تَكُنْ كَذَلِكَ ؛ بِأَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ الوُصُولَ يَكُونُ حِسِّيًّا ، فَجَلَّ رَبُّنا ؛ أَيْ : تَعالَى وتَرَفَّعَ أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيْءٌ ؛ لِلُزُوم تَحَيُّزِهِ ، أَوْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ ؛ لِلُزُوم افْتِقارِهِ وحَصْرِهِ ، تَعالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

واعْلَمْ أَنَّ هَذا العِلْمَ بِاللهِ يَكُونُ كَسْبِيًّا ، ثُمَّ لا يَزالُ يَغِيبُ عَنْ نَفْسِهِ وحِسِّهِ ، سَكْرَةً بَعْدَ سَكْرَة ، وحَيْرَةً بَعْدَ حَيْرَة ، حَتَّى يَصْحُوَ ويَنْجَلِيَ عَنْهُ ضَبابُ الحِسِّ ، وسَحابُ الجَهْلِ ، وظُلْمَةُ النَّفْسِ ، فَتُشْرِقَ عَلَيْهِ شَمْسُ النَّهار ، وتَنْجَلِيَ عَنْهُ ظُلْمَةُ الأَغْيار .

وفِي ذَلِكَ قِيلَ :

لَيْلِي بِوَجْهِكَ مُشْرِقٌ ❁ وَظَلامُهُ فِي النَّاسِ سَارِ

النَّاسُ فِي سَدَفِ الظَّلام ❁ وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ

أَيْ : لَيْلُ وُجُودِي صارَ مُشْرِقًا مُضِيئًا بِسَبَبِ شُهُودِ ذاتِكَ ، وظَلامُ لَيْلِ القَطِيعَةِ سارٍ فِي جُلِّ النَّاس ، النَّاسُ فِي جَوْفِ ظُلْمَةِ الأَكْوان ، ونَحْنُ فِي ضَوْءِ شُمُوسِ العِرْفان .

ثُمَّ لا يَزالُ فِي تَرْبِيَةِ الشَّيْخِ وتَحْتَ حَضانَتِهِ ، ومَدَدُهُ سارٍ إِلَيْهِ بِقَدْرِ صِدْقِهِ حَتَّى يُسَلِّمَ لَهُ خَصِيمُ الفَرْقِ الظُّلْمانِي ، ويَنْفَرِدَ النُّورانِي ، ويُحِسُّ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ ، فَحِينَئِذٍ يَقُولُ بِلِسانِ الحال :

أَقَرَّ الخَصْمُ فارْتَفَعَ النِّزاعُ ، فَإِذا انْفَرَدَ الخَصْمُ النُّورانِي ، اسْتَمَدَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وشَرِبَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وأَخَذَ النَّصِيبَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، فَيَبْقَى وُصُولُهُ إِلَى الواسِطَةِ شُكْراً وإِحْساناً : ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ (١) .

ويُنْشِدُ حِينَئِذٍ بِلِسانِ حالِهِ ومَقالِهِ :

الْحَمْدُ لِلّٰهِ لا تَفْنَى مَحامِدُهُ ❁ وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ فِي الْآصالِ وَالْبُكَرِ
مَنْ يَهْدِهِ اللّٰهُ أَضْحَى عالِمًا فَطِنًا ❁ بِاللّٰهِ فِي كُلِّ مَا يَبْدُو مِنَ الصُّوَرِ
يَا طالِبَ الْوَصْلِ جُدْ بِالنَّفْسِ مُلْتَفِتًا ❁ عَنْهَا إِلَى مَنْزِلِ الْأَشْيَاءِ بِالْقَدَرِ
فَإِنْ ظَفِرْتَ فَأَنْتَ الْفَرْدُ وَالْعَلَمُ الـ ❁ مَنْعُوتُ بِالْحُسْنِ وَالْحُسْنَى لِذِي نَظَرِ

ومِنْها : أَيْ : مِن اصْطِلاحاتِهِمْ ذِكْرُ القُرْبِ والاسْتِشْرافِ والمُراقَبَة ؛ وفَسَّرَ الشَّيْخُ ابنُ عَطاءِ اللّٰه مَعْنَى القُرْبِ فَقالَ :

(قُرْبُكَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ مُشاهِدًا لِقُرْبِهِ ، وإِلَّا فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ ووُجُودُ قُرْبِهِ ؟) :

---

(١) سُورَةُ لُقْمان : مِنَ الآيَة ١٤ .

قالَ ابنُ عَجيبَة : إذا حَقَّقْتَ أَنَّ الأَكْوانَ ثابتَةٌ بِإِثْباتِهِ ، مَمْحُوَّةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذاتِهِ ، عَلِمْتَ عِلْمَ يَقِينٍ أَنَّ الأَكْوانَ والمَكانَ والزَّمانَ لا وُجُودَ لَها ، وأَنَّ الحَقَّ كَما كانَ وُجُودُهُ وَحْدَهُ ولا أَيْنَ ولا مَكانَ ، بَقِيَ كَذَلِكَ لا أَيْنَ ولا مَكانَ ولا زَمان ، نُورُ أَحَدِيَّتِهِ مَحا وُجُودَ الأَكْوان ، فانْتَفَى بِوُجُودِهِ الزَّمانُ والمَكان ، ولَمْ يَبْقَ إِلَّا الواحِدُ المَنَّان .

فالوُجُودُ الحَقِيقِيُّ إِنَّما هُوَ لِذاتِهِ وأَثَرِ صِفاتِهِ ، تَجَلَّى واسْتَتَر ، واخْتَفَى فِيما ظَهَر .

فَإِذا عَلِمْتَ هَذا ، عَلِمْتَ أَنَّهُ تَعالَى قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، ولا شَيْءَ إِلَّا الَّذي : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (١) .

لَكِنَّ حِكْمَةَ الحَكِيم أَثْبَتَتِ الحادِثَ والقَدِيم ، فَمَنْ فَتَحَ اللّٰهُ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ شَهِدَ عَدَمَهُ لِوُجُودِهِ ، فَأَبْصَرَ الحَقَّ مُحِيطًا بِهِ وماحِيًا لِوُجُودِهِ ، ومَنْ طَمَسَ اللّٰهُ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ لَمْ يَرَ إِلَّا الفَرْقَ ، ولَمْ يُدْرِكْ إِلَّا البُعْدَ ، فَإِذا أَرادَ اللّٰهُ أَنْ يُقَرِّبَهُ إِلَيْهِ ، فَتَحَ شُعاعَ بَصِيرَتِهِ فَيُبْصِرُ الحَقَّ قَرِيبًا مِنْهُ ومُحِيطًا بِهِ .

وقالَ الشَّيْخُ زَرُّوق رضي الله عنه فِي شَرْحِ هَذِهِ الحِكْمَة : ((القُرْبُ فِي الجُمْلَةِ

---

(١) سُورَةُ الشُّورى : مِنَ الآيَة ١١ .

عَلَى ثَلاثَةِ أَوْجُه :

أَحَدُها : قُرْبُ الكَرامَة ، وهُوَ تَقْرِيبُ الحَقِّ عَبْدَهُ حَتَّى يَكُونَ مُشاهِدًا لِقُرْبِهِ مِنْهُ ، فَيَتَوَلَّاهُ دُونَ ما سِواه .

الثَّانِي : قُرْبُ الإِحاطَة ، إِحاطَةُ العِلْمِ والقُدْرَةِ والإِرادَة ، وعُمُومِ التَّصَرُّف ، وهَذا هُوَ قُرْبُ الحَقِّ مِنْ عَبْدِه .

الثَّالِثُ : قُرْبُ المُناسَبَةِ والمَسافَة ، ولا يَصِحُّ فِي جَنابِ الرُّبُوبِيَةِ ؛ لاسْتِحالَةِ المَسافَةِ عَلَيْه ، ونَفْي مُناسَبَةِ العَبْدِ للرَّبِّ ، فَتَقْدِيرُ الكَلامِ قُرْبُكَ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ الكَرامَةِ أَنْ تَكُونَ مُشاهِدًا لِقُرْبِهِ مِنْكَ عَلَى وَجْهِ الإِحاطَةِ ، وإِلَّا فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ ووُجُودُ قُرْبِهِ عَلَى وَجْهِ التَّناسُبِ والمَسافَة ؟)) .

وإِنَّما نَقَلْتُهُ لِعِلْمِي أَنَّ الكِتابَ يُطالِعُهُ مَنْ يُحْسِنُ العَوْمَ ومَنْ لا يُحْسِنُهُ ، فَإِذا خافَ مِنَ البَحْرِ وَجَدَ جَزِيرَةً يَأْوِي إِلَيْها ، وبِاللهِ التَّوْفِيق .

ومَنْ حَصَلَ عَلَى مَقامِ القُرْبِ والوُصُولِ تَرِدُ عَلَيْهِ الحَقائِقُ العِرْفانِيَّة ، والأَسْرارُ الرَّبَّانِيَّة ، والعُلُومُ اللَّدُنِّيَّة ، تارَةً تَرِدُ مُجْمَلَةً ثُمَّ يَقَعُ التَّفْصِيل ، وتارَةً مُفَصَّلَةً وهُوَ غالِبُ وارِداتِ أَهْلِ التَّمْكِين ، والغالِبُ أَنَّ هَذِهِ الوارِداتِ إِنَّما تَرِدُ بَعْدَ الفَتْحِ والوُصُولِ ، وذَكَرَها ابنُ عَطاءٍ

اللهِ بِقَوْلِهِ :

(الحَقائِقُ تَرِدُ فِي حالَةِ التَّجَلِّي مُجْمَلَةً ، وبَعْدَ الوَعْيِ يَكُونُ البَيانُ ، فَإذا قَرَأْناهُ فاتَّبِعْ قُرآنَهُ ، ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الحَقائِقُ هِيَ ما يَرِدُ عَلَى قَلْبِ العارِفِ مِنْ تَجَلِّياتِ العُلُومِ والحِكَمِ والمَعارِفِ ، فَتارَةً تَكُونُ عُلُومًا وتارَةً تَكُونُ حِكَمًا ومَعارِفَ ، وتارَةً تَكُونُ كَشْفًا بِغَيْبٍ كانَ أَوْ سَيَكُونُ .

وحِكْمَةُ ذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ إذا تَخَلَّصَتْ وتَصَفَّتْ مِنْ غَبَشِ الحِسِّ ، كانَ غالِبُ ما يَتَجَلَّى فِيها حَقًّا .

ثُمَّ إنَّ هَذِهِ الحَقائِقَ قَدْ تَرِدُ فِي حالِ التَّجَلِّي مُجْمَلَةً ، فَيُقَيِّدُها الإنْسانُ كَما تَجَلَّتْ ، ثُمَّ يَتَفَكَّرُ فِيها فَيَتَبَيَّنُ مَعْناها ، فَبَعْدَ الوَعْيِ وهُوَ الحِفْظُ يَكُونُ البَيان .

ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِآيَةِ الوَحْيِ ؛ لأَنَّ الوَحْيَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسام : وَحْيُ إلْهام ، ووَحْيُ مَنام ، ووَحْيُ إعْلام ، ووَحْيُ أَحْكام ، فَشارَكَتِ الأَوْلِياءُ الأَنْبِياءَ فِي ثَلاثَةٍ : وَحْيِ إلْهام ، ووَحْيِ مَنام ، ووَحْيِ إعْلام وهُوَ الفَهْمُ عَنِ اللهِ ، وانْفَرَدَتِ الأَنْبِياءُ بِوَحْيِ الأَحْكام ، فالأَوْلِياءُ لَهُمْ وَحْيُ الإلْهام ؛ ويَكُونُ أَوَّلًا مُجْمَلًا فِي القَلْبِ ، فَإذا قَرَأَهُ ، أَظْهَرَ تَتَبُّعَهُ

وبَيَّنَهُ ، قالَ تعالَى : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾ (١) ؛ كما قَرَأْناهُ عَلَيْكَ ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (٢) ؛ حَتَّى تَفْهَمَهُ وتُبَيِّنَهُ للنَّاس .

كانَ ﷺ يُعالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً مَخافَةَ أَنْ يَنْساهُ ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الآيَةُ كانَ يَسْتَمِعُ لِجِبْرِيلَ ، فَإِذا فَرَغَ قَرَأَهُ كما أُنْزِلَ ، فالوَحْيُ الَّذي هُوَ وَحْيُ أَحْكام مَصُونٌ فَلا يُنْسَى ، بِخِلافِ وَحْيِ الإِلْهام ؛ فَلِذَلِكَ يَنْبَغِي للوَلِيِّ أَنْ يُقَيِّدَ تِلْكَ الوارِداتِ قَرِيبًا ؛ فَإِنَّ الحِكْمَةَ فِي حالِ التَّجَلِّي تَكُونُ كالجَبَل ، فَإِذا غَفَلَ عَنْها تَرْجِعُ كالجَمَل فَإِذا غَفَلَ عَنْها بَعْدُ رَجَعَتْ كالثَّوْر ، ثُمَّ كالكَبْش ، ثُمَّ كالبَيْضَة ، ثُمَّ تَغِيبُ ، ولِذَلِكَ كانَ شَيْخُ شُيُوخِنا سَيِّدِي عَلِي رضي الله عنه لا تُفارِقُهُ الدَّواةُ والقَلَمُ والقِرْطاسُ لِيُقَيِّدَ المَواهِبَ ، وكَذَلِكَ كانَ أَشْياخُنا ، وكانُوا يَأْمُرُونَ بِذَلِك .

الوارِدُ الإِلَهِي

ثُمَّ إِنَّ الوارِداتِ الَّتي تَتَجَلَّى بِالحَقائِقِ والعُلُوم إِنَّما هِيَ وارِداتُ أَهْلِ النِّهايَة ، وأَمَّا وارِداتُ أَهْلِ البِدايَةِ فَإِنَّها تَأْتِي قَوِيَّةً قَهَّارِيَّةً : إِمَّا بِخَوْفٍ مُزْعِج ، أَوْ شَوْقٍ مُقْلِق ؛ لِتُرَحِّلَهُ عَنْ شَهَواتِهِ وعَوائِدِهِ ، وهِيَ الَّتي ذَكَرَها الشَّيْخُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

---

(١) سُورَةُ القِيامَة : الآيَة ١٨ .
(٢) سُورَةُ القِيامَة : الآيَة ١٩ .

(مَتَى وَرَدَتِ الوارِداتُ الإلَهِيَّةُ إلَيْكَ هَدَمَتِ العَوائِدَ عَلَيْكَ ، إنَّ المُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الوارِدُ الإلَهِيُّ هُوَ قُوَّةُ شَوْقٍ أَوِ اشْتِياقٍ أَوْ مَحَبَّةٍ يَخْلُقُها اللّهُ فِي قَلْبِ العَبْدِ ، وقَدْ تَنْشَأُ عَنْ قُوَّةِ خَوْفٍ ، أَوْ هَيْبَةٍ ، أَوْ جَلالٍ ، فَتُزْعِجُهُ تِلْكَ القُوَّةُ إلَى النُّهُوضِ إلَى مَوْلاه ، فَيَخْرُجَ عَنْ عَوائِدِهِ وشَهَواتِهِ وهَواه ، ويَرْحَلَ إلَى مَعْرِفَةِ رَبِّهِ ورِضاه ، وقَدْ تَتَرادَفُ عَلَيْهِ أَنْوارُ تِلْكَ المَحَبَّةِ والشَّوْقِ فَتُغَيِّبُهُ عَنْ حِسِّهِ بِالكُلِّيَّةِ وهُوَ الجَذْبُ ، وإنَّما جَمَعَ الوارِداتِ بِاعْتِبارِ تِلْكَ المَحَبَّةِ والشَّوْق ، فَإنَّها لا تَهْدِمُ عوائِدَها إلَّا إنْ كَثُرَتْ وتَزايَدَتْ ، وتُسَمَّى أَيْضًا هَذِهِ الوارِدات : نَفَحات : قالَ ﷺ : (إنَّ للّهِ نَفَحاتٍ فَتَعَرَّضُوا لَها) .

فَمَنْ لَمْ تَرِدْ عَلَيْهِ هَذِهِ الوارِداتُ اخْتِيارًا فَلْيَتَعَرَّضْ لَها بِصُحْبَةِ العارِفِينَ أَهْلِ الإكْسِيرِ الَّذي يَقْلِبُ الأَعْيان ، فَإنْ صَحِبَهُمْ ولَمْ تَرِدْ عَلَيْهِ فَلْيَخْرِقْ عَوائِدَ نَفْسِهِ مِنَ الظَّاهِر ، فَإنَّها تَدْخُلُ مِنْهُ إلَى الباطِن ، فَمَتَى وَرَدَتْ عَلَيْكَ حِينَئِذٍ تِلْكَ الوارِداتُ الإلَهِيَّةُ هَدَمَتِ العَوائِدَ عَلَيْكَ وأَفْسَدَتْها لَدَيْكَ ، فَتَرُدُّ عِزَّكَ ذُلا ، وغِناكَ فَقْرًا ، وجاهَكَ خُمُولا ، ورِياسَتَكَ تَواضُعًا وحُنُوًّا ، وكَلامَكَ صَمْتًا ، ولَذِيذَ طَعامِكَ خَشِنًا ، وشِبَعَكَ

جُوعًا ، وكَثْرَةَ كَلامِكَ صَمْتًا ، وقَرارَكَ فِي وَطَنِكَ سِياحَةً وسَفَرًا ، هَكَذا شَأْنُ الوارِدِ الإلَهِيِّ يُخَرِّبُ العَوائِدَ ويَهْدِمُها ، فَهُوَ كَمَلِكٍ جَبَّارٍ ذِي جَيْشِ طُغاةٍ دَخَلَ قَرْيَةً أَوْ مَدِينَةً ، فَأَفْسَدَ بِناءَها ، وغَيَّرَ عَوائِدَها ، قالَ تَعالَى : ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ (١) أَيْ نَزَعُوها وخَرَّبُوها ، ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ (٢) ؛ أَيْ : رُؤَساءَها أَتْباعًا مَرْؤُوسِينَ ، ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣) ، أَيْ : هَذا شَأْنُهُمْ ، والاسْتِشْهادُ بِالآيَةِ فِي غايَةِ الحُسْنِ والمُناسَبَة .

ثُمَّ ذَكَرَ سَيِّدِي الشَّيْخُ ابنُ عَطاءِ اللهِ عِلَّةَ هَدْمِ الوارِدِ عَوائِدَ الإنْسانِ فَقالَ :

(الوارِدُ يَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّار ؛ لأَجْلِ ذَلِكَ لا يُصادِمُهُ شَيْءٌ إلَّا دَمَغَهُ ، بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى الباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإذا هُوَ زاهِق) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إنَّما كانَ الوارِدُ الَّذي يَرِدُ عَلَى قُلُوبِ السَّائِرِينَ أَوِ الطَّالِبِينَ قَوِيًّا شَدِيدًا لأَنَّهُ يَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ اسْمِهِ تَعالَى القَهَّار ؛ لِيَدْمَغَ بِقَهْرِيَّتِهِ كُلَّ ما وَجَدَ فِي النَّفْسِ أَوِ القَلْبِ مِنَ الأَغْيار ، وإنَّما قُلْنا : مِنْ حَضْرَةِ اسْمِهِ القَهَّارُ ؛ لأَنَّ الحَقَّ تَعالَى لَهُ حَضَراتٌ بِعَدَدِ أَسْمائِهِ ،

---

(١) ، (٢) ، (٣) سُورَةُ النَّمْل : مِنَ الآيَة ٣٤ .

فاسْمُهُ تَعالَى القَهَّارُ يَتَجَلَّى مِنْ حَضْرَةِ قَهْرِيَّتِهِ ، واسْمُهُ جَمِيلٌ يَتَجَلَّى مِنْ حَضْرَةِ جَمالِهِ ، واسْمُهُ جَلِيلٌ يَتَجَلَّى مِنْ حَضْرَةِ جَلالِهِ ، واسْمُهُ رَحِيمٌ يَتَجَلَّى مِنْ حَضْرَةِ رَحْمَتِهِ ، واسْمُهُ الحَلِيمُ يَتَجَلَّى مِنْ حَضْرَةِ حِلْمِهِ ، واسْمُهُ الكَرِيمُ يَتَجَلَّى مِنْ حَضْرَةِ كَرَمِهِ ، وهَكَذا ، فَكُلُّ اسْمٍ يَخْرُجُ تَجَلِّيهِ عَلَى وَفْقِ حَضْرَتِهِ ، قالَ تَعالَى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ﴾ (١) .

ولَوْ كانَ هَذا الوارِدُ الَّذي يَرِدُ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِ البِدايَةِ مِنْ حَضْرَةِ الرَّحِيمِ أَوِ الحَلِيمِ أَوِ الجَمِيلِ ما أَمْكَنَ أَنْ يَدْفَعَ بِحِكْمَةِ اللهِ ما صادَمَهُ مِنَ الباطِلِ .

وشَبَّهَ الشَّيْخُ الباطِلَ ، وهُوَ كُلُّ ما سِوَى اللهِ ، بِحَيوانٍ لَهُ دِماغٌ ، فَإِذا ضُرِبَ دِماغُهُ وتَشَتَّتَ ماتَ ، كَذَلِكَ الباطِلُ إِذا صادَمَهُ الحَقُّ أَهْلَكَهُ وتَشَتَّتَ دِماغُهُ .

فالوارِدُ الإِلَهِيُّ مَحْضُ حَقٍّ ، فَإِذا صادَمَ الباطِلَ دَمَغَهُ وقَتَلَهُ ، ولِذَلِكَ أَتَى بِالآيَةِ الَّتي نَزَلَتْ فِي شَأْنِ القُرْآنِ مَعَ الكُفْرِ ، فَإِنَّ الكُفْرَ تَشَتَّتَ واضْمَحَلَّ حِينَ نَزَلَ القُرْآن ، كَذَلِكَ السِّوَى إِذا تَجَلَّى الحَقُّ بِقَهْرِيَّةِ

---

(١) سُورَةُ الحِجْر : مِنَ الآيَة ٢١ .

نُورِهِ تَشَتَّتَ واضْمَحَلَّ .

وكانَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاس ﷺ كَثِيرًا ما يُنْشِدُ هَذِهِ الأَبْيات فِي هَذا المَعْنَى :

لَوْ عايَنَتْ عَيْنَاكَ يَوْمَ تَزَلْزَلَتْ ۞ أَرْضُ النُّفُوسِ وَدُكَّتِ الْأَجْبالُ

لَرَأَيْتَ شَمْسَ الْحَقِّ يَسْطُعُ نُورُها ۞ عِنْدَ التَّزَلْزُلِ والرِّجَالُ رِجَالُ

قالَ : والأَرْضُ : أَرْضُ النُّفُوس ، والجِبالُ : جِبالُ العَقْل .

يَعْنِي : أَنَّ الوارِدَ الإِلَهِيَّ إِذا وَرَدَ قَوِيًّا مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارِيَّتِهِ تَعالَى ، دَكَّ وُجُودَ النُّفُوسِ وتَدَكْدَكَتْ مِنْهُ جِبالُ العُقُول ، فَيُكْشَفُ لَهُ حِينَئِذٍ عَنْ أَسْرارٍ خارِجَةٍ عَنْ مَدارِكِ العُقُولِ غَيْرَ مُدْرَكَةٍ بِعِبارَةِ النُّقُول ، فَيَصِيرُ صاحِبُ هَذا الوارِدِ كُلُّهُ حَقًّا ، لا يُصادِمُ شَيْئًا إِلَّا دَمَغَهُ ، وهَذا المَعْنَى قَصَدَهُ شَيْخُ شُيُوخِنا القُطْبُ (ابنُ مَشيش) بِقَوْلِهِ : ((واقْذِفْ بِي عَلَى الباطِلِ فَأَدْمَغَهُ)) ؛ طَلَبَ أَنْ يَكُونَ حَقًّا مَحْضًا يَقْذِفُ بِهِ عَلَى السِّوَى فَيَدْمَغُهُ .

فَإِذا ذَهَبَ السِّوَى واضْمَحَلَّ بَقِيَ الحَقُّ الَّذي لا يَفْنَى ، ظاهِراً لا يَخْفَى ، كَما أَبانَ ذَلِكَ الشَّيْخُ ابنُ عَطاءِ اللّه ، فَللّهِ دَرُّهُ ما أَدَقَّ نَظَرَهُ فِي مُناسَبَةِ الكَلامِ وحُسْنِ التَّخْلِيصِ لِكُلِّ مَقامٍ حَيْثُ قالَ :

(كَيْفَ يَحْتَجِبُ الحَقُّ بِشَيْءٍ والَّذي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظاهِرٌ ومَوْجُودٌ حاضِرٌ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ كَرَّرَ الشَّيْخُ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ هَذا المَعْنَى فِي حِكَمِهِ مِرارًا ؛ تَحْرِيضًا عَلَى الجَمْع ، وتَحْذِيرًا مِنَ الفَرْق ؛ فَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الحَقَّ تَعالَى لَيْسَ مَحْجُوبًا بِشَيْءٍ ولا يَصِحُّ أَنْ يَحْتَجِبَ بِشَيْءٍ ؛ إِذْ لَوِ احْتَجَبَ بِشَيْءٍ وُجُودِيٍّ لَكانَ ذَلِكَ مِنْ أَثَرِ قُدْرَتِهِ ، وقُدْرَتُهُ لا تُفارِقُ ذاتَهُ ، فالصِّفَةُ لا تُفارِقُ المَوْصُوف ، فَما ظَهَرَ شَيْءٌ مِنْ بَحْرِ الجَبَرُوتِ إِلَّا كانَ نُورًا مِنْ أَنْوارِه ، وأَثَرًا مِنْ أَثَرِ صِفاتِهِ ، وقَدْ قالَ صاحِبُ العَيْنِيَّة :

فَأَوْصَافُهُ وَالْإِسْمُ وَالْأَثَرُ الَّذِي ۞ هُوَ الْكَوْنُ عَيْنُ الذَّاتِ وَاللّٰهُ جَامِعُ

فَلِذَلِكَ تَعَجَّبَ الشَّيْخُ مِنْ تَصَوُّرِ الحِجابِ فِي حَقِّهِ تَعالَى ، مَعَ أَنَّ كُلَّ ما يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرِ القُدْرَةِ كُلُّهُ نُورٌ مِنْ نُورِ مَلَكُوتِه ، فائِضًا مُتَدَفِّقًا مِنْ بَحْرِ جَبَرُوتِه ، فَتَحَقَّقَتِ الوَحْدَةُ وانْتَفَى الحِجابُ بِالكُلِّيَّة . فَكُلُّ مَوْجُودٍ نُورُ الحَقِّ فِيهِ حاضِرٌ مَوْجُود .

ثُمَّ إِنَّ الوارِداتِ هِيَ الأَحْوالُ ، والأَحْوالُ نَتائِجُ الأَعْمالِ فِي الغالِب ، فَلِذَلِكَ ذَكَرَ الشَّيْخُ العَمَلَ وأَمَرَكَ أَلَّا تَتْرُكَهُ حَيْثُ لَمْ تَذُقْ حَلاوَتَهُ ، والعَمَلُ مِنْهُ ما يَجِدُ العامِلُ ثَمَرَتَهُ ، وهُوَ الحالُ والحَلاوَة ، ومِنْهُ ما لا

يَجِدُ ثَمَرَتَهُ عاجِلًا ، فَلا يَنْبَغِي تَرْكُهُ ، ولا يَيْأَسُ مِنْ ثَمَرَتِهِ ، ولا مِنْ قَبُولِهِ كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لا تَيْئَسْ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لا تَجِدُ فِيهِ وُجُودَ الحُضُور ، فَرُبَّما قُبِلَ مِنَ العَمَلِ ما لَمْ تُدْرِكْ ثَمَرَتَهُ عاجِلًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ : ((مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عاجِلًا فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ القَبُول)) ، ولا يَقْتَضِي المَفْهُومُ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَجِدْ ثَمَرَتَهُ فَلَيْسَ بِمَقْبُول ، بَلْ هُوَ مَسْكُوتٌ عَنْهُ ، فَإِنْ تَوافَرَتْ فِيهِ شُرُوطُ القَبُولِ مِنْ جِهَةِ الشَّرِيعَة (إِنْ صَحِبَهُ الإِخْلاصُ والتَّقْوَى والإِتْقانُ الشَّرْعِي) فَهُوَ مَقْبُولٌ عِنْدَ اللهِ إِنْ شاءَ اللهُ ، سَواءٌ وَجَدَ ثَمَرَتَهُ أَمْ لا ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (١) .

وقالَ ﷺ : (لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ مُسَمِّعٍ ولا مُراءٍ) .

فَإِنْ كُنْتَ مُتَّقِيًا للهِ فِي ظاهِرِكَ وباطِنِكَ عَلَى قَدْرِ اسْتِطاعَتِكَ ، ومُخْلِصًا للهِ فِي أَعْمالِكَ ، ثُمَّ لَمْ تَجِدْ حَلاوَةَ العَمَلِ ولا حُضُورَ قَلْبِكَ فِيهِ ، ولَمْ تَجِدْ ثَمَرَتَهُ مِنْ أَحْوالِ الواجِدِينَ وأَذْواقِ العارِفِينَ ، فَلا تَيْأَسْ مِنْ قَبُولِهِ عِنْدَ اللهِ ، فَلَيْسَ وُجُودُ الحالِ ولا الحَلاوَةِ شَرْطًا فِي

---

(١) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ٢٧ .

العَمَل ، إنَّما هِيَ عَلامَةٌ ، والعَلامَةُ لا يَلْزَمُ طَرْدُها ، فَرُبَّما قُبِلَ مِنَ العَمَلِ ما لَمْ تُدْرِكْ ثَمَرَتَهُ عاجِلًا ، فَيُعْطِيَكَ ثَوابَهُ آجِلًا ، فَلا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَسْتَحْقِرَ عَمَلَكَ فَتَتْرُكَهُ لِعَدَمِ حُضُورِكَ فِيهِ أَوْ لِعَدَمِ وِجْدانِ حَلاوَتِهِ ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَدُومَ عَلَيْهِ حَتَّى تَجْنِيَ ثَمَرَتَهُ ، فَمَنْ قَرَعَ البابَ يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ .

فالمُرادُ مِنَ العَمَلِ القِيامُ بِرَسْمِ العُبُودِيَّة ، وتَعْظِيمُ جانِبِ الرُّبُوبِيَّة ؛ ولَيْسَ المُرادُ مِنْها طَلَبَ الأَحْوالِ والمَقامات ، فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْحٌ فِي الإِخْلاصِ عِنْدَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ الخاصِّ .

وقَدْ يَكُونُ الحالُ سَبَبًا فِي الحِجابِ لِمَنْ وَقَفَ مَعَهُ واسْتَحْلاهُ ، ولِذَلِكَ قالَ بَعْضُهُمْ : اتَّقُوا حَلاوَةَ الطَّاعَةِ فَإِنَّها سُمُومٌ قاتِلَة ، أَيْ : لِمَنْ وَقَفَ مَعَها ، ولَمْ يَنْفُذْ إِلَى شُهُودِ المَعْبُودِ بِها ، فَلا تَكُنْ عَبْدَ الحال ، وكُنْ عَبْدَ المُحَوِّلِ كَما نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لا تُزَكِّيَنَّ واردًا لا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ ، فَلَيْسَ المُرادُ مِنَ السَّحابَةِ الأَمْطار ، وإِنَّما المُرادُ مِنْها وُجُودُ الإِثْمار) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : ثَمَرَةُ الوارِدِ هُوَ هَدْمُ العَوائِدِ واكْتِسابُ الفَوائِدِ ، والتَّخْلِيَةُ مِنَ الرَّذائِلِ والتَّحْلِيَةُ بِالفَضائِل .

وإنْ شِئْتَ قُلْتَ : ثَمَرَةُ الوارِدِ الصَّادِقِ هِيَ ما يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الذِّلَّةِ والانْكِسار ، والخُشُوعِ والسَّكِينَةِ والوَقار ، والحلْمِ والزُّهْدِ والسَّخاءِ والإيثار ، والتَّخَلُّصِ مِنْ رِقِّ الشَّهَواتِ الجِسْمانِيَّةِ والعَوائِدِ النَّفْسانِيَّةِ ، والخُرُوجِ مِنْ سِجْنِ الأَكْوانِ والتَّرَقِّي إلَى فَضاءِ الشُّهُودِ والعِيانِ ، والتَّحَرُّرِ مِنْ يَدِ الأَغْيار ، والتَّمَحُّضِ إلَى تَحْقِيقِ المَعارِفِ والأَسْرار . فَإذا وَرَدَ عَلَيْكَ وارِدٌ ولَمْ يَتْرُكْ فِيكَ هَذِهِ الخِصالَ فَلا تُزَكِّهِ ، واتَّهِمْ نَفْسَكَ فِيهِ لِئَلَّا يَكُونَ شَيْطانِيًّا ؛ فَإنَّ الوارِدَ الإلَهِيَّ تَعْقُبُهُ بُرُودَةٌ وسُكُون ، وزُهْدٌ وطُمَأْنِينَةٌ وفَتْرَةٌ ، والوارِدُ الشَّيْطانِيُّ تَعْقُبُهُ حَرارَةٌ وقَساوَةٌ ، وتَكَبُّرٌ وصَوْلَةٌ ورُؤْيَةُ نَفْسٍ ، فَلَيْسَ المُرادُ مِنَ الحالِ فَرَحَهُ وخِفَّتَهُ وشَطَحَتَهُ ، إنَّما المُرادُ مِنْهُ ثَمَرَتُهُ ، فَهُوَ كَسَحابَةِ الأَمْطار ، فَلَيْسَ المُرادُ مِنْها وُجُودَ الأَمْطار ، وإنَّما المُرادُ ما يَنْشَأُ عَنْها مِنْ وُجُودِ الإثْمار ، فَلا تَطْلُبْ بَقاءَ الحال ، فَقَدْ يَكُونُ بَقاؤُهُ ضَرَراً لَكَ ، فَإنَّ دَوامَ الأَمْطارِ يَعُودُ نَفْعُهُ ضَرَراً ، وإلَى ذَلِكَ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(لا تَطْلُبَنَّ بَقاءَ الوارِداتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطَتْ أَنْوارَها ، وأَوْدَعَتْ أَسْرارَها ، فَلَكَ فِي اللّٰهِ غِنًى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ولَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : طَلَبُ الشَّيْءِ يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّتِهِ ، ومَحَبَّةُ الشَّيْءِ عُبُودِيَّةٌ لَهُ ، والحَقُّ تَعالَى لا يُحِبُّ أَنْ تَكُونَ عَبْدًا لِغَيْرِه ، فَلا تَطْلُبْ مَعَهُ حالًا ولا مَقامًا ، فَإِنْ وَرَدَتْ عَلَيْكَ الأَحْوالُ وهِيَ الوارِداتُ الإِلَهِيَّةُ ثُمَّ انْقَشَعَتْ وانْصَرَفَتْ ، فَلا تَطْلُبْ بَقاءَها بَعْدَ أَنْ بَسَطَتْ فِي قَلْبِكَ أَنْوارَها ، فَأَخْرَجَتْ مِنْهُ ظُلْمَةَ الأَغْيارِ وصُوَرَ الآثارِ ، وأَوْدَعَتْ أَسْرارَها مِنْ مَزِيدِ الإِيقانِ وشُهُودِ العِيانِ .

فَإِذا حَصَلَ لَكَ الغِنَى بِاللهِ اسْتَغْنَيْتَ عَنْ كُلِّ ما سِواه ، فَلا تَتَطَلَّعْ إِلَى بَقاءِ حالٍ ولا وارِدٍ ولا مَقام ، سِوَى شُهُودِ المَلِكِ العَلَّام ، فَتَطَلُّعُكَ إِلَى بَقاءِ حالٍ أَوْ وارِدٍ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ غِناكَ بِهِ ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(تَطَلُّعُكَ إِلَى بَقاءِ غَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وِجْدانِكَ لَهُ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : إِذْ لَوْ وَجَدْتَهُ ما طَلَبْتَ شَيْئًا ولا افْتَقَرْتَ إِلَى شَيْءٍ أَصْلًا ، فَكُلُّ مَنْ يَفْرَحُ بِالوارِدِ والحال ، فَهُوَ غَيْرُ مُتَحَقِّقٍ بِالوِصال ، وكُلُّ مَنْ يَفْتَقِرُ لِغَيْرِ اللهِ ، فَلَيْسَ بِعارِفٍ بِاللهِ ، وكُلُّ مَنْ يَحْتاجُ إِلَى شَيْءٍ أَوْ يَرْكَنُ إِلَى اللهِ فِي شَيْءٍ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ ولَيْسَ عَلَى شَيْءٍ ، ولِلهِ دَرُّ القائِلِ - ويُقالُ : إِنَّهُ الإِمامُ الغَزالِي - حَيْثُ قالَ :

كانَتْ لِقَلْبِيَ أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ ❁ فَاسْتَجْمَعَتْ مُذْ رَأَتْكَ الْعَيْنُ أَهْوَائِي
فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ ❁ وَصِرْتُ مَوْلَىٰ الْوَرَىٰ مُذْ صِرْتَ مَوْلائِي
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُمُ ❁ شُغْلًا بِذِكْرِكَ يَا دِينِي وَدُنْيَائِي

ومِنْ عَلامَةِ الغِنَى بِهِ أَيْضًا الأُنْسُ بِهِ ، والوَحْشَةُ مِنْ غَيْرِهِ ، فاللّٰهُ يُغْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ولا يُغْنِي عَنْهُ شَيْءٌ ، فَإِذا فَقَدَ حالًا أَوْ مَقامًا سِوَى شُهُودِ رَبِّهِ ، ثُمَّ اسْتَوْحَشَ مِنْهُ ، فَهُوَ بَعِيدٌ مِنَ الحَضْرَةِ ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(واسْتِيحاشُكَ بِفُقْدانِ ما سِواهُ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وُصْلَتِكَ بِهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : اسْتِيحاشُكَ بِفُقْدانِ الأَحْوالِ والوارِداتِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وُصْلَتِكَ ؛ إِذْ لَوْ وَصَلْتَ إِلَيْهِ لَمْ تَسْتَوْحِشْ مِنْ فُقْدانِ شَيْءٍ ، وفِي الحَقِيقَةِ ما فَقَدْتَ شَيْئًا .

وهَذِهِ عَلامَةُ الغِنَى بِاللّٰه : أَنَّهُ إِذا فَقَدَ شَيْئًا مِمَّا هُوَ فِي العادَةِ يُؤْلِمُ فَقْدُهُ ؛ كالوَلَدِ مَثَلًا ، أَوْ قَرِيبًا ، أَوْ فاتَتْهُ عِبادَةٌ حِسِّيَّةٌ مَثَلًا ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ للمَعْرِفَةِ ، فاللّٰهُ يُغْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وهُوَ المَقْصُودُ مِنَ العَبِيد ، قالَ اللّٰهُ تَعالَى : ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ٢٣ .

قالَ فِي ((التَّنْوير)) : اعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ سُبْحانَهُ إِنَّما يُدْخِلُكَ فِي الحالِ لِتَنالَ مِنْها ، لا لِيَنالَ مِنْكَ ، وإِنَّما جاءَتْ لِتَحْمِلَ هَدِيَّةَ التَّعْرِيفِ مِنَ اللّٰهِ إِلَيْكَ فِيها ، فَتَوَجَّهَ إِلَيْها بِاسْمِهِ المُبْدِي ، فَأَبْداها وأَبْقاها ، حَتَّى أَوْصَلَتْ إِلَيْكَ ما كانَ لَكَ فِيها ، فَلَمَّا أَدَّتِ الأَمانَةَ ، تَوَجَّهَ إِلَيْها بِاسْمِهِ المُعِيد ، فَأَرْجَعَها وتَوَفَّاها ، فَلا تَطْلُبَنَّ بَقاءَ رَسُولٍ بَعْدَ أَنْ بَلَّغَ رِسالَتَهُ ، ولا بَقاءَ أَمِينٍ بَعْدَ أَنْ بَلَّغَ أَمانَتَهُ ، وإِنَّما يَفْتَضِحُ المُدَّعُونَ بِزَوالِ الأَحْوال ، بِعَزْلِهِمْ عَنْ مَراتِبِ الإِنْزال ، هُنالِكَ يَبْدُو العُوار ، وتُنْتَهَكُ الأَسْتار ، فَكَمْ مِنْ مُدَّعٍ العِزَّ بِاللّٰه ؛ وإِنَّما غِناهُ بِطاعَتِهِ أَوْ بِنُورِهِ أَوْ فَتْحِهِ ، وكَمْ مِنْ مُدَّعٍ العِزَّ بِاللّٰه ، وإِنَّما إِعْزازُهُ بِمَنْزِلَتِهِ وصَوْلَتِهِ عَلَى الخَلْقِ ، مُعْتَمِدًا عَلَى ما ثَبَتَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَعْرِفَتِهِ ، فَكُنْ عَبْدَ اللّٰهِ لا عَبْدَ العِلَل ، وكَما كانَ لَكَ رَبًّا ولا عِلَّةَ ، فَكُنْ عَبْدًا لَهُ ولا عِلَّةَ ؛ لِتَكُونَ لَهُ كَما كانَ لَكَ)) .

نَعِيمُ الرُّوح

الكَلامُ عَلَى القُرْبِ والوِصال ، وما يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ مَقاماتِ الإِنْزالِ ونَتائِجِ الأَحْوال ، والغِنَى بِاللّٰهِ عَنْها فِي كُلِّ حال ، فَهَذا هُوَ النَّعِيمُ عَلَى الدَّوام ، والَّذي عَبَّرَ عَنْهُ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(النَّعِيمُ وإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظاهِرُهُ إِنَّما هُوَ بِشُهُودِهِ واقْترابِهِ ، والعَذابُ وإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظاهِرُهُ إِنَّما هُوَ بِوُجُودِ حِجابِهِ ، فَسَبَبُ العَذابِ وُجُودُ الحِجاب ، وإِتْمامُ النَّعِيمِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الكَرِيم) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : نَعِيمُ الرُّوحِ وعَذابُها إِنَّما هُوَ بِشُهُودِ رَبِّها واحْتِجابِها ، وذَلِكَ بَعْدَ تَخَلُّصِها مِنْ عالَمِ الأَشْباح ، وتَرَقِّيها إِلَى عالَمِ الأَرْواح ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ نَعِيمُها رُوحَ الوِصال ، ورَيْحانَ الجَمال ، وعَذابُها احْتِجابَها عَنْ شُهُودِ ذَلِكَ الجَمال ، وبُعْدَها عَنِ الكَبِيرِ المُتَعال ، وهَذا الأَمْرُ حاصِلٌ فِي دارِ الدَّوامِ لِجَمِيعِ الأَنام لأَنَّهُ تَمَيَّزَ الحَقُّ مِنَ الباطِل ، وعَرَفَ كُلُّ واحِدٍ مَثْواهُ ومُسْتَقَرَّهُ ، فَأَهْلُ الجِنانِ أَحَسُّوا بِالرِّضا والرِّضْوانِ ، فَهُمْ عالِمُونَ بِقُرْبِ الحَقِّ مِنْهُمْ ورِضاهُ عَنْهُمْ ، لَكِنَّهُمْ مُتَفاوِتُونَ فِي العِلْم ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ مِنْ وَراءِ الرِّداء ، ومِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُ داخِلَ الرِّداء .

وفِي البُخارِي : (وما بَيْنَ النَّاسِ وبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءُ الكِبْرِياءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ) .

ولا يَفْهَمُ هَذا الرِّداءَ إِلَّا أَهْلُ الأَذْواق ، وأَمَّا أَهْلُ النَّار ، فَأَحَسُّوا بِالبُعْدِ مِنَ الواحِدِ القَهَّار ، فَتَضاعَفَ عَذابُهُمْ فِي دارِ البَوار .

ولَوْ أَنَّ الحَقَّ تَعالَى تَجَلَّى لَهُمْ بِصِفَةِ جَمالِهِ لأَنْساهُمْ ذَلِكَ اليَوْمَ عَذابَهُ ؛ ولَوْ أَنَّهُ تَعالَى احْتَجَبَ عَنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لَضاقَ عَلَيْهِمْ فَسِيحُ الجِنان ، ولانْقَلَبَ نَعِيمُهُمْ نِقْمَةً وعَذابًا .

أَمَّا مَنْ كانَ فِي دارِ الدُّنْيا عارِفًا فَلا يَحْتَجِبُ الحَقُّ تَعالَى عَنْهُ ، كَما شَهِدَهُ هُنا بِوَسائِطِ أَنْوارِهِ يَشْهَدُهُ ثَمَّ بِلَطائِفِ أَسْرارِهِ ، بَلْ ثَمَّ أَوْلَى ؛ لِغَلَبَةِ المَعْنَى عَلَى الحِسِّ ، والقُدْرَةِ عَلَى الحِكْمَةِ ، وأَمَّا مَنْ كانَ هُنا مَحْجُوبًا ، فَهُوَ ثَمَّ أَيْضًا مَحْجُوب ، قالَ تَعالَى : ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ (١) .

والحاصِلُ : أَنَّ نَعِيمَ الأَرْواحِ الَّتي تُشاهِدُ مَحْبُوبَها لا يَنْقَطِعُ عَنْها ، فَنَعِيمُ العارِفِينَ لا يَنْقَطِعُ ؛ لأَنَّ قُرْبَ الحَقِّ لا يَنْقَطِعُ ، فَمَنْ بَعُدَتْ نَفْسُهُ أَحَسَّ بِالعَذابِ ولَزِمَهُ الهُمُومُ والأَحْزانُ والنَّصَبُ ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(ما تَجِدُهُ القُلُوبُ مِنَ الهُمُومِ والأَحْزانِ ، فَلِأَجْلِ ما مُنِعَتْهُ مِنْ وُجُودِ العِيان) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِنَّما كانَ سَبَبُ الهُمُومِ هُوَ فَقْدَ الشُّهُودِ ؛ لأَنَّ الحَقَّ

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٧٢ .

تَعالَى قَرِيبٌ عَلَى الدَّوام ، رَقِيبٌ عَلَى الدَّوام ، فَمَنْ كانَ قَرِيبًا مِنَ الحَبِيب ، فَكَيْفَ يُحِسُّ بِفِراقِ شَيْءٍ أَوْ فَواتِه ؟ نَظَرُ الحَبِيبِ يَغِيبُ عَنْ كُلِّ بَعِيدٍ وقَرِيب ؛ وأَيْضًا كُلُّ ما يَنْزِلُ مِنْ عِنْدِ الحَبِيبِ فَهُوَ حَبِيب ، فَلا يَلْحَقُهُ شَيْءٌ مَكْرُوهٌ عِنْدَهُ حَتَّى يَهْتَمَّ بِهِ ، ولا يَفُوتُهُ مَحْبُوبٌ سِوَى مَحْبُوبِهِ حَتَّى يَحْزَنَ عَلَيْه ، فَفِي مَحْبُوبِهِ اجْتَمَعَتِ المَحاسِنُ كَما قالَ القائِلُ :

تَـذَلَّلْ لَـهُ تَحْظَـى بِرُؤْيَـا جَـمَالِـهِ ❁ فَفِي وَجْهِ مَنْ تَهْوَى الْفَرائِضُ وَالنَّفْلُ

ومِمَّا أَوْحَى اللّٰهُ إِلَى سَيِّدِنا داوُود عَلَيْهِ السَّلَامُ : (يا داوُود ! لا تَمْزِجْ هَمَّ غَيْرِي بِقَلْبِكَ ، فَتَنْتَقِصَ مِنْهُ حَلاوَةَ الرُّوحانِيِّينَ : يا داوُود ! أَنا مِصْباحُ قُلُوبِ الرُّوحانِيِّين ، ومَنْ كُنْتُ مِصْباحَ قَلْبِهِ لَمْ يَغْتَمَّ أَبَدًا ، يا داوُود ! إِنَّما مُرادِي مِنْ خَلْقِي أَنْ يَكُونُوا رُوحانِيِّين) .

وبِالجُمْلَةِ مَنْ كانَ عَبْداً للّٰه ، غائِبًا عَمَّا سِواه ، لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الهَمِّ ؛ لأَنَّهُ قَدْ حَصَلَتْ لَهُ المَعِيَّةُ الَّتي تُوجِبُ النَّصْرَ والظَّفَرَ بِكُلِّ ما يُرِيدُ ، أَلا تَرَى قَوْلَ سَيِّدِنا رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ لِسَيِّدِنا أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (١) ، حِينَ أَحْدَقَ بِهِ المُشْرِكُونَ ، فَكانَ ﷺ

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ٤٠ .

فِي مَحَلِّ العِيان ، فَلَمْ يُهِمَّهُ شَيْءٌ ، ولَمْ تَقْرُبْ مِنْ ساحَتِهِ الأَحْزان ، وكانَ سَيِّدُنا أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه فِي ذَلِكَ الوَقْتِ مُوقِنًا غَيْرَ مُشاهِدٍ ، فَدَلَّهُ الحَبِيبُ الأَعْظَم ﷺ عَلَى مَقامِ الكَمال ؛ لأَنَّ الشُّهُودَ فَوْقَ الإِيقان ، وأَنْشَدُوا :

كَبُرَ الْعِيَانُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ ❁ صَارَ الْيَقِينُ مِنَ الْعِيَانِ تَوَهُّمَا

ومِنْ جُمْلَةِ ما وَقَعَ مِنَ الاهْتِمام بِهِ لِمَنْ لَمْ يَكْمُلْ يَقِينُهُ أَمْرُ الرِّزْقِ وخَوْفُ الخَلْقِ ، حَتَّى قالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَن رضي الله عنه : ((مَنْ ضَمِنَهُما لِي ، ضَمِنْتُ لَهُ الولايَة)) ، أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ إِلَى الأَوَّلِ بِقَوْلِهِ :

(مِنْ تَمامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ أَنْ يَرْزُقَكَ ما يَكْفِيكَ ، ويَمْنَعَكَ ما يُطْغِيكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مِنْ تَمام نِعْمَةِ اللهِ عَلَى عَبْدِهِ أَنْ يُوَجِّهَ هِمَّتَهُ إِلَيْه ، ويُفَرِّغَ قَلْبَهُ مِنَ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِهِ كائِنًا ما كانَ ، فَيَرْزُقَهُ ما يَكْفِيهِ عَنِ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِهِ وهُوَ الغِنَى بِاللهِ ، إِذْ لا نِعْمَةَ أَعْظَمُ مِنَ الغِنَى بِاللهِ ، والغَيْبَةِ عَمَّا سِواه ، ويَكْفِيهِ كُلَّ ما يُطْغِيهِ حَتَّى يَشْتَغِلَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ ، فَإِذا رَزَقَكَ الحَقُّ تَعالَى ما يَكْفِيكَ لِقِيام بَشَرِيَّتِكَ أَكْلًا ولِباسًا ومَسْكَنًا ، ولِقِيام رُوحانِيَّتِكَ عِلْمًا وعَمَلًا وذَوْقًا ومَعْرِفَةً ، ومَنَعَكَ ما يُطْغِيكَ ويَشْغَلُكَ عَنْ حُضُورِكَ مَعَ رَبِّكَ ، فَقَدْ أَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، فاشْكُرْهُ عَلَى

ما أَسْدَى إِلَيْكَ ، وتَوَجَّهْ إِلَيْهِ وَحْدَهُ فِيما تَعَذَّرَ عَلَيْكَ ، وادْفَعْ ما يَشْغَلُ قَلْبَكَ مِنَ النُّهُوضِ إِلَيْه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ (١) ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (٢) .

وقَدِ اسْتَعاذَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - مِمَّا يَشْغَلُ القَلْبَ ويُنْسِي الرَّبَّ فَقْراً أَوْ غِنًى ، فَكانَ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الفَقْرِ المُنْسِي ، والغِنَى المُطْغِي ، وقال : (اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا) .

وقالَ ﷺ : (خَيْرُ الذِّكْرِ الخَفِيُّ) أَيْ : فِي القَلْبِ ، وهُوَ الفِكْرَة ، (وخَيْرُ الرِّزْقِ ما يَكْفِي) .

وقالَ ﷺ : (ما طَلَعَتْ شَمْسٌ إِلَّا وبِجَناحَيْها مَلَكانِ يُسْمِعانِ الخَلائِقَ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ : أَيُّها النَّاسُ ! هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ، ما قَلَّ وكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وأَلْهَى) .

وقالَ ﷺ : (لَيْسَ الغِنَى بِكَثْرَةِ العَرَضِ ، إِنَّما الغِنَى غِنَى النَّفْسِ) .

دَوامُ الفَرَح

وإِنَّما كانَتِ الكِفايَةُ نِعْمَةً ، والزِّيادَةُ عَلَيْها نِقْمَةً ، كَما قالَ الشَّيْخُ ؛ لأَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ العَطاءِ وكَراهِيَةِ الفَقْدِ ، فَإِذا أَعْطاها

---

(١) سُورَةُ الحَجِّ : مِنَ الآيَة ٣٨ .
(٢) سُورَةُ النَّحْل : الآيَة ١٢٨ .

فَرِحَتْ ، وإذا أَزالَ عَنْها حَزِنَتْ ، فَمَنْ أَرادَ أَنْ يَدُومَ فَرَحُهُ ، فَلا يَأْخُذْ فَوْقَ كِفايَتِهِ ما يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِه ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(لِيَقِلَّ ما تَفْرَحُ بِهِ ، يَقِلَّ ما تَحْزَنُ عَلَيْه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : فَإِذا أَرَدْتَ أَنْ يَدُومَ سُرُورُكَ فَلا تَمْلِكْ شَيْئًا تَحْزَنُ عَلَى فَقْدِهِ ؛ لأَنَّ حُزْنَكَ عَلَى فَقْدِهِ دَلِيلُ مَحَبَّتِكَ لَهُ ، فَإِذا اقْتَصَرْتَ عَلَى الضَّرُورَةِ والحاجَةِ مِنْ مالٍ أَوْ جاهٍ أَوْ عِزٍّ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، فَلا تَجِدُ ما تَفْقِدُهُ حَتَّى تَحْزَنَ عَلَيْه .

وهُنا مِيزانٌ آخَرُ أَحْسَنُ مِنْ هَذا ، وهُوَ أَنَّكَ أُطْلِقْتَ مِنْ نَفْسِكَ ، وجَعَلْتَها غَرَضًا لِسِهامِ أَقْدارِ رَبِّكَ ، لا تُعارِضُهُ فِيما يَفْعَلُ بِكَ ، لا شَكَّ أَنَّكَ تَسْتَرِيحُ ويَدُومُ فَرَحُكَ ؛ لأَنَّكَ حِينَئِذٍ مُنْتَظِرٌ ما يَبْرُزُ مِنْ عِنْدِ الحَبِيب ، فَتَتَلَقَّاهُ بِالرِّضا والتَّرْحِيب ، وهَذِهِ حَلاوَةُ بَرْدِ الرِّضا والتَّسْلِيم ؛ فَإِنْ صَحِبَها شُهُودُ الفاعِلِ المُخْتار ، فَهُوَ النَّعِيمُ المُقِيم ؛ وهَذِهِ هِيَ الوِلايَةُ الكُبْرَى ؛ مَنْ تَقَلَّدَها لا يُعْزَلْ عَنْها أَبَداً كَما أَشارَ إِلَى ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(إِنْ أَرَدْتَ أَلَّا تُعْزَلَ فَلا تَتَوَلَّ وِلايَةً لا تَدُومُ لَكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الوِلايَةُ الَّتي لا تَدُومُ هِيَ الوِلايَةُ الَّتي تَأْتِي مِنْ جِهَةِ

الفَرْق ، وهِيَ وِلايَةُ الخَلْق ؛ كَخُطَّةِ السَّلْطَنَةِ والقَضاءِ والقِيادَةِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الخُطَطِ الَّتي قَلَّدَها اللّٰهُ بَعْضَ عِبادِهِ ، ويَدْخُلُ فِيها أَيْضًا وِلايَةُ المالِ إِذا كانَ يُعَظَّمُ مِنْ أَجْلِهِ ، أَوِ النَّسَبِ إِذا كانَ خالِيًا عَنِ التَّقْوَى ، أَوِ العِلْمِ إِذا كانَ خالِيًا عَنِ العَمَل ، وغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ رِياسَةِ الدُّنْيا ، فَإِنَّها تَفْنَى وتَنْقَطِعُ ، ويَعْقُبُها ذُلٌّ وفَقْرٌ ؛ والوِلايَةُ الَّتي تَدُومُ هِيَ الوِلايَةُ الَّتي تَأْتِي مِنْ جِهَةِ الجَمْع ، وهِيَ العِزُّ بِاللّٰهِ ، والغِنَى بِهِ ، والمَعْرِفَةُ لَهُ ، والغَيْبَةُ عَمَّا سِواهُ ، فَلا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ وِلايَةٌ لا تَنْقَطِعُ ، وشَرَفٌ لا يَنْفَدُ ، وعِزٌّ لا يَبِيدُ .

يُحْكَى أَنَّ سَيِّدِي عَبْدَ اللّٰهِ بنَ المُبارَك ، وكانَ مِنْ تابِعِي التَّابِعِينَ ، ومِنَ العُلَماءِ العامِلِينَ الزَّاهِدِينَ ، قَدِمَ عَلَى هارُونَ الرَّشِيدِ ، فَلَمَّا دَخَلَ المُعَسْكَرَ ، انْكَبَّ عَلَيْهِ العَسْكَرُ لِزِيارَتِهِ ، فَوَقَعَ مِنَ الازْدِحامِ ضَجَّةٌ كَبِيرَةٌ حَتَّى تَقَطَّعَتِ النِّعالُ وارْتَفَعَتِ الغَبَرَةُ ، فَأَشْرَفَتْ أُمُّ وَلَدِ هارُونَ مِنْ قَصْرِ الخَشَب ، فَلَمَّا رَأَتْ كَثْرَةَ النَّاسِ وازْدِحامَهُمْ ، قالَتْ : ما هَذا ؟ قالُوا لَها : هَذا عالِمُ خُراسان ؛ فَقالَتْ : هَذا واللّٰهِ هُوَ المُلْكُ والعِزُّ ، لا مُلْكُ هارُونَ الَّذي يَجْمَعُ النَّاسَ بِالسَّوْطِ والعِصِيِّ .

وأَيْضًا الوِلايَةُ الَّتي تَدُومُ تَنْسَحِبُ عَلَيْهِ وعَلَى ذُرِّيَّتِهِ ، ثُمَّ تَدُومُ فِيهِمْ

عَلَى قَدْرِ جاهِهِ عِنْدَ اللهِ ، وعَظِيمِ وِلايَتِهِ ، فَكُلُّ مَنْ عَظُمَتْ وِلايَتُهُ دامَتْ عَلَى أَوْلادِهِ وأَتْباعِهِ بِقَدْرِ تِلْكَ الوِلايَةِ ، وهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعالَى عَلَى بَعْضِ التَّفاسِيرِ : ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ (١) ؛ أَيْ : ولْيَخْشَ الَّذينَ خافُوا عَلَى أَوْلادِهِمْ ؛ فَإِنَّ اللهَ يَحْفَظُهُ فِيهِمْ .

وقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾ (٢) : إِنَّهُ كانَ جَدَّهُمُ السَّابِعَ ، فَحَفِظَ اللهُ كَنْزَ اليَتامَىٰ بِبَرَكَةِ صَلاحِ الجَدِّ .

وأَمَّا إِنْ تَوَلَّيْتَ الوِلايَةَ الَّتي لا تَدُومُ ، فَكُنْ فِيها عَلَى حَذَرٍ ، ولا تَغْتَرَّ بِحَلاوَةِ بِدايَتِها ، فَإِنَّ نِهايَتَها مَرارَة ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(إِنْ رَغَّبَتْكَ البِداياتُ زَهَّدَتْكَ النِّهاياتُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الوِلايَةُ الَّتي لا تَدُومُ كَعِزٍّ بِمالٍ أَوْ جاهٍ أَوْ عَشِيرَةٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عِزِّ الدُّنْيا ، أَوَّلُها حُلْوٌ لِمُتْعَةِ النَّفْسِ ووُجُودِ حَظِّها فِيها ، وآخِرُها مُرٌّ لِفَقْدِ تِلْكَ الوِلايَةِ ولَوْ بِالمَوْتِ ، ولِما يَعْقُبُهُ مِنَ الذُّلِّ والهَوان ، فَإِنْ رَغَّبَتْكَ فِي هَذِهِ الوِلايَةِ الَّتي تَفْنَى حَلاوَةُ بِدايَتِها ، زَهَّدَتْكَ فِيها مَرارَةُ نِهايَتِها ، فَإِنْ غَرَّتْكَ بِظاهِرِ بَهْجَتِها ، فاعْتَبِرْ

---

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٩ .
(٢) سُورَةُ الكَهْف : مِنَ الآيَة ٨٢ .

بباطِنِ حَسْرَتِها ، إنْ رَغَّبَتْكَ فِيها حَلاوَةُ إقْبالِها ، زَهَّدَتْكَ فِيها مَرارَةُ إدْبارِها .

تَشْبِيهُ الدُّنْيا

فَمَنْ وَقَفَ مَعَ ظاهِرِ الدُّنْيا ، نادَتْهُ هَواتِفُ باطِنِها : إنَّما نَحْنُ غِرَّةٌ فَلا تَغْتَرَّ ، وهَذا مَعْنَى قَوْلِ ابنِ عَطاءِ اللّه :

(**إنْ دَعاكَ إلَيْها ظاهِرٌ ، نَهاكَ عَنْها باطِنٌ**) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : ظاهِرُها خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، وباطِنُها خَبيثَةٌ مُرَّةٌ .

قالَ ﷺ : (الدُّنْيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، وإنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبيعُ ما يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ حَبَطًا) الحَديث .

فَأَخْبَرَ ﷺ : أَنَّ ظاهِرَ الدُّنْيا خَضِرَةٌ حُلْوَة ، وباطِنَها سُمٌّ قاتِلٌ .

ثُمَّ عَلَّلَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ كَوْنَ الدُّنْيا مَحَلا لِهَذِهِ الأَكْدارِ والأَغْيارِ فَقالَ :

(**إنَّما جَعَلَها مَحَلا للأَغْيار ، ومَعْدِنًا لِوُجُودِ الأَكْدار ، تَزْهِيدًا لَكَ فِيها**) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : إنَّما وَسَمَ اللّهُ الدُّنْيا بِهَذِهِ الأَوْصافِ مِنْ كَوْنِها مَحَلًّا للأَغْيارِ والأَحْزانِ ومَعْدِنًا لِوُجُودِ الأَكْدارِ والفِتَنِ تَزْهِيدًا لَكَ فِيها ، فَتُقْبِلَ بِكُلِّيَّتِكَ عَلَيْهِ وتَتَوَجَّهَ بِهِمَّتِكَ إلَيْهِ ، أَوْ لِتُعْرِضَ عَنِ الدُّنْيا وتُقْبِلَ عَلَى الآخِرَة .

قُلْتُ وإنَّما تَحْذِيرُنا مِنَ الاسْتِغْراقِ فِي الدُّنْيا المُطْغِيَةِ الَّتي تُنْسِي الآخِرَة ، وإلَّا فَإنَّ المُسْلِمَ الحَقَّ الَّذي تَوَقَّفَ صَلاحُ الدِّينِ عَلَى صَلاحِهِ لَيُوقِنُ أَنَّ مَعارِفَ الدُّنْيا والأَمْنَ فِيها هُما شَرْطُ صِحَّةِ العِباداتِ وصَلاحِ الدِّين ، حَتَّى لَيَقُولَ حُجَّةُ الإسْلامِ أبو حامِدٍ الغَزالِي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) : «إنَّ نِظامَ الدِّينِ لا يَصْلُحُ إلَّا بِنِظامِ الدُّنْيا ، فَنِظامُ الدِّينِ بِالمَعْرِفَةِ والعِبادَةِ لا يُتَوَصَّلُ إلَيْها إلَّا بِصِحَّةِ البَدَنِ ، وبَقاءِ الحَياةِ ، وسَلامَةِ قَدْرِ الحاجاتِ مِنَ الكِسْوَةِ ، والمَسْكَنِ ، والأَقْواتِ ، والأَمْنِ ، فَلا يَنْتَظِمُ الدِّينُ إلَّا بِتَحْقِيقِ الأَمْنِ عَلَى هَذِهِ المُهِمَّاتِ الضَّرُورِيَّة ، فَبانَ إذَنْ أَنَّ نِظامَ الدُّنْيا شَرْطٌ لِنِظامِ الدِّين» .

قالَ بَعْضُهُمْ : إنَّما مَثَلُ الدُّنْيا كالبَحْرِ الهائِلِ المُحِيط ، والآخِرَةُ مِنْ وَراءِ ذَلِكَ البَحْر ، ولا يَنْكَشِفُ الحِجابُ عَنْ عَيْنِ القَلْبِ بِالنَّظَرِ إلَى الدَّارِ الآخِرَةِ إلَّا بَعْدَ الجَوازِ عَلَى ذَلِكَ البَحْرِ فِي سُفُنِ الصَّبْرِ والرِّضا لأَنَّهُ بَحْرٌ لُجِّيٌّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ ، يَغْشاهُ مَوْجُ الشَّهَوات ، مِنْ فَوْقِهِ مَوْجُ الغَفَلات ، مِنْ فَوْقِهِ سَحابُ الكائِنات .

وأَيْضًا لَوْ بُسِطَتْ لَكَ الدُّنْيا لَكَرِهْتَ لِقاءَ اللّه ، فَيَكْرَهُ اللّهُ لِقاءَكَ ، ولَوْ

بُسِطَتْ لَكَ العَوافِي والنِّعَمُ لَرَكَنَتِ الرُّوحُ إِلَى هَذا العالَمِ فَتَبْقَى دائِمًا فِي عالَمِ الأَشْباحِ ، والمَقْصُودُ مِنْكَ هُوَ الرَّحِيلُ إِلَى عالَمِ الأَرْواحِ ، فَضَيَّقَ الحَقُّ تَعالَى عَلَيْكَ هَذا العالَمَ السُّفْلِيَّ لِتَرْحَلَ مِنْهُ بِهِمَّتِكَ إِلَى العالَمِ العُلْوِيِّ ، فَهُوَ مِنْهُ سُبْحانَهُ إِنْعامٌ وإِحْسان ، لَكِنَّها فِي قالَبِ الامْتِحان ، فَلا يَذُوقُها إِلَّا أُولُو البَصائِرِ الحِسان ، فَهَذا ما أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(عَلِمَ أَنَّكَ لا تَقْبَلُ النُّصْحَ لِمُجَرَّدِ القَوْلِ ، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوقِها ما سَهَّلَ عَلَيْكَ فِراقَها) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ عَلِمَ الحَقُّ سُبْحانَهُ أَنَّ مِنْ عِبادِهِ مَنْ لا يَقْبَلُ النُّصْحَ بِمُجَرَّدِ القَوْلِ ، فَلا يَزْهَدُ فِي الدُّنْيا بِمُجَرَّدِ سَماعِ الوَعْظِ ؛ إِذْ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ والفَهْمِ يَسْمَعُونَ القُرْآنَ يُقَرِّعُهُمْ عَلَيْها ، ويُحَذِّرُهُمْ مِنْ غُرُورِها ، وهُمْ غائِبُونَ عَنْ ذَلِكَ التَّذْكِيرِ ، مَشْغُولُونَ بِما يُوجِبُ لِقُلُوبِهِمُ التَّذْكِيرِ ، فَلَمَّا أَرادَ سُبْحانَهُ أَنْ يَصْطَفِيَ لِحَضْرَتِهِ مَنْ شاءَ مِنْ عِبادِهِ ، نَغَّصَها عَلَيْهِمْ ، وشَدَّدَ عَلَيْهِمُ البَلاءَ والمِحَنَ ، وأَجْرَى عَلَى ظاهِرِهِمْ مَواقِعَ الفِتَنِ ، كُلُّ ذَلِكَ عِنايَةً بِهِمْ ، لِيَذُوقُوا مَرارَةَ باطِنِها ، فَلا يَغْتَرُّوا بِحَلاوَةِ زُخْرُفِ ظاهِرِها .

سُئِلَ ﷺ : مَنْ أَوْلِياءُ اللهِ الَّذِينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون ؟ قالَ ﷺ : (الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى باطِنِ الدُّنْيا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظاهِرِها ، واهْتَمُّوا بِآجِلِها حِينَ اهْتَمَّ النَّاسُ بِعاجِلِها) الحديث .

العِلْمُ النَّافِعُ

وقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُ ابنِ عَطاءِ اللهِ : ((الأَكْوانُ ظاهِرُها غِرَّة ، وباطِنُها عِبْرَة)) ، فَكُلُّ ما يَنْزِلُ بِالوَلِيِّ مِنْ هَذِهِ التَّعَرُّفاتِ الجَلالِيَّةِ الَّتي تُغَيِّرُ النَّفْسَ وتَقْهَرُها ، فَهُوَ خَيْرٌ كَثِيرٌ فِي حَقِّهِ ، فَقَدْ قالُوا : الامْتِحانُ بِقَدْرِ الإِمْكان ، وكُلُّ مِحْنَة تَزِيدُ مُكْنَة ، واخْتِبارُ الباقِي يَقْطَعُ التَّباقِي ، فَقَدْ تَبَقَى فِي القَلْبِ بَقِيَّةٌ مِنْ حُبِّ شَيْءٍ مِنْ هَذا العالَم ، أَوْ رُكُونٍ لِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيا ، فَيُسَلِّطُ عَلَيْهِ مَنْ يُشَوِّشُهُ عَلَيْهِ ويُنَغِّصُهُ لَدَيْه ، كُلُّ ذَلِكَ عِنايَةً بِهِ ؛ لِيَرْحَلَ مِنْ هَذا العالَم إِلَى عالَم المَلَكُوت ؛ فَإِذا تَحَقَّقَ رَحِيلُهُ ، اسْتَوَى عِنْدَهُ الحُلْوُ والمُرُّ ، والعِزُّ والذُّلُّ ، والغِنَى والفَقْرُ ؛ لأَنَّهُ تَحَقَّقَ أَنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وما فِي الوُجُودِ سِواه ، وهَذا هُوَ العِلْمُ الحَقِيقِيُّ الَّذي هُوَ العِلْمُ النَّافِعُ ، وإِلَيْهِ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ : (العِلْمُ النَّافِعُ هُوَ الَّذي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شُعاعُهُ ، ويَنْكَشِفُ بِهِ عَنِ القَلْبِ قِناعُهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : العِلْمُ النَّافِعُ هُوَ عِلْمُ القُلُوب ، ومَرْجِعُهُ إِلَى تَصْفِيَةِ القُلُوبِ مِنَ الرَّذائِل ، وتَحْلِيَتِها بِالفَضائِل .

أَوْ تَقُولُ : مَرْجِعُهُ إِلَى التَّخْلِيَةِ والتَّحْلِيَة ، فَيَبْحَثُ أَوَّلًا عَنْ عُيُوبِ النَّفْسِ ، وعُيُوبِ القَلْبِ ، وعُيُوبِ الرُّوحِ ، وعُيُوبِ السِّرِّ ، فَيُطَهِّرُ كُلَّ واحِدٍ مِنْ عُيُوبِه .

فَإِذا تَطَهَّرَ مِنَ الجَمِيع ، تَحَلَّى أَيْضًا بِصِفاتِ الكَمال ؛ كالإِيمانِ والإِيقانِ والطُّمَأْنِينَةِ والمُراقَبَةِ والمُشاهَدَةِ ، وتَحَلَّى أَيْضًا بِالحِلْمِ والرَّأْفَةِ والسَّخاءِ والكَرَمِ والإِيثارِ وسائِرِ الأَخْلاقِ الحَسَنَة .

فَشُعاعُ العِلْمِ الَّذي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ : هُوَ ثَلْجُ اليَقِين ، وبَرْدُ الرِّضا والتَّسْلِيم ، وحَلاوَةُ الإِيمان ، ومَواجِيدُ العِرْفان ، ويَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ : مَخافَةُ اللهِ وهَيْبَتُهُ ، والحَياءُ مِنْهُ ، والسُّكُونُ والطُّمَأْنِينَة ، وغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الأَخْلاقِ الحَسَنَة .

والقِناعُ الَّذي يَنْكَشِفُ بِهِ عَنِ القَلْبِ : هُوَ الغَفْلَةُ ، وسَبَبُ الغَفْلَةِ هُوَ الرِّضا عَنِ النَّفْس ، وسَبَبُ الرِّضا عَنِ النَّفْسِ هُوَ حُبُّ الدُّنْيا الَّذي هُوَ أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، فَمِنْ حُبِّ الدُّنْيا يَنْشَأُ الحَسَدُ والكِبْرُ ، والحِقْدُ والغَضَبُ ، والشُّحُّ والبُخْلُ ، وحُبُّ الرِّياسَةِ ، والقَساوَةُ والفَظاظَةُ ، والقَلَقُ ، وغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ العُيُوب .

فَإذا انْكَشَفَتْ هَذِهِ الأُمُورُ عَنِ القَلْبِ انْبَسَطَ فِيهِ شُعاعُ العِلْمِ ؛ الَّذي هُوَ ثَلْجُ اليَقِينِ ، وبَرْدُ الرِّضا ، وما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ؛ لأَنَّ العِلْمَ بِاللهِ نُورٌ فِي القَلْبِ ، ويَنْبَعِثُ مِنْهُ شُعاعٌ يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ فَيُكْسِبُهُ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيا ، فَإذا زَهِدَ فِي الدُّنْيا ، اتَّسَعَ صَدْرُهُ بِاليَقِينِ والرِّضا والتَّسْلِيم ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَحاسِن ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِانْبِساطِ الشُّعاعِ فِي الصَّدْرِ نُورَ الإِسْلامِ والإِيمان ، وهِيَ أَنْوارُ التَّوَجُّه ، وبِكَشْفِ القِناعِ عَنِ القَلْبِ كَشْفُ حِجابِ الحِسِّ وظُلْمَةِ الكَوْنِ ، فَتَبْدُو أَنْوارُ المُواجَهَةِ وهِيَ أَنْوارُ الإِحْسانِ وأَسْرارُ العِرْفان .

والحاصِل : أَنَّ العِلْمَ الَّذي يُوجِبُ الخَشْيَةَ هُوَ العِلْمُ النَّافِعُ ، وغَيْرُهُ لَيْسَ بِنافِع ، وإِلَيْهِ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِه :

(خَيْرُ عِلْم ما كانَتِ الخَشْيَةُ مَعَهُ) :

فَإِن لَمْ تَكُنْ خَشْيَةٌ ، فَلا خَيْرَ فِيهِ لأَنَّهُ حُجَّةٌ عَلَى صاحِبِهِ ، وإِلَيْهِ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِه :

(العِلْمُ إِنْ قارَنَتْهُ الخَشْيَةُ فَلَكَ ، وإِلَّا عَلَيْكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لأَنَّ العِلْمَ الَّذي تَصْحَبُهُ الخَشْيَةُ يَمْنَعُ صاحِبَهُ مِنَ الغَفْلَةِ وأَسْبابِها ، ويُزَهِّدُهُ فِي كُلِّ ما يَشْغَلُ عَنِ العِلْمِ بِهِ ، ويُرَغِّبُهُ فِي

كُلِّ ما يُقَرِّبُهُ إِلَى رَبِّهِ ، فَيَكُونُ عَوْنًا لَهُ عَلَى الوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَةِ اللّٰه ، والقُرْبِ مِنْ ساحَةِ رِضاه ، فَإِنْ لَمْ تُقارِنْهُ الخَشْيَةُ كانَ وَبالًا عَلَيْه ؛ لأَنَّهُ حِينَئِذٍ حُجَّةٌ عَلَيْه ؛ لأَنَّ المَعْصِيَةَ مَعَ العِلْمِ أَقْبَحُ مِنَ المَعْصِيَةِ مَعَ الجَهْل .

ومِنْ عَلامَةِ العِلْمِ النَّافِعِ القَناعَةُ بِعِلْمِ اللّٰه ، والاكْتِفاءُ بِنَظَرِه .

وثَمَرَةُ القَناعَةِ عَدَمُ المُبالاةِ بِذَمِّ النَّاسِ ومَدْحِهِمْ ، وإِقْبالِهِمْ وإِدْبارِهِمْ ، اكْتِفاءً بِعِلْمِ اللّٰهِ ونَظَرِهِ ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(مَتَى آلَمَكَ عَدَمُ إِقْبالِ النَّاسِ عَلَيْكَ ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذَّمِّ إِلَيْكَ ، فارْجِعْ إِلَى عِلْمِ اللّٰهِ فِيكَ ، فَإِنْ كانَ لا يُقْنِعُكَ عِلْمُهُ فِيكَ ، فَمُصِيبَتُكَ بِعَدَمِ قَناعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الأَذَى مِنْهُمْ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِذا سَلَّطَ اللّٰهُ عَلَيْكَ خَلْقَهُ لِيَخْتَبِرَكَ هَلْ أَنْتَ غَنِيٌّ بِهِ أَوْ بِخَلْقِهِ ؟ فَأَدْبَرُوا عَنْكَ ، أَوِ اشْتَغَلُوا بِذَمِّكَ وشَتْمِكَ ، ثُمَّ تَوَجَّعْتَ مِنْ ذَلِكَ ، فارْجِعْ إِلَى عِلْمِ اللّٰهِ فِيكَ ، واطِّلاعِهِ عَلَيْكَ ؛ إِذْ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِكَ ، فَإِنْ كَفاكَ ذَلِكَ وقَنِعْتَ بِهِ ، وأَنِسْتَ بِذِكْرِهِ أَوْ شُهُودِهِ ، اسْتَوَى عِنْدَكَ ذَمُّهُمْ ومَدْحُهُمْ ، وإِقْبالُهُمْ وإِدْبارُهُمْ ، بَلْ رُبَّما آثَرْتَ إِدْبارَهُمْ ؛ إِذْ فِيهِ راحَتُكَ وتَفْرِيغُ قَلْبِكَ مَعَ رَبِّكَ ، فَإِنْ لَمْ تَقْنَعْ

بِعِلْمِ اللهِ ، ولَمْ تَكْتَفِ بِنَظَرِهِ ، وتَأَسَّفْتَ عَلَى إِدْبارِهِمْ ، أَوْ تَأَلَّمْتَ مِنْ أَذاهُمْ فَمُصِيبَتُكَ بِضَعْفِ إِيمانِكَ و ذَهابِ يَقِينِكَ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَةِ ذَمِّ النَّاسِ وإِدْبارِهِمْ عَنْكَ ؛ لأَنَّ هَذا مُوجِبٌ لِسَخَطِ اللهِ وغَضَبِهِ وسُقُوطِكَ مِنْ عَيْنِ مَحَبَّتِهِ ، وأَمَّا إِذايَةُ الخَلْقِ وبُعْدُهُمْ عَنْكَ فَرَحْمَةٌ بِكَ .

قالَ أَحْمَدُ بنُ أَبِي الحَوارِي رضي الله عنه : ((مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْرَفَ بِشَيْءٍ مِنَ الخَيْرِ أَوْ يُذْكَرَ بِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ مَعَ اللهِ فِي عِبادَتِهِ ؛ لأَنَّ مَنْ عَمِلَ عَلَى المَحَبَّةِ لا يُحِبُّ أَنْ يَرَى عَمَلَهُ غَيْرُ مَحْبُوبِهِ)) .

وقالَ الشَّيْخُ أَبو الحَسَن رضي الله عنه : ((لا تَنْشُرْ عِلْمَكَ لِيُصَدِّقَكَ النَّاسُ ، وانْشُرْ عِلْمَكَ لِيُصَدِّقَكَ اللهُ ، وإِنْ كانَ لامُ العِلَّةِ مَوْجُودًا ؛ فَعِلَّةٌ تَكُونُ بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكَ ، خَيْرٌ مِنْ عِلَّةٍ تَكُونُ بَيْنَكَ وبَيْنَ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ نَهاكَ ، ولَعِلَّةٌ تَرُدُّكَ إِلَى اللهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ عِلَّةٍ تَقْطَعُكَ عَنِ اللهِ ، فَلِأَجْلِ ذَلِكَ لَمْ يَعْمَلُوا بِالثَّوابِ ؛ إِذْ لا يُخافُ ولا يُرْجَى إِلَّا مِنْ قِبَلِ اللهِ ، وكَفَى بِاللهِ صادِقًا ومُصَدِّقًا ، وكَفَى بِاللهِ عالِمًا ومُعَلِّمًا ، وكَفَى بِاللهِ هادِيًا ونَصِيرًا ووَلِيًّا ، هادِيًا يَهْدِيكَ ، ويَهْدِي بِكَ ، ويَهْدِي إِلَيْكَ ، ونَصِيرًا يَنْصُرُكَ ، ويَنْصُرُ بِكَ ، ولا يَنْصُرُ عَلَيْكَ ، ووَلِيًّا يُوالِيكَ ، ويُوالِي بِكَ ، ولا يُوالِي عَلَيْكَ)) .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ حِكْمَةَ وُجُودِ الأَذَى مِنَ الخَلْقِ لأَوْلِياءِ اللهِ ، فَقالَ :

(إِنَّما أَجْرَى الأَذَى عَلَيْهِمْ كَيْلا تَكُونَ ساكِنًا إِلَيْهِمْ ، أَرادَ أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الرُّوحُ إِذا رَكَنَتْ إِلَى هَذا العالَمِ السُّفْلِيِّ وسَكَنَتْ فِيهِ وأَحَبَّتْ ما فِيهِ تَعَذَّرَ نَقْلُها إِلَى عالَمِ المَلَكُوتِ الَّذي هُوَ العالَمُ الرُّوحانِي ؛ لِما أَلِفَتْهُ مِنْ حُبِّ الأَهْلِ والأَوْلادِ والأَصْحابِ والعَشائِر ، فَمِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعالَى ولُطْفِهِ وإِبْرارِهِ بِوَلِيِّهِ أَنْ يُحَرِّكَ عَلَيْهِ ما رَكَنَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ، وأَلِفَتْهُ رُوحُهُ ، الأَحَبَّ فالأَحَبَّ ، فَأَوَّلُ مَنْ يُنْكِرُهُ أَهْلُهُ وأَوْلادُهُ ، ثُمَّ جِيرانُهُ وأَحْبابُهُ ، ثُمَّ يُنْكِرُهُ العالَمُ بِأَسْرِهِ ، فَإِذا رَأَتِ الرُّوحُ أَنَّ هَذا العالَمَ أَنْكَرَها وضاقَ عَلَيْها ، رَحَلَتْ إِلَى مَوْلاها ، ولَمْ يَبْقَ لَها تَشَوُّفٌ إِلَى هَذا العالَمِ أَصْلًا ، فَحِينَئِذٍ يَكْمُلُ وَصْلُها ، ويَتَحَقَّقُ فَناؤُها وبَقاؤُها ، فَلَوْ بَقِيَتِ النَّفْسُ عَلَى ما هِيَ عَلَيْهِ مِنَ السُّكُونِ تَحْتَ ظِلِّ الجاهِ والعِزِّ ما رَحَلَتْ مِنْ هَذا العالَمِ أَصْلًا ، وكُلَّما قَوِيَ عَلَى الأَوْلِياءِ الأَذَىٰ ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى عُلُوِّ مَقامِهِمْ عِنْدَ المَوْلَى ، فَإِنَّما أَجْرَى الحَقُّ سُبْحانَهُ الأَذَىٰ عَلَى أَيْدِي الخَلْقِ إِلَيْكَ ؛ إِذْ هُوَ المُجْرِي

والمُنْشِئُ ، فَلا فاعِلَ غَيْرُهُ ، كَيْلا تَكُونَ ساكِنًا بِقَلْبِكَ ورُوحِكَ إِلَيْهِمْ ، فَيَعُوقَكَ ذَلِكَ عَنِ العُرُوجِ إِلَى المَلَكُوت .

أَرادَ الحَقُّ تَعالَى أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ هَذا العالَم حَتَّى لا تَرْكَنَ إِلَى شَيْءٍ ، ولا يَشْغَلَكَ عَنْ شُهُودِهِ شَيْءٌ : إِذْ مُحالٌ أَنْ تَشْهَدَهُ وتَشْهَدَ مَعَهُ سِواه ، (أَبَتِ المَحَبَّةُ أَنْ تَشْهَدَ غَيْرَ مَحْبُوبِها) ، فَإِذا تَمَكَّنَتِ المَحَبَّةُ ، وكَمُلَ الشُّهُودُ ، رَدَّهُمْ إِنْ شاءَ إِلَى عِبادِهِ ، مُرْشِدِينَ إِلَيْهِمْ بِاللّه .

قالَ فِي ((لَطائِف المِنَن)) : ((اعْلَمْ أَنَّ أَوْلِياءَ اللّهِ تَعالَى حُكْمُهُمْ فِي بِدايَتِهِمْ أَنْ يُسَلَّطَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؛ لِيَتَطَهَّرُوا مِنَ البَقايا ، وتَكْمُلَ فِيهِمُ المَزايا ، وكَيْلا يُساكِنُوا هَذا الخَلْقَ بِاعْتِماد ، أَوْ يَمِيلُوا إِلَيْهِمْ بِاسْتِناد ، ومَنْ آذاكَ فَقَدْ أَعْتَقَكَ مِنْ رِقِّ إِحْسانِهِ ، ومَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ فَقَدِ اسْتَرَقَّكَ وُجُودُ امْتِنانِه ، ولِذَلِكَ قالَ ﷺ : (مَنْ أَسْدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا فادْعُوا لَهُ) .

كُلُّ ذَلِكَ لِيَتَخَلَّصَ القَلْبُ مِنْ رِقِّ إِحْسانِ الخَلْق ، ويَتَعَلَّقَ بِالمَلِكِ الحَقِّ .

وانْظُرْ أَحْوالَ نَبِيِّنا ﷺ ما رَأَى مَعَ قُرَيْشٍ وبَنِي وائِل ، مَكَثَ مَعَهُمْ بَعْدَ النُّبُوَّةِ الَّتي هِيَ مَحَلُّ الأَذَى مِنَ الخَلْقِ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، كُلُّها جَلادٌ

وشِدَّةُ بَلاءٍ ، وحِينَ انْتَقَلَ إِلَى المَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ راحَةٌ ؛ بَيْنَ جِهادٍ وتَعْلِيم ، ومُعاناةِ أَحْبارِ يَهُودٍ بِالإِذايَةِ والتَّشْغِيب ، حَتَّى لَقِيَ اللّٰهَ - ﷻ وشَرَّفَ وكَرَّمَ ومَجَدَّ وعَظَّمَ - وكَذَلِكَ أَصْحابُهُ مَعَهُ وبَعْدَهُ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ راحَةٌ ، وجُلُّهُمْ ﷺ ماتُوا مَقْتُولِينَ ؛ فَقَدْ ماتَ الصِّدِّيقُ مَسْمُومًا ، ومَاتَ الفارُوقُ مَقْتُولًا ، وعُثْمانُ (ذُو النُّورَيْنِ) مَذْبُوحًا ، وسَيِّدُنا عَلِيٌّ مَضْرُوبًا بِالسَّيْفِ مُسَمَّمًا ، حَتَّى ماتَ الحَسَنُ مَسْمُومًا ، والحُسَيْنُ مَقْتُولًا ، ثُمَّ دُفِنَ ﷺ بِمِصْرَ (فَداهُ بَعْضُ المُلُوكِ ودَفَنَهُ بِمِصْرَ) وهُوَ مَزارَةُ ومَنارَةُ الإِمامِ الحُسَيْنِ المَشْهُورَةُ بِمِصْرَ المَحْرُوسَة ، ثُمَّ ما لا يُحْصَىٰ ، وقَدْ سُعِيَ بِالجُنَيْدِ وأَصْحابِهِ لِلسُّلْطان ، وأُتِيَ بِهِمْ لِلسَّيْفِ ، ثُمَّ لَطَفَ اللّٰهُ بِهِمْ .

مِحْنَةُ الصُّوفِيَّة

وقِصَّتُهُمْ أَنَّ فُقَهاءَ بَغْداد قالُوا لِلمُتَوَكِّل : إِنَّ الجُنَيْدَ قَدْ تَزَنْدَقَ هُوَ وأَصْحابُه ، فَقالَ لَهُمُ الخَلِيفَةُ (وكانَ يَمِيلُ إِلَى الجُنَيْد) : يا أَعْداءَ اللّٰه ، ما أَرَدْتُمْ إِلَّا أَنْ تُفْنُوا أَوْلِياءَ اللّٰهِ مِنَ الأَرْضِ واحِدًا بَعْدَ واحِدٍ ، قَتَلْتُمُ الحَلَّاجَ وأَنْتُمْ تَرَوْنَ لَهُ كُلَّ يَوْم عِبارَةً ولا تَزْدَجِرُون ، وهَذا الجُنَيْدُ لا سَبِيلَ لَكُمْ إِلَيْهِ حَتَّى تَغْلِبُوهُ بِالحُجَّة ، فاجْمَعُوا لَهُ الفُقَهاءَ واعْمَلُوا لَهُ

مَجْلِسًا ، فَإِنْ أَنْتُمْ غَلَبْتُمُوهُ وشَهِدَ النَّاسُ بِأَنَّكُمْ غالِبُونَ عَلَيْهِ ، قَتَلْتُهُ ، وإِنْ هُوَ غَلَبَكُمْ واللهِ لَأُمَشِّيَنَّ عَلَيْكُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى لا أُبْقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا عَلَى الأَرْض ، قالُوا : نَعَمْ ، فَجَمَعُوا لَهُ الفُقَهاءَ مِنَ الشَّام واليَمَنِ والعِراقِ والأَمْصار ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ الفُقَهاءُ فِي ذَلِكَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي الجَوانِبِ الأَرْبَعَةِ مَنْ يَعْرِفُ مَسْأَلَةً فِي دِينِهِ إِلَّا حَضَرَ ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ الفُقَهاءُ فِي المَجْلِسِ بَعَثَ الخَلِيفَةُ إِلَيْهِ ، فَأَتَى هُوَ وأَصْحابُهُ إِلَى بابِ القَصْر ، فَدَخَلَ الجُنَيْدُ وتَرَكَ أَصْحابَهُ ، وأَدَّى حَقَّ الخَلِيفَةِ (يَعْنِي : مِنَ التَّعْظِيم) ، وقَعَدَ ، فَقامَ إِلَيْهِ أَحَدُ الفُقَهاءِ يَسْأَلُهُ فِي مَسْأَلَةٍ ، فَسَمِعَهُ القاضِي عَلِيُّ بنُ أَبِي ثَوْر ، فَقالَ لَهُمْ : تَسْأَلُونَ الجُنَيْد ؟ فَقالُوا : نَعَمْ ، فَقالَ لَهُمْ : أَفِيكُمْ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ؟ فَقالُوا : لا ، فَقالَ : يا عَجَبًا ، هُوَ أَفْقَهُ مِنْكُمْ فِي عِلْمِكُمْ ، وقَدْ تَفَقَّهَ فِي عِلْمٍ تُنْكِرُونَهُ عَلَيْه (يَعْنِي : ولا تَعْرِفُونَهُ) ، فَكَيْفَ تَسْأَلُونَ رَجُلًا لا تَدْرُونَ ما يَقُولُ ؟ فَبُهِتَ القَوْمُ وسَكَتُوا زَمانًا ، ثُمَّ قالُوا : ما العَمَلُ يا قاضِي المُسْلِمِين ؟ فَأَشِرْ بِما شِئْتَ فَنَصْنَع ، فَأَمْرُكَ مُطاع .

قالَ : فَرَدَّ القاضِي وَجْهَهُ إِلَى الأَمِيرِ وقالَ لَهُ : اتْرُكِ الجُنَيْدَ ، وأَخْرِجْ إِلَى أَصْحابِهِ صاحِبَ سَيْفِكَ ، وهُوَ الوَلِيدُ بنُ رَبِيعَةَ يُنادِي فِيهِمْ :

مَنْ يَقُومُ إِلَى السَّيْف ؟ فَأَوَّلُ مَنْ يَقُومُ إِلَيْهِ نَسْأَلُهُ ، فَقالَ الخَلِيفَة : يَرْحَمُكَ اللّهُ لِمَ ذَلِك ؟ تُرَوِّعُ القَوْمَ ولَمْ تَظْهَرْ لَكُمْ حُجَّة ؟ لا يَحِلُّ لَنا ذَلِك ، فَقالَ القاضِي : يا أَمِيرَ المُؤْمِنِين ! إِنَّ الصُّوفِيَّةَ يُحِبُّونَ الإِيثارَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى بِأَنْفُسِهِمْ ، فائْذَنْ مَنْ يُنادِي : أَيُّكُمْ يَقُومُ للسَّيْف ؟ فالرَّجُلُ الَّذي يَقُومُ مُبادِرًا إِلَى السَّيْفِ هُوَ أَكْثَرُ النَّاسِ جَهْلا ، وأَكْثَرُهُمْ صِدْقًا للّهِ عَزَّ وجَلَّ ، فَيَقُومُ يُؤْثِرُ أَصْحابَهُ بِالعَيْشِ بَعْدَهُ ، فَإِذا قَدِمَ أَجْهَلُهُمْ عَلَيْنا ، جَعَلَ الفُقَهاءُ يُناظِرُونَهُ فِيما يَطْلُبُونَهُ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ الفُقَهاءَ لا يَغْلِبُونَهُ ولا يَغْلِبُهُمْ ، فَيَقَعُ الصُّلْحُ بَيْنَنا وبَيْنَهُمْ ، فَإِنَّها قَدْ نَزَلَتْ مُصِيبَةٌ عَظِيمَةٌ لا نَدْرِي لِمَنْ يَقَعُ النَّجاةُ مِنْها ؛ فَإِنَّهُ إِنْ قُتِلَ الجُنَيْدُ نَزَلَتْ داهِيَةٌ فِي الإِسْلام ، فَإِنَّهُ قُطْبُ الإِيمانِ فِي عَصْرِنا ، وإِنْ قُتِلَ العُلَماءُ والفُقَهاءُ فَهِيَ مُصِيبَةٌ عَظِيمَة ، فَقالَ لَهُ الأَمِيرُ : للّهِ دَرُّك ، لَقَدْ أَصَبْتَ ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى الوَلِيدِ وقالَ : افْعَلْ ما يَقُولُ لَكَ القاضِي ، فَخَرَجَ الوَلِيدُ وهُوَ مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ ، فَوَقَفَ عَلَى المُرِيدِينَ وهُمْ مِئَتانِ وسَبْعُونَ رَجُلًا قُعُودًا ناكِسِينَ رُؤُوسَهُمْ ، وهُمْ يَذْكُرُونَ اللّهَ ، فَنادَى فِيهِمْ : أَفِيكُمْ مَنْ يَقُومُ إِلَى السَّيْف ؟ فَقامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ يُقالُ لَهُ أَبُو الحَسَنِ النُّورِي ، فَقالَ الوَلِيدُ : ما رَأَيْتُ طائِرًا أَسْرَعَ مِنْهُ ، فَوَثَبَ

قائِمًا بَيْنَ يَدَيَّ ، فَعَجِبْتُ مِنْ سُرْعَةِ قِيامِهِ ، فَقُلْتُ : يا هَذا ، أَعَلِمْتَ لِمَ قُمْتَ ؟ فَقالَ : نَعَمْ ، أَلَمْ تَقُلْ : أَفِيكُمْ مَنْ يَقُومُ للسَّيْف ؟ فَقُلْتُ لَهُ : نَعَمْ ، ولِمَ قُمْتَ ؟ قالَ : عَلِمْتُ أَنَّ الدُّنْيا سِجْنُ المُؤْمِنِ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَخْرُجَ إِلَى دارِ الفَوْزِ ، وأَنْ أُوثِرَ أَصْحابِي عَلَيَّ بِالعَيْشِ ولَوْ ساعَة ، ولَعَلِّي أُقْتَلُ فَيُطْفَأُ الشَّرُّ بِي ، فَيَسْلَمُ جَمِيعُهُمْ ، ولا يُقْتَلُ أَحَدٌ غَيْرِي ، قالَ الصَّاحِبُ : فَعَجِبْتُ مِنْ فَصاحَتِهِ ، فَقُلْتُ : أَجِبِ القاضِي ، فَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، وسالَتْ عَبْرَتُهُ عَلَى خَدِّهِ ، فَقالَ أَوَ دَعانِي القاضِي ؟ قُلْتُ : نَعَمْ دَعاكَ ، قالَ : فَحَقًّا عَلَيَّ إِجابَتُه ؛ فَدَخَلْتُ وهُوَ مَعِي ، فَأَخْبَرْتُ المَلِكَ والقاضِي بِقِصَّتِهِ ، فَتَعَجَّبا مِنْهُ ، وسَأَلَهُ القاضِي عَنْ مَسْأَلَةٍ غَمِضَةٍ ، فَقالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ ولِمَ خُلِقْتَ ؟ وما أَرادَ اللّهُ بِخَلْقِكَ ؟ وأَيْنَ هُوَ رَبُّكَ مِنْكَ ؟ فَقالَ : ومَنْ أَنْتَ الَّذي تَسْأَلُنِي ؟ فَقالَ : أَنا قاضِي القُضاةِ ، فَقالَ لَهُ : إِذًا لا رَبَّ غَيْرُكَ ، ولا مَعْبُودَ سِواكَ ، أَنْتَ قاضِي القُضاةِ ، وهَذا يَوْمُ الفَصْلِ والقَضاء ، والنَّاسُ قَدْ حُشِرُوا ضُحًى ، فَأَيْنَ النَّفْخَةُ فِي الصُّورِ الَّتي قالَ اللّهُ فِيها : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [1] .

---

(١) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٦٨ .

أَنا مِمَّنْ صُعِقَ ، أَمْ أَنا مِمَّنْ شاءَ اللّهُ الَّذي لَمْ أَشْهَدِ النَّفْخَ ؟ فَبُهِتَ القاضِي زَمانًا وقالَ : يا هَذا ، أَجعَلْتَ مِنِّي إِلَهًا ؟ قالَ : مَعاذَ اللّه ، بَلْ أَنْتَ تَأَلَّهْتَ حَيْثُ تَسَمَّيْتَ بِقاضِي القُضاة ، ولَيْسَ قاضِي القُضاةِ إِلَّا القاضِي الَّذي يَقْضِي ولا يُقْضَى عَلَيْه ، أَضافَتْ عَلَيْكَ الأَسْماء ؟ أَما كَفاكَ قاضِي المُسْلِمين ، أَوْ أَحَدُ الفُقَهاء ، أَمْ أَحَدٌ مِنْ عِبادِ اللّهِ حَتَّى تَسَمَّيْتَ بِقاضِي القُضاة ، إِذِ اسْتَكْبَرْتَ أَنْ تَقُولَ : أَنا عَلِيُّ ابنُ أَبي ثَوْر ، فَما زَالَ يُقَرِّعُهُ حَتَّى بَكَى القاضِي وهَمَّ أَنْ تَزْهَقَ نَفْسُه ، وبَكَى المَلِكُ لِبُكائِهِ ، وبَكَى الجُنَيْدُ ، وقالَ لِتِلْمِيذِهِ : أَقْصِرْ مِنْ عِتابِكَ للقاضِي فَقَدْ قَتَلْتَهُ فَخَلِّ سَبِيلَهُ ، فَلَمَّا أَفاقَ القاضِي ، قالَ : يا أَبا الحَسَن ، أَجِبْنِي عَنْ مَسْأَلَتِي وأَنا أَتُوبُ إِلَى اللّهِ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَقالَ : اذْكُرْ مَسْأَلَتَكَ ، فَإِنِّي نَسِيتُها ، فَأَعادَ عَلَيْهِ مَسْأَلَتَهُ ، فَنَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ وقالَ : أَتَجاوِبُهُ ؟ ثُمَّ قالَ : حَسْبِيَ اللّه ، ثُمَّ فَعَلَ عَنْ يَسارِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ نَظَرَ أَمامَهُ وقالَ : أَتُجاوِبُهُ ؟ ثُمَّ قالَ : الحَمْدُ للّه ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى القاضِي وقالَ لَهُ : أَمَّا قَوْلُكَ مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَنا عَبْدُ اللّه ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى :

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ مَرْيَم : الآيَة ٩٣ .

وأَمَّا قَوْلُكَ : لِماذا خُلِقْتَ ؟ فَكانَ اللّهُ كَنْزًا لا يُعْرَفُ ، فَخَلَقَنِي لِمَعْرِفَتِهِ ، قالَ تَعالَى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١) ؛ أَيْ لِيَعْرِفُونِي .

وأَمَّا قَوْلُكَ : ما أَرادَ اللّهُ بِخَلْقِي ؟ فَما أَرادَ بِي إِلَّا كَرامَتِي ، قالَ تَعالَى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ (٢) .

وأَمَّا قَوْلُكَ : أَيْنَ رَبُّكَ مِنْكَ ؟ فَهُوَ مِنِّي حَيْثُ أَنا مِنْهُ ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (٣) .

فَقالَ : أَخْبِرْنِي كَيْفَ هُوَ مَعَكَ ومَعَنا فِي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ، قالَ : هُوَ مَعَنا كَيْفَما كُنَّا مَعَهُ ، فَإِنْ كُنَّا مَعَهُ بِالطّاعَةِ كانَ مَعَنا بِالعَوْنِ والهُدَى إِلَيْه ، وإِنْ كُنَّا مَعَهُ بِالغَفْلَةِ كانَ مَعَنا بِالمَشِيئَةِ ، وإِنْ كُنَّا بِالمَعْصِيَةِ كانَ مَعَنا بِالمُهْلَةِ ، وإِنْ كُنَّا بِالتَّوْبَةِ كانَ مَعَنا بِالقَبُول ، وإِنْ كُنَّا بِالتَّرْكِ كانَ مَعَنا بِالعِقاب ، قالَ : صَدَقْتَ ، فَأَخْبِرْنِي أَيْنَ هُوَ مِنِّي ؟ فَقالَ : أَخْبِرْنِي أَيْنَ أَنْتَ مِنْهُ ؟ أُعَلِمْكَ أَيْنَ هُوَ مِنْكَ ، قالَ : صَدَقْتَ يا عَلِيُّ فِيما قُلْتَ ، ولَكِنْ أَخْبِرْنِي بِمَسْأَلَةٍ ثانِيَة ، قالَ : وما هِيَ ؟ قالَ : لِمَ مِلْتَ عَنْ يَمِينِكَ حِينَ سَأَلْتُكَ ؟

---

(١) سُورَةُ الذَّارِيات : الآيَة ٥٦ .
(٢) سُورَةُ الإِسْراء : مِنَ الآيَة ٧٠ .
(٣) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ٤ .

قالَ : أَعَزَّ اللّهُ الفَقِيهَ ، إنَّ المَسْأَلَةَ الَّتي سَأَلْتَنِي عَنْها لَمْ يَكُنْ عِنْدِي ما أُخْبِرُكَ بِهِ فِيها ، فَسَأَلْتُ المَلَكَ الكَرِيمَ الَّذي يَكْتُبُ فِي اليَمِين ، فَقُلْتُ لَهُ : أَتُجاوِبُهُ أَنْتَ ؟ فَقالَ لِي : لا عِلْمَ لِي ، فَقُلْتُ : حَسْبِيَ اللّه ، وفَوَّضْتُ أَمْرِي إلى اللّه ، فَقالَ : وعَنْ شِمالِكَ ؟ فَقالَ : كَذَلِكَ ، فَقالَ : وأَمامَكَ ؟ فَقالَ : سَأَلْتُ قَلْبِي ، فَقالَ عَنْ سِرِّهِ عَنْ رَبِّهِ ما أَجَبْتُكَ بِهِ ، فَقُلْتُ : الحَمْدُ للّهِ شاكِرًا عَلَى الهِدايَة ، ومُقِرًّا لَهُ بِالعَجْزِ عَنْ إدْراكِ النِّهايَة ، فَقالَ لَهُ : يا هَذا أَتُكَلِّمُكَ المَلائِكَة ؟ فَقالَ لَهُ : وَيْحَكَ ، أَما تَرَى رَبَّ المَلائِكَةِ كَلَّمَنِي حِينَ هَدانِي لِحُجَّتِي وكُنْتُ لا أَعْرِفُها ، فَقالَ لَهُ : يا هَذا ، الآنَ قَدْ صَحَّ عِنْدِي حُمْقُكَ ، وثَبَتَ عِنْدِي كُفْرُكَ و زَنْدَقَتُكَ ، فَما تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ ، وبِأَيِّ قِتْلَةٍ تُرِيدُ أَنْ أَقْتُلَكَ ؟ فَقالَ لَهُ : وما الَّذي تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَهُ بِي وأَنْتَ قاضِي القُضاة ؟ إنْ كُنْتَ تَقْضِي ولا يُقْضَى عَلَيْكَ فاقْضِ بِما شِئْتَ ، وأَيُّ فِعْلٍ لَك ؟ فَقالَ لَهُ : أَنا القاضِي المُقْتَضِي بِما يَقْضِي بِهِ ، أَوَ نَقْضِي بِما يَقْضِي بِهِ ؟ فَقالَ لَهُ : أَوَ فَهِمْتَ خِطابًا عَنِ القاضِي الَّذي يَقْضِي ولا يُقْضَى عَلَيْه : قالَ لَهُ : وما هُوَ ؟ قالَ : قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [1] .

---

(١) سُورَةُ يس : الآيَة ٥٤ .

فَقالَ لَهُ : وما تُريدُ أَنْتَ ؟ اقْضِ بِما شِئْتَ الآنَ ، طِبْتُ وطابَتْ نَفْسِي عَلَى لِقاءِ رَبِّي ، فَعِنْدَ ذَلِكَ رَدَّ القاضِي رَأْسَهُ إِلَى المُتَوَكِّل ، وقالَ لَهُ : يا أَمِيرَ المُؤْمِنين ، اتْرُكْ هَؤُلاء ؛ فَإِنْ كانَ هَؤُلاءِ زَنادِقَةٌ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُسْلِمٌ ، هَؤُلاءِ مَصابِيحُ الدِّينِ ودَعائِمُ الإِسْلام ، وهَؤُلاءِ المُؤْمِنُونَ حَقًّا ، عِبادُ اللهِ المُخْلَصُون ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عَطَفَ الخَلِيفَةُ عَلَى الجُنَيْدِ ، وقالَ : يا أَبا القاسِم ، هَؤُلاءِ الفُقَهاءُ ما جَمَعُوا لَكَ هَذا المَجْلِسَ العَظِيمَ واسْتَعَدُّوا لِمُناظَرَتِكَ إِلَّا لِيَقْتُلُوكَ لَوْ غَلَبُوكَ ، والآنَ أَنْتَ الغالِبُ عَلَيْهِمْ ، وأَنا آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي إِنْ أَنْتَ غَلَبْتَهُمْ أَنْ أَمْشِيَ عَلَيْهِمُ السَّيْفَ ، فَإِمَّا أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وإِمَّا أَنْ يَمُوتُوا ، فَقالَ : العِياذُ باللهِ يا سَيِّدِي أَنْ يَمُوتَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِسَبَبِي ، عَفا اللهُ عَنَّا وعَنْهُمْ ، ولا أَخْذَ عَلَيْهِمْ فِي إِنْكارِهِمْ عَلَيْنا ؛ لأَنَّهُمْ ما ساقَهُمْ لِذَلِكَ إِلَّا الجَهْلُ وقِلَّةُ العِلْمِ بِما طَلَبُوا ، عَفا اللهُ عَنَّا وعَنْهُمْ ، فانْحَلَّ المَجْلِسُ عَلَى سَلام ، ولَمْ يَمُتْ فِيهِ أَحَدٌ ، والحَمْدُ لله ، ثُمَّ عَطَفَ القاضِي عَلَى النُّورِيِّ وقالَ لَهُ : يا عَلِيُّ ، أَعْجَبَنِي حالُكَ واللهُ شَهِيدٌ أَنِّي أُحِبُّكَ ، ولَكِنْ أَسْأَلُكَ سُؤَالَ رَجُلٍ مُسْتَرْشِدٍ ، فَأَرْشِدْنِي يَرْحَمُكَ الله ، فَقالَ : سَلْ عَمَّا بَدا لَكَ ، فَإِنْ كانَ عِنْدِي جَوابٌ أَخْبَرْتُكَ ، وإِلَّا قُلْتُ لَكَ : لا عِلْمَ لِي ، ولا يَعْظُمُ ذَلِكَ عَلَيَّ ، ثُمَّ سَأَلَهُ عَنْ مَسائِلَ عَدِيدَة .

فَهَذِهِ مِحْنَةُ الصُّوفِيَّةِ الَّتي وَقَعَتْ فِي زَمَنِ الجُنَيْد ، وهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي أَوْلِيائِهِ وأَنْبِيائِهِ ، هُمْ أَشَدُّ النَّاسِ ابْتِلاءً .

كَيْفَ تَدْفَعُ كَيْدَ الشَّيْطان ؟

واعْلَمْ أَنَّ إِذايَةِ الخَلْقِ هِيَ إِحْدَى القَواطِعِ الَّتي قَطَعَتِ النَّاسَ عَنِ الوِلايَة ، ولا يَصْبِرُ عَلَيْها إِلَّا الصِّدِّيقُونَ ، فَذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ حِكْمَةَ ذَلِكَ وسِرَّهُ ، ومِنَ القَواطِعِ أَيْضًا الشَّيْطانُ والنَّفْسُ ، فَأَشارَ رضي الله عنه إِلَى كَيْفِيَّةِ دَفْعِ إِذايَةِ الشَّيْطانِ بِقَوْلِهِ :

(إِذا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطانَ لا يَغْفُلُ عَنْكَ ، فَلا تَغْفَلْ أَنْتَ عَمَّنْ ناصِيَتُكَ بِيَدِهِ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : اعْلَمْ أَنَّ الحَقَّ تَعالَى جَعَلَ بِحِكْمَتِهِ الشَّيْطانَ والنَّفْسَ والنَّاسَ حُرَّاسَ الحَضْرَة ، فَلا يَدْخُلُ الحَضْرَةَ حَتَّى يَخْرِقَ فِيهِمْ ، ويَجُوزَ عَنْهُمْ ، لأَنَّهُمْ واقِفُونَ بِالباب ، وَكَّلَهُمُ اللهُ بِبابِ حَضْرَتِه ، وقالَ لَهُمْ : لا تَتْرُكُوا أَحَدًا يَدْخُلُ إِلَّا مَنْ يَغْلِبُكُمْ ، فَوَقَفُوا بِالباب ، فَإِذا جاءَ مَنْ يُرِيدُ الدُّخُولَ ، تَعَرَّضَ لَهُ الخَلْقُ فَيَعِيبُونَ لَهُ الطَّرِيقَ ويُنْكِرُونَ مَنْ يَعْرِفُها ، فَإِذا غَلَبَهُمْ ، جاءَهُ الشَّيْطانُ يُطَوِّلُ عَلَيْهِ مُدَّةَ الفَتْح ، ويُخَوِّفُهُ مِنَ الفَقْرِ ويَقُولُ لَهُ : مَتَى يَفْتَحُ اللهُ عَلَيْكَ ؟ قِيلَ : يَكُونُ ،

وقِيلَ : لا يَكُونُ ، فَإذا غَلَبَهُ تَعَرَّضَتْ لَهُ النَّفْسُ تَقُولُ لَهُ : كَيْفَ تَتْرُكُ دُنْياكَ وجاهَكَ وعِزَّكَ إلَى شَيْءٍ يَكُونُ أَوْ لا يَكُون ؟ فَإذا غَلَبَها ، قالَ لَهُ الحَقُّ تَعالَى : مَرْحَبًا بِكَ وأَهْلًا ، ولَكِنَّ القَواطِعَ لا يَزُولُ طَمَعُها عَنْهُ حَتَّى يَسْكُنَ فِي الحَضْرَة ، ولِذَلِكَ قالُوا : واللّهِ ما رَجَعَ مَنْ رَجَعَ إلَّا مِنَ الطَّرِيق ، وأَمَّا مَنْ وَصَلَ فَلا يَرْجِعُ .

فَإذا عَلِمْتَ أَيُّها المُرِيدُ أَوِ الإنْسانُ أَنَّ الشَّيْطانَ لا يَغْفُلُ عَنْكَ ساعَة ؛ لأَنَّ لَهُ بَيْتًا فِي صَدْرِكَ مِنْ جِهَةِ شِمالِكَ ، فَإذا غَفَلْتَ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وَسْوَسَ ، وإذا ذَكَرْتَ اللّهَ انْخَنَسَ ، فَإذا عَلِمْتَ ذَلِكَ فَلا تَغْفَلْ أَنْتَ عَمَّنْ ناصِيَتُكَ وناصِيَتُهُ بِيَدِهِ ، وهُوَ الحَقُّ تَعالَى ، فَإذا شُغِلْتَ باللّهِ ، رَدَّهُ عَنْكَ وكَفاكَ أَمْرَهُ ، قال تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (١) .

وقَدْ حَذَّرَ اللّهُ تَعالَى مِنْهُ فِي كِتابِهِ ، قالَ تَعالَى : ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (٢) : فَفَهِمَ قَوْمٌ أَنَّ الشَّيْطانَ لَهُمْ عَدُوٌّ ، فاشْتَغَلُوا بِمُحارَبَتِهِ ، فَفاتَهُمْ مَحَبَّةُ الحَبِيب ، وفَهِمَ قَوْمٌ أَنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ، وأَنا لَكُمْ حَبِيب ، فاشْتَغَلُوا بِمَحَبَّةِ الحبِيب ، فَكَفاهُمْ عَداوَةَ العَدُوِّ ، كَما قالَهُ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاس .

---

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٧٦ .

(٢) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ٦ .

وكَتَبَ الشَّعْرانِي إِلَى شَيْخٍ لَهُ بِالمَغْرِب يَشْكُو لَهُ إِذايَةَ الخَلْقِ ، فَكَتَبَ لَهُ الشَّيْخُ : ((لا تَشْتَغِلْ بِمَنْ يُؤْذِيكَ قَطُّ ، واشْتَغِلْ بِاللهِ يَرُدَّهُ عَنْكَ ، وقَدْ غَلَطَ فِي هَذا الأَمرِ خَلْقٌ كَثِيرٌ ، واشْتَغَلُوا بِمَنْ آذاهُمْ ، فَطالَ الأَذَى مَعَ الإِثْم ، ولَوْ أَنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَى اللهِ ، لَكَفاهُمْ أَمْرَهُمْ ، ولَرَدَّهُمْ عَنْهُمْ ، والسَّلام)) .

وقالَ الشيخُ زَرُّوق رضي الله عنه : وإِنَّما يَنْدَفِعُ الشَّيْطانُ بِالتَّوَكُّلِ والإِيمان ، قالَ تَعالَى : ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١) .

وقِيلَ : الشَّيْطانُ كَلْبٌ ، إِنِ اشْتَغَلْتَ بِمُقاوَمَتِهِ ، مَزَّقَ الإِهابَ ، وقَطَّعَ الثِّيابَ ، وإِنْ رَجَعْتَ إِلَى رَبِّكَ ، صَرَفَهُ عَنْكَ بِرِفْق .

وقالَ ذُو النُّون المِصْرِي رضي الله عنه : ((إِنْ كانَ هُوَ يَرانا مِنْ حَيْثُ لا نَراهُ ، فاللهُ يَراهُ مِنْ حَيْثُ لا يَرَى الله ، فاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَيْه)) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : ومَنْ عَرَفَ اللهَ ذابَ الشَّيْطانُ مِنْ نُورِهِ فَلَمْ يَبْقَ يَعْرِفُ إِلَّا الله .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ حِكْمَةَ وُجُودِهِ فَقالَ :

---

(١) سُورَةُ النَّحْل : الآيَة ٩٩ .

(جَعَلَهُ لَكَ عَدُوًّا لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْه) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : لَمْ يَخْلُقِ اللهُ شَيْئًا عَبَثًا ، قالَ تعالَى : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ﴾ (١) ، فَإيجادُ الشَّيْطانِ لَهُ حِكَمٌ :

أَوَّلُها : انْحِياشُ عِبادِهِ إِلَيْه ؛ لأَنَّ العَبْدَ الضَّعيفَ إِذا رَأَى عَدُوًّا يَطْلُبُهُ ، هَرَبَ إِلَى سَيِّدِهِ والْتَجَأَ إِلَى حِصْنِهِ ، فَيَكْفِيهِ أَمْرَهُ .

الثَّانِيَةُ : قِيامُ الحُجَّةِ عَلَى عِبادِهِ فَإِذا خالَفُوا أَمْرَهُ قالَ لَهُمْ : اتَّبَعْتُمْ عَدُوِّي وعَصَيْتُمْ أَمْرِي ؛ قالَ تعالَى : ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ﴾ (٢) .

الثَّالِثَةُ : كَوْنُهُ مِنْدِيلًا للعارِ تُمْسَحُ فِيهِ أَوْساخُ الأَقْذارِ ، وكَذَلِكَ النَّفْسُ والدُّنْيا .

الرَّابِعَةُ : ظُهُورُ مَزِيَّةِ المُؤْمِنِ بِمُجاهَدَتِهِ ومُحارَبَتِهِ .

حِكايَةٌ : رُوِيَ أَنَّ الشَّيْطانَ تَعَرَّضَ لِسَهْلِ بنِ عَبْدِ اللهِ التُّسْتُرِي وهُوَ يَضْحَكُ ، فَقالَ لَهُ سَهْلٌ : مِمَّ ضَحِكُكَ يا لَعِينُ وقَدْ أَبْلَسْتَ ويَئِسْتَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ؟ فَقالَ : يا سَهْلُ ، أَنا شَيْءٌ ، واللهُ تَعالَى يَقُولُ : ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (٣) ، فَقالَ سَهْلٌ إِنَّهُ يَقُولُ : ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (٤) ، فَأَيْنَ أَنْتَ مِنَ التَّقْوَى ؟ فَقالَ : التَّقْوَى صِفَةُ العَبْدِ ، والرَّحْمَةُ صِفَةُ

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْرانَ : مِنَ الآيَة ١٩١ . (٢) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَة ١٤٩ .
(٣) ، (٤) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ١٥٦ .

الرَّبِّ ، وأَيْنَ الفانِي مِنَ الباقِي ؟ فَلَمْ يَجِدْ سَهْلٌ جَوابًا .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : وقَدْ يُجابُ بِأَنَّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى النَّظَرِ للفَرْقِ : وأَمَّا عَلَى الجَمْعِ ، فالرَّحْمَةُ وَصْفُه ، والتَّقْوَى فِعْلُه ، وفِعْلُهُ يُقَيِّدُ وَصْفَهُ ، والكُلُّ مِنْهُ وإِلَيْه : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (١) .

حِكْمَةُ ظُهُورِ النَّفْس

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللهِ حِكْمَةَ ظُهُورِ النَّفْسِ فَقالَ :

(وحَرَّكَ عَلَيْكَ النَّفْسَ لِيُدِيمَ إِقْبالَكَ عَلَيْه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِنَّما حَرَّكَ الحَقُّ تَعالَى عَلَيْكَ النَّفْسَ لِيَدُومَ إِقْبالُكَ وتَوَجُّهُكَ إِلَيْهِ ؛ لأَنَّ النَّفْسَ لَمَّا غَلَبَتْ عَلَيْها البَشَرِيَّةُ جَرَّتْها إِلَيْها ، فَهِيَ دائِمًا تَهْوِي بِكَ إِلَى أَرْضِ الشَّهَوات ، وأَنْتَ دائِمًا تُرِيدُ أَنْ تَعْرُجَ إِلَى سَماءِ الحُقُوقِ والواجِبات ، هِيَ تُرِيدُ أَنْ تَرْكَنَ إِلَى أَصْلِها مِنْ عالَمِ الصَّلْصالِ والطِّين ، وأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَرُدَّها إِلَى أَصْلِ رُوحانِيَّتِها فِي أَعْلَى عِلِّيِّين ، هِيَ تُرِيدُ السُّكُونَ فِي عالَمِ الأَشْباحِ ، وأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُرَقِّيَها إِلَى عالَمِ الأَرْواح ، فَهِيَ دائِمًا تُرِيدُ التَّسَفُّل ، وأَنْتَ دائِمًا تُرِيدُ التَّرَقِّي ، فَهَذا مَعْنَى دَوامِ إِقْبالِكَ عَلَيْه ، وكَما قالَ ابنُ عَطاءِ

---

(١) سُورَةُ الأَنْبِياء : الآيَة ٢٣ .

اللهِ فِي حِكَمِهِ : ((لَوْلا مَيادِينُ النُّفُوس ، ما تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِين)) ، فالنَّفْسُ والشَّيْطانُ نِعْمَتانِ فِي الباطِن ؛ إِذْ لَوْلاهُما ما تَحَرَّكْتَ إِلَيْهِ ولا تَحَقَّقَ سَيْرُكَ إِلَيْه ، ولِذَلِكَ كانَ شَيْخُ شَيْخِنا مَوْلايَ العَرَبِي ﷺ إِذا اشْتَكَى إِلَيْهِ أَحَدٌ بِالنَّفْسِ يَقُولُ : أَمَّا أَنا ، فَجَزَى اللهُ عَنِّي نَفْسِي خَيْرًا ، ما عَلَيَّ إِلَّا فَضْلُ اللهِ وفَضْلُها ، واللهِ ما نَنْسَى جَمِيلَها ، يُشِيرُ لِهَذا المَعْنَى الَّذي ذَكَرْناه ، وهُما نِقْمَتانِ فِي الظَّاهِرِ لِمَنْ وَقَفَ مَعَهُما وحُجِبَ بِهِما .

والحاصِلُ : أَنَّ النَّفْسَ والشَّيْطانَ والدُّنْيا والنَّاسَ قَواطِعُ لِمَنْ قَطَعُوا بِهِ الطَّرِيقَ ، مُوَصِّلاتٌ للحَضْرَةِ لِمَنْ وَقَفَ للتَّحْقِيق ، وسَبَقَ لَهُ مِنَ اللهِ التَّوْفِيق ، والنَّفْسُ أَصْعَبُ مِنَ الشَّيْطانِ لأَنَّها عَدُوٌّ مُتَّصِلٌ وأَنْتَ بِها شَفِيق ، فَهِيَ أَقْبَحُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطانًا فِي قَطْعِ الطَّرِيق .

وذَكَرَ ابنُ القَسْطَلَّانِي عَنْ أَحْمَدَ بنِ سَهْلٍ أَنَّهُ قالَ : أَعْداؤُكَ أَرْبَعَةٌ :

أَوَّلُها : الدُّنْيا ، وسِلاحُها لِقاءُ الخَلْقِ ، وسِجْنُها الخَلْوَة .

الثَّانِي : الهَوَى ، وسِلاحُهُ الكَلام ، وسِجْنُهُ الصَّمْت .

الثَّالِثُ : الشَّيْطانُ ، وسِلاحُهُ الشِّبَعُ ، وسِجْنُهُ الجُوع .

الرَّابِعُ : النَّفْسُ ، وسِلاحُها النَّوْمُ ، وسِجْنُها السَّهَر .

وقَدْ نَظَمَ بَعْضُهُمْ هَذِهِ القَواطِعَ فَقالَ :

إِنِّي بُلِيتُ بِأَرْبَعٍ يَرْمِينَنِي ❁ بِالنَّبْلِ عَنْ قَوْسٍ لَهُ تَوْتِيرُ

إِبْلِيسُ وَالدُّنْيا وَنَفْسِي وَالْهَوَىٰ ❁ يَا رَبِّ أَنْتَ عَلَى الْخَلاصِ قَدِيرُ

وقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ القَواطِعَ شَيْخُنا ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ ، فَذَكَرَ أَوَّلًا الدُّنْيا ، ثُمَّ النَّاسَ ، ثُمَّ الشَّيْطانَ ، ثُمَّ النَّفْسَ ، لَكِنْ ذَكَرَها عَلَى وَجْهٍ تَوْحِيدِي ، لَمْ يَذْكُرْها عَلَى أَنَّها سِوًى أَوْ قَواطِع ، وإِنَّما ذَكَرَ أَسْرارَها وحِكْمَةَ وُجُودِها ، فَللّٰهِ دَرُّهُ ما أَشَدَّ مَعْرِفَتَهُ بِالتَّوْحِيدِ وأَسْرارِ التَّفْرِيد ، نَفَعَنا اللّٰهُ بِذِكْرِهِ ، وخَرَطَنا فِي سِلْكِهِ ، آمِين .

التَّواضُــع

إِذا تَخَلَّصَ مُرِيدُ مَنازِلِ القُدْسِ مِنْ هَذِهِ القَواطِعِ فِي الحِسِّ ، أَفْضَى إِلَى شُهُودِ نُورِ عَظَمَةِ رَبِّهِ فِي تَجَلِّياتِه ، فَيَتَواضَعُ مَعَ الأَشْياءِ كُلِّها لِمَعْرِفَتِهِ فِيها ؛ كَما أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَواضُعًا فَهُوَ المُتَكَبِّرُ حَقًّا ؛ إِذْ لَيْسَ التَّواضُعُ إِلَّا عَنْ رِفْعَةٍ ، فَمَتَى أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ تَواضُعًا فَأَنْتَ المُتَكَبِّرُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : التَّواضُعُ هُوَ مُجاهَدَةُ النَّفْسِ فِي رَفْعِها وسُقُوطِها ؛ فالعارِفُونَ بِاللّٰهِ لَمْ يُثْبِتُوا لأَنْفُسِهِمْ رَفْعًا ولا وَضْعًا ، فَهُمْ مُتَواضِعُونَ

مِنْ أَوَّلِ مَرَّة ، فَتَواضُعُهُمْ حَقِيقِيٌّ أَصْلِي ، فَمَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَواضُعًا ، ورَأَى أَنَّها تَواضَعَتْ دُونَ قَدْرِها فَهُوَ المُتَكَبِّرُ حَقًّا ، حَيْثُ جَعَلَ لَها قَدْرًا زائِدًا عَلَى خَلْقِ اللّه ؛ إِذْ لَيْسَ التَّواضُعُ وإِثْباتُهُ لِلنَّفْسِ إِلَّا عَنْ رِفْعَةٍ لَها أَوَّلًا ، فَمَتَى أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ أَيُّها المُرِيدُ تَواضُعًا فأَنْتَ المُتَكَبِّرُ حَقًّا ، ولا تَكُونُ مُتَواضِعًا حَتَّى تَرَى الأَشْياءَ كُلَّها مِثْلَكَ ، أَوْ أَحْسَنَ مِنْكَ إِنْ عَصَيْتَ رَبَّك .

وفِي الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ : (إِنَّما الكَرَمُ التَّقْوَى ، وإِنَّما الشَّرَفُ التَّواضُعُ ، وإِنَّما الغِنَى اليَقِينُ ، والمُتَواضِعُونَ فِي الدُّنْيا هُمْ أَصْحابُ المَنابِرِ يَوْمَ القِيامَة ، إِذا تَواضَعَ العَبْدُ رَفَعَهُ اللّهُ إِلَى السَّماءِ السَّابِعَة ، ولا يَزِيدُ التَّواضُعُ العَبْدَ إِلَّا رِفْعَةً ، فَتَواضَعُوا لِيَرْفَعَكُمُ اللّه ، وإِذا رَأَيْتُمُ المُتَواضِعِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَواضَعُوا لَهُمْ ، وإِذا رَأَيْتُمُ المُتَكَبِّرِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذَلَّةٌ لَهُمْ وصَغارٌ بِهِمْ) .

أَوْحَى اللّهُ إِلَى سَيِّدِنا مُوسَى عليه السلام : (إِنَّما أَقْبَلُ عَمَلَ مَنْ تَواضَعَ لِعَظَمَتِي ، ولَمْ يَتَكَبَّرْ عَلَى خَلْقِي ، وأَلْزَمَ قَلْبَهُ خَوْفِي ، وقَطَعَ النَّهارَ بِذِكْرِي ، وكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَواتِ مِنْ أَجْلِي) .

ثُمَّ فَسَّرَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ التَّواضُعَ الكامِلَ فَقالَ :

(لَيْسَ المُتَواضِعُ الَّذي إذا تَواضَعَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ ما صَنَعَ ؛ ولَكِنَّ المُتَواضِعَ الَّذي إذا تَواضَعَ رَأَى أَنَّهُ دُونَ ما صَنَعَ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : التَّواضُعُ الحَقِيقِيُّ هُوَ الَّذي يَنْشَأُ مِمَّنْ يُشاهِدُ الأَشْياءَ كُلَّها مِنْهُ ، فَإِذا تَواضَعَ مَعَها رَأَى أَنَّها تَسْتَحِقُّ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ التَّعْظِيم ، وأَنَّ نَفْسَهُ فِي الدَّناءَةِ والذُّلِّ دُونَ أَيِّ أَسْفَلَ مِمَّا صَنَعَ مِنَ التَّواضُع ، ولَيْسَ المُتَواضِعُ الَّذي يَرَى لِنَفْسِهِ مَزِيَّةً عَلَى الأَشْياء ، فَإِذا تَواضَعَ مَعَها رَأَى نَفْسَهُ فَوْقَ وأَفْضَلَ مِمَّا صَنَعَ مِنَ التَّواضُع ، فَهَذا هُوَ المُتَكَبِّرُ لِأَنَّهُ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَواضُعًا أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَحِقُّهُ ، وهَذِهِ الحِكْمَةُ كَأَنَّها بَيانٌ وتَتْمِيمٌ لِما قَبْلَها .

ثُمَّ إِنَّ التَّواضُعَ مِنْهُ ما يَكُونُ مُجاهَدَةً وتَصَنُّعًا ، وهُوَ مُجاهَدَةُ أَهْلِ اليَمِينِ مِنَ السَّائِرين ، ومِنْهُ ما يَكُونُ اخْتِيارِيًّا حَقِيقِيًّا وهُوَ تَواضُعُ العارِفِين ؛ لِأَنَّهُ ناشِئٌ عَنْ شُهُودِ عَظَمَةِ المَعْبُود ، فَلا يَتَخَلَّفُ إِلَّا فِي وَقْتِ الغَفْلَةِ وهُوَ قَلِيلٌ ، وهُوَ الَّذي أَبانَهُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(التَّواضُعُ الحَقِيقِيُّ هُوَ ما كانَ ناشِئًا عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ وتَجَلِّي صِفَتِهِ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : التَّواضُعُ الحَقِيقِيُّ : هُوَ تَواضُعُ العارِفِينَ ؛ لِأَنَّهُ ناشِئٌ عَنْ شُهُودِ عَظَمَةِ الحَقِّ ، وتَجَلِّي ذاتِهِ وصِفاتِهِ ، وهُوَ مِنْ عَطْفِ

التَّفْسِير ؛ لأَنَّ تَجَلِّي الصِّفاتِ هُوَ عَيْنُ عَظَمَةِ الذَّاتِ ، وذَلِكَ أَنَّ الحَقَّ تَعالَى كانَ في أَزَلِهِ القَدِيم مُتَّصِفًا بِصِفاتِهِ ، ومُتَسَمِّيًا بِأَسْمائِهِ فِي خَفاءٍ ولُطْفٍ لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ ، فَلَمَّا أَرادَ أَنْ يُعْرَفَ أَظْهَرَ بِقُدْرَتِهِ وإِرادَتِهِ عَظَمَةَ ذاتِهِ المُقدَّسَةِ مُتَّصِفًا بِصِفاتِهِ الأَزَلِيَّة ، فَتَجَلَّتِ القُدْرَةُ لِعَظَمَةِ الذَّات ، فَشُهُودُ عَظَمَةِ الذَّاتِ هُوَ شُهُودُ تَجَلِّي الصِّفات ، وإِلَيْهِ أَشارَ صاحِبُ العَيْنِيَّةِ بِقَوْلِهِ :

فَأَوْصَافُهُ وَالْإِسْمُ وَالْأَثَرُ الَّذِي ۞ هُوَ الْكَوْنُ عَيْنُ الذَّاتِ وَاللّٰهُ جَامِعُ

فالتَّواضُعُ الحَقِيقِيُّ : هُوَ الَّذي يَنْشَأُ عَنْ شُهُودِ عَظَمَةِ الذَّاتِ ونُورِ الصِّفاتِ ، فَلِذَلِكَ تَرَى العارِفِينَ يَتَواضَعُونَ مَعَ الحَجَرِ والمَدَرِ وكُلِّ شَيْءٍ ؛ لِمَعْرِفَتِهِمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

قالَ ذُو النُّونِ المِصْرِي رضي الله عنه : ((مَنْ أَرادَ التَّواضُعَ فَلْيُوَجِّهْ نَفْسَهُ إِلَى عَظَمَةِ اللهِ ، فَإِنَّها تَذُوبُ وتَصْغُرُ ، ومَنْ نَظَرَ إِلَى سُلْطانِ اللهِ تَعالَى ، ذَهَبَ عَنْهُ سُلْطانُ نَفْسِهِ ؛ لأَنَّ النُّفُوسَ كُلَّها مَحْقُورَةٌ عِنْدَ هَيْبَتِهِ ، ومِنْ أَشْرَفِ التَّواضُعِ أَلَّا يَنْظُرَ إِلَى نَفْسِهِ دُونَ اللهِ تَعالَى)) .

والحاصِلُ : أَنَّ التَّواضُعَ الحَقِيقِيَّ إِنَّما هُوَ للعارِفِينَ ؛ لأَنَّهُمْ حِينَ شَهِدُوا عَظَمَةَ الحَقِّ خَرَجَتْ عَنْهُمْ أَوْصافُ نُفُوسِهِمْ ؛ إِذْ لا يُخْرِجُ عَنِ الوَصْفِ

إِلَّا شُهُودُ الوَصْفِ كَما ذَكَرَهُ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(لا يُخْرِجُكَ عَنِ الوَصْفِ إِلَّا شُهُودُ الوَصْفِ) :

فَلا يُخْرِجُكَ عَنْ أَوْصافِ نَفْسِكَ الذَّمِيمَةِ إِلَّا شُهُودُ أَوْصافِ رَبِّكَ العَظِيمَة ، فَلا يُخْرِجُكَ عَنْ دَناءَةِ نَفْسِكَ إِلّا شُهودُ كَرَم رَبِّك ، فَلا يُخْرِجُكَ عَنْ شُهُودِ أَوْصافِكَ الحادِثَةِ إِلَّا شُهُودُ أَوْصافِ رَبِّكَ القَدِيمَة ، فَيُخْرِجُكَ عَنْ شُهُودِ فِعْلِكَ بِشُهُودِ فِعْلِهِ ، وَعَنْ شُهُودِ صِفاتِكَ بِشُهُودِ صِفاتِهِ ، وعَنْ شُهُودِ ذاتِكَ بِشُهُودِ ذاتِهِ .

وقَدْ سُئِلَ شَيْخُ أَشْياخِنا القُطْبُ ابنُ مَشِيش عَنْ حَقِيقَةِ المَحَبَّة ، سَأَلَهُ تِلْمِيذُهُ أَبُو الحَسَن رضي الله عنه : ، فَقالَ : المَحَبَّةُ أَخْذُ القَلْبِ وخَطْفُهُ عِنْدَ كَشْفِ نُورِ الجَمالِ وقُدْسِ الجَلال ، والشُّرْبُ : مَزْجُ الأَوْصافِ بالأَوْصافِ ، والأَخْلاقِ بِالأَخْلاقِ ، والأَنْوارِ بِالأَنْوارِ ، والأَسْماءِ بِالأَسْماءِ ، والنُّعُوتِ بِالنُّعُوتِ ، والأَفْعالِ بِالأَفْعالِ إلخ .

فَما دَامَ العَبْدُ لَمْ يُشاهِدْ أَوْصافَ رَبِّهِ المَعظِيمَة ، لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ أَوْصافِ نَفْسِهِ اللَّئِيمَةِ خُرُوجًا كُلِّيًّا ، وإِنَّما يَكُونُ ذَلِكَ مُجاهَدَةً ؛ تارَةً لَهُ ، وتارَةً عَلَيْه ، بَيْنَ طُلُوعٍ ونُزُول ، بِخِلافِ ما إِذا شاهَدَ أَوْصافَ رَبِّهِ ؛ فَإِنَّهُ يَغِيبُ عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ تَوَلَّاهُ مَحْبُوبُهُ ، فَكانَ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ

ويَدَهُ ورِجْلَهُ ، ومُؤَيِّدًا لَهُ ، فَلا يَنْصَرِفُ إِلَّا بِاللهِ : ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١) .

وأَنْشَدُوا :

إِذَا حُـزْتَ الْفَـخَارَ فَـلا تُبـالِ ❁ بِنَقْـصٍ فِـي الْجِـبِلَّةِ أَوْ كَـمَالِ

فَمَا التَّأْنِيثُ فِي اسْمِ الشَّمْسِ نَقْصٌ ❁ وَلا التَّذْكِـيرُ فَخْـرٌ لِلْهِـلالِ

يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ إِذا تَحَقَّقَ الفَناءُ فِي الذَّات ، والبَقاءُ بِاللهِ ، فَلا نَقْصَ لِلنَّفْسِ ولا كَمال ؛ وإِنَّما الكَمالُ للكَبِيرِ المُتَعال ، فَلَهُ الحَمْدُ والثَّناءُ عَلَى كُلِّ حال ، كَما قالَ الشَّيْخُ ابنُ عَطاءِ اللهِ :

(المُؤْمِنُ يَشْغَلُهُ الثَّناءُ عَلَى اللهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شاكِرًا ، وتَشْغَلُهُ حُقُوقُ اللهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوظِهِ ذاكِرًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : النَّفْسُ عِنْدَ تَحَقُّقِ الفَناءِ لا وُجُودَ لَها حَتَّى تَذْكُر ، ولا فِعْلَ لَها حَتَّى تَشْكُر ، فَلَيْسَ للعارِفِ عَنْ نَفْسِهِ إِخْبارٌ حَتَّى يُخْبِرَ عَنْها بِفِعْلِ شَيْءٍ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَشْكُرَ لَها وَصْفًا قَدِ اسْتَغْرَقَهُ شُهُودُ فِعْلِ الحَقِّ عَنْ فِعْلِهِ ، وشُهُودُ وَصْفِ الحَقِّ عَنْ شُهُودِ وَصْفِهِ ، وشُهُودُ نُورِ ذاتِ الحَقِّ عَنْ شُهُودِ ذَاتِهِ ، فَيَشْغَلُهُ الثَّناءُ عَلَى اللهِ عَن الالْتِفاتِ

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٠١ .

إِلَى ما سِواه ؛ إِذْ لا يَشْهَدُ فِي الكَوْنِ إِلَّا إِيَّاه ، وتَشْغَلُهُ حُقُوقُ الحَقِّ عَن الالْتِفاتِ إِلَى حُظُوظِ النَّفْسِ ؛ إِذْ لا نَفْسَ مَعَ الفَناء ، فَلا يَبْقَى إِلَّا حُقُوقُ العالِمِ الأَسْنَى ، فَتَنْقَلِبُ الحُظُوظُ فِي حَقِّهِ حُقُوقًا ؛ لأَنَّهُمْ إِذا نَزَلُوا مِنْ عُشِّ الحَضْرَةِ إِلَى أَرْضِ الحُظُوظِ نَزَلُوا بِالإِذْنِ والتَّمْكِين ، والرُّسُوخِ فِي اليَقِين ، نَزَلُوا بِاللهِ وإِلَى اللهِ ، فَلَيْسَ لَهُمْ نَظَرٌ إِلَى سِواه ، قَدْ تَخَلَّصَتْ أَرْواحُهُمْ مِنْ طَلَبِ الحُظُوظِ مُعَجَّلَةً كانَتْ أَوْ مُؤَجَّلَةً ؛ نَفْسانِيَّةً أَوْ رَوْحانِيَّةً ، إِنْ صَدَرَ مِنْهُمْ عَمَلٌ رَأَوْهُ مِنَّةً مِنَ اللهِ ، فَيَسْتَحْيُونَ أَنْ يَطْلُبُوا عَلَيْهِ عِوَضًا أَوْ غَرَضًا ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لَيْسَ المُحِبُّ الَّذي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عِوَضًا ، ويَطْلُبُ مِنْهُ غَرَضًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لاشَكَّ أَنَّ المَحَبَّةَ الَّتي تَكُونُ عَلَى الحُرُوفِ والحُظُوظِ لَيْسَتْ بِمَحَبَّةٍ ، وإِنَّما هِيَ مُصانَعَةٌ لِقَضاءِ الحاجَة ، فَمَنْ أَحَبَّ أَحَدًا لِيُعْطِيَهُ أَوْ لِيَدْفَعَ عَنْهُ فَإِنَّما أَحَبَّ نَفْسَهُ ؛ إِذْ لَوْلا غَرَضُ نَفْسِهِ فِيهِ ما أَحَبَّهُ .

ثُمَّ عَلَّلَ ابنُ عَطاءِ اللهِ كَوْنَ المَحَبَّةِ عَلَى العِوَضِ مَدْخُولَةً فَقالَ :

(فَإِنَّ المُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ لَكَ ، لَيْسَ المُحِبُّ مَنْ تَبْذُلُ لَهُ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : المُحِبُّ فِي الشَّيْءِ هُوَ الَّذي يَبْذُلُ نَفْسَهُ فِيهِ ومالَهُ ، ويَزْهَدُ فِي جِنْسِهِ مِنْ أَجْلِهِ ، ولا يَصِحُّ ذَلِكَ عَلَى التَّمام ، إِلَّا فِي جانِبِ

الَّذي أَسْبَغَ عَلَيْكَ سَوابِغَ الإِنْعام ، أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوَّلًا بِالإِيجاد ، وثانِيًا بِالإِمْداد ، وأَعْطاكَ كُلَّ ما تُرِيد ، ومَلَّكَكَ الكَوْنَ كُلَّهُ تَتَصَرَّفُ فِيهِ كَما تُرِيد ، قالَ تَعالَى : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ (١) .

وقالَ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (٢) .

فَهَذا سَبَبُ مَحَبَّةِ العَوام .

وأَمَّا مَحَبَّةُ الخَواصِّ فَهِيَ ناشِئَةٌ عَنْ شُهُودِ جَمالِهِ وبَهائِهِ ، فَغابُوا فِي شُهُودِ جَمالِهِ ، وتاهُوا فِي حَضْرَةِ بَهائِهِ ؛ فَهَؤُلاءِ باعُوا أَرْواحَهُمْ فِي طَلَبِ مَوْلاهُمْ ، ثُمَّ اسْتَقَلُّوا ما باعُوا ، واسْتَحْيَوا مِمَّا بَذَلُوا ؛ لِقِلَّةِ ما أَعْطَوْا فِي جانِبِ ما طَلَبُوا ، وفِي ذَلِكَ يَقُولُ سُلْطانُ العُشَّاقِ ابنُ الفارِض :

لَوْ أَنَّ رُوحِي فِي يَدِي ووَهَبْتُها ❁ لِمُبَشِّرِي بِقُدُومِكُمْ لَمْ أُنْصِفِ
مَا لِي سِوَى رُوحِي وَبَاذِلُ رُوحِهِ ❁ فِي حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ
فَلَئِنْ رَضِيتَ بِهَا فَقَدْ أَسْعَفْتَنِي ❁ يَا خَيْبَةَ الْمَسْعَى إِذَا لَمْ تُسْعِفِ

مُحارَبَةُ النُّفُوسِ ومُجاهَدَتُها

فَما تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ ورَحِيلُهُمْ إِلَى المَحْبُوبِ إِلَّا بِمُحارَبَةِ النُّفُوسِ

---

(١) سُورَةُ إِبْراهِيم : مِنَ الآيَة ٣٤ .
(٢) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٩ .

ومُجاهَدَتِها كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لَوْلا مَيادِينُ النُّفُوسِ ما تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِين) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : **المَيادِينُ** : جَمْعُ مَيْدانٍ وهُوَ مَجالُ الخَيْلِ ، ثُمَّ اسْتُعِيرَ هُنا لِمُحارَبَةِ النُّفُوسِ ومُجاهَدَتِها ، فَهِيَ تارَةً تَكُرُّ عَلَيْهِ فَتَظْفَرُ بِهِ ، وتارَةً يَكُرُّ عَلَيْها فَيَظْفَرُ بِها .

وحاصِلُ ما ذَكَرَهُ الشَّيْخُ فِي هَذِهِ الحِكْمَةِ أَنَّ النَّاسَ عَلَى قِسْمَيْن :

قِسْمٌ لا سَيْرَ لَهُمْ : إِذْ لا تَوَجُّهَ لَهُمْ إِلَى اللهِ ، فَهُمْ واقِفُونَ مَعَ ظاهِرِ الشَّرِيعَة ، كُلُّ ما أَباحَتْهُ الشَّرِيعَةُ أَخَذُوهُ ، ثَقِيلًا كانَ عَلَى النَّفْسِ أَوْ خَفِيفًا ، بَلْ لا يَأْخُذُونَ إِلَّا الخَفِيفَ ؛ لأَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ رُخَصَ الشَّرِيعَةِ وتَسْهِيلَها مِمَّا يُوافِقُ هَواهُمْ ، فَلَمْ يُغَيِّرُوا مِنْ عَوائِدِهِمْ وشَهَواتِهِمْ شَيْئًا : فَعِزُّهُمْ وافِر ، وجاهُهُمْ باقٍ ، ودُنْياهُمْ فِي الزِّيادَةِ ، وهَؤُلاءِ عَوامُّ المُسْلِمِين .

وقِسْمٌ اشْتاقَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَى حَضْرَةِ المَلِكِ ، وغَلَبَهُمُ الشَّوْقُ فَتَوَجَّهُوا إِلَى حَضْرَتِهِ واشْتَغَلُوا بِمُجاهَدَةِ نُفُوسِهِمْ ومُحاسَبَتِها ، فَكُلُّ ما يَثْقُلُ عَلَيْها أَدْخَلُوها فِيهِ وهِيَ تَمُوتُ ، وكُلُّ ما يَخِفُّ عَلَيْها جَنَّبُوها مِنْهُ وهِيَ تَبْكِي ، هَكَذا يَدُومُونَ عَلَيْها حَتَّى تَرْتاضَ وتَلِينَ ، وحِينَئِذٍ تُطاوِعُهُمْ

فِيما يُرِيدُونَ ، فَأَوَّلُ ما يُجاهِدُ المُرِيدُ فِي تَرْكِ الدُّنْيا ، أَوِ التَّخْفِيفِ حَتَّى لا يَبْقَى ما يَشْغَلُهُ عَنْ رَبِّهِ ، ثُمَّ فِي تَرْكِ النَّاسِ و الفِرارِ مِنْهُمْ ؛ يَتَنَكَّرُ لِمَنْ يَعْرِفُ ؛ ولا يَتَعَرَّفُ لِمَنْ لا يَعْرِفُ ، ثُمَّ فِي إِسْقاطِ المَنْزِلَةِ والجاهِ حَتَّى يَسْقُطَ مِنْ عَيْنِ النَّاس ، ويُسْقِطَ النَّاسَ مِنْ عَيْنِه ، ثُمَّ فِي الذُّلِّ والانْكِسارِ قَلْبًا وقالَبًا ، بِالمَشْيِ بِالحَفا ، وتَعْرِيَةِ الرَّأْسِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ ، فَإِذا تَحَقَّقَتْ بِالذُّلِّ والتَّواضُعِ ، والخُمُولِ والفَقْرِ ، وسَكَنَتْ فِي ذَلِكَ واسْتَحْلَتْهُ ، فَقَدْ تَمَكَّنَ مِنْها و مَلَكَها ، بَلْ مَلَكَ الكَوْنَ كُلَّهُ :

وَنَفْسَكَ تَحْوِي بِالحَقِيقَةِ كُلَّها ❁ أَشَرْتُ بِجِدِّ الْقَوْلِ مَا أَنا خَادِعُ

فَكُلُّ مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ فَقَدْ مَلَكَ الوُجُودَ بِأَسْرِهِ ، فَلَوْلا مُجاهَدَةُ النُّفُوسِ ومُحارَبَتُها فِي هَذِهِ المَيادِين ، ما تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِين ؛ إِذْ لا يَتَحَقَّقُ السَّائِرُ مِنَ القاعِدِ إِلَّا بِمُخالَفَةِ الهَوَى وخَرْقِ العَوائِد ، فَمَنْ خَرَقَ عَوائِدَ نَفْسِهِ حَتَّى اسْتَوَى عِنْدَهُ العِزُّ والذُّلُّ والفَقْرُ والغِنَى وغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ مَكْرُوهاتِ النُّفُوسِ فَقَدْ تَحَقَّقَ سَيْرُهُ ووُصُولُهُ ، ومَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى تَغْيِيرِ شَعْرَةٍ مِنْ نَفْسِهِ فَلا سَيْرَ لَهُ ولا وُصُول .

قالَ فِي «لَطائِف المِنَن» : «إِنَّما يَكُونُ الابْتِداءُ بِوَلِيٍّ دَلَّكَ اللهُ عَلَيْهِ وأَطْلَعَكَ عَلَى ما أَوْدَعَهُ مِنَ الخُصُوصِيَّةِ لَدَيْهِ ، فَطَوَى عَنْكَ شُهُودَ

بَشَرِيَّتِهِ ، وعَرَّفَكَ بِوُجُودِ خُصُوصِيَّتِهِ ، فَأَلْقَيْتَ إِلَيْهِ القِيادَ ، فَسَلَكَ بِكَ سَبِيلَ الرَّشادِ ، يُعَرِّفُكَ بِرُعُوناتِ نَفْسِكَ و دَفائِنِها وكَمائِنِها ودَقائِقِها ، ويَدُلُّكَ عَلَى الجَمْعِ عَلَى اللّٰه ، ويُعَلِّمُكَ الفِرارَ مِمَّا سِوَى اللّٰه ، ويُسايِرُكَ فِي طَرِيقِكَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى اللّٰه ، يُوقِفُكَ عَلَى إِساءَةِ نَفْسِكَ ، ويُعَرِّفُكَ بِإِحْسانِ اللّٰهِ إِلَيْكَ ، فَتُفِيدُكَ مَعْرِفَةُ إِساءَةِ نَفْسِكَ الهَرَبَ مِنْها وعَدَمَ الرُّكُونِ إِلَيْها ، ويُفِيدُكَ العِلْمُ بِإِحْسانِ اللّٰهِ إِلَيْكَ الإِقْبالَ عَلَيْهِ والقِيامَ بِالشُّكْرِ إِلَيْهِ والدَّوامَ عَلَى مَمَرِّ السَّاعاتِ بَيْنَ يَدَيْهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَأَيْنَ مَنْ هَذا وَصْفُهُ ؟ لَقَدْ دَلَلْتَنِي عَلَى أَغْرَبَ مِنْ عَنْقاءِ مَغْرِب ، فاعْلَمْ أَنَّهُ لا يَعُوزُكَ وِجْدانُ الدَّالِّين ، وإِنَّما يَعُوزُكَ وِجْدانُ الصِّدْقِ فِي طَلَبِهِمْ ، جِدَّ صِدْقًا تَجِدْ مَرْشِدًا ، وتَجِدُ ذَلِكَ فِي كِتابِ اللّٰه ، قالَ تَعالَى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (١) ، و قالَ : ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (٢) .

فَلَوِ اضْطُرِرْتَ إِلَى مَنْ يُوصِلُكَ إِلَى اللّٰهِ اضْطِرارَ الظَّمْآنِ إِلَى الماءِ ، والخائِفِ إِلى الأَمْنِ ، لَوَجَدْتَ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ وُجُودِ طَلَبِكَ ، ولَوِ اضْطُرِرْتَ إِلَى اللّٰهِ اضْطِرارَ الأُمِّ لِوَلَدِها إِذا فَقَدَتْهُ ، لَوَجَدْتَ

---

(١) سُورَةُ النَّمْل : مِنَ الآيَة ٦٢ . (٢) سُورَةُ مُحَمَّد : مِنَ الآيَة ٢١ .

الحَقَّ مِنْكَ قَرِيبًا ، ولَكَ مُجِيبًا ، ولَوَجَدْتَ الوُصُولَ غَيْرَ مُتَعَذِّرٍ عَلَيْكَ ، ولَتَوَجَّهَ الحَقُّ بِتَيْسِيرِ ذَلِكَ عَلَيْكَ)) .

وقالَ أَيْضًا فِي ((لَطائِف المِنَن)) : ((ولَيْسَ شَيْخُكَ مَنْ سَمِعْتَ مِنْهُ ، إِنَّما شَيْخُكَ مَنْ أَخَذْتَ عَنْهُ ، ولَيْسَ شَيْخُكَ مَنْ واجَهَتْكَ عِبارَتُهُ ، إِنَّما شَيْخُكَ مَنْ سَرَتْ فِيكَ إِشارَتُهُ ، ولَيْسَ شَيْخُكَ مَنْ دَعاكَ إِلَى الباب ، إِنَّما شَيْخُكَ مَنْ رَفَعَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ الحِجاب ، ولَيْسَ شَيْخُكَ مَنْ واجَهَكَ مَقالُه ، إِنَّما شَيْخُكَ مَنْ نَهَضَ بِكَ حالُه ، شَيْخُكَ هُوَ الَّذي أَخْرَجَكَ مِنْ سِجْنِ الهَوَى ، ودَخَلَ بِكَ عَلَى المَوْلَى ، شَيْخُكَ هُوَ الَّذي ما زالَ يَجْلُو مِرْآةَ قَلْبِكَ حَتَّى تَجَلَّتْ فِيهِ أَنْوارُ رَبِّكَ ، نَهَضَ بِكَ إِلَى اللّه ، فَنَهَضْتَ إِلَيْه ، وسارَ بِكَ حَتَّى وَصَلْتَ إِلَيْه ؛ وما زالَ مُحاذِيًا لَكَ حَتَّى أَلْقاكَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَزَجَّ بِكَ فِي نُورِ الحَضْرَة ، وقالَ : ها أَنْتَ ذا وربُّكَ)) .

والسَّيْرُ هُنا إِلَى اللّهِ - تَعالَى - مَجازِيٌّ ؛ عِبارَةٌ عَنْ قَطْعِ العَلائِقِ والعَوائِقِ ، وإِلَّا فالأَمْرُ كَما قالَ الشَّيْخُ ابنُ عَطاءِ اللّه :

(لا مَسافَةَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ حَتَّى تَطْوِيَها رِحْلَتُكَ ، ولا قُطْعَةَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ حَتَّى تَمْحُوَها وُصْلَتُكَ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : هَذا سُؤالٌ عَنْ بَحْثٍ مُقَدَّرٍ ؛ كَأَنَّ قائِلًا قالَ لَهُ : هَلْ بَيْنَنا وبَيْنَهُ مَسافَةٌ حَتَّى يَتَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرينَ إِلَيْه ؟ فَقالَ : لا مَسافَةَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ إِلَّا حِجابُ النَّفْسِ الكَثِيفَة ، وعَلائِقُ القَلْبِ الكَوْنِيَّة ، فَخَرْقُ عَوائِدِها وقَطْعُ شَهَواتِها وقَطْعُ العَلائِقِ والعَوائِق : هُوَ السَّيْرُ إِلَى اللّه ، فَمَنْ خَرَقَ عَوائِدَ نَفْسِهِ زالَتْ عَنْهُ الحُجُبُ الظُّلْمانِيَّة ، ومَنْ قَطَعَ عَلائِقَ القَلْبِ فاضَتْ عَلَيْهِ العُلُومُ الرَّبَّانِيَّةَ وأَشْرَقَتْ عَلَيْهِ الشُّمُوسُ العِرْفانِيَّة ، وهَذا هُوَ الوُصُولُ ، فَلا مَسافَةَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ حِسِّيَّةً حَتَّى تَطْوِيَها رِحْلَتُكَ ، ولا قُطْعَةَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ ؛ أَيْ : لا حاجِزَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ حَتَّى تَمْحُوَها وَصْلَتُكَ ، قالَ تَعالَى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (١) .

فَما حالَ بَيْنَنا وبَيْنَهُ إِلَّا تَوَهُّمُ نُفُوسِنا ، فَلَوْ غِبْنا عَنْها ، لَوَجَدْنا أَنْفُسَنا فِي الحَضْرَة ، ولا يُمْكِنُ الغَيْبَةُ عَنْها إِلَّا بِمَوْتِها ، ومَوْتُها فِي مُخالَفَةِ عَوائِدِها .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ الإِنْسانَ إِذا جالَ مَعَ النَّفْسِ فِي مَيْدانِها ، فَجاهَدَها حَتَّى هَذَّبَها ، وطَهَّرَها مِنَ الأَوْصافِ الحاجِبَةِ لَها ، رَجَعَتْ نَفْسُهُ حِينَئِذٍ إِلَى

---

(١) سُورَةُ ق : الآيَة ١٦ .

أَصْلِها وهِيَ الحَضْرَةُ الَّتي كانَتْ فِيها ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَها وبَيْنَ الحَضْرَةِ إِلَّا الحُجُبُ الظُّلْمانِيَّة ، فَلَمَّا تَخَلَّصَتْ مِنْها رَجَعَتْ إِلَى أَصْلِها نُورًا مُشْرِقًا فِي قالَبٍ ظُلْمانِي ، فَصارَتْ عِنْدَهُ ياقُوتَةً مَكْنُونَةً تُطْوَى عَلَيْها أَصْحافُ المَكْنُونات ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(جَعَلَكَ فِي العالَمِ المُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ ومَلَكُوتِهِ ؛ لِيُعْلِمَكَ جَلالَةَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقاتِهِ ، وأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تُطْوَى عَلَيْكَ أَصْدافُ مُكَوَّناتِه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : قَدْ عَظَّمَ اللّٰهُ سُبْحانَهُ هَذا الإِنْسان ، وجَعَلَهُ نُخْبَةَ الأَكْوان ، اجْتَمَعَ فِيهِ ما لَمْ يَجْتَمِعْ فِي غَيْرِهِ ، فِيهِ مُلْكٌ ومَلَكُوتٌ ، ونُورٌ وظُلْمَةٌ ، وغَيْبٌ وشَهادَةٌ ، وعالَمٌ عُلْوِيٌّ وسُفْلِيٌّ ، وقُدْرَةٌ وحِكْمَةٌ ، وحِسٌّ ومَعْنًى ، فَقَدْ جَعَلَكَ اللّٰهُ أَيُّها الإِنْسانُ ناشِئًا فِي العالَمِ المُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وهُوَ بَشَرِيَّتُكَ ، ومَلَكُوتِهِ وهُوَ رُوحانِيَّتُكَ .

والتَّحْقِيقُ أَنَّ الإِنْسانَ هُوَ المَجْمُوعُ بَيْنَ الجَسَدِ والرُّوح ، فَهُوَ بِنَفْسِهِ عالَمٌ مُتَوَسِّطٌ ؛ أَيْ : مُرَكَّبٌ مِنْ مُلْكٍ ومَلَكُوتٍ ، فَلَوْ قالَ : جَعَلَكَ عالَمًا مُتَوَسِّطًا بَيْنَ مُلْكِهِ ومَلَكُوتِهِ : لأَفْهَمَ المُرادَ بِسُهُولَة ؛ أَيْ : لَسْتَ مُلْكًا فَقَط ، ولا مَلَكُوتًا فَقَط ، بَلْ جَعَلَكَ مُتَوَسِّطًا بَيْنَهُما ؛ أَيْ : مُرَكَّبًا مِنْهُما ؛ كَقَوْلِهِ ﷺ : (كُنْتُ نَبِيًّا وآدَمُ بَيْنَ الماءِ والطِّين) ؛ أَيْ

مُرَكَّبًا مِنْهُما دُونَ رُوحٍ ، ولَكِنَّ عِبارَةَ الشَّيْخِ فِيها إِلْغازٌ وتَدْقِيقُ إِشارَة ، وعِلْمُنا كُلُّهُ إِشارَة .

إِذِ الرُّوحُ لَمْ يَسَعْها أَرْضٌ ولا سَماءٌ ؛ كَما بَيَّنَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(وَسِعَكَ الكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جُثْمانِيَّتُكَ ولَمْ يَسَعْكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُ رُوحانِيَّتِكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الرُّوحُ إِذا تَصَفَّتْ وتَطَهَّرَتْ مِنْ كُدُراتِ الحِسِّ عَرَجَتْ إِلَى عالَمِ الجَبَرُوت ، فَلَمْ يَحْجُبْها عَنِ اللّهِ أَرْضٌ ولا سَماء ، ولا فَلَكٌ ولا عَرْشٌ ولا كُرْسِيٌّ ، وهَذا أَمْرٌ مَذُوقٌ عِنْدَ العارِفِين ، إِذا نَظَرُوا إِلَى الكَوْنِ بِأَسْرِهِ ذابَ ورَجَعَ ماءً ، فَإِذا شَرِبُوهُ صارَ فِي قُلُوبِهِمْ كَنُقْطَةٍ ، وهُمْ مُتَفاوِتُونَ فِي إِحاطَتِهِمْ بِالكَوْن ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ عِنْدَهُ كالبَيْضَة ، ومِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ عِنْدَهُ كالخَرْدَلَة ، وذَلِكَ بِحَسَبِ اتِّساعِ النَّظْرَةِ وضِيقِها ، فَكُلَّما جالَتِ الرُّوحُ فِي بَحْرِ الجَبَرُوتِ صَغُرَ الكَوْنُ عِنْدَها حَتَّى لا تُحِسَّ بِهِ ، ولِذَلِكَ قالَ بَعْضُهُمْ : لَوْ كانَ العَرْشُ فِي زاوِيَةٍ مِنْ زَوايا العارِفِ ما أَحَسَّ بِهِ .

ثُمَّ يَتَلاشَى الكَوْنُ ويَضْمَحِلُّ ، ويَتَّصِلُ عالَمُ المَلَكُوتِ بِعالَمِ الجَبَرُوت

(وهُوَ المَعانِي اللَّطِيفَةُ القَدِيمَةُ الَّتي لَمْ تَدْخُلْ عالَمَ التَّكْوين) ، فَلا بَقاءَ إِلَّا للحَيِّ الَّذي لا يَمُوت ، وهَذا لا يَفْهَمُهُ إِلَّا العارِفُون الَّذينَ غَلَبَتْ رُوحانِيَّتُهُمْ عَلَى بَشَرِيَّتِهِمْ ، فَصارُوا رُوحانِيِّينَ مَلَكُوتِيِّين ، أَشْباحُهُمْ مَعَ الخَلْقِ ، وأَرْواحُهُمْ مَعَ الحَقِّ ، فَقَدْ وَسِعَكَ أَيُّها الإِنْسانُ الكَوْنُ ، وحَصَرَكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُ رُوحانِيَّتِكَ ؛ لأَنَّ رُوحَكَ مُتَّصِلَةٌ بِعالَمِ الجَبَرُوتِ المُحِيط ، فَلَمَّا تَكَثَّفَتْ وانْحَصَرَتْ فِي هَذا الهَيْكَل ، لَزِمَتْها القَهْرِيَّة ، فانْحَجَبَتْ بِالحِكْمَة ، وتَقَيَّدَتْ بِالقُدْرَة ؛ فَما دامَتِ البَشَرِيَّةُ كَثِيفَةً بِحُبِّ الشَّهَواتِ والعَوائِدِ فَهِيَ مَحْجُوبَةٌ ، فَإِذا تَلَطَّفَتْ بِذِكْرِ اللّٰهِ وانْخَرَقَ عَنْها حِجابُ الحِسِّ رَجَعَتْ إِلَى أَصْلِها فاتَّصَلَتْ بِبَحْرِها فَصارَ المَلَكُوتُ والمُلْكُ فِي طَيِّ قَبْضَتِها ؛ فَلَمْ يَسَعْها حِينَئِذٍ أَرْضٌ ولا سَماءٌ ، ولا يَحْصُرُها عَرْشٌ ولا فَرْشٌ ، ولِذَلِكَ قِيلَ : الصُّوفِيُّ لا تُقِلُّهُ الأَرْضُ ، ولا تُظِلُّهُ السَّماء .

وفِي الحَدِيثِ القُدْسِيِّ : (يَقُولُ اللّٰهُ تَعالَى : لَمْ تَسَعْنِي أَرْضِي ولا سَمائِي ، ووَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِن) .

أَي : الكامِلُ ، وهو العارِفُ (الوارِثُ المُحَمَّدِي) .

فَما دامَ العَبْدُ مَسْجُونًا بِالكَوْنِ مَحْصُورًا فِي بَشَرِيَّتِهِ فَهُوَ فِي سِجْنِ

الأَكْوان ، فَإِنْ نَفَذَتْ بَصِيرَتُهُ وعَرَجَتْ رُوحُهُ إِلَى المَلَكُوتِ خَرَجَ مِنَ السِّجْنِ إِلَى الفَضاءِ ، كَما بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(الكائِنُ فِي الكَوْنِ ولَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيادِينُ الغُيُوبِ مَسْجُونٌ بِمُحِيطاتِه ، مَحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذاتِه) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : مَيادِينُ الغُيُوب : هِيَ ما أَدْرَكَتْهُ الرُّوحُ حِينَ خَرَجَتْ مِنْ ضِيقِ الأَشْباحِ إِلَى عالَمِ الأَرْواح ، و مِنْ فَضاءِ الشُّهُودِ إِلَى مَعْرِفَةِ المَلِكِ المَعْبُود ، فَما دامَ الإِنْسانُ فِي الكَوْنِ بِحَيْثُ لا يَشْهَدُ إِلَّا الكَوْنَ ، ولا يُدْرِكُ إِلَّا الحِسَّ ، ولَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيادِينُ الغُيُوب ؛ أَيْ : لَمْ يَخْرُجْ إِلَى فَضاءِ الشُّهُود ، فَهُوَ مَسْجُونٌ بِمُحِيطاتِه ؛ أَيْ : بِالأَكْوانِ المُحِيطَةِ بِهِ ، فَهُوَ فِي سِجْنِ الأَكْوان ، مَحْصُورًا أَيْضًا فِي هَيْكَلِ ذاتِه ؛ أَيْ : فِي شَكْلِ بَشَرِيَّتِه ، وكَثائِفِ جِسْمِه .

فَإِذا غَلَبَتْ رُوحانِيَّتُهُ عَلَى بَشَرِيَّتِهِ فَقَدْ خَرَجَتْ مِنْ حَصْرِ الهَيْكَل ، وإِذا نَفَذَتْ بَصِيرَتُهُ إِلَى فَضاءِ المَلَكُوتِ أَوْ بِحارِ الجَبَرُوتِ فَقَدْ خَرَجَتْ مِنْ سِجْنِ الأَكْوانِ إِلَى شُهُودِ المُكَوِّن ، فَحِينَئِذٍ تَتَحَرَّرُ مِنْ رِقِّ الأَكْوان ، وتَحْظَى بِنَعِيمِ الشُّهُودِ والعِيان .

وأَمَّا ما دامَ مَحْصُورًا فِي الهَيْكَل ، مَسْجُونًا فِي الأَكْوانِ فَهُوَ مَحْجُوبٌ

عَنِ اللهِ ، ولَوْ كانَ عالِمًا بِالعُلُومِ الرَّسْمِيَّةِ مُتَبَحِّرًا فِيها ؛ إِذْ لا يَزِيدُهُ التَّغَلْغُلُ فِيها إِلَّا حِجابًا عَنِ اللهِ .

قالَ فِي ((قُوت القُلُوب)) : ((كُلُّ مَنْ لَمْ يُفْتَحْ لَهُ فِي هَذا العِلْمِ الباطِنِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ اليَمِين ، وكُلُّ مَنْ فُتِحَ لَهُ فِي عِلْمِ الباطِنِ فَهُوَ مِنَ المُقَرَّبِينَ السَّابِقِين)) .

وهُوَ ظاهِرٌ ؛ لأَنَّ عِلْمَ الرُّسُومِ لا يُخْرِجُهُ مِنْ سِجْنِ الأَكْوانِ ، فَهُوَ مِنَ الأَكْوانِ عَلَى الدَّوام ، وإِذا كانَ مَعَ الأَكْوانِ فاتَهُ شُهُودُ المُكَوِّن ، كَما قالَ ابنُ عَطاءِ اللهِ :

(أَنْتَ مَعَ الأَكْوانِ ما لَمْ تَشْهَدِ المَلَكُوتَ ، فإِذا شَهِدْتَهُ كانَتِ الأَكْوانُ مَعَكَ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : ما دامَ العَبْدُ مُقَيَّدًا فِي سِجْنِ الأَكْوانِ ومَحْصُورًا فِي هَيْكَلِ جِسْمِهِ ، فالأَكْوانُ حاكِمةٌ عَلَيْه ، فَهُوَ يُحِبُّها ويَعْشَقُها ، وهِيَ تُبْغِضُهُ وتُبْعِدُهُ عَنْ رَبِّهِ ، وهُوَ يَفْتَقِرُ إِلَيْها ، وهِيَ غَنِيَّةٌ عَنْهُ ، وهُوَ يَمِيلُ إِلَيْها ويَحْرِصُ عَلَيْها ، وهِيَ تَفِرُّ مِنْهُ ، وهُوَ يَخافُ مِنْها ، ويَهابُها ، وهِيَ تُخَوِّفُهُ وتُرْعِبُهُ ، فَإِذا شَهِدَ مُكَوِّنَها ، وغابَ وتَحَرَّرَ مِنْ رِقِّها ، كانَتْ حِينَئِذٍ هِيَ خادِمَتُهُ ، وهُوَ حاكِمٌ عَلَيْها ، وهِيَ تُحِبُّهُ وتَعْشَقُهُ ،

وهُوَ مَشْغُوفٌ بِحُبِّ خالِقِها ، وهِيَ تَفْتَقِرُ إِلَيْه ، وهُوَ غَنِيٌّ عَنْها ، وهِيَ تَحْرِصُ عَلَيْهِ ، وهُوَ زاهِدٌ فِيها ، وهِيَ تَخافُ مِنْهُ وتَهابُهُ ، وهُوَ فِي أَمْنٍ مِنْها ، فالجَنَّةُ تَشْتاقُ إِلَيْهِ ، وهُوَ غَنِيٌّ عَنْها .

وفِي الحَدِيث : (اشْتاقَتِ الجَنَّةُ إِلَى عَلِيٍّ وصُهَيْبٍ وبِلال) .

والنَّارُ تَهابُهُ ، وهُوَ فِي غَيْبَةٍ عَنْها .

وقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيثِ أَنَّها تَقُولُ يَوْمَ القِيامَة : (جُزْ يا مُؤْمِنُ ، فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي) ، أَوْ كَما قالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ و السَّلام .

فَمَنْ رَفَعَ هِمَّتَهُ عَنِ الأَكْوانِ ومُتِّعَ بِشُهُودِ المُكَوِّنِ فَقَدْ ثَبَتَتْ لَهُ الخُصُوصِيَّةُ الكُبْرَى ، والوِلايَةُ العُظْمَى ، ولا يَلْزَمُ مِنْ رَفْعِ الهِمَّةِ عَنِ الأَكْوانِ اسْتِغْناؤُهُ عَمَّا تَحْتاجُ إِلَيْهِ البَشَرِيَّةُ مِمَّا يَقُومُ بِهِ وَصْفُها اللَّازِمُ لَها ، وإِلَيْهِ أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(لا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الخُصُوصِيَّةِ عَدَمُ وَصْفِ البَشَرِيَّة) :

المُرادُ بِالوَصْفِ البَشَرِي : ما جَعَلَهُ اللّٰهُ مُحْتاجًا إِلَيْهِ بِحِكْمَتِهِ فِي قَوامِ بَدَنِ الإِنْسانِ مِنْ أَكْلٍ وشُرْبٍ ولِباسٍ ومَسْكَنٍ ، وما فَطَرَهُ عَلَيْهِ مِنْ شَهْوَةٍ مُباحَةٍ ؛ كَنِكاحٍ وشَهْوَةٍ غَيْرِ مُحَرَّمَةٍ ، فَهَذِهِ الأَوْصافُ لا يُنافِي وُجُودُها وُجُودَ الخُصُوصِيَّة ، فَقَدْ قالَ - تَعالَى - فِي الرُّسُلِ :

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ (١) .

وقالَ تعالَى : ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلاً مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (٢) .

نَعَمْ ، وَصْفُ البَشَرِيَّةِ فِي حَقِّ أَهْلِ الخُصُوصِيَّةِ لَيْسَ هُوَ كَغَيْرِهِمْ ؛ لأَنَّ أَهْلَ الخُصُوصِيَّةِ أَمْرُهُمْ كُلُّهُ بِاللهِ ، انْقَلَبَتْ حُظُوظُهُمْ حُقُوقًا ، بِخِلافِ غَيْرِهِمْ ، أَنْفُسُهُمْ غالِبَةٌ عَلَيْهِمْ ، فَتَقَلُّباتُهُمْ كُلُّها فِي حُظُوظِ أَنْفُسِهِمْ .

فَإِذا تَقَرَّرَ هَذا ، عَلِمْتَ أَنَّهُ لا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الخُصُوصِيَّة (وهِيَ الوِلايَةُ والمَعْرِفَةُ أَوِ الحُرِّيَّةُ ، ومَعْناهُما واحِد) عَدَمُ وَصْفِ البَشَرِيَّة ، فالخُصُوصِيَّةُ مَحَلُّها البَواطِن ، ووَصْفُ البَشَرِيَّةِ مَحَلُّها الظَّواهِر ، ولِذَلِكَ اخْتَلَفَتِ الأَوْلِياءُ والأَنْبِياءُ والرُّسُلُ عَنِ النَّاس : لِظُهُورِ أَوْصافِ البَشَرِيَّةِ عَلَيْهِمْ ، فَكَيْفَ تَعْرِفُ رَجُلًا يَأْكُلُ كَما تَأْكُلُ ، ويَشْرَبُ كَما تَشْرَبُ ، وينامُ ويَتَزَوَّجُ النِّساء ؟ فَلا يَعْرِفُهُمْ إِلَّا مَنْ أَرادَ اللهُ سَعادَتَهُ ، وما وَقَعَ الإِنْكارُ عَلَى الأَنْبِياءِ والأَوْلِياءِ إِلَّا لاعْتِقادِهِمْ أَنَّ أَوْصافَ البَشَرِيَّةِ تُنافِي ثُبُوتَ الخُصُوصِيَّة ، فَقَدْ قالَ الكُفَّارُ فِي حَقِّهِ ﷺ :

---

(١) سُورَةُ الفُرْقان : مِنَ الآيَة ٢٠ . (٢) سُورَةُ الرَّعْد : مِنَ الآيَة ٣٨ .

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (١) .

فَرَدَّ اللّٰهُ تَعالَى عَلَيْهِمْ بِعَدَم تَنافِيهِما فَقالَ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (٢) .

وأَمَّا الأَوْصافُ الَّتي هِيَ مَذْمُومَةٌ كالحَسَدِ ، والكِبْرِ ، والبُغْضِ ، والعُجْبِ ، والرِّياءِ ، والغَضَبِ ، والقَلَقِ ، وخَوْفِ الفَقْرِ ، وهَمِّ الرِّزْقِ ، والتَّدْبيرِ والاخْتِيارِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ ، فَهَذِهِ لا بُدَّ مِنَ التَّطْهيرِ مِنْها فِي خُصُوصِيَّةِ النُّبُوَّةِ والوِلايَة ؛ وقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ : ((اخْرُجْ مِنْ أَوْصافِ بَشَرِيَّتِكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُناقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ ؛ لِتَكُونَ لِنِداءِ الحَقِّ مُجِيبًا ، ومِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيبًا)) .

أَمَّا فِي حَقِّ النَّبِيِّ فَتَطْهِيرُهُ مِنْها واجِبٌ ؛ لأَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنْ جَمِيعِ النَّقائِص .

وأَمَّا فِي حَقِّ الوَلِيِّ ، فَلَيْسَ بِواجِب ، لَكِنَّهُ مَحْفُوظ ، فَقَدْ يَصْدُرُ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الأَوْصافِ المَذْمُومَةِ عَلَى سَبِيلِ الهَفْوَةِ والزَّلَّة ، ولا تُنافِي وُجُودَ خُصُوصِيَّتِهِ ، لَكِنَّهُ لا يُصِرُّ عَلَيْها ولا يَدُومُ فِيها ، فَقَدْ

---

(١) سُورَةُ الفُرْقان : مِنَ الآيَة ٧ .
(٢) سُورَةُ الفُرْقان : الآيَة ٢٠ .

يَصْدُرُ مِنَ الوَلِيِّ الغَضَبُ مَثَلًا ، والقَلَقُ والتَّدْبيرُ والاخْتِيارُ ، وغَيْرُ ذَلِكَ ، لَكِنَّهُ كالرِّيحِ يَضْرِبُ ويَسْرَحُ .

قالَ فِي ((النَّصيحَةِ الكافِيَة)) : وقَدْ تَكُونُ للوَلِيِّ هَفْوَةٌ وهَفَوات ، و زَلَّةٌ وزَلَّات ، ولَكِنْ لا يُصِرُّ عَلَيْها .

وقِيلَ للجُنَيْد : أَيَزْنِي العارِفُ ؟ فَسَكَتَ ثُمَّ قالَ : ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (١) .

قالَ ابنُ عَطاءِ اللّه : ((لَيْتَ شِعْرِي ، لَوْ قِيلَ لَهُ : أَتَكُونُ هِمَّةُ العارِفِ مَعَ غَيْرِ اللّه ؟ لَقالَ : لا)) .

ثُمَّ ضَرَبَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ مَثَلًا لِنُورِ الخُصُوصِيَّةِ مَعَ ظُلْمَةِ البَشَرِيَّةِ الحِسِّيَّةِ فَقالَ :

(**إِنَّما مَثَلُ الخُصُوصِيَّةِ كَإِشْراقِ شَمْسِ النَّهارِ ظَهَرَتْ فِي الأُفُق ، ولَيْسَتْ مِنْهُ ، تارَةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصافِهِ عَلَى لَيْلِ وُجُودِكَ ، وتارَةً يَقْبِضُ ذَلِكَ عَنْكَ ، فَيَرُدُّكَ إِلَى حُدُودِكَ ، فالنَّهارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ ، ولَكِنَّهُ وارِدٌ عَلَيْكَ**) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مَثَلُ نُورِ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذي أَشْرَقَهُ اللّهُ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِهِ ، وسَتَرَهُ بِظُهُورِ البَشَرِيَّةِ ، كَمَثَلِ نُورِ الشَّمْسِ إِذا أَشْرَقَ عَلَى الآفاق

---

(١) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٣٨ .

(وهُوَ الفَضاءُ الَّذي بَيْنَ السَّماءِ والأَرْض) فَإِنَّ الفَضاءَ قَبْلَ ظُهُورِ الشَّمْسِ مُظْلِمٌ لَيْسَ فِيهِ نُورٌ ، فَإِذا أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ رَجَعَ نُوراً صافِيًا ، فَنُورانِيَّتُهُ لَيْسَتْ مِنْ ذاتِهِ وإِنَّما هِيَ مِنَ الشَّمْس ، كَذَلِكَ نُورُ الرُّبُوبِيَّةِ هُوَ مُسْتَوْدَعٌ فِي باطِنِ البَشَرِيَّة ، فَإِذا أَرادَ اللّٰهُ تَعالَى أَنْ يُظْهِرَ خُصُوصِيَّةَ عَبْدِهِ أَشْرَقَ ذَلِكَ النُّورَ عَلَى ظاهِرِ بَشَرِيَّتِهِ ، فَتَسْتَوْلِي رُوحانِيَّتُهُ عَلَى بَشَرِيَّتِهِ ، فَلا يَبْقَى للبَشَرِيَّةِ أَثَرٌ ، فَتَصِيرُ البَشَرِيَّةُ كُلُّها نُوراً ، فَنُورُ البَشَرِيَّةِ لَيْسَ مِنْها ، ولَكِنَّهُ وارِدٌ عَلَيْها ، فَتارَةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصافِهِ (وهِيَ الوُجُودُ والقِدَمُ والبَقاءُ وسائِرُ أَوْصافِهِ السَّلْبِيَّةِ والوُجُودِيَّةِ والمَعانِي والمَعْنَوِيَّةِ) عَلَى لَيْلِ وُجُودِكَ الظَّلْمانِي الكَثِيف ، فَتَذْهَبُ أَوْصافُكَ الحادِثَةُ العَدَمِيَّةُ بِظُهُورِ أَوْصافِهِ القَدِيمَةِ الأَزَلِيَّة ، فَيَتَحَقَّقُ الوِصال ، و يَذْهَبُ الانْفِصال ، وتارَةً يَقْبِضُ ذَلِكَ النُّورُ ويُغَيِّبُهُ عَنْكَ ويَرُدُّهُ إِلَى باطِنِكَ ، فَتَرْجِعُ إِلَى شُهُودِ عُبُودِيَّتِكَ ، ويَرُدُّكَ إِلَى حُدُودِكَ ، وهَذا حالُ الوارِدِ الإِلَهِي ، إِذا فاضَ عَلَى الإِنْسانِ غَيَّبَهُ عَنْ نَفْسِهِ واقْتَطَعَهُ عَنْ حِسِّهِ ، فَلا يَرَى إِلَّا أَوْصافَ رَبِّهِ ، ويُنْكِرُ وُجُودَ نَفْسِهِ مِنْ أَصْلِهِ ، فَإِذا سَكَنَ الوارِدُ رَجَعَ إِلَى شُهُودِ نَفْسِهِ بِرَبِّهِ ، ورَجَعَ ذَلِكَ النُّورُ إِلَى باطِنِهِ ، فَيَكُونُ باطِنُهُ نُوراً عَلَى الدَّوام ، وظاهِرُهُ تارَةً

يَغْلِبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ النُّورُ وتارَةً تَغْلِبُ عَلَيْهِ الظُّلْمَة ؛ أَي : العُبُودِيَّة ، فَنُورُ الوارِدِ لَيْسَ مِنَ الإِنْسانِ مِنْ حَيْثُ بَشرِيَّتُهُ ، ولَكِنَّهُ وارِدٌ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ رُوحانِيَّتُهُ ، كَما أَنَّ نُورَ الأُفُقِ لَيْسَ هُوَ مِنْ ذاتِ الأُفُقِ لَكِنَّهُ وارِدٌ عَلَيْهِ مِنْ إِشْراقِ شَمْسِ النَّهارِ عَلَيْه .

واعْلَمْ أَنّ النـَّاسَ فِي هَذا النُّورِ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام :

قِسْمٌ نُورُهُ حَدُّهُ الباطِن ؛ ولَمْ يَصْعَدْ مِنْ شُعاعِهِ شَيْءٌ لِظاهِرِهِ ، وهُمُ العَوامُّ .

وقِسْمٌ اسْتَوْلَى نُورُهُمْ عَلَى ظاهِرِهِمْ وباطِنِهِمْ ؛ وهُمُ المَجْذُوبُونَ فِي حَضْرَةِ اللّه .

وقِسْمٌ امْتَلأَ باطِنُهُمْ نُورًا ؛ وصَعِدَ شُعاعُهُ عَلَى ظاهِرِهِمْ ، فاسْتَوْلَى عَلَى الظَّاهِرِ عَلَى الدَّوام ، وهُمُ السَّالِكُونَ بَعْدَ الجَذْبِ ، الرَّاسِخُونَ فِي المَعْرِفَةِ .

ثُمَّ ذَكَرَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ الطَّرِيقَةَ المُوَصِّلَةَ إِلَى الخُصُوصِيَّةِ ، فَقالَ :

(دَلَّ بِوُجُودِ آثارِهِ عَلَى وُجُودِ أَسْمائِهِ ، وبِوُجُودِ أَسْمائِهِ عَلَى ثُبُوتِ أَوْصافِهِ ، وبِوُجُودِ أَوْصافِهِ عَلَى وُجُودِ ذَاتِهِ ؛ إِذْ مُحالٌ أَنْ يَقُومَ الوَصْفُ بِنَفْسِهِ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : هَذِهِ طَريقَةُ التَّرَقِّي ، فَوُجُودُ الأَثَرِ يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ القادِرِ والمُرِيدِ والعَلِيمِ والحَقِّ مَثَلًا ، فالقادِرُ يَدُلُّ عَلَى قِيامِ القُدْرَةِ بِهِ بِحَيْثُ لا تُفارِقُهُ ؛ إِذْ مُحالٌ أَنْ يَقُومَ الوَصْفُ بِنَفْسِهِ ، فَلَزِمَ مِنْ وُجُودِ الأَثَرِ وُجُودُ المُؤَثِّر ، وهُنا افْتَرَقَ أَهْلُ الظَّاهِرِ مِنْ أَهْلِ الباطِن :

فَأَهْلُ الظّاهِرِ أَثْبَتُوا مِنْ وُجُودِ الأَثَرِ وُجُودَ الأَسْماءِ والصِّفات ، ولَمْ يَقْدِرُوا عَلَى شُهُودِ الذَّات ، غَلَبَهُمُ الحِسُّ عَنْ شُهُودِ المَعْنَى ، والوَهْمُ عَنْ ثُبُوتِ العِلْم ، وشُهُودُ الحِكْمَةِ عَنْ شُهُودِ القُدْرَة .

وأَهْلُ الباطِنِ لَمَّا فَرَّغُوا قُلُوبَهُمْ مِنَ الأَغْيار ، وباعُوا نُفُوسَهُمْ للواحِدِ القَهَّار ، فَتَحَ اللّٰهُ عَيْنَ بَصِيرَتِهِمْ وأَطْلَعَهُمْ عَلَى مَكْنُونِ سِرِّهِ فَأَفْرَدُوا الحَقَّ بِالوُجُود ، وانْتَفَى عَنْ بَصِيرَةِ نَظَرِهِمْ كُلُّ مَوْجُود ؛ إِذْ مُحالٌ أَنْ يُفارِقَ الصِّفَةَ مَوْصُوفُها ، أَوْ تَقُومَ بِنَفْسِها ، فَلَزِمَ مِنْ وُجُودِ الصِّفاتِ وُجُودُ الذَّات ، وهَذا هُوَ سِرُّ الخُصُوصِيَّةِ الَّتي خَصَّ اللّٰهُ بِها أَوْلِياءَهُ ، ولَمْ يُشارِكْهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ .

الفَرْقُ بَيْنَ أَهْلِ الجَذْبِ والسُّلُوك

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عطاءِ اللّٰهِ أَهْلَ الجَذْبِ مِنْ أَهْلِ السُّلُوك ، وأَهْلَ التَّدَلِّي مِنْ أَهْلِ التَّرَقِّي ، فَقالَ :

(فَأَهْلُ الجَذْبِ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ كَمالِ ذاتِه ، ثُمّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ صِفاتِه ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى التَّعَلُّقِ بِأَسْمائِه ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ آثارِه ، والسَّالِكُونَ عَلَى عَكْسِ هَذا ، فَنِهايَةُ السَّالِكِينَ بِدايَةُ المَجْذُوبِينَ ، لَكِنْ لا بِمَعْنًى واحِدٍ ؛ فَرُبَّما الْتَقَيا فِي الطَّرِيقِ ، هَذا فِي تَرَقِّيهِ وهَذا فِي تَدَلِّيهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : عِبادُ اللهِ المَخْصُوصُونَ بِسِرِّ الخُصُوصِيَّةِ هُمْ فِي سَيْرِهِمْ عَلَى قِسْمَيْن : مِنْهُمْ مَنْ يَبْدَأُ بِالجَذْبِ ثُمّ يُرَدُّ إِلَى السُّلُوك ، ومِنْهُمْ مَنْ يَبْدَأُ بِالسُّلُوكِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الجَذْبُ ثُمَّ يَصْحُو ، فَأَرْبابُ الجَذْبِ يُكْشَفُ لَهُمْ أَوَّلًا مِنْ غَيْرِ مُجاهَدَةٍ عَنْ شُهُودِ الذَّات ، فَيَسْكَرُ بِشُهُودِ نُورِها فَيُنْكِرُ الواسِطَةَ أَصْلًا ويُنْكِرُ الشَّرائِعَ إِلَّا أَنَّهُ مَغْلُوبٌ ، ثُمّ يُرَدُّ مِنْ شُهُودِ الذَّاتِ إِلَى شُهُودِ الصِّفاتِ فَلا يَرَى إِلَّا صِفاتِ الحَقِّ تَكَثَّفَتْ وظَهَرَتْ ، ويُنْكِرُ الأَثَرَ ، ثُمَّ إِذا شَهِدَ الصِّفاتِ تَعَلَّقَ بِالأَسْماءِ اللَّازِمَةِ لَها ، ثُمّ يَرْجِعُ إِلَى شُهُودِ آثارِهِ فَيَقُومُ بِأَحْكامِ عُبُودِيَّتِه . .

والسَّالِكُونَ عَلَى عَكْسِ هَذا ، فَيَسْتَدِلُّونَ بِوُجُودِ آثارِهِ عَلَى وُجُودِ أَسْمائِهِ ، وبِوُجُودِ أَسْمائِهِ عَلَى وُجُودِ صِفاتِهِ ، وبِوُجُودِ صِفاتِهِ عَلَى وُجُودِ ذاتِه .

فَنِهايَةُ السَّالِكِينَ وهِيَ شُهُودُ الذَّاتِ بِدايَةُ المَجْذُوبِين ، ونِهايَةُ المَجْذُوبِينَ وهِيَ شُهُودُ الأَثَرِ بِدايَةُ السَّالِكِين ، ولَكِنْ لَيْسَ بِمَعْنًى واحِد ، بَلْ أَحَدُهُما نازِلٌ يَشْهَدُ الأَشْياءَ بِاللّه ، والآخَرُ صاعِدٌ يَشْهَدُ الأَشْياءَ بِنَفْسِهِ للّه ، فَرُبَّما الْتَقَيا فِي الطَّرِيق ؛ كَشُهُودِ الصِّفاتِ ، والتَّعَلُّق بِالأَسْماءِ مَثَلًا ، هَذا فِي تَرَقِّيهِ ، وهَذا فِي تَدَلِّيهِ ، فَإِذا وَصَلا مَعًا اجْتَمَعا ؛ لأَنَّ المُرْتَقِي يَرْجِعُ للأَثَرِ الَّذي انْتَهَى إِلَيْهِ المَجْذُوبُ بَعْدَ شُهُودِ الذَّات ، ويَكُونُ رُجُوعُهُ بِاللّه ، فَيَجْتَمِعانِ مَعًا فِي مَقامِ البَقاء ، والمُتَرَقِّي أَكْمَلُ مِنَ المُتَدَلِّي فِي التَّرْبِيَة ؛ لأَنَّهُ قاسَى شَدائِدَ الطَّرِيقِ وأَهْوالَها ، بِخِلافِ المَجْذُوب ، فَإِنَّهُ كانَ مَحْمُولًا ، وهُوَ نادِرٌ ؛ إِذِ الغالِبُ عَلَى النَّاسِ السُّلُوكُ ، ثُمَّ الجَذْبُ ، والطَّرِيقُ الشَّاذِلِيَّةُ الغالِبُ عَلَيْها الجَمْعُ بَيْنَ الجَذْبِ والسُّلُوكِ مِنْ أَوَّلِ قَدَم ، ومَعْنَى الجَذْبِ هُوَ اخْتِطافُ الرُّوحِ مِنْ شُهُودِ الكَوْنِ إِلَى شُهُودِ المُكَوِّن .

واعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ فِي الجُمْلَةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسام : سالِكُونَ فَقَط ، مَجْذُوبُونَ فَقَط ، سالِكُونَ ثُمَّ مَجْذُوبُونَ ، ومَجْذُوبُونَ ثُمَّ سالِكُون ، فالأَوَّلانِ لا يَصْلُحانِ للتَّرْبِيَةِ والإِرْشاد ؛ أَمَّا السَّالِكُ فَقَطْ فَلِأَنَّهُ ظاهِرِيٌّ مَحْضٌ فَلا نُورَ لَهُ فِي بَاطِنِهِ يُجْذَبُ بِهِ ، وأَمَّا المَجْذُوبُ

فَقَطْ فَلا سُلُوكَ عِنْدَهُ يَسِيرُ به .

والآخَرانِ يَصْلُحانِ للتَّرْبِيَةِ مَعَ أَفْضَلِيَّةِ الأَوَّل .

واعْلَمْ أَيْضًا أَنَّ حَقِيقَةَ السُّلُوكِ الأَوَّلِ هُوَ شُهُودُ خَلْقٍ بِلا حَقٍّ ، وحَقِيقَةَ الجَذْبِ هُوَ شُهُودُ حَقٍّ بِلا خَلْقٍ ، وحَقِيقَةَ السُّلُوكِ الثَّانِي : هُوَ شُهُودُ خَلْقٍ بِحَقٍّ ، ثُمَّ ما يُدْرِكُهُ الواصِلُ مِنْ أَنْوارِ الشُّهُودِ والعَيانِ لَيْسَتْ هِيَ حِسِّيَّةً يُدْرِكُها كُلُّ إِنْسان ، وإِنَّما هِيَ مَعانٍ قَلْبِيَّةٌ ، وأَسْرارٌ باطِنِيَّةٌ مَلَكُوتِيَّةٌ ، كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(لا يُعْلَمُ قَدْرُ أَنْوارِ القُلُوبِ والأَسْرارِ إِلَّا فِي غَيْبِ المَلَكُوت ، كَما لا تَظْهَرُ أَنْوارُ السَّماءِ إِلَّا فِي شَهادَةِ المُلْكِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : اعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِنْدَهُمُ النُّورُ فِي قُلُوبِهِمْ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ﷺ : (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ) ؛ أَيْ : عَلَى أَصْلِ النَّشْأَةِ الأَوَّلِيَّة ، وهِيَ القَبْضَةُ النُّورانِيَّة ، وقالَ تَعالَى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [1] .

قالَ أَهْلُ تَفْسِيرِ الظَّاهِر: أَيْ : نُورُ أَهْلِ السَّمَواتِ والأَرْضِ ، وهُوَ عامٌّ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ فِيهِما ، فَقَدْ تَحَقَّقَ أَنَّ النُّورَ سارٍ فِي الجَمِيع ، فَمِنَ

---

(١) سُورَةُ النُّور : مِنَ الآيَة ٣٥ .

النَّاسِ مَنْ حُجِبَ عَنْ هَذا النُّورِ وعُمِيَ عَنْهُ ، وهُوَ مَنْ وَقَفَ مَعَ ظاهِرِ المُلْكِ ، وهُوَ قِشْرُ الكَوْنِ وحِسُّهُ الظَّاهِرُ ويُسَمَّى عالَمَ الأَشْباح ، ولَمْ يَنْفَذْ إِلَى باطِنِهِ وهُوَ المَلَكُوتُ ويُسَمَّى عالَمَ الأَرْواح ، فَهَذا مَحْجُوبٌ عَنْ نُورِهِ الباطِنِي ، لا يَرَى إِلَّا النُّورَ الحِسِّيَّ ؛ لأَنَّهُ مَسْجُونٌ فِي سِجْنِ الأَكْوان ، مَحْصُورٌ فِي ظُلْمَةِ الحِسِّ والوَهْم .

ومِنَ النَّاسِ مَنْ نَفَذَتْ بَصِيرَتُهُ إِلَى شُهُودِ النُّورِ الباطِنِي فِيه ، ولَمْ يَقِفْ مَعَ القِشْر ، بَلْ نَفَذَ إِلَى شُهُودِ اللُّبِّ ، وهُوَ نُورُ المَلَكُوتِ وأَسْرارُ الجَبَرُوت ، وهُوَ الَّذي أَشارَ إِلَيْهِ فِي ((المَباحِثِ)) بِقَوْلِهِ :

مَهْمَا تَعَدَّيْتَ عَنِ الْأَجْسامِ ❁ أَبْصَرْتَ نُورَ الْحَقِّ ذَا ابْتِسامِ

وَهَذا النُّورُ أَيْضًا هُوَ الَّذي تَراهُ قُلُوبُ العارِفِينَ دُونَ الغافِلِينَ ؛ كَما أَشارَ إِلَيْهِ الحَلَّاجُ بِقَوْلِهِ :

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ ❁ تَرَى مَا لا يُرَى لِلنَّاظِرِينَا

فَإِذا تَحَقَّقْتَ هَذا ، عَلِمْتَ أَنَّهُ لا يُعْلَمُ ؛ أَيْ : لا يَظْهَرُ قَدْرُ أَنْوارِ القُلُوبِ الغَيْبِيَّةِ وشَرَفِها، وأَنْوارِ الأَسْرارِ القُدْسِيَّةِ وكَمالِها إِلَّا فِي غَيْبِ المَلَكُوتِ والجَبَرُوتِ ، فَأَنْوارُ القُلُوبِ لا يُعْلَمُ قَدْرُها إِلَّا فِي غَيْبِ المَلَكُوت ، وهِيَ الأَنْوارُ المُتَدَفِّقَةُ مِنْ بِحارِ الجَبَرُوت ؛ فَمَنْ لَمْ يَنْفُذْ إِلَى شُهُودِ المَلَكُوتِ

لَمْ يَعْلَمْ قَدْرَها بَلْ لَمْ يَعْرِفْها أَصْلًا ، وأَنْوارُ الأَسْرارِ لا يُعْلَمُ قَدْرُها إِلَّا فِي غَيْبِ الجَبَرُوت ، وهِيَ الأَنْوارُ الأَصْلِيَّةُ الأَزَلِيَّة ، وهُوَ ما لَمْ يَدْخُلْ عالَمَ التَّكْوين ، فَمَنْ كانَ مَحْجُوبًا فِي عالَمِ المُلْكِ لايَعْلَمُ قَدْرَ أَنْوارِ المَلَكُوتِ ولا يُحِسُّ بِها بَلْ يُنْكِرُها كَما شَهِدْناهُ مِمَّنْ يَدَّعِي الخُصُوصِيَّةَ وهُوَ بَعِيدٌ مِنْها ، ومَنْ كانَ واقِفًا مَعَ أَنْوارِ المَلَكُوتِ لا يَعْلَمُ قَدْرَ أَنْوارِ الجَبَرُوت ، ومَنْ نَفَذَ مِنْهُما شَهِدَ الجَمِيعَ ، وكَما لا تَظْهَرُ الأَنْوارُ الغَيْبِيَّةُ إِلَّا فِي غَيْبِ المَلَكُوتِ أَوِ الجَبَرُوت ، كَذَلِكَ لا تَظْهَرُ أَنْوارُ المُلْكِ وهِيَ الأَنْوارُ الحِسِّيَّةُ إِلَّا فِي عالَمِ الشَّهادَةِ وهُوَ عالَمُ الحِسِّ ويُسَمَّى عالَمَ المُلْك .

والحاصِلُ : أَنَّ أَنْوارَ القُلُوبِ هِيَ أَنْوارُ المَلَكُوت ، وأَنْوارَ الأَسْرارِ هِيَ أَنْوارُ الجَبَرُوت ؛ وهِيَ غَيْبِيَّةٌ لا يَعْلَمُ قَدْرَها إِلَّا مَنْ تَرَقَّى إِلَى عالَمِ المَلَكُوتِ أَوِ الجَبَرُوت ، فَحِينَئِذٍ يُدْرِكُها ويَعْلَمُ قَدْرَها عِلْمًا وحالًا .

ولا بُدَّ لِمَنْ أَرادَ أَنْ تُكْشَفَ لَهُ هَذِهِ الأَنْوارُ ويُدْرِكَ هَذِهِ المَقاماتِ مِنْ وُجُودِ أَعْمال ، ومُقاساةِ أَحْوال ، فَإِذا عَمِلَ عَمَلًا وذاقَ حَلاوَتَهُ ، فَلْيَسْتَبْشِرْ بِالفَتْحِ الَّذي هُوَ جَزاءُ السَّائِرِينَ ، وهُوَ الَّذي أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(وِجْدانُ ثَمَراتِ الطَّاعَةِ عاجِلًا ، بَشائِرُ العامِلِينَ بِوُجُودِ الجَزاءِ عَلَيْها آجِلًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : مَنْ وَجَدَ فِي بِدايَتِهِ حَلاوَةَ مُجاهَدَتِهِ ، فَلْيَسْتَبْشِرْ بِوُجُودِ مُشاهَدَتِه ، ومَنْ لَمْ يَجِدْها فَلا يَيْأَسْ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، فَإِنَّ للهِ نَفَحاتٍ تَهُبُّ عَلَى القُلُوب ، فَتُصْبِحُ عِنْدَ عَلَّام الغُيُوب .

أَوْ تَقُولُ : مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ فِي الدُّنْيا فَلْيَسْتَبْشِرْ بِوُجُودِ الجَزاءِ آجِلًا فِي الآخِرَة ، وهَذا الجَزاءُ الَّذي يَسْتَبْشِرُ بِهِ لا يَنْبَغِي قَصْدُهُ ولا طَلَبُهُ ؛ لِئَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ قَدْحًا فِي الإِخْلاص ؛ كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(كَيْفَ تَطْلُبُ العِوَضَ عَلَى عَمَلٍ وهُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ ؟ أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ الجَزاءَ عَلَى صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ ؟) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : العَبْدُ إِنَّما هُوَ آلَةٌ مُسَخَّرَةٌ ، فَإِذا سَخَّرَهُ رَبُّهُ تَحَرَّكَ وإِلَّا فَلا ، وإِذا كانَ كَذَلِكَ فَلا نِسْبَةَ لَكَ فِي العَمَلِ إِلَّا ظُهُورُهُ عَلَيْكَ حِكْمَةً ، فَكَيْفَ تَطْلُبُ العِوَضَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ ؟ وإِذا مَنَّ عَلَيْكَ بِصِدْقِ العُبُودِيَّةِ وهُوَ سِرُّ الإِخْلاص ، فَكَيْفَ تَطْلُبُ الجَزاءَ عَلَى صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ ؟ وعَبَّرَ فِي جِهَةِ العَمَلِ بِالصَّدَقَةِ الَّتي تَكُونُ

للمُحْتاجين ، وفِي جِهَةِ الصِّدْقِ بالهَدِيَّةِ الَّتي تَكُونُ للمَحْبُوبين ؛ لأَنَّ العَمَلَ النَّاسُ مُشْتَرِكُونَ فِيه ؛ إِذْ جُلُّ النَّاسِ فِي العَمَل ، والإِخْلاصُ قَلِيلٌ ، وأَهْلُهُ أَقَلُّ مِنَ القَلِيلِ وهُمُ الخَواصُّ ، أَوْ خَواصُّ الخَواصِّ .

قالَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاس رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ ﷺ : (إِنَّما أَنا نِعْمَةٌ مُهْداةٌ) : الأَنْبِياءُ لأُمَمِهِمْ عَطِيَّة ، ونَبِيُّنا لَنا هَدِيَّة ، والعَطِيَّةُ للمُحْتاجِين ، والهَدِيَّةُ للمَحْبُوبِين .

النُّورُ ثَمَرَةُ الذِّكْر

وأَعْظَمُ الأَعْمالِ الَّتي تُوجَدُ ثَمَرَتُها عاجِلًا وآجِلًا هُوَ ذِكْرُ اللهِ ، وثَمَرَتُهُ هُوَ النُّورُ الَّذي يُشْرِقُ فِي القَلْبِ فَيَضْمَحِلُّ بِهِ كُلُّ باطِل .

والنَّاسُ فِي هَذا النُّورِ عَلَى قِسْمَيْن : قِسْمٌ سَكَنَ النُّورُ قُلُوبَهُمْ فَهُمْ ذاكِرُونَ عَلَى الدَّوام ، وقِسْمٌ يَطْلُبُونَ وُجُودَهُ بِأَذْكارِهِمْ ، وإِلَى هَذا أَشارَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوارُهُمْ أَذْكارَهُمْ ، وقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكارُهُمْ أَنْوارَهُمْ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : أَمَّا القَوْمُ الَّذينَ تَسْبِقُ أَنْوارُهُمْ أَذْكارَهُمْ فَهُمُ الواصِلُون ، وأَمَّا الَّذينَ تَسْبِقُ أَذْكارُهُمْ أَنْوارَهُمْ فَهُمُ السَّائِرُونَ الأَوَّلُون لَهُمْ أَنْوارُ المُواجَهَةِ لا تُفارِقُهُمْ ، فَهُمْ ذاكِرُونَ عَلَى الدَّوام ،

فَإذا أَرادُوا أَنْ يَذْكُرُوا بِاللِّسانِ سَبَقَتْ إِلَى قُلُوبِهِمُ الأَنْوار ، فَكانَتْ هِيَ الحامِلَةَ لَهُمْ عَلَى وُجُودِ الأَذْكار .

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللّهِ حالَ الفَرِيقَيْنِ فَقالَ :

(ذاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَنِيرَ قَلْبُه ، وذاكِرٌ اسْتَنارَ قَلْبُهُ فَكانَ ذاكِرًا) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : فالَّذي ذَكَرَ لِيَسْتَنِيرَ قَلْبُهُ هُوَ الَّذي يَسْبِقُ ذِكْرُهُ نُورَهُ ، فَهُوَ مِنَ القَوْمِ الَّذينَ تَسْبِقُ أَذْكارُهُمْ أَنْوارَهُمْ ، والَّذي اسْتَنارَ قَلْبُهُ فَكانَ ذاكِرًا هُوَ الَّذي يَسْبِقُ نُورُهُ ذِكْرَهُ ، فَهُوَ مِنَ القَوْمِ الَّذينَ تَسْبِقُ أَنْوارُهُمْ أَذْكارَهُمْ وهُمُ العارِفُونَ بِاللّه ، لا تَجِدُهُمْ إِلَّا فِي حَضْرَةِ اللّهِ بَيْنَ ذِكْرٍ أَوْ فِكْرَةٍ أَوْ نَظْرَةٍ أَوْ إِرْشادٍ إِلَى الحَضْرَة ، فَقُلُوبُهُمْ مُمْتَلِئَةٌ بِالأَنْوار ، وأَرْواحُهُمْ دائِمًا فِي حَضْرَةِ الأَسْرار .

ثُمَّ إِنَّ وُجُودَ الذِّكْرِ فِي الظَّاهِرِ عُنْوانُ وُجُودِ الشُّهُودِ فِي الباطِنِ ؛ إِذْ لَوْلا وارِدٌ ماكانَ وِرْدٌ ، وهُوَ الَّذي أَبانَهُ ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(ما كانَ ظاهِرُ ذِكْرٍ إِلَّا عَنْ باطِنِ شُهُودٍ أَوْ فِكْرٍ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِذا كانَ الظَّاهِرُ مُشْتَغِلًا بِذِكْرِ اللّهِ فَهُوَ عَلامَةُ وُجُودِ مَحَبَّةِ اللّهِ فِي الباطِن ؛ إِذْ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِه ، ولا تَكُونُ المَحَبَّةُ إِلَّا عَنْ ذَوْقٍ ومَعْرِفَة ، فَلا يَكُونُ ظاهِرُ ذِكْرٍ إِلَّا عَنْ باطِنِ

شُهُود ؛ أَيِّ شُهُودٍ كانَ ، وإِنْ كانَ لا يَشْعُرُ بِشُهُودِهِ ، فَما ذَكَرَتِ الرُّوحُ حَتَّى فَنِيَتْ ، ولا فَنِيَتْ حَتَّى شَهِدَتْ ، فَكُلُّ مَنْ فَنِيَ فِي ذِكْرِ اللهِ فَإِنَّ رُوحَهُ شَهِدَتْ جَمالَ الحَضْرَة ، أَوْ تَفَكَّرَتْ فِي جَمالِ المَذْكُورِ وبَهائِه ، أَوْ فِي حُسْنِ ثَوابِهِ وجَزائِه .

فَتَحَصَّلَ أَنَّ وُجُودَ الذِّكْرِ فِي الظَّاهِرِ ناشِئٌ إِمَّا عَنْ شُهُودٍ فِي الباطِنِ ؛ وهُوَ حالُ المُرِيدِينَ أَوِ العارِفِين ، أَوْ ناشِئٌ عَنْ فِكْرَةٍ وهُوَ حالُ الطَّالِبِينَ للجَزاء ؛ فَإِنَّ النَّاسَ فِي الذِّكْرِ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسام : قِسْمٌ يَطْلُبُونَ الأُجُور ، وقِسْمٌ يَطْلُبُونَ الحُضُور ، وقِسْمٌ وَصَلُوا ورَفَعُوا السُّتُور .

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ وَجْهَ كَوْنِ ذِكْرِ الظَّاهِرِ ناشِئًا عَنْ شُهُودِ الباطِنِ فَقالَ :

(أَشْهَدَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَشْهِدَكَ ، فَنَطَقَتْ بِأُلُوهِيَّتِهِ الظَّواهِر ، وتَحَقَّقَتْ بِأَحَدِيَّتِهِ القُلُوبُ والسَّرائِر) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : الرُّوحُ فِي أَصْلِ ظُهُورِها فِي غايَةِ الطَّهارَةِ والصَّفاء ، فَحِينَ أَبْرَزَها اللهُ تَعالَى فِي عالَمِ الذَّرِّ كانَتْ عالِمَةً دَرَّاكَة ، فَأَشْهَدَها اللهُ تَعالَى عَظَمَتَهُ وجَلالَهُ وبَهاءَهُ وكَمالَ وَحْدانِيَّتِهِ ، فَقالَ لَها حِينَئِذٍ : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (١) .

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ١٧٢ .

فَكُلُّها أَقَرَّتْ بالرُّبُوبيَّة، فَلَمَّا رَكَّبَها فِي هَذا القالَب ؛ فَمِنْها مَنْ أَقَرَّتْ بِذَلِكَ العَهْد ، ومِنْها مَنْ جَهِلَتْ وأَنْكَرَتْ ، فَقَدْ أَشْهَدَكَ الحَقُّ تَعالَى حِينَ كُنْتَ فِي عالَم الأَرْواح رُبُوبِيَّتَهُ ووَحْدانِيَّتَهُ ، فَعَلِمْتَها وحَقَّقْتَها مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَشْهِدَكَ ؛ أَيْ : يَطْلُبُ مِنْكَ الشَّهادَة ، فَحِينَ طَلَبَها مِنْكَ وَجَدَ رُوحَكَ عالِمَةً فَنَطَقَتْ بِإِلَهِيَّتِهِ الَّتي عَرَفَتْها فِي عالَم الذَّرِّ أَلْسِنَةُ الظَّواهِر ، وتَحَقَّقَتْ بِأَحَدِيَّتِهِ الَّتي شَهِدَتْها قَبْلَ التَّرْكِيب القُلُوبُ والسَّرائِر ، فَكُلُّ ما ظَهَرَ مِنَ الإِقْرارِ بِالرُّبُوبِيَّةِ فِي عالَم الشَّهادَة ، فَهُوَ فَرْعُ العِلْم السَّابِقِ فِي عِلْم الغُيُوب ، فالواجِبُ عَلَى العَبْدِ أَنْ يَكُونَ جامِعًا بَيْنَ إِقْرارِ الظَّاهِر ، وتَوْحِيدِ الباطِن ؛ فالأَوَّلُ فَرْقٌ ، والثَّانِي جَمْعٌ ، وإِلَى هَذا المَعْنَى أَشارَ الإِمامُ الجُنَيْد رضي الله عنه : بِقَوْلِهِ :

قَدْ تَحَقَّقْتَ بِسِرِّي ❁ حِينَ نَاجَاكَ لِسَانِي

فَاجْتَمَعْنَا لِمَعَانٍ ❁ وَافْتَرَقْنَا لِمَعَانِ

إِنْ يَكُنْ غَيَّبَكَ التَّعْـ ❁ ـظِيمُ عَنْ لَحْظِ عِيَانِي

فَلَقَدْ صَيَّرَكَ الْوَجْـ ❁ ـدُ مِنَ الْأَحْشَاءِ دَانِي

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ كَراماتِ الذِّكْرِ المُتَقَدِّم فَقالَ :

(**أَكْرَمَكَ كَراماتٍ ثَلاثًا : جَعَلَكَ ذاكِرًا لَهُ ، ولَوْلا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلًا لِجَرَيانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ ، وجَعَلَكَ مَذْكُورًا بِهِ ، إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ ،**

وجَعَلَكَ مَذْكُورًا عِنْدَهُ ، فَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : لَقَدْ أَكْرَمَكَ الحَقُّ تَعالَى أَيُّها الإِنْسانُ كَراماتٍ كَثِيرَة ، وأَنْعَمَ عَلَيْكَ نِعَمًا غَزِيرَة ، قالَ اللّٰهُ تَعالَى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (١) .

وأَجَلُّ الكَراماتِ وأَعْظَمُها كَراماتُ الذِّكْر .

وفِي الحَدِيث : (ما مِنْ يَوْمٍ إِلَّا ولِلّٰهِ فِيهِ نِعَمٌ يُنْعِمُ اللّٰهُ بِها عَلَى عِبادِهِ ، وما أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَى عَبْدٍ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ يُلْهِمَهُ ذِكْرَهُ) أَوْ كَما قالَ ﷺ .

ومَرْجِعُ هَذِهِ الكَراماتِ إِلَى ثَلاثَةِ أُمُورٍ :

الكَرامَةُ الأُولَى : جَعَلَكَ ذاكِرًا لَهُ ، ومِنْ أَيْنَ لِعَبْدٍ ذَلِيلٍ أَنْ يَذْكُرَ سَيِّدًا جَلِيلًا ، ولَوْلا فَضْلُهُ عَلَيْكَ لَمْ تَكُنْ أَهْلًا لِجَرَيانِ ذِكْرِهِ عَلَى لِسانِكَ .

الكَرامَةُ الثَّانِيَة : جَعَلَكَ مَذْكُورًا بِهِ ؛ حَيْثُ ذَكَرَكَ بِنَفْسِهِ حِينَ ذَكَرْتَهُ ، قالَ تَعالَى : ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ (٢) .

وإِذا كُنْتَ مَذْكُورًا بِسَبَبِ ذِكْرِهِ لَكَ ، فَقَدْ ثَبَتَتْ خُصُوصِيَّتُكَ عِنْدَهُ ، فَأَيُّ كَرامَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ ؟ فَقَدْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ ؛ حَيْثُ أَثْبَتَ لَكَ الخُصُوصِيَّة ، وقالَ لَكَ : يا وَلِيِّي ويا صَفِيِّي فمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وهَذِهِ النِّسْبَة ، لَوْلا أَنَّ اللّٰهَ تَفَضَّلَ عَلَيْكَ ؟ قالَ بَعْضُهُمْ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ

---

(١) سُورَةُ إِبْراهِيم : مِنَ الآيَة ٣٤ .
(٢) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٥٢ .

تَعالَى : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [1] ، أَيْ : ولَذِكْرُ اللهِ لِعَبْدِهِ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِ العَبْدِ لله .

الكَرامَةُ الثَّالِثَة : حَيْثُ جَعَلَكَ مَذْكُورًا عِنْدَهُ فِي المَلائِكةِ المُقَرَّبين ؛ فَفِي حَدِيثِ سَيِّدنا أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : عَنِ الحَبِيبِ الأَعْظَم ﷺ : أَنَّهُ قالَ : (أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وأَنا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَئِهِ ، وإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِراعًا ، وإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِراعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ باعًا ، وإِنْ أَتانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً) .

وفِي حَدِيثٍ آخَر : (ما جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ ، إِلَّا غَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، ونَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ) .

وكانَ يَحْيَى بنُ مُعاذٍ رضي الله عنه يَقُولُ : ((يا غَفُولُ ، يا جَهُولُ ، لَوْ سَمِعْتَ صَرِيرَ القَلَمِ حِينَ يَجْرِي فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ بِذِكْرِكَ ، لَمُتَّ طَرَبًا)) .

مِقْياسُ العُمْر

فَإِذا عَمَّرْتَ أَوقاتَكَ بِذِكْرِ اللهِ ، فَعُمُرُكَ طَوِيلٌ وإِنْ قَلَّتْ أَيَّامُهُ ؛ كَما أَبانَ ذَلِكَ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

---

(١) سُورَةُ العَنْكَبُوت : مِنَ الآيَة ٤٥ .

(رُبَّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ آمادُهُ وقَلَّتْ أَمْدادُه ، ورُبَّ عُمْرٍ قَلِيلَةٌ آمادُهُ كَثِيرَةٌ أَمْدادُه) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : رُبَّ هُنا للتَّكْثِيرِ فِي المَوْضِعَيْن ، فَكَثِيرٌ مِنَ الأَعْمارِ اتَّسَعَتْ آمادُهُ ؛ جَمْعُ أَمَد : وهُوَ الزَّمان ؛ أَيْ : كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ طالَتْ أَعْمارُهُمْ واتَّسَعَتْ أَزْمِنَتُهُمْ وقَلَّتْ أَمْدادُهُمْ : أَيْ : فَوائِدُهُمْ ، فَلَمْ يَحْصُلُوا عَلَى شَيْءٍ حَيْثُ اشْتَغَلُوا بِالبَطالَةِ والتَّقْصِيرِ حَتَّى مَضَتِ الأَيَّامُ كَطَيْفِ المَنام ، وأَضْغاثِ أَحْلام ، وكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ قَلَّتْ آمادُهُمْ ؛ أَيْ : أَزْمِنَتُهُمْ ، وكَثُرَتْ أَمْدادُهُمْ ؛ أَيْ : فَوائِدُهُمْ ، فَأَدْرَكُوا مِنْ فَوائِدِ العِلْمِ والأَعْمالِ والمَعارِفِ والأَسْرارِ فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ ما لَمْ يُدْرِكْهُ غَيْرُهُمْ فِي الزَّمَنِ الكَثِير .

ومِثالُ ذَلِكَ أَهْلُ الجَذْبِ مَعَ السُّلُوك ، وأَهْلُ السُّلُوكِ وَحْدَهُ : فَإِنَّ أَهْلَ الجَذْبِ المُوافِقِينَ للسَّالِكِينَ فِي الأَعْمالِ يَطْوُونَ فِي ساعَةٍ واحِدَةٍ مِنْ مَسافَةِ القُرْبِ ما لَمْ يُدْرِكْهُ أَهْلُ السُّلُوكِ فِي سِنِين ، وكَذَلِكَ أَهْلُ الفِكْرَةِ مَعَ أَهْلِ الخِدْمَةِ :

(فِكْرَةُ ساعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً) ، وفِي ذَلِكَ قالَ الشَّاعِرُ :

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِي ❁ قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَجَّهْ

وقالَ الشَّيْخُ أَبو العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنه : أَوْقاتُنا كُلُّها لَيْلَةُ القَدْر ؛ أَيْ : كُلُّ وَقْتٍ عِنْدَنا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ عِنْدَ غَيْرِنا .

قالَ القاضِي أَبو بَكْر بنِ العَرَبي المَعافِري تِلْميذُ الإِمام الغَزالِي : ((لُمْتُ الشَّيْخَ أَبا حامِدٍ عَلَى انْقِطاعِهِ واعْتِزالِهِ عَنِ الخَلْقِ وقَطْعِ انْتِفاعِهِمْ بِما وَهَبَهُ اللهُ مِنَ العِلْمِ الظَّاهِرِ والباطِنِ ، فَقالَ مُتَمَثِّلًا :

قَدْ تَيَمَّمْتُ بِالصَّعِيدِ زَمانًا ❁ وَأَنا الْآنَ ظافِرٌ بِالْماءِ

مَنْ سَرَىٰ مُطْبِقَ الْجُفُونِ وَأَضْحَىٰ ❁ فاتِحًا لا يَرُدُّهُا لِلْعَماءِ

أَيْ : مَنْ كانَ يَمْشِي مَسْدُودَ العَيْنَيْنِ ، وأَضْحَىٰ ؛ أَيْ : صارَ فاتِحًا لِعَيْنَيْهِ ، لا يَرْجِعُ للعَماء ، قُلْتُ : يا سَيِّدِي ، الاشْتِغالُ بِالعِلْمِ نَفْعٌ عامٌّ ، وهُوَ مِنْ أَفْضَلِ العِباداتِ ، وقَدْ قالَ ﷺ : (لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا واحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ) .

فَقالَ : لَمَّا طَلَعَ قَمَرُ السَّعادَةِ فِي أُفُقِ الإِرادَة ، وأَشْرَقَتْ شَمْسُ الوُصُولِ فِي أَرْضِ الأُصُولِ :

تَرَكْتُ هُوَىٰ سُعْدَىٰ ولَيْلَىٰ بِمَعْزِلٍ ❁ وَصِرْتُ إِلَى عَلْياءِ أَوَّلِ مَنْزِلِ

فَنادَتْنِيَ الْأَكْوانُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ❁ أَلا أَيُّهَا السَّاعِي رُوَيْدَكَ فَامْهَلِ

غَزَلْتُ لَهُمْ غَزْلا رَقِيقًا فَلَمْ أَجِدْ ❁ لِغَزْلِيَ نَسَّاجًا فَكَسَّرْتُ مِغْزَلِي

فانْظُرْ مَنْ أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَى بَرَكَةِ عُمْرِهِ ، وأَراهُ ثَمَرَةَ وَقْتِهِ ، كَيْفَ اخْتارَ الآكَدَ فالآكَد ، والأَوْلَى فالأَوْلَى ، لِيُدْرِكَ ماتَلْمَحُهُ مِنَ الفَوائِد ، ويَحْظَى بِالخَصائِصِ والزَّوائِد)) .

قالَ فِي ((القُوت))[1]: ((فَإِنَّ البَرَكَةَ فِي العُمْرِ أَنْ تُدْرِكَ فِي عُمُرِكَ القَصِيرِ بِيَقَظَتِكَ ما فاتَ غَيْرَكَ فِي عُمُرِهِ الطَّوِيلِ بِغَفْلَتِهِ ، فَيَرْتَفِعُ لَكَ فِي السَّنَةِ ما يَرْتَفِعُ لَهُ فِي عِشْرِينَ سَنَة .

وللخُصُوصِ مِنَ المُقَرَّبِينَ فِي مَقاماتِ القُرْبِ عِنْدَ التَّجَلِّي بِصِفاتِ الرَّبِّ إِلْحاقٌ بِرَفْعِ الدَّرَجات ، وتَدارُكٌ لِما فاتَ عِنْدَ أَذْكارِهِمْ وأَعْمالِ قُلُوبِهِمُ اليَسِيرَةِ فِي هَذِهِ الأَوْقات ، فَكُلُّ ذَرَّةٍ مِنْ ذِكْرٍ : تَسْبِيحٍ أَوْ تَهْلِيلٍ ، أَوْ حَمْدٍ أَوْ تَدَبُّرٍ وتَبْصِرَةٍ ، أَوْ تَفَكُّرٍ وتَذْكِرَةٍ ؛ لِمُشاهَدَةِ قُرْبٍ ، ووَجْدٍ بِرَبٍّ ، ونَظْرَةٍ إِلَى حَبِيب ، ودُنُوٍّ مِنْ قَرِيب ، أَفْضَلُ مِنْ أَمْثالِ الجِبالِ مِنْ أَعْمالِ الغافِلِين ، الَّذِينَ هُمْ لِنُفُوسِهِمْ واجِدُونَ ، وللخَلْقِ مُشاهِدُون .

ومِثالُ العارِفِينَ فِيما ذَكَرْناهُ مِنْ فَنائِهِمْ بِشَهادَتِهِمْ ، ورِعايَتِهِمْ لأَمانَتِهِمْ ، وعَهْدِهِمْ فِي وَقْتِ قُرْبِهِمْ وحُضُورِهِمْ ، مَثَلُ العامِلِ فِي لَيْلَةِ

---

(١) قُوتُ القُلُوبِ لأَبِي طالِبٍ المَكِّي .

القَدْرِ ، العَمَلُ فِيها لِمَنْ وافَقَها خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر .

وقَدْ قالَ بَعْضُ العُلَماء : كُلُّ لَيْلَةٍ للعارِفِ بِمَنْزِلَةِ لَيْلَةِ القَدْر .

فالبَرَكَةُ فِي العُمْرِ هِيَ إِدْراكُ الأَمْدادِ العَظِيمَةِ فِي الآمادِ القَلِيلَةِ كَما تَقَدَّمَ وكَما بَيَّنَهُ ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمْرِهِ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمانِ مِنْ مِنَنِ اللهِ تَعالَى ما لا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوائِرِ العِبارَة ، و لا تَلْحَقُهُ الإِشارَة) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : لَيْسَتِ البَرَكَةُ فِي العُمْرِ بِكَثْرَةِ أَيَّامِهِ و طُولِ أَزْمانِهِ ، وإِنَّما البَرَكَةُ فِي العُمْرِ أَنْ تَصْحَبَهُ العِنايَة ، وتَهُبَّ عَلَيْهِ رِيحُ الهِدايَة ، فَيُدْرِكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمانِ مِنْ مِنَنِ اللهِ تَعالَى ؛ أَيْ : مِنْ عُلُومِهِ ومَعارِفِهِ وأَسْرارِهِ ما لا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوائِرِ العِبارَة ؛ لأَنَّ ما أَدْرَكَهُ أَوْسَعُ مِنْ ضِيقِ العِبارَة ؛ إِذْ قالَ تَعالَى : (أَعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر) .

فَقَدْ يُدْرِكُ العارِفُ مِنْ دَقائِقِ الأَسْرارِ ما تَعْجَزُ عَنْهُ عِبارَةُ اللِّسان ، كُلُّ ذَلِكَ فِي أَقَلِّ زَمان ، وغالِبُ هَذا يَحْصُلُ مِنْ مُلاقاةِ الرِّجالِ وصُحْبَتِهِمْ ؛ فَإِنَّ المَدَدَ الَّذي يَحْصُلُ للإِنْسانِ فِي ساعَةٍ واحِدَةٍ مَعَهُمْ لا يَحْصُلُ فِي أَزْمِنَةٍ طَوِيلَةٍ مَعَ غَيْرِهِمْ ، ولَوْ كَثُرَتْ صَلاتُهُمْ وصِيامُهُمْ ؛ إِذْ لَيْسَتْ

العِبْرَةُ بِكَثْرَةِ الأَوْراد ، إِنَّما العِبْرَةُ بِكَثْرَةِ الأَمْداد : (إِنَّ اللّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ ولا إِلَى أَمْوالِكُمْ ، وإِنَّما يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وأَعْمالِكُمْ) .

والذَّرَّةُ مِنْ أَعْمالِ القُلُوبِ أَفْضَلُ مِنْ أَمْثالِ الجِبالِ مِنْ أَعْمالِ الجَوارِح ، والعَمَلُ مَعَ المَعْرِفَةِ لَيْسَ كالعَمَلِ مَعَ الجَهْلِ ، وذَلِكَ مَعْلُوم .

وسَبَبُ البَرَكَةِ فِي العُمْرِ هُوَ التَّفَرُّغُ مِنَ الشَّواغِلِ والشَّواغِب ؛ فَمَنْ كَثُرَتْ شَواغِلُهُ و شَواغِبُهُ لا بَرَكَةَ لَهُ فِي عُمْرِهِ ؛ لأَنَّهُ مُنِعَ مِنْ تَصْرِيفِهِ فِي طاعَةِ مَوْلاهُ بِمُتابَعَةِ شَهَواتِهِ وتَحْصِيلِ مُناه ، ومَنْ تَفَرَّغَ مِنَ الشَّواغِلِ ولَمْ يُقْبِلْ عَلَى مَوْلاهُ فَهُوَ مَخْذُولٌ مَصْرُوفٌ عَنْ طَرِيقِ اسْتِقامَتِهِ وهُداه ؛ كَما أَبانَ ذَلِك ابنُ عَطاءِ اللّهِ بِقَوْلِهِ :

(الخِذْلانُ كُلُّ الخِذْلانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ الشَّواغِلِ ثُمَّ لا تَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ ، وتَقِلَّ عَوائِقُكَ ثُمَّ لا تَرْحَلَ إِلَيْهِ) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِذا قَلَّتْ شَواغِلُكَ فِي الظَّاهِر ، وعَوائِقُكَ فِي الباطِن ، ثُمَّ لَم تَتَوَجَّهْ إِلَيْهِ فِي ظاهِرِكَ ، ولَمْ تَرْحَلْ إِلَيْهِ فِي باطِنِكَ ، فَهُوَ عَلامَةُ غايَةِ الخِذْلانِ الكَبِير ؛ لأَنَّ جُلَّ النَّاسِ ما حَبَسَهُمْ عَنِ التَّوَجُّهِ إِلَى اللّهِ إِلَّا كَثْرَةُ أَشْغالِهِمُ الحِسِّيَّة ، فاشْتَغَلَتْ جَوارِحُهُمْ بِخِدْمَةِ الدُّنْيا فِي اللَّيالِي والأَيَّام ، والشُّهُورِ والأَعْوام ، حَتَّى انْقَرَضَ العُمْرُ كُلُّهُ فِي البَطالَةِ والتَّقْصِير ، فَهَذا هُوَ الخِذْلانُ الكَبِير .

ومِنَ النَّاسِ مَنْ قَلَّتْ شَواغِلُهُمُ الظَّاهِرَةُ لِوُجُودِ مَنْ قامَ لَهُمْ بِها ، لَكِنْ كَثُرَتْ عَلائِقُهُمْ فِي الباطِنِ لِكَثْرَةِ ما تَعَلَّقَ لَهُمْ مِنَ الشَّواغِلِ ، فَهُمْ مُغْرَقُونَ فِي التَّدْبِيرِ والاخْتِيار ، والاهْتِمامِ بِأُمُورِ مَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ مِنْ الأَنام ، لا سِيَّما مَنْ كانَ لَهُ جاهٌ ورِياسَة ، وخُطَّةٌ أَوْ سِياسة ، فَهَذا بِاعْتِبارِ العادَةِ بَعِيدٌ مِنَ الإِقْبالِ عَلَى مَوْلاهُ إِلَّا إِنْ سَبَقَتْ لَهُ سابِقَةُ عِنايَةٍ فَتَجُرُّهُ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ ورِضاه .

والحاصِلُ : أَنَّ الخَيْرَ كُلَّهُ فِي التَّخْفِيفِ مِنَ الشَّواغِلِ والعَلائِق ، فَمَنْ تَفَرَّغَ مِنْهُما فَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الحَضْرَة ، وأَمَّا مَنْ كَثُرَتْ شَواغِلُهُ وعَوائِقُهُ فَأَمْرُهُ بَعِيدٌ ؛ لأَنَّ فِكْرَتَهُ مَشْغُولَةٌ بِالعَلائِقِ والمَخاطِف ، فَمَهْما هَمَّ بِالسَّيْرِ جَذَبَتْهُ المَخاطِفُ إِلَيْها ، وبَقِيَ مَرْهُونًا مَعَها ، وهُوَ الَّذي أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ عَطاءِ اللّٰهِ بِقَوْلِهِ :

(الفِكْرَةُ سَيْرُ القَلْبِ فِي مَيادِينِ الأَغْيار) :

فَمَنْ لا تَفَرُّغَ لَهُ لا فِكْرَةَ لَهُ ، ومَنْ لا فِكْرَةَ لَهُ لا سَيْرَ لَهُ ، ومَنْ لا سَيْرَ لَهُ لا وُصُولَ لَهُ ، فالفِكْرَةُ هِيَ سَيْرُ القَلْبِ إِلَى حَضْرَةِ الرَّبِّ ، وذَلِكَ السَّيْرُ فِي مَيادِينِ الأَغْيار ؛ أَيْ : فِي مَجالِ شُهُودِ الأَغْيار ؛ لِيَسْتَدِلَّ بِها عَلَى وُجُودِ الأَنْوار ، فَهَذِهِ فِكْرَةُ أَهْلِ الحِجاب ، وفِكْرَةُ أَهْلِ الشُّهُودِ سَيْرُ الرُّوحِ فِي مَيادِينِ الأَنْوار ، أَوْ سَيْرُ السِّرِّ فِي مَيادِينِ الأَسْرار .

وقالَ الشَّيْخُ زَرُّوق رضي الله عنه : ((الفِكْرَةُ انْبِعاثُ القُوَّةِ الإِدْراكِيَّةِ فِي عالَمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ لِيُدْرِكَ حَقِيقَةَ الأَشْياءِ عَلَى ما هِي عَلَيْهِ ، ومَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَهُوَ عارِفٌ)) .

وقِيلَ : إِنَّما عَبَّرَ الشَّيْخُ بِالأَغْيارِ وهِيَ المَخْلُوقاتُ لِقَوْلِهِ ﷺ وقَدْ رَأَى قَوْمًا يَتَفَكَّرُونَ ، فَقالَ لَهُمْ : (تَفَكَّرُوا فِي الخَلْقِ ، ولا تَفَكَّرُوا فِي الخالِقِ ، فَإِنَّكُمْ لا تَقْدُرُونَ اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ) .

قالَ ابنُ عَجِيبَة : إِنَّما نَهَى رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي كُنْهِ الذَّاتِ وإِدْراكِ الحَقِيقَة ، وأَمَّا التَّفَكُّرُ فِي عَظَمَةِ الذَّاتِ وقِدَمِها وبَقائِها ووَحْدانِيَّتِها وتَجَلِّياتِها فِي ظُهُورِها وبُطُونِها ، فَهَذا لا يُنْهَى عَنْهُ ؛ لأَنَّهُ سَبَبُ المَعْرِفَةِ مَعَ العَجْزِ عَنْ إِدْراكِ الكُنْه .

أَهْلُ الحِجابِ و أَهْلُ العِرْفان

والتَّحْقِيقُ أَنَّ أَهْلَ الحِجابِ لا يَحِلُّ لَهُمُ التَّفَكُّرُ إِلَّا فِي المَصْنُوعات ، وأَمَّا أَهْلُ العِرْفانِ فَلاَ يَتَفَكَّرُونَ إِلَّا فِي عَظَمَةِ الذَّات ؛ أَيْ : فِي عَظَمَةِ الصَّانِعِ وتَوْحِيدِهِ وقِدَمِهِ وبَقائِهِ وظُهُورِهِ واحْتِجابِهِ ، وفِي الغَيْبَةِ عَنِ الحِسِّ وشُهُودِ المَعْنَى ، أَوْ فِي الغَيْبَةِ عَنِ الكَوْنِ بِشُهُودِ المُكَوِّن ، أَوْ فِي الغَيْبَةِ عَنِ الظُّلْمَةِ بِشُهُودِ النُّور ، وهُوَ سِراجُ القَلْبِ الَّذي أَشارَ إِلَيْهِ

ابنُ عَطاءِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

(الفِكْرَةُ سِراجُ القَلْبِ ، فَإِذا ذَهَبَتْ فَلا إِضاءَةَ لَهُ) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : الفِكْرَةُ فِي عَظَمَةِ البارِي وتَوْحِيدِهِ نُورٌ ، فَإِذا كانَ القَلْبُ مَشْغُولًا بِالفِكْرَةِ فِي عَظَمَةِ الحَقِّ فَهُوَ مُنَوَّرٌ بِنُورِ الحَقِّ ، وإِذا خَلا مِنَ الفِكْرَةِ فِي الحَقِّ دَخَلَتْهُ الفِكْرَةُ فِي الأَغْيار ، وهِيَ ظُلْمَةٌ ، ولا تَجْتَمِعُ الظُّلْمَةُ والنُّورُ أَبَدًا ، فالفِكْرَةُ سِراجُ القَلْبِ ، فَإِذا ذَهَبَتِ الفِكْرَةُ فِي الحَقِّ انْطَفَأَ نُورُهُ بِدُخُولِ ظُلْمَةِ الكَوْنِ فَلا إِضاءَةَ لَهُ ، ولِذَلِكَ قالَ الجُنَيْدُ رضي الله عنه : ((أَشْرَفُ المَجالِسِ وأَعْلاها الجُلُوسُ مَعَ اللهِ فِي مَيْدانِ الفِكْرَةِ عَلَى بِساطِ التَّوْحِيد)) .

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ فِكْرَةَ البِدايَةِ والنِّهايَةِ فَقالَ :

(الفِكْرَةُ فِكْرَتان : فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وإِيمان ، وفِكْرَةُ شُهُودٍ وعِيان) :

قالَ ابنُ عَجيبَة : فِكْرَةُ أَهْلِ التَّصْدِيقِ والإِيمانِ هِيَ سَيْرُ القَلْبِ فِي مَيادِينِ الأَغْيار ، فَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فِي المَصْنُوعاتِ لِيَتَوَصَّلُوا إِلَى مَعْرِفَةِ الصَّانِعِ وقُدْرَتِهِ وعِلْمِهِ وحَياتِه ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سائِرِ صِفاتِه ، وهُمُ الَّذينَ قالَ اللهُ فِيهِمْ : ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [1] .

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٣ .

وفِكْرَةُ أَهْلِ الشُّهُودِ والعِيانِ هِيَ سَيْرُ الرُّوحِ فِي مَيادِينِ الأَنْوار ؛ قَدِ انْقَلَبَتِ الأَغْيارُ فِي حَقِّهِمْ أَنْوارًا ، والدَّلائِلُ مَدْلُولات ، والغَيْبُ شَهادَةً ، وهُمُ الَّذينَ أَطْلَعَهُمُ اللهُ عَلَى سِرِّ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (١) .

ثُمَّ بَيَّنَ ابنُ عَطاءِ اللهِ حالَ الفَرِيقَيْنِ فَقالَ :

(فالأُولَى لأَرْبابِ الاعْتِبار) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة (أَجْزَلَ اللهُ لَهُ المَثُوبَة) : الفِكْرَةُ الأُولَى وهِيَ فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وإِيمانٍ لأَصْحابِ الاعْتِبار ، وهُمْ أَهْلُ الاسْتِدْلالِ يَسْتَدِلُّونَ بِالصَّنْعَةِ عَلَى الصَّانِع ، وهُمُ السَّائِرُونَ إِلَى اللهِ بِأَنْوارِ التَّوَجُّه .

(والثَّانِيَةُ لأَرْبابِ الشُّهُودِ والاسْتِبْصار) :

قالَ ابنُ عَجِيبَة (الشَّارِحُ لِحِكَمِ ابنِ عَطاءِ اللهِ شَرْحَ المُمِدِّ مِنْ حَضْرَةِ النُّورِ المُحَمَّدِي) : الفِكْرَةُ الثَّانِيَةُ وهِيَ فِكْرَةُ شُهُودٍ وعِيان ، هِيَ لأَرْبابِ الشُّهُودِ والاسْتِبْصار ؛ لأَنَّهُمْ تَرَقَّوا مِنْ شُهُودِ الدَّلِيلِ إِلَى المَدْلُول ، ومِنَ الأَثَرِ إِلَى المُؤَثِّر ، ومِنَ الأَغْيارِ إِلَى شُهُودِ الأَنْوار ، ومِنَ الفَرْقِ إِلَى الجَمْع ؛ ومِنَ المُلْكِ إِلَى المَلَكُوت ، فَما يَشْهَدُونَ إِلَّا

---

(١) سُورَةُ يُونُس : مِنَ الآيَة ١٠١ .

أَنْوارَ المَلَكُوتِ تَدَفَّقَتْ وانْصَبَّتْ مِنْ بِحارِ الجَبَرُوت ، فَهُمْ غَرْقَى فِي بِحارِ الأَنْوار ، مَطْمُوسٌ عَنْهُمُ وُجُودُ الآثار ، فَإِنْ رُدُّوا إِلَيْهِ رَأَوْهُ قائِمًا بِاللهِ ومِنَ اللهِ وإِلَى اللهِ ، فَما أَعْظَمَ قَدْرَهُمْ عِنْدَ اللهِ ، وفِي مِثْلِهِمْ قالَ القائِلُ :

هُمُ الرِّجالُ وَغَبْنٌ أَنْ يُقالَ لِمَنْ ۞ لَمْ يَتَّصِفْ بِمَعَانِي وَصْفِهِمْ رَجُلُ

حَقَّقَنا اللهُ بِما حَقَّقَهُمْ بِهِ ، آمِين .

هَذا ، ولِلهِ الحَمْدُ فِي الأُولَى والآخِرَة ، وعَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ والسَّائِرِينَ عَلَى دَرْبِهِ أَفْضَلُ صَلَواتِه ، وأَكْمَلُ تَسْلِيماتِه .

ها هُوَ قِطْفٌ مِنْ بَساتِينِ العارِفِين ، يَسَّرَهُ اللهُ لِي جَنْيًا وتَقْدِيمًا لأَهْلِ المَحَبَّةِ والمَحْسُوبِين ، وما هُوَ إِلَّا ثَمَراتٌ مِنْ غِراسِ أَسْلافِنا الصَّالِحِين ، وزَهَرَاتٌ مِنْ رِياضِهِمْ ، رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِين .

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾








فِهْرِسْتُ الجُزْءِ الأَوَّلِ والثَّانِي

(الجُزْءُ الأَوَّل)

المَوْضُوع	الصَّفْحَة
مُقَدِّمَةٌ مُهِمَّة فِي التَّعَرُّفِ عَلَى الهُداةِ الأَئِمَّة	٥
تَنْوِيرُ صَحِيفَتِي بِتَسْطِيرِ عَقِيدَتِي	٢٤
شَرابُ النَّبْعِ الرَّوِيِّ فِي صُحْبَةِ الصَّالِحِ الوَلِيِّ	٤٥
التَّحَلِّي بِالآدابِ المَرْضِيَّة صِفَةُ سالِكِ طَرِيقِ الصُّوفِيَّة	٥٩
مَزِيدٌ مِنَ الاقْتِراب لأَهْلِ الفَضْلِ الأَنْجاب	٦٦
خُلاصَة .. فِي قُصاصَة	٩٣
الصَّفاءُ زِيُّ الاتِّصاف	٩٩
عَوْدٌ إِلَى مُذاكَرَةِ الآدابِ الَّتِي بِها رابِطَةُ ومُرابَطَةُ الأَحْباب	١٠٠
تَجْلِيَةُ الرَّقائِقِ والحَقائِقِ المُسْتَتِرَةِ خَلْفَ مَظْهَرِيَّةِ اخْتِلافِ الطَّرائِق	١٠٧
مَعْنًى مُتَجَدِّدُ الإِمْدادِ فِي شَرْحِ قَوْلٍ للإِمامِ الجُنَيْدِ البَغْدادِي ..	١٠٩
سَبَبُ عُكُوفِ بَعْضِ العارِفِينَ عَلَى التَّأْلِيفِ ودَأْبُ غَيْرِهِمْ عَلَى العُزُوفِ	١١١
الفَهْمُ الحَصِيف فِي سَبَبِ إِعْراضِ غالِبِ السَّادَةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ عَنِ التَّأْلِيف	١١٧

المَوْضُوع	الصَّفْحَة
تَزْكِيَةُ كُلِّ سالِكٍ لِطَرِيقَتِهِ فِي السُّلُوكِ والمَنْهَجِ الَّذِي وَصَلَ بِهِ طَبِيعَةٌ يَقْتَضِيها الطَّبْعُ الإِنْسانِي غَيْرَ مُؤاخَذٍ بِهِ	١٢٢
حِكْمَةُ الأَوْلِياء فِي إِعْطاءِ العَهْدِ وتَرْكِ الإِعْطاء	١٢٤
الطَّرِيقُ جَمِيعُها تَسْتَمِدُّ مِنْ عَيْنِ المَدَدِ المُحَمَّدِي	١٢٥
اضْطِرارُ العارِفِينَ لِكَتْمِ الأَسْرار	١٢٦
الطُّرُقُ الصُّوفِيَّةُ مُؤْتَلِفَة وإِنْ تَعَدَّدَتْ فَبَدَتْ مُخْتَلِفَة	١٢٨
رَفْعُ الحَرَجِ والضِّيقِ عَمَّا أُثِيرَ حَوْلَ فَرْضِيَّةِ اتِّخاذِ شَيْخِ الطَّرِيق	١٣١
الوُصُولُ إِلَى مَرْتَبَةِ الخَواص لا يَكُونُ إِلَّا عَلَى يَدَي أَصْحابِ الإِذْنِ الخاص	١٣٩
بَهْجَةُ رُوَّادِ التَّحْقِيقِ إِعْلانُ انْتِسابِهِمْ للطَّرِيق	١٥١
فِقْهُ النُّفُوسِ وإِصْلاحُها لِحَضْرَةِ المَلِكِ القُدُّوس	١٥٩
مَتَى تُخالَفُ النَّفْسُ ؟	١٦٦
أَنْواعٌ مِنْ مَوْتِ النُّفُوس	١٦٧
حِيازَةُ اللَّآلِئِ الثَّمِينَة بِفَهْمِ تَشْبِيهِ جِسْمِ المُؤْمِنِ بِالمَدِينَةِ الحَصِينَة	١٧٣
هَيْكَلُ الجِسْمِ الإِنْسانِي مَظْهَرٌ للتَّجَلِّي الرُّوحانِي	١٨٣

الصَّفْحَة	المَوْضُوع

سُلُوكُ المُرِيدِ المُلَبِّي مَعَ الشَّيْخِ المُرَبِّي ١٩٠

جُمْلَةٌ مِنْ دَسائِسِ النَّفْسِ المُعَوِّقَةِ عَنْ حَضْرَةِ القُدْسِ ١٩٢

عِلَلُ الطَّرِيقِ وأَمْراضُها ودَواؤُها ٢٢٧

عِلَلُ النُّفُوس ٢٢٧

مَطْلَبٌ فِي أَمْراضِ الأَفْعال ٢٣٤

نَهْجُ المُصْطَفَىٰ طَهَ السَّعِيد ﷺ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ لَدَى الشَّيْخِ والمُرِيد٢٦٢

التَّوْفِيق لِمَنْ سَلَكَ صُوفِيَّةَ الطَّرِيق ٢٧٦

وَصِيَّةٌ وَصْفِيَّة .. لأَهْلِيَّةِ هَذِهِ المَعِيَّة ٢٧٧

سُلُوكُ المُرِيدِ إِلَى حَضَراتِ ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾

مُسْتَقاةٌ مِنْ حِكَمِ (ابنِ عَطاءِ اللّٰه) وشَرْحِ ابنِ عَجِيبَةَ السَّدِيد ٢٧٨

الهِمَمُ والمَقادِير ٢٨١

التَّدْبِير ٢٨٣

الرِّضا بِاخْتِيارِ اللّٰه ٢٨٩

وَعْدُ اللّٰهِ حَقٌّ ٢٩٢

تَجَلِّي اللّٰهِ للعَبْد ٢٩٧

المَوْضُوع	الصَّفْحَة
تَنَوُّعُ الأَعْمال	٣٠٠
الإِخْلاص	٣٠٣
الخُمُول	٣٠٧
العُزْلَةُ والفِكْرَة	٣١٠
حِجابُ الرُّوح	٣١٢
دُخُولُ القَلْبِ حَضْرَةَ القُدْسِ	٣١٧
تَنْزِيهُ رَبِّ الأَرْبابِ عَنْ وُجُودِ الحِجابِ	٣٣٦
آدابُ العارِف	٣٤٦
النَّجاحُ فِي النِّهاياتِ وسَبَبُهُ	٣٧٠
أَنْوارُ التَّوَجُّهِ وأَنْوارُ المُواجَهَةِ	٣٨٠
التَّخْلِيَةُ والتَّحْلِيَةُ	٣٨٣
التَّشَوُّفُ إِلَى مَعْرِفَةِ الغُيُوب	٣٨٣
ما سِوَىٰ الحَقِّ خَيالٌ	٣٩٧
الهِجْرَةُ إِلَى اللهِ	٤٠٥
الصُّحْبَة	٤١٠

المَوْضُوع	الصَّفْحَة

الأَعْمالُ والأَحْوال ٤١٥

ذِكْرُ الله ٤٢١

عَلاماتُ مَوْتِ القَلْب ٤٢٦

الخَوْفُ والرَّجاء ٤٢٨

الوارِداتُ الإِلَهِيَّة ٤٣٦

أَمْدادُ الأَنْوار ٤٤٣

سِرُّ الفَرَحِ بِالطَّاعَة ٤٤٧

الطَّمَع ٤٥٢

أَقْسامُ العِباد ، ولَوازِمُ الوِداد ٤٦٤

اسْتِدْراجُ اللهِ العَبْدَ ٤٧٢

دَقائِقُ آدابِ الأَحْباب ٤٧٨



(الجُزْءُ الثَّانِي)

المَوْضُوع	الصَّفْحَة
كَنَفُ أَهْلِ الله ، مَبْدَأُ الأَمْرِ ومُنْتَهَاه	٤٨٢
المَخْصُوصُونَ بِالعِنايَة	٤٨٣
الوارِداتُ لا تَحْتاجُ إِلَى اسْتِعْداد	٤٨٥
الوارِداتُ والخَواطِر	٤٨٧
دَلِيلُ قَبُولِ الأَعْمال	٤٩٤
كَيْفَ تَعْرِفُ قَدْرَكَ ؟	٤٩٦
خَيْرُ ما يُطْلَبُ مِنَ الله	٥٠١
الإِشارات	٥٠٤
الرَّجاء	٥١٠
آدابُ القَبْضِ والبَسْط	٥١٩
أَسْبابُ القَبْضِ والبَسْطِ	٥٢٧
سَبَبُ عَدَمِ الفَهْمِ عَنِ الله	٥٣٢
الطَّيُّ عِنْدَ الصُّوفِيَّة	٥٤٢
النَّقْدُ والنَّسِيئَة	٥٤٩

الصَّفْحَة	المَوْضُوع
٥٥٤	أَنْواعُ العِبادَة
٥٦٤	قَدْ يَكُونُ الذَّنْبُ سَبَبَ الوُصُول
٥٨١	خَيْرُ أَوْقاتِكَ
٥٨٦	أَنْوارُ الظَّواهِر
٥٩١	لُطْفُ اللّه
٦٠٤	الوِرْدُ وأَقْسامُه
٦٢٠	تَجَلِّي الذَّات
٦٢٦	تَلْوِينُ الطَّاعات
٦٣٠	الخُشُوعُ فِي الصَّلاة
٦٤٥	تَقْسِيمُ العِباد
٦٥٠	التَّعَلُّقُ بِأَوْصافِ الرُّبُوبِيَّة ، والتَّخَلُّقُ بِأَوْصافِ العُبُودِيَّة
٦٥٧	خَرْقُ عَوائِدِ النَّفْس
٦٦٣	الوُصُولُ إِلَى اللّه
٦٦٧	سِـــتْرُ اللّه
٦٧٣	حَمْدُ اللّهِ عَلَى سَتْرِهِ

المَوْضُوع	الصَّفْحَة
صُحْبَةُ العارِفِين	٦٧٧
كانَ اللهُ ولا شَيْءَ مَعَهُ	٦٨٨
النَّاسُ فِي المَدْحِ والذَّمِّ	٦٩٧
الخَوْفُ والرَّجاء	٧١١
دَلِيلُ الوِلايَة	٧٢٧
تَجْلِيَةُ الرَّقائِق فِي صُحْبَةِ أَهْلِ الأَذْواقِ والحَقائِق	٧٣٣
حَظُّ النَّفْسِ فِي المَعْصِيَة	٧٣٦
أَقْسامُ الرِّياء	٧٣٨
عَلامَةُ المُرائِي	٧٣٨
العارِفُ والفانِي	٧٤٥
أَدَبُ الطَّلَب	٧٤٨
الاكْتِفاءُ بِتَدْبِيرِ الحَقِّ	٧٥٢
كَلامُ اللهِ لِسَيِّدِنا داوُود عليه السلام	٧٦٠
النَّاسُ والحَقِيقَةُ والشَّرِيعَة	٧٦٤
الكَرامَةُ الحِسِّيَّة	٧٦٥

الصَّفْحَة	المَوْضُوع
٧٧٥	حُسْنُ التَّعْبِيرِ والقَبُول
٧٩٤	اخْتِيارُ أَحْسَنِ الأَمْرَيْن
٧٩٧	مِيزانٌ آخَرُ للعَمَل
٧٩٧	عَلامَةُ اتِّباعِ الهَوَى
٧٩٨	حِكْمَةُ تَوْقِيتِ الطَّاعات
٨٠١	حِكْمَةُ إِيجابِ الطَّاعَة
٨٠٤	التَّفاوُت فِي الطَّاعات
٨٠٩	مَتَى يَعْرِفُ قَدْرَ النِّعْمَة
٨١١	شُكْرُ النِّعَم
٨١٦	الإِخْلاصُ وسَبَبُه
٨١٩	التَّرْغِيبُ فِي تَحْصِيلِ الأَنْوار
٨٢٧	أَوْقاتُ العَبْد
٨٢٩	كَيْفَ يُقاسُ العُمْرُ ؟
٨٣٣	مَعْنَى وُصُولِ العَبْد
٨٤٠	الوارِدُ الإِلَهِي

المَوْضُوع	الصَّفْحَة
نَعِيمُ الرُّوح	٨٥١
دَوامُ الفَرَح	٨٥٦
تَشْبِيهُ الدُّنْيا	٨٦٠
العِلْمُ النَّافِعُ	٨٦٣
مِحْنَةُ الصُّوفِيَّة	٨٧٠
كَيْفَ تَدْفَعُ كَيْدَ الشَّيْطان ؟	٨٧٨
حِكْمَةُ ظُهُورِ النَّفْسِ	٨٨٢
التَّواضُــع	٨٨٤
مُحارَبَةُ النُّفُوسِ ومُجاهَدَتُها	٨٩١
الفَرْقُ بَيْنَ أَهْلِ الجَذْبِ والسُّلُوك	٩٠٨
النُّورُ ثَمَرَةُ الذِّكْر	٩١٥
مِقْياسُ العُمْر	٩٢٠
أَهْلُ الحِجابِ و أَهْلُ العِرْفان	٩٢٧





فَشَمِّرْ وَلُـذْ بِالْأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ

لَهُمْ مِنْ كِتَابِ الْحَقِّ تِلْكَ الْوَقَائِعُ

هُمُ الذُّخْرُ لِلْمَلْهُوفِ وَالكَنْزُ وَالرَّجَا

وَمِنْهُمْ يَنَالُ الصَّبُّ مَا هُوَ طَامِعُ

بِهِمْ يَهْتَدِي لِلْعَيْنِ مَنْ ضَلَّ فِي الْعَمَىٰ

بِهِمْ يُجْذَبُ الْعُشَّاقُ وَالرَّبْعُ شَاسِعُ

هُمُ الْقَصْدُ وَالْمَطْلُوبُ وَالسُّؤْلُ وَالْمُنَىٰ

وَإِسْمُهُمُ لِلصَّبْرِ فِي الْحُبِّ شَافِعُ


اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ وبارِكْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ
إِكْسِيرِ التَّوْبَةِ النَّصُوح
صَلاةً تَجْمَعُنِي بِها عَلَى شَيْخِ الفُتُوح
وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلِّمْ تَسْلِيما


اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ وبارِكْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ
المُصْطَفَى مِنْ خَيْرِ جِبِلَّة ،
صَلاةً دائِمَةً غَيْرَ مَقْطُوعَةٍ ولا مُضْمَحِلَّة
وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلِّمْ تَسْلِيما

دُونَكَ كِتابًا حَوَى مِنْ عُلُومِ الصُّوفِيَّة

مَا حَوَتْهُ العَرَبِيَّةُ مِنْ حُرُوفِ الأَبْجَدِيَّة



شركة الفتح للطباعة والنشر والتوزيع

محمد حسني متولي وشركاه

الإدارة : ٩٢ ش التحرير - ميدان الدقي - برج ساريدار - القاهرة

ت : ٣٣٣٨٨١١٩

المطابع : ١٠٥ ش داير الناحية - الدقي - القاهرة ت : ٣٣٣٨٤١١٦

الفرع : مدينة السادس من أكتوبر - حي حدائق أكتوبر ت : ٠١٠١٥٣٩٣٩٣٢

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠١٨ - ٤٥٥٢

الترقيم الدولي : ٩٨٧ ٩٧٧ ٥٨٤٢٤٣٩